المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية

المجلد الأول

الجذور والبدايات

تونس 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الآراء والأفكار التي تنشر بأسماء كتابها، لا تحمل بالضرورة وجهة نظر المنظمة.

الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية

المجلد الأول: " الجذورو البدايات "

الأمانة العامة للمجلس التنفيذي والمؤتمر العام

تونس - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 2005 (696 ص)

(I S B N. 9973-15-179-8)

تقديم المدير العام

التاريخ جزء من كيان كل أمة، منه تنطلق لتعيش حاضرها وتواجه غدها. لكن التاريخ، في نظر أمتنا العربية، أكثر من ذلك : فهو أحد القواسم المشتركة التي تؤسس لوحدتنا الثقافية وتؤكد انتماءنا لفضاء حضاري واحد من خلال ترابط المصير على امتداد قرون من الزمن.

من هذا المنطلق القومي بدت للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ضرورة إعداد هذا الكتاب المرجع في تاريخ الامة العربية الذي يسعدني أن أضع مجلده الأول بين يدي القارئ، باكورة عمل موسوعي طويل النفس أردناه مساهمة جدية من المنظمة في توفير المرجع العلمي الموضوعي في مادة ندرت فيها المراجع التي تتناول تاريخ العرب من وجهة نظر قومية شاملة وبأسلوب تحليلي رصين.

فقد عملنا في هذا المرجع من منطلق الإيمان العميق بوحدة الأمة العربية عبر العصور، وذلك بإظهار وحدة التيارات التاريخية والحضارية وترابط الأقطار العربية في مختلف مراحل التاريخ. كما حرصنا على إبراز الجانب الإنساني في تاريخ العرب، مركزين على الإنجازات الحضارية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية لأمتنا وما قدمته من إسهامات فاعلة في مسيرة الحضارة الكونية، مع التركيز على الجوانب المشتركة في هذا العطاء وعلى كل ما يؤكد عناصر وحدة الامة العربية.

وبصدور الأجزاء الأولى من الكتاب المرجع في تاريخ الامة العربية، ومن قبله الكتاب المرجع في جغرافية وطن عربي بدون حدود، تكون المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قد قطعت أشواطا هامة في المسيرة التي رسمتها من أجل إنتاج الكتب المرجعية والموسوعات المتخصصة التي تعرف بالوطن العربي في مختلف جوانبه وتؤكد على مظاهر وحدته، فضلا عن انها توفر المادة العلمية المرجعية لواضعي المقررات والكتب المدرسية في الوطن العربي، بما يحقق التقارب بين أبناء الأمة في مختلف الأقطار العربية.

ولم يكن لمثل هذه المشروعات الكبرى أن تشهد النور لولا حماس عدد من أبناء هذه الأمة. ولا بد لي في هذا الصدد، من توجيه شكر حار إلى الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى وقائدها العقيد معمر القذافي على ماقدمته للمنظمة من دعم مادي ومعنوي مكن هذا الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية من أن ينتقل من طور المشروع إلى طور الفعل والإنجاز.

ويمتد الشكر مستحقا إلى النخبة البارزة من العلماء والباحثين العرب الذين أسهموا في هذا العمل القومي الجليل بفكرهم وخبرتهم حتى يصدر على هذا النحو العلمي المشرّف، وكذلك إلى اللجنة العلمية للمشروع وأمانتها للجهد المبذول في التخطيط والمتابعة، بما حقق نجاح المشروع.

إنني إذ أقدم هذا العمل لأبناء أمتنا العربية فإنني أرجو أن يكون عملا نافعا يساهم في بناء فكر أبناء هذه الأمة ويعرفهم بماضيهم من أجل مستقبل هم فاعلوه .

وعلى الله قصد السبيل .

المدير العام

د . المنجي بوسنينة

تصدير

استمرارًا للمنهج الحكيم الذي اختطته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لنفسها وطمحت من خلاله الى إصدار سلسلة من المراجع العلمية التي تضيء واقع الوطن العربي ماضيه وحاضرهُ وتطلعاته المستقبلية ، تضع اليوم بين أيدي الباحثين والدارسين والمعنيين كتاب "المرجع في تاريخ الأمة العربية" ، الذي تفتقر اليه المكتبة العربية .. فليس بين المؤلفات المتداولة على مختلف المستويات ثمة كتاب يضم بين دفتيه تاريخ مسيرة الأمة منذ وجودها وبزوغ فجر حضارتها ويُعبر بصدق وأمانة عن اسهاماتها في مسيرة الحضارة الإنسانية ومواكبتها لمسيرة الحضارة المعاصرة وطموحها إلى استعادة دورها الحضاري الأصيل .

فالأمة إذاً بأمس الحاجة الى كتاب مرجع يتطرق الى شتى الجوانب التي تهم طالب المعرفة ؛ لأنّ المتوافر قد يُغني في ناحية مهمة ولكنه يعجز عن سد افتقار نواحٍ أخرى لا غنى للمثقف المعاصر عن الاطلاع عليها ؛ فقد يتخصص مصدر من المصادر المتداولة بتناول هذا الجانب أو ذاك من تاريخ الأمة ومنجزاتها واسهاماتها في موكب الفكر العالمي والإنساني ولكنه يغفل جوانب مهمة من ماضيها وحاضرها وانجازاتها ودورها في خدمة الحضارة العالمية .

ولابد من القول أنّ الأمة العربية كبقية الأمم الحية ربما مرت بعصور من التخلف والتدهور كما أنها شهدت عصور إزدهار حضاري ولكنها في الحالتين لم تنقطع عن تاريخها و لم تتوقف عن إنتاجها المعرفي.

لقد شهدت الأمة العربية مراحل حافلة بالعطاء علماً وفناً وثقافة وحسن معاش وتغير وجه التاريخ في زمن قليل وتطور الفكر تطوراً كبيراً في مدة قصيرة، وأخذ العرب يندفعون نحو العلا مواصلين سيرهم الحثيث ورقيهم الحضاري بدينهم السمح، وأدبهم الرائع ، حتى أنشأوا حضارة عظيمة لهم ولمن عاشوا في حماية دولتهم..

لقد ورث العرب المدنيات القديمة التي رست معالمها في وادي الرافدين وسواحل البحر الأبيض المتوسط وفي وادي النيل ناهيك عن شواطئ البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي واقتبسوا عن الاغريق والرومان والهنود والفرس القِيم من مآثرهم ، ثم أضافوا كثيراً مما ابتدعوه ثم نقلوا حضارتهم وثقافتهم الى أوربا التي كانت تعيش عصورها المظلمة فمنحوها قدرة التطلع إلى بزوغ فجر يقظتها العلمية التي لم يزل

العالم الغربي ومنه أمريكا يتمتع حتى اليوم بمعطياتها الرائعة. ولعل من أروع ما حافظ عليه العرب من تراث ، أفكار أرسطو وأفلاطون التي انتقلت عن طريقهم الى رواد النهضة الأوربية الحديثة ... ولم يقتصر عمل العرب على النقل ، بل تعداه الى شرح المعارف القديمة وتبويبها وتحليلها وتفسيرها والتعليق عليها..

لكن عوادي الناس والزمن تكالبت على أمة العرب من الشرق والغرب واستغلت الصراعات الداخلية التي أوهنت قدراتها فاستطاعت أن تنقض عليها، على الرغم مما أسدى أبناؤها من خير إلى الإنسانية جمعاء، وتمكنت تلك العوادي من تشتيتها لتسهل السيطرة عليها واستلاب خيراتها وارادتها ... ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد عمد أعداء الأمة إلى تشويه تاريخها وتقديمه على شكل صراعات قبلية، أو مذهبية بعيدة كل البعد عن حقيقة مسيرة الحضارة التي وضعت أسسها، وجوهر القيم والمنطلقات الروحية التي أرست قواعدها وازدهرت تحت لوائها.

من هنا جاءت الحاجة الى مؤلف جامع شامل يُعبر بحق عن جذور الأمة وتشكلها وامتداد عطائها عبر التاريخ وتواصلها الحضاري والمعرفي... وكان لابد أن تشارك في كتابة مادة هذا الكتاب نخبة من المؤرخين ممن يؤمنون بوحدة الأمة ودورها في بناء الحضارة الإنسانية وتواصلها مع حضارات الأمم الأخرى .. لكي يُكشف عن وحدة روافد التاريخ العربي وتياراته السارية عبر عصورها ويعزز الترابط والتواصل بين أقطارها .

والكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية لأيُعد موسوعة شاملة فحسب ولا يمثل كتاباً منهجياً ينبغي أن تحدث معلوماته بين الحين والآخر ولكنه في حقيقة الأمر يمثل عملاً مكثفاً موثقاً وفق المنهج التاريخي والرؤية الموضوعية يتيح للقارئ الوصول الى الحقائق التاريخية بيسر وسهولة ودليلاً يُستهدى به ويُسترشد في التعرف الواعي على جميع الحقائق التاريخية والحضارية ذات الصلة بتاريخ الأمة ووجودها .. ومن هنا جاءت الحاجة الى تكثيف المادة العلميةوتبسيطها مع التركيز على ابراز الثوابت العلمية الإيجابية منها والسلبية في إطار موضوعي.

وقد اضطلع بتحرير مواد الكتاب المرجع ما يقرب من مائتي عالم وباحث متخصص كل في مجاله ومن مختلف أقطار الوطن العربي الكبير وراجع ما كتبوه عدد من المتخصصين كما قامت هيئة تحرير المجلدات بقراءة المادة وتنسيق البحوث وتشذيبها وتحاشي التكرار فيها دون التدخل قدر الإمكان فيما كتبه المتخصصون ... بحيث تبقى البحوث معبرة عن رأي أصحابها وتكتسب هوية نتاجهم، فالعمل في مجمله مشترك جماعي، والمسؤولية موزعة بين الكتّاب أنفسهم وليس للجنة العلمية وهيئة التحرير إلا فضل التنسيق

والترتيب وتوحيد المنهج وتبسيط الأسلوب بقدر ما يعين عليه الجهد وتبلغه الطاقة .

إنّ هذا السِفر الذي عملت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الى جانب ما صدر من " كتاب المرجع في جغرافية وطن عربي بلا حدود وموسوعة أعلام العرب — " على إصداره مع بزوغ نور القرن الحادي والعشرين يُعد فاتحة عهد جديد في مسيرة المنظمة ويقودها إلى إصدار موسوعتها العربية الكبرى التي تفتقر إليها أمتنا في وقت تتعرض فيه إلى هجمة شرسة تستهدف تاريخها وقيمها وهويتها بل ووجودها كله .

وقد ارتأت اللجنة العلمية لكتّاب المرجع أن تعبر عناوين مجلدات المرجع السبعة عن حقيقة الواقع التاريخي فجاءت على النحو الآتي :

الجذور والبدايات ؛ الإسلام وبناء الدولة العربية؛ الأمة العربية — الأوج والازدهار-؛ الأمة العربية —الضعف والتحدي- ؛ الأمة العربية في العصر العثماني؛ الأمة العربية —التحديث والأخطار الأجنبية- ؛ الأمة العربية في القرن العشرين ...

وهذه المجلدات لا يستقل كل منها عن الآخر ولا يمثل كل واحد منها عملاً قائماً بذاته وإنما هي سلسلة متماسكة استهدت بالتطور التاريخي وتابعت مسيرته متابعة منهجية واعية ..

ولا يسع اللجنة العلمية لكتّاب المرجع إلا أن تتقدم بخالص شكرها وتقديرها الى العلماء والباحثين العرب من شتى أقطار البلاد العربية الذين استجابوا لندائها ، وأسهموا بكل اهتمام في تقديم محاولة جادة لرسم الصورة الممكنة لتاريخ امتهم ليكون ما كتبوه مرجعا يعيد إلى الأمة ثقتها بنفسها وتاريخها ويمكنها من الوقوف بثبات وإيمان بوجه التيارات المعادية الساعية للنيل منها .

وتتوجه اللجنة العلمية لكتاب المرجع بالشكر للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ممثلة في مديرها العام الأستاذ الدكتور المنجي بوسنينة وسلفه الأستاذ محمد الميلي، وإلى معاونيه في الأمانة العامة للمجلس التنفيذي والمنسق العام للمشروع الأستاذ وجدي محمود ومعاونيه الذين تابعوا بكل إخلاص وبعطاء غير محدود مراحل المشروع، والشكر واجب ومقدر للجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمى التي مولت هذا المشروع الكبير والذي لولا دعمها ومساهمتها ما كان ليصدر في هذه الصورة .

إن اللجنة العلمية إذ تتقدم بالشكر إلى الجميع مقدرة عظيم إسهاماتهم وفضل مشاركتهم فإنها تأمل أن يكون هذا السفر علامة عظيمة على درب عطاء الفكر العربي وخدمة جارية على طريق كتاب تاريخ الأمة مستهدين بقول أكرم الأكرمين (وقُل اعمَلوا فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُم ورَسُولُهُ والمؤمِنونَ) صدق الله العظيم .

المشرف العام: الأستاذ الدكتور المنجي بو سنينة
المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

المشاركون في التأليف (وفق ترتيب الأبحاث)

1- أ.د. عامر سليمان إبراهيم (العراق)
قسم الآثار / كلية الآداب جامعة الموصل

2- أ.د. يوسف مختار الأمين (السودان)
كلية الآداب - جامعة الملك سعود

3- أ.د. سلطان محيسن (سوريا)
كلية الآداب – جامعة دمشق، دمشق

4- أ.د. عبد الرزاق قراقب (تونس)
وحدة إحياء التراث والتنمية الثقافية – تونس

5- أ.د. عبدالله بن محمد الشارخ (السعودية)
كلية الآداب - جامعة الملك سعود

6- أ.د. عبدالقادر محمود عبد الله (السودان)
جامعة السودان المفتوحة – الخرطوم

7- أ.د. فاضل عبدالواحد علي (العراق)
كلية الآداب - جامعة بغداد

8- أ. د. فيصل عبدالله (سوريا)
قسم التاريخ- كلية الآداب - جامعة دمشق

9- أ.د. عبدالمنعم عبدالحليم سيد (مصر)
قسم التاريخ - كلية الآداب- جامعة الإسكندرية

10- أ.د. محمد حسين فنطر (تونس)
رئيس كرسي الرئيس زين العابدين بن علي لحوار الحضارات – تونس

11- أ. د. عباس سيد أحمد محمد (السودان)
كلية الآداب جامعة الملك سعود

12- أ.د. نبيل توفيق بدر (الأردن)
كلية الآثار والأنثروبولوجيا - جامعة اليرموك - إربد

13- أ. د. أبو اليسر عبدالعظيم فرح (مصر)
كلية الآداب - جامعة عين شمس

14- أ. د. محمد بشير شنيتي (الجزائر)
كلية العلوم الإنسانية- جامعة الجزائر

15- أ.د. هتون أجواد الفاسي (السعودية)
كلية الآداب - جامعة الملك سعود

16- أ.د. حسين بن علي أبوالحسن (السعودية)
الهيئة العليا للسياحة- الرياض

17- أ.د. يوسف محمد عبدالله (اليمن)
كلية الآداب - جامعة صنعاء

18- أ.د. عرفان شهيد (فلسطين)
Dept of Arabic Language, Literature and Linguistics, George Town Univ-USA

19-أ.د. سالم بن أحمد طيران (السعودية)
قسم الآثار والمتاحف- كلية الآداب- جامعة الملك سعود - الرياض

20- أ.د. محمد سلطان العتيبي (السعودية)
كلية الآداب - جامعة الملك سعود

21- أ. د. محمود عبدالله الجادر (العراق)
كلية الآداب - جامعة بغداد

22- أ.د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري (السعودية)
كلية الآداب- جامعة الملك سعود

23- أ.د. فرج الله أحمد يوسف (مصر)

المراجعة العلمية : الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري
الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبد الله

التحرير النهائي : الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري

المدير التنفيذي : الأستاذ وجدي محمود
الأمين العام للمجلس التنفيذي والمؤتمر العام

اللجنة العلمية
لمشروع الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية

أ.د.أحمد يوسف أحمد
أستاذ العلاقات الدولية ومدير معهد البحوث والدراسات العربية - مصر

أ.د.إدريس الحرير
"نائب رئيس اللجنة العلمية"
أستاذ التاريخ بجامعة قاريونس- ليبيا

أ.د.أبو القاسم سعد الله
أستاذ التاريخ بجامعة الجزائر – الجزائر

أ.د.بهجة كامل عبداللطيف
أستاذ التاريخ بكلية الآداب – جامعة بغداد- العراق

أ.د.خيرية قاسمية
"مقررة اللجنة العلمية"
أستاذة التاريخ بجامعة دمشق – سوريا

أ.د.راضي دغفوس
أستاذ التاريخ بكلية 9 ابريل – تونس

أ. د. رووف عباس حامد
أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة – مصر

أ.د.عبدالرحمن الطيب الأنصاري
"رئيس اللجنة العلمية"
أستاذ الآثار
في قسم الآثار والمتاحف – جامعة الملك سعود – السعودية

أ. د. محمد إبراهيم أبو سليم
"يرحمه الله"
أستاذ التاريخ المعاصر – دار الوثائق – السودان

أ.د.يوسف محمد عبدالله
أستاذ التاريخ – جامعة صنعاء – اليمن

أ. د. يونان لبيب رزق
أستاذ التاريخ ورئيس قسم الدراسات التاريخية بمعهد البحوث والدراسات العربية – مصر

التمهيد

الوطن العربي في عصور ما قبل التاريخ

- عصور ما قبل التاريخ في وادي الرافدين.
- عصور ما قبل التاريخ في وادي النيل.
- عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام.
- عصور ما قبل التاريخ في بلاد المغرب.
- عصور ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية.

عصور ما قبل التاريخ في وادي الرافدين

التسمية :

يعنى التاريخ بدراسة حياة الإنسان ونشاطاته المختلفة منذ أن وجد على الأرض، وتتبعها عبر العصور الطويلة. ونظرًا لطول المدة الزمنية التي عاشها الإنسان على الأرض والتي تقدر الآن بحوالي أكثر من 6.900.000 سنة ولكثرة المخلفات المادية التي تركها لنا وتنوعها، وتيسيرًا لمتابعة تطور نمط عيشه؛ قسم التاريخ عامة إلى قسمين رئيسين، عُدَّ ابتكار الكتابة حدًا فاصلاً بينهما . فأما القسم الأول، فيضم الجزء الأعظم من عمر الإنسان على الأرض، وقد سمي بعصور ما قبل التاريخ، ويبدأ من بدء حياة الإنسان على الأرض وينتهي بابتكار الكتابة واستخدامها وسيلة للتدوين. وقد قدر الباحثون المدة الزمنية التي شغلتها عصور ما قبل التاريخ بأكثر من 99% من عمر الإنسان على الأرض، إلا أنه لا يمكن تحديد تاريخ البداية على وجه الدقة. ونظرا لتباين تاريخ ابتكار الكتابة، أو اقتباسها واستخدامها من بلد إلى آخر ، فقد اختلف تاريخ نهاية هذه العصور اختلافًا كبيرًا وفقًا لذلك. وكان الوطن العربي أو المناطق الأخرى في العالم التي شهدت ابتكار الكتابة في كل من بلاد الرافدين ووادي النيل في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، وكان ذلك إيذانًا بقرب نهاية عصور ما قبل التاريخ فيها، إذ سرعان ما انتشر استخدامها، ودونت بها مختلف شؤون الحياة، في حين ظلت بلدان العالم الأخرى تعيش في عصور ما قبل التاريخ مددًا طويلة أخرى امتد بعضها إلى القرن الأول قبل الميلاد، كما هي حال القسم الشمالي من أوربا الذي لم يعرف الكتابة إلا حينئذ، وما زال هناك أقوام لا تعرف استخدام الكتابة إلى الآن ولا سيما في إفريقيا وأستراليا، فهي مازالت وفق هذا التحديد تعيش في عصور ما قبل التاريخ.

وفي بلاد الرافدين وفي وادي النيل، كان أول ابتداع للعلامات الكتابية التي عرفت فيما بعد بالكتابة المسمارية (Cuneiform Writing) في العراق والهيروغليفية في مصر في حدود 3500 ق.م، وإن كان هناك اختلاف بين الباحثين في تحديد تاريخ اقدم الألواح الطينية التي تحمل علامات صورية. وحيث إن الكتابة في مراحلها الأولى لم تكن شائعة ومستخدمة على نطاق واسع، كما لم تكن تستخدم إلا لتدوين شؤون اقتصادية محدودة، لذلك عد الباحثون المدة الواقعة بين تاريخ ابتكار أول العلامات الصورية التي وجدت على رقم الطين المكتشفة في مدينة الوركاء/ الطبقة الرابعة في القسم الجنوبي من العراق، وبين تاريخ شيوع استخدام الكتابة لتدوين مختلف شؤون الحياة في بداية الألف الثالث قبل الميلاد مدة انتقال حضاري من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية، وأطلقوا عليها مصطلح العصر" الشبيه بالكتابي" (Proto-Literate) أو الشبيه بالتاريخي (Proto-historic) والتي تقدر بحوالي خمسة قرون، ومع نهاية هذا العصر تنتهي عصور ما قبل التاريخ وتبدأ العصور التاريخية التي تمتد إلى وقتنا الحاضر.

أما بلاد الرافدين فيقصد منها الأراضي الواقعة ضمن حدود القطر العراقي الحالية تقريبًا، ويقصد بالرافدين النهرين العظيمين دجلة والفرات، وهو يضم جميع الأراضي الواقعة بين النهرين الكبيرين دجلة والفرات وما حولهما، وبذلك فإن أراضيه تتوزع حاليًا في قطرين عربيين هما سوريا والعراق في حين استخدم مصطلح " بلاد الرافدين" الذي نرى أنه أدق لغويًا وتاريخيًا عند الحديث عن تاريخ العراق القديم. كما شاع استخدام تسمية "بلاد ما بين

النهرين" وهي تسمية وراثية الأصل وترجمة حرفية للمصطلح اليوناني " ميزوبوتاميا" بين الأجانب عامة، واستخدمها عدد من الباحثين العرب على الرغم من عدم دقتها جغرافيًا وتاريخيًا.

أما تسمية العراق فقد شاع استخدامها منذ القرن الخامس الميلادي فصاعدًا واكتسبت معناها الحالي منذ مطلع القرن العشرين، ويظن أن أصل التسمية قديم يرقى إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد في أقل تقدير. ويضم العراق حاليًا ما كان يعرف ببلاد بابل وآشور.

مصادر معلوماتنا عن عصور ما قبل التاريخ :

إن تاريخ الإنسان عامة، يضم إلى جانب كونه سجلاً لأحداث الماضي وتحديد أزمنتها، دراسة لأحوال المجتمعات البشرية الماضية، وتحليلها ومعرفة ما حققه الإنسان من منجزات حضارية، و ما تركه من تأثيرات في حياة المجتمعات الأخرى. لذا فإن معلوماتنا عن التاريخ بمفهومه الواسع مستمدة من جميع ما خلفه الإنسان من آثار ومما تركه من نصوص .. وقد يستعان بعدد من العلوم المساعدة الأخرى للحصول على معلومات إضافية.

إن معلوماتنا عن تاريخ بلاد الرافدين القديم كانت حتى أواسط القرن التاسع عشر قليلة جدًا وغير موثوق بها في الأغلب، إذ لم تكن تتعدى ما ذكرته الكتب القديمة من قصص وأساطير حول الحكام والملوك الأوائل، ولا سيما ما ذكره كتاب العهد القديم، وما دونه الكتاب الكلاسيكيون من قصص خيالية عن السكان الأوائل، وما سمعناه عنهم من روايات تخص التاريخ القديم.

ومنذ أن بدأت أعمال التنقيب في بداية القرن التاسع عشر فتحت نوافذ جديدة ألقت الضوء على تاريخ بلاد الرافدين القديم وحضارته، وزودتنا بمصدر جديد للمعلومات تميز بمعاصرته الأحداث والتطورات الحضارية؛ فاتصفت المعلومات المستنبطة بالدقة النسبية، إلا أن الهدف الأساس من أعمال التنقيب التي جرت في القرن التاسع عشر تركز على الكشف عن الآثار المادية المتحفية والكنوز الذهبية، ومحاولة الربط بين ما جاء في أسفار العهد القديم وما يكشف عنه من آثار في محاولة لتأكيد صحة ما ورد في تلك الأسفار وأصالته . ولقد تم فعلاً الكشف عن معظم المدن القديمة مثل : نينوى، وكلخ، وآشور، وبابل، وغيرها في كتاب العهد القديم وكشف فيها عن آثار غاية في الروعة تمثلت بالتماثيل والمسلات والمنحوتات الجدارية البارزة والحلي الذهبية والقصور والمعابد والأسوار والبوابات وما يزينها من منحوتات لمخلوقات خرافية مجنحة نقلت معظمها متاحف أوروبا وأمريكا. وكانت النصوص المسمارية التي وجدت مدونة على ألواح الطين والحجر من أثمن ما تم الكشف عنه من آثار في بلاد الرافدين ومواقعها؛ إلا أن جميع هذه الآثار والمواقع خاصة بالعصور التاريخية ولا سيما عصور الألفين الثاني والأول قبل الميلاد . أما مواقع عصور ما قبل التاريخ التي لا يتوقع أن يعثر فيها على آثار متحفية أو كنوز ذهبية أو بنايات عامة فقد عزف المنقبون الأوائل عن التنقيب فيها ولم يبدأ الاهتمام بها إلا منذ مطلع القرن العشرين عندما اتجهت بعثات التنقيب الأجنبية إلى التنقيب في عدد من الكهوف والمغارات ومواقع الاستيطان الأخرى التي تمثل أقدم القرى الزراعية مثل : جرمو، وحسونة، والاربجية، وغيرها.

إن معلوماتنا عن عصور ما قبل التاريخ في الوقت الحاضر مستمدة بالدرجة الأساس مما كشفت عنه التنقيبات الأثرية من مخلفات مادية بسيطة كالآلات، والأدوات المصنوعة من الحجر أو العظم والأواني الفخارية، والدمى الطينية، والهياكل العظمية البشرية وعظام الحيوانات وما ضمته القبور من تجهيزات الدفن وما نقشه إنسان تلك العصور من رسوم وزخارف حيوانية ونباتية وهندسية على الجدران أو الأواني وكل ما خلفه الإنسان من آثار في مواقع سكناه في الكهوف والمغارات وما بناه من بيوت بسيطة مشيدة بالطين والحجر؛ فضلاً عما ذكرته النصوص المسمارية المتأخرة من أخبار عن العصور المبكرة كالمعلومات التي ذكرتها جداول الملوك السومريين التي

دونت في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد إلا أنها ضمت أسماء الملوك الذين حكموا البلاد في عصور ما قبل التاريخ. وما تحدثت عنه بعض القصص والأساطير الدينية من أحداث وقعت بالتأكيد في عصور ما قبل التاريخ مثل حادثة الطوفان التي فصلت في الحديث عنها العديد من النصوص السومرية، والأكدية وفي مقدمتها ما ورد عنها في ملحمة جلجامش وكذلك الأساطير التي تحدثت عن حكام أو شخصيات أسطورية يفترض أنها عاشت في عصور ما قبل التاريخ أو عن كيفية خلق الكون أو الإنسان.

إلى جانب ذلك أفاد الباحثون من معطيات عدد من العلوم المساعدة الأخرى في تحديد أزمنة عصور ما قبل التاريخ من خلال فحص ما كشف عنه من آثار عضوية: الهياكل العظمية البشرية ، وعظام الحيوانات، وبقايا الأخشاب والحبوب المتفحمة. وذلك بحساب عمر هذه المواد حسابا تقريبيا بواسطة أجهزة إلكترونية حديثة مثل جهاز قياس النظائر المشعة الموجودة في مثل هذه البقايا (14) وكذلك الإفادة من علم طبقات الأرض في معرفة تاريخ عدد من المواقع.

ومع كثرة الآثار المادية المكتشفة وتنوعها إلا أنها تبقى آثارا صماء لا تفصح إلا عن جوانب محددة من حياة الإنسان المادية ، إذ يمكن أن نتعرف من خلالها عن نمط حياة الإنسان وطرائد صيده وأنواع مزروعاته وأسلوب بنائه للبيوت والمعابد إلا أنه لا يمكن من خلال الآثار المكتشفة أن نتعرف إلى أفكار إنسان عصور ما قبل التاريخ ومعتقداته ومعارفه اللغوية والأدبية وعاداته الاجتماعية وتقاليده وغير ذلك من الجوانب غير المادية التي كانت تحكم تصرفات الإنسان وتوجه حياته.

المهاد الجغرافي وأثره في تاريخ الإنسان وتطور الحضارة:

لقد كان للمهاد الجغرافي الذي عاش في كنفه إنسان وادي الرافدين القديم أثر كبير في تاريخه وفي نشوء حضارته وتطورها وطبعها بطابع خاص ميزها عن غيرها من الحضارات.

فتكوين الأرض يحدد تاريخ استيطان الإنسان في هذا الجزء من العالم القديم بشكل تقويمي كما يحدد توزيعه على المناطق والأقاليم الجغرافية المختلفة فيه. وتشير دراسة طبقات الأرض إلى أن أرض الرافدين كانت في وقت ما مطمورة بالمياه حتى أواخر الدهر الجيولوجي الأول ثم بدأت مياه البحر في الانحسار التدريجي، وظهرت الأجزاء الشمالية والشمالية الشرقية المتمثلة بالمنطقة الجبلية وذلك في أواخر الدهر الجيولوجي الثاني واوائل الدهر الجيولوجي الثالث. وتكاملت عملية ظهور المنطقة الجبلية في الدهر الجيولوجي الرابع في دوره الأخير المسمى بلايستوسين وهو الدور الذي تقع فيه العصور الجليدية والعصر الحجري القديم بأقسامه، وكانت المنطقة صالحة لاستيطان الإنسان وهذا ما أثبتته الكشوفات الأثرية الحديثة. أما المنطقة الوسطى والجنوبية من بلاد الرافدين وهي المنطقة التي تعرف عادة بالسهل الرسوبي، فقد كانت وفق النظرية التي كانت سائدة حتى أواسط القرن العشرين، عبارة عن منخفض حوض تغمره مياه البحر حتى أواخر العصور الحجرية . وكان ساحل البحر يمتد إلى الخط الوهمي الذي يصل بين هيت على الفرات وسامراء على دجلة. ونتيجة لتراكم الترسبات الغرينية التي يحملها باستمرار النهران الرئيسان دجلة والفرات تكون السهل الرسوبي تدريجياً وزادت مساحة الأرض اليابسة وانحسر ساحل الخليج نحو الجنوب حتى أصبح في العصر الحجري المعدني يتمثل بالخط الوهمي الذي يصل أور بالعمارة أي أن أراضي السهل الرسوبي لم تكن وفق هذه النظرية صالحة للاستيطان قبل الأف الخامس قبل الميلاد؛ لأنها كانت مغمورة بالمياه.

وفي عام 1952م قدمت نظرية جديدة عن تكوين السهل الرسوبي تناقض النظرية السابقة تماما ملخصها : أن حدود ساحل الخليج العربي لم تكن في أي وقت مضى أبعد شمالا مما هي عليه الآن، بل إن ساحل الخليج كان على

العكس من ذلك يقع إلى جنوب حدوده الحاضرة، وأن اليابسة في تناقص مستمر، نتيجة التعرية المستمرة والتآكل الذي تحدثه المياه في مصبات الأنهار، وأن السهل الرسوبي هو في هبوط وانخساف مستمرين و متوازنين مع تراكم الترسبات الغرينية بصيغة تحافظ على مستوى السهل الرسوبي. وإذا كانت الحال كذلك وهذا ما يؤيده معظم الباحثين في الوقت الحاضر، فمن المحتمل جدًا أن مياه الخليج في الوقت الحاضر تغطي معالم استيطان الإنسان في العصور القديمة جدًا ، وأن التنقيبات المقبلة في قاع الخليج قد تكشف عنها في المستقبل وإلى جانب هاتين النظريتين الرئيسين بشأن تكوين السهل الرسوبي والخليج العربي هناك نظرية ثالثة ترى : أن مياه الخليج أصبحت نتيجة انخفاض درجات الحرارة الكبير في العصر الجليدي الرابع (14000-13000 ق.م) وانجماد المياه دون مستوياتها الحاضرة بأكثر من مائة متر، وحيث إن عمق الخليج لا يزيد على مائة متر وكان في ذلك الوقت منخفضًا جافًا. وفي نهاية العصر الجليدي الأخير ساد الدفء وذابت الثلوج وعادت المياه إلى ما كانت عليه، وارتفعت مستوياتها وأخذ الخليج يمتلئ تدريجيا حتى وصل إلى مستواه الحالي بحدود 5000ق.م، وكيفما كان تكوين السهل الرسوبي ، فقد بدأ سكن الإنسان فيه منذ الأف الخامس قبل الميلاد وفق نتائج التنقيبات التي أجريت في الكثير من مواقعه كما دلت التنقيبات فيه وفي بعض جهات شبه الجزيرة العربية الساحلية وأقطار الخليج العربي على وجود اتصال وثيق بين سكان المنطقة برمتها منذ وقت مبكر جدًا ؛ عمل على نقل العديد من العناصر الحضارية من وإلى السهل الرسوبي.

كان لموقع بلاد الرافدين وخصائصها الجغرافية البارزة تأثير كبير وواضح على تاريخ الإنسان فيها وعلى توجيه الأحداث التاريخية والتطورات الحضارية. فبلاد الرافدين وبقية أجزاء الوطن العربي هي من الأماكن القليلة في العالم التي يظهر فيها تأثير البيئة الجغرافية على التاريخ واضحًا. فقد كانت نشاطات الإنسان في هذه المنطقة، كما نرى مشروطة ومحدودة إلى درجة كبيرة بما كانت تمليه طبيعة الأرض وطبيعة تربتها. وكمية الأمطار، ومناطق توزيعها، وخطوط توزيع الينابيع والآبار، ومسارات الأنهار وفيضاناتها، وملاءمة المناخ أو تقلباته، ومدى تأثير ذلك على الزراعة. إن تأثير البيئة الجغرافية، مع ذلك، لا يعني أنه كان لها الدور الأول والأساس في نشوء الحضارة في هذه المنطقة وتطورها، بل إن العامل الفاعل والأساس في نشوء الحضارات الأصيلة في الوطن العربي ومنها حضارة بلاد الرافدين ووادي النيل، كان وما زال هو الإنسان. ولعل دور الإنسان العراقي القديم في وضع الأسس التي قامت عليها حضارته الأصيلة كان أكبر وأعمق أثرًا من غيره، لما امتازت به طبيعة أرض الرافدين الجغرافية، ولا سيما القسم الجنوبي منها، من عنف وقسوة، وتباين، وتطرف، مما جعل مهمة تسخيرها لخدمة الإنسان والحد من تأثيرها عليه مهمة صعبة جدًا استلزمت تضافر الجهود، وبذل المزيد من العمل المثابر الدؤوب. والدخول في صراع عنيف مع عوامل الطبيعة المختلفة وهذا ما تعكسه القصص والأساطير الدينيّة التي خلفها لنا السومريون والأكديون، (سكان البلاد الأوائل)، وكانت الغلبة في النهاية للإنسان، وكانت النتيجة نشوء حضارة أصيلة لا تضاهيها إلا حضارات الوطن العربي الأصيلة الأخرى.

فموقع بلاد الرافدين بين منطقتين متشابهتين من حيث افتقارهما للموارد الطبيعية نسبيًا على الرغم من اختلافهما البين في المناخ والتضاريس، والمتمثلتان بالمنطقة الجبلية في أطراف البلاد الشمالية والشمالية الشرقية، ومنطقة البوادي الصحراوية في الأطراف الغربية والجنوبية الغربية، جعل من أرض الرافدين منطقة جذب سكاني، ومحط أنظار الأقوام القاطنة في تلك المنطقتين، إلى جانب ذلك، فقد كان السهل الرسوبي إقليمًا مفتوحًا لا يحجزه عن المناطق المحيطة به أي حاجز طبيعي، باستثناء نهر دجلة بالنسبة للمنطقة الشرقية ونهر الفرات بالنسبة للمنطقة الغربية، فتتابعت هجرة الأقوام القادمة أصلا من شبه

الجزيرة العربية عن طريق بلاد الشام على مرّ العصور إليه حتى غدت تلك الأقوام تكون الجزء الأعظم من سكان بلاد الرافدين في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد. كما تعرضت بلاد الرافدين إلى غزو مستمر من القبائل الجبلية القادمة من الشرق والشمالي الشرقي؛ إذ لم تقم في البلاد حكومة مركزيّة موحدة تحمي الحدود وتصون المدن ضدّ أيّ اعتداء خارجي وقد سجلت لنا العصور التاريخية المتتابعة تعرّض السهل الرسوبي للغزو الخارجي القادم من الأقوام الجبلية القاطنة في الجهات الشرقية؛ فكان غزو الأقوام الكوتيّة في القرن الرابع والعشرين والعيلاميّة في القرن العشرين، والكشيّة في أواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد، وتبع ذلك تعرّض البلاد لغزو الأقوام الفارسيّة الإخمينيّة والفرثية، والساسانية القادمة من الشرق أيضا حتى كان تحرير أرض الرافدين على أيدي الجيوش العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي.

وكان لطبيعة أرض بلاد الرافدين وطبيعة أنهارها الأثر الكبير في نشوء أولى أنظمة الحكم. كما كان لتعدد الأنهار، وكثرة تفرعاتها أن توزع السكان على المناطق المختلفة وتركزت كثافة السكان عامة على ضفاف نهر الفرات دون دجلة؛ نظرًا لقلة انحداره التي كانت تقلل من خطر فيضانه، وانخفاض الأراضي المحيطة به ممّا سهل عملية ريها.

وكان من نتائج افتقار بلاد الرافدين، ولا سيما سهلها الرسوبي، إلى المواد الخام الضرورية لقيام الحضارة ونموها، كالمعادن، والأخشاب، والأحجار الجيدة؛ أن نشط السكان في الاتصال بالبلدان الأخرى، لتوفير تلك المواد وجلبها عن طريق الحرب أو السلم، فكان ذلك من عوامل نشاط التجارة الخارجية وإلى قيام الحكّام والملوك بالحملات العسكرية لضمان سلامة طرق المواصلات وأمنها والسيطرة على مصادر المواد الخام كما كان من نتائج ذلك أن قامت الممالك الكبرى التي وحدت بلاد الرافدين وامتدت بنفوذها إلى الأقاليم المجاورة كما كان من نتائجها نشوء عدد من المراكز التجارية البابلية أو الآشورية في الأقطار المجاورة، كما أثبتت ذلك التنقيبات الأثرية.

وكانت قسوة الطبيعة، وصعوبة السيطرة عليها، وتسخيرها لخدمة الإنسان عاملاً محفزًا لابتكار العديد من المنجزات الحضارية التي ساعدت على ذلك، ويسرّت طرق السيطرة على الطبيعة، وكان لتلك الطبيعة القاسية أيضا أثرها في معتقدات القوم الدينية، وتصوراتهم، واتجاهات تفكيرهم، فجاءت القصص والأساطير الدينية وهي مليئة بالصراع والاحتراب من أجل البقاء والتفكير بالحياة الدنيا دون الآخرة. كما طبعت قسوة الطبيعة نفسية الإنسان بطبيعة خاصة اتسمت بالعنف، والتوتر، والتأزم وتوقع المفاجئات، والتشاؤم مما قد تخبئه الأقدار.

وكان لطبيعة أرض الرافدين الرطبة أن تلفت معظم المواد العضوية التي خلفها السكان. ونظرًا لقلة مادة الحجر فيه اتجه السكان إلى استخدام الطين مادة أساسية للبناء، وكان لذلك آثاره الواضحة على تهدم الأبنية وزوالها بعد مدة قصيرة مقارنة مع الأبنية التي كانت تشيّد بالحجر؛ إلا أنه كان لاستخدام الطين مادة أساسية للتدوين أثره في بقاء معظم الألواح الطينية المكتوبة إلى الوقت الحاضر ولو قدر للعراقيين القدماء أن استخدموا ورق البردي والجلود للكتابة كما فعل إخوانهم في وادي النيل، لما حفظت لنا تربة بلاد الرافدين أيا من النصوص الكتابية.

العصور الحجرية:

مع قلة المعلومات المتيسرة عن عصور ما قبل التاريخ موازنة مع ما هو لدينا عن العصور التاريخية في بلاد الرافدين وفي بقية أجزاء الوطن العربي والعالم، تمكن الباحثون من تمييز عدد من العصور المتتابعة مرّت على الإنسان خلال عمره الطويل على سطح الأرض أطلقوا عليها اسم "العصور الحجريّة". وقد اشتق الاسم من المادة الأساسية التي استخدمها الإنسان في صناعة آلاته وأدواته البسيطة، إلى جانب المواد الأخرى سريعة التلف كالأخشاب، والجلود، والعظام. واعتمد الباحثون في تقسيم العصور الحجريّة على نوع الآلات، والأدوات المكتشفة، وشكلها، وطريقة صنعها وزخرفتها، وعلى ما تعكسه من أنماط الحياة التي عاش الإنسان فيها وكيفية حصوله على

الغذاء؛ فقسّموا العصور الحجريّة عامة إلى أربعة عصور رئيسة، هي: العصور الحجريّة القديمة، والوسيطة والحديثة، والعصر الحجريّ المعدنيّ .. وحددّوا لكل من هذه العصور مدة زمنية معينة تختلف من بلد إلى آخر تبعًا لاختلاف المكتشفات المادية وما تعكسه من تطور في حياة الإنسان، كما ميّزوا عددًا من الأطوار والأدوار في العصر الحجري القديم استنادًا إلى اختلافات تفصيلية لوحظت على صناعة الآلات والأدوات الحجرية وغيرها من مخلفات الإنسان، وأطلقوا على كل دور من تلك الأدوار اسم الموقع الذي اكتشفت فيه آثار ذلك الدور لأول مرة. ونظرًا لأن اكتشاف بقايا إنسان العصور الحجرية القديمة قد حدث في أوربا قبل غيرها من المناطق، فقد أطلقت أسماء المواقع الأوربية عليها، واستخدمت التسميات نفسها للدلالة على الآثار المشابهة أينما وجدت في مختلف أرجاء العالم بما فيها الوطن العربي، فقيل آثار الدور الأورغنيشي أو المكدليني أو المستيري، وهي أسماء مواقع أوربية. وفي السنين الأخيرة عمد الباحثون العرب إلى إطلاق أسماء مواقع محليّة على عدد من الأدوار، مثل: إنسان شانيدار أو الكرمل، وصناعة زرزي، وغيرها وهي أسماء كهوف وجبال تقع في الوطن العربي.

العصر الحجري القديم (Palaeolithic) :

وهو أقدم العصور التي عاش الإنسان فيها، ويبدأ من أقدم وجود للإنسان على الأرض، ولا يعرف تاريخ البداية على وجه الدقة، إذ اختلفت آراء الباحثين وتغيرت تبعًا للمكتشفات الأثرية المستمرة، إلا أن هناك شبه إجماع على أنه ينتهي بحدود الألف العاشر قبل الميلاد عندما بدأ الإنسان إنتاج القوت من خلال الزراعة والتدجين.

كانت حياة الإنسان في العصر الحجري القديم بأطواره المختلفة، والتي شغلت الجزء الأعظم من عمره على الأرض بسيطة جدًا وبدائية وبطيئة التطور، وقد تمكن الإنسان خلالها، مع ذلك، بما اتصف به من عقل وقدرة على الكلام، والتفاهم، وانتصاب القامة، والقابلية على صناعة الآلات والأدوات والأسلحة البسيطة بيديه الماهرتين، من تيسير سبل العيش والحياة في ظل الظروف البيئية المختلفة والقاسية. وكان اعتماده في توفير الغذاء على جمع القوت؛ لذا سمي العصر أحيانا عصر جمع القوت، (Food gathering age) فكان يصطاد الحيوانات، ويجمع الثمار، والنباتات البرية ليوفرّ غذاءه وربما كان اهتداؤه إلى النار قد حدث في الطور الثاني الأشولي (Acheuleen) من هذا العصر فاستخدمها لتوليد الحرارة، وطهي الطعام، وسلاحا ضدّ الحيوانات. وعاش الإنسان في هذا العصر في مواقع مكشوفة أو ملاجئ صخرية أو كهوف ومغارات طبيعية، وكانت الجماعات البشرية تتنقل من مكان إلى آخر بحثًا عن الحيوان والنبات وكان ينقل معه الأدوات الحجرية البسيطة التي استخدمها للصيد، فكان بذلك يحقق أول انتقال حضاريّ، وأول تأثير حضاريّ في المناطق الجديدة التي ينتقل إليها (الشكل رقم 1).

قسّم الباحثون العصر الحجري القديم إلى ثلاثة أطوار رئيسة : هي العصر الحجري القديم الأدنى، والأوسط والأعلى، وقسّموا كلا من هذه الأطوار إلى عدد من الأدوار الثانوية تميّز كل منها بشكل الأدوات الحجرية، ونوعيتها، ومادة صناعتها، وطريقة صنعها وتشظيتها إلى جانب ما أسفرت عنه دراسة الهياكل العظميّة البشرية وعظام الحيوانات المكتشفة، وخصائصها. وقد خُمّنَ أعمار المواد المكتشفة من خلال فحص المواد العضوية التي عُثرَ عليها معها بوساطة أجهزة إلكترونية حديثة تقيس المواد المشعّة المتبقية في المادة، مثل: جهاز كاربون 14، وجهاز قياس البوتاسيوم وغيرها من وسائل جيوفزيائية .

يقع العصر الحجري القديم بأطواره الثلاثة الرئيسة ضمن دهر البلايستوسين الذي اتَّصف بمناخه المتناهي في البرودة، حيث حدثت في هذا الدهر ظاهرة العصور الجليدية (Ice Ages) إذ أثبتت دراسة طبقات الأرض حدوث عصور جليدية في مدد زمنية متباعدة في القسم الشمالي من الكرة الأرضية، حدث بعضها قبل ظهور

الإنسان، في حين حدث بعضها الآخر في دهر البلايستوسين الذي عاش فيه الإنسان في عصره الحجري القديم. وتشير الحسابات التخمينية للعصور الجليدية الأربعة أن آخر تلك العصور، وهو عصر فيرم ((Wurmeiszeit))، قد استمر إلى نهاية العصر الحجري القديم في حدود الألف العاشر قبل الميلاد. وكان المناخ في المناطق الجليدية باردًا جدًا وكان تتخلله فترات دافئة، يتبع ذلك بالطبع تغيرات في الحياة النباتية والحيوانية. أمّا في الأجزاء الجنوبية من ذلك و التي لم تصل إليها الثلاجات الجليدية، ومنها منطقة الوطن العربي، فكانت تتمتع بعصر غزير الأمطار ومناخ ملائم ساعد على نمو النباتات والأشجار، وعلى تكاثر الحيوانات التي وفرت القوت اللازم للإنسان. وكان يقابل مدد الدفء النسبي التي تحل بعد كل عصر جليدي في القسم الشمالي من الكرة الأرضية، مدة جفاف نسبية في الوطن العربي. ويعيش الإنسان الآن في المدة الأخيرة التي أعقبت آخر عصر جليدي. وقد بدأت هذه المدة، كما يرى الباحثون، منذ الألف العاشر قبل الميلاد تقريبا، فقلت الأمطار وجفت كثير من الأنهار والينابيع وتصحرت مناطق كانت في وقت مضى وفيرة المياه، مثل: الصحراء الكبرى في أفريقيا، وصحراء شبه الجزيرة العربية. وكان من نتائج هذا الجفاف أن قلت موارد العيش، مما اضطر الإنسان أحيانًا إلى الهجرة إلى مناطق أخرى أكثر ملاءمة للعيش. كما دفعته الظروف الصعبة التي واجهها إلى البحث عن وسائل أخرى لتوفير الغذاء، فكان أن اهتدى إلى الزراعة وتدجين الحيوان.

بقايا العصر الحجري القديم في بلاد الرافدين ومواقع اكتشافها:

كان الاعتقاد السائد حتى وقت قريب أن أقدم الآثار المادية المكتشفة في بلاد الرافدين من عصور ما قبل التاريخ لا يتجاوز تأريخها مائة ألف سنة مضت، وهي الآثار التي تم الكشف عنها في موقع "يردة بلكا" قرب جمجمال في محافظة السليمانية شمال شرق العراق؛ إلا أن الاكتشافات الجديدة في عدد من المواقع التي كانت مهددة بالغرق نتيجة تنفيذ مشروعات الري الكبرى في العراق بمنطقة حوض سد القادسية على الفرات الأوسط، ومنطقة الهضبة الغربية، وهضبة الجزيرة في حوض سد صدام شمال مدينة الموصل أكدت أن استيطان الإنسان فيها يرقى إلى ما يقرب من نصف مليون سنة مضت وأن المنطقة كانت منذ أزمنة سحيقة في القدم منطقة جذب للجماعات البشرية، وربما ستكشف لنا التنقيبات المقبلة عن بقايا أقدم من تلك التي تم اكتشافها حتى الآن. كما تؤكد مخلفات الإنسان المكتشفة وجود صلات حضارية بين الجماعات البشرية التي عاشت في بلاد الرافدين فيما بينها من جهة وبينها وبين الجماعات التي عاشت في سوريا وفلسطين من جهة أخرى. ولا تقتصر أهمية المكتشفات الجديدة في المناطق الغربية من بلاد الرافدين على العمق الزمني لوجود الجماعات البشرية فيها، بل إنها تشير إلى الطريق الذي سلكته تلك الجماعات في مجيئها الأول، وإلى الاتصال المستمر مع بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية وأن ذلك يلقي ضوءاً على أصول الأقوام العراقية القديمة وصلتها بأقوام شبه الجزيرة العربية.

وقد عثر على مخلفات إنسان العصر الحجري القديم في بلاد الرافدين بمواقع مكشوفة، وملاجئ صخرية، وكهوف، ومغارات طبيعية نتعرض فيما يأتي إلى أهمها:

أولا: المواقع المكشوفة والملاجئ الصخرية :

توزعت المواقع المكشوفة التي عاش فيها الإنسان في العصر الحجري القديم في أرجاء بلاد الرافدين، ولم يقتصر وجودها على منطقة دون غيرها في حين اقتصر وجود الملاجئ الصخرية على المنطقة الجبلية. إن طبيعة هذه المواقع وطبيعة العيش فيها لا تسمح ببقاء آثار السكن فيها؛ إذ كان الإنسان يعيش فيها مددا محدودة مؤقتة قد لا تتجاوز بضعة أسابيع أثناء قيامه بحملات الصيد ومن ثم كان يغادر تلك المواقع إلى أماكن استقراره الدائم في الكهوف والمغارات. وكان عدد من المواقع المكشوفة في العراء، وهي الأقدم زمنيًا، وتم الكشف عن العديد من هذه المواقع في الهضبة الصحراوية الغربية، وخاصة في أعالي نهر الفرات، كان أهمها موقع المصنع الذي يقع على الضفة

اليمنى من نهر الفرات على بعد حوالي مائة متر من الضفة الحالية.

ومن الملاحظ على الأدوات الحجرية المكتشفة والمعمولة من حجر الصوان بالدرجة الأساس أن على الكثير منها بقايا ألوان متعددة منها الأسود والأصفر، ويرقى تاريخ الأدوات الحجرية المكتشفة إلى طوري العصر الحجري القديم الأدنى (الأسفل) والأوسط، وقد لوحظ وجود شبه في النمط الصناعي لهذه الأدوات مع ما عثر عليه في موقع العبيدية في فلسطين، وغيرها من المواقع في سوريا.

ومن المواقع المكشوفة الأخرى في منطقة الفرات الأعلى موقع الفحيمي، وبجان، وقد عثر فيهما على أكثر من مائة أداة من حجر الصوان ترقى بتاريخ صنعها إلى العصر الحجري القديم الأعلى. وتعد منطقة سد صدام شمال مدينة الموصل من أغزر المناطق التي حوت على مواقع مكشوفة؛ إذ عثر فيها على أكثر من ألف أداة حجرية في 68 موقعًا موزعة على المنطقة، إلى جانب ذلك، تم تشخيص عدد من المواقع المماثلة في منطقة الرطبة في أقاصي غرب العراق؛ إذ عثر فيها على مجموعة من الأدوات الحجرية على شكل ملتقطات سطحية، فضلاً عن تشخيص عدد من المواقع الأخرى في منطقة البادية كموقعي طار الجمل، وحفنة الأبيض.

ويعد موقع يرده بلكا قرب جمجمال الذي سبق ذكره من أقدم المواقع المكشوفة في المنطقة الجبلية ويرقى تاريخ البقايا المكتشفة فيه إلى حوالي مائة ألف سنة مضت، وضمت أدوات حجرية معمولة من لب الصوان بعد تشظيته على شكل فؤوس ومطارق. كما عثر في موقعي تركاكا وكاوري خان قرب السليمانية على آثار من أواخر العصر (Mousterian) وكذلك بأدوات صوانية من الصناعة المعروفة بصناعة زرزي نسبة إلى "كيف زرزي".

وضمت المنطقة الجبلية عددًا من الملاجئ الصخرية، وهناك من يرى أن هذه الملاجئ كانت تستخدم في مدة مبكرة من العصر الحجري القديم، وكانت تستخدم بصورة مؤقتة أيضًا. ويعد موقع "بالي كورا" من أهم هذه الملاجئ، ويقع في وادي بازيان قرب قرية جرمو في منطقة كركوك، وقد ضمت مخلفات الإنسان فيه على أدوات صوانية من الصناعة الزرزية. كما عثر على مواقع أخرى مشابهة منها موقعا باراك قرب عقرة والحجبة قرب قرية بخمة على الزاب الأعلى.

ثانيا: الكهوف والمغارات :

وفرت المنطقة الجبلية في شمال وشمال شرق العراق ملاجئ طبيعية للإنسان، لجأ إليها منذ العصر الحجري القديم، واحتمى بها من الجو البارد، وخطر الحيوانات الوحشية بعيدا عن وديان الأنهار وفيضاناتها. وقد أجريت التنقيبات الأثرية في عدد من هذه المواقع ومنها:

كهف شانيدار:

وهو من أكبر الكهوف المكتشفة في المنطقة ولا يزال يستخدمه الرعاة للسكنى وإيواء الماشية. يقع في الجناح الجنوبي من جبال "برادوست"، ويطل على وادي الزاب الأعلى. تم الكشف فيه عن أربع طبقات رئيسة ترجع أقدمها إلى العصر الحجري القديم الأوسط من الدور الموستيري، وقد ضمت بقايا هذه الطبقة عددًا من الهياكل العظمية البشرية لإنسان النياندرتال الذي عرف لدى الباحثين العراقيين باسم إنسان شانيدار. وهناك نجد دليلاً مباشرة لممارسة هذا النوع البشري دفن الموتى في حفر مخصصة لذلك .

وقد أمكن تحديد تاريخ هذه الهياكل بوساطة جهاز كربون 14 بالفترة 45-65 ألف سنة مضت إلى جانب ذلك، عثر على أدوات حجرية من الدور المستيري، مثل: المثاقب، وأدوات القشط إلى جانب بقايا عظام الحيوانات. وخمن عمر مخلفات الإنسان في الطبقة الثانية من الأسفل بالمدة 29-34 ألف سنة. أما الطبقة الثالثة فترقى بقاياها إلى العصر الحجري الوسيط في حين ضمت الطبقة الرابعة، وهي العليا، على بقايا من العصر الحجري الحديث من الألف السابع قبل

الميلاد. وهكذا فإن كهف شانيدار يمثل إحدى الحالات النادرة التي نجد فيها تسلسلاً متصلاً لجزء كبير من حضارات العصر الحجري القديم في مكان واحد .

كهف هزارمرد:

يقع على مسافة 18 كيلومترًا إلى الجنوب الغربي من مدينة السليمانية، وعلى ارتفاع 1200 متر عن مستوى سطح البحر. وهو من الكهوف الكبيرة؛ إذ يبلغ عمقه حوالي ثلاثين مترا. أسفرت التنقيبات التي أجريت فيه عن الكشف عن ثلاث طبقات رئيسة ضمت السفلى منها مواقد، وعظام حيوانات، وأدوات من حجر الصوان منها : المقاشط، والسكاكين، والمثاقب، خمن تاريخها بحدود 30-50 ألف سنة مضت في حين ضمت الطبقة الثانية أدوات حجرية صوانية، وأخرى من العظم ترقى بتاريخها من 10-40 ألف سنة من الصناعة المستيرية. أما الطبقة العليا فقد ضمت آثارًا إسلامية متأخرة.

كهف زرزي:

يقع على مسافة 50 كيلومترًا إلى الشمال الغربي من مدينة السليمانية، ويبلغ عمقه حوالي ثمانية أمتار، كشف فيه عن ثلاث طبقات رئيسة خلت السفلى منها من أية دلائل أثرية في حين ضمت الثانية أعدادًا كبيرة من الأدوات الحجرية المعمولة من حجر الصوان منها : المقاشط، والسكاكين والمثاقب. أما الطبقة العليا فقد عثر فيها على آثار حديثة نسبيًا تعود إلى العصر الحجري الحديث.

كهف بالي كورا:

يقع على مسافة عشرين كيلومترًا إلى الشمال الشرقي من قرية جرمو قرب كركوك. كشف عن ثلاث طبقات فيه يرقى تاريخ أقدمها إلى العصر الحجري القديم، وقد صنفت الأدوات الحجرية المكتشفة على أنها من الصناعة الزرزية، وضمت الطبقة الثانية أدوات حجرية صوانية كالمقاشط، والسكاكين، والمطارق، والمجارش، والفؤوس من العصر الحجري الحديث. أما الطبقة العليا فقد حوت بقايا عصور متأخرة نسبيًا منها كسر فخارية من عصر الوركاء، وأخرى من العصر الآشوري. وقد عثر في الكهف على بقايا عظام حيوانات كثيرة منها : الغزلان، والأبقار والأغنام، وغيرها.

العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) :

كان من نتائج تغير المناخ في أواخر العصر الحجري القديم وذوبان الجليد في القسم الشمالي من الكرة الأرضية أن حلت في منطقة الوطن العربي مدة زمنية جافة المناخ قلت فيها موارد العيش في العديد من المناطق، فبدأ الإنسان يبحث عن مصدر جديد لغذائه بعد أن كان يعتمد كليًا على جمع القوت، كما تطورت حياته نسبيا وتميزت أدواته الحجرية بدقة صناعتها وصغر حجمها؛ إلا أن الإنسان لم يصبح منتجًا لقوته ومعتمدًا على الزراعة وتدجين الحيوان بصورة مفاجئة، بل إنه مر بمدة زمنية استغرقت الألفين العاشر والتاسع قبل الميلاد أطلق عليها الباحثون اسم العصر الحجري الوسيط، أو اسم عصر الأدوات الدقيقة (Mesolithic). وقد تميزت الأدوات التي صنعها الإنسان في هذا العصر إلى جانب صغر حجمها ودقة صناعتها بأن كان لها غالبًا مقابض من الخشب أو العظم مثبتة عليها بالقار، منها الأسلحة التي تشبه رأس السهم أو الرمح، كما عثر بين أدوات هذا العصر على أدوات خاصة بمعالجة الحبوب البرية مثل المناجل والمطاحن أو المدقات والهواوين، مما يشير إلى احتمال قيام الإنسان بزراعة تجريبية محدودة أو أنه استخدم تلك الأدوات لحصد الحبوب البرية وطحنها. وفي بلاد الرافدين عثر في عدد من الكهوف والمواقع المكشوفة على مخلفات إنسان هذا العصر، ودلت الفحوصات العلمية بوساطة جهاز كربون 14 على أنها تعود إلى المدة من الألف الحادي عشر إلى الألف التاسع قبل الميلاد وأهم هذه الكهوف وأولها هو كهف زرزي في محافظة السليمانية، لذلك سمي العصر بالنسبة للعراق بدور زرزي، كما وجدت بقايا العصر في طبقات من كهف بالي كورا وشانيدار. ومن المواقع المكشوفة موقع كريم شهر بالقرب من جمجمال، وموقع ملفعات على نهر الخازر إذ وجدت فيه بيوت محفورة في الأرض وذات

جدران مشيدة بالحجر. وفي قرية زاوي جمي القريبة من كهف شانيدار كشف عن بقايا بيوت كانت جدرانها مبنية بالطين على أسس من الحجارة. وتعد هذه البيوت أقدم بيوت سكنية بناها الإنسان، كما تعد قرية زاوي جمي أقدم مستوطن قروي في بلاد الرافدين، وأول قرية من نوعها في العالم. ويستدل من العظام المكتشفة في هذه القرية على تدجين الأغنام في حين تشير الأدوات الحجرية المكتشفة فيها إلى أن القرية شهدت بوادر الانقلاب الزراعي. ويمكن تحديد زمن القرية التقريبي بحدود الألف العاشر قبل الميلاد وربما كانت تمثل المستوطن الصيفي للإنسان الذي عاش في كهف شانيدار القريب منها. كما أظهرت التنقيبات في مواقع هذا العصر وجود بعض الأدوات والأواني في القبور، مما يشير إلى نوع من الطقوس الدينية والمعتقدات الخاصة بما بعد الموت، إلا أنه ليس هناك معلومات كافية عن تلك الطقوس والمعتقدات.

وهناك فترة ما بين نهاية طور زاوي جمي وبين بداية العصر الحجري الحديث المتمثلة بقرية جرمو من حدود 6750ق.م. انقطعت فيها آثار سكنى الإنسان إلا أن هناك جملة مواقع أثرية يعتقد أن أطوارها تملأ تلك المدة الزمنية منها مواقع كريم شهر، وملفعات، وكردي جاي.

العصر الحجري الحديث (Neolithic) :

شهد العصر الذي أطلق عليه العصر الحجري الحديث، والذي يبدأ منذ بداية الألف الثامن قبل الميلاد في بلاد الرافدين، اكتمال عملية تحول الإنسان من عصر جمع القوت إلى عصر إنتاج القوت عن طريق ممارسته الزراعة وتدجين الحيوان. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا التحول قد مر بمرحلة انتقال استغرقت ما يزيد على ألفي سنة. ونظرًا لأهمية هذا التحول والتغيير الجذري في نمط حياة الإنسان، فقد عد الباحثون اهتداء الإنسان للزراعة حدًا فاصلاً في حياته ذا أهمية توازي أهمية الثورة الصناعية في أوربا أو تزيد عليها وعد آخرون ممارسة الزراعة أول ثورة اقتصادية شهدها الإنسان.

لقد كان شمال بلاد الرافدين وفلسطين من المناطق القليلة في العالم التي حدث فيها أول تحول للإنسان إلى حياة إنتاج القوت، والمعروف أن هذا التحول لا يمكن أن يحدث إلا إذا توافرت في المنطقة الأصول البرية للنباتات والحيوانات التي دجنها الإنسان فيما بعد وقد تم فعلا الكشف عن آثار تلك النباتات والحيوانات في عدد من المواقع، مثل زاوي جمي، وكريم شهر، وملفعات. واكتمل انتقال الإنسان إلى الزراعة والتدجين فيما بعد كما تثبت ذلك المخلفات التي كشف عنها في موقع جرمو، وشمشارة، وحسونة، والطبقة العليا من كهف شانيدار.

استمر العصر الحجري الحديث حتى أواسط الألف السادس قبل الميلاد، وقد ميز الباحثون بين طورين رئيسين فيه نسبة إلى ابتكار الإنسان صناعة الفخار، فعرف الأول منهما بطور ما قبل الفخار في حين عرف الثاني بطور الفخار. ومن البدهي أن ممارسة الزراعة، وتدجين الحيوان، وإنتاج القوت قد أثر تأثيرًا كبيرًا وواضحًا على نمط حياة الإنسان والوسائل المختلفة التي استخدمها؛ لتوفير الغذاء والسيطرة على البيئة. وتؤكد التنقيبات الأثرية على أن السهل الرسوبي في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين، وهي المنطقة التي عرفت ببلاد بابل فيما بعد، لم يكن صالحًا للاستيطان آنذاك، بل كان مغمورًا بالمياه وفق أي من النظريات التي قدمت بشأن تكوينه.

اتصفت الزراعة في بداياتها بأنها كانت محدودة وللاكتفاء الذاتي فقط، أي أن الإنسان كان يزرع مساحة صغيرة من الأرض يكفي إنتاجها لسد حاجته وحاجة أفراد أسرته من الحبوب، وكانت موسمية، أي لم تزرع الأشجار المثمرة التي تحتاج إلى مدة طويلة ريثما تحمل ثمارها، كما كانت شبه متنقلة، إذ لم تكن طرائق التسميد معروفة بعد فكانت الأرض تهجر متى قل إنتاجها وضعف، وكانت الزراعة ديمية معتمدة على مياه الأمطار.

وإلى جانب الزراعة، تعلم الإنسان تدجين الحيوان. ويظن أن عملية التدجين قد حدثت هي الأخرى تدريجيًا، ولا

يعرف أيهما سبق الآخر التدجين أم الزراعة، وربما اهتدى الإنسان إليهما في وقت متقارب. وقد دلت عظام الحيوانات المكتشفة في مقرات الإنسان الأولى على أن أولى الحيوانات المدجنة هما الكلاب والأغنام والماعز والخنازير والأبقار.

وكان من نتائج زراعة مساحة معينة من الأرض، وتدجين الحيوان أن زاد إنتاج القوت، وتوفر لأعداد أكبر من الناس؛ فزاد عدد السكان، وانخفضت الوفيات، ولاسيما بين الأطفال، وازداد معدل طول عمر الإنسان .. ويؤيد ذلك اتساع منطقة استيطان هذا العصر عن العصر السابق ونشوء العديد من القرى الزراعية والمستوطنات. كما دفعت الحياة الجديدة الإنسان إلى العيش بجوار أرضه الزراعية، فبنى بيوتا بسيطة من كتل الطين والحجارة مسقفة بأغصان الأشجار وجذوعها، وكان قوامها، كما أثبتت ذلك التحريات في موقع جرمو: غرفًا عدة مستطيلة جمع فيها أفراد أسرته وحيواناته وآلاته وأدواته الزراعية. وكان عليه أن يعيش في جماعات صغيرة قريبًا من الأراضي المزروعة، فنشأت أولى المستوطنات الزراعية، وأولى القرى، ونشأت معها فكرة ملكية الأرض والبيت وما فيه، ورافق ذلك تطور في العلاقات الاجتماعية، وظهور العادات والتقاليد التي نظمت حياة الجماعات البشرية الصغيرة الأولى؛ إلا أنه لا سبيل إلى معرفة تفاصيل ذلك باستثناء ما يستنتج من تخطيط البيوت، وارتباط بعضها ببعضها الآخر. وتبع نشوء فكرة الملكية الفردية أن بدأ الإنسان بحمايتها ضد الاعتداء فنشأت أولى الصراعات والخصومات.

إن هذا التغيير الكبير في أسلوب حياة الإنسان قاد إلى ابتكارات جديدة وتطور واضح في صناعة الأدوات الحجرية؛ فتنوعت الآلات والأدوات الحجرية بما يتلاءم وتطور الحياة فشملت الفؤوس والمعازق والمحاريث اللازمة للزراعة، وأدوات أخرى لحصد الحبوب ومعالجتها، مثل: المناجل المسننة، وأطباق الجرش والطحن إلى جانب تطور أنواع الأسلحة الحجرية كالسهام والرماح. وفي الطور الثاني من هذا العصر تعلم الإنسان طريقة صنع الفخار، وكان في بداياته سمجًا إذ كان يقتصر على تغليف جدران الحفر بالطين، ومن ثم فخرها بالنار ثم بدأ بعد ذلك بصناعة الأواني البسيطة الخالية من الزخرفة والألوان. وكانت الأواني تصنع وتشكل باليد.

ويرجح أن الإنسان في هذه المرحلة من حياته تعلم طريقة الغزل والحياكة؛ يدل عليها ما وجد من أقراص المغازل، واستخدم لذلك أصواف الأغنام، وشعر الماعز كما تشير مواقد النار والتنانير المكتشفة إلى طهي الطعام وعمل الخبز.

ويستدل من دمى الطين المكتشفة وأسلوب دفن الموتى، وما كان يوضع في القبور من أثاث جنائزي، ومن المشاهد التي كانت ترسم على الأواني الفخارية على أنه كان للإنسان نوع من المعتقدات الدينية، وأنه قد ابتعد عن التوحيد الفطري، وآمن بقوة المظاهر الطبيعية المؤثرة في حياته كالشمس، والقمر، وربما جسد الخصوبة على هيئة آلهة تعبد.

ومع تعدد الصناعات التي ابتكرها الإنسان وممارسته الزراعة والتدجين إلا أنه ظل يقوم بجميع الأعمال اللازمة لإدامة حياته، وتوفير المأكل والملبس والمسكن له ولأفراد أسرته، إذ لم تظهر بعد طريقة التخصص في العمل والتعاون على صناعة ما يحتاجه الإنسان من أدوات وصناعات، وربما كان هناك تقسيم للعمل بين أفرد الأسرة الواحدة، إذ تولت المرأة كل ما له علاقة بتنظيم حياة أفراد الأسرة وإعداد الطعام، وحياكة الملابس، وتربية الأطفال .. في حين تولى الرجل مهمة إنتاج القوت عن طريق الزراعة، والتدجين، والصيد، وتحمل مسؤولية الدفاع عن ممتلكات الأسرة.

وفي شمال بلاد الرافدين، كشفت التنقيبات الأثرية عن بقايا إنسان العصر الحجري الحديث ومخلفاته في عدد من المواقع تأتي قرية جرمو قرب كركوك في مقدمها. وقد بينت التنقيبات أن جرمو هي أقدم القرى الزراعية المكتشفة حتى الآن، وقد كشف فيها من بقايا طوري العصر الحجري الحديث، وأرخت البقايا المكتشفة فيها بحدود 6750 ق.م.

وتؤكد التنقيبات على أن جرمو تضاهي أريحا في فلسطين من حيث القدم، وقد كشف فيها عن 16 طبقة أثرية خلت الطبقات الإحدى عشرة الأولى من بقايا الفخار، وضمت الطبقات الأخرى كسرًا فخارية .. وقدر عدد بيوت القرية بخمسة وعشرين إلى ثلاثين بيتا، وعدد سكانها بمائة وخمسين نسمة.

عثر في القرية فضلا عن ذلك على بقايا عظام الحيوانات المدجنة، وعلى الحبوب المتفحمة، وعلى آلات وأدوات منزلية كثيرة كالملاعق والإبر وأقواص المغازل إلى جانب المناجل والفؤوس وأحجار الرحى والمدقات والهواوين وغيرها كما عثر فيها على عدد من الحلي المصنوعة من الحجر أو الطين مثل الخرز والأساور والقلائد والدلايات. وكانت معظم الأدوات الحجرية من النوع المايكروليثي، ومن حجر الأويسيدين (الشكل رقم2).

وتميز الفخار المكتشف في جرمو بأنه مصبوغ باللون الأحمر على أرضية صفراء، ومنه نوع ضارب إلى الحمرة، وقد زين بخطوط منقطة، وسمي بفخار جرمو المصبوغ في الطبقات العليا من جرمو، وكان الفخار خشنًا وغفل من الزخرفة والألوان. ومن أشهر اللقى الأثرية في جرمو تلك الدمى الطينية التي تبلغ الآلاف وهي عبارة عن أشكال حيوانية وآدمية وأخرى غير معروفة. وفي مجملها تمثل نموذجًا مهمًا لتعبيرات الفن البدائي في تلك الحقبة .

والجدير بالذكر أن منطقة الشرق امتازت بعدد من أقدم المراكز التي تحققت فيها مرحلة إنتاج القوت .

العصر الحجري المعدني (Chalcolithic):

سميت المدة الزمنية الواقعة بين نهاية العصر الحجري الحديث في حدود 5600ق.م. في بلاد الرافدين وبين تاريخ ابتكار أول العلامات الصورية في حدود 3500ق.م. بالعصر الحجري المعدني. وكانت هذه المدة ذات أهمية كبيرة في نمو الحضارة وتطورها، إذ إنها شهدت نشوء عناصر حضارية مهمة كانت الأساس الذي قامت عليه الحضارة الناضجة في الألف الثالث قبل الميلاد، وقد سمي العصر بتسميات مختلفة فسمي بعصر ما قبل السلالات Pre-Dynastic period، إشارة إلى السلالات الملكية التي حكمت بعد هذا العصر، وسمي بعصر الفخار الملون نسبة إلى نوع الفخار الملون الذي شاع في هذا العصر، وسمي بالعصر الحجري المعدني؛ لأن الإنسان استخدم المعادن لأول مرة فيه.

ولما كانت المدة الزمنية التي استغرقها العصر طويلة قاربت من ألفي سنة، وللتطورات الحضارية الكثيرة والمهمة التي شهدها؛ فقد رأى الباحثون تقسيمه إلى عدد من الأدوار الحضارية تميز كل منها بسمات حضارية معينة، وأطلقوا على تلك الأدوار تسميات مقتبسة من أسماء المواقع الأثرية التي وجدت آثار ذلك الدور فيها لأول مرة؛ فسمي أقدم تلك الأدوار باسم دور حسونة؛ لأن آثار هذا الدور وجدت لأول مرة في التل الواقع بالقرب من قرية حسونة الحالية جنوب شرق الموصل وهكذا . وقد ميز الباحثون أربعة أدوار رئيسة في هذا العصر هي: دور حسونة، وسامراء، وحلف والعبيد. ويرى آخرون تقسيم العصر إلى ثلاثة أدوار رئيسة سميت بالعصر الحجري المعدني القديم، والوسيط، والمتأخر.

تطورت بصورة عامة أساليب الزراعة في هذا العصر فلم تعد للاكتفاء الذاتي كما كانت عليه في العصر السابق، بل أصبح هناك فائض في الإنتاج زاد عن حاجة الفلاح الذاتية، فاستبدله بمواد أخرى فائضة عن حاجة الآخرين، ونتج عن ذلك ممارسة المقايضة أولا، والتخصص في العمل ثانيا وغدا هناك من ينتج الحبوب، وآخرون يعملون في الرعي، وجماعة ثالثة اختصت بصنع الفخار أو غزل الصوف وحياكته أو صنع الآلات والأدوات الحجرية أو الفخارية وهكذا.

من جانب آخر، زاد عدد السكان وغدت القرى الزراعية أكثر اتساعًا وامتازت بتنظيمها، وتطور أساليب البناء فيها، واحتوائها على شوارع تفصل بين البيوت، وتنظم حركة الانتقال فيها، كما ظهرت في هذا العصر البنايات العامة وفي مقدمتها

المعابد التي تشير إلى ممارسة السكان أداء طقوس دينية تنم عن معتقدات معينة شاعت بين الناس، إلا أنه لا سبيل إلى معرفة تفاصيل ذلك بغياب الكتابة وسيلة التدوين. وتعد معابد دور العبيد من طور أريدو أقدم المعابد المكتشفة حتى الآن، وتتألف من قاعة مربعة تقريبا ضمت دكة للقرابين ومذبحًا، وتتجه زوايا المعبد إلى الجهات الأربع .

عاش الإنسان في القسم الأول من هذا العصر المتمثل بأدوار حسونة، وسامراء، وحلف ، في القسم الشمالي والشمالي الغربي من بلاد الرافدين فقط أي في المنطقة التي عرفت فيما بعد ببلاد آشور. وفي النصف الثاني من العصر بدأت السكنى في السهل الرسوبي في وسط وجنوب العراق وتركزت على أطراف نهر الفرات؛ إذ يبدو أن هذه المنطقة لم تكن صالحة للاستيطان حتى مطلع الألف الخامس قبل الميلاد وربما كانت فيها بعض الجماعات الرعوية التي أقامت فيها خيما فكان ذلك تمهيدًا لمجيء المزارعين الأوائل الذين وجدوا في أرض السهل الرسوبي الخصبة، وكثرة المياه مكانًا جيدًا للاستقرار؛ إلا أن المنطقة تميزت، إلى جانب خصوبة تربتها ووفرة مياهها بقسوة مناخها الجاف، وشدة حرارة الشمس، وقلة معدل سقوط الأمطار فيها، وخطورة فيضانات نهريها الرئيسين دجلة والفرات وخاصة دجلة. وقد دفعت هذه القسوة الفلاحين الأوائل إلى شق الترع والجداول، وإقامة السدود، وتسخير الطبيعة لخدمة الزراعة والحياة بعامة كما وجهت أسلوب البناء واستخدام المواد المتيسرة في المنطقة، وحفزت على نشوء أولى الإدارات المركزية، وتبلورت المعتقدات الدينية، وابتكرت العديد من المبتكرات التي ساعدت في السيطرة على الطبيعة وزادت من الإنتاج كدولاب الخزاف والسفينة الشراعية وربما العجلة التي زادت من سرعة النقل.

وتشير الآثار المكتشفة من هذا العصر والمصنوعة من مواد أولية غير متوافرة في بلاد الرافدين، كالمعادن وأنواع معينة من الحجر الصلب، إلى وجود اتصالات خارجية مع بلدان أخرى، ومما يؤكد الاتصال الحضاري مع أقطار الوطن العربي الأخرى، ولا سيما بلاد الشام ووادي النيل، الكشف عن طرز معمارية، وزخارف فنية، وآثار ذات سمات رافدية في كل من هذين القطرين إلى جانب ما وجد من شبه كبير بين الآثار المكتشفة في بلاد الرافدين من دور العبيد مع ما تم الكشف عنه في المواقع الساحلية من شبه الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي وجزره.

ومنذ أواسط هذا العصر، شاع استخدام المعادن وخاصة النحاس في صنع الأسلحة، والأدوات الزراعية، والمنزلية، كما استخدمت الفضة، والذهب، والرصاص ولكن على نطاق ضيق.

وكما تشير إحدى تسميات هذا العصر، فقد تميز فخاره بصناعته الجيدة والجميلة، واستخدمت ألوان متعددة لتزيينه إلى جانب الزخارف الهندسية، والنباتية والحيوانية التي غطت الأواني الفخارية دقيقة الصنع، وكان للفخار أهمية كبيرة في معرفة مدى انتشار حضارة كل دور من أدوار العصر.

تميزت الأدوار الأربعة التي قسم إليها العصر بسمات خاصة ميزت كل دور حضاري عن الدور السابق واللاحق وكشف عن آثار هذه الأدوار في العديد من المواقع إلى جانب المواقع الرئيسة التي كشف فيها عن آثارها أول مرة.

فأما دور حسونة، فيمثل أول أدوار العصر الحجري والمعدني .. وقد أظهرت التنقيبات التي أجريت فيه بقايا ست عشرة طبقة سكنية تضم الطبقة الأولى منها بقايا آخر أطوار العصر الحجري الحديث في حين تمثل الطبقات الثلاث التالية أول أدوار العصر الحجري والمعدني، وتستمر السكنى في الموقع، كما تظهر ذلك الطبقات السكنية إلى مدد متأخرة. وقد شيدت البيوت من الطَّوْفِ، وهو كتل من الطين المضغوط يشكل باليد، ثم من اللبن، وهو آجر من الطين مجفف بالشمس، وتضم غرفًا مستطيلة وجد فيها مخازن للحبوب على هيئة أحواض أو جرار كبيرة من الفخار غير المفخور، كانت تدفن في أرض البيت حتى حافتها العليا. كما وجدت بقايا تنانير، أي مواقد، خبز وكانت غالبية الأدوات المنزلية

مصنوعة من الحجر، مثل: الهواوين، والمناجل، والمحاريث والفؤوس، وأقراص المغازل، ودمى الطين التي ربما كان لها علاقة بنوع من المعتقدات الدينية، كما عثر على هياكل عظمية بشرية وجدت مدفونة تحت أرضية البيوت السكنية، ووجد بعضها في داخل جرار فخارية. ومن الآثار المكتشفة من هذا الدور مجموعة من الحلي بعضها من أحجار كريمة وشبه كريمة. أما فخار حسونة، فكان مزينًا بحزوز وألوان .. والمتأخر منه مزين بخطوط مستقيمة ومتقاطعة ومثلثات. وقد وجدت آثار دور حسونة في موقع تل الصوان القريب من سامراء، وفي الطبقات السفلى من نينوي، وفي تل شمشارة على الزاب الصغير، وتل يارم تبة قرب تلعفر، وغيرها من مواقع القسم الشمالي من بلاد الرافدين.

ويمثل دور سامراء ثاني أدوار العصر الحجري والمعدني ، ويرقى زمن ازدهاره إلى النصف الثاني من الألف السادس قبل الميلاد، وسمي بدور سامراء نسبة إلى مدينة سامراء الإسلامية التي وجد في مقبرة فيها تعود إلى عصور ما قبل التاريخ نوع من الفخار خاص، ثم وجد ما يشابه هذا الفخار في عدد من المواقع منها: تل الصوان القريب منها، وتل مطارة قرب كركوك، وتل حسونة، وتل شمشارة وتل حلف، وتبة كورا، والأربجية في الموصل. ويتميز فخار سامراء بأنه ذو لون واحد كما يتميز بزخارفه الهندسية، وبعض أشكال الحيوانات والأشكال الآدمية المرسومة بصورة تخطيطية، وكانت الرسوم تنقش باللون الأسود على سطح الإناء ذي اللون الأصفر الباهت (الشكل رقم3).

واشتق اسم دور حلف من اسم موضع أثري كبير يطل على نهر الخابور بالقرب من قرية رأس العين على الحدود التركية السورية، وكان الموضع يسمى في العصور الآشورية كوزان، كما ورد ذلك في النصوص المسمارية. وجد فيه لأول مرة فخار ملون بديع الصنع ووجد ما يماثله في جملة مواقع أثرية أخرى في بلاد الرافدين منها نينوى، والأربجية في الموصل، وتبة كورا، وغيرها. وقد تميزت فخاريات دور حلف بزخارفها الجميلة وألوانها الزاهية(شكل رقم 4).

وتعد أواني حلف من أجمل ما صنع من الفخار الملون في تاريخ الحضارات القديمة وكانت قد صنعت باليد إذ لم يكن دولاب الخزاف قد ابتكر بعد. وفي دور حلف ظهرت بداية استعمال المعادن، ولا سيما النحاس والرصاص. وفي هذا الدور اتسعت القرى الزراعية وأصبحت بلدات صغيرة رتبت فيها بيوت السكن وكانت الشوارع المبلطة بالحجارة تفصل بينها. وينفرد دور حلف بنوع غريب من بيوت السكن المستديرة سماها المنقبون ثولوس (Tholos)، وقد وجد عشرة بيوت منها في الأربجية في الموصل، وهي مشيدة من الطين على أسس من الحجارة ويظن أنها كانت تسقف بنوع من العقادة، ويتقدم كل بيت ممر طويل على هيئة غرفة مستطيلة. وقد ظن بعض الباحثين أن هذه البيوت هي أماكن للعبادة إلا أنها، كما يبدو، طراز خاص من البيوت.

وفي دور حلف بدأ استخدام الأختام المنبسطة، وتم الكشف عن نماذج عديدة منها. ويؤكد انتشار ثقافة دور حلف في أرجاء بلاد الرافدين وفي مواقع من بلاد الشام على وحدة المنطقة الجغرافية والثقافية.

ويمثل دور العبيد آخر أدوار العصر الحجري المعدني وأول الأدوار التي تم الكشف عن بقاياها في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين. سمي الدور نسبة إلى التل الذي يحمل هذا الاسم والواقع بالقرب من مدينة أور. يعد دور العبيد من أهم أدوار هذا العصر الحضارية إذ إنه أكثرها انتشارًا وتأكيدًا على وحدة ثقافة جميع أرجاء بلاد الرافدين، كما انتشرت ثقافة العبيد في الأجزاء الساحلية من شبه الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي، وفي جزيرة البحرين .. كما أثبتت ذلك التنقيبات الأثرية التي أجريت في هذه المناطق. وقد قسم دور العبيد إلى أربعة أطوار تمثل آثار أريدو أولى تلك الأطوار ويليها طور فخار حاج محمد وراس العمية ثم فخار العبيد القديم والمتأخر. وقد خصص لدور العبيد النصف

الأول من الألف الرابع قبل الميلاد. ويعاصر الطورين الأول والثاني من دور العبيد دور حلف في الشمال.

وجدت آثار دور العبيد في مختلف أرجاء بلاد الرافدين، ولا سيما المدن الرئيسة مثل أور وأريدو والعقير، وكش، ونفر، والوركاء، ونينوى، وتبة كورا، وغيرها. كما وجدت آثاره في أكثر من سبعة عشر موضعًا في الجهات الداخلية من الجزيرة العربية إلى جانب المناطق الساحلية. والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية .

تميز فخار العبيد بوجه عام بأنه أحادي اللون، ومزخرف بخطوط سود مائلة إلى الزرقة، أو سمر، أو حمر فاتحة(الشكل رقم5)، ولون الإناء أخضر أو أصفر فاتح، وقد صنعت بعض الأواني بدولاب الخزاف المعروف باسم القرص. وكانت البيوت مشيدة، كما في العقير، على جانبي الدروب أو الأزقة، ويحتوي كل بيت على عدة حجرات ذات تخطيط متسق نوعًا ما. ووجد في أريدو من طور العبيد الأخير أنموذج لقارب مصنوع من الفخار يشير إلى نوع وسائل النقل المائية المستخدمة، كما كشف عن عدد من المعابد في العديد من مواقع هذا الدور منها معابد في أريدو، وفي تبة كورا. وكانت جدران المعابد الخارجيَة مزينة بالطلعات والدخلات وأقيمت على مساطب اصطناعية ويضم كل معبد محرابًا أو سيلا ومذبحًا وتتشابه معابد العبيد الشمالية مع مثيلاتها في المواقع الجنوبية، وتتجه جميعها إلى الجهات الأربع الطبيعية.

العصر الشبيه بالكتابي (Proto-literate) :

حقق سكان مدينة الوركاء في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين أعظم إنجاز حضاري بابتكارهم الكتابة وسيلة للتدوين ونقل الأخبار إلى الآخرين. وقد عد الباحثون المدة بين ابتكار أول العلامات الكتابية الصورية في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد(الشكل رقم6) وحتى اكتمال تطور الكتابة التي عرفت فيما بعد بالكتابة المسمارية وشيوع استخدامها لتكوين مختلف شؤون الحياة عصرًا مستقلاً يسبق العصور التاريخية مباشرة؛ أطلقوا عليه اسم العصر الشبيه بالكتابي. استمر ما يقرب من خمسة قرون (من حدود 3500 إلى حدود 3000ق.م.)؛ نظرًا لأن الكتابة فيه كانت محدودة الاستخدام مقصورة على تدوين الشؤون الاقتصادية الخاصة بالمعبد. وتؤكد نتائج التنقيبات الأثرية التي أجريت في مواقع العصر الحجري الحديث والعصور التالية على أن ابتكار الكتابة لم يظهر فجأة وبصورة غير متوقعة بل مهدت لها ابتكارات أخرى للتذكير والاتصال مع الآخر كانت هي الأخرى مهمة وفي الوقت نفسه محفزة على ابتكار الكتابة. فمنذ العصر الحجري الحديث استخدم الإنسان قطع الحصى والحجارة لتذكر الأعداد وحساب الكميات وإخبار الآخر بها وربما استخدم الخيوط والحبال والعصي المحززة وغيرها من المواد سريعة التلف. كما استخدم ما عرف بالدلالات والرموز الطينية (Tokens) والكرات المجوفة، أو الأغلفة الكروية المجوفة (bullae) للغرض نفسه؛ إلا أن المنقبين الأوائل لم يفطنوا إلى ماهية تلك الدلالات أو الكرات والغاية منها ولاسيما أنها وجدت في أماكن رمي النفايات في المواقع التي تم التنقيب فيها. وفي مواقع دور العبيد والوركاء عثر على الأختام المنبسطة والأسطوانية وكلها وسائل للتذكر والإخبار.

كانت المدة التي شغلها العصر الشبيه بالكتابي على درجة كبيرة من الأهمية في نشوء الحضارة الناضجة الأصيلة وتطورها وازدهارها في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد إلى درجة أن عددًا من الباحثين سماها بعصر التكوين الحضاري (formative period) .لقد ضم هذا العصر دورين حضاريين رئيسيين هما دور الوركاء، نسبة إلى مدينة الوركاء التي جاءنا من طبقتها الرابعة أقدم الألواح الطينية التي تحمل علامات كتابية صورية، ودور جمدة نصر، نسبة إلى الموقع الذي يحمل هذا الاسم، والواقع في وسط العراق قريبًا من مدينة كيش. وقد تم الكشف عن آثار هذين الدورين في الكثير من مواقع القسم الجنوبي من العراق، مثل نفر، والعقير، وخفاجي في منطقة ديالى وفي شمال بلاد الرافدين في تبة كورا، وفي سوريا في تل

براك على الخابور، وجغار بازار، ووجدت آثار هذا العصر في سيل أنطاكية، وفي وادي النيل مما يشير إلى الاتصال الحضاري مع بقية الأقطار العربية منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد في أقل تقدير.

وتشير الأدلة الآثارية المكتشفة أن العصر الشبيه بالكتابي كان عهد رفاهية اقتصادية، إذ نمت في أثنائه القرى الصغيرة والبلدات واندمج بعضها مع بعضها الآخر مكونة مدنًا كبيرة غدت فيما بعد مراكز أو عواصم لدول مدن ازدهرت في بداية العصور التاريخية. وكان من أهم المدن: أريدو وأور، وأوروك (الوركاء)، وباتدبيرا، وكيش، ونناء وجرموا، وأوما، ونفر، وكيش، وسبار، وأكشاك.. ومما يلاحظ في أسماء جميع هذه المدن أنها لا تحمل صيغا سومرية أو أكدية، وهما اللغتان الرئيسيتان في بلاد الرافدين في هذه المدة، مما يشير إلى أنها أسماء قديمة أطلقها سكان العراق الأوائل على تلك المدن من قبل أن يشيع استخدام اللغتين السومرية والأكدية، وينطبق ذلك على أسماء الأنهار الرئيسة دجلة والفرات والزابين.

وتحققت ابتكارات جديدة كانت الأساس الذي قامت عليه حضارة العصور التاريخية التالية، مثل: استعمال دولاب الخزاف لصنع الأواني الفخارية وتقدم فن التعدين، وانتشر استخدام المعادن والأختام الأسطوانية إلى جانب الأختام المبسطة، وابتكرت أول العلامات الكتابية. كما تطور الفن المعماري تطورًا كبيرًا، وتبلور فن النحت البارز والمدور. من جهة أخرى، ظهرت أولى أنظمة الحكم التي كانت الأساس الذي سارت عليه دول المدن السومرية التالية وما تبع ذلك من تطور في التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية.

إن أبرز ما يميز هذا العصر هو الفن المعماري، ولاسيما فن بناء المعابد. فمع أن المعابد التي تعود إلى هذا العصر هي استمرار لمعابد طور العبيد السابق بشكلها العام، وشيدت في المكان نفسه الذي شيدت عليه المعابد السابقة- وكأنما كان الاعتقاد السائد أن أرض المعبد قد اكتسبت قدسية خاصة، ولا يجوز تغييرها عند تجديد المعبد أو ترميمه أو بناء معبد جديد مكانه- فقد ازدادت عنها سعة، وأناقة، وزخرفة، واتصفت بسمات معمارية خاصة ميزتها عن المعابد السابقة. ففي هذا العصر ظهرت بدايات المعابد العالية التي عرفت فيما بعد بالزقورات والتي اختصت بها حضارة بلاد الرافدين دون غيرها وغدت من سماتها الأساسية إذ شيدت معابد الوركاء والمقبر (الشكل رقم7) على أكثر من مسطبة واحدة، وقد تطور معبد الإله آنو في الوركاء في النهاية إلى زقورة على هيئة دكة أو مسطبة ترتفع خمسين قدمًا شيد فوقها المعبد الذي أطلق عليه اسم المعبد الأبيض كما وجدت بقايا زقورة تحت زقورة الوركاء التي يرقى تاريخها إلى العصر الشبيه بالكتابي. والزقورة في شكلها المتطور الذي تمثله زقورة أور من أواخر الألف الثالث قبل الميلاد مثلا، عبارة عن صرح معماري مدرج ضخم يتألف من عدة مساطب ذات قاعدة مربعة أو مستطيلة تتناقص من حيث المساحة كلما ارتفعنا إلى أعلى، وكان يشيد على أعلى مسطبة معبد علوي صغير أعد لاستراحة الآلهة، حسب المعتقدات السائدة آنذاك، أثناء نزولها إلى الأرض لإتمام عملية الزواج المقدس. وكانت الزقورات تتألف من ثلاث إلى سبع مسطبات، ويرقى إلى الزقورة بوساطة درج خارجي. وقد بلغ ارتفاع زقورة أور أكثر من عشرين مترًا في حين كانت قياسات المسطبة الأولى 62،5 x43 مترًا.

ومن العناصر المعمارية التي شاعت في معابد هذا العصر نظام الطلعات والدخلات التي كانت تزين جدران المعبد الخارجية، وقد وجد ما يماثل هذا الطراز في وادي النيل من مدة تالية. وكانت واجهات المعبد تزين من الخارج بمخاريط أو مسامير من الطين المفخور (الشكل رقم8)، وقد لونت رؤوسها بالألوان الأبيض والأخضر وكانت تثبت على سطح الجدار المطلي بالطين كما تثبت قطع الفسيفساء في العصور التالية، وتؤلف أشكالاً هندسية وحيوانية ونباتية، وقد كشف عن مجموعة كبيرة من هذه المسامير وهي تزين

واجهة أحد معابد الوركاء وقد نقلت إلى متحف برلين، وأعيد تركيبها إلى ما كانت عليه سابقا.

إن هذا الاهتمام الكبير ببناء المعابد، وتوسيعها، وتزيينها، وجعلها أفخم أبنية في المدينة تسيطر بمساطبها العالية أو زقوراتها على المدينة بأكملها إنما يعكس دور المعبد الكبير في حياة سكان المدينة الروحية والمادية، ويلمح إلى جانب من جوانب معتقداتهم التي اتسمت بتعدد الآلهة أولا- وتشبيه الآلهة بالبشر في غالبية صفاتها، باستثناء صفة الخلود التي احتفظت الآلهة بها لنفسها ثانيًا وبنظرة السكان إلى حكامهم وملوكهم بأنهم نواب الآلهة وممثلوها على الأرض إلا أنهم من البشر. وكانت المدينة كلها وما فيها خاصة بالآلهة، ولاسيما إله المدينة، إذ اختصت كل مدينة بعبادة أحد الآلهة الرئيسة إلى جانب الآلهة الأخرى. وكان الحاكم، أو كما كان يسمى ال'اين" En، يمثل الكاهن الأعلى والحاكم الدنيوي في المدينة في العصور المبكرة وربما كان يسمى كذلك في العصر الشبيه بالكتابي، وكان يعيش في أحد أجنحة المعبد. وكان المعبد بؤرة النشاط الاقتصادي؛ إذ كانت المعابد تمتلك معظم الأراضي الزراعية إن لم نقل جميعها ويعمل لديها عدد كبير من سكان المدينة إلى درجة دفعت بعض الباحثين إلى القول : إن جميع سكان المدينة كانوا يعملون لدى المعبد ويعتمدون عليه بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وكان المعبد لذلك يضم أماكن مخصصة لمشاغل صانعي الفخار والنساجين وقاطعي الأحجار وغيرهم : ولكثرة النشاط الاقتصادي في المعبد ابتكر القائمون على خدمته وسيلة للتدوين تلبية لحاجاتهم الملحة في تثبيت واردات المعبد وتوزيع الجرايات على العاملين فيه، وهذا يفسر لنا حقيقة العثور على جميع الألواح العلنية الأولى التي تحمل علامات كتابية في حارة المعبد أي أن في الوركاء/الطبقة الرابعة وكانت جميعها ذات علاقة بالحياة الاقتصادية.

وربما كان ظهور أولى أنظمة الحكم وإدارة المدن في هذا العصر .. وكانت تلك الأنظمة نواة لأنظمة الحكم التي عرفت في عصر فجر السلالات التي تميزت بنوع من الشورى كما تفصح عنها القصص والأساطير الدينية من هذا العصر. وقد مثل الحاكم أو الكاهن الأعلى على الأختام الأسطوانية برجل جالس يرتدي تنورة مشبكة، وكان يمثل الحاكم الديني والدنيوي في آن واحد.

وعلى الرغم من نظرة السكان إلى الحاكم نظرة التقديس والتبجيل والاحترام؛ إلا أنه كان بشرًا ولم يرق إلى درجة الألوهية إلا استثناءً، وكان المسؤول الأول أمام الآلهة عن إدارة شؤون أملاك الآلهة وحمايتها وبناء مساكنها أي المعابد، وترميمها وتجديدها كما كان مسؤولا عن تنظيم شؤون الحياة في المدينة ونشر العدالة بين الناس والقيام بمشروعات الري، وهذا ما تفصح عنه النصوص المسمارية من العصر التالي وما أكدته الأدلة الأثرية.

وكانت الأختام الأسطوانية التي شاع استخدامها لأول مرة في هذا العصر سمة مميزة لحضارة بلاد الرافدين، اختصت بها دون غيرها من الحضارات، والختم الأسطواني عبارة عن حجر أو خرزة أسطوانية الشكل صغيرة يتراوح طولها بين 2 سم إلى 8 سم عادة، ولا يتجاوزها قطرها بضعة سنتمترات، مثقوبة، طولها من الوسط ربما لتعلق حول الرقبة كدلاية أو قلادة، لاسيما وأن بعضها كان يصنع من الأحجار الكريمة أو شبه الكريمة أو المعادن، وكان الختم الأسطواني من مقتنيات الأفراد الشخصية ولاسيما الذكور منهم، وكان يستخدم لتوثيق المعاملات وتثبيت هوية حامله، إذ كان ينقش عليه بواسطة الحفر مشاهد مختلفة، وربما ضمت بعض العلامات المسمارية المعبرة عن اسم حامل الختم وصاحبه، وكان حفر المشاهد يتم بشكل معكوس وغائر، فإذا دحرج الختم على الطين الطري ترك طبعة صحيحة وموجبة من تلك المشاهد.

واستمر استخدام الأختام الأسطونية طوال العصور التاريخية المتتابعة، وكان لكل عصر خصائصه في أسلوب صناعة الأختام وفي نقشها ومضمون المشاهد المحفورة عليها، مما ساعد كثيرًا على تحديد الأزمنة التاريخية التي تعود إليها الآثار المكتشفة معها في غياب النصوص المدونة. وقد استخدمت

الأختام الأسطوانية في عدد من الأقطار العربية مثل بلاد الشام ووادي النيل لمدد محدودة وربما كانت اقتباسًا أو تقليدًا لما كان شائعًا في بلاد الرافدين.

ولا تقتصر أهمية الأختام الأسطوانية على تحديد أزمنة الأدوار الحضارية والآثار المكتشفة فحسب، بل إن المشاهد المحفورة عليها تعكس جانبًا من جوانب المعتقدات الدينية، إذ ضمت غالبا مشاهد دينية كما تعكس معلومات مفيدة عن هوية حامليها العرقية من خلال الأشكال الآدمية التي تظهر في المشاهد المحفورة عليها وأزيائها وسماتها العامة وأسمائها.

ورافق تطور الفن المعماري وابتكار عدد من العناصر الحضارية لتزيين الأبنية تطور ملحوظ في النحت المدور والبارز، إذ عثر على عدد من القطع الفنية الرائعة التي تعبر عن هذين الفنين مثل رأس القناة من الرخام بالنسبة لفن النحت المدور، والإناء النذري (الشكل رقم 9) ومسلة صيد (الشكل رقم10). الأسود بالنسبة للنحت البارز .. وتمثل هذه القطع أول معرفتنا بفن النحت في بلاد الرافدين.

وبرع فنانو هذا العصر بتزيين أواني الحجر الجميلة بترصيعها أو تطعيمها بفصوص من الأحجار الكريمة على أطرزة وأشكال بديعة.

ويبقى ابتكار أول العلامات الكتابية أهم المنجزات الحضارية التي توج بها هذا العصر؛ لذلك عدت الحد الفاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية، بل عدها كثير من الباحثين الحد الفاصل الذي يميز الإنسان المتحضر من الإنسان البدائي، وإنها البداية الحقيقية للحضارة برمتها.

وكانت الكتابة بالنسبة لسكان بلاد الرافدين القدماء واحدة من هبات الآلهة التي وهبتها للبشر .. ومن جانب آخر، كانت الكتابة عاملاً مهمًا من عوامل وحدة بلاد الرافدين، والوسيلة التي حفظت لنا معظم علوم القدماء ومعارفهم ومنجزاتهم الحربية والعمرانية التي دونت تفاصيلها على ألواح الطين والحجر، وهي مواد لا تبلى وتقاوم إلى حد كبير عوامل الطبيعة المختلفة؛ خلافا لغيرها من المواد سريعة التلف كورق البردي والجلود والمنسوجات. وقد وصفها العراقيون القدماء أنفسهم بأنها " أم الخطباء وأبو العلماء ".

هوية السكان ولغتهم .

ولابد لنا في ختام الحديث عن عصور ما قبل التاريخ في بلاد الرافدين أن نلمح إلى هوية السكان الذين عاشوا في تلك العصور الطويلة، وإلى لغتهم أو لغاتهم التي تفاهموا بواسطتها؛ إلا أن ذلك ليس بالأمر الهين أو الميسور، فالتعرف إلى هوية الأقوام القديمة يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمعرفة اللغة أو اللغات التي تكلمت بها تلك الأقوام، فإن عرفت اللغة وعرفت فصيلتها أمكن معرفة الأصل الذي انحدرت عنه تلك الأقوام أو الطريق الذي سلكته في هجرتها.

وإلى جانب اللغة يمكن الاستعانة بدراسة الهياكل العظمية البشرية، وبطرز الآثار المادية المكتشفة ولاسيما التماثيل والمنتوجات، والرسوم التي تصور الأشكال الآدمية لاعطاء فكرة تقريبية عن هوية الأقوام .. وحيث إن معرفة اللغة يرتبط بمعرفة الكتابة إذن فإنه لا سبيل إلى معرفة لغة سكان العصور التي سبقت العصر الشبيه بالكتابي في أقل تقدير من خلال معرفة اللغة كما أثبتت الدراسات الإنثروبولوجية التي تمت على الهياكل العظمية المكتشفة في المواقع المختلفة عدم جدواها في تحديد هوية الأقوام التي خلفتها إذ كانت النتائج غامضة، ومرتبكة، وتشير إلى اختلاط عرقي منذ أقدم العصور. أما الآثار المادية، ومنها التماثيل، والمنحوتات التي تحمل بعض الملامح أو السمات التي تدل على هوية أصحابها فهي قليلة جدًا وثبت من خلال النقلة المكتشفة منها بأنها نقشت أو حفرت وفق طرز فنية سائدة لا تعبر تعبيرًا دقيقًا عن سمات الإنسان البيولوجية. وهكذا تبقى معلوماتنا عن هوية السكان ولغاتهم في العصور الحجرية قليلة وتخمينية ولعل أكثر معلوماتنا مستمدة من مواقع اكتشاف مخلفات الإنسان المادية في تلك العصور. فاكتشاف عدد كبير من المواقع التي عاش فيها الإنسان ولو بصورة مؤقتة، في الجهة الغربية والشمالية الغربية من بلاد الرافدين في العصور الحجرية القديمة إنما يشير إلى الطريق

الذي سلكه الإنسان عند مجيئه أول مرة إلى تلك المنطقة وهو الغرب والشمال الغربي، أي إن شبه الجزيرة العربية كانت منذ أقدم العصور المعَينَ الذي جاء منه معظم سكان المنطقة منذ أقدم العصور .. في حين تشير مواقع الكهوف والمغارات في الشرق والشمال الشرقي إلى دخول أقوام أخرى إلى بلاد الرافدين من ذلك الاتجاه. يؤكد ذلك على أن السهل الرسوبي، وهو إقليم مفتوح من الشرق والغرب، قد تعرض في جميع عصور ما قبل التاريخ منذ أن بدأ الإنسان يعيش فيه إلى غزو متكرر من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية، وإلى هجرة القبائل القادمة من الغرب والشمال الغربي، أي من شبه الجزيرة العربية عن طريق بلاد الشام، وهذا ما يفسر لنا حقيقة أن معظم مدن السهل الرسوبي قامت على ضفاف نهر الفرات اليمنى .. وتؤكد التنقيبات التي أجريت في السنوات الأخيرة في سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج، وفي جزيرة البحرين، وسواحل الإمارات العربية على وجود تشابه كبير بين الآثار المكتشفة فيها مع ما هو مكتشف في مدن السهل الرسوبي من دور العبيد، أقدم أدوار الاستيطان في السهل، مما يشير إلى الاتصال الحضاري منذ الألف الخامس قبل الميلاد في الأقل. كما أن وجود أسماء ذات صياغة عربية قديمة بين أسماء حكام وملوك أول السلالات التي حكمت في بلاد الرافدين حسبما ورد ذلك في جداول الملوك السومريين يشير إلى تواجد الأقوام القادمة أصلا من شبه الجزيرة العربية في السهل الرسوبي منذ مدة مبكرة جدًا.

وقد حاول بعض الباحثين منذ الأربعينيات من القرن العشرين دراسة الآثار المادية واللغوية من الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد والمكتشفة في مدن السهل الرسوبي ومواقعه بهدف معرفة هوية الذين خلفوا تلك الآثار ولغتهم إلا أن تلك الدراسة لم تأت بآراء قاطعة وأجوبة شافية ، إذ أطلق على الأقوام اسم سكان الفرات الأوائل Proto-Euphrates نسبة إلى أماكن عيشهم ومواقع مدنهم في حين سميت لغتهم بلغة الفراتيين الأوائل، وهي لغة لا تنتمي إلى مجموعة اللغات التي تنتمي إليها اللغة الأكدية أو إلى اللغة السومرية، وهما اللغتان الرئيستان اللتان استخدمتا في بلاد الرافدين خلال الآلاف الثلاثة من السنين التي سبقت الميلاد.

د. عامر سليمان

المصادر والمراجع

- **الأحمد، سامي سعيد 1978**
  المدخل إلى تاريخ العراق القديم(القسم الأول، العراق القديم، بغداد)
- **أبو الصوف ، بهنام 1988**
  المستوطنات الأولى في المدينة والحياة المدنية (الجزء الأول، بغداد)
- **باقر، طه**
  مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (بغداد)
- **باقر ، طه 1981**
  ملحمة جلجامش (بغداد)
- **باقر، طه وآخرون 1980**
  تاريخ العراق القديم(الجزء الأول، بغداد)
- **بصمة جي، فرج 1946**
  الأختام الأسطوانية في المتحف العراقي (سومر، الجزء الثاني)
- **بصمة جي، فرج 1955**
  العصور الحجرية القديمة في العراق في ضوء المكتشفات الجديدة (سومر)
- **بصمة جي، فرج 1972**
  كنوز المتحف العراقي (بغداد)
- **بوترو، جين وآخرون 1967**
  الشرق الأدنى الحضارات المبكرة (ترجمة عامر سليمان، بريطانيا)
- **بيالينسكي، بيوتر، وآخرون 1987**
  تقرير أولي عن حفريات الموسم الأول للبعثة الآثارية

البولونية في رفان (بحوث آثار سد صدام وبحوث أخرى، بغداد)

- الدباغ، تقي والجادر، وليد، 1983
عصور ما قبل التاريخ (بغداد)

- الدباغ، تقي والجادر، وليد، 1985
البيئة الطبيعية والإنسان في حضارة العراق (الجزء الأول، بغداد)

- الدباغ، تقي والجادر، وليد 1988
الوطن العربي في العصور الحجرية (بغداد)

- حنون، نائل 1986
عقائد ما بعد الموت (بغداد)

- ساكز، هاري 1962
عظمة بابل(ترجمة عامر سليمان، لندن)

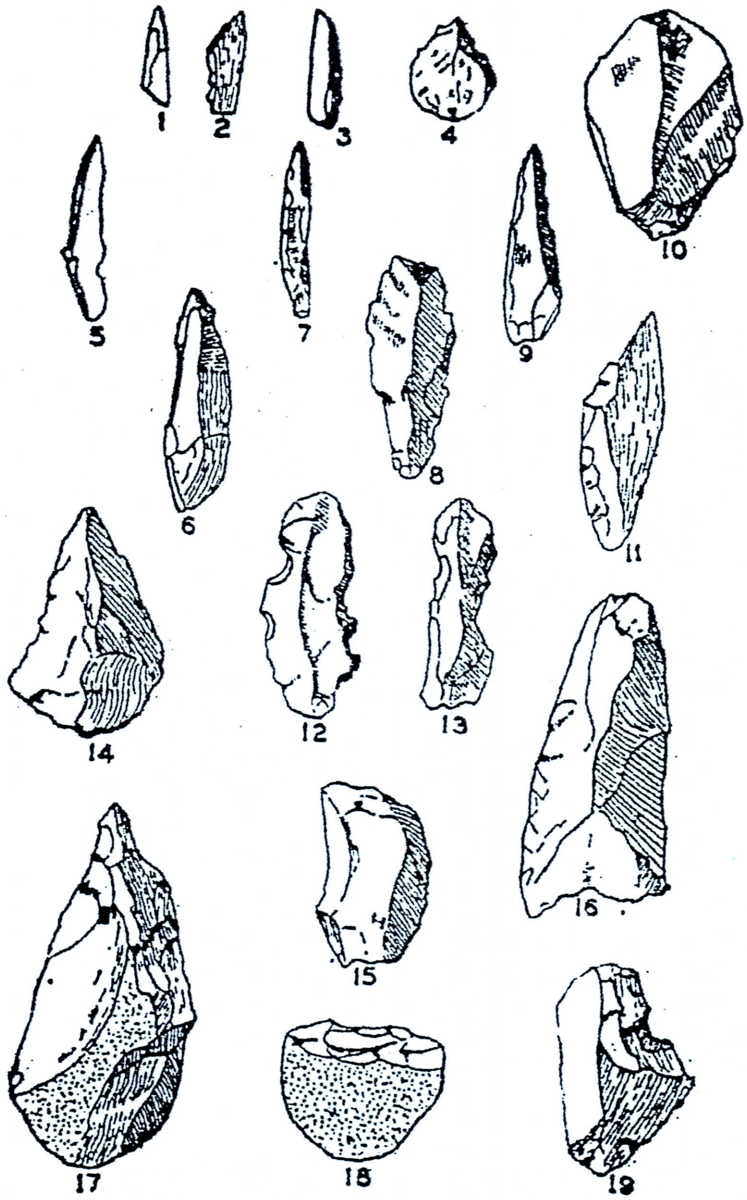
- سليمان، عامر1985
التراث اللغوي في حضارة العراق (الجزء الأول، بغداد)

- سليمان، عامر1991
العراق في التاريخ القديم (الجزء الأول، الموصل)

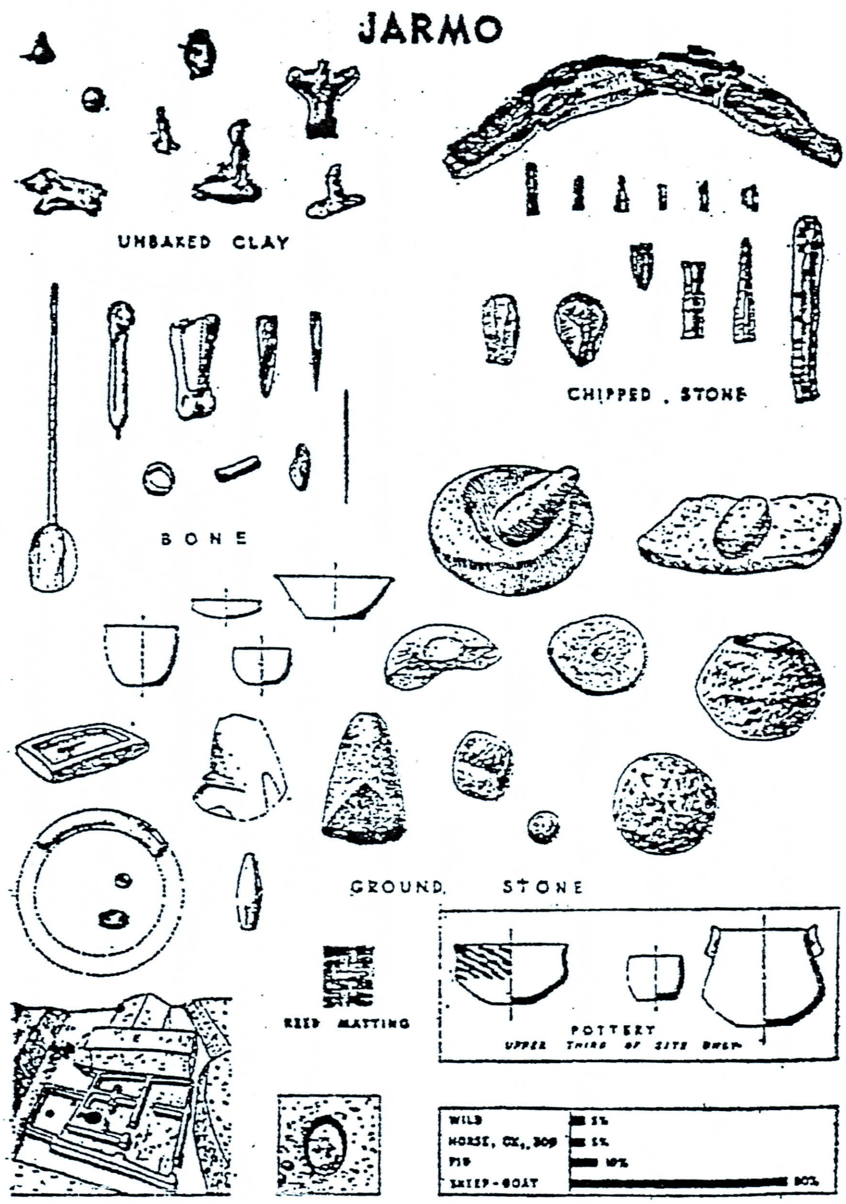
- سليمان، عامر2001
الكتابة المسمارية(الموصل)

- سوسة، أحمد 1963
فيضانات بغداد (بغداد)

- الهاشمي، رضا جواد1984
آثار الخليج العربي والجزيرة العربية (بغداد).



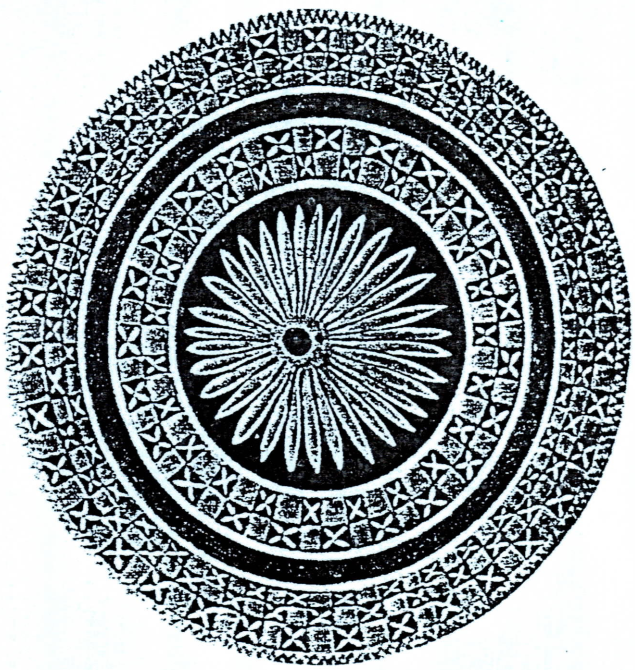
الشكل رقم (1) : الآت حجرية عراقية تعود للعصر الحجري القديم، الأرقام 1–16 من كهف شانيدار والأرقام 17–19 من بردا باكلة



الشكل رقم (2) : الآت وأدوات حجرية وعظمية وفخارية من قرية جرمر.



الشكل رقم (3) : فخار سامراء من تل حسونة.



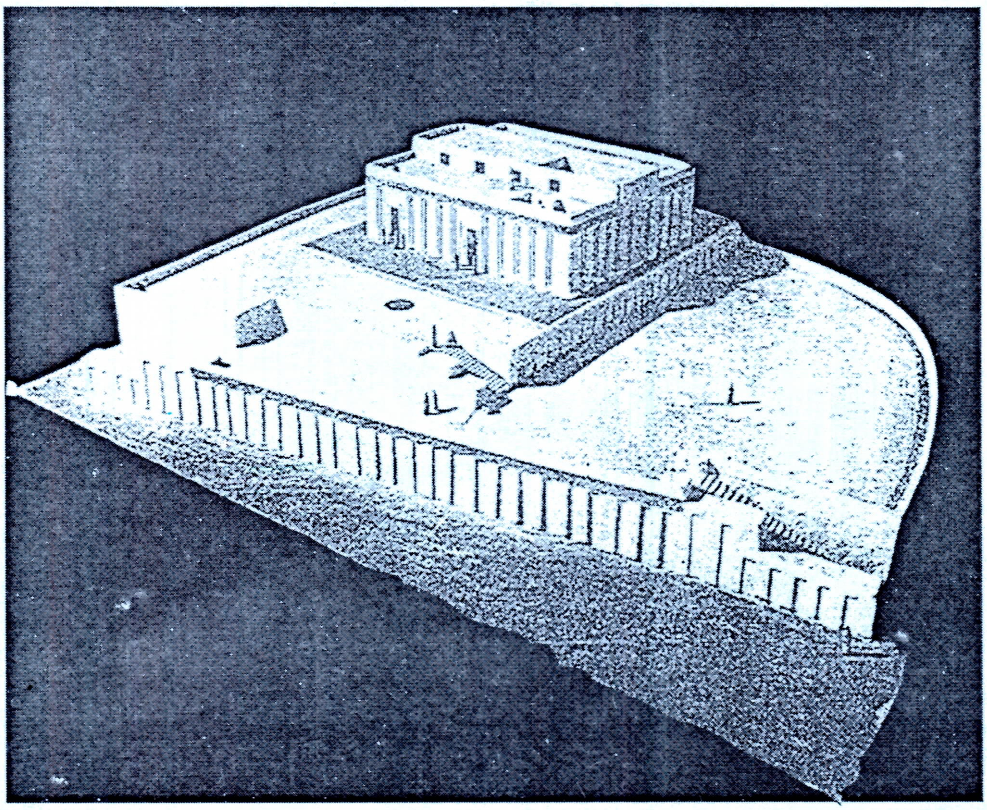
الشكل رقم (4) : فخار حلف من الأربجية في الموصل.



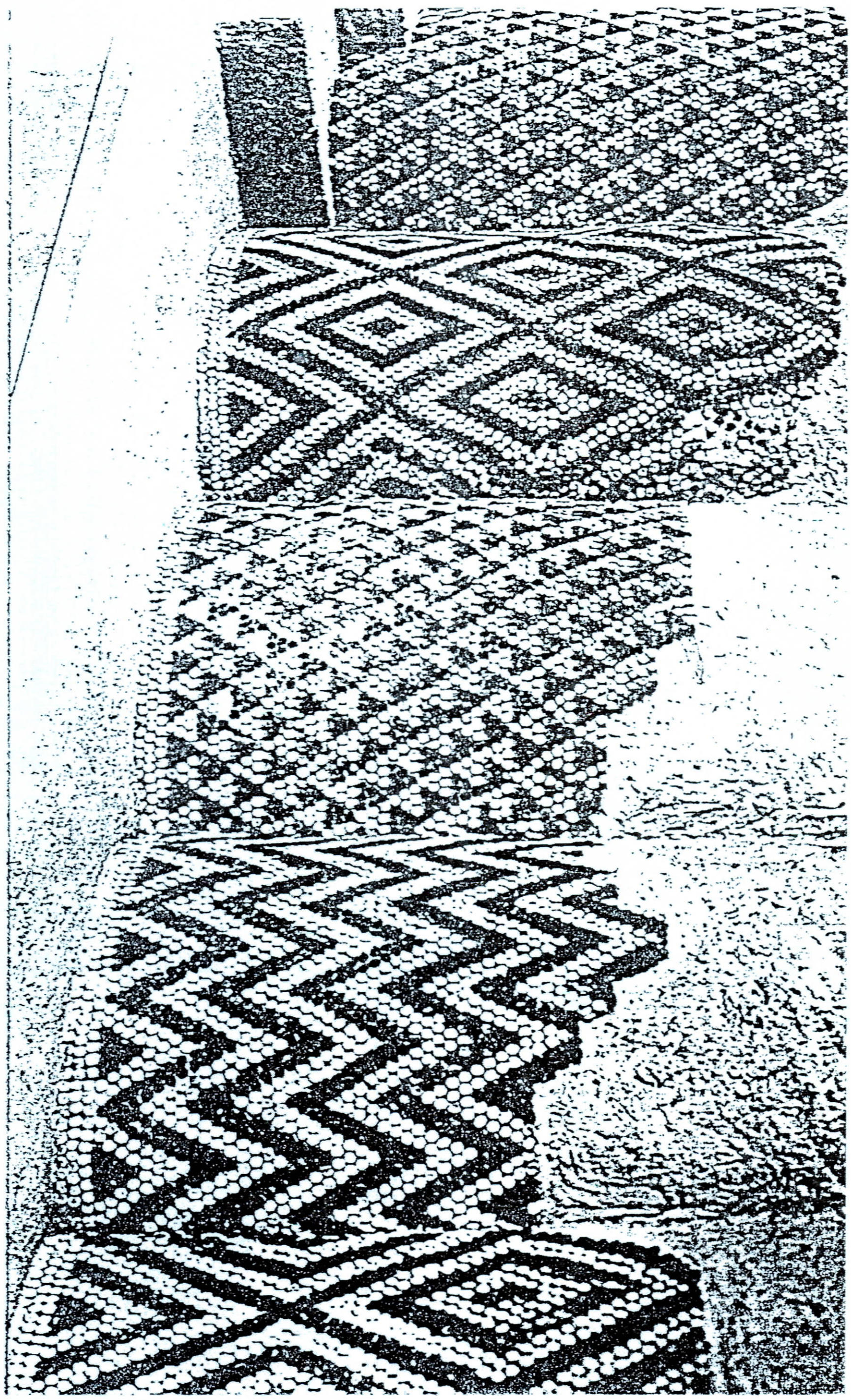
الشكل رقم (5) : فخار العبيد من أحد مدافن سنخر.



الشكل رقم (6) : أقدم الألواح الطينية من الوركاء.



الشكل رقم (7) : من أقدم المعابد في الجفل.



الشكل رقم (8) : المسامير الفخارية تزين واجهة معبد الوركاء.



الشكل رقم (9) : الإناء النذري من الوركاء.



الشكل رقم (10) : سلة صيد الأسود.

عصور ما قبل التاريخ في وادي النيل

من المتفق عليه إطلاق مسمى وادي النيل على الأرض الواقعة على جانبي نهر النيل والممتدة من الدلتا في أقصى شمال مصر حتى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق في الخرطوم بوسط السودان. وليس في هذا الوصف ما يمنع بطبيعة الحال من إضافة بقية أقاليم السودان جنوب الخرطوم لوادي النيل.

تقسم مصر في المصادر التاريخية عادةً إلى إقليمين هما، مصر العليا (الوجه القبلي) ومصر السفلى (الوجه البحري). الأولى تمتد من الشلال الأول حتى الأطراف الجنوبية للدلتا، حيث يجري نهر النيل شاقا أرضًا صحراوية مكونًا شريطًا ضيقًا من الأرض الزراعية. أما مصر السفلى فتشمل منطقة الدلتا حيث يتفرع النهر إلى عدة أفرع تصب في البحر المتوسط وتكثر فيها البحيرات والمستنقعات. وعلى الرغم من التشابه الطبيعي بين هذين الإقليمين إلا أنهما أسهما في الحضارة المصرية بأدوار مختلفة تجمعت وتكاملت لتمنحها طابعها المتميّز.

أما السودان فيقسم بدوره إلى قسمين، (النوبة السفلى)وتمتد من الشلال الأول إلى الشلال الثاني و(النوبة العليا) التي تمتد من الشلال الثاني حتى الخرطوم جنوبًا مع أن كثيرين يحصرون منطقة النوبة في الأرض الممتدة من الشلال الرابع شمالاً حتى الحدود المصرية السودانية. وفي بقية السودان من حدوده الجنوبية والشرقية حتى الخرطوم، حيث تجري الأنهر وأفرعها والمجاري والأودية الكبيرة، كما توجد بالسودان مساحات شاسعة بعيدًا عن مجرى النهر صالحة للزراعة والرعي قديمًا وحديثًا (الخريطة رقم 1). لقد أتاحت الظروف الطبيعية بيئات متنوعة للبشر على مرّ العصور كان لها عظيم الأثر في المنتج الحضاري، كما كان لها أثرها في مستويات الاتصال بين أقاليم قطري وادي النيل. وسوف يتضح كذلك لاحقًا عند وصفنا لتطور حضارات العصور الحجرية. ومن جهة أخرى لا يكتمل الوصف الجغرافي لوادي النيل دون الإشارة إلى الصحارى التي تحف بوادي النيل. فقد أوضحت الدراسات الجيولوجية والآثارية المتصلة أهمية الصحراء وخاصة الجزء المتاخم من الصحراء الكبرى لنهر النيل حيث تنتشر الآبار والعيون والمنخفضات والأودية الكبيرة التي تصب في النهر.

أما الصحراء نفسها فقد كانت هي أيضًا مأهولة بالسكان خلال معظم حقب العصور الحجرية، وهناك من الأدلة الأثرية ما يؤكد الاتصال والتنقل بين الصحراء ووادي النيل خاصة خلال فترات التقلب المناخي وما نتج عنه من امتزاج وتداخل بين الجماعات السكانية وثقافاتها الشيء الذي أثر بدوره في إثراء المنجزات الحضارية في هذا الجزء من العالم القديم.

وعلى ضفتي النهر في مصر والسودان نشأت أعظم حضارات الشرق الأدنى القديم. فالحضارة المصرية القديمة معروفة على نطاق واسع بعظمة منجزاتها في ميادين النظم السياسية والإدارية والعمارة والفنون والآداب والمعتقدات واللغات. وقد وصل إشعاع هذه الحضارة العظيمة ليس فقط للأقاليم المجاورة وإنما

تشكلت حياة الناس وقامت الفنون والعبادات والأساطير ولا يستطيع المرء استيعاب التاريخ الحضاري للمنطقة دون النظر في مزايا نهر النيل وعطاياه. ومثلما كان النيل وما زال حلقة الوصل بين السودان ومصر، فإنه كان أيضًا السبب في جذب الجماعات السكانية منذ أقدم العصور من غرب آسيا و شمال أفريقيا والصحراء الكبرى. لقد عاش الناس في المنطقة منذ عشرات آلاف السنين قبل ظهور الحضارة المصرية القديمة، فما هو تأثير النهر على إنسان ما قبل التاريخ؟ ومتى شق النيل مجراه الحالي؟ وكيف تتأثر وتيرة تدفق المياه فيه بالتحولات المناخية العالمية والإقليمية؟ تلك أنواع من الأسئلة التي طرحها علماء الآثار والجيولوجيا منذ وقت بعيد عندما رصد بعضهم المصاطب ذات المستويات المختلفة على جانبي الوادي ووجدوا في طبقاتها الأدوات الحجرية وعظام الحيوانات من عصور مختلفة.

لم تكن تلك الملاحظات المبكرة ذات شمولية أو صفة علمية محددة ولكن ما حدث خلال حملة إنقاذ آثار النوبة وما جرى بعدها من أبحاث ميدانية أوضح الكثير من التاريخ الجيولوجي للنهر. وقد تمّ حفر العديد من المواقع لربطها بالتكوينات الطبيعية، كما درست مقاطع مختارة من الرسوبيات الطمية وتكوينات الأودية التي تصب في النهر وجرت المقارنة بينها لتحديد أزمانها ومدلولاتها المناخية. وقد نشرت نتائج هذه الأبحاث بصورة وافية تناولت تاريخ النهر والمناخ القديم وربط الاستيطان البشري بأحوال البيئة وما تتيحه من موارد طبيعية صالحة للإنسان والحيوان. وتكفي هنا الإشارة إلى أهم هذه الدراسات مثل ما نشره داينزلن (de Heinzelin) في 1968م، وبتزر وهانسن (Butzer, K and Hansern, C) في 1968م، ورشدي سعيد في 1975م، وبهى العيسوي 1976، ووندورف وشيلد في 1976م (Wendorf and Schild) ، وفيرمش 1978م (Vermeerch).

أفادت هذه الدراسات والتي أعقبتها على مدى ثلاثة عقود في وضع إطار بيئي يمكن للباحثين أن ينظروا من خلاله إلى تعاقب الأدوار الحضارية في فترة ما قبل التاريخ ومقارنتها بالمخلفات الأثرية التي تنسب إلى فترة سادت فيها أوضاع بيئية بعينها.

تختلف نتائج الدراسات الجيولوجية حول قضية قدم نهر النيل بوصفه مجرى مائيًا تأتيه المياه من المنابع المعروفة اليوم في وسط أفريقيا وشرقها وكذلك حول معاني الظواهر الطبيعية التي تعكسها التكوينات الرسوبية بالقرب من ضفتي النهر. فالبعض يرى أن نهر النيل بدأ بحفر مجراه الحالي منذ أكثر من ربع مليون سنة مضت حيث دللوا على ذلك بوجود رسوبيات طمّية من أصل أثيوبي في تكوين دندرة (Dandra Formation). وبعد ذلك تقطع النهر ولم يعد لوضعه مجرى متصلاً إلا خلال الفترة 100.000 – 60.000 قبل عصرنا الحاضر. والرأي الآخر يقول بتاريخ حديث للنهر إذ كان في واديه عدد من الأنهر تأتيها المياه من الأمطار المحلية ومنابع أخرى بعيدة. وقد امتد مجراه من الهضبة الأثيوبية حتى شمال مصر لأول مرة في التاريخ المذكور أعلاه. ويختلف العلماء أيضًا في تفسيرهم للعلاقة بين فيضانات النهر الكبرى وأحوال المناخ المحلية، فالبعض يرى أن المصاطب الرسوبية تقابل فترات امتداد الجليد في شمال الكرة الأرضية. وعندما ينخفض مستوى مياه النهر لسنوات قد تطول أو تقصر فذلك يقابل

الفترات الدافئة التي تقع ما بين كل عصر جليدي وآخر. وهناك رأي آخر يقول : إن هذه المصاطب قد تكونت عندما كان النهر ضعيفًا بحيث أنه لم يتمكن من إكمال جريانه حتى الدلتا وأن أولها تكوّن منذ أكثر من 30.000 سنة مضت ولم يتمكن النهر من حفر مجراه مرة أخرى إلا منذ نحو 20.000 ق. م. وبحلول فترة العصر الحجري القديم المتأخر تكونت ما يسمى بمصاطب الصحابة – دراو ومسمس ثم زاد اندفاع النهر منذ نحو 10.000 ق. م وهي الفترة التي ظهرت بعدها مستوطنات العصر الحجري الحديث. واعتمادًا على الدراسات الجيولوجية والآثارية اللاحقة اقترح بعض الباحثين تعديلاً لنموذج الفيضان الكبير الذي يعقبه انخفاض واضح في مستوى مياه النهر ثم فيضان كبير آخر، إلى افتراض ارتفاع هائل في مستوى مياه النهر تتخلله انخفاضات بسيطة متذبذبة. ومما لا شك فيه أن نهر النيل يتأثر بالظروف المناخية المحلية والعالمية وهو مع الصحراء المجاورة بمناخاتها المتباينة عبر الزمن شكلاً عنصرًا بيئيًا مهمًا تحددت بموجبه أنماط استيطان السكان خلال حقب العصور الحجرية.

فخلال الأزمنة المطيرة نجد مواقع / مستوطنات الصيادين منتشرة في أودية وبحيرات شرق الصحراء الكبرى وبحيراتها مثلما هي موجودة بالقرب من وادي النيل نفسه وذلك خلال فترتي العصر الحجري القديم الأسفل والأوسط. والأبحاث التي أجريت مؤخرًا في منطقة بئر صحراء وبئر طرفاوي (300 كلم غرب أبو سمبل) أوضحت تعاقب خمس دورات على الأقل من الأحوال المطيرة التي تخللتها فترتان جافتان وأخرى تنحصر فيها المياه في بقع محدودة، ويقدر عمر أقدم الفترات المطيرة بنحو 350.000 قبل الميلاد. وخلال فترة العصر الحجري القديم الأوسط نجد أن الصيادين أقاموا معسكراتهم بالقرب من مصبات الأودية في النهر أو على حافة السهل الفيضي وكذلك في أطراف سهل السافنا القريب من وادي النيل. ويبدو أن عمليات التنقل بين هذه المواقع كانت تحكمها وفرة الموارد الطبيعية التي تحدثها الأمطار، ومستوى فيضان النهر الذي يعيق الإقامة في السهل الفيضي.

بحلول الحقبة الأخيرة من عصر البلايوستوسين الجيولوجي (Pleistocene) 18000 – 10.000 ق. م، بدأت تسود حالة جفاف اشتدت بمرور الوقت لتبلغ ذروتها مدًى لم تعرفه الأحوال المناخية في المنطقة من قبل. والأبحاث الجيولوجية والجيومورفلوجية في كل من السودان ومصر وشرق أفريقيا تشير نتائجها إلى حالة من الجفاف يعكسها انخفاض مستويات البحيرات أو جفافها تمامًا، كما اختفت مياه السبخات والمنخفضات في الصحراء وتوقفت الأودية عن الجريان نحو النهر. أما نهر النيل فقد بلغ أدنى مستوى له خلال هذه الفترة. وفي السودان نجد أن النيل الأبيض قد تقطع تمامًا لعدم وصول المياه من بحيرة فكتوريا بدرجة كافية إليه، كما أن النيل الأزرق انخفض مستوى المياه فيه بدرجة ملحوظة. لقد زحفت كثبان الرمال لتبقى بالقرب من النهر وتراجعت الأحزمة النباتية للجنوب من حدودها الحالية بما لا يقل عن 500 كلم، ولم تتحسن أوضاع المناخ إلا مع بداية عصر الهولوسين (Holocene) 10.000 ق. م. لقد كان أثر الجفاف واضحًا على استيطان الصحراء، فقد خلت من المواقع الأثرية الممثلة لفترة العصر الحجري القديم الأعلى وقد هاجرت مجموعات من السكان إلى وادي النيل والأودية القريبة منه، حيث اختلطت في

المنطقة مجموعات ذات ثقافات متباينة تعكسها مجاميع الأدوات الحجرية مختلفة الأنواع كما سيرد ذكره فيما بعد. أوضحت أعمال وندروف (Wendorf) وآخرين في وادي الكبانية غرب أسوان حجم التأثيرات التي أحدثتها فترة الجفاف في حياة الناس وهي قد بلغت قمتها في (17.500 – 15.000 ق. م)، فخلالها تجمعت مجموعات الصيادين قريبًا من النهر حيث مارسوا الصيد المكثف للأسماك التي وجد مئات الآلاف من عظامها. ويعتقد أن الأسماك تُجمع في أوقات الوفرة وتحفظ لأيام الشدة. وعندما يأتي الفيضان تبعد المستوطنات قليلاً عن النهر. وقد أضاف السكان لغذائهم النباتات والجذوع، حيث تم الكشف عن الكثير من أدوات الطحن أو الجرش ضمن المعثورات الحجرية. إن اعتماد مجموعات كبيرة من الصيادين على موارد النيل المحدودة أدى لمنافسة متوقعة نتج عنها اقتتال كان سببًا في موت البعض كما يدل عليه وجود الشفرات الحجرية في منطقة البطن من جسم أحد الهياكل المكتشفة في القبور التي نقبت والأدلة الأثرية الواضحة للموت نتيجة للعنف في هذه الفترة نجدها بوضوح أكبر في جبانة جبل الصحابة بالقرب من وادي حلفا التي نقبت في الستينات من القرن الماضي. إذ تبين أن ما يقرب من 40 في المائة من الأفراد ماتوا نتيجة لممارسة العنف وكان قد وجدت مع الهياكل رؤوس الأسهم الحجرية في مواضع تدل على الإصابة بها.

في عصر الهولوسين الذي أعقب نهاية العصر الجليدي الأخير، بدأت تظهر في وادي النيل مثل غيره من مناطق الشرق الأدنى أنماط معيشية جديدة تقوم على الزراعة واستئناس الحيوان وصنع الفخار. سادت في هذه الفترة دورات مناخ جديدة، إذ بعد آخر فيضان كبير للنهر الذي انتهى نحو 6000 ق. م (تكوين عنيبه) صارت الفيضانات على النمط السنوي المعروف الآن تقريبًا. ومن الملاحظ من توزيع مواقع العصر الحجري الحديث أنها تتركز بالقرب من ضفتي النهر أو قريبًا من الأودية التي تصب فيه. ففي السودان يتسع مثل هذا التوزيع ليشمل سهل البطانة ودلتا نهري القاش وعطبرة. ومثلما هو متوقع فإن أحوال البيئة تتنوع بتنوع الخصائص الجغرافية في هذه الأقاليم وأصبح المناخ المحلي يؤثر بدرجة كبيرة في عمليات الاستيطان. شهد عصر الهولوسين فترتين مطيرتين رئيستين تتخللهما فترات جفاف تزيد أو تنخفض حدتها من مكان لآخر. وتشير مجمل الأدلة الأثرية إلى أن تجمعات الصيادين باتت منذ أواخر العصر الحجري القديم الأعلى تميل نحو الاستغلال المكثف للموارد الطبيعية المتوافرة وتبقى في مناطقها لفترات أطول مما كان معتادًا في السابق. وفي الصحراء الغربية المصرية نجد أن الأحوال المناخية الطبيعية تحسنت مرة أخرى بعد فترة الجفاف الحاد سابق الذكر فهطول الأمطار الغزيرة أدى إلى إحياء الغطاء النباتي كما عادت الحيوانات إلى أماكنها الطبيعية. ففي واحات سيوة والقطارة والخارجة تحسنت الأحوال المناخية وتجمعت فيها مجاميع سكانية تدل العناصر المادية المكتشفة في مستوطناتها على أنهم تبنوا نمط حياة العصر الحجري الحديث. وقد وجدت مواقع هذه الفترة منتشرة على امتداد الصحراء الغربية في السبخات والأودية والمنخفضات حيث تمكن بعض هذه الجماعات من استئناس الأبقار وصنع الفخار منذ الألف التاسع ق. م. وهكذا استمرت تلك الأوضاع المناخية المواتية حتى نحو 3000 ق. م عندما حل الجفاف تدريجيًا مرة أخرى في الصحراء مما دفع

بمجموعات كبيرة من الناس للانتقال نحو وادي النيل الذي تأثر هو الآخر بالتحولات الجديدة. وتشكل هذه الملاحظات عن البيئة القديمة إطارًا وقاعدة نستند عليها عندما ننظر في تسلسل الأدوار الحضارية لفترة ما قبل التاريخ في وادي النيل.

العصر الحجري القديم:

استخدم الآثاريون الذين درسوا المواد المكتشفة في المواقع التي تعود إلى هذه المرحلة الأولى من ما قبل التاريخ، المنهج المتبع في أوربا والشرق الأدنى وخاصة فيما يتعلق بتصنيف مجاميع الأدوات الحجرية التي تشكل المادة الأساسية التي تقوم عليها دراساتهم. وعندما تكون الأدوات المكتشفة مغايرة لما هو موجود من النواحي التقنية والشكلية، فإنهم يبدون عليها ملاحظات ويعطونها اسمًا محليًا لتأكيد تميزها. ويقسم العصر الحجري القديم عادة إلى ثلاث مراحل هي الأسفل والأوسط والأعلى وكل مرحلة منها تتميز بأنواع من الأدوات وبتقنيات متخصصة في تشكيلها، إضافة إلى ابتكارات حضارية أخرى تتصل بحياة الناس المادية والمعنوية.

العصر الحجري القديم الأسفل:

المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم تبدأ في أفريقيا بتاريخ أقدم أدوات حجرية معروفة حتى الآن وذلك في حدود مليونين ونصف من السنين .. وهي محصورة في جنوب أفريقيا وشرقها. وتقسم صناعة الأدوات الحجرية في هذه المرحلة إلى نوعين:

النوع الأول : يسمى بالصناعة الألدوانية (Oldowan Industry) التي تشتهر بالأدوات الحصوية البسيطة مثل السواطير والمفارم والأدوات الكروية والمطارق إضافة إلى الشظايا غير المشذبة وتستمر هذه التقنية في تصنيع الأدوات لأكثر من مليون ونصف مليون سنة تقريبًا. وقد وجدت خارج أفريقيا في مواقع قليلة في غرب آسيا وجنوب أوربا وأكثر عددًا منها في شرق آسيا ولكن تاريخها أحدث نسبيًا.

لم تعرف في وادي النيل مواقع من نوع الألدوانية في وضع يمكن تأريخه بدقة، ولكن هناك ملتقطات سطحية لأدوات شبيهة بها وجدت في أكثر من مكان. ومن أهم المكتشفات الحديثة في شمال السودان يجدر الإشارة إلى موقع كدنارتي بجزيرة بدين جنوب مدينة دنقلا (وجنوب الشلال الثالث) حيث عثر على كمية من الأدوات الألدوانية مثل السواطير والقواطع وغيرها من أدوات حصوية ومعها كمية من عظام الحيوانات المختلفة المنقرضة التي قدر عمرها بين 1.6 مليون ونصف مليون (الشكل رقم 1). مما يجعل هذه الأدوات الحجرية قريبة في عمرها من المرحلة الثانية من تطور الصناعة الألدوانية والمؤرخة لنفس هذه الفترة تقريبًا في أفريقيا. وهكذا فإن هذه المكتشفات تمثل حتى الآن أقدم أدوات من نوعها يعرف تاريخها على وجه التقريب في السودان. إن هذا الاكتشاف يعزز بوضوح وجود السلالات الأولى من البشر في وادي النيل : أما ندرة المواقع الأثرية من هذا النوع فربما كان بسبب التحولات التي حدثت في تكوينات الأرض مما أدى إلى اختفاء الطبقات الرسوبية التي كانت تحوي مثل هذه المعثورات.

النوع الثاني : من صناعات هذه المرحلة وهو ما يسمى بالصناعة الأشولية (Acheulian Industry) التي أعقبت الألدوانية وهي قد عرفت أيضًا لأول مرة في أفريقيا ولكنها واسعة الانتشار في العالم القديم بما في ذلك أوربا.

وتمتاز الأشولية ضمن ما تمتاز به الفؤوس اليدوية جيّدة التشذيب من على وجهي الأداة ولها رأس مدبب وأطراف حادة. ويمكن تصنيعها في أشكال وأحجام مختلفة ، مما جعل البعض يضعها في مراحل تطورية متعاقبة. وتصحبها ابتكارات حضارية أخرى مثل استخدام النار واستغلال بيئات طبيعية متباينة، مما يدل على قدرة الإنسان في ذلك الوقت من الحركة والتكيف على أوضاع مناخية مختلفة. لم يكتشف بعد من الصناعة الأشولية خارج أفريقيا ما هو في حدود تاريخها في أفريقيا .. ففي شمال أفريقيا بما فيها وادي النيل نجد المواقع الأشولية منتشرة في أكثر من مكان ولا يعرف تاريخها على وجه التحديد ولكنه يقدر في حدود نصف مليون سنة، وذلك من المعطيات الجيولوجية وخصائص الأدوات الحجرية. ويظن البعض أن احتمال وجود مواقع أشولية أقدم من ذلك في وادي النيل أمر متوقع ؛ لأنه يمثل أحد المعابر الطبيعية للإنسان في هجراته المبكرة إلى آسيا. توجد المواقع الأشولية في مصر بكثرة في الصحراء الغربية وبالقرب من الواحات ومنطقة الأبيار آنفة الذكر ولكن القليل منها وجد بالقرب من النهر. ومثال ذلك ما اكتشف أوائل القرن الماضي في العباسية وتلك التي وصفها ساندفورد وآركل في صعيد مصر ومنطقة النوبة. وقد حاولا رصد تسلسل صناعة الأدوات الأشولية وربطها بالمصاطب القريبة من النيل. أما المسوحات الأثرية الحديثة فقد كشفت عن الكثير من المواقع الأشولية في وسط مصر حيث أمكن ربطها بتاريخ نهر النيل، كذلك وجدت في شمال السودان حول مدينة وادي حلفا. ومن المواقع المهمة في هذه المنطقة يجدر بالذكر موقع أرقين 8 ؛ لأنه يمدنا بمعلومات مهمة حول الاستيطان المبكر، إذ كشفت فيه عن ثمانية أكوام تنتشر فوقها الأدوات الحجرية على مساحة قدرها 500 متر مربع تقريبًا. وقد وجدت فيه كمية من الأحجار المرصوفة في شكل دائري يُظن أنها بقايا كوخ مما يعد شاهدًا على أن الموقع كان معسكرًا لإقامة الصيادين في ذلك الوقت. ومن الأدوات الرئيسة فيه الفؤوس اليدوية والقواطع والأقراص والشظايا الكبيرة؛ إضافة إلى أنواع أخرى من الأدوات صغيرة الحجم نسبيًا. وفي النوبة السودانية وعلى المرتفعات بعيدًا عن ضفة النهر وجد عدد من المواقع الأشولية التي حوت أنواعًا من الأدوات المشذبة بدرجة تشير إلى تطور تقني ونوعي ربما استغرق وقتًا طويلاً.

وقد لاحظ أنطوني آركل من قبل هذه الاستمرارية الطويلة في الاستيطان الأشولي عندما نقب في موقع أبو عنجة جنوب أم درمان بالقرب من نهر النيل. وكشفت الحفريات هناك على عدة طبقات إحداها مكونة من مترسبات فرع لنهر قديم يسبق النيل الحالي وفيها وجدت كمية كبيرة من الأدوات الأشولية أميزها الفؤوس اليدوية المتنوعة الأشكال (الشكل رقم 1).

ومهما كانت معلوماتنا عن هذه الفترة شحيحة مقارنة بالمناطق المجاورة، إلا أن ما هو معروف حتى الآن يشير بوضوح إلى انتشار صيادي العصر الحجري المبكر على طول النيل. والأبحاث الميدانية الجارية الآن في أكثر من مكان في مصر والسودان لابد أن تمدنا بمعلومات جديدة خاصة وقد توافر لها الإمكانات العلمية الحديثة مما يؤهلها لذلك.

العصر الحجري القديم الأوسط:

خطا البشر خلال الفترة الممتدة من 150.000 عام قبل الميلاد خطوات مهمة في اتجاه تحسين مستوى تصنيع

أدواته وتنويعها وإضافة مواد أخرى في قاعدة غذائية باستكشافه مناطق جديدة في العالم بما فيها الأقاليم الباردة من أوربا. وفي هذا العصر أيضًا شاع استخدام النار بأكبر مما كان، وبرزت بوادر الفنون البسيطة تتمثل في صنع الخرز ورسم الخربشات البسيطة على العظم أو الحجر كما بدأ الإنسان دفن الموتى ولو بطريقة بدائية. إن أهم ما يذكر عادة في مجال تصنيع الأدوات هو اعتماد تقنية جديدة تستخدم لتجهيز النوى بطريقتين متخصصتين يسميان اللفالوازية (Levallois) والموستيرية (Mousterian) وتشتهران في مناطق في أوربا وشمال أفريقيا وشرق المتوسط. وكانت معظم أدوات الإنسان في هذه المرحلة تشكل على الشظايا عوضًا عن نوى الحصى أو الفؤوس في العصر السابق كما أن تشذيبها يعكس قدرة وتحكمًا تقنيًا واضحًا.

أشرنا آنفاً إلى أن بعض الباحثين ظنوا أن وادي النيل لم يساهم في تطورات هذه المرحلة مع غيره ولكن آراءهم تغيرت بعد الاكتشافات الحديثة التي أوضحت بجلاء ثراء المنطقة الحضاري، بل تميزها بتقاليد في تشكيل الأدوات الحجرية غير المعروفة في الأقاليم المجاورة. ومهما يكن من أمر فإن مجمل الأدلة الأثرية، فيها ما يكفي لجعل وادي النيل ضمن الدائرة الحضارية التي تشمل حوض المتوسط وغرب آسيا وأوربا .. وخلال الفترة المشار إليها تمكن الإنسان من التكيف مع البيئة النيلية التي أصبحت جزءًا من دورة الحياة والاقتصاد المعيشي للصيادين ، إذ نجد مواقع صناعة خور موسى في منطقة وادي حلفا، على سبيل المثال، قريبة من النهر على السهل الفيضي. وتدل عظام الحيوانات على أن أصحابها استغلوا بيئة السافنا مثلما استفادوا من أسماك البرك والمستنقعات القريبة من النهر. ومن جهة أخرى أوضحت الدراسات الحديثة أن بعض تقنيات صناعات العصر الحجري القديم الأوسط استمرت في وادي النيل لفترة طويلة بعد أن اختفت من أمكنة كثيرة في الشرق الأدنى. وكما سيأتي ذكره، فإننا نجدها أحيانًا جنبًا إلى جنب مع تقنيات العصر الحجري القديم الأعلى، أي مع المرحلة التي تليها.

توجد معظم مواقع العصر الحجري القديم الأوسط في أواسط مصر وجنوبها والنوبة السودانية إضافة إلى الصحراء المصرية، ويُعرف القليل عنها في بقية شمال السودان حيث تم تعريف بعض مواقعها في منطقة دنقلا . وفي داخل السودان يقتصر وجودها على ملتقطات سطحية وقليل من المواقع التي تحوي طبقات رسوبية. ومن الواضح أن شكل مواقع هذه المرحلة ومحتواها ينطوي على اختلافات حضارية وينتظر تحديد معالمها المسوحات الأثرية التي تفتقدها معظم أقاليم السودان الداخلية. ولم يكن متاحًا تحديد عمر الصناعات الموستيرية في النوبة السودانية سوى عن طريق المقارنات الشكلية والظواهر الجيومورفلوجية التي ترتبط بها تلك المعثورات. ومن جهة أخرى كان من الممكن الحصول على تواريخ كربون 14 لمواقع صناعة خور موسى (Khormusan Industry) التي تُعد الآن ضمن الصناعات الحجرية لهذه الفترة، إذ اتضح أنها أقدم من 35.000 عام ق. م.

وفي أواسط مصر كشفت الأبحاث الحديثة عن عدد من مواقع الفترة حول ابيدوس وسوهاج متصلة بنظام نهر النيل حيث وجدت الأدوات والمواد العظمية في أمكنتها الأصلية. ولا تختلف مجاميع الأدوات الحجرية عن مثيلاتها

في المنطقة حيث توجد فيها التقنية اللفالوازية بوضوح، وقد تمكن الذين نقبوا في هذه المواقع من توثيق تسلسل تطوري يربط بينها وبين صناعة المرحلة التالية من العصر الحجري القديم الذي ينسب إلى فترة انتشار ما يسمى بسلالة الإنسان العاقل الحديث. وفي الصحراء الغربية المصرية وامتدادها في شمال السودان كشفت المسوحات الأثرية عن الكثير من المواقع التي تعود لهذه الفترة وهي قريبة من موارد المياه وما يتصل بها من عناصر طبيعية نباتية وحيوانية وفرت قاعدة غذاء كافية لمجموعات الصيادين. ومن أمثلة هذه المواقع المهمة ما اكتشف في بئر طرفاوي وبئر صحراء حيث أمكن تحديد ثلاثة تقاليد في تشكيل الأدوات الحجرية تعكس تنوعًا في أسلوب تصنيع الأدوات وفي أشكالها، وهي الموستيرية التي تغلب عليها الأدوات المسننة والمكاشط والرؤوس وتتميز بكبر حجم الأدوات، ثم تليها أخرى تمتاز إضافة للأنواع السابقة بوجود قليل من الأدوات ورقية الشكل وهي مشذبة الوجهين، أما الثالثة فتميزها القطع الورقية المذكورة بأعداد أوفر إضافة إلى الرؤوس المجنحة ومشذبة الوجهين. والأخيرة تنسب إلى تقليد صناعة بئر الطير (الصناعة العطرية Aterian) واسعة الانتشار إذ تمتد من شمال أفريقيا وعبر الصحراء حتى وادي النيل.

وفي النوبة السودانية كُشف عن عدد من التقاليد في تصنيع مجاميع الأدوات الحجرية التي جمعت من عشرات المواقع. وبعضها يعكس صفات محلية تتمثل في أشكال بعض النوى التي تختلف عن الأنواع المعهودة في شمال أفريقيا أو في شرق المتوسط. كذلك لوحظ أن بعض الأدوات المشذبة تشبه في بعض خصائصها أدوات مماثلة في شرق أفريقيا ووسطها مما يرجح احتمالات الاتصال الحضاري مع داخل القارة الأفريقية .. ونظراً لهذه الخصائص أطلق عليها مسمى الصناعات الموستيرية النوبية. وهناك مجاميع أدوات أخرى بينها مواصفات مشتركة أطلق عليها الصناعة الموستيرية ذات الأدوات المسننة (Denticulate Mousterian). لقد بنيت هذه التقسيمات على أسس التصنيف النوعي والتقني على نحو ما تمّ في دراسة الصناعات الموستيرية في أوربا والشرق الأوسط.

وجدت جميع المواقع الموستيرية النوبية فوق السطح في الجبال القريبة من النهر ولا يتعدى عدد المدروس منها أحد عشر موقعًا. وقسم الموستيري النوبي إلى نوعين (أ) و(ب) على أساس وجود الفؤوس اليدوية في كل منهما أو غيابها، وتشمل المجموعة (أ) ستة مواقع بينما تشتمل المجموعة (ب) على ثلاثة مواقع فقط. تتميز الأدوات المشذبة في المجموعة (أ) بكثرة الأنواع الموستيرية المعروفة مثل المكاشط والمسننات والسكاكين، ولكنها تختلف عن مثيلاتها في أوربا بغياب الرؤوس اللفالوازية المعروفة. أما الموستيري ذو الأدوات المسننة فإنه يستخدم التقنية اللفالوازية كالموستيري النوبي، إلا أن نسبة الأدوات المسننة فيه عالية جدًا. ويعتقد أن هذه الصناعات الحجرية تمثل مخلفات لمجموعات بشرية ذوات تقاليد ثقافية مختلفة وهو التفسير نفسه الذي طرحه فرانسوا بورد (Bordes, F) من قبل للتنوع الموجود في الصناعات الموستيرية في جنوب غرب فرنسا. وفي دراسة مفصلة لاحقة، تخطت التصنيف الشكلي للأدوات، إلى اعتماد عناصر تقنية أخرى دقيقة، واقتراح نموذج تحليلي يرجع ظاهرتي الشبه والاختلاف إلى تنوع في مستويات التكيّف البيئي، واختلاف في وظائف المواقع نفسها وما وجد فيها من معثورات.

ينسب الآن إلى العصر الحجري القديم الأوسط أيضًا ما يعرف بصناعة خور موسى التي عرّفها أول مرة أنطوني ماركس (Marks, A) عندما درس المادة الأثرية التي جمعت من سبعة مواقع بالقرب من وادي حلفا. وقد وصفها في البداية بأنها صناعة حجرية متميزة تأتي زمنيًا وحضاريًا بعد الصناعات الموستيرية المنسوبة للعصر الحجري القديم الأوسط وذلك اعتمادًا على تفسير خاطئ لأمكنة بعض المواقع في التسلسل الطبقي لترسبات النيل، ولأخطاء علمية صاحبت تحديد تواريخ كربون 14 التي أمكن الحصول عليها في وقت تلك الدراسة. إن صناعة خور موسى تعتمد على تشكيل أدوات الشظايا المنتجة أساسًا من نوى الفالوازية وتميزها من الأدوات المشذبة المناقش والمكاشط (الشكل رقم 1). اعتمد أصحاب هذه الحضارة على الصيد البري لحيوانات سهل السافنا الكبيرة وكذلك على الأنواع القريبة من النهر ثم أضافوا إليها الأسماك التي وجدت بقاياها مع المعثورات الحجرية. ومن المتوقع بطبيعة الحال أنهم استغلوا أيضًا الموارد النباتية ليكملوا متطلبات الغذاء ذلك، لأن مواقعهم كانت محصورة في السهل الفيضي للنهر. وفي وقت لاحق تمت مراجعة تأريخ صناعة خور موسى بحيث اتفق الباحثون فيها إلى تأريخ يبلغ عام 40.000 ق. م كما أعيدت دراسة مجاميع الأدوات الحجرية على أسس جديدة فاتضح أنها تمثل وجهًا آخر من وجوه صناعات العصر الحجري القديم الأوسط. وهي عمومًا تقليد محصور في منطقة وادي حلفا، إذ إن أقصى نقطة شمالية وجدت فيها هي وادي الكبانية في جنوب مصر كما أنها لم توجد جنوب الشلال الثاني.

وأوضحت دراسة أخرى أن صناعة خور موسى معاصرة للموستيري النوبي وأن الاثنين معًا يعودان للمجموعة السكانية نفسها التي عاشت في منطقة وادي حلفا في الفترة ما بين نحو 60.000 و 30.000 ق. م. إن الاختلاف في توزيع أمكنة المواقع وفي محتوياتها يرجع أساسًا إلى تنوع في البيئة بسبب التغيّر في المناخ وفي منسوب النهر مثلما يرجع الاختلاف في إستراتيجيات التكيّف البيئي والوظائف، المتمثل في التنقل الموسمي بين السهل الفيضي (مواقع خور موسى) وبين سهل السافنا (مواقع الموستيري النوبي). وهكذا فإن وادي النيل شهد في فترة العصر الحجري القديم الأوسط عددًا من الصناعات الحجرية ذوات تقاليد تقنية متنوعة بعضها متزامن وبعضها الآخر متعاقب زمنيًا. وكلها تعبر عن التطور الحضاري في هذه الفترة على الرغم من صعوبة تحديد كثير من تفاصيل حياة السكان في ذلك الوقت.

العصر الحجري القديم الأعلى:

يُعد هذا الدور من أهم مراحل فترة ما قبل التاريخ، نظراً لما حدث خلاله من تطور في حياة الإنسان المادية والروحية كما تدل عليه المكتشفات الأثرية على مدى سنوات طويلة في أوربا والشرق الأدنى. لقد حدث في هاتين المنطقتين بصفة خاصة تحولات حضارية مسّت كل أوجه حياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والفكرية خلال هذه الحقبة مما جعلها قاعدة انطلقت منها كل التطورات الحضارية العميقة التي أنجزتها البشرية في نهاية ما قبل التاريخ. تحوي المواقع الأثرية العائدة لهذه الفترة ثروة من الأدوات الحجرية المتميزة وكذلك العظمية وقطع الزينة والرسوم الجدارية الملوّنة وأشغال النقش والنحت المختلفة.

وقد تمكن الإنسان من ارتياد مناطق جغرافية جديدة أتاحت له موارد غذائية متنوعة تكفي الأعداد المتزايدة نسبيًا من البشر.

لقد كانت منطقة الشرق الأدنى أحد المراكز الأولى التي ظهرت فيها هذه السمات الحضارية الجديدة وخاصة شرق المتوسط وشمال أفريقيا وذلك نحو 40.000 ق. م. تبدو أول سمات التغيّر في تشكيل الأدوات الحجرية عندما حلّت تقنية تصنيع الشفرات والنصال مكان تصنيع الشظايا. وتبدو هذه الخطوة بتجهيز نواة هرمية بطريقة غير مباشرة في اتجاه طولي لكسر النصل أو الشفرة، وفي أواخر الفترة ظهرت تقنية أخرى تقوم على الضغط باستخدام قرون الحيوان مما أتاح قدرًا كبيرًا من التحكم في عمل الأدوات. وأضاف الإنسان لها أدوات جديدة شكلها من العظم والعاج والخشب. تزامن ذلك مع انتشار السلالة البشرية المعروفة باسم الإنسان العاقل الحديث (Homo sapien sapien).

لم يكن وادي النيل بطبيعة الحال بعيدًا عن مجريات هذه التطورات فقد ساهم مع غيره من مناطق العالم القديم بقدر كبير في إثراء التجربة الإنسانية في تلك المرحلة من التاريخ الحضاري. أوضحت المكتشفات الأثرية الحديثة ظهور تقنيات صناعة أدوات العصر الحجري القديم الأعلى في أواسط مصر نحو 35.000ق. م. على غير ما كان متعارف عليه في السابق مما يجعل هذا الجزء من وادي النيل في مصاف أوربا الغربية وشمال أفريقيا. وأشار الذين نقبوا في هذه المواقع إلى عدم تمكنهم من إيجاد أدلة على تطوير هذه التقنيات الحديثة محليًا، بل إنهم يعتقدون أن ظهورها كان نتيجة لوصول تيارات ثقافية من خارج المنطقة من شرق المتوسط أو الداخل الأفريقي. وهناك من المواقع ما وجدت فيه كلتا تقنيتي العصر الحجري القديم الأوسط والأعلى معًا. طرحت في السنوات القليلة الماضية قضية انتشار الإنسان العاقل الحديث وكان محورها نظرية المهد الأفريقي وانتشاره منها إلى بقية أقاليم العالم القديم. وطرح الباحثون فكرة اعتبار وادي النيل كأحد المعابر الطبيعية لانتقال تلك السلالة من البشر خاصة بعد اكتشاف هيكل عظمي في أحد مواقع منطقة سوهاج وصف بأنه من نوع الإنسان العاقل الحديث.

ومن الملفت أن الاستيطان البشري اتجه نحو التركيز على السهل الفيضي كلما تقدم الزمن خلال هذا العصر ربما بسبب الجفاف الشديد الذي حلّ بالمنطقة وأدى إلى نزوح الجماعات الصحراوية لمنطقة وادي النيل كما أشير إليه سابقًا. فالسهول مثل كوم أمبو ودشنا وعند مداخل الأودية الكبيرة صارت مناطق بها كثافة سكانية عالية. أما في شمال السودان فقد وجدت القليل من المواقع التي تحمل تقنية إنتاج النصال والشفرات، بل أنه لم يكتشف مثلها في أواسط السودان سوى ما كان في خشم القربة على نهر عطبرة حيث وجد عدد من المواقع المتأخرة زمنيًا تعود لنحو 10.000 ق. م أي ما يقابل نهاية العصر الحجري القديم.

إن الخاصية البارزة لتقاليد صناعات الأدوات الحجرية في مصر العليا وحتى النوبة المصرية والسودانية هي الثنائية المتمثلة في استخدام تقنيتين مختلفتين لإنتاج الأدوات. فالأولى لعمل النصال والشفرات الرفيعة وأدوات أخرى مثل الأزاميل والمكاشط الطرفية والمثاقب وغيرها (الشكل رقم 2). والثانية تلك التقاليد التي احتفظت بالتقنية اللفالوازية أو عدّلت من شكلها مع مرور الوقت ولكن التركيز يظل قائمًا على استخدام الشظايا لعمل الأدوات المشذبة دون النصال.

وكشفت أعمال المسوحات والتنقيب الأثري في المنطقة الممتدة من أسوان شمالاً حتى سوهاج عن الكثير من الصناعات الحجرية التي نسبت لجماعات من الصيادين الذين عاشوا خلال الفترة الممتدة من 20.000 ق. م. وحتى نهاية العصر الحجري القديم. وعلى الرغم من أنهم كانوا يعيشون في بيئة نيلية واحدة، إلا أن العناصر المادية لحضاراتهم كانت متباينة؛ ولهذا آثر الذين درسوها إعطاءها أسماء مختلفة مثل حضارات الفاخوري والسبيل وأسنا والسلسلة وعافية والمنشية والكبانية.

لقد استغلت هذه الجماعات الموارد المحلية بصورة جيدة وركزت على الحبوب البرّية وجذوع النباتات المفيدة غذائيًا كما تشير إليه أدوات الطحن الحجرية ونتائج الفحص المجهري الذي أجري على الشفرات والنصال. وأصدق مثال لهذا الاستغلال المكثف للحبوب البرية والأسماك نجده في وادي الكبانية حيث أمكن تحديد نحو عشرين نوعاً من النباتات التي استفيد منها في الغذاء. وكان أغلبها من الأنواع الدرنية المتوافرة محليًا. لقد تمكن الصيادون في هذه المواقع من إدارة الموارد الطبيعية المتاحة بطريقة تجعلهم مقيمين في المنطقة معظم السنة. وتشير المعطيات الأثرية إلى أنهم، بالرغم مما توافر لهم من قدرات، لم يتمكنوا من الانتقال لمرحلة إنتاج القوت من خلال ممارسة الزراعة مباشرة.

وفي النوبة السودانية كشف التنقيب الأثري أيضًا عن عدد كبير من المواقع وصنفت محتوياتها من المعثورات إلى عددٍ من التقاليد الحضارية التي عاش أصحابها في تلك المنطقة متعاصرين أحيانًا أو متعاقبين زمنيًا أحيانًا أخرى. ويلاحظ التنوع في أشكال الأدوات الحجرية وتقنياتها مثلما هو الحال في صعيد مصر. ومن الصناعات النصلية المبكرة نسبيًا وجد مثال واحد لها بالقرب من وادي حلفا أطلق عليه اسم الصناعة الحلفاوية (Halfan Industry) تمّ تعريفها من عدد محدود من المواقع لا يتجاوز العشرة. ومع أن صناعة الحلفا تحوي على نسبة مقدرة من النصال وأدواتها، إلا أنها احتفظت بالتقنية اللفالوازية المعروفة في أدوات العصر الحجري القديم الأوسط. ولهذا السبب يرى البعض أن أسلوب صناعة النصال دخل هذه المنطقة متأخرًا، إذ لا توجد لها أصول محلية وذلك نحو 15000 ق. م. أما المجموعات الأخرى من التقاليد في صناعة الأدوات الحجرية التي يعود تاريخها إلى أواخر الفترة فقد برزت فيها الأدوات القزمية (الميكروليثية) ذوات الأشكال الهندسية مثل المثلثات والأهلة، والمكاشط والشظايا المشحوذة (الشكل رقم 2) ونذكر من هذه الحضارات المتأخرة ما تمثله صناعة جمي وبلانة وعبد القادر. وبحلول الألف التاسع ق. م وحتى ظهور الفخار انحسر عدد المواقع في النوبة السودانية وربما يعود السبب في ذلك لكثرة فيضانات النهر القوية والمتكررة خلال هذه الفترة التي ربما أثرّت سلبًا في البيئة النيلية المعتادة وبالتالي أدى ذلك إلى هجرة جزء من السكان إلى مناطق أخرى.

العصر الحجري الحديث:

أنجزت بعض المجتمعات في هذا العصر – بعد نهاية العصر الجليدي – ابتكارات مهمة كان لها الأثر البعيد في تشكيل مستقبل الحضارة الإنسانية. ويطلق عليها علماء الآثار "مرحلة إنتاج القوت" أو "الثورة الزراعية" إشارة إلى تمكن الإنسان من الانتقال من اقتصاد معيشي يقوم على الصيد والجمع والالتقاط وحياة التنقل المستمر إلى اقتصاد معيشي عماده الزراعة وتربية الحيوان. وكان توفير الغذاء

عاملاً حاسمًا في استقرار مجاميع الصيادين في مستوطنات شبه دائمة أولاً ثم تحولت إلى قرى دائمة تكونت عبرها أنظمة اجتماعية وثقافية واقتصادية جديدة. وتطورت خلال ذلك الصناعات الحرفية بأنواعها لتواكب أنماط الاقتصاد المعيشي الجديد وصارت المجتمعات تتبادل المواد والسلع بطريقة غير معهودة، مما أدى إلى نموّها. ومن معدات الإنسان المستخدمة الأدوات الحجرية المصقولة وغيرها مما يناسب استغلال البيئة لتوفير الغذاء كما تمكن الإنسان من صنع الأواني الفخارية الضرورية لحفظ الطعام أو إعداده. لم تظهر هذه السمات الحضارية كلها في وقت أو مكان واحد إلا أن هناك مناطق من العالم القديم لها قصب السبق. ففي بعض أقاليم الشرق الأدنى تحقق معظم أو كل هذه الخطوات نحو الألف الثامن قبل الميلاد. وفي الوقت نفسه، على أقل تقدير صناعة الفخار في كل من أواسط السودان والصحراء الكبرى قبل أن يتمكن الإنسان من الزراعة أو استئناس الحيوان. أما في مصر وشمال السودان فلم تظهر حضارات العصر الحجري الحديث إلا ما بين الألف السابع والخامس ق. م تقريبًا خاصة إذا ما اعتمدنا وجود معظم خصائصها كشرط لبداية المرحلة. ففي حضارة الخرطوم المبكرة تمت صناعة الفخار خلال الألف الثامن ق. م على أقل تقدير ولم يصحبه إنتاج للقوت كما أننا نجد في جنوب مصر مستوطنات شبه دائمة أقام أصحابها إلى أواخر العصر الحجري القديم مثل وادي الكبانية ومنخفض نبتة ولكنها لم تحقق الزراعة في ذلك الوقت.

نظراً لظهور الفخار مبكرًا في أواسط السودان وتحديدًا في موقع الخرطوم القديمة فسوف نبدأ به وصف حضارات هذه الفترة. ومما يجدر ذكره هنا أن الأبحاث الحديثة الجارية الآن كشفت عن الكثير من المواقع الأثرية المهمة التي تحوي معطياتها على معلومات غزيرة غيرّت كثيرًا من المفاهيم القديمة عن هذه الفترة وبالتالي سيعتمد هذا الاستعراض على اختيار المواقع والمواد ذات الأهمية المركزية كأمثلة دالة على تطور حضارة العصر الحجري الحديث في وادي النيل. يُعد موقع الخرطوم المبكر أحد أهم المواقع التي نقب فيها أنطوني آركل في الأربعينات من القرن الماضي. ومن المعروف أن ما وضعه آركل من مفاهيم وتصور لتطور حضارات العصر الحجري الحديث صار مرجعًا للدراسات في هذا الموضوع لوقت طويل. وصف آركل الموقع بأنه عبارة عن مستوطنة شبه دائمة، كبيرة الحجم، أقيمت على ضفاف النهر القديم حيث اعتمد السكان فيها على صيد الحيوانات البرية وصيد الأسماك وغيرها من برمائيات وأضافوا إليها الحبوب البرية والثمار الطبيعية. وقد شكل أصحاب تلك الحضارة أدواتهم الحجرية من الأنواع صغيرة الحجم مثل الأهلة والمكاشط والمثاقب وغيرها. كذلك كان من معداتهم الصنانير (الخطاطيف) العظمية ذوات الأسنان من جانب واحد وثقب في أحد الطرفين. ويتصل بمعدات صيد الأسماك الأحجار المستديرة التي تستخدم في الصيد (الشكل رقم 3). أما استغلال الحبوب البرية فيدل عليه أحجار الطحن والهونات.

تمكن سكان الخرطوم القديمة من صنع الفخار الصلب غير المصقول تزينه خطوط متصلة مموجة وأخرى متقطعة مموجة أو متعرجة (الشكل رقم3) إضافة إلى أنواع أخرى من الفخار الخشن الخالي من العناصر الزخرفية. دفن سكان الخرطوم القديمة موتاهم داخل المستوطنة واضعين الميت في وضع قرفصائي داخل الحفرة. ولم يتمكن الناس في ذلك

الوقت من استئناس الحيوان أو ممارسة الزراعة إن لم يكن ممكنًا الحصول على تاريخ مؤكد لحضارة الخرطوم القديمة عندما نُقب في الموقع، إلا أن مواقع أخرى حفرت فيما بعد وفيها فخار الخرطوم أمكن تأريخها للألف الثامن قبل الميلاد. وقد وجد أن فخار الخرطوم بزخارفه المعروفة قد انتشر في رقعة جغرافية واسعة تمتد على طول وادي النيل شمالاً حتى جنوب مصر وفي الصحراء الكبرى حتى النيجر. ويعتقد معظم الباحثين إلى أن هذا الفخار ظهر أولاً في الخرطوم ثم انتشر بعد ذلك بوسائل مختلفة إلى هذه الأقاليم.

يكتمل تطور حضارة الخرطوم حسب رأي آركل في موقع الشهيناب المهم، الذي نقب فيه مطلع الخمسينات من القرن الماضي. ويُعد موقع الشهيناب على بعد 50 كلم للشمال من الخرطوم، الموقع النموذجي لحضارات العصر الحجري الحديث في وادي النيل الأوسط. وكشفت التنقيبات عن مستوطنة كبيرة نسبيًا على ضفة النهر الغربية (الخريطة رقم 1) اعتمد أصحابها في غذائهم على صيد الحيوانات البرية والأسماك واستأنسوا الأغنام والماعز والأبقار. ومع تحقيقهم لذلك المستوى من تأمين الغذاء، إلا أنه لم يكتشف دليل مباشر على ممارسة الزراعة سوى المجارش الحجرية التي ربما استخدمت في معالجة الحبوب البرية. وقد صنعوا أدواتهم من حجر الكوارتز والريولايت وهي في معظمها من النوع الصغير الحجم كالأهلة والمثاقب والمكاشط ومن أميزها المظفار (الفأس) الحجري. أما فخار الشهيناب فقد كان مصقولاً ومتنوع التشكيل ومزخرفًا بالخطوط المحززة المتوازية، أو المتعرجة المتصلة أو المتقطعة أو الشبكية. كذلك استخدموا العظم في صنع الأدوات ومنها الصنانير (الخطاطيف) المسننة من جانبين (الشكل رقم 3). تؤرخ حضارة الشهيناب إلى بداية الألف الخامس ق. م. وكان آركل يعتقد أنها تطور طبيعي من حضارة الخرطوم القديمة واستشهد بما وجده في موقع القوز جنوب الخرطوم من تعاقب طبقي لمخلفات كلتا الحضارتين. صار هذا الرأي مقبولاً لوقت طويل دون مراجعة تذكر حتى جاءت الأبحاث الحديثة التي أثارت الشكوك حول كيفية الانتقال إلى حضارة الشهيناب بخصائصها المكتملة إذ أن بعضها ربما كان نتيجة لمؤثرات جاءت من خارج المنطقة. كذلك أثيرت قضية مآلاتها بعد الألف الأخير من فترة ما قبل التاريخ.

ومهما يكن من أمر تسلسل حضارات العصر الحجري الحديث وأصولها، فإن الأبحاث المستمرة حتى الآن في وادي النيل كشفت عن المزيد من المعلومات المهمة المطلوبة لمعرفة حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والفكرية في ذلك الوقت. وقد تم التنقيب في عدد من مواقع الخرطوم القديمة مثل السقاي والسروراب وأم مرّحي حول مدينة الخرطوم وكذلك في الدامر وعنيبس وأبودربين عند التقاء نهر عطبرة بنهر النيل. تشير الأدلة الأثرية إلى أن معظم هذه المواقع كانت عبارة عن قرى صغيرة عاش فيها الناس بصفة دائمة أو شبه دائمة مع أنهم لم يشيّدوا بيوتًا تحمل صفات معمارية وإنما شيدوا الأكواخ المصنوعة من أعواد الخشب والجلود واعتمدوا في غذائهم بالتركيز على صيد الأسماك والحيوانات البرية. وتدل عظام الأسماك الموجودة بكثرة في هذه المواقع إلى أن بعضها كان من الأنواع التي تعيش في المياه العميقة والبعض الأخر من تلك التي تعيش في البرك والمجاري المتصلة بالنهر. وهناك من

الأدوات الحجرية ما استخدم في جرش الحبوب البرية وغيرها من مواد نباتية. عرفت هذه المجتمعات أيضًا تشكيل الأواني الفخارية التي تعد شيئًا مكملاً لأدوات الإنتاج في مثل هذا الاقتصاد المعيشي. وهكذا فإن إمكانية صنع الصنارة العظمية ساعد في عمليات صيد الأسماك المكثف ومع وجود ما يكفي من الحبوب البرية وتقنية معالجتها صار للإنسان مصدر مأمون للغذاء ومع درجة من الاستقرار النسبي أدى ذلك بدوره إلى زيادة ملحوظة في أعداد أفراد هذه المستوطنات الشيء الذي تدل عليه كمية المواقع الكبيرة. ويرى بعض الباحثين أن هذه الأوضاع كانت مدخلاً طبيعيًا لظهور الزراعة الشيء الذي حدث فعلاً في حضارة الشهيناب.

اكتشفت مواقع حضارة الشهيناب بأعداد كبيرة في وادي النيل الأوسط، فبالقرب من الخرطوم نجد الجيلي والزاكياب والكدرو وغيرها. وتعكس المواد المكتشفة فيها الخصائص المعروفة نفسها في الموقع النموذجي آنف الذكر. اعتمد سكانها على الصيد البري والمائي واستأنسوا الماعز والأبقار والأغنام وتمكنوا من زراعة الحبوب المحلية (الذرة). ومن أدواتهم الصنانير العظمية والأدوات المصقولة إضافة إلى الأنواع ذات الأشكال الهندسية المشهورة في ذلك الوقت. تحققت تلك المنجزات في الفترة من 4000 إلى 3000 ق. م. يرى بعض الباحثين أن فكرة استئناس الحيوان لم تكن إنجازًا محليًا إنما وفدت إلى وادي النيل من الصحراء الكبرى عندما ازدادت موجات الجفاف في وقت بداية ظهور هذه المجتمعات. ويعتقد أيضًا أن دخول الحيوان في دورة الاقتصاد المعيشي في وادي النيل أدى بمرور الوقت إلى تغيير في أنماط الاستيطان، إذ انتشرت المعسكرات الصغيرة لإقامة الناس المؤقتة .. الأمر الذي يفرضه حال التنقل مع قطعان الماشية، هذا مع استمرار الاستيطان في المواقع الكبيرة شبه الدائمة. وفي النوع الأول من المواقع وجد أن طبقاتها تحوي كميات من عظام الحيوانات بينما لا يوجد دليل على استغلال موارد المياه مثل الأسماك. وبمرور الوقت تحولت قطاعات من سكان المنطقة إلى الرعي المتخصص والاعتماد على منتجات الحيوانات أكثر فأكثر مثل الألبان والدم. وقد عُرف الرعي كطريقة للحياة في الصحراء قبل مطلع الألف الخامس ق. م حيث نال أهمية اقتصادية متنامية وربما انتقلت هذه الحرفة إلى وادي النيل حيث يلاحظ تاريخيًا الزيادة الملحوظة في عدد مواقع الرعي المؤقتة على حساب مواقع الاستيطان الدائم.

لم تكن مواقع الخرطوم القديمة أو الشهيناب محصورة في وادي النيل الأوسط وإنما وجدت أيضًا على امتداد النيل الأبيض حتى مدينة كوستي جنوبًا وفي سهل البطانة وشرق السودان. ولعل أجدر المواقع بالذكر في هذا المقام كهف شق الدود الذي يقع على بعد 50 كلم تقريبًا للشرق من الخرطوم، فقد كشفت الدراسات التي أجريت فيه مؤخرًا عن أطول تسلسل حضاري لفترة العصر الحجري الحديث في كل وادي النيل وجد في مكان واحد. يبلغ ارتفاع طبقات الرديم التي تكونت أمام مدخل الكهف حوالي ثلاثة أمتار ونصف المتر. وتحتوي أقدم طبقة فيها على مواد أثرية من الأنواع المعروفة في فترة منتصف الألف السادس ومنتصف الألف الخامس ق. م وكان الاقتصاد المعيشي حينئذ يقوم على الصيد والجمع. أما الطبقات العليا فتحتوي على مواد شبيهة بمواد حضارة الشهيناب مع وجود فخار محلي غير معروف في المواقع النيلية. كذلك لم يتمكن الناس هنا من استئناس

الحيوان كما فعل معاصروهم في منطقة الخرطوم – أما طبقات الرديم داخل الكهف فقد كشف فيها عن تسلسل لأنواع الفخار مثل الأسود الرقيق المصقول والمزخرف بخطوط متصلة إلى جانب أنواع أخرى غير مصقولة (الشكل رقم 3). ولم تؤكد نتائج التنقيبات صلة واضحة بين محتويات هذه الطبقات وتلك الواقعة خارج الكهف. وفي الطبقات العليا داخل الكهف عُثر على أنواع من الفخار الذي يحمل زخارف تظهر في المنطقة لأول مرة كما وجدت عظام حيوانات مستأنسة مثل الأبقار والكلاب لكنه لم يعثر على ما يدل على معرفة بتربية الأغنام أو الماعز.

وجدت مواقع العصر الحجري الحديث في أمكنة متفرقة في شمال السودان ومعظمها غير مؤرخ بصورة مؤكدة، كما يندر فيها وجود المواد العضوية التي تدلنا على نوع الحياة فيها. إن أهمها قد اكتشف في منطقة الشلال الثاني وهي تعود لفترات مختلفة من ذلك العصر عرف منها ما يسمى بصناعة الشَمَرْكى التي وجدت مواقعها بالقرب من وادي حلفا وتؤرخ إلى نحو 4.500 – 4000 ق. م وتحوي على قليل من الفخار ولا يوجد فيها ما يدل على ممارسة الزراعة أو تربية الحيوان. ومن المجموعات التي مارست إنتاج القوت تلك التي تمثلها صناعة عبكة التي اشتهرت بالفخار الملوّن بالأحمر أو البني وكذلك أنواعًا شبيهة بفخار الشهيناب. وهناك أيضًا في المنطقة نفسها عدد من المواقع أطلق على محتوياتها من فخار ومواد أخرى مسمى "حضارة الشهيناب المحلية". وتشير الأدلة الأثرية عمومًا إلى أن هذه المواقع لا تشكل في الواقع تجمعات سكنية كبيرة، كما لا يعرف أيضًا كيف أفضت إلى ما يسمى بحضارة المجموعة (أ) المعروفة برعي الأبقار وهي تقابل في مصر حضارة ما قبل الأسرات.

يكتسب الحديث عن حضارات العصر الحجري الحديث وتأسيس مرحلة إنتاج القوت في مصر أهمية خاصة ذلك لأنها تمثل الظرف الحضاري الذي انبثقت منه أقدم وأعظم نظام دولة مركزية في الشرق الأدنى في أواخر الألف الرابع ق. م. كانت معلوماتنا عن فترة العصر الحجري الحديث في مصر شحيحة ومحصورة في نتائج أعمال أثرية أجريت في مواقع محدودة : أما اليوم فقد توافرت معلومات غزيرة نتيجة لاهتمام الباحثين بأهمية البحث الميداني في موضوع أصل الحضارة المصرية القديمة. والتقارير العلمية تنشر تباعًا عن الأعمال الميدانية التي تغطي مساحات واسعة من وادي النيل في مصر وفي شرق الصحراء الكبرى .. الشيء الذي أضاف بعدًا جديدًا في تناول قضية أصل الزراعة ومن ثم قيام الدولة المركزية لاحقًا. ويتفق الكثيرون اليوم على أن الصحراء أدت دورًا مفصليًا في تطور حضارات وادي النيل مثلما تلقت مصر مؤثرات أخرى من شرق المتوسط.

سبقت الإشارة إلى أن المكتشفات الأثرية الحديثة في الأودية والمنخفضات الواقعة في طرف الصحراء أوضحت بجلاء وجود مجتمعات تعتمد على الحبوب البرية في الغذاء والصيد المكثف الذي سمح لها بإقامة مستوطنات شبه دائمة وقد كانت هذه التجارب مقدمة طبيعية لأحداث النقلة في إنتاج القوت. ففي وادي الكبانية وعلى بعد مائة كلم غرب أبي سمبل تم تأريخ بعض مواقع العصر الحجري الحديث المبكر إلى 6850 و 6550 ق. م، وقد وجد فيها أكثر من أربعين نوعًا من النباتات تمثلها حبوب مثل الذرة والدخن

والبقوليات والجوز وغيرها من الأنواع الدرنية. ويعتقد الذين نقبوا في هذه المواقع أن الغذاء النباتي قد طوّر محليًا بمعزل عن تجارب تدجين القمح والشعير في بلاد الشام. وفي أحد هذه المواقع كشف عن أساسات أكواخ وحُفر لتخزين الحبوب ومواقد النار. وفي مكان آخر وجدت بقايا بيوت بيضاوية الشكل أو دائرية وبداخلها الحفر ومواقد النار وتشير قرائن الأدلة إلى وجود مجتمعات شبه مستقرة حققت إنتاجًا زراعيًا محليًا.

وتأتي أهمية الصحراء أيضًا في اكتشاف أدلة أثرية لاستئناس الأبقار في حدود الألف السابع ق. م على أقل تقدير، كما تمكنت بعض الجماعات من عمل الفخار المزخرف جيّد الصنع وهو أقدم من أي فخار آخر وجد في وادي النيل ما عدا فخار الخرطوم القديمة. ويرى كثير من الباحثين في آثار المنطقة إلى أن مهمة إنتاج القوت في الصحراء قد أنجزت بصورة مباشرة وربما سريعة ويعزون السبب المباشر في ذلك إلى التغيرات البيئية وتوافر الموارد الطبيعية وكذلك مستوى التقنية المطلوبة.

ومن أمثلة مستوطنات العصر الحجري الحديث في أواسط مصر ما كشفت عنه تنقيبات كاتون – طومسون وغاردنر في الثلاثينات من القرن الماضي في منخفض الفيوم. وقد تحدثا عن وجود مستويين من طبقات الموقع وصفت الأولى (أ) بأنها تعود لعصر الهولوسين المبكر ونسبة لما وجد فيها من فخار ومواد أخرى وصفت بأنها عصر حجري حديث مبكر أما المستوى الثاني (ب) فيمثل حضارة جماعات من الصيادين لم يتمكنوا من إنجاز مرحلة إنتاج القوت وصفوا بأنهم مجموعة معزولة. على أن التنقيبات الأثرية التي أجريت فيما بعد أوضحت أن خطأ قد جرى في تفسير طبقات ترسبات البحيرة القديمة. وبالتالي يصبح الترتيب الزمني الذي افترضته كاتون – طومسون غير صحيح. كذلك تبين أن إنتاج القوت الكامل متمثلا في الزراعة واستئناس الحيوان قد ظهر فجأة في الفيوم وأيضًا في موقع مرمدة وذلك نحو نهاية الألف السادس وبداية الألف الخامس ق. م. وخلال هذه الفترة نفسها شهدت الصحراء الشرقية موجة جفاف شديدة يعتقد أنها كانت السبب المباشر في نزوح جماعات على دراية بإنتاج القوت من الصحراء في اتجاه وادي النيل. وعودًا إلى مستوطنات العصر الحجري الحديث في الفيوم (5200-4000 ق. م) نجد أنه أقيمت بالقرب من شواطئ البحيرة حيث بنى سكانها أكواخًا من القصب وحفروا المخازن تحت الأرض في الأجزاء المرتفعة، وقد وجدت فيها بقايا القمح والشعير والحنطة المدجنة. ومن عظام الحيوانات المستأنسة عرفت الأغنام والماعز إضافة لبعض الأنواع البرية مثل الفيل والتمساح وفرس البحر. كذلك أضاف السكان إلى قائمة مواد الغذاء الأسماك المتوافرة بالبحيرة ومع غيرها من مواد نباتية طبيعية تجمعت قاعدة غذاء متنوعة. وتشمل الأدوات المكتشفة الرؤوس والسهام والخطاطيف العظمية. ومن الحجر شكلوا المناجل والأدوات ورقية الشكل والفؤوس والرؤوس المدببة وغيرها من الأدوات المصقولة. ومن مصنوعاتهم أيضًا السلال التي غطوا بها حفر تخزين الحبوب. أما فخار الفيوم فقد صنع من الصلصال الخشن وفيه من الأواني المصقولة أشكالٌ متنوعة ذات قواعد مسطحة أو دائرية. ويعكس الفخار تقنية متطورة يعتقد آركل أنها وصلت إلى مصر من خارجها، ربما فلسطين .. ويدعم رأيه بالإشارة إلى وجود الفؤوس المجوفة وأخرى مصقولة

ضمن الأدوات المكتشفة (الشكل رقم 4). كذلك أشار البعض إلى أن الفروق النوعية والتقنية بين المخلفات التي تعود إلى نهاية العصر الحجري القديم الأعلى(الفيوم ب) وبين مخلفات (الفيوم أ) كبيرة جدًا مما يجعل احتمال التطور المحلي أمرًا غير ممكن.

إن عدم وجود مبان معمارية في الفيوم يعطي انطباعًا بأن الاستيطان الدائم لم يكتمل بعد بالرغم من وجود المطامير التي تحفظ فيها الحبوب مع غيرها من شواهد أثرية على حجم المستوطن وتراكم المعثورات فيه.

يُعد موقع مرمدة بني سلامة دليلاً مبكرًا على حياة الاستقرار الكامل في القرى على ضفاف وادي النيل. وهو مستوطنة كبيرة مساحتها 18.000 متر مربع تقريبًا وفيها رديم طبقات سكنية يبلغ سمكها نحو المترين. ويؤرخ الموقع للفترة ما بين 5200 و 3500 ق. م. ولوحظ أن فخار مرمدة وأدواتها الحجرية تشبه إلى حد كبير ما وجد منها في الفيوم. والفرق يكمن في أن فخار مرمدة فيه زخارف أكثر إتقانًا وجمالاً. بدأ الاستيطان في القرية بتشييد الأكواخ المتفرقة ثم ازدادت الكثافة السكانية في الطبقات العليا حيث نجد بناء الأكواخ ذات الجدران على ارتفاع مناسب فوق سطح الأرض. تبدو هذه الوحدات المعمارية صغيرة الحجم كافية ربما لشخص واحد وهي تبنى على مجموعات وتلحق بها مخازن للحبوب عبارة عن جرار كبيرة أو سلال مدفونة تحت السطح. دفن سكان مرمدة موتاهم داخل المستوطنة التي قدر عدد أفرادها بالآلاف.

ومن المستوطنات الجديرة بالذكر ما نسب لحضارة العمري التي عرفت من عدد من المواقع والمقابر المنتشرة بين القاهرة وحلوان. وتعكس المباني المشّيدة وكمية المعثورات التي تحويها طبقات الرديم استيطانًا لفترة طويلة قدر زمنه بين 4200 و 4000 ق. م. أما إلى الجنوب من الدلتا وأواسط مصر .. فقد وصف الآثاريون عددًا من حضارات المرحلة المتأخرة من العصر الحجري الحديث أطلقوا عليها مصطلح "حضارات ما قبل الأسرات" ومن أشهرها البداري ونقادة الأولى ونقادة الثانية. تمكن أصحاب هذه الحضارات من استغلال المعادن لأول مرة ومن ثم صنفت حضاراتهم في الدور الحضاري المسمى بالعصر الحجري الحديث المعدني كما تطورت مجتمعاتها إلى مستويات اقتصادية واجتماعية وفنية غير معهودة. وهي من ناحية أخرى تمثل المقدمة المنطقية لبزوغ الدولة المصرية القديمة مع أن كثيرين يقولون بتسرب أفواج من سكان الصحراء أدى امتزاجهم مع سكان النيل إلى تفاعلات حضارية أثمرت في قيام الدولة القديمة. ومهما يكن من أمر فإن أهل البداري تركوا تراثًا ماديًا يعكس ثراء مستواهم الفني والاقتصادي. فالأواني الفخارية المصقولة تعد من أجمل ما عرف في مصر وفيه من الأنواع الرفيعة المزخرفة بأشكال نباتية رائعة. وتشمل الأواني الصحون والأكواب الرفيعة والقدور وغيرها. دفن سكان البداري الموتى في قبور خصصت لها مساحات خارج المستوطنة ووضعوا مع الميت بعض الأدوات والقطع الفنية. كذلك خصصوا القبور لدفن الحيوانات التي عاملوها بطريقة توحي بمعتقدات روحية. ومن مصنوعاتهم الحرفية اكتشفت الأواني الجميلة والأدوات الحجرية والسلال والحصائر والملابس الجلدية والأغطية مما يشير إلى شيوع تقنية النسيج. ومن العناصر الملفتة في حضارتهم الإمكانات الفنية التي تعكسها التماثيل الآدمية الصغيرة والمصنوعات الحرفية الجميلة مثل الأمشاط والملاعق المزخرفة بأشكال

الحيوانات المنحوتة، إضافة للخرز والأساور النحاسية ومشغولات العاج.

لقد تركز وصفنا لحضارات ما قبل التاريخ في وادي النيل على أنماط الاستيطان وأحوال المناخ واستغلال الموارد الطبيعية وما أنتج الناس من أدوات حجرية وفخار وغيرها من مصنوعات تعينهم في حياتهم اليومية. وفي مناطق أخرى من العالم القديم مثل أوربا أو الصحراء الكبرى أو جنوب أفريقيا على سبيل المثال يشكل الفن البدائي بتعبيراته المختلفة جزءًا مهمًا من التراث المادي الذي يضيف معلومات مهمة عن حياة مجتمعات ما قبل التاريخ. وبالنسبة لوادي النيل لم تنل الفنون الصخرية المنتشرة على طول الوادي حظها من الدراسة المفصلة .. وربما يعود ذلك لأكثر من سبب، أولها : حداثتها النسبية إذ لم يكتشف شيء منها في مستوى قدم الفنون الأوربية أو الصحراء الكبرى. يضاف إلى ذلك صعوبة تأريخ ما وجد منها وربطه بالمواقع الأثرية في المنطقة. هذا وقد قدر تاريخ أقدم نماذج للرسوم الصخرية في شمال السودان للفترة بين 9000 و7000 ق. م.

ومن أشهر مواقع تجمع الرسوم الصخرية ما اكتشف في النوبة السودانية بالقرب من قرية عبكة حيث وجدت أيضًا صناعات حجرية تعود لأواخر العصر الحجري القديم وبداية الحديث. ونفذت الرسومات التي تبلغ المئات على أسطح الصخور المنتشرة في مساحة واسعة وكان موضوعها الأساس رسم الحيوانات المنفردة، إذ لم تكن هناك محاولة لرسم مشهد كامل. ومن الحيوانات المتكررة الغزال والفيل والزراف وفرس البحر وحمار الوحش وغيرها. ومن الملفت أيضًا رسوم الأفراد الذين يحملون الأقواس والرؤوس المستخدمة في الصيد. كذلك توجد علامات تجريدية لا يعرف معناها ضمن الرسومات في هذا الموقع.

إن ضآلة المنجز النسبية في مجالات الفنون الصخرية في وادي النيل لا تحجب شيئًا من ما حققه إنسان وادي النيل خلال العصور الحجرية على اختلاف مراحلها. فما ذكرناه من ثراء العناصر المادية في حضارة البداري وغيرها من ثقافات ما قبل الأسرات بلغ درجة عالية من التعقيد والإنجاز الحضاري المتميز. لقد كان ذلك ثمرة طبيعية لتجارب مجتمعات الصيادين في المنطقة على مر العصور. وقد أدت هذه التطورات في مجتمع البداري إلى تحولات عميقة في علاقات الأفراد والجماعات السكانية على طول وادي النيل وفي تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية. وقد توسعت بعض هذه المجتمعات في أحجامها وفي ثرواتها الطبيعية والمنتجة ومختلف جوانب الحياة فيها .. الشيء الذي أفضى في النهاية إلى ظهور أنظمة وشبكة علاقات تدير شؤون الأفراد والمجتمع .. الشيء الذي تمخض عنه نشوء الدولة المركزية في أواخر الألف الرابع ق. م.

د. يوسف مختار الأمين

المصادر المراجع

أولاً : المراجع العربية :

– الأمين، يوسف مختار 2001

دراسات ما قبل التاريخ في وادي النيل (السودان ومصر): ملاحظات حول المنهج والنظرية (أدوماتو، العدد الثالث ص 7-28).

– محمد علي، العباس سيد أحمد 2003

النيل والصحراء خلال العصور الحجرية: تباين بيئي وتكامل حضاري (أدوماتو، العدد السابع 7-30).

– محمد علي، العباس سيد أحمد والأمين، يوسف مختار 1992.

مشروع البطانة الأثري – شرق السودان (تحرير عبدالرحمن الطيب الأنصاري، دراسات في الآثار، (تحرير) عبد الرحمن الطيب الأنصاري، ص 65-99 قسم الآثار – جامعة الملك سعود).

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Adams, W. Y. 1977

Nubia Corridor to Africa. Allen Lane, London.

- Adamson, A. D. 1982

The Integrated Nile. In: A Land between Two Niles. (ed.) Williams, M. A and Adamson, D. A., Balkema/ Rotterdam. 221-234

- Arkell, A. J. 1975

The Prehistory of the Nile Valley. Leiden.

- Arkell, A. J. 1953

Shaheinab, Oxford Univ. Press

- Arkell, A. J. 1949

The Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan. Sudan Antiquities Service Papers No. 1. Khartoum.

- Arkell. A. J. 1949

Early Khartoum. Oxford Univ. Press.

- Caton – Thompson, G. 1952

Kharga Oasis in Prehistory. Althone Press. London

- Chaix, Louis; Faure, Martine; Guerin, Claude and Honegger, Mathieu. 2000

Kaddanartie, a Lower Pleistocene assemblage from Northern Sudan. In: Recent Research into the Stone Age of Northeastern Africa. (ed.) Lech Krzyzaniak et al. Poznan Archaeological Museum. 33-46.

- Davis, Whitney 1984

The Earliest art in the Nile Valley. In: Origin and Early Development of Food-Producing Cultures in North-Eastern Africa. (eds): Lech Krzyzaniak and Kobusiewicz, M. Poznan Museum. 82-94.

- Elamin, Yousif. M. 1987

The Later Palaeolithic in Sudan. In: Nubian Culture: Past and Present. (ed.) Thomas Hagg. Stockholm. 31-46.

- Elamin, Yousif. M. 1981

Later Pleistocene Cultural Adaptations in Sudanese Nubia. BAR 114. Oxford.

- Haaland, R. 1992

Fish, Pots and Grain. In: The African Archaeological Review, 10: 43-64.

- Haaland, R. 1987

Problems in Mesolithic and Neolithic in the Central Nile Valley, Sudan. In: Nubian Culture,

The Rise of Civilization in Egypt. In: Fage, J. D and Oliver, R. (ed.) The Cambridge History of Africa. Vol. 1. Cambridge Univ. Press. 478-547.

- **Van Peer. P. 1998**

The Nile Corridor and the Out-of-Africa Model. An Examination of the Archaeological Record. Current Anthropology 39: S115-S140.

- **Wendorf, F.; Schild. R.; Close, A. 1993**

Middle Palaeolithic Occupations at Bir Tarfawi and Bir Sahara East, Western Desert of Egypt. In: Krzyzaniak, L, Kobusiewicz, M. and Alexander, J. (eds), Environmental Change and Human Culture in the Nile Basin and Northern Africa Until the Second Millennium B. C. Poznan Museum. 103-111.

- **Wendorf, F. etal. 1992**

Saharan Exploitations of Plants 8000 BP. Nature, Vol. 359. 721-724. The Prehistory of Wadi Kubbaniya. Vol. 2. SMU Press.

- **Wendorf, F. and Schild, R. 1980**

Prehistory of the Eastern Sahara. Academic Press

- **Wendorf, F. and Schild, R. 1976**

Prehistory of the Nile Valley. Academic Press

- **Wendorf, F. 1968**

The Prehistory of Nubia. Vol. 1. introduction SMU Press.

- **Wendorf, F. 1968**

Site 117: A Nubian Final Palaeolithic Graveyard Near Jebel Sahaba, Sudan. In: The Prehistory of Nubia. Vol. 2. SMU Press. 954-1040.

Past and Present. (ed.) Tomas Hagg. Stockholm. 48-74.

- **Mack, J. and Robertshaw 1982**

Culture History in the Southern Sudan. BIEA, Nairobi.

- **Marks, A. E. 1968**

The Mousterian Industries of Nobia. In: The Prehistory of Nubia vol. 1. Wendorf, F (ed.) SMU Press. 194-314.

- **Marks, A. E. 1968**

The Khormusan: an Upper Pleistocene Industry in Sudanese Nubia. In: The Prehistory of Nubia. Vol. 1. Wendorf, F. (ed.) SMU Press. 315-39.

Marks, A. E. 1968 -

The Halfan Industry. In: The Prehistory of Nubia. Vol. 1. Wendorf, F. (ed.) SMU Press. 392-460

- **Mohamed_Ali, Abbas 1987**

The Neolithic of Central Sudan. In: Close, A. (ed.) Prehistory of Arid North Africa. SMU Press. 123-136.

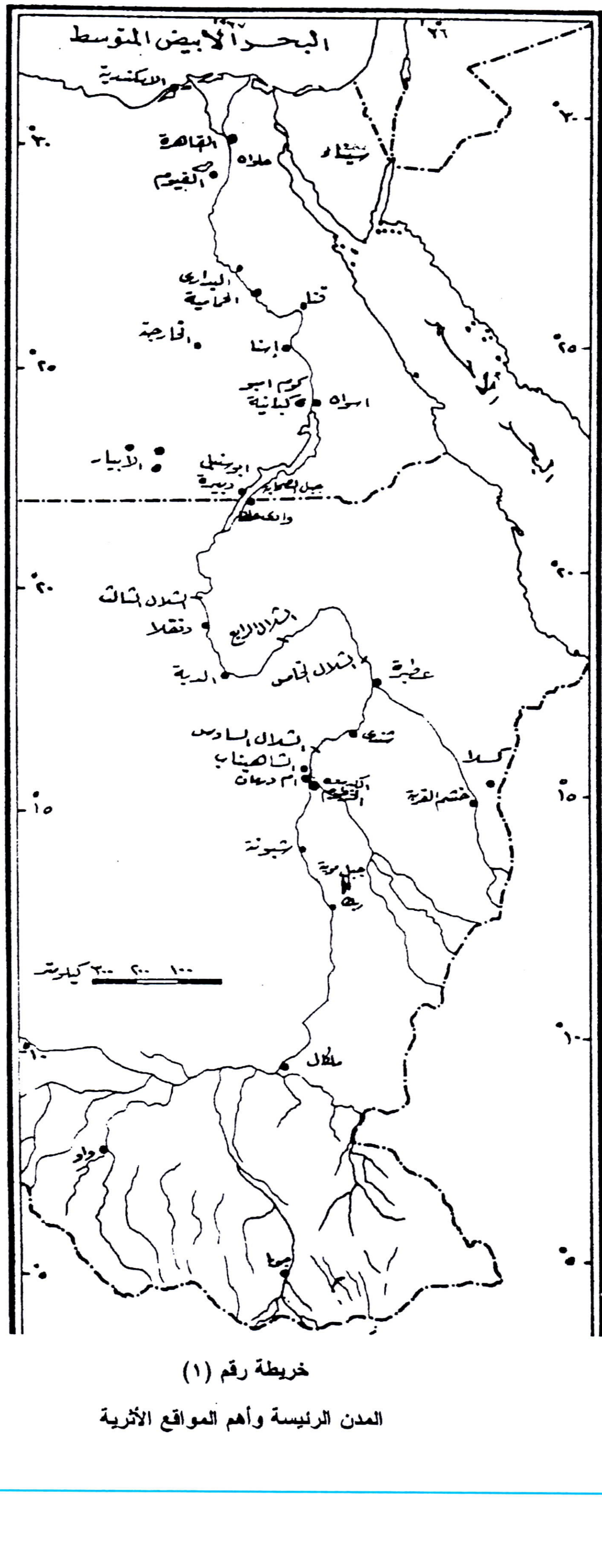
- **Paulissen, E. and Vermeerch, P. 1987**

Earth, Man and Climate in the Egyptian Nile Valley during the Pleistocene. In: Close, A (ed.) Prehistory of Arid North Africa. SMU Press. 29-67.

- **Sandford, K. S. and Arkell, W. J. 1933**

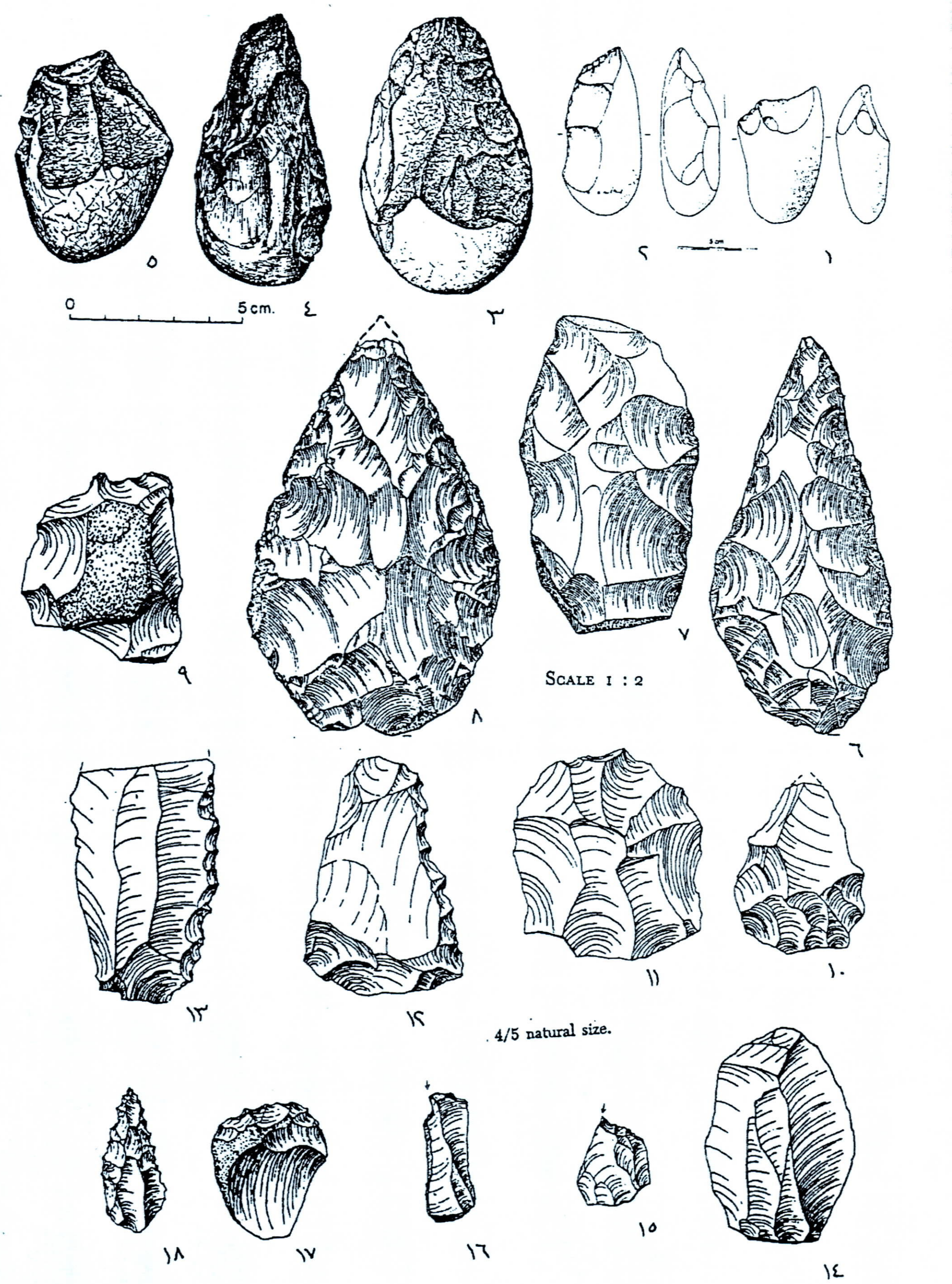
Palaeolithic Man and The Nile Valley in Nubia and Upper Egypt. University of Chicago Oriental Instit. Publ. Vol. 17.

- **Trigger, B. G. 1982**



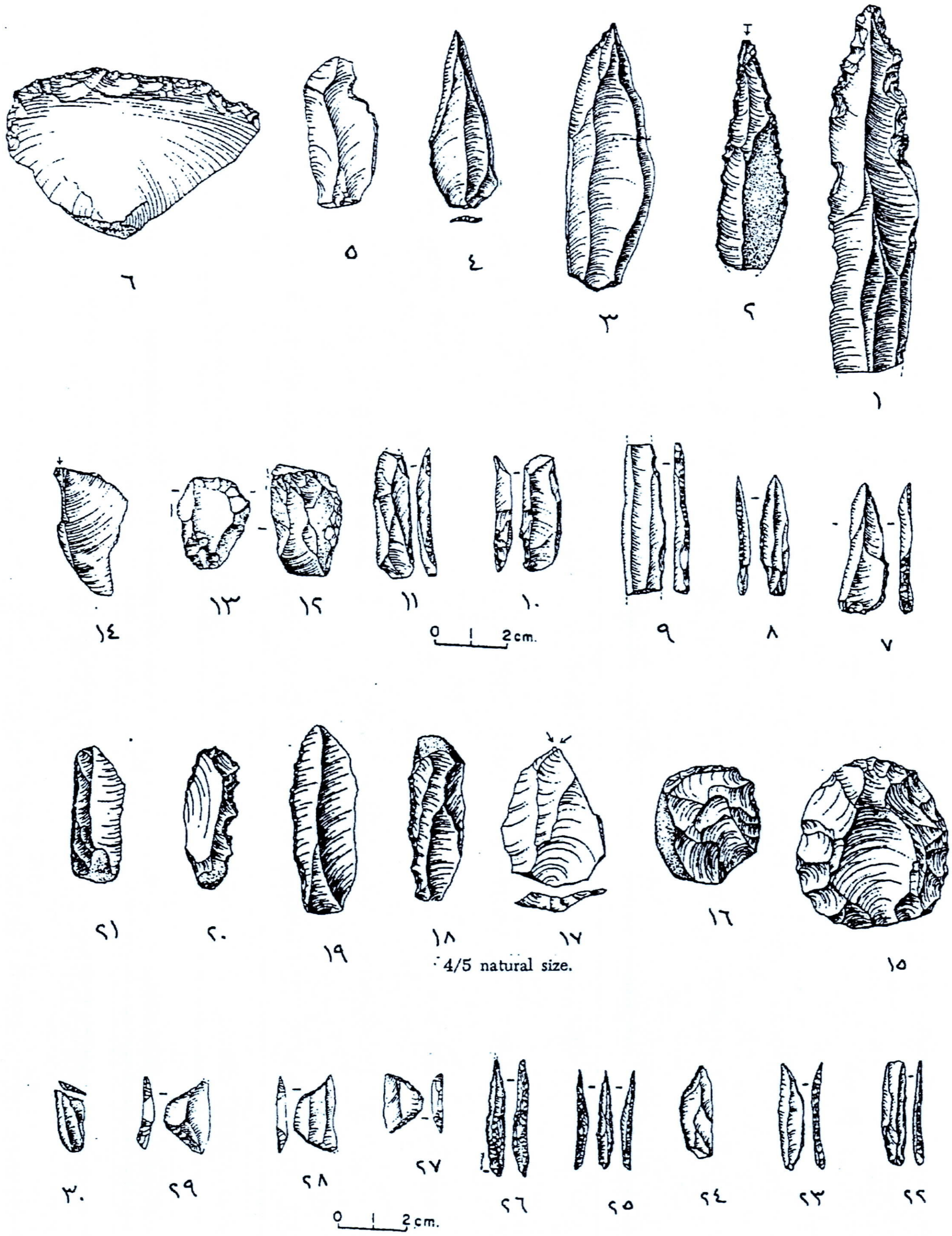
خريطة رقم (١)

المدن الرئيسة وأهم المواقع الأثرية



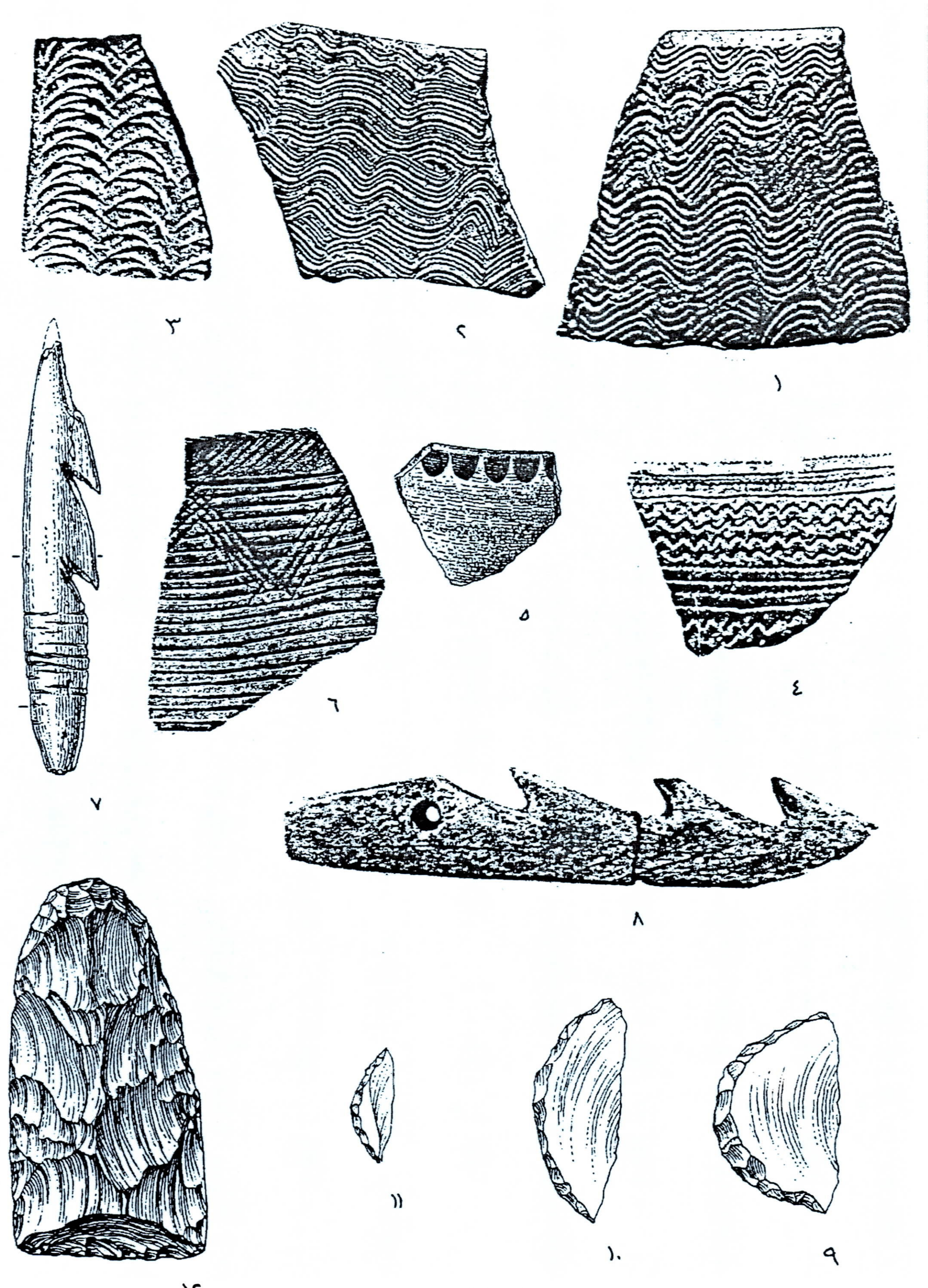
شكل (١)

١، ٢ سواطير من كدرناتي Chaix 2000 . ٣، ٤، ٥، فؤوس أشولية وساطور، أرقين ٨ Wendorf 1968. ٦، ٧، ٨ فؤوس أشولية خور أبو عنجة Arkell 1949. ١٠، ١١ شظية ورأس لفالوازي، ٩ مثقب، ١٢، ١٣ أدوات مسننة، صناعة موستيري النوبة 1968. ١٤، شظية لفالوازية، ١٥، ١٦ مخارز، ١٧ مكشطة، ١٨ أداة مسننة صناعة خورموسى Marks 1968.



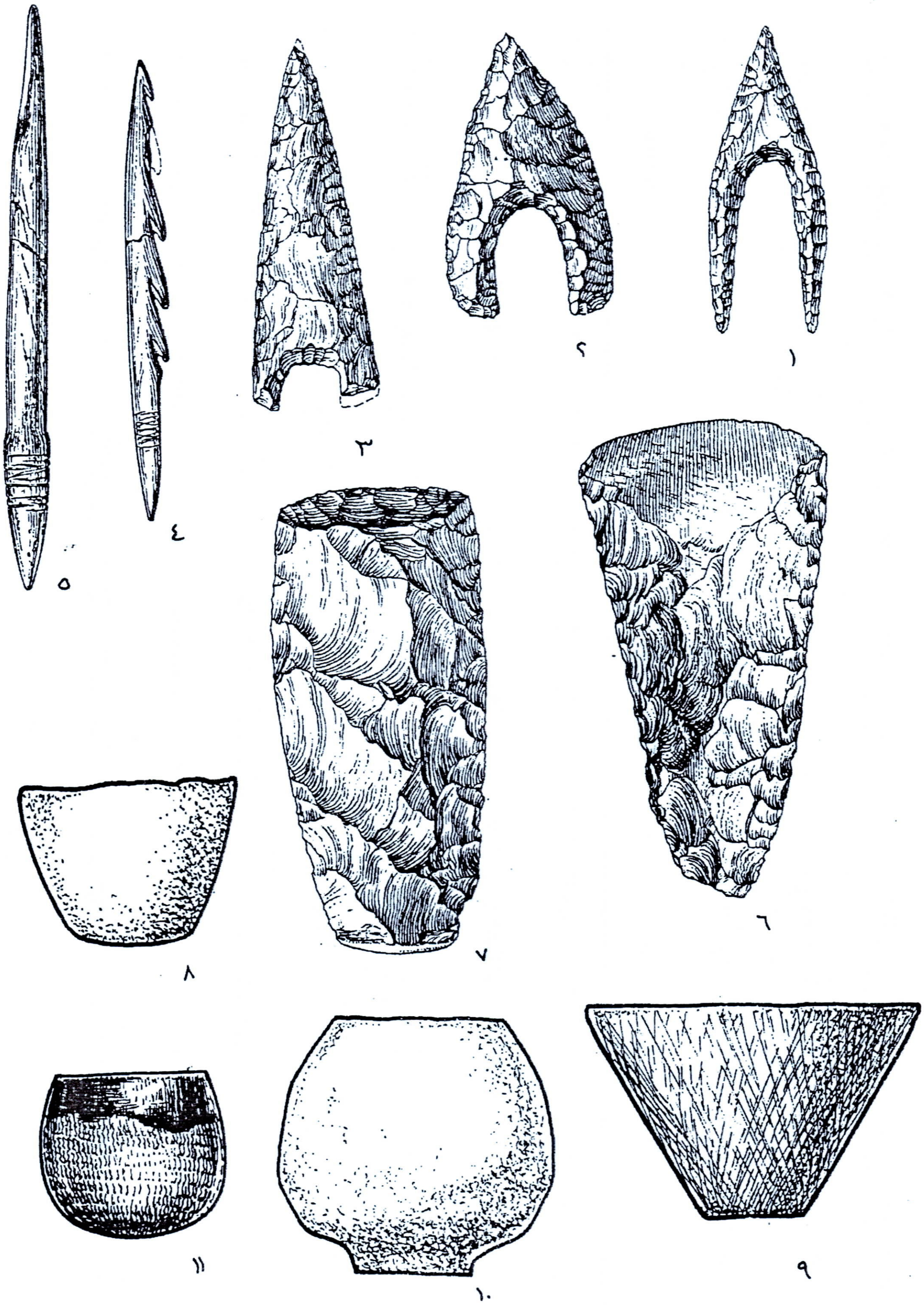
شكل (٢)

١، ٢، ٣، ٤ أدوات نصلية، صناعة إدفو . ٥، ٦ قنا. ٧-١١ نصال مظهرة. ١٢، ١٣ مكاشط، ١٤ مخرز. صناعة الفاخوري Wendorf 1976. ١٥، ١٦ مكاشط/ نوى، ١٧ مخرز، ١٨-٢١ نصال متنوعة. صناعة حلفا Marks 1968. ٢٢-٢٦ شفرات مظهرة. ٢٧-٣٠ أدوات قزمية. صناعة عافية Wendorf 1976.



شكل (٣)

١، ٢ فخار الخرطوم المموج. ٣، ٤، ٥ فخار الشهيناب. ٦– شق الدود. ٧، خطاف الخرطوم. ٨، خطاف الشهيناب. ٩–١١ أهلة، الخرطوم. ١٢ مظفار، الخرطوم Arkell 1975



شكل (٤)

١-٣ رؤوس، الفيوم. ٤ خطاف، الفيوم، ٥ رأس حربة الفيوم. ٦، ٧ فأس ومظفار، الفيوم. ٨-١٠ فخار الفيوم. ١١ فخار البداري Arkell 1975

عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام

تشكل بلاد الشام جزءاً من منطقة جنوب غرب آسيا وتشمل المنطقة الواقعة إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط. تحدها من الشمال جبال طوروس ومن الشمال-شرق نهر الفرات وفي الجنوب والجنوب الشرقي الصحراء العربية وصحراء النقب وتضم كلاً من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن بمساحة تبلغ 312،000كم2، وعدد سكانها يقارب الأربعين مليون نسمة. وهي في حقيقة الأمر الجزء الشمالي من جزيرة العرب كما يدل على ذلك اسمها بلاد الشام مقابل بلاد اليمن.

يمكن أن نقسم بلاد الشام إلى أربع مناطق جغرافية لكل منها خصوصيتها من حيث البيئة والمناخ والتربة والنباتات والحيوانات. هذه المناطق هي من الشرق إلى الغرب:

المنطقة الساحلية ثم سلسلة الجبال والمرتفعات الغربية فالانهدام السوري الأفريقي، وأخيراً الصحراء والسهوب والجبال الشرقية.

المنطقة الأولى هي الجزء الشمالي والأوسط من بلاد الشام، سورية ولبنان، وتضم سهولاً ساحلية ضيقة، تليها جبال توازي شاطئ المتوسط، بينما تتسع هذه السهول في الجزء الجنوبي وتصل حتى عرض 60كم.

المنطقة الثانية إلى الشرق من المنطقة الأولى وفيها سلسلتان جبليتان مهمتان، جبال الساحل السوري وجبال لبنان الغربية،وهي متفاوتة في ارتفاعها وأعلى نقطة فيها هي القرنة السوداء التي ترتفع 3088م عن سطح البحر. بينما تقوم في الجنوب جبال الجليل ونابلس وهي أقل ارتفاعاً من جبال المنطقة الثانية، الشمالية، وأقصى ارتفاع لها هو 1727م عن سطح البحر. بينما في الشرق توجد سلسلة جبال سمعان وحارم والزاوية وسلسلة جبال لبنان الشرقية التي تصل أعلى ارتفاع لها في جبل الشيخ، 2814م ف.س.ب، قبل أن تتحول إلى هضاب أقل ارتفاعاً.

المنطقة الثالثة هي الانهدام السوري الأفريقي الذي يمتد من منطقة العمق في سورية شمالاً مروراً بوادي العاصي ثم سهل الغاب وسهل البقاع وحوض الليطاني حتى غور الأردن ووادي عربة وخليج العقبة في الجنوب، ويصل أكبر انخفاض لها في وادي الأردن حيث البحر الميت، 396م تحت سطح البحر. إلى الشرق من هذا الانهدام تقوم المناطق البركانية التي تمتد من جبل العرب في سورية مروراً بالأردن وباتجاه جنوب-شرق حتى السعودية. المنطقة الرابعة تقع إلى شرق بلاد الشام وتتألف من البادية والصحراء السورية في الشمال والصحراء الأردنية والعربية في الجنوب. تنتشر في بلاد الشام تربة خصبة لحقية وبركانية على الساحل وفي السهول والوديان بينما تقوم التربة الرملية والكلسية، المالحة، في المناطق الصحراوية. تجري في بلاد الشام مجموعة مهمة من الأنهار : الفرات، العاصي، نهر الكبير الشمالي في سوريا، ونهر الأردن واليرموك في فلسطين والأردن وهناك الليطاني في لبنان والعديد من الينابيع والبحيرات، مثل بحيرة طبرية والبحر الميت، والواحات الداخلية في المناطق الشرقية مثل واحة تدمر والكوم في سورية والأزرق في الأردن، التي جذبت الإنسان الأول منذ أبكر العصور. ومناخ بلاد الشام متنوع حسب المناطق لكنه عموماً متوسطي، ماطر شتاءً وحار صيفاً. وتتراوح الأمطار في المناطق الغربية بين 350-1000مم. تتراوح الأمطار في المناطق الداخلية، القارية

والسهوب، بين 100-200مم والشتاء فيها قارس، بينما الشتاء في المناطق الجبلية قارس جداً والأمطار غزيرة تتراوح بين 400-600مم. أما في المناطق الصحراوية فالحر شديد والأمطار قليلة تتراوح بين 50-150مم.

تتأثر نباتات بلاد الشام بمناخها وهي نباتات متوسطية وجبلية وصحراوية وتتبدل من غابات وأشجار البلوط والسنديان والفستق إلى النجليات والشيح والعرعر في الصحراء، وهناك الشجيرات البرية كالتين والزيتون والسرو والصنوبر والنخيل في الواحات.

لقد أعطى التنوع البيئي والثروات الطبيعية الغنية والموقع الجغرافي المتميز، بين القارات الثلاث، دوراً مهمًا لبلاد الشام التي كانت منطقة ظهور والتقاء وانتشار الحضارات الإنسانية منذ أقدم العصور. وكانت هذه البلاد الممر الطبيعي الذي ربط مختلف القارات ببعضها والذي سلكه الإنسان الأول الذي خرج من القارة الأفريقية ليستوطن بقية أرجاء المعمورة. أتت البحوث الأثرية لتؤكد أن هذه البلاد كانت موطن حضارات عريقة وغنية منذ نشوء الإنسان وظهور الحضارة.

تعود المعلومات الأولى عن استيطان بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ إلى مطلع القرن العشرين ولكن الخطوة العلمية الأولى والأهم كانت التنقيبات التي جرت في الثلاثينات من القرن الماضي في جبال الكرمل في فلسطين وفي منطقة يبرود في سورية والتي أدت إلى الكشف عن بقايا أثرية وهياكل عظمية ، أدت دوراً مهمًا في إبراز حقيقة تلك العصور. ثم تطورت عمليات الكشف والتنقيب لتشمل كل لبنان والأردن أيضا. ومع بداية الستينات تطورت مناهج وطرق البحث فأخذت بعين الاعتبار، إضافة إلى الجوانب الأثرية،كل المعطيات البيئية والجيولوجية التي تساعد على فهم الإنسان القديم في إطار واقعه الجغرافي والبيئي الأول.

ويطبق الباحثون الآن تقانات بالغة الدقة والتعقيد في دراسة المكتشفات الأثرية وتحليلها ومقارنتها وتأريخها مستخدمين علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والكمبيوتر وغيرها. لقد أبرزت الأبحاث الأهمية الكبرى لبلاد الشام في نشوء حضارات ما قبل التاريخ وانتشارها وتطورها. وسوف نعرض في هذا البحث مختلف مراحل عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام، منذ البداية، أي منذ حوالي مليون سنة خلت، وحتى نهاية الألف الرابع ق.م. مشيرين أن التقسيم المعتمد إلى عصور ما قبل التاريخ هو التالي:

1- العصر الحجري القديم (Palaeolithic) ويؤرخ بين 1.000.000-15.000 سنة خلت، ويقسم إلى:

- العصر الحجري القديم والأدنى، (Lower Palaeolithic) ويؤرخ بين 1.000.000-200.000 سنة خلت، فيه سادت الحضارة الآشولية (Acheulean) بمراحلها القديمة والوسطى والحديثة.
- العصر الحجري القديم الأوسط، الباليوليت الأوسط (Middle Palaeolithic) ويؤرخ بين 2.00.000-40.000 سنة خلت، وهي مرحلة الحضارة اللفلوازية-الموستيرية (Levalloiso-Mousterian).
- العصر الحجري القديم الأعلى، (Upper Palaeolithic) ويؤرخ بين 40.000-15.000 سنة ق.م.

2- العصر الحجري الوسيط، الميزوليت (Mesolithic) ويسميه البعض الباليوليت الأخير (Epi-Palaeolithic) ويؤرخ بين 15.000-10.000 سنة ق.م.

3- العصر الحجري الحديث، (Neolithic) ويؤرخ بين 10.000-5.000 سنة خلت.

4- العصر الحجري النحاسي، (Chalcolithic) ويؤرخ بين 5000-3000 سنة ق.م.

علماً بأن هذه التواريخ عامة ونسبية وهي تختلف من منطقة إلى أخرى ومن موقع إلى آخر لكنها في خطوطها العريضة تنطبق على مجمل بلاد الشام.

الواقع الجغرافي والبيئي القديم:

لقد أعطى الموقع المتميز لبلاد الشام بين القارات الثلاث خصوصية جغرافية وبيئية متميزة حملت تأثيرات البيئات الآسيوية والأفريقية والأوربية وشكلت واقعاً حيوياً فريداً في أهميته. وللأسف فإن الدراسات في هذا المجال لازالت محدودة وقد تركزت في معظمها على الزمن الجيولوجي الرابع (Quaternary) وهو زمن ظهور الإنسان وبداية عصور ما قبل التاريخ.

أظهرت الدراسات أن من أهم المميزات الجغرافية لهذا الزمن هي التقلبات المناخية التي حصلت في مختلف أرجاء المعمورة والتي أخذت في المناطق المرتفعة من نصف الكرة الشمالي، فوق خط عرض 45ْ، طابع عصور جليدية (Glacials) شديدة البرودة، فصلتها عن بعضها عصور دافئة (Interglacials) بينما كانت هذه التقلبات في الشرق الأوسط وبلاد الشام، على شكل عصور مطيرة (Pluvials) فصلت بينها عصور جافة (Interpluvials). إن الشاهد الجيولوجي الأول على حصول هذه العصور هو الترسبات النهرية والبحرية الرباعية التي تم تحديدها سواء في وديان الأنهار الكبرى لبلاد الشام، الفرات والعاصي ونهر الكبير الشمالي في سوريا، الليطاني في لبنان، ووادي الأردن في الأردن وفلسطين أو على سواحل البحر المتوسط. وهي ترسبات من الحصى والرمل بلغت سماكات متنوعة (5-30م)، وشكلت مصاطب نهرية (Fluviatile terraces) أو شواطئ بحرية (Paleo-shore lines) متدرجة في ارتفاعها وفي بعدها عن وديان الأنهار والسواحل التابعة لها. أقدمها هو عادة أكثرها ارتفاعاً وبعداً عن وادي النهر أو شاطئ البحر، وأحدثها هو الأقل ارتفاعاً وأكثر قرباً من مياه النهر أو البحر. وتعود هذه المصاطب النهرية والشواطئ البحرية إلى عصر البليستوسن (Pleistocene) الذي يشكل الجزء الأول والأطول من الزمن الرابع والذي بدأ منذ أكثر من مليون سنة خلت، واستمر حتى حوالي 10.000 سنة خلت. لقد أخذت هذه المصاطب والشواطئ تسميات محلية اختلفت باختلاف المنطقة والباحث. تبسيطاً للموضوع وتحاشياً لأي التباس أو غموض ارتأينا عرضها وفق ترقيم متسلسل مطلقين تسمية الرباعي النهري (Quaternary Fluviatile, Q.F) على المصاطب النهرية وتسمية الرباعي البحري (Quaternary Marine, Q.M) على الشواطئ البحرية. وهكذا نبدأ، من الأحدث باتجاه الأقدم، بالرباعي النهري الأول (QFI) وفيه وُجدت الأدوات الحجرية العائدة للعصر الحجري القديم الأعلى والأوسط. يليه الرباعي البحري الأول (QMI) الذي أعطى أدوات حجرية تعود للعصر الانتقالي بين العصر الحجري القديم الأوسط والعصر الحجري القديم الأدنى. ثم الرباعي النهري الثاني (QFII) وفيه أدوات حجرية تعود إلى المرحلة الثالثة، الآشولي الأعلى، من العصر الحجري القديم الأدنى. ثم الرباعي البحري الثاني (QMII) وقبله الرباعي النهري الثالث (QFIII) وفيهما أدوات من المرحلة الثانية من الباليوليت الأدنى، الآشولي الأوسط، ثم الرباعي البحري الثالث (QMIII) وقبله الرباعي النهري الرابع (QFIV) وفيهما أدوات حجرية تعود إلى المرحلة الأولى من

الباليوليت الأدنى، الآشولي القديم. كما لوحظ وجود مصطبة نهرية خامسة، رباعي نهري خامس (QFV) وشاطئ بحري، رباعي بحري رابع (QMIV)، لكن لم يُعثر فيهما على أية أدوات حجرية ، مما يدل على أن تشكلهما قد سبق مرحلة ظهور الإنسان في بلاد الشام. لقد تم تحديد المصاطب والشواطئ المشار إليها في وديان الأنهار المهمة من بلاد الشام: الفرات والعاصي والكبير الشمالي في سوريا، والليطاني في لبنان، ونهر الأردن، وعلى الشواطئ الشرقية لبحر المتوسط الذي يشكل الحدود الغربية لبلاد الشام.

تشير الدراسات إلى أن المصاطب النهرية تدل على عصر بارد بينما الشواطئ البحرية هي دليل عصر دافئ. وهكذا أمكن إعادة تصور لتتابع التقلبات المناخية الرباعية بين عصور باردة تلتها أخرى دافئة على امتداد الرباعي وكانت هذه التقلبات شديدة الأثر على البيئة وبالتالي على الإنسان وحضارته. فقد تبيّن مثلاً أن وديان أنهار العاصي والأردن كانت مستنقعات تعيش فيها حيوانات ضخمة كالفيل ووحيد القرن والماموت والزرافة والحصان. إضافة إلى انتشار غابات البلوط والسنديان في المنطقة الساحلية والجبلية. وتبيّن أن المناطق الصحراوية الحالية، مثل بادية الشام، كانت غنية بالبحيرات والينابيع وبالنباتات والحيوانات التي جذبت مجتمعات ما قبل التاريخ منذ أقدم العصور. كما قامت في غور الأردن بحيرة كبيرة عاشت بجوارها الأيلة وفرس الماء والأبقار الوحشية والطيور والأسماك التي شكلت مصدر عيش تلك المجتمعات. وهناك دلائل تقلب المناخ على امتداد العصر الحجري القديم بين رطب وماطر إلى جاف وقارس، مع أن السمة العامة لمناخ ذلك العصر، أي البليستوسن، هو سيادة مناخ بارد لا بل وجليدي في بعض الفترات. ولكن مع عصر الهولوسين، (Holocene) بل منذ حوالي 15.000 سنة ق.م، بدأ المناخ بالدفء وأصبح أقرب إلى ما هو عليه الآن، مع أنه مر أيضاً بتبدلات بين الماطر والجاف ولكنه في طابعه العام مناخ دافئ ومطير. ثم حصلت فترة جفاف، حوالي 10.000 سنة خلت، تلاها تحسن وأمطار، ثم تدهور وهكذا دواليك. لقد تميز مناخ الهولوسين بانتشار واسع للنباتات كالقمح والشعير والبقول بأنواعها وأشجار التين والزيتون واللوز، إضافة إلى حيوانات البقر والماعز والغنم والخنزير، وكلها أنواع كانت برية لم تلبث أن دُجنت في العصر الحجري الحديث وعلى امتداد بلاد الشام.

الإنسان الأول في بلاد الشام، العصر الحجري القديم الأدنى:

من المعلوم أن أنواعاً بشرية مختلفة، فيزيولوجياً وحضارياً، قد عاشت على امتداد عصور ما قبل التاريخ، يعود أقدمها إلى العصر الحجري القديم الأدنى وكان منها النوع المسمى الأوسترالوبيتيك (Australopithecus) والهومو-هابيل (Homo-Habilis) وهما اللذان ظهرا في أفريقيا منذ حوالي 2،5 مليون سنة خلت وكان هومو هابيل منتصب القامة وله حجم دماغ متطور، كما أنه أول من صنع الأدوات الحجرية. ومنذ 1،5 مليون سنة خلت ظهر إنسان الهوموأركتوس معتدل القامة (Homo-Erectus) الذي كان أول من خرج من القارة الأفريقية ليستوطن في مناطق مختلفة من العالم. إن بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافي كانت حلقة الوصل الأولى بين أفريقيا وبقية القارات. يٌعتقد وصل إنسان الهومو أركتوس إلى بلاد الشام عبر طريقين رئيسيين: الأول ساحلي، عبر السواحل الشرقية للبحر المتوسط والثاني داخلي، من خلال الانهدام الأفريقي ثم انهدام البحر الميت، وحتى وادي عربة فالليطاني فالعاصي، كما دلت على ذلك المواقع الأثرية الباكرة التي

اكتشفت على امتداد هذين الطريقين، يمكن اختصار الصفات الفيزيولوجية لهذا الإنسان بأنه كان قصير القامة، حوالي 160 سم، غليظ العظام، وصل حجم جمجمته حتى 1000سم3، عظام حواجبه بارزة، جبهته مائلة قليلاً إلى الوراء وجمجمته ليست مكتملة الاستدارة، كما أن ذقنه ليست واضحة المعالم، فكه غليظة وأسنانه قوية، محاجر عينيه كبيرة ودائرية الشكل. من الناحية الحضارية صنع هذا الإنسان الأدوات الحجرية المتطورة وعلى رأسها الفؤوس اليدوية المتعددة الأشكال (Bifaces)، كما عرف استخدام النار وإشادة الأكواخ البسيطة في العراء. ولكن ليست لدينا معلومات عن حياته الروحية والاجتماعية وإن كانت مواقعه تدل على أنه قطع شوطاً تطورياً مهمًّا على هذا الطريق.

لم نعثر في بلاد الشام على بقايا هياكل عظمية كثيرة ومعبرة بما يكفي عن هذا النوع من البشر، إذ اقتصر ما وُجد منها حتى الآن على أسنان وأجزاء من الجمجمة والأطراف الطويلة وُجدت في فلسطين، مثل موقع العبيدية حيث عثر على أجزاء من جمجمة وأسنان من طبقة سطحية غير موثوقة وموقع جسر بنات يعقوب الذي وجدت فيه عظام فخذ لهذا الإنسان، يتراوح عمرها بين 1.000.000- 600.000 سنة خلت. أما الكشف الأهم فهو العظم الجداري اليساري، لجمجمة الهوموأركتوس (parietal)، الذي اكتشف في السنوات الأخيرة في موقع الندوية في منطقة الكوم في سوريا في طبقة أثرية سليمة ترافقه أدوات حجرية آشولية متطورة ودقيقة التصنيع. وقدر عمر هذه الجمجمة بحوالي 500000 سنة خلت، وهي بذلك أهم كشف لهذا الإنسان من بلاد الشام. تجدر الإشارة هنا إلى أن الكشف القديم المعروف من مغارة الزطية في فلسطين والذي يعود إلى حوالي 200.000 سنة، أي المراحل الأخيرة من حياة هذا الإنسان وهو يمثل جمجمة تحوم الشكوك حول إطارها الجيولوجي والعلمي الدقيق. فيعتبرها البعض عائدة للهوموأركتوس، بينما يظن آخرون أنها تعود للإنسان العاقل القديم (Archaic Homo-Sapiens).

بالرغم من قلة البقايا العظمية لهذا الإنسان إلا أن آثاره وأدواته الحجرية منتشرة بكثافة كبيرة في كل المناطق الجغرافية من بلاد الشام. ومواقعه كثيرة ولكنها متباينة في أهميتها. بعضها عبارة عن مواقع سطحية أو جيولوجية أعطى أدوات حجرية ذات قيمة تاريخية وأثرية محدودة. لكن بعضها الآخر هو معسكرات سكن وإقامة ذات قيمة علمية كبرى على كل صعيد. أقدم هذه المواقع وأبكرها العبيدية في حوض الأردن في فلسطين، وست مرخو وخطاب في حوض العاصي في سوريا، وبرج قناريت على الساحل اللبناني، وأبو هابيل وأبو الخس في الأردن. كلها مواقع أعطت أدوات حجرية بدائية وجدت ضمن الترسبات الجيومورفولوجية للرباعي النهري الرابع (QFIV) وهي عبارة عن قواطع وفؤوس حجرية وغيرها، أرخت استناداً إلى معطيات جيولوجية وبالنتولوجية، إلى زمن يقدر بحوالي مليون سنة خلت. تنسب هذه المواقع إلى المرحلة الآشولية القديمة (Lower Acheulean)، أو العصر الحجري القديم الأدنى الأول، ويقتصر وجودها على سواحل بلاد الشام وعلى أطراف القسم الشمالي من الانهدام السوري الأفريقي، أي امتداد وادي عربة ووادي الأردن ووادي الليطاني وأخيراً وادي العاصي في سوريا.

في المرحلة الثانية من هذا العصر، المسماة الآشولي الأوسط (Middle Acheulean) أو العصر الحجري القديم الأدنى الثاني منذ حوالي 700.000 سنة، أصبحت المواقع أكثر عددًا ومكتشفاتها أغنى. وقد عُثر في بلاد الشام على مواقع كثيرة من هذا العصر، من أكثرها أهمية اللطامنة في حوض العاصي الأوسط في سورية؛ الذي نُقب منذ

الستينات، وتم الكشف فيه عن سوية استيطان تعود إلى العصر الآشولي الأوسط، حُفظت ضمن الترسبات النهرية العائدة للعصر المطير الرابع، ميزتها الأدوات الحجرية وعلى رأسها الفؤوس اليدوية الدقيقة التصنيع والمتنوعة الأشكال. وهناك المعاول والأدوات المتعددة الأضلاع والمقاحف والنوى وغيرها. إن الكشف الأكثر لفتاً للنظر في اللطامنة هو التجمع الواضح للأحجار الكلسية الكبيرة التي تم إحضارها إلى الموقع من مقلع مجاور والتي يُظن أنها دعمت أساسات خيمة أو كوخ بني في هذا المكان. وبذلك تكون اللطامنة أول وأقدم موقع، خارج أفريقية، يعطي دليل البناء في العراء. كما أن الاحمرار الذي ظهر على بعض الأدوات الحجرية يدل على حرقها مما يشير إلى معرفة النار من قبل إنسان الهوموأركتوس الذي سكن بلاد الشام في ذلك العصر. من جهة ثانية فقد أعطت الطبقات الجيولوجية التي عاصرت موقع اللطامنة، في مناطق أخرى، بقايا حيوانية كثيرة ومتنوعة بينها الفيل والحصان ووحيد القرن وفرس الماء والوعل والثور والضبع والقوارض المختلفة وغيرها، مما يدل على بيئة مستنقعات وغابات سادت حوض العاصي منذ ذلك العصر.لقد أُرخ هذا الموقع بطريقة اليورانيوم – ثوريوم (U/TH) إلى حوالي 600 ألف سنة خلت. ومن المواقع المهمة أيضاً في هذا العصر برزين في حوض نهر الكبير الشمالي في سوريا و "جب جنين" في حوض الليطاني في لبنان، وهناك موقع جسر بنات يعقوب قرب بحيرة طبرية في حوض الأردن، الذي بدأ العمل فيه منذ الثلاثينات في القرن الماضي واستمر بتقطع حتى الآن، وأعطى آثاراً مختلفة من بينها بقايا أخشاب متحجرة وأدوات خشبية هي الأهم من نوعها في المنطقة والعالم حتى الآن. إضافة إلى وجود أنماط خاصة من الأدوات الحجرية، القواطع (Cleavers) المصنعة من البازلت والحجر الكلسي والتي تعكس تأثيرات أفريقية واضحة. إن التواريخ المختلفة التي جرت في الموقع سواء بطريقة البوتاس/أرغون (Potassium/Argon) أو اعتماداً على البقايا الحيوانية تدل على أن عمر الموقع يتجاوز 700 ألف سنة خلت. من التطورات المهمة في هذا العصر هي تحرك الاستيطان إلى الشرق باتجاه البادية أي خارج المناطق التقليدية السابقة، الانهدام والساحل. وخير شاهد على ذلك هو موقع الميرا في منطقة الكوم في البادية السورية حيث كشفت الأعمال الأولية عن سوية استيطان آشولية وسطى تشبه ما عرف من موقع اللطامنة، بل إنها أقدم منها زمناً؛ إذ دلت التأريخات الأولية، بالطريقة المغناطيسية القديمة (Paleo-magnetism)، إلى أن الميرا يعود إلى زمن يزيد على 700 ألف سنة خلت. كما عثر على بقايا حيوانات قديمة بينها وحيد القرن، مما يدل على قيام بيئة غابات ومستنقعات مختلفة تماماً عن البيئة الصحراوية الحالية لهذه المنطقة. ولا شك بأن التنقيبات المرتقبة في هذا الموقع سوف تلقي المزيد من الضوء على الاستيطان البشري في البادية السورية منذ ذلك العصر.

في القسم الثالث من العصر الحجري القديم الأدنى، العصر الاشولي الأعلى (Upper Acheulean)، منذ حوالي 400.000 سنة خلت ازداد الاستيطان البشري كثافة وانتشاراً على امتداد كل بلاد الشام حيث وصل إنسان الهوموأركتوس، وهو النوع الذي لا زال مسيطراً حتى هذا العصر، إلى كل المناطق الجغرافية من بلاد الشام بدءاً من الساحل مروراً بالداخل وحتى الصحراء والبادية التي سُكنت بكثافة واضحة دلت عليها مئات المواقع التي انتشرت من بادية الكوم في سوريا شمالاً مروراً بالصحراء الفلسطينية وحتى بادية الأزرق في الأردن جنوباً.

تتمتع المواقع هنا بخصوصية معينة، إذ إن معظمها قد تجمع بجوار الينابيع ومصادر المياه القديمة التي جذبت

هؤلاء الناس على امتداد عشرات الآلاف من السنين، فترددوا عليها تاركين بقاياهم التي بلغت سماكة طبقاتها الأثرية عشرات الأمتار واحتوت على الآلاف بل الملايين من الأدوات الحجرية والبقايا النباتية والحيوانية وغيرها. ولعل موقع الندوية في منطقة الكوم هو الموقع المفتاح لهذه المرحلة، وهو عبارة عن نبع ماء قديم كشفت التنقيبات الأثرية فيه حتى الآن عن تتابع استيطان مستمر، أكثر من 25 طبقة أثرية، أقدمها وأكثرها أهمية الطبقات العائدة لما يسمى بالحضارة اليبرودية التي أخذت اسمها من ملاجئ منطقة يبرود في سوريا واشتهرت بتصنيع المقاحف ذات التشذيب الخاص، ثم الطبقات العائدة للحضارة الآشولية تليها سويات الحضارة الهملية، نسبة إلى موقع الهمل، والتي اشتهرت بتصنيع الحراب الطويلة، وأخيراً الطبقات العائدة إلى الحضارة الآشولية الأخيرة. هذا ما جعل من الندوية موقعاً فريداً في أهميته يمكننا من تتبع تطور الإقامة البشرية في الموقع من مختلف جوانبها، الأثرية والأنتروبولوجية والبالنتولوجية على امتداد حوالي نصف مليون سنة خلت. من الأمور الأخرى الملفتة للنظر في الندوية هي الكميات الهائلة والأنواع الرائعة للأدوات الحجرية، منها الفؤوس اليدوية، ذات الدقة العالية في التصنيع، مما حمل البعض على اعتبار هذه الفؤوس دليل الفنون الأولى منذ ذلك العصر السحيق. كما أمدنا الموقع ببقايا حيوانات برية مختلفة من بينها الحصان والجمل وأنواع مختلفة من البقريات والوعل والغزال والكلب والذئب وطيور وغيرها. بل عُثر على دلائل وحيد القرن أيضاً، مما يشير إلى مناخ رطب ومطير ساد في مراحل معينة في تلك المنطقة؛ إضافة إلى انتشار أنواع مختلفة من الأشجار والنباتات، وخاصة السنديان والزعرور؛ إلا أن الكشف الأكثر أهمية من هذا الموقع هو الجزء الجانبي اليساري لجمجمة الهوموأركتوس الذي أشرنا إليه والذي وُجد ضمن سوية تمثل أرضية سكن غنية جداً بالأدوات الحجرية وخاصة الفؤوس اليدوية الجميلة كما رافق هذه الجمجمة الكثير من عظام الغزال والوعل.

مواقع هذا العصر منتشرة في كل بلاد الشام وهي عموماً تتشابه في معطياتها، نذكر منها القرماشي في سوريا وعين الأسد في الأردن وراس بيروت في لبنان، ومعيان باروخ، والطبقات الدنيا من مغاور أم قطفة والطابون في فلسطين وموقع مسعدة (بركة رام) في الجولان السوري المحتل وغيرها الكثير.

في المرحلة الانتقالية الواقعة بين العصر الحجري القديم الأدنى والعصر الحجري القديم الأوسط التي يمكن أن نؤرخها على فترة تقع بين 200.000-300.000 سنة خلت. شهدت بلاد الشام تحولاً جذرياً في الاستيطان، فقد اختفت الهيمنة السابقة للآشوليين، صنّاع الفؤوس الحجرية، وظهرت إلى جانبهم، في مراحلهم الأخيرة، جماعات بشرية جديدة انتجت حضارات جديدة ومختلفة تعايشت كلها في نفس الزمان والمكان تقريباً. وهكذا نلاحظ استمرار تقاليد الآشولي الأخير المتميزة بمتابعة تصنيع الفؤوس الحجرية، التي أصبحت أحجامها أصغر وأنواعها أقل دقة من السابق ودخلت إلى جانبها أدوات خفيفة كالمكاشط والسكاكين. كما ظهرت جماعات استخدمت المقاحف بشكل خاص أُطلق عليهم اليبروديين (Yabrudian) وهناك جماعات اشتهرت بتصنيع النصال أُطلق عليهم ماقبل - الأورنياسيين (Pre-Aurignacian) أو العاموديين (Amudian) في فلسطين ولبنان، ونسميهم الهمليين (Hummalian) في سورية. كل ذلك جعل الباحثين يتحدثون عن "موزاييك" حضاري في هذا العصر الانتقالي جسدته مواقع كثيرة من يبرود والكوم في سوريا، إلى الطابون والزطية ومسلوخة ، وعدلون في لبنان، وأبو

سيف وعين دفلة في الأردن. ما لبث هذا "الموزاييك" أن تراجع بعد أن انتهت هذه المرحلة الانتقالية واختفى إنسان الهوموأركتوس وبدأ عصر جديد ومعه إنسان جديد.

العصر الحجري القديم الأوسط:

منذ حوالي 200.000 سنة خلت بدأ عصر العصر الحجري القديم الأوسط، وفيه حصل تحول جديد في طبيعة الاستيطان البشري لبلاد الشام. بدأ هذا التحول واضحًا في الأدوات الحجرية التي لم تعد من النوع "الثقيل" (Heavy tools) أي الفؤوس الحجرية وإنما أصبحت أدوات "خفيفة" (light tools) معظمها مقاحف (side-scrapers) ذات أشكال متباينة. وهناك المقاشط والسكاكين والحراب التي تم تصنيعها وفق ما يُعرف بالطريقة اللفلوازية-الموستيرية، نسبة إلى مواقع (Levallois) وموستير (Le Moustier) في فرنسا، وهي طريقة اعتمدت على استخراج عدة أدوات حجرية من النواة الواحدة. كما ظهر في هذا العصر نوع جديد من البشر هو إنسان النياندرتال (Neanderthal) الذي اكتشف لأول مرة في منتصف القرن التاسع عشر في وادي نياندر في جنوب ألمانيا. كان هذا الإنسان أكثر تطوراً بشكل عام من سلفه الهوموأركتوس، قامته أطول، 165سم، وحجم دماغه أكبر، حوالي 1200سم3، كما إن ملامحه البشرية أكثر وضوحاً وذقنه واضحة البروز. ومن جهة أخرى فقد دلت المكتشفات التي أتت من بلاد الشام، من مغارة السخول وجبل قفزة في فلسطين، أن نوعاً آخر من البشر قد عاش إلى جانب النياندرتال هو الإنسان العاقل القديم (Archaic Homo-Sapiens)، الذي يطلق عليه البعض تسمية ماقبل الكرومانيون (Proto-Cromagnon) وهو أنتج نفس الحضارات اللفلوازية-الموستيرية التي عرفها النياندرتال الذي لم يلبث أن اختفى في نهاية هذا العصر، أي منذ حوالي 40.000 سنة خلت، بينما تابع النوع الآخر، الإنسان العاقل القديم، تطوره. هذا الواقع جعل من بلاد الشام مفتاح الدراسات المتعلقة بمعرفة أصل الإنسان الحالي وتحديد مصير النياندرتال.

لقد انتشر الاستيطان البشري في هذا العصر بكثافة لم يسبق لها نظير وعلى امتداد كل بلاد الشام حيث سكنت السواحل والداخل والبوادي والصحارى وأقام الإنسان في المغاور والملاجئ في الجبال وفي العراء، في وديان الأنهار وفي السهول والهضاب وفي كل مكان تقريباً. بالرغم من النقاش الحاد واختلاف وجهات النظر بين الباحثين حول طبيعة بيئة إنسان هذا العصر وحضارته، إلا أن قواسم مشتركة يمكن أن تجمع بين مختلف المناطق والمواقع. لقد أتت المعلومات الأولى منذ مطلع القرن الماضي من فلسطين وذلك من خلال المكتشفات الأثرية والأنتروبولوجية المتميزة في الكثير من المواقع، في جبال الكرمل (مغاور الطابون، السخول، الكبارا وهايونيم) ومواقع الداخل الفلسطيني (العامود وجبل قفزة) وهناك مغاور يبرود وجرف العجلة والدوارة والديدرية في سوريا، ثم مواقع الكوة وراس الكلب ونهر إبراهيم في لبنان، ومواقع أبو سيف وعين دفلة وطور فرج وطور صبيحة في الأردن. إن أهم ما يميز هذه المواقع أنها أعطت مكتشفات غزيرة وفريدة لإنسان ذلك العصر (النياندرتال والإنسان العاقل القديم)، فلقد عُثر على هياكل ، أو أجزاء من هياكل، عظمية، في الزطية وشقبة والواد والسخول وقفزة وهايونيم في فلسطين، وراس الكلب في لبنان، والديدرية وأم التلال في سوريا. في بعض هذه المواقع وجدت هياكل عظمية كاملة ونادرة، مثل الطابون والكبارا والعامود في فلسطين، والديدرية في سورية، وكلها كانت هياكل نياندرتالية تقليدية، أرخ معظمها بين 50.000-60.000 سنة خلت، تشبه في مواصفاتها الفيزيولوجية النياندرتال الأوربي الذي يُعتقد أنه قد تطور من إنسان

هايدلبرغ (Homo-Heidelbergensis) في غرب أوربة ثم انتقل إلى المشرق العربي /بلاد الشام/ مدفوعاً ربما بأسباب مناخية-بيئية أو غيرها. بينما يُعتقد بأن الإنسان العاقل القديم، الذي وُجدت هياكله في السخول وأم قفزة وهي تحمل صفات فيزيولوجية أقرب للإنسان الحالي، وقد أرخت على حوالي 100.000 سنة خلت، هو ذو أصل أفريقي حيث وجدت الأنواع الأولى منه، وهذا ما يبعد احتمال وجود أي علاقة تطورية بين هذين النوعين اللذين يعودان على ما يبدو في أصلهما إلى مناطق وأنواع بشرية مختلفة. الأدوات الحجرية في هذا العصر كانت متطورة عن أدوات العصر السابق، وهي وُجدت في الكثير من المواقع في طبقات فوق الطبقات العائدة للعصر الانتقالي بين العصر الحجري القديم الأدنى والعصر الحجري القديم الأوسط. وقد اعتُبر موقع الطابون النموذج الذي عكس تطور الصناعات الحجرية التي ابتدأت في المرحلة الأقدم (Tabun D) بالحراب الطويلة والرفيعة، تلتها في المرحلة الوسطى (Tabun C) الأدوات البيضوية والعريضة – ثم أتت في المرحلة الأخيرة (Tabun B) الحراب القصيرة ذات القاعدة العريضة. ولكن من المعروف الآن أن هذا النموذج من التطور لم يكن شاملاً في كل بلاد الشام التي ظهرت فيها نماذج تطورية مختلفة سواء على الساحل أو في الداخل.

أظهرت الدراسات أن بيئة بلاد الشام في ذلك العصر كانت متقلبة بين جافة وماطرة ولكنها عموماً كانت أكثر أمطاراً وأشجاراً مما هي عليه الآن، فقد انتشرت في مناطق عديدة أشجار اللوز والسنديان والفستق والنجليات والحور والصفصاف إلى جانب حيوانات الغزال والأيل والثور والماعز والخنزير والحصان. بينما انقرضت عدة أنواع عاشت في العصر السابق كوحيد القرن والفيل.

تنوعت مواقع العصر الحجري القديم الأوسط بين مناطق سكن كثيف ومتكرر ومناطق إقامة مؤقتة وثانوية. وهناك ما يسمى "بالمواقع القاعدة" (Base site) بجوار مصادر العيش، المياه والنباتات والحيوانات وخامات الصوان وهناك المواقع الموسمية (Seasonal Site) في المناطق الأقل غنىً، إضافة إلى مواقع مقالع (Quarry) لاستخراج خامات الصوان، بل إن نفس الموقع كثيراً ما تغير استخدامه من وقتٍ لآخر، فهو تارة موقع للسكن الطويل وأحياناً مكان محدود الإقامة. كما أن وظيفة المواقع متبدلة فهي مرة للسكن وتارة لتقصيب الحيوانات وأخرى للصيد أو لقطع الصوان وأحياناً لأكثر من وظيفة أو لكل هذه الوظائف مجتمعة. كل ذلك يشير إلى أن الناس في ذلك العصر كانوا جماعات متنقلة عاشت من الصيد والالتقاط وتعاملت مع بيئتها وخيراتها بما يخدم حاجاتها، وكانوا صيادين مهرة اصطادوا حيوانات كثيرة وخطيرة إضافة إلى استهلاك الزواحف والطيور وغيرها.

ليست لدينا معطيات دقيقة تسمح بإعطاء أرقام عن عدد الجماعات البشرية في الباليوليت الأوسط ولا عن بناها الاجتماعية ولكن يظن بأن عدد السكان ربما وصل إلى عشرات الألوف من الناس الذين حكمتهم علاقات اجتماعية منظمة وتراتيب اجتماعية معينة ومحددة في إطار الأسرة الصغيرة أو الكبيرة. كما لا نعرف الكثير عن الحياة الروحية والفنية لهم، مع أن مكتشفات معينة تدل على مراسم دفن خاصة. ففي موقع السخول دفن إلى جانب الهيكل العظمي فك خنزير بري وفي موقع قفزة عُثر على قرون وعل ضمت إلى صدر الميت، بينما وُجد في الكبارا هيكل عظمي دفن بعد أن قطع رأسه، وفي مغارة الديدرية عثر على طفل دفن مستلقياً على ظهره يداه ممدودتان وقدماه مثنيتان، تحت رأسه بلاطة وعلى صدره، من جهة القلب، أداة حجرية. كل

هذه المعطيات تشير إلى تبلور شعائر دفن ومعتقدات معينة لها علاقة بما بعد الحياة والموت. أما عن الفنون فهناك لقى قليلة، منفردة ومعزولة، بعضها لأحجار حملت حزوزاً يُعتقد بأن لها دلالة رمزية، بينها صفيحة من حجر الصوان عليها الكثير من الحزوز الدائرية والمستقيمة وجدت في موقع القنيطرة في سوريا. ولدينا قطعة من حجر صوان محزز وقطعة من مغرة حمراء محززة من موقع جبل قفزة في فلسطين. ومن المكتشفات الحديثة حجران كلسيان صغيران من موقع أم التلال في سوريا. وهما يحملان خطوطاً متوازنة ومتقاطعة. خطوط أحدهما ربما ترمز إلى شكل بشري مختزل. لقد عثر في أم التلال على مكتشفات متميزة غير معروفة بشكل عام من هذا العصر، منها بقايا أوراق وأغصان متحجرة غطت أرضيات السكن، لتجهيزها للنوم، كما وجدت أدوات عظمية، وعظام حيوانات كثيرة بينها حمار الوحش الذي قتل بحربة صوانية وجدت مكسورة في رقبة، وهذا دليل على وجود تقنيات صيد متطورة. إضافة للعثور على دلائل كثيرة لاستخدام القار في تثبيت قبضات الأدوات الحجرية، مع الإشارة إلى أن مقالع هذا القارتقوم في جبال البشري على بعد حوالي 100كم إلى الشرق من الموقع. هذا يجعل الوصول إلى هذه المواقع، منذ حوالي 70000 سنة خلت، أشبه بعمليات غزو الإنسان للفضاء في عصرنا. كما وُجد في أم التلال جزء من عظم القذال (Occipital) يرجح أنه لإنسان النياندرتال. وهناك كشف آخر لتجمع من الأدوات الحجرية والعظام التي تم توزيعها وفق نظام يدل على أن فكرة رمزية ما هي التي دفعت مثل هذا التوزيع.

تنكب الأبحاث أيضاً على معرفة الكيفية والأسباب التي أدت إلى انقراض إنسان النياندرتال وظهور إنسان وعصر جديدين. وهنا تُطرح نظريات مختلفة ومتناقضة أحياناً، يقول البعض أن إنسان النياندرتال القادم من أوربة قد أزاح الإنسان العاقل القديم ثم أزيح هذا النياندرتال من قبل الإنسان العاقل، الكرومانيون، الذي ظهر في أواخر هذا العصر. وهناك من يرجح احتمال أن يكون الإنسان العاقل القديم قد أزاح إنسان النياندرتال وفتح الطريق نحو الإنسان العاقل الكرومانيون. ومهما يكن فإن بلاد الشام كانت المسرح الوحيد الذي جرت فيه منافسة مصيرية بين هذين النوعين، حيث يلاحظ قيام عملية تناوب وتعاقب، وليس تطابق وتشابك، بين النوعين. ولابد أن المنافسة بينهما أدت في النهاية إلى خروج النياندرتال من الساحة ودخول هذه المنطقة في عصر جديد على يد نوع جديد من البشر.

العصر الحجري القديم الأعلى:

دخلت بلاد الشام التي بدأت منذ حوالي 40.000 سنة خلت، في عصر جديد، هو الباليوليت الأعلى، وبذلك غابت حضارات العصر الحجري القديم الأوسط، واختفى إنسان النياندرتال والإنسان العاقل القديم وحصلت تحولات جذرية على مختلف الأصعدة وفي كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفنية. ينسب هذا التحول عموماً إلى ظهور الإنسان العاقل، (Homo-sapiens sapiens) الذي يسميه البعض الكرومانيون وهو يحمل صفات فيزيولوجية وحضارية هي الأقرب إلى الإنسان الحالي. ولكن يبدو أن بلاد الشام في هذا العصر، الذي استمر حتى حوالي 15.000 سنة خلت، لم تكن المسرح الرئيسي والأهم للأحداث كما كانت في العصر السابق. فقد انتقل هذا الدور إلى مناطق أخرى من العالم وخاصة إلى منطقة غرب أوربة، فرنسا وإسبانيا حيث أتت الفنون الرائعة التي جسدتها مكتشفات مغاور شوفيه (Chauvet) ولاسكو (Lascaux) والتاميرا (Altamira) وكوسكير (Cosquer) وغيرها. دون أن نتحدث عن الأدوات العظمية

ذات الدقة والتنوع وبقايا البناء واستخدام الألوان والرموز ودلائل المعتقدات والشعائر وما إلى ذلك من إنجازات. كل هذا بينما بقيت بلاد الشام مسكونة من قبل جماعات يمكن أن نصف أداءها الحضاري بالمتواضع، إذ لا فنون تذكر ولا بناء أو أدوات عظمية مهمة ولا دلائل شعائر أو معتقدات متميزة ولا غير ذلك من المكتشفات التي أتت من أوربة.هذا الواقع لبلاد الشام قد لا يعني أنها كانت على هامش العطاء الحضاري، بل يمكن أن يشير إلى أن ميادين الإبداع والعطاء قد تبدلت ولم تعد كما في السابق.

لا نملك هياكل عظمية باكرة من هذه المرحلة حتى نحدد النوع البشري الذي ظهر في بداية هذا العصر، والهيكل العظمي الوحيد هو الذي أتى من ملجأ كسار عقيل في لبنان، وأطلق عليه اسم أغبر (Agbert)، وهو يعود لفتى عمره حوالي 10 سنوات، عُثر عليه في السويات الدنيا من هذا الموقع المهم (الطبقة 17 كسار عقيل phase B) وأرخ من حوالي 35.000 سنة خلت. وهناك جزء من جمجمة من كسار عقيل أيضاً وأجزاء جمجمة من أنطلياس على الساحل اللبناني، وأجزاء جماجم لشخصين يافعين من جبل قفزة، أرخت بين 28.000-30.000 سنة، وأجزاء عظام من مواقع الكبارا والواد وغيرها. ما يلفت النظر هو غياب القبور، قياساً إلى المرحلة السابقة، الموستيرية التي تميزت بالعديد من القبور. أقدم القبور من هذا العصر أتت من مواقع عين جف (Ain Gev) في فلسطين وأرخت بين حوالي 16.000-13.000 سنة خلت، حيث عثر على هيكل يعود لامرأة مدفونة على جانبها قدماها مثنيتان بشدة وعلى كتفها الأيمن ثلاثة قرون بقر. يمكن تفسير ندرة القبور بالطابع المؤقت لمواقع هذا العصر، وربما هذا هو سبب ندرة الآثار الفنية أيضاً. لقد وجدت في الكثير من المواقع، يبرود وأم التلال، وبوكر تاختيت في فلسطين، كسار عقيل، الطبقات الأثرية الانتقالية التي توضح انتقالاً تدريجياً وواضحاً من الأدوات المصنوعة وفق الطريقة اللفلوازية إلى أدوات النصال المستخرجة من نوى موشورية وأسطوانية الأشكال.

لقد أطلق الباحثون على مرحلة الانتقال هذه اسم "مرحلة الأميرة" ويمكن أن نسميها أيضاً مرحلة "أم التلال" التي تؤرخ من حوالي 45000 سنة خلت. ثم مع ظهور "الحضارة الأحمرية" نسبة إلى موقع عرق الأحمر في الصحراء الفلسطينية، بدأت المرحلة الفعلية الأولى من العصر الحجري القديم والمؤرخة ما بين 37000-32000 سنة خلت، والتي تتميز بتصنيع النصال (Blades) والشفرات الصغيرة (Bladlettes) وقد سادت هذه الحضارة خاصة في الجزء الجنوبي من بلاد الشام في فلسطين والأردن. تلتها وتعاصرت معها جزئياً الحضارة الأورينياسية المؤرخة ما بين حوالي 32000-22000 سنة خلت والتي اختلفت عن سابقتها بشكل خاص باعتمادها الأدوات القصيرة (Flake tools) وخاصة المكاشط و الأزاميل ذات الجبهة العالية (Carinated tools) وقد سادت هذه الحضارة الأورينياسية في القسم الشمالي من بلاد الشام، سوريا ولبنان. يدور نقاش حاد بين الباحثين حول أصل حضارات هذا العصر مع التوجه نحو اعتبار الحضارة الأحمرية ذات أصل محلي من بلاد الشام، ربما صحراء النقب في فلسطين، بينما يرى كثيرون أن الأورينياسي قد انتقل إلى بلاد الشام من الخارج، ربما من منطقة البلقان. تميزت المرحلة الأخيرة من هذا العصر بسيادة الأدوات القزمية (Microlithic) الصغيرة جداً، وهي مرحلة بدأت منذ حوالي 20.000 سنة وسادت فيها على امتداد بلاد الشام أنواع مختلفة من الحضارات، التي أطلق عليها الكبارية، في مختلف مناطق سوريا ولبنان

والأردن. إن الصورة العامة عن هذا العصر هي، كما أشرنا، فقر آثارها واقتصارها على الأدوات الحجرية، ولكن هذا لا يعني أن المعطيات الأخرى، المعروفة في أوربة، كانت غائبة تماماً بل وجدت الكثير من الأدوات العظمية في مواقع مختلفة وخاصة في الطبقات الأورينياسية لمواقع مثل كسار عقيل وأبو حلقة في لبنان، ويبرود في سوريا، وهايونيم والواد وأم ناقوس والتبّان في فلسطين، وغيرها. معظم هذه الأدوات كانت حرابًا وأدوات صقل وملاعق وقطعًا عظمية محززة والكثير من الأسنان المثقوبة على شكل خرز. كما وجدت في تلك المواقع الأدوات الثقيلة كالمدقات والرحى والأجران المصنوعة من الأحجار البازلتية والكلسية، التي حمل بعضها آثار طحن المغرة الحمراء، وهناك الصدف البحري الذي استخدم خاصة في صنع الخرز وأدوات الزينة من الصدف الذي نقل إلى مسافات بعيدة عن شواطئ المتوسط. هناك آثار بناء وأكواخ من موقع أوهالو (Ohalo) في فلسطين هي الأقدم من نوعها حتى الآن وتعود إلى حوالي 20000 سنة خلت. كما وجد الأوبسيديان المنقول من مسافات بعيدة، حوالي 900-600كم في الأناضول، إضافة إلى العثور على الصدف والقار في يبرود. إن ندرة الآثار الفنية لهذا العصر تعود، ربما، لطبيعة الوحدات السكانية المتنقلة والبنية الاجتماعية البسيطة لهؤلاء الناس؛ لأن الفن بمعناه الشامل يكون نتاج جماعات سكانية كبيرة ذات بنية ضاغطة ومعقدة، وتركيب عشائري متكامل وهذا ما حصل في العصر النطوفي اللاحق. لقد تبدل المناخ في هذا العصر من جفاف في البداية إلى رطوبة في الوسط وعودة جديدة للجفاف في النهاية. ولكن هذا الجفاف لم يستمر طويلاً فقد ظهر تحسن مناخي تميز برطوبة وأمطار رافقت بزوغ عصر جديد آخر.

العصر الحجري الوسيط:

في بداية العصر الحجري الوسيط، الميزوليت، أو الباليوليت الأخير كما يفضل البعض تسميته أي منذ حوالي 15.000 سنة ق.م، دخلت بلاد الشام في عصر مناخي جديد، الهولوسن، رافقه تغير في النمط الاقتصادي والاجتماعي للناس. تميزت هذه المرحلة بنمط حياة شبه مستقرة، ظل يعتمد على الصيد والالتقاط، لكنه ركز على أنواع بعينها. لقد ظهرت في القسم الأول من هذا العصر الحضارة الكبارية الهندسية (Geometric Kebaran) التي عاشت ما بين حوالي 15000-12000 سنة ق. م. وتميزت بتصنيع الأدوات الحجرية ذات الأحجام الصغيرة جداً، (Microlithic) وذات الأشكال الهندسية كالمثلث وشبه المنحرف والمستطيل ومن هنا أتت تسمية الميكروليت الهندسي (Geometric Microlithic). عاشت هذه الحضارة خاصة في المناطق الشمالية والوسطى من بلاد الشام، بينما انتشرت ما سميت بالحضارة الموشابية (Mushabian) في الأجزاء الجنوبية من هذه البلاد وخاصة في صحراء سيناء والنقب. في النصف الثاني من العصر الحجري الوسيط دخلت بلاد الشام في مرحلة حضارية حاسمة تميزت بظهور الحضارة النطوفية (Natufian) التي أخذت اسمها من وادي النطوف في فلسطين. انتشر النطوفيون ما بين حوالي 12.000-10.000 سنة ق. م. على مساحة واسعة من المشرق العربي القديم حيث وُجدت آثارهم من وادي الفرات شرقاً وحتى وادي النيل غرباً، مجسدين بذلك أقدم وحدة حضارية واضحة عرفها الشرق القديم منذ تلك العصور الباكرة. أسس النطوفيون قرى الصيادين الأولى وهي تجمعات سكنية متباينة الحجوم بعضها صغير، وبعضها متوسط الحجم، بينما بلغت مساحة البعض الآخر بضعة آلاف من الأمتار

المربعة، فشكلت بذلك قرى شبه مستقرة بأبنيتها الصغيرة والكبيرة القوية، عكس المواقع الموسمية ذات البناء الخفيف والمؤقت. لابد أن علاقات تعاون وتبادل قد قامت بين هذه القرى. تابع النطوفيون صنع الأدوات الميكروليتية-الهندسية، وأهمها الأدوات ذات الشكل الهلالي (Lunates) وهي عبارة عن وريقات صوانية صغيرة ثُبتت على قبضات لتكون أدوات مركبة كالمناجل والخطاطيف. إن المخلفات الحضارية النطوفية هي أهم بكثير، كماً ونوعاً، من سابقتها، سواء على مستوى البناء أو الأدوات الثقيلة، كأدوات الطحن والجرش، أو على مستوى الأدوات العظمية التي أصبحت أكثر عدداً وتنوعاً مما سبق. ولكن أهم ما يميز النطوفيين أيضاً هو ممارستهم الفنون الحقيقية الأولى في بلاد الشام؛ فقد نحت هؤلاء، وخاصة من العظام، أشكالاً لحيوانات مختلفة أهمها الغزال. وقد وجد في معظم مواقعهم الكبيرة الخرز والصدف والأحجار والعظام التي تحمل زخارف بسيطة. كما وجدت مكتشفات أخرى تدل على علاقات تجارية بعيدة المدى كالأوبسيديان الذي عثر عليه بعيداً مئات بل آلاف الكيلومترات عن مصادره الأناضولية. وهناك الأصداف البحرية التي انتقلت بعيداً إلى داخل بلاد الشام. عاش النطوفيون مثل سابقيهم من صيد الحيوانات البرية كالغزال والماعز والطيور ومن الثروات السمكية ومن التقاط النباتات البرية كالقمح والشعير ولكنهم مارسوا هذه الأنشطة بكثافة وتركيز واضحين على الأنواع الحيوانية والنباتية التي لم تلبث أن دجنت في العصر اللاحق. تعتبر مواقع أبو هريرة والمريبط والطيبة ويبرود III في سورية، وعين الملاحة وهايونيم وناحال أورون ومغاور الكبارا والواد وعرق الأحمر وأم قطفة وعين صخري والخيام في فلسطين، وسعيدة وناشاريني في لبنان، والأزرق 18 والبيضا ووادي جديد في الأردن، من أهم القرى النطوفية في بلاد الشام. الجدير بالذكر أنه في الوقت الذي تمتعت بلاد الشام الساحلية والجبلية الشمالية بمناخ ملائم وبيئة غنية انتشرت على أطراف هذه البلاد في المناطق الصحراوية تجمعات أقل عدداً وغنى أُطلقت عليها تسمية الحريفين عاشت في صحراء سيناء والنقب وأقامت ضمن بيوت دائرية صغيرة في مواقع مؤقتة واستخدمت الأدوات الميكروليتية، وخاصة رؤوس النبال المدببة والقليل من الأدوات الثقيلة.

المجتمعات الزراعية الباكرة:

لقد أسس النطوفيون مرحلة تحول جذري في حياة مجتمعات ما قبل التاريخ في بلاد الشام التي مرت بين نهاية الألف التاسع وبداية الألف الثامن قبل الميلاد بمرحلة انتقالية عاشت فيها الحضارة الخيامية (Kheiamian)، نسبة إلى موقع الخيام في فلسطين، التي استمرت بإنتاج الأدوات الميكروليتية والهندسية، وعرفت استخدام الإسفلت في تثبيت قبضات الأدوات المركبة كالمناجل إضافة إلى الأدوات الثقيلة ورؤوس النبال والقليل من التماثيل البشرية، لكن بقايا البناء من هذه الحضارة كانت نادرة وبسيطة. لقد بدأت المجتمعات الزراعية الحقيقية مع المرحلة المسماة بالسلطانية (Sultanian) نسبة إلى موقع تل السلطان، أريحا، في فلسطين. تميز هذا العصر بتحول جذري في مجتمعات ما قبل التاريخ التي انتقلت من الاقتصاد الاستهلاكي القائم على الالتقاط وجمع النباتات وصيد الحيوانات البرية إلى الاقتصاد الإنتاجي المتمثل بممارسة الزراعة وتدجين الحيوانات. فقد زرع القمح والشعير والذرة ودجن الماعز والغنم والبقر والخنزير. وكان هذا التحول من الأهمية بمكان إذ أُطلق عليه اسم الثورة الزراعية أو ثورة العصر الحجري الحديث (Neolithic Revolution). يُجمع الباحثون أن هذه الثورة قد حصلت

لأول مرة في بلاد الشام في المنطقة الممتدة من وادي الفرات شمالاً مروراً بحوضة دمشق في الوسط وحتى وادي الأردن جنوباً، وذلك منذ مطلع الألف الثامن ق.م، أي قبل أية منطقة أخرى من العالم. ثم انتقل هذا النمط الاقتصادي الجديد إلى أوربة وشمال أفريقية في وقت لاحق. رافقت هذا التحول الاقتصادي تحولات اجتماعية كبيرة عاشتها القرى الزراعية الباكرة التي أصبحت ذات بنى اجتماعية مركبة ومارست الفنون والمعتقدات المتطورة. يختلف الباحثون حول الأسباب التي أدت إلى حصول هذا التحول الشامل، إذ يعطي بعضهم الأولوية لعوامل البيئة التي عاشت فيها الحيوانات والنباتات البرية التي دُجنت. ويعتقد آخرون بأهمية التحولات المناخية وقلة الأمطار التي أدت إلى شح الموارد الطبيعية مما دفع السكان إلى ابتكار الزراعة ضماناً لإنتاج أكثر. بينما يقول البعض بأن الزيادة في عدد السكان هي التي دفعت إلى المزيد من الإنتاج لإطعام الأفواه المتكاثرة. وهناك من قال بأن الدوافع الاجتماعية والمناسبات الكبرى والأعياد أدت إلى هذه الخطوة الكبيرة. مهما يكن فلابد أن مجموعة عوامل، وأهمها الإنسان من جهة والبيئة من الجهة الأخرى، قد تكاملت مع بعضها وأدت إلى حصول هذا التحول الاقتصادي والاجتماعي الكبير، الأول والأهم من نوعه في التاريخ الإنساني.

لقد انتشرت القرى الزراعية الباكرة العائدة إلى المرحلة المسماة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار آ (Pre-Pottery Neolithic A (P.P.N.A.) المؤرخة على النصف الأول من الألف الثامن ق.م.، من الفرات شمالاً حيث أبو هريرة والمريبط والشيخ حسن وتل القرامل وجرف الأحمر في سوريا، إلى أريحا وجلجال ونتف هيجدود وي□تاهل في فلسطين، إلى عرق الدب والذراع وصبرا في وادي الأردن جنوباً. لقد أصبحت القرى أكبر وعدد سكانها أكثر وتركيبها الاجتماعي أفضل وبناؤها أقوى، إذ استخدم فيه اللبن، لأول مرة. معظم البيوت بقيت، كما في العصر السابق، دائرية في أشكالها، لكن بعض البيوت بدأت تأخذ شكلاً مستطيلاً وهو المخطط الذي سيسود في العصر اللاحق. بدأت القرى الزراعية الباكرة بتدجين الحيوانات، الغنم والماعز والكلب، ولكنها بقيت تعتمد على التقاط الحبوب والثمار البرية. وأما صناعاتها الحجرية فتميزت بإنتاج النصال التي صنعت منها مختلف أنواع المناجل. كما انتشر نوع من رؤوس النبال التي تحمل فرضات في قسمها الأسفل، أُطلق عليها نبال الخيام (Kheiamian points). كما ازداد انتشار الأدوات الثقيلة، أدوات الطحن والجرش، التي لم تعد تحمل زخارف أو نقوشاً كما في العصر النطوفي، وهذا يشير أن وظيفتها العملية كانت أهم من دلالاتها الرمزية. ظهرت لأول مرة الفؤوس المصقولة المصنوعة من الأحجار البازلتية، وتكاثرت الدلائل حول العلاقات التجارية البعيدة المدى من خلال الانتشار الواسع للأوبسيديان ذي الأصل الأناضولي. حصلت أيضاً ابتكارات مهمة في ميدان الفنون والمعتقدات تجسدت بظهور التماثيل الصغيرة للمعبودة الأم، إلهة الخصب لدى المجتمعات الزراعية الباكرة، التي جسدت عارية تحمل نهديها بيديها، بينما تم تضخيم مناطق الأنوثة والخصب فيها. وبدأت تتبلور ممارسة فصل الرؤوس عن الأجساد ودفنها منعزلة كمؤشر لعقيدة عبادة الأموات أو تقديس الأجداد التي أصبحت أكثر وضوحاً في العصر اللاحق. إن انتشار هذه الممارسات الفنية والدينية على امتداد بلاد الشام كلها يؤكد مرة ثانية انتماء تلك البلاد إلى أرومة حضارية واحدة منذ ذلك الزمن الباكر.

لقد أعطى موقع جرف الأحمر، على الفرات الأعلى في سورية، معلومات فريدة عن مدى التطور الذي وصلت إليه مجتمعات هذا العصر؛ إذ كشف عن بيوت قوية وكبيرة بُنيت وفق نظام هندسي دقيق يمكن اعتبارها "المعابد الأولى" في المشرق. كما عُثر على لوحات حجرية صغيرة تحمل رموزاً هي أقدم أنواع الكتابة التصويرية، وهناك التماثيل الإنسانية وغيرها من المعطيات ذات المضمون الديني والفني التي تدل على مجتمع قطع شوطاً بعيداً على طريق التطور والتمدن.

حصلت في الجزء الثاني من العصر النيوليتي، المسمى بالعصر الحجري الحديث عصر ما قبل الفخار ب آ (P.P.N.B.) المؤرخ بين النصف الثاني من الألف الثامن ومنتصف الألف السابع ق. م، وعلى امتداد مراحل هذا العصر الباكرة والوسطى والحديثة، إنجازات وتحولات كبيرة. فقد أصبحت القرى الزراعية أكبر وبناؤها أقوى، مثلته البيوت الكبيرة ذات الأشكال المستطيلة، والمؤلفة من عدة غرف استخدم في بنائها اللبن والحجر، بعضها ضم أكثر من طابق، طليت أرضياتها بالملاط الكلسي، وبقيت جدرانها محفوظة لارتفاع بضعة أمتار؛ بل ظهرت نوافذها وأبوابها واضحة المعالم. فصلت بينها الأزقة والباحات وشكلت تجمعات سكنية واقتصادية منظمة، حتى أن بعض البيوت أحيط بأسوار دفاعية واخترقته أقنية جر المياه وتصريفها وهذه إنجازات عمرانية جديدة ، وعلى صعيد آخر تطورت عقيدة الآلهة الأم وعبادة الأموات التي دلت عليها خاصة التماثيل والجماجم المحنطة، التي وجدت في الكثير من المناطق، إلى جانب "تقديس الثور" وهي عقيدة انتشرت منذ هذا العصر، دلت عليها تماثيل الثيران التي وجدت في القرى الزراعية الأولى. عرفت بلاد الشام في هذا العصر عادات دفن متشابهة إلى حد كبير؛ إذ دُفن الموتى، تحت أرضيات البيوت وقد فُصلت أحياناً الرؤوس عن الجثث، ووضعت مع الموتى، مرفقات جنائزية كالخرز والأدوات المتنوعة. وبلغت مساحة بعض القرى، خاصة تلك الواقعة في المناطق الجبلية والساحلية، العشرة هكتارات. بينما كانت القرى في المناطق الشرقية، الصحراوية، أصغر. وعلى صعيد الأدوات الحجرية، تطورت تقانات التصنيع واستخدم لأول مرة تسخين الصوان لتسهيل عملية تصنيعه. تميز في هذا العصر، نوعان من رؤوس السهام ذات الساق : رؤوس سهام "العمق" ورؤوس سهام "جبيل"، إضافة إلى مختلف أنواع المناجل والسكاكين وغيرها. كما أصبحت الأدوات الثقيلة، أدوات الطحن والهرس، شديدة التنوع والانتشار بعد أن مُورست زراعة الحبوب، القمح والشعير، وتطور تدجين الحيوانات. وإلى هذا العصر تعود الأواني الكلسية المسماة "الأواني البيضاء"(White ware) والأواني الحجرية المصنوعة من المرمر والأحجار النادرة الأخرى، الجميلة، التي تدل على ظهور جماعات متخصصة تميزت اقتصادياً واجتماعياً عن بقية أفراد المجتمع. وهذا يشير إلى اختلاف في المستوى المادي للناس وظهور تجمعات من الحرفيين والفنيين، إلى جانب رجال الدين والإدارة، وهو دليل بروز مجتمع طبقي كان الأول من نوعه في ذلك العصر.

انتشرت القرى الزراعية العائدة لهذه المرحلة وبكثافة في جميع المناطق الجغرافية من بلاد الشام: هناك المريبط وأبو هريرة وبقرص وحالولة وجعدة وتل الرماد وتل صبي أبيض وتل رأس الشمرة وتل سكر الأحيمر وتل عين الكرخ في سورية، وأرض تليلة في لبنان، وهناك البيضا والبسطة وتل أبو ثواب وعين غزال وبعجة في الأردن، وبيسامون ومنهاتا وأريحا في فلسطين. لقد استمرت الحياة حتى نهاية هذا العصر في بعض المواقع، بينما حصل انقطاع في

استيطان الكثير من القرى فهجرت مواقع كثيرة وظهرت أخرى جديدة بعضها كانت مواقع صغيرة ذات طابع موسمي مؤقت اشتهرت بطابع بناء وأدوات حجرية، مختلفة عما هو معروف في العصر السابق، وتألفت بيوتها من غرفة واحدة أو عدة غرف كما كانت الأدوات الثقيلة أقل، مما يشير، مرة أخرى، إلى الطابع الموسمي لتلك المواقع.

قرى العصر الحجري الحديث الفخاري:

في بداية الألف السادس ق. م. أصبح الفخار مادة الاستخدام اليومي الرئيسة في القرى الزراعية النيوليتية التي تعتبر امتداداً طبيعياً لقرى العصر السابق وإن تميزت عنها، خاصة في استخدام الفخار. تدل المكتشفات أن الجزيرة السورية العليا، والمناطق الزراعية الخصبة ذات الحاجة لتخزين المؤن، كانت الموطن الأول الذي ابتُكر فيه الفخار الذي انتقل فيما بعد إلى بقية الأرجاء من بلاد الشام والأناضول والرافدين. لقد صُنع الفخار الباكر يدوياً، من الطين المجفف بالنار أو بالشمس، وكانت من النوع العادي والبسيط، لونه أسود أو أحمر لا يحمل أية زخارف أو أشكالاً مميزة. تلا ذلك ظهور الفخار ذي الوجه القاتم المصقول (Dark face burnished ware) الذي صنعت منه الأواني ذات الزخارف البسيطة، غالباً على شكل خطوط هندسية متنوعة، ينسبها الباحثون إلى ما يسمى بحضارة العمق آ (Amuq A) التي انتشرت في الجزء الشمالي من بلاد الشام وعرفت نوعاً آخر من الفخار البسيط غير المصقول، الذي صنعت منه الجرار والأباريق والكؤوس والصحون. سكن الناس في منازل تشبه منازل العصر السابق واستخدموا الأوبسيديان والبازلت وعرفوا الأختام المسطحة ورؤوس السهام والأدوات الزراعية الثقيلة. تلا ذلك مرحلة العمق ب (Amuq B)، إذ اتسع استخدام الفخار وظهرت منه الأنواع الملونة، التي انتقلت من سورية إلى فلسطين ولبنان، حيث عاشت مجتمعات عملت بالزراعة والتدجين وجد أقدمها على الساحل اللبناني وعلى ضفاف بحيرة الحولة. تنسب هذه المرحلة إلى ما يعرف بالحضارة اليرموكية التي تطورت على امتداد ثلاث مراحل متتالية تحسنت فيها أنواع الأواني الفخارية والبناء والفنون بمختلف أنواعها. إن أهم مايمثل اليرموكيين هي الفنون التي جسدتها الأشكال الإنسانية المحزوزة على حصى نهرية صغيرة أتت خاصة من مواقع القحوانة (شعار هاغولان) في فلسطين وجبيل في لبنان. وهناك الدمى الطينية ذات الرأس المتطاول والعيون المنزلة على شكل حبة القهوة والدمى الحيوانية التي تجسد الأبقار والخنازير والطيور والأشكال الأسطوانية التي تمثل الأعضاء الذكرية والخرز والصدف والأساور وغيرها. في المرحلة التالية من العصر الحجري الحديث المتأخر، بين حوالي 4500-3500 ق.م. استمرت المجتمعات الزراعية بالتواجد في مختلف أرجاء بلاد الشام قبل أن تنتقل إلى مرحلة لاحقة، في العصر الحجري النحاسي. وجدت آثار قرى عصر النيوليت الفخاري في مواقع كثيرة مثل رأس شمرا وتل الصبي الأبيض وتل الرماد وتل الخزامي في سورية، وجبيل في لبنان، إضافة إلى أريحا والمنحطة في فلسطين، ووادي شعيب، وخربة الذريح في الأردن.

غابت في هذا العصر التماثيل التي تدل على عقيدة الآلهة الأم وعبادة الأجداد المعروفة من عصر النيوليت ما قبل الفخار. كما غابت أدوات معينة وخاصة رؤوس النبال ولكن البناء استمر متشابهاً وبقيت المجتمعات معتمدة على الزراعة والتدجين مع استمرار قيام وتطور مجتمعات رعوية متنقلة إلى جانب المجتمعات الزراعية المستقرة دلالة وجود البدو والحضر منذ ذلك الزمن الباكر.

العصر الحجري النحاسي:

بدأت بعض المجتمعات الزراعية، في مطلع الألف الخامس ق.م، باستخدام النحاس وإن على نطاق محدود ومن هنا أتت تسمية العصر الحجري النحاسي، الكالكوليت، للدلالة على المراحل الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ. لم يكن التطور الحضاري في هذا العصر واحداً في كل بلاد الشام، إذ بدأنا نلاحظ حصول نوع من التمايز في النمو الحضاري لمختلف أرجاء هذه البلاد؛ فقد واكبت المناطق الشمالية منها، وتحديداً شمال سورية والجزيرة، واكبت بلاد الرافدين، حيث ظهرت الحضارة الحلفية (Halaf) نسبة إلى موقع تل حلف في شمال سوريا. انتشرت هذه الحضارة على منطقة جغرافية واسعة من المشرق العربي القديم، امتدت من الموصل في الشرق وحتى الساحل السوري غرباً. تطور الحلفيون على مراحل زمنية ثلاث: المرحلة الباكرة والمرحلة الوسطى ثم الأخيرة. سكنوا في مرحلتهم الباكرة في بيوت، من الطين والقصب، مستطيلة الشكل بعضها دائري له مدخل مستطيل استخدم كمعابد، أطلق عليها اسم تولوس (Tholos) نسبة إلى نمط بناء القبور الميسينية في اليونان. صنع الحلفيون، يدوياً، أواني فخارية حملت زخارف بسيطة. كما صنعوا الأختام والقلائد وأدوات الزينة من الأحجار النادرة. دفنوا موتاهم، بشكل فردي أو جماعي، بأوضاع وأشكال مختلفة، ومارسوا دفن الجثة كاملة أو حرقها، وأحياناً دفنوا الجماجم منفصلة ودفنوا في الجرار. في المرحلة الوسطى سكن الحلفيون في بيوت أكبر وأقوى من السابق وتحسنت الأواني الفخارية التي صنعت منها أنواعاً رائعة عديدة الأشكال والألوان، حملت أشكالاً طبيعية، نباتية وحيوانية وإنسانية معبرة. فأصبحت أشكال قرون الثيران (Bucranium) من العناصر الدالة على الفخار الحلفي الذي غدا أيضاً من المواد التجارية الرائجة التي تم تصديرها من مشاغلها الرئيسية إلى مختلف الأرجاء.

استمر الحلفيون بالاعتماد على زراعة القمح والشعير والبقول والكتان والقنب، وتدجين الغنم والماعز والبقر والخنزير، واستخدموا الصوان والبازليت والأوبسيديان في تصنيع أدواتهم. استمر نمط الحياة الحلفي على امتداد المرحلة الأخيرة من هذه الحضارة التي بلغت فيها الأواني الفخارية القمة في الجودة والدقة والزخرفة وأصبحت البيوت أقوى وأكبر، بعد أن اختفت البيوت الدائرية، التولوس. واستمرت عقيدة الآلهة الأم التي جسدتها التماثيل الأنثوية، الربة الأم (Mother godess)، الملونة بخطوط بنية أو حمراء وهي تجلس بأوضاع مختلفة. كما صنعت التمائم والأختام والأدوات البسيطة من معدن النحاس، وازدهرت صناعة الملابس والمطرزات والحصر والسلال وأدوات الزينة وغيرها.

ظهرت، في حوالي منتصف الألف الخامس ق.م، في الأجزاء الشمالية من بلاد الشام حضارة جديدة تسمى "حضارة العبيد" (Ubaid) نسبة إلى موقع تل العبيد في جنوب العراق. تطور العبيديون على أربع مراحل متتالية. في المرحلتين الأولى والثانية بقوا في جنوب بلاد الرافدين حيث ظهرت في عصر العبيد الأول "حضارة أريدو"، تلتها في عصر العبيد الثاني "حضارة حجي محمد". اتسّع، في المرحلة الثالثة، نطاق انتشار العبيديين على مساحات غطت من منطقة عربسان شرقاً وحتى سواحل المتوسط غرباً، ومن زاغروس شمالاً وحتى سواحل الخليج العربي جنوباً. ظهرت في هذه المرحلة " المعابد الأولى" التي حملت مخططاً محدداً ومنظماً، تألف من ثلاث عناصر (Tri-partite) وهي صالة كبيرة في الوسط يحيط بها صفان من الأبنية الأصغر. كان المعبد مركز النشاط الديني

والاقتصادي لهذه المستوطنات، ودل على تبلور سلطة دينية-اجتماعية بدأت تأخذ دورها في إدارة المجتمع وتنظيمه. انتشرت آثار العبيديين خاصة على الأجزاء الشمالية من بلاد الشام، في سوريا حيث في مواقع تل عقاب وشاغاربازار وتل العبر وتل مشنقة ورأس شمرا وغيرها. عرف العبيديون الأواني الفخارية التي كانت أقل جودة من العصر السابق معظمها بلون واحد زخارفها بسيطة وهي زخارف هندسية ونادراً ما كانت طبيعية. سكن هؤلاء في بيوت من الطين والحجر رصفت أرضها بالحجارة وتوسطتها المواقد. وصنعوا المناجل وأدوات العمل الزراعية المختلفة وعرفوا النسيج وأدوات الزينة. وكان تدجين الحيوانات والرعي، والزراعة والصيد، مصدر عيشهم الأهم.

نشوء العمران وفجر التاريخ :

سادت في الشوط الأخير من عصور ما قبل التاريخ، في بلاد الشام حضارتان متميزتان تمثلان مرحلة نشوء العمران وفجر التاريخ، هما حضارة الوركاء في الشمال والحضارة الغسولية في الجنوب.

حضارة الوركاء:

انطلقت في الألف الرابع ق.م، في جنوب بلاد الرافدين وشمال بلاد الشام حضارة الوركاء، التي أخذت اسمها من موقع الوركاء، أوروك القديمة (Uruk) في جنوب العراق، وهي حضارة كانت شديدة التجانس انتشرت في منطقة جغرافية شاسعة وغدت مصدر إبداع وإشعاع كبيرين. تطورت في عصر الوركاء العمارة وظهرت المدن المسورة الأولى وفيها الشوارع المنظمة والأبنية الضخمة ذات الاستخدام العام، التي جسدتها المعابد الكبيرة. كما تطورت الفنون بمختلف أنواعها، فنحتت التماثيل والأختام الأسطوانية وظهرت لأول مرة الكتابة التصويرية (Pictographs) التي وضعت حداً لعصور ما قبل التاريخ وفتحت الباب أمام العصور التاريخية القديمة التي ظهرت فيها مؤسسات الدول الأولى في التاريخ. لقد ربط الباحثون بين هذه التحولات الهائلة وبين ظهور مجتمعات جديدة هم السومريون والآكاديون، الذين أدوا الدور الأكبر في العصور التالية.

مرت حضارة الوركاء بمرحلتين متتاليتين: المرحلة الأولى، الباكرة، تعود إلى 3600-3300 ق.م، تميزت بظهور ما سمي بالأوعية الناقوسية (Bevel rimmed bowl) وهي نوع من الطاسات الفخارية، ذات القعر الضيق والفوهة الواسعة المقطوعة بشكل مائل. أثارت هذه الأواني جدلاً بين الباحثين حول حقيقة وظيفتها، إذ اعتبرها البعض المكاييل الأولى للحبوب دلالة على وجود نظام اقتصادي جديد يقوم بجمع الغلال وتوزيعها. كما ظهرت في هذه المرحلة الأبنية الدينية الكبيرة، المعابد، التي بلغت ذروتها في المرحلة الثانية، الحديثة، لحضارة الوركاء التي تؤرخ بين 3300-3100ق.م، وفيها أصبحت المدن أكبر وبناؤها أقوى، حيث المعابد الضخمة التي شيدت وفق المخطط المسمى الثلاثي العناصر الذي يعود في جذوره إلى عصر العبيد السابق.

تعتبر مدينة حبوبة الكبيرة في حوض الفرات الأوسط في سوريا أفضل نموذج لمدن هذا العصر. بلغت مساحة المدينة، التي نجهل اسمها القديم، حوالي 18 هكتاراً بنيت وفق مخطط مسبق ودقيق، يحيط بها من كل جهاتها، عدا الشرق، حيث نهر الفرات، سور مزدوج من اللبن طوله حوالي 600م وعرضه ثلاثة أمتار، تخترقه بوابتان رئيسيتان وتحميه أبراج دفاعية منتظمة التوزيع وتقويه عضادات بارزة. تقطع المدينة شوارع رئيسية وفرعية تلتف حولها المنازل والمشاغل والمستودعات.

يقوم إلى الجنوب من حبوبة الكبيرة تل قناص الذي يمثل المركز الإداري والديني لحبوبة الكبيرة والذي كشف فيه عن ثلاثة معابد مشيدة وفق النموذج الرافدي الثلاثي العناصر. وجدت في هذه المعابد الأواني الفخارية والأواني المرمرية الجميلة، والأدوات الزراعية والمنزلية والصناعات النفيسة والأختام الأسطوانية. الأهم من كل ذلك هو العثور على اللوحات الكتابية التصويرية المعاصرة لتلك التي وجدت في معابد الوركاء من بلاد الرافدين. ومن العصر نفسه يؤرخ موقع جبل عارودة إلى الشمال من حبوبة حيث بني على هذا الجبل المرتفع معبدان من نفس نمط معابد تل قناص، عثر فيهما على أحجار الفسيفساء التي زينت واجهتهما، كما هو معروف في معابد الوركاء، وعلى أختام أسطوانية ولوحات كتابية تصويرية. لم تستمر الحياة طويلاً، لقرن أو لقرنين، في مدن عصر الوركاء المذكورة التي اعتبرها البعض مستوطنات سومرية على طريق التجارة الدولية بين بلاد الأناضول وسواحل المتوسط شمالاً وبلاد الرافدين جنوباً. لكن حضارة الوركاء كانت ذات جذور محلية أصيلة في مواقع سورية أخرى, أهمها تل براك في الجزيرة السورية العليا الذي وجدت فيه آثار معابد وأختام ولوحات كتابية وأوانٍ فخارية؛ مثل تلك التي أتت من حوض الفرات الأوسط في سوريا ومن جنوب العراق.

الحضارة الغسولية :

في الوقت الذي ازدهرت حضارة الوركاء في الأجزاء الشمالية من بلاد الشام كانت تعيش في الأجزاء الجنوبية من هذه البلاد، جنوب سوريا والأردن وفلسطين، جماعات نسبت إلى ما أصبح يُعرف بالحضارة الغسولية (Ghassulian) أو حضارة الغسول-بئر السبع، التي أخذت اسمها من موقع تليلات الغسول إلى الشرق من البحر الميت وبئر السبع في صحراء النقب.

انتشر الغسوليون، في النصف الثاني من الألف الرابع ق.م، على مساحات واسعة من بلاد الشام الجنوبية، وأتت معظم آثارهم من مواقع مثل تليلات الغسول وأبو حامد في الأردن، وعين جدي وبئر السبع وبئر الصفدي في صحراء النقب في فلسطين، ودرعا والجولان في سوريا. سكن الغسوليون في قرى بيوتها متباينة الأحجام والأشكال، بعضها تحت الأرض وبعضها فوق الأرض، كما أقاموا أحياناً في الكهوف. لكنهم بنوا أيضاً المعابد الكبيرة ذات المداخل والمصاطب والأحواض، مثل معابد عين جدي التي وجدت فيها الأواني والأدوات كالمباخر والنصب والرسومات الدالة على ممارسة الشعائر الدينية. دفنوا موتاهم، الأطفال خاصة، في قبور حفرت في زوايا بيوت السكن أوفي جرار أو صناديق فخارية. كما عرفوا المدافن الجماعية التي تكونت من أكوام حجرية كبيرة. تميز هذا العصر أيضاً باستخدام النحاس، وإن على نطاق ضيق، إذ عرفوا صهره وصنعوا منه بعض الأسلحة والأدوات، كما دلت على ذلك مكتشفات موقع فينان في وادي عربة في الأردن. من الآثار المتميزة، التي لا مثيل لها، للغسوليين هي التماثيل العاجية التي وجدت في صحراء النقب وجسدت نساءً ورجالاً نُحتوا بتفاصيل معبرة. هناك الأدوات العظمية المختلفة والأدوات الصوانية والأدوات البازلتية الكبيرة، كأدوات الطحن والجرش، ودلائل صناعة السلال والمنسوجات والأواني الفخارية ، وبينها جرار تخزين ضخمة أنتجت لأول مرة، ليس فقط يدوياً وإنما باستخدام الدولاب. كما وجدت الهراوات والمزاهر والملاعق وغير ذلك من المكتشفات التي دلت على مجتمع متطور على المستويين الروحي والمادي. لعل الرسومات الجدارية في تليلات الغسول التي ضمت أشكالاً هندسية وطبيعية ونباتية وإنسانية، خير دليل على ما نقول.

استمر سكان بلاد الشام في المرحلة الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ بالاعتماد في غذائهم على الزراعة التي طالت الحبوب والبقول والأشجار المثمرة بأنواعها وعلى تربية الحيوانات التي استفادوا، بدرجة متصاعدة، من حليبها ولحمها وجلدها. كما بقي للصيد البري والنهري دور مهم في رفد مواردهم الغذائية.

تابعت مجتمعات القسم الأخير من عصور ما قبل التاريخ تطورها على كل الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية. وما أن حلت نهاية الألف الرابع ق.م. حتى عرفت هذه المجتمعات الكتابة التصويرية التي ما لبثت أن تطورت في عصر البرونز القديم، مطلع الألف الثالث ق.م، إلى كتابة مسمارية واضعة الحد النهائي لعصور ما قبل التاريخ ، لتبدأ العصور التاريخية القديمة التي تميزت بظهور المدن الأولى مثل ماري وإبلا في سوريا، وجبيل وعرقا في لبنان، وطبقة فحل وجاوا في الأردن، وأريحا ومجيدو في فلسطين.

د. سلطان محيسن

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

– شترومنغر، ايفا 1984

حبوبة الكبيرة مدينة عمرها خمسة آلاف عام (المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق)

– فرنسيس، أورس 1995

حضارات العصر الحجري القديم (دار الأبجدية، دمشق)

– كفافي، زيدان 1992

الأردن في العصور الحجرية (لجنة تاريخ الأردن، عمان)

– محيسن، سلطان 1989

بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ، الصيادون الأوائل (دار الأبجدية، سوريا)

– محيسن، سلطان 1995

بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ، المزارعون الأوائل (دار الأبجدية، سوريا)

– محيسن، سلطان 2004

عصور ما قبل التاريخ (جامعة دمشق)

– محيسن، سلطان، وآكازاوا، تاكيرو 2002

مكتشفات متميزة من عصور ما قبل التاريخ في منطقة عفرين سوريا. (أدوماتو، العدد الخامس، ص 7-21)

ثانيًا : المراجع الأجنبية:

- Aurenche O. and Kozlowski S. T. 1999

La Naissance du Néolithique au Proche-Orient. Editions Errance, Paris.

- Bar-Yosef O. 1994

The Lower Palaeolithic of the Near East, Journal of World Prehistory 8/3: 211-265.

- Bar-Yosef O. and Pilbeam D. 2000

The Geomorphology of Neanderthals and Modern Humans in Europe and The Greater Mediterranean. Harvard University.

- Boeda E. et al 2001

Comportements Socio-Economiques et Territoires de l'Homme du Paléolithique Moyen et Inférieur en Milieu Climatique Instable (Proche-Orient, Syrie Centrale).

Rapport de la mission archéologique d'Umm el-Tlel, Syrie. Université Paris X.

- **Nanterre, France.-Boeda E. et al 2002**
  Analyse Comportemental des Hommes Fossiles du Paléolithique dans le Desert Syrien. Rapport de la mission archéologique d'umm el--Tlel, Syrie. Université Paris X. Nanterre, France.

- **Clark D. 1966**
  The Middle Acheulean Occupation Site at Latamné, Northern Syria AAAS 16.2 : 31-74, Damascus, Syria.

- **Cauvin J. 1978**
  les Premiers Villages de Syrie-Palestine du IXe au VIIe Millénaires av. J.-Ch. Lyon, Maison de l'Orient, France.

- **Copeland L. 1975**
  The Middle and Upper Paleolithic of Lebanon and Syria in the Light of Recent Researches. In Wendorf and Marks (eds.) Problems in Prehistory, North Africa and the Levant: p. 317-350.

- **Cauvin J. 1997**
  Naissance des Divinités, Naissance de l'Agriculture. Edition CNRS. Paris.

- **Copeland L. and Hours F. 1989**
  The Hummer on the Rock: Studies in Early Paleolithic of Azraq, Jordan. BAR, I. S. 540. Oxford.

- **Coppens Y. Picq. P. 2001**
  (dir.), Aux Origines de l'Humanité.Fayard, Paris. Garrod D. and Bate M. 1937 the Stone Age of Mount Carmel. Oxford, Clarendon Press.

- **Gilead D. 1991**
  The Upper Paleolithic in the Levant. Journal of Word Prehistory 5/2: p. 105-154.

- **Goren-Inbar N. 1992**
  The Acheulian Site of Gesher Benot Ya'akov: An African or Asian Entity. In : T. Akazawa, K. Aoki and T. Kimura (eds.), The Evolution and Dispersal of Modern Humans in Asia. Tokyo. Hokusansha, p. 67-82.

- **Henry O. D. 1989**
  From Foraging to Agriculture, The Levant at the End of Ice Age. University of Pennsylvania, USA.

- **Hours F. 1992**
  Le Paléolithique et l'Épi-Paléolithique de la Syrie et du Liban. Dar el-Mashrq, Beyrouth.

- **Mellaart J. 1975**
  The Neolithic of the Near East. Thames and Hudson. London.

- **Muhesen S. 1985**
  L'Acheuléen Récent Evolué de la Syrie, BAR. I.S. 248. Oxford.

- **Redman Ch. 1978**
  The Rise of Civilisation, from Early farmers to Urban Society in the Ancient Near East. San Francisco.

- **Rust A. 1950**
  Die Hölenfunde von Jabrud (Syrien) K. Wachbattz. Neumünster.

- **Sanlaville P. 1977**
  Etude Géomorphologique de la Région Littorale du Liban. Thèse de Doctorat d'Etat, publiée par l'Université Libanaise, Beyrouth.

- **Sanlaville P. (ed.) 1979**

Quaternaire et Préhistoire du Nahr el-Kebir Septentrional : Les débuts de l'occupation humaine dans la Syrie du Nord et au Levant. Edition du CNRS, Paris.

- **Sanlaville P. (ed.) 1993**

La Géomorphologie et la Préhistoire de la Vallée Moyenne de l'Oronte, Syrie, BAR. I. S. 587, Oxford.

- **Sanlaville P. 2000**

Le Moyen-Orient arabe, Armand Colin, France.

- **Shea. J. J. 1998**

Neandertal and Early Modern Human Behavioral variability: A Regional-Scale Approach to Lithic Evidence for Hunting in the Levantine Mousterian. Current Anthropology. 39: S 45-278.

عصور ما قبل التّاريخ في بلاد المغرب العربي

تشكل منطقة المغرب العربي وحدة جغرافية متميّزة برزت فيها حضارات إنسان ما قبل التّاريخ منذ أقدم العصور وتواصل الوجود البشري فيها بصفة مستمرّة ومكثفة إلى أن بدأ البحارة الفينيقيون الأوائل بارتياد شواطئها وذلك عند نهاية الألف الثانية قبل الميلاد.

ولم تكن الصّحراء الكبرى في تلك العصور السّحيقة تشكل حاجزًا لعبور وتلاقح الحضارات، بل كانت الظروف المناخية فيها مخالفة تمامًا للظروف الحالية.. إذ كانت توجد فيها الكثير من الأنهار وبحيرات الماء العذب، الأمر الذي جعل عدّة مجموعات بشريّة تنمو وتترعرع في ربوعها، مشكلة بذلك منطلقا لبروز الكثير من الحضارات العريقة وتطورها.

لقد عرفت هذه المنطقة جميع أشكال حضارات ما قبل التّاريخ، ولم ينقطع الوجود البشري فيها منذ ظهور الآثار الأولى للإنسان، بدءاً بالعهود الأولى للعصر الحجري القديم الأسفل إلى نهاية فترة ما قبل التاريخ.

- العصر الحجري القديم الأسفل :

تغطّي هذه الفترة الجزء الأوفر من عصور ما قبل التاريخ وهي تمتد إلى مئات آلاف السّنين ، وربّما تصل إلى ما يقرب المليوني سنة.

ويمكن تقسيم هذا العصر إلى دورين رئيسين ظهر فيهما نوع متميز من الأدوات الحجرية.

أ- الدّور الأوّل : هو دور الأدوات الحصوية، وهو دور يتميّز بظهور نوع من الأدوات البدائية وانتشارها، تلك التي يرجع عهدها إلى ما يناهز مليوني سنة، وتتمثل هذه الأدوات في حصاة مكوّرة أو مسطّحة التقطت في قاع نهر أو على شاطئ بحر . تطرق هذه الحصاة بواسطة حصاة أخرى، فتنتزع منها شظيّة واحدة أو عدّة شظايا. ويترك هذا "النزع" على الحصاة الأولى حدّا قاطعًا، فتصبح الحصاة سلاحًا يستعمل في تجهيز لحوم الحيوانات أو لقطع الخشب وقد أطلق الباحثون على هذا الدّور إسم حضارة الحصىPebble Culture .

عثر على أقدم أدوات حجريّة تنتمي إلى هذا الدّور في طبقات جيولوجية مواجهة لشواطئ المحيط الأطلسي ببلاد المغرب، بمنطقة سيدي عبد الرّحمن قرب الدّار البيضاء وكذلك بمنطقة الرّباط .. وهذه الأدوات البسيطة تشبه إلى حد كبير ما يعرف بالأدوات الألدوانية المعروفة في مشرق أفريقيا منذ أكثر من مليوني سنة خلت .

كما عثر على أدوات مماثلة، لكنها أكثر تطوّرا، في موقع "عين الحنش". قرب مدينة سطيف بالشرق الجزائري ، وقد درسه وأجرى حفريات فيه الأستاذ الفرنسي "كامي أرمبور Camille Arambourg " في فترة الخمسينات، وقام باستخراج مجموعة من الأدوات التي تتمثل في الكثير من الحصى المكوّرة تمّت تهيئتها من قبل الإنسان، وتصاحب هذه الأدوات (أي في الطبقة الجيولوجية نفسها) العديد من عظام الحيوانات التي تنتمي إلى مناخ استوائي حار .. وهو مناخ كان سائدًا في المنطقة منذ أواخر الدّهر الجيولوجي الثالث .

عثر على هذا النّوع من الأدوات (الحصى المهيّأة) في منطقتي قسنطينة بشرق البلاد الجزائرية و"رقان" بالصّحراء الجزائريّة. كما عثر الباحث الإنجليزي "مكبيرني McBurney" على نماذج من هذه الأدوات في الموضع

المسمّى "بئر دوفان" في الجزء الشرقي من إقليم طرابلس بالبلاد الليبيّة.

أمّا بالبلاد التونسية فإنّه يوجد مكان قريب من مدينة قبلّي يعرف بعين برمبة، عثر فيه على عمق سبعة أمتار على عظام كثيرة لحيوانات استوائية منقرضة. من هذه الحيوانات نذكر: الفيل العملاق، والفهد ذو الأنياب الحادّة والضّبع إلخ... وقد حدّد الباحثون إنتماء هذه الأصناف الحيوانيّة إلى الفترات الأولى من الدّهر الجيولوجي الرّابع. ولم تقتصر الاكتشافات على العظام فقط ، بل تمّ العثور في الطّبقات نفسها على عدّة قطع حجريّة نذكر منها قطعة تتميّز بشكل كرويّ وتحمل آثار تكسير متعمّد قام به كائن بشري، وتشبه هذه القطعة إلى حدّ بعيد الأدوات التي عثر عليها بموقع عين الحنش بالشّرق الجزائري وبالمواقع القريبة من مدينة الدّار البيضاء بالمغرب الأقصى.

وقد ثبت، بعد دراسات تحليليّة ومقارنات : أن وجه الشّبه كبير بين هذه المكتشفات ومكتشفات عثر عليها في حوض نهر "الأومو" بالبلاد الأثيوبية. وقد تمّ تاريخ آثار حوض الأومو بواسطة طريقة "البوتاسيوم أرغون" ، نظرًا لاحتوائها على مواد بركانيّة، فصعدت في سلّم الزّمن إلى ما يزيد على المليوني سنة... !

ونظرًا للتشابه الجيولوجي بين موقع نهر الأومو بأثيوبيا وموقع عين برمبة بالجنوب التونسي فإنّ تزامن الموقعين أصبح أمرًا واردًا .

عثر أيضًا على أدوات تنتمي لفصيلة الحصى المهيّأة في مكان يدعى "قصر لمسة "(ولاية القيروان، بالوسط التّونسي)، فقد اكتشفت عدّة أدوات حجريّة في طبقة سميكة من الحجارة الكلسيّة... هذه الحجارة الكلسيّة تكوّنت على جوانب تجمّع مائي يشبه البحيرة، وتثبت هذا الاستنتاج دراسات جيولوجيّة حديثة. عاش إنسان حضارة الحصى المهيّأة على جوانب هذه البحيرة ... والطّبقة الكلسيّة هي في الحقيقة شاطئ أحفوري لهذه "البحيرة" التي إندثرت ولم يعد لها وجود الآن .

ب- الدّور الثاني: أو دور أدوات "ذات الوجهين" (أو الفؤوس اليدويّة) :

هذه "الفؤوس" هي أدوات من الحجارة أكثر تطوّرا من الحصاة المهيّأة، وهي في الأصل حصاة نزعت منها شظايا متعدّدة بطريقة أكسبتها وجهين متشابهين وشكلا لوزيًا، ممّا جعل بعض الباحثين يسمّونها بالفؤوس اليدويّة .

عثر على مخلفات هذه الفترة، التي تمتدّ إلى مئات آلاف السّنين ، في عدّة جهات من المنطقة المغاربيّة:

- الجزائر:

موقع تيغنيف (قرب مستغانم): قام بحفريات في هذه المستوطنة الأثريّة الأستاذ الفرنسي كامي أرمبورغ C.Arambourg فيما بين سنوات 1954 و1956 وهي ربوة تكوّنت بفعل تدفق ماء من عين فوّارة . كان الماء المتدفق من هذه العين يحتوي على كميّات كبيرة من الرّمل والطّمي . ترسّبت هذه المواد على جوانب العين مكوّنة ربوة مخروطيّة الشكل. وقد تمّ العثور في مختلف الطبقات الرّملية لهذا الموقع على أدوات حجريّة عديدة تتكوّن أساسا من "فؤوس يدويّة" وهي المعروفة بأدوات " ذات الوجهين Bifaces".. تنتمي هذه الأدوات إلى فترة قديمة تقدّر بحوالي 500 ألف سنة .

أهمّ اكتشاف عثر عليه بموقع "تيغنيف" يتمثّل في ثلاثة فكوك سفلية بشريّة، كما عثر على جزء من جدار الجمجمة، وبعض الأسنان المفككة . تنتمي هذه البقايا" الأحفوريّة" إلى فصيلة بشريّة بائدة تسمّى "الإنسان منتصب القامة" Homo erectus . وبما أنّها تتميّز ببعض الخصائص المحليّة فإنّ العلماء أطلقوا عليها إسم Atlanthropus أتلنتروبوس، أي" إنسان الأطلس ".

عين الماء الأبيض :

يوجد هذا الموقع على بعد 30 كلم جنوب مدينة تبسّة . وقد ستخرجت منه آلاف الفؤوس الحجريّة من نوع "ذات الوجهين" وهي تتميّز بالصّنع المتقن، النّاتج عن استعمال تقنيات متطوّرة في طرق الحجارة ونزع الشّظايا منها. تنتمي هذه الأدوات إلى فترة متأخّرة من العصر الحجري القديم الأسفل (حوالي 100 ألف سنة ق.م). وهناك الكثير من مواقع العصر الحجري القديم الأسفل ، متناثرة في عدد من الأماكن من الصّحراء الجزائريّة نذكر منها : تبلبالا – جبال أوغرطة – أولاف- وادي ساورة إلخ ... وتتمثل المكتشفات الأثريّة بهذه المواقع في أدوات بعثرتها عوامل الانجراف، فأبعدتها شيئا ما عن المكان الأصلي الذي ترسّبت فيه .. الأمر الذي يجعل تحديد انتمائها الجيولوجي عمليّة صعبة .. وليس للباحثين من سبيل، في هذه الحالة ، إلا التقاط هذه الأدوات ودرس تقنيات طرقها وصنعها، وذلك لاستخلاص بعض النتائج.

- المغـــرب:

* **موقع سيدي عبد الرّحمن**: يحتوي هذا المكان (الذي يقع في الأحواز القريبة لمدينة الدّار البيضاء) على طبقات جيولوجية عدة تنتمي كلها إلى دور الدّهر الجيولوجي الرّابع- تتكوّن هذه الطّبقات من ترسّبات بحريّة وقاريّة تتخللها الكثير من الفؤوس الحجريّة المتعدّدة الأنواع والأشكال. ومن أهمّ مكتشفات هذا الموقع قطعتان من فكّ سفلي بشري، تنتميان إلى نوع متطوّر من فصيلة "الإنسان منتصب القامة " Homo erectus .

* **الرّباط:**

عثر في مقطع للحجارة الرّمليّة بالقرب من مدينة الرّباط، على بقايا عظميّة تتمثل في قوس جمجمة وبقايا فكّ أعلى وفكّ سفلي شبه كامل.

* **عين فريطيسة:**

وهي تقع على الضّفّة اليمنى لنهر الملويّة، غربي مدينة وجدة، عثر في هذا الموقع على ما يزيد عن تسعمائة أداة حجريّة، تنتمي إلى فترات مختلفة من العصر الحجري القديم الأسفل .

* **وادي الخميس:**

يشقّ هذا الوادي مجراه بين مدينتي الرّباط ومكناس . عثر في الطّبقات الرّسوبيّة لهذا الوادي على عدد من الأدوات الحجريّة.

- موريتانيا:

لقد عرفت البلاد الموريتانيّة أقدم أدوات العصر الحجري القديم الأسفل حصاة مهيّأة وفؤوس يدويّة . وهي توجد بكثرة في المناطق الغربية للبلاد. ونذكر هنا موقعين : البيّاد والأوكار.

- تونس:

إكتشفت مواقع عدة تحتوي على فؤوس حجريّة في الجنوب والوسط والشّمال الغربي.

* **الجنوب** :

عثر على عدد من الفؤوس الحجريّة في سهول المتلوّي والرّديّف وقفصة.

* **الوسط:**

عثر في صائفة سنة 1986م على ضفاف وادي الجبس بمكان لا يبعد كثيرًا عن بلدة العلا من ولاية القيروان، على مجموعة من الأدوات الحجريّة أثبتت دراستها من النّاحية التّقنيّة، أنّها تنتمي ، في غالبها، إلى صنف متطوّر من "الفؤوس اليدويّة" والتي يرقى تاريخها إلى ما يفوق المائة ألف سنة .

* **الشمال الغربي**:

يعتبر حوض وادي ملاق منطقة غنيّة بآثار إنسان ما قبل التاريخ. على ضفاف هذا الشّريان المائي المهم أقام الإنسان وترك الكثير من مخلفاته. ففي الحوض الأعلى لهذا النّهر وداخل التراب الجزائري عثر على عدد من الأدوات الحجريّة في مكان يدعى العوينات. أمّا في التراب التّونسي، وغير بعيد عن مدينة الكاف، فقد اكتشف موقع مهم اكتسب شهرة عالميّة، يدعى سيدي الزّين: أجريت فيه حفريّات في حدود سنة 1950م . يقارب العدد الجملي للأدوات المستخرجة من هذا الموقع الـ 800 قطعة، كما استخرجت منه أعداد مهمة من العظام وأسنان الحيوان. وقد درس العالم الفرنسي ريمون فوفري R.Vaufrey هذه المخلفات، وبعد فحوص ومقارنات، تمكن من تمييز الأنماط التالية: الفيل الأطلسي ، الكركدنّ، الجاموس الوحشي، الغزال، الظبي، الماعز الوحشي والحمار الوحشي. كلّ هذه الأصناف الحيوانيّة تنتمي إلى مناخ حارّ ورطب، يختلف عن صنف المناخ المتوسّطي المعتدل الذي تعرفه منطقة الكاف الآن .

- ليبيا:

يعتبر موقع بئر دوفان (جنوب شرق مدينة طرابلس) من الأماكن المهمة التي عثر فيها على مجموعات من الأدوات تنتمي إلى أدوار مختلفة من العصر الحجري القديم الأسفل . كما أنّ موقع توكرة عند سفح الجبل الأخضر (جنوب غرب بنغازي) يحتوي على عدد مهم من الأدوات التي تنتمي للفترة نفسها.

- **العصر الحجري القديم الأوسط:**

يغطّي هذا العصر فترة زمنيّة قصيرة نسبيّا، تمتدّ إلى النّصف الأول من الحقبة الجليديّة الأخيرة أي ما بين 80.000 و35.000 سنة ق.م غطى الجليد أثناء هذا العصر أجزاء كبيرة من القارّة الأوربية .

أمّا في شمال القارّة الإفريقيّة فإنّ المناخ تميّز عمومًا بالجفاف .. ويعتقد أنّ إنسان هذه الفترة ركّز مستوطناته قرب العيون والتجمّعات المائية.

وتعدّ مواقع العصر الحجري القديم الأوسط بالشّمال الإفريقي قليلة نسبيّا نستعرض أهمّها:

* الجزائر :

مغارة رتايميّة : تقع هذه المغارة جنوب حوض وادي الشّلف بمنطقة وهران، عثر فيها على عدد من السّكاكين الحجريّة والأدوات الحادّة.

حضارة بئر العاتر:

في نهاية العصر الحجري القديم الأوسط ، أي في حدود 30.000-40.000 سنة ق.م ، بدأت تظهر أنماط حضاريّة متميّزة تمثلها بالخصوص حضارة غطّت كامل المنطقة المغاربيّة من جنوب الصّحراء إلى ضفاف البحر الأبيض المتوسّط، ومن المحيط الأطلسي إلى حوض وادي النيل.

أطلق على هذه الحضارة اسم " الحضارة العاتريّة (Aterian Industry)" نسبة إلى بئر العاتر (التي تقع بالبلاد الجزائرية، قرب الحدود التّونسية) حيث عثر على موقع يحتوي على عدد هامّ من أدوات هذه الحضارة .

تشبه أدوات الحضارة العاتريّة إلى حدّ بعيد بقيّة أدوات العصر الحجري القديم الأوسط، إلاّ أنّها تختصّ بظهور نوع فريد من الأدوات يتميّز بوجود نتوء مذنّب عند القاعدة ويسمّى هذا النّوع من الأدوات بـ: الأدوات المذنّبة.

تشكل الصّناعة العاتريّة مظهرًا مميّزًا للحضارات الحجريّة بالشّمال الإفريقي، وهي تدلّ بصفة واضحة على أنّ هذه الرّقعة من الأرض بدأت في فترات متقدّمة من عصور ما قبل التاريخ تأخذ طابعًا خاصّا بها ، وتبتعد شيئا فشيئا عن النّمط الموحّد للصّناعات الحجريّة .

في المغرب الأقصى :نذكر موقعين مهمين :

تافورالت:

وهي مغارة تقع على بعد 55 كلم شمال مدينة وجدة . ارتاد إنسان العصر الحجري القديم الأوسط هذه المغارة وخلف فيها أدوات يفوق عددها الثلاثمائة.

جبل أغود :

عثر في مغارة تقع في هذا الجبل بالجنوب المغربي، على جمجمتين وجزء من جدار جمجمي تصاحبهما الكثير من الأدوات الحجريّة. ويعدّ إكتشاف جمجمتي جبل إغود من أهمّ المكتشفات التي تكوّن حلقة مهمة في سلسلة تطوّر الإنسان بالشّمال الإفريقي. وتأتي هذه الحلقة بعد حلقة الإنسان المستقيم الذي اكتشف في جهات : مستغانم والرّباط والدّار البيضاء. تنتمي جمجمة جبل أغود إلى فصيلة "إنسان نيندرتال" وهي تمتاز بالخصائص التالية: حجم جمجمي يبلغ حوالي 1500 سم3، محاجر عيون كبيرة ومتباعدة، يعلو المحجرين نتوء عظمي بارز ومتواصل .

تونس:

تعتبر مواقع العصر الحجري القديم الأوسط قليلة نسبيا – عثر على مخلفات حجريّة لهذه الفترة في المنطقتين الوسطى والجنوبيّة الغربية للبلاد ، إلا أن هناك موقعين مهمين استخرجت منهما أكبر وأثرى كميّة من الوثائق، ويقعان في جنوب البلاد: وادي العكاريت: يشقّ هذا الوادي مجراه، متّجها نحو البحر، في مكان يقع على بعد 30كلم شمال مدينة قابس . اكتشفت مخلفات الإنسان على جانبي هذا الوادي. وقد قامت بعثات علميّة بحفريّات وأبحاث في هذا الموقع المهم، فكشفت على نسبة كبيرة من الأدوات المصنوعة من الصّوان ، وعظام حيوانات تنتمي إلى الأصناف التّالية : الحمار الوحشي، الكركدن الأبيض والجمل الوحشي.

أجريت تحاليل بواسطة طريقة الكربون 14 على عيّنات عضويّة عديدة استخرجت من الطّبقات السّفلى للوادي . وأثبتت هذه التّحاليل أنّ الطّبقات الجيولوجيّة التي تحتوي على مخلفات الإنسان، يرقى تاريخها إلى ما بين 26.000 و 20.000 سنة ق.م ويعتبر هذا التاريخ متأخّرًا شيئًا ما إذا ما قارنّاه بتاريخ مواقع أخرى للحجري القديم الأوسط، حيث يزيد تاريخها عادّة على 40.000 سنة.

وقد أثبتت تحاليل حديثة أنّ تاريخ هذا الموقع يرقى إلى ما يزيد على 60 ألف سنة.

ليبيا:

عثر الباحث الإنجليزي ماكبيرني McBurney على عدد من المواقع الموجودة بين طبرق وبنغازي، وهي تحتوي على أدوات حجريّة تنتمي لفترة العصر الحجري الوسيط . تتمثّل هذه المواقع في مغارات وكهوف استوطنها الإنسان حتى فترات متأخّرة من عصور ما قبل التّاريخ. من هذه المواقع نذكر : كهف هوا فطيح، عثر في إحدى طبقاته على فكّ بشري يتراوح تاريخه بين 60.000 و40.000 سنة، حكفت الطّيرة (15 ميلا جنوب بنغازي)، حكفت الضّبعة، نذكر كذلك وادي غان في الأطراف الشماليّة من جبل نفوسة.

القطار:

تبعد هذه البلدة عن مدينة قفصة حوالي 18 كلم شرقا. أجريت فيها حفريات في أوائل الخمسينات وتمثّلت عمليّة التنقيب في حفر بئر مربّعة الشّكل يبلغ ضلعها 5م بينما يزيد عمقها على 8م . استخرجت من مختلف طبقات الحفريّة أدوات عديدة ومتنوّعة من حجر الصّوان يتجاوز عددها السّتة آلاف، وهي تتكوّن أساسا من رؤوس رماح ومقاشط ، ومثاقب، وسكاكين...

أمّا أهمّ اكتشاف عثر عليه أثناء عمليّات التنقيب فهو يتمثل في كومة غريبة تتكوّن من حصى نهري، وعظام حيوانات مختلفة، وشظايا من حجر الصّوان وأدوات أخرى من الصّوّان... كدّست كلّها على شكل مخروط يبلغ قطره 140سم بينما يفوق إرتفاعه 75 سم. يقع هذا التكدس في عمق 8 أمتار، أي في مستوى منبع عين ماء فوّارة اندثرت الآن ولم يعد لها وجود نتيجة لتغيّر المناخ... وقد أثبتت تحرّيات عديدة أنّ إنسان العصر الحجري القديم الأوسط شيّد هذا المعلم الغريب قرب العين وذلك قصد إقامة "طقوس دينيّة" تهدف ربّما إلى المحافظة على ماء العين الذي هو أساس الحياة.. فهو إذن "معلم ديني" يبدو أنه أقدم ما عثر عليه حتى الآن .

- العصر الحجري القديم الأعلى

يغطي هذا العصر ، من الناحية الزمنيّة ، الفترات المتأخّرة من الدّور الجليدي الأخير، ما بين 35.000و10.000 سنة ق.م . وقد امتدّت الحضارة العاتريّة إلى جزء من هذه الفترة، إذ بلغت في عصورها المتأخّرة 25.000 سنة ق.م .

ثمّ مرّت إثر ذلك بلدان الشّمال الإفريقي بفترات انتقاليّة أدّت إلى ظهور حضارتين متميّزتين، امتدّتا من الناحيّة الزّمنية إلى أواخر العصر الحجري القديم الأعلى وتواصلتا إلى ما بعد الحجري القديم، وقد أطلقت عليهما اسم "حضارات ما بعد الحجري القديم".

أ- الحضارة الوهرانيّة (Oranian / Iberom aursian):

تمّ التعرّف إلى هذه الحضارة في بداية القرن الماضي . فأطلق عليها اسم الحضارة "الإيبيروموريّة" وذلك نتيجة لاعتقاد بوجود علاقة وطيدة بين حضارات شبه جزيرة "إيبيريا" (إسبانيا والبرتغال) وحضارات بلاد "الموري" أي بلدان شمال إفريقيا بصفة عامّة.

أثبتت الأبحاث اللاحقة أنه ليست هناك علاقة تربط بين حضارات المنطقتين الجغرافيتين المذكورتين، وقد حاول بعض الباحثين إبدال هذه التسمية بـ:" الوهرانيّة" نسبة إلى مدينة وهران بالغرب الجزائري، حيث توجد مواقع هذه الحضارة بكثرة لكنّ هذه التسمية لم تلق إجماعًا واسعًا.

تعتبر الحضارة "الوهرانيّة" حضارة ساحليّة ونكاد نقول بحريّة، فهي تمتدّ من السّواحل الشّمالية للبلاد الليبيّة إلى السّواحل الأطلسيّة بالمغرب الأقصى مع بعض التوغلات القاريّة القليلة التي لا تبعد عن البحر كثيرًا.

تقع أهمّ مخلفات هذه الحضارة في مواقع "تافورالت" شمال وجدة بالمغرب الأقصى وكذلك في البلاد الجزائريّة بمنطقة وهران والجزائر وخليج بجاية: أمّا في البلاد التونسيّة فإنّها توجد بالخصوص على الشّريط الرّملي الذي يتاخم السّواحل الشّماليّة الغربيّة للبلاد أي ما بين طبرقة وبنزرت.

أمكن تأريخ الكثير من المواقع الوهرانيّة بواسطةكاربون 14 . يستخلص من هذه التحاليل أنّ زمن هذه الحضارة يمتدّ إلى ما يقرب العشرة آلاف سنة، أي ما بين 18.000 سنة و8.000 سنة ق.م.

تتميّز أدوات الحضارة الوهرانيّة بكثرة نوع من النصال الصّغيرة المستخرجة من الصّوان، كما تتميّز باستعمال المادّة العظميّة لصنع الأدوات الحادّة كالمثاقب والسّكاكين.

تمّ التعرّف إلى النّمط البشري لهذه الحضارة بفضل الهياكل العظميّة الكثيرة التي تمّ اكتشافها في مختلف المواقع ، والتي يقارب عددها الثلاثمائة. وبهذا العدد الهائل من النماذج العظميّة أمكن دراسة هذا النّمط البشري.

ينتمي إنسان هذه الحضارة إلى أنموذج من فصيلة " الإنسان العاقل" عرف باسم "إنسان مشتى العربي" وهو اسم

موقع عثر فيه على عظام هذا الإنسان لأول مرّة ، وهو موجود بالشرق الجزائري بين سطيف وقسنطينة.

تمتاز جمجمة "إنسان مشتى العربي" بالخشونة، وبمحاجر عين مستطيلة ومتباعدة .. أمّا الهيكل العظمي فمن ميزاته طول الأطراف وامتداد القامة التي يتراوح طولها بين 1.70م و1.75م.

أثار موضوع أصل إنسان "مشتي العربي" نقاشًا طويلاً. وغلب على الظنّ، في البداية، أنّ أصله شرقي، غير أنّ اكتشاف نمط إنسان العصر الحجري القديم الأوسط بجبل أغود بالمغرب الأقصى أدّى إلى التفكير في وجود أصل محلي لهذا الإنسان وذلك بالاعتماد على أوجه تقارب بين هذين النمطين البشريين.

سكن إنسان الحضارة الوهرانيّة في الكهوف والمخابئ الصخريّة ، كما سكن في أكواخ بدائية أقامها في العراء. وكان يعيش من القنص وذلك باستعمال نصال الصوّان كرؤوس سهام.

إصطاد هذا الإنسان : الظبي –الغزال – البقر الوحشي- الخنزير الوحشي ، وكثيرًا من القوارض (أرانب بريّة، فئران إلخ ...) والطيور . كما كان يكمل غذاءه بالحلزون البرّي ، وبعض منتوجات البحر ، وكذلك ببعض الأعشاب والنباتات البريّة الصالحة للأكل.

وتدلّ وضعيّة الهياكل العظميّة المكتشفة خلال الحفريّات على وجود طقوس جنائزية ، إذ تدفن الجثة في وضع مقوّس وتوضع على الجانب أو الظهر ، وتقام عليها بعد ذلك كومة من الحجارة .

ب- الحضارة القبصيّة (Cepsian) :

اشتقّ اسم هذه الحضارة من اسم " قبصة " وهو الاسم القديم لمدينة قفصة، وذلك لأنّ أول اكتشافات هذه الحضارة تم في أوائل القرن الماضي بإقليم مدينة قفصة .

وتعدّ الحضارة القبصيّة أقلّ انتشارًا من الناحية الجغرافيّة والزّمنيّة من الحضارة الوهرانيّة.

توجد مواقع الحضارة القبصيّة على وجه الخصوص في منطقتي تبسّة وقفصة حيث تعدّ بالمئات. وتتجاوز هذا المحور لتصل إلى جهة سطيف وقسنطينة بالشرق الجزائري: أمّا في اتجاه الغرب فإنّها لاتتجاوز إقليم تيارات. ولم يعثر على أي أثر للحضارة القبصيّة بالمغرب الأقصى ، كما لم تكتشف إلى حدّ الآن مواقع لهذه الحضارة على ساحل البحر.

فالحضارة القبصيّة هي حضارة قاريّة امتدّت على المنطقة الوسطى للبلاد الجزائرية والمنطقة الجنوبيّة الغربيّة للبلاد التونسية.

ويستخلص من عدد من التحاليل الفيزيوكيمائية أنّ الحضارة القبصيّة ظهرت بعد الحضارة الوهرانيّة، ولم تعمّر إلا مدّة قصيرة نسبيًا . يتراوح عمر هذه الحضارة بين حوالي 7000 و5000 سنة ق.م. لقد دامت مدّة تقارب الألفي سنة أو تزيد عليها بقليل.

يقسّم الباحثون الحضارة القبصيّة إلى دورين يسبق أحدهما الآخر. أو ربّما يتزامنان في بعض الأحيان . سمّي الأول بالدّور القبصي الأنموذجي وهو ينحصر في منطقة جغرافية محدودة متاخمة للحدود الجزائريّة التونسيّة.

أمّا الدّور الثاني ، فقد أطلق عليه اسم : القبصي الأعلى وهو يمتدّ إلى فترة أكثر طولا من القبصي الأنموذجي، أمّا من الناحية الجغرافيّة فإنّه يغطي مساحة شاسعة تحتوي على منطقة الهضاب العليا بالبلاد الجزائرية وتصل إلى حدود إقليم تيارت بغرب البلاد. أمّا بالبلاد التونسيّة فإنه يتركز حول منطقتي قفصة والقصرين...

تعتمد الصّناعة القبصيّة أساسًا على استعمال حجر الصّوّان كمادّة أوّليّة . صنع القبصيّون من مادّة الصوّان

سكاكين حجريّة كبيرة، وحوّلوا البعض منها إلى أزاميل ومكاشط كما استعملوا مخارز من الحجارة، وقد امتازت أدواتهم الحجريّة بالدّقة والمهارة.

استعمل القبصيّون أيضا مادّة العظم فصنعوا إبرًا دقيقة وسكاكين وخناجر. كما استعملوا بيض النّعام وحوّلوها إلى أواني لحفظ الموادّ السّائلة .

أمّا قشور هذا البيض المهشّمة، فقد صنعوا منها حلقات وذلك بإحداث ثقب في وسطها وتشذيب وصقل أطرافها لكي تصبح قابلة للنّظم في سلك وبهذا تتحوّل إلى عقود تستعمل كحليّ للزّينة .

عثر على ما يزيد على عشرة هياكل عظميّة للإنسان القبصي هي كافية للتّعرّف إلى الخصائص التّشريحيّة لهذا الإنسان.

يمتاز الإنسان القبصي بأنّه أقلّ خشونة من إنسان "مشتى العربي" وهو ينتمي إلى فصيلة أطلق عليها اسم "ما قبل المتوسّطي".

كان القبصيّون يختارون مستوطناتهم في المناطق الإستراتيجية التي يوجد فيها الماء، والتي تشرف من فوق الهضاب على الممرّات الطبيعيّة التي تسلكها الحيوانات.

وتعرف المستوطنات القبصيّة "بالرّماديات" وهي تتكوّن من تلال ذات شكل إهليجي تجمّعت فيها كمّيات ضخمة من رماد المواقد، والحجارة المحروقة، والأدوات الصوّانيّة والعظميّة وقشور الحلزون .

هذه التلال هي عبارة عن أكداس من الفضلات تركها الإنسان، وهي غنيّة إلى حدّ بعيد بالوثائق الأثريّة (أدوات ، عظام، موادّ للزينة)...

كان الإنسان القبصي يصطاد الحيوانات البريّة:

ظبي-غزال-بقر وحشي- قوارض- ويلتقط بعض الأعشاب البريّة لكن أهم ميزة لغذاء هذا الإنسان هو استهلاكه لكمّيات ضخمة من الحلزون. ولا أدلّ على ذلك من المجموعات الهائلة والضّخمة التي تكوّن أهمّ عنصر في المستوطنة القبصيّة والتّي تدعى "بالرّماديّة".

ويعتبر القبصيّون أولى المجموعات البشريّة بالشّمال الإفريقي التي كان لها إحساس جمالي . وقد عبّروا عن هذا الإحساس بنقش خطوط هندسيّة متشابكة على قشور بيض النّعام، كما عبّروا عنه بنحت تماثيل لرؤوس حيوانات أو أقنعة.

عثر على أهمّ قطعة للفنّ القبصي بموقع مهم يسمّى " المقطع" وهو لا يبعد كثيرًا عن مدينة قفصة.

تتمثّل هذه القطعة في نحت يمثل رأس امرأة قصّ شعرها على الجبهة بينما بقيت قسمات الوجه ملساء بدون أن تنحت. يمتاز هذا النحت بنزعة تجريديّة واضحة تدلّ على أنّ النحات عبّر عن امرأة كما يتصوّرها لا كما يراها.

- العصر الحجري الحديث :

شهدت البلدان المغاربيّة بروز وتطوّر حضارات العصر الحجري الحديث، ويبدو أنّ هذه الحضارات نشأت في الصّحراء وذلك في فجر الألف السّابعة قبل الميلاد وامتدّت إلى بقيّة المنطقة لتتواصل إلى حدود الألف الثانية قبل الميلاد .

أهمّ الميزات التقنية لهذه الحضارة هي تطوّر وانتشار تقنيات صقل الحجارة والعظام وذلك بإكسابها سطوحًا ناعمة، كما ظهرت تقنية صنع رؤوس السّهام من حجر الصوّان وذلك باستعمال أساليب متطوّرة في طرق ونحت الحجارة.. كما برزت أيضًا صناعة الأواني الفخاريّة وتطوّر فنّ الرّسم على الصّخور.

وتصنّف حضارات العصر الحجري الحديث بالمنطقة المغاربية إلى ثلاثة أصناف:

أ- الحجري الحديث ذو الأصول السّودانيّة:

يغطّي كلّ الأقاليم الصحراويّة. وقد عثر على أقدم مواقعه بشمال غرب مدينة تمنراست بأقصى الجنوب الجزائري، ويرقى تاريخه إلى ما يزيد على 7000 ق.م، وهو يمتاز بكثرة أوانيه الفخّاريّة، وينحدر الجنس البشري لهذا العصر من فصيلة زنجية سودانيّة . ويمكن هنا الإشارة إلى المجموعة المهمة من المستوطنات التي عمّرت في الألف الثالثة والثانية ق.م مناطق تشيت وولاته بجنوب شرق البلاد الموريتانية.

ب - الحجري الحديث ذو الأصول القبصيّة:

تستمدّ هذه الحضارة أصولها من الحضارة القبصيّة، وقد غطّت المنطقة الشرقية للبلاد الجزائريّة والمنطقة الشّماليّة للصحراء وكذلك المنطقة الجنوبيّة الغربيّة للبلاد التّونسيّة.

ج- الحجري الحديث المتوسّطي:

تغطّي هذه الحضارة أقاليم التّل والمناطق الساحلية. وهي تستمدّ بعضًا من جذورها من الحضارة الوهرانيّة مع تأثيرات واضحة قادمة من جزر البحر الأبيض المتوسّط.

فنّ ما قبل التاريخ :

رأينا كيف عرف الإنسان الفنّ وترجم عن أحاسيسه الجماليّة منذ الفترة القبصيّة ، ومع ظهور العصر الحجري الحديث برزت لدى الإنسان إبداعات فنيّة في مجال الرّسم والنّقش على الجدران الصخريّة.

توجد النّقوش الصّخريّة في مناطق الأطلس الصحراوي الممتدّة بين جنوب المغرب الأقصى ومنطقة الأوراس بالشرق الجزائري، أمّا الرّسوم فإنّها توجد بالخصوص في المرتفعات الصّخريّة للصحراء الجزائريّة والليبيّة (الهقار- الطاسلي- تدرارت اكاكوس) وكذلك في جبل وسلات (غرب مدينة القيروان) بالبلاد التّونسيّة.

تتمثّل هذه الرّسوم في مشاهد من حياة الإنسان اليوميّة، التي تعتمد أساسًا على الصّيّد و تربية الحيوان. وتعدّ الجدران الصّخريّة للهضاب والجبال الصّحراويّة كتبًا حقيقية تروي أحداثًا وتصوّر حياة يوميّة يتواجد فيها الحيوان بكثرة، من هذه الحيوانات نذكر : الفيل، النّعامة، الزّرافة، الكركدنّ، فرس الماء، الغزال، الظبي إلخ.. كما نذكر بعض الحيوانات الدّاجنة يمثّلها بالخصوص البقر.

كلّ هذه الصّور تعبّر بصفة واضحة عن بيئة ومناخ يغلب عليهما الإخضرار والرّطوبة ويختلفان بصفة كليّة عما يسود هذه المناطق من جفاف.

صحراء البلدان المغاربيّة والتّغيرات المناخيّة في عصور ما قبل التاريخ:

استوطن إنسان ما قبل التاريخ مناطق عديدة من الصّحراء وترك فيها عددًا مهمًّا من الأدوات الحجريّة، وأفادت دراسات ميدانيّة أنّ الكثير من هذه المستوطنات تقع الآن في مناطق قاحلة جاقة لا توجد فيها قطرة من الماء .. إلى جانب الأدوات الحجريّة، اكتشفت مجموعات مهمة من عظام الحيوانات التاليّة: الفيل، الكركدنّ، التّمساح، أسماك البحيرات والأنهار، فرس الماء إلخ. وفي مناطق أخرى تمتاز أيضًا بالجدب وقلّة الأمطار عثر على مجموعات مهمة من الرّسوم والصّور تمثّل قطعانًا من الأبقار ومشاهد من الحياة اليوميّة وهي تترجم بصفة واضحة عن وضع مناخي ممطر ورطب مناسب لحياة الإنسان والحيوان يختلف تماما عن المناخ الحالي.

كلّ هذه المعطيات، التي أتينا على ذكر أهمّها، تثبت بما لا يدع مجالا للشكّ أنّ المناخ في المناطق المداريّة والشّبه مداريّة تأرجح، في الكثير من المرّات، بين الرّطوبة والجفاف، وذلك طيلة الدّهر الجيولوجي الرّابع . وتدوم هذه الفترات عادة بضعة آلاف من السّنين، ويتمّ التّغيير المناخي

بصفة تدريجيّة .. الأمر الذي يجعل من العسير رسم سلّم زمني دقيق.

يصعب التعرّف بدقة إلى التغييرات المناخيّة بالنسبة للعصور القديمة جدّا، وذلك نظرًا لعدّة عوامل، من أهمّها: اندثار شبه كلي للشواهد الماديّة على هذه التغييرات.

نستطيع إجمالا تحديد فترة ممطرة رطبة مرّت بها الصّحراء خلال العصر الحجري القديم الأسفل (فيما بين 400.000 و100.000 سنة ق.م) ويسود هذه الفترة كثير من الغموض يجعل من الصّعب التعرّف إلى مختلف تحوّلات المناخ في هذه العصور الغابرة. إلا أنّ دراسات مدققة وحديثة مكنت من تحديد التسلسل المناخي التّالي بالنسبة للأربعين ألف سنة الماضية، وذلك في منطقة الصّحراء الكبرى والمناطق المجاورة:

1) من 40.000 إلى 18.000 سنة ق.م: وجود كثيف للكثير من البحيرات والتجمّعات المائية والأنهار في المنطقة الممتدّة على كامل الصّحراء الكبرى، انطلاقًا من البلاد الموريتانيّة غربًا إلى البحر الأحمر شرقًا.

2) من 18000 إلى 10000 سنة ق.م: تتميّز هذه الفترة بظهور جفاف حادّ حول الكثير من البحيرات (مثل بحيرة تشاد) إلى قفار جرداء قاحلة، واضطربت مجاري الأنهار (مثل النيل والنيجر والسّينغال) فاستقرّت فيها العديد من الكثبان الرّمليّة وعطلت إنسياب المياه.

ولعبت الرّياح دورا مهمًا في هذا الفضاء الشّاسع الأجرد، فتنقلت كثبان الرّمل وسارت في اتّجاه الجنوب متجاوزة الحدّ الحالي للصحراء بحوالي 400كلم. أمّا الغابات الاستوائية فإنّ حجمها تقلّص بصفة ملحوظة فتحولت إلى جزيرات خضراء متناثرة هنا وهناك. وخلاصة القول هو إن: الصّحراء أصبحت أكثر تصحّرًا ممّا هي عليه الآن. وذلك في الفترة المتراوحة بين 18.000و10.000سنة ق.م.

وبداية من الألف العاشر ق.م بدأت الصّحراء تعود إلى وضع أقلّ جفافًا وذلك بصفة تدريجيّة، ودام هذا التحوّل البطيء حوالي ثلاثة آلاف سنة.

3) من 7000 إلى 3000 ق.م: بلغ تحسّن الوضع المناخي ذروته، فارتفع مستوى الماء في البحيرات والأودية، وعمّ الإخضرار الصّحراء نتيجة لارتفاع نسبة الأمطار، إذ ارتفع معدّل التّساقط في بعض المناطق وبلغ نسبا تعادل أو تفوق 50 مرّة النسب الحاليّة. وتعدّدت البحيرات والتجمّعات المائية في الكثير من الهضاب الصّحراويّة: التاسلي، الهقار، التيبستي، جنوب موريتانيا إلخ... وغطّت قمم الجبال غابات كثيفة من أشجار الزّان والجوز والزّيزفون، بينما غطّت سفوحها غابات من الصّنوبر .. كلّ هذه العناصر جعلت من الصّحراء منطقة يطيب فيها العيش. فتعدّدت المجموعات البشريّة المتنقلة هنا وهناك والتي تعيش على صيد الأسماك في البحيرات وصيد الحيوانات: الكركدنّ، فرس البحر، التّمساح، الفيل والنّعام إلخ.

وقد تركت هذه الجماعات الكثير من الصّور مرسومة على جدران المغاور والمخابئ الصخريّة. وتمثل هذه الرّسوم قطعانًا من الأبقار يصعب، بل يستحيل تصوّر وجودها في المناخ الذي يسود الصّحراء الآن.

وبداية من الألف الثالث ق.م دخلت الصّحراء في مرحلة من الاحتضار البطيء (كما يقول أحد الباحثين الفرنسيين) فبدأ الجفاف يغزوها شيئا فشيئا، إلى أن بلغت في حدود الألف الأوّل قبل الميلاد الوجه الذي نعرفه بها في وقتنا الحاضر.

لقد ترك تأرجح المناخ بين الرّطوبة والجفاف في المناطق المداريّة والشّبه مداريّة، آثارًا ماديّة ملموسة نستطيع مشاهدتها على ضفاف كلّ التجمّعات المائيّة مهما كان نوعها (بحيرات أو أنهار) وتتمثل هذه الآثار في

ترسّبات جيولوجية يمكن بسهولة استكشافها ودراستها. وتمتزج بهذه الترسّبات، في عدد الأماكن، أدوات إنسان ما قبل التاريخ وبهذا يصبح من اليسير تأريخ هذه الأدوات وإقامة سلم زمني لها.

الخاتمة:

عرفت المنطقة المغاربيّة جميع مراحل عصور ما قبل التاريخ انطلاقا من الأدوات البدائية لحضارة الحصاة المهيّأة إلى الأدوات الدّقيقة والمتطوّرة لحضارات العصر الحجري الحديث.

وتمثل هذه الرّقعة من الأرض موطنا من مواطن مسيرة تطوّر الجنس البشري، وهي تحتوي على عدد من المواقع المختلفة والمتنوّعة والثريّة بالمعلومات. ونختم فنلاحظ أنّ هذه المنطقة بدأت منذ آواخر العصر الحجري القديم الأوسط تعطي أشكالاً متميّزة من الحضارة لا نعثر عليها في جهات أخرى من العالم.

فالحضارة العاتريّة هي حضارة مغاربيّة بحتة وكذلك الحضارتان الوهرانيّة والقبصيّة.

د. عبدالرزاق قراقب

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

- طه باقر 1969

عصور ما قبل التاريخ في ليبيا وعلاقتها بأصول الحضارات القديمة (ليبيا في التاريخ، ص1- 40، بيروت)

- طه باقر 1973

مقدّمة في تاريخ الحضارات القديمة (بغداد)

- سلطان محيسن 1989

عصور ما قبل التّاريخ (دمشق)

ثانيًا: المراجع الأجنبية

- Balout L. 1955

Préhistoire de l Afrique du nord-Paris

- Biberson P. 1965

Essai sur l évolution du Paléolithique inférieur de l Adrar de Mauritanie-Quaternaria VII,Rome,pp.59-78.

- Breuil H.et Lantier R 1959

Les hommes de la pierres ancienne - Paris

- Camps G. 1974

Les civilisations préhistoriques de l Afrique du nord et du Sahara Paris

- Camps G. 1979

Manuel de recherche préhistorique - Paris

- Camps G. 1982

La préhistoire à la recherche du paradis perdu-

- De Sonneville Bordes D. 1961

L Age de la pierre- Que sais-je? Paris

- Gragueb A. et M timet A. 1989

Le préhistoire en Tunisie et au Magreb-Tunis

- Hours F. 1961

Les civilisations du Paléolithique-que sais-je ? Paris

- Hugot H.J. 1971

Afrique préhistorique, Paris

- Hugot H.J 1974

Le Sahara avant le désert. Paris, C.N.R.S

- Laming Emperaire A 1962

Signification de l art rupestre paléolithique Paris

- Le roi Gourhan A 1964

Les religions de la préhistoire, Paris.

- Le roi Gourhan A 1965

Préhistoire de l art occidental, Paris.

- **Lhote H. 1970**

Les gravures rupestres du Sud Oranais , Paris.

- **Lhote H 1976**

Les gravures rupestres de l Oued Djerat-Alger.

- **Marliac.M.et A 1979**

La préhistoire- Paris

- **Mori F. 1962**

Tadrart Acacus arte rupestre et culture de l Sahara preistorico-Torino

- **Sklenar K. 1986**

La vie dans la préhistoire- Prague

-**Theobald N. 1972**

Les fondements géologiques de la préhistoire-Paris

- **Vernet R.et al 1979**

Introduction à la Mauritanie Paris.

عصور ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية

تُعد الجزيرة العربية من أهم المناطق التي تحتوي على كمية كبيرة من المواقع الأثرية المبكرة، والتي تعود لفترات حضارية مختلفة، وخاصة في عصور ما قبل التاريخ. وتعد المساحة الجغرافية الشاسعة لمنطقة الجزيرة العربية، والتنوع البيئي والطبوغرافي بمثابة عناصر طبيعية يمكن أن تلائم متطلبات العيش المختلفة للجماعات البشرية في فترات حضارية متتابعة، تساعد على نمو الوجود البشري فيها.

إن من أهم المعطيات الحضارية التي توافرت للجزيرة العربية تتمثل في قربها الجغرافي من القارة الإفريقية، والتي تُعد مهد الحضارة الإنسانية ومنطلق الهجرات البشرية المبكرة إلى بقية أنحاء العالم القديم، ومنها انتقلت التقنيات الصناعية التي أصبحت معروفة لدى الحضارات البشرية المنتشرة خارج القارة الأفريقية.

لقد قام الكثير من الرحالة الغربيين بالسفر إلى أنحاء متعددة من الجزيرة العربية خلال العقود القليلة الماضية، وذلك لأسباب سياسية أو اقتصادية أو علمية أو ثقافية أو سياحية. والتي دونوا خلالها مشاهداتهم في المنطقة، ولكن القليل جداً منهم من قام بالإشارة إلى دلائل آثارية ترتبط بالاستيطان المبكر في الجزيرة العربية ومن هؤلاء، بيرترام توماس (Bertram Thomas) الذي سجل وجود سهم حجري في صحراء سنام سنة 1931م. وتلاه عبد الله فيلبي (St. J. H. Philby) الذي سجل وجود أدوات حجرية على أطراف الربع الخالي في سنة 1933م.

لقد أدت عدة عوامل إلى التأخر في معرفة طبيعة الإرث الحضاري الذي تمتلكه الجزيرة العربية، والذي يتوقع أن يكون غنياً بالكثير من المواقع ذات القيمة الأثرية. وعلى الرغم من قلة معرفتنا حتى الوقت الحاضر بما يوجد في الجزيرة العربية من مواقع أثرية وتاريخية مهمة فقد يكون ذلك أحد العوامل التي ساهمت في حفظ هذه المواقع من العبث والتدمير البشري، ومن أبرز تلك العوامل.

1 - انحصار الجزيرة العربية بين المراكز الحضارية الكبرى المعروفة بالعالم العربي والتي من أهمها بلاد الرافدين وبلاد الشام ووادي النيل والتي تميزت بوجود مظاهر معمارية بارزة وفنون وكتابات مبكرة جذابة ساهمت في جذب أنظار المهتمين نحوها .

2 - صعوبة الظروف المناخية في الماضي القريب وصعوبة اجتياز المناطق الصحراوية إلى وسط الجزيرة العربية وجنوبها مما ساهم بالحد من عدد الأجانب الذين تمكنوا من اختراق الأجزاء الداخلية من الجزيرة العربية.

3 - صعوبة التعرف إلى نوعية البقايا الأثرية التي تعود لفترات ما قبل التاريخ من قبل أبناء المنطقة وكذلك انقطاع التواصل الحضاري بين فترة ما قبل التاريخ والفترات التي تعقبها وكذلك عدم وجود سجلات مكتوبة تتحدث عن هذه الفترة.

4 - تركيز الاهتمام على المنشآت المعمارية الضخمة والنقوش والرسوم الصخرية الموجودة في مناطق متعددة من الجزيرة العربية.

ومن ناحية أخرى، فقد ساهم ظهور النفط في الجزيرة العربية قبل حوالي سبعة عقود مضت في وفود أعداد كبيرة من الخبراء الأجانب في شؤون النفط واستخراج الزيت. ومع وجود كميات غزيرة من النفط في أراضي المملكة العربية السعودية، خاصة، فقد تم التوجيه للقيام بمسوحات جيولوجية واختبارات مكثفة في أنحائها، مما تطلب قيام بعثات ميدانية من هؤلاء المختصين لزيارة آلاف المواقع النائية لأغراض الكشف عن البترول. ونظراً للمستوى التعليمي الجيد لدى بعض خبراء الزيت، وخاصة معرفتهم للدلائل الأثرية التي تعود لفترات العصور الحجرية، والمتمثلة في صناعة الأدوات الحجرية واستخدامها؛ فقد قام البعض منهم بجمع العينات وتسجيل الملاحظات وكتابة المقالات والدراسات حول هذه البقايا الأثرية ونشرها في المجلات العلمية.

ومن أبرز الباحثين الذين ساهموا مساهمات فاعلة في تسجيل الكثير من مواقع ما قبل التأريخ في الجزيرة العربية وتوثيقها ونشر دراسات عنها الباحث هنري فيلد، وهو قد ساهم في إجراء الكثير من الدراسات الآثارية والأنثربولوجية وغيرها، وكان أول من أعد خريطة تبين التوزيع الجغرافي لمواقع ما قبل التأريخ في الجزيرة العربية. كما ساهم عدد آخر من الباحثين في القيام بعدد من الدراسات المتعلقة بهذه المواقع، ومنهم الباحث هارولد مكلور، والذي اهتم بدراسة التغيرات البيئية والمناخية التي مرت بها الجزيرة العربية في عصور ما قبل التأريخ وأثرها على حركة المجتمعات البشرية إضافة إلى مساهمات قبل عدد آخر من الباحثين مثل وليام أوفرستريت وأوغستوس سورديناس وغيرهم.

كما ساهم قيام هيئات ووكالات الآثار في دول الجزيرة العربية على مدى العقود القليلة الماضية إلى جعل العمل الأثري عملاً منظماً، ويقوم على أسس علمية. وقد قامت بعض الدول بالاستعانة بمختصين في مجالات الدراسات الأثرية، أو تكليف بعثات علمية للقيام بدراسات أولية أومفصلة. وقد ساهم ذلك كله في فهمنا لفترات العصور الحجرية التي مرت بها الجزيرة العربية، وكذلك فهم متطلبات المرحلة القادمة من العمل الأثري.

مناخ الجزيرة العربية القديم :

تشير الدراسات المناخية والبيئية إلى حدوث تغيرات كبيرة ومتباينة في الظروف المناخية للجزيرة العربية على مدى فترات زمنية مختلفة، والتي يؤكدها وجود عدد من الدلائل الآثارية والجغرافية.

1 - الدلائل الآثارية : هناك نوعان من الدلائل الآثارية التي يمكن من خلال دراستها التعرف إلى حدوث تغيرات مناخية وهي :

أ- الفنون الصخرية التي قامت الجماعات البشرية برسمها أو حفرها على الواجهات الصخرية في الجبال والتي تبين بعض أنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة سابقاً في الجزيرة، والتي ربما لم يعد بعضها موجوداً في الوقت الحاضر .

ب- البقايا العظمية لبعض الحيوانات التي كانت موجودة في الجزيرة العربية والتي انقرضت بفعل عوامل طبيعية أو بشرية مثل فرس النهر

والطيور والتماسيح والفيلة والأسماك، أو البقايا النباتية لأنواع لم تعد موجودة وكانت محتفظة بخصائصها البرية.

2- الدلائل الجغرافية : وتشمل التغيرات الطبيعية التي ليس لها ارتباط مباشر بالمجتمعات البشرية وهي :

أ- ترسبات الكثبان الرملية التي تكونت بفعل عوامل التعرية المختلفة والنحت نتيجة للمناخ الجاف الذي ساد المنطقة في فترات مختلفة .

ب- آثار التعرية المائية في الأودية والأنهار القديمة نتيجة هطول كميات كبيرة من الأمطار في فترات زمنية سابقة مما أدى إلى جرف الأتربة والرمال وشق قنوات مائية عميقة وواسعة .

التغيرات المناخية في العصور الجيولوجية :

تشير الدراسات الآثارية إلى أن أقدم البقايا الأثرية المعروفة للإنسان ترجع إلى حوالي 5ر2 مليون سنة. ومنذ ذلك الحين، حدثت تغيرات مناخية عدة كما أننا نجد أن الفترة الجيولوجية المعروفة باسم العصر الثلاثي (البلايوسين) ترجع للفترة من حوالي 12 مليون سنة إلى 3 ملايين سنة مضت. وعلى الرغم من عدم وجود دلائل مؤكدة على وجود الإنسان في ذلك الوقت سواءً في الجزيرة العربية أو خارجها، فإن التغيرات المناخية التي حدثت قد تركت آثارها على البنية التضاريسية للمنطقة .. ولعل فترة العصر الثلاثي، كما هو معروف من جغرافية المنطقة، قد مرت بظروف وتغيرات مناخية كثيرة، أبرزها ازدياد نسبة الرطوبة وزيادة معدل هطول الأمطار إلى درجة كبيرة، وانخفاض نسبة تبخر الماء في الجو .. الأمر الذي أدى إلى جريان الأودية والأنهار طيلة أيام السنة. ومن أبرز الدلائل التي تدل على حدوث تلك التغيرات المناخية ما يلي :

1- التعرية الكيميائية الشديدة التي نتجت عن تفاعل مياه الأمطار مع مركبات كيميائية موجودة في الصخور مما أدى إلى ترك أثر واضح على أسطح هذه الصخور .

2- الفيضانات النهرية الشديدة التي يبدو أثرها واضحاً في سعة بعض الوديان الكبيرة وعمق مجرى الماء فيها مما يدل على تدفق كميات كبيرة من مياه الأمطار في الماضي

3- عمليات الترسيب الطينية التي نتجت عن دفع مياه الأمطار لكميات كبيرة من الرمال والرواسب الطينية ونقلها لمسافات كبيرة .

وأما في فترة العصر الرباعي التي تشتمل على فترتين رئيسيتين هما: البلايسوتين (Plistocen) والهولوسين (Holocene). حيث تمتد الفترة الأولى من 3 ملايين سنة إلى عشر آلاف سنة ماضية، بينما تمتد فترة الهولوسين من 10000 سنة مضت حتى الوقت الحاضر. وعلى العموم فقد مرت فترة العصر الرباعي في الجزيرة العربية بمناخ دافئ جاف، تتخلله فترات مطيرة قصيرة. ومن أبرز الدلائل على تلك التغيرات المناخية في العصر الرباعي أن غالبية آثار العصر الثلاثي، والتي كانت عبارة عن أودية كبيرة وترسبات طينية، قد غُطيت بالرمال في فترة العصر الرباعي. وقد دل وجود آثار لرواسب طينية محدودة الانتشار على وجود مناخ مطير بشكل محدود في العصر الرباعي. ومن هنا فإننا نجد حدوث تعاقب مناخي رطب وجاف خلال العصرين الثلاثي والرباعي.

دلائل التغيرات المناخية :

لقد تم خلال العقود القليلة الماضية عدد من الدراسات العلمية التي تهدف إلى التعرف إلى المناخ القديم للجزيرة العربية ومن أبرز هذه الدراسات ما يلي :

1- دراسة فان كامبو (Van Campo) حيث قام هذا الباحث بأخذ عينة من تربة قاع البحر العربي من أجل دراسة حبوب اللقاح التي ترسبت بهذه العينة والتي وصلت إلى قاع البحر بفعل الرياح وتصريف مياه الأمطار إلى البحر. وتغطي هذه العينة فترة زمنية منذ 128000 إلى 10٫000 سنة مضت وقد دلت نتائج الدراسة على حدوث انعكاس في اتجاه الريح المنخفضة وارتباط الجفاف الساحلي لجنوب الجزيرة العربية بتغير مستوى مياه بحر العرب. ويدل مستوى انخفاض المياه على ارتفاع ملوحة الشواطئ وحدوث جفاف نسبي للمناطق الداخلية (غير الساحلية) بينما دل ارتفاع مستوى مياه البحر على حدوث انتعاش النباتات وكثرتها في المنطقة.

2- دراسة شركة سوغريه الفرنسية (Sogreah) التي قامت بعدد من الدراسات الميدانية التي تهدف إلى معرفة كميات المياه الموجودة في طبقات الأرض الجوفية. حيث تم تأريخ هذه الطبقات باستخدام طريقة الكربون 14، والتي يمكن من خلالها معرفة الفترة الزمنية التي تجمعت فيها المياه، من خلال أخذ عينات من مستويات متفاوتة. وقد أشارت نتائج هذه الدراسة إلى وجود فترات رطبة تمثلت في هطول مياه الأمطار في الفترة من 3500 إلى 6000 سنة مضت، وتخللتها فترات جفاف عدة .

3- دراسة ستريت-بيرو (Street-Perrott)، وقد كان الهدف من إجراء هذه الدراسة العلمية اختبار الفرضية القائلة : بأن الفترة التي تلي نهاية العصر الجليدي قد تميزت بارتفاع درجة الحرارة بدءاً من 18٫000 سنة مضت وبلغت أقصاها في الفترة ما بين 14-12 ألف سنة مضت. ولهذا الغرض قام الباحث بتحليل عدد كبير من التواريخ المعروفة بعدد من مستويات البحيرات في آسيا وأفريقيا وأوربا. وقد أشارت نتائج الدراسة إلى حدوث تغيرات كبيرة في مستوى مياه البحيرات في الفترة من 18٫000 إلى وقتنا الحاضر.

كما حدث انخفاض في مستوى مياه البحيرات في الفترة من 7.000-10.000 سنة مضت. وتدل المعلومات المستقاة من دراسة مياه البحيرات في أفريقيا والجزيرة العربية إلى قلة حركة الكثبان الرملية في الفترة من 5.000-10.000 سنة مضت.

الاستيطان البشري في الجزيرة العربية :

تعتبر منطقة شرق أفريقيا المهد الأول للحضارات البشرية في العالم والتي منها هاجرت مجموعات بشرية عدة على مر العصور لاستكشاف أو استيطان مناطق جديدة في أماكن مختلفة من القارة الإفريقية حتى وصل الأمر بهذه الجماعات البشرية بتجاوز الحدود الجغرافية لقارة أفريقيا والانتقال لأنحاء متعددة في قارة آسيا.

تدل البقايا الآثارية الكثيرة التي وجدت بالجزيرة العربية أو المناطق القريبة منها على قدم الاستيطان البشري

في المنطقة، وهناك مساران مقترحان لوصول الجماعات البشرية إلى الجزيرة العربية، وهما ما يلي:

المسار الأول : وهي أن تكون الجماعات البشرية قد انتقلت من شرق القارة الإفريقية إلى الشمال، ثم عبرت شبه جزيرة سيناء باتجاه الجزيرة العربية ومنها إلى أجزاء أخرى من قارة آسيا .

المسار الثاني : وذلك عبر مضيق باب المندب الواقع في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية، والذي يتوقع أن انخفاض منسوب مستوى المياه واستخدام طرق بدائية قد ساعدت الجماعات البشرية على الوصول للجانب الآخر من اليابسة.

وعلى الرغم من عدم وجود دلالات أكيدة يمكن من خلالها معرفة المسار الذي اتخذته الجماعات البشرية في طريقها خارج القارة الإفريقية خلال الفترات الزمنية المختلفة، فإن المصدر الوحيد الذي يمكن الاستعانة به في هذا الشأن يتمثل في نمط انتشار المواقع الأثرية المبكرة الموجودة في أنحاء الجزيرة العربية. ومن المواقع المبكرة، موقع الشويحطيه والذي يقدر عمره بحوالي 1،3 مليون سنة مضت. وكذلك موقع وادي نجران الذي لم يمكن تحديد عمره التقريبي نظراً لقلة الأدوات الحجرية فيه ولكن تقنيته الحجرية تشابه إلى حد ما تلك المستخدمة في موقع الشويحطيه. إضافة لذلك، موقع وادي تثليث، والذي تنتمي أدواته لفترة سابقة لظهور الصناعة الآشولية.

وبالرغم من وجود مجموعتين من المواقع الأثرية المبكرة، إحداهما شمال الجزيرة العربية والأخرى جنوبها، فإن النظر إلى التقديرات التقريبية لعمر هذه المواقع يدعم الرأي القائل بأسبقية هجرة الجماعات البشرية عبر شبه جزيرة سيناء خاصة وأن المسافة التي ينبغي قطعها من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي من البحر الأحمر يبلغ عشرات الكيلومترات، مما يصعب عبوره سباحة أو استخدام جذوع الأشجار في الغالب من قبل الجماعات البشرية المبكرة.

العصر الحجري القديم الأسفل :

يُمثل هذا العصر أولى تقسيمات العصور الحجرية، ويشتمل على حضارتين رئيستين تميزتا بظهور الصناعات الحجرية المبكرة واستفادة الجماعات البشرية من الخامات الطبيعية التي توفرها البيئة في أمور الحياة اليومية. لقد كان هذا العصر بمثابة المكون الأول للنتاج والفكر البشري، والذي تبعه تطور في ممارسات الجماعات البشرية وخبرتها على مدى ما يزيد على مليوني سنة مضت. ومما يمكن ملاحظته أن الإنسان كان يعتمد على الموارد الطبيعية المتوافرة له، ويتكيف من خلالها على أمور حياته اليومية.

ولما كان لمادة الحجر خصائص طبيعية كالصلابة وسهولة التصنيع وفاعليتها كمواد يقوم عليها الاقتصاد المعيشي لتلك الجماعات، فقد ساهمت دراسة الأدوات الحجرية في فهم أفضل لطبيعة تلك المجتمعات ونمط حياتها. إن الكثافة العددية لمواقع العصر الحجري القديم الأسفل تدل على وجود ظروف مناخية جيدة ساعدت تلك الجماعات على التأقلم في بيئتها الجديدة، وساهمت في زيادتها العددية بمرور الزمن ويشتمل هذا العصر على حضارتين هما:

1- الحضارة الألدوانية :

تعد هذه الحضارة من أقدم الحضارات الموجودة في العالم ، ولعل الموقع الجغرافي للجزيرة العربية وقربها من

منطقة شرق أفريقيا قد ساهم في العثور على بقايا أثرية مبكرة، والتي تم اكتشافها خلال مسوحات ميدانية تمت على أيدي باحثين وهيئات الآثار والمتاحف ووكالاتها، وكذلك بعض البعثات الأجنبية التي عملت خلال مراحل مختلفة في دول الجزيرة العربية.

تتميز الحضارة الألدوانية باستخدام أدوات النوى (Core Tools)، وغالباً ما يتم تكسير أطراف قطعة الحجر من خلال الطرق المباشر بواسطة قطعة أخرى من الحجر، بغرض الحصول على حافة حادة يمكن استخدامها في أعمال القطع والتكسير. ومن أبرز الأدوات الحجرية التي استخدمتها الجماعات الألدوانية الأداة المعروفة باسم القاطع الحجري (Chopper)، إضافة لاستخدام أدوات أخرى صنعت بنفس الأسلوب وتختلف من حيث شكلها الخارجي وأسلوب استخدامها، مثل السواطير والمدقات والحفارات وثنائية الوجه البدائية، والمستديرات وشبه المستديرات، إضافة لوجود النوى والمطارق الحجرية.

ولبساطة المجتمعات البشرية في ذلك العصر، فقد كانت أدواتهم الحجرية كبيرة الحجم وغير متناسقة الشكل، ولم يتم إزالة القشرة الخارجية للأداة الحجرية إلا عند الحاجة للحصول على طرف مدبب أو حافة قاطعة.

كما استخدمت الجماعات الألدوانية المواد العضوية المختلفة في أمور حياتهم اليومية، ومن ذلك صناعة الأدوات من العظم والخشب والقواقع، واستخدام جلود الحيوانات للوقاية من البرد وبناء الملاجئ المؤقتة. إلا أن طول المدة الزمنية التي انقضت على استخدام الجماعات البشرية لهذه المواد في أمور حياتهم اليومية قد مكنت عوامل التعرية والتحلل من إخفاء أي أثر لهذه المواد العضوية.

وقد تفرع عن الحضارة الألدوانية صناعتان حجريتان يطلق عليهما الألدوان المطور (أ) والألدوان المطور (ب)، لا يختلفان كثيراً عن الصناعة الألدوانية إلا في قلة نسبة القواطع الحجرية وزيادة نسبة المستديرات وشبه المستديرات والمكاشط وبداية ظهور الأدوات ثنائية الوجه. هذا وتعد منطقة شرق أفريقيا المهد الأول لظهور المواقع المبكرة، والتي انتشرت جغرافياً في أثيوبيا وتنزانيا وكينيا. ويُعد موقع أولدفاي (Olduvai) واحدًا من أهم مواقع تلك الفترة، لما احتواه من تسلسل طبقي يزيد على المليون سنة، ويُعد الموقع الأساس الذي تتم مقارنة صناعته بالصناعات الحجرية المكتشفة حديثاً، وتحديد الفترة الزمنية التي تعود لها تلك المواقع.

إن من أبرز المواقع المبكرة في الجزيرة العربية موقع الشويحطيه (201-49) الواقع في منطقة الجوف شمال المملكة العربية السعودية. وقد احتوى الموقع على ست عشرة مجموعة أدوات حجرية، تبعد مئات الأمتار عن بعضها البعض. ويدل وجود هذه المجموعات الحجرية على وجود استيطان بشري مبكر لهذه المنطقة، حسبما دلت عليه نشاطات صناعة الأدوات الحجرية. كما دلت الدراسة الجغرافية للموقع على قربه من وادي صغير يمر به، والذي ربما كان يمثل مصدراً غذائياً للجماعات البشرية التي أقامت حوله في ذلك الوقت. وقد أظهرت المجسات التي أجريت في الموقع عدم وجود بقايا أثرية تحت مستوى سطح الأرض، بالرغم من وجود أدوات حجرية ترجع لفترات حضارية لاحقة كالآشولية والموسترية في الموقع نفسه.

ومن أبرز أنواع الأحجار الخام المستخدمة في الحضارة الألدوانية أحجار الكوارتزايت والشيرت، والتي

تظهر عليها عادةً أثر العوامل الطبيعية وأسلوب الصناعة الألدوانية المعروف. ومما يميز أدوات الحضارة الألدوانية ما يلي :

1- كثافة طبقة العتق، وهي طبقة طبيعية تتكون بفعل تعرض الأدوات الحجرية للعوامل الطبيعية المختلفة وتتميز بلونها الداكن الذي يزداد كثافة كلما طالت فترة تعرض الأداة الحجرية للعوامل الطبيعية المختلفة.

2- تأثير العوامل الطبيعية المختلفة على الشكل العام للأداة، وخاصة الأثر الذي تتركه الرياح، نتيجة احتكاك حبيبات الرمل الصغيرة بسطح وأطراف الأداة الحجرية مما يؤدي إلى تغير في الشكل الأصلي للأداة واختفاء بعض معالمها.

3- قدم وبدائية تقنية التصنيع المستخدمة في صناعة الأدوات الحجرية، والتي تؤكد قدم استيطان موقع الشويحطية وكذلك استخدام المطرقة الحجرية المباشرة في عملية التصنيع.

ومن أبرز أنواع الأدوات الحجرية المصنعة في فترة الحضارة الألدوانية القواطع والسواطير والمستديرات وشبه المستديرات والأدوات متعددة الأوجه والأدوات ثنائية الأوجه البدائية والمكاشط والمثاقب والسكاكين والنوى الحجرية والمطارق.

وقد أثبتت الدراسة التي قام بها الباحث نورمان ويلن، وقارن فيها بين موقع الشويحطية وموقع أولدفاي بشرق أفريقيا وجود شبه كبير في نوعية الأدوات المستخدمة في كلا الموقعين خلال فترة الحضارة الألدوانية. كما أظهرت هذه الدراسة كبر حجم الأدوات الحجرية في موقع الشويحطية مع وجود تشابه كبير في أشكال وأعداد الأدوات الحجرية.

وقد أشار الباحث إلى وجود ثلاثة احتمالات لعمر الأدوات الألدوانية بموقع الشويحطية اعتماداً على الدراسة الإحصائية لأنواع الأدوات الحجرية ونسبها وقياساتها وهي ما يلي :

1- حدوث الاستيطان البشري خلال فترة الحضارة الألدوانية ثم الألدوانية المطورة (أ) والألدوانية المطورة (ب)، وبعد ذلك أعقبتها الحضارة الآشولية.

2- حدوث الاستيطان البشري في الفترة الألدوانية المطورة (أ) ثم الفترة الألدوانية المطورة (ب)، ثم الفترة الآشولية .

3- تم استيطان موقع الشويحطية في الفترة الانتقالية بين الحضارة الألدوانية المطورة (أ) والحضارة الألدوانية المطورة (ب).

ومن منظور الهجرة البشرية من منطقة شرق أفريقيا إلى الجزيرة العربية . فقد رجح الباحث أن الاحتمال الثاني هو الأكثر قبولاً.

وفيما يتعلق بالنواحي المعيشية للجماعات البشرية التي استوطنت موقع الشويحطية فإن الدلائل الأثرية الموجودة بالموقع لا تساعد كثيراً في التعرف إلى طبيعة الموارد المعيشية المتوافرة في المنطقة بشكل محدد. ويبدو أنه لا يوجد اختلاف كبير عن نمط معيشة الجماعات البشرية الأخرى التي تعود لنفس الفترة الزمنية، والتي اعتمدت في استهلاكها الغذائي على نشاطات الصيد وجمع الثمار والحبوب والنباتات البرية، والتنقل المتواصل بهدف البحث عن مصادر عيش جديدة.

ومن المهم جداً الإشارة إلى أن الجماعات البشرية في تلك الفترة لم تكن تقيم في مكان واحد لفترات طويلة، وذلك ينطبق على موقع الشويحطية أيضاً. حيث كان الهدف الرئيسي من الإقامة في الموقع يعود للاستفادة من المواد الخام المتوافرة في المنطقة، مما يؤكد وجود دلائل تصنيعية في الموقع بدلاً من دلائل على الإقامة والمعيشة في هذا الموقع.

وأما فيما يتعلق بالموقع المبكر الذي عثر عليه في وادي نجران، فلم يتبين من أدواته سوى 34 أداة، لذا فمن الصعب الجزم بفترته الحضارية بالرغم من قدم التقنية الصناعية المستخدمة في صناعة هذه الأدوات؛ وكذلك الحال بالنسبة لموقع وادي تثليث.

وبالنسبة لجنوب الجزيرة العربية الذي يشمل دولة اليمن، فقد تم العثور على ثلاثة مواقع أُرخت للفترة السابقة للحضارة الآشولية من قبل البعثة اليمنية السوفيتية في إقليم حضرموت. وتمثلت أهمية هذه المواقع في كونها مواقع كهفية تحوي طبقات أثرية، وهي كهف القوزة والأميرة وشرحبيل. وتمثلت صناعتها الحجرية باستخدام الأحجار البيضاوية في صناعة الأدوات، والتي اشتملت على القواطع متعددة الأوجه والمكاشط الجانبية والمناقيش والشظايا. وقد تم تأريخ كهف القوزة إلى ما بين 700,000 إلى مليون سنة مضت. كما أظهرت المسوحات الميدانية التي تمت بالقرب من باب المندب وجود الكثير من المواقع المبكرة، ولكنها لم تتضمن أي مواقع ألدوانية تذكر. وبالقرب من خليج عدن، تم العثور على ستة عشر موقعاً نُسبت إلى النمط (1)، والذي يقصد به مجموع الأدوات الحجرية التي تُمثل الحضارة الألدوانية، والتي تميزت بكثافة نسبة أدوات النوى والقواطع والنوى الحجرية، والتي صنع أغلبها من أحجار الكوارتزيت. وقد تميزت هذه المواقع بوجودها على منطقة مرتفعة نسبياً، مع كثافة عالية في تجمع الأدوات الحجرية.

وفيما يتعلق بمنطقة شرق الجزيرة العربية التي تشمل الكويت والبحرين وقطر والإمارات وعُمان والأجزاء الشرقية من المملكة العربية السعودية، فإنه لم تُوجد أي مواقع مبكرة تعود لفترة الحضارة الألدوانية. ويدل غياب مواقع هذا العصر عن منطقة شرق الجزيرة العربية على وجود تأثيرات بيئية ومناخية ساهمت في غياب الوجود البشري من تلك المناطق.

الحضارة الآشولية :

تعتبر الحضارة الآشولية ثاني حضارات العصر الحجري القديم الأسفل المعروفة في العالم والتي تعقب الحضارة الألدوانية مباشرة، وهذا ما يفسر التشابه الكبير في نمط الحياة المعيشية، من حيث الطرق المستخدمة في الحصول على الغذاء وحاجة الجماعات الآشولية إلى التنقل من مكان لآخر طلباً للغذاء وبحثاً عن الموارد الغذائية والأماكن الملائمة للإقامة. ومن المعروف أن الجماعات الألدوانية تمثل السلالة البشرية التي انحدرت منها الجماعات الآشولية، إلا أن تكون هناك هجرات بشرية لاحقة قد وصلت إلى الجزيرة العربية. والسبب المتوقع لحدوث هذه الهجرات البشرية في فترة الحضارة الآشولية يتمثل في حدوث تطور ملحوظ في التقنية المستخدمة وظهور أنواع أدوات حجرية جديدة تختلف عما كان موجوداً في الحضارة الألدوانية. ومن أبرز أنواع الأدوات الحجرية التي ظهرت في هذه الفترة الأدوات المشذبة على الوجهين مما لم يكن معروفاً في فترة الحضارة الألدوانية. وأبرز هذه الأدوات ما يعرف باسم الفأس الحجري والذي يشذب فيه كامل وجهي الأداة والتخلص من القشرة الطبيعية للحجر الأصلي. كما يلاحظ الكثافة العددية لمواقع الحضارة الآشولية في الجزيرة

العربية والتي يمكن تقديرها بالمئات حسب ما أظهرت المسوحات الميدانية. ولعل قصور البحث العلمي يمثل أحد الأسباب الرئيسة لقلة المعلومات المتوافرة لدينا حول هذه الحضارة وكذلك غياب الأدلة الأثرية، بما في ذلك البقايا النباتية والحيوانية من مواقع هذه الفترة. كما أنه من الصعب تحديد نوعية الغذاء المتوافر لدى الجماعات الآشولية ومدى استخدام المواد العضوية كالعظام والأخشاب والجلود والقواقع في أمور الحياة اليومية كنشاطات الصيد وجمع الثمار والنباتات. ولعل كثافة مواقع هذه الفترة يمثل دلالة واضحة على كثرة الجماعات الآشولية في الجزيرة العربية وخاصة المنطقة المعروفة باسم الدرع العربي والتي تمثل النصف الغربي من الجزيرة العربية. ويرجع ذلك، في الغالب، إلى وفرة المواد الطبيعية الخام بشكل كبير على عكس ما هو الحال عليه في منطقة الرف العربي الواقعة في الجزء الشرقي من الجزيرة العربية؛ والتي تكثر فيها نسبة الكثبان الرملية مما قد يعطي تصوراً غير واقعي عن قلة الاستيطان الآشولي في هذه المنطقة. وقد يكون ذلك راجعاً لنوعية المادة الخام المستخدمة، كالأحجار الرملية أو نتيجة لحجب حركة الكثبان الرملية الكثير من مواقع هذه الفترة.

إن أولى الدلائل التي تتحدث عن وجود الحضارة الآشولية في الجزيرة العربية تمثلت في العثور على فؤوس حجرية آشولية في موقع كلوة، شمال المملكة العربية السعودية. تلا ذلك، إشارة المسوحات الميدانية التي قامت بها وكالة الآثار والمتاحف السعودية على مدى العقود الثلاثة الماضية إلى وجود الكثير من مواقع الأدوات الحجرية، والتي أمكن تحديد وجود أدوات آشولية فيها، في الكثير من مناطق المملكة. وقد تفاوتت تلك المواقع من حيث كثافة النشاط البشري فيها، حيث بلغ انتشار الأدوات الحجرية في بعضها إلى عدة كيلومترات مربعة، مثل موقع 201-60، وأخرى تصل لبضع مئات الأمتار المربعة أو أقل .. هذا وقد انتشرت المواقع الآشولية في بيئات ومستويات طبوغرافية مختلفة، فهناك مواقع على سفوح التلال وعلى مصاطب الأودية والمصاطب الساحلية والحرات البركانية. إن التنوع المكاني لمواقع الحضارة الآشولية يعكس تنوعاً واضحاً في تنوع المصادر الطبيعية والمعيشية، كالمواد الخام التي تُصنع منها الأدوات، ونوعية الغذاء الذي يختلف باختلاف البيئة التي تُقيم فيها المجموعة البشرية.

وقد قامت وكالة الآثار والمتاحف السعودية بدراسة عدد من المواقع بصورة مفصلة، والتي من أهمها موقع صفاقة بالدوادمي وكذلك مجموعة مواقع وادي فاطمة، حيث قامت بإجراء بعض المسوحات والمجسات الآثارية فيهما.

يُعد موقع صفاقة واحدًا من أهم المواقع الأثرية التي تعود للحضارة الآشولية، نظراً لأنه يمثل أول موقع أثري من فترات العصور الحجرية يحوي بقايا أثرية لعدة فترات حضارية؛ ويبلغ عمق البقايا الأثرية الموجودة بالموقع حوالي 1,5 متر، إضافة لاحتواء الموقع على آلاف الأدوات الحجرية فوق سطح الأرض. وقد تم تسجيل الكثير من المواقع الآشولية الأخرى خلال أعمال المسح والتوثيق لمنطقة الموقع.

ومن الناحية الجغرافية فإن الاستيطان البشري لهذا الموقع قد تم بناء على ظروف بيئية ملائمة للإقامة حيث يوجد ما يشبه الشلال المائي الذي يشكل مجرى وادٍ صغير، بناء على الدراسات الجيومورفلوجية للموقع. وهذا يدل على توافر الماء والنبات وكذلك كون هذه المنطقة تمثل عامل جذب للحيوانات والطيور البرية الموجودة في المنطقة. لقد وجدت في موقع صفاقة آلاف الأدوات الحجرية، والتي من أبرزها الفؤوس الحجرية، التي تعد بمثابة علامة مميزة

للحضارة الآشولية، والسواطير والمكاشط الطرفية والجانبية والمحكات والمثاقب والنوى والمطارق الحجرية. وقد صنعت هذه الأدوات الكبيرة الحجم من أحجار الرايوليت والكوارتزيت والبازلت والشيرت، وذلك لسهولة الحصول عليها في منطقة الموقع. ومما يؤسف له غياب البقايا العضوية من هذا الموقع بشرية كانت أو غير ذلك. وبالرغم من أن الموقع تم تأريخه بواسطة الترسبات الكلسية التي وجدت على أدواته الحجرية بطريقة اليورانيوم ثوريوم، والتي تراوحت ما بين 204 و 61 ألف سنة مضت. إلا أنه يبدو أن هناك عدم توافق بين نسبة الأدوات الحجرية إلى الحضارة الآشولية الوسيطة وتقدير العمر الزمني للأدوات الحجرية في حدود 200 ألف سنة مضت. هذا وقد أشار المنقبون بالموقع إلى قيام عدة نشاطات بالموقع، ومنها صناعة الأدوات الحجرية، وتقطيع وتجهيز الغذاء، تكسير العظام وتقسيمها، تنظيف الجلود، جمع النباتات البرية، حفر الأخشاب والعظام.

وقد تم العثور، أيضاً، على مجموعة مهمة من المواقع الآشولية في منطقة وادي فاطمة، بالقرب من مكة المكرمة، ضمن جهود وكالة الآثار والمتاحف في برنامج المسح الأثري الشامل حيث عثرت فرق المسح الميداني على مجموعة من المواقع التي تتميز بكثافة واضحة في مادتها الحجرية المتناثرة على سطح الأرضي كما تتميز بكبر حجم أدواتها الحجرية وكثافة طبقة العتق التي تغطي أسطح هذه الأدوات والتي اتضح من نوعية الأدوات الموجودة فيها كالفؤوس الحجرية والمطارق والنوى الحجرية والشظايا وغيرها من الأدوات أنها تنتمي للحضارة الآشولية .

وبالرغم من استخدام تقسيمات فرعية للحضارة الآشولية من بعض الباحثين، والتي تشتمل على مسميات مثل الحضارة الآشولية المبكرة والوسيطة والمتأخرة، إلا أن هذا التقسيم لا يرتكز على أسس علمية دقيقة، وخاصة في حالة الجزيرة العربية، وذلك لغياب دراسات لتقنية وأنواع الأدوات الحجرية التي تعود لمراحل زمنية مختلفة من فترة وجود الحضارة الآشولية. حيث كان يعتقد بالماضي أن الفؤوس الحجرية بدائية الشكل تعود للفترة الآشولية المبكرة وأن الفؤوس متقنة الصنع تعود للفترة الآشولية المتأخرة ولكن هذا التقسيم ظهرت فيه إشكالات نتيجة العثور على فؤوس حجرية متقنة الصنع في طبقات مبكرة والعثور على فؤوس حجرية رديئة الصنع في طبقات آشولية متأخرة .

وبالرغم من غياب صورة متكاملة للبقايا الآشولية في المملكة العربية السعودية، من حيث انتشارها الجغرافي وغياب المواقع الطبقية وتأثير العوامل الطبيعية المختلفة على الأدوات الحجرية ومحدودية الفترات الزمنية التي تعود لها المواقع المكتشفة، فإن المؤشرات الحضارية الدالة على البعد الزمني والحضاري للمواقع الأثرية المعروفة حتى الآن لتؤكد قدم الوجود البشري بما لا يقل عن مليون سنة.

كما تؤكد إحدى الدراسات الميدانية الحديثة لساحل البحر الأحمر الشرقي ومنطقة جزر فراسان إلى الدور الكبير الذي أدته التغيرات البيئية خلال المليوني سنة الماضية في زيادة منسوب مياه البحر الأحمر وانخفاضها ، وما ترتب على ذلك من امتداد جغرافي للمواقع الأثرية في مناطق تُعد مغمورة بالماء في الوقت الحاضر إضافة إلى ما كشفت عنه هذه الدراسات الميدانية من وجود بعض المواقع الآشولية فوق مصاطب مرجانية قديمة بالقرب من ساحل البحر الأحمر الحالي. وفي حال كشفت هذه الدراسات البحثية عن مواقع أثرية غارقة تعود للفترات المتعددة من عصور ما قبل التأريخ، فإن معلوماتنا عن فترة ما قبل التأريخ في الجزيرة العربية سيتم إعادة تقييمها بشكل كبير، وخاصة فيما يتعلق بالهجرات البشرية المتعددة القادمة من

أفريقيا إلى الجزيرة العربية، ومنها إلى بقية مناطق العالم القديم.

وفي اليمن، وجد الكثير من المواقع الآشولية على يد عدد من الباحثين والبعثات الأجنبية. وقد عثر على هذه المواقع في مناطق جغرافية مختلفة، والتي تعكس تأقلم الجماعات الآشولية مع بيئات مختلفة في الجزيرة العربية. فبعض المواقع وجدت في المناطق الداخلية، وأخرى تم العثور عليها في منطقة حضرموت، إضافة لمجموعة من المواقع الآشولية التي تم العثور عليها في منطقة مضيق باب المندب.

وقد عثر في هذه المواقع على الكثير من الأدوات الحجرية، وخاصة الفؤوس، والأدوات ثنائية الأوجه والسواطير والتي تتميز بضخامة حجمها وتنوع مادتها الخام. وقد تميزت هذه المواقع، إضافة لكثرتها بكثافة عدد أدواتها الحجرية، والتي تبلغ الآلاف في الكثير من المواقع الآشولية. كما عُثر على الكثير من المواقع الآشولية في المناطق البركانية، بالقرب من خليج عدن، والتي وجد فيها عشرات المواقع الآشولية. وقد اشتملت هذه المواقع على أدوات آشولية مثل الفؤوس الحجرية والسواطير والحفارات، والتي صُنعت من أحجار البازلت والرايوليت بشكل كبير، وبشكل محدود من أنواع أخرى من الأحجار الخام. وفي الركن الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية، فقد عثرت البعثة الدنماركية وبعثة جامعة هارفرد على عدد من المواقع الآشولية في منطقة عبري والجبل الأخضر ووادي حلفين بعُمان. كما أشار بياجي Piagi إلى وجود مجموعة من الأدوات الحجرية في موقع سيوان، وسط شرق عُمان، والتي ربطها بالحضارة الآشولية. ولما هو معروف من غياب واضح للمواقع المبكرة في منطقة شرق وجنوب شرق الجزيرة العربية، فان ربط أية بقايا أثرية بفترات حضارية مبكرة يثير الكثير من علامات الاستفهام لدى المختصين. خاصة، وأن غالبية المواقع المكتشفة عادة ما تكون أدواتها الحجرية متداخلة مع بقايا أثرية من مراحل حضارية مختلفة.

وأما فيما يخص بقية أجزاء شرق الجزيرة العربية، فهناك إجماع لدى المتخصصين على عدم وجود دلائل موكدة لبقايا العصر الحجري القديم، بالرغم من قيام بعض الباحثين بتصنيف مجموعات حجرية من شرق المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وقطر ونسبتها إلى العصر الحجري القديم.

العصر الحجري القديم الأوسط :

تعود هذه الفترة الحضارية إلى حوالي 100 ألف سنة مضت في الجزيرة العربية وتتميز بوجود صناعات حجرية متعددة، والتي من أبرزها الصناعة الموسترية والصناعة الموسترية الليفلوازية والصناعة الموسترية ذات التقليد الآشولي. وترتكز التقنية الصناعية على تجهيز النوى الحجرية للحصول على عدد من الشظايا الحجرية، والتي يتم تشذيبها وتشظيتها على الشكل المطلوب للحصول على أدوات حجرية متعددة الأنواع، وتفوق في جودتها تقنيات صناعية سابقة.

وقد استخدمت في صناعة الأدوات الحجرية النوى المسبقة التجهيز المعروفة باسم النواة الليفلوازية؛ كما استخدمت النوى الحجرية العادية والتي صنعت منها الشظايا الحجرية، وهي أدوات حجرية لا يتجاوز طولها ضعفي العرض. وتتميز الأدوات الحجرية الموسترية بتنوع في أشكالها وأسلوب تشذيبها ومهامها واحتمالات استخداماتها، فهناك المكاشط والمحكات والسكاكين والمثاقب وغيرها. ويدل استخدام هذه الأدوات على تخصيص مواد معينة للقيام بمهام محددة وتختلف نوعية المادة الخام التي تصنع منها الأداة الحجرية باختلاف المنطقة الجغرافية، ومن

أبرز أنواع الأحجار الخام أحجار الكوارتزيت والحجر الرملي والبازلت والصوان والأحجار البركانية وغيرها.

انتشرت مواقع هذا العصر بكافة مناطق الجزيرة العربية مع غياب ملحوظ في كل من الكويت والبحرين وقطر والإمارات وعُمان وشرق المملكة العربية السعودية، والتي لم تظهر فيها مواقع أثرية تعود إلى هذه الفترة. وقد وجدت مواقع هذا العصر على التلال المنخفضة وعلى ضفاف الأودية وبالقرب من السبخات القديمة، وعلى امتداد المناطق الصحراوية وفي المناطق الساحلية وضمن الحرات البركانية.

أما فيما يتعلق بالصناعة الموسترية اللفلوازية فقد وجدت دلالاتها في الكثير من المواقع الأثرية والتي تتمثل في وجود النواه اللفلوازية والأدوات الحجرية المستخرجة منها مثل الشظية اللفلوازية والراس اللفلوازية اللتين يتم تصنيعهما باستخدام المطرقة الصلبة. وأما فيما يتعلق بالصناعة الموسترية ذات التقليد الآشولي، فتتميز بوجود الفأس الآشولية ضمن مجموع الأدوات الحجرية الموسترية مما يشير إلى استمرارية الاستفادة من الفؤوس الحجرية إضافة إلى الأنواع الأخرى من الأدوات الموسترية. وقد دلت المسوحات الأثرية التي تمت في أنحاء متعددة من الجزيرة العربية على وجود شبه كبير بين نمط الاستيطان البشري في الحضارتين الآشولية والموسترية. وأما فيما يتعلق بطبقة العتق في الأدوات الموسترية فيلاحظ بأنها تتفاوت ما بين طبقة كثيفة ومتوسطة، وبالرغم من معرفتنا المحدودة بالظروف المناخية لهذه الفترة الحضارية، فوجود الكثير من مواقعها بالقرب من السبخات الملحية يدل على وجود ظروف مناخية جيدة تدل على وفرة في مياه الأمطار. هذا ولم يتم العثور في أي من المواقع الموسترية المعروفة على بقايا عضوية، نباتية كانت أم حيوانية. كما لم يتم توثيق أي مواقع تحوي طبقات أثرية متعاقبة، عدا ما تم العثور عليه في موقع الدوادمي كما أن غالبية مواقع هذه الفترة هي عبارة عن مواقع تصنيع للأدوات الحجرية تقع غالباً بالقرب من مصادر المادة الخام المستخدمة في التصنيع.

لقد عثرت فرق البحث الأثري على عدد من مواقع هذا العصر بالقرب من مدينة الرياض ووادي حنيفة وجبل طويق وموقع الثمامة، والتي استخدمت فيها أنواع مختلفة من المواد الحجرية الخام. وقد غلب على هذه المواقع استخدام أحجار الصوان والشيرت والكوارتزيت، وكذلك استخدام الأحجار الأخرى المتوافرة محلياً، بما في ذلك الأحجار البركانية. ولعل من أبرز الظواهر التي ارتبطت باستخدام الأحجار الخام، تفضيل استخدام الأحجار الحبيبية (Silicious) مثل الصوان والشيرت، ونقلها من منطقة لأخرى لسهولة صناعتها وتشكيلها.

كما عثر على الكثير من المواقع في المنطقة الغربية والجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية، في منطقة وادي فاطمة ومنطقة عسير ووادي تثليث وسواحل البحر الأحمر ووادي السهباء في المنطقة الشرقية؛ وقد غلب استخدام التقنية اللفلوازية في صناعة الأدوات الحجرية في تلك المناطق.

وقد سجل وجود أدوات حجرية تعود لهذا العصر في منطقة الربع الخالي، والتي تشتمل على مكاشط ورؤوس سهام مصنوعة على الشظايا. ويُعد حوض منطقة جُبة في صحراء النفود بمنطقة حائل واحدًا من أهم المواقع الموستيرية لاحتوائه على حوالي ست وعشرين متراً من الترسبات الطبقية، والتي تعود لفترتي العصر الرباعي والهولوسين. إن غالبية المواقع التي تعود لهذا العصر تمثل مواقع لصناعة الأدوات الحجرية ذات ارتباط بمصادر المادة الخام المستخدمة في صناعة الأدوات. وغالباً ما تحوي هذه

المواقع النوى والمطارق الحجرية والشظايا والأدوات المصنعة من الشظايا، والتي يتم غالباً نقلها لمسافات بعيدة.

وفي جنوب الجزيرة العربية، فقد أظهرت مسوحات ميدانية عدة وجود الكثير من مواقع هذا العصر. حيث عثرت كاتون-طومسون على عدد من المواقع التي تحوي أدوات مصنعة باستخدام التقنية الليفلوازية في منطقة حضرموت والمكلا ووادي مسيلا. كما سجلت البعثة اليمنية السوفيتية وجود مواقع أثرية تحوي العديد من أدوات هذا العصر، والمتمثلة بالمكاشط الرأسية والمخارز والسكاكين ورؤوس السهام والشظايا الحجرية. كما سجل الباحث نورمان ويلن الكثير من مواقع هذا العصر بالقرب من مضيق باب المندب خلال إجرائه مسوحات أثرية بالمنطقة.

وقد أشار بتراجليا والشارخ إلى وجود الكثير من المشكلات التي تعيق فهمنا لهذه الفترة الحضارية، وخاصة التفاوت في مستوى التوثيق لدى الكثير من الباحثين في الجزيرة العربية واعتماد أوصاف تحمل طابع العمومية عند وصف البقايا الأثرية. إضافة لذلك، فقد أغفل دور العوامل الطبيعية التي تؤثر على المواقع الأثرية، مما أدى إلى عدم فهم طبيعة البقايا الأثرية بالموقع.

العصر الحجري القديم المتأخر:

يقع هذا العصر زمنياً بعد العصر الحجري القديم الأوسط، حسبما هو معروف في الكثير من مناطق العالم القديم. لقد عُرف هذا العصر بصفة خاصة في أوربا وبلاد الشام وشمال شرق أفريقيا باسم العصر الحجري القديم الأعلى، حيث يتصف بخصائص ومميزات ترتكز على صناعة الأنصال الحجرية "الأدوات التي يبلغ طولها ضعفي العرض" إضافة إلى كثافة عالية في استخدام المواد العضوية وظهور الأعمال الفنية الثابتة والمتنقلة. وقد ارتبط بهذه الفترة وصول الجماعات البشرية لمناطق لم تكن مأهولة سابقاً، مثل الأمريكيتين وأستراليا.

لقد أدت ندرة الصناعة الحجرية المرتبطة بهذا العصر وكذلك ندرة وجود الأدوات والمواد العضوية في تلك المواقع إضافة إلى غياب العناصر الفنية المرتبطة بهذه الفترة الحضارية من أنحاء متعددة من الجزيرة العربية إلى اعتقاد الكثير من الباحثين بغياب الخصائص الحضارية للعصر الحجري القديم الأعلى المعروفة في مناطق جغرافية أخرى، وبالرغم من وجود عدد من الإشارات التي تشير إلى وجود مواقع تشابه في صناعتها الحجرية ما هو معروف في أوربا وبلاد الشام وشمال شرق أفريقيا، إلا أن نسبتها تُعد ضئيلة مقارنة بغيرها من المواقع وقد رأى عدد من الباحثين أن العصر الحجري القديم الأعلى ربما لم يظهر نتيجة استمرارية العصر الحجري القديم الأوسط لفترة زمنية أطول. ومن المواقع التي تماثل تقنيتها الحجرية هذا العصر، ما وجد في شمال المملكة وشمالها الغربي، في كل من وادي السرحان ومدائن صالح وخيبر وغيرها، والتي استخدمت فيها أحجار الرايولايت لصناعة الأدوات الحجرية، مثل الشظايا والمكاشط والشفرات ورؤوس الحراب والمخارز والنوى الحجرية.

وأما في اليمن، فقد سجلت مواقع تعود لهذا العصر في منطقة حضرموت، والتي وجد فيها تسلسلاً طبقياً احتوى على الكثير من المكاشط الرأسية والسهلم الحجرية والمخارز والسكاكين. وفي منطقة ظفار وكذلك بالقرب من بئر خصفة بوسط عُمان اشتملت بعض المواقع على مجموعات حجرية فيها رؤوس سهام وشفرات ومكاشط حجرية،ولكن فترتها الزمنية تُعد متأخرة.

ونظراً لندرة المواقع الأثرية التي تنتمي لفترة العصر الحجري القديم الأعلى في الجزيرة العربية فقد أطلق على

هذه الفترة الحضارية مسمى العصر الحجري القديم المتأخر لتمييزه عن المواقع المعاصرة له في أوربا، نظراً لعدم وجود ما يثبت الارتباط الحضاري بين تلك المناطق الجغرافية المختلفة.

وبالرغم مما ذكرناه أعلاه، فإن هناك تفسيرات لغياب صناعة الأنصال الحجرية في الجزيرة العربية في هذه الفترة :

1- احتمالية استمرار التقنية الحجرية المستخدمة في العصر الحجري القديم الأوسط لفترة زمنية أطول مما هو معروف في مناطق أخرى وذلك يعني بالضرورة استمرارية استخدام تقنية صناعة الشظايا الحجرية مثلما هو الحال عليه في فترة العصر الحجري القديم الأوسط. وقد يكون سبب استمرارية صناعات العصر الحجري القديم الأوسط أحد أمرين:

أ- عدم وجود الحاجة لاستخدام أدوات أو تقنيات جديدة نظراً لكفاءته التقنية الموجودة " وهي صناعة استخدام الشظايا الحجرية في سد الاحتياجات المختلفة للجماعات البشرية في ذلك الوقت .

ب- أن الفترة الزمنية التي تستغرقها كل حضارة من حضارات العصور الحجرية لا ينبغي بالضرورة أن تكون متماثلة في كافة مناطق العالم القديم نظراً لاختلاف الظروف البيئية والمعيشة للجماعات البشرية في مختلف مناطق العالم القديم .

2- نظراً لقلة المواقع الأثرية التي توجد فيها أو تغلب عليها صناعة الأنصال الحجرية ومحدوديتها، فإنه يحتمل أن تكون فترة ما يعرف باسم العصر الحجري القديم الأعلى موجودة في الجزيرة العربية ولكن ظهرت في فترة متأخرة زمنياً واستمرت لفترة زمنية قصيرة.

ولعل الاحتمال الذي ذكرناه أولاً هو الأقرب إلى الصواب في ضوء المعلومات المتوافرة لدينا في الوقت الحاضر والسبب الأساسي يرجع لعدم معرفتنا بصورة دقيقة لعمر المواقع الأثرية المنسوبة إلى هذا العصر نظراً لأن التقديرات الزمنية تقوم أساساً على نوع التقنية المستخدمة ونوعية الأدوات، إضافة إلى ذلك فإن غياب المواقع الطبقية وكثرة المواقع السطحية في مواقع هذه الفترة تزيد الأمر تعقيداً .

ونظراً لحجم الإشكاليات المتعلقة بتحديد مواقع هذه الفترة والإطار الزمني التي تقع فيه فمن الصعب جداً إعطاء تصور واضح عن النواحي المعيشية والاجتماعية والعقائدية عن هذه الفترة نظراً لغالبية المواقع المعروفة تمثل مواقع تصنيع الأدوات الحجرية فقط .

وبالرغم من ذلك، فإن اعتماد الجماعات البشرية معيشياً غالباً ما يكون قائمًا على صيد الحيوانات البرية والتقاط الحبوب البرية وجمعها كما هو متوقع نتيجة تحركهم الدائم وتنقلهم من مكان إلى آخر .

العصر الحجري الوسيط :

تعد هذه الفترة الحضارية من أكثر الفترات غموضاً في الجزيرة العربية والتي لم تظهر لها دلائل آثارية واضحة خاصة وأنها عرفت في شمال أوربا وغربها التي قامت على التنقل الموسمي من منطقة لأخرى وصناعة ما يعرف بالأدوات القزمية والأدوات المركبة واستخدام المواد العضوية بشكل مُكثف.

هذا ولا توجد دلائل قوية على وجود هذه الحضارة بشكل مؤكد خارج منطقة أوربا مما يوحي أنها قد تكون ظاهرة محلية لا مثيل لها في العالم القديم. ومما يساند هذا

الرأي فيما يخص الجزيرة العربية عدم وجود أدوات حجرية تماثل في صناعتها ما هو معروف في حضارة العصر الحجري الوسيط. كما أكد بعض الباحثين أن الجزيرة العربية خالية من أي سمات حضارية مرتبطة بهذا العصر.

العصر الحجري الحديث :

يمثل هذا العصر آخر العصور الحجرية المعروفة في الجزيرة العربية والذي بالرغم من حداثة فترته الزمنية وكثرة الدراسات والمسوحات الميدانية التي تمت حتى الآن، إلا أن الخصائص الحضارية التي يتميز بها هذا العصر في الجزيرة العربية لم تتضح بعد. ويرتبط بهذا العصر عدد من المقومات الحضارية التي يتميز بها عن الفترات الحضارية الأخرى، ومن أبرزها استقرار الجماعات البشرية وظهور التنظيمات الاجتماعية السياسية، واستئناس الحيوان وزراعة النبات، وصناعة الفخار. وتبعاً لطبيعة عيش المجتمعات البشرية ومستويات التراكم الحضاري فيها، فقد لا تكون كافة هذه الخصائص والمقومات الحضارية موجودة في منطقة واحدة وفي زمن واحد، وقد يغلب وجود بعضها وغياب البعض الآخر.

تعد الصناعة الحجرية التي تنسب في فترة العصر الحجري الحديث أفضل التقنيات الصناعية المعروفة وأكثرها تطوراً حيث تميزت بالدقة في الصناعة وجودة مستوى التشظية لأسطح الأدوات الحجرية. ومن أبرز أنواع الأدوات المستخدمة في هذه الفترة السهام الحجرية المجنحة والشظايا المدببة من الجانبين والحراب الحجرية والأنصال الطولية والنوى والمدقات الحجرية والمطارق الحجرية وكذلك المكاشط والمخارز والحفارات. وتصنع أدوات العصر الحجري الحديث غالباً من أحجار الصوان والشيرت، كما تصنع أعداد محدودة من أحجار الأوبسيديان (الزجاج البركاني) .

تنتشر مواقع العصر الحجري الحديث في أنحاء متعددة من مناطق الجزيرة العربية وتلاحظ كثرتها في مناطق الربع الخالي والدهناء والنفود، إضافة إلى المناطق التي تتوافر بها أحجار الصوان والشيرت. ومما يلاحظ على الأدوات الحجرية المصنعة في هذه الحضارة استخدام تقنية الضغط المباشر لإزالة الشظايا من على سطح الأداة الحجرية وغالباً ما تخلو هذه الأدوات من طبقة العتق. أما فيما يتعلق بالظواهر الحضارية الأخرى التي يتم ربطها بصورة تلقائية بفترة العصر الحجري الحديث فإنه لم تظهر حتى الآن دلائل مؤكدة على تصنيع الفخار أو استئناس الحيوان أو وجود تنظيمات اجتماعية لأفراد المجموعة البشرية وتأسيس قرى بسيطة في طابعها العام ، ولعل ذلك راجع لقلة الدراسات البحثية في هذا الجانب.

وقد كشفت المسوحات الأثرية التي تمت في المملكة العربية السعودية خلال العقود القليلة الماضية على وجود الكثير من المواقع التي تعود لهذه الحقبة الحضارية. فقد عُثر على عدد من المواقع في حائل وجبة وتبوك، اشتملت على مواقع سطحية وتضمنت أدوات حجرية مثل رؤوس السهام والنصال والمكاشط. كما نُشرت تقارير تُفيد وجود مواقع في المنطقتين الغربية والجنوبية للمملكة العربية السعودية، في كل من الطائف وأبها ووادي الدواسر والربع الخالي، ولكنه لم تتم أي دراسات شاملة لها.

وقد قام ايدينز (Edens) بدراسة لعدد من مواقع هذا العصر في منطقة غرب الربع الخالي، حيث وجد عددًا من المواقع في شرورة وجلدة والمتبطحات والمندفن، والتي جُمعت منه كميات من الأدوات الحجرية، إضافة لوجود عدد من المواقد الحجرية. وقد اشتملت الأدوات الحجرية على رؤوس السهام والمدببات الورقية والأدوات الرمحية والمكاشط والشفرات والمثاقب والفؤوس والأدوات

القرصية. وقد صنعت هذه الأدوات الحجرية من أنواع مختلفة من المواد الخام، حيث استخدم الصوان والكوارتز والزجاج البركاني وغيرها. ويشير وجود أحجار الرحى في بعض المناطق إلى طبيعة النشاطات المتعلقة بالاقتصاد المعيشي التي تقوم بها الجماعات البشرية.

ويُعد موقع الثمامة، الواقع شمال شرق مدينة الرياض، واحدًا من أكثر المواقع الأثرية انتساباً لهذه الفترة الحضارية. وقد عثر المنقبون فيه على الكثير من المنشآت الحجرية والأدوات ثنائية الوجه المشظاة بأسلوب الضغط، ورؤوس السهام والحراب الطويلة والمكاشط والسهام المجنحة. إلا أن النتائج التي توصل إليها الباحثون لم يتم تدعيمها بما يكفي من الأدلة العلمية التي تعزز الرأي الذي تم التوصل إليه. حيث غابت أي أدلة تبين عمر البقايا الأثرية، ومدى علاقتها بالمنشآت الحجرية، وكذلك لم توجد أدلة على استئناس الحيوان أو الزراعة؛ لذا فإن التقرير المذكور لا يمكن الاعتماد عليه بصورة قطعية من حيث تحديد العمر الزمني للموقع أو فترته الحضارية. وقد أظهرت دراسة حديثة للموقع وجود أنماط مختلفة من البقايا الأثرية، ومنها الأنماط المتعددة من المنشآت الحجرية ومواقع الأدوات الحجرية الواقعة على ضفاف بحيرات موسمية صغيرة، وتنتشر على جوانبها عشرات المواقد الحجرية. وقد أمكن تأريخ عينات من البقايا الفحمية التي يحتويها أحد هذه المواقع من تأريخه إلى 4280 ± 60 قبل الحاضر.

وفي اليمن، تم تسجيل عدد من المواقع في منطقة المهرة، والتي وجدت في الكهوف والمناطق السهلية، وفي المناطق الساحلية وأودية منطقة حضرموت. وقد تم تأريخ هذه المواقع للفترة بين منتصف الألف السابع ومنتصف الألف الثاني قبل الميلاد ويحوي موقع خبروت تسلسلاً طبقياً يتعدى أربعة أمتار، وأرخت طبقة تسبق طبقة العصر الحجري الحديث للألف السادس قبل الميلاد، واحتوت الطبقة على المكاشط الطفية والجانبية والمخارز والسكاكين وأشكال مختلفة من رؤوس السهام. وقد تباينت الأحوال المعيشية لمجتمعات العصر الحجري الحديث، بحسب الأحوال البيئية التي يعيشون فيها.

وفي عُمان، عُثر على طبقات أثرية في موقع رأس الحمرا، قرب العاصمة مسقط، والذي حوى الكثير من أنواع الأدوات الحجرية كالأحجار المصقولة والأدوات العظمية، مثل السنارات والخطاطيف والحراب والفخار وبقايا عظمية لأسماك وحيوانات بحرية، وبقايا بذور نباتية، وكذلك بقايا حيوانات مستأنسة من الطبقات العليا للموقع. وقد تم تأريخ الطبقات السفلى من هذه المستوطنة إلى منتصف الألف السادس قبل الميلاد.

كما كُشفت مستوطنة أخرى مهمة في موقع رأس الجنيز في جنوب شرق عُمان، والتي عرفت باسم رأس الجنيز 37. واشتملت بقاياها الأثرية على رؤوس سهام عُرفت باسم الرؤوس الفسدية، نسبة إلى موقع فسد، وكذلك عُثر على ثقالات للشباك، وصنارات للصيد، وبقايا عضوية حيوانية تبين طبيعة الاقتصاد المعيشي للجماعات البشرية والقائم على استغلال الموارد البحرية والبرية. هذا ويعود تاريخ الموقع إلى الألف السادس قبل الميلاد.

ومن ناحية ثانية، فقد قام زارينس بعدد من المسوحات الميدانية في إقليم ظفار، والتي سجل فيها الكثير من المواقع الأثرية التي تعود لفترات العصر الحجري الحديث المختلفة. وقد تم تسجيل ستة عشر موقعاً في منطقة شصر بإقليم ظفار، والتي احتوت على أدوات صوانية ومواقد حجرية وأصداف. وقد أمكن التعرف في مواقع عيون ووادي ذهبون ودوكة وهيلة الراكة على منشآت معمارية ترتبط بالعصر الحجري الحديث، وهي عبارة عن مساكن تتألف من أربع

إلى خمس وحدات. ويعد موقع ابن حمودة من المواقع المهمة ويقع على مجرى مائي صغير في منطقة الربع الخالي متميزاً لما احتواه من أدوات صوانية وأدوات جرش وطحن وألواح حجرية وأواني من الحجر الكلسي.

ولعل من أهم الحضارات المنسوبة للعصر الحجري الحديث ما يعرف باسم حضارة العبيد في شرق الجزيرة العربية، والتي اشتملت على خمس مراحل حضارية (صفر-4)، والتي اكتشفت في أوائل الستينات من القرن الميلادي الماضي. لقد ظهرت هذه الحضارة في الألف السادس قبل الميلاد، وتميزت بغنى مواقعها بالبقايا الأثرية، والتي تعكس الكثير من الجوانب المعيشية والاقتصادية لمجتمعات تلك الفترة، مثل تربية الحيوان والزراعة والصيد البري والبحري وصناعة الفخار والتبادل التجاري. وقد تميزت المراحل المختلفة لهذه الحضارة عن بعضها البعض بالإختلاف في زخرفة الفخار.

لقد سجل الكثير من مواقع العُبيد في شرق الجزيرة العربية، والتي اختلفت في كثافة بقاياها الأثرية. وقد أظهرت الدراسة الميدانية لموقع الدوسرية عن وجود صناعة حجرية متميزة تمثلت باستخدام المكاشط والسكاكين والمخارز ورؤوس السهام وحجارة الرحى والفؤوس المصقولة والشفرات الحادة. كما وجد فخار ينتمي للعبيد في مرحلته الثالثة، وآخر به شوائب نباتية؛ كما وجدت دلائل استئناس البقر والضأن والماعز، إضافة لصيد الغزلان البرية. ومن المواقع الأخرى المهمة موقع عين قناص، شرق المملكة العربية السعودية، وموقع المرخ الواقع على ساحل جزيرة صغيرة بالبحرين، والذي يعكس توجهاً معيشياً يقوم على استغلال الموارد البحرية بشكل كبير.

لقد أظهرت الدراسات الميدانية لموقع الصبية بالكويت، والذي يعرف باسم (H3)، دلائل حضارية مهمة تعود لفترة العبيد. وتكمن أهمية الموقع في احتوائه على طبقات أثرية ومنشآت معمارية ذات مستوى متقدم وأدوات حجرية تنتمي لما يعرف باسم العصر الحجري الحديث العربي. ومن ناحية أخرى، فقد اشتمل الموقع على بقايا قارب مصنوع من القصب يعود عمره لحوالي 5000 سنة قبل الميلاد، وكذلك نموذج لقارب مصنوع من الطين المحروق، وهذه تُعد من أقدم الأمثلة المعروفة، وتشير البقايا الأثرية بالموقع إلى وجود تمازج بين العصر الحجري الحديث العربي (Arabian Neolithic) وحضارة العبيد، والدور الاقتصادي الكبير للموارد البحرية وخاصة صيد الأسماك، وكذلك رعي الأبقار والأغنام وصيد الحيوانات البرية.

ويمثل موقع الدعساء في قطر أحد مواقع العُبيد المهمة، والذي احتوى على فخار العبيد من المرحلة الثالثة، وآخر خشن. واضافة للأدوات الحجرية المعروفة في حضارة العبيد، فقد اشتمل الموقع على أدوات زينة من العقيق. وقد تم تأريخ الموقع للفترة بين نهاية الألف الخامس وبداية الألف الرابع. وقد وجد في أرضية الموقع حفر يحتمل أنها لتثبيت أعمدة المسكن، وكذلك أدوات منزلية مصفوفة بانتظام، مثل المجرشة والطاحونة وقطع مرجانية ربما استخدمت للكشط.

ومن المواقع المهمة في جنوب شرق قطر، موقع شقراء، والذي يحتوي على مبنى مكون من ألواح الحجر الرملي التي تم تهذيبها لتشكل غرفتين ذات شكل بيضاوي. وقد عثر في هذا الموقع الذي يعود إلى منتصف الألف السادس قبل الميلاد على بقايا عظمية سمكية ومحار بحري وصناعة حجرية صوانية احتوت على رؤوس سهام ومدببات ثنائية الوجه وغيرها.

وفي دولة الإمارات العربية المتحدة، ساهمت الجهود العلمية الحثيثة لعشرات البعثات الآثارية، المحلية والأجنبية،

في إماطة اللثام عن التاريخ الحضاري للمنطقة، ومعرفة المقومات الحضارية التي كانت معروفة في عصور ما قبل التأريخ عامة، والعصر الحجري الحديث خاصة، ومن أبرز المواقع الأثرية التي تعود لهذا العصر موقع بحايص-18 بإمارة الشارقة، والذي قدر عمره بحوالي الألف الخامس قبل الميلاد. وقد اشتمل الموقع على عدد من المدافن، والتي احتوت بقايا بشرية، إضافة لوجود أدوات حجرية تنتمي إلى صناعة العصر الحجري الحديث المعروف باسم "الصناعة العربية ثنائية الوجه" (Arabian Bifacial Tradition).

ومن ناحية ثانية، فقد عثر على موقعين مهمين في جزيرتي دلما ومروح، التابعتين لأمارة أبو ظبي، واشتملت البقايا الأثرية بالموقعين على أنواع متعددة من الأدوات الحجرية : رؤوس السهام والسكاكين والمكاشط والمطارق الحجرية والمثاقب والأزاميل وغيرها. كما وجد في كلا الموقعين مواقد للنار ساعدت في الحصول على تقدير زمني للاستيطان البشري بالمنطقة، والتي تقدر بأواخر الألف السادس وأوائل الألف الخامس قبل الميلاد.

وقد ساهمت الدراسات الميدانية الكثيرة التي تمت في الجزيرة العربية، والبقايا الحيوانية التي وجدت في عدد من المواقع إلى معرفة أن رعي الماشية من الأغنام والماعز قد شكل مرتكزاً اقتصادياً للجماعات البشرية في أواخر العصر الحجري الحديث؛ خاصة وأن الظروف المناخية في الفترة ما بين الألفين السابعة والرابعة قبل الميلاد قد تميزت بازدياد نسبة هطول الأمطار.

ومما يلفت نظر الكثير من الدارسين لآثار الجزيرة العربية كثافة المنشآت الحجرية ذات الأحجام والأنواع المختلفة التي تنتشر في غالبية أنحائها، والتي ربما يعود أقدمها إلى فترة العصر الحجري الحديث.

كما يظهر أن الكثير من الرسومات الصخرية المنتشرة بشكل كبير في أنحاء عدة من الجزيرة العربية ربما يعاصر بعضها هذه الفترة الحضارية، ولكن نظراً لعدم وجود التقنيات العلمية اللازمة لتأريخ الرسوم الصخرية فإنه من الصعب معرفة العلاقة الزمنية بينها وبين هذه الفترة الحضارية.

د. عبدالله محمد الشارخ

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

- أبو درك، حامد، وعبدالجواد مراد، ومحمد البراهيم 1984

"الاستكشافات والتنقيبات الأثرية في موقع الثمامة الذي يرجع تاريخه إلى العصر الحجري الحديث (أطلال، العدد الثامن، ص 97-103)

- الأمين، يوسف 2002

"العصور الحجرية في المملكة العربية السعودية: دراسة وتقويم" (أدوماتو، العدد الثامن: ص 7-40)

- الشارخ، عبدالله محمد 2002

"رؤية جديدة لتقسيم فترات العصور الحجرية بالمملكة العربية السعودية" (العصور 13 (2): ص 7-23)

- المعمري، عبدالرزاق 2003

"العصور الحجرية وموروثاتها في اليمن" (الموسوعة اليمنية، الجزء الثالث (س-ق)، ط2، ص: 2077-2088)

- ايدينز، كريستوفر 1982

" العصر الحجري الحديث في الربع الخالي الغربي 1399هـ 1979 م" (أطلال، العدد السادس: ص 107-124)

- بوبيسكو، إليزابيث 2003

"مواقع مستوطنات العصر الحجري الحديث في جزيرتي دلما ومُروح، الإمارات العربية المتحدة." (كتاب آثار الإمارات العربية المتحد، تحرير دانيال بوتس وحسن النابودة وبيتر هيلير، ص 45-54)

– زارينس، يوريس 2001

أرض اللبان. (ترجمة معاوية إبراهيم وعلي التجاني الماحي، منشورات جامعة السلطان قابوس، سلسلة علوم الآثار والتراث الثقافي، المجلد 1، مطابع النهضة، سلطنة عُمان)

– كالويت، هايكو 2003

"ملاحظات عن العصر الحجري المتأخر في الإمارات العربية المتحدة." (كتاب آثار الإمارات العربية المتحد، تحرير دانيال بوتس وحسن النابودة وبيتر هيلير، ص ص 55-64)

– كيسويتر، هينريك 2003

"سكان العصر الحجري الحديث في موقع جبل بحايص 18: ملاحظات حول الممارسات الجنائزية وعلم السكان القدامى (الديموغرافيا الحفرية) وعلم الأمراض القديمة." (كتاب آثار الإمارات العربية المتحد، تحرير دانيال بوتس وحسن النابودة وبيتر هيلير، ص ص 35-43)

– محمد علي، عباس سيد أحمد 2000

"الجذور التاريخية لإشكالية المصطلح الآثاري: حالة ما قبل التاريخ" (أدوماتو العدد الثاني:ص ص 71-73، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، الرياض)

– محمد علي، عباس سيد أحمد 2000

"ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية" (الدارة 3: 89-131، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض)

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Alsharekh, A. M. 1995

The Archaeology of Central Saudi Arabia: Lithic artefacts and Stone Structures in N. E. Riyadh. Unpublished Ph.D. Thesis Submitted to the University of Cambridge, U. K.

- Amirkhanov, Kh. 1994

"Researchh on the Palaeolithic and Neolithic of Hadhramaut and Mahra. Arabian Archaeology and Epigraphy 5: 217-228.

- Bailey, G. 2004

Personal Communication.

- Beek, G. 1969

Hajar Bin Humeid. Investigations at a Pre-Islamic Site in South Arabia. Baltimore: The Johns Hopkins Press; Publications of the American Foundation for the Study of Man, vol. V.

- Biagi, P. 1994

"An Early Palaeolithic Site near Saiwan (Sultanate of Oman)" Arabian Archaeology and Epigraphy 5: 81-88.

- Bulgarelli, G. M. 1986

"Archaeological Activities in the Yemen Arab Republic, 1986: Paleolithic Culture." East & West, Vol. 36.

- Carter R. 2002

Ubaid-period boat remains from As-Sabiyah: excavations by the British Archaeological Expedition to Kuwait. Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 32: 13-30

- Carter R., Crawford H., Mellalieu S. and Barrett D. 1999

Archaeology and Ethnology, Vol. 1, XLV, no. 2, Harvard University, "Cambridge, Mass.

- **Field, H. 1961**
  Ancient and Modern Man in Southwesetrn Asia: II. University of Miami Press, Coral Gables.
- **Field, H. 1971**
  Contribution to the Anthropology of Saudi Arabia. Coconut Grove: Field Research Projects, Miami.
- **Garrard, A. 1981**
  Environment and Settlement during the Upper Pleistocene at Jubba in the Great NAfud, Northern Arabia." Atlal 5: 137-148.
- **Gilmore, M, M. Al-Ibrahim and A. Murad 1982**
  "Preliminary Report on the Northwestern and Northern Region Survey." Atlal 6: 9-23, Riyadh.
- **Masry, A. 1974**
  Prehistory in Northeastern Arabia: The Problem of Interregional Interaction. Field Research Projects, Coconut Grove, Miami, Florida.
- **McClure, H. 1971**
  The Arabian Peninsula and Prehistoric Populations. Field Research Projects, Coconut Grove.
- **McClure, H. 1976**
  "Radiocarbon Chronology of Late Quaternary Lakes in the Arabian Desert. Nature 263: 755-6.
- **McClure, H. 1978**
  "Al-Rub' al-Khali." In: Al-Sayari, S. and J. ZÖtl (eds) Quaternary Period in Saudi Arabia. Springer-Verlag, N. Y. pp. 252-263.
- **McAdams, R., P. Parr, M. Ibrahim and A. Al-Mughannum 1977**

The Kuwait-British Archaeological Expedition to As-Sabiyah: Report on the First Season's Work. Iraq LXI: 43-58

- **Carter R. and Crawford H.E.W. 2001**
  The Kuwait-British Archaeological Expedition to As-Sabiyah: Report on the Second Season's Work. Iraq LXIII:1-20
- **Carter R. and Crawford H.E.W. 2002**
  The Kuwait-British Archaeological Expedition to as-Sabiyah: report on the third season's work. Iraq LXIV:1-13
- **Carter R. and Crawford H.E.W. 2003**
  The Kuwait-British Archaeological Expedition to as-Sabiyah: report on the fourth season's work. Iraq LXV:77-90
- **Caton-Thompson, G. 1953**
  "Some Paleoliths from South Arabia" Proceedings of the Prehistoric Society 9: 189-218.
- **Field, H. 1956**
  Ancient and Modern Man in Southwesetrn Asia: I. University of Miami Press, Coral Gables.
- **Cleuziou, S. Tosi, M. 2000**
  "Ra's al-Jinz and the Prehistoric Coastal Cultures of the Ja'alan" Journal of Oman Studies, Vol. 11.
- **De Maigret, A. 1983**
  "ISMEO Activities: Arab Republic of Yemen." East & West, Vol. 33.
- **Field, H. 1960**
  "North Arabian Desert Archaeological Survey, 1925-50. Papers of the Peabody Museum of

"The Lower palaeolithic of the Arabian Peninsula: Occupations, Adaptations and Dispersals" The Journal of World Prehistory 17: 141-179.

- **Philby, H. St. J. 1933**
The Empty Quarter. Constable & Co. Ltd. London.
- **Phillipson, D. W. 1988**
African Archaeology. Cambridge World Archaeology, C. U. P., Cambridge.
- **Pullar, J. 1985**
"A Selection of Aceramic Sites in the Sultanate of Oman." Journal of Oman Studies 7: 49-87.
- **Rhotert, H. (ed.) 1938**
Transjordanien. Vorqeschichtliche Forschungen, Stuttgart.
- **Roaf M. 1976**
Excavations at Al Markh, Bahrain." Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 6: 144-160.
- **Smith, G. 1976**
"New Neolithic Sites in Oman." Journal of Oman Studies 2: 189-198.
- **Smith, G. 1978**
"Two Prehistoric Sites on Ras Abaruk, Site 4." In: B. de Cardi Qatar Archaeological report, 80-106.
- **Sogreah 1967**
Water and Agricultural Development Studies, Area V: Riyadh Water Supply. Unpublished Report prepared fro the Benefit of the Ministry of Agriculture and Water. Riyadh, Saudi Arabia.
- **Sogreah 1967**
Water and Agricultural Development Studies, Area V: Final Report. Unpublished Report

"Preliminary Report on the First Phase of the Comprehensive Archaeological Survey Programme." Atlal 1: 21-40.
- **McClure, H. 1994**
"A New Arabian Stone Tool Assemblage and Notes on the Aterian Industry of North Africa." Arabian Archaeology and Epigarphy 5: 1-16.
- **Oates J. 1978**
"Ubaid Culture and its Relation to Gulf Countries." In: de Cardi's edition of Qatar Archaeological Report- Excavations 1973, Oxford University Press, 39-52.
- **Oates 1986**
"Tell Brak: The Uruk/Early Dynastic Sequence." In Gamdat Nasr. Period or Regional Style? U. Finkbeiner and W. Röllig, eds. Pp. 245-273. Wiesbaden: Dr. Ludwig Reichert Verlag. Palmieri, Alba
- **Overstreet, W. 1973**
Contribution to the Prehistory of Saudi Arabia II. Coconut Grove: Field Research Projects, Miami.
- **Parr, P. J. Zarins, M. Ibrahim, J. Waechter, A. Garrard, C. Clark, M. Bidmead and H. Al-Badr 1978**
"Preliminary Report on the Second Phase of the Norhtern Province Survey 1397/1977." Atlal 2: 29-50, Riyadh.
- **Pullar, J. and B. Jäckli 1978**
Some Aceramic Sites in Oman. Journal of Oman Studies 4: 53-74.
- **Petraglia, M. 2003**

- **Van Campo, E. Duplessy, J. and Rossignol - Strick, M. 1982**
Climatic Conditions deduced from a 150-kyr Oxygen Isotope- Pollen record from the Arabian Sea. Nature 296: 56-59.

- **Whalen, N, Siraj-Ali, J., and Pease, D. 1986**
"A Lower Pleistocene Site Near Shuwaihitiyah in Northern Saudi Arabia". Atlal 10: 94-106, Riyadh: Directorate General of Antiquities and Museums.

- **Whalen, N., H. Sindi, G. Wahidah and J. Siraj-Ali 1983**
"Excavation of Acheulaean Sites near Saffaqah in Al-Dawadmi (1402/1982)." Atlal 7: 9-21, Riyadh.

- **Whalen, N., W. Davis and D. Pease 1989**
Early Pleistocene Migrations into Saudi Arabia. Atlal 12: 59-75, Riyadh.

- **Whalen, N and D. Pease 1992**
"Archaeological Survey in Southwest Yemen, 1990". Paleorient 17: 129-133.

- **Whalen, N. and K. Schatte 1997**
"Pleistocene Sites in Southern Yemen." Arabian Archaeology and Epigraphy 8: 1-10.

- **Whalen, N., J. Siraj-Ali and W. Davis 1984**
"Excavation of Acheulaean Sites near Saffaqah, Saudi Arabia (1403/1983)." Atlal 8: 9-24, Riyadh.

- **Whitney, J. 1982**
Geologic Evidence of Late Quaternary Climate Change in Eastern Saudi Arabia". Abstract, In: J. Bintliff and Van Zeist (eds) Paleoclimates, Palaeoenvironments and Human Communities in the Eastern Mediterranean Region in Late prepared fro the Benefit of the Ministry of Agriculture and Water. Riyadh, Saudi Arabia.

- **Street-Perrott, A. and N. Roberts 1983**
Fluctuations in Closed-Basin Lakes as an indicator of Past Atmospheric Circulation Patterns. In: A. Street-Perrott, M. Beran and R. Ratcliffe (eds) Variations in The Global Water Budget. Pp. 331-445, D. Reidel Publishing Company.

- **Sordinas, A. 1973**
Contribution to the Prehistory of Saudi Arabia II. Coconut Grove: Field Research Projects, Miami.

- **Street-Perrott, A. and N. Roberts and S. Metcalfe 1983**
"Geomorphic Implications of Late Quaternary Hydrological and Climatic Changes in the Northern Hemishere Tropics". In: I. Douglas and T. Spencer (eds) Environmental Change and Tropical Geomorphology. Pp. 165-183, Unwin & Allen, London.

- **Thomas, B. 1932**
Arabia Felix. New York.

- **Tixier, J. 1986**
"The Prehistory of the Gulf: Recent Finds." In: Bahrain Through the Ages : The History, by Shaikha Haya Al Khalifa & Michael Rice, pp. 76-78.

- **Tosi, M. 1975**
"Note on the distribution and exploitation of natural resource in ancient Oman" JOS. Vol. 1.

- **Taha, S. 1982**
Analysis and Interpretation of a Lower Palaeolithic Site in Saudi Arabia. M. Phil Dissertation, University of Cambridge.

- **Zarins, J., A. Murad and K. Al-Yish 1981**
  "The Second Preliminary Report on the Southwestern Province." Atlal 5: 9-42, Riyadh.
- **Zarins J., A. Rahbini and M. Kamal 1982**
  "Preliminary Report on the Archaeological Survey of the Riyadh Area." Prehistory. BAR International Series 133 (i): 231-232, Oxford.
- **Zarins, J., N. Whalen, M. Ibrahim, A. Mursi and M. Khan 1980**
  "Preliminary Report on the Central and Southwestern Provinces Survey 1979." Atlal 4: 9-36, Riyadh.

الفصل الأول

الوطن العربي من فجر التاريخ إلى نهاية القرن الرابع ق.م:

- لمحة عامة عن ظهور الكتابة وتطورها في الوطن العربي.
- الأرض والسكان والحضارة في وادي الرافدين.
- الأرض والسكان والحضارة في بلاد الشام.
- الأرض والسكان والحضارة في وادي النيل (مصر والسودان).
- الأرض والسكان والحضارة في بلاد المغرب.
- الأرض والسكان والحضارة في جزيرة العرب.

لمحة عن ظهور الكتابة وتطورها في الوطن العربي

توطئة :

الكتابة اختراع، وأعظم اختراع إلى يومنا هذا. بها كان أول خروج للإنسان من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية، نحو 3200 ± قبل الميلاد. وكانت، ولاتزال، ومهما اختلفت رموزها، وراء كل قفزة حضارية إنسانية كبرى.

وكما أن مرحلة الاختراع الأولى هي أهم خطوات الكتابة، فإن طورها الأبجدي الصِّرف، وهو آخر أطوارها، أرقى مستوياتها؛ بدليل استقرارها عليه منذ بدايته في القرن السابع عشر قبل الميلاد (مايزيد على 3600 سنة خلت)، واكتفائها بتجويده بدلاً من استبداله.

وإن كانت هنالك محاولات مستقلة وموفقة في الكتابة، في جزيرة كريت، والصين والهند وأمريكا اللاتينية، فإن كتابات الشرق الأدنى وشمال إفريقيا وشرقها، ومعظمها في الوطن العربي حالياً، هي الأقدم والأهم. فهي الأسبق في الظهور والتطور زمناً، والأهم دوراً في الحضارة الإنسانية قديماً وحديثاً. ذلك للدور الذي أدته هي نفسها قديماً في حضارات الشرق الأدنى القديم وبلاد الإغريق وإفريقيا، ولاتزال تؤديه سلالة بعضها حالياً، والأوسع انتشاراً في العالم. وكما سيبيَّن فيما بعد، فإن إحدى كتابات الوطن العربي القديمة، هي الكتابة الكنعانية المبكرة أصل أهم الكتابات الأبجدية الحالية ، (العربية، والعبرية، والأمهرية، واليونانية واللاتينية وما تفرع منها).

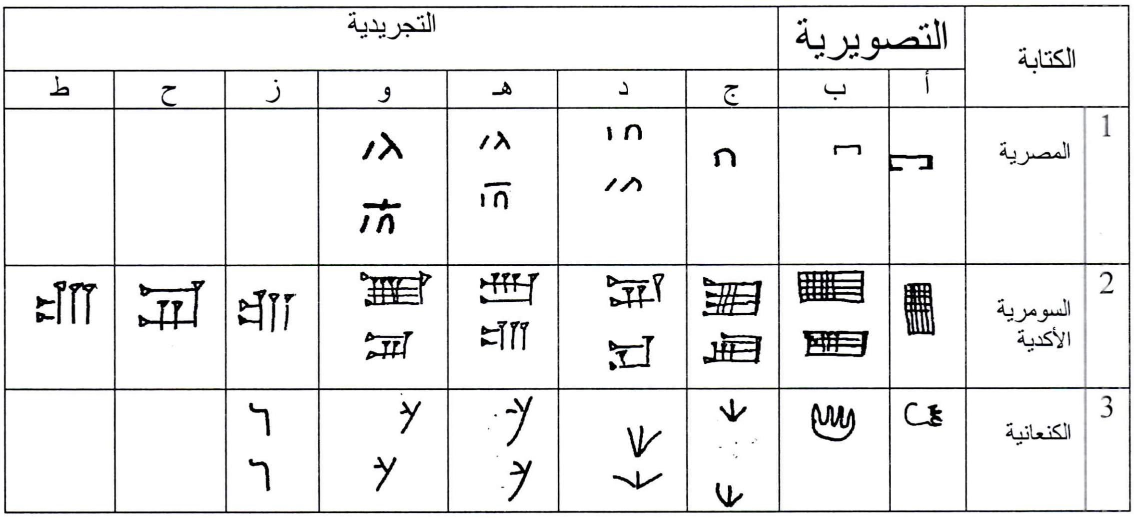
وهي كتابة أبجدية صرفة، بدأت تصويرية ثم تدرجت بمرور الزمن لتصبح تجريدية. أقدم نماذجها التصويرية من فلسطين، وتؤرخ للقرن السابع عشر قبل الميلاد. تليها أخرى من سيناء، تؤرخ للقرن السادس عشر قبل الميلاد (الشكل رقم 6) .

مرحلتا الكتابة :

بظهور الكتابة الكنعانية المبكرة ككتابة أبجدية صِرفة، انقسم ظهور الكتابة وتطورها إلى مرحلتين نظاماً وزماناً. إحدى المرحلتين هي المرحلة الأبجدية الصِّرفة البادئة بالكتابة الكنعانية المبكرة وتشمل الأوغريتية أيضاً. والأخرى هي مرحلة ما قبل الأبجدية الصِّرفة، الشاملة للكتابات السومرية والمصرية القديمة ، والأكدية والإبلائية. والأخيرتان قائمتان على النظام السومري .

إن استخدام النعت "الصِّرفة " في "مرحلة الأبجدية الصِّرْفة " يوحي صادقاً بأن المرحلة قبلَها لم تكن أبجدية صِرْفة، وإنما حوت طرقاً عدة أخرى للكتابة، أبجدية وغير أبجدية. وهذا هو المقصود، ذلك لوجود الأبجدية المصرية قبل ذلك في نظام للكتابة خليط. وذلك ما جوّز لنا تقسيم تطور الكتابة في مرحلتين على النحو الذي وصفناه؛ (أ) مرحلة ما قبل الأبجدية الصِّرفة، و(ب) مرحلة الأبجدية الصِّرفة .

وسواءً أكانت الكتابة أبجدية صرفة أم ما قبلها، فإنها بدأت تصويرية واضحة المعالم، ثم اتجهت نحو التجريد؛ لكثرة الاستخدام، والسرعة المترتبة عليه، ونعومة المواد التي يكتب بها أو عليها (الشكل رقم 1). وانتهى الأمر بأن أصبح للكتابة المصرية خطان، تصويري رسمي وآخر تجريدي للحياة اليومية في آن واحد، وللسومرية خط واحد تجريدي، بدأ إسفينياً أولاً فصار مسمارِيًا لاحقًا، وللكنعانية المبكرة خط واحد تجريدي. أما التجريدي المصري فقد عرف طورين متباينين في نهاية الأمر؛ الأول هو الهيراطيقي، والثاني، المتأخرعنه زمنًا، وهو الديموطيقي.



الشكل 1 : التصويرية والتجريدية

(1) **المصرية** : (أ) على الحجارة ، (ب) على البردي ؛ (ج) **الهيراطيقية** ؛ **الديموطيقية** ؛ : (د) المبكرة ، (هـ) البطلمية ، (و) الرومانية .

(2) **السومرية الأكدية** : السومرية (أ) قبل اللف ، (ب) بعد اللف ؛ **الأكدية القديمة** : (ج) الأشورية ، (د) البابلية ؛ الأكدية الوسيطة : (هـ) الأشورية ، (و) البابلية ؛ الأكدية الحديثة : (ز) الأشورية ، (ح) البابلية ؛ **الأكدية المتأخرة** : (ط) الأشورية البابلية .

(3) **الكنعانية** : **المبكرة** : (أ) قبل اللف ، (ب) بعد اللف ؛ (ج) **الانتقالية** ؛ **المتأخرة** : (د) الفينيقية ، (هـ) المؤابية ، (و) الآرامية ؛ (ز) النبطية .

وسيُرى فيما بعد أن من كتابات المرحلتين تفرعت فروع رئيسة ؛ فمن السومرية جاءت الكتابتان الأكدية والإبلائية، ثم ما تفرّع من الأكدية من كتابات عدة اكتفينا منها هنا بالأخمينية؛ وبالمصرية تأثرت الكتابة الكنعانية المبكرة نفسها والسودانية القديمة (المشهورة بالمروية) في السودان؛ ومن الكنعانية في مرحلتها المتوسطة جاءت اثنتان رئيستان هما : (أ) العربية (الشمالية فالجنوبية)، ومن الجنوبية منها جاءت الجعزيّة الحبشية، و(ب) الإغريقية التي أفضت إلي اليونانية التي تمخضت عن اللاتينية، في كتابات أوربا، وعن القبطية في مصر، والنوبية القديمة في السودان؛ ومن الكنعانية المتأخرة، وهي المعروفة بالفينيقية، جاءت المؤابية والعبرية القديمة والآرامية؛ ومن الآرامية جاءت السريانية، والتدمرية، والعبرية الجديدة، والنبطية، التي جاءت منها العربية الوسطى .

وفي ضوء ذلك كان تصنيف الكتابات وعرضها بإيجاز، في القسمين الثاني والثالث التاليين.

لقد خلا البحث عمداً من عدة كتابات أشير إليها أعلاه، أو متضمنة في كتابات مذكورة أعلاه. لأنها تقع في إطار بحث آخر في هذا الكتاب. والكتابات هي : العربية القديمة (الشمالية والجنوبية)، والحبشية، وفروع الفينيقية الرئيسة (المؤابية، والعبرية القديمة والآرامية) والفرعية المتطورة عن الآرامية (السريانية، والتدمرية، والعبرية الجديدة، والنبطية، والعربية الوسطى). كما خلا من الإغريقية وما تفرع منها في أوربا، لأنها ليست من كتابات الوطن العربي .

فيما يلي ما تبقى من الكتابات المتناولة في هذا البحث، حسب مواضعها فيه .

مرحلة ما قبل الأبجدية الصِّرفة :

تشمل مرحلةُ ما قبل الأبجدية الصِّرفة الكتابات الآتية:

الكتابة المصرية .

الكتابة السومرية .

الكتابة الأكدية .

الكتابة الإبلائية .

مرحلة الأبجدية الصِّرفة :

تشمل مرحلةُ الأبجدية الصِّرفة كل الكتابات التي ظهرت بعد ظهور الكتابة الكنعانية المبكرة، سواءً أكانت متفرعة منها أم لم تكن، على النحو الآتي :

الكتابة الكنعانية المبكرة : نشأتها ، أطوارها، فروعها.

الكتابة الكنعانية المبكرة والمتوسطة .

الكتابة الكنعانية المتأخرة : الفينيقية وفروعها .

الكتابة الأوغريتية .

الكتابة الأخمينية .

الكتابة المَرَوية .

الكتابة القبطية .

الكتابة النوبية القديمة .

فيما يلي عرض موجز للكتابات، في مرحلتي ما قبل الأبجدية الصّرفة أولاً، فالأبجدية الصِّرفة ثانيًا .

مرحلة ما قبل الأبجدية الصِّرفة :

فيما يلي عرض لأهم خصائص كتابات مرحلة ما قبل الأبجدية الصِّرفة؛ وهي الكتابات المصرية ، والسومرية ، والأكدية ، والإبلائية. تشترك الكتابات الأربع المذكورة في أنّ نُظُمَها خليط من ثلاثة أنواع من الرموز، هي رموز المعاني، ورموز الأصوات، ومخصِّصات المعاني، بالإضافة إلى الأعداد، وفي أن رموز المعاني هي الأصل للنوعين الآخرين من الرموز. فيما يلي عرض الكتابات الأربع .

الكتابة المصرية :

يؤرخ للكتابة المصرية بنحو 3200 ± قبل الميلاد، بعصر ما قبل الأسرات. اخترعها المصريون بأسلوب مشابه لأسلوب الكتابة السومرية معاصرتها، مع اختلافات ستبيّن في حينها.

أشكال الرموز :

بدأت رموز الكتابة تصويرية (هيروغليفية) منذ بدايتها، وظلت متمسكة بسمتها التصويرية مع تبلور الأشكال التجريدية منها، الهيراطيقية أولاً فالديموطيقية ثانياً، بمرور الزمن (الشكل رقم 1:1) نتيجة لتزايد الاستخدام اليومي، والكتابة بالمداد على ورق البردي خاصة، والأجسام الناعمة الأخرى عامة. فظل هناك خطان، تصويري (هيروغليفي) للشئون التذكارية، وتجريدي (هيراطيقي أفضى إلى ديموطيقي) للحياة اليومية، إلى أن جاء حين في العصور المتأخرة جداً استُخدم فيه الخط الديموطيقي للشئون التذكارية أيضاً.

اتجاه الكتابة التصويرية من اليمين إلى اليسار عادةً، ومن اليسار إلى اليمين أحياناً، بتوجيه الرموز ذوات الوجهات (إلا قلة معلومة منها) نحو أول السطر. أما في الكتابتين الهيراطيقية والديموطيقية فالاتجاه من اليمين إلى اليسار دائماً.

رموز الكتابة أربعة أنواع، هي رموز المعاني، ومخصِّصات المعاني، ورموز الأصوات، والأعداد. سنكتفي بشرح الثلاثة الأوائل منها فقط؛ لأن فيها تتمثل نشأة الكتابة المصرية وتطورها.

أنواع الرموز :

تدل قرائن الأحوال على أن الكتابة المصرية بدأت برموز المعاني ومخصِّصات المعاني والأعداد أولاً، تماماً كما في السومرية، لتلحق بها رموز الأصوات بعد ذلك. شملت رموز الأصوات ثلاث فئات، هي المركَّبات المقطعية، والمقاطع الآحادية والحروف الأبجدية، في ترتيبٍ تنازلي. والأخيرة أربعة وعشرون. فيها كل أصوات اللغة المكتوبة. فأصبحت الكتابة بخليط من رموز المعاني ورموز الأصوات ومخصِّصات المعاني.

رموز المعاني :

رمز المعنى اصطلاحًا هو الرمز الذي يُقصد منه الشيء المصوَّر نفسه، أو أي معنى آخر متعلق به، معنىً أو لفظًا. يكون رمز المعنى بسيطًا في شكله، واضحًا، بحيث يتعرف المرء على الشيء المراد منه بيسر. من أمثلة رموز المعاني المصرية ما يأتي : [1] رَعْ "الشمس، نهار، يوم"؛ [2] خُپْر(ي) "جُعَل"؛ [3] حُرْ "وجه"؛ [4] رُ (راء + فتحة ممالة) "فم"؛ [5] عَ (عين + فتحة "ذراع"؛ [6] تَ (تاء + فتحة) "خبز"؛ [7] ء (همزة + كسرة أو فتحة) "سعفة (نخيل)" ؛ [8] پر (بالباء الفارسية) "بيت ، دار"؛ [9] پَ (پاء فارسية + فتحة) "مقعد، قاعدة"؛ [10] پت (بالباء الفارسية) "السماء"؛ و[11] مُو "ماء".

يلاحظ أن بعض رموز المعاني، من حيث النطق، مكونة من مقاطع. بعضها مفردة، تعرف بالمقاطع الآحادية. والأخرى مركبة من أكثر من مقطع، تعرف بالمركبات المقطعية. وهذان اصطلاحان، سيستخدمان لكل الكتابات الأخرى الآتية بعد ذلك .

رموز الأصوات :

جاءت رموز الأصوات بفئاتها الثلاث المذكورة آنفًا من رموز معاني مقابلة لها، اكتفاءً بأشكالها ودلالاتها الصوتية كاملة أو جزئيًا فقط. فأخذت المركَّباتُ المقطعية والمقاطعُ الآحادية نطقَ رموز معانيها كاملةً وبأشكالها نفسها، ولكن من غير الخط المرافق لرمز المعنى عادةً. فمما سبق من رموز المعاني، ومن المركَّبات المقطعية، جاء خپر [2]، ومن المقاطع الآحادية حُرْ " [3] وپر [8]. وأخذت الرموز الأبجدية الأربعة والعشرون الأصوات الأولى من رموز معانيها المقابلة لها؛ مثل ر (الراء) من رُ [4]، وع (العين) من عَ [5]، وت (التاء) من تَ [6]، وء (الهمزة، الياء) من ء [7]، وپ (الپاء الفارسية) من پَ [9] .

وبذلك تيسر للمصريين أن يكتبوا كتابة صوتيةً كل ما استعصت عليهم كتابته برموز المعاني، أو شيئت كتابته كتابة صوتيةً مع كتابته برموز المعاني في الوقت نفسه. وبما أن الكتابة برموز المعاني قد شرحت بما يكفي، فينبغي التمثيل فقط للكتابة الصوتية، برموز الأصوات. فهي إما أن تكون كتابةً أبجدية صِرفة، نحو إر (بالهمزة المكسورة والراء) "إذا ، إنْ"، إپ (بالهمزة المكسورة والپاء الفارسية) "حسبَ، عدَّ"، ع ت (بالعين والتاء) "غرفة" و رع (بالراء والعين) "الشمس، نهار، يوم" و رع "(المعبود المصري القديم) رَعْ" ؛ وإما أن تكون كتابة خليطاً، مقطعية وأبجدية معاً، نحو پري/ پرري (بالباء الفارسية) "ذهب، مشى، مضى"، المكتوبة بالمقطع پر وحرفي (الراء) و (ياء المد)، وكذلك المصدر منها پر (ي) ت "الصعود" (الشكل رقم 2). أما رمز الكتاب في إپ، و البيت في ع ت، و الرجلان في پري / پرري وپر(ي) ت، فهي مخصِّصات معانٍ؛ الأول منها لتخصيص المعاني المجردة غير المحسوسة والفكرية، والثاني لكل ما يُسوّر، والثالث للمشي والحركة.

مخصِّصات المعاني :

جاءت مخصِّصات المعاني من رموز المعاني أيضاً، لتخصِّص المكتوب برمز المعنى أو بكتابة صوتية. فمما تقدم من رموز المعاني وُظّفت (الشمس) [1] لكل ما يتعلق بها من ضوء، ولمعان، ونهار وليل، بل عندما تُكتَب كلمة رَعْ نفسها بمعانيها المختلفة كتابة صوتية أبجدية في (بالراء والعين) بمعنى "الشمس ؛ نهار ، يوم" أو المعبود المصري . كما وظفت الذراع [5] لكل ما يتعلق بالعمل والقوة والشدة، و البيت [8] لكل ما يسوَّر و السماء [9] لكلمة السماء نفسها حين تكتب صوتياً ولكل ما هو عالٍ، و الماء [10] للماء نفسه ووظائفه ولكل السوائل. يلاحظ في مخصِّصات المعاني المصرية أنها لا تقتصر على أجناس الأشياء، وإنما على المعاني المختلفة المتعددة التي تتعلق بمعنى رمز المعنى الذي جاء منه مخصِّص المعنى. كما أنها تأتي في آخر الكلمة دائماً أو قريباً منه. وهي في الصفتين تختلف عن مخصِّصات المعاني السومرية (2: 2).

كتابة الكلمة والعبارة والجملة :

وبناءً على ما تقدم من تعدد طرق الكتابة المصرية، جازت كتابة الكلمة كتابة غير صوتية برمز المعنى المخصَّص أوغير المخصَّص، أو كتابتها كتابة صوتية برمز صوت واحد أو أكثر. وبذلك لا يستغرب المرء حين يجد العبارة الواحدة مكتوبة بكلمات خليط؛ بعضها مكتوب برمز معنى واحد أو أكثر، وبعضها الآخر مكتوب كتابةً صوتية، مقطعية، أو أبجدية صرفة، أو مزيجاً مقطعياً وأبجدياً في آن واحد، على نحو ما في العبارة الآتية :



بر(ي)ت ر پ ت ر ب و ن ت (ي) رع إم

"الصعود" "إلى" "السماء" "إلى" "المكان" "الذي" "رع" "فيه"

"الصعود إلى المكان الذي فيه رع".

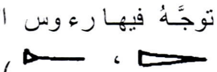
الشكل رقم 2 : عبارة مصرية مكتوبة كتابة خليطاً.

فهنا كتابة خليط برمز معنى واحد (7)، مع كتابة صوتية، أبجدية صرفة (2، 3، 4، 5، 6، 8) ومقطعية أبجدية معاً (1).

الكتابة السومرية :

يؤرخ للكتابة السومرية بنحو 3200 ± قبل الميلاد، لعصر الوركاء الرابعة، وهو تاريخ الكتابة المصرية نفسها. اخترعها السومريون، من سومر، جنوب وادي الرافدين (العراق).

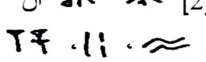
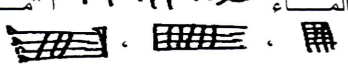
أشكال الرموز :

بدأت رموز الكتابة السومرية تصويرية منذ عصر الوركاء الرابعة (الشكل رقم 2:1). وهي في هيئتها التصويرية، وكما يبين في (الشكل رقم 2:1) (أ، ب) والأمثلة أدناه، لُفَّت رموزُها 90 درجة، يمنة أو يسرةً، لتصبح العموديةُ أفقيةً والأفقيةُ عموديةً. ثم اقتضت ضرورة الكتابة على الطين وكثرة الاستخدام أن تتجه أشكالها نحو التجريد، لتصبح إسفينية () أولاً ثم مسمارية () أخيراً. توجَّهُ فيها رءوس الأسافين والمسامير الأفقية يسرةً ()، نحو الجهة التي تبدأ منها الكتابة والقراءة معاً، وهي اليسار دائماً (الشكل 2:1 ج – ط).

أنواع الرموز :

بدأت الكتابة السومرية، كالمصرية، برموز المعاني ومخصِّصات المعاني، والأعداد في المرحلة الأولى. لحقت بها رموز الأصوات فيما بعد. ورموز المعاني هي الأصل الذي منه جاءت مخصِّصات المعاني أولاً، ثم رموزالأصوات لاحقاً. فأصبحت الكتابة بخليطٍ من رموز المعاني والأصوات، ومخصِّصات المعاني.

رموز المعاني :

كما في المصرية، فإن رمز المعنى السومري رمز يقصد منه الشيء المصوَّر نفسه، أو أي معنى آخر متعلق به. وهو بسيط واضح في مرحلته التصويرية، مجرد، صعب التعرف على ما يمثله في حالته التجريدية، كما يرى في (الشكل رقم 2:1) وفيما يأتي من تمثيل. فيما يلي أمثلة من رموز المعاني السومرية، بعضها يعبر عن المعاني نفسها التي للمصرية للمقارنة، قد اقتضت الضرورة الإتيان بها في خطيها التصويري والتجريدي (الإسفيني والمسماري). هي [1]  أُتُ "شمس"، وأُدْ "يوم" والمعبود الشمسي السومري أُتُ "أتو"؛ [2]  أنْ "سماء" ودِنْغِر "إله"؛ [3] الماء  أ "ماء"؛ [4] البيت  إ2 "بيت"

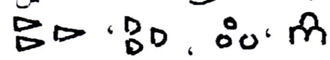
(والشكل رقم 2:1)؛ [5]  إ

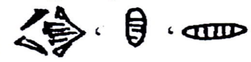
"رصيف (جدول) "؛ [6]  كَ

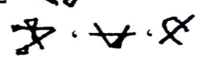
"فم"، زُ2 "سن" إنِم "كلام"، دُ "تكلم"، غُ2 "صرخ"؛ [7]  ،

كَ2 "بـــــاب"؛ [8]

 شُ "يـــد" ؛ [9]

 كُـرْ "أرض"؛ [10]

 كِ "أرض ، بلـد / قطـر"؛

[11]  نُ "لا"؛ و[12]

 غل "عالٍ، عظيم".

أوردنا هذا العدد بهذه الكثرة من رموز المعاني السومرية؛ لأنه سيفيد أيضاً في شرح الكتابتين الأكدية والإبلائية فيما بعد. ويلاحظ فيها (1) اللف في الهيئة التصويرية والاتجاه نحو التجريدية؛ و(2) أن منها ثلاث فئات ملفتة للنظر، (أ) فئة ذوات الشكل الواحد والنطق المتعدد والمعاني المتعددة، مثل [1، 2، 6] ، و(ب) فئة تقابلها، من ذوات النطق الواحد والأشكال والمعاني المتعددة مثل إ وإ2 [5، 4]، كَ وكَ2 [6، 7]، يفرق العلماء بينها بالأرقام، بإعطاء كل رمز رقماً، يعيّن موقعه من المجموعة التي ينتمي إليها من الرموز المشتركة في النطق والمختلفة في الأشكال والمعاني، (ج) فئة ثالثة تجمع الفئتين السابقتين، مثل الفم [6] خاصة، فهو من ذوات الشكل الواحد والنطق المتعدد والمعاني المتعددة حين يكون كَ وإنِم.ومن ذوات النطق الواحد والأشكال والمعاني المتعددة حين يكون زُ2 ودُ1؛ و(3) أن منها ما هي مقاطع آحادية، وما هي مركبات مقطعية من حيث النطق، كالمصرية تمامًا من هذه الناحية 0

رموز الأصوات :

جاءت من كل رموز المعاني رموز أصوات، بما في ذلك الفئات الثلاث الملفتة للنظر، وهي (أ) ذوات الشكل الواحد والنطق المتعدد، و(ب) ذوات النطق الواحد والأشكال المتعددة، و(ج) الجامعة للفئتين. وهكذا، مما تقدم من رموز المعاني، وفي أشكالها نفسها، أرقامها بين الأقواس المربعة، جاءت رموز الأصوات أتْ وأ دْ من أت [1]، كما جاءت أخريات بنطق مطابق من كل من أنْ [2]؛ أ [3]؛ إ2 [4]؛ كَ [6] وكَ2 [7]؛ شُ [8]؛ كُـر [9]؛ كِ [10]؛ نُ [11]؛ وغلْ [12] .

مخصِّصات المعاني :

جاءت مخصصات المعاني من رموز المعاني، لتخصّص المكتوب، سواءً أكان برمز معنى أم بكتابة صوتية. واتسمت مخصصات المعاني السومرية بأنها (1) لم تأتِ من كل رموز المعاني كما فعلت رموز الأصوات، بل ولا من عدد كبير كما في الكتابة المصرية، وإنما من عدد محدود ومحدّد؛ و(2) أن الواحد منها يخصِّص معنىً واحداً فقط، هو الجنس الذي ينتمي إليه الشيء المخصَّص. وذلك في مغايرةٍ مع مخصَّصات المعاني المصرية، الأكثر منها عدداً ووظائفَ تخصُّصية لمخصص المعنى الواحد لا الجنس؛ (3) أنها لا تقع كلها في طرف واحد في الكلمة التي تخصِّصها كما في المصرية، إذ أنها من فئتين، (أ) فئة يأتي الواحد منها في أول الكلمة التي يخصّصها دائماً، (ب) وفئة أخرى يأتي الواحد منها في آخر الكلمة المخصَّصة دائماً .

فمما ورد ذكره من رموز المعاني، جاءت مخصِّصات معان، هي النجمة [2] أمام أسماء المعبودات، والماء [3] أمام أسماء الأنهار، والبيت [4] أمام أسماء المعابد، والجبل [9] أمام أسماء البلدان / الأقطار، ثم الأرض [10] بعد أسماء المدن .

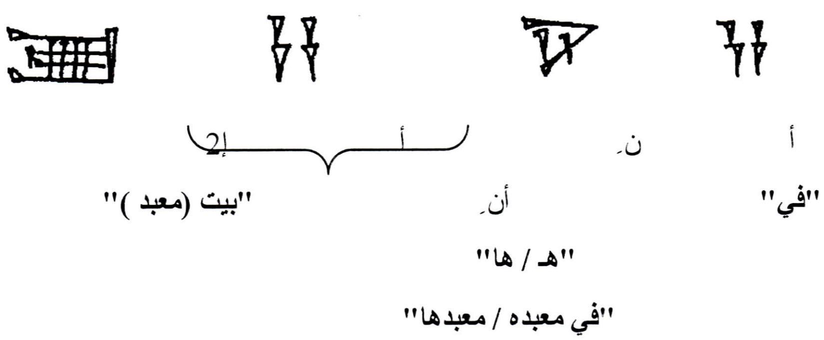
كتابة الكلمة والعبارة والجملة:

وبناءً علىما تقدم جازت كتابة الكلمة، وحسب أعراف الكتابة السومرية، إما كتابة غير صوتية برمز المعنى المخصَّص

أو غير المخصَّص؛ أو كتابتها كتابةً صوتية برمز صوتٍ واحد أو أكثر لما استعصت كتابته برمز المعنى أو أريدت كتابته كتابة صوتية إلى جانب كتابته برمز المعنى. وبما أن الكتابة غير الصوتية، برموز المعاني، قد شُرحت بما يكفي

فيما تقدم، فينبغي التمثيل لما يُكتَب كتابةً صوتية من الأمثلة، وبالكتابة المسمارية فقط ، حرفُ الجر أ "في"، وضمير الغائب والغائبة معاً أنِ "هـ ، ها". هذه الكلمة مكتوبة من اليسار إلي اليمين، كعادة الكتابة السومرية، بالهمزة المفتوحة أ والنون المكسورة نِ. ففي الكلمتين، جاءت أ كلمةً قائمة بذاتها في الأولى، وجزءاً أولاً من كلمة في الثانية .

فلجواز الكتابة بالطريقتين، غير الصوتية برمز المعنى والصوتية برموز الأصوات، لا يستغرب المرء إذن حين يجد عبارةً، أو جملة، ما مكتوبةً كتابة خليطاً، بعضها مكتوب كتابةً غير صوتية برمز معنى واحد أو أكثر، وبعضها الآخر مكتوب كتابةً صوتية. من أبسط الأمثلة العبارة التالية، المكونة من جار ومجرور، الثاني منها اسم مضاف إلى ضمير، وتعني "في معبده/ معبدها"، بالخط المسماري، مكتوبةً ومقروءةً معاً من اليسار إلي اليمين على النحو الآتي :



(الشكل رقم 3) : عبارة سومرية مكتوبة كتابة خليطاً.

العبارة مكونةٌ من رمز المعنى إ2 "بيت" (1)، بمعنى "معبد" ، ومن ضمير الغائب أو الغائبة أنِ "هـ / ها " (2، 3) وحرف الجر أ "في" (4)، المكتوبيْن كتابة صوتية، ومشروحيْن آنفاً. جاء الجار بعد المجرور، حسب النحو السومري.

يلاحظ التوازي التام، مع اختلافٍ، بين الكتابة السومرية كما وصفناها الآن، والكتابة المصرية كما وصفناها من قبل ذلك مباشرة . كما سيلاحظ فيما بعد أخذ الكتابتين الأكدية والإبلائية للنظام السومري كاملاً مع تعديلات أدخلتاها، كان لابد منها لتناسب اللغتين.

الكتابة الأكدية :

الكتابة الأكدية هي التي كتب بها الأكديون لغتهم الساميّة برموز سومرية مسمارية. احتفظت الكتابة الأكدية بنظام الكتابة السومري، بما فيه من رموز معان، ورموز أصوات، ومخصِّصات معان، وأعداد، والكتابة من اليسار إلى اليمين بتوجيه رءوس المسامير الأفقية يسرة (الشكل رقم 2:1 ج - ي).

لكن الكتابة السومرية كانت للغة غير ساميّة، بها أصوات ليست في الأكدية، وتخلو من أخرى في الأكدية، ولا تقوم على الاشتقاق والتصريف، أو تظهر الإعراب والتمييم، مما هو معروف في اللغة الأكدية خاصة واللغات الساميّة عامة. لذا كان لابد من تغييرات يستحدثها الأكديون لتوائم الكتابةُ السومرية لغتَهم. كان أهم التغييرات في رموز المعاني، التي اتخذ معظمها نطقاً أكدياً جديداً، تليها مرتبةً التغييراتُ في رموز الأصوات التي اتخذ بعضها نطقاً أكدياً جديداً من النطق (الأكدي) الجديد لرموز المعاني، انفردت به أو جمعته إلى نطق سومري موروث لرمز الصوت نفسه. وفي الوقت نفسه

ظل عدد كبير من رموز الأصوات منفرداً بنطقه السومري الموروث. لذا، كانت رموز الأصوات الأكدية من ثلاث فئات، سومرية موروثة، أكدية جديدة، وسومرية مرة وأكدية مرة أخرى معاً.

ثمة تغيير آخر كان في أشكال الرموز، وذلك بتبسيطها وتنسيقها بتقليل عدد المسامير في الرمز الواحد، والتخلص من ميلان المائل منها، بجعلها جميعاً ما بين أفقية وعمودية. بلغ هذا التغيير ذروته في العصرين الأشوري الحديث والبابلي الحديث، حين بعدت الشقة جداً بين شكل الرمز السومري الأصلي والأكدي الحديث (الشكل رقم 1:2د . ط).

ففي إطار ما تقدم تمكن الأكديون من كتابة لغتهم السامية بالرموز السومرية، واستفادوا من مقطعية الرموز لإظهار الإعراب، رفعاً أو نصباً أو جراً.

فيما يلي عرض موجز للكتابة الأكدية .

أنواع الرموز :

أنواع الرموز، كما سبق ذكره، أربعة ، هي رموز المعاني، ورموز الأصوات ومخصِّصات المعاني والأعداد، نخص بالشرح الثلاثة الأولى.

رموز المعاني :

احتفظت رموز المعاني الأكدية بأشكالها السومرية، في بادئ الأمر، ومعانيها. ولكن معظمها اتخذ نطقاً جديداً أكدياً كما هو بدهي، على النحو الآتي، وبأشكالها بالخط الأشوري الحديث لأنه أيسر في الرسم.

الشمس أتُ السومرية [1] صارت شَمْشُ "شمس" وأمُ "يوم"؛ والنجمة أنْ "سماء" ودِنْغِر "إله" [2] صارتا شَمُ وإلُ بالتتالي؛ والماء أ [3] صار مُو؛ والبيت إ [4] 2] صار بيتُ "بيت"؛ والفم كَ [6] صار فُو "فم"؛ والباب كَ2 [7] صار بابُ "باب" ؛ واليد شُ [8] ظلت ونُطقت قادُ؛ وغَلْ [12] صارت رَبُو "رابٍ، عالٍ، عظيم" ، وهكذا. ويلاحظ في النطق الأكدي الإعراب بالرفع.

رموز الأصوات :

من رموز الأصوات ما ظل على نطقه السومري، ومنها ما جمع نطقه السومري مع نطق جديد أكدي مأخوذ من النطق الجديد لرمز المعنى الذي جاء منه . وفي هذه الفئة وتلك زاد الأكديون أحياناً تنوعاً في نطق الرمز الواحد يحصل فيه تبادل بين الأصوات ذوات المخارج المشتركة أو المتقاربة. فمن السومري الموروث كما هو الماء أ [3]، والفم كَ [5]، بلا تنوع في صوتيهما؛ غَلْ / قَلْ [12] بتبادل بين القاف (السومري) والغاف (الأكدي). ومن الجامع للنطقين السومري والأكدي النجمة، أنْ [1] سومرياً وإلُ أكدياً، بلا تنوع في النطق، واليد شُ [8] سومرياً لكل العصور، وقتْ / قدْ أكدياً مشتركاً في البابلي الوسيط والأشوري والبابلي الحديثيْن، بتبادلٍ بين التاء والدال .

وبرموز الأصوات كتب الأكديون، من لغتهم، ما لا يمكن كتابته برموز المعاني، مثلاً، ضمير الغائب شُو "هو" ، بالرمزين السومريين شُ والواو / الضمة < في مقروءةً من اليسار إلى اليمين، والآن "بلدان" المكتوبة من اليسار إلى اليمين، بالرموز السومرية أ و لا و أ مرة أخرى و نِ في الانِ .

مخصّصات المعاني :

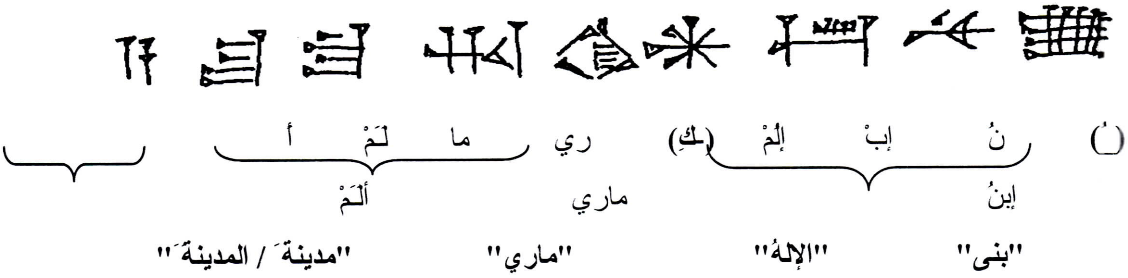
لم يحدث تغيير في مخصِّصات المعاني السومرية سوى التبسيط المطرّد في أشكالها بمرور الزمن. فهي كما هي في السومرية تخصِّص الأشياء بأجناسها، وللواحد منها موقع ثابت، في أول الكلمة التي يخصِّص معناها، أو في آخرها.

كتابة العبارة والجملة :

تُكتب العبارة أو الجملة في الكتابة الأكدية، كما تُكتب في الكتابتين المصرية والسومرية، بل والإبلائية أيضًا ، بخليط من رموز المعاني والكلمات المكتوبة

صـوتياً. والعبـارة التاليـة (الشكل رقم 4 أدنـاه) توضـح ذلك، مقروءةً من اليسار إلى اليمين.

العبارةُ مكتوبة كتابة خليطاً، إحدى كلماتها (6) مكتوبة برمـز معنـى هـو النجمـة إلـمْ "الإلـه" (6)، والأخريـات مكتوبات كتابة صوتية برموزٍ سومرية النطق. أظهرت لَـمْ فـي ألَـمْ (1)، بفتح لامها، النصب والتمييز لكون الاسم مفعولاً به، وخُصِّصت ماري (3 - 4) برمز الأرض (5)، مخصّص أسماء المدن كما في السومرية. وقُرئَ رمز المعنى (6) مرفوعاً لكونه فاعلاً رغم أنه غير مكتوب كتابة صـوتيةً تظهر الإعراب. وأضيف الرمز (9) لإظهار التوكيد في آخر الفعل المؤكد.



"(منذ أن) بنى الإلهُ مدينةَ / المدينةَ ماري"

(الشكل رقم 4) : عبارة أكدية مكتوبة كتابةً خليطاً .

الكتابة الإبلائية :

أصبح الاسم "الكتابة الإبلائية" سياراً الآن، مفهوماً منه أنه اسمٌ لنظام الكتابة التي كـُتِبت بـه اللغـة الإبلائيـة لمملكة إبلا فـي بـلاد الشام، ابتداءً من نحـو 2600 ق. م، كمـا رأى بتـاتو. ويعتقد البعض أنها أسبق من الكتابـة الأكديـة، التـي قدمناها عليها في الترتيب لمجاورتها للسومرية فحسب في وادي الرافدين نفسه .

الكتابـة الإبلائيـة مكتوبـة (1) بخـط مسـماري سـومري الأصل؛ (2) رموزه سومرية أيضاً؛ و(3) اتجاهه من اليسـار إلـى اليمين، بتوجيـه رءوس المسامير الأفقيـة نحـو أول السطر؛ (4) بنظام يتكون من أنواع الرموز السومرية، وبالتالي الأكدية نفسها، وهي رموز المعاني، ورموز الأصوات، ومخصِّصات المعاني والأعداد. لذا فالكتابة خليط أيضاً كالسومرية أصلها والأكدية أختها .

يتوقـع المـرء أن يكـون قـد حـدث فـي الكتابـة الإبلائيـة الشيء نفسه الذي حدث في الكتابـة الأكديـة، من التغيير فـي نطـق معظـم رمـوز المعـاني بمـا يناسـب اللغـة الإبلائيـة، والاحتفاظ بعدد كبير جداً من رموز الأصوات سومرية النطق. ولكن المادة التي بأيدينا تحول دون أي تفصيل كالذي فعلناه فـي الكتابـات السـابقة. فيمـا يلـي عـرض مـوجز جـداً لأنواع رموز الكتابة الإبلائية.

أنواع الرموز :

تقـع رمـوز الكتابـة الإبلائيـة فـي الأنـواع الأربعـة المعروفة في الكتابات السابقة، وهي رموز المعاني، ورموز الأصوات، ومخصِّصات المعاني والأعداد. فيما يلي شرح موجز للثلاثة الأولى منها.

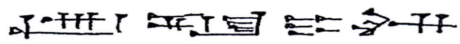
رموز المعاني :

للكيفية التي قرأ بها بتـاتو النقوش الأكدية، من حيث نطقه كل رموز المعاني بها نطقاً سومرياً لا إبلائياً، يتعذر تبيان كيفية نطق الإبلائيين لرموز المعاني بلغتهم. ولعله تعذرعليه التعرف إلى كيفية نطقها .

رموز الأصوات:

كمـا فـي الكتابـة الأكديـة، ففـي الإبلائيـة أيضـاً تغلـُب رمـوزُ الأصـوات السـومرية الموروثـة، شـكلاً ونطقـاً، مـع

تغيرات مناسبة، كما تغلب المقاطع الآحادية على المركبات المقطعية. اخترنا الرموز الآتية، التي تقرّبها الأرقام بين الأقواس المربعة رموز المعاني السومرية والأكدية، وهي أ [3]؛ شُ [8]؛ أنْ [2]؛ كِ [10]؛ ن ؛ إبْ ، لا. الثلاثة الأخيرة مما لم نورده في السومرية والأكدية. فأمكن كتابة ما شيئت كتابته صوتياً، نحو أ – نَ "لِ، إلى"، مكتوبة من اليسار إلى اليمين، بالرمزين أ و نَ. فساعدت الكتابة الصوتية في الاشتقاق، والتصريف، والإعراب والتمييز تماماً كما في الأكدية، نحو اسم النسبة "الإبلائي"، المكتوب



بأربعة رموز أصوات، من اليسار إلى اليمين، هي إب، لا ، إ/ي ، إم. أظهر الأخيران ياء النسبة والتمييز.

مخصّصات المعاني :

مخصِّصات المعاني الإبلائية سومرية، شكلاً، ووظيفة وموقعاً، بما لا حاجة للتفصيل فيه والتمثيل له. ويكتفى برمز الأرض المخصِّص لاسم إبلا في مثال الكتابة الخليط في العبارة والجملة أدناه (الشكل رقم 5).

كتابةالعبارة والجملة :

تُكتَب العبارةُ والجملةُ الكاملة كتابة خليطاً، فيها ما هو برمز معنى واحد أو أكثر، وما هو مكتوب كتابة صوتية مقطعية مثال ذلك العبارة الآتية :



(الشكل رقم 5) : عبارة إبلائية مكتوبة كتابة خليطاً.

في العبارة رمز معنى، هو السومري إنْ "حاكم، ملك" (1)، وكلمة مكتوبة كتابة صوتية من اليسار إلى اليمين (2 – 4) هي "إبلا"؛ المكتوبة برمزي الصوت إب (2) ولا (3) ، ومخصِّص المعنى (4)، الذي يخصِّص أسماء المدن.

مرحلة الأبجدية الصرفة :

يقصد بطور الأبجدية الصِّرفة ذلك الطور الذي ظهرت وتطورت فيه كتابة صوتية مطلقة، برموز أبجدية صِرفة؛ أي ليس من بينها رموز معانٍ ولا رموز أصوات، مقطعية آحادية أو مركبات مقطعية، أو مخصِّصات معانٍ. وهو الطور الذي بدأته أول كتابتين صِرفتين، هما (1) الكنعانية المبكرة و(2) الأوغريتية، وشهدت بعد ذلك أبجديات صرفة متفرعة من الكنعانية المبكرة أو من غيرها. فمن غيرها الكتابتان الأخمينية والسودانية القديمة (المشهورة بالمروية).

تدخل في هذا الطورعدة كتابات في مجموعتين رئيستين، هما (1) الكتابة الكنعانية وما يندرج تحتها من الكتابات (أ) الفينيقية، والمؤابية، والعبرية، والآرامية، والنبطية، و(ب) العربية القديمة الشمالية والجنوبية والحبشية، (ج) والإغريقية، والقبطية، والنوبية القديمة؛ (2) الأوغريتية، الأخمينية، والكوشية (المروية). فيما يلي عرض موجز لما يدخل في نطاق بحثنا من هذه الكتابات.

الكتابة الكنعانية : نشأتها وتطورها :

تقع الكتابة الكنعانية في ثلاث مراحل رئيسة، مبكرة ومتوسطة ومتأخرة. المرحلة المبكرة هي التي نشأت فيها الكتابة نشأتها التصويرية، التي ظلت عليها حتى صارت تجريدية في المرحلة المتوسطة. ولذلك تُسمّى الكتابة الكنعانية المبكرة. تليها المرحلة المتوسطة، وهي التي فيها اكتمل تجريد رموزها، وتفرع الفرعان الرئيسان، وهما الكتابتان العربية القديمة والإغريقية. بعد ذلك تأتي المرحلة المتأخرة، وتميزها سمات الكتابة الفينيقية وتفرعها أيضاً. فيما يلي تعريف المراحل وكتاباتها.

الكتابة الكنعانية المبكرة والمتوسطة :

الكتابة الكنعانية المبكرة هي أقدم ما يعرف من الكتابة الكنعانية. نقوشها الأولى من جزر (الشكل رقم 1:6) وسشم ولخيش بفلسطين، ويؤرخ لها بالقرن السابع عشر قبل الميلاد، ومن سرابيط الخادم بسيناء (الشكل 6 :2 -4) ويؤرخ لها بالقرن السادس عشر قبل الميلاد. رموزها تصويرية، أبجدية صرفة (الشكل رقم7)، جاءت بالطريقة الأكروفونية، التي يمثل فيها الرمزُ الصوتَ الأولَ في نطق الشيئ المصوَّر. تجوز فيها الكتابة عمودياً، بانتظام الرموز ذوات الوجهات وجهة واحدة (الشكل رقم 6: 1،2، 4)، أو أفقياً من اليمين إلى اليسار، أو العكس، بتوجيه الرموز ذوات الوجهات نحو آخر السطر (الشكل رقم 6 :3).

وهو عكس اتجاه الكتابة التصويرية المصرية، التي توجَّه فيها الرموز نحو أول السطر، ويطابقه توجيه الرموز في الكتابة التصويرية السودانية القديمة (المشهورة بالمروية 4:3).

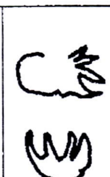
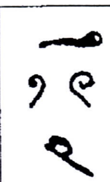
ففي ضوء ما تقدم أمكن التعرف إلى نطق عدد من رموز الأصوات الكنعانية، هي [1] ء (أليب، بالياء الممالة والياء الفارسية) للهمزة؛ [2] م (ميم، بالياء الممالة) للميم؛ [3] ل (لامد) لـلام؛ [4] الكف ك (كب، بالباء الفارسية) للكاف؛ [6] العيْن ع (عين. بالياء الممالة) للعين؛ [7] البيت ، و ب (بيث، بالياء الممالة) للباء؛ و[8] التقاطع ت (تاو) للتاء.

ولما تقدم، أمكن قراءة نقش جزر (الشكل رقم 1:6) ، المكوّن من الكف، واللامز (المهماز) والبيت، على أنه ك (كب. بالباء الفارسية : الكاف) ل (لامد : اللام) و ب (بيث، بالياء الممالة : الباء)، بالطريقة الأكروفونية، ليعطي الاسم "كلب". وكذلك، وبالأسلوب نفسه، تيسرت قراءة اسم المعبودة ب ع ل ت "بعلة، ربة" (الشكل رقم 2:6) عمودياً، وم ت ل ب ع ل ت "... لبعلة / للربة" (الشكل رقم 3:6)، عمودياً وأفقياً، كما قريء ل ء ب ب م ل ك "لأبِّملك" (الشكل رقم 4:6) عمودياً .



(الكشل رقم 6) : الكتابة الكنعانية المبكرة (1) : جزر بفلسطين، 2 – 4 سرابيط الخادم بسيناء .

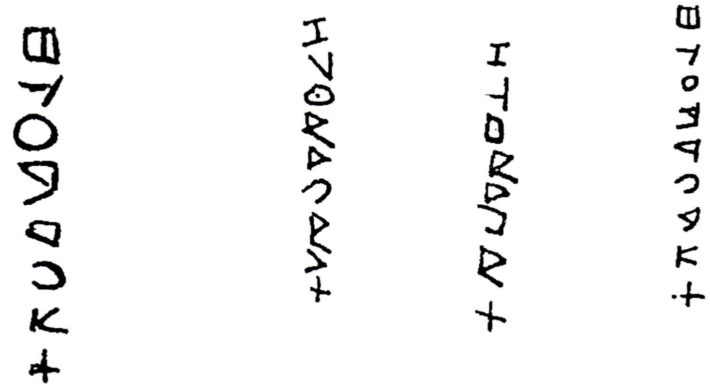
فمن هذه النقوش مجتمعة أمكن الحصول على عدة رموز أبجدية بقيمها الصوتية (الشكل رقم 7)، هي الأصوات الأبجدية، وعلى أسماء الرموز، وهي أسماء الأشياء المصوَّرة. والأخيرة هي أصل أسماء الحروف الأبجدية الساميّة والإغريقية، وفيما بعدُ العربية. يلاحَظ في الكتابة خلوها من رموز الحركات.

الرمز							
النطق	ك	ل	ب	ع	ت	م	ء

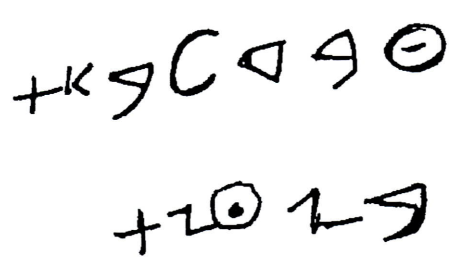
(الشكل رقم 7) : الكتابة الكنعانية المبكرة : بعض رموز الأبجدية، مستنبطة من (الشكل رقم 6).

تلي المرحلة السابقةَ المرحلةُ المتوسطة. وهي انتقالية بين المبكرة والمتأخرة، وتسمّى كتابتها الكتابة الكنعانية المتوسطة. تشمل نقوشاً ما بين أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقريباً إلى منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد. هي نقوش قبور الولايدة وبيت شمس (نحو 1200 قبل الميلاد) وعزبة صرطة والخضر (نحو 1100 قبل الميلاد)، وكلها بفلسطين. تميزت هذه المرحلة (1) بالتجريدية في الرموز ؛ (2) وشدة التربيع فيها؛ (3) ولف بعض الرموز 90 درجة يمنةً أو يسرةً، وقلة أخرى 180 درجة ، كما في الكتابة التصويرية السومرية؛ (4) وفاصلة خطاً عمودياً بين الكلمات ؛ (5) وإمكانية الكتابة محراثياً، بأن يبدأ السطر الذي يلي من الجهة التي ينتهي فيها الذي قبله، في بداية المرحلة؛ (6) واستقرارها على اتجاه واحد من اليمين إلى اليسار في آخرها (نحو 1100 قبل الميلاد). ولوجود الطريقة المحراثية في النقوش العربية المبكرة والإغريقية المبكرة، صار من الراجح تفرّع هاتين الكتابتين من الكنعانية في هذه المرحلة، أي من الكتابة الكنعانية المتوسطة قبل تخلصها من هذه السمة.

ولهذه المرحلة يعود أقدم إيراد للأبجدية، وإن كانت ناقصة حرفين، ختم به كاتب نقش عزبة صرطة نقشه في ترتيب من اجتهاده. فمع رداءة الخط جاز التعرف إلى حروف الأبجدية وقراء تها في ترتيبها الآتي : أ ب (؟) ج د هـ م (؟) ز ط ي ك ل [؟] ن س (؟) ب (؟ فارسية) ع ص ق (؟) ش ت .



١ ٢ ٣ ٤



٥ أ ب

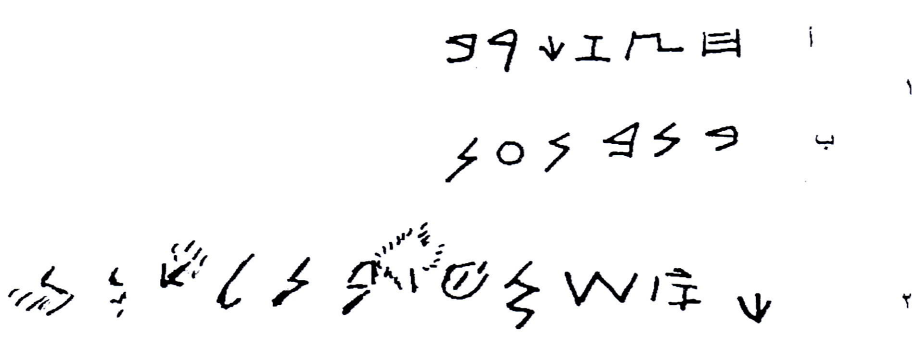
(الشكل رقم 8) : الكتابة الكنعانية المتوسطة : نقوش الخضر 1-5 .

خير ما يمثل هذه الفترة نقش الخضر 5 (الشكل رقم 5:8). وهو واحد من خمسة نقوش على خمسة نصال لشخص اسمه عبد لبؤة . الكتابة في الأربعة الأولى (الخضر 1-4، الشكل 5:1- 4)، عمودية. وتقرأ : ح ص ع ب د ل ب ء ت "نصل عبد لبؤة". وح ص هي "حُس" العربية الفصيحة، بالمعنى نفسه. أما الكتابة في الخضر 5 فأفقية، من اليمين إلى اليسار، تبدأ على وجه النصل (الشكل رقم 5:8 أ) وتستمر على ظهره (الشكل رقم 5:8ب)، ويقرأ : ع ب د ل ب ء ت <ب ن> ب ن ع ن ت "عبد لبؤة <بن> بن-عنات". فهو ينقص عن الأربعة الأولى بكلمة ح ص "حُس، نصل"، ويزيد عنها بذكر الأبوة. وقد رجح الباحثون أن يكون ب ن – ع ن ت هو الاسم المركب "بن عناة" المعروف من نقوش أخرى، وأن ب ن هنا للبنوة وأول الاسم المركب معاً. وهذا ما يدعمه نقش البقاع (الشكل رقم 9: 1) الواقع في الكتابة الكنعانية المتأخرة. يلاحظ هنا، لا الخلو من الحركات عامة فحسب، وإنما من ألف المد في ع ن ت "عناة" خاصة. و 𐤀 أليب (ألف) التي في ل ب ء ت "لبؤة" حرف صحيح، يُقرأ همزة مفتوحة هنا، وأنه لا يُستخدَم للمد، لا هنا ولا في كل النقوش بعد ذلك. وبذلك تُعد نقوش الخضر 1-4 نهاية الكتابة العمودية، كما يُعد الخضر 5 بداية استقرار الكتابة أفقياً، ومن اليمين إلى اليسار.

الكتابة الكنعانية المتأخرة (الفينيقية) :

تبدأ المرحلة المتأخرة نحو 1050 قبل الميلاد، وتسمى كتابتها الكتابة الكنعانية المتأخرة. تبدأ قبيل نقش تابوت أحيرام (1000 قبل الميلاد) بنقوش قصيرة من البقاع بلبنان ونورا بجزيرة سردينيا وتكّة بجزيرة كريت. ثم تدخل فيها نقوش تابوت أحيرام، ويحيملك، وأبَعل، وإلبعل، وشفطبعل، التالية له. فيكون نقش تابوت أحيرام لا بداية ولا أصلاً للكتابة الأبجدية، كما هو شائع كثيرًا، وإنما هو في زمرة نقوش واقعة في بداية مرحلة تجريدية متميزة متصلة بمرحلة أخرى تجريدية قبلها مباشرة، هي الكتابة الكنعانية المتوسطة، التي بدورها موصولة بالكتابة الكنعانية المبكرة التصويرية.

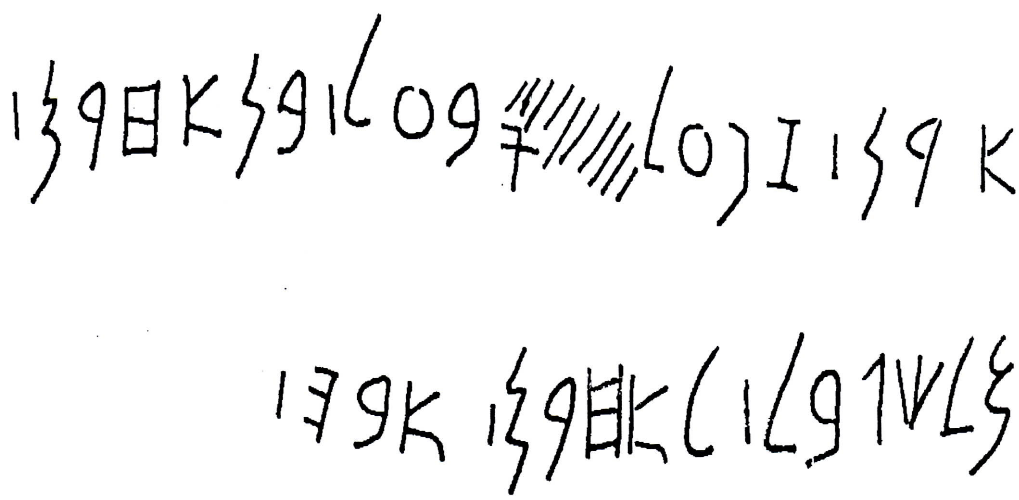
أول الكتابة الكنعانية المتأخرة من البقاع، مكتوب على وجهي ح ص "حُس، نصل"، صاحبه زكر بعل بن بن – عناة، يُقرأ: ح ص ز ك ر ب [ع ل] "نصل زكر بعل" على وجه (الشكل 9 : 1أ)، وب ن ب ن ع ن [ت] "بن بن عنا[ة]" على الوجه الآخر (الشكل رقم 9 : 1ب). اسم الوالد فيه، ب ن ع ن [ت] "بن عناة"، اسم مركب، كما في الخضر 5. أما نقش تكة (الشكل رقم 2:9) فإنه يقرأ: ك س / ش م ع / ب ن ل ء 0 0 "كاس شمعي بن لأ [. .]".



(الشكل رقم 9) : الكتابة الكنعانية المتآخرة (الفينيقية) : نقشا (1) البقاع (33) و(2) تكة بجزيرة كريت .

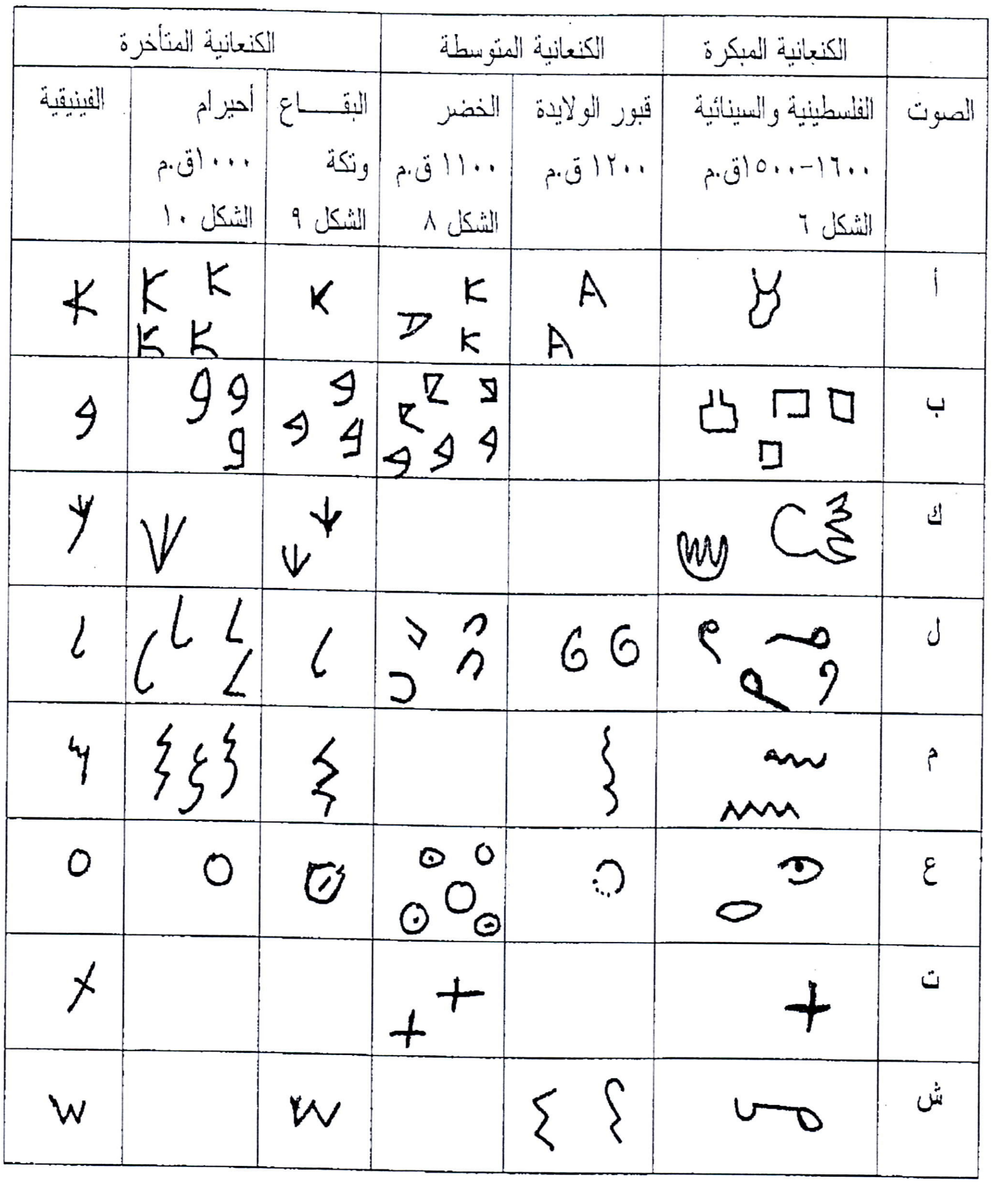
يلاحظ الخلو من أي رموز للحركات ولما يبيّن المد في كل من ع ن ت "عناة" وك س "كاس"، وأن الأخيرة منطوقة بلا همز، وإلا لثبتت الهمزة بعد الكاف فيها (هكذا : ك ء س)، كما ثبتت في ل ب ء ة "لبؤة" في نقش الخضر 5 .

يلي تلك المجموعة نقشُ تابوت أحيرام (الشكل رقم 10)، الذي يُقرأ سطره الأول أرن / ز پ ع ل ... س ب ع ل / ب ن ء ح ر م / م ل ك ج ب ل / ل ء ح ر م / ء ب هـ / "التابوت الذي عمل (هـ) [افسـ]سبعل بن أحيرام ملك جبيل لأحيرام أبيه". مع خلو النقش من رموزٍ للحركات، فإنه خلا أيضاً من المد في ز (ي) "الذي"، ومن ياء المد وألفه في ء ح (ي) ر (ا) م "أحيرام" مرتين، والياء الممالة وحدها في ج ب (ي) ل "جبيل"، وغير الممالة في ء ب (ي) هـ "أبيه" .



(الشكل رقم 10) : الكتابة الكنعانية المتأخرة (الفينيقية) : نقش تابوت أحيرام .

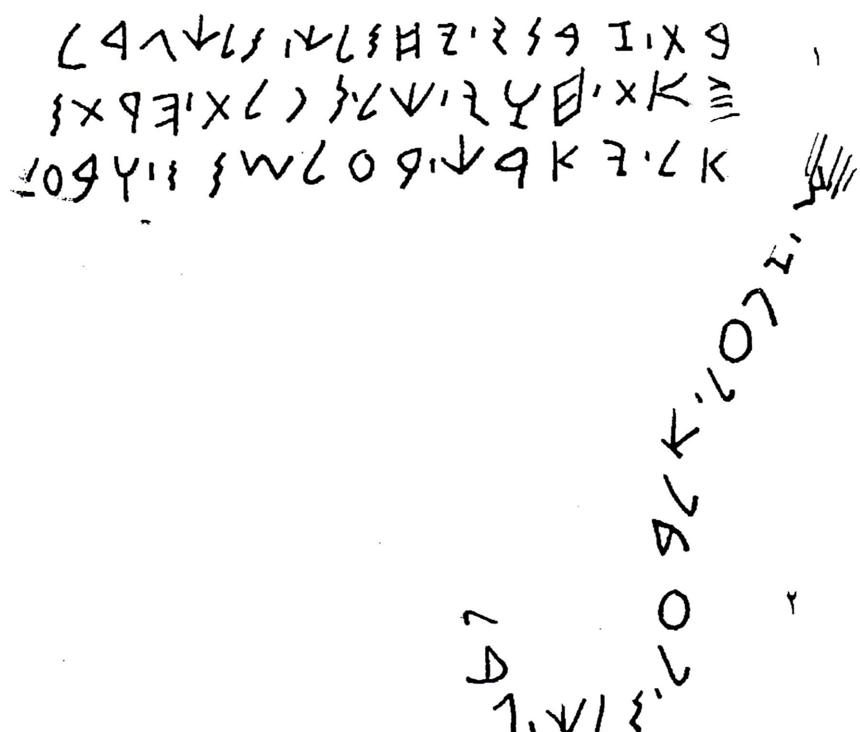
لا يخفى انسجام نقش تابوت أحيرام واتصاله مع ما قبله من نقوش تكّة والبقاع والخضر من حيث (1) أشكال رموزه (الشكل رقم 11)؛ (2) الفاصلة العمودية بين الكلمات؛ (3) اتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار؛ (4) توجيه الرموز ذوات الوجهات يسرة نحو آخر السطر؛ (5) الخلو مما يثبت التحريك أو المد بالألف والياء. ولصلة المجموعة المذكورة بالكتابة الكنعانية المبكرة يكون نقش تابوت أحيرام، لا بدايةً أو أصلاً، بل حلقة (مقترنة بالفينيقيين) واحدةً من سلسلةٍ متصلة، بدايتُها الكتابة الكنعانية المبكرة (الشكل ر قم 11). ولهذا السبب جعلنا الكتابة الفينيقية وفروعها، المؤابية والعبرية القديمة والآرامية كلها، داخلة في الكتابة الكنعانية المتأخرة.



(الشكل رقم 11) : أمثلة لتطور أشكال الرموز من الكنعانية المبكرة (الفلسطينية والسينائية) إلى الكنعانية المتأخرة (الفينيقية) .

وسنظل نستخدم الاسم "الكتابة الفينيقية" لا لشيء سوى لاقترانها بالفينيقيين، تماماً كاقتران المؤابية بالمؤابيين، والعبرية بالعبريين ، والآرامية بالآراميين .

بعد نقش تابوت أحيرام تجيء نقوش يحيملك (الشكل رقم 12:1) وأبّعل، وإلبعل (الشكل رقم 2:12)، وشفطبعل الأكثر طولاً مما تقدم، التي تتميز رموزها بالتربيع مع تراوح الفاصلة بين الكلمات ما بين خط عمودي ونقطة كالتي في نقش إلبعل. فالى ما تقدم من خصائص، استقر عدد الرموز على اثنين وعشرين، هي أ ب ج د، هـ وز ،ح ط ي، ك ل م ن، س ع ف ص، ق ر ش ت، خالية من ث خ ذ ض ظ غ، التي أضافتها الكتابة العربية فيما بعد.



(الشكل رقم 12) : الكتابة الكنعانية المتأخرة (الفينيقية) : نقشا (1) يحيملك و(2) إلبعل .

3:1:3 الكنعانية المبكرة والعربية الشمالية والجنوبية

تبلورت منذ أكثر من أربعين سنة فكرة أن الكتابة الكنعانية، في مرحلتها المتوسطة، شهدت تفرع كتابتين مهمتين منها؛ أولاهما : الكتابة العربية (الشمالية والجنوبية)، وثانيتهما : الكتابة الإغريقية. يؤرخ أصحاب هذا الرأي تفرّع الأولى إلى نحو آخر القرن الرابع عشر (1300) قبل الميلاد، وتفرع الثانية إلى القرن الثاني عشر (1100) قبل الميلاد. إنّ تفرّع الثانية لا اختلاف حوله. أما تفرع

الأولـى ، فإنـه مقبـول إلا لقلـة مـن البـاحثين، مـالـت إلـى أنـها اختـراع محلـي متطـور عـن الرسـومات الصـخرية بـالجزيرة العربيـة. وهـو رأي ضـعيف لضـعف مبحثـه أولا؛ ولأوجـه الشبه بين الكتابـة العربيـة القديمـة والكنعانيـة المتوسطة ثانياً (الشكل رقم 13) ؛ ولوقوف الممارسة الإنسانية، وتجارب الكتابات في الشرق الأدنى ضده، بعدم الضرورة للاختراع مادام الاقتباس متيسراً. فأوجه الشبه هي :

1- الشبه العام والخاص بين عدد كبير من رموزهما.

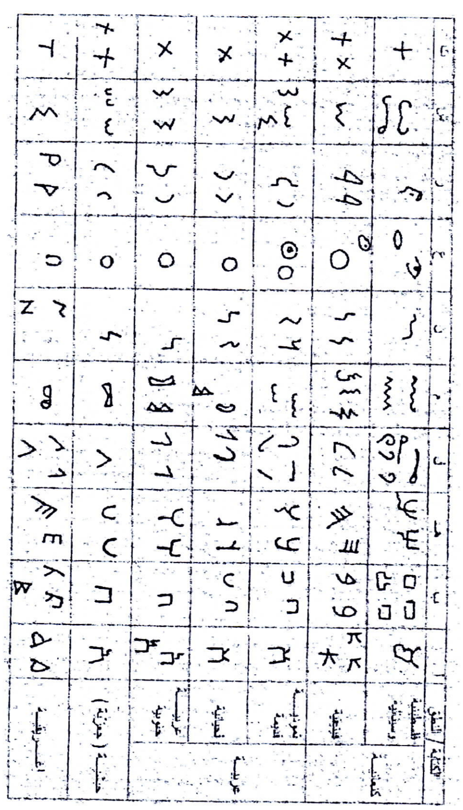
2- قيمها (دلالاتها) الصوتية.

3- إمكانية ابتداء الكتابة من اليمين أو اليسار بتوجيه وجهات الرموز ذوات الوجهات نحو آخر السطر.

4- اتباع الطريقة المحراثية في تعاقب سطور النقش الواحد. والأخيرة سمة معروفة من سمات الكتابة الكنعانية المتوسطة ، بها أرّخ أهل الإختصـاص تفرع الكتابتين (العربية القديمة والإغريقية) لهذه المرحلة المتوسطة، السابقة لاختفاء المحراثية؛ أي قبيـل الكتابـة الكنعانيـة المتـأخرة، المؤرخـة بدايتها بنحو 1050 قبل الميلاد. ولعل المأخذ الوحيـد هـو أن التـاريخ البعيـد (1300 ق. م) المعطـى للكتابـة العربيـة القديمـة أقـدم مـن المتعـارف عليـه. ولعل شيئاً نحـو 1150 ق. م يكـون أنسب قليلاً. وهذا استدلال عقلي.

الكتابة الأوغريتية :

الكتابة الأوغريتية اسم لنظام برموز مسمارية أبجديـة، كتبـت بـه لغـة ساميـة، جـاء معظـم نقـوشهـا مـن أوغـريت

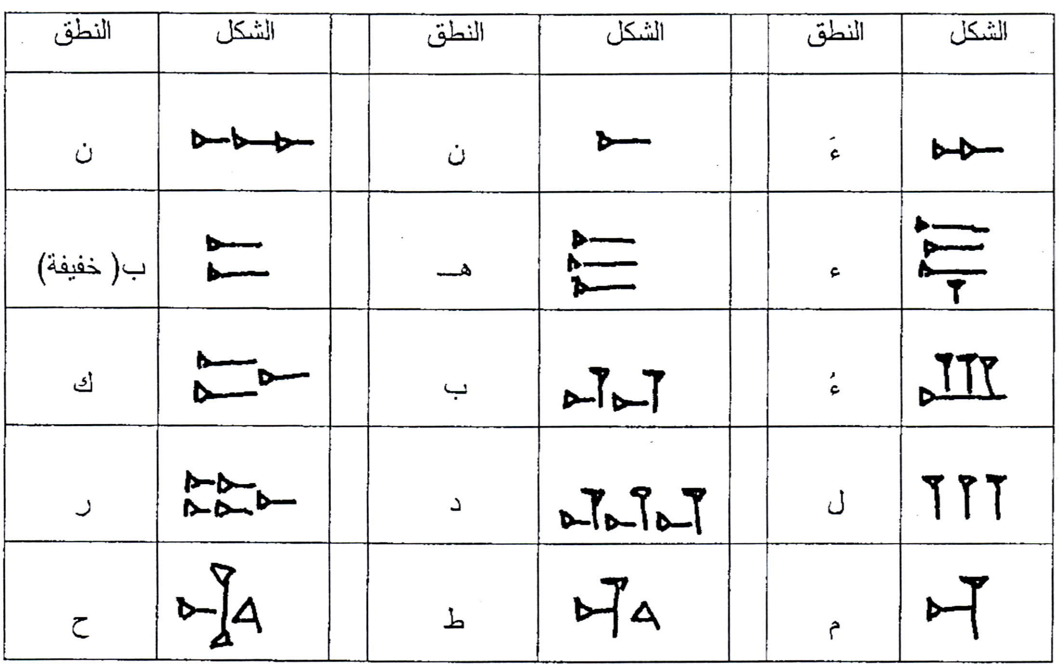


(قرب رأس شمرا حالياً) وما حولها بسوريا. ويُؤرَّخ لها بالقرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد. يعني تاريخها أنها كانت معاصرة لكتابات من نظامين مختلفين، إحداها الكنعانية المتوسطة، المشتركة معها في النظام الأبجدي الصرف من جهة، والأخريان هما الأكدية والمصرية، المنتميتان إلى نظام خليط من جهة أخري. الثانية منهما، وهي المصرية، عرفت الأبجدية قبلها واستعملتها كأحد الأساليب في نظامها الخليط، كما سبق توضيحه.

إن انحصار معظم مادة النقوش مكاناً وزماناً، في أوغريت وما حولها من حيث المكان، وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد من حيث الزمان، يعني واحداً من أمرين؛ (1) إما أنه لم ينقَّب بعدُ عن كل الأماكن أو معظمها، الحاوية لنقوش باللغة الأوغريتية وكتابتها، و(2) إما أن الكتابة الأوغريتية عجزت عن منافسة أيٍّ من الكتابتين القويتين المنافستين لها في المنطقة، والسابقتين لها عهداً، وهما (أ) الكنعانية المتوسطة، المعاصرة لها آنذاك، والأبجدية مثلها والأيسر منها خطاً ، و(ب) الأكدية التي كانت عالميةً لغة وكتابة، وباسطةً سلطانها وسيطرتها في بلاد الرافدين، وبلاد الشام ومؤثرةً على كتابات جيرانهما .

لم يزل الخلاف قائمًا حول أصل رموز الكتابة الأوغريتية. ولم ير أهل الاختصاص في رموز الكتابة الأكدية شيئًا من ذلك، بالرغم من قرب الأخيرة هذه منها مكانـًا، ومعاصرتها لها زمنًا من عمرها الطويل، ومشاركتها لها في مسمارية رموزها.

تميزت الكتابة الأوغريتية بأنها (1) أبجدية؛ (2) تجريدية برموز مسمارية، بسيطة جداً في أشكالها؛ (الشكل رقم 14)؛ (3) بدأت بتسعة وعشرين رمزاً، زيدت لتصبح واحداً وثلاثين رمزاً، خالية من الحركات وحروف المد ؛ (4) مع فاصلة بين الكلمات في هيئة مسمار قصير عمودي؛ (5) تُكتب في اتجاهٍ من اليسار إلي اليمين، بتوجيه رء وس المسامير الأفقية يسرةً نحو بداية السطر .



(الشكل رقم 14) : رموز أوغريتية مختارة .

من أهم الملاحظات حول الكتابة الأوغريتية هو :

1- أن رموزها زيدت من تسعة وعشرين إلى واحد وثلاثين برمزين، ليكون أحدُهما للهمزة المكسورة ( ) والآخرُ للهمزة المضمومة ( ) ، بعد أن كان هناك رمز واحد فقط ( ) للهمزات الثلاث، فأصبح ذلك الرمز بعد ذلك خاصاً بالهمزة المفتوحة.

2- أنها في احتوائها على فاصلة بين الكلمات هي مسمار قصير عمودي ، تتفق مع الكتابة الكنعانية، في مرحلتها المتوسطة المعاصرة للأوغريتية، في هذه الخاصية الكنعانية (الشامية) الفريدة آنذاك.

3- أن رمز العين (ع) ( )، في هيئته المسمارية هذه، تمثيل مسماري لرمز العين نفسها الدائري ( ) في الكنعانية المتوسطة؛ (د) أنها لا تماثل الكتابات السومرية والإبلائية والأكدية في مسمارية رموزها فحسب، وإنما في اتجاه كتابتها، بكونه من اليسار إلي اليمين، وبتوجيه رءوس المسامير الأفقية يسرةً نحو أول السطر أيضاً.

4- أن تبسيط رموزها المُسرَف فيه أدى إلي التباس على الكتاب الأوغريتيين أنفسهم بين الرموز ذوات الأشكال المتقاربة، فكتبوا أحدها بدلاً من الآخر، نحو ما بين الباء المخففة ( ) من جهة والهاء ( )، والكاف ( ) من جهة أخرى. فالهاء ( ) زائدة عنها بمسمار ثالث مواز، والكاف ( ) زائدة عنها بمسمار جانبي أيمن.

وفي ضوء ما تقدم كله، تيسر في الكتابة الأوغريتية كتابة ما شِيْئَت كتابته، أبجدياً، ومن اليسار إلي اليمين. فعلى سبيل المثال، ومما تسهل مقارنته مع أمثلة أوردناها في غير الأوغريتية من كتابات البحث، الأسماء م ل ك "مِلك"، ك ل ب "كلب"، ب ع ل "بعل"، و ع ن ت "عناة" و ع ب ك "أبوك"، بعدم إظهار الحركات والمد، مما يؤهل ع ب ك لأن تُقْرأ ممدودة بالألف أو الياء أو الواو سواءً. ولكن سياقَ النص المأخوذة منه يجعلها مرفوعة بالواو. ولعله من المفيد مقارنة الاسم م ل ك هنا مع المصدر "مُلْك" مضافاً لضمير المخاطب في م ل ك ك "مُلْكَكَ"، والفعل مسنداً لضمير المخاطب ومنصوباً بلام التعليل في ل ع م ل ك "لِأَمْلُكَ".

الكتابة الأخمينية :

الكتابة الأخميمية أهم الكتابات المتأثرة بالمسمارية الأكدية كلها، لمساهمتها العظيمة في فك رموز الكتابتين الأكدية والسومرية، إذ كانت القناة التي فُكت بها رموزُ الكتابة الأكدية أولاً، بواسطة النصوص الأخمينية ثلاثية اللغة (الأخمينية والإيلامية والبابلية الحديثة : لأحشويرش وأرتخسرسيس) ، وهي معظمها، أو رباعية اللغة (الأخمينية الإيلامية، والبابلية، والمصرية : لأحشويرش). ومن الأكدية فكّت الكتابة السومرية بعد ذلك. لذا فسوف نخصها دون غيرها من تلك الكتابات الآخذة من الأكدية.

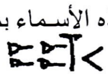
الكتابة الأخمينية كتابة أبجدية مقطعية في آن واحد، برموز مسمارية للغة الفارسية التي تكلمها الأخمينيون. وهم الفرس المنتسبون إلى جد لهم اسمه ها أخمانيش، وسادوا الشرق القديم من بلاد الهند شرقاً إلى مصر غرباً، ما بين بداية الثلث الأخير من القرن السادس قبل الميلاد وأول الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد. وخلال فترة سيادتهم استخدموا اللغة الأخمينية وكتابتها في فارس بصفة خاصة، بينما استخدموا اللغة الآرامية وكتابتها في الأجزاء الغربية من دولتهم. وخلفوا عدة نقوش ثنائية اللغة، أو ثلاثيتها أو رباعيتها، كما تقدم ذكره .

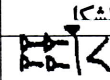
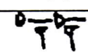
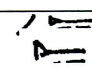
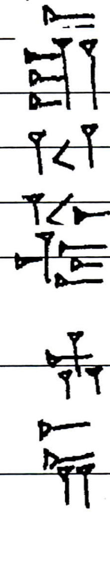
من الواضح أن رموز الكتابة اختيرت بإيحاء عام رافدي، أكدي في المقام الأول، لا بتأثير محدد مباشر؛ ذلك لأن أشكال رموز أصواتها ودلالاتها الصوتية، وأشكال

رموز المعاني الأربعة التي فيها ودلالاتها المعنوية، لا تشير إلى مصدر رافدي محدد؛ لا في التكوين ولا في الدلالة.

تتميز الكتابة الأخمينية بأنها كتابة : (1) صوتية مقطعية (باستثناء أربعة رموز معان تجوز كتابتها صوتياً مقطعياً أيضاً)؛ (2) عدد رموزها واحد وأربعون. تحتوي على (أ) ستة وثلاثين رمزاً صوتيًا ، (ب) أربعة رموز معانٍ (تجوز كتابتها صوتياً)، و(ج) مخصِّص معنى؛ (3) رموزها تجريدية مسمارية في مجموعات مبسطة؛ (4) يمثل الرمز إما صوتاً واحداً أو مقطعاً مفتوحاً بحركة؛ (5) مسامير الرمز ما بين عمودية وأفقية تصاحبها كثيراً العلامة ؛ (6) اتجاهها من اليسار إلى اليمين بتوجيه رءوس المسامير الأفقية ورأس  يسرةً .

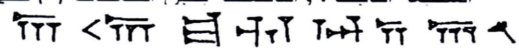
رموز المعاني :

رموز المعاني أربعة، لا يُعرَف سُرها، ولا علاقة أشكالها بدلالاتها الصوتية والمعنوية (الشكل رقم 1:15). خُصَّت بها مدلولات ذوات أهمية وخصوصية للأخمينيين، هي "ملك"، ومعبودهم "أهورَ مزْدَ"، و"أرض" و"منطقة، بلد، وطن". لكن هذه الأسماء يمكن كتابتها صوتياً أيضاً، نحو رمز المعني  أهُورَ مَزْدَ، الذي تجوز كتابته صوتياً، من اليسار إلى اليمين، بالرموز

الفئة		الشكل	النطق				الوظيفة
	1		أهُورَ مَزْدَ				**رمز معنى**
أ	2		فتحة	ألف مد	همزة مفتوحة	همزة ممدودة بالألف	**رمز صوت** : حركة؛ حرف صحيح؛ مقطع مفتوح
	3		كسرة	ياء مد	همزة مكسورة	همزة ممدودة بالياء	
	4		ضمة	واو مد	همزة مضمومة	همزة ممدودة بالواو	
ب	5		**د** بسكون	**دَ** مفتوحة			**رمز صوت** : حرف صحيح بسكون؛ مقطع مفتوح
	6			**دِ** مكسورة			
	7			**دُ** مضمومة			
	8		**ي** بسكون	**يَ** مفتوحة			
	9		**و/ف** بسكون	و/**فَ** مفتوحة			
	10			و/ **فِ** مكسورة			
	11		**ثْرْ** بسكون	**ثَرَ** مفتوحة الآخر			**رمز صوت:** مقطع مقفول؛ مقطعان مفتوحان
ج	12						**فاصلة** : بين الكلمات

(الشكل رقم 15) : رموز ممثلة لأنواع رموز الكتابة الأخمينية .

السبعة التالية، و الفاصلة بين الكلمات ( ) في



أ ورَ مَ زْ دَ ا.

يلاحظ ورود الواو بدلاً من الهاء في **أوُرَ**، لكتابة "أهُورَ" .

رموز الأصوات :

رموز الأصوات ثلاث فئات، هي :

(أ) فئة من ثلاثة رموز تمثل الحركات وما يقابلها من جنسها من حروف المد والهمزات المتحركة والممدودة (الشكل رقم 15: 2 -4). أولها ( ) للفتحة، وألف المد، والهمزة المفتوحة والهمزة الممدودة بالألف كما في اسم أهورَمزْدَ؛ وثانيها ( ) للكسرة، وياء المد، والهمزة المكسورة، والهمزة الممدودة بالياء؛ وثالثها ( ) للضمة ، وواو المد، والهمزة المضمومة، والهمزة الممدودة بالواو. يتضح مما قيل أن الواحد من هذه الرموز الثلاثة يكون حرفاً صحيحاً، إن كان همزة ممدودةً وغير ممدودة، ويكون حركة أو حرف مد. وينبّه بأن الرمزين الثاني والثالث، حينما يكونان للمد ويكتبان ياءً وواواً بالعربية يختلفان شكلاً ووظيفة عن **ي/يَ** (الشكل رقم 15:8) و **و/وَ** (الشكل رقم 15:9) و **و/وِ** (الشكل 14:10)، الحرفين الصريحين. أما الرمزان الأخيران فيزول لبسهما حينما يقرآن **ف/فَ** و**ف/فِ** (الفاء فيهما مثل حرف v)؛

(ب) فئةٌ من اثنين وثلاثين رمزاً (الشكل رقم 15:5-10)، يكون الواحد منها إما حرفاً صحيحاً أو مقطعاً مفتوحاً بحركة ، نحو **د/دَ**، و **د/دِ**، و **د/دُ** (الشكل رقم 15:5-7)؛

(ج) فئة من رمز واحد ( ) يمثل مقطعاً مقفولاً ينطق **ثر**، يجوز أن يفتح آخره بالفتحة ليكون **ثرَ** في حالاتٍ خاصة (الشكل رقم 15:11) .

الفاصلة بين الكلمات:

الفاصلة بين الكلمات مسمار قصير مائل يسرةً (الشكل 15:12)، لعل ميلانه لتمييزه عن المسامير الأخرى، التي هي ما بين عمودية وأفقية أبداً.

كيفية الكتابة :

أما كيفية الكتابة، فإنها مقطعية بمقاطع مفتوحة فيما عدا **ثر** ، الثالث والثلاثون حين يقرأ مقطعاً مقفولاً. وغالباً مايأتي بعد المقطع المفتوح بالحركة واحد من مجموعة الثلاثة (الفئة أ أعلاه) حسب الحركة التي ينتهي بها المقطع المفتوح، إما لمد الحركة، وإما لتوكيدها. لذا فمجيء كفتحة أو ألف مد بعد المقطع المفتوح **دَ** في ، مقروءين من اليسار إلي اليمين، فإمّا أن تمد صوته في **دَ** ليكون **دا** وإمّا أن تؤكد الفتحة في **دَ** فيظل المقطع كما هو **دَ** .وذاك ما يُرى في آخر كلمة أهورَمزْدَ المستشهد بها أعلاه.

الكتابة المروية :

الكتابة المَرَويّة اسم للنظام الأبجدي الذي كتب به السودانيون القدماء لغتهم. ترجع النقوش المكتوبة بها إلى الفترة من القرن الثاني قبل الميلاد إلى آخر القرن الثالث الميلادي؛ خلال الفترة من تاريخ السودان القديم التي اشتهرت بالفترة المَرَويّة. لقد حرصنا على أن يكون الوصف "السودانية القديمة (المشهورة بالمروية)" نعتاً للغة وكتابتها معاً، فيقال "اللغة السودانية القديمة (المشهورة بالمروية)"، والكتابة السودانية القديمة". لكن وصف كل من اللغة السودانية القديمة وكتابتها بالمروية لا يزال أرسخ من أن يتزحزح كلية الآن. فلا مناص إذن من الاستمرار في استخدام لفظة "المروية" ، ولكن في معناها الخاص بفترة معينة من تاريخ السودان القديم ولغته وكتابتها.

عرفت الكتابة المروية خطين، تصويري وتجريدي. كلاهما متأثران بالرموز المصرية، التصويري

من التصويرية (الهيروغليفية)، والتجريدي من التجريدية الديموطيقية.

كان الخط التصويري في أول الأمر للكتابة الرسمية، والتجريدي للحياة اليومية. وفي القرون الميلادية الأولى صار التجريدي لهما معاً .. مع استمرار الكتابة التصويرية اتسمت الرموز التجريدية بالتربيع في بدايتها، ثم اتجهت رويداً رويداً نحو التدوير وإطالة ذيول ماله ذيول من الرموز، مما جعل ذلك وسيلة مهمة في تأريخ النقوش تأريخاً نسبياً. فالكاف **ك**، والنون **ن**، والباء الفارسية **پ**، مثلاً، تحولت من هذه الأشكال التربيعية المميزة لفترتها المبكرة إلى تدويرية بذيول مناسبة في فترة انتقالية، أولاً، نحو و و ؛ ثم إلى تدويرية بذيول مسرفة الطول في الفترة المتأخرة أخيراً ، نحو و و ، وعلى الحجارة كما على البردي والعظام والفخار والقماش.

فيما يلي أهم سمات هذه الكتابة في خطيها، وهي أنها : (1) صوتية صِرفة خالية من رموز المعاني ومخصِّصات المعاني؛ (2) أبجدية في خطيها، بثلاثة وعشرين رمزاً؛ (3) مع فاصلة بين الكلمات في هيئة ثلاث دوائر في الخط التصويري ونقطتين في الخط التجريدي؛ (4) من بين رموزها ثلاثة رموز، هي في رأي معظم الباحثين، حركات على النهج الهندي الأوربي، اثنان منها تقابلان e و i ، والثالث للواو الممالة o ، وفي رأيي، هي على النهج السامي، كلها ممدودة، تمثل الألف، والياء والواو، بالتتالي، ليس لها ما يقابلها من الحركات (الفتحة، الكسرة، الضمة)؛ (5) تُكتَب من الاتجاهين في خطها التصويري بتوجيه معظم الرموز نحو آخر السطر، كالكنعانية المبكرة، وتُكتب من اليمين دائماً في الخط التجريدي .

لذا تيسرت للكتابة المَرَوية كتابة ما شيئت كتابته صوتياً، سودانيًا كان أم مصرياً دخيلاً، بتباين واضح مع نظام الكتابة المصرية. وعلى ذلك شواهد كثيرة بالخطين التجريدي، من الأسماء والمفردات المختلفة المشتركة بين الحضارتين المصرية والسودانية، كأسماء الملوك والملكات، والوظائف الإدارية. لتوضيح هذا التباين، بالكتابتين التصويريتين المصرية والسودانية المروية، نورد مثالاً سودانيًا مروياً، هو اسم الملك السوداني المروي نتك أمون؛ فهو في الكتابة المصرية التصويرية، ومن اليمين إلى اليسار، يُكتَب **أمـ ن نُ ت ك**، (1) بتقديم **أمن** "أمون" في الكتابة وإن كان متأخراً في النطق، كما هو أسلوب الكتابة المصرية، (2) وتوجيهٍ نحو اليمين (أول السطر) للرمزين ذوي الوجهتين ، سعفة النخيل للهمزة والسلة للكاف، (3) في كتابة صوتية خليط، أبجدية مقطعية، فيها رمزان مقطعيان هما **مـن** و **نُ**، وأربعة رموز أبجدية هي الهمزة، و النون و التاء و الكاف .

أما في المروية التصويرية، وفي اتجاه من اليمين إلى اليسار كذلك، فإن الاسم نفسه مكتوب أبجدياً، **ن ت ك م ن ي**، (1) بتأخير **م ن ي** "أمون" كما هو متأخر في النطق المروي للاسم، (2) وبتوجيهٍ نحو اليسار (لآخر السطر) للرموز ذوات الوجهات ، وهي العة ، و الوزة و البومة والرجل السائر ، (3) في كتابة صوتية أبجدية صرفة، مكونة من النون، و التاء، الكاف و الميم و النون مرة ثانية، و الياء .

فالتباين، بإيجاز، واضح في الصوتية الأبجدية الصرفة المروية من جهة، والصوتية الخليط، المقطعية الأبجدية، المصرية من جهة أخرى؛ و(2) توجيه الرموز ذوات الوجهات نحو آخر السطر في المروية، ونحو أوله في المصرية، في اتجاه واحد للكتابة هو من اليمين إلى اليسار. فهنا مخالفة مروية للمصرية في التوجيه مماثلة لمخالفة الكتابة الكنعانية المبكرة لها أيضاً، مما يمثل وجه شبه غريب بين الكتابتين المروية والكنعانية المبكرة، مع ما بينهما من فارق زمني يزيد على 1400. ولا تقل عن ذلك

غرابةً الفاصلةُ بين الكلمات في الكتابة المروية، التي تخلو منها المصرية، وتُعدّ سمة للكنعانية المتوسطة والمتأخرة. فالفاصلة في الكتابة المروية الهيروغليفية ثلاث دوائر أفقية (° ° °) حين تكون الكتابة عمودية"، وعمودية (⁝)، حين تكون الكتابة أفقية. وهي في المروية التجريدية نقطتان مترادفتان (⁚) دائماً، سواءً أكانت الكتابة عمودية أم أفقية.

الكتابة القبطية :

يُقصد بالكتابة القبطية تلك الرموز الأبجدية، الواحد والثلاثون، التي كتبت بها اللغة القبطية في مصر، منها أربعة وعشرون يونانية، وسبعة مصرية الأصل. الأخيرة من الكتابة الديموطيقية. بدأت في القرن الثاني أو الثالث الميلادي، بعد نحوٍ من 3500 سنة من أول تدوين للغة المصرية نفسها. قبل التعريف بالكتابة لابد من شيء عن اللغة القبطية، وما بها من أهم الظواهر التي انعكست في كتابتها.

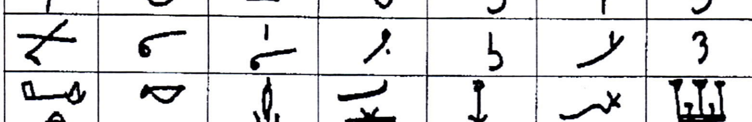
اللغة القبطية هي : اللغة المصرية القديمة السامّية، في آخر مراحلها، كما كان يُتحدَّث بها وقت تدوينها، وكما حفظتها الكتابة الديموطيقية، لا التصويرية (الهيروغليفية). لكن بينها وبين اللغة المصرية القديمة اختلافات كثيرة، وخاصة في المفردات، التي منها كثير من المفردات اليونانية الدخيلة، أسماءً وأفعالاً. وبعد الفتح الإسلامي لمصر نحو منتصف القرن السابع الميلادي دخلت أسماء عربية أيضاً.

عرفت اللغة القبطية أربع لهجات رئيسة وأخرى فرعية، الواحدة من هذه اللهجات الفرعية مقاربة لإحدى اللهجات الرئيسة أو آخذة من اثنتين معاً. واللهجات الأربع الرئيسة، وحسب شيوعها، هي : الصعيدية والبحيرية، والأخميمية والفيومية. وبما أن اللغة المصرية القديمة لغة ساميّة أساساً، بها أصوات ليست في الأبجدية اليونانية، فقد حدث للكتابة اليونانية هذه المرة عكس ما حدث للكنعانية، السامية، عندما أريد بها كتابة اللغة الإغريقية؛ وهو كيفية كتابة لغة ساميّة الأصل برموز للغة غير ساميّة، مع إظهار اللهجات الرئيسة والفرعية. لهذا لم يكن بد من اختفاء بعض الأصوات المصرية لعدم وجود رموز لها في الأبجدية اليونانية، نحو العين والحاء، والقاف مثلاً.

رموز الكتابة القبطية :

رموز الكتابة القبطية واحد وثلاثون. لكل رمز شكله، واسمه القبطي، وأصلُه. وهي من فئتين، (أ) فئة يونانية، مكونة من أربعة وعشرين رمزاً، و(ب) فئة مصرية موروثة من الكتابة الديموطيقة (وبالتالي الهيراطيقية وقبلها التصويرية)، مكونة من سبعة رموز (الشكل رقم 16). تخلو الأبجدية القبطية من بضعة أصوات مصرية قديمة، (1) إما؛ لأنها حلقية أو مشابهة للحلقية، وإما (2)؛ لأنّ الكتابة الديموطيقية نفسها كانت خالية منها، مع وجودها في الكتابة التصويرية المقابلة والمعاصرة لها. فالحلقي اثنان، العين ( ) والحاء ( ). تسقط العين دائماً، ويبقى ما قبلها أو بعدها من حركة أو حرف مد ، واحداً كان أو أكثر. والحاء تكتب هاءً (ϩ) دائماً أيضاً. والقريب من الحلقي هو القاف ( )، فهذه تكتب كافاً (ⲕ)،أو غافاً (ϭ) أو خاءً (ϫ) .

القبطي	ϣ	ϥ	ϧ	ϩ	ϫ	ϭ	ϯ
الديموطيقي							
التصويري							
النطق	ش	ف	ح٢	هـ	ج	غ	تي



(الشكل رقم 16) : الكتابة القبطية. الرموز السبعة، مصرية (ديموطيقية) الأصل .

أهمية الكتابة القبطية :

للكتابة القبطية أهمية كبيرة، من حيث فائدتها في معرفة (1) تصويت الكلمات المصرية القديمة ، و(2) إظهار اللهجات (الصعيدية، البحيرية، الأخميمية، الفيومية) ، علي النحو الآتي :

(1) تصويت الكلمات المصرية القديمة :

وإن كانت الكيفية التي كـُتبت بها الكلماتُ المصرية بالكتابة القبطية تعيّن الطرق التي كانت تنطق بها، بمختلف لهجاتها زمن الكتابة، وكما هي في الكتابة الديموطيقية لا التصويرية المعاصرة لها، فإن هذه الكيفية نفسها إشارة عامة إلى نطق هذه الكلمات في الفترة القبطية ، ليست دليلاً على نطقها الفعلي خلال كل عصور مصر.

كمثال أول لذلك، فقد ثبت أن الكلمة، فعلاً ً كانت أم اسماً مثلاً ً، التي تُكتب بصورة واحدة في الكتابة التصويرية مهما تكررت واختلفت مواقعها من الإعراب وأحوالها، لها في القبطية نطق مختلف حسب كل حالة من حالاتها. فالفعل خ د ب "قتل"، مثلا ً، المكتوب أبجديًا بصوامت الخاء ( )والدال ( ) والباء ( ) والسكين ( ) كمخصص للمعنى، هو خ ت ب بالصوامت أيضًا في الديموطيقية؛ لا يتغير شكله مهما كان موقعه من الإعراب في أي من التصويرية والديموطيقية؛ لكنه في القبطية، واللهجة الصعيدية مثلاً، يكتب ϩⲱⲧⲃ ، بالهاء (ϩ) وواو المد الممالة (ⲱ) والتاء (ⲧ) والباء (ⲃ) فيما يُعرَف " بالحالة المُطلقة "، و ϩⲉⲧⲃ ، بحلول الكسرة الممالة (ⲉ) محل واو المد فيما يُعرف "بالحالة المركّبة" حين يتصل بالفعل شيء ما قبله أو بعده، كما يُكتب ϩⲟⲧⲃ بحلول الضمة الممالة (ⲟ) محل (ⲱ) و(ⲉ) حين يُقْصَد " الحالُ".

إظهار اللهجات :

للغة القبطية لهجات عدة، أربع منها رئيسة، أهمها الصعيدية، والبحيرية، وهما الأوسع انتشاراً، والأخميمية والفيومية. ولا شك أن هذه اللهجات تعكس ما كان في مصر من اللهجات أيضاً قبل الكتابة القبطية، ما لم تمثله بوضوح الكتابتان التصويرية والتجريدية (الهيراطيقية فالديموطيقية).

لوحظ في كتابة الكلمات التوافق الكبير بين الصعيدية والأخميمية، وهما جنوبيتان، والبحيرية والفيومية، وهما شماليتان. هذا من جهة عامة. ومن جهة خاصة فإن التباين أوضح ما يكون بين الصعيدية والبحيرية.

والتباين اللهجي يظهر في الحروف الصحيحة والحركات وحروف المد، على نحو:

(أ) ما في الحروف الصحيحة : الصوامت من الهاء (ϩ) والخاء الأولى (ϧ) والخاء الثانية (ⳉ) في كتابة الخاء في التصويرية خنو " داخل"، بالصعيدية والفيومية ϩⲟⲩⲛ ، والبحيرية ϧⲟⲩⲛ ، والأخميمية ⳉⲟⲩⲛ .

(ب) ما في الحروف الصحيحة والحركات والمد : في الحروف الصحيحة الكاف (K) والخاء (X) في الابتداء، والحركتين، الكسرة الممالة (Є) والكسرة الصريحة (I) لكتابة تاء التأنيث في الانتهاء في كتابة التصويرية كمت "مصر" بالصعيدية والأخميمية KHMЄ ، الفيومية KHMI، والبحيرية XHMI . الحرف اليوناني H ياء مد.

الكتابة النوبية القديمة :

الكتابة النوبية القديمة كتابة صوتية أبجدية صرفة للغة النوبية القديمة، التي كانت اللغة المحلية السائدة في وسط السودان وشماله والنوبة المصرية حاليـاً كذلك، أثناء الممالك النصرانية فيه.

رموز الكتابة سبعة وعشرون، عشرون منها حروف صحيحة ، والسبعة الباقية حركات أو حروف مد. ورموز الحركات والمد نفسها يجوز توظيفها لتكون همزات بأجناس حركاتها في الابتداء، أي في أول الوحدة الصوتية الكاملة، وهي المقطع .. إلي جانب الرموز الصوتية هذه، هناك نقطة تأتي في آخر الجملة، ونقطتان مترادفتان تختمان المكتوب، وخط أفقي يعلو الرمز (الحرف) ليعيِّن نهاية المقطع. ففي السمة الأخيرة يكون الرمز حرفاً

صحيحاً صريحاً، أو يكون حركةً موظَّفة، أو حرف مد موظَّفاً، كحرف صحيح في الابتداء. مثال الحرف الصحيح الصريح، الذي يعلوه خط، الحرفُ K في TKKαρ، مايعني أنها تنطق TK-Kαρ تَكْ – كَرْ. ومثال رمز الحركة الحرفُ α المُستَخدم همزة بجنسها في الابتداء في αMαN، ما يعني نطقها α- MαN أ – مَنْ.

أصول الحروف الصحيحة :

الحروف الصحيحة عشرون من ثلاثة أصول : (أ) يوناني، وهي خمسة عشر ، (ب) قبطي، وهي ثلاثة و(ج) محلي، وهما اثنان. هي الآتية بأشكالها وأسمائها.

(أ) اليونانية : هي β للباء (بيتا. بإمالة الياء)؛ δ الغاف (غامّا)؛ Δ

الدال (دلتا)؛ θ الثاء (ثيتا)؛ K الكاف (كبّا. بالباء الفارسية) ؛ λ اللام (لامدا)؛ M الميم (مي)؛ N النون (ني)؛ II الباء (بي. بالباء الفارسية)؛ ρ الراء (رو. بإمالة الواو)؛ C السين (سغما)؛ T التاء (تاو)؛ φ الفاء (في)؛ X الخاء (خي) و ψ بس (پسي. بالباء الفارسية).

(ب) القبطية : هي ϣ الشين (شاي)، و ϩ الهاء (هور. بإمالة الواو)، و ϭ الغاف (غِما).

(ج) المحليان : هما ⳟ نغ و ⳝ (ثيي) .

ثمة ملاحظتان عن الحروف الصحيحة. الملاحظة الأولى هي : خلو المجموعة اليونانية من Z الزاي (زيتا. بإمالة الياء)، لخلو النوبية القديمة من هذا الصوت، وحلول السين (C) محله، على نحو ما في cαïTє "زيت، شجرة زيتون" . الملاحظة الثانية : أن الكتابة النوبية القديمة لا تستخدم الثاء (ثيتا)، أو φ الفاء (في) أو ψ بس (بسي) إلا في الكلمات الأجنبية، وخاصة اليونانية. فعلى سبيل المثال، الأولى في اليونانية θρoNoC "مقعد، كرسي (الملك)"، والثانية في الساميّة العربية ToyΦΦ "تف"، والثالثة في اليونانية ψαλMoc "نشيد، مزمور". واللغة النوبية لا حاجة لها لرمزي الثاء والفاء أصلاً لخلوها من صوتيهما. أما بسي (بالباء الفارسية)، فاجتماع صوتي الباء (الفارسية) والسين في الكلمات النوبية الصريحة يكتب فيها برمزي الباء الفارسية (II) والسين (c) معاً (IIc) ، على نحو ما في الفعل IIcc فرحَ، ابتهجَ" والمصدر IIcκαNЄ " فرح، ابتهاج".

د. عبدالقادر محمود عبدالله

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

– بكير، عبد المحسن 1977

اللغة المصرية في عصرها الذهبي (القاهرة) .

– أبوالحسن ، حسين علي 1997

قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة (الرياض) .

– خان، مجيد 1993

الرسوم الصخرية لما قبل التاريخ في شمال الجزيرة العربية (الرياض).

– الروسان، محمود 1987

القبائل الثمودية والصفوية (الرياض) .

– عبدالله، عبدالقادر محمود 1986

اللغة المروية. الجزء الأول (الرياض) 1995

الكتابة الأبجدية في مصر القديمة. أول اهتداء لمبدأ الأبجدية (الرياض).

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Alblright, W. F., 1996

TheProto-Sinaitic Iscriptions and their Decipherment (Cambridge Massachussetts,).

- Bauer, Th., 1953

Akkadische Lesestücke (Roma,), Hefte II & III.

- Branden, A. Van den,) 1962

"Les Inscriptions protosinaïtiques", Oriens Antiques 1: 197-214.

- M. Cohen , 1958

La Grande Inevention de l'Écriture (Paris).

- Cowley, A.E. 1916

"The Origin of the Semitic Alphabet", JEA III: 17-21.

- Cross, F. M. and Freedman, D. N. , 1952

Early Hebrew Orthography (New Haven,).

- Diringer , D., 1968

The Alphabet (London,)

- G.R. Driver, 1976

Semitic Writing (London, rev. ed.).

- R. Dussaud, 1980

"L'Épitaphe d'Ahiram, roi de Byblos. Texte et traduction", Syria I: 136-157.

- Gardiner, A.H., 1916

"The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet", JEA III: 1-16.

- Gelb , I.J. , 1974

A Study of Writing (Chicago).

- Gordon, C. 1962

Ugaritic Textbook (Roma).

- Gordon, C . 1968

Forgotten Scripts (New York).

- Griffith, F.Ll. 1911

The Meroitic Inscriptions of Shablûl and Karanòg (Philadelphia,).

- Griffith, F.Ll.

"Meroitic Studies", JEA III: 111 – 124.

- Jensen , H. 1958

Die Schrift im Vergangenheit und Gegenwart (Berlin).

- Labat, R. 1952

Manuel d'Épigrahie Akkadienne (Paris).

- **Virolleaud, Ch.,, 1931**

"Le Déchiffrement des tablettes de Ras-Shamra", Syria XII: 15-23.

"Un poéme phénicien de Ras-Shamra, La Lutte de Môt, fils des dieux et d'Alein, fils de Baal", Syria XII: 105, pl. XXXVIII.

- **Steindorff, G. 1951**

Lehrbuch der Koptischen Grammatik (Chicago).

- **Zyhlarz, E. 1929**

Grundzuege der nubische Grammatik (Leipzig).

- **Loundine,**

"L'Inscription Proto-Sinaïtique No. 357": 101 – 115.

- **Mendenhall, G. 1979**

"Writing Systems in the Context of Cultural History", in "Abdelgadir M. Abdalla et als., eds., Sources for the History of Arabia (in series, A. Al-Ansary, ed. Studies in the History of Arabia I, Riyadh 1399 A.H./1979), 1:101-114.

- **Pettinato, G., 1981**

The Archives of Ebla. An Empire Inscribed in Clay (New York,).

- **Schlott, A 1989**

Schrift und Schreiber im Alten Ägypten (München,).

الارض والسكان والحضارة في وادي الرافدين

الأرض :

مصطلحات جغرافية- تاريخية :

لا يختلف اثنان من الباحثين، في ضوء المكتشفات الأثرية التي ابتدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر، على أن العراق كان موطنًا لواحدة من أقدم الحضارات التي عرفها التاريخ : وأن كثيرًا من مظاهر تلك الحضارة انتشرت إلى مناطق دانية وقاصية من العالم القديم، وأسهم في تطوير المعرفة وإغنائها. وقد استخدم حكام العراق القدامى وملوكهم في كتاباتهم عددًا من مصطلحات ذات مضامين جغرافية للدلالة على القطر، منها : مصطلح الإقليم (في السومرية Kalam) وبلاد سومر (Ki-en-gi) وبلاد أكد (Ki-uri). ويمكن القول بشكل عام : إن بلاد سومر تدل على القسم الجنوبي من القطر حيث أنشأ السومريون حضارة عريقة عرفت باسمهم، وذلك في المنطقة التي تشمل الآن محافظات : ذي قار والمثنى والقادسية. أما بلاد أكد فتشمل المنطقة الواقعة إلى الشمال من ذلك أي القسم الأوسط من السهل الرسوبي. ومن المعروف أنه لا توجد حدود طبيعية بين ما يسميه الباحثون بلاد سومر وبلاد أكد؛ علما أن لقبًا جديدًا لم يلبث أن شاع استعماله زمن الإمبراطورية الأكدية وهو " ملك الجهات الاربع" ابتداء بحكم الملك الاكدي الشهير نرام-سين(2290.-2255 ق.م) . ولا شك في أن المصطلح يعكس بشكل واضح وحدة البلاد السياسية التي تحققت على يد مؤسس السلالة سرجون الأكدي (2371-2316- ق.م) والتي شملت القطر كله. ومن المعلوم في هذا السياق أن السيادة الأكدية امتدت في اتجاهات مختلفة لتشمل أرجاء واسعة من الشرق الأدنى القديم. كما استخدم الأقدمون في كتاباتهم مصطلح "بلاد بابل" للدلالة على القسم الجنوبي من القطر الذي يشمل (سومر وأكد) واستخدموا أيضًا مصطلح "بلاد آشور" للدلالة على القسم الشمالي. أما الاسم الحالي "العراق" فهناك من الباحثين من يقول: إنه عربي الأصل وأن الكلمة تعني "شاطئ البحر"، ومنهم من يرجعه إلى الكلمة السومرية (uruk) بمعنى " مستوطن" . وفي حدود القرن الثالث قبل الميلاد أطلق المؤرخون الكلاسيكيون (اليونان والرومان) على القطر مصطلح ميزوبوتاميه (mesopotamia) بمعنى " بلاد ما بين النهرين" أي الأرض الكائنة بين نهري دجلة والفرات.

الخصائص الجغرافية- الموقع :

من الحقائق المعروفة لدى الباحثين أن حضارة أي قطر من الأقطار تتأثر بشكل مباشر بعوامل البيئة، كالموقع الجغرافي والمناخ والتضاريس والأنهار . فالموقع الجغرافي على سبيل المثال، يؤثر في اقتصاديات البلاد وتركيب السكان فيه كما يؤثر في قدراته العسكرية، الهجومية والدفاعية. إن إلقاء نظرة فاحصة على الخريطة ترينا أن العراق يشكل في الواقع جسرًا بين قارات ثلاث هي : آسيا وأوربا وأفريقيا. وقد مكنه هذا الموقع المتميز من أن يكون طريقًا تجاريًا مهمًا بين الهند وأقطار الخليج العربي والبحر المتوسط. وينعكس حجم التجارة الخارجية لبلاد سومر ومقدار ازدهارها في حدود منتصف الالف الثالث قبل الميلاد (أي في حدود 2300 ق.م) في الآثار المكتشفة في المقبرة الملكية في أور، حيث عثر على مجموعات نفيسة من الحلي كالقلائد والأساور والخواتم والدبابيس وأدوات زينة مصنوعة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وعلى أعداد من الخناجر البرونزية والذهبية وفؤوس حربية وخوذ ذهبية وقيثارات. وتتحدث الكتابات المسمارية من زمن الملك سرجون الأكدي أيضا عن وجود صلات تجارية للعراق مع الهند عن طريق الخليج العربي. فهو يذكر أن سفنًا من " Melukha" الهند" و Magan "عمان" كانت

ترسو محملة بالبضائع في مرفأ العاصمة أكد. وبالمثل فقد حرص ملوك العراق القديم في كل الحقب التاريخية على ضمان انفتاح الطرق التجارية البرية مع الأقاليم الغربية والشمالية الغربية وصولاً إلى الأراضي السورية والبحر المتوسط وإلى غابات "الأرز" (جبال أمانوس) و"جبال الفضة" (طوروس)، كما أنهم أقاموا في عصر مبكر (في حدود 1900 ق.م) مركزًا تجاريًا مهما في مدينة كانيش (كول تبة) في آسيا الصغرى.

الأنهار :

حَبَتْ الطبيعة وادي الرافدين بنهرين عظيمين هما : دجلة (Idigna في السومرية) والفرات (Buranun) وبروافد عديدة صغيرة وكبيرة تصب فيهما. ففي نهر الفرات يصب رافدان في مجراه الأعلى هما : الباليخ والخابور، وقد ذُكِرا في النصوص المسمارية بنفس التسمية "بليخو وخبرورو". أما نهر دجلة فتصب فيه روافد أكثر هي الخابور والزاب الأعلى " زابو أيلو في المصادر المسمارية" والزاب الأسفل "زابو شبالو" ونهر العظيم ونهر ديالى... وكان لهذه الثروة المائية الهائلة الأثر الأكبر في نشوء أولى الحضارات في السهل الرسوبي من القطر في حدود الألف الخامس قبل الميلاد.. لكن ذلك في واقع الأمر لم يحدث بشكل تلقائي وإنما جاء نتيجة للجهود المضنية التي بذلها السومريون للسيطرة على النهرين وشق الجداول وتنظيم استعمال مياهما في ري الأراضي الزراعية، مما استلزم استخدام أعداد كبيرة من الأيدي العاملة في ظل السلطة الحاكمة المتمثلة بدولة المدينة السومرية وتحت إشراف دائم من موظفين حكوميين هم مفتشو القنوات (في السومرية Gugallu)، نظرًا لقلة الأمطار في منطقة السهل الرسوبي. من جهة أخرى فقد أدرك العراقيون القدماء وضعية دجلة والفرات وعلى وجه الخصوص ظاهرة ارتفاع مستوى وادي الفرات بالنسبة لوادي دجلة في السهل الرسوبي ابتداءً من منطقة الفلوجة-بغداد حيث يصل إلى ما بين 7 أمتار. فكان ذلك سببا في شق كثير من الجداول الروائية من نهر الفرات باتجاه دجلة، مما أسهم في ري أراضٍ زراعية واسعة، وما زال بالإمكان مشاهدة بقايا تلك الجداول المندرسة. وتجري في هذه المنطقة جداول حديثة موازية للمشروعات القديمة مثل جدول الصقلاوية وأبو غريب واليوسفية واللطيفية والإسكندرية والمسيب الكبير.

جدير بنا الإشارة أيضا إلى أن تركيز الاستيطان كان أكثر على الفرات دون دجلة، ولا سيما في مراحل الاستيطان الأولى على السهل الرسوبي ما بين الألفين الخامس والثالث ق . م؛ وذلك لأن نهر الفرات أقل عنفًا في فيضانه من دجلة ولأن كميات مياه الفيضان في دجلة أكثر منها في الفرات. من جهة أخرى يتبين من الدراسات الخاصة بتتبع معالم الاستيطان على ضفاف الأنهر ومن المعلومات الواردة في الوثائق المسمارية، أن نهر الفرات كان في الألفين الثالث والثاني ق.م يقع إلى الشرق من مجراه الحالي. فعلى سبيل المثال نذكر أن الفرات كان ينتهي بمدينة أور لكن مجراه الحالي يمر بمدينة الناصرية على بعد 20 كم شرقي أور. وبطبيعة الحال فإن هذه الظاهرة أي ظاهرة تغيير النهر مجراه لها نتائج سلبية كثيرة على المراكز الاستيطانية التي تقع عليه لأن ذلك سيؤدي بمرور الزمن إلى ابتعاده عنها وإلى تحولها إلى مجرد أطلال وسط صحارى رملية. كما تجدر الإشارة أخيرًا، في سياق أثر البيئة الطبيعية على الإنسان وتطور الحضارة، إلى أن مشكلة ملوحة التربة بدأت بالظهور في السهل الرسوبي ابتداءً من أواخر عصر فجر السلالات في حدود 2400 ق.م كما تدل على ذلك الوثائق المسمارية المكتشفة في منطقة لجش والتي يظهر منها أن ملوحة التربة تركت آثارًا سلبية على الأوضاع الاقتصادية والسياسية زمن السومريين.

المناخ :

وللمناخ أيضًا، كما سنرى تأثير واضح على الحضارة ونموها. ويعتقد المختصون في علم الأرض (الجيولوجيا) أن الكرة الأرضية شهدت في العصر الجيولوجي المسمى" بلايستوسين"(Pleistocene قبل أكثر من نصف مليون

سنة) ما يعرف بالعصور الجليدية (Ice Ages) التي اتصفت ببرودة متناهية الشدة وتكون ثلاجات جليدية هائلة غطت الأجزاء الشمالية من أوربا وأمريكا. وكان يقابل ذلك في الأقسام الجنوبية من الكرة الأرضية، ومنها العراق وأقطار الشرق الأدنى، فترة سقوط أمطار غزيرة جدًا مما أدى إلى ازدهار الحياة النباتية والحيوانية فيما هو الآن صحارى قاحلة جرداء مثل الصحراء العربية والصحراء الأفريقية. ثم لم يلبث المناخ أن تغير فأخذت الثلاجات الجليدية بالذوبان والانسحاب إلى أقصى الأجزاء الشمالية، مما تسبب في حدوث فترة جفاف في المناطق الجنوبية. وقد ثبت من الدراسات الجيولوجية أن الكرة الأرضية شهدت أربعة عصور تجمد (glacials) ابتدأ أولها في حدود 600.000 سنة مضت وانتهى آخرها في حدود 10.000 ق.م، وقد تخللها ثلاث فترات من الذوبان (Interglacial) سادت فيها عصور جافة في الأقسام الجنوبية من الكرة الأرضية .. وإننا نعيش الآن في فترة الجفاف التي تلت آخر عصر جليدي.

لقد كان لظاهرة تناوب العصور المطيرة والفترات الجافة الأثر الأعظم في نشوء الحضارة في بلاد وادي الرافدين ومناطق الشرق الأدنى؛ لأن حلول فترة الجفاف الأخيرة التي نحن فيها الآن قد غير بشكل جذري أسلوب حياة الإنسان. إذا أصبح من المتعذر عليه أن يبقى معتمدًا في توفير غذائه على أسلوب "جمع القوت" الذي كان سائدًا في العصر الحجري القديم أي على الصيد وجمع الثمار والبذور، وأن يقوم بإنتاج غذائه عن طريق الزراعة التي تعد ثورة كبرى في تاريخ البشرية وأول خطوة خطاها الإنسان على طريق بناء الحضارة.

ومن الملاحظ أن الأحوال المناخية في وادي الرافدين لم تطرأ عليها تغيرات أساسية منذ الألف الخامس قبل الميلاد أي : منذ استوطن الإنسان منطقة السهل الرسوبي في الجنوب. ويوصف مناخ العراق بكونه حارًا جافًا في الصيف حيث تصل الحرارة إلى أكثر من 45 درجة مئوية في المناطق الوسطى والجنوبية وبكونه معتدل البرودة في الشتاء حيث تبقى درجات الحرارة فوق درجة التجمد.

وتشتد الأمطار في وادي الرافدين خلال الخريف والشتاء والربيع وهي قليلة في المناطق الجنوبية وتزداد كلما اتجهنا نحو الشمال والشمال الشرقي ، حيث تصل إلى مائة سنتمتر سنويًا. ونظرًا لسقوط كميات كافية من الأمطار في المناطق الشمالية، فقد أصبح الاعتماد كبيرًا على الزراعة الديمية بينما اقتضت الضرورة بسبب قلة الأمطار في السهل الرسوبي إلى الاعتماد على الري في الزراعة، فمنذ عصر فجر السلالات السومرية اهتم السكان بشق جداول الري والقنوات وتنظيفها وحفر قنوات الصرف للتخلص من الأملاح.

التضاريس :

أما عن أثر التضاريس على سير الأحداث التاريخية ونشوء الحضارة، فمن المعروف أن سطح العراق يتكون من ثلاثة أقسام طبيعية هي : الجبال الالتوائية في الشمال والشمال الشرقي التي تكون نسبة 20 % من مساحة القطر، والهضبة الصحراوية في الغرب وهي الأكبر بين الأقسام الثلاثة حيث إنها تشغل نسبة 60 % ، ثم السهل الرسوبي الذي يقع بين المنطقتين الجبلية والصحراوية ويمتد في وسط جنوب القطر ويكون 20 % من مساحته. وسنرى بعد قليل كيف أن كل قسم من هذه الأقسام الطبيعية الثلاثة كان له دوره الفعال في سير الأحداث والنتائج التي شكلت التاريخ السياسي والحضاري للعراق في العصور القديمة.

1- المنطقة الجبلية :

تتميز المنطقة الجبلية، بجبالها الالتوائية وتنوع مظاهرها الطبيعية. هنا ترتفع سلاسل الجبال الشاهقة وتوجد الهضاب التي تتخللها السهول الزراعية وتكثر الروافد النهرية وتسقط نسبة عالية من الأمطار في موسم الشتاء، مما ساعد في نمو الغابات وازدهار النباتات .. كما أن في المنطقة ثروات معدنية مهمة .. ومعروف أنه توجد في هذه المنطقة روافد عدة لنهر دجلة هي : الزاب الأعلى

الذي يصب في دجلة على مقربة من العاصمة الأشورية كالح (نمرود) ثم الزاب الأسفل الذي يلتقي بدجلة إلى الجنوب من مدينة أشور القديمة. وهناك رافدان آخران هما : نهر العظيم ونهر ديالى. إن الأراضي الممتدة في شمال القطر وشماله الشرقي التي تقطعها هذه الروافد تعد ذات أهمية كبيرة من الوجهة التاريخية لأسباب عدة نجملها بالنقاط الآتية :

أ- لقد سكن في هذه المنطقة أقدم إنسان عاش في وادي الرافدين، حيث يعود تاريخ وجوده فيها إلى حدود 600.000 سنة مضت أي حقبة التاريخ الحجري القديم، حيث كشفت التنقيبات في كهف شانيدار، في جبال برادوست على الزاب الأعلى، عن هياكل عظمية بشرية أحدها لطفل يقدر عمره بستة أشهر كما وجدت آثار هذا العصر في كهوف أخرى مثل زرزي على الزاب الأسفل.

ب- شهدت هذه المنطقة ظهور أولى المستوطنات الزراعية عندما بدأ الإنسان يترك الكهوف تدريجيًا ويستوطن السهول في أول محاولة منه لممارسة الزراعة وتدجين الحيوانات. ويعد "موق زاوي جمي" على بعد أربعة كيلومترات إلى الغرب من كهف شانيدار مثالاً جيداً لأولى هذه المستوطنات الزراعية التي يعود تاريخها إلى حدود الألف العاشر قبل الميلاد. وفي هذه المنطقة بالذات أيضًا حدثت النقلة الأخيرة التي أدت إلى ظهور القرية الزراعية بالمعنى المتعارف عليه؛ متمثلة بقرية جرمو، التي تبعد أحد عشر كيلومترًا إلى الشرق من مدينة جمجمال، حيث مارس سكانها زراعة الحبوب وتدجين الحيوانات وبنوا بيوتهم بالطين على أسس من الحجارة.

ج- على العكس من بقية مناطق وادي الرافدين الأخرى، تكتنف الأقسام الشمالية والشمالية الشرقية من وادي الرافدين مواقع طبيعية تتمثل في المرتفعات والسلاسل الجبلية التي أدت إلى صعوبة المواصلات فيها. فجبال زاجروس بامتداداتها من الشمال إلى الجنوب الشرقي تشكل حاجزًا منيعًا بين العراق وإيران إذ يبلغ طولها نحو 630 ميلاً، وترتفع قممها لتصل إلى ارتفاع يتراوح بين 2000 و 3000م فوق سطح البحر. ولذلك لم يكن بإمكان القوافل التجارية والحملات العسكرية اجتياز تلك الحواجز الطبيعية الا في ممرات محدودة بقيت تشكل خطوط مواصلات رئيسة إلى العصر الحاضر. إذ يقع أول تلك الممرات في رايات قرب راوتوز والثاني في حليجة إلى الجنوب الشرقي من السليمانية والثالث في خانقين. ويؤدي ممرا رايات وحليجة إلى سواحل بحيرة أورميا وأذربيجان. أما طريق خانقين فإنه يبدأ من جنوب وادي الرافدين فيمر بمدن عدة مثل كيش وبابل والمنانن ثم يستمر شرقا باتجاه كرمنشاه وهمدان وصولاً إلى الهضبة الإيرانية. وهناك طريق رابع إلى الجنوب من ذلك وهو الذي يسير بمحاذاة جبال زاجروس ابتداءً من مدينة الدير (تلول العقر قرب بدرة)؛ ليصل إلى مدينة شوش (سوسة) عاصمة بلاد عيلام. ويتميز هذا الطريق بسهولته نسبيًا؛ لكونه يمر في أرض هي في الواقع امتداد للسهل الرسوبي من وادي الرافدين وفي هذه المنطقة يجري نهرا الكرخة والكارون. وكان العيلاميون يسلكون هذا الطريق عند شن حملاتهم العسكرية على بلاد بابل وكذلك فعل السومريون والبابليون في هجماتهم المعاكسة ضد عيلام.

د- عرفت منطقة المرتفعات والجبال الشرقية المحاذية لبلاد وادي الرافدين بأنها كانت في العصور التاريخية القديمة موطنًا لأقوام معادية ومتخلفة حضاريًا. وقد قامت تلك الأقوام، في أزمان مختلفة بشن الهجمات على المدن في المناطق السهلية من

القطر ونجحوا أحيانًا في فرض سيطرتهم وإقامة سلالات حاكمة. ولذلك لم يدخر ملوك العراق القديم جهدًا في كبح جماح هذه القبائل المعادية لمنعها من تحقيق أهدافها، حيث كانوا يشنون عليها الحملات العسكرية كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ومن تلك الأقوام الجبلية التي وردت أخبارها في الكتابات المسمارية قبائل "لولوبو" (Lulubu) التي كانت تسكن مناطق شهرزور إلى الجنوب الشرقي من السليمانية، وكانوا يتوغلون في هذه المنطقة إلى الشرق ليصلوا إلى منطقة زهاب قرب سربيول حيث وجدت منحوتة جبلية صور عليها ملك لولوبو المسمى "نوبانيني" (Annubanini) وعليها كتابة باللغة الأكدية وبخط مسماري. وكان بجوارهم إلى الشمال قليلا قبائل "كوتي" (Guti) الذين كانوا يستوطنون المناطق الجبلية التي تحادد عيلام من الشمال والواقعة بين همذان وبحيرة أروميا.وكان الكشيون أيضًا من بين تلك الأقوام الجبلية وقد أقاموا في إيران منذ أزمان بعيدة في الأقسام الوسطى من جبال زاجروس (إقليم لورستان) إلى الجنوب من همذان مباشرة. وإلى الجنوب الغربي من منطقة سكن الكشيين استوطن العيلاميون في الأراضي الجنوبية الغربية من إيران إلى الشرق من سومر واتخذوا من مدينة "شوش" عاصمة لهم. وفضلاً عن ذلك فهناك الميديون في إقليم همذان والفرس الأخمينيون في الجزء الجنوبي من إيران وهما من القبائل التي استوطنت إيران في الألف الأول قبل الميلاد.

2- الهضبة الصحراوية:

تحد العراق من جهة الغرب وهي تتكون من قسمين رئيسين، الأول ويعرف بهضبة الجزيرة التي تقع ما بين جبل مكحول- سنجار شمالا والسهل الرسوبي جنوبًا أما الثاني فهو البادية الغربية التي تبدأ من الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر الفرات وتمتد غربًا إلى بادية الشام وإلى داخل شبه الجزيرة العربية. وأهم ما يذكر بخصوص المنطقة الغربية هذه من الوجهة التاريخية أنها منطقة مفتوحة وخالية من العوارض الطبيعية مما سهل تنقل القبائل البدوية فيها ويسر لها الدخول إلى وادي الرافدين على شكل مجموعات وموجات أحيانًا في مراحل مختلفة من التاريخ القديم.

3 - السهل الرسوبي:

إن إلقاء نظرة على خريطة العراق الأثرية ترينا أهمية السهل الرسوبي من الوجهة الحضارية حيث ازدهرت فيه كبرى المدن السومرية والبابلية مثل أور، وأريدو، والوركاء، ونفر، ولكش، وكيش، وبابل.. والتي كشفت فيها التنقيبات عن شواهد حية من حضارة العراق عبر العصور القديمة .. ويرى بعض الباحثين أن هذا السهل الرسوبي حديث في تكوينه نسبياً وأنه تكون نتيجة للرواسب التي نقلتها مياه دجلة والفرات وسيول الوديان المنحدرة من الهضبة الصحراوية مثل وادي حوران والأبيض والأبطن وكذلك الأنهار المنحدرة من المرتفعات الجنوبية الشرقية مثل الكارون والكرخة. وهناك مسألة علمية كانت ولا تزال موضع نقاش بين الباحثين من آثاريين وجيولوجيين تلك هي علاقة الخليج العربي بالسهل الرسوبي. فهناك النظرية المعروفة التي قال بها منقب الآثار الفرنسي دي مورغان (De Morgan,1905) في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مفادها : أن مياه الخليج العربي في العصر الحجري القديم قبل نحو نصف مليون سنة كانت حدودها تصل شمالا إلى الخط الوهمي سامراء على دجلة وهيت على الفرات، أي أن معظم القسم الجنوبي والأوسط من العراق كان مغمورًا بمياه البحر وأن الترسبات التي كانت تحملها الأنهار والوديان أدت بالتدريج إلى زيادة مساحة اليابسة يقابلها انسحاب البحر نحو الجنوب فظهر بمرور الزمن سهل رسوبي خصب مما رغب الإنسان في استيطانه في حدود الألف الخامس قبل الميلاد. وقدر بأن تلك

الترسبات كانت تضيف أرضًا جديدة إلى ميل ونصف الميل في القرن الواحد. وتبدو هذه الفرضية مقنعة للوهلة الأولى عندما تعرف أن بعض أراض الدولة السومرية في السهل الرسوبي كانت تقع على البحر في العصور القديمة ولكنها الآن في مناطق قاحلة تبعد عن مياه الخليج مسافات بعيدة؛ إذ يستنتج من النصوص المسمارية أن مدينة أور كان لها ميناء على البحر وكذلك مدينة اريدو في حين أنهما تبعدان عنه الآن مسافة تقدر بنحو 300كلم. ظلت نظرية دي مورغان حول السهل الرسوبي معتمدة في الأوساط العلمية إلى حدود عام 1952 عندما أعلن كل من ليز (Lees) وفالكون (Falcon) عن نظرية جديدة تناقضها تمامًا وذلك اعتمادًا على نتائج الأبحاث الجيولوجية لشركات النفط. إذ قال هذان الباحثان بأن مياه الخليج العربي لم تكن تغمر القسم الجنوبي من القطر في العصور القديمة إطلاقًا وأن رأس الخليج كان يمتد إلى الجنوب أكثر من موضعه الحالي. فقد أظهرت البحوث الجيولوجية أن أرض السهل الرسوبي تتعرض لعملية انخساف مستمر بسبب ثقل الترسبات وأن درجة الانخساف تعادل عملية الردم الناتجة عن الطمي ولذلك، فإن ترسبات الأنهار لايمكن أن تكون السبب في تكوين السهل الرسوبي. تجدر الاشارة إلى أن هناك رأيًا ثالثًا حول امتداد الخليج العربي في العصور القديمة يعتمد على نتائج دراسات جيولوجية أيضًا قامت بها بعثة برئاسة نوتزل (Nuzil) واستخدمت فيها سفينة أبحاث في مياه الخليج العربي. وملخص هذا الرأي أن الخليج كان منخفضًا جافًا في العصر الجيولوجي الأخير.وذلك نتيجة لانحسار مياه البحر وتجمدها عند خطوط العرض العليا في النصف الشمالي. ولكن بانتهاء العصر الجليدي بدأ الثلج بالذوبان فعادت مياه البحر إلى الارتفاع وأخذ الخليج العربي يمتلئ إلى مستواه بحدود عام 5000 قبل الميلاد.. ولا يتسع لنا المجال لذكر مزيد من التفاصيل ويكفي القول : إن المفاضلة بين هذه الآراء أمر صعب جدًا وأن موضوع تكوين الخليج العربي لا يزال بحاجة إلى مزيد من البحث والاستقصاء وأن من المفيد في هذا الشأن أن تتوجه جهود المختصين لدراسة اللغات القديمة، السومرية والبابلية، نحو تحديد مواقع المدن التي ورد ذكرها في الألواح المسمارية لمعرفة مسافاتها عن ساحل الخليج العربي في العصور القديمة.

السكـــــــان :

لا بد من الإشارة ابتداءً إلى أن أقدم بقايا عظمية لإنسان عثر عليها في العراق القديم قد تم اكتشافها في كهف شانيدار في جبال برادوست حيث يصب نهر الزاب الكبير على بعد 11.2 ميلاً من الكهف في محافظة أربيل. وتشتهر منطقة شانيدار باستخدام كهوفها ملاجئ للتجمعات السكانية خلال عصور ما قبل التاريخ. ويعد كهف شانيدار من أكبر كهوف المنطقة حيث يبلغ طوله 40 مترًا وارتفاعه 8 أمتار وعرض فتحته 25 مترًا. وقد تم الحفر في أربع طبقات من الكهف، وتعتبر الطبقة الرابعة D من الأسفل أهمها؛ لأنها ضمت أدوات حجرية مستيرية مع بقايا هياكل عظمية لإنسان نيادرتال، فضلاً عن بقايا عظام حيوانات كالماعز والثيران. ولا شك في أن أهم مكتشفات كهف شانيدار كانت الهياكل العظمية الأربعة لإنسان نيادرتال التي يعود تاريخها إلى 60000 سنة مضت والتي تمثل أقدم بقايا عظمية لإنسان العصر الحجري القديم في العراق. واستمر استيطان الإنسان في شمال القطر خلال العصور الحجرية اللاحقة متمثلا في الكهوف والمواقع المكشوفة والمستوطنات الزراعية الأولى ثم القرى الزراعية في العصر الحجري الحديث. أما في العصور التاريخية في جنوب القطر فيعتبر السومريون أقدم الأقوام المعروفة التي يعود تاريخها إلى منتصف الألف الرابع (3500 ق.م).

السومريون :

يعد السومريون في تاريخ بلاد الرافدين من أقدم الشعوب العريقة التي استطاعت وضع لبنات الحضارة الأولى في القسم الجنوبي من العراق القديم الذي عرف ببلاد سومر (يكتب بالعلامات المسمارية الثلاث " Ki.EN.Gi ") ولا يزال شأن السومريين ودورهم في التاريخ القديم يعظم باستمرار كلما استجدت مكتشفات أثرية واستظهرت

نصوص سومرية جديدة لتسلط الأضواء مرة بعد أخرى على جوانب مشرقة من منجزاتهم الحضارية ودورهم في إغناء الشعوب بالمعرفة في مختلف جوانب الحياة اليومية. وإذا قدر للآشوريين والبابليين وغيرهم من الشعوب القديمة الأخرى أن يبقى ذكرهم موجودًا في بطون الأسفار فإن اسم السومريين ممحي من ذاكرة التاريخ وعفا عليه الدهر وبقي هكذا في طيات النسيان ما يقرب من ألفين وخمسمائة عام بعد سقوط بابل في سنة 539 قبل الميلاد.

ويقودنا الحديث هنا بالضرورة إلى منتصف القرن الثامن عشر الذي شهد جهودًا مكثفة ومثمرة لحل رموز الكتابة المسمارية، إذ توصل عدد من العلماء في أول الأمر إلى قراءة النصوص المسمارية المدونة باللغة الآشورية. وقد أجري لأربعة منهم ما يشبه الاختبار؛ عندما أعطى كل واحد منهم نصًا للملك الآشوري تجلاتبلسر الأول (1116-1076 ق.م) ، فكانت تراجمهم للنص متقاربة فأقرت المحافل العلمية ميلاد علم جديد عرف بالآشوريات (Assyriology) .

ولكن سرعان ما لاحظ العلماء المختصون بالموضوعين هناك مجاميع أخرى من ألواح الطين مكتوبة بالخط المسماري، لكنها مدونة بلغة تختلف تمامًا عن اللغة الآشورية التي كان بعض العلماء قد توصل إلى حل رموزها كما ذكرنا قبل قليل. وهنا برزت فرضية لابد منها وهي أن هناك أقوامًا أخرى سكنت بلاد وادي الرافدين إضافة إلى الآشوريين وأن هذه اللغة المجهولة تعود إلى أحد أولئك الأقوام. وقدمت في حينه عدة فرضيات بخصوص هوية هؤلاء الأقوام الذين تعود إليهم هذه اللغة .. فمنهم من عزاها إلى السيثيين وهم الأقوام التي كانت تستوطن المناطق الشمالية من البحر الأسود، وهناك من قال بأنها تعود إلى الأكديين. وأخيرًا في عام 1869م افترض أحد العلماء المعنيين بالكتابات المسمارية أنه ينبغي نسبة تلك النصوص المسمارية الجديدة إلى قوم يعرفون بالسومريين. وكان سنده في ذلك لقب استخدمه ملوك وادي الرافدين وهو "ملك سومر واكد"(-Lugal ki en-gi ki-uri) والذي ترجمه الأكديون إلى لغتهم (shar mat shumerim u Akkadim) ؛ إذ افترض هذا العالم واسمه أوبرت (Oppert) في عام 1869م أن المقصود بكلمة "أكد" في لقب " ملك سومر وأكد"تلك الأقوام التي كانت تتكلم لغة(سامية) سواء أكانوا من الآشوريين أم البابليين أم الأكديين، في حين تدل كلمة سومر في اللقب ذاته على أولئك القوم الذين تعود إليهم النصوص المدونة باللغة غير السامية.

وهكذا ولد اسم السومريين من جديد بعد أن طواه النسيان أزمانا طويلة. وبعد سنوات قليلة من هذا التاريخ أميط اللثام عن الوجه المشرق للحضارة السومرية بفضل المكتشفات الأثرية وخاصة في اثنتين من كبريات المدن المندثرة في جنوب القطر، أولاهما (تلو) التي ثبت من البحوث الحديثة أنها كانت مدينة كرسو (Girsu) السومرية، وثانيتهما مدينة نفر (Nibru) التي كانت واحدة من اشهر المراكز الثقافية والدينية في تاريخ الحضارة السومرية. ويكفي أن نسوق مثالاً واحدًا على أهمية تلك الحفريات في البحث عن الأصول السومرية، إذ تم الكشف في مدينة نفر خلال المواسم الأربعة الأولى من التنقيب (1881-1900م) عما لا يقل عن 30 ألف رقيم طيني مدونة بشتى صنوف المعرفة وهي تعود إلى أزمان تمتد من منتصف الألف الثالث وحتى القرون المتأخرة من الألف الأول قبل الميلاد. ثم توالت التنقيبات في مدن سومرية أخرى في جنوب القطر مثل شروباك(تعرف حاليا باسم فارة) وأدب (بسمايا) وكيش (تل الأحيمر) والوركاء وأور .. مما عرَّف الباحثين بالمنجزات الحضارية العظيمة للسومريين في مختلف المجالات كالعلوم والمعارف والفنون والعمارة والأدب.

تُرَى مَنْ هم أولئك السومريون ؟ هل كانوا من سكان البلاد الأصليين الذين رأينا أسلافهم يقيمون أقدم القرى الزراعية في شمال القطر والتي تمثلت في أدوار عصور ما

قبل التاريخ، مثل جرمو وحسونة وحلف وسامراء، وأنهم نزحوا إلى جنوب القطر بعد أن توافرت لهم أسباب العيش هناك ؟ أو أنهم جاءوا من بلد آخر؟.

من المعروف أن القسم الجنوبي من العراق كان في بداية العصور التاريخية موطنًا للسومريين الذين سكنوا المنطقة الممتدة من حدود مدينة نفر إلى أقصى الأراضي الجنوبية من وادي الرافدين .. وقد عرفت هذه المنطقة في العصور التاريخية ببلاد سومر، وكان يجاورهم إلى الشمال من هذه المنطقة مباشرة الأكديون الذين هم من القبائل الجزرية (السامية) التي نزحت من جزيرة العرب واستوطنت العراق في وقت مبكر جدًا. والحقيقة هي أن مقياس التمييز بين السومريين والأكديين وغيرهم من الأقوام الأخرى التي كانت تقطن القسم الجنوبي من وادي الرافدين لايمكن أن يكون عرقيًا بل لغويًا. ذلك لأن الدراسات الأنثروبولوجية لبقايا الهياكل العظمية التي عثر عليها في المقابر السومرية تشير إلى عدم وجود ما يمكن تسميته بالعرق السومري وإنما هناك خليط يتمثل ببشر ذوي رؤوس طويلة وهو ما يعرف بعرق البحر المتوسط، وبشر ذوي رؤوس مدورة وهو السائد في أوربا الوسطى وبلاد أرمينية. ولقد أثبتت المكتشفات الأثرية في المدن السومرية المختلفة أن هذه الأرقام من سومريين وأكديين مارست جميعًا أنظمة سياسية وأعرافًا وعادات اجتماعية متشابهة وكان لها أيضا المعتقدات والطقوس الدينية والاتجاهات الفنية نفسها. وبتعبير آخر فإنهم جميعا كانوا جزءا من حضارة واحدة نشأت وازدهرت في القسم الجنوبي من وادي الرافدين والتي تعرف اليوم بالحضارة السومرية.

ولهذا السبب فنحن نقصد بكلمة "سومري" القوم الذين كانوا يتكلمون اللغة السومرية، ونقصد بـ"اكدي" تلك القبائل التي كانت تتكلم اللغة الجزرية (نسبة إلى جزيرة العرب)، والتي كان موطنها الأصلي جزيرة العرب.

من المعروف أن اللغة يمكن أن تكون في كثير من الأحيان مؤشرًا مفيدًا عند البحث في أصل الأقوام. ولكن لسوء الحظ، فإن هذا العامل اللغوي غير ذي جدوى عند البحث في أصل السومريين. فالمعروف أن اللغة السومرية تعد لغة منفردة لا يمكن إرجاعها إلى عائلة لغوية حية أو مندثرة. وهي أيضا ملصقة (Agglutinative) أي أن الجملة فيها تتكون من عدة عناصر بعضها ملصق بالبعض الآخر. وعلى الرغم من أن الإلصاق صفة لغوية معروفة في عدد من اللغات القديمة كالعيلامية مثلا، والحديثة كالتركية والمجرية وبعض اللغات القوقازية كالجورجية، فان اللغة السومرية ليس لها ما يشابهها من حيث المفردات والقواعد والنحو في أية لغة أخرى.

لذلك ولأسباب أخرى بقي أصل السومريين مشكلة مثيرة للجدل لم تستطع حلها الدراسات اللغوية أو الأنثروبولوجية أو الأثرية .. ولذلك أيضا اختلف العلماء في أصلهم، فهناك من الباحثين من قال: إن السومريين ربما جاءوا إلى جنوب وادي الرافدين في العصر السابق للوركاء أي في عصر العبيد،على أساس العناصر الحضارية الجديدة التي تقترن عادة بوجود السومريين والتي ظهرت في عصر الوركاء (كالأختام الأسطوانية، والنحت، ودولاب الفخار، والكتابة)، ويفترض بعض الذين يقولون بمجيء السومريين من بلد آخر أنهم ربما جاءوا عن طريق البحر وأنهم سكنوا أول الأمر في "دلمو"(البحرين) التي تحتل حيزًا مهمًا في التراث السومري وأنهم من بعد ذلك نزحوا شمالا باتجاه القسم الجنوبي من وادي الرافدين الذي عرف فيما بعد ببلاد سومر. ومن الباحثين من قال : إن السومريين ربما نزحوا من مناطق حوض وادي السند الذي ازدهرت فيه حضارة هربا وموهنجدار وأنهم جاءوا عبر إيران والخليج العربي إلى القسم الجنوبي من العراق. وتدل صناعتها ومادتها على أنها جاءت من حوض وادي السند، ويعتمد هؤلاء في فرضيتهم على قطع فنية عثر عليها في مواقع من جنوب العراق يعود تاريخها إلى حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. ومن الطبيعي أن يقول هؤلاء بأن علاقة سومر بوادي السند ينبغي أن تعود إلى عصر أقدم

من ذلك التاريخ، ربما إلى عصر الوركاء الذي اتفق على أنه البداية المشرقة للحضارة السومرية. وقد اتخذ بعض الباحثين من الزقورة- بوصفها ظاهرة معمارية سومرية معروفة – دليلا على طبيعة البيئة التي جاء منها السومريون وهي بيئة يفترض أن تكون جبلية ومرتفعة كالزقورة. ويرشح هؤلاء أن تكون المناطق الجبلية الشرقية لإيران موطنًا لهم قبل أن ينحدروا إلى جنوب وادي الرافدين.

إن هذه الآراء وغيرها كثير مما قيل بخصوص أصل السومريين بقيت في نطاق التخمين والافتراض ولم يحظ أي منها في يوم من الأيام بقبول الأغلبية من علماء الآثار. وفي اعتقادنا أنه ليس هناك ما يبرر الافتراض القائل بهجرة السومريين من بلد آخر إلى جنوب وادي الرافدين .. صحيح أن هناك خصائص أو عناصر مميزة للحضارة السومرية لكن هذا لا يعني بالضرورة أن تلك العناصر جاء بها السومريون معهم من خارج القطر ، والشيء المنطقي هو أن نفترض بأن هذه العناصر المميزة للحضارة السومرية التي نشاهدها في عصر الوركاء (3500-3000 ق.م) (كالأختام الأسطوانية والنحت ودولاب الفخار والكتابة...) عبارة عن نتيجة وامتداد طبيعيين لمدنيات عصور ما قبل التاريخ الأخرى التي سبقت هذا العصر مثل حسونة وسامراء وحلف في شمال القطر والعُبيد في الجنوب. وبتعبير آخر أننا نرى في السومريين امتداداً لأقوام عصور ما قبل التاريخ في وادي الرافدين وأنهم انحدروا من شمال القطر إلى الجنوب واستوطنوا في منطقة كانت على الأرجح تعرف باسم سومر والتي عرف باسمها السومريون في العصور التاريخية اللاحقة .. ولعل خير من صوَّر حالَ المستشرقين وهم يَدُورون في حلقة مفرغة بحثًا عن أصل للسومريين، هو فرانكفورت، عندما قال في حديثه عما يعرف بـ"المشكلة السومرية" قبل أربعين عاما : " إن المناقشة المسهبة لمشكلة أصل السومريين يمكن أن تتضح في النهاية أنها مجرد ملاحقة وهو(Chase of chimera) لا وجود له إطلاقا".

الجزريون (الساميون) :

وفضلا عن أن السومريين الذين، كما قلنا، كانت مراكز استيطانهم بشكل رئيس في المدن الواقعة في الأقسام الجنوبية من وادي الرافدين، فقد سكن إلى جوارهم في الأقسام الوسطى والشمالية أقوام يتكلمون لغة تختلف كليًا عن اللغة السومرية وهم الذين يعرفون بالقبائل الجزرية (أي السامية) والذين يفترض في أن موطنهم الأصلي كان في جزيرة العرب قبل هجرتهم منها إلى بلدان الشرق الأدنى القديم ومنها بلاد الشام ووادي الرافدين. وبقدر ما يتعلق الأمر بالعراق القديم فإن هناك من الأدلة في الوثائق المسمارية ما يشير إلى أن قبائل الجزيرة هذه كانت موجودة فيه منذ عصر مبكر جدا. فهناك أسماء أعلام ترد في وثائق تعود إلى فجر السلالات تدل بوضوح على أن أصحابها كانوا من الجزريين أي من غير السومريين. ويستدل من التوزيع الجغرافي للمواقع الأثرية التي وجدت فيها النصوص التي تذكر أسماء الأعلام تلك، على أن الأكديين الذين كانوا من القبائل الجزرية ونجحوا في إقامة مملكة واسعة الأرجاء في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، كانوا يشكلون أقلية سكانية في سومر لكن انتشارهم كان واسعًا نسبيًّا ويتمتعون بالقوة والنفوذ في المناطق التي كانت تقع ضمن حدود مملكة كيش (تل الأحيمر الآن). ومما يدل على تزايد نفوذ هؤلاء الجزريين في هذه المملكة، التي جاءت إلى الحكم في حدود 2750 ق.م، إن اثني عشر ملكًا (من مجموع ملوكها البالغ عددهم اثنين وعشرين ملكاً) كانوا يحملون أسماء جزرية (مثل Kalbum "كلب"، Qalumu " حمل" Zuqaqip "عقرب"). ويتضح من النصوص المسمارية أيضا أن هؤلاء الجزريين كانوا يؤلفون الجزء الأكبر من سكان شمال القطر. ومعلوم أن المناطق الوسطى من وادي الرافدين، ابتداءً من مدينة نفر في الجنوب وحتى خط هيت- سامراء شمالا أصبحت تسمى" بلاد أكد" نسبة إلى مدينة أكد التي اتخذها

الملك سرجون عاصمة لمملكته والتي لا يزال موقعها مجهولا حتى الآن.

من المعلوم أن الاستقرار في العصور القديمة، كما هو اليوم أيضًا، يمكن أن يتخذ بصورة عامة شكلين رئيسين : إما في المدن حيث يقيم الحضر وإما في الأرياف والبوادي حيث يوجد البدو. وقد حفظت لنا بعض النصوص السومرية من النصف الأول للألف الثاني ق.م أوصافًا للبدو (الأموريين) كما صورهم سكان المدن السومرية. فهم في نظرهم : يسكنون الخيام ولا يعرفون سكن البيوت، يقارعون الرياح والأمطار، عدائيون يتخذون من الجبال مأوى لهم، مخربون يَنْقضُّون على المدن .. والحقيقة هي أن مثل هذه الإشارات إلى البدو في النصوص السومرية ينبغي أن لا تؤخذ على أنها وليدة نعرة أو بغض قومي بين السومريين والمارتو (الأموريين) بقدر ما هي مظهر من مظاهر استهجان الحضارة التقليدي للبداوة أي الخصومة التقليدية المأثورة بين الحضر والبدو.

وبقدر تعلق الأمر بوادي الرافدين؛ فإن أقدم الإشارات إلى البداوة والقبائل البدوية قد وردت في نص مسماري للأمير السومري إياناتم (Ennatum) من سلالة لجش الأولى في حدود 2500 ق.م)، حيث يذكر بأنه (إياناتم) كان يحمل اسمين أحدهما اسم سومري (mu-Kalamma) هو Eannatum والآخر اسم بدوي (mu-tidnu) هو (Lumma-gindu) وتطلق كلمة tidnu على البدو الذين كانوا يسكنون البوادي المتاخمة للجهة الغربية من وادي الرافدين، كما استعمل السومريون في لغتهم أيضا مصطلح مارتو (Martu) للدلالة على القبائل الأمورية (من الصيغة الأكدية Amurru ، دلالة على موطنهم إلى الغرب من وادي الرافدين). ونقرأ في الألواح المسمارية التاريخية أن الأموريين بدأوا يهددون وادي الرافدين منذ زمن الملك الأكدي شار- كالي- شاري (2254-2230 ق.م) وأن الملك الأكدي هاجمهم في أماكن استيطانهم في المرتفعات الجبلية الواقعة بين تدمر ودير الزور والتي ذكرتها النصوص المسمارية بهيئة "بسار وبسير وباسالا" والتي شخصت بكونها مرتفعات بشري الحالية. ويبدو أن هجرة الأموريين في العصر الأكدي لم تكن على هيئة موجة كبيرة ولكن على شكل تسلل أفراد وجماعات. لكن خطر القبائل الأمورية وهجماتهم على وادي الرافدين أخذت تزداد خطورة بمرور الزمن. إذ يذكر الملك السومري شو - سين (2038-2030 ق.م) من سلالة أور الثالثة " بأنه بنى سورًا لصد قبائل" مارتو "سماه"muriq tidnu "الذي يصد البدو (الأموريين)". لكن هذا الانتصار كان في الواقع مؤقتًا في ضوء التطورات التاريخية اللاحقة . ففي زمن آخر ملوك سلالة أور الثالثة إبي سين جاءت الموجة الأولى من الأموريين ودخلت بلاد سومر وأسقطت هذه السلالة في حدود 2006 ق.م وعنها تقاسمت السلطة السياسية في البلاد سلالات أمورية متعاصرة هي : سلالة ايسن ولارسا واشنونا...وبعد ما يقرب من قرن على وصول الموجة الأمورية الأولى انحدرت موجة أخرى من الأموريين من جهات الفرات الأعلى والأوسط ونتج عنها قيام سلالة بابل الأولى على يد الملك الأموري سومو أبوم (1894-1881 ق.م). هذا وقد أوردت الوثائق المسمارية أسماء قبائل أمورية استوطنت في مناطق مختلفة من وادي الرافدين نذكر أهمها :

قبيلة الخانيين : في منطقة ماري على الفرات قرب "أبو كمال" وفي منطقة عانه (خانة أو خانات القديمة).

قبيلة يموت – بعل : في المنطقة شبه الجبلية إلى الشرق من دجلة والمتاخمة لبلاد عيلام وإيران.

قبيلة أمنانم : في منطقة الوركاء.

قبيلة يخرورم : في منطقة دجلة الوسطى ما بين الزاب الأسفل وديالى واستقر فرع منها في مدينة سبار.

قبيلة سوتو (السوتيون) في غرب الفرات الأوسط.

قبيلة بني يمينا : ماري.

ومما تجدر ملاحظته : أننا عندما نتكلم على القبائل الأمورية وغيرها من قبائل الجزيرة فإننا لانعني بطبيعة

الحال أنها كانت تستقر في المناطق الصحراوية، بل على العكس من ذلك، فإن تلك القبائل كانت تتنقل في البوادي وفي أطراف الجزيرة طلبًا للرعي. ولنا أن نتصور أن حركتها في التنقل كانت بطيئة قبل ظهور الجمل في المنطقة في حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكانت القبائل البدوية على اتصال دائم بالقوى الزراعية والمدن، حيث كانوا يتزودون منها بين حين وآخر بالحبوب والتمور والأدوات والسلاح ويبيعون ما تنتجه حيواناتهم من وبر وصوف وشعر ماعز. ويحصل أحيانا أن يستوطن عدد من الأفراد أو عائلة أو حتى قبيلة بأجمعها في قرية أو مدينة فتمتهن الزراعة وتربية الأغنام والماشية. وهناك شواهد تاريخية كثيرة على أن القبائل البدوية هذه كانت تشكل أحيانًا خطرًا على السلطة في المدن وكثيرًا ما نقرأ أن قبيلة معينة أو حلفًا من قبائل عدة هاجمت المراكز الحضارية ونجحت في الاستيلاء عليها وفي استيطانها.

وقد رتب المؤرخون هجرة الأقوام الجزرية على شكل موجات متعاقبة عبر التاريخ حسب التسلسل الاتي :

1- الاكديون : وهم من الجزريين الذين نزحوا إلى المناطق الوسطى من وادي الرافدين منذ أقدم العصور وعاشوا جنبا إلى جنب مع الأقوام الأخرى وفي مقدمتهم السومريون أقاموا الدولة الأكدية في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد بزعامة سرجون الأكدي (2371-2316 ق.م).

2- الكنعانيون : وقد استقروا في سوريا وفلسطين ما بين الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد ومنهم الفينيقيون الذين استوطنوا المناطق الساحلية. اما الكنعانيون الذين سكنوا المناطق الشرقية من بلاد الشام ووادي الرافدين فقد عرفوا باسم "الأموريون" وهم الذين أسسوا سلالة بابل الأولى(1894-1595 ق.م).

3- الأراميون : سكنوا في مناطق الهلال الخصيب في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد وأقام الأراميون دويلات عديدة في سوريا وفي مناطق الجزيرة ما بين النهرين . وتوغلت بعض القبائل الآرامية إلى جنوب وادي الرافدين ربما عن طريق الخليج العربي خلال الألف الأول قبل الميلاد. وقد استطاعت قبيلة " الكلديين" من إقامة دولة قوية في وادي الرافدين أسسها نبوبلاصر في عام 710 ق.م واستمرت حتى عام 539 ق.م.

4- القبائل العربية في الألف الأول قبل الميلاد في بوادي بلاد الشام والعراق وقد وردت أخبار عنهم في كتابات الملوك الآشوريين، ثم عرب قبيل الإسلام فالمناذرة في العراق والغساسنة في سوريا. وأخيرا الفتوح العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي التي وصل فيها العرب إلى مناطق واسعة من الوطن العربي الإسلامي.

الحضـــــــارة :

إن دراسة التاريخ وفق أسس وقواعد محددة يمكن في ضوئها تفسير عوامل نشوء الحضارات ومراحل نموها وازدهارها ومن ثم ركودها وانحلالها، لم تبدأ إلا على يد المؤرخ العربي المعروف ابن خلدون (1332-1406 م) الذي يعد بحق مؤسسا ورائدًا لعلم الفلسفة والاجتماع وذلك في مقدمته الشهيرة المعروفة باسمه (مقدمة ابن خلدون) لكتابه بعنوان "العبر" . وبمرور الزمن ظهرت مدارس فكرية مختلفة تباينت في مناهجها التاريخية واختلفت في تشخيصها لعوامل نشوء الحضارات. فهناك من قال بأن بداية الحضارة ترتبط بعوامل الجنس (Race) كالصفات البدنية ولون البشرة، وقد عزا القائلون بهذه النظرية العنصرية الفضل فيما حققته البشرية من أسباب الرقي والتقدم إلى عبقرية الإنسان النوردي (Nordic) الشمالي أي الجرماني) الذي يتصف بالبشرة البيضاء والشعر الأشقر والرأس الطويل.ولهذا عد القائلون بنظرية الجنس أن الأوربيين يحتلون أعلى مراتب بين الشعوب الأخرى. ولا

يخفى أن مثل هذا التفسير العنصري لنشوء الحضارة ليس له أساس من الصحة على وجه الإطلاق. فقد أثبتت الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية أن الشخصية والسلوك أمران لادخل للجنس فيهما وأن هناك تشابها كبيرا في القدرات العقلية بين أجناس الأرض كافة.

وهناك فريق آخر من الباحثين يرجع نشوء الحضارات ووجود التشابه بين المجتمعات البشرية القديمة في طباعها ونظمها وأساليب معيشتها إلى أثر الطبيعة. وبتعبير آخر فإن نظرية البيئة هذه تعزو تشابه الأنماط الحضارية بين منطقتين إلى تشابه الظروف البيئية. فأرض سومر، على سبيل المثال، وهي القسم الجنوبي من وادي الرافدين، نجد أن البيئة الجغرافية قد منحتها ميزات إيجابية عدة يعزى إليها، في نظر القائلين بهذه النظرية، نشوء الحضارة السومرية ومن أهمها وفرة المياه التي يجلبها النهران: دجلة والفرات، وكميات هائلة من الطمى كانت السبب المباشر في تكوين السهل الرسوبي، وأخيرًا موقع منعزل نسبيًا. وبالمقارنة نجد أن مثل هذه الظروف البيئية تتوافر في وادي النيل أيضا وأنها أنتجت فعلاً حضارة نهرية أصيلة تمثل الحضارة السومرية لكن هذه النظرية، مثل سابقتها نظرية الجنس ، لا تصمد عند الاختبار في بلدان أخرى. حيث تتوافر ظروف بيئية مشابهة لوادي الرافدين ووادي النيل غير أنها لم تؤد في يوم ما إلى نشوء أية حضارة في العصور القديمة. وبالمثل فقد ظهرت حضارة المايا(Maya) وسط الغابات والأمطار المدارية الغزيرة في غواتيمالا وهندوراس لكن مثل هذه الحضارة لم تظهر في حوض نهري الأمازون والكنغو بالرغم من تشابه البيئة المطرية الحارة.

يقودنا الحديث عن نشوء الحضارة بالضرورة إلى ذكر رأي الفيلسوف المعاصر أرنولد توينبي (Arnoldلإoynbee) صاحب السفر الشهير" بحث في التاريخ" (A study of History) الذي يقع في عشرة أجزاء والذي يمثل خلاصة جهد علمي استغرق ما يناهز أربعين عاما من البحث والدراسة والتأليف. إذ يعتقد توينبي أن نشوء الحضارة يحكمه قانون سماه (التحدي والاستجابة)، وهو قانون يطغى على رأيه في نشوء الحضارات وتطورها. فالحضارة عنده لا ترجع إلى عوامل الجنس أو العوامل البيولوجية وحدها ولا هي نتيجة للبيئه الجغرافية وحدها، ولكنها نتيجة لكلا الاثنين معا : البيئة والإنسان. فالبيئة في رأي توينبي تشكل دائمًا تحديًا سافرًا للإنسان، فإن استجاب للتحدي كان ذلك سببًا كافيًا لانبعاث الحضارة؛ لأن قبول التحدي معناه "الانطلاق من مرحلة السكون إلى مرحلة الحركة" أي التفاعل بين البيئة والإنسان . وهو يرى أيضًا، خلافًا لما هو شائع، أن الحضارات لا تنشأ إلا في البيئات الصعبة وأن الإفراط في شدة البيئة هو الحالة الفضلى في نشوئها. ونظرًا لضيق المجال فسوف لا يكون بمقدورنا ذكر مزيد من التفاصيل عن آراء توينبي والقوانين الأخرى التي اتبعها في دراسة التاريخ وعن آراء النقاد في مجمل فلسفته.

اكتشاف الزراعة وظهور القرى :

ذكرنا سابقًا أن الباحثين قسموا العصور القديمة إلى مرحلتين زمنيتين، الأولى وهي الأطول وتعرف بـ (عصور ما قبل التاريخ) والثانية " العصور التاريخية" ومن المعروف أن المقصود بعصور ما قبل التاريخ الأزمان التي سبقت اختراع الكتابة في حدود 3200 قبل الميلاد؛ لأن الإنسان عندما عرف الكتابة بدأ يدون جوانب من أحداث حياته اليومية، أي أنه بدأ يكتب أحداث تاريخه. كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن إطلاق صفة "الحجرية" على هذه العصور إنما يرجع إلى الجانب التقني منها؛ ذلك لأن الإنسان صنع أدواته فيها بشكل رئيس من الحجارة ولأنه لم يعرف بعد استعمال المعادن. هذا من جهة، ومن جهة

أخرى فإن التمييز بين هذه العصور الثلاثة يعتمد على طراز الأدوات الحجرية المميزة لكل عصر منها وعلى الأسلوب الذي اتبعه الإنسان فيها للحصول على غذائه. إذ اعتمد الإنسان في العصرين الحجري القديم والوسيط على الصيد والتقاط البذور والثمار وهو ما يسمى بمصطلح " مرحلة جمع القوت (Food Gathering Stage) أما في العصر الحجري الحديث فقد شهدت حياة الإنسان تبدلاً جوهريًا بعد أن اهتدى إلى الزراعة ودجن الحيوانات وذلك خلال ما يسمى بـ (مرحلة إنتاج القوت) (Food Producing Stage) التي تشير الدلائل الأثرية إلى أنها تحققت لأول مرة في شمال بلاد الرافدين في موقع زاوي جمي القريب من كهف شانيدار، في حدود 9000 ق.م. في هذه القرية التي تمثل مرحلة الانتقال من العصر الحجري الوسيط إلى العصر الحجري الحديث عثر على البوادر الأولى لانقلاب اقتصادي خطير في حياة الإنسان .. ويقصد بذلك تدجين الحيوان والزراعة، كما عثر على بيوت بنيت جدرانها من الطين على أسس من الحجارة وهي أقدم بيوت معروفة شيدها الإنسان القديم. ولا يخفى أن الإنسان بممارسته الزراعة اضطر إلى أن يلتزم الاستقرار بانتظار نمو الزرع وجني المحصول وهكذا ضمن الحصول على غذائه في القرى الزراعية الأولى.

وشهدت حياة الإنسان مراحل أخرى من التقدم في ممارسة الزراعة وتدجين الحيوان وفي جوانب عدة من حياته اليومية وذلك في ضوء الآثار المكتشفة في قرية جرمو الواقعة قرب جمجمال بنحو 11 كم إلى الشرق من كركوك والتي يعود تاريخها إلى حدود 6500 ق.م .. هنا كشفت التنقيبات عن ست عشرة طبقة سكنية من بيوت مشيدة بالطين على أسس من الحجر. وبدأ الإنسان في القرية بصناعة الفخار لأول مرة في الأدوار الأخيرة من وجوده فيها، حيث إن الأواني الفخارية لا تظهر إلا في الطبقات الخمس العليا من الموقع، ويبدو واضحًا أن الإنسان في قرية جرمو دجن عددًا من الحيوانات كالماعز والغنم والخنزير وأنه مارس الزراعة؛ بدليل العثور على حبوب القمح والشعير والعدس. وكان من بين الآثار المكتشفة أقراص المغازل الصوانية، مما يدل على معرفة الإنسان في هذا العصر بالغزل والحياكة. وقد عثر أيضًا على مناجل لحصد المزروعات صنعت من شظايا صوانية صغيرة تثبت بالقير على الخشب. وتم العثور على فؤوس حجرية ومدقات ورحى لطحن الحبوب وعلى تنانير للخبز. وصنع القرويون في جرمو القلائد من خرز، بعضها مصنوع من الحجارة والطين وبعضها من الصدف كما صنعوا الأساور والخواتم من الرخام. وتدل دمى الطين المكتشفة في الموقع والتي تمثل نسوة حبالى بدينات، على أن إنسان هذا العصر قد تبلورت لديه بعض الأفكار الدينية، مما يعرف بين الباحثين بعبادة "الآلهة الأم"(Mother Goddess) التي كانت رمزًا للخصب والنماء في الطبيعة. هذا ويعتقد أن الطبقات السكنية الست عشرة في جرمو قد استمرت حوالي أربعمائة سنة وأن عدد البيوت في القرية كان يتراوح بين 25 و 35 بيتا وكان يشغلها حوالي 150 شخصًا.

ظهور المدينة :

استمرت القرى بالتوسع في ممارسة الزراعة وفي التطور التدريجي في صناعة الأواني الفخارية والأدوات الحجرية التي كان يستخدمها الإنسان في مختلف شؤون حياته اليومية خلال الأدوار اللاحقة لدور جرمو التي حددها الآثاريون، اعتمادًا على جملة خصائص حضارية منها: طرزها الفخارية المميزة وأشكال الأواني وزخارفها وألوانها وسموها بأسماء المواقع الأثرية التي وجدت فيها آثارها المميزة تلك لأول مرة وهي في شمال بلاد الرافدين، دور "حسونة" (إلى الجنوب من مدينة الموصل) ودور سامراء ثم دور حلف على نهر الخابور. أما في الجنوب فيمثل دور "العبيد" ، نسبة إلى تل بهذا الاسم إلى الشمال الغربي من مدينة أور، أقدم المستوطنات القروية في السهل الرسوبي في حدود 4000 ق.م. وبنهاية هذا الدور الحضاري الأخير في

حدود 3500 ق.م يكون الإنسان في جنوب بلاد الرافدين قد دخل مرحلة جديدة من الاستقرار، تلك هي مرحلة ظهور المدينة؛ إذ تم العثور في الجنوب على بقايا أشهر المدن التاريخية. مثل أريدو، والوركاء، وأور، ونفر، ولجس، فوق القرى الزراعية من دور العبيد مباشرة. ويعدد المختصون بالآثار والدراسات الحضارية أسبابًا عدة لتطور القرى ونشوء المدن ويأتي في مقدمتها: تحقق قدر كاف من فائض الإنتاج نتيجة لاختيار الحبوب ذات الإنتاجية الغزيرة والقوة الغذائية العالية لمدة طويلة. وبفضل فائض الإنتاج والتقدم التقني (كالتعدين وصناعة الأدوات كالمحراث ودولاب الفخار والعجلة وتطور وسائل النقل) ظهر تقسيم العمل والتخصص فيه كما ظهرت الطبقات الاجتماعية والزعامة السياسية التي عملت على تأسيس وتطوير نظام فعال للري في جنوب بلاد الرافدين. ومهما تعددت أسباب نشوء المدن فيبدو أنه كان لعمل الطبيعة أثر كبير في نشوء المدينة. فمن المعروف أن جنوب وادي الرافدين، أي سومر، لا يسقط فيه إلا قدر قليل من الأمطار، ولذلك كان اعتماد الزراعة على السقي في المقام الأول ، مما استوجب شق القنوات واستنباط وسائل عملية للري وإدامة القنوات وتنظيفها. كل ذلك اقتضى بدوره جهودًا بشرية تتعدى حدود العائلة أو مجموعة من العوائل أو العشيرة، ومن ثم كان لا بد من تظافر جهود مجموعات بشرية كبيرة تنتظم في كيان سياسي - اقتصادي هو "دولة المدينة" (City-State).

صناعة الفخار :

يعد الفخار واحدًا من أقدم الابتكارات التي توصل إليها الإنسان خلال استقراره في القرى الزراعية الأولى في شمال بلاد الرافدين. هذا فضلا عن أن الفخار يحظى بأهمية خاصة بين علماء الآثار لأسباب عديدة لعل من أهمها:

1- أن الفخار من العلامات المميزة للعصر الحجري الحديث وظهور القرى الزراعية الأولى فهو، كما رأينا، ظهر لأول مرة في الطبقات الخمس الأخيرة من موقع جرمو أي في حدود 6500 ق.م.

2- يعد الفخار فضلا عن عناصر معمارية أخرى، من أهم الوسائل التي يستخدمها الآثاريون للتمييز بين أدوار العصر الحجري الحديث نفسه نظرًا لاتصاف كل دور منها بنوع خاص من الفخار يختلف عن سواه من حيث الجودة والشكل واللون والزخرفة. ولذلك فقد تم تقسيم العصر الحجري الحديث إلى أدوار متتابعة جئنا على ذكرها آنفا وهي على التوالي : جرمو، وحسونة، وسامراء وحلف في الشمال، ثم العبيد والوركاء في الجنوب. ويتخذ الآثاريون من الفخار دليلاً مهما لمعرفة تسلسل هذه الأدوار في الموقع الأثري لتحديد تاريخ طبقاته السكنية.

لقد بلغت صناعة الفخار في العراق القديم قمة النضج في دور حلف (نسبة إلى تل حلف على نهر الخابور في حدود(4900-4300 ق.م) وتميز هذا الفخار، بين أمور كثيرة، بدقته المتناهية بالرغم من أنه صنع باليد؛ لأن دولاب الفخار (الخزاف) لم يكن معروفًا بعد في هذا العصر. وقد وصلت إلينا نماذج عديدة من فخار حلف كالصحون والأطباق والأقداح والجرار وهي مزينة بزخارف ورسومات ذات ألوان زاهية ومتعددة مثل الأصفر والبرتقالي والأحمر والأسود، كما أنها غنية في رسومها الهندسية والحيوانية. وقد استطاع فنان هذا الدور أن يعبر عن عمق أحاسيسه وما يحيط به من مظاهر طبيعية كالشمس والنجوم والليل والنهار والطيور والنبات. وقد صور على أواني الفخار الطيور الفزعة في لحظة تهيئها للطيران وصور مجموعة أخرى منها وهي تبسط أجنحتها لتحوم عاليًا في سماء مرصعة بالنجوم. كما نشاهد على إحدى الأواني من دور حلف ظباءً وهي على وشك أن تربض على قوائمها الأربع في حين تشنف آذانها عاليًا.

دولاب الفخار والعجلة :

ذكرنا قبل قليل أن الفخار في العصور المبكرة، كان يصنع باليد دون استعمال الآلة وأن الفخاريين حققوا، بالرغم من ذلك، نتائج عظيمة شملت نقاوة الطين وشكل الآنية والألوان والزخارف. وفي النصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد (3750-3500 ق.م) شرع الفخارون باستخدام الدولاب (Potter's Wheel) في صناعة الأواني ابتداءً من دور الوركاء في جنوب البلاد. ويتكون هذا الدولاب في أبسط أشكاله من قرص خشبي دائري يحرك أفقيًا وتوضع عليه كتلة الطين فتتم معالجتها لتأخذ الشكل المطلوب عندما يكون الدولاب في حالة الدوران. ولا شك في أن استعمال هذا الدولاب في صناعة الفخار قد زاد في الإنتاج مرات عدة وساعد في تحسينه في ذات الوقت؛ لأنه سهل صناعة نماذج فخارية أكثر تناسقًا من الفخار المعمول باليد. ويرجح أن استخدام الدولاب أفقيًا في صناعة الفخار كان المحفز أيضًا على التفكير في استعمال الدولاب عموديًا في الزلاجات التي كانت تجرها الثيران والحيوانات فكان ذلك بداية لظهور العجلة في العربات. ولا شك في أن العربة استخدمت أول الأمر لأغراض النقل والمواصلات وأن الثيران وحيوانات أخرى مثل الحمير كانت تستخدم في جرها. أما في العصور التاريخية فإن استخدام العربة بوصفها وسيلة حربية قد ابتدأ منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد (2550 ق.م) وتدل الشواهد الأثرية من وادي الرافدين على أن العربة الحربية حظيت بعناية خاصة من الفنيين لغرض تطويرها وتحسينها باستمرار بعد رفع كفاءتها القتالية وسرعتها وقابليتها على المناورة وأنها وصلت ذروة القمة والإتقان في العصر الأشوري الحديث.

التعدين :

توصل الإنسان في حدود 3800 ق.م. إلى اكتشاف المعادن فبدأ عصرًا جديدًا هو العصر الحجري- المعدني الذي استخدم فيه الإنسان المعدن لأول مرة إلى جانب استمراره في استخدام الحجارة أيضًا. وكانت بداية استخدام المعادن في تاريخ بلاد الرافدين القديم في عصر حلف سابق الذكر، حيث عرف الإنسان النحاس لأول مرة ومن ثم تقدم خطوات أخرى في طرق التعدين ووسائله في الأدوار اللاحقة. ومما لا شك فيه أن النحاس، سواء أكان طبيعيا أم مستخلصا من المادة الخام فإنه يتميز عن الحجارة ليس فقط في إمكانية شحذه فيكون حادًا وصالحًا للقطع، بل في إمكانية ثنيه وتغيير شكله بوساطة الطرق. ثم أن النحاس يمكن أن يكون سائلا عندما يعرض للصهر فتصنع منه أشكال لا حصر لها. ولا يخفى أن أي كسر يصيب الأداة الحجرية يبطل مفعولها كليًا في حين يمكن إعادة صهر الأدوات المعدنية المعطوبة وصبها من جديد.

وفي مرحلة لاحقة من تاريخ بلاد الرافدين القديم أي في عصر فجر السلالات (في 3000 ق.م) شاع استخدام معادن أخرى كالبرونز والفضة والذهب ومعدن الكتروم الذي هو مزيج من الذهب والفضة. أما الحديد فإن استعماله لم ينتشر إلا في القرون الأخيرة من الألف الثاني قبل الميلاد (في حدود 1200 ق.م).

الأختام :

هو ابتكار أصيل آخر تميزت به حضارة وادي الرافدين عن غيرها من أقطار الشرق القديم. ويستطيع الباحث أن يتتبع نشأة الأختام وتطورها وانتشارها دون انقطاع خلال كل العصور التاريخية من تاريخ بلاد الرافدين القديم. فمن المعروف أن للجرار والأوعية الفخارية أهمية كبيرة في القرى الزراعية؛ لأنها تستعمل لخزن المواد الغذائية كالحبوب والسوائل. ومن أجل الحفاظ على سلامة محتويات الجرة والتأكد من أن يدًا عابثة لم تصل إليها، فقد كانت فوهتها تسد بقطعة من الجلد أو القماش ثم تغطى بطبقة من الطين ومن ثم تختم في عدة مواضع بقرص حجري دائري الشكل عليه خطوط مميزة مستقيمة

أو متقاطعة وهو ما يعرف بين الباحثين بالختم المنبسط أو القرصي (Stamp Seal) ولم يلبث الإنسان أن توصل بالتجربة إلى أن استخدام الختم المنبسط هذا يتطلب تكرار عملية الختم مرات عدة على فوهة الجرة في حين لو أنه استخدم أختاما أسطوانية لحصل على نتائج أفضل بمجرد دحرجة الختم الأسطواني على الطين. وهكذا ظهر الختم الأسطواني (Cylinder Seal) إلى الوجود بصفته ابتكارًا عراقيًا أصيلاً وتطوراً طبيعيًا في صناعة الختم، وقد حدث ذلك في دور الوركاء، نسبة إلى مدينة الوركاء، في حدود 3250 ق. م، حيث وصلت إلينا بعض من ألواح الطين التي تحمل كتابات بدائية وعليها طبعات أختام أسطوانية. وكانت الأختام تصنع من أنواع مختلفة من الحجر، ويتطلب حفر الخطوط والزخارف والمشاهد على الختم مهارة فنية عالية؛ لان الختم يستلزم استخدام أدوات معدنية دقيقة واحدة لحفر تفاصيل المشهد أو الكتابة بصورة معكوسة لتظهر بشكلها الطبيعي عند ضغط الختم على الطين. ويخترق الختم ثقب كان يمرر من خلاله خيط لتعليق الختم في رقبة صاحبه. ومثلما رأينا في حالة الفخار، فإن للأختام الأسطوانية هي أيضا، أساليب فنية تميزها في كل عصر من العصور التاريخية . فأختام عصر الوركاء مثلا تميزت بأسلوب واقعي يقرب إلى الطبيعة في رسم الحيوانات. وتكرر على أختام هذا العصر، بين أمور أخرى، صورة أسدين ينتهي رأساهما بحيتين ملتويتين إلى أعلى وتظهر على بعض أختام عصر الوركاء أيضا صورة البطل الأسطوري الذي يصارع الحيوانات وهو مشهد بقي يتكرر في العصور التاريخية اللاحقة.

النحت :

كان النحت واحدًا من الفنون الأصيلة المميزة لحضارة بلاد الرافدين. ويمكن القول بشكل عام إن: الدمى التي عثر عليها في القرى الزراعية من أدوار جرمو وحسونه وحلف تمثل أقدم المحاولات في هذا المجال. وقد حاول فنان الأدوار القديمة تلك، التركيز على أهمية المعتقدات الخاصة بالخصب والنماء من خلال صنع دمى تمثل نسوة حبالى لهن أثداء كبيرة وأجسام ممتلئة. وتبدأ ملامح المدرسة السومرية للنحت على الحجر بالوضوح في نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد. ويعتبر الإناء النذري الذي عثر عليه في الوركاء من القطع الفنية النفيسة التي تعود إلى هذا العصر. وقد صنع الإناء النذري من حجر الكلس، وهو ذو شكل أسطواني يبلغ ارتفاعه (41.25) إنشاً وله قاعدة مخروطية ويوجد على ظهره نحت بارز مكون من ثلاثة حقوق الواحد منها فوق الآخر . ويعتقد أنها تمثل مشاهد تقديم القرابين إلى آلهة الخصب أنانا (عشتار) التي كان مركز عبادتها في مدينة الوركاء. وفضلاً عن الأهمية الفنية لهذا الإناء بصفته أقدم ما اكتشف من آنية منحوتة حتى الآن، فانه من جهة أخرى يعد أقدم أثر يصور لنا كيف كانت الهدايا والنذور تقدم للآلهة في سومر قبل خمسة آلاف سنة. وهناك قطعة فنية من هذا العصر أيضا تعرف بين الباحثين بـ"رأس الفتاة السومرية" وهو من الرخام ويعد مثالاً رائعًا على فن النحت المجسم عند السومريين. وتتجلى في هذا الرأس النسب الجمالية السومرية المألوفة : العيون الواسعة والحواجب الغليظة المعقودة والشفاه الرفيعة. كما عثر في مدينة الوركاء أيضًا على مسلة من حجر الكرافيت سميت بمسلة الأسود لأنها تصور رجلين أحدهما يطعن أسدًا برمح والآخر يرمي سهامه على أسدين. ويرجع تاريخ هذه المسلة إلى حدود 3000 ق.م. جدير بالذكر في هذا السياق أن الفنانين في وادي الرافدين استخدموا في العصور التاريخية اللاحقة مختلف المواد في النحت البارز والمجسم كالحجر والمعدن المصبوب وأنجزوا أعمالا فنية كثيرة عن طريق التطعيم. أما الأغراض التي وظف فيها النتاج الفني فهي كثيرة. إذ كانوا يصنعون تماثيل للآلهة يضعونها في المعابد ويخصونها بالعبادة والتقديس ويقدمون لها القرابين. وكانوا يصنعون تماثيل للملوك توضع في المعابد أيضا لكي تنعم

الآلهة على أصحابها بالخير والرعاية وطول العمر . وكانت القصور الملكية عادة من أكثر الأمكنة ازدحاما بالأعمال الفنية، إذ كانت جدرانها تزين بألواح من النحت البارز تصور جوانب من بطولات الملوك وجندهم وكذلك جوانب من الحياة اليومية.

الزقورة :

من المبتكرات المعمارية المهمة التي توصل إليها السومريون في فجر الحضارة والتي أصبحت ظاهرة ملازمة للمدينة في وادي الرافدين عبر تاريخه القديم. والكلمة بابلية الأصل (Ziqqurratu) بمعنى العلو والسمو وتسمى أيضا البرج أو المعبد العالي. والراجح أن فكرة بناء الزقورة نشأت في الأصل من إقامة المعابد في أطوارها الأولى (معابد عصر العبيد 4000 ق.م وعصر الوركاء الذي تلاه) فوق دكاك أو مصاطب اصطناعية مرتفعة عن الأرض المحيطة بها. أصبحت الزقورة في العصور التاريخية اللاحقة تتألف من ثلاث أو سبع طبقات، وجرت العادة أن يبنى غلافها بالآجر بينما يبنى هيكلها باللبن. ويوجد فوق الزقورة عادة معبد يعرف بالمعبد العلوي.

وقد قيلت آراء كثيرة بخصوص الفكرة التي تمثلها الزقورة. ولعل من أهمها الرأي القائل بأنها بمعبدها العلوي تعد محلاً لاستراحة إله المدينة وهو في طريقه من معبده الأرضي إلى السماء، وأن مدرجات الزقورة إنما ترمز إلى سلم يمتد بين الأرض والسماء. وتجدر الإشارة إلى أن مثل هذه الفكرة عن الزقورة لها ما يشبهها في التوراة (سفر التكوين 11: 1-9) من خلال الوصف الذي جاء لبرج (زقورة) بابل: "وقالوا هلم لنبني لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه في السماء ونصنع لأنفسنا إسمًا لئلا نتبدد على وجه الأرض..."

الكتابة :

اصطلح المؤرخون على جعل الكتابة حدًا فاصلاً بين "عصور ما قبل التاريخ" (Prehistory) و"العصور التاريخية"(Historical Periods)؛ لأن الإنسان باختراع الكتابة يكون قد امتلك الأداة لتسجيل تاريخه. ففي حدود 3500 قبل الميلاد شهدت بلاد سومر مولد أول طريقة للكتابة؛ إذ كشفت التنقيبات في أحد معابد مدينة الوركاء لما يزيد على ألف لوح من الطين مدونة بعلامات بدائية الشكل أقرب ما تكون إلى صور الأشياء. ولذلك سميت الكتابة في هذه المرحلة الأولية من ظهورها "الكتابة الصورية" (Pictographic). ويعود الفضل في اختراع الكتابة إلى السومريين الذين استخدموها لغرض تسجيل مدخولات المعبد ومصروفاته. جدير بالذكر هنا أن المعبد في بلاد الرافدين ظل في كل العصور اللاحقة محتفظًا بدور فعال في الحياة الاقتصادية إلى جانب دوره الرئيس في الحياة الدينية. إذ كان المعبد يمتلك مساحات واسعة من الأراضي ويستخدم في زراعتها وإصلاحها الفلاحون والعمال على اختلاف أصنافهم، ويقوم بإقراض المال بفائدة؛ ولأن الكتابة في سومر قد ظهرت في أبسط وأقدم أطوارها، على العكس من الكتابة الهيروغليفية في وادي النيل التي نجدها متطورة في أقدم أشكالها المعروفة، يكون من البديهي التساؤل عما إذا كان المصريون القدماء قد أخذوا فكرة الكتابة من بلاد سومر خاصة وأن هناك من الأدلة الأثرية ما يشير إلى وجود صلات بين القطرين في عصور مبكرة من فجر التاريخ. ويرى بعض الباحثين أن الأختام المنبسطة التي تحمل عادة إشارات وعلامات مميزة والتي استعملت في عصور ما قبل التاريخ في وادي الرافدين (عصر حسونة-حلف في حدود 4500 ق.م) ربما كانت العامل المحفز على اختراع الكتابة. وهناك الآن أبحاث تتمحور حول ما يعرف بـ" المرحلة ما قبل الكتابة" وهي مرحلة استعمل فيها إنسان العصر الحجري الحديث في وادي الرافدين قطعًا"رمزية" (Token)، من الطين والحجارة، ذات أشكال مختلفة ترمز كل قطعة إلى وحدة عددية. فجرة الزيت الواحدة يرمز لها بكرة صغيرة من الطين ويرمز للجرتين بكرتين وهكذا. وقد

ميز الباحثون المختصون بين نوعين من هذه القطع الرمزية. الأول هو النوع" البسيط" الذي يعود إلى العصر الحجري الحديث. وقد عثر على نماذج منه في قرى حسونه، وتل الصوان، وتبة كورا في شمال البلاد. والقطع التي هي من هذا النوع مصنوعة من الطين والحجارة. والثاني هو النوع "المعقد" الذي عثر على كميات كبيرة منه (أكثر من 800 قطعة) في مدينة الوركاء في الجنوب. ويبدو أن هذه التسمية الأخيرة"المعقد" مستمدة من شكل النقوش المنفذة بطريقة التحزيز والتنقيط على ظاهر القطع الرمزية هذه التي كانت تصنع باليد؛ لتمثل أشكالاً هندسية وتجريدية مختلفة لأعضاء بشرية أو حيوانية مثل: رؤوس خراف وأسماك وأخرى على هيئة جرار .. ويظهر من خلال دراسة هذا النوع"المعقد" من القطع الرمزية أنها تطابق أشكال العلامات الصورية الأولى على ألواح الطين والتي عرفت بمصطلح "النصوص البدائية"(Archaic Texts) مما يدل على أن النصوص الأخيرة امتداد طبيعي للقطع الرمزية" Token ".

سميت الكتابة في وادي الرافدين" الكتابة المسمارية" (Cuneiform)؛ لأن علاماتها اتخذت في مراحلها المتطورة شكل خطوط ذات رؤوس مدببة تشبه المسامير. ولذلك فإن مصطلح "الكتابة المسمارية" يصح إطلاقه بشكل أساس على الكتابة في أدوارها المتطورة؛ لأنها في مراحلها الأولية كانت، كما قلنا مجرد صور للأشياء التي يراد التعبير عنها. ومهما يكن فقد حدد المختصون ثلاث مراحل لتطور الكتابة في سومر :

1- الطور الصوري : ويمثل المرحلة الأقدم في نشأة الكتابة وإلى هذا التطور تعود الألواح المكتشفة في الطبقة الرابعة من الوركاء. ويقصد بالكتابة الصورية التعبير عن كلمة معينة بصورة تمثلها كأن تعبر عن كلمة (بقرة) برسم صورة بقرة.

2- الطور الرمزي : توسع خلال هذا الطور مدلول العلامات الصورية فأصبحت تعبر عن أفكار ذات صلة بما تمثله العلامة في الأصل. فمثلا استخدمت العلامة الدالة على قرص الشمس للتعبير عن معان مشتقة من الشمس مثل "لمع، سطع، أشرق". وبالمثل أصبحت صورة الشمس تعبر عن كلمة "يوم" لأن شروق الشمس وغروبها يمثلان يومًا، كما صارت صورة القدم تعبر عن معانٍ ذات صلة بالقدم مثل الفعل"ذهب، أتى، قام".

3- الطور الصوتي : وفيه استخدمت أصوات العلامات فقط في كتابة الأسماء مجردة من مدلولاتها الصورية والرمزية . فمثلا كتب الاسم السومري "اكوركال" (Akurgal) بالمقاطع الثلاثة A-kur-gal بصرف النظر عن كل مقطع (a ماء/kur جبل / gal عظيم) ويمثل هذا التطور آخر مراحل التطور في استعمال الخط المسماري، حيث إنه لم يصل إلى ما يعرف بالتطور الهجائي (Alphabetic).

هذا مجرد عرض موجز، بقدر ما يسمح به المجال لأهم المنجزات الحضارية التي حققها سكان وادي الرافدين في عصور ما قبل التاريخ، والتي توجت باختراع الكتابة في حدود 3500-3000 ق.م وهو ما يعتبره المختصون فجر الحضارة السومرية. ولا يخفى أن حضارة وادي الرافدين مرت في العصور التاريخية اللاحقة، أي بعد 3000 ق.م. بمراحل عدة من التطور أصابت فيها قدرًا كبيرًا من الغنى والتنوع والنضج مما أكسبها صفة الأصالة والتميز بين حضارات العالم القديم. وهناك حقيقة يعرفها المختصون بهذه الحضارة وهي : أنها نتاج إنساني مشترك تظافرت جهود السومريين والجزريين (الساميين) على ابتكاره وتطويره؛ ذلك أننا في كل مظاهر حضارة وادي الرافدين نجد أن البدايات كانت دائمًا ابتكارًا سومريًا في حين نجد أن

عملية التطوير والإغناء كانت من حصة الجزريين الذين خلفوا السومريين في تدوين لغتهم الملصقة (Agglutinative) وبما يلائم الأصوات الموجودة في هذه اللغة . لكن تطويره ليصبح خطًا (مسماريًا) يلائم اللغة الأكدية الجديدة كان جهدًا أكديًا. ثم إن أقدم القوانين المكتشفة في وادي الرافدين حتى الآن كان قانونًا مدونًا بالسومرية شرعه الملك السومري أورنمو(2113-2096 ق.م.)، مؤسس سلالة أور الثالثة والذي اعتمد فيه مبدأ التعويض عند إحداث ضرر لطرف ثانٍ، بينما وصلت عملية التشريع قمة النضج متمثلة في شريعة الملك الأموري حمورابي (1792-1750 ق.م) الذي أخذ في شريعته بمبدأ القصاص. وما يقال عن الكتابة والقانون يقال عن الأدب أيضا. فهناك أربع أو خمس قصص سومرية تدور حول شخص البطل السومري جلجامش (في حدود 2750 ق. م) ملك الوركاء الشهير، لكن الفضل في توحيد هذه القصص المتفرقة في ملحمة جلجامش ذائعة الصيت التي تضاهي في موضوعها وحبكتها بقية ملاحم العالم القديم، كان نتاجًا جزريًا يستحق عليه الأدباء البابليون كل التقدير والثناء. وثمة صفة أخرى تميزت بها حضارة وادي الرافدين وهي قدرتها على التأثير في الحضارات المعاصرة الأخرى، حيث انتشر كثير من مظاهرها إلى بلدان دانية وقاصية، وذلك في ضوء الحقائق التي كشفت عنها الدراسات المسمارية والحفريات الأثرية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد.

د. فاضل عبدالواحد علي

المصادر والمراجع

– الأحمد، سامي سعيد 1978م

العراق القديم (بغداد).

– سامي سعيد الأحمد 1980م

حضارات الوطن العربي كخلفية للمدنية اليونانية (بغداد).

– الأحمد، سامي سعيد 1981م

المدخل إلى تاريخ اللغات الجزرية (بغداد) .

– باقر، طه 1973م

مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (بغداد).

– باقر، طه وآخرون 1980م

تاريخ العراق القديم(الجزء الأول، بغداد).

– علي، عبد القادر حسن 1982م

إنسان الكهوف والآلات الحجرية" في حضارة العراق (بغداد).

– علي، فاضل عبد الواحد 1979م

"الأكديون : دورهم في المنطقة " (مجلة كلية الاداب، بغداد).

– علي، فاضل عبد الواحد 1989م

من الواح سومر إلى التوراة (بغداد).

– يحيى، لطفي عبد الوهاب 1978م

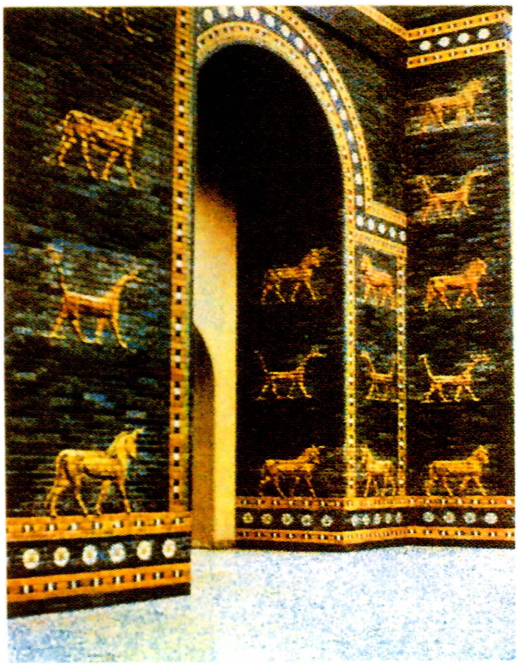
العرب في العصور القديمة(بيروت).



كبش من البرونز والذهب والصدف، مقابر ملوك أسرة أور الأولى.



تمثال لجوديا حاكم لحش في عصر الإحياء السومري (حوالي 2144 – 2123 ق.م)
متحف اللوفر ـ باريس



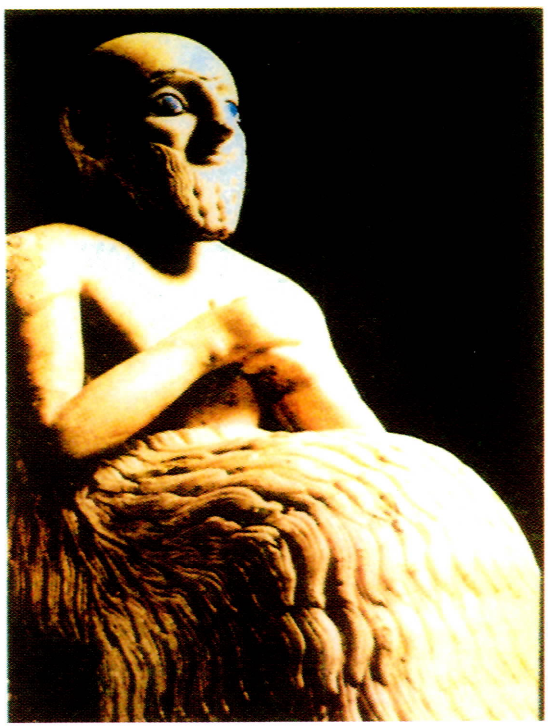
بوابة عشتار من العصر الكلداني



إناء من الحجر المنقوش بمناظر دينية يستخدم لتقديم القربان - الوركاء -
عصر بداية السلالات



خوذة ذهبية رائعة التشكيل من مقابر ملوك أسرة أور الأولى



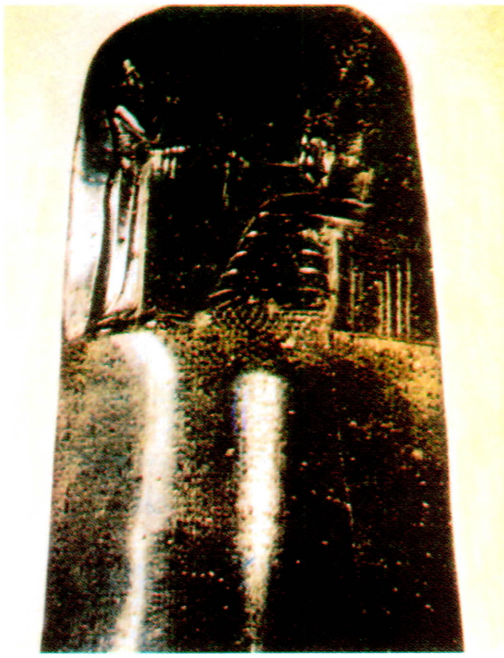
تمثال إيبي إيل من مدينة ماري ـ العصر السومري الأول



رأس من البرونز للملك سرجون الاكدي أو المك نارام سين



رأس من حجر الديوريت لجوديا حاكم لجش في عصر الإحياء السومري
متحف اللوفر



مسلة من جدر البازلت صور عليها الملك حمورابي يتلقى تشريعاته من معبود
بابل وهذمه التشريعات مكونة من 13 قسما تحتوي 282 مادة قانونية



لو ح النصر للملك الأكدى نار ام سين

الأرض والسكان والحضارة في بلاد الشام

يعد الإطار الجغرافي لبلاد الشام شاملاً كلَّ الأقطار الآتية: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. وإن تعبير بلاد الشام لم يستخدم إلا في العصور الوسطى من قبل الجغرافيين العرب. أما سوريا فإن اسمها مشتق على الأرجح من شور وأشور تلك المملكة الشهيرة التي كانت عاصمتها الأقدم شوبات أنليل في موقع تل ليلان قرب القامشلي في سوريا ومؤسسها الأول شمشي أدو في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. واستخدم تعبير سوريا بصفته الحالية للمرة الأولى من قبل هيرودوت في القرن الرابع قبل الميلاد. أما لبنان فقد ذكر بوصفه اسمًا جغرافيًا للمرة الأولى في أوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد من قبل شمشي أدو الأول الآنف الذكر في نصبه الذي يذكر أنه قام بحملة إلى (بلاد لبنان mat - Libano). أما اسم فلسطين فقد ذكر للمرة الأولى مرتبطاً باسم فلست Philist في الوثائق المصرية وهو مجموعات شعوب البحر التي استقرت في ساحل جنوب فلسطين ويعتقد أنهم قدموا من جزر بحر إيجة والقارة الأوربية في القرن الثاني عشر وهو زمن غزو هذه الشعوب لشواطئ سوريا ولبنان وفلسطين ومصر. أما تعبير الأردن فهو عموري وذكر في العهد القديم والمصادر الكلاسيكية بصفته اسمًا للنهر الشهير. وهكذا يبدو أن أسماء أقطار بلاد الشام منفردة أقدم باعتبار ذكرها في المصادر من اسم الشام المرتبط بالتاريخ العربي الإسلامي .. ولكن يجب الإشارة في هذا الصدد إلى أن «شام» بوصفه اسمًا جغرافيًا لا بد أنه كان موجوداً في المصادر الكتابية والشفوية قبل استخدامه من قبل العرب، ومن المؤكد أن الشام هي البلاد التي قطنتها القبائل والسلالات القديمة: العمورية والآرامية سواء المذكورة في المصادر التقليدية (الكلاسيكية اليونانية وكتاب العهد القديم) أم المصادر المباشرة المعاصرة المكتوبة بالمسمارية أو الأبجدية. ولو أردنا استخدام المقارنة اللغوية البحتة فإن حرف الشين في شام مثله في شور حيث إن القلب إلى السين أمر جائز. وبما أن بادية الشام والحجاز هما مسرح الإنسان الرعوي؛ فإن من المنطقي أن يتغير لفظ «شام» و«شور» وغيرها مثل «شمش» إلى سام و «سور» و «شمس». كما في شور أي (آ) شور و«سور» و «سورية» وهكذا. وبذلك ترتبط لغات هذه الأسرة بعضها ببعض من حيث الزمان والمكان والإبداع الحضاري. فلا تزال أقدم النصوص الكتابية تظهر بين الشام والعراق، ولا تزال بواديهما مرتعاً مناسباً وصافياً للسكان البدو والحضر على حد سواء، ويتواصلان بدون توقف مع الحجاز ومصر؛ ليشكلا وحدة جغرافية وحضارية متناسبة ومتشابهة.

الاستقرار الباكر وفجر الحضارة:

نلاحظ أن عصور ما قبل التاريخ تبلغ ضعف المدة الزمنية للمرحلة التاريخية، فهي تمتد من الألف العاشر حتى نهاية الألف الرابع، وتميزت باستخدام الحجر ثم الفخار والنحاس والقصدير وأخيراً البرونز الذي يتميز به بداية فجر الحضارة والأدوار التاريخية اللاحقة. كمّا يتميز فجر الحضارة ببلوغ المعرفة والتقنية الزراعية أَوْجَهَا. ويمكن القول إن الشام وفلسطين خاصة كانت المسرح الباكر لعملية التوطن والاستقرار بعد هجر حياة الكهوف. ولعل موقع أريحا

في الضفة الغربية في فلسطين أولُ مهد لحضارة العصور الحجرية الحديثة في الألف التاسع، حيث بنى الناس البيوت الأولى في التاريخ، وأعطوا لقب العمارة والمعمورة لحضارتهم. وكانت ذروة التطور في مراحل ما قبل التاريخ متمثلة بما يدعى الثورة الزراعية الأولى (النيوليتية) في حوالي الألف التاسع والألف الثامن قبل الميلاد، حيث تمكن الإنسان الشامي والعراقي القديمان من وضع أسس الزراعة الحديثة وتدجين حيواناتها. ولا يزال الإنسان يحتفظ بتقنيات وأسماء وألقاب تلك المرحلة. وقد تجلى ذلك بظهور ثلاث ثقافات تحضيرية في الشام والعراق. في تل العبيد وتل حسونة وتل سامراء. لقد ارتبطت بلاد الشام الشمالية منذ أقدم العصور بوادي الفرات ودجلة اقتصادياً وثقافياً.

وإذا كان هناك بعض التعارض الزراعي بين الشمال السوري والجنوب العراقي؛ إلا أن البلاد الشامية الشمالية والعراقية الجنوبية محرومة من الأخشاب والمعادن العادية والثمينة، لذا توجب استيرادها سواء من الأناضول وإيران أم من مصر. فالعاج والذهب يأتيان من أفريقيا، والخشب من سواحل لبنان وسوريا. والرخام والنحاس من قبرص، واللازورد والفضة والحديد (اعتباراً من القرن الثالث عشر ق.م) والقصدير من إيران والهند وأفغانستان. وكانت سواحل شبه الجزيرة العربية والخليج العربي مصدراً لمثل تلك المعادن وخاصة النحاس والأحجار الكريمة. من جهة أخرى يمكن القول إن سوريا وفلسطين تمثلان قمة تطور العصر الحجري الحديث المتأخر وتبعتهما الجزيرة السورية العليا بأوائل فخارياتها الملونة المتميزة عن بقية أنحاء المشرق العربي والأسيوي، وتتحدد سمات الحضارة النطوفية الحجرية (9500 - 8800ق.م) في وادي الأردن وموقع المريبط في الفرات الأوسط وتل أسود قرب دمشق حيث تظهر البيوت المستطيلة للمرة الأولى وتظهر الأسوار والقبور ومستودعات تخزين المواد الزراعية وحظائر المواشي ويظهر أوائل الفخار الأبيض الفج، ويظهر إلى جانب هذا ما يدعى تقديس الجماجم وفن صناعة النصب والتماثيل.

صناعة الفخار المبكر ونشوء الثقافة والمدنية الشامية:

يمكن لتطور صناعة الأواني وخاصة الأواني المصنوعة من غضار الكلس الأبيض والرمادي أن يكون قد آذن ببدء التمايز الفني والثقافي بين مراكز إنتاج الفخار في حوض الفرات وشمال سوريا وجنوب العراق والأناضول في أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث ق. م. وهي مراكز سكانية بدوية ونصف حضرية تمارس الزراعة ورعي الأغنام والماعز والأبقار والخنزير. وقد أثبتت مواقع مثل تل حسونة وتل الدباغية في شمال الجزيرة السورية وعلى سفوح زاجروس وجود مثل هذه المواقع منذ الألف السادس ق.م، وظهر فيها أنماط معمارية مستطيلة وبيوت سكنية وحظائر واسعة للحيوان من اللبن الطيني المجفف. وقد امتدت ثقافة حسونة ـ الدباغية حتى إيران. وقد كشفت حفائر تل الصوان عن مخطط قرية زراعية أنموذجية تعتمد الري المنظم، وقد ظهر فيها سور حماية، ربما كان للحيوانات .. وتعتبر مواقع استقرار سوريا مقارنة مع جوارها العراقي غير مهتمة في هذه الفترة (حوالي 6000 ق.م) بنوع الأواني الفخارية وزينتها، كما أن العمارة في تل حالولة لا تزال تحن إلى البناء الدائري الشكل، في حين كانت الثقافة السامرائية العراقية تتطور نحو ثقافة تل العبيد، التي ستظهر بداية في تل صبي أبيض على البيلخ وفي مواقع على نهر الخابور، حيث ظهر فخار العبيد بأجمل أشكاله. وظهرت بعض الأعمال الفنية في القبور وجدران البيوت تمثل حيوانات : النمر وطيور الصقور التي اعتبرت بداية التفكير الرمزي في الشام. وظهرت مشخصات فنية أنثوية صغيرة. ثم تطورت صناعة الفخار من حيث الشكل واللون وظهرت البيوت متلاصقة الواحد بجانب الآخر، إلى جانب ظهور ساحة جماعية. ولكن هذه المواقع لا تشكل مدناً بمعنى الكلمة حتى هذا المستوى من التطور.

وقد دلت الحفائر الحديثة على وجود ثقافة العبيد (6500 - 3700ق.م) في أعمق طبقات تل العويلي في جنوب العراق وقد امتد تأثيرها ليشمل الرافدين وسوريا شمالاً والخليج العربي جنوباً. وقد تميز بظهور نشاط زراعي واقتصادي مكثف وبيوت واسعة ومتعددة الغرف. ويؤدي الفخار المزين بالرسوم الهندسية والملون الدور الأساس في تعريف ثقافة العبيد. وحدث ما يسمى بالثورة المدنية (ما بين 3700 - 3100 ق.م). وتجلى هذا في مجال العمارة والتقنية والفن. وتنظيم المجتمع، مما خلق تراكماً اقتصادياً وإدارياً أدى إلى ظهور الحاجة إلى الكتابة واختراعها! وظهرت هذه المراكز المبكرة في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم في بلاد الرافدين وبلاد الشام ووادي النيل وبلاد الأناضول وبلاد فارس ولكل منها مميزاته الخاصة. فقط كانت مدن بلاد الشام أقرب إلى ثقافة أوروك التي ولدت نتيجة التبادل التجاري واختفت معه عام 3100ق.م. وستغدو أوروك المثال على التطور نحو المدينة في العراق والشام على حد سواء. ويعتبر المثال على ظهور بداية بناء يشبه المعبد أو القصر في جبل عرودة وحبوبة الكبيرة قرب الرقة في سوريا الأقدم حتى لحظة كتابة هذه السطور، ويظهر التطور المدني هذا من خلال طبقة من النخبة تقبع خلف تشييد الأبنية الكبيرة. إن الخطوة النهائية نحو المدينة قد تمت في جنوب العراق وشمال مصر في باكر الألف الثالث. وقلبت الصفحة الأولى الفاصلة بين ما قبل التاريخ والتاريخ.

تاريخ بلاد الشام وحضارتها في الألف الثالث قبل الميلاد: النظام السياسي والاقتصادي.

إيبلا:

إن اكتشاف محفوظات إيبلا المسمارية بين 1969 - 1974م قد بدل مفهومنا عن تاريخ سوريا الشامية في الألف الثالث ق.م وكذلك موقع العراق القديم بالنسبة للشام. فقد كان الاعتقاد سائداً، وكان هذا الحال بالنسبة للوثائق المكتوبة أنه لا توجد مراكز حضارية في الشام تعادل نظيرتها في العراق في الألف الثالث وأنه يجب الانتظار حتى بداية الألف الثاني حيث تظهر محفوظات ماري على الفرات الأوسط.

إن الرقم أو الألواح الطينية المكتوبة بالمسمارية التي عَثَرَ عليها المنقبون الطليان تعد في حقيقة الأمر السجل والمحفوظات الملكية. وقد كان مجموع الألواح المكتوبة الكاملة 1727 ؛ إضافة إلى نحو عشرة آلاف قطعة أو كسرة مهمة. وهكذا فقد جهد المنقبون الطليان وعلى رأسهم مكتشف إيبلا الأستاذ باولو ماتييه لتقديم هذه المحفوظات بأجمل حلة، مما مكن اللغويين من ترجمة ما يقرب من عشرة مجلدات حتى اليوم. فصار مصدراً وحيداً بلا منازع - حتى الآن - عن الشام والعراق في آن واحد... فالعراق لم يعثر بعد على ما يماثل هذا الكنز الكتابي العظيم. وللمرة الأولى يعد اللغويون ستمئة لوح مكتوب يمثل السجل الملكي لتوزيع الحصص الشهرية من الألبسة على بلاط القصر. وُجِدَ سجل للذبائح والأضاحي من استهلاك القصر من الخرفان. وعُثر على وثائق ومختصرات تتعلق بعمل الكاتب في مكان النسخ والتعليم، حيث عثر على أقلام عديدة من العظم ونصوص متعلقة بتسجيل الحبوب والمواد الغذائية التي يصل عددها إلى 250 لوحاً.

تاريخ إيبلا: Ebla:

إنَّ النصوص تكتفي بالتأريخ بالشهر وذكر بعض أحداث الوفيات، ولا شيء يسمح بتجميع سنوات متتالية كما هي الحال في جنوب بلاد الرافدين. ولم نستطع أن نتعرف سوى إلى شخصين ملكين هما اجرش - خلمْ واركب دمو، ولقبهما (إن En) السومري ويقرأ (ملكوم) أي ملك وهذا بخلاف ما عليه الأمر في العراق حيث نقرأ الإشارة السومرية نفسها (شروم sharum). وقد تم التعرف إلى شخصية ثالثة هي إشر دمو، واعتُبر ملكاً؛ لأنه يرد دائماً في رأس قائمة أسماء علم، بدت وكأنها أسماء عواهل ابلائيين.

وازدادت الأمور وضوحاً بعد اكتشاف بعض النصوص المهمة منها أدعية احتفال تتصيب ملوك إيبلا وكان على رأس النص أسماء مثل ساجيزو وابني ـ ليم .. ويعد هؤلاء من أقدم حكام سوريا. وهكذا فإن محفوظات إيبلا تقدم معلومات تاريخية على مدى ثلاثة أجيال من الحكام، فقد أدخلت الكتابة إلى مدينة إيبلا في عهد كن، وهذا ما يجعل من إيبلا وجرسو وهي عاصمة دولة لاجاش في العراق أقدم عاصمتين لأقدم دولتين نستطيع التعرف إليهما اليوم واحدة في جنوب العراق والثانية في سوريا الشام.

دولة إيبلا ومؤسساتها:

كان المجتمع الإيبلائي الشامي ملحقاً بالقصر الملكي وذلك بخلاف ما هو عليه الحال في لاجاش العراقية الجنوبية حيث يتمركز حول المعابد. أي لم يكن للمعابد في إيبلا أي دور تمويلي أو اقتصادي، وهو ما سنلحظه في مملكة ماري وقصرها الشهير في بداية الألف الثاني. وهكذا نجد أن معظم السكان العاملين يشتغلون في القصر ومؤسساته حيث أمكن للمنقبين واللغويين تقدير عدد المطابخ بعشرين مطبخاً ولاحظوا وجود 14 حلاقاً و28 موسيقياً و9 لاعبين على الربابة أو القيثارة و28 ممثلاً. وهناك ما يماثل هذا العدد من المستخدمين في البلاط. أما البنية التحتية الاقتصادية فقد تم إحصاء 601 عربة و 260حصاناً و500 حدادا وهذا الرقم الأخير يبين لنا أهمية صناعة المعادن في إيبلا.

وقد بنى ملوك إيبلا قصوراً في الأرياف، حيث يوجد فيها الحريم والأطفال والمرضعات الخ، وكان بعض هذه المنشآت يستخدم لأغراض دينية من تعبد وتأمل. وقد أعطى الوزير إبريوم المثال ، حيث امتلك هو وابنه خليفته إبي - زكير قصراً بـ حريمه أو نسائه وأطفاله وراقصاته بدون أن يكون للملك قصر في المكان نفسه.

حكم القلة الإيبلائية وملكية الأراضي:

هناك شخصيات من الدرجة الثانية أو الثالثة بعد الملك والوزير وكانت تلقب بـ شروم وهو لقب الملك في بلاد الرافدين كما نوهنا سابقاً. إلا أن سلطاتهم تقع في حيز مزارع أو قرى صغيرة وقد تعرفنا إليهم من خلال النصوص التي تسجل هداياهم للملك والوزير، والتي تعتبر ضريبة مفروضة عليهم. وكان لهم أهمية بحيث يستطيع الواحد منهم الزواج من بنات الملك.

أمّا ما يتعلق بملكية الأرض، فقد أظهرت النصوص أن الملك كان يهبها للقلة من الزعماء، كما أن ملكية الأرض لم تذكر في النصوص إلا لأفراد أو مزارعين بالتحديد - وعدم ذكرها لا ينفي وجودها إطلاقاً وبذلك يظن أن ملكية الأراضي تنحصر بالدرجة الأولى بالملك وعائلته والوزير وعائلته ومن ثم زعماء القبائل والعشائر. وقد لوحظ أن الملكيات الكبرى للأرض تتوزع بين أيدي هذه القلة النخبوية الإيبلائية سواء أكانت أراضي بعلية أم كانت مروية، وتشمل القرى والمدن بسكانها أو فلاحيها ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة أي ملكية القلة أو النخبة في العصور التالية في ألالاخ واوجاريت كما تظهر في وثائق ماري في القرن الثامن عشر وفي مدينة حلب.

الديانة الايبلائية:

استطعنا تكوين فكرة عن آلهة إيبلا في الألف الثالث ق.م من خلال القوائم الاسمية التي تتضمن الهدايا والتقدمات للآلهة في المعابد في مدينة إيبلا وغيرها. إذ نجد على رأس قائمة الآلهة المعنية ثلاثياً مؤلفاً من كورا kura والرعود أدد/ حدد والشمس/ شمش. ويبدو أن كورا إله خاص بمدينة إيبلا، وكان أمراء المدن التابعون لملك إيبلا يقسمون يمين الولاء في معبده في مراسم خاصة بذلك، كما أن زوجه الإلهة بارما Barama تشكل معه الزوج الإلهي اللذين يتماهى معهما الزوجان الملكيان، باعتبارهما يمثلانهما على الأرض. ولكن المجمع الديني الإيبلائي مليء بأسماء آلهة سومرية وأكادية وسورية غربية كما لاحظنا. ويأتي في رأس القائمة حدد وشمش ورشب /رشف Rashap إله الجحيم والأوبئة. ولا شك أن احتكاك السوريين الإيبلائيين

مع جيرانهم الأناضوليين القدماء وفي طليعتهم الحوريون قد أدخل بعض الآلهة ذات الأسماء الشمالية غير المحلية مثل الآلهة أداما والإله أشدابيل. وأخيراً هناك إله يدعى كاموش kamosh ويظن أنه من الأناضول قد تحول إلى أحد الآلهة المهمة في أرض مؤاب. وهناك كثير من أسماء الصفة والنعوت التي ذكرت في النصوص تتعلق بآلهة عامة ورمزية مثل إل/إله وملِكْ وإشار العادل ودار الدائم الأبدي وهناك أسماء أخرى ذات صفات عامة أخرى مثل دمو/دم ليم/قبيلة، حيث لا يزال اسم الإله /إل El حاضراً في الأسماء الدينية.

دولة ماري في النصف الأول من الألف الثالث:

للأسف إن الحفائر الحديثة في ماري لم تكشف حتى الآن عن وثائق تعود للنصف الأول من الألف الثالث؛ إلا أنَّ رسالةً أو وثيقةً واحدةً عُثِرَ عليها في حفائر إيبلا كتبت من قبل عاهل ماري المدعو إنا دجن ويقدر زمنياً أنها كانت موجهة إلى ملك إيبلا المعاصر السابق الذكر اركب - دمو. وتأتي أهمية رسالة إنا دجن من كونها وحيدة وتعد الأقدم في تاريخ ماري وإيبلا تقريباً ويذكر «أن دجن» في رسالته أسماء أسلافه الأربعة من الملوك وفتوحهم وحروبهم ويذكر أعماله وحروبه مقارنة بهم. وهذا ما يجعل من مدينة ماري مملكة فراتية سورية شامية الأعتق في المشرق العربي وتعود لحوالي القرنين الخامس والعشرين والرابع والعشرين ق.م. وهناك كثير من المدن المذكورة في هذه الرسالة ولكن للأسف إن الموقع غير معروف على المستوى الجغرافي. وتوحي الرسالة بأن العاهلين الأولين المدعوين أنوبو وسأمو كانا المؤسسين لسياسة التوسع والفتوح. ثم يتوصل اشتوب اشتار إلى ميناء إيمار على الفرات الذي يعد بوابة إيبلا وحلب - فيما بعد - ثم يعمد العاهل الأخير ايبلول إيل إلى دفع عملية الفتوح حتى كركميش - شمال حلب ثم إلى الأناضول حيث يذكر مدينة خزوان وهي العاصمة الشهيرة - فيما بعد - خشو في زمن خلفه البعيد والشهير زمري ليم حيث عُثر في قصره على بعض الكتابات النذرية لكبار موظفي الملك ايبلول - إيل، ويبدو بعد كل ما تقدم من هيمنة لماري أن إيبلا كانت مضطرة لدفع إتاوة مهمة لهذه الأولى ويمكن أن يفهم أن الرسالة قد صيغت بهذه اللهجة التذكيرية كي يبقى ملك إيبلا حليفاً تابعاً له.

ماري في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م:

تغيب المعلومات عن مدينة ماري في العصر الأكادي - الشروكيني /الصارجوني. وهناك بعض الوثائق المكتشفة حديثاً التي قد ترتبط بهذا العصر من حيث الزمن، إلا أنها لم تنشر حتى الآن. من جهة أخرى عثر على قطعة نذرية من البرونز مقدمة من بنات ملك أكاد نارام سين (حفيد شروكين) الذي يذكر اسم ماري وعلاقته معها. وأغلب الظن أن مؤسس السلالة الأكادية شروكين قد استولى على ماري في أولى حملاته العسكرية غرباً، وفي أول سنة من حكمه. ولا شك أن هذا تم بعد إنهاء السيطرة الأكادية على أعالي الفرات – الجزيرة، حيث عاصمة المملكة المدعوة في النصوص نجار Nagar التي كانت تسيطر على سهول الحسكة المعاصرة. وقد كانت ممالك نجار وماري وإيبلا أقوى الممالك المسيطرة في شمال الجزيرة والفرات وامتدت سيطرتها إلى الأناضول. وبعد الصعود السياسي الصاعق للسلالة الأكادية راحت تتهاوى هذه الممالك بسرعة بدءاً من نجار وماري وظلت إيبلا أبعد وآخر معقل سياسي سوري منافس، ولكنها لم تستطع المقاومة هي الأخرى ودُمرت على يد القوة الشروكينية الهادفة إلى ضم العراق والشام القديمين تحت سلطته العالية.

حضارة الشام في الألف الثالث ق.م:

البناء والعمارة:

إذا كانت الوحدة السياسية عسيرة خلال المسيرة الحضارية في الألف الثالث في بلاد الشام أو سوريا خاصة، فإن هذا الأمر سوف يحدث في وقت لاحق من الألف الثاني، إلا أن الوحدة الحضارية تتجلى في جميع مدن الشام والعراق

ومن الخابور حتى الخليج العرب،ي إذ نلاحظ أن المدن والقرى تظهر بمظهر واحد يتجلى بالأزقة الضيقة والمتعرجة التي تفصل بين مجموعات المساكن ذات الأسطحة المتصل بعضها ببعض، وباحات واسعة أحياناً تتجول فيها الحيوانات الأليفة والدواب. والبيوت حجرها صغيرة ذات نوافذ ضيقة، وتبدو جميعها ضئيلة في ظل أبنية القصر والمعابد. ولم تكن المعابد ذات هندسة أو مخطط موحد. فقد كان المعبد البدائي ذا شكل غير منتظم وزواياه منحنية، ومن ثم يُبنى معبد مربع الشكل وآخر مستطيل وكانت جدران معبد خفاجة بيضوية. ولكن مهما كان المخطط، فإننا نجد في جميع المعابد التقسيمات الداخلية نفسها. وأولها فسحة أو فناء المدخل ثم قاعة المعبد وفي صدرها المذبح حيث تتوزع من حوله بعض الغرف والقاعة مستطيلة، ونجد تمثال الإله والمذبح أمام جدار قصير. ووزعت المداخل في الجدار الطويل البعيد عن المذبح. وترتفع الزقورة قرب المعبد، وهي لا تخضع لمقاييس محددة لعدد درجاتها أو ارتفاعها وقد تزين واجهتها بالفسيفساء المتعدد الألوان. أما القصر فلم يكن له مميزات أفضل فقد كان حصناً ويتضمن مساحة كبرى وبلاطاً. يعد قصر ومعبد إيبلا في الألف الثالث مثالاً حياً في شمال سوريا.

الفنون التشكيلية:

إذا قورنت الفنون التشكيلية وخاصة النحت في سوريا الشام في الألف الثالث مع نظيرها في العراق في اورك مثلاً، فهناك انحدار واضح. ولكن نجد نظير تماثيل معبد إشنونا العراقية في مثلث الخابور السوري. ولكنها تماثيل بهيأة فجة وشكل مدور أسطواني وعيون جاحظة مصنوعة من الأحجار الملونة ومعشقة. وُضِعَ على الرأس شعر مستعار ضخم مجعد أسود. أما تماثيل ماري وأشور فهي أكثر رشاقة وهناك الأنصبة واللوحات التذكارية التي تعد مصدراً تاريخياً إلى جانب كونها عملاً فنياً. وترينا جميع هذه الأعمال أزياء الماضي وسحنات الأشخاص، فقد كان لباس العصر الدارج مؤلفاً من جبة طويلة ذات ذيل على شكل لسان. إن المثال الأفضل لهذه الأعمال يأتي من أور وأوروك في العراق وخاصة أعمال تصوير الحروب. وتبقى المدن السورية في الألف الثالث مقلدة أو متواضعة في تشكيلاتها الفنية حتى الألف الثاني ق.م. وكان لظهور المعدن واستخدامه وخاصة البرونز الأثر الأكبر في تقهقر استخدام الفخار في الشام والعراق ومعظم أنحاء المشرق، حيث نمت صناعة الأواني والأدوات المنزلية والأسلحة والمجوهرات وجميع أدوات الزينة.

التيارات الفكرية:

لا توجد ملامح واضحة لتيارات فكرية في هذا الوقت المبكر إلا أن استخدام الكتابة لم يكن مقتصراً على التسجيل المادي الإداري والتذكاري، بل بدأ الكتاب السومريون بتسجيل أدعية وصلوات انتشرت خارج العراق أي في بلاد الشام؛ ولكننا لا نملك سوى القليل منها في إيبلا، وتبقى نصوص صلابيح وأدب وفارا من أقدم النصوص الفكرية في العراق والعالم، ويجب الانتظار حتى الألف الثاني حتى نبدأ بالتمييز بين الإنتاج الفكري العراقي الرافدي أو الشامي السوري، حيث سنفاجأ بأن المشاهد الدينية التشكيلية الفنية وكذلك النصوص تثبت أن الأصول لجميع الآلهة الرئيسة يبقى سومرياً عراقياً وتبقى آلهة الشام الخاصة حتى الألف الثاني لتبرز بعض مواصفاتها. ومثال إيبلا السابق يعطينا فكرة عن هذا الوضع. إن الشعر والموسيقى في الألف الثالث يبقى حكراً على مدن جنوب العراق في أور ونيبور وشوروباك، حيث ظهرت أوائل الآلات الموسيقية التي تمثل العود وغيره، وظهر الموسيقيون بكثرة في الأعمال النحتية. ولا شك أن الأعياد والاحتفالات الدينية قد مورست في جميع المدن بطريقة أو أخرى ولكن لا يزال ينقصنا المزيد من المعلومات التفصيلية حول ظهور النخبة المثقفة الشامية. وأخيراً فإن أمثلتنا عن التيارات الفكرية المتواضعة في الألف الثالث

تتعلق بطبقة الحكام وعلى رأسها الملك. وقد قدم هؤلاء ما يكفي لمعرفة عقيدتهم المنطوية على إرضاء حاجاتهم الإلهية والدنيوية، ونراهم وحدهم يبرزون أعمالهم في الحرب والسلم والعدالة وتوزيع الرحمة وتشييد الصروح ولا يزال ينقصنا الكثير حول تفكير الناس ومشاغلهم اليومية.

الهجرات بين النظرية السامية والشامية ومحاولات التوحيد السياسي والدبني بين العراق والشام:

إن المكان الطبيعي لاستعراض موجز عن النظرية السامية وما أؤمن به من مصطلح جديد ألا وهو "شام" و"شاميات" بات هو هذه الفقرة من تاريخ بلاد الشام بعد نهاية حضارة الأكاديين وبداية حضارة العموريين وبدايات ظهور البدو (الآراميين) التي يطلق عليها تقليداً اسم «سامية» للحضارة وللغات وللهجات، حيث إن الاسم موضوع ومختار من قبل الباحث اليهودي "شلوتزر" منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وهو اسم ديني توراتي أولاً، وتؤمن بمعطياته بقية الأديان. إن هذا الباحث اليهودي قد أعطى ولا شك اسماً يتماشى مع ثقافته وأهدافه. أما اليوم فقد بدل الأوربيون هذا المصطلح نظراً لظهور وثائق تدل مباشرة على تلك الشعوب القديمة وعلى رأسها الأكاديون والعموريون والآراميون، وبقي يشير لديهم للدراسات الدينية التوراتية، فقد أصبح علم التاريخ القديم يدعى بعلم الأشوريات ثم الأكاديات. وهذه فكرة موجزة عن الآشوريات والأكاديات أو الشاميات.

إن ظهور أجاد/أكاد Agade عاصمة أولى للأكاديين (أجاديين) يعد أقدم تعبير سياسي لهؤلاء الذين قدموا إلى العراق من بادية الشام أو السام بقلب الشين أكادياً. وقد استمرت التقاليد الحضارية لهؤلاء الذين خلقوا المفهوم الأول للدولة الإمبراطورية التي تريد توحيد البلاد من مشرقها إلى مغربها ومن البحر الأدنى «الخليج» إلى البحر الأعلى «المتوسط» أو العراق والشام. كما يظهر الملك من خلال الفن التشكيلي مؤلهاً وموضوعاً للدعاية السياسية الإمبراطورية، في حين غاب دور الحاكم المحلي ومعبد المدينة السومري. وكان ظهور شروكين الأكادي - صاحب أول رواية عن طفولة ملحمية مماثلة لقصة النبي موسى ورويت قبله بألف سنة على الأقل - مكان السومري المعروف لوجال زاجيزي وإعلانه السيادة السياسية له ولأتباعه من ذوي الشعور السوداء مدعاة للقول بأن العرقية الأكادية «السامية» الشامية قد ظهرت لتقضي على العرقية السومرية. ولكن التحليل المنطقي لمعطيات النصوص والفنون التشكيلية قد برهن بما لا يدع مجالاً للشك على أن الصراع كان سياسياً أكثر منه عرقياً، بالرغم من الاختلاف اللغوي والعرقي الظاهري بين الشعبين السومري والأكادي وبالرغم من تكاثر النظريات حول هذا الأمر الذي لا نستطيع التشعب فيه. ولكن ما يلفت النظر هو تكاثر العناصر الأكادية في نصوص سومر قبل صعود هؤلاء للسلطة وبدون أن تظهر آثار غزو أو تغلغل مفاجئ من قبلهم. من جهة أخرى، إن ظاهرة الغزو البدوي القادم من بلاد الشام، لا تبدو لنا واضحة إلا من خلال محفوظات ماري الملكية في القرن الثامن عشر ق.م، بالرغم من أنها ظاهرة يمكن لها أن تتكرر قبل العصر الأكادي أو بعده، إذ إن البدو كانوا ولا يزالون يتنقلون على حواف البوادي وأطراف المدن الرافدية بين الصيف والشتاء بحثاً عن الكلأ والماء. ولكن القبائل البدوية القوية لم تكن لتتوانى عن الانقضاض على المدن العراقية والشامية عند أول بادرة ضعف. وهناك أزمات حدثت فيها تغييرات سكانية وانتقال كثيف كما حدث عند بدء الانتشار الآرامي في الشام ثم العراق في القرن الحادي عشر ق.م. وقد حدث مثل هذه الظاهرة في حوالي العام 2300ق.م. حيث تركت آثاراً لا تزال موجودة حتى اليوم، حين تعرضت فلسطين لاجتياح البدو، الذين أقاموا في خيامهم فوق أنقاض ما هدموه تاركين وراءهم آثارَهم من الفخار والمقابر الجماعية وطقوساً

تختلف من موقع إلى آخر. وهذا ما دعا بعض الأثريين للاعتقاد باختلاف تبعياتهم القبلية.

يبدو أن هؤلاء البدو قد تغلغوا حتى مصر حيث كانت الدولة القديمة في نهاية احتضارها، وكانت الشام قد تعرضت لمثل هذا الغزو قبل ذلك. وهكذا تبدو الظاهرة عامة وشاملة، ولعلها أدت إلى هجرات باتجاهات متعاكسة فهذا هو شاركالي شاري (ملك كل الملوك) الأكادي يلاحق الأموريين /العموريين بعد خمسين عاماً حيث حاولوا التغلغل في العراق قادمين من سوريا. وهكذا فإن التبدلات المأسوية في هذا الوقت في جميع بلاد الشام وخاصة فلسطين، قد نتجت عن ظهور الأموريين الباكر.

إن ظهور الأكاديين وظهور دولتهم لم يعكس مثل هذه التبدلات الفجائية .. ولكن ومنذ العصر السومري الباكر نلاحظ انخراط أفراد ومجموعات من البدو الذين يحملون أسماءً أكادية في المدن السومرية، وقد دُونت أسماؤهم في ألواح شورووباك العتيقة وكذلك أبو صلابيخ وفي أور؛ إذ نلاحظ أن الأسماء ذات المقاطع دادا ولولو وميمي وغيرها هي أسماء أكادية ويَظن آخرون أن حملة هذه الأسماء قد سَبَقَ وجودُهم وجودَ السومريين وهم أسلاف الأكاديين الأقدم، وهناك من يسميهم سكان الفرات القدماء. وكان واحد من الشخصيات العتيقة يدعى لبخشو (م) حيث صعد على عرش أوروك. وتتكاثر هذه الأسماء كلما صعدنا شمالاً وتوجهنا غرباً إلى ماري وبلاد الشام، وتقل الأسماء السومرية، وتزداد العناصر الأكادية حيث نجد الملوك السومريين يؤلفون فرقاً منهم في جيوشهم. وكان كبير الكهنة في نينجورسو وهو دودو من أصل أكادي وآخر يدعى بوبو إلخ.. وهكذا يبدو أن شروكين لم يكن ظاهرة فجائية ولم يكن الأكاديون غريبين لدى السومريين؛ إلا أننا لم نكن نعلم أن الغرب الشامي أي سوريا والأردن وشمال الحجاز هو محور واتجاه معظم الحركات السكانية منذ فجر التاريخ حتى الوقت الحاضر وأن بوادي الشام الأكثر خصوبة وماءً هي مهد أقدم سكان الحواف والمدن في الشام والعراق على حد سواء وليست الجزيرة العربية وحدها كما كان يظن سابقاً.

وقد كان صعود شروكين عام 2370 ق.م. في عاصمته أجاد/أكاد قد ألحقه بهجوم على الشام وكان مؤسس أول دولة تضم الشام والعراق وتخومهما في عيلام والأناضول. وهذا ما أدهش معاصريه وبقي في أذهان الأجيال اللاحقة وفي أذهان خلفائه من أبنائه الأربعة، وجميعهم سلكوا الدرب نفسه إلا أن ثالثهم نارام سين قد أوضح لنا من خلال كتاباته أنه اضطر للمجئ إلى سوريا على رأس حملة عسكرية قادته إلى ماري وحلب ثم إلى الساحل السوري وجبهات صور. وكذلك ذهب إلى قلب الأناضول غازياً محارباً، حيث ترك أنصبة حجرية تذكارية خلفه تدل على أعماله في ديار بكر وكردستان والسليمانية، وأقام له عاصمة ثانية في شمال سوريا (تل براك) لتأمين الطرق التجارية. أما آخر ملوك أكاد شاركالي شاري فقد كان عليه أن يواجه بداية الموجة الأمورية القادمة من سوريا وبالتحديد من جبل بُشَر Basar أو بشري الذي لا يزال يحمل الاسم نفسه قرب تدمر. وكانت معركته معهم بداية العاصفة الجديدة التي ستلف الشام والعراق بالغزو الأموري.

لقد كان أسلاف الأكاديين قد انطلقوا من الشام والحجاز إلى العراق، ثم عاد شروكين ليحيي ذكرى أسلافه بإعلانه في سوريا عن حملة فتوح قوامها 5400 محارب آنذاك. وعاد نارم سين محاولاً تثبيت أقدام إمبراطورية أجداده، ولكن الأحداث تسير باتجاه الموجة الأمورية الكاسحة. ـ بالرغم من هذا فقد زرع الأكاديون فكرة الوحدة بين الشام والعراق منذ فجر التاريخ وصار إلههم إيل El أو (الإله) هو الله عند العرب إلهاً أعلى واحداً، وكانت آلهة سومر وعقائدها وفنونها قد سبق وتمثلها الأكاديون ونشروها في جميع أصقاع إمبراطوريتهم وأساسها العراق والشام. وكان انفتاح الإدارة على تجارة الشرق والسيطرة على طرقه قادر على استيعاب مختلف التنوعات الدينية والثقافية؛ إذ لم يسجل أي اضطهاد ديني أو عرقي في بلاد الشام، بل سياسي واقتصادي. وكانت المواد التجارية تجوب المشرق من الهند

إلى سواحل الشام مروراً بإيران والعراق والخليج العربي إلى مصر وما بعدها. وقد عبر عن ذلك شروكين في إحدى كتاباته حيث قال: إن فتوحه قد سمحت للمراكب القادمة من ملوخا (وادي السند) ومن مجان (عُمان) ومن تلمون (البحرين) بالرسو في ميناء أجاد. وإذا كان الخليج العربي والهند وإيران والأناضول مصدراً للأحجار الثمينة والمعادن والأخشاب، فإن الشام وسواحلها كانت هي الأخرى مصدر أخشاب الأرز وهي بلاد العسل والنبيذ والجمال الطبيعي. وقد استمر الأكاديون في متابعة وتقليد سومر وحضارتها وخاصة في الدين والفنون التشكيلية وأضافوا تجديداً وإبداعاً تجلى في أعمال نارام سين النحتية الأكثر شهرة وفي مدينته الشامية في شمال سوريا وتل براك. ولقد كان التوسع السياسي الشروكيني السريع وتَنَبُّه السومريين الجدد إلى ما فقدوه من سلطان سياسي، وظهور أخطار بشرية داخلية ممثلة بالعمورين والجوتيين، (إيران) وتخريبهم الأرياف والمدن؛ قد عجل في فقدان السلالة الأكادية سلطانها وعادت المدن السومرية من جديد للأخذ بزمام المبادرة السياسية، وهي التي تحملت عبء طرد الجوتيين الجبليين الذين لم يتوانوا عن أخذ ألقاب أكادية وسومرية ولكن بصورة جديدة تجمع بين ماضيهم وحاضرهم الأكادي الإمبراطوري. من جهة أخرى كانت موجة العموريين قد أخذت أشكالاً وأسماءً جديدة، فقد تبين أن تاريخ أشور الأقدم في شمال سوريا قد حُفظ عن طريق الحوليات المتأخرة، فقد ذُكِرَتْ أشْهُرُ الانطلاق إلى الحرب وأشْهُرُ الرعي وأشهر القمر (سين) وأشهر الحصاد إلخ.. وهي أشهر تُذَكِّرُ بحياة البداوة في سوريا حيث ظهرت فروع أمورية مثل أهل خانا/حانا وبني يمين الذين ستذكرهم نصوص ماري. وكانوا يمارسون التجارة إلى جانب رعيهم وزراعتهم وكانوا أسياد القوافل المتجولة بين سوريا والأناضول. وهم الذين سيكونون الورثة والشركاء لبابل في إحياء أكاد التي لم تمح من ذاكرة القادة الجدد. من جهة أخرى ساعدتنا فترة الإحياء السومري على فهم العامل الأكادي السياسي الذي لم يمت وفهم القوى الأمورية الجديدة الناهضة. ولنذكر أن العاهل السومري الجديد جوديا الذي يمثل قمة الصعود السومري الجديد الديني والفني قد استحضر الأرز من الأمانوس السورية والأحجار من مجن وملوخا. وأعلن تبعية البلاد له من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى أي من المتوسط إلى الخليج تماماً كما فعل الأكاديون ووحدوا العراق وسوريا لأول مرة في التاريخ. ولكن الإحياء السومري وخاصة سلالة أور الثالثة قد حفظت لنا بعضاً من تعابيرها الحضارية قبيل انهيارها السياسي النهائي.. فقد ترك أورناموا وابنه شولجي، أمثلة على طموحهما الأمبراطوري. وفي عهد أعقاب هذا الأخير وخاصة في عهد أمرسوين تعاظم تغلغل البدو المارتو أو الأمورو قادمين من الغرب الشامي. وقام شوسين ببناء سور للحماية من هجماتهم، ولكنهم تمكنوا من تجاوز التحصينات والانتشار في بلاد سومر حيث قطعوا الطرقات وتوقف التنقل والبريد، وخربوا المزروعات مما زاد الأسعار وانتشرت المجاعة. وقام ايبي سين بتحصين أور ونيبور وعهد إلى قائده إيشبي إرّاء مجابهة المارتو. ولكن بدون فائدة حيث انهارت السلالة الملكية السومرية الجديدة ووقعت في يد الأموريين الشاميين الجدد في حوالي عام 2003ق.م. .

«نحن نعلم أننا زائلون» هذه هي العبارة الأخيرة التي تعكس حال مدينة أور آخر أيامها وردت في نص أدبي ملحمي معروف زمن إيشبي أرّا. فيلخص نهاية سومر وأور الثالثة. وقد أصبحت آشور وبابل وماري وحلب في أيدي سلالات أمورية شامية.

من جهة أخرى فإن مصر بدأت بالتعرف إلى بلاد الشام منذ أواسط الألف الثاني وامتد نفوذها ليشمل فلسطين وأجزاء من سوريا وكانت جبيل /بيبلوس اللبنانية تحت الهيمنة المصرية تقريباً. وكان الساحل يعج بالتجار الذين ينقلون المواد الثمينة إلى مصر. ونعثر على تماثيل شخصية تكريمية لفراعنة السلالة الثانية عشر المصرية في معابد بيروت وقطنة وأوجاريت. ومنذ عهد الفرعون سيسوستر الثالث (1878 - 1843ق.م)

الذي وجه حملة ضد سيشم لم يعد يذكر شيء عن حملات عسكرية. ونرى بعض أهل الشام وجوارها يغادرون إلى مصر طلباً للعمل. وقد امتد النفوذ المصري حتى النهر الكبير. وشاطئ المتوسط كما شمل بعلبك حتى دمشق في الداخل. ولكن هذا لم يدم طويلاً إذ إن نصوص "اللعن" المصرية موجهة ضد هؤلاء الأموريين الثائرين القادمين من فلسطين وسوريا. وتبدأ المدن الفلسطينية بالتحصين اعتباراً من عام 1850ق.م تقريباً وهذا يعكس الوضع الداخلي وتقلباته، وكذلك وجود هجرة إلى الخارج وهو سمي فيما بعد بغزو الهكسوس. وتتبدد آثار الهيمنة المصرية في سوريا ولا نعثر على أي ذكر لمصر في المحفوظات الدبلوماسية لمدينة ماري بالرغم من ذكر حاصور في فلسطين وذكر رجل (مصري) Misri سرقت منه بضاعته وهو على طريق الفرات.

من جهة أخرى تحولت جميع مدن العراق القديمة إلى مقرات لسلالات أمورية سورية أو شامية، وبصورة خاصة في أسين ولاسا وأوروك وبابل ووصلت بعض السلالات حتى عيلام في إيران. وما أن ينتهي القرن التاسع عشر ق.م حتى يصبح الشام والعراق أمورياً بالكامل. وتُوِّجَ ذلك بصعود حمورابي الأموري الشهير على عرش بابل عام 1792ق.م .

وخلاصة القول : إن بلاد الشام الرعوية هي موطن الأكاديين والأموريين كما هي بالنسبة للآراميين وتمثل الحجاز نقطة انطلاق العرب سياسياً إلا أنهم كانوا في الشام في عهد شلمنصر الثالث في القرن الثالث عشر ق.م.

محاولة التوحيد الثانية في الألف الثاني: الأموريون ورثة أكاد:

الآشوريون الشاميون في الأناضول:

منذ نهاية الألف الثالث 2200ق.م تقريباً ظهر الفخار السوري متميزاً في الأناضول شمالاً حتى البحر الأسود وغرباً حتى كيليكيا، ولم يكد يُطل القرن التاسع عشر حتى انتشر التجار الآشوريون في عمق الأناضول وتركوا لنا محفوظاتهم التي سميت المحفوظات التجارية الآشورية في كبادوسيا أي ديار بكر. ولا تزال المصدر الكتابي الوحيد عن بداية دخول الأناضول التاريخ على يد هؤلاء التجار. وكان كل مركز يرتبط بإدارة سمي بيت كار (يم) وهو مركز استيراد وتصدير ومصرف وغرفة تجارية وتحصيل الضرائب وفض الخصومات، وكان المركز الإداري الأول في كانيش kanish وكانت العاصمة أشور تضم بيت أليم. أي بيت المدينة الذي يدير تلك المراكز في الأناضول. وشملت تجارة الأناضول الأصواف السورية والقصدير مقابل الفضة ورؤوس الأموال .. ويقدر الباحثون نسبة الربح بـ 100% مما سمح للآشوريين تكديس ثروة ساعدتهم على بناء جيش قوي ستكون له شهرة في البطش والدفاع عن وحدة شمال سوريا والعراق على الأقل.

من جهة أخرى طَوَّرَ الآشوريون علاقاتهم مع الأمراء المحليين والأناضول على المستوى التجاري، مما زاد تبعية بعضهم وزاد قوة في بعضهم الآخر، ولكن الدولة الآشورية غدت امتداداً إمبريالياً عالمياً وصارت القوة التجارية والعسكرية الوحيدة في الشام والعراق. ولكن هذا الحال لم يدم أكثر من قرن من الزمن، حيث دبت الفوضى والضعف لأسباب عديدة أكثرها مجهول. ولكن بقايا آثار هذه المراكز التجارية في الأناضول تدل على تخريب وهجر أحياناً، إلا أن التبدلات السياسية في سوريا في حوالي عام 1807ق.م. لا بد وأنه كان لها تأثير مباشر على ما تقدم، ألا وهو صعود شخصية من بني يمين الرافدية السورية على عرش أشور يدعى شمشي أدو الذي جعل من عاصمته الجديدة شوباط انليل قرب القامشلي اليوم مركزاً لإدارة إمبراطوريته الجديدة. وهكذا فإن التبدلات السكانية التي سبقت الإشارة إليها وهي صعود الأموريين من خلال بعض إشارات النصوص السومرية إليهم بوصفهم بدوًا ساكني الخيام الذين لا يعرفون تقنية الزراعة الرافدية، قد أدت شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحوا أسياد المنطقة كلها في بدايات الألف الثاني، ويُعد شمشي أدو سابق الذكر وحمورابي ووالده في بابل المثال الأقوى على هذا الصعود السياسي السريع؛ إلا أن تبدلاً

واضحاً في العلاقات الدولية وفي مظاهر السكن والتبدلات السكانية الناتجة عن الحروب والأهوال الطبيعية تجلت في الهجرات والهجرات المعاكسة وفي نقل السكان وسبيهم. هذه الظواهر ليست مقتصرة على زمن معين، ولكنها لم تظهر في الوثائق الكتابية إلا اعتباراً من محفوظات ماري التي عكست لنا وجود بدو أموريين في يمحاض أو حلب وفي تدمر والبقاع والعمق، وظهر منهم أسماء فروع وبطون مثل أهل خانا/ حانا على الفرات، وبني يمين وبني سمأل، كما ذكرت محفوظات ماري جماعة تدعى خبرو Hapru التي أراد بها أنصار الصهيونية الحديثة أن يكونوا عبرو وعبريون ليعطوا لأنفسهم امتداداً تاريخياً. وقد كُتِبَ الكثير من الدراسات في أوربا وأمريكا حول هذه الكلمة، إلا أن النتائج كانت واهية وغير أكيدة واعتُبر (الخبرو) جماعة أمورية مأجورة أو مرتزقة أو مطاردة لأسباب سياسية وهو الأمر الأكثر ترجيحاً، وهو ظاهرة عامة ومقبولة في ظل الظروف السياسية والحربية في الألف الثاني قبل الميلاد، وهو ما ظهر في شوباط انليل في تل ليلان أعلى الجزيرة السورية المعاصر لماري كما ظهر في نصوص ألالاخ في القرن السادس عشر ونصوص أوجاريت في القرن الرابع عشر وفي نصوص تل العمارنة في مصر في القرن الثاني عشر، حيث إن الهجرة المعاكسة ترجع لأسباب سبق ذكرها، إلا أن السبي ونقل السكان وظهور المرتزقة والمعارضة واللاجئين أصبح مرافقاً لمعظم الحملات العسكرية الآشورية والبابلية وغيرها من القوى المشرقية في الألف الثاني والأول، وهو أمر يحتاج إلى المزيد من البحث والتمحيص منعاً للالتباس والاستغلال من قبل الصهيونية المعاصرة. إذ لا يجوز حصر وقوعها على اليهود في فلسطين وحسب، بل شملت سكان أقاليم أخرى في الشام والعراق والأناضول. وهو نهج الدولة التي تهدف إلى الحفاظ على الأمن ووحدة أراضيها وسبيل لمعاقبة العصيان والثوار بنقلهم لا بقتلهم.

ثقافة العصر الأموري الشامي وتجارته:

إن الامتياز الذي تتمتع به أراضي الشام الأمورية هو أنها تتحول إلى بساط أخضر طيلة فصل الربيع وهذا مالا يحدث في الحجاز والعراق. ولهذا ترتبط تحركات الإنسان بأوقات الرعي، وينطبق هذا الأمر على قطعان القصر الملكي حتى البدو العاديين. كما أن دراسة طرق التجارة والتنقل الرعوي في العصر الأموري ترينا أن المشرق كان كثيف الطرقات التي تربط المناطق الرعوية. وخاصة تلك الطرق التي كنا نتوقع أنها غير قابلة للعبور بسبب قفرها، ومثال ذلك الطرق التي تربط تدمر بماري وقطنه مباشرة أو تلك الطريق التي تبدأ بماري والمارة بوادي أجيج مباشرة إلى جنوب جبل سنجار (سيجار siggaru الأكادي) بدون المرور بوادي الخابور، وبالعكس فإن طرقاً أكثر شهرة مثل وادي الفرات بين ماري وبابل لم يكن يستخدم إلا نادراً وخاصة في عصر ماري، حيث استخدم لنقل القصدير.

أما طرق المواصلات بين شرق البلاد وغربها الشامية والجزيرة وجوارهما فقد كان هناك تسابق طاحن من أجل السيطرة عليها وكان أهمها شمالاً ذلك الطريق الذي يصل وادي الديالي في العراق ثم الزاب الأعلى ثم وادي الدجلة حيث يتابع إلى أشور وإكالاتوم، ونينوى ليصل إلى سهول أعالي الجزيرة بمحاذاة طوروس ماراً بتل بارسيب الشهير ثم إلى كركميش أو إلى ميناء الفرات الشهير ايمار بوابة حلب المعروفة. وقد كانت هذه الطريق الدولية هي مسرح التجار الآشوريين السوريين الذاهبين إلى ديار بكر (أي كباد وسيا) وإلى كانيش على نهر خاليس، حيث مركز التجارة الأشوري السوري في أعماق الأناضول. وكان تجار إيمار ومركزهم السياسي والعسكري في حلب يعبرون طريقاً خاصة ومباشرة إما على البليخ أو الخابور إلى الأناضول.

لم يكن التنقل بهدف الاتجار أو الفتوح فحسب في العصر الأموري، بل كان الناس يتنقلون لأسباب دينية كالحج وغيره، فهاهم أمراء بني يمين الأموريون في مناطق

الشمال يقدمون نذورهم وأضحياتهم في ترقا وتوتول وهما معقل معبد الإله العتيق دجن رئيس مجمع الآلهة الأمورية.

وهكذا فإن إدراك الأموريين لوحدتهم الثقافية الممثلة بذكرى سكناهم الأصلية قبل انتشارهم في الشام والعراق والمشرق عامة، وضرورة الاستمرار في إقامة العبادات والشعائر، وتقاليد الحفاظ على الروابط الأسرية.. كل هذا يفسر لنا أسباب الترحال والتنقل الكثيف وخاصة الأسر الملكية التي وفرت لنا الكثير من الشواهد الكتابية. ونرى ملوك ماري مثل يجد ليم ويخدون ليم وزمري ليم يذهبون بأنفسهم إلى أعلى الجزيرة لتأكيد ارتباطهم الديني ونفوذهم السياسي، حتى أن زمري ليم ذهب بنفسه إلى شاطئ المتوسط إلى مدينة أوجاريت برفقة عمه والد زوجته ملك حلب ياريم ليم، وكان والده يخدون ليم قد أعلن في كتابته التأسيسية الشهيرة قيامه برحلة أو حملة عسكرية أوصلته إلى الأمانوس وشاطئ البحر المتوسط حيث غسل سلاحه، وهو ما ذكره من بعده ومن قبله ملوك الشام والعراق على حد سواء، حتى لو كان هذا على سبيل الدعاية السياسية، إلا أنه يعكس رمزاً سياسياً ودينياً ممثلاً بالمعركة الملحمية بين البحر وأدد إله الرعد والعواصف الذي يُجِلّه أهل ماري. من جهة أخرى نرى من خلال وثائق ماري وجود زائرين من بابل وما وراءها، حتى ابن ملك عيلام، حيث يُفسر هذا الحضور بأسباب سياسية وأخرى تنم عن رغبة في زيارة العواصم الغربية الأمورية الشهيرة. ويمكن أن نتصور المكانة الدولية لعواصم الأموريين من خلال السعي الدائم للزواج من الآخرين بهدف تقوية الروابط الأسرية لأغراض سياسية. فهذان يخدون ليم وزمري ليم يتزوجان من أميرتين حلبيتين، وهذا "يسمح أدو" خصم حلب، يسعى للزواج من أميرة حمصية - قطنية بهدف إقامة تحالف أقوى، وكانت بنات زمري ليم لا تجدن من يتزوجهن إلا بعض الحكام التابعين لوالدهن كزواج مصلحة، وكذلك الأمر بالنسبة لأخوات الملك المهددات بالبقاء عوانس. وقد سعى ملوك الأموريين إلى حشد النساء في حريمهم كما كانوا يسعون بكل رغباتهم لاقتناء المهنيين والفنانين الأجانب في ظروف مماثلة، وقد يضم بلاطهم الدولي خدماً وفنانين من أصول نبيلة وقعوا في الأسر.

من جهة أخرى هناك أعمال فنية تشكيلية تتنقل من بلاط إلى آخر كهدية، فمن ماري إلى بابل مثلاً أو إلى حلب والعكس صحيح. ونعثر على نسخ كثيرة من هذه الأعمال عن طريق التعرف إليها اليوم وقد أصبحنا نعرف طول المسافة التي قطعتها والتي تصل أفغانستان - مرخشي وإلى كريت (كرباتوم) غرباً. وهكذا لا يمكننا وصف هذه الثقافة بأنها محلية أو قومية إذ أن الحفاظ عليها منذ ذلك الزمن وفي أماكن متفرقة يدل على عالميتها وليس على قوميتها. وكنا نفاجأ في حفائر ماري عندما نكشف عملاً فنياً مقلداً وقد حافظ على ختم صانعه الأول وهذا يعكس سعة أفقٍ واحترامٍ للآخرين.

نظام الإدارة في ماري الأمورية:

ويظهر لنا من خلال قراءة نصوص العقود والتسجيل والمراسلات الملكية معلومات في غاية الأهمية. فهي تزودنا بأسماء كبار الموظفين وصغارهم وأماكن وجودهم وأوضاع المجتمع وتنظيماته من بدو ومزارعين وصناع وملاك وملكيين. ويظهر لنا نظام القضاء والقسَم الذي يأخذ شكلاً اجتماعياً وفقاً على المجتمع الأموري؛ إذ إنَّ القسَمَ في القضاء وأمام الملك أو في العقود أو الرسائل يدلنا على النظام القضائي المشترك في مدن الشام والعراق القديمين. ونعرف أدق التفاصيل عن سير النظام الملكي الأموري الجديد. وبالرغم من أن هذه الوثائق تتعلق بمدينة ماري الفراتية السورية وبعهد ملكها وهو زمري ليم وخلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحسب؛ إلا أن العلاقات الملكية ومراسلاتها جعلتنا نكتشف واقع ممالك مثل حلب وكركميش وقطنة وهو ما لم نعثر عليه في هذه المدن لتعذر التنقيب أو تأخره. كما أن مملكة الآشوريين الأموريين الأولى كانت مجهولة المقر والمؤسس، وكان هناك اعتقاد بأن آشور والآشوريين خليط

عرقي يمثل تنوع أعراق العراق وسوريا من الأناضول وإيران، إلا أن وثائق ماري كشفت وللمرة الأولى أن أشور لم يكن سوى إلهاً قبلياً متجولاً في بوادي الشام والجزيرة وأن شمشي أدو هو مؤسس الدولة الآشورية الباكرة في شوباط إنليل قرب القامشلي في سوريا وعرفنا أن الآشوريين ليسوا في واقع الأمر سوى سوريي الأمس بنظر الإغريق الغزاة الجدد في نهاية عصور التألق القديم. إن حضارة الممالك السورية القديمة قد تجلت في استمرار القبائل المستقرة على تقاليدها القديمة مضيفة إليها الإرث الأكادي السومري ومطورة ذلك في صيغ سياسية وإدارية جديدة تضفي عليها تلوناً واختلافاً في إطار لغوي وديني وإداري، بل ثقافي واحد.

وكان القسم ينطبق على سكان الأراضي جميعها حتى خارج النفوذ المباشر في حال إقامة أحلاف مع بدو المنطقة وخاصة بني سمأل وبني يمين. وكانت حالات الحنث تُكَفَّر بالتطهير في المعبد، وإلا بالعقاب إذا تيسر للملك القوة اللازمة. من جهة أخرى فإن إخبار الملك الأموري بأتفه الأخبار هو واجب كل موظف صغر أم كبر، ويتولى الحكام والقادة العسكريون شؤون إيصال الرسائل الفخارية مغلفة ومختومة على هيئة علبة فخارية صغيرة ومسطرة بالكتابة المسمارية المعهودة وبلغة أكاد الغربية الأمورية. وإن أفضل الحكام هو الذي يقول دائماً وفي مطلع تقريره: «إنني خادمك في الحقيقة» وعندما يستخدم فعل كذب كاذب فهو للدلالة على عدم التعاون وإعطاء المعلومات الصحيحة أو وقوع ثورة، وكثيراً ما يوصف البدوي بذلك؛ لأنه لا يعترف بالسلطة الملكية ويرفض الدخول في نظام مراقبة الموظفين الملكيين وأخيراً فإن الأخبار السيئة لم تكن تنقل للملك، فالخبر يجب أن يكون إيجابياً ومفرحاً وفي حال وقوع الكارثة فهناك خطر كبير بإعلان ذلك للملك أو السلطة الأعلى وهذه إحدى الصفات الخاصة بالعصر الأموري .. وإذا ما اضطرت الإدارة لفعل ذلك فلم تكن تتوانى عن الاحتماء بوظيفتها الرسمية في الدولة. وكان الملك زمري ليم يذكر حاشيته بوجوب الحرص على أسرار الدولة؛ إلا أن بعض الأمثلة تبين عكس ذلك وكان مجلس الدولة يدعي (الأمانة). وكان بعض المندوبين يطلبون من القصر لوائح موثقة بأسماء الأشخاص الذين يسمح لهم بسماع قراءة رسائل الملك أو المسؤولين. أما الوشاية فهي سبيل لقول أمر خطير لا يجرؤ المسؤول قوله مباشرة فيقول «نُمي إلينا كذا....»

لقد كانت صورة الملك الأموري تجمع بين القاضي الأعلى الذي يُودع القسم القضائي، وكانت رهبته في قصره، تجعل منه جزءاً من عالم الألوهية. من جهة أخرى فإن القسم في العصر الأموري هو الرابط الإداري السياسي حتى على المستوى الدولي. وقد بقي هذا الأمر حتى العصور المتأخرة من الألف الأول حيث يبدو أن الممالك الآرامية السورية قد مارست هذه الطريقة. ولم تعرف عادة القَسَمْ في عراق سومر وآكاد على نطاق واسع. وسوف يستعيرها الحثيون وتتجلى في معاهداتهم. كما أن كُتَّاب العهد القديم سيستخدمون طريقة القسم وضمان العهد، مما يؤكد سورية وشامية هذا الالتزام الأخلاقي عن طريق القسم ويتحول مع الزمن إلى "عقد اجتماعي" وائتماني يُعدُّ الأول من نوعه في تاريخ المدنية. ولقد أوجد نظام الإدارة الأموري الجديد هذه الطريقة لضمان التبعية للدولة والملك بعد قرون من الفوضى التي أعقبت انهيار دول أور الثلاث وظهور الدول الأمورية.

التملك والعدالة والتشريع:

يمكن القول : إن الملكية لجميع الأراضي تعود للقصر كما كانت للمعبد في عهد سومر الباكر؛ إلا أن الأمثلة الحية من نصوص ماري وبابل تعكس لنا واقع الملكية بصورة أدق؛ فمن حيث المبدأ يُعد الملك أغنى شخصية في المملكة فهو الذي يملك أكثر من أي شخص آخر. من جهة أخرى كان القصر مسؤولاً عن دفع الأجور شهرياً لجميع العاملين الزراعيين والمهنيين، ولا يوجد ما يثبت أن الملك ادعى بملكية جميع الأراضي في مملكته أو في الممالك المفتوحة حرباً. فهو يستولي على أملاك الملك أو الأمير أو الشيخ

المهزوم وأفضل مثل على ذلك هو حمورابي الذي استولى على لارسا، وزمري ليم الذي استولى على أملاك يسمخ أدو وغيره. وإلى جانب ذلك فإن الملكيات الخاصة لم تمس. ويمكن للملك أن يستملك مواسم الحبوب في ظروف الحرب والمجاعة .. وباختصار تدلنا نصوص متعددة في ماري وبابل أن أراضي الملك ذات شقين هما: بلتو المؤجرة سنوياً مالاً أو عيناً لمتعهدين يدعون إشاكو للحبوب وسندبكو للتمور، حيث تقدم الدولة والقصر ما يلزم من أدوات وسقاية والثاني يدعى شُكُسُ وهي أراضٍ تمنح للموظفين كجزء من أجورهم. أما الثروة الغنمية أو الحيوانية فتعطى لرعيان متمرسين وتؤمن لهم الحماية اللازمة مقابل أجور ربعية أو اتفاقية. أما المنتجات التجارية فتوكل إلى شخصية تجارية تدعى تمكار وهو التاجر المتعهد. ويجب ألاّ يفهم مما تقدم أن جميع الأنشطة الاقتصادية هي من شأن الدولة أو القصر، فقد تبددت هذه الفكرة مع توافر المحفوظات الملكية في ماري وغيرها. من جهة أخرى كان يظن أن نصوص التشريع مقتصرة على وادي الرافدين أي بابل وسومر ولكن نصوص ماري قد وثقت ظهور ما يدعى الـ: (ميشرو) بالأكادية وهو مشروع مكتوب لحفظ وتطبيق العدل والحق بين الرعية، طالما أن الملك هو الراعي الحافظ لحقوق الناس والضعفاء والأرامل خاصة. وهناك تعبير آخر هو (كِتّو) الذي يعني الاستقرار ومراقبة احترام العادات والتقاليد الاجتماعية. وقد ظهرت التعابير الحقوقية والعدلية في ماري وحلب وكردا (شمال الجزيرة) في جبال سنجار، فقد كانت ظاهرة منتشرة لدى ملوك الشام والعراق الأموريين. وكان الإعلان عنها في مراسيم تنصيب وصعود الملوك على العروش. وكان الملوك يستقون العدالة من إله الشمس (شمش) وكان ملوك سوريا يبدأون تطبيق العدالة في قصورهم وحاشيتهم أولاً. وقد سجلت بعض مراسيم تطبيق العقوبات ضد المخالفين في قضايا المرهونين للدين في ماري وديار بكر. وكذلك أوضاع العبيد.

القوانين: بالرغم من عدم وجود تشريعات مماثلة لعمل حمورابي أو من سبقوه من عصور سومر وهم شولجي واورنامو ولبيت عشتار، فإن وصول التشريع وأفكاره إلى مدوني العهد القديم أو التوراة وخاصة النبي سليمان الملقب بالحكيم يدعونا للاستنتاج أن التشريع الشامي والعراقي القديمين يغرفان من ينابيع الحضارتين السومرية والأكادية.

الغزو الأجنبي والقرون الغامضة:

تعد نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد، بداية غزوات كبيرة هزت بلاد الشام برمتها والعراق، وصلت حتى مصر. ولم يعثر على نصوص تدل على آثار تلك الظاهرة بسبب جهل الغزاة الكتابة أو القراءة، وعدم قدرتهم على تعويض الإدارة المعقدة للدول المنهارة. وعندما استقر هؤلاء وظهرت مدوناتهم نكتشف وجود دول حورية وميتانيه في شمال سوريا والعراق حتى سواحل المتوسط. وتظهر بابل تحت سلطة سلالة كردونياش الكاشي وتصبح الأناضول وأجزاء كبرى من سوريا تحت سلطة الدولة الحثية (Hatti). ولكن الوثائق قليلة بل نادرة، ولذا فإننا نتتبع التبدلات الدولية الجديدة من خلال محاور انتشارها. فلأول مرة يذكر سمسو إيلونا ملك بابل في عام 1740ق.م أنه قضى على غزوة للكاشيين القادمة من جبال زاجروس. ونجد بعض آثارهم في مملكة خانا الفرات والخابور في شمال سوريا، حيث نُقش اسم ملك كاشي يدعى كاشتيلياشو على ختمه. ويظن أن الهجمات التي قضت على آخر الملوك الأموريين في بابل قد جاءت من هناك، ولكن نهاية بابل جاءت على يد الملك الحثي مورشيلي الأول حيث كان حاتوشيلي الأول قد دمر حصون ألالاخ الممثلة بطبقتها الأثرية السابعة المؤرخة بين 1650 - 1630ق.م من قبل "وولي" الذي اكتشفها عام 1939م. وتابع حاتوشيلي غزواته على مدن سوريا الشمالية مثل أورشو وخشو على ضفة الفرات اليمنى. حيث كانت هاتان المدينتان مركزين لإمارتين حوريتين تعرفان باسم هانيجلبات أيضاً. وقد تجمع السوريون والحوريون في الشمال ضد حاتوشيلي الأول، إلا أنه تمكن من هزيمة هذا الحلف في معركة أدالور/ أتالورا. وبعد

موت هذا الأخير صعد على عرش حاتوشا ابنه مورشيلي الذي احتل حلب يمحاض/ يمخد، وكانت تمثل رمز القوة السورية في الشمال، وتدخل ضد الحوريين ومن ثم توجه جنوباً إلى العراق حيث سقطت بابل أمام زحفه عام 1595ق.م، كما خضعت أرزاوا وأدنيا/أضنا في عمق الأناضول لخلفائه، وكانتا إمارتين أموريتين. وكان للآريين إمارة في كزواتنا أما آلالاخ فقد عادت للظهور تحت إمارة شخصية أمورية سورية شهيرة هو ادريمي صاحب التمثال والكتابات المعروفة التي عكست أعماله الحربية والتوسعية في شمال سوريا ضد الحثيين متحالفاً مع الملك الميتاني برترنا. ولم تظهر أعمال عسكرية حثية أخرى ضد شمال سوريا وطوروس إلا في عهد تلبينو (1525 - 1500ق.م تقريباً) في منطقة البستان. وإثر تقهقر النفوذ الحثي في شمال سوريا تظهر دولة ميتاني التي ضمت بقايا الإمارات الأمورية السورية والحورية. ويبدو الاختلاط الشامي والآري واضحاً خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر. فقد ظهرت آثار الحوريين في مدينة ألالاخ في المستوى الرابع في القرن الخامس عشر. وكذلك في قطنة قرب حمص وتونيب Tunip وأخيراً في أوجاريت وظهرت أسماء أمراء حوريين ومن أصل آري مثل أيتاجما في قادش وبيرايوازا في دمشق. وكان خيالتهم يدعون ميريانو وهو مشتق من اللغة الفيدية Vida وتعني «الأبطال الشباب». وكانوا ساسة للخيول. واختلط النفوذ الميتاني الحوري بالنفوذ المصري ابتداءً من غزوة تحوتمس الثالث في حوالي عام 1460ق.م. وتذكر نصوص ألالاخ (AT, 13, 14) من خلال ختم سلالي اسم شوترنا بن كيرتا وآخر عرف في كتابات ادريمي هو براترنا والذي ذكر في لوحة من نوزي أيضاً (HSS, XIII, 165, 3) بين 1580 - 1570ق.م. وقد وصل نفوذ الميتانيين إلى فلسطين حيث النفوذ المصري. ويظن أن هذه الإمارات الميتانية المتفرقة في سوريا قد ساهمت فيما عرف بغزو الهكسوس لمصر. وكانت العناصر الكنعانية والآرية والعمورية تشكل أساس هذا الغزو حيث أن أسماءهم تدل على أصولهم الشامية.

سوريا وإدريمي والتوازن المصري الميتاني:

تعد كتابات أو نقوش إدريمي على تمثاله المعروف أفضل مصدر عن تاريخ سوريا والمشرق في زمن التوسع الميتاني. فقد كان إدريمي الابن الأصغر لملك حلب إليم - إليما. ويظن أن الميتانيين قد دبروا انقلاباً ضده، مما اضطره إلى الهرب مع إخوته إلى إيمار على الفرات، حيث تقيم عائلة أمه. ويذكر أنه عاش بين البدو السوتو وهم أموريون وفي بلاد كينانيم (Ki - in - a - nim - ki) أي كنعان. ويتقابل مع سكان من أصل حلبي وموكيش ونيا وإمائو حيث يبايعونه. ويعيش لمدة سبعة أعوام بين البدو والخبيرو ويعسكر أخيراً قرب موكيش وجبل الأقرع شمالاً. ويعترف ملك الميتانيين برترنا بالواقع ويرضى إدريمي بواقع سلطته في آلالاخ، وبالاعتراف بسلطة الميتانيين في حلب. ويوجه حملات متتالية ضد مدن الشمال الحثية. ويؤسس ادريمي ملكاً ونفوذاً لدى السوتيين، ويتجلى ذلك في عمارة قصره من المستوى الرابع في آلالاخ، ويخلفه ابنه أدد - نيراري وقد أعاد كل منهما عبادة الإله أدد/حدد الحلبي الشهير.

لم يذكر إدريمي السابق أية معلومات عن أعمال عسكرية مصرية؛ إلا أن العثور على نصب مصري يعود لعام 1520ق.م يؤكد وصول القوات المصرية إلى ضفة الفرات في سوريا. فقد قام أحمس بتعقب الهكسوس وتلا ذلك حملة أمينوفيس الأول بحملة (1550 - 1518ق.م). وتلاه تحوتمس الأول عام 1526ق.م الذي أعلن سيادة إمبراطوريته من النوبة إلى الفرات السوري. ولكن فراعنة السلالة الثامنة عشرة هؤلاء اضطروا للقيام بحملات تأديبية لإعادة التوازن في فلسطين وسوريا، وخاصة ضد القبائل البدوية وهكذا فقد وصل تحوتمس الثاني 1510 - 1490ق.م إلى مدينة نيا في منطقة نهارينا، ولم تتمكن الملكة حتسبشوت من القيام بحملات أخرى نتيجة الخلافات الداخلية على الملك، فخلا الميدان للميتانيين في سوريا وفلسطين.

ولمع اسم ملكهم سوشاترا الذي جاء ذكره في معاهدة شوبيلوليوما الحثي وشتيوزا أنه سبا عاصمة الآشوريين وحال دون نهوضهم من جديد، ونقل أملاكهم إلى عاصمته واشوكاني في الشمال السوري، كما خضعت آلالاخ بعد إدريمي لهيمنته. وهكذا فقد امتدت إمبراطوريته من جبال زاجروس حتى البحر الأبيض المتوسط وضمت شمال سوريا والساحل وجزءاً من جبال لبنان. بينما كانت خاتي وملوكها في صراع داخلي وتقهقر عن الأراضي السورية.

أما في مصر فقد اعتلى العرش تحوتمس الثالث بعد موت حتشبسوت في عام 1468ق.م، وقام باثني عشرة حملة عسكرية حتى وصل إلى أهدافه. وقد وجه ضرباته الأولى إلى ملك قادش الذي أقام تحالفاً ضده من 330 أميراً سورياً وفلسطينياً ولبنانياً وقد هزم الحلف في أريحا، ثم تحصن ملك قادش في مدينته وبقي محاصراً سبعة أشهر. وقام تحوتمس الثالث بهجمات جانبية في لبنان وساحل سوريا قبل تدمير قادش. واصطدم إثر ذلك مع الملك الميتاني مباشرة، فدحره في قطنة عام 1459ق.م ولاحق فلول الميتانيين حتى حلب وكركميش. وخضعت سوريا وفراتها له. واستطاع البابليون والحثيون أن يتخلصوا من الحكم الميتاني. ويُظن أن المصريين قد أجبروا الحثيين إثر انتصاراتهم على توقيع معاهدة سلم وصداقة بين الشعبين. ولكن الميتانيين عادوا للظهور حيث خلت المناطق من القوات المصرية. وخاصة شمال حلب. واضطر تحوتمس لإعادة احتلالها، في حين ظل الآشوريون والحثيون في الشمال مهددين بالخطر الميتاني. ولكن تحوتمس احتفظ بفلسطين ولبنان والأردن ومعظم مناطق سوريا تحت سيطرته حتى موته عام 1436ق.م حيث صعد ابنه أمينوفس الثاني على عرش مصر وواصل حملاته شمالاً إلى نيبا وأوجاريت وقام بزيارة قادش وأخذ الأسرى والرهائن من فلسطين. ولكن النفوذ الميتاني لم يَزُلْ تماماً وظلت مسألة التوازن المصري الميتاني قائمة في سوريا حتى عام 1443ق.م، حيث بدأ التململ الحثي يتكشف عن قوة استطاعت هزيمة الميتانيين وفرض معاهدة عليهم في حلب، تحت حكم توداليا الثاني الحثي. ولكن المصريين شعروا بالتوازن الجديد فوثقوا صلتهم العائلية بالميتانيين عن طريق زواج تحوتمس الرابع من ابنة العاهل الميتاني أرتاتما عام 1430ق.م وعادت حلب إلى النفوذ الميتاني.

احتلال الحثيين لشمال سوريا:

لم تؤد هزيمة تشراتا الميتاني إلى فرض سيطرة تامة على الأقاليم السورية. كما أن الحوريين في شمالها لم يتعرضوا للحرب. ولذا فقد تجمع عدد من الأمراء السوريين الميتانيين، وكذلك فإن تحرشات عبدي عشيرتا قد أثارت ردود فعل المصريين. وكان من نتيجة ذلك ظهور حلف سوري جديد ضد الحثيين، حيث إن شوبيلوليوما ذكر المدن التي انضمت إليه إثر حملته الموجهة أولاً ضد ثورة حلب ثم موكيش وآلالاخ ونيا وأرختو وقطنة وقادش حتى دمشق. وقد استنجد شروبخا أمير نوخشيه بالحثيين الذين تمكنوا من إلحاق أوجاريت وغرب الفرات بسلطتهم. وأسرع شوبيلوليوما باحتلال إسوا شمالاً ثم واشوكاني عاصمة ميتاني، حيث غادر تشراتا عاصمته تاركاً إياها لنهب الحثيين. وعاد شوبيلوليوما لنجدة أوجاريت التي كانت تقاوم هجوم موكش ونوخشيه ونيا، وبعد مفاجأتهم من الخلف أعاد احتلال حلب وآلالاخ وأخضع نيا وأميرها تكوا وأسر أخاه أكي تيشوب وساقه إلى خاتي مع أكيا أمير أرختو ثم أتى دور قطنة ونوخشيه، حيث حاول أدونيراري الحصول على مساعدة مصرية لكن بدون جدوى (EA, 51) فما كان منه إلا الهروب تاركاً ملكه لـ "تكيب مشري" في مدينة اوكولزات بدعم من الحثيين. وعندما وصل شوبيلوليوما على رأس حملة حتى غوطة دمشق التي كانت تدعى آنذاك أبينا وكان قبل ذلك قد مَرّ بقادش (كنزو) وأسر ملكها شوتاترا ونفي مع ابنه أيتاجاما. وعندما عاد نقمدو إلى آلالاخ ليرى ما يمكن الحصول عليه، كانت الشام من الفرات إلى لبنان تخضع لعرش شوبيلوليما، وقد قوبل وجود الحثيين على ضفاف العاصي والليطاني بتحركات أزيرو Aziru ابن وخليفة عبدي عشيرتا على عرش الأموريين. كما أن تقلبات الأحداث في مناطق الأموريين أدت إلى أن يطلب أمينوفس

الرابع من أزيرو زيارة مصر، حيث تؤرخ بعض رسائل تل العمارنة في هذه الفترة مثل (EA, 164 - 167) المرسلة منه إلى الفرعون وإلى موظف مصري كبير يدعى دودو حيث يشرح موقفه ويبرر عدم طاعته، وأن الحثيين هم الذين يهددون المصالح المصرية في الشام، وأن الأموريين وأمنهم يتطلب وجود المصريين.

كما بدأ أمراء صغار من الكنعانيين بالتحرك حيث تذكر نصوص تل العمارنة شخصية لابايا Labaya حاكم سيشم وآخر يدعى ملكيلي حاكم جزير Gezer، حيث يسعيان لمد نفوذهما على حساب جيرانهما. وهناك حاكم حبرون المدعو شوارداتا وعبدي - خبا حاكم القدس. كما ذكرت النصوص نفسها جماعة البدو الفلسطينيين من الخبيرو الذين أغاروا على جزير وعسقلان انطلاقاً من لاكيش Lakish. وذكر اسم أدايا حاكم كنعان أنه يعاني من المصاعب، وتفجرت الاضطرابات في جبيل اللبنانية حيث إن جماعة من الأعيان رغبت في الانضمام إلى أزيرو (Ea, 138). وقد طرد "ريب أدي" الذي صار مسناً ومريضاً من قبل أخيه من المدينة، والتجأ إلى بيروت حيث كان "أمونيرا" قد خلف "إيباخ - أدو"، خصم "ريب أدو" ومن ثم قرر الاستسلام وسلمه للصيداويين حيث اختفى وكان من نتائج هذا الأمر أي استيلاء أزيرو على جبيل وطرد ريب أدو، أن استاء الفرعون فوجه له إنذاراً طالباً منه القدوم إلى مصر فوراً أو إرسال ابنه (EA, 162). ولم يستطيع أزيرو إلا أن يرضخ لذلك، وقد أوكل الإدارة إلى ابنه وأخوته في ظل ظروف دولية مناسبة، وذهب. وهناك بعض الرسائل التي تؤرخ زمن الزيارة هذه، وتكشف عن أن الحثيين شرعوا بعمليات عسكرية جنوب سوريا لها علاقة بـ أيتاجاما (EA, 174 - 176). كما أن قائداً يدعى لوباكي قد احتل بعض المدن في العمق والبقاع كما أن زيدا Zida شقيق شوبيلوليوما كان معسكراً في نوخشيه (EA, 170). ومن المحتمل أن أزيرو قد أمر إخوته سراً بدعم أيتاجاما، كما اتهم في الرسالة (EA, 140). وتبين أن جميع التهم كانت باطلة. وكان دودو مدافعاً عنه (EA, 169, 16). ولعل إطالة إقامته في مصر قد كانت بسبب مصاعب مصرية داخلية زمن صعود توت عنخ أمون 1350ق.م على العرش. ولكنه أي أزيرو نجح في العودة إلى بلاده "أمورو" دون معرفة التفاصيل، وعمد إلى تسوية خلاف بين أخيه بعليا وأوجاريت، حول أرض في سيانو قرب جبلة السورية.

لقد أفل نجم القوة الميتانية في سوريا أمام الحروب التي لم يتوقف الحثيون عن شنها، والتي صنفها الباحثون بالأولى ومثلت البدايات، والثانية حروب ضد الثورات السورية والثالثة والأخيرة بسبب تدخل المصريين في قادش ومحاولتهم بعد هزائمهم المتكررة مهاجمة الحثيين في كركميش/جرابلس. أما الحوريون فقد تولى تلبينو ابن شوبيلوليوما إعادة الأمور إلى طبيعتها أمام محاولاتهم مهاجة كركميش وأرزيا، وترك لقائده لوباكي إتمام المهمة، حيث عاد هو إلى عمله في كومانا. إلا أن الثورات تفاقمت في سوريا، ولذا فقد قرر شوبيلوليوما التدخل بنفسه، وتمكن من الوصول إلى سهل العمق وإبعاد المصريين، ومن ثم عاد إلى كركميش لمهاجمتها حيث تلقى خبر وفاة أمينوفيس الرابع، وقد بعثت أرملته بطلب يد أحد أبناء شوبيلوليوما، فكانت الفرصة مناسبة كي يتبوأ أحد أبنائه عرش مصر، إلا أنه تردد في الأمر، خشية مؤامرة، فأرسل أحد المندوبين لتقصي الوضع، ولكنه لم يتوقف عن هجومه ضد كركميش حتى أخذها.

ثم قام شاتيوزا بحملة كي يستعيد عرشه من شوترنا فاحتل إرِّت وحران والعاصمة واشوكاني ولكن صدت الحملة وتوقفت قرب الخابور في شمال سوريا بالتعاون بين شوترنا والآشوريين، وتحولت ميتاني إلى مملكتين لكل من ملكيها المتنازعين. وقد حل الضعف في دولة شوبيلوليوما

بسبب أعبائها الإدارية والثورات التي لم تتوقف في سوريا. ولذا كان الموقف يتطلب شخصية قوية ومحكنة، وقد توافر ذلك في مورشيلي الثاني الذي توفي جراء الطاعون عام 1342ق.م . ولكن آشوراوباليط استفاد من الوضع ودفع بقواته حتى كركميش دون أن يتجاوز الفرات بسبب مواجهة الحثيين، وكذلك فإن أدو نيراري الأول قد هاجم جماعة سوبارو في ميتاني (A. Hark, 718, 56) وتركزت جهود مورشيلي على مدينة ارزاوا الواقعة على طريق كيليكية حيث ذكر أسماء مدن للمرة الأولى في التاريخ مثل ميلاوندا أي Milletos أو RGTC 611, 288; 612, 104 Milet ويقيم معاهدة مع الآخيا Ahhiyawa أو الأخيين على الأغلب حيث يرد ذكرهم لأول مرة قبل رواية الإلياذة.

وكان الآشوريون في شمال سوريا والعراق زمن إنليل نـاراري 1327 - 1318ق.م وأريك دين ايلي 1317 - 1306ق.م منشغلين بصراعات متعددة ضد بابل وسكان الجبال والآراميين وتسربهم إلى مراكز السلطة وقضائهم على الهيمنة الحثية في شمال سوريا. والعراق. استغل مورشيلي انشغال الآشوريين بذلك لمد نفوذه إلى ميتاني من جديد دون أن يتمكن من السيطرة على منطقة النهرين (بين الخابور والبليخ) المذكورة في الرواية المصرية عن معركة قادش، حيث تذكر أيضاً ممالك كركميش وحلب ونوخشه وكنزا. وقد بدأ التمزق الداخلي يفعل فعله في البلاط الحثي، وبرز دور الملكة الأم توانانا Tawananna ذات الأصل البابلي. وأصاب البلاد موجة من الطاعون، وهكذا فإن بعض النجاحات السياسية الحثية في سوريا لم تحد من استفحال ذلك التمزق الداخلي.

ولكن خلفاء مورشيلي الثاني من أبنائه مواتالي وحاتوشيلي الثالث قد تمكنا من إعادة ترتيب بلاد خاتي وخاصة بعد انتصاره على أعدائه في الشمال في مدينة بيشورو Pishuru في معارك طاحنة كانت العربات قد احتلت حيزاً كبيراً فيها. كما أعاد احتلال أرزوا غرباً لكي يتفرغ للأوضاع الخطرة في سوريا حيث بدا الخطر المصري ضاغطاً ومقلقاً بالنسبة للملك مواتالي وأخيه الصاعد حاتوشيلي الثالث.

لقد سعى فراعنة السلالة التاسعة للسيطرة على سوريا، فمنذ عهد سيتي الأول أقام المصريون تحالفات مع الأمراء السوريين من الكنعانيين في فلسطين وقادش وهي في قلب بلاد الأموريين التي كانت تدور في فلك الهيمنة الحثية عادة منذ حملات شوبيلوليوما. وبعد صعود رمسيس الثاني في عام 1290ق.م تعرض الأموريون إلى ضغوط شديدة واضطر ملكهم بنتشينا للانضمام إلى الحلف المصري. وهنا أدرك مواتالي الخطر، وقام بالاستعداد لمواجهة الفرعون الذي راح يتجول في أرجاء الساحل السوري واللبناني والفلسطيني في عام 1285ق.م، وقد وصفت المصادر المصرية تركيب الجيش الحثي إذ كان يضم قواتاً من الأناضول ميتاني وأرزوا وسوريا، حيث انضمت إلى الحلف الحثي كل من كيزواتنا وأوجاريت وكركميش وحلب ونوخشه وكينزا وبلغ الجمع 35.000 مقاتل يسندهم 3.500 عربة قتال. والتقت القوات الحثية والمصرية قرب قادش إلا أن المصريين لم يكونوا على علم مسبق بتحركات الحثيين، معتقدين أنهم ما زالوا بعيدين قرب حلب، فكانت مفاجأة لهم أن يظهروا في قادش، واستطاعوا تدمير الطوابير الأولى من قوات الفراعنة بفضل سرعة تحرك عرباتهم ولكن الفرعون استطاع انقاذ الموقف بمواجهة مستمرة وإقامة الصلة مع الطوابير المتأخرة، واستطاع دفع الحثيين خلف العاصي، حيث عمدوا إلى نهب معسكر المصريين. ولكن رمسيس لم يتمكن من التقدم أكثر بسبب إنهاك قواته، وقام بالتراجع عائداً إلى فلسطين ومصر حيث تعقبه الحثيون حتى منطقة دمشق. وعادت بلاد الأموريين إلى حضن الحثيين وأصبح موقف ملكها بنتيشينا في حالة «موت» كما يصف ذلك بنفسه حيث أسر ونفي إلى خاتي وُقلد حاتوشيلي شقيقه ملكاً جديداً. وتجمع الأموريون لاحقاً بحيث لم يفقدوا موقعهم السياسي تجاه الحثيين، وخاصة بعد عودة رمسيس للإغارة

على مناطق الحثيين في قادش وتونيب ونهر الكلب. وبالرغم من هذا فقد ظلت معظم مناطق سوريا بيد مواتالي الذي جدد معاهدة مع ملك حلب تلميشروما. من جهة أخرى بدأ نجم الآشوريين يسطع من جديد في شمال سوريا إثر معركة قادش التي أنهكت الطرفين المصري والحثي على حد سواء، مما جعل آشور قوة جديدة زمن "أدد نيراري" الأول الذي أجبر "شاتووارا" في هاني جلبات (ميتاني) على دفع الجزية وإثر ذلك خرجت ميتاني من يد الحثيين.

ولم يمض وقت طويل حتى عادت الثورات في الشمال ضد الملك مواتالي وأخيه حاتوشيلي. كما أن المنية أدركت الملك في حوالي عام 1280ق.م . وعاد المُلك للأخ أي حاتوشيلي بعد الوريث الشرعي أورخي تيشوب ابن الأول إثر صدامات سببها غياب هذا الأخير. وأصبحت خاتي بين يدي القائد المحنك حاتوشيلي (الثالث) عام 1275ق.م . الذي قام بتوقيع معاهدة بين العرشين الحثي والمصري عام 1270ق.م. ثم بدأ الآراميون وفرعهم من الأحلامو بتهديد الوجود الحثي في سوريا. واستطاع حاتوشيلي اتباع سياسة تحالف مع بابل لطرد الآشوريين من هاني جلبات أي ميتاني إلا أن صعود شلمنصر الأول على عرش آشور بعد أدد نيراري 1273ق.م وقتاله على جبهتي أورارتو ومصر (Musri)، قد وضع آشور في مقدمة أحداث الساحة الدولية، وخاصة بعد استعادتها شرق الفرات إثر نصر ساحق على الحوريين. ولهذا سارع حاتوشيلي للتأكد من إخلاص مصر له فزوج ابنته للفرعون رمسيس الثاني عام 1271ق.م وقام بتقوية صلاته مع ملك الأموريين بحيث أن معظم سوريا كان تابعاً له. وقد أدركه الموت عام 1260ق.م وخلفه على عرش خاتي ابنه "تودخاليا" الرابع. وظل السلام في سوريا قائماً على توازن القوى الثلاثة أي مصر وخاتي وآشور. ولكن لمدة مؤقتة حيث أحس الآشوريون بقوتهم فاحتلوا ديار بكر في شمال سوريا التي تعد معقلاً للحثيين. وأعلنت حالة العداء بين الطرفين وراح تودخاليا يوطد علاقاته مع ملك الأموريين طالباً منه عدم المتاجرة مع الآشوريين وطردهم من سوريا. ولكن واجه الحثيون قلاقل من جهة الغرب في أرزاوا وكان الآخيون الذين يظهرون لأول مرة في غرب الأناضول قد حجموا نفوذ الحثيين.

وقد بدأ الحثيون بالتعرف إلى الديانة السورية العراقية من خلال أقرب مدينة لهم وهي حلب حيث كان إلهها أدد أو تيشوب إله الإمبراطورية الحثية الرئيس في حاتوشا، بالإضافة إلى آلهة الحثيين القديمة. وقد اشتهر الحثيون ببناء المعابد في عاصمتهم ولا شك أن مخططات المعابد السورية القديمة كانت تمثل الأساس في عمارتها، وقد تجلى هذا من خلال حفائر مدينة مسكنة - إيمار قرب سد الطبقة على الفرات في سوريا، والتي تعد الميناء النهري لمدينة حلب حيث كشف المنقبون عن أعداد مهمة من النصوص الدينية الأكادية وتؤرخ في فترة الهيمنة الحثية وتمثل تطور الديانة السورية آنذاك.

آشور و بدو السوتو:

تصاعد نجم الآشوريين في شمال سوريا والعراق زمن حكم آشوراوباليط وظهرت قوتهم أمام بابل ومصر في عهد أدد نيراري 1305 - 1274ق.م الذي تحدث عن عهد أبيه قائلاً إنه أخضع بلاد (مصري) وسوبار وهي بلاد ميتاني وأورارتو غالباً وليست مصر الفرعونية. ولكن آشور أوباليت أقام علاقات تجارية ودبلوماسية مع فرعون مصر أمينوفيس الرابع (EA, 16) مما أثار حفيظة بابل الخاضعة لسلالة كاشية. وكان على بابل أن تواجه البدو السوتو المتسربين من بادية الشام الذين يتحكمون بطرق المواصلات ويقومون بأعمال السطو، ويزعجون نظام الدولتين البابلية والآشورية؛ فعمد هؤلاء إلى تسليط هجمات مفاجئة ومدمرة لبدو الشام؛ إلا أن هذه الظاهرة لم تكن الأولى ولا الأخيرة في تاريخ البادية .. وكان من نتائج هذا الواقع السياسي الجديد أن استطاع آشوراوباليط إيقاف تسربهم لحين، وتمكن من الاستيلاء على عرش بابل وتنصيب تابع له، ولكن الحرب ظلت دائرة منذ عام 1328ق.م بين بابل وآشور بالرغم من النجاحات والانتصارات التي حققها آشوراوباليط سابقاً،

ولكن المعارك بين آشور وبابل قد أدخلت الطرفين الإيراني والكردي وأبعدت إلى حين مسرح المعارك عن الشام وبواديها حتى عهد شلمنصر الأول 1273 - 1244ق.م . وبعد ذلك اعتلى عرش آشور توكلتي نينورتا الأول 1243ق.م الذي جعل من حروبه تجارة لجلب المواد الأولية من الأناضول وجمع الضرائب، ولكن لم يستطع السيطرة على السوق السورية بسبب الوجود الحثي، إلا بعد معارك ضارية ضد بابل، حيث تمكن من ماري ورابيقوم وخانا على الفرات الأوسط وبعض المواقع الآرامية في الشامية، وأعلن بعدها أنه صار سيد البلاد من سومر إلى أكاد، ولكنه وللأسف قتل على يد ابنه "آشور ندين أبلي" نتيجة للحروب والوضع الأشوري الداخلي عام 1206ق.م وبقيت أشور وبابل في حالة نزاع وتمزق. ثم ظهر خطر خارجي جديد قادم من جهة البحر الأبيض المتوسط وهو ما سيبدل الأوضاع في الشام.

تطور المجتمع:

لم يكن الآراميون الذين بدأوا يظهرون على المسرح السياسي السوري اللبناني الفلسطيني سوى الورثة الطبيعيين للأموريين الذين بنوا دولتي آشور وبابل ودول سوريا. ولم يتميز الآشوريون وحدهم ببناء دولة قائمة على الحرب والتوسع .. فلعل الضغط الآرامي وضغط شعوب الأناضول وزاجروس كان المحرض الأساس لبناء آلة الحرب الآشورية. وقد كانت الإدارة الملكية وإدارة الأقاليم لا يختلفان كثيراً عما كان عليه الأمر أيام زمري ليم ومملكته في ماري وشمشي أدد في شوباط إنليل في أعالي الجزيرة السورية. ولكن هناك أسماء مناصب إدارية مستعارة من الحورية مثل خاسوخلو ويعادل بالأشورية بيل باخيتي وهو أمير منطقة، وهناك لقب سومري قديم وهو سوكالو القريب من منصب وزير. وتذكر نصوص آشورية أن بيل باخيتي مسؤول عن تشغيل الأسرى الكاشيين في الأعمال الزراعية على نهر الخابور قرب الحسكة وهناك منصب قيفو الذي يدير أعمال الملك مباشرة، وهناك وظائف أخرى مثل شكين تيمي وخزنو/ الخازن. وكانت أراضي سوريا الشمالية التابعة لآشور مقسمة إلى ثلاثة أقسام وهي أراضي العرش وأملاك خاصة وأملاك الحاشية المعترف بها وكان القصر والقصور الريفية عبارة عن مشروعات زراعية ومستودعات للمواد الأولية والمعادن. ويقوم الملك على رأس الإدارة والمجتمع الذي يمكن توزيعه إلى ثلاثة أقسام هي: الطبقة المالكة العليا الإرستقراطية وطبقة الموشيكينوم أو خوبشو وهي الطبقة الشعبية التي ذكرتها نصوص العراق والشام على حد سواء أي في بابل وآشور وتل الحريري ماري ورأس شمرا أوجاريت وآلالاخ وأخيراً تل العمارنة وهي تعني الفلاح أو المهني العادي. أما واقع الأسرة والمرأة فهو قائم على عقد زواج يمتلك فيه الزوج حقوقاً أفضل وخاصة استعادة المهر في بعض الحالات، أما تعدد الزوجات فهو أمر معروف ولكن يبقى للزوجة الأولى معظم الامتيازات وللبقية وضع الساريات أسيرتو (Esirtu) وتتميز المرأة الزوجة عن غيرها بوضع الغطاء، وكانت عقوبة الموت لخيانة الزوجة أو الاجهاض والاغتصاب. فالاتجاه القانوني والعرف قاس جداً في عقوباته وكأن المجتمع ثكنة عسكرية. ويتوضح هذا في حالات الحرب حيث تُقطع الرؤوس وتُفقأ العيون ويُباد السكان المعارضون وكله باسم الملك والإله. ولا يتميز عهد أو ملك عن عهد أو ملك آخر ولا شعب من عرق دون شعب من عرق آخر في ممارسة هذه الأعمال الحربية القاسية. فالآراميون مارسوها بدوًا ومارسها الآشوريون ضدهم في سوريا وفلسطين والعراق. وقد عبر أدب رأس شمرا من خلال الربة عناة والتوراة فيما بعد عن رغبة الآلهة في الانتقام في الحروب وارتكاب أعمال التشنيع. وقد كان الحثيون من أوائل ممارسي سياسة نقل السكان واقتلاعهم من أرضهم. وهكذا لانستطيع الكلام عن قادة أو إجرام خاص بالآشوريين أو الآراميين أو غيرهم. والحق أن كل شعب أو جيش له

صفاته الحربية وجرائمه الخاصة. وكانت الشام مليئة بحروب الدول وحروب البدو وجميعها تتصف بالقساوة والعنف ولا رحمة لمغلوب أو معارض. وكل هذا يعبر عن عقيدة اجتماعية ودينية تهدف إلى الهيمنة على كل شيء، بل على كل الكون، فالعقيدة الإلهية هي عقيدة كونية وعلى الإنسان أن يتبعها بقوة سلاح الملوك والكهان والأنبياء، فآشور هو إله حرب أساساً وكذلك مردوخ، وكذلك دجن، بل قلَّ وجود إله لم تكن الحرب والقوة من صفاته الأولى المقدسة. وبذلك يمكن القول: إن الآلهة قل أن تهب الحب مجاناً فحبها مشروط بطاعة مطلقة للإله والملك، فالحب المجاني لم يعرف ولن يعرف على ما يبدو في تاريخ البشرية؟!

إن أعياد وطقوس بابل وآشور وهي بابلية الأصل وسومرية أصلاً قد بلغت أوجها زمن حمورابي إلا أن هذه الأعياد كانت تمارس في الشام وحواضرها، كما تدل وثائق أوجاريت وماري، وآلالاخ .. كما أن الملاحم الأدبية العراقية كانت معروفة في أوساط رجال الدين الشاميين، فقد كان دجن وأدد من الآلهة الأكثر شعبية في معابد الشام، إلا أن (إيل) وإنليل وإنكي يأتون على رأس المجمع الديني وهم من أصل سومري وقد ورثها الشاميون عن آبائهم الأكاديين مباشرة، إلا أن مأثرة آشور وبابل أنهما جمعتا وكتبتا الأدب الملحمي والأسطوري منذ عهد تجلات بلاصر الأول حتى عصر سرجون الثاني وهانيبال.

غزو شعوب البحر:

كان زوال الدولة الحثية مفاجئاً وعاصفاً سواء في سوريا أو في الأناضول. فقد كانت الشعوب الأوربية المتمركزة في غرب الأناضول من آخيين وأرزاوين ولوسيين متحدة كلها ضد حاتوشا وكان بعضهم يحاول الدخول إلى مصر. وقد نجح الفرعون مرن بتاح بصدهم وأرسل إعانة من القمح لدعم الحثيين ضد العدو المشترك من غزاة الغرب الجدد وكانت انتصاراته في فلسطين قد سجلت في سنة حكمه الخامسة في حوالي 1230ق.م .

وكانت أوجاريت في عهد ملك يدعى حمورابي إمارة تابعة للحثيين وكذلك فإن قبرص وكيليكيا كانتا لاتزالان في أيديهم، وبعد محاولاتهم عبور الفرات نحو آشور فإن أخبارهم وكذلك إمبراطوريتهم تغيب فجأة وإلى الأبد، وبدون سبب أو دليل مباشر؛ إلا أن المصادر المصرية تذكر «شعوب البحر» الذين يهاجمون دلتا النيل وينجح رمسيس الثالث في احتوائهم بصعوبة عام 1190ق.م وكانت أسماء بعض هؤلاء الجماعات المذكورة متطابقة مع المصادر الأحدث وكذلك كتابات مرن بتاح، وبصورة خاصة اسم شردان Shardane والآخيين Aqayawas ودنونا Danuna وهم من شمال كيليكيا والفلست Philistuis الفلسطينيين القادمين من جزيرة كريت. وهكذا بدا الساحل السوري اللبناني والفلسطيني في وضع غليان وبركان. وكان الغزو الأوربي الشمالي الدوري Dorie قد غطى مناطق بحر إيجه. ولا تبدو آثار مباشرة على دور هؤلاء في اختفاء الدولة الحثية، إلا أن وجودهم في الشام ومصر وخاصة المناطق الساحلية أمر مؤكد. ولعل الغزاة الأوربيين من الفريجيين القادمين من تراس Thrace والذين عرفوا في وثائق الآشوريين بـ: موشكي Mushki وهم موشوا Mochoi الذين ذكرهم هيرودوت. ونجد بعض آثار جماعات جاسجا Gasga على ضفاف الفرات.

على أية حال، فإن جميع هؤلاء الغزاة المحليين والخارجيين قد تبنوا الثقافة والحضارة العمورية أو الأمورية التي تعد وريثة الحضارتين السومرية والأكادية ويعد الكنعانيون في فلسطين الفرع الأصغر من امتداد العموريين في الزمان والمكان الذي يشمل العراق والشام، ويمتد بين الألف الثالث والألف الثاني ق.م. وتبدو سوريا والعراق في وضع غامض نظراً لعدم توافر الوثائق، إلا أن نهاية الألف الثاني ستحمل موجة توغل الآراميين القادمين من بوادي الشام والحجاز الذين سيحولونها إلى امبراطوريات ودول تسود العالم القديم في الألف الأول قبل الميلاد.

الآراميون وظهورهم السياسي وسط أزمات القرن الثاني عشر ق.م :

لم تسمح المعلومات الأثرية القليلة والكتابات النادرة المتعلقة بغزوات شعوب البحر بمعرفة أوضاع بلاد الشام الحقيقية التي كانت المسرح الأساس لتحركاتهم واستقرارهم وخاصة "الفلست" أو الفلسطينيون. علماً أن الآمال بتغير هذا الحال قليلة جداً؛ وسنبقى محصورين بتلك المعلومات المتأخرة عنهم ألا وهي إشارات الحوليات الآشورية والنقوش المصرية السحرية «الهيروجليفية» والحثية، وبعض إشارات "التوراة" ولا نعرف تماماً تواريخ تحركاتهم وأماكنهم.

وتظهر في سوريا الشمال (حماة - كركميش)، وفي وسط هذا القرن الثاني عشر وظروفه إمارات حثية صغيرة ليست بذات أهمية كبيرة. وتختفي إمارة ألالاخ وكيزوانتا. أما في قيصرية فقد شكل الحثيون جبهة ضد الغزاة الأوربيين الجدد مثل الفريجيين، والميليتيين والميليديين والكاسكي (كاسجا!). كما واجه الآشوريون جماعة الموشكيين، حيث نجح تجلات بلاصر الأول (1115 - 1077ق.م) بإيقافهم. ووصل بفتوحه الجديدة إلى تدمر (بلاد الأموريين) ووصل إلى سواحل البحر المتوسط وحصل على جزية من جبيل وصيدا وأرواد وسيمير.

ويبدو أن المدن العمورية الساحلية (الفينيقية) كانت تتمتع ببعض الاستقلال إلا أن أوجاريت قد اختفت إلى الأبد ولم تعد إلا من خلال معاول علماء الآثار. وكان سكان فلسطين من قبائل مختلفة في صراع مستمر ولاسيما الكنعانيون والبدو. وكان البابليون والآشوريون والعيلاميون يحثون، كما كانوا في الماضي عن طريقة لفرض سيطرتهم. ولكن جميع هؤلاء لم يكونوا يتخيلون المصير الذي ينتظرهم، ولم يقدروا أهمية الخطر المتمثل بالقبائل البدوية الآرامية التي كانت تملأ بادية الشام والحجاز رعياً وحركة انتقال وتهديد للمحيط. وكان لانحسار الهياكل السياسية، وتقهقر دول الرافدين وزوالها قد سَهَّلَ تغلغلهم. حيث كانوا يتدفقون بسرعة إلى أماكن الرعي والخصب في فلسطين وجبل بشري (بسري - الأكادي) قرب تدمر وعلى طول نهر الفرات الأوسط. ويبدو أن سنوات عجافًا قد جلبت المجاعات واستجرت الكوارث، مما أدى إلى تفجرات وموجات سكانية، فأغرقت بابل واستقرت في أراضيها ووصلت حتى شواطئ الخليج، و"ممالك البحر". وتشكل هجرة الآراميين هذه الظاهرة الأكثر وضوحاً والأكثر خطراً في تاريخ الشام والعراق لا بل المشرق العربي وجواره الإيراني والأناضولي. وقد أثارت ردود فعل عسكرية آشورية شرسة بدون جدوى وحاولت بابل تجديد ماضيها فلم تنجح أمامهم وهكذا فرضوا وجودهم السياسي والعسكري في الشام والعراق وإيران والأناضول، حتى لغة فارس الرسمية أضحت الآرامية فيما بعد، وبقدر ما كانت التبدلات مثيرة وفاجعة بقدر ما تنقصنا الشواهد المباشرة عنها، وخاصة في منعطفات نهاية الألف الثاني.

الصراعات الدولية:

لقد انتهى صراع آشور وبابل الكاشية بانتصارات متلاحقة للعيلاميين أسلاف الإيرانيين ولمع اسم ملكهم شيلحاك انشوشيناك الذي أوصل النفوذ العيلامي حتى الشام وبحرها المتوسط وجمع أنصبة وتماثيل ونفائس من العراق وسوريا وعرضها في معابد سوزا. ولكن هذه القوة الصاعدة ستتكسر في غياهب القرن الثاني عشر المظلمة. وانشغل الآشوريون أيضاً بظهور جماعات جديدة تدعى الأخلامو الذين شكلوا خطراً ضاغطاً على أشور في نهاية القرن الثاني عشر، وكان مصدر انطلاقها بوادي الشامية أيضاً وهم يتصلون بالآراميين بوصفهم شاميين وبدوًا، واستطاع نبوخذ نصر الأول البابلي أن ينتصر على بقايا العشائر الأمورية في المناطق الآنفة الذكر قرب تدمر بالتحديد، وهناك شك في أن يكونوا هم أنفسهم الأخلامو سابقي الذكر وبذلك تضيع هوية البدو بين العموريين وبين الآراميين؛ إلا أن تجلات بلاصر الأول تمكن من السيطرة على أعالي دجلة حيث نجد نصبه في أعماق الأناضول ويضيف إلى ذلك قائلاً في حوليته الملكية: «ولقد

مضيت ضد الأخلامو - الآراميين أعداء مولاي الإله أشور. ومشيت في نهار واحد من أطراف بلاد سوخي حتى كركميش وبلاد خاتي. وكبدتهم الخسائر وأخذت منهم أسرى وممتلكات وأغنام عديدة». ويحدد لنا الآشوريون هويتهم، وبعد ذلك يسحق ما تبقى من خصومه قرب جبل بشرى في بادية الشام. وهكذا نلاحظ أنه قطع مسافة 500 كم بين جبهتي الشمال الأناضولي والجنوب الشامي. فقد كان الآراميون قد توغلوا في حوض الفرات حتى أبواب آشور وبابل. وعندما غلبوا على أمرهم انطووا إلى البادية، بينما تابع تجلات بلاصر تقدمه على رأس جيش من العربات غرباً إلى المتوسط كما هي عادة ملوك الفرات، وسيطر على الساحل وأخذ الجزية من جبيل وصيدا. وأخضع الحثيين في طريق عودته، وأخذ منهم الأخشاب ضريبة. وهكذا بدا منتصراً في حروبه شمالاً وجنوباً، إلا أنه كرر مثل هذه العبارات في نصوص أخرى قائلاً: «عبرت الفرات ثمان وعشرين مرة، بمعدل مرتين في السنة، وهزمتهم (أي الآراميون) في تدمر وفي بلاد الأموريين ومدينة أنات في بلاد سوخي حتى مدينة رابيقوم في بلاد كردونياش (أي بابل)» وهذا دليل على استمرار حروبه وعدم زوال خطر البداة الشاميين من الآراميين والعموريين وما إلى ذلك، ومع ذلك كانت آشور في عهد تجلات بلاصر متماسكة وقوية وتهيمن على الفرات والشام.

من جهة أخرى، فإن ملك بابل "مردوخ ندين أخي" سارع لمهاجمة مدينة إكالاتوم على الفرات قرب الرقة واستولى على صروح الإله "آدد شال" مستغلاً انشغال تجلات بلاصر مع الآراميين. إلا أن الأحداث تتغير سريعاً بعد حدوث قحط ومجاعة دفعت بالبدو الآراميين إلى مهاجمة الحواضر، وتكررت المصائب في بلاد آشور حيث فقدت محصولها غرقاً، مما شجع الآراميين على مواصلة حصارهم حتى تمكنوا من إجبار تجلات بلاصر على ترك عاصمته واللجوء إلى الجبال. ولا ندري ما الذي حل ببابل أمام هذه الموجة البشرية الآرامية حوالي 1080 ق.م.

غزو الآراميين وأصولهم :

كان تجلات بلاصر الأول السابق الذكر أول من ذكر اسم الآراميين/آراميا aramaia. إلا أن الأخلامو الذين ذكروا في عهد أريك دين ايلي Arik-den-ili في نهاية القرن الرابع عشر قد اعتبروا أسلافهم. وسيبقى اسمهم المزدوج أخلامو - أراميا قيد الاستعمال حتى عهد آشور ناصر بال الثاني 883 - 859ق.م ويختفي في عهد سنخريب. ولا شيء يدل على أنهما يعنيان شيئاً واحداً في القرن الحادي عشر. كما لا يوجد ما يدل على أن الأخلامو يشكلون مجموعة أكبر من الآراميين، وحال هؤلاء مثل بدو خانا - وبني يمين أو الأموريين والسوتيين في بداية الألف الثاني. وقد أوضح ج.ر كوبر J.R kupper أعلاه أن هذه البطون والقبائل تتكلم لهجة واحدة، ولعل الأسماء التي يستخدمها سكان المدن هي تلك الخاصة بالقبائل الأكثر قوة وعدداً أو بعضها التي تعرفوا إليها أولاً.

لقد كان الأخلامو أكثر حضوراً في الرافدين في القرن الثالث عشر ق.م وظلوا كذلك حتى ظهر اسم الآراميين بقوة مماثلة بعد ثلاثة قرون وتبعوا طريق التسرب إلى المدن للعمل أو للإغارة. ويلاحظ أن مكان تجمعهم هو واحد أي في جبل بشري قرب تدمر الذي كان دائماً مركزاً متقدماً في بوادي الشام والحجاز. ويذكرنا هذا بالعموريين وسكناهم وأخيراً بالعرب وحضورهم في الشام والفرات بعد قرون قليلة كما سنرى .. هذا وليس غريباً أن يذكر اسم الأخلامو والآراميين في نصوص أقدم وخاصة في نصوص تل العمارنة. حيث نجدهم في بابل الكاشية يبحثون عن العمل، والغريب في الأمر وصول بعضهم إلى تلمون/البحرين للسبب نفسه. ونعلم أن أحد قادة آدد - نيراري الأول 1307 - 1275ق.م قد طارد بدواً من خيرنا Hi-ra-na وخزمي Ha-as-mi وسوبارتو. وأشارت النصوص اللاحقة أن هذه المناطق هي في بلاد الآراميين. وقد كان تنقلهم مستمراً ولكنه يغدو عنيفاً في أيام القحط فيتحول إلى ظاهرة كارثية.

زوال دول العراق والشام أمام غزو الآراميين :

لقد تركز غزو الآراميين ضد آشور، وكانت مقاومة تجلات بلاصر وخليفته أشاريد أبيل إيكور 1076 - 1075ق.م، غير قادرة على إيقافه. وكان على الخليفة الثالث "أشور بعل كال"ا أن يحارب أورواترى Uruatri حول بحيرة فان (أرمينية). وكانت الخصومة مع بابل قد غابت وهي التي عاشت زمناً وقد خيم من حولها 105 شيوخ من قبائل الأخلامو كما تذكر الحوليات واستطاع أحد ملوك أشور أن يقيم ملكاً من اصل آرامي على بابل. وتوسع الآراميون فاستولوا على مدن جنوب العراق، وأوقفوا عبادة الإله شمش في معابدها لمدة طويلة، ولم تعد هناك إدارة قوية في جميع مدن بابل وأشور في نهاية القرن الحادي عشر. بينما استطاعت "بلاد البحر" على الخليج العربي أن تمتص الهجوم الآرامي بسبب مستنقعاتها وأدغالها. بينما راح الآراميون يستولون على مدن شمال سوريا والأناضول بدءاً من كركميش حتى ماردين. وكانت الكوارث والقحط لا تزال تهدد سكان أشور، وبذلك فقدت بابل معظم مقاومتها وأسلحتها بينما اكتسب الآراميون الشاميون البداة القوة والخبرة من حروبهم الطويلة وهذا ما سيجعلهم أسياد العراق والشام في القرون الآتية. من جهة أخرى استطاعت مدن سوريا الداخلية والساحلية أن تقف أمام تسربهم لفترات طويلة وكان خطها الدفاعي يبدأ من حماة والمتوسط إلى كركميش ثم إلى آشور. ونتعرف من خلال ذلك على المدن التي لم تطلها غزوات "شعوب البحر" والتي نجحت بمقاومتهم. كما نجح الحثيون في الأناضول وشمال سوريا في وقفهم وكان بينهم عناصر لوفيه أوربية، ربما كانت من بقايا "شعوب البحر". ولكن الآراميين تمكنوا أخيراً من الهيمنة على المدن الحثية وتأسيس أول مملكة لهم في شمال سوريا تدعى بيت عديني Bit-Adini حوالي 920 ق. م وبعدها سمأل أو بيت جبار Bit-Gabbar. بينما كانت حماة وراءهم لاتزال في أيدي الحثيين ولكنها سقطت بعد قرن آخر. وهكذا نستطيع تلمس طبيعة هذا الغزو الآرامي الجديد وطريقته من خلال وصف كوبر Kupper في كتابه أعلاه (ص119): «إنه كالموج، الذي يصعد فيغرق المنخفضات ويتسرب عبر الشقوق، مطوقاً أحياناً مساحات واسعة وفق هدف يبدو لنا متقلباً». وهكذا فإن حركاتهم وتنقلاتهم شملت الشام والعراق في آن واحد حتى تمت لهم السيادة الكاملة. وتعكس بعض أخبار التوراة ثقل حضورهم في جنوب سوريا كما في شمالها، حيث تغدو دمشق إحدى أهم ممالكهم. أما فلسطين والأردن ولبنان فإن الأمراء العموريين الذين كشفت وثائق تل العمارنة بعض أسمائهم لا يزالون في منأىً عن الصراعات الدامية في سوريا والعراق. ولم يظهر أثرياً أو كتابياً ما يدل على الروايات التوراتية التي كتبت لاحقاً في القرن الرابع على يد الكهان اليهود. ولا نستطيع هنا - كما يفعل بعض دارسي التوراة - أن نتحدث عن مملكة أو إمارات يهوية أو يهودية ما لم يدعم ذلك بوثائق معاصرة تعود للقرن الحادي عشر والعاشر ق.م أي ما يسمى عصر الحديد المتأخر .. وهو المشكلة التي أسالت الكثير من الحبر بين أنصار "إسرائيل" وعلماء الآثار والمؤرخين الذين يطلبون شواهد معاصرة كما أسلفنا، وما هو متوافر الآن ينحصر بذكر اسم بعض الممالك الأردنية من مؤابيين وعمونيين وأدوميين وآراميين. أما الفترة المنسوبة إلى داود وسليمان فلا يزال النقاش حولها مستمراً، ولم تقدم الحفائر الأثرية شيئاً عنها، ويكفي الإشارة إلى قول كينون أن بعضهم اعتقد بأن اسطبلات رومانية تعود لعصر سليمان!

أما عن الساحل فقد كان الصوريون والصيداويون والأرواديون وغيرهم من عموريي وآراميي الساحل قد غزوا المتوسط وعرفوا بالفينيقيين من قبل اليونان فيما بعد. وقد امتدت تجارتهم حتى وصلت إسبانيا والبحر الأحمر وأطراف الجزيرة العربية وكانت بضائعهم تتألف من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وخشب الصندل والعاج .. ويتوافق هذا مع أنباء حول سبأ في اليمن وحضرموت، ولكن هذا لن يدوم طويلاً وستبدأ رياح الرافدين الآرامية

الجديدة التي ستعود بحلة آشورية وبابلية. ولم يكن الآراميون في أعلى الجزيرة وخاصة وادي الخابور المركز الوحيد الذي كان يهدد الدولة الآشورية، فقد كان على آشور دَن الثاني Ashur-dan 934 ق.م وخلفه آدد نيراري الثاني (911 - 891 ق.م) أن يقاتلا سكان الجبال في زاجروس وطوروس، سواء من أجل الحصول على المواد الأولية وخاصة الخشب لصناعة العربات الحربية أو تأديب أولئك السكان الذين يغيرون على أشور المستضعفة آنذاك. وقد نجح آدد نيراري في السيطرة على مواقع الآراميين في شمال سوريا والخابور ومناطق خاني جلبات الميتانية ووصل حتى بحيرة فان - أرميا في بلاد أوراتري. وقد عاد تكراراً إلى مناطق نصيبين Nasibina أي القامشلي لمواجهة الآراميين والاستيلاء على محاصيلهم. بدون تركيز. أما بابل فقد كان على ملكها نبوشوما أوكين الأول (899 - 888) أن يتبادل الزواج مع ملك أشور ليوقعا معاهدة سلم عام 891 لتبقى 34 سنة. واستمر توكولتي نينورتا 890 - 884 في سياسته التوسعية في شمال سوريا فقام بالإغارة على بعض المواقع الآرامية على دجلة والفرات والخابور قبل أن يعود إلى نصيبين، وتوجه إلى موشكي في ديار بكر. ودرت سياسة الحرب الجديدة ثروات كبيرة على القصر والمعبد الأشوري من جراء الضرائب العينية المفروضة على المهزومين. وقد تابع أشوربانيبال الثاني (883 - 859) سياسة الحملات العسكرية وزرع الرعب بين السكان قبل وصول قواته. فبدأ بإخضاع كردستان ثم توجه نحو سوريا فأخضع آراميي الدجلة ثم بيت عديني على منعطف الفرات وأسر 2400 رجل. ثم توجه إلى مدن شمال غرب سوريا فبدأ بكركميش، ثم وادي العاصي قرب حماة وواصل طريقه إلى لبنان واستولى على صور وصيدا وجبيل وأرواد. وعاد إلى نينوى محملاً بأخشاب الأرز من لبنان والأمانوس.

من جهة أخرى كانت بابل تخشى آشور أكثر من الآراميين، وكان على نبوابلا ادينا 888 - 855 أن يحارب ضد السوتيين في الشامية التدميرية. أما في جنوب العراق فقد استقر جماعة كالدو Kaldu الآراميين والذين سيعرفون بالكلدانيين واشتغلوا بالتجارة مما لفت أنظار بابل منذ عام 850.

مملكة آرام وجيرانها:

لم يكن ملوك أشور يستطيعون تقدير الخطر الحقيقي للآراميين وخاصة أخوني في مملكة بيت عديني في شمال سوريا ولكن ما أن تزول المقاومة أمامهم حتى يصبح سير الحملة الآشورية بدون أية عقبات وهكذا سار شلمنصر الثالث (858 - 824) ابن آشرناصر بال حتى البحر المتوسط حيث سارع الأمراء والملوك لوضع الهدايا تحت أقدامه. إلا أن دمشق ظلت بمنأى عن هذه الحملة وكذلك حماه واكتفى بتدمير مدينة لوخوتي قرب حماه. ولعل ذلك ابتعاد عن مقاومة شديدة مفترضة من قبل هاتين المدينتين. وكان يحكم دمشق بن حدد - ابن تاب ريمون بن حزيون الذي عُثر على نصب له في حلب، حيث يمكن استنتاج مدى هيمنته التي وصلت حتى الشمال الحلبي وإلى مدينة صور في لبنان، وفلسطين جنوباً. ولكن نقص الوثائق المباشرة يمنعنا من معرفة تطور الصراعات بين المدن السورية والفلسطينية واللبنانية آنذاك، التي كانت تتمتع جميعها بغنى واضح وقوات نظامية قوية، إلا أن ما ينقصها هو وحدة الصف أمام الخصم المنظم، وهكذا فإن شلمنصر الثالث قد سار على خطى أبيه نحو البحر المتوسط، وبدأ بـ أخوني في بيت عديني، ثم جوروم في منطقة مرعش ومملكة سمأل وكركميش فتمكن من جمع ملوكها ووصل إلى البحر منتصراً وحصل على أخشاب الأمانوس. وبالرغم من الجهود الآشورية المستمرة للسيطرة على سوريا بالكامل إلا أنها في النهاية تبقى محصورة النفوذ في الشمال. واضطر شلمنصر لإعادة حملته حتى حلب وكركميش. حيث دب الرعب من جديد في سوريا ولبنان وفلسطين، ولكن القرار هو مقاومة الغزو الآشوري، فكان اللقاء في قرقر على العاصي، وبالرغم من أن شلمنصر قد أعلن انتصاره، إلا أنه

لم يكن قادراً على التقدم، ولم يذكر الهدايا والجزية التي كانت تقدم له عادة. واضطر للتوجه إلى بابل وجنوب العراق حيث اصطدم بالآراميين الكلدانيين. وكرّر هجماته حتى وصل إلى دمشق وحاصرها، ولم يتمكن من دخولها، فراح يتجول في شمال فلسطين ولبنان ويجمع الثروات في طريق عودته. وما أن وصل إلى آشور حتى اشتعلت ثورة داخلية عام 827 ق.م، وكانت ذات طابع فساد ملكي، بالإضافة إلى الضغط الآرامي الدائم، وكانت كلمة "سيخو" sihu وتعني ثورة واضطراب قد ترددت في قوائم الأسماء الملكية منذ 827 حتى 822 حيث تمكن شمش آدد الخامس من سحقها. وكان مدير منطقة ديار بكر شمال سوريا آشوري لقبه تورتانو وآخر يدعى رب شقي في تور عابدين وأعالي الدجلة. وآخر يدعي تورتانو ديان آشور يدير منطقة تصل حتى منعطف الفرات بالإضافة إلى العمليات الحربية.

وقد استغل معظم أمراء شمال وغرب سوريا القلاقل الآشورية زمن شمشي آدد الخامس حتى أنهم امتنعوا عن تقديم الولاء والجزية. في حين تعاضد الآراميون والكلدانيون في الجنوب مع البابليين وبقايا الكاشيين والعيلاميين لمواجهة طموح الملك الآشوري الذي نجح في الوصول إلى بابل واتخاذ لقب ملك سومر وأكاد، وتلقى جزية من ملك الكلدانيين. وصعد بعد موته ابنه آدد نيراري الثالث تحت وصاية أمه سمورامات المعروفة في كتابات هيرودوت بـ سميراميس. وبدأ مشروعاته الحربية باستعادة سيطرته على سوريا وفلسطين حيث كانت ممالكها وخاصة في فلسطين قد علقت مدفوعاتها من الجزية، وراحت تسعى كل منها إلى التوسع على حساب جاراتها، وقد كان مثال ذلك كيلاموا ملك سمأل الذي حوصر من قبل الدنونيين في سهل أدنا/أضنا قد اضطر لطلب الإغاثة من ملك آشور. وعاد إلى نشاطه السياسي اعتباراً من عام 827 كما تدل على ذلك نقوشه الكتابية المعاصرة والتي تلقي النور على بعض أوضاع مملكته التي كانت تضم طبقتين اجتماعيتين وهما مُشكّب وهم المزارعون القدماء و بعرير Ba'rir وتمثل طبقة الآراميين الحاكمين الجدد لمنطقة أضنا. ولعل هذا الازدهار يعود إلى بعض الاستقرار الذي شهده عهد كيلاموا.

أما في جنوب سوريا فقد كان حزائيل Hazaël ملك دمشق الآرامي قد تخلص من النفوذ الآشوري، وراح يسعى لتحقيق حُلم الدولة الآرامية الواحدة، فضم إليه جميع الإمارات الفلسطينية في الجليل وأورشليم/القدس، وأجبرها على التخلي عن قواتها، وحدد لها قوامها، مما جعل من ملك دمشق سيداً على فلسطين، وعندما توفي ترك لابنه بن - حدد Ben-Hadad الثاني استثمار مكاسبه السياسية. من جهة أخرى، فإن ملك حماه الآرامي زكير Zakir قد تحدث عن طموحات مشابهة في نصبه المنقوش عام 806، والذي لا يبرز فيه أصوله السلالية مما يدعو للقول بأنه منقلب على السلطة في حماه، وقام بتوسيع سلطته من حوله (في لأش La'ash) مما أثار مخاوف بن حدد الثاني الدمشقي، الذي جمع حلفاً ضده مؤلفاً من بيت آجوسي Bit-Agusi (أرباد/آرفاد Arpad قرب حلب) وكيليكية والعمق، وجرجوم Gurgum وسمأل ومليز/ملاطيا. وقد حاصروا زكير في حزرك Hazrak عاصمة لأش غالباً. وقد أحس زكير بالخطر الداهم، فلم يكن باستطاعته سوى الصلاة لإلهه بعل شمين الذي رأف بحاله وأنجده. ولكن لا نعرف كيف تم له ذلك بسبب تهشم النقش. ولعل ملك آشور هو تلك الأداة الإلهية المنقذة. وقد عاد الآشوريون في عهد حدد نيراري الثالث إلى ضم الممالك السورية الداخلية والساحلية اعتباراً من عام 806، وقد وردت في حولياته كما يلي: أرباد في عام 806 حزرو Hazazu في عام 805 وبعلي Baali في عام 804 وأخضع الساحل السوري بكامله عام 803. واخضع نيراري مملكة خاتي شمال سوريا، وبلاد الأموريين وسط سوريا، وألحق بذلك صور وصيدا وحمري Humri الفلسطينية وكذلك أدوم في الأردن والفلسطينيين في غزة حيث دعيت بلاد بلشتو/فلسطو وبذلك يكون حدد - نيراري الثالث أول من استخدم تعبير فلسطين سياسياً. وفرض الجزية السنوية على

جميع من تقدم. وقد كان أغنى خصوم ملك آشور هو ماريئ mari’ سيد أو امرؤ الآراميين بن حدد الدمشقي الذي حوصر في عاصمته، ولكنه اضطر للتسليم وتقديم الجزية إلى "سيد آشور" في قصره الدمشقي. وكان من جراء حروب الآشوريين والبابليين في سوريا أن أصبحت الآلهة الشامية المحلية مثل بعل و ونبو و نرجال آلهة رئيسة ومبجلة في جميع البلاد الشامية والعراقية على حد سواء. وقد احتل نبو المرتبة الأولى منذ عام 788 ونقش على جدار معبده في بورسيبا العبارة التالية: «ضع ثقتك في "نبو" ولا تعول على أي إله آخر». وبعد موت حدد نيراري الثالث وصعود ابنه شلمنصر الرابع، اتسع نفوذ أورارتو حتى شمل أجزاءاً كبرى من شمال بلاد الشام السورية، حتى عام 743، على الرغم من الحملات الآشورية المتكررة، ضدها، وضد مملكة دمشق في أواخر أيامه.

أورارتو وسورية الشام:

لقد امتد نفوذ أورارتو حتى وصل مدينة كركميش شمال أرفاد في محاولة لتطويق الآشوريين. حيث وضع ملكها ما يتئ ايلو قواته تحت تصرف آشور - نيراري. وتبرز كتابات السفيرة قرب حلب ذلك التحالف بين "جميع بلاد آرام" من بلاد لبنان حتى بلاد مسري (Musri) قرب كيليكيا، بما فيها حلب وحماة، وبعض مناطق نفوذ أورارتو شمالاً. وهذا ما أبعد أورارتو نهائياً عن المسرح الشامي الآرامي المعقد. ونظراً لنقص المعلومات فإننا لا نستطيع معرفة تفاصيل أكثر عن هذا التحالف؛ إلا أن نصب بنامو Panamu ملك سمأل يكشف عن وضع مزدهر للآراميين أمام أفول السيطرة الآشورية، وعدم دفع الجزية. ولا نسمع شيئاً عن حماة. بينما كانت دمشق بعيدة عن هذا الحلف ومنشغلة بصعود الإمارات الفلسطينية والأدومية وغيرها، حيث لاتتوافر معلومات معاصرة عن هذه الحقبة من الزمن والتي يبدأ فيها ظهور اسم العرب على المستوى السياسي. وبعد صعود تجلات بلاصر الثالث الذائع الصيت والشهرة بقوته وتنظيمه، بدأ حملاته بالقضاء على أورارتو وبعض حلفائها شمال سوريا من الآراميين بين الأعوام 743 – 738ق.م وبعد عدة ضربات للميديين والأورارتيين من جديد توجه إلى دمشق ومنها إلى فلسطين ولبنان وأخضعها بين 734 – 732ق.م، وضم إليه بابل وأعلن إمبراطوريته التي شملت العراق والشام حتى حدود العريش مع مصر عام 732 - 729. وقد اتبع تجلات بلاصر الثالث سياسة الحرب والفتح والتهجير والسبي، ضد جميع الثائرين في الشام والعراق، وكان الآراميون أكثر السكان الذين عانوا من تلك السياسة الآشورية الجديدة، متبعاً بذلك سياسة الترهيب والترغيب والتسامح أحياناً وخاصة تجاه إمارات الساحل مثل صور وصيدا حيث تمتعت باستقلال ذاتي ومارست دورها التجاري ضمن الإمبراطورية الآشورية الجديدة، بينما حرّم تجلات بلاصر على دمشق وإمارات فلسطين المتاجرة مع مصر. وكان يستعين ببريد غطى البلاد جميعها، بحيث يعلم وهو في قصره ماذا يجري في تخوم البوادي وحواضر المدن. وقام بتنصيب أول بدوي يحمل اسماً عربياً هو يدبئي - ايلو Idibi’-ilu في مدينة غزة في فلسطين. وأدخل في جيشه مجموعات آرامية جديدة.

واستمرت سيطرة تجلات بلاصر كاملة على بلاد الشام، وأطلق أيدي نوابه وحكام المدن المحلية، لإدارتها واستثمار تجارتها، واكتفى بأخذ نسبة من البضائع على أبواب المدن. كما امتد سلطانه حتى شمل بابل والعراق بالكامل. ويمكن القول: إن تجلات بلاصر الثالث قد حقق وحدة العراق والشام، بصورة سياسية وإدارية للمرة الأولى في التاريخ القديم لهذين البلدين.

إمبراطورية آشور في الشام والعراق (721 - 610):

لقد سيطرت آشور على الشام والعراق كليهما لمدة قرن كامل، ولكنها لم تكن قادرة على حماية الجبهات البعيدة مع مصر والأناضول. كما عانت من الصراعات العائلية الملكية على وراثة العرش، وهذا ما كان يسبقه ويعقبه ثورات في الأقاليم والمدن البعيدة. وغالباً ما كانت تبدأ الثورات في بابل وتنتهي في فلسطين وهذا ما واجهه

شروكين الثاني قبيل وفاته في عام 710. وتبعه أسرحدون وآشور بانيبال الذي كان عليه أن يذهب حتى مصر. ثم اشتعلت الحرب الأهلية الآشورية بعد موته عام 627 فاستغل ذلك نبوبولاصر في بابل، كما انتهز الميديون الفرصة ليغيروا على آشور عام 612 ويكونوا أحد الأسباب المباشرة لأفول إمبراطورية آشور.

لقد كانت مصر منذ عهد تجلات بلاصر الثالث تسبب الاضطرابات في فلسطين حيث قام بحملات حتى غزة، ولعله كان ينوي الذهاب بعيداً في مصر، إلا أن الثورات الداخلية منعته. ولذا نرى شروكين الثاني يوجه حملتين إلى الحدود مع مصر في عام 720 و716. وفتحت الحدود أمام التجارة الآشورية. ولكن عاد فرعون مصر شباكو بعد بضع سنوات ليدعم ثورة إياماني في أشدود في فلسطين. وسرعان ما عاد سنحريب إليها وحاصر أورشليم - القدس، ولكن الطاعون فتك في جيشه على ما يبدو، مما اضطره للانسحاب وبذلك نجت فلسطين ومصر في عهد فرعونها طهرقا الذي راح يؤلب مدن سوريا ولبنان الساحلية (الفينيقية)، كما ثار الكلدانيون والسيت والسيمريون شمالاً بعد مقتل ملك آشور؛ إلا أن حصار صيدا اللبنانية في عام 677 والمعاهدة التي فرضت على بعل ملك صور سمح بالهدوء واستقرار الهيمنة الآشورية على الساحل اللبناني السوري. ثم واصل اسرحدون محاولاته الوصول إلى مصر وتمكن من دخول ممفيس بدون صعوبة عام 671، مما أمن له سيطرة كاملة على بلاد الشام كلها ودلتا مصر، ولكن ذلك لم يدم طويلاً فقد استعاد طهرقا دلتا النيل عام 670، وحاول آشور بانيبال استعادة مجد أبيه بمهاجمة مصر وعاصمتها ممفيس في عام 666 فتمكن من ذلك ووصل حتى طيبة، ولكن فرعون مصر القوي بساميتيك الأول استطاع دحر الآشوريين عام 653 الذين انشغلوا بجبهة بابل وعيلام. وبقيت مصر بمنأى عن الخطر الآشوري حتى عهد قمبيز الفارسي. ثم تتالت الأحداث والثورات من قبل أمراء الشام وزعماء القبائل العربية في البادية وكذلك مصر. ولكن الجهود المضنية التي بذلها آشور بانيبال قد أمنت له سيطرة مؤقتة على عيلام وبابل والشام ومصر حتى موته عام 627، ولكن دولة آشور أنهكت من جراء تواصل الثورات وكانت نهاية نينوى عام 612 بعد تدخل الميديين، والبابليين الذين استطاعوا السيطرة على الجزيرة في شمال سوريا، ولم ينفع التدخل المصري ودعم الآشوريين في إنقاذ دولتهم من الانهيار التام والأبدي. وصارت بلاد الشام بأقاليمها الآرامية تحت سيطرة فرعون مصر نيخاو.

لقد كان تنظيم الآشوريين العسكري في بلاد الشام خاصة قائماً على فرض الهيمنة التامة بموجب معاهدة يفرضها العاهل الآشوري وفق مصالحه التجارية والعسكرية. وبعد عام 608 سيطر نبوبولاصر وابنه نبوخذ نصر البابليان على شمال الرافدين الشامية والعراقية، واستطاع المصريون فرض سيطرتهم على سوريا حتى كركميش شمالاً، وكانت فلسطين ولبنان تحت رقابتهم منذ انهيار آشور كما أسلفنا. ولكن نبوخذ نصر (نَبو كُدوّري - أصور) (604 - 562)، مشى من بابل بجيشه إلى كركميش قرب حلب وطرد المصريين وتوجه منها إلى حماة ليلاحق فلول القوات المصرية التي كانت تضم إثيوبيين وليبيين وليديين حسب حوليات الملك البابلي. ووسع نفوذه في الشام حتى شمل سوريا وقسمًا من فلسطين. وكان يكرر حملاته التأديبية على سوريا كل عام وفق ما ذكره في حوليته. فقد قام بحصار عسقلان وأسر ملكها عام 604. وبعد أن وطد ملكه في بابل عاد ليحاصر أورشليم القدس في عام 597، وأسر ملكها وحاشيته من أقرباء وكهان وساقهم إلى بابل وهو ما يعرف بالسبي البابلي لليهود، بعد أن دمر المدينة ومعبدها. ثم كرر نبوخذ نصر حملته على سوريا وفلسطين وسواحلهما عام 587 وقضى على ثوراتها وخاصة في القدس حيث حمل معه بعض حكامها منفيين

إلى بابل. لم يتمكن البابليون كما الآشوريون سابقاً من إخضاع سوريا وفلسطين لسلطتهم دائماً، وكان اللجوء إلى مصر من قبلهما لطلب العون، غير ذي جدوى في كثير من الأحيان. وكان من نتائج حملات نبوخذ نصر اللاحقة ضد فلسطين ومصر أن خيم وضع سياسي وعسكري عائم حيث وقف المصريون عند حدود غزة، واكتفوا بنقل أخشابهم من صور خلال البحر. وبقي البابليون أسياد الموقف حتى عام 568.

وبعد موت نبوخذ نصر قام أحد خلفائه بحملة على شمال سوريا، في أضنة وكيليكيا. ثم تعاقب على بابل مجموعة ملوك لم تحكم طويلاً وكان خطر الميديين محدقاً على البلاد حيث وصلوا حتى ديار بكر شمالاً. وصعد على عرش بابل نبونيد 556 - 539 بعد أحداث عنف داخلية وكان الشخصية القوية الأخيرة في تاريخها القديم. وقد كان أباه من أصول آرامية وأمه كاهنة في معبد سين في حران شمال سوريا. وبعد سيطرته على السلطة اتجه بحملة إلى سوريا قادته إلى أدوم في فلسطين. ثم اتجه إلى الحجاز حيث أقام في تيماء وديدان (دادونا) وفدك (بداكو) و خيبر (خيرا) ويدع (يابيديو) ويثرب/المدينة (ياتربو) وعاش عشر سنين في الحجاز بعيداً عن بابل وأعياد رأس السنة فيها. ولكن الأحداث الدولية تطورت، فقد ظهرت قوة قورش (Cyrus) عام 550 الذي وحد قبائل إيران بقيادة الفرس الأخمينيين وراح يهاجم مدن جنوب العراق بالتعاون مع أوجبرو حاكم الجوتيين. من جهة أخرى لم يعرف سبب إقامة نبونيد في يثرب تلك المدة الطويلة، ويرجح السبب الديني ومكانة المدينة كمركز لعبادة القمر التي نشأ عليها نبونيد وعائلته الآرامية الحرانية (الشامية). ويذكر اكزينوفون أن قورش شن حملة باتجاه بلاد العرب قبل أن يخترق مدن العراق. وكانت الثورة الداخلية الدينية في بابل تهدد الوضع السياسي، بسبب رفض الكهان تمسك نبونيد بتكريس عبادة القمر مهملاً مكانة مردوك الإله البابلي التقليدي. يضاف إلى ذلك وجود اليهود المسبيين في المدينة وما خلقه من مشكلات، أدت إلى نجاح قورش في استكمال حملاته ودخول بابل في 29 تشرين الأول من عام 539 ولم يعرف مصير نبونيد إن قُتل أو أُسر. ولكن قورش سمح لليهود بالعودة إلى القدس. واتبع سياسة مهادنة السلك الكهنوتي وترميم المعابد، وتابع زحفه ليكمل استيلاءه على الشام ومصر وليبدأ عهداً جديداً هو الاحتلال والعصر الفارسي الأخميني الذي سيدوم حتى قدوم الإغريق بقيادة الاسكندر المكدوني عام 333.

من جهة أخرى لا نستطيع تلمس واقع الإدارة البابلية في الأقاليم الشامية إلا من خلال بعض الوظائف مثل رئيس تجار القصر الملكي الذي يدعى بلقب عموري - فينيقي خ/حنونو Hanunu وتعطي اللوائح الملكية البابلية لقب ملك لزعماء شاميين في مدن غزة وصيدا وصور وأرواد وأشدود. وهذا ما يدعو للاعتقاد أن مدن بلاد الشام تمتعت باستقلالية خاصة زمن ملوك بابل المتأخرين. أما التبعية الدينية، فإن المجمع الديني السومري بقي المصدر الأساس للوظائف الإلهية والدينية التقليدية ولا نستطيع الحديث عن ديانة شامية لعدم توافر نصوص أو أدب ديني كالذي خلفه البابليون والآشوريون. وقد كانت أسماء الآلهة الأكادية - الشامية معروفة في بلاد الشام كما في العراق، وإن بقي المعنى والجوهر غير مفهومين مثال ذلك الشمس والقمر وحدد وليم حيث لا يمكن تحديد معناها أو جوهرها ولماذا حملت هذا الاسم أو غيره بخلاف كلمة إيل/إله التي يظن أنها تعني "جوهر" أو "طبيعة الشيء" أو ما يقابلها بالاغريقية Phisyse وباللاتينية Natura. وقد ضمت موسوعة المصطلحات الدينية والطبيعية التي وضعها الكتاب البابليون أسماء جغرافية شامية مثل "الأمانوس" نظراً لكونه مصدراً لأخشاب الأرز والسرو. كما أن حملات الآشوريين والبابليين على فلسطين وظهور أسماء مثل يهوا وعرب، يعتبران بمثابة الإشارات الأقدم لظهور اليهويين كعبدة إله قبلي هو يهوا، وبدء العرب كقوة سياسية وتجارية على مسرح بلاد الشام. وبالرغم من التفتت السياسي وخضوع

بابل ونينوى ومدن الشام للسيطرة السياسية الفارسية، إلا أن تطور الفكر الديني في سوريا وفلسطين يحمل في طياته الإرث الديني البابلي - الآشوري.

وقد استفاد كهان اليهود المسبيين في بابل من الدروس السياسية والدينية، لتتمخض تجربتهم عن رفض الطقوس القديمة وخاصة التصوير والنحت، واكتفوا بالرموز المجردة لإلههم الجديد "يهوا". لقد كانت فلسطين معبراً للتيارات الفكرية المصرية والشامية - العراقية. وقد تعلم المهاجرون الجدد القادمون من البوادي المجاورة الديانة الكنعانية الشامية التقليدية. ولكن الحروب والخلافات السياسية بين سكان فلسطين أدت إلى ظهور فكرة التوحيد القبلي والإلهي لدى اليهويين، وراحت التطورات السياسية والدينية تجعل منها فكرة كونية خاصة عند ظهورها في الدعوة المسيحية الجديدة.

لقد تبدلت الحياة السياسية في الشام في عصر الفرس الأخمينيين وظهرت كتابات المؤرخين الإغريق مثل فلافيوس Flavius و جوزيفوس Josephus وهيرودوت Herodotus وغيرهم إضافة إلى كتابات العهد القديم: فقد غطى الاحتلال الفارسي بلاد الشام كلها. ولكن مدن الساحل الآرامية - الفينيقية ظلت تتمتع ببعض الاستقلال وخاصة على المستوى التجاري ولمعت أسماء ملوك محليين مثل احيرام Hiram ملك صور. وكان جوبارو/أوجبارو بالإغريقية جوبرياس Gobrias حاكماً (ساتراب بالفارسية) للعراق والشام نظراً لأهمية دوره في انتصار الفرس. إن نصوص تل النيرب تؤكد نهاية نبونيد وحلول قورش ثم قمبيز 529 - 525 ثم داريوس 521 - 486 الذي نظم إمبراطوريته وقسمها إلى 20 ساتراب. وكانت العراق ومصر وقبرص تحت إمرة ساتراب واحد، ولم تذكر سوريا وبقية بلاد الشام من ضمنه، إلا أن المعلومات عن الآراميين الشاميين قد أظهرت مكانة لغتهم في عالم التجارة في عهد داريوس وظهرت كتاباتهم على الجلود والبردي، وظهرت حوليات من صور وصيدا التي كانت تتمتع بدور مهم في هذه المرحلة. وكانت قرطاج في تونس قد حققت استقلالها وانفصالها عن المدينة الأم صور. وكان حاكم فارسي يقيم في طرابلس في القرن الرابع ويشرف على تجارة الإمبراطورية، وتأمين الأخشاب خاصة. وتدل كتابة أحد النقوش الصيداوية على اسم ملكها المحلي اشمون عازار، وظهرت سلالة حكمت حتى دخول الإسكندر المكدوني. وكانت العلاقات التجارية مع الإغريق قد بدأت منذ زمن بعيد. وراح المصريون والإغريق وبعض الحكام المحليين يحرضون على الثورة ضد السلطة الفارسية الأخمينية وخاصة في عهد الفرعون تاخوس 362 - 360.

وعُرف ملك صور تينيس من بين أهم الثائرين الفينيقيين في عهد اتراخسرسيس (358 - 338) وفق معلومات ثيودور الصقلي وغيره مثل انيزوقراط وفيليبوس وكانت ثورات الفينيقيين تقوم بسبب العنت والظلم في الإدارة والاقتصاد التي يرتكبها الحاكم/ساتراب. كما ظهرت إحدى الثورات بقيادة الإغريق في كيليكيا وهَزَمَ المتمردون من فينيقيين وإغريق ومصريين الحاكم الفارسي زمن اتراخسرسيس الذي شن بنفسه حملة على مدن صور وصيدا والساحل اللبناني وأعدم تينيس بعد أن دافع السكان عن أنفسهم بقوة وفق معلومات تيودور الآنف الذكر. ونقل الأسرى من صيدا إلى بابل عام 345 ولم يظهر أثر الدعم المصري في عهد نيكتانيبوس 359 – 341ق.م . وظلت صيدا بالرغم من ذلك مركزاً مهماً للتجارة الشامية حتى شروع الإسكندر باحتلال سوريا عام 333.

وتذكر المصادر الإغريقية أسماء ملوك لبنانيين بعد تينيس مثل افاغوراس، وستراتون وعبد الاونيموس وعرف من ملوك جبيل Byblos شيبت بعل ويخو ملك Yehaumilk وبتنوعام Batno'am. وكان خريف عام 333 بداية النهاية للاحتلال الفارسي ليحل محله احتلال إغريقي قادم من الشمال والغرب الأوربي بقيادة الإسكندر المكدوني الذي هزم داريوس على الفرات في شمال سوريا

واتجه نحو عكار وسهلها حتى استولى على ساحل لبنان وخضع له ملك أرواد ووصل أحد قادته إلى دمشق فدخلها، واستولى آخر على كنوز داريوس الذي طلب الصلح فرفض الاسكندر، حيث كان قد استولى على جبيل وصيدا وصور وساحل فلسطين حتى غزة بعد مقاومة وحصارات لهاتين الأخيرتين. وعبر الإسكندر سيناء إلى مصر عام 331 ثم عاد سريعاً إلى صور ثم سوريا والفرات حيث عين حاكماً جديداً وتوج استيلاءه الكامل على العراق وسوريا بهزيمة داريوس النهائية ليصبح سيد المشرق عامة والعربي ومصر.

د. فيصل عبدالله

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية:

– عبدالله، فيصل:
علم الأكاديات (دمشق 1990)

ثانيًا : المراجع الأجنبية:

- Biggs, R.D 1987
The Organization of Power SAOC.

- Brinkman, J.A. 1968
A political History of post kassite Balylonia, (1158-722, Rom,).

- Cauvin, J. P. 1990
Sanlaville, Préhisoire du Levant, colloque CNRS, paris 1981; Paléorient 15.

- Durand, J.M 1985
L'Organisotion de L'éspace dans le palaîs de Mari, lévy, le systeme palatial en Orient en Grece et a Rome.

- Helck, W. 1992
Die Beziehungen Agyptens zu Vorderasien im3 and2, Jahrtausend u. chr. Wiesbaden.

- Garelli, P. 1963
les Assyriens en Cappadoce Paris.

- Garelli, P. 1972
L'Assyriologie, Paris.

- Goossens, G. 1965
Asie occidentale ancienne dans l' histoire universelle; Enscycloédie de la fliade, I, Paris.

- Graysom A.k. 1987
Assyrian Rules of the third and second millenia B.C. to 1115

- Jacosem, 1982
Salinity and irrigation Agriclture in antiquiy, malibu, undenal, publication

- Kupper, J.R 1967
la Civilisation de Mari xive RAI Liége.

- Sassom, J.M 1995
Civilzations of the Ancient Near East, 4 vol, New York

- Weidner, E. 1958
Fragment de chronique: AFO, 17, 1956, 384: H. Tadmor, YNES, 17, 133-134.





(الشكل رقم 2) لوحة عثر عليها في المعبد الكبير بإيبلا، وتعود إلى حوالي سنة 1800 ق.م
(نقلا عن تل مردوخ - إيبلا)



(الشكل رقم 3) لوحة عثر عليها في المعبد الكبير بإيبلا، ويبدو فيها رجالا يتصافحون، وترجع إلى حوالي سنة 1800 ق.م (نقلا عن تل مردوخ - إيبلا)



(الشكل رقم 4) لوحة عثر عليها في المعبد الكبير بإيبلا ويبدو فيها صورة لمعبودات إيبلا. (نقلا عن تل مردوخ - إيبلا)



(الشكل رقم 5) جزء من تمثال الأمير ابيبت ـ ليم كان قد نذره للمعبودة عشتار، ويرجع إلى حوالي سنة 2000 ق.م، وقد أكدت الكتابة المسمارية المنقوشة على ظهر التمثال ان الموقع الذي عثر عليه هو مدينة إيبلا (نقلا عن تل مردوخ ـ ايبلا)



(الشكل رقم 6) مدخل القصر الملكي في إيبلا ويرجع إلى حوالي سنة 2400 – 2250 ق .م

الأرض والسكان والحضارة في وادي النيل
(مصر – السودان)

1- مصر :

يبدأ العصر التاريخي بتوحيد القطرين حوالي عام 3200 ق.م على يد الملك مينا وهو غالباً المعروف على الآثار المصرية باسم "نعرمر" ويُكتب اسمه أحياناً نارمر وهو النطق الأجنبي لاسمه وقد سجل نعرمر هذا التوحيد على لوحته المشهورة ويطلق على هذا العصر أيضاً "العصر الفرعوني" وهو يمتد من حكم "مينا-نعرمر" حتى فتح الإسكندر لمصر في عام 332 ق.م أي لمدة ثلاثة آلاف عام. وقد قسم المؤرخون العصر الفرعوني إلى إحدى وثلاثين أسرة ملكية متتبعين في ذلك تقسيم مؤرخ مصري يدعى "مانيتون" (Manetho) السمنودي (نسبة إلى بلدة سمنود) الذي عاش في عصر البطالمة وكتب تاريخاً لمصر باللغة اليونانية بناء على تكليف من الملك بطلميوس الثاني (فيلادلفيوس)؛ بهدف تعريف اليونانيين بتاريخ مصر الفرعونية. وقد أدخل علماء الآثار المصرية على هذا التقسيم تقسيماً آخر يجمع كل مجموعة من الأسرات في مرحلة زمنية واحدة يُطلق عليها إصطلاح أكثر شمولاً وبذلك أصبح تاريخ مصر الفرعونية ينقسم إلى الأقسام التالية.

أولاً: العصر الثيني:

ويسمى أيضاً العصر العتيق أو العصر المبكر ويشمل الأسرتين الأولى والثانية ويُنسب إلى مدينة "ثينة" عاصمة ذلك العصر وتقع عند البلدة المسماة عند اليونان "أبيدوس" Abydos وهي العرابة المدفونة الحالية بالقرب من بلدة البلينا في محافظة سوهاج. ويمتد هذا العصر من 3200-2780 ق.م تقريباً يبدأ بالملك (مينا-نعرمر)، وأبرز خصائصه توحيد القطرين والصراع في سبيل توكيد هذه الوحدة.

ويطلق بعض الباحثين على هذا العصر اسماً يتفق مع طبيعته هو "عصر التأسيس والبناء" نظراً لأن أسس حضارة مصر الفرعونية قد وضعت في ذلك العصر، فقد كانت مصر في فجر تاريخها يتشابه فنها مع فنون الأمم المجاورة لها ثم بدأت تأخذ طابعاً خاصاً بها منذ عصر الأسرة الأولى ولم يتغير هذا الطابع بوجه عام طوال التاريخ المصري الفرعوني، كما أن اللغة المصرية القديمة والكتابة الهيروغليفية بدأت تتخذ في هذا العصر طابعها المعروف الذي استمر دون تغيرات أساسية، كذلك وضعت في هذا العصر أسس النظام السياسي والعقائد الدينية المصرية.

ثانياً: عصر الدولة القديمة:

ويشمل الأسرات من الثالثة إلى السادسة ويمتد من 2780-2280 ويطلق عليه أيضاً "عصر بناة الأهرام" ؛ لأن بناء الأهرام أبرز خصائصه مثل أهرامات الجيزة وأبو صير وسقارة .. وكانت العاصمة هي "منف" (ميت رهينة الحالية في الطريق إلى سقارة) وفيما يلي أسماء أشهر ملوك هذا العصر مرتبة في نطاق الأسرات التي ينتمون إليها .

أ- الأسرة الثالثة (2780-2680 ق.م) وعدد ملوكها ستة أهمهم :-1- زوسر -2- سخم -3-خت -4- سا-نخت -5- حوني .

ب- الأسرة الرابعة (2680-2560 ق.م) وعدد ملوكها ستة هم :-1- سنفرو -2- خوفو -3- جد-اف-رع -4- خفرع (خع-اف-رع) 5- منكاورع (منقرع) -6-شبسس-كا-اف . وقد اشتهر اسم الملكة "خنت-كاو-اس" في آخر هذه الأسرة بسبب هرمها ذي الشكل غير المألوف في الجيزة فهو مبني من أسفل على شكل مصطبة ومن أعلى على شكل تابوت.

ج _ الأسـرة الخامسـة (2560-2420 ق.م) وعـدد ملوكها تسعة هم :-1- أوسركاف -2- ساحورع -3- نفـر-إركـارع -4- نـي-أوسرع -8- إسيسي (جدكارع) –9- أوناس (ونيس).

د _ الأسـرة السادسـة (2420-2280 ق.م) وعـدد ملوكها ثمانية أهمهم :-1- تتي -3- ببي الأول - 4- مري-إن-رع الأول -5- ببي الثاني.

ثالثاً: العصر المتوسط الأول:

ويُسمى أيضاً عصر الاضمحلال الأول ويشمل الأسرات من السابعة إلى العاشرة ويمتد من 2280 إلى 2052 ق.م ويتميز باندلاع الثورة الاجتماعية، وقد حكم خلاله عدد كبير من الملوك الصغار الذين يحملون الألقاب الفرعونية، وتعددت فيه العواصم الملكية في وقت واحد كما تميز العصر بظهور الأسرات الإقطاعية في الأقاليم واشتداد نفوذها.

الأسـرتان السـابعة والثامنـة : (2280-2242 ق.م) ومقر ملوكها مدينة منف عاصمة الدولة القديمة وقد بلغ عددهم حوالي 85 ملكاً (طبقا لمانيتون) حكموا في أقل من أربعين عاماً مما يدل على مدى الاضطراب الذي أصاب البلاد في ذلك العصر.

الأسـرتان التاسـعة والعاشـرة : (2242-2052 ق.م) وقد اتخذ ملوكها من مدينة "إهناسيا" في الفيوم مقراً لها ويبلغ عددهم حوالي ثمانية عشرة ملكاً وقد حمل خمسة من هؤلاء الملوك على الأقل الاسم "خيتي" (أو "أختوي" كما ينطقه البعض) وأشهرهم خيتي الرابع رابع ملوك الأسرة العاشرة وأبنه مري-كارع .

رابعاً: عصر الدولة الوسطى:

ويشمل الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة ويمتد من (2134-1778 ق.م) ويتميز عصر الأسرة الثانية عشرة باقتراب الملكية من الرعية وبمشروعات الرخاء الكبيرة وبازدهار الأدب الدنيوي وقد استمر أمراء الإقطاع يمارسون النفوذ في أقاليمهم مع خضوعهم للملوك وخاصة في الأسرة الثانية عشرة.

الأسـرة الحاديـة عشـرة(2134-1991 ق.م.) وعـدد ملوكها ثمانية حكموا من مدينة "طيبة" وقد عاصر ملوكها الأوائل , ملوك الأسرة العاشرة في مدينة "أهناسيا" في الفيوم ودخلوا معهم في حروب للسيطرة على الصعيد وخاصة على منطقة "ثينة" (أبيدوس) . وقد حمل ملوك الأسـرة الحاديـة عشـرة أحـد اسـمين همـا "انيوتـف" ومنتوحتب", وأهم ملوك هذه الأسرة هم : 1- انيوتف الأول. 2- انيوتف الثاني 3- منتوحتب الأول 6- منتوحتب الثـالـث (سمنخ - كـارع) 8- منتـوحتب الـرابـع(نب – تـاوى – رع). (الفراعنة أرقام 4 , 5 , 7 ليس لهم أهمية كبيرة).

الأسـرة الثانيـة عشـرة (1991 – 1786 ق.م.) وعـدد ملوكها ثمانية حملوا جميعا أحد اسمين هما "أمون- محات" و"سنوسرت" وقد اتخذوا من إقليم الفيوم مقرًا لعاصمتهم وكانت أول عاصمة لهم هي "اللشت" الحالية في شمال الفيوم. وتمتد مقابرهم من اللشت ودهشور شمالا إلى اللاهون وهوارة جنوبا وهي على شكل أهرامات من اللبن وكانت تغطيها كسوة من الحجر الجيرى . وأهم ملوكها : 1- أمون - محات الأول 2- سنوسـرت الأول 5- سنوسـرت الثـالـث 6- امـون – محـات الثالث (الفراعنة أرقام 3 , 4 , 7 ليس لهم أهمية كبيرة)وقد أطلق الكتـاب الإغريق والرومـان الاسـم " سيزوسـتريس " (Sesostris) علـى أحـد الملوك الـذين يحملـون الاسـم " سنوسرت" وقد تراوحت التسمية من الأعمال التي نسب هؤلاء الكتـاب اتمامهـا إلـى " سيزوسـتريس " بـين سنوسـرت الأول وسنوسرت الثالث , بل ورمسيس الثاني .

خامسا: العصر المتوسط الثاني:

ويشمل الأسرات من الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة ويمتد من 1778 ق.م. إلى 1570 ق.م. ويعرف الجزء الأخير منه بعصر الهكسوس . وقد قامت في آخره أسرة وطنية في طيبة تزعمت حرب التحرير لطرد الهكسوس.

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة (1778-1625 ق.م.) تعاصرت هاتان الأسرتان , فقد حكمت أولاهما في طيبة وبلغ عدد ملوكها 60 ملكا , بينما حكمت الأخرى في مدينة " سخا " في وسط الدلتا (شمال شرق كفر الزيات) وبلغ عدد ملوكها 76 ملكا (هذه الأرقام طبقا للمؤرخ المصري مانيتون ومن الواضح أنه مبالغ فيها).

الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة (1670 – 1570 ق.م.) ملوك هاتين الأسرتين من الهكسوس وعددهم 13 ملكا وقد حكموا من عاصمتهم " أواريس " في شمال شرق الدلتا. وحمل بعضهم أسماء سامية مثل "يعقوب " و "خيان " و " عامو ". وإلى جانب ذلك انتحل جميع ملوك الهكسوس أسماء وألقابًا فرعونية . كما حمل ثلاثة منهم الاسم " أبيبي " الذي حوله المؤرخ مانيتون إلى الصيغة اليونانية Apophis.

الأسرة السابعة عشرة (1660 – 1570 ق.م.) عاصرت هذه الأسرة الوطنية التي حكمت في طيبة ملوك الهكسوس وبلغ عدد ملوكها 16 ملكا حملوا أسماء يغلب عليها أسماء الفراعنة القدامى الذين حكموا في طيبة مثل " انيوتف " و " منتوحتب " . وآخر ملكين في هذه الأسرة تزعما حرب التحرير لطرد الهكسوس وهما الملك " سقننرع – تاعا " وابنه " كامس ".

سادسا: عصر الدولة الحديثة :

يشمل الأسرات من الثامنة عشرة إلى العشرين ويمتد من 1570 إلى 1080 ق.م. ويسمى أيضا عصر الإمبراطورية (وبالتحديد النصف الأول منه) نظرًا لأنه يتميز بتأسيس الإمبراطورية المصرية في آسيا وامتداد حدودها في النوبة حتى الشلال الرابع , كما تميز بحركة عمرانية واسعة النطاق وخاصة في طيبة عاصمة الإمبراطورية.

الأسرة الثامنة عشرة (1575 – 1308 ق.م.) وتعتبر أعظم الأسرات الفرعونية وقد أسس ملوكها الإمبراطورية المصرية ولكل ملك من ملوكها أهمية خاصة في التاريخ المصري من ناحية معينة فبعضهم ارتبط اسمه بالفتوحات وتوسيع رقعة الإمبراطورية مثل تحتمس الأول وتحتمس الثالث وبعضهم ارتبط اسمه بالازدهار الحضاري مثل تحتمس الرابع وأمنحتب الثالث , وأحدهم ذاعت شهرته بسبب إعلانه عقيدة التوحيد مثل إخناتون وفيما يلي قائمة كاملة بأسماء ملوك هذه الأسرة وتاريخ اعتلاء كل منهم العرش :

1- أحمس الأول 1575 ق.م.
2- أمنحتب الأول 1550 ق.م.
3- تحتمس الأول 1528 ق.م.
4- تحتمس الثاني 1510 ق.م.
5- حتشبسوت 1490 ق.م.
6- تحتمس الثالث 1490 ق.م. (بالاشتراك مع حتشبسوت) و 1468 ق.م. (منفردا) .
7- امنحتب الثاني 1436 ق.م.
8- تحتمس الرابع 1413 ق.م.
9- أمنحتب الثالث 1405 ق.م.
10- امنحتب الرابع (اخناتون) 1367 ق.م.
11- سمنخ كارع 1350 ق.م.
12- توت عنخ آمون 1347 ق.م.
13- أي 1339 ق.م.
14- حورمحب 1335 ق.م.

الأسرة التاسعة عشرة (1308-1194 ق.م.)وعدد ملوكها ثمانية أهمهم الأربعة الأوائل وهم :1-رمسيس الأول 1308 ق.م. 2- سيتى الأول 1306 ق.م. 3- رمسيس الثاني 1291 ق.م. 4- مرنبتاح 1224 – 1214 ق.م.ويلاحظ أن ملوك هذه الأسرة اتخذوا من مدينة " تانيس " في شرق الدلتا عاصمة حربية لقربها من ميدان الحرب في الشام . وقد أصبحت هذه المدينة بمثابة عاصمة ثانية للبلاد إلى جانب طيبة العاصمة الأولى.

الأسرة العشرون (1184-1087 ق.م) وعدد ملوكها عشرة حملوا جميعاً الاسم " رمسيس " فيما عدا مؤسس الأسرة "ست-نخت". ولتمييز رعامسة هذه الأسرة عن رعامسة الأسرة التاسعة عشرة أعطى علماء الآثار المصرية تسلسلاً عددياً لرعامسة الأسرة العشرين يتبع التسلسل العددي لرعامسة الأسرة التاسعة عشرة وبذلك سمي أول ملك يحمل الاسم "رمسيس" في الأسرة العشرين "رمسيس الثالث" (نظراً لوجود ملكين يحملان الاسم "رمسيس" في الأسرة التاسعة عشرة) ثم رتبوا ملوك الأسرة العشرين على هذا الأساس حتى "رمسيس الثاني عشر") وهو آخر ملوك هذه الأسرة، وأهم ملوك الأسرة العشرين هم :1- ست-نخت 1184 ق.م -2- رمسيس الثالث 1182 -3- رمسيس الرابع 1151-1145 -5- رمسيس السادس 1141-1134 -8- رمسيس التاسع 1134-1127 -10-رمسيس الحادي عشر 1114.

(الفراعنة أرقام 4 , 6 , 7 , 9 , 11 , 12 ليس لهم أهمية كبيرة)

سابعاً : العصر المتأخر:

ويُسمى أيضاً العصر المتوسط الثالث وأحيانا "عصر الاضمحلال النهائي" نظراً لشيخوخة الدولة الفرعونية، واتجاهها نحو الزوال .. ويطلق على بعض مراحله أسماء مميزة لها مثل "عصر الأسرة الليبية" نظراً لأن ملوكها ينحدرون من أصل ليبي. و "عصر الأسرة النوبية" لأن ملوكها غزوا مصر من النوبة ولو أنهم من أصل مصري. ويشمل العصر المتأخر الأسرات من الحادية والعشرين إلى الحادية والثلاثين ويمتد من1087 إلى 332 ق.م. وهذا التاريخ الأخير هو تاريخ غزو الإسكندر المقدوني لمصر.

الأسرة الحادية والعشرون : (1087-945 ق.م) في عهد هذه الأسرة انقسمت البلاد إلى قسمين ، كما كانت قبل عصر الأسرة الأولى أي إلى الوجهين القبلي والبحري. وقد حكم ملوك الوجه القبلي من طيبة وأهمهم "حريحور" الذي كان كبيراً لكهنة أمون ثم اغتصب العرش من آخر فراعنة الأسرة العشرين. أما ملوك الوجه البحري فقد اتخذوا عاصمتهم في "تانيس" في شرق الدلتا والتي كانت العاصمة الثانية لمصر أو العاصمة الحربية أيام الرعامسة ومن أهمهم " سمنديس " مؤسس الأسرة وقد حكم بعده عدة ملوك حملوا الاسم "بسوسنس".

الأسرة الثانية والعشرون : (945-720 ق.م). تعرف أيضاً "بالأسرة الليبية" لأن مؤسسها "شاشانق (شيشنق) الأول" من أصل ليبي وقد اتخذت من مدينة " بوبسطة " الحالية (بالقرب من الزقازيق) عاصمة لها. وقد تسمى خمسة من ملوك هذه الأسرة بالاسم "شاشانق" كما تسمى اثنان بالاسم "أوسركون".

الأسرة الثالثة والعشرون : (817-730 ق.م) عاصر بعض ملوك هذه لأسرة ملوك الأسرة الثانية والعشرين الليبية وقد اختلف العلماء عما إذا كانت هذه الأسرة قد حكمت من تل بسطة أم من طيبة.الأسرة الرابعة والعشرون : (730-715 ق.م)وعدد ملوكها اثنان فقط هما "تفنخت" مؤسسها ثم ابنه الذي سماه المؤرخون اليونان والرومان "بوكوريس" أو "بوخوريس" (بالمصرية باك-إن-رنف).

الأسرة الخامسة والعشرون : (751-656 ق.م) أسسها الملوك النوبيون الذين غزوا مصر. وأصل هؤلاء الملوك من سلالة الكهنة المصريين الذين فروا من اضطهاد ملوك الأسرة الليبية واستقروا في النوبة عند بلدة "نباتا" الواقعة بالقرب من الشلال الرابع حيث أسسوا دولة نوبية متمصرة ثم انتهز أحد الملوك من سلالتهم وهو الملك "بعنخي" فرصة الصراع الذي شب بين ملوك الأسرات الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين وغزا مصر وأسس أسرة حاكمة فيها. أهم ملوك هذه الأسرة "طهارقا" و "تانوت-أمون". وقد تصدى هذان الملكان للجيوش الآشورية عندما حاولت غزو مصر. ولكن الآشوريين تغلبوا عليهما وأرغما كلا منهما على الفرار إلى نباتا.

الأسرة السادسة والعشرون : (664-525 ق.م) يعرف عصر هذه الأسرة أيضاً باسم "العصر الصاوي" نسبة إلى بلدة "صا-الحجر" الواقعة في ملاصقة مدينة كفر الزيات وكانت عاصمة لهذه الأسرة. وقد أطلق المؤرخون اليونان والرومان على هذه العاصمة الاسم "سايس Sais " وهو محور من الاسم المصري القديم لهذه المدينة وهو " ساو ". وأحياناً يطلق علماء الآثار المصرية على عصر هذه الأسرة "عصر النهضة" نظراً لأن ملوكها حاولوا إحياء تراث البلاد بالرجوع إلى الماضي وتقليد فنون الدولة القديمة بوجه خاص. ويتميز عصر هذه لأسرة أيضاً بكثرة استخدام اليونانيين مرتزقة في الجيش المصري. وفي آخره غزا الفرس مصر بقيادة ملكهم "قمبيز".

الأسرة السابعة والعشرون : (525-440 ق.م) هذه الأسرة ليست مصرية بل فارسية تنسب إلى ملوك الفرس بالرغم من أنهم كانوا يحكمون مصر من بلادهم ويولون عليها ولاة من قبلهم وقد كتب هؤلاء الملوك مثل قمبيز ودارا واجزركسيس أسماءهم بالهيروغليفية على غرار أسماء الفراعنة. وفي أواخر عهدها تمكن المصريون بزعامة أمير مصري يسميه المؤرخون الإغريق والرومان " إيناروس " من طرد الحامية الفارسية وتحرير البلاد.

الأسرة الثامنة والعشرون : (404-399ق.م) أسسها " إمر تايوس " وهو مصري أيضاً اشترك في حرب التحرير ضد الفرس. وهو الفرعون الوحيد في هذه الأسرة وكانت "صا الحجر" عاصمة له.

الأسرة التاسعة والعشرون : (399-380 ق.م) وهي مصرية أيضاً وعدد ملوكها أربعة أولهم يدعى "نفريتس".

الأسرة الثلاثون : (380-341 ق.م) وهي أسرة مصرية وعدد ملوكها ثلاثة حمل اثنان منهم الاسم " نقطانب " (نخت – نب – اف) وفي آخرها تمكن الفرس من استعادة مصر.

الأسرة الحادية والثلاثون : (341-332 ق.م) ملوك هذه الأسرة من أباطرة الفرس مثل الأسرة السابعة والعشرين وفي آخر عهدها غزا الإسكندر المقدوني مصر (سنة 332 ق.م.) وبهذا الغزو انتهي العصر الفرعوني.

حضارة مصر الفرعونية وأثر البيئة الطبيعية في نشأتها وتطورها:

اتسم تاريخ مصر منذ أقدم عصورها أي منذ بداية العصر الفرعوني بسمتين أساسيتين , أولاهما: الوحدة بين مختلف أجزاء البلاد , وثانيتهما مركزية الحكم، مما كان له أثر كبير في حضارتها . هذه الوحدة كانت وليدة عوامل البيئة الطبيعية المصرية , فمصر تبدو كواحة مستطيلة تمتد طولا من الجنوب للشمال في محيط الصحراء يربط بين أجزائها طريق واحد ولاسيما في الصعيد (الوجه القبلي) وهو النيل فتجمعت المراكز السكانية على ضفتيه (الخريطة رقم 1). وكان فيضان النيل دافعًا للوحدة بين أجزاء مصر إذ كان يدفع سكانها إلى الترابط والتكاتف لمواجهة خطر فيضانه , وساعد على ذلك ثبات موعد هذا الفيضان إلى حد كبير ، مما كان يوفر الوقت اللازم للاستعداد لهذه المواجهة بتعلية جوانب النهر (الجسور طبقا للتعبير الريفي المصري) وشق القنوات في مختلف الأقاليم على طول مجرى النيل , ومن هنا نشأت الوحدة بين المراكز السكانية على جانبي النيل بسبب وحدة الخطر؛ لأن أي تقاعس أو تخاذل من أي من هذه المراكز نحو الاشتراك في هذه المواجهة لن يقتصر على هذا المركز وحده، بل سيؤدى للإضرار بالجميع فكان المصريون في العصر التاريخي يؤكدون هذه الوحدة في كل شيء حتى في ألقاب الفرعون (الشكل رقم 1).

ونفس الأسباب أدت إلى نظام مركزي في الحكم , ذلك أن تكتيل الجهود في كل أجزاء البلاد لمواجهة الفيضان وتطويع النيل استلزم سيطرة قوة مركزية توجه هذه الجهود نحو هدف واحد حتى لا يحدث تضارب، إذا تعددت القيادات، مما قد يؤدى إلى مداهمة الفيضان للجميع أو

عطش الأرض الزراعية نتيجة إهمال الاستفادة من مياه الري، مما يؤدى إلى هلاك الحرث والنسل . ومن هنا ارتضى المصريون هذا الحكم المركزي ، بل وأخلصوا في طاعته والخضوع له فاستمر طوال عصور التاريخ المصري القديم . وهكذا توافر للمصريين عنصر مهم في نشأة ورقى الحضارة وهو عنصر الاستقرار .. وساعد على هذا الاستقرار اطمئنان المصري إلى أود حياته أي غذائه اليومي نتيجة انتظام ري الأرض وبالتالي انتظام عمليات الزراعة من حرث وبذر، مما أدى إلى وفرة المحصول ، فلم ينشغل المصري بتدبير قوت يومه إذا توافر لديه الأمن الغذائي .كما تميزت الحضارة المصرية القديمة عن الحضارات القديمة الأخرى بصفة مهمة هي صفة الاستمرار، فطوال التاريخ المصري القديم لم تتغير عناصر هذه الحضارة من لغة وعقائد وفنون . فمثلا لم يحدث تغيير في أداة الحضارة وهي اللغة المصرية القديمة (على عكس ما حدث في العراق على سبيل المثال عندما تغيرت اللغة السومرية إلى اللغة الأكدية السامية) وسبب ذلك أيضًا عوامل الحماية الطبيعية التي وفرتها الحواجز الطبيعية حول وأدي النيل في مصر فأمنت البلاد من الغزو الخارجي الذي قد يؤدى إلى تدمير الحضارة أو تغيرها(فيما عدا حالات متفرقة لم يؤثر الغزو الخارجي على مسار الحضارة المصرية بوجه عام مثل غزو كل من الهكسوس والآشوريين والفرس) .. فمن صحراء في الشرق يمتد وراءها مسطح مائي واسع هو البحر الأحمر ومن صحراء شاسعة في الغرب هي الصحراء الإفريقية الكبرى ومن جنادل في الجنوب ومن بحر شاسع في الشمال هو البحر المتوسط يطل عليه ساحل رملي ضحل يعوق رسو سفن الغزو الضخمة على الساحل مباشرة . ولايشذ عن هذه الحواجز الطبيعية التي تحيط بوادي النيل في مصر إحاطة السوار بالمعصم – لايشذ عنها سوى ثغرة سيناء التي تنبه لها حكام مصر (الفراعنة) منذ بداية التاريخ المصري القديم . فشيدوا سورًا وقلاعًا على امتداد برزخ السويس أطلق عليه المصريون في نقوشهم " انب – حقا " أي " سور الحاكم " ربما تأكيدًا بأن إنشائه وصيانته وحمايته هي مسئولية الحاكم أي الفرعون وهكذا أمن المصري القديم من الغزو الخارجي إلى جانب ما توافر لديه من الأمن الغذائي .

أثر الأمن الغذائي والأمان من الغزو في الإنتاج الفكري المصري والعقائد المصرية :

كان من أثر ذلك أن توافر لدى المصري الفراغ الكافي للتأمل في مظاهر الطبيعة وفي الكون فتوصل إلى عقائد وأفكار عن نشأة الكون ومصير الإنسان والحياة بعد الموت وتميزت بعض هذه العقائد والأفكار بالرقي حتى يكاد هذا الرقي أن يقترب من بعض الأفكار التي جاءت بها الرسالات السماوية مثل محاسبة الإنسان بعد الموت عما قدمه في الحياة الدنيا من خير وشر ومثل فكرة الإله الواحد وإن كان يشوب هذه الأفكار الطابع المادي لأنها من نتاج الفكر الإنساني وليست من وحي إلهي كما هو الحال في الرسالات السماوية.

ويتجلى الطابع المادي للعقائد المصرية بوجه خاص في عقيدة المصري عن البعث والحياة بعد الموت , في اشتراط المصري سلامة الجثة لكي يتحقق البعث (على العكس مما بشرت به الرسالات السماوية من الفكر المجرد بأن البعث سوف يتحقق مهما حدث للجثة من البلى والفناء) ولذلك حنط المصري القديم الجثة حتى لا تبلى وحفظها في مقابر صخرية أو حجرية ضخمة لحمايتها من الاعتداء أو من عوامل التعرية الطبيعية , ثم يتجلى الطابع المادي أيضا بوضوح في اعتقاده أن الحياة الأخرى مماثلة تمامًا للحياة الدنيا , بل إنها طبق الأصل منها ولذلك نقل المصري مقتنياته الدنيوية الثمينة إلى المقبرة من حلي وأثاث ، ومالا يستطيع أخذه للمقبرة لكبر حجمه كان يصنع له نموذجًا مصغرًا وذلك لكي يتمتع به في الحياة الأخرى كما كان يتمتع به في الحياة الدنيا, فقد اعتقد المصري أن السعادة

في الآخرة لاتتحقق إلا إذا أحيط بمظاهر الحياة الدنيا بحذافيرها.

مظاهر الرقي في الفكر الديني المصري – الحساب في الآخرة وفكرة الوحدانية.

نتيجة الثورة الاجتماعية التي اندلعت في أواخر الدولة القديمة وتحطيم الثوار (وبالتحديد الجياع) مقابر الملوك والأفراد للاستيلاء على مابها من كنوز ومن ذهب بوجه خاص, لمواجهة المجاعة التي انتشرت في البلاد – نتيجة لذلك , تضاءل اعتقاد المصريين في جدوى هذه الوسائل المادية في تحقيق السعادة في الآخرة، وحل محله اعتقاد متزايد في الوسائل المعنوية في مقدمتها السلوك الحميد في الحياة الدنيا. وظهر ذلك واضحًا في أقوال الحكماء والمفكرين , يضاف إلى ذلك انتشار العقيدة الأوزورية التي جعلت من المعبود أوزير قاضيًا للموتى في العالم الآخر, كل ذلك أدى إلى اعتقاد المصريين في أن السعادة في الآخرة تتحقق بحسن السلوك في الحياة الدنيا , فكان المتوفى يصور على جدار مقبرته أو على بردية (توضع في مقبرته تعرف عند علماء الآثار بكتاب الموتى) وهو يتقدم إلى محكمة أوزير الأخروية وينكر ارتكابه للذنوب والخطايا في حياته الدنيا معددًا 42 خطيئة منكرًا لها , وللتحقق من صدقه كان يفترض وزن ما في قلبه من صدق في ميزان يظهر رمز الصدق فوق إحدى كفتيه (الشكل رقم2) , فإذا ثبت صدقه يدخل جنة أوزوريس التي يمارس فيها نفس الأنشطة التي كان يمارسها في حياته الدنيا , فلم تكن الحياة الأخرى تختلف في نظر المصري عن حياته الدنيا (كما ذكرنا سابقًا).

وبالرغم مما وصل إليه المصريون القدماء من هذا الرقي الفكري , بالإيمان بهذه الأفكار الأخلاقية الراقية المجردة بشأن الحساب في الآخرة , فإنهم بدافع ما تميز به المصريون من التمسك بالقديم , لم يتخلوا عن ممارسة الأساليب المادية لضمان البعث من تحنيط للجثة والدفن في مقابر صخرية متينة وأخذ متعلقاتهم الدنيوية إلى المقبرة للتمتع بها في الحياة الأخرى كما كانوا يتمتعون بها في الحياة الدنيا , فقد استمروا على ممارسة هذه العادات الجنائزية حتى انتشرت الديانة المسيحية في مصر وحرمت هذه الممارسات الوثنية . وفي مجال فكرة الوحدانية التي توصل إليها الفكر المصري , فقد نشأت هذه الفكرة مع اتساع الإمبراطورية المصرية في عصر الدولة الحديثة , فاعتقد المفكرون المصريون أن هذا العالم الواسع الذي شمل العالم المعروف في عصرهم (منطقة الهلال الخصيب والسودان) – لابد أنه يخضع لقوة واحدة تسيره وتسيطر عليه , وظهرت إرهاصات لهذه الفكرة قبل عصر إخناتون وبالتحديد في عصر جده تحتمس الرابع ووالده أمنحتب الثالث ولكن دون إلغاء الآلهة الأخرى , وكان عمل إخناتون هو إلغاء الآلهة كلها فيما عدا إلهه "آتون" الذي يمثل القوة الممثلة في قرص الشمس و الذي تجسدت فيه صفات الوحدانية الأربعة وهي : التوحيد أي عدم وجود إله آخر سواه والعالمية أي أن عبادته لاتقتصر على مصر وحدها بل هو اله البلاد الأخرى في العالم المعروف للمصريين (الهلال الخصيب والسودان) وعدم التجسد أي عدم نحت تمثال له في شكل آدمي أو حيواني كما كان الشأن بالنسبة للآلهة المصرية وفي مقدمتهم الإله آمون أو آمون – رع الإله الرسمي للإمبراطورية المصرية , والانكشاف أمام البشر أي لا تشيد له معابد مغلقة تمارس فيها طقوس سرية كما كان الشأن للإله آمون الذي يعنى اسمه " المستتر" أو "الخفي" , ولذلك كانت معابد آتون مكشوفة لاسقف لها . ولكن بالرغم من ذلك فلم تنج عقيدة إخناتون من الوثنية تمامًا .. ويتضح ذلك في رسم قرص الشمس وقد امتدت منه أذرع تنتهي بأيدٍ مبسوطة رمزا للنعم التي يسبغها الإله على عباده , فالتجسد واضح في هذه الرموز(الشكل رقم 3)

وقد انتهت عقيدة آتون بموت إخناتون وهجر زوج ابنته توت عنخ آمون مدينة عبادة آتون التي أسماها

إخنـاتون " اخـت – آتـون " (ومعنـى الاسـم "أفـق آتـون" وموقعها الحالي بلدة تل العمارنة في محافظة المنيا بصنعيد مصر- الخريطة رقم 1) – عاد توت عنخ آمون إلى طيبة وإلى عبادة آمون مغيرًا اسمه من "توت عنخ آتون" إلى "توت عنخ آمون" . وبذلك أسدل الستار على إحدى النقاط المضيئة في تاريخ العقائد المصرية، بل وفي تـاريخ عقائد العالم القديم . ويرجـع البـاحثون سبب ارتـداد المصـريين عـن عبـادة آتـون وعـودتهم إلـى عبـادة آمـون بعـد مـوت إخناتون، بل وتدمير آثاره ونعته بـ "مجرم أخت آتون" – يرجع ذلك إلى معاداة كهنة آمون الأقوياء للعقيدة الجديدة بعد أن ألغى إخناتون عبادة آمون وأغلق معابده . غير أن هناك سببًا أقوى من ذلك هو أن عقيدة آتون كانت قاصرة على الفرعون وحاشيته وخاصة الناس ولم يهتم إخناتون بنشرها بين عامة الناس من البسطاء الذين هم دائما وقود الرسـالات ، بـل إن إخنـاتون خسـر القاعـدة العريضـة مـن الشعب المصري بإلغائه عبادة الإله أوزوريس إله العالم الآخـر الـذي كـان إلهـا شـعبيًا وذلـك ضـمن إلغائـه الآلهـة الأخرى . فقد مست قصة موت أوزوريس وبعثه شغاف قلوب عامة الشعب المصري لدرجة أن كل مصري متوفى كان يطلق عليه "أوزوريس" إلى جانب اسمه الشخصي , وبـذلك كـان أوزوريـس رمـزًا للعقيـدة التـي تمكنـت مـن المصريين وهي عقيدة البعث والخلود، فكان إلغاؤها تبعا لإلغاء عبادة أوزوريس ضربة قاصمة أصابت المصريين فـي الصـميم فصـبروا علـى مضـض خوفًـا مـن بطـش الفرعون, فما أن ودع الفرعون الحياة الدنيا حتى انفجر البركان المصري يحطم آثار إخناتون.

أثر البيئة الطبيعية المصرية في الفن المصري القديم :

أولا : في فن العمارة بوجه عام :

تمتـاز مظـاهر الطبيعـة فـي مصـر بشـدة جلائهـا ووضوحها واستقامة خطوطها , فشطئان نيلها مستوية في أكثر الأحيان , والوادي الخصيب يمتد على طول النهر من الجنـوب إلـى الشمـال, فـي خـط مسـتمر شـبه مسـتقيم تتخللـه القنوات والأحواض التي شقها المصري في خطوط مستقيمة ؛ ذلـك أن الطبيعـة المصـرية علمـت المصـري منـذ أقـدم عصـوره أن الخـط المسـتقيم هـو أقصـر مسـافة وأحكـم فـي الحفاظ على ما يجرى فيه من ماء ولذلك نجد: أن الاستقامة أهم ما يميز العمائر المصرية القديمة . والشمس وهي تعبر سماء مصـر , تغمـر الربـى والوديـان بضـوئها فتبـدو الأشـياء على حقيقتها السافرة أوضح ما تكون , فالوضوح أهم ما يميز الطبيعة المصرية. ومناخ مصر جاف معتدل على مدار العام , والطبيعة فيها هادئة مستقرة لا تكاد تختلف من مكان إلى مكان وهذا التشابه انطبع ، كما أسلفنا على العمائر المصرية فهـي متشـابهة فـي تكـرار مسـتمر لا تكـاد يظهـر فيهـا تبـاين واضح .

وتحـف بـالوادي سلسـلتان مـن الجبـال كأنهمـا صـرحان ممـدودان عـن يمـين وشـمال . وصـحارى مصـر تـروع النفـوس بامتـداد آفاقهـا ومـا تـوحي بـه مـن معـاني البعـث والخلـود والـدوام , وكـان هـذا البعـث والخلـود الـذي اسـتوحاه المصـري الأول مـن مظـاهر الطبيعـة المصـرية كشـروق الشـمس وغروبهـا ثـم شـروقها أي بعثهـا وفيضـان النيـل وغيضـانه ثم فيضانه أي بعثه وإنبات الزرع وذبوله ثم إنباته أي بعثـه – هـذه المظـاهر الطبيعيـة وإن كانـت قـد أوحـت للمصـري بفكـرة البعـث والخلـود , ولكـن لـم تكـن هـي التـي أكدت هذه الفكرة في ذهنه و إنمـا التـي أكدتها وحولتها إلـى عقيدة راسخة هي دفن المصري موتاه في الصحراء، فقد شجعه على ذلك قرب الصحراء من المناطق السكنية في الـوادي فعنـدما كـان المصـري ينـبش الأرض لـدفن ميـت حديث, كانت تطالعه جثة الميت التي دفنها في السـابق وهـي شـبه سـليمة , فقـد كانـت الصـحراء الرمليـة الحـارة الجافـة (وخاصة في الصعيد) تحفظ الجثث شبه سليمة إذا لم تدفن في مقبرة مجوفة وطمرت في الرمال .. وهي طريقة الدفن في تلك العصور المبكرة وكانت هذه الظاهرة التي انفردت

بها البيئة المصرية بسبب ملاصقة الصحراء للأرض الزراعية، حيث قامت المناطق السكنية؛ كانت مما شجع المصري على الدفن في الصحراء ولم يدفن موتاه في الأرض الزراعية الرطبة التي تؤدى إلى تحلل الجثث كما كان الحال في العراق الجنوبي القديم على سبيل المثال حيث دفن العراقي موتاه في الأرض الزراعية الرطبة لبعد الصحراء عن الأرض الزراعية حيث توجد المناطق السكنية، مما أدى إلى تحلل الجثث وفنائها , فسادت لدى العراقي فكرة فناء الإنسان وعبر عنها بقوله : "إن الإنسان ما هو إلا ريح تهب" بينما رسخت عقيدة البعث والخلود في ذهن المصري الأول واستمرت طوال عصور التاريخ المصري القديم ؛ لأنها مستمدة من عوامل دائمة مستمرة هي عوامل الطبيعة المصرية .

وقد ساعد توافر المواد التي استخدمها المصريون القدماء من أحجار متنوعة ومعادن , بل وقرب محاجر ومناجم هذه الأحجار والمعادن (في الصحارى والجبال الممتدة على جانبي الوادي) , من المراكز السكانية على ضفاف النيل , ساعد على تنوع مواد الإنتاج الفني المصري .. فمن أحجار جيرية وأحجار رملية وغيرها من الأحجار الرسوبية , إلى جرانيت وردي و أشهب وأسود وبازلت وديوريت وغيرها من الأحجار النارية الصلبة، مما جعل المجال واسعًا أمام المعماريين والفنانين المصريين أن يتخيروا لعمائرهم وتماثيلهم ما يتمشى مع العقيدة المصرية في البعث والخلود " أو " طبقًا للتعبير المصري القديم" لملايين السنين" (حح - رنبوت) .. وهكذا تكاملت إمكانات البيئة الطبيعية مع العقيدة الدينية في البعث والخلود .

فشيد المصريون أغلب عمائرهم بالحجر كالأهرامات والمعابد والأبواب الوهمية والمسلات والنواويس والتماثيل وغيرها، بما كفل لمنشآتهم البقاء آلاف السنين، وحقق تعبيرهم المذكور عن خلود آثارهم المعمارية والفنية، بل إن استخدام الحجر ميزالعمارة المصرية ، حتى ليقال بحق إن مصر هي موطن البناء بالحجر.

أثر الطبيعة المصرية في أشكال العمائر المصرية القديمة :

يلاحظ على عمائر مصر الفرعونية من معابد ومقابر أن جدرانها شبه مصمتة لاتتخللها إلا فتحات ضيقة , وتعلو فيها الصروح قوية شامخة , وتتعاقب فيها الأفنية والأبهاء على محور مستقيم , واضحة بسيطة لاتعقيد فيها ولا التواء, وتمتد على جانبي هذا المحور أروقة تعتمد أسقفها على أعمدة ذات تيجان نباتية .. فهذا المحور المستقيم إنما يحاكي امتداد النيل كمجور بطول الوادي كله , والأعمدة السامقة ذات التيجان النباتية الشكل التي ترفع السقوف إنما تحاكي الأشجار الوارفة التي تمتد على جانبي النيل . وهكذا يبدو المكان كأنه جزء من طبيعة الوادي الخصيب .ولقد كان لقلة الأمطار في مصر أثره في بناء المصريين القدماء أسطح مبانيهم مستوية , وخاصة المبانى الحجرية التي ظلت طوال العصر الفرعوني تبنى أسطحها مستوية .. وساعد على ذلك توافر الأحجار في المحاجر القريبة من الوادي الخصيب التي كان يصنع منها كتل حجرية طويلة تستخدم في تسقيف قاعات الأعمدة (كان يمكن نحت كتل حجرية من الحجر الجيرى طولها ثلاثة أمتار ومن الحجر الرملي طولها خمسة أمتار) , وكانت هذه الأسطح المستوية تزود بميازيب لتصريف ما يهبط من سيول فجائية من وقت لآخر ولاتقاء حرارة الشمس وضوئها القوي. ظهرت في المباني المصرية صُفَّات (جمع صُفَّة) أو ظلات (جمع ظُلَّة) في واجهاتها وحول الأفنية الداخلية(الشكل رقم 4)، وذلك لتوفير الظل . ونتيجة للضوء القوي كانت النوافذ في المعابد فتحات صغيرة في أعلى الجدران(الشكل رقم 4) أو في السقوف، مما ترك مساحات جدارية كبيرة للصور والنقوش، في حين كانت مداخل وأبواب المعابد والمقابر واسعة يدخل منها ضوء كاف يُضيء مساحات كبيرة، ولكنه لا يلبث

أن يقل شيئاً فشيئاً فيزيد في روعة المكان. وكانت النقوش غائرة في السطوح الخارجية والسطوح المعرضة لضوء الشمس، بما يقيها العطب ويسمح للأضواء والظلال أن تتلاعب عليها بما يخفف من حدة الضوء الشديد ويضفي على الجدران جمالاً، وهي دقيقة بارزة في سطوح الجدران الداخلية بما يكفل لها الوضوح في الضوء الخافت، ويكون لها الأثر الجميل في النفس. وكان لنسيم الشمال العليل الذي يلطف من حرارة الصيف عادة، أثر في أشكال المباني وعناصرها المعمارية، فقد كانت الظلات وواجهات البيوت تتجه نحو الشمال، كما كانت تنشأ في السقوف (ملاقف) (جمع مَلْقَفْ) تتلقى الهواء البارد، وما زالت هذه الملاقف منتشرة في سقوف المنازل في صعيد مصر.

الأصول النباتية للزخارف المعمارية المصرية :

مما يثير انتباه المُشاهد للمباني المصرية، كثرة الأشكال النباتية المُستخدمة زخارف معمارية في هذه المباني، وترجع في أصولها إلى عصور ما قبل الأسرات عندما كان المصريون الأوائل يشيدون مساكنهم من أعواد النبات ومن اللبن. وقد وجدت هذه الأشكال سبيلها إلى العمارة الحجرية، بسبب ما أضفاه عليها قدمها من قداسة وقد توارثها المصريون جيلاً عن جيل بحكم ما جبلوا عليه من الوفاء لماضيهم والتمسك بتقاليدهم القديمة ومن أمثلة ذلك:

1- الكورنيش المصري وهو يتوج جدران المعابد وينحني إلى الأمام في انحناء رشيق يشبه الإنحناء بين رأس الإنسان ورقبته وينتهي في أعلاه بشريط مستوٍ وكثيراً ما تظهر فيه لخطوط الرأسية التي تمثل في الأصل نهايات سيقان النبات (الشكل رقم 4 أ) وأسفل الكورنيش المصري يمتد ما يُسمى "بالخيزرانة" (الشكل رقم 4 ب) وهو بروز أسطواني عليه خطوط متعارضة مائلة تمثل الأربطة، إذ ترجع الخيزرانة في أصلها إلى حزم من أعواد النبات كانت تقوى بها أعالي الأكواخ وأركانها.

2- وكانت تعلو الجدران من الخارج والداخل حلية ترجع في أصلها إلى الأطراف العليا لأغصان البردى أي " شواشي" النبات والتي كانت تجمع في شكل حزمة تربط من أعلاها وأسفلها بخيوط أو حبال (الشكل رقم 4 ج) وكان المصريون يطلقون على هذه الحلية المعمارية " خكر" ومعناها زينة أو حلية , وقد انتشرت هذه الحلية انتشارًا واسعًا في المباني المصرية سواء في المعابد حيث كانت تنحت أو في المقابر حيث كانت تصور بالألوان أعلى جدران غرفة الدفن.

3- الأساطين (الأعمدة المستديرة) المُقنَّاة أي ذات القنوات. وهذه القنوات إما محدبة أو مقعرة، وترجع في أصلها إلى حزم الغاب التي كان المصري الأول يستخدمها في رفع سقف كوخه. وقد ظهرت هذه الأشكال في مجموعة هرم زوسر المدرج بسقارة (الشكل رقم 5 أ) هذه الأمثلة تدل على مدى تأثر المصري ببيئته وإخلاصه لها ثم إبداعه بإخراج هذا التأثر في ثوب رشيق.

ومنذ الأسرة الرابعة استخدم المعماري المصري الأعمدة المربعة (الشكل رقم 5 ب)، كل عمود من كتلة واحدة ضخمة من حجر الجرانيت . وقد يسّر ذلك إقامة أبهاء واسعة، سقوفها بلاطات ضخمة من الحجر يحملها عتب ضخم فوق صف أو أكثر من الأعمدة. وظهر ذلك بوضوح في معبد الوادي لهرم خفرع بالجيزة (الشكل رقم 5 ب).

ومنذ الأسرة الخامسة ظهرت الأساطين ذات التيجان التي على شكل براعم البردي المربوطة (الشكل رقم 5ج) أو اللوتس (الشكل رقم 5 د) أو سعف النخيل (الشكل رقم 5هـ) ويميز هذه الأساطين بأنها منفصلة عن الجدار وأن كل

منها مصنوع من كتلة واحدة من حجر الجرانيت على عكس أساطين زوسر التي كانت متصلة بالجدار ومصنوعة من أسطوانات من الحجر الجيرى .

أصل وتطور شكل المقبرة المصرية :

كان المصريون في فجر التاريخ يدفنون موتاهم في حفر صغيرة غير عميقة بيضية أو مستديرة الشكل، ثم أخذوا يهيلون فوق المقبرة ركاماً من حصى وحجر كعلامة عليه يسترشدون بها عن مكانه، وكان هذا الركام بداية البناء العلوي للمقبرة الذي تطور فيما بعد إلى شكل منتظم قائم الزوايا يسميه علماء الآثار المصرية "مصطبة"(الشكل رقم10) وهي كلمة دارجة أطلقها عمال الحفر لتشابهها مع شكل المصطبة التي تبنى أمام منازلهم ثم جاء الملك زوسر الذي أراد أن يتميز على رعاياه الذين شيدوا مقابرهم على شكل مصاطب , فأضاف إلى المصطبة خمسة مصاطب تتدرج في حجمها, فنشأ بذلك الهرم المدرج في سقارة الذي يتكون من ست مصاطب يوصل ارتفاعها إلى 60 مترا. ولم يكن الهرم المدرج قائما بمفرده , بل كانت حوله عدة مبان (الشكل رقم 6) تخدم طقوس تتويج الفرعون وكذلك الاحتفال بإعادة تتويجه فيما يسمى "بالعيد الثلاثينى" منها " منصة التتويج "(الشكل رقم 7) الذي كان زوسر يتوج عليها بتاجي الوجه القبلي والوجه البحري, و" بيت الشمال وبيت الجنوب" والمعبد الجنازي حيث تقام الطقوس لروح الفرعون بعد موته التي يكتسب منها التجدد. وهذا المعبد يلاصق الجانب الشمالي للهرم، حيث يوجد مدخل الهرم. وسبب هذا الاتجاه الشمالي اعتقاد المصريين أن روح الفرعون بعد موته تتردد على هذا المعبد قادمة من مجموعة النجوم القطبية حيث مقرها الدائم وسبب اختيار هذه النجوم مقرًا للروح أن هذه النجوم دائمة اللمعان فهي تمثل البقاء أو الخلود الذي ينشده المصريون لأرواحهم (وأجسادهم) بعد الموت ولذلك أطلقوا عليها التسمية "سباو ايخم سك " أي " النجوم التي لاتفنى " . وإلى جوار المعبد يوجد السرداب (وهو غرفة صغيرة) وبداخله تمثال للملك زوسر الغرض منه في العقيدة المصرية إرشاد روح الملك إلى مدخل المقبرة (الشكل رقم 6).

وبعد الهرم المدرج حدث تطور في الشكل الهرمي حتى وصل إلى الهرم الكامل (الشكل رقم 8) وهذا التطور يدحض الادعاء بأن الأهرام , شيدها شعب أجنبى غزا مصر في ذلك الوقت , ذلك بأن حلقات هذا التطور ثابتة في الأرض المصرية في مدى مائة عام فقط (الشكل رقم 8) .

ويعد هرم الملك خوفو أو الهرم الأكبر في الجيزة نموذجا للهرم الكامل (الشكل رقم 9) من حيث دقة البناء والضخامة إذ يبلغ ارتفاعه 146 مترا (في الأصل) ويتميز بظاهرتين معماريتين فريدتين أولهما: الطريقة الهندسية البارعة التي ابتكرها مهندس الهرم لحماية سقف غرفة الملك من الانهيار(نظرًا لأن الأحجار الواقعة فوقه يبلغ ارتفاعها حوالى مائة متر) في حالة حدوث زلزال وهي تفريغ خمس غرف فوق هذا السقف ارتفاع كل منها متر واحد (الشكل رقم9) والغرفة العليا منها سقفها على شكل جمالون (مثلث) الغرض منه توزيع الثقل وإلقائه على الجانبين . وقد نجحت هذه الحيلة المعمارية البارعة فعلا فان الزلازل العنيفة التي تعرضت لها المبانى في مصر على مر العصور لم تؤثر على سقف غرفة الملك خوفو إلا بشرخ محدود . والظاهرة الفريدة الثانية هي الدقة المتناهية في صقل أحجار البهو الكبير الذي يبلغ طوله 47 مترا وارتفاعه ثمانية أمتار ونصف (الشكل رقم 7), بالرغم من ضخامة أحجاره لدرجة أثارت دهشة وإعجاب المؤرخين والرحالة اليونان والمسلمين ومن أشهر أقوالهم ماورد في كتاب المؤرخ عبد اللطيف البغدادي الذي جاء فيه "إن دقة تسوية الأحجار بلغت حدًا لايمكن معه إدخال شعرة بين الحجر والحجر" . وهناك ظاهرة في الهرم الأكبر لها أهمية كبيرة في دحض الروايات التي رددها بعض المؤرخين القدامى عن بناء الهرم ، وهو قولهم : إن الفراعنة شادوا منشآتهم وخاصة الأهرامات بالسخرة وبآلام

الفلاحين المصريين ودموعهم. ولا شك أن هذا الإدعاء سببه ذلك الخطأ الذي يقع فيه البعض، وهو أنهم يحكمون على الماضي بمفاهيم ومقاييس الحاضر، فمما لا شك فيه أن كثيراً من الناس، بتأثير الروح المادية التي تسود عالمنا المعاصر، لا يمكنهم أن يتصوروا إمكان بذل مجهود شاق أو للقيام بعمل صعب إلا كمقابل للجزاء المادي وبالدوافع المادية وحدها، وهي دوافع لا يمكن أن تمد الإنسان بتلك الطاقة الهائلة التي تمده بها الدوافع المعنوية والروحية. ومن هنا كان تصورهم بأن هذه الأهرامات لا يمكن أن تقام إلا تحت ضغط مادي رهيب وبالسخرة .. بينما لو تعمقنا في دراسة العقائد المصرية لوجدنا أن هناك دوافع دينية روحية هي التي جعلت الفلاح والعامل المصري يصنع المعجزات، فقد كان المصريون يؤمنون إيماناً راسخاً بأن الملك هو الوسيط بين الناس والآلهة في الحياة الأخرى فلن يتحقق للفرد منهم حياة أخرى سعيدة إلا عن طريق الملك، ومن هنا كان آداء أي عمل من أجل الملك هو بمثابة رصيد للشخص عند ذلك الوسيط، وشفيعاً له عند الملك والآلهة في الآخرة. وعلى ذلك فقد كان كل مصري يؤمن وهو يشترك في بناء مقبرة الملك، أنه سيُجزى على ذلك أحسن الجزاء في الحياة الأخرى، فاستمات المصريون في الحياة الدنيا لكي يضمنوا الخلود في الحياة الأخرى وعلى ذلك فمن وجهة نظر المصري لم تكن هناك سخرة في هذا العمل، إذ المعروف أن السخرة شعور داخلي لدى الشخص نتيجة إجباره على أداء عمل لا يرغب فيه أو لا يجزى عليه الجزاء الذي يرتضيه، ولم يكن هذا دون شك هو شعور المصريين وهم يشيدون آثار ملوكهم.

وربما يكون منشأ الاعتقاد السائد بشأن تسخير المصريين وإرهاقهم في بناء الأهرام، كلمة عابرة وردت في رواية المؤرخ اليوناني هيرودوت عن بناء هرم خوفو يقول فيها : "لقد مرت عشر سنوات أنهكت فيها قوى الشعب لإنشاء الطريق الذي جروا عليه الأحجار"(هيرودوت فقرة 124) . ولكن هيرودوت نفسه يذكر أن العمال كانوا يقسمون إلى مجموعات لنقل الأحجار إلى موقع الهرم تتكون كل مجموعة من 100.000 رجل تعمل لمدة ثلاثة أشهر(هيرودوت فقرة 124). ومن ناحية أخرى يرى علماء الآثار المصرية في عبارة هيرودوت هذه ما يشير إلى شغل العمال في عمل يستهلك طاقتهم المعطلة في زمن الفيضان وهو الوقت الذي يظل فيه العمال الزراعيون بغير عمل , فإن صح ذلك . يكون الفراعنة أقدم من اتبع هذه الوسيلة الحضارية لتجنب أخطار البطالة.

وفي باطن الهرم دليل على تبرئة الملك خوفو من الاستهانة بأرواح العمال , وهو وجود ممر شبه رأسي ذي شكل متعرج يصل بين بداية البهو الكبير من أسفل (الشكل 9 رقم 11) وبين الممر الهابط المؤدي إلى الغرفة السفلية (الشكل 9 رقم 2) والغرض من هذا الممر إيجاد مخرج للعمال الذين كانت مهمتهم إنزال الكتل الحجرية المكعبة المخزنة في بداية البهو الكبير والتي كانت مخصصة لسد نهاية الممر الصاعد من أعلى (الشكل 9 مابين رقم 4و7) وذلك لإحكام سد هذا الممر بعد الانتهاء من دفن خوفو , إذ أنهم بعد أداء هذه المهمة كانوا سيحبسون داخل الهرم في انتظار الموت المحتوم , فلو أنه لم يكن لأرواح العمال أهمية لما تم إنشاء هذا الممر ولترك العمال يموتون , ولكن كان في إيجاد مخرج لهم دليل على مدى الحرص على أرواحهم مما ينفي الاتهام المذكور.

ولعل منشأ الرأي القائل باستخدام السخرة في بناء الهرم , يرجع إلى ما يسود الآراء المعاصرة من الاعتقاد باستحالة بناء هذا الهرم الضخم بالوسائل البسيطة التي كانت متاحة في العالم القديم وأن المصريين كانت لديهم وسائل متقدمة لم تصل إلينا استخدموها في بناء الهرم ، بالإضافة إلى إرغام أعداد كبيرة من البشر في ذلك .. وهذا أيضا رأي بعيد عن الصواب فقد شيد المصريون الهرم الأكبر وغيره من الأهرامات بأبسط الوسائل التي تعتمد كلها على المجهود

العضلي للإنسان , فكانت الأحجار الضخمة تنقل على منحدرات أوطرق صاعدة تعمل من الرمال وتكسى بالطوب اللبن وقد ثبت ذلك من دراسة جوانب الأهرامات التي لم يتم بناؤها مثل هرم الملك سخم خت من الأسرة الثالثة في سقارة، إذ كشف الأثريون عن بقايا منحدر يلاصق الهرم في الجانب المواجه للمحجر، كما ثبت من رسم على جدران مقبرة الوزير "رخميرع" من الأسرة الثامنة عشرة ظهر فيه منحدر يلاصق قاعة أعمدة تدفع فوقه كتلة حجرية ضخمة لتسقيف هذه القاعة (الشكل رقم10) . فلبناء كل هرم على حدة كان يبنى منحدر أو طريق صاعد يلاصق جانب الهرم المواجه للمحجر تسحب فوقه الكتل الحجرية إلى أعلى للطبقة التي يجرى بناؤها ولذلك يسميه العلماء "منحدر التموين"(الشكل 11 أ , ب), ثم تبنى حول الجهات الثلاث الأخرى جدران مائلة من الطوب اللبن تلاصق جوانب الهرم لكى يتحرك عليها العمال لبناء هذه الجوانب ولذلك يسميها العلماء "مماشي العمال" (الشكل 11 ب) وبعد بناء درجات الهرم من أسفل لأعلى حتى القمة يكون الهرم مختفيًا داخل صندوق ضخم من الطوب اللبن ويمتد على أحد جوانبه منحدرطويل يرتفع من مستوى الأرض إلى قمة الهرم . وعدئذ تبدأ عملية إزالة هذا الصندوق المبنى من الطوب اللبن من أعلى إلى أسفل وكلما أزيلت درجة من الطوب اللبن , تثبت مكانها كتل مثلثة الشكل من حجارة بيضاء ناعمة هي كتل الكسوة وهذه العملية ذكر هيرودوت أنها كانت عملية بناء الهرم من أعلى إلى أسفل(هيرودوت فقرة 125) وكانت روايته تحير الباحثين إذ كيف يبنى الهرم من أعلى إلى أسفل ؟ فالصحيح أنها عملية بناء كسوة الهرم وليس الهرم كله. وكانت حجارة الكسوة هذه تجلب من محاجر طرة في شرق النيل بالسفن إلى غرب النيل حيث توجد منطقة الجيزة التي بنيت فوقها الأهرامات , وهي العملية التي وصفها المؤرخ هيرودوت والتي ذكر خطأ أيضا أنها عملية نقل أحجار الهرم(هيرودت فقرة 124) والصحيح أنها عملية نقل أحجار كسوة الهرم فقط ، وهذه الحجارة تختلف عن الحجارة التي بني بها جسم الهرم كله .. ففي هذه الأخيرة كانت الحجارة تقطع من محاجر هضبة الجيزة نفسها وكان نوع الحجر بها أكثر خشونة من أحجار طرة ويميل لونه إلى الإصفرار. ومازال يشاهد حتى اليوم الموقع الذي قطعت فيه هذه الأحجار وذلك في الجهة الشمالية الغربية من هرم خفرع حيث يبدو جدار الهضبة رأسيا .

وبعد الانتهاء من تركيب أحجار الكسوة نزولا من أعلى إلى أسفل (وهذه العملية وصفها هيرودوت أيضا على أنها طريقة بناء جسم الهرم كما ذكرنا) وإزالة مماشي العمال والمنحدر يظهر الهرم على هيئة كتلة ضخمة مثلثة ناصعة البياض تنعكس عليها أشعة الشمس فتنير أرجاء هضبة الجيزة والوادي أسفلها وبذلك يتجسد الاعتقاد المصري بأن الفرعون المسجى داخل الهرم هو ابن إله الشمس كما يدل على ذلك لقبه "سا-رع" .

ولقد كان للهرم الأكبر (ولكل هرم بعد هرم زوسر) معبدان أحدهما : المعبد الجنائزي والذي تؤدى فيه الشعائر لروح الملك بعد دفنه وكان يلاصق الجانب الشرقي للهرم وليس الجانب الشمالى كما هو الحال في معبد زوسر والسبب هو قوة عقيدة الشمس وازدياد سيطرة كهنتها (مع بقاء مدخل الهرم في الجانب الشمالى) والآخر : معبد الوادي (الذي لم يكن موجودًا في مباني زوسر) وكان يشيد بالقرب من شاطىء النيل (الشكل رقم 12), يربط بينهما طريق يطلق العلماء عليه " الطريق الصاعد", (الشكل رقم 12) .

وظل هذا النظام متبعًا أي بناء مقبرة الفرعون على شكل هرمي يلحق به معبدان يربط بينهما طريق صاعد – ظل متبعًا طوال عصري الدولتين : القديمة (في الجيزة وسقارة) والوسطى (في الفيوم) (الخارطة رقم 2) حتى تغير تمامًا في أوائل عصر الدولة الحديثة عندما نبذ الفراعنة الشكل الهرمي وأخذوا يحفرون مقابرهم في جوف الصخر , وبعد الانتهاء من دفن الفرعون صاحب المقبرة كانوا يهيلون التراب على مدخل المقبرة حتى يختفي تمامًا , وكان سبب

هذا التغيير هو تعرض أهرامات ملوك الدولتين القديمة والوسطى للسرقة خلال العصر المتوسط الأول أثناء الثورة الاجتماعية عندما تلاشت سلطة الفرعون وعمت الفوضى، وخلال العصر المتوسط الثاني على يد الهكسوس , فوجد فراعنة الدولة الحديثة أن الشكل الهرمي ببروزه فوق سطح الأرض خير وأوضح مرشد إلى ما بداخله من كنوز وكان أول من اتبع هذا الاتجاه , الفرعون تحتمس الأول الملك الثالث في الأسرة الثامنة عشرة فحفر مقبرته في صخر الجبل في المنطقة المسماة حاليا "وادي الملوك" في منطقة طيبة الغربية (غرب مدينة الأقصرفي صعيد مصر - الخارطة رقم 4) وسار خلفاؤه من ملوك الأسرات الـ 18 و 19 و 20 على هذا النهج . وإمعانا في إخفاء المقبرة وتأمينها تم فصل المعبد الجنائزي عن المقبرة وشيد بعيدًا على هامش الأرض الزراعية (الخارطة رقم 4) كما تم إلغاء معبدي الوادي وهما المعبدان اللذان كانا يلحقان بأهرامات الدولتين القديمة والوسطى كما ذكرنا سابقًا .

ولاشك أن أشهر مقابر الفراعنة في وادي الملوك هي مقبرة "توت عنخ آمون" .. ومن الغريب أنها أصغر هذه المقابر إذ يبلغ مجموع أطوال أجزائها ثلاثين مترًا بينما تتراوح أطوال مقابر الفراعنة الآخرين في وادي الملوك مابين مائة وثلاثمائة متر. وبالطبع ترجع شهرة مقبرة توت عنخ آمون إلى العثور عليها سليمة ووجود الأثاث الجنائزي بداخلها شبه كامل لأن اللصوص لم يصلوا إليها . وسبب ذلك أن الفرعون رمسيس السادس الذي حكم بعد عصر توت عنخ آمون بحوالي مائتي عام , حفر مقبرته فوق مقبرة توت عنخ آمون دون أن يفطن إلى وجودها, فغطت طبقات الركام السميكة التي استخرجت من حفر مقبرة رمسيس السادس مدخل مقبرة توت عنخ آمون ولنفس السبب لم يفطن اللصوص عبر العصور إلى وجود مقبرة توت عنخ آمون حتى كشف عنها الأثري الإنجليزي هوارد كارتر في عام 1922 فأبهرت كنوزها العالم ومازالت تبهره حتى اليوم.

أثر البيئة الطبيعية في الصعيد في نظام المعبد :

كان لاتخاذ مدينة طيبة عاصمة لمصر وخاصة ابتداءً من عصر الأسرة الثامنة عشرة أن تأثر نظام (أو تصميم) المعبد بالمنظر الطبيعي في الصعيد .. وأهم ظواهر هذا التغيير أن المعبد أصبح يخترقه طريق مستقيم واحد من مدخله إلى نهاية يقسم المعبد إلى نصفين متماثلين (الشكل رقم 13) فهو يبدأ بصرح ضخم Pylon (شكل 13 رقم 1) يتكون من برجين شاهقين تنحدر جوانبهما نحو الخارج إلى أسفل تدريجيا , ويبدأ من الصرح بوابة كبيرة يبدأ منها طريق أوسط مستقيم يستمر حتى قدس الأقداس ، وخلف الصرح يوجد فناء مكشوف على جانبيه رواقان تحمل أسقفهما أعمدة ذات تيجان نباتية (2) , ثم قاعة أو قاعتا أعمدة ذات تيجان نباتية أيضا (3 , 4) ثم قدس الأقداس (5) تحيط به غرف المخازن (6)

هذا النظام مستوحى من المنظر الطبيعي في الصعيد، فالطريق الأوسط المستقيم مستوحى من النيل الذي يمتد في الصعيد دون انحناءات (في مجال بصر الواقف في وسط النيل) على عكس الدلتا حيث يتفرع النيل إلى عدة فروع مما انعكس على معابد الدلتا حيث أن الطريق الذي يبدأ من المدخل لايمتد إلى نهاية المعبد بل تحدث به انحناءات والتواءات مثل معبد خفرع الجنائزي (الشكل رقم 12 أ) فلا يوجد طريق أوسط مستمر إلى نهاية المعبد والسبب هو تشتت المنظر الطبيعي نتيجة لتشعب فروع النيل . فالصرح ببرجيه الشاهقين مستوحى من سلاسل الجبال التي تمتد على جانبي الوادي وميل جوانب برجي الصرح يماثل ميل جوانب الجبال , ثم الفناء المكشوف إنما يكرر منظر الحقول المكشوفة على جانبي الشاطئين,والرواقان ذوا الأعمدة ذات التيجان النباتية التي تحد الفناء المكشوف من الجانبين إنما يكرران أشجار النخيل التي تحد الحقول على جانبي الوادي

, وقاعات الأعمدة ذات التيجان النباتية إنما تكرر البساتين والحدائق التي تتبادل مع الحقول أو تتخللها والتي تتميز عن الحقول بتقارب أشجارها تماما كما تتقارب الأعمدة النباتية في قاعة الأعمدة .. وأخيرًا قدس الأقداس في نهاية المعبد حيث يوجد تمثال الإله الخالق للكون في نظر المصريين الذي يرمز إلى الإله خالق النيل الذي كان يعتقد المصريون أنه يقبع عند الجندل الأول . وهكذا كان المعبد في الصعيد وفي طيبة بوجه خاص في أذهان المصريين القدماء صورة مصغرة من الكون المصري , وقد أكد المعماري المصري هذه الفكرة بجعل أرضية المعبد تصعد تدريجيا من المدخل إلى قدس الأقداس فهو بذلك يكرر صعود أرضية الوجه القبلي أو الصعيد من الشمال إلى الجنوب. ولاشك أن إطلاق المصريين اسم الصعيد في الوقت الحاضر على الوجه القبلي إنما هو من وحي هذه الظاهرة الطبيعية التي فطن إليها المعمارى المصري القديم فجسدها في معبد الصعيد . وتمشيًا مع تجسيد الكون المصري في معبد الصعيد, لوّن المصريون سقف المعبد باللون الأزرق الذي يحاكي لون السماء ورسموا عليها أشكال النجوم.

هذا النظام الذي ميز المعبد المصري في الصعيد اتبع في إنشاء المعابد الجنائزية التي من أمثلتها في طيبة التي مازالت في حالة جيدة نسبيًا, معبد الرمسيوم وهو المعبد الجنائزي للملك رمسيس الثاني ومعبد مدينة هابو للملك رمسيس الثالث , كما اتبع في إنشاء المعابد الإلهية التي من أهمها في طيبة أيضا معبد (وبتعبير أدق : معابد) الكرنك حيث يوجد معبد آمون رع الكبير ومعبد الأقصر لآمون رع أيضا ومعبد الإله خنسو ومعبد الإلهة موت وغيرها (الخارطة رقم 3).

وبالرغم من تشابه نظام المعابد الجنائزية والمعابد الإلهية في طيبة إلا أن المعابد الإلهية تتميز عن المعابد الجنائزية بوجود المسلات أمام صروحها (الشكل رقم 14) . وترمز المسلة إلى إله الشمس بقمتها المدببة التي تجسد أشعة الشمس , وكانت المسلات تقطع من محجر الجرانيت الوردي في أسوان وتنقل في النيل إلى طيبة في الشمال (أو إلى عين شمس في حالة مسلة الملك سنوسرت الأول ومسلات تحتمس الثالث التي نقلت في العصور التالية إلى أوربا ثم أخيرًا إلى أمريكا) حيث تقام أمام المعبد. وكان الفراعنة يقيمونها في مناسبة احتفالهم بتجديد حكمهم فيما يسمى بالعيد الثلاثيني كما ذكرنا سابقا. وقد أثارت طريقة إقامة المسلات أمام المعابد حيرة الباحثين بسبب ارتفاعها الشاهق الذي قد يصل إلى ثلاثين مترًا مثل مسلة حتشبسوت في معبد آمون رع بالكرنك بالنسبة لطول ضلع قاعدتها الذي لايزيد على مترين ونصف ولعدم وجود أساس لها في عمق الأرض , فهي تنتصب على قاعدتها بسبب وجود مركز الثقل في نطاق جسمها فحسب . ولما لم يسجل المصريون طريقة إقامتها , فقد أخذ الباحثون يفترضون النظريات في هذا الصدد , وأكثر هذه النظريات منطقية وقبولا هي نظرية المهندس المعماري الإنجليزي Rex Engelbach وقد أطلق عليها The Funnel Theory أي "نظرية القمع "لأنه افترض أن المصريين كانوا يشيدون أمام صرح المعبد الذي ستقام أمامه المسلة جدارين من اللبن بينهما فراغ متسع من أعلاه وضيق من أسفله فيما يشبه القمع حيث يضعون على الأرض القاعدة التي ستستقر عليها المسلة (الشكل رقم 15) .

ويمكن تتبع خطوات إقامة المسلات طبقًا لهذه النظرية كما يلي: بعد تمهيد الأرض أمام صرح المعبد الذي ستقام أمامه المسلة، تثبت القاعدة الجرانيتية (الشكل رقم 15- أ) التي ستقام عليها المسلة، ثم يبنى حولها جداران من الطوب اللبن بحيث يصل ارتفاع هذه الجدران إلى قرب ارتفاع صرح المعبد، وأحد هذه الجدران يبنى على شكل منحدر طويل أو طريق صاعد (الشكل رقم 15- أ) لكي تسحب عليه المسلة. وكانت الجدران السفلى للقمع تدعم بجدران من الحجر . وأثناء بناء جدار المنحدر تعمل فتحة في أسفله

تكون بمثابة نفق بحيث يمكن وصول العمال عن طريقه إلى قاع القمع فوق قاعدة المسلة مباشرة. بعد ذلك يملأ القمع بالرمال الناعمة حتى قمته، ثم تسحب المسلة على زحافتها فوق المنحدر ومؤخرتها متجهة إلى الأمام، حتى تستقر فوق الرمل (الشكل رقم 15 ب) وعندئذ يبدأ العمال في سحب الرمال من القمع عن طريق النفق , فتأخذ المسلة في الهبوط التدريجي نتيجة هبوط مستوى الرمل . وكان العمال أثناء هذه المرحلة من العمل يهبطون من آن لآخر في القمع ليحفروا هنا وهناك لتصحيح أي خطأ في اتجاه المسلة. وضماناً لذلك، كانوا يركزون بعض العروق الخشبية بين جدار اللبن وجدار المنحدر (الشكل رقم 15 ج) على جانبي المسلة لحصر حركة هبوطها في اتجاة واحد. وتستمر هاتان العمليتان حتى تستقر المسلة في النهاية في وضع مائل فوق قاعدتها (الشكل رقم 15 ج). وقد حفرت في هذه القاعدة قناة صغيرة لكي ترتكز فيها حافة مؤخرة المسلة. فلا تنحرف عن القاعدة، ولا تتكسر نتيجة إرتطامها بسطح الأرض.

عند ذلك ينزل العمال إلى قاع القمع، لتنظيف قاعدة المسلة من بقايا الرمال وغيرها ولوضع بعض النباتات الجافة اللينة (مثل نبات الحلفا)، حول المسلة وخاصة بينها وبين جدار اللبن ، حتى تكون بمثابة وسادة تحمي المسلة من الارتجاج أو الانحراف عن قاعدتها عندما يقوم العمال بشدها بالحبال من فوق هذا الجدار لكي تتخذ الوضع الرأسي (الشكل رقم 15 د).

المعابد الصخرية :

وقد امتد إنشاء الفراعنة للمعابد الإلهية إلى النوبة واتبعوا طريقة تتناسب مع المناطق التي يضيق فيها شاطىء النيل فلا تتسع الأرض لبناء المعبد , فنحتوا المعابد في صخر الجبل المطل على النيل ومن أشهر هذه المعابد الصخرية معبدا أبى سمبل الكبير والصغير اللذان يقعان إلى الجنوب من أسوان بحوالي مائتين وستين كيلومترا وقد أنشأهما الفرعون رمسيس الثاني , ويتميز المعبد الكبير بتماثيله الأربعة الشاهقة الرائعة المنحوتة في واجهته والتي يبلغ ارتفاعها عشرين مترًا . ولا يختلف نظام هذا المعبد عن النظام المتبع في المعابد المبنية في طيبة إلا في عدم وجود الفناء المكشوف بطبيعة الحال . وقد ذاعت شهرة المعبد بسبب الظاهرة الفلكية التي تحدث به مرتين كل سنة هي دخول الشمس وقت شروقها إلى غرفة قدس الأقداس إحداهما في أواخر شهر فبراير والأخرى في أواخر شهر أكتوبر, (ويفسر البعض هذا التوقيت بأن إحداهما بمناسبة ميلاد رمسيس الثاني والأخرى بمناسبة اعتلائه العرش وإن كان لا يوجد نص يفيد ذلك ولكن لا بأس إذ لا يوجد تفسير آخر) وخلال هذه الظاهرة تسقط أشعة الشمس على التماثيل الأربعة فيه على التوالي , فتنير كل تمثال لمدة خمس دقائق (الشكل رقم 16), وهذه التماثيل تبدأ من يمين المشاهد (الناحية الشمالية) بتمثال الإله رع حورس إله الشمس وإله مدينة هليوبوليس (عين شمس) أقدم عواصم مصر (في عصر ماقبل الأسرات) يليه تمثال الفرعون رمسيس الثاني , يليه تمثال الإله آمون إله مدينة طيبة عاصمة الإمبراطورية المصرية والتمثال الأخير للإله بتاح إله مدينة منف العاصمة الأولى لمصر الموحدة وهكذا تلخص هذه التماثيل الثلاثة تتابع عواصم مصر منذ أقدم العصور حتى عصر رمسيس الثاني.

أثر الأوضاع الاجتماعية والبيئة الطبيعية في مصر في فنون النحت والنقش :

تتميز فنون النحت والنقش في مصر الفرعونية بترابطها وتكاملها، إذ كانت كلها تخدم غرضاً واحداً، وقد سارت مع بعضها جنباً إلى جنب طوال العصور. ولذلك كان لابد من دراستها سوياً وعدم فصلها عن بعضها، كما يحدث في الفنون المعاصرة في الوقت الحاضر، وعندما تدرس كل من هذه الفنون على حدة.

ويُلاحظ أن الإنتاج الفني المصري في النحت والنقش تميز بأنه أغزر أنواع الإنتاج الفني التصويري الذي تركه أي شعب من الشعوب القديمة كلها. ويرجع السبب في ذلك - كما رأينا - إلى القيم الحضارية والعقائد الدينية التي آمن بها المصريون القدماء وفي مقدمتها عقيدة البعث والخلود. ويرجع أيضاً - كما مر بنا- إلى أن أغلب هذا الإنتاج شكل في مواد صلبة كالأحجار ولاسيما الأحجار الصلدة، بالنسبة لفن صناعة التماثيل.

لقد لاحظنا في حديثنا عن نشأة وتطور العمارة المصرية، أنها قد تأثرت في المقام الأول بالبيئة الطبيعية، ثم بالعقيدة الدينية وبغيرها من الظواهر الاجتماعية، وسوف نلاحظ أن فنون النحت والنقش قد تأثرت في المقام الأول بالأوضاع الاجتماعية مع خضوعها لعوامل البيئة الطبيعية.

وسوف نرى أن هذه العوامل ظهرت في الفن المصري منذ بداية العصر التاريخي، وحددت قواعده وأصوله التي لازمته طوال ذلك العصر أي على امتداد التاريخ الفرعوني كله، دون تغيير جوهري تقريباً.

نشأة التقاليد والقواعد الفنية في فن النقش :

إن الذي نلاحظه على الأشكال في الرسوم المصرية، وخاصة الأشكال الآدمية، أنها احتفظت خلال عصور التاريخ الفرعوني بمظهر واحد تقريباً، وظلت ترسم بنفس القواعد منذ بداية هذه العصور حتى نهايتها ولا شك أن هذه الظاهرة هي دائماً مدعاة للتساؤل، عن سبب اتخاذ الأشكال المصرية هذا المظهر ومحافظتها على هذه القواعد.

وللإجابة على هذا التساؤل، علينا الرجوع إلى بداية التاريخ الفرعوني لمعرفة الظروف التي أدت إلى نشأة القواعد والتقاليد الفنية المصرية؛ فأقدم نموذج ظهرت فيه هذه القواعد والتقاليد هي لوحة "نعرمر (الشكل رقم 17) .

وتتلخص فيما يلي :

1- تقسيم المنظر إلى صفوف تفصل بينها خطوط أفقية .. ويبدو أن الباعث على ذلك هو المنظر الطبيعي السائد في البيئة المصرية، حيث تقسم الأرض بواسطة القنوات والخطوط المستقيمة الفاصلة بين الأحواض والحقول إلى صفوف في المجتمع أي الذي يقوم على الري الصناعي الذي يتدخل فيه الإنسان فيقيم الجسور ويشق القنوات .

2- تدرج أحجام الأشخاص طبقاً لمراكزهم الاجتماعية أو وظائفهم، فأكبر هذه الأحجام حجم الملك يليه حجم تابعه (أو وزيره) الواقف أمامه , يليه حجم حامل النعال الواقف خلفه, يليه أحجام حملة الأعلام .. ويرجح أن نظام الملكية المؤلهة، الذي يبدو أنه اكتمل قبيل الأسرة الأولى، قد كان له دور كبير في تكبير حجم الملك. وقد اقتضى اتباع هذا الأسلوب في رسم صورة الملك اتباعه أيضاً في رسم صور موظفيه وأعوانه، تمشيًا مع نظام التدرج الاجتماعي أو الوظيفي.

3- التقيد بقواعد معينة في رسم الأشخاص الرئيسين وعدم التقيد بها أو ببعضها بالنسبة للأشخاص الثانويين .

4- جمع الفنان في هذه القواعد بين أكثر من زاوية واحدة في تصوير الجسم الإنساني للأشخاص الرئيسين، فقد رسم الرأس والوجه من الجانب، بينما رسم العين من أمام. ورسم الصدر والكتفين من أمام بينما صور الوسط من ثلاثة أرباعه، وبذلك مهد لتصوير الجذع الأسفل والرجلين والقدمين من الجانب. وبهذه الطريقة جمع الرسام المصري بين التصوير الأمامي والتصوير الجانبي في وقت واحد، فكأنه "ركّب" أجزاء الجسم مع بعضها بطريقة يمكن أن نسميها "الأسلوب التركيبي" Synthetic . ويتضح من هذا الأسلوب أن الرسام أغفل البعد الثالث أو الرسم بالمنظور Perspective.

5- الارتباط بين الرسوم وبين الكتابة الهيروغليفية، فقد كتب اسم الملك نعرمر أمامه وكتب اسم تابعه (وزيره) أعلاه ويقرأ اسمه " ث ت " , ويلاحظ أن كتابة هذه الأسماء اقتصرت على الأشكال الرئيسة .. بينما لم تكتب أسماء الأشخاص الثانويين بل كتبت كلمات أخرى تصف المنظر مثل رسم القارب وشكل الصقر وشكل الباب في أقصى يمين اللوحة في أعلاها وهو اسم المنطقة التي دارت فيها المعركة واسم الإله الذي كان يعبد فيها وهي منطقة شمال غرب الدلتا، وكان معبودها الإله حور الذي كان يرمز إليه بشكل صقر . أما الباب فيرمز إلى المعبد الذي كان يجري فيه هذا الاحتفال بالنصر في الحرب التي دارت في هذه المنطقة والتي يرمز إلى هذا النصر, الأشكال الآدمية العشرة التي قطعت رؤوسها ووضعت بين أقدامها .

6- اتجاه نظر الأشخاص في الرسوم وجهة مستقيمة أو أمامية حتى ولو وجدت وحدة من أي نوع بين شخصين أو أكثر، وهذه القاعدة تعرف في تاريخ الفن بقاعدة "النظرة المُستقيمة" أو "قاعدة الأمامية" Law of Frontality.

7- إغفال البعد الثالث أو عمق الصورة في الرسوم وإظهار الأشكال ذات بعدين فقط (Two-dimensional) أي إغفال قاعدة المنظور لأن الفنان المصري كان يرسم الأشكال من المخيلة أي كما يتخيلها في ذهنه وليس من الصورة المرئية أي كما يراها أمامه طبقًا لقاعدة المنظور.

وقد ثبتت هذه القواعد والتقاليد وأصبحت من خصائص فن النقش المصري في العصور التالية حتى نهاية التاريخ الفرعوني.

ولكن بالنسبة لإغفال قواعد المنظور، فقد وصلنا من العصور التالية أمثلة تدل على أن الفنان المصري كان على دراية بقواعد المنظور(الشكل رقم 18) ومن ذلك رسم نحلة ظهر فيها تمثيل العمق في رسم جناحي النحلة بإخفاء الجناح البعيد خلف الجناح القريب (الشكل رقم 18 أ) وقد ورد هذا الرسم على آثار الملكة حتب حرس والدة الملك خوفو. وظهر تمثيل العمق أيضًا في رسم عجلتي سلم حصار وقد اختفي جزء من العجلة البعيدة خلف العجلة القريبة (الشكل رقم 18ب) وورد هذا الرسم في مقبرة "كا ام حست " في سقارة من عصر الأسرة الخامسة أو السادسة , وأخيرًا رسمت ثلاثة صفوف من النساء يخفي بعضهن بعضا ولم ترسم كل منهن على حدة وقائمة بذاتها كما هو الشأن في الأشكال الآدمية في الرسوم المصرية عادة , كذلك ظهرت أشكال النساء البعيدة أعلى في مستواها من القريبة (الشكل رقم 18 ج).

هذه الأمثلة كلها تدل على أن الفنان المصري لم يكن يجهل بعض قواعد المنظور وطريقة رسم الصور المرئية، ولكن قلة هذه الأمثلة بالمقارنة بما وصلنا من الآثار المصرية، تدل على أنه خضع لقوانين صارمة كانت تغل يده عن التمادي في التصوير بطريقة تخالف الطريقة التي حددتها التقاليد .

وقد تكون هذه القوانين الصارمة قد فرضت على الفنان نتيجة لسيطرة الكهنوت، نظراً لأن الصور المصرية التي وصلتنا كلها تقريباً صور دينية تخدم أغراض العبادة أو الأغراض الجنائزية. ويتصل بهذه النقطة الأخيرة، الارتباط الشديد بين هذه الطريقة في الرسم وبين عقيدة البعث والخلود.. عندما سيطرت هذه العقيدة على التفكير المصري في العصر التاريخي، ووجد المصريون أن هذه الطريقة في رسم الجسم الإنساني تحقق الوضوح الكامل لكل جزء من أجزاء الجسم على حدة وعدم اختفاء أي جزء وراء جزء آخر بما يضمن تعرف الروح إليها أو عودتها إلى الحياة كاملة غير منقوصة، عندما تدب الحياة فيها بقوة السحر.

نشأة تقاليد وقواعد فن النحت (تشكيل التماثيل) :

تميزت تماثيل الأشخاص المصرية القديمة بإظهارها في هيئة الشباب وخالية من العيوب الجسدية ، وتحررت تماثيل الأتباع والخدم من القيود. والسبب في ذلك أن الغرض من التماثيل في مصر لم يكن تمثيل جمال الجسم الإنساني كما كان الشأن عند الإغريق، ولكن كان لها غرض ديني وظيفي هو إرشاد الروح إلى مكان الجثة في المقبرة. ولما كانت الروح في عقيدة المصري تستطيع اختراق الجدران، فقد كانت التماثيل توضع في أماكن مغلقة مثل السرداب (غرفة في أعلى بئر الدفن) أو في غرفة الدفن نفسها (في مقابر الأشخاص). ومن أقدم السراديب الملكية التي تمثل هذه الفكرة بوضوح، السرداب الواقع شمال الهرم المدرج بسقارة الذي يحوي تمثال زوسر (كما ذكرنا سابقا) . ، وكان جزءًا من معبده الجنائزي(الشكل رقم 6)، وقد وجه التمثال نحو الشمال لاعتقاد المصريين – كما قلنا فيما سبق- أن أرواح الموتى تتحد بالنجوم الشمالية.

ولم يلبث المصريون أن رغبوا في أن ينعم الميت بصحبة زوجته، فأقاموا تمثالها إلى جانب تمثاله. ولم يلبثوا كذلك أن أضافوا إليهما تماثيل الأبناء وخاصة الأطفال منهم، ثم تماثيل للخدم تمثلهم يؤدون أعمالاً مختلفة أهمها تهيئة الطعام والشراب. وقد أكثر المصريون من التماثيل في مقابرهم لكي تمثلهم في أوضاع مختلفة، واقفين أو جالسين على مقعد، أو جالسين على الأرض وبين أيديهم قراطيس البردي. كما أكثروا من التماثيل التي تمثلهم في هيئات وملابس مختلفة. وغرض المصريين من ذاك أن يمثلوا المتوفى في مختلف الأوضاع التي كان يظهر بها في الحياة الدنيا، ويساعدوا الروح على التعرف إلى صاحبها. ولم يقصد المصريون أن تكون هذه التماثيل بديلاً عن أجسام أصحابها إذا دب إليها الفناء كما ذهب بعض الباحثين، فلو أن المصريين كانوا يعتقدون أن التماثيل يمكن أن تكون بديلاً عن الجسد، لما بذلوا المجهودات الكبيرة في تحنيط الجسد للمحافظة عليه ثم في بناء المقابر الضخمة المليئة بالممرات الطويلة والآبار المحكمة لحماية الجسد.

ولقد كان لهذه الوظيفة الدينية والجنائزية للتماثيل من ناحية، وضرورة مراعاتها الوقار والهيبة من ناحية أخرى، أثر كبير في أوضاع هذه التماثيل وفي القواعد التي حددت هذه الأوضاع. وقد ظهرت هذه القواعد منذ العصر الثيني وتبلورت بوضوح في تمثال الملك "خع-سخم" أحد ملوك الأسرة الثانية (الشكل رقم 19) وهو أقدم تمثال ملكي تظهر فيه القواعد التي حددت أوضاع التماثيل المصرية. وهذه القواعد تشبه القواعد التي حددت طريقة رسم الجسم الإنساني في فن النقش أي قاعدة الأمامية أو المواجهة Law of Frontality وقاعدة الاتجاهات المُستقيمة أو النظرة المُستقيمة. وتعتمد قاعدة الأمامية على التماثل التام بين النصفين الطوليين للتمثال. وقد استقرت هذه الأوضاع دون تغيير كبير حتى نهاية التاريخ والحضارة الفرعونية

اللغة المصرية القديمة وكتاباتها :

تنتمي اللغة المصرية القديمة إلى أصول حامية ويتضح ذلك في بعض المفردات التي تتشابه مع مفردات اللغات الحامية في لغات قبائل شرق إفريقيا والبربر في شمال إفريقيا كما تأثرت إلى حد كبير باللغات السامية نتيجة الهجرات من الجزيرة العربية في العصور السابقة لبزوغ الحضارة المصرية القديمة (نتيجة موجات الجفاف المتتابعة في الجزيرة العربية) وقد كتب المصريون لغتهم بعدة كتابات على مر العصور أقدمها الكتابة الهيروغليفية ثم الهيراطيقية ثم الديموطيقية وأخيرًا القبطية في العصر المسيحي . وكلمة "الهيروغليفية" يونانية الأصل معناها " الخط المقدس " وقد أطلقها عليها الكتاب الكلاسيكيون , ثم الكتابة الهيراطيقية ومعنى الاسم " كتابة الكهنة " وعلاماتها (ولانقول "حروفها" لأن الكتابات المصرية كلها فيما عدا القبطية تحتوي على علامات مقطعية بالاضافة إلى الحروف الأبجدية) اختصارا للعلامات الهيروغليفية .. وقد ظهرت

الكتابة الهيراطيقية منذ عصر الدولة الوسطى وإن كانت بعض علاماتها قد ظهرت منذ أواخر الدولة القديمة . وفي أوائل القرن السابع قبل الميلاد ظهرت الكتابة الديموطيقية أو الشعبية وعلاماتها مختصرة من علامات الكتابة الهيراطيقية (الشكل رقم 20). وإذا كان لايصح أن نقول "اللغة الهيروغليفية " و "اللغة الهيراطيقية" لأن كليهما كتابة فقط للغة المصرية القديمة , تماما كما لايصح أن نقول "اللغة النسخ " أو اللغة الرقعة" لأن كليهما كتابة فقط للغة العربية - إذا كان لايصح أن نقول ذلك بالنسبة للهيروغليفية والهيراطيقية , ولكن يصح أن نقول " اللغة الديموطيقية " بالاضافة إلى قولنا " الكتابة الديموطيقية" لأن اللغة المصرية القديمة التي كتبت بالكتابتين الهيروغليفية والهيراطيقية والتي يمكن أن نسميها " اللغة الفصحى" , دخلت عليها في أواخر العصر الفرعوني كثير من الكلمات والتعبيرات الشعبية؛ فهي بذلك أصبحت لغة شبه جديدة , بالاضافة إلى قولنا الكتابة الديموطيقية , كذلك يمكن أن نقول " اللغة القبطية؛ " لأنه في العصر المسيحي دخلت على اللغة المصرية القديمة تعبيرات وكلمات مسيحية كنسية الكثير منها كلمات يونانية فأصبحت لغة جديدة كتبت بحروف جديدة هي الحروف اليونانية .

وإذا كانت المعلومات التي قدمناها فيما سبق عن التاريخ المصري والحضارة المصرية القديمة , قد توصل إليها علماء الآثار المصرية نتيجة قراءة هذه اللغات والكتابات وفي مقدمتها الكتابة الهيروغليفية التي كانت بمثابة الكتابة الرسمية فمن الواجب أن نتناول طريقة حل رموز اللغة المصرية القديمة وقراءة الكتابة الهيروغليفية بالاستعانة بحجر رشيد .

جهود العلماء في قراءة الكتابة الهيروغليفية على حجر رشيد :

من المعروف أن هذا الحجر عثر عليه أحد ضباط الحملة الفرنسية في عام 1799م بمدينة رشيد في شمال غرب مصر وقد تبين فيمابعد أن الكهنة المصريين المجتمعين في مدينة منف سجلوا عليه مرسوما في تمجيد الملك البطلمي " بطليموس الخامس " في عام 196 قبل الميلاد . والمرسوم مكتوب بلغتين هما اللغة المصرية القديمة واللغة اليونانية وبثلاث كتابات هي الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية . والذي أثار الاهتمام الكبير بهذا الحجر أن النص اليونانى ينتهي بالعبارة التالية " دون هذا المرسوم على لوحة بالحروف المقدسة (الهيروغليفية) والحروف الوطنية (الديموطيقية) وبخط الأيونيين (الخط اليونانى) ". وهذا معناه أنه يمكن استخدام اللغة اليونانية (المعروفة جيدًا لدى علماء اللغات القديمة) في ترجمة النصين الهيروغليفي والديموطيقى.

وقد بذل العلماء قبل شمبليون جهودا في محاولة قراءة نصوص الحجر ومن أبرزهم جهود العالم الإنجليزي "توماس يونج" الذي توصل سنة 1814 إلى قراءة الاسم " ب ت و ل م ى س " في النص الهيروغليفي (الشكل رقم 21 أ 1-7) ولم يتمكن يونج من التوصل إلى نتيجة أبعد من ذلك؛ لأن اسم بطليموس الذي قرأه يونج كان مكتوبا بالحروف الأبجدية الهيروغليفية فقط بينما بقية نص الحجر مكتوبة بثلاثة أنواع من العلامات الهيروغليفية هي العلامات المقطعية والمخصصات بالاضافة إلى الحروف الأبجدية ولم يدرك يونج هذه الحقيقة , وكان الكهنة المصريون يكتبون الأسماء الأجنبية كأسماء ملوك البطالمة وأباطرة الرومان بالحروف الأبجدية الهيروغليفية فقط (الشكل رقم 22) . ثم تمكن رحالة انجليزى يدعى "و.ج. بانكس " من قراءة اسم كليوباترا (المكتوب أيضا بالحروف الأبجدية الهيروغليفية) على مسلة في أسوان عام 1819م . كل هذه النتائج وصلت إلى شامبليون قبل أن يتوصل إلى إنجازاته في حل رموز اللغة المصرية القديمة وقراءة الكتابة الهيروغليفية فاستفاد منها ولكنه بعبقريته أدرك أن العلامات على حجر رشيد ليست كلها أبجدية فقط وعلى هذا

الأساس بدأ جهوده وتركز على قراءة أسماء الفراعنة التي فشل من سبقوه في قراءتها؛ لأنها تحتوي على ثلاثة أنواع من العلامات,حروف أبجدية وعلامات مقطعية وعلامات تحديد المعنى .

وقد استعان شامبليون في ذلك بثلاث وسائل هي:

1- مقارنة أماكن الكلمات الواردة في النص الهيروغليفي على حجر رشيد بما يقابلها في النص اليوناني على نفس الحجر لاستخراج معاني الكلمات الهيروغليفية باللغة اليونانية .

2- البحث عن معنى الكلمة اليونانية في اللغة القبطية والتعرف علي نطقها في هذه اللغة (على اعتبار أن اللغة القبطية هي آخر مراحل اللغة المصرية القديمة كما ذكرنا سابقًا).

3- البحث عن اسم الفرعون الذي توصل إليه بين الأسماء الواردة في تاريخ الكاهن المصري مانيتون (الذي كتب تاريخ مصر باللغة اليونانية ومن ثم كتب أسماء الفراعنة بالصيغة اليونانية) .. وعلى هذا الأساس ، ولما كان اسم رمسيس من أشهر الأسماء وأكثرها ترديدا ولو أنه لم يرد على حجر رشيد,ولكن شامبليون بدأ به وسار على الخطوات التالية (الشكل رقم 21) :

لاحظ شامبليون أن اسم رمسيس يبدأ بعلامة على شكل دائرة داخلها نقطة (الشكل رقم 21 ب - 8) وقد شاهد هذه الدائرة في النص الهيروغليفي على حجر رشيد وأنها تتكرر كثيرًا فأخذ يقارن بين أماكن ورودها في كل من النص الهيروغليفي والنص اليوناني فوجد أن الكلمة التي تقابلها في النص اليوناني هي Helios (الشكل رقم 21 ج - 9) بمعنى " شمس " .

رجع شامبليون إلى اللغة القبطية فوجد أن اسم الشمس في هذه اللغة هو Re (الشكل رقم 21 د - 10), ثم وجد إلى جانب هذه العلامة على حجر رشيد علامة على شكل ثلاثة خيوط متدلية(في السطر العاشر) وأنها نفس العلامة الثانية في اسم الملك رمسيس .

وعندما رجع إلى النص اليوناني وجد أن معنى هذه العلامة هو Genethlia بمعنى "يوم ميلاد" (الشكل رقم 21 ج-12) وعندما رجع إلى اللغة القبطية وجد أن الكلمة التي تعنى ميلاد هي Mici (الشكل رقم 21 د- 13) .

بذلك تكونت لدى شمبليون عبارة مكونة من كلمتين في اللغة القبطية هما Re-Mici , فقفز إلى ذهنه اسم الملك رمسيس الذي ورد في كتاب الكاهن المؤرخ مانيتون بالصيغة Ramses (الشكل رقم 21 هـ -15) كما ورد نفس الاسم في التوراة في سفر الخروج بالصيغة " رعمسيس " كاسم لاحدى المدينتين اللتين سخر فرعون بنى إسرائيل في بنائهما (والسبب في إسقاط حرف العين من اسم الشمس في اللغة القبطية أن الكهنة المصريين كتبوا اللغة المصرية القديمة في أواخر العصر البطلمي بالحروف اليونانية التي لايوجد بها حرف العين) .

بذلك قرأ شامبليون اسم رمسيس قريبًا من اسمه المكتوب بالهيروغليفية وهو "رع – مسو" وهكذا سار شامبليون على نفس النهج في قراءة وترجمة بقية النص على حجر رشيد .

تابع شمبليون قراءة النصوص الهيروغليفية على الآثار الأخرى وتوصل إلى أن الكتابة الهيروغليفية تحتوي على ثلاثة أنواع من العلامات هي: (أ) علامات صوتية وحيدة الصوت وهي الحروف الأبجدية وثنائية الصوت مثل علامة "رع" وثلاثية الصوت "مثل علامة "عنخ" (ب) علامات رمزية أي تدل على كلمة بأكملها (ج) علامات تحدد معاني الكلمات وتسمى أيضا "المخصصات" Determinativesوتأتي في آخر الكلمات لتحديد أو تخصيص معناها مثل العلامة التي على شكل رجل ترسم في آخر اسم رجل .

وقد نشر شمبليون في عام 1824م النتائج التي توصل إليها في كتاب بعنوان :

Précis du systéme hiéroglyphique des anciens Egyptiens

كما نشر قاموسًا صغيرًا بعنوان:

Dictionnaire égyptien en écriture hiéroglyphique

وبعد شامبليون سار العلماء في خطوات واسعة في قراءة الكتابات المصرية القديمة وكشفت الحضارة المصرية القديمة عن نقابها الذي أبهر ومازال يبهر العالم حتى اليوم .

تراث حضارة مصر الفرعونية في الحضارة الإنسانية :

بالرغم من زوال الحضارة المصرية القديمة منذ زمن بعيد فمازال تراثها باقيًا إلى اليوم في الحضارة الإنسانية وذلك في مظهرين حضاريين هما: التقويم الميلادى(الجريجورى) والأبجدية .فالأصل البعيد للتقويم الميلادى هو التقويم الشمسي المصري القديم الذي ابتكره المصري القديم لمعرفة مواعيد وصول مياه الفيضان كما ذكرنا سابقا .. ذلك أن المصري القديم لاحظ أن بداية وصول مياه الفيضان إلى خط عرض مدينة الشمس (عين شمس الحالية التي كانت أقدم العواصم المصرية وكانت مقر عبادة إله الشمس أقدم الآلهة المصرية) يتزامن مع الشروق الاحتراقي لنجم الشعرى اليمانية (ومصطلح الشروق الاحتراقي يطلق على ظهور النجم في الأفق الشرقي ثم اختفائه بمجرد شروق الشمس) فاتخذ من هذه الظاهرة بداية للسنة واعتبر المدة المنقضية بين شروقين احتراقيين لهذا النجم وعدد أيامها 365 يومًا هي سنته الزراعية وقسمها إلى ثلاثة فصول مدة كل فصل أربعة شهور أي أن طول السنة 12 شهرًا طول كل شهر 30 يوما وأول هذه الفصول هو فصل الفيضان , كان المصريون يسمونه " أخت " بمعنى " الغمر " أي غمر المياه للأرض الزراعية , يليه فصل الشتاء الذي يسمونه " برت " بمعنى "الخروج" أي خروج النبت من التربة ثم فصل الصيف وكانوا يسمونه " شم – مو " أي ذهاب الماء؛ لأنه كان فصل التحاريق (وهذه التسمية الأخيرة , التحاريق , كانت تطلق في مصر على مياه النيل عندما كانت تصل إلى أدنى مستوى , ولم تعد تستخدم الآن بعد بناء السد العالي) . وقد قسم المصريون كل فصل إلى أربعة شهور أطلقوا عليها في البداية أرقاما تتبع اسم الفصل فمثلا : كان الشهر الأول من فصل الفيضان يسمى "أخت واحد " وهكذا , وفي أواخر عصر الدولة الحديثة أطلق المصريون على الشهور أسماء بدلا من الأرقام وهي الأسماء التي تحورت إلى الأسماء الحالية في اللغة القبطية والتي تبدأ بشهر " توت " وتنتهي بشهر "مسرى " . ولما كان عدد أيام السنة يصل بذلك إلى 360 يوما , فقد أضاف المصريون منذ اختراعهم لهذا التقويم الشمسيخمسة أيام إلى آخر السنة (وهي أيام النسيء في السنة القبطية الحالية التي هي امتداد للسنة المصرية القديمة) ثم أضاف الكهنة المصريون في مدينة كانوب (أبوقير الحالية) في عام 238 ق .م , ربع اليوم المتبقي . . وعندما جاء يوليوس قيصر إلى مصر أخذ هذا التقويم الشمسي المصري وأحله محل التقويم القمري الروماني. وقد غير الرومان أسماء الشهور المصرية إلى الأسماء الرومانية التي تبدأ بشهر " يناير" وتنتهي بشهر ديسمبر . ومن الرومان انتقل التقويم إلى سائر أنحاء العالم من خلال سيطرة امبراطوريتهم على العالم المعروف في ذلك الوقت.

د.عبدالمنعم عبدالحليم سيد

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية

- امرى , وولتر 1970

مصر وبلاد النوبة (ترجمة تحفة حندوسة ومراجعة عبد المنعم أبو بكر , الهيئة المصرية للتأليف والترجمة والنشر, القاهرة).

- بترى , م. فلندرز 1975

الحياة الاجتماعية في مصر القديمة (ترجمة عبد المنعم عبد الحليم سيد وحسن محمد جوهر , الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة) .

- بكر، محمد إبراهيم 1987

تاريخ السودان القديم (الطبعة الثانية, دار المعارف, القاهرة).

- حسن، سليم 1955

مصر القديمة (الجزء العاشر , تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد بعنخى , مطبعة جامعة القاهرة, القاهرة).

- حسن، سليم 1957

مصر القديمة (الجزء الثاني عشر, "عصر النهضة المصرية, ولمحة في تاريخ الإغريق , مطبعة جامعة القاهرة, القاهرة).

- حسن، سليم 1958

مصر القديمة (الجزء الثالث عشر, من العهد الفارسي إلى دخول الإسكندر الأكبر مصر وبه لمحات في تاريخ السودان وفارس وقصة نشأة قناة السويس قديما , مطابع دار الكتاب العربي بمصر , القاهرة).

- حسن، سليم 1959

مصر القديمة , الجزء الخامس عشر , من أواخر عهد بطليموس الثاني إلى آخر عهد بطليموس الرابع, مطبعة كوستاتسوماس, القاهرة).

- صالح، عبد العزيز 1962

حضارة مصر القديمة وآثارها (الجزء الأول, الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية, ا القاهرة).

- سيد، عبد المنعم عبد الحليم 1998

"المسلات في مصر الفرعونية, بحث في نشأة فكرة المسلة وفي طرق قطع ونقل وإقامة المسلات أمام المعابد" (مجلة المؤرخ العربي, العدد السادس, المجلد الأول، ص 9-60).

- سيد، عبد المنعم عبد الحليم 2000

حجر رشيد, قصة الكشف عنه ومراحل نقله وعرض لمحاولات حل رموزه ودراسة تحليلية مقارنة لنصوصه" (مجلة المؤرخ العربي, العدد الثامن, المجلد الأول, ص 41-130).

- سيد، عبد المنعم عبد الحليم 2001

حضارة مصر الفرعونية، دراسة تحليلية مقارنة، الجزء الأول, نشأة وتطور نظام الحكم والعقائد والفن (دار المعرفة الجامعية, الإسكندرية).

- سيد، عبد المنعم عبد الحليم 2002

تراث حضارة مصر الفرعونية في الحضارة الإنسانية" (مجلة المؤرخ العربي, العدد العاشر – المجلد الأول , ص 37- 99).

- شكري، محمد أنور 1970

العمارة في مصر القديمة (الهيئة العامة للكتاب, القاهرة)

- غنيم، محمد زكريا 1961

الهرم الدفين (ترجمة زكي سوس ومراجعة محمد جمال الدين مختار, الهيئة العامة للكتاب, القاهرة).

- هيرودوت يتحدث عن مصر 1966

(ترجمة الأحاديث عن الإغريقية محمد صقر خفاجة, قدم لها وتولى شرحها, أحمد بدوي , دار القلم, القاهرة).

ثانيًا : المراجع الأجنبية

- Clarke, S&.Engelbach, R. 1930

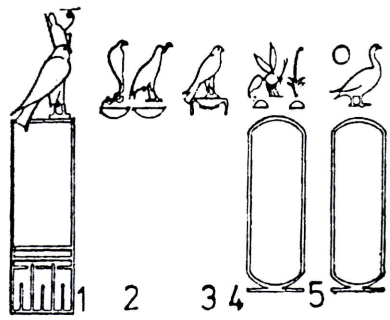
Ancient Egyptian Masonry, The Building Craft,Oxford University Press, Oxford .

- **Engelbach, R. 1924**

The Problem of the Obelisks, From the Study of the unfinished obelisk at Aswan, T. Fisher Unwin, London.

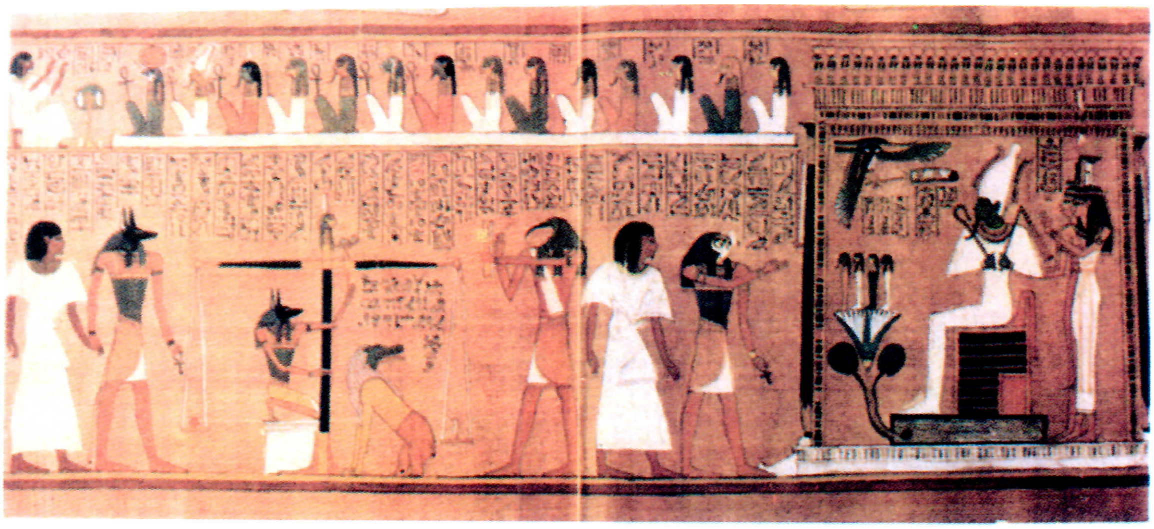
- **Trigger,Bruce C. 1978**

Nubia under the Pharaohs, Thames and Hudson, London.



(شكل 1) ألقاب الفرعون الخمسة ويتجلى فى اثنين منها (أرقام 4،2) تأكيد وحدة البلاد تحت السلطة المركزية (الفرعون) وهى من اليسار لليمين (1) اللقب الحورى وهو أقدم ألقاب الفرعون ويكتب اسم الفرعون فيه داخل شكل واجهة القصر الملكى وفوقه الصقر رمز الاله حور (أو حورس وهى الصيغة اليونانية للاسم "حور") الذى يعتبر أول ملك مؤله ورث الفراعنة حكم مصر عنه، ثم (2) لقب "نبتى" الذى يؤكد الوحدة ومعناه "السيدتين" أى "الربتين" وهما فى عصر ما قبل الأسرات ربة الوجه القبلى التى على هيئة الرخمة (أنثى النسر) ومركزها مدينة "نخن" القديمة وموقعها الحالى بلدة "الكوم الأخضر" الحالية بجوار مدينة ادفو. وربة الوجه البحرى وهى على هيئة حية الكوبرا ومركزها مدينة "بوتو" القديمة بالقرب من مدينة دسوق الحالية فى شمال غرب الدلتا. (3) لقب "حر-نوب" ومعناه "حورس الذهبى" أو حورس المنتصر كناية عن الفرعون نفسه. (4) لقب نسو – بيتى الذى يؤكد الوحده ومعناه ملك الوجهين القبلى والبحرى "ويجمع بين البوصة شعار الوجه القبلى والنحلة شعار الوجه القبلى (فى عصر ما قبل الأسرات).

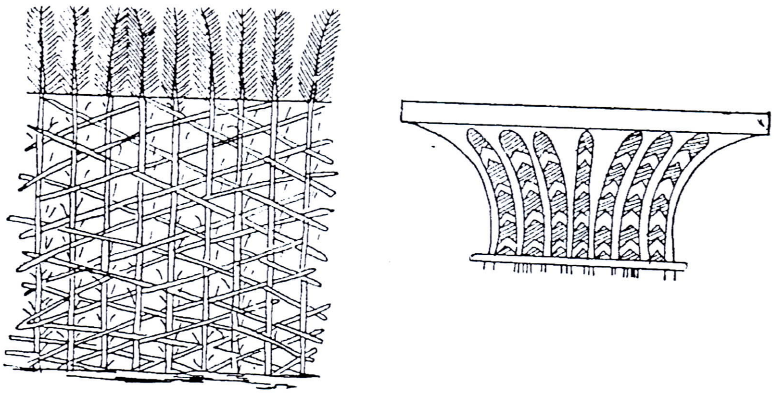
(5) لقب "سا رع ومعناه "ابن (الاله) رع (آله الشمس) وهو أقدم آلهة مصر واله مدينة عين شمس أقدم عواصم مصر (فى عصر ما قبل الأسرات). وأسفل كل من لقب "سا رع" ونسو-بيتى" مستطيل بيضاوى يطلق عليه الباحثون "الخرطوش" لتشابهه مع خرطوش أو رصاصة البندقية، كان فيهما اسمان للفرعون، الخرطوش الأول يحوى اسمه الشخصى الذى يطلق عليه عند مولده)وهو الاسم المألوف لنا مثل تحتمس ورمسيس) والخرطوش الثانى اسم التتويج الذى يطلق عليه عند اعتلائه العرش أى تتويجه ملكا.



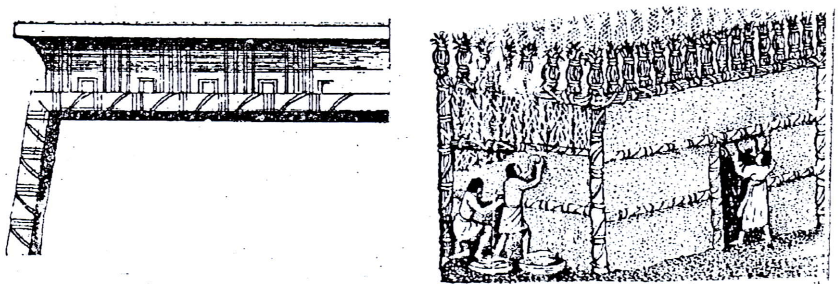
(الشكل رقم 2) منظر يمثل مثول المتوفىامام محكمة أوزير الأخروية كما صوره المصريون على البرديات ويظهر فيه المتوفى في الصف العلوى وهو يواجه قضاة العالم الآخر رافعًا يديه دليل براءته من ارتكاب الذنوب الدنيوية (والمفروض أنهم 42 قاضيا بعدد هذه الذنوب , ولكن رمز لهم هنا بأربعة عشرة إله من الآلهة الكونية) وفي الصف السفلي شكل إنسان برأس ابن آوى وهو يرمز للإله " أنوبيس" إله التحنيط وهو يقود المتوفى إلى قاعة المحكمة التي يظهر بها ميزان مخصص للتأكد من صدق المتوفى بعد أن أنكر ارتكابه الذنوب الدنيوية أمام القضاة , ووسيلة ذلك وزن ما في قلبه من صدق أو كذب فيظهر القلب في الكفة اليسرى ومعيار الصدق في الكفة اليمنى . ويظهر في الناحية الأخرى من الميزان شكل إنسان برأس طائر أبى منجل وبإحدى يديه بردية وباليد الأخرى قلم (أو فرشاة) يسجل بها نتيجة وزن القلب وهو الإله تحوت رمز العلم . وأسفل الميزان تكرر تصوير إله التحنيط وأمامه وحش خرافي برأس تمساح وجسم مركب من جسم فرس النهر وأرجل ومخالب الأسد ومهمته تمزيق جثة المتوفي إذا ثبت كذبه وارتكاب المعاصى في الحياة الدنيا , وبذلك يحرم من البعث والخلود إلى الأبد (لأن المصريين اشترطوا لبعث الإنسان وتمتعه بالخلود أن تكون الجثة سليمة لأن عقيدتهم في البعث والخلود اتسمت بالطابع المادي على عكس هذه العقيدة في الرسالات السماوية التي اتصفت بالتجريد كما سنذكر بعد) . ويلاحظ أن عارضة الميزان ظهرت أفقية تماما وهذا معناه أن مقدار الصدق في قلب المتوفي معادل لمعيار الصدق تماما وبذلك ثبت صدقه وبالتالي براءته , وعندئذ يقوده الإله حورس (الممثل برأس صقر) بن الإله أوزير قاضي المحكمة الأخروية الجالس على العرش معلنًا أن نتيجة الميزان في صالح المتوفى وطالبًا من والده أوزير أن يقبل المتوفى في جنته جنة العالم الآخر وهذه الجنة مشابهة تماما لحياة المتوفى على الأرض ويمارس فيها نفس الأنشطة الدنيوية .



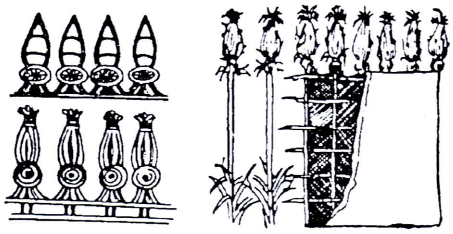
(شكل 3) الملك اخناتون وزوجته الملكة نفرتيتى وبناتها يتعبدون للاله آتون الممثل فى قرص الشمس تنبثق منه أشعة تنتهى بأيدى مبسوطة تقدم النعم للمتعبدين (فى عقيدة اخناتون). وان تجسيد قرص الشمس والأيدى يطبع عقيدة آتون بالطابع المادى مما ينفى أن تكون رسالة سماوية



(شكل ٤ أ) الكورنيش المصرى كما ظهر فى المبانى الحجرية المصرية (إلى اليمين) وأصله النباتى (إلى اليسار) الذى يتكون من أطراف سعف النخيل . وقد حافظ المصريون على شكل السعف في زخرفة الكورنيش .

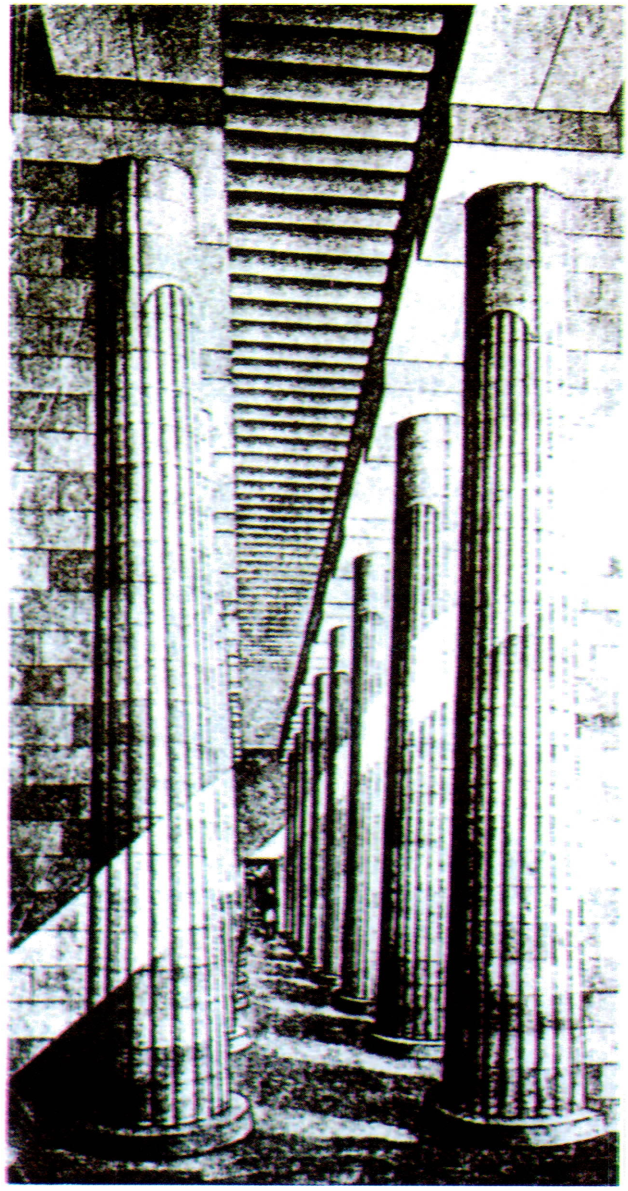


(شكل ٤ ب) الخيزرانة التى كانت تقوى بها أعالى الأكواخ وأركانها وقد ظهرت حولها أشكال الأربطة .



(شكل ٤ حـ) الأصل النباتى لزخارف « الخكر » (إلى اليمين) وتتكون من الأطراف العليا لأغصان البردى بعد ربطها من أعلى ومن أسفل ومن الوسط . ثم شكلان من أشكال هذه الزخارف (إلى اليسار) كما صورت فى الرسوم المصرية

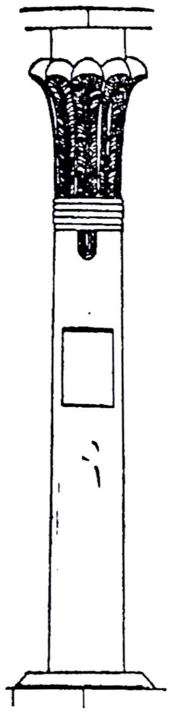




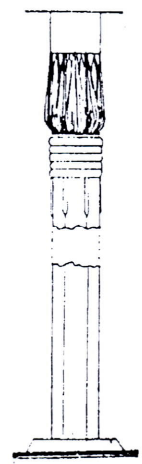
(شكل 5-أ) أساطين الهرم المدرج المقناة المحدبة وهى تحمل سقف بهو المدخل والتى ترجع فى أصلها الى حزم الغاب. (شكل 5 ب) أعمدة صعيد الوادى لخفرع والعمود من كتلة واحدة من الجرانيت



(شكل 5 ج)
الأسطون ذو التاج
الذى على شكل
براعم البردى

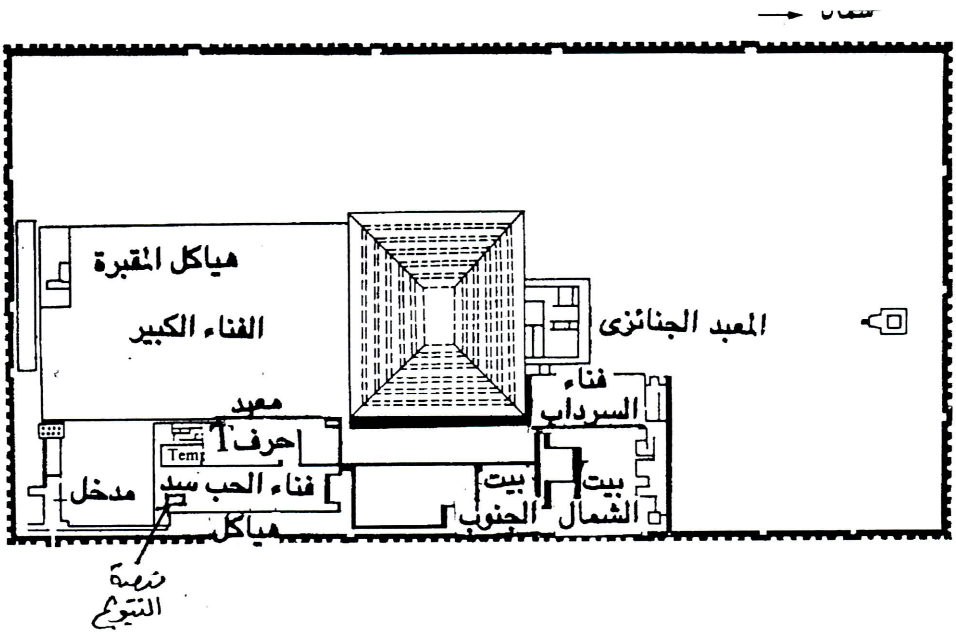


(شكل 5 هـ)
الأسطون النخيلى

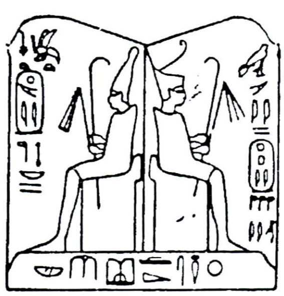


(شكل 5 د)
الأسطون اللوتسى
ذو التاج الذى على
شكل براعم اللوتس

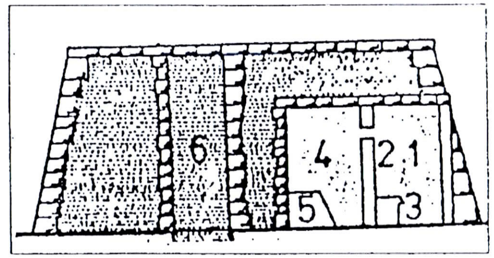
(شكل 5ج،د،هـ) الأساطين ذات التيجان النباتية التى ظهرت فى الأسرة الخامسة وكل أسطون من كتلة واحدة من حجر الجرانيت.



(شكل6) رسم تخطيطى لمجموعة هرم زوسر المدرج فى سقارة ومن أهم المبانى التى تحويها تلك التى تخدم طقوس تتويج الفرعون واعادة تتويجه فى العيد (أو اليوبيل) الثلاثينى (أو ما يسمى بالمصرية "حب سد")

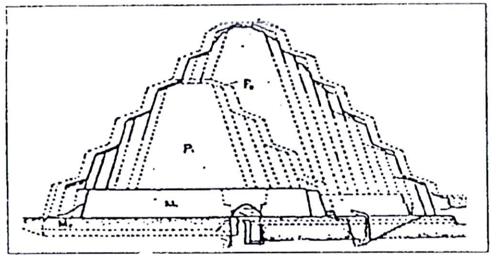


(شكل 7) رسم على الآثار المصرية يمثل تتويج أحد الفراعنة فى العيد الثلاثينى وقد مثل جالسا فوق عرشين أعلى منصة التتويج، أحدهما عرش الجنوب (الى اليسار) حيث ارتدى تاج الوجه القبلى والآخر عرش الشمال (الى اليمين) وقد ارتدى تاج الوجه البحرى وهذا الاحتفال لاشك يعزز وحدة البلاد التى كانت أساس الحياة فى مصر الفرعونية كما ذكرنا سابقا.



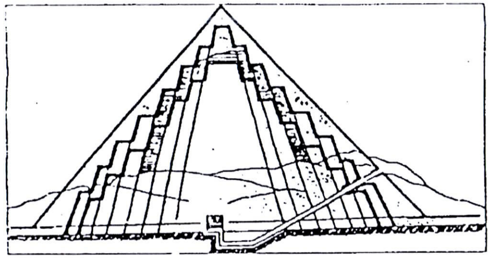
(شكل ٨ أ)

الشكل نصف الهرمي (المعروف بالمصطبة) للمقبرة الملكية في عصر الاسرتين الاولى والثانية (٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ ق.م) ويمثل البذرة الاولى في التطور نحو الشكل الهرمي.



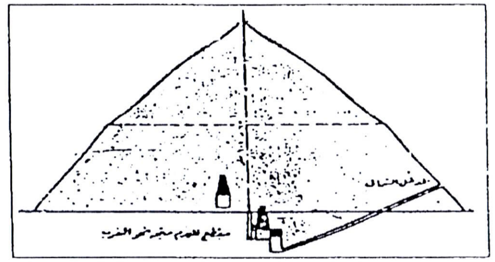
(شكل ٨ ب)

قطاع في هرم زوسر المدرج في سقارة تظهر فيه الدرجات الخمس التي شيدت فوق الدرجة السفلى نصف الهرمية ويمثل المرحلة الاولى في التطور نحو الشكل الهرمي الكامل.



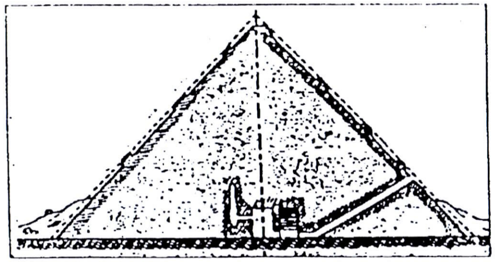
(شكل ٨ ج)

قطاع في هرم حوني ذي الثماني درجات بميدوم ويمثل المرحلة الثانية في التطور نحو الشكل الهرمي الكامل.



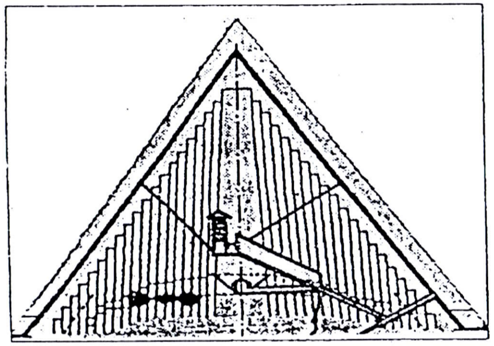
(شكل ٨ د)

قطاع في هرم سنفرو المنحني في دهشور ويمثل المرحلة الثالثة في التطور نحو الشكل الهرمي الكامل



(شكل ٨ هـ)

قطاع في هرم سنفرو الكامل في دهشور وهو المرحلة الرابعة والاخيرة في التطور نحو الشكل الهرمي الكامل ويطابق شكله هرم خوفو وان كان اقل ارتفاعا

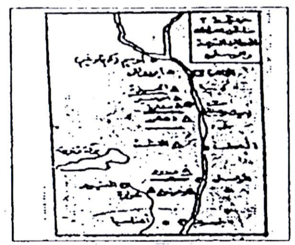


(شكل ٨ و)

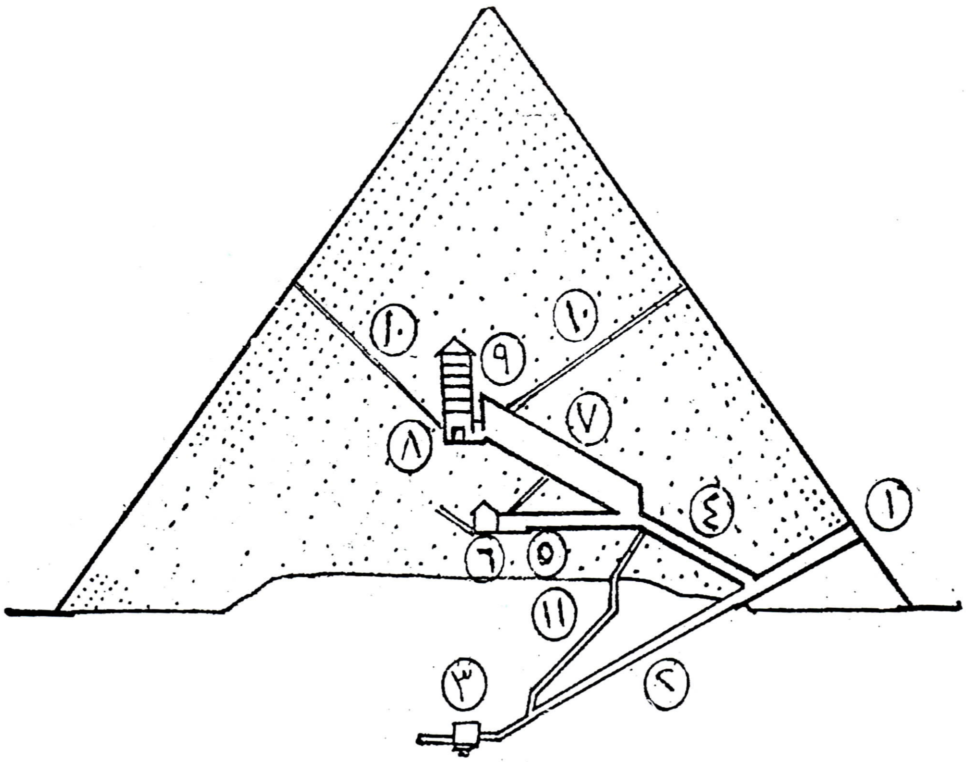
قطاع في هرم خوفو وهو تكرار في شكله الهرمي الكامل لهرم سنفرو (شكل) ويلاحظ ان اجزاءه الداخلية شيدت باسلوب الصفوف الرأسية المتراكبة وهو استمرار لاسلوب بناء الاهرامات السابقة عليه كما هو ظاهر في كل من هرم زوسر (شكل) وهرم حوني (شكل) وهذه الخاصية المعمارية المشتركة بين هرم خوفو والاهرام السابقة عليه تضاف الى ادلة التطور الحاسمة وكلها تثبت ان هرم خوفو هو استمرار للاهرام السابقة عليه مما يدحض ادعاءات القائلين ببناء هذا الهرم على يد شعب اجنبي اى ظهوره فجأة في مصر.

(شكل)

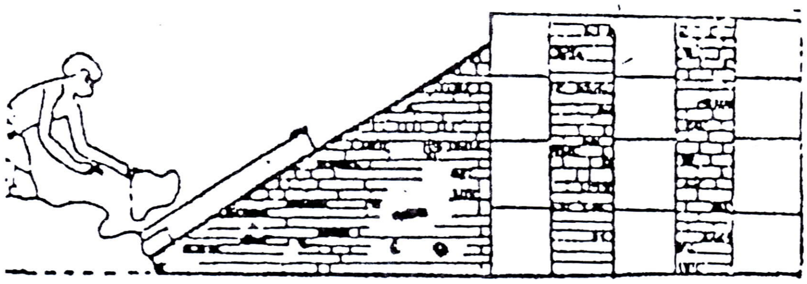
خريطة المواقع القديمة التي شهدت التطور نحو الشكل الهرمي الكامل ويدل تقاربها على وحدة مصدر الفكر نحو هذا التطور وهي مدينة عين شمس العاصمة الدينية التي كانت تقدس إله الشمس في شكل هرم لانه يرمز لاشعة الشمس وكان الملك يدفن في شكل هرمي باعتباره ابنا لاله الشمس كما يدل على ذلك احد القابه وهوسارع، بالهيروغليفية.



(شكل ٨ أ - و) مراحل تطور الشكل الهرمي على الأرض المصرية من شكل المصطبة الى عدة مصاطب في الهرم المدرج حتى وصل الى هرم خوفو مما يدحض الادعاءات بأن الهرم الأكبر شيده شعب أجنبي غزا مصر وهذا التطور تم في خلال مائة عام فقط (من الهرم المدرج الى هرم خوفو).

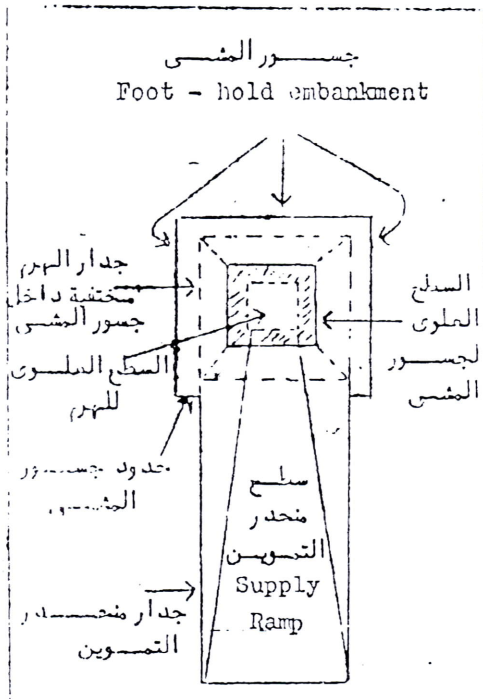


(شكل 9) هرم خوفو من الداخل ويبدأ مدخله (1) من الناحية الشمالية يؤدى الى ممر هابط (2) يؤدى الى غرفة تحت الأرض (3) هى غرفة دفن خوفو الأولى قبل تكبير حجم الهرم. ومن الممر (4) يبدأ ممران، أحدهما ممر أفقى (5) يؤدى الى غرفة سقفها على شكل جمالون (مثلث) تعرف خطأ ب "غرفة الملكة" (6) وهى فى الحقيقة غرفة دفن خوفو الثانية بعد تكبير حجم الهرم. ومن نفس الممر الصاعد (4) يبدأ ما يسمى بالبهو الكبير (7) ويبلغ طوله 47 مترا وارتفاعه 8.50 أمتار وهو الذى آثار اعجاب الزائرين بدقة تسوية أحجاره ويؤدى هذا البهو الى غرفة الدفن الفعلية (8) وبها التابوت الذى كانت به جثة خوفو، وفوق سقف هذه الغرفة فرعت خمس غرف (9) ارتفاع كل منها متر واحد والعليا ذات سقف على هيئة جمالون وهى الحيلة المعمارية التى شرحناها فى متن هذه الدراسة. ومن نهاية الممر الصاعد (4) يبدأ ممر شبه رأسى متعرج (11) يؤدى الى الممر الهابط (2) وهذا الممر شبه الرأسى ينفى الادعاء بأن خوفو وأعوانه لم يكونوا يقيمون وزنا لأرواح رعاياهم فى سبيل بناء الهرم (كما شرحنا فى متن الدراسة). ويخرج من كل من الغرفة المسماة حاليا بغرفة الملك (غرفة دفن خوفو) وأيضا الغرفة المسماة بغرفة الملكة مسلكان، فاللذان يخرجان من غرفة الملكة مسدودان ولا يصلان للخارج نتيجة تكبير حجم الهرم كما ذكرنا، بينما المسلكان اللذان يخرجان من غرفة الملك (10) مفتوحان ويصلان الى خارج الهرم. وقد تضاربت الآراء فى فائدتهما فمن قائل أن الغرض منهما هو تهوية حجرة دفن خوفو ولكن هذا الرأى غير صحيح لأن فتحتيهما فى غرفة الدفن كان يجب أن تكون قريبة من السقف بينما هما قريبان من أرضية الغرفة (على ارتفاع متر واحد) ولهذا فالأرجح أن الغرض منهما مرور الروح لزيارة جسد خوفو ودليل ذلك أن فتحة احدهما توجد فى الناحية الشمالية فهى تواجه مجموعة النجوم القطبية التى تستقر فيها الروح والفتحة الثانية فى الناحية الجنوبية فهى تواجه نجم الشعرى اليمانية الدائمة اللمعان والتى كانت فى السماء الجنوبية أثناء بناء الهرم كما أثبت هذه الظاهرة علماء الفلك.



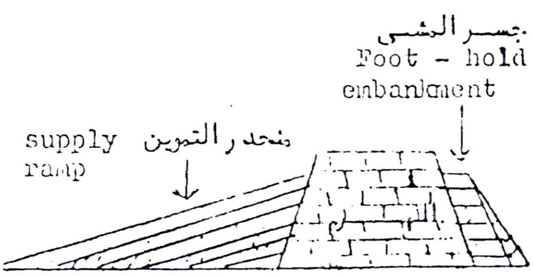
(شكل 10)

منحدر لرفع الاحجار مرسوم على جدران مقبرة الوزير رخميرع فى طيبة ويبدو من الصورة أنه مبنى من اللبن ويستخدم فى رفع كتلة حجرية مستطيلة إلى قمة عمودين احيطا بجدران من اللبن لتيسير انتقال البنائين فوق الأعمدة (جسور المشى) وهذه الطريقة هى نفسها التى اتبعت فى بناء الأهرامات.



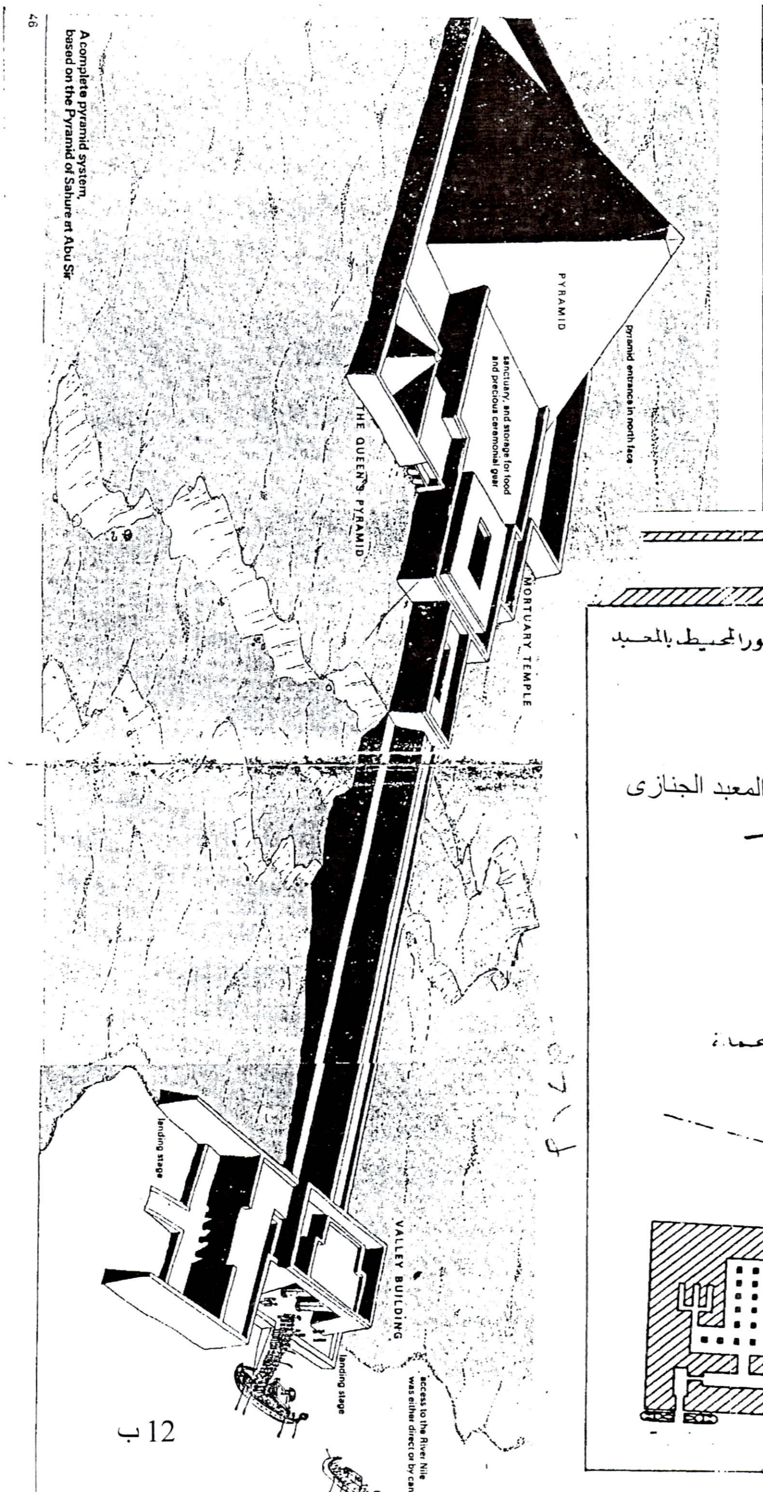
منظر علوى للهرم أثناء بنائه وحوله جسور المشى الثلاثة ومنحدر التموين

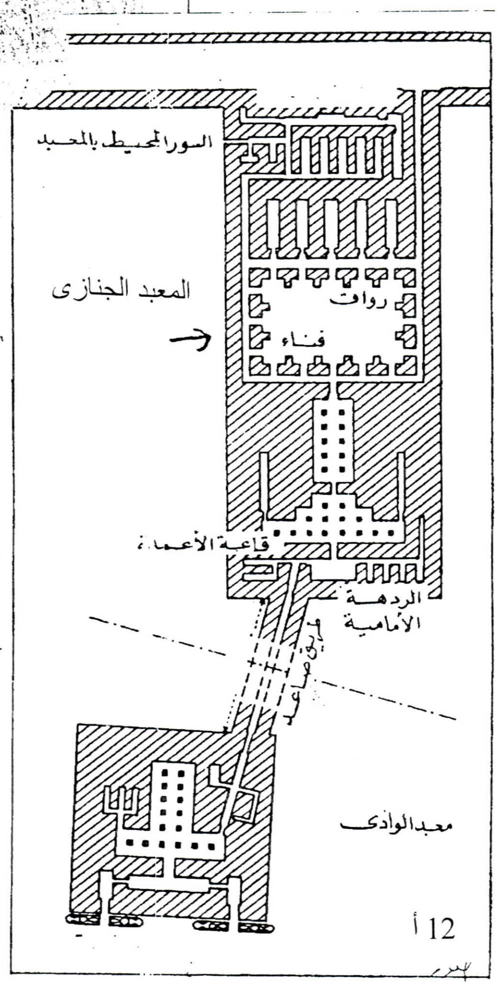
(شكل 11 أ)



(شكل 11 ب)

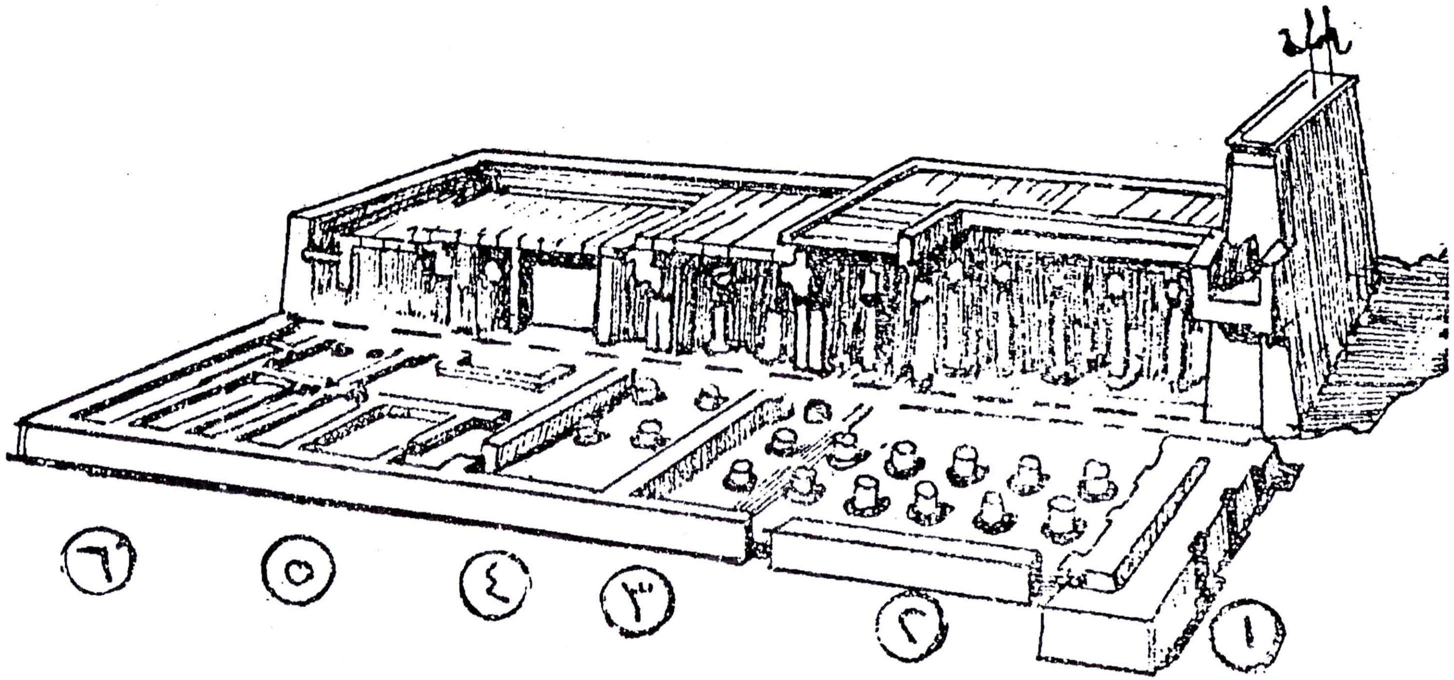
قطاع جانبى للهرم ومنحدر التموين وجسر المشى ونلاحظ فواصل الطبقات التى تضاف لكل من منحدر التموين وجسر المشى كلما ارتفع الهرم.



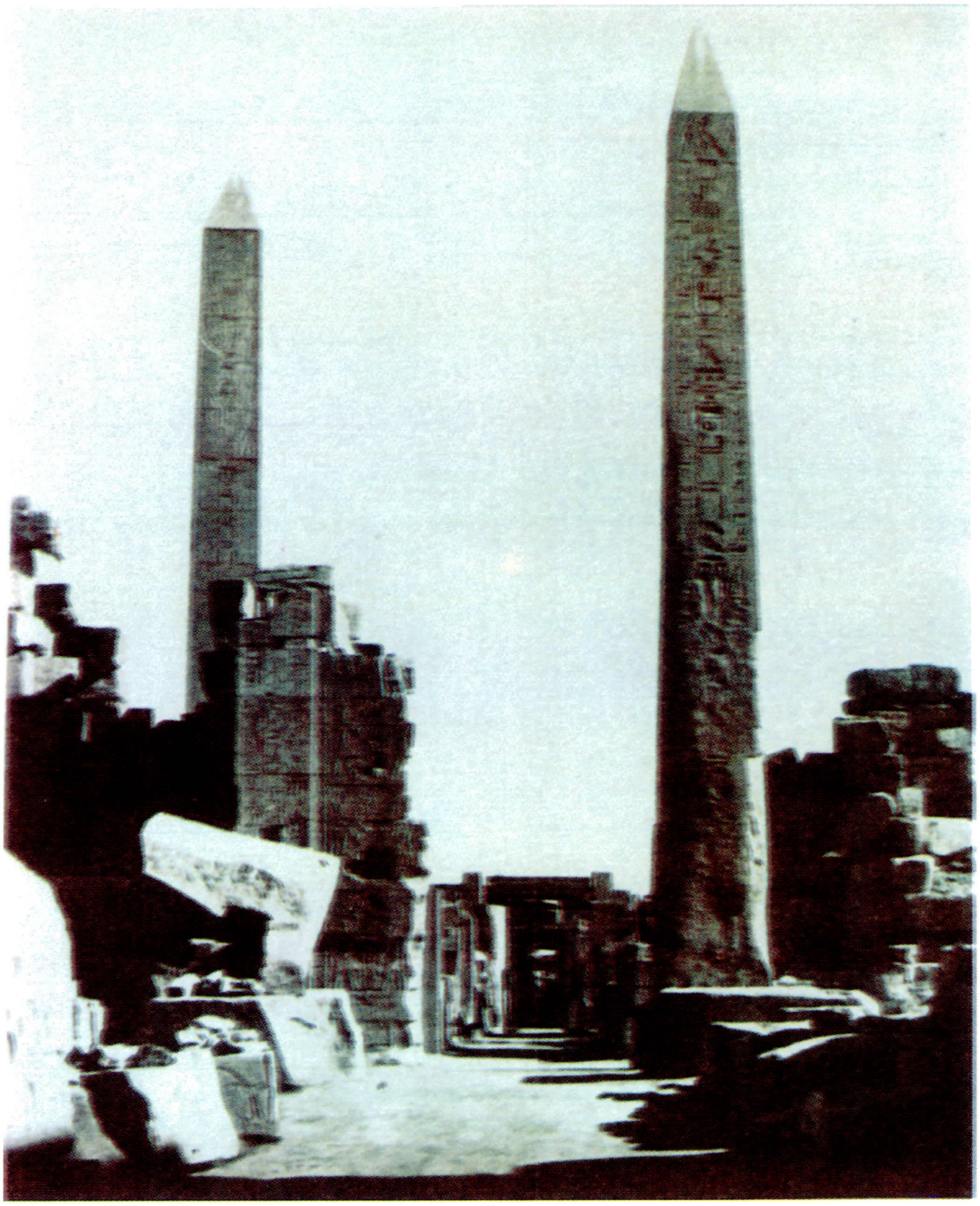


(شكل 12أ) مسقط رأسى للمعبد الجنازى ومعبد الوادى الملحقان بهرم الفرعون خفرع بالجيزة.

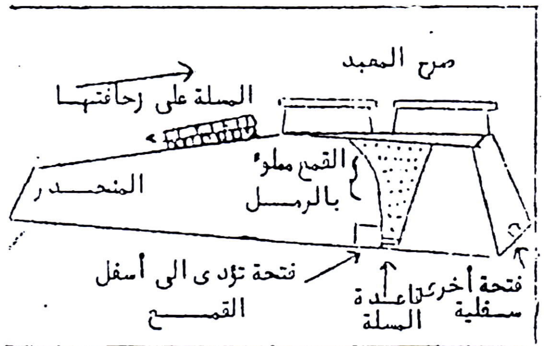
(شكل 12 ب) مجسم لهرم الملك سحورع من الأسرة الخامسة ومعبدية الجنازى والوادى والطريق الصاعد الواصل بينهما يوضح ماكانت عليه هذه المجموعة الهرمية طوال عصرى الدولتين القديمة والوسطى.



(شكل 13) قطاع فى معبد خونسو بمنطقة الكرنك يوضح طراز المعبد فى طيبة فى عصر الدولة الحديثة ويلاحظ امتداد الطريق الأوسط من بلدية المعبد الى نهايته ويقسم المعبد الى نصفين متماثلين ويتكون المعبد من صرح (1) يتكون من برجين شاهقين تنحدر جوانبهما نحو الخارج الى اسفل تدريجيا، فناء مكشوف (2) على جانبيه رواقان تحمل سقفيهما أساطين ذات تيجان بردية الشكل، تم قاعتان أساطين (3،4) ذات تيجان بردية أيضا، ثم قدس الأقداس (5) تحيط به غرف المخازن (6) التى توضع فيها أدوات العبادة ومتعلقات الكهنة

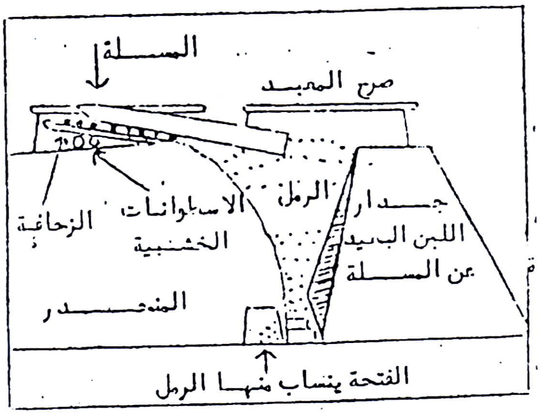


(الشكل رقم 14) المسلتان القائمتان في معبد آموخ رع بالكرنك وإحداهما خاصة بالملكة حتشبسوت وارتفاعها حوالي 30 مترا وطول ضلع قاعدتها المربعة حوالي 250 سم والأخرى خاصة بوالدها الملك تحتمس الأول وارتفاعها حوالي 25 مترا وطول ضلع قاعدتها حوالي 235 سم . ومن المعروف أن المسلتين لا أساس لهما في عمق الأرض بل حفظ توازنهما طوال ثلاث آلاف وخمسمائة سنة تقريبا وحتى اليوم بسبب وجود مركز الثقل داخل نطاقهما (وكذلك شأن سائر المسلات المصرية التي نقل أغلبها إلى خارج مصر) .



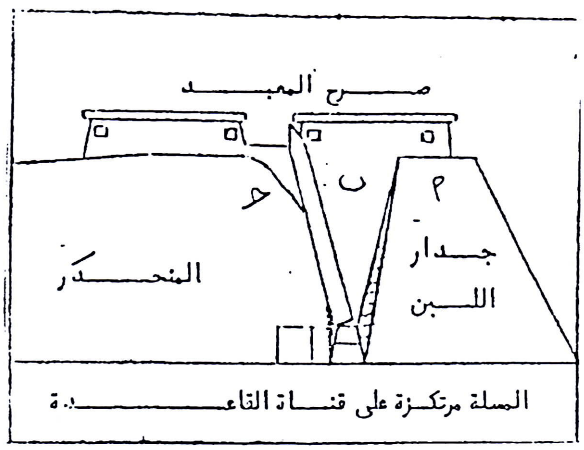
(شكل 15 أ)

المرحلة الأولى فى اقامة المسلة امام المعبد تظهر فيها المسلة فوق المنحدر بينما تتجه مؤخرتها نحو القمع المملوء بالرمل.



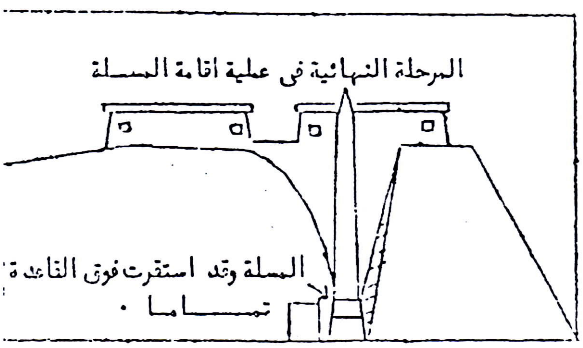
(شكل 15 ب)

المرحلة الثانية فى اقامة المسلة أمام المعبد وقد نزع الجزء الخلفى من الزحافة وارتكزت مؤخرة المسلة على الرمل الذى يملأ القمع.



(شكل 15 ج)

المرحلة الثالثة فى اقامة المسلة وقد استقرت حافة مؤخرة المسلة فى قناة القاعدة



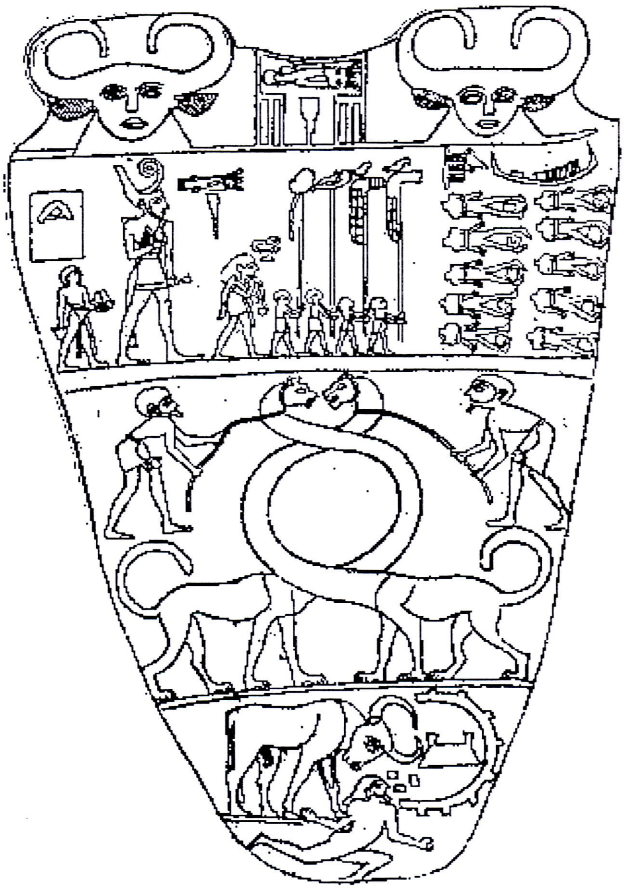
(شكل 15 د)

المرحلة الأخيرة فى اقامة المسلة امام المعبد وقد استقرت المسلة راسيا فوق قاعدتها.

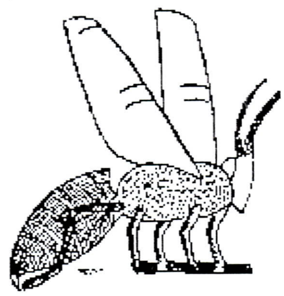
(شكل 15 أ-د) الطريقة التى اتبعها المصريون القدماء لأقامة المسلة أمام المعبد



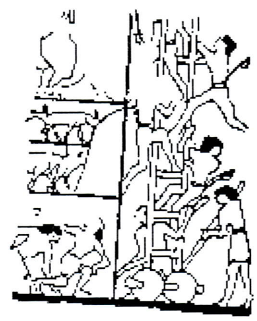
(الشكل رقم 16) التماثيل الأربعة المنحوتة في الصخر في الجدار الخلفي في قدس الأقداس بمعبد أبى سمبل التي تسقط عليها الشمس مرتين في السنة وهى من اليمين إلى اليسار (1) الإله "رع-حورس" اله مدينة هليوبوليس أقدم عواصم مصر ,(2) الملك رمسيس الثاني (3) الإله آمون- رع إله مدينة طيبة عاصمة مصر في عصر الدولة الحديثة (4) الإله بتاح إله مدينة منف عاصمة مصر في عصر الدولة القديمة , فكأنما يلخص اختيار هذه الآلهة تاريخ مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى عصر رمسيس الثانى



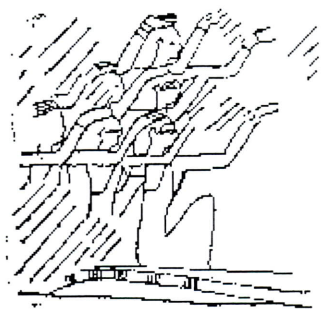
(الشكل رقم 17) لوحة الملك نعرمر (نارمر – مينا) أول ملوك العصر التاريخى و التي تحددت فيها القواعد الفنية في فن النقش واستمرت حتى آخرعصور التاريخ الفرعونى مثل تقسيم المنظر إلى صفوف وتدرج أحجام الأشخاص والطريقة التركيبية في رسم الأشكال والارتباط بين الرسوم وبين الكتابة الهيروغليفية . وفيما يتصل بالكتابة الهيروغليفية فقد ظهرت في هذه اللوحة أول الحروف الأبجدية الهيروغليفية القائمة على الطريقة الأكروفونية التي ابتكرها المصريون القدماء واخترعوا على أساسها حروف الأبجدية الهيروغليفية أقدم أبجدية في التاريخ (شكل 22) , وتظهر هذه الطريقة في لقب التابع الواقف أمام الملك نعرمر فقد كتب هذا اللقب فوقه بحرفين هما " ث ت " (وقد تحول هذا اللقب في العصور التالية إلى "ث ا ت ى" بمعنى "وزير") وحرف الثاء هو الحرف الأول من كلمة "ث ث ت " بمعنى قيد حيوان والحرف نفسه على شكل قيد حيوان , والحرف الثانى هو الحرف الأول من كلمة " ت ا " (أو "ت") بمعنى "خبز" والحرف نفسه على شكل رغيف خبز إلى آخر هذه الطريقة الأكروفونية التي وضحنا بقية حروفها في شكل 22 .



(أ)

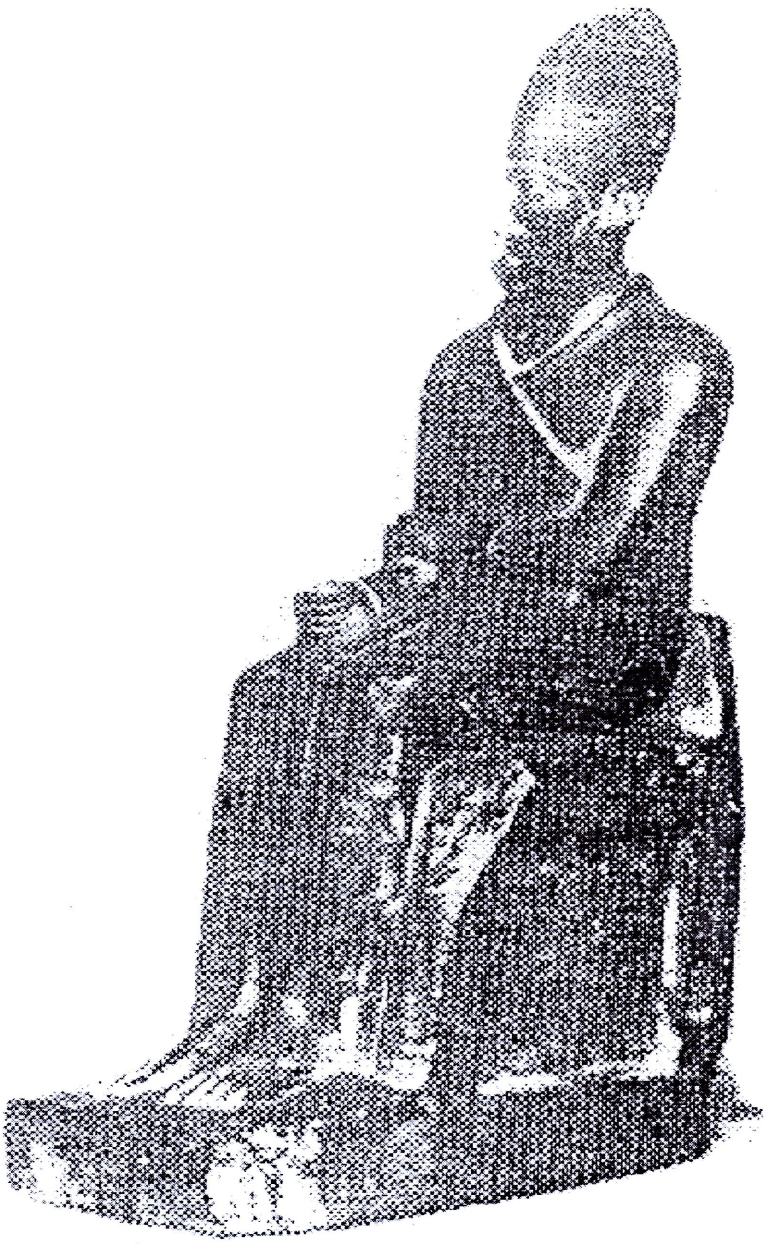


(ب)



(ج)

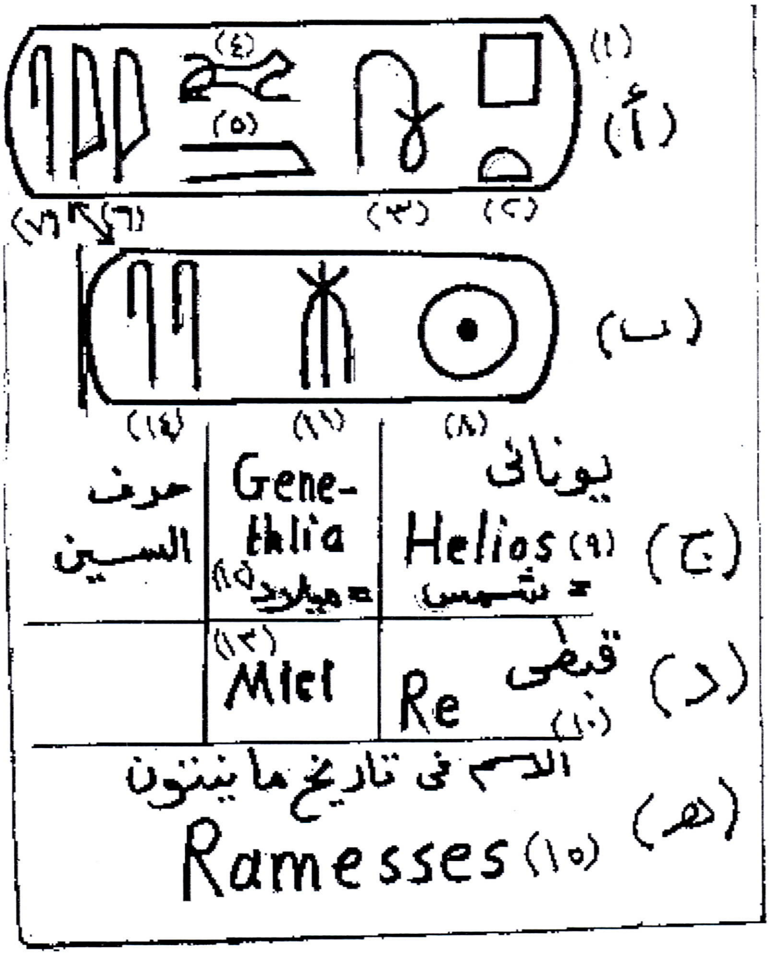
(الشكل رقم 18) ثلاثة رسوم وردت على الآثار المصرية تدل على أن الفنان المصرى القديم كان يعرف تجسيد العمق في الرسم أو مايسمى " البعد الثالث " أو " طريقة الرسم بالمنظور Perspective" وذلك في اخفاء الجناح البعيد للنحلة وراء الجناح القريب (أ), وفي اختفاء جزء من العجلة البعيدة خلف العجلة القريبة (ب) , وفي رسم ثلاثة صفوف من النساء تخفي بعضهن بعضا , كما ظهرت أشكال النساء البعيدة أعلى في مستواها من القريبة .



(الشكل رقم 19) تمثال الملك خع سخم من أواخر ملوك الأسرة الثانية وهو من حجر الشست ويمثل الملك جالسا على عرشه . وهو أقدم تمثال ملكى وتظهر فيه تقاليد وقواعد فن نحت التماثيل التي ثبتت واستمرت حتى آخر عصور التاريخ المصرى القديم .



(الشكل رقم 20) جدول يوضح مراحل تطور العلامات الهيروغليفية (1) إلى العلامات الهيروغليفية المختصرة التي تستخدم في الكتابة على ورق البردي (2) إلى العلامات الهيراطيقية (3) إلى العلامات الديموطيقية (4) .

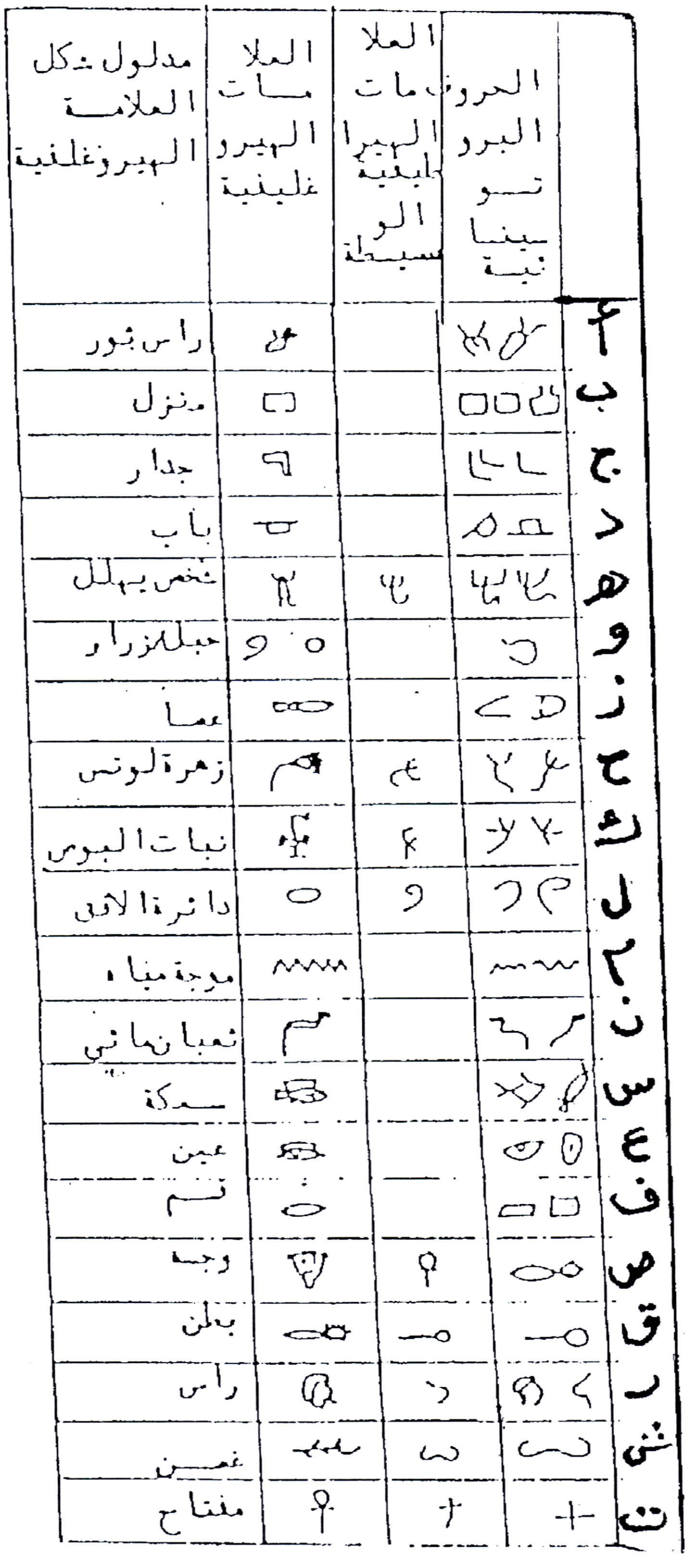


(الشكل رقم21) توضيح الطريقة التي اتبعها شمبليون في حل رموز اللغة المصرية والتي بدأت بقراءته خرطوش (اسم) الفرعون رمسيس : (أ) اسم الملك بطليموس كما ورد على حجر رشيد والذي قرأه توماس يونج سنة 1814ويقرأ من اليمين لليسار ب (1) ت (2) و(3) ل (4) م (5) ى (6) س (7) وقد استفاد منه شمبليون بالتعرف إلى حرف السين المشترك بين اسم بطليموس (أ 7) واسم الملك رمسيس (ب 14) . (ب) اسم الملك رمسيس وقرأه شمبليون بمعرفة معنى العلامة التي على شكل دائرة من النص اليونانى بأن هذا المعنى في اللغة اليونانية هو Helios أى شمس (ج 9) وأن كلمة الشمس تقابلها في اللغة القبطية كلمة Re (د 10) . وبنفس الطريقة عرف شمبليون نطق العلامة الثانية في اسم رمسيس وهى " م س " (ب 11) بأنه في القبطية Mici (د 13) . وأخيرا أضاف حرف السين الوارد في آخراسم رمسيس (ب14) الذي عرفه من قراءة يونج لاسم بطليموس (أ 7) فقفزت إلى ذهنه صيغة هذا الاسم في تاريخ مانيتون Ramses ثم عرف حرف العين (ر ع م س س) من سفر الخروج .

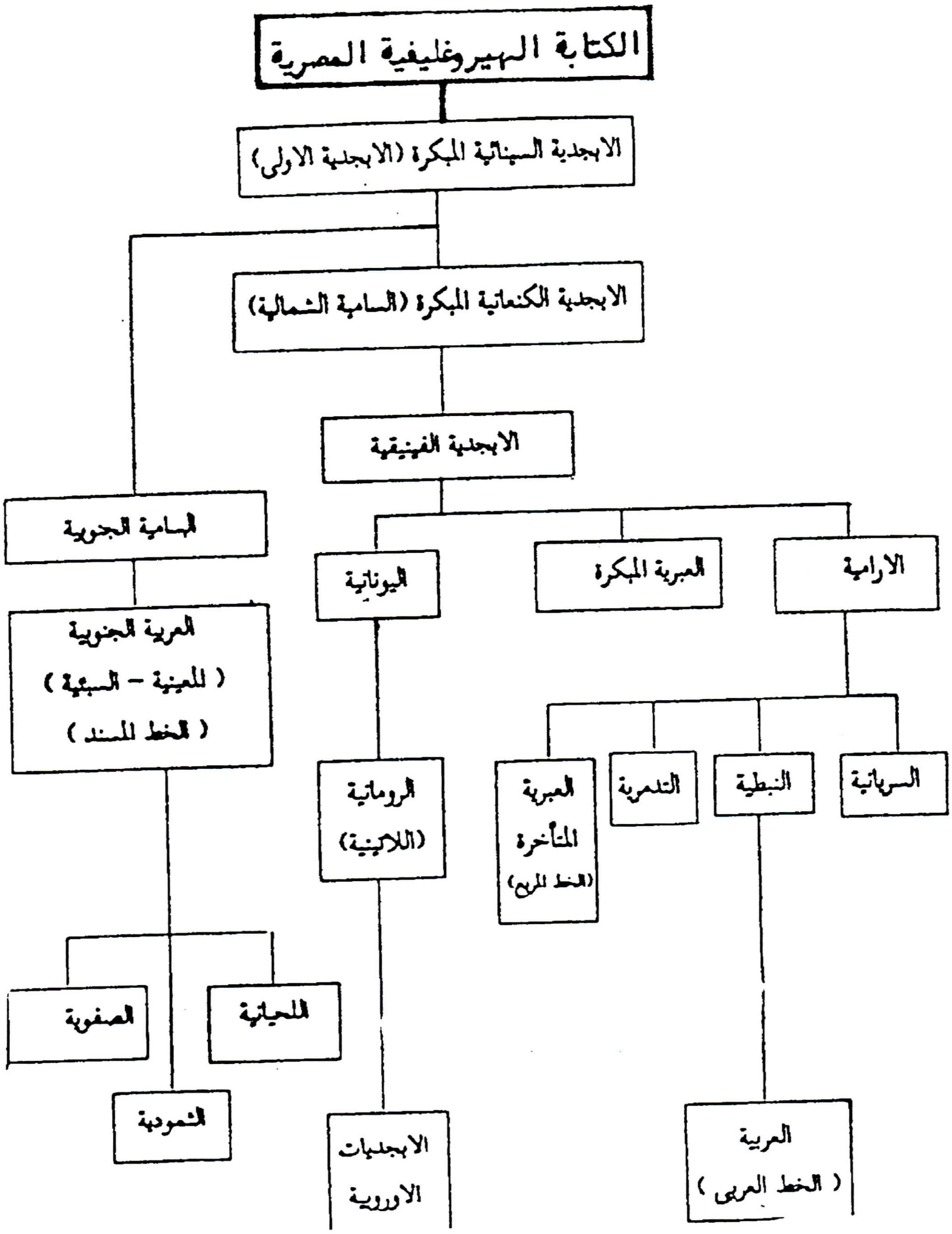
العلامة	الدلالة التصويرية	الدلالة الصوتية بالعربية	الدلالة الصوتية بالاوروبية
𓄿	عقاب	أ ، ا	ꜣ
𓂝	ساعد	ع	ꜥ
𓃀	ساق	ب	b
𓆑	حية ذات قرنين	ف	f
𓈖	موجة ماء	ن	n
𓉔	فناء دار	هـ	h
𓐍	مشيم السيدة	خ	ḫ
𓊃	مزلج (ترباس الباب)	ز	z
𓈙	حوض ماء	ش	š
𓎡	سلة ذات أذن	ك	k
𓏏	رغيف خبز	ت	t
𓂧	يد	د	d

العلامة	الدلالة التصويرية	الدلالة الصوتية بالعربية	الدلالة الصوتية بالاوروبية
𓇋	قصبة مزهرة	إ ، ي	i
𓅱	فرخ سمان	و	w
𓊪	مقعد	پ	p
𓅓	بومة	م	m
𓂋	فم	ر	r
𓎛	ضفيرة من الكتان	ح	ḥ
𓄡	بطن حيوان ثديي وذنبه	غ	ẖ
𓋴	منديل مطوى	س	s
𓈎	جانب الكثيب (= التل من الرمل)	ق	ḳ
𓎼	حمالة زير	ج	g
𓍿	عقال للدواب	ث	ṯ
𓆓	ثعبان	ج	ḏ

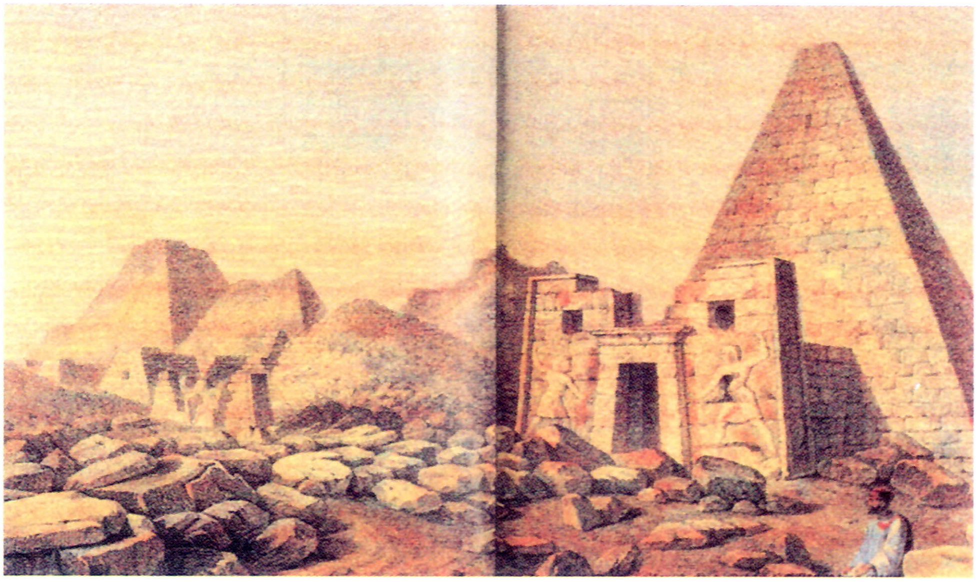
(شكل ٢٢) الابجدية المصرية الهيروغليفية وقد اشتقت بعض حروفها بالطريقة الاكروفونية مثل حرف «غ» واصله «غت» بمعنى «بطن» (وشكل الحرف يمثل بطن حيوان) وكذلك حرف «ج» واصله «جن» بمعنى قاعدة اناء (أو حمالة زير) (والشكل نفسه يمثل قاعدة اناء). وقد نقل الساميون سكان سيناء هذه الطريقة عن المصريين واستخدموها فى ابتكار ابجديتهم (السينائية المبكرة) التى اقتبسوها من العلامات الهيروغليفية المصرية.



(الشكل رقم 23) جدول يوضح اشتقاق الحروف الأبجدية السينائية المبكرة (البروتوسينائية Proto-Sinaitic) من العلامات والحروف الهيروغليفية بالطريقة الأكروفونية التي تعلمها الساميون في سيناء من المصريين



(الشكل رقم 24) شجرة الأبجديات توضح تسلسل اشتقاق الأبجديات القديمة المندثرة في الشام والجزيرة العربية من الأصل البعيد وهو الأبجدية السينائية المبكرة التي اشتقت حروفها من علامات الكتابة الهيروغليفية المصرية (أبجدية ومقطعية) , ثم مراحل اشتقاق بعض الأبجديات الحالية كالعبرية والخط العربي والأبجديات الأوربية من هذه الأبجديات المندثرة .



(الشكل رقم 25) هرم ومعبد مروى يوضحان التشابه الكبير مع الأهرام والمعابد المصرية القديمة فيما عدا صغر مساحة قاعدة الهرم المروى بالنسبة للأهرامات المصرية .



(الشكل رقم 26) ماكيت لكتيبة نوبيين من إحدى مقابر حكام أسيوط في عصر الانتقال الأول



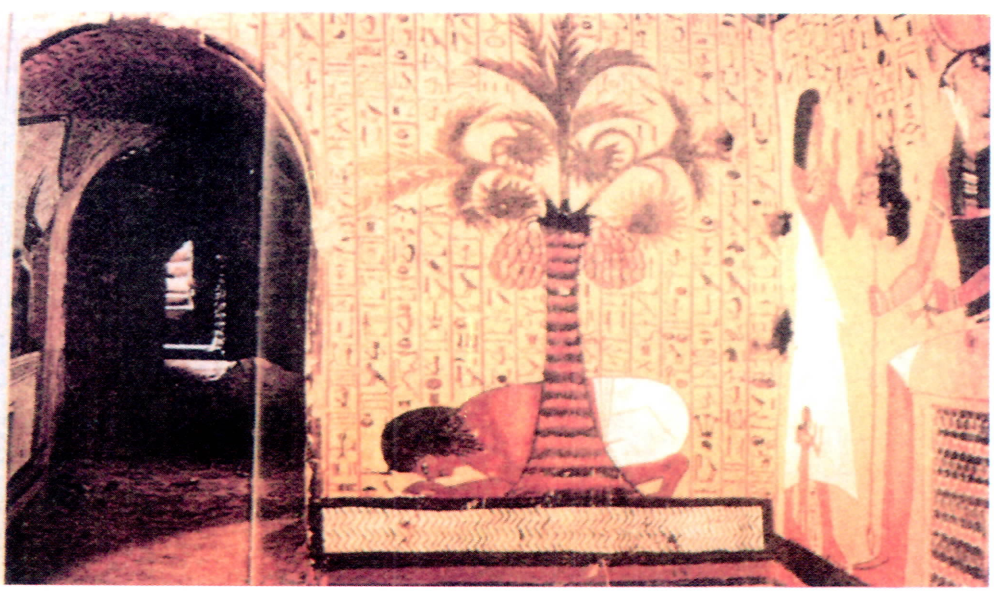
(الشكل رقم 27) معبد أبو سمبل من عهد الملك رمسيس الثاني ـ الأسرة التاسعة عشرة.



(الشكل رقم 28) منظر من حجرة دفن بإحدى مقابر وادي الملوك طيبة الغربية ـ الدولة الحديثة.



(الشكل رقم 29) منظر لموسيقى ضرير في حفلة خاصة بالنساء من مقبرة لأحد نبلاء الدولة الحديثة ـ طيبة الغربية.



(الشكل رقم 30) مناظر دينية من الجزء السفلي الخاص من الدولة الحديثة ـ طيبة الغربية.



(الشكل رقم 31) جزء من تماثيل طريق الكباش والبرج الأيمن للصرح الأول بمعبد الكرنك ـ طيبة.



(الشكل رقم 32) حزام من الذهب لإحدى سيدات العائلة المالكة ـ الأسرة الثانية عشرة.



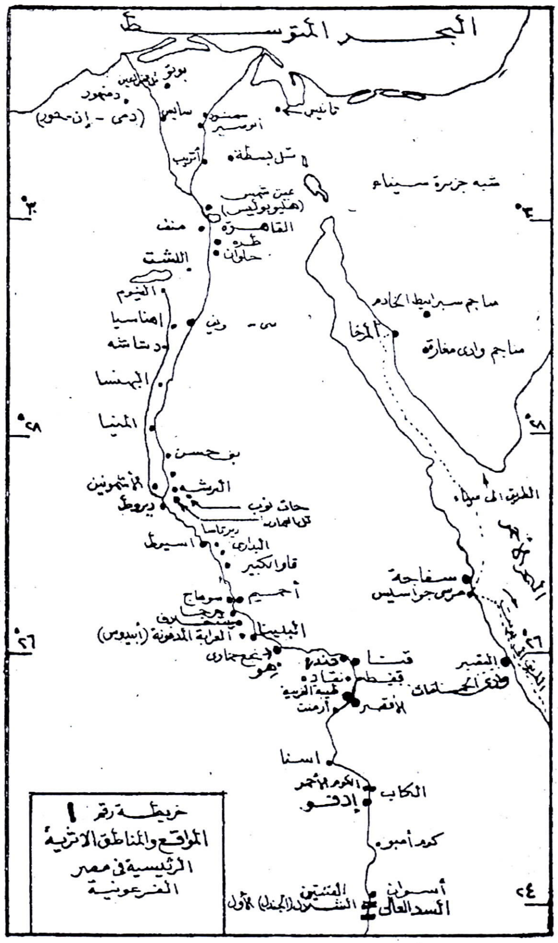
(الشكل رقم 33) أهرامات الجيزة من الجهة الجنوبية

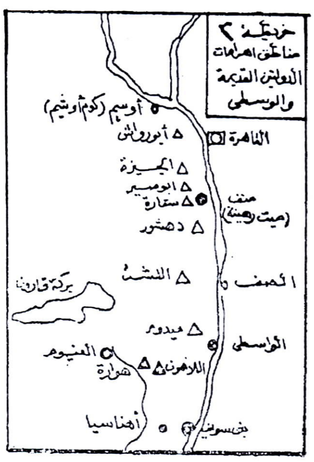


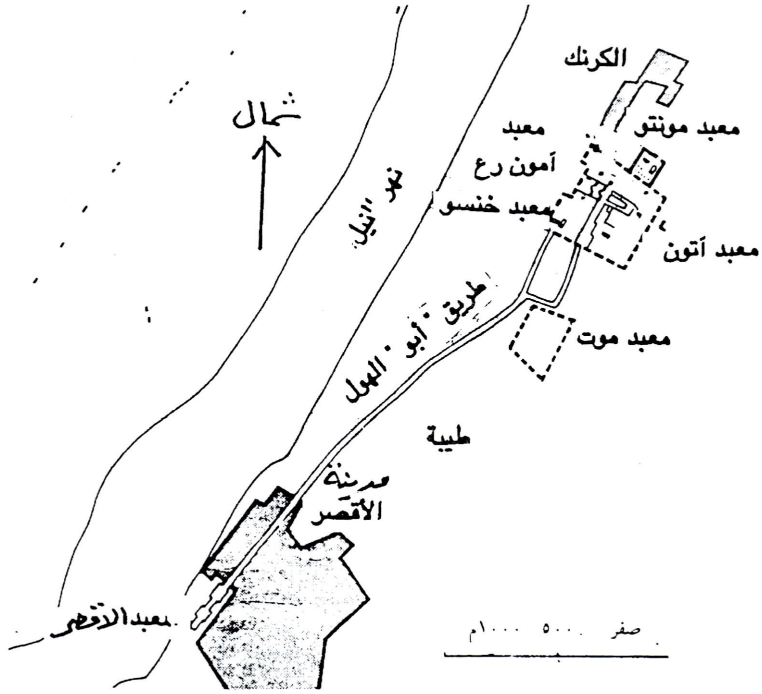
(الشكل رقم 34) المجموعة الجنائزية للملك خفرع في الجيزة يظهر فيها أبو الهول ومعبد الوادي والطريق الصاعد وبقايا المعبد الجنائزي ثم الهرم.



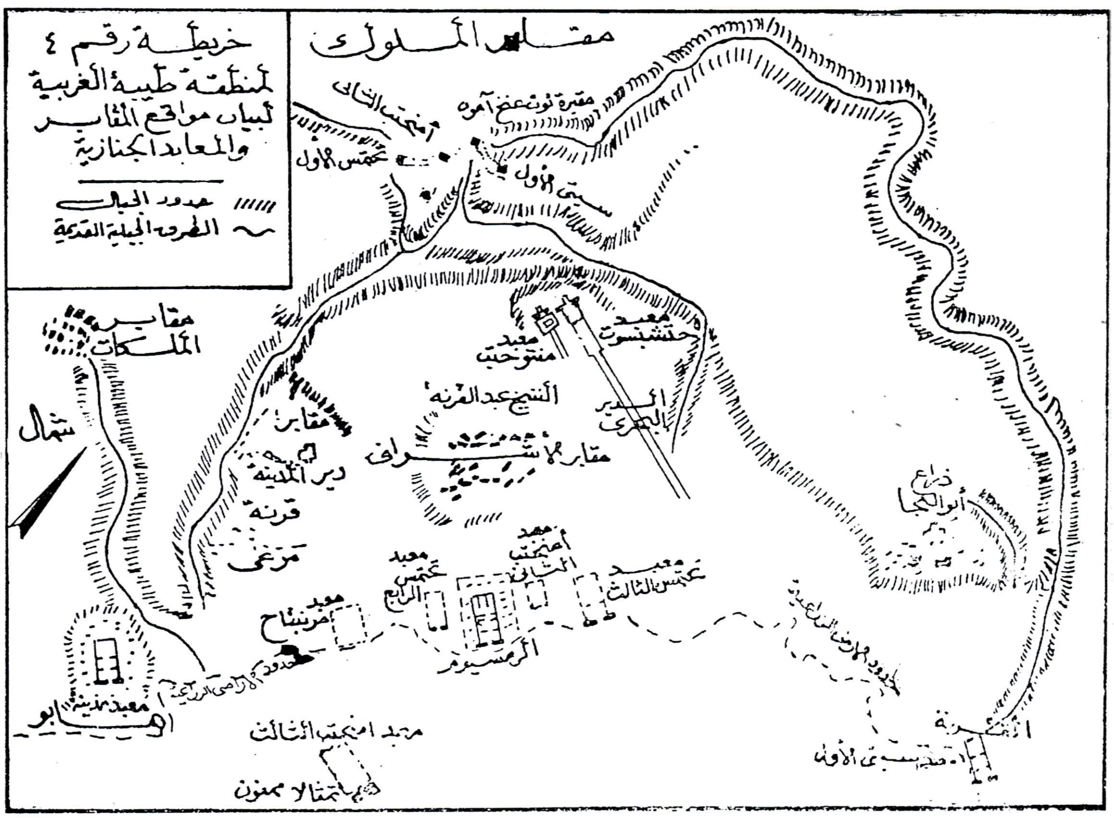
(الشكل رقم 35) حجرة الدفن بمقبرة الملك توت عنخ آمون بطيبة الغربية وادي الملوك - الأسرة الثامنة عشرة.

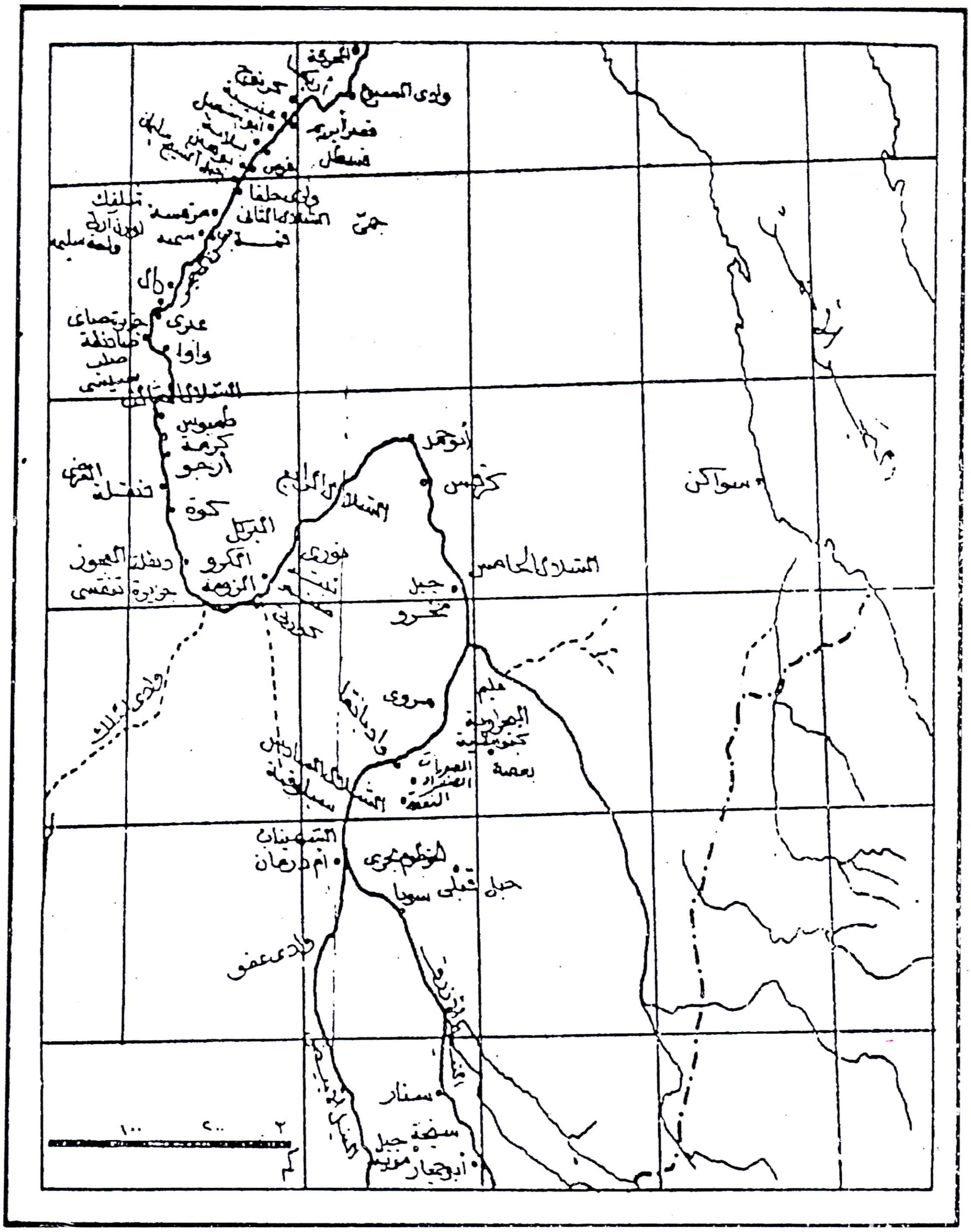

البحر المتوسط
شبه جزيرة سيناء
تانيس
سايس
أتريب
منف
القاهرة
حلوان
اللشت
الفيوم
اهناسيا
البهنسا
المنيا
بني حسن
الأشمونين
ديروط
أسيوط
قاو الكبير
أخميم
سوهاج
البلينا
قنا
دندرة
قفط
نقادة
الأقصر
أرمنت
اسنا
الكاب
إدفو
كوم أمبو
أسوان
السد العالى
سفاجة
مرسى جواسيس
القصير
مناجم وادى مغارة
٣٠
٢٨
٢٦
٢٤
خريطة رقم ١
المواقع والمناطق الاثرية
الرئيسية فى مصر
الفرعونية


خريطة ٢
مناطق اهرامات
الدولتين القديمة
والوسطى
أوسيم (كوم أوشيم)
أبو رواش
القاهرة
الجيزة
أبو صير
سقارة
منف
(ميت رهينة)
دهشور
اللشت
بركة قارون
ميدوم
الواسطى
اللاهون
هوارة
اهناسيا



(خريطة رقم ٣) منطقة طيبة الشرقية تظهر فيها مواقع معبد أمون رع بالكرنك (فى الشمال) ومعبد الأقصر (فى الجنوب) والمعابد الآلهية الأخرى .





(خريطة رقم ٥) المواقع القديمة والحديثة في النوبة والسودان

مصادر أشكال وخرائط الدراسة

الأشكال

(الشكل رقم 1) عبد المنعم عبد الحليم سيد , حضارة مصر ص 8

(,, 2) ,, ,, ,, ,, ,, ص 18

(,, 3) ,, ,, ,, ,, ,, ص 85

(,, 4أ) ,, ,, ,, ,, ,, شكل 20

(,, 4 ب) ,, شكل 21

(,, 4ج) ,, ,, ,, شكل 22

(,, 5 أ) ,, ,, ,, ,, 24

(,, 5 ب) ,, ,, ,, ,, 36

(,, 5 ج) ,, ,, ,, ,, 27

(,, 5 د) ,, ,, ,, ,, 28

(,, 5 هـ) ,, ,, ,, ,, 2920

(الشكل رقم 6) جريمال , نيقولا , تاريخ مصر القديمة , ترجمة ماهر جويجاتى ومراجعة زكية طبوزاده , الطبعة الثانية , القاهرة , 1993 , شكل 54

(الشكل رقم 7) عبد المنعم عبد الحليم سيد , حضارة مصر , شكل 9

(الشكل رقم 8) ,, ,, ,, ,, , المغالطات والافتراءات على حضارة وتاريخ مصر الفرعونية , والرد عليها وتفنيدها من واقع الأدلة الأثرية , دار المعرفة الجامعية , الإسكندرية , 2000 الأشكال من 1 إلى 7 .

(الشكل رقم 9) عبد المنعم عبد الحليم سيد , حضارة مصر , شكل 33

(الشكل رقم 10) ,, ,, ,, ,, ,, ,, , شكل 55

(الشكل رقم 11) ,, ,, ,, ,, , المغالطات , ص 47-48

(الشكل رقم 12 أ) ثروت عكاشة , الفن المصرى , الجزء الأول, دار المعارف , القاهرة ,1972 شكل 228

(الشكل رقم 12 ب) Leacroft, Helen and Richard, The Buildings of Ancient Egypt, Addison- Welsley Publishing Company, London , 7719 , pp8-9

0..0..

(الشكل رقم 13) عبد المنعم عبد الحليم سيد , حضارة مصر , شكل 50

(الشكل رقم 14) ثروت عكاشة , الفن المصرى ج 1 شكل 269

(الشكل رقم 15 أ-د) عبد المنعم عبد الحليم سيد , المسلات في مصر الفرعونية , الأشكال من 17 - 21

(الشكل رقم 16) زاهى حواس , أبو سمبل , معابد الشمس المشرقة, قسم النشر بالجامعة الأمريكية, القاهرة , 2001 , ص30-31

(الشكل رقم 17) عبد المنعم عبد الحليم سيد , حضارة مصر , شكل 60 ،

(الشـــكل رقـــم 18) ,, ,, ,, ,, ,,
الأشكال من 65- 67

(الشكل رقم 19) ,, ,, ,, ,, ,, شكل
68

(الشكل رقم 20) Jensen, Hans; Sign, Symbol and Script, George Allen and Unwin , London, 1970, Vol.I , fig.53

(الشكل رقم 21) عبد المنعم عبد الحليم سيد , حجر رشيد , ص 53-59

(الشكل رقم 22) عبد المحسن بكير, قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي , الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة ,1977 , ص 5

(الشكل رقم 23) عبد المنعم عبد الحليم سيد , تراث حضارة مصر , الأشكال 1 , 12

(الشكل رقم 24) ,, ,, ,, ,, ,, ,, , شكل 23

(الشكل رقم 25) زاهي حواس , أبو سمبل , معابد الشمس المشرقة , دار الشروق , القاهرة 2001 , ص30-31

الخرائط

(خريطة رقم 1) عبد المنعم عبد الحليم سيد , حضارة مصر , الوحة رقم 62

(خريطة رقم 2) ,, ,, ,, , ,, ,, , الوحة رقم 63

(خريطة رقم 3) جريمال , تاريخ مصر , شكل 125

(خريطة رقم 4) عبد المنعم عبد الحليم سيد , حضارة مصر , لوحة رقم 63

(خريطة رقم 5) محمد ابراهيم بكر , تاريخ السودان , ص 285

أوصاف مكررة للأشكال للاستعانة بها في حالة عدم وضوح الأوصاف الموضحة أسفل الأشكال

(الشكل رقم 1) ألقاب الفرعون الخمسة ويتجلى في اثنين منها (أرقام 2 , 4) تأكيد وحدة البلاد تحت السلطة المركزية (الفرعون) وهى من اليسار لليمين (1) اللقب الحورى وهو أقدم ألقاب الفرعون ويكتب اسم الفرعون فيه داخل شكل واجهة القصر الملكى وفوقه الصقر رمز الإله حور (أو حورس وهى الصيغة اليونانية للاسم "حور") الذي يعتبر أول ملك مؤله ورث الفراعنة حكم مصر عنه , ثم (2) لقب " نبتى" الذي يؤكد الوحدة ومعناه " السيدتين " أى "الربتين" وهما في عصر ماقبل الأسرات ربة الوجه القبلي التي على هيئة الرخمة (أنثى النسر) ومركزها مدينة " نخن " القديمة وموقعها الحالي بلدة "الكوم الأحمر" الحالية بجوار مدينة ادفو . وربة الوجه البحري وهي على هيئة حية الكوبرا ومركزها مدينة "بوتو" القديمة بالقرب من مدينة دسوق الحالية في شمال غرب الدلتا . (3) لقب " حر – نوب " ومعناه "حورس الذهبي" أو "حورس المنتصر" كناية عن الفرعون نفسه . (4) لقب "نسو-بيتى" الذي يؤكد الوحدة ومعناه "ملك الوجهين القبلى والبحرى" ويجمع بين البوصة شعار الوجه القبلى والنحلة شعار الوجه القبلي (في عصر ماقبل الأسرات)

(5) لقب "سا-رع" ومعناه " ابن (الإله) رع" (إله الشمس وهو أقدم آلهة مصر) وإله مدينة عين شمس أقدم عواصم مصر (في عصر ماقبل الأسرات) . وأسفل كل من لقب " سا-رع" و "نسو-بيتى" مستطيل بيضاوى يطلق عليه الباحثون " الخرطوش" لتشابهه مع خرطوش أو رصاصة البندقية , كان يكتب فيهما اسمان للفرعون , الخرطوش الأول يحوى اسمه

الشخصي الذي يطلق عليه عند مولده (وهو الاسم المألوف لنا مثل تحتمس ورمسيس) والخرطوش الثاني اسم التتويج الذي يطلق عليه عند اعتلائه العرش أي تتويجه ملكا.

(شكل 2) منظر يمثل مثول المتوفى إمام محكمة أوزير الأخروية كما صوره المصريون على البرديات ويظهر فيه المتوفى في الصف العلوي وهو يواجه قضاة العالم الآخر رافعا يديه دليل براءته من ارتكاب الذنوب الدنيوية (والمفروض أنهم 42 قاضيًا بعدد هذه الذنوب , ولكن رمز لهم هنا بأربعة عشرة إلهًا من الآلهة الكونية) وفي الصف السفلى شكل إنسان برأس ابن آوى وهو يرمز للإله " أنوبيس" إله التحنيط وهو يقود المتوفى إلى قاعة المحكمة التي يظهر بها ميزان مخصص للتأكد من صدق المتوفي بعد أن أنكر ارتكابه الذنوب الدنيوية أمام القضاة , ووسيلة ذلك وزن ما في قلبه من صدق أو كذب فيظهر القلب في الكفة اليسرى ومعيار الصدق في الكفة اليمنى . ويظهر في الناحية الأخرى من الميزان شكل إنسان برأس طائر أبى منجل وبإحدى يديه بردية وباليد الأخرى قلم (أو فرشاة) يسجل بها نتيجة وزن القلب وهو الإله تحوت رمز العلم . وأسفل الميزان تكرر تصوير إله التحنيط وأمامه وحش خرافي برأس تمساح وجسم مركب من جسم فرس النهر وأرجل ومخالب الأسد ومهمته تمزيق جثة المتوفى إذا ثبت كذبه وارتكاب المعاصي في الحياة الدنيا , وبذلك يحرم من البعث والخلود إلى الأبد (لأن المصريين اشترطوا لبعث الإنسان وتمتعه بالخلود أن تكون الجثة سليمة لأن عقيدتهم في البعث والخلود اتسمت بالطابع المادى على عكس هذه العقيدة في الرسالات السماوية التي اتصفت بالتجريد كما سنذكر بعد) . ويلاحظ أن عارضة الميزان ظهرت أفقية تمامًا وهذا معناه أن مقدار الصدق في قلب المتوفى معادل لمعيار الصدق تماما وبذلك ثبت صدقه وبالتالي براءته , وعندئذ يقوده الإله حورس (الممثل برأس صقر) بن الإله أوزير قاضى المحكمة الأخروية الجالس على العرش معلنا أن نتيجة الميزان في صالح المتوفى وطالبا من والده أوزير أن يقبل المتوفى في جنته جنة العالم الآخر وهذه الجنة مشابهة تماما لحياة المتوفى على الأرض ويمارس فيها نفس الأنشطة الدنيوية .

(الشكل رقم 3) الملك إخناتون وزوجته الملكة نفرتيتي وبناتهما يتعبدون للإله آتون الممثل في قرص الشمس تنبثق منه أشعة تنتهي بأيدي مبسوطة تقدم النعم للمتعبدين (في عقيدة إخناتون) . وإن تجسيد قرص الشمس والأيدي يطبع عقيدة آتون بالطابع المادي مما ينفي أن تكون رسالة سماوية .

(الشكل رقم أ) - الكورنيش ب – الخيزرانة ج- خكر

(الشكل رقم 5- أ) أساطين الهرم المدرج المقناة المحدبة وهى تحمل سقف بهو المدخل والتي ترجع في أصلها إلى حزم الغاب .

(الشكل رقم 5-ب) أعمدة معبد الوادي لخفرع والعمود من كتلة واحدة من الجرانيت

(الشكل رقم 5 ج , د , هـ) الأساطين ذات التيجان النباتية التي ظهرت في الأسرة الخامسة وكل أسطون من كتلة واحدة من حجر الجرانيت .

(الشكل رقم 6) رسم تخطيطي لمجموعة هرم زوسر المدرج في سقارة ومن أهم المباني التي تحويها تلك التي تخدم طقوس تتويج الفرعون

وإعادة تتويجه في العيد (أو اليوبيل) الثلاثيني (أو ما يسمى بالمصرية " حب سد ")

(الشكل رقم 7) رسم على الآثار المصرية يمثل تتويج أحد الفراعنة في العيد الثلاثينيوقد مثل جالسًا فوق عرشين أعلى منصة التتويج , أحدهما عرش الجنوب (إلى اليسار) حيث ارتدى تاج الوجه القبلي والآخر عرش الشمال (إلى اليمين) وقد ارتدى تاج الوجه البحري وهذا الاحتفال لاشك يعزز وحدة البلاد التي كانت أساس الحياة في مصر الفرعونية كما ذكرنا سابقًا .

(الشكل رقم 8 أ - و) مراحل تطور الشكل الهرمي على الأرض المصرية من شكل المصطبة إلى عدة مصاطب في الهرم المدرج حتى وصل إلى هرم خوفو مما يدحض الادعاءات بأن الهرم الأكبر شيده شعب أجنبي غزا مصر وهذا التطور تم في خلال مائة عام فقط (من الهرم المدرج إلى هرم خوفو) .

(الشكل رقم 9) هرم خوفو من الداخل ويبدأ مدخله (1) من الناحية الشمالية يؤدي إلى ممر هابط (2) يؤدى إلى غرفة تحت الأرض (3) هي غرفة دفن خوفو الأولى قبل تكبير حجم الهرم . ومن الممر (4) يبدأ ممران , أحدهما ممر أفقي (5) يؤدي إلى غرفة سقفها على شكل جمالون (مثلث) تعرف خطأ بـ "غرفة الملكة" (6) وهى في الحقيقة غرفة دفن خوفو الثانية بعد تكبير حجم الهرم . ومن نفس الممر الصاعد (4) يبدأ ما يسمى بالبهو الكبير (7) ويبلغ طوله 47 مترا وارتفاعه 50ر8 أمتار وهو الذي أثار إعجاب الزائرين بدقة تسوية أحجاره ويؤدي هذا البهو إلى غرفة الدفن الفعلية (8) وبها التابوت الذي كانت به جثة خوفو , وفوق سقف هذه الغرفة فرغت خمس غرف (9) ارتفاع كل منها متر واحد والعليا ذات سقف على هيئة جمالون وهى الحيلة المعمارية التي شرحناها في متن هذه الدراسة . ومن نهاية الممر الصاعد (4) يبدأ ممر شبه رأسي متعرج (11) يؤدى إلى الممر الهابط (2) وهذا الممر شبه الرأسي ينفي الادعاء بأن خوفو وأعوانه لم يكونوا يقيمون وزنًا لأرواح رعاياهم في سبيل بناء الهرم (كما شرحنا في متن الدراسة) . ويخرج من كل من الغرفة المسماة حاليًا بغرفة الملك (غرفة دفن خوفو) وأيضا الغرفة المسماة بغرفة الملكة مسلكان , فاللذان يخرجان من غرفة الملكة مسدودان ولا يصلان للخارج نتيجة تكبير حجم الهرم كما ذكرنا , بينما المسلكان اللذان يخرجان من غرفة الملك (10) مفتوحان ويصلان إلى خارج الهرم . وقد تضاربت الآراء في فائدتهما فمن قائل : إن الغرض منهما هو تهوية حجرة دفن خوفو ولكن هذا الرأى غير صحيح لأن فتحتيهما في غرفة الدفن كان يجب أن تكونا قريبتين من السقف بينما هما قريبان من أرضية الغرفة (على ارتفاع متر واحد) ولهذا فالأرجح أن الغرض منهما مرور الروح لزيارة جسد خوفو ودليل ذلك أن فتحة إحداهما توجد في الناحية الشمالية فهي تواجه مجموعة النجوم القطبية التي تستقر فيها الروح والفتحة الثانية في الناحية الجنوبية فهي تواجه نجم الشعري اليمانية الدائمة اللمعان والتي كانت في السماء الجنوبية أثناء بناء الهرم كما أثبت هذه الظاهرة علماء الفلك .

(الشكل رقم 10) منحدر مقبرة رخميرع (الوصف أسفل الرسم) .

(الشكل رقم 11 أ – ب) منحدر التموين (الوصف أعلى الرسم) .

(الشكل رقم 12أ) مسقط رأسي للمعبد الجنائزي ومعبد الوادي الملحقان بهرم الفرعون خفرع بالجيزة.

(الشكل رقم 12 ب) مجسم لهرم الملك سحورع من الأسرة الخامسة ومعبديه الجنائزي والوادي والطريق الصاعد الواصل بينهما يوضح ما كانت عليه هذه المجموعة الهرمية طوال عصري الدولتين القديمة والوسطى .

(شكل 13) قطاع في معبد خونسو بمنطقة الكرنك يوضح طراز المعبد في طيبة في عصر الدولة الحديثة ويلاحظ امتداد الطريق الأوسط من بداية المعبد إلى نهايته ويقسم المعبد إلى نصفين متماثلين ويتكون المعبد من صرح (1) يتكون من برجين شاهقين تنحدر جوانبهما نحو الخارج إلى أسفل تدريجيا , فناء مكشوف (2) على جانبيه رواقان تحمل سقفيهما أساطين ذات تيجان بردية الشكل , ثم قاعتا أساطين (3 , 4) ذواتي تيجان بردية أيضا , ثم قدس الأقداس (5) تحيط به غرف المخازن (6) التي توضع فيها أدوات العبادة ومتعلقات الكهنة .

(الشكل رقم 14) المسلتان القائمتان في معبد آمون رع بالكرنك وإحداهما خاصة بالملكة حتشبسوت وارتفاعها حوالي 30 مترًا وطول ضلع قاعدتها المربعة حوالي 250 سم والأخرى خاصة بوالدها الملك تحتمس الأول وارتفاعها حوالي 25 مترا وطول ضلع قاعدتها حوالي 235 سم . ومن المعروف أن المسلتين لا أساس لهما في عمق الأرض بل حفظ توازنهما طوال ثلاث آلاف وخمسمائة سنة تقريبًا وحتى اليوم بسبب وجود مركز الثقل داخل نطاقهما (وكذلك شأن سائر المسلات المصرية التي نقل أغلبها إلى خارج مصر) .

(الشكل رقم 15 أ-د) الطريقة التي اتبعها المصريون القدماء لإقامة المسلة أمام المعبد

(الشكل رقم 16) التماثيل الأربعة المنحوتة في الصخر في الجدار الخلفي في قدس الأقداس بمعبد أبى سمبل التي تسقط عليها الشمس مرتين في السنة وهى من اليمين إلى اليسار(1) الإله "رع-حورس" اله مدينة هليوبوليس أقدم عواصم مصر ,(2) الملك رمسيس الثاني (3) الإله آمون- رع إله مدينة طيبة عاصمة مصر في عصر الدولة الحديثة (4) الإله بتاح إله مدينة منف عاصمة مصر في عصر الدولة القديمة , فكأنما يلخص اختيار هذه الآلهة تاريخ مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى عصر رمسيس الثاني .

(الشكل رقم 17) لوحة الملك نعرمر (نارمر – مينا) أول ملوك العصر التاريخي و التي تحددت فيها القواعد الفنية في فن النقش واستمرت حتى آخر عصور التاريخ الفرعوني مثل تقسيم المنظر إلى صفوف وتدرج أحجام الأشخاص والطريقة التركيبية في رسم الأشكال والارتباط بين الرسوم وبين الكتابة الهيروغليفية . وفيما يتصل بالكتابة الهيروغليفية فقد ظهرت في هذه اللوحة أول الحروف الأبجدية الهيروغليفية القائمة على الطريقة الأكروفونية التي ابتكرها المصريون القدماء واخترعوا على أساسها حروف الأبجدية الهيروغليفية أقدم أبجدية في التاريخ (الشكل رقم 22) , وتظهر هذه الطريقة في لقب التابع الواقف أمام الملك نعرمر فقد كتب هذا اللقب فوقه بحرفين هما " ث ت " (وقد

تحول هذا اللقب في العصور التالية إلى "ث ا ت ى" بمعنى "وزير") وحرف الثاء هو الحرف الأول من كلمة "ث ث ت " بمعنى قيد حيوان والحرف نفسه على شكل قيد حيوان , والحرف الثاني هو الحرف الأول من كلمة " ت ا " (أو "ت") بمعنى "خبز" والحرف نفسه على شكل رغيف خبز إلى آخر هذه الطريقة الأكروفونية التي وضحنا بقية حروفها في الشكل رقم 22 .

(الشكل رقم 18) ثلاثة رسوم وردت على الآثار المصرية تدل على أن الفنان المصري القديم كان يعرف تجسيد العمق في الرسم أو ما يسمى " البعد الثالث " أو " طريقة الرسم بالمنظور "Perspective" وذلك في إخفاء الجناح البعيد للنحلة وراء الجناح القريب (أ), وفي إختفاء جزء من العجلة البعيدة خلف العجلة القريبة (ب) , وفي رسم ثلاثة صفوف من النساء يخفي بعضهن بعضًا, كما ظهرت أشكال النساء البعيدة أعلى في مستواها من القريبة .

(الشكل رقم 19) تمثال الملك خع سخم من أواخر ملوك الأسرة الثانية وهو من حجر الشست ويمثل الملك جالسًا على عرشه . وهو أقدم تمثال ملكي وتظهر فيه تقاليد وقواعد فن نحت التماثيل التي ثبتت واستمرت حتى آخر عصور التاريخ المصري القديم .

(الشكل رقم 20) جدول يوضح مراحل تطور العلامات الهيروغليفية (1) إلى العلامات الهيروغليفية المختصرة التي تستخدم في الكتابة على ورق البردي (2) إلى العلامات الهيراطيقية (3) إلى العلامات الديموطيقية (4) .

(الشكل رقم 21) توضيح الطريقة التي اتبعها شمبليون في حل رموز اللغة المصرية والتي بدأت بقراءته خرطوش (اسم) الفرعون رمسيس : (أ) اسم الملك بطليموس كما ورد على حجر رشيد والذي قرأه توماس يونج سنة 1814 ويقرأ من اليمين لليسار ب (1) ت (2) و(3) ل (4) م (5) ى (6) س (7) وقد استفاد منه شمبليون بالتعرف إلى حرف السين المشترك بين اسم بطليموس (أ 7) واسم الملك رمسيس (ب 14) . (ب) اسم الملك رمسيس وقرأه شمبليون بمعرفة معنى العلامة التي على شكل دائرة من النص اليوناني بأن هذا المعنى في اللغة اليونانية هو Helios أي شمس (ج 9) وأن كلمة الشمس تقابلها في اللغة القبطية كلمة Re (د 10) . وبنفس الطريقة عرف شمبليون نطق العلامة الثانية في اسم رمسيس وهى " م س " (ب 11) بأنه في القبطية Mici (د 13) . وأخيرًا أضاف حرف السين الوارد في آخر اسم رمسيس (ب14) الذي عرفه من قراءة يونج لاسم بطليموس (أ 7) فقفزت إلى ذهنه صيغة هذا الاسم في تاريخ مانيتون Ramses ثم عرف حرف العين (ر ع م س س) من سفر الخروج .

(الشكل رقم 22) (الوصف أسفل الشكل)

(الشكل رقم 23) جدول يوضح اشتقاق الحروف الأبجدية السينائية المبكرة (البروتوسينائية Proto-Sinaitic) من العلامات والحروف الهيروغليفية بالطريقة الأكروفونية التي تعلمها الساميون في سيناء من المصريين .

(الشكل رقم 24) شجرة الأبجديات توضح تسلسل اشتقاق الأبجديات القديمة المندثرة في الشام والجزيرة العربية من الأصل البعيد وهو الأبجدية

السينائية المبكرة التي اشتقت حروفها من علامات الكتابة الهيروغليفية المصرية (أبجدية ومقطعية), ثم مراحل أشتقاق بعض الأبجديات الحالية كالعبرية والخط العربي والأبجديات الأوربية من هذه الأبجديات المندثرة .

(الشكل رقم 25) هرم ومعبد مروى يوضحان التشابه الكبير مع الأهرام والمعابد المصرية القديمة فيما عدا صغر مساحة قاعدة الهرم المروى بالنسبة للأهرامات المصرية .

(الخارطة رقم 1) المواقع والمناطق الأثرية الرئيسية في مصر الفرعونية .

(الخارطة رقم 2) مناطق أهرامات الدولتين القديمة والوسطى .

(الخارطة رقم 3) منطقة طيبة الشرقية تظهر فيها مواقع معابد أمون رع بالكرنك (في الشمال) ومعبد الأقصر (في الجنوب) والمعابد الآلهية الأخرى .

(الخارطة رقم 4) منطقة طيبة الغربية لبيان مواقع المقابر والمعابد الجنائزية .

(الخارطة رقم 5) المواقع القديمة والحديثة في النوبة والسودان .

2- السودان :

في هذا البحث عرض موجز لتاريخ السودان وحضارته منذ أقدم العصور التاريخية إلى منتصف القرن الرابع الميلادي، حين سكتت المصادر القديمة عن ذكر كوش، وهو أقدم أسماء السودان قديماً.

اسم البلاد قديماً :

لعل أنسب ما يبدأ به المرء هذا البحث هو اسم البلاد الواقعة وراء الحدود الجنوبية لمصر، وذات الحضارة المستمرة من عصور ما قبل التاريخ إلى منتصف القرن الرابع الميلادي، والمعروفة بالسودان الآن. وبقدر ما كانت المصادر القديمة واضحة في تسميتها لهذه البلاد، فإن بحوث الباحثين في العصر الحديث مضطربة متذبذبة في تسميتها لها بين " السودان " و" إثيوبيا " و" النوبة " و" كوش "، الأمر الذي يبرر مقولة الباحث وشريكه يوسف مختار الأمين في بحث سابق من أنه " لم يعان بلد ما ذو تاريخ قديم مثلما يعاني السودان اليوم من اختلاف الباحثين في تسمية الحضارات التي قامت فيه في العصور القديمة وأصحابها ".

إن أقدم اسم للبلاد في العصور التاريخية هو "كوش"، وثّقته المصادرُ القديمة المصرية أولاً، فالسودانية القديمة المكتوبة باللغة المصرية القديمة ثانياً، فالأشورية، فالعبرية (بالعبرية وترجمتها العربية الحديثة معاً) ثم الأكسومية (الإثيوبية/ الحبشية). فهي البلاد التي انتسب إليها الملك السوداني كوشتو (كاشتا في القراءة القديمة، 760 – 747 ق.م) باسمه الذي يعني "الكوشي" بلغة السودان القديمة، والتي قال ابنه بيِّي (بعانخي، 747 – 716 ق.م)، مؤسس الأسرة السودانية الخامسة والعشرين لمصر، بأنه كان مقدراً له توسيع حدودها، أي في مصر.

لكن المصادر المكتوبة باليونانية واللاتينية سمت البلاد "إثيوبيا"، وأصبحت هذه التسمية بديلاً لكوش، لا في كتابات اليونان والرومان فحسب، وإنما في النسخة المكتوبة باليونانية من العهد القديم (المسمى التوراة تجاوزاً) وأعمال الرسل الملحقة بكتاب العهد الجديد، والتي حاكتها نسخها باللغات الأوربية الحديثة.

فمن كتابات اليونان والرومان حديث هيرودوت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عن مروي (البجراوية)، عاصمة السودان في الفترة المروية (591 ق.م – 340م)، أنه "يُروى أنها المدينة الرئيسة للإثيوبيين الآخرين". يعني بقوله "الآخرين" أولئك السودانيين الأبعدين غير المتاخمين لمصر مباشرة.

وفي النسخة اليونانية للعهد القديم حل ما معناه "ترهاقة ملك إثيوبيا" محل ما معناه "ترهاقة ملك كوش"، الواردة في النسختين العبرية الأصلية والعربية الحديثة للعهد القديم نفسه المذكورتين آنفًا، وبتقديم الراء على الهاء في اسم الملك تهارقو (690 – 663 ق.م)، رابع ملوك الأسرة السودانية الخامسة والعشرين لمصر، المقصود بهذا الوصف.

وكما هو معروف، فإن لفظة "إثيوبي" في اليونانية تعني "ذا الوجه المحروق"، أي الأسود من فعل الشمس. فجمعُها "الإثيوبيون" يعني "ذوو الوجوه المحروقة"، وهم "السودان"، في معناها "الشعوب والجماعات السوداء"، كما ورد في رسالة الجاحظ في "فخر السودان على البيضان" مثلاً، وعند غيره من المؤلفين العرب الأقدمين. و"السودان" في هذه الرسالة وغيرها جمعُ جمع، لأنها جمعٌ من "سود"، التي هي جمعٌ من "أسود". وهي نقيض "البيضان"، "أي الشعوب والجماعات البيضاء" المفتخَر عليها في الرسالة نفسها. لذا، فإن "إثيوبيا"، اسمًا لمكان باليونانية، تعني "بلاد السودان" بالعربية.

لذا يتضح مما تقدم أن "كوش" في المصادر القديمة هي "إثيوبيا" التي في المصادر المكتوبة باليونانية واللاتينية، و"(بلاد) السودان" بالعربية. وبذلك يخرج المرء، من الحديث عن كوش وإثيوبيا والسودان والمقابلات بينها، بمعادلة منطقية بسيطة سهلة هي:

كوش = إثيوبيا = (بلاد) السودان (اليوم)

لا بد من التنويه هنا بأن إثيوبيا الحالية لم تتخذ اسمها هذا إلا في القرن الخامس أو السادس الميلادي. فقد كانت مملكتها تُسمى أكسوم قبل ذلك. لذا، فإن أي إشارة لإثيوبيا، قبل القرن الخامس الميلادي، إنما هي بديل لكوش، وإشارة لسودان وادي النيل، "السودان" اليوم.

أما "النوبة"، الواردة في بعض المؤلفات الحديثة كبديل لكوش والسودان، فهذه تسمية لا وجود لها في أي من المصادر القديمة، وذلك لأن سكان النوبة أنفسهم لم ينزحوا من غرب السودان إلى وادي النيل ليظهروا في مسرح أحداثه إلا في أواخر الفترة المروية (591 ق.م – 340م). كما أن أقدم ذكر لهم لم يكن إلا في المصادر اليونانية، وعند إراتوثنيس في القرن الثالث قبل الميلاد على وجه التحديد، كما نقل عنه استرابون. فمما نقله استرابون أنهم آنذاك كانوا يقيمون "شمال غرب مروي"، وأنهم كانوا مستقلين عنها. وذلك ما يعني تمييزًا بينهم وبين المرويين، أي الكوشيين، أمة وحكومة. وفي نحو 150م كانوا غرب النيل. وبعد ذلك عبروا النيل وانتشروا شرقه، ليتسعوا فيما بعد ويعموا معظم أرض كوش السابقة. لذا، فإن وجود النوبة في وادي النيل كان قبيل نهاية الفترة المروية التي كانت نحو 340م، دون أن تتاح لهم فرصة المساهمة في تاريخ كوش وحضارتها من أقدم العصور حتى 340م. فمن الخطأ بمكان إذن الحديث عن "(بلاد) النوبة " و"النوبيين " في وادي النيل قبل 340م، أو تسمية البلاد "بالنوبة" وصانعي تاريخها السياسي وحضارتها "بالنوبيين" قبل ذلك التاريخ.

وثمة اسمان اثنان آخران وردا كثيراً في النقوش القديمة المصرية والسودانية معاً، هما **تا نحسي** " بلاد النحس " و**تا ستي** " بلاد (صاحب) القوس". فهذان اسمان لإقليمين من أقاليم كوش، السودان القديم (الخارطة). يبدأ الأول من سمنة شمالاً ويمتد حتى منطقة غير معلومة جنوب كَرْمة، شاملاً مدينة كَرْمة التي ربما كانت عاصمة السودان الأولى في فترة كَرْمة (2500 – 1500 ق.م.).

ويبدأ الثاني جنوب **تا نحسي**، ممتداً إلى مكان ما جنوب منطقة جبل البركل، شاملاً العاصمة نبتا، عاصمة السودان في الفترتين النبتيتين، الأولى (900 – 747 ق.م) والثانية (661 – 591 ق.م).

معالم التاريخ السياسي للسودان القديم :

يمتد التاريخ السياسي للسودان القديم في العصور التاريخية من قبل 2500 ق.م إلى 340م. وخير ما يبدأ به المرء معالم هذا التاريخ السياسي هو تحديد فتراته الزمنية المختلفة. وهي عندي على هذا النحو:

1- ما قبل أول ذكر لكوش (؟ – 2500 ق.م)

2- فترات كوش (2500 ق.م. – 340م)

(أ) فترة كَرْمة (2500 – 1500 ق.م.).

(ب) فترة الحكم المصري لشمال كوش (1500 – ؟ ق.م)

(ج) الفترة الغامضة (؟ - 900 ق.م)

(د) الفترة النبتية الأولى (900 – 747 ق.م)

(هـ) الأسرة الخامسة والعشرون لمصر (747 – 663 ق.م)

(و) الفترة النبتية الثانية (661 – 591 ق.م)

(ز) الفترة المروية (591 ق.م – 340 م)

فيما يلي عرض موجز لكل فترة من هذه الفترات

1. ما قبل أول ذكر لكوش (؟ – 2500 ق.م)

لا يُعرف شيء عن الأحوال السياسية في السودان القديم خلال الفترة السابقة لأول ذكر لكوش، ذلك لعدم توافر المعلومات المكتوبة عن البلاد. والمعثورات الأثرية من تلك الفترة تفصح عن حضارة البلاد خاصة، لا عن تاريخها السياسي وأحداثه، وشخصياته السودانية الصانعة له أو المقترنة به. وكل ما هو مدوَّن كان باللغة المصرية القديمة وعن أحداث وأخبار مصرية جرت في السودان، نحو العمليات العسكرية للملوك المصريين جر (3000 – 2980 ق.م) وخع سخموي (2686 ق.م)، وكلاهما من الأسرة الأولى المصرية، وسنوفرو (2613 – 2589

ق.م)، أول ملوك الأسرة الرابعة. أعقبت هؤلاء، وبعد فترة طويلة، رحلات سلمية للمبعوثيْن الملكيَّين أوني وحورخوف في الأسرة السادسة المصرية (2345 – 2181 ق.م).

عرفنا من رحلات هذين المبعوثين ، ولأول مرة، أسماء لمناطق جغرافية وشعوب، علها كانت تمثل كيانات سياسية من نوع ما، هي **واوات، يام، إرتت، مجو، ومخر**. ثبت فيما بعد أن واوات هي البلاد الواقعة وراء حدود مصر الجنوبية التي كانت في أسوان آنذاك (الخارطة)، وأن **مجو** هم قبائل البجة، الباقية منهم بقايا إلى يومنا هذا في شرق السودان.

2. فترات كوش (2500 ق.م – 340م).

يقع تاريخ كوش في الفترات الآتية:

(أ) فترة كَرْمة (2500– 1500 ق.م)

نُسِبت هذه الفترة لكَرْمة (الخارطة) لأن أول اكتشاف لآثارها كان بكَرْمة، ولعدم وجود نقوش تتحدث عن أحداثها وشخصيات سودانية مقرونة بها كان يمكن أن تُسمى بها عند اكتشاف موقعها الأثري. لذا عرف الباحثون الأولون الوجه الحضاري وحده لكَرْمة.

أما الآن فقد استيقن الباحثون بأن حضارة كَرْمة كانت حضارة كوش. لذا جاز للمرء أن يقول إن كوش كانت هي الكيان السياسي، وإن "حضارة كَرْمة" هي الكيان الحضاري للسودان في الفترة من 2500 – 1500 ق.م. وبذلك أصبحت فترة "حضارة كرمة" مجرد فترة، هي الأولى من فترات كوش تاريخًا وحضارة.

كان أول ما عرف المرء عن وجود هذا الكيان السياسي في نقوش الأسرة الثانية عشرة المصرية (1985 – 1795 ق.م). فقد بلغ من خطورة هذا الكيان السياسي على مصر من الجنوب أن أقامت لها أربعة عشر حصناً دفاعياً واقعة على النيل، ممتدة من سمنة في السودان جنوباً، وهي أوعر المناطق وأضيقها، إلى الشلال في مصر شمالاً (الخارطة). لكن النصوص لم تذكر وجود ملك لكوش، ولم تسمّه، إلا في عصر الاضمحلال (الانتقال) الثاني لمصر (1650 - 1550 ق.م)، حين ذكرت ملكين لكوش، وسمت أحدهما نجح.

(ب) فترة الحكم المصري لشمال كوش (ق.م).

بعد خروج مصر من عصر الاضمحلال (الانتقال) الثاني، توسعت خارج حدودها الجنوبية، وتمكنت من احتلال شمال كوش وحكمه حتى منطقة أبي حمد الحالية (الخارطة)؛ أي كل **تا نحسي** "بلاد النحس" **وتا ستي** "بلاد (صاحب) القوس". ونصَّبت في المنطقة حاكماً مصرياً حمل لقباً تكريمياً هو "ابن الملك في كوش". ظل شمال كوش تحت الحكم المصري من الأسرة الثامنة عشرة إلى أواسط الأسرة العشرين (1186 – 1069 ق.م)، حين ضعفت قبضة مصر على شمال كوش مع تدهور أحوالها نفسها الداخلية، السياسية والاقتصادية، في الأسرة العشرين. فاستقل شمال كوش في زمن لا يعلمه أحد، وظروف غير معروفة، نمت فيها سلطة حكومة محلية، تمخضت بعد فترة غامضة عن الفترة النبتية الأولى.

ساهمت هذه الفترة في تعميق التواصل الثقافي القديم بين السودان ومصر، وتنمية مشتركاتهما الثقافية، في اللغة والديانة والعمارة الدينية خاصة، وأقيمت خلالها المعابد مصرية الطابع في عدة مواقع في شمال كوش. كانت الفترة بمثابة نقلة للسودان في مجالي الكتابة، باللغة المصرية القديمة، والعمارة الحجرية الدينية التعبدية والجنائزية. ولعلها ساهمت في دخول بعض العناصر السودانية في الحضارة المصرية، التي ينبغي على الباحثين ألاّ يستبعدوا دخولها.

(ج) الفترة الغامضة (؟ - 900 ق.م)

الفترة الغامضة هذه فترة فيها انعدمت المعلومات المدونة عن السودان كما قلت وغمضت عن مصر نفسها، حتى جاءت الفترة النبتية الأولى وظهرت على إثرها الأسرةُ الخامسة والعشرون السودانية لمصر.

(د) الفترة النبتية الأولى (900 – 747 ق.م)

لا يعرف المرء بداية هذه الفترة يقيناً والظروف السياسية المؤدية لها. لكن الراجح أنها بدأت في بداية الألف الأول قبل الميلاد، وأن أوائل حكامها كانوا أولئك المدفونين فيما يعرف بمقابر الأسلاف في الكرو (الخارطة). وهم نواة الأسرة الخامسة والعشرين السودانية التي حكمت مصر لفترة من الزمن. يُعرف من ملوك هذه الفترة اثنان مذكوران في النقوش السودانية المكتوبة باللغة المصرية القديمة. أولهما أرورو (ألارا في القراءة القديمة. ؟ - 760 ق.م). والثاني كان كوشتو "الكوشي" (760 – 747 ق.م)، المنتسب إلى كوش باسمه المركب تركيباً لغوياً ونحوياً بلغة البلاد آنذاك. فاسمه دليل على كوشيته (سودانيته)، وتركيب اسمه النحوي معروف في اللغة المشهورة بالمروية الآن، مما يدل على أن الأخيرة كانت لغة البلاد آنذاك، وأنها لم تكن لغة الفترة المروية (591 ق.م – 340 م) وحدها.

وفي زمن كوشتو في أقل تقدير بدأ دور كوش للتوسع في مصر هذه المرة، اعتماداً على نقشه المعثور عليه في جزيرة الفنتين، قبالة أسوان.

(هـ) الأسرة الخامسة والعشرون (747 – 661 ق.م)

الأسرة الخامسة والعشرون هي الأسرة السودانية (لا النوبية)، التي سماها مانيثون "الأسرة الإثيوبية"، وحكمت مصر لنحو ثمانين سنة بصفة عامة، ومن مصر نفسها لنحو نصف قرن من الزمان بصفة خاصة. فصاروا ملوك مصر وكوش، على حد وصف الملكين الأشوريين أسرحدون وابنه أشوربانيبال للملك تهارقو بأنه **شرُّ مُصْرِ وقوس** "ملك مصر وكوش"، بالأشورية. وتهارقو هو رابع ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

كان أولَ ملوك هذه الأسرة ومؤسسها هو بيِّي (بعانخي)، موسِّعُ كوش، ورابعَهم هو أعظمُ ملوكها تهارقو (690 – 664 ق.م.)، "ترهاقة" في العهد القديم، وآخرَهم وخامسَهم تنويت أماني الذي وصفه أشوربانيبال بملك مصر وكوش، مثل عمه تهارقو أيضاً. لكن مؤسس الأسرة بيِّي لم يحكم السودان ومصر من مصر، بل رجع للسودان بعد بسطه سلطانه على مصر. أما أخوه وخليفته شباكو، فقد حكم البلدين من مصر، وتبعه في ذلك شبتكو وتهارقو وتنويت أماني. توثقت في هذه الفترة الصلات الثقافية بين السودان ومصر أكثر من ذي قبل، متمثلة في الآثار التي خلفها ملوكها في مصر والسودان معاً. واستعادت مصر وحدتها الإدارية، وعافيتها السياسية، وشهدت عمراناً دينياً لم تشهده خلال قرون سبقت مباشرة، وعادت لساحة الشرق الأوسط لتكون شوكة في جنب أشور، سيدة الشرق آنذاك، داعمة ليهوذا لتصمد أمام أشور. وكان الدخول في هذا الصراع منهكاً للأسرة السودانية وسبباً مهماً في فقدانها حكم مصر.

انتهت الأسرة الخامسة والعشرون بهزيمتها أمام أشور هزيمتين نكراوين، وجلائها عن مصر بعد كل واحدة منهما، مرة في أواخر عصر تهارقو، ومرة أخرى ونهائية في أول عصر تنويت أماني. وبالرغم من ذلك ظل عدد كبير من ملوك السودان وملكاته، وحتى الفترة المروية، يلقب الواحد منهم نفسه "بملك الوجهين القبلي والبحري (لمصر)"، تقليداً لأسلافهم.

(و) الفترة النبتية الثانية (661 -591 ق.م)

الفترة النبتية الثانية هي الفترة التي صارت فيها نبتا عاصمة لكوش للمرة الثانية، بعد إجلاء أشور للأسرة السودانية (الخامسة والعشرين) عن مصر نهائياً في 661 ق.م. وانتهت هذه الفترة بانتقال العاصمة إلى مروي (الخارطة) في نحو 591 ق.م. لم تدوِّن النقوش من أحداث هذه الفترة سوى محاولة سودانية واحدة لاستعادة مصر في عهد الملك أنلماني (623 - 593 ق.م)، واستباق الصاويين، حكام مصر آنذاك، لهذه المحاولة بضربة مدمرة استباقية مفاجئة لكوش في عام 591 ق.م من حكم الملك الصاوي بسمتيك الثاني والسنة الثالثة من حكم الملك السوداني أسبلتو (593 - 568 ق.م). كان من نتائج هذه

الضربة الاستباقية تكسير الصاويين لتماثيل ملوك السودان السابقين وتخريب آثارهم الأخرى، وربما تدمير العاصمة نبتا نفسها، مما أدى إلى انتقال العاصمة جنوباً إلى مروي (الخارطة)، لتبدأ الفترة المروية من تاريخ كوش.

(ز) الفترة المروية (591 ق.م – 340م)

الفترة المروية ثاني أطول فترات كوش بعد فترة كَرْمة (2500 – 1500 ق.م). شهدت هذه الفترة أشياء عدة، تميزت بها. منها حكم الملكات، وكتابة اللغة السودانية القديمة، المشهورة باللغة المروية الآن، لأول مرة في مطلع القرن الثاني قبل الميلاد، وظهور عناصر حضارية مغايرة لما كان في الفترات السابقة، كما شهدت غزواً سودانياً لجزيرة فيلي في 30 ق.م، وغزوات للبلاد من الخارج، ونزوحات سكانية داخلية من الأطراف إلى وادي النيل. وبما أن العناصر الحضارية الواردة هنا مذكورة في غير هذا المكان، في معالم التاريخ الحضاري الآتية بعد قليل، فسيُكتفى في هذا المكان بعرض موجز للعناصر غير الحضارية، وهي الغزوات الخارجية والنزوحات الداخلية وحدها.

فمن الخارج كان غزوٌ للسودان في الفترة الفارسية لمصر في زمن الملك السوداني نيستاسن، الذي صده.

أما الغزو السوداني للخارج فتمثله واقعة ذكرتها المصادر الرومانية. كانت غزواً لجزيرة فيلي قامت به إحدى الكنداكات، التي لم تسمِّها هذه المصادر، بصحبة أمير لها في 23 ق.م. فغنمت من الغزو أشياء كثيرة، منها تمثال الإمبراطور أغسطس. كانت الكنداكة قد انتهزت انشغال إيليوس غالُوس، الوالي الروماني لمصر آنذاك، بحملته الفاشلة في الجزيرة العربية. لكن هذا الغزو أدى إلى حملتين رومانيتين تأديبيتين موفقتين في السودان، وإلى تداعيات سياسية أدت إلى تثبيت الحدود السودانية المصرية في مُحرَّقة، عند خط 23ْ شمالاً (الخارطة).

أما النزوحات السكانية الداخلية نحو وادي النيل، من الشرق والغرب خاصة وضغطها على موارده، ومحاولة صد الملوك لها، فقد كانت عدة. فالتي كانت من الشرق حدثت في عهود الملوك أماني نوتي يريكي (432 – 405 ق.م)، وحورسيوتف (404-369 ق.م)، ونيستاسن (335-315 ق.م)، الذين صدوها. أما التي كانت من الغرب فقد كانت هي الأخطر والأسوأ. تمثلت في موجتين كبريين، الأولى من "النوبة الحمر" (أصل نوبة النيل الحاليين) والأخرى من "النوبة السود" (أصل نوبة الغرب الحاليين)، كما سماهم النقش الثاني لعيزانةملك أكسوم. أدت هاتان الموجتان الكبريان إلى إضعاف مملكة كوش وتدهور أحوالها، ونهاية الفترة المروية.

كانت هاتان الموجتان هما السبب الفعلي في نهاية الفترة المروية في نحو 340م. ولم تكن لعيزانة، ملك أكسوم، يد في نهايتها، كما هو شائع عادة لأن مصلحة أكسوم كانت مقرونة بازدهار السودان في الفترة المروية، ولأن نقشيه اللذين خلفهما، ويقال إن فيهما الدليل على إسقاطه مملكة كوش، ليس فيهما شيء من ذلك ألبتة، لا من قريب أو بعيد، بل ولا يذكران مروي" العاصمة " التي يقال في معظم الدراسات المبكرة والمعاصرة إنه دمرها.

معالم التاريخ الحضاري للسودان القديم :

سيدور الحديث في هذا القسم وبإيجاز مناسب عن معالم التاريخ الحضاري للسودان القديم. يتناول الأرض والسكان، المجتمع، الإدارة والسلطة والمُلك، اللغة والكتابة، الديانة، العمارة والفن، الاقتصاد والتجارة، الصلات والعلاقات الداخلية والخارجية، على النحو الآتي.

الأرض والسكان :

لا يعرف المرء يقيناً كل حدود السودان القديم. لكن الأراضي ذات المواقع الأثرية والأحداث الموثقة أثريًا فيه، تمتد من كوستي وسنار جنوباً إلى سمنة شمالاً في معظم الأحوال، ومنها إلى محرّقة شمال سمنة في الفترة ما بين القرنين الثاني

والرابع الميلاديين (الخارطة). أما الحدود الشرقية والغربية فغير واضحة تماماً، ولعل الحدود الشرقية بلغت كسلا، والغربية بلغت نيالا في دارفور في غربه.

الأرض :

لم تختلف طبيعة الأرض جغرافياً كثيراً في العصور التاريخية القديمة عما هي عليه الآن. كما أن نمط الحياة وسبل كسب العيش آنذاك لم تختلف كثيراً عما كانت عليه في بداية القرن العشرين. لذا، وعلى غرار واقع الأحوال الآن، على المرء أن ينظر إلى أرض السودان القديم على أنها من أربع قطاعات، هي الجزيرة الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض، وسهل البطانة المحاط من ثلاث جهات بالنيل الأزرق ونهر النيل ونهر أتبرة (عطبرة)، ووادي النيل شمال مروي (البجراوية)، وغرب النيل إلى دارفور.

تفاوتت أساليب الحياة ما بين هذه القطاعات، ما بين الزراعة النيلية والمطرية والرعي في الجزيرة وسهل البطانة، والزراعة النيلية وتربية الحيوان في وادي النيل، والزراعة المطرية والرعي غرب وادي النيل. هذا إلى جانب المهن والحرف الأخرى، والتجارة في القطاعات كلها، على نحو ما هو مذكور في القسم عن الاقتصاد والتجارة أدناه.

السكان :

لا يستطيع المرء أن يتحدث بدقة عن التكوين السكاني للسودان القديم في العصور التاريخية منذ ما قبل 2500 ق.م إلى 340م لعدم توافر المادة العلمية الموثقة عن كل السكان آنذاك. ولكنه يستطيع أن يقدم بعض التصور اعتماداً على التصاوير المصرية السودانية القديمة والأشورية للسودانيين القدماء، وذلك على النحو الآتي.

فمن تصاوير المصريين لزعماء الكوشيين خاصة (الشكل رقم1) والسكان جنوب مصر عامة، وتصاوير السودانيين لأنفسهم كما في وجه أبي الهول للملك تهارقو ، وتصوير أسرحدون لأمير سوداني، لعله كان من أسرة تهارقو، ادعى أنه أسره ، يتضح أن سكان كوش كانوا كأفارقة اليوم الخلّص.

يضاف إلى هذا التكوين العرقي عنصرٌ عربيُ المنحدَر، من ثلاث فئات رئيسة. الفئة الأولى قديمة متأصلة في السودان، لا تُعرف بدايتها، يمثلّها البجا، المعروفون في شرق السودان اليوم (الشكل3)، الموثقون باسم **مجا** "البجا" و**مجايو** "البجاويون" في النقوش المصرية القديمة منذ الأسرة السادسة (2345 - 2181 ق.م) في الدولة المصرية القديمة، كما وثقهم نقشان سودانيان متأخران عن المصادر المصرية هذه جدًا، هما نقشا الملكين المرويين أماني نوتي يريكي في القرن الخامس قبل الميلاد ونيستاسن في القرن الرابع قبل الميلاد. تتضح عروبتهم في سحناتهم الحالية وفي ثنايا لغتهم المسماة **تُبداي بها**، ومعناها "البجاوية". والفئة الثانية يمثلّها عنصر عربي آخر متأخر زمناً عن عنصر الفئة السابقة، أرى فيه البلويين، أي قبيلة بلي. وثّقه يقينًا وباسم **بلهي** مصدر سوداني قديم مكتوب باللغة المصرية القديمة، هو نقش الملك أنل أماني في القرن السادس قبل الميلاد، بالكتابة التصويرية (الهيروغليفية)، واحتمالاً نقش من جزيرة فيلي بالكتابة الديموطيقية من القرن الرابع الميلادي. وكذلك وثقته المصادر الرومانية باسم "البليميِّين" (Blemmyes) في القرن الثالث الميلادي، كمصدر إزعاج للرومان في الحدود الجنوبية لمصر الرومانية، أجبر الامبراطور الروماني دقليانوس على سحب حدود مصر إلى محرقة ودعوة النوبة (النوباديين) للإقامة في المنطقة المخلاة اتقاءً لشر البلويين (البليميين). ثم جاءت الفئة الثالثة في زيادة كبرى للعنصر العربي قبيل الإسلام وفي العصور الإسلامية المبكرة والمتأخرة. دخل بعضها من الشمال والبعض الآخر من غرب السودان.

لذا، فسكان السودان خليط، مكون من عنصرين، أحدُهما إفريقيٌّ أصليٌّ، والآخر عربيٌّ وافد، ظلا متباينين

لفترة طويلة من الزمن، ثم بدأ في التمازج في وقت ما لعله كان بعد منتصف الألف الأول الميلادي.

المجتمع :

للمجتمع السوداني القديم سمات تميز بها، توفرت المعلومات عنها من الفترة المروية (591 ق.م – 340م) أكثر مما توفرت من أي فترة سابقة لها. فممَّا توفر من معلومات من هذه الفترة خاصة، وما سبقها عامة، يستطيع المرء أن يرسم الصورة التالية عن المجتمع السوداني القديم، في طبقاته المختلفة، الملكية، وهي أعلاها، وسائر العامة، وهي أدناها. اختار المرء من السمات ثلاثًا فقط. هي الأسرة وتمددها، سمو مكانة المرأة أمًا وملكة حاكمة، والطبقية الاجتماعية، على نحو ما سيلي.

الأسرة وتمدُّدها :

كانت الأسرة هي نواة المجتمع السوداني القديم، مكونة من الزوج وأي عدد من النساء كن له وذريته. وكسائر الأمم القديمة، عرف السودانيون القدماء تعدد الزوجات للرجال، وتزوج المرأة لأكثر من مرة، ربما لطلاق أو ترمُّل. أما الملوك فقد كان مباحاً لهم تزوج أخواتهم، حفظاً للدم الملكي، الإلهي في نظرهم كما في مصر أيضاً. بل هناك حالة لتعاقب ملكين شقيقين في شقيقة، مات عنها الأكبر فتزوجها الأصغر. هي حالة الملكة مديقون، التي ترملت عن شقيقها الملك أنل أماني (623 ق.م – 593 ق.م)، فتزوجها خليفته المباشر وشقيقه الأصغر منه أسبلتو (593 – 568 ق.م).

اتضح من النقوش السودانية القديمة المكتوبة باللغة السودانية القديمة المشهورة بالمروية أن الأسرة السودانية كانت متمددة، مكونة من عشرات الأفراد، منتمين لعدد من الأسر الصغيرة المترابطة.

سمو مكانة المرأة أمّا وملكة حاكمة :

حظيت المرأة الأم بمكانة سامية في المجتمع السوداني القديم كما وثقته التصاوير والنصوص المكتوبة باللغتين المصرية القديمة والسودانية القديمة. دل على ذلك أشياء عدة. منها:

1- استدعاء الملك تهارقو لأمه أبار لتحضر من السودان إلى مصر لتراه ملكاً متوجاً على عرش مصر وتصويره للواقعة على لوحته التذكارية نفسها التي عليها ذكر الواقعة.
2- تصوير عدد من الملوك لأمهاتهم معهم على لوحاتهم التذكارية، سواءً أكانت معهم زوجاتهم أم لم يكن.
3- ظاهرة الملكات الحاكمات فعلاً، إما مشاركاتٍ لأزواجهن، أو وصيات على أبنائهن أو منفردات.
4- ذكر الأمهات قبل الآباء في أنساب أصحاب النقوش الجنائزية وصاحباتها المكتوبة باللغة السودانية القديمة.

الطبقية الاجتماعية :

كانت بالمجتمع السوداني القديم طبقية واضحة، أوضح ما كانت في الفترة المروية.

فأمكن تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات، هي:

الطبقة السامية المقصورة على الأسرة الملكية الحاكمة، فالطبقة العليا التي تضم أقارب الأسرة الملكية الحاكمة وأثرياء المجتمع وصفوته من إداريين وكهنة وكُتّاب وغيرهم.

فالطبقة الوسطى المتمثلة في الإداريين والكهنة والكُتّاب والتجار الأقل درجة من أصحاب الطبقة العليا.

الطبقة الدنيا وتشمل معظم السكان، في الحضر والمدر، من مهنيين وحرفيين ومزارعين ورعاة وخدم وموظفي المعابد وخدمها، وفقراء وبؤساء معدمين. انعكست هذه الطبقية في مستويات المساكن، أحجاماً ومخططات ومواد بناء؛ وفي المدافن أحجاماً ومواد بناء وأثاثاً جنائزياً وأفضلية في المواقع المرتفعة البعيدة عن مجاري السيول في الجبانات؛ وفي وفرة وسائل التسلية والترفيه ومستوياتها.

الإدارة والسلطة والمُلك :

الإدارة والسُلطة :

إن المعلومات المتوافرة عن الإدارة والسلطة في السودان القديم قليلة جداً. والنقوش المصرية القديمة والسودانية القديمة تلقي بعض الأضواء أحياناً على شيء ما من الإدارة والسلطة. فمن نقوش أوني وحورخوف المصريَّيْن يعلم المرء عن وجود ما يبدو أنه كان إدارات محلية بصفات ما غير معلومة، لا يفهم المرء ما إذا كانت ممالك أو مشيخات أو مجرد زعامات. وفي عصر الاضمحلال (الانتقال) الثاني لمصر(1795 – 1550 ق.م) تحدثت ثلاثة نقوش مختلفة عن **حقان كوش** "حاكم / ملك كوش". ولما وقع شمال كوش تحت الحكم المصري، صارت له إدارة مصرية تحت حاكم مصري يحمل لقباً تكريمياً هو "ابن الملك في كوش"، يساعده اثنان؛ أحدهما "أمير الجند في "كوش"، والآخر "أمير الجند في واوات". والمنطقة الأخيرة هي الأرض الواقعة جنوب مصر مباشرة آنذاك، من أسوان إلى سمنة (الخارطة). لكن النقوش لم تسم أي وحدات إدارية أخرى ولا كيفية إدارة البلاد. ولم يقِل الجهل بأحوال السودان الإدارية إلا في الفترة النبتية الثانية والفترة المروية بعدها، حين ألقت النقوش المكتوبة باللغتين المصرية القديمة والسودانية القديمة أضواء على بعض التقسيمات الإدارية، والوظائف المدنية والدينية وإمكانية تولِّ النساء وظائف مدنية ودينية رفيعة، بل والمُلك أيضًا، ووقوع السلطتين المدنية والدينية في أيدي أسر عريقة ممتدة تتوارثها فيما بينها. كما أتضح أنه كان بالسودان ثلاثة أقاليم إدارية على الأقل، هي الوسط ومركزه العاصمة مروي، و**تا ستي** "بلاد (صاحب) القوس" ومركزها نبتا، والشمال **تا نحسي** "بلاد النحس" وجزء من **واوات** القديمة ومركزه فرس (الخارطة).

<u>المُلك</u> :

بعد توافر المعلومات من النقوش السودانية المكتوبة باللغة المصرية القديمة، ومن التصاوير، ابتداءً من الأسرة الخامسة والعشرين السودانية لمصر (747 - 661 ق.م)، اتضحت الصورة تماماً عن نظام المُلك في السودان. وبرزت له سمات واضحة، بعضها مماثل لسمات المُلك في مصر القديمة، وبعضها الآخر مغاير لها وفريد. لعل من المناسب إيراد بعض أهم هذه السمات.

<u>واهب الملك وحارسه</u> :

اتضح اعتقاد ملوك السودان بأن أمون نبتا هو واهب المُلك وحارسه؛ واهبه كما أفصحت عنه النقوش والتصاوير، وحارسه بوضع تيجان كل ملوك كوش وصولجاناتهم أمامه في معبده الرئيس بجبل البركل.

<u>توارُث المُلك</u> :

ظهر أن توارُث الملك، ولأكثر من قرن من الزمان، كان بين كل الإخوة أولاً، فالابن الأكبر لأكبر الإخوة ثانياً، وبقية إخوة الأخير هذا من بعده، ثم عودته للابن الأكبر لأكبر هؤلاء الإخوة الأخيرين أيضاً. ولا ينتقل المُلك لأخ أصغر قبل أخيه الأكبر منه ولا من أب لابنه مباشرة إلا في حالات استثنائية، كعدم تأهل الأخ الأكبر للملك مثلاً، أو عدم وجود أخ أصلاً، أو اغتصاب مغتصب ما لتاج لا يستحقه.

<u>التتويج</u> :

يُتوَّج الملكُ في معبد أمون نبتا بجبل البركل، بأن يدخل الملك إلى حيث تمثال معبوده، أمون نبتا، الموضوعة أمامه كل تيجان ملوك كوش السابقين له وصولجاناتهم. فيلبس الملك تاج سابقه، ويقبض على صولجانه في حضرة معبوده أمون نبتا، وبذا يصبح ملكه استمراراً شرعياً لمُلك سابقه. ثم يكون له تاجه وصولجانه الخاصان به ليوضعا مع تيجان وصولجانات الملوك السابقين أمان أمون نبتا، عند موته، ليستلمهما خليفته من بعده، ليكون حكم الأخير هذا استمرارًا لحكمه هو أيضًا. وهكذا.

رموز المُلك :

شارك السودانيون المصريين في بعض رموز الملك ونعوته، نحو تاجي الوجهين القبلي والبحري، والصولجان، والكوبرا، ووصف الملك (أو الملكة) بأنه "ملك الوجهين القبلي والبحري" و"ابن رع"، وحَمْل الملك أو الملكة لاسمين في خرطوشتين. أول الاسمين هو اسم العرش، الذي يتسمى به عند ارتقائه العرش. والثاني هو اسمه الخاص الفعلي المسمى به أصلاً. يتقدم الاسمَ الأولَ وصفُ الملك بأنه "ملك الوجهين القبلي والبحري" أو "سيد البلدين". ويتقدم الاسمَ الثاني نعتُه بأنه "ابن رع".

ما خالف فيه السودانيون المصرين هنا هو اتخاذ بعض ملوك الأسرة الخامسة والعشرين ثعبانين (كوبراوين . اللوحة 4) رمزاً لمصر والسودان، "**مُصرٍ وقوسٍ**"، كما ورد في نقشي أسرحدون وأشوربانيبال وذُكِر سلفًا، وطاقية أحياناً معقودة بشريط وراء الرأس، وتسمية الملك في الخرطوشة الثانية باسمه الفعلي الخاص به المعطى له عند مولده، كما سبق ذكره، وعدم اشتراك الملوك فيما بينهم في أسمائهم الخاصة، مما جعل لكل ملك أو ملكة منهم اسمًا خاصًا به أو بها لم يسبق إليه أو يحمله فيما بعد أحد.

سيدة كوش :

واكبت بعض الملكات، زوجات الملوك غير المشاركات لهم في الحكم، أزواجهن. فتلقبت الواحدة منهن باللقب المناسب لمكانتها. فحملت خمسٌ منهن لقب "سيدة كوش"، أي سيدة بلادها، كما وردت حالات فردية لنساء حملت الواحدة منهن لقب "سيدة **تا ستي** (بلاد صاحب القوس)"، أو "سيدة البلدين"، أو "سيدة مصر"، أو "سيدة المصريين".

الملكات الحاكمات (الكنداكات) :

لم يحل حائل دون تسنم النساء للملك تسنمًا فعليًا وعمليًا في السودان القديم. كانت الواحدة منهن إما شريكة لزوجها، وإما وصية على ابنها، وإما منفردةً مستقلة بالحكم. ووُصِفت الواحدة منهن بلفظة **كدكي/كتكي** باللغة السودانية القديمة، التي ربما عنت "السيدة الطاهرة" أو "السيدة المقدسة". صارت اللفظة κανδάκη (كنداكي) بالكتابة اليونانية، وcandace (كنداكة) باللاتينية، و **ك ن ت ك ي** (كنتاكي) بالكتابة المصرية القديمة.

اللغة والكتابة :

خلت الشواهد الأثرية من أي دليل على أي لغة كانت للسودانيين القدماء قبل القرن الثامن قبل الميلاد. فالسودانيون أنفسهم لم يكتبوا لغتهم وبخط خاص بها إلا في القرن الثاني قبل الميلاد. أما الدليل على لغتهم، والذي من القرن الثامن قبل الميلاد، فهو اسم الملك السوداني كوشتو (كاشتا في القراءة القديمة، 760-747 ق.م)، أول سلسلة ملوك السودان المتصلة من 760 ق.م إلى نحو 340م. فهو اسم مكتوب بالكتابة المصرية التصويرية، اتضح من تركيبه اللغوي والنحوي أنه باللغة السودانية القديمة التي اشتهرت فيما بعد باللغة المروية ، وأن معناه بها هو "الكوشي"، كما سبق ذكره في بداية البحث. وذلك ما يُرجع هذه اللغة إلى ما قبل القرن الثامن قبل الميلاد في أقل تقدير ، ويعني أنها كانت لغة المخاطبة في البلاد لعدة قرون بعد ذلك إلى أن كُتِبَت في القرن الثاني قبل الميلاد، فصارت لغة مخاطبة وكتابة في السودان منذ ذلك الحين إلى بُعيد نهاية الفترة المروية نحو 340م. لكن معظم ما هو باق منها الآن نقوش جنائزية. ولأن الدليل المقدم أدناه سابق لبداية الفترة المروية التي كانت في591 ق.م ، فإنه ينبغي أن تسمى هذه اللغةُ "اللغة السودانية القديمة"، لا "اللغة المروية" كما هو سائدٌ الآن.

أما قبل كتابة اللغة السودانية القديمة، وما بين القرنين الثامن والثاني قبل الميلاد، فقد كتب السودانيون ما كتبوه باللغة المصرية القديمة، التي ظلوا يستخدمونها أحايين كثيرة حتى القرن الرابع الميلادي، وبالخط الديموطيقي خاصة.

واللغة السودانية القديمة إفريقية صرفة. من أهم سماتها أنها لا تعرف التذكير والتأنيث؛ تُعرَّف الأسماء فيها بلام

آخر الكلمة؛ ويلي المضاف إليه المضاف في أغلب الأحوال، وتتم الإضافة بسين تلي المضاف إليه. كما أن الجملة الفعلية, ذات الفعل والفاعل والمفعول بـه كاسمين ظـاهرين، يـأتي الفاعل فيها أولاً، فالمفعول به ثانيًا، ثم الفعل آخرًا.

أما كتابتها فقد كانت أبجدية بثلاثة وعشرين رمزًا، بالإضافة إلى فاصلة بين الكلمات. رموزها من نوعين، تصويرية (هيروغليفية) وغير تصويرية (تجريدية)، ذات علاقة برموز الكتابة المصرية القديمة في هيئتيها التصويرية الهيروغليفية وغير التصويرية الديموطيقية. تُكتب الكتابة التصويرية إما من اليمين إلى اليسار أو العكس، بينما تُكتب الكتابة التجريدية من اليمين دائمًا، كما في الكتابة المصرية تمامًا في الحالتين.

الديـانة :

الديانة تعبدية وجنائزية. تميزت كل واحدة منهما بسمات معينة، يمكن إيجاز أهم عناصرهما على النحو التالي:

الديانة التعبدية :

كانت للسودانيين معبودات عدة خلال عصورهم التاريخية. ظهرت فيها ازدواجية واضحة؛ لأن بعض المعبودات كان مصري الأصل، بينما كان بعضها الآخر سودانيًا صرفًا. قدموا لها القرابين، وبنوا لها المعابد، وأقاموا لها المنشآت التعبدية الأخرى في السودان ومصر سواءً. كان أشهر من عرفوا من المعبودات المصرية رع في صوره الثلاث (خبري، رع، أتوم)، وأمون وزوجته موت وابنهما خونسو، وإيزة (إيزيس) وزوجها أوزير وابنهما حور (حورس)، وجحوتي وساتس، وأنوبيس وتفنوت وبتاح وغير هؤلاء من المعبودات. لكن أمون كان أحظى المعبودات التعبدية مكانة عندهم خلال الأسرة الخامسة والعشرين لمصر (747-661 ق.م) والفترة النبتية الثانية (661-591 ق.م)، في اسمه المركب أمون رع، وفي أكثر من هيئة؛ واحدة مصرية في وصفه بأمون رع الكرنك ، وسودانيتان في الأقل في وصفه بأمون رع نبتا المقيم في جبل البركل (بالسودان)، وأمون رع كوَّة، في معبده بكوَّة (الشكل رقم2).

أما المعبودات سودانية الأصل فهي دَدْون، أقدم المعبودات السودانية المعروفة باسمها، والأسد أبيديمك، وسبويمكر، وأرنسنوفيس، ومعبودة مصورة في زمرة المعبودات السودانية القديمة، لم تُسَم، ولعلها أميسمي المكتشفة لأول مرة مؤخرًا، ويرى البعض أنها زوجة أبيديمك. ومثلما أن السودانيين شاركوا المصريين في معبوداتهم، فإن المصريين شاركوا السودانيين في معبودين على الأقل من معبوداتهم. أول الاثنين هو دَدْون، المعروف في الديانة المصرية منذ الدولة المصرية القديمة، كما يُستدل من متون الأهرام، وفي الدولة الوسطى كما هو واضح في بعض متون التوابيت، وفي الدولة الحديثة حين صُوِّر الملك المصري تحوتموس الثالث راكعاً له في معبده في سمنة بالسودان، ونُصَّ في نقشه بأنه جلس على عرش دَدْون وورث تاجه، وصار ملك البلاد. والمثال الثاني اللبؤة سخمة، التي يرد في كتاب الموتى المصري ما يوحي بأنها من السودان أيضاً.

وبينما كان أمون رع هو أكبر المعبودات السودانية خلال الأسرة الخامسة والعشرين السودانية لمصر (747 - 661 ق.م)، والفترة النبتية الثانية (661 - 591 ق.م)، فإنه فقد هذه الصدارة وحل محله فيها الأسد أبيديمك، المعبود السوداني الصرف، خلال الفترة المروية (591 ق.م– 340 م)، كما هو واضح في تصويرين على جدارين من معبدين لأبيديمك بالسودان. أحد المعبدين بالنقعة والآخر بالمصورات الصفراء (الشكل رقم6). يُرَى أبيديمك في التصويرين متصدراً صفين، علويًا وسفليًا، من المعبودات بما فيها أمون رع، الذي يليه مباشرة في الصف العلوي ويتأخر عنه جدًا في الصف السفلي (الشكل رقم6). فكما هو واضح إذن، هنالك ازدواجية في المعبودات، سودانية ومصرية، في الفترة المروية. انعكست هذه الازدواجية في

المعابد، كما سيُذكر فيما بعد في العمارة الدينية التعبدية. فبنيت معابد على النمط المصري التقليدي متعدد الغرف والصالات والأبهية لأمون رع، بينما بـُنيت معابد أخرى على النمط السوداني المكون من صالة واحدة، بأعمدة داخلها أو خارجها أو داخلها وخارجها معًا، للمعبود الأسد أبيديمك.

الديانة الجنائزية :

الديانة الجنائزية هي كل ما يتعلق بالمعتقدات المقرونة بالموت والموتى، والحياة الآخرة. لقد كان للسودانيين تصور واضح عن الحياة الآخرة، كالذي كان عند المصريين. لذا حفلت مدافنهم بالأثاث الجنائزي المتنوع الثري أحياناً بالرغم مما عانته من نهب شديد. كان من أهمه ودائع الأساس في المدافن الهرمية واللوحات الجنائزية (funerary stelae) وموائد القرابين، كما كثرت تماثيل المجيبات في المدافن الملكية خلال الأسرة الخامسة والعشرين، والفترة النبتية الثانية. فبنوا المدافن التي تفاوتت ما بين هرمية مقصورة على الأسرة المالكة في الكرو ونوري ومروي (البجراوية) الجنوبية والشمالية وجبل البركل، وهرمية أيضًا لأقارب الأسرة الملكية بالجبانة الغربية بمروي، وغير هرمية لسراة القوم بالجبانة الغربية بمروي وللسراة وغيرهم في غيرها من الجبانات. وذلك على النحو المبين في الحديث عن العمارة فيما بعد.

ولئن كانت هنالك قواسم مشتركة في الديانة الجنائزية بين السودانيين والمصريين، فقد كانت هناك تباينات واضحة في السودان. منها على سبيل المثال وضع الموتى على أسرَّة منذ فترة كَرْمة (2500 - 1500 ق.م) إلى الفترة النبتية الثانية (663 - 591 ق.م)؛ وجود ضحايا بشرية وحيوانية معهم في فترة كَرْمة خاصة؛ الالتزام بتوجيه بوابات المدافن ووجوه الموتى نحو الجنوب الشرقي في كل الجبانات السودانية تقريباً، شماليتها وجنوبيتها سواءً (انظر : الشكلين رقمي 7 و8)، منذ المجموعة الحضارية الثانية (المجموعة ج سابقاً) إلى الفترة المروية؛ والدعاء للميت بالماء والخبز في الفترة المروية، بدلاً من الخبز والجعة والعدد الكبير من القرابين التي كان يدعى له بها في مصر، أو في السودان خلال الأسرة الخامسة والعشرين السودانية والفترة النبتية الثانية.

العمارة :

العمارة عامة :

العمارة السودانية القديمة صنفان رئيسان؛ صنف مدني، وآخر ديني تعبدي وجنائزي. أفضل ما تبقّى من آثار العمارة كان للعمارة الدينية بنوعيها، وذلك لطبيعة مواد بنائها الصلبة نسبياً بعكس مواد العمارة المدنية الهشة، ولأن أكبر عمليات التنقيب كانت في المعابد والجبانات، والملكية منها خاصة.

العمارة المدنية :

باستثناء أمثلة قليلة عثر عليها في مواقع أثرية معدودة عائدة لما قبل كرمة وللفترة النبتية الثانية (661 - 591 ق.م) في كَرْمة وكَوَّة مثلاً، فإن معظم آثار العمارة المدنية تعود للفترة المروية (591 ق.م – 340م). هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإنه لم يبق لنا من العمارة المدنية سوى المخططات في معظم الأحوال، وذلك لأن مواد البناء كانت هشة فانية، هي : الطين واللبن والآجر والقش والبوص في معظم الأحوال. لم تستخدم الحجارة إلا في أساسات المباني الضخمة، نحو "مقر الحاكم " أو " الحوش الكبير " في المصورات الصفراء، ومباني فرس الضخمة،والقلعة والمنزل رقم 2 بكرنوق، والمباني المروية المبكرة بجزيرة دباروسا. وفي مروي (البجراوية) العاصمة نفسها كانت أهم المباني من الطوب المحروق لظواهر الحيطان وغير المحروق لبواطنها.

لقد أثبتت بقايا بعض المباني أنها كانت واسعة، متعددة الغرف والأدوار، وبها أدراج، ذات حيطان ضخمة لتتحمل الارتفاع والثقل.

العمارة الدينية عامة :

العمارة الدينية عامة صنفان كما يتضح مما ورد آنفًا؛ صنف تعبدي، تمثله المعابد، وآخر جنائزي تمثله المدافن. أما المعابد الجنائزية فهذا صنف ثالث لم يُعثر له على أثر في السودان بعدُ.

والعمارة التعبدية نفسها فئتان؛ فئة المعابد المصرية التقليدية الطابع، وفئة المعابد السودانية الطابع. من الفئة الأولى ما بناه سودانيون؛ نحو معبد أمون لتهارقو (690 – 664 ق.م) في كوَّة (الشكل رقم 4)، ومعبد أمون لنتك أماني وزوجته أماني توري (1 - 20م) في النقعة. ومنها أيضاً ما بدأه مصريون وأكمله أو أضاف إليه سودانيون؛ نحو معبد أمون بجبل البركل (اللوحة رقم 5)، الذي كان معبداً مصرياً صغيراً وسَّعه وكبّره بيِّي (بعانخي).

أما فئة المعابد السودانية الطابع فهي من ذوات الغرفة الواحدة، بأعمدة داخلها، أو خارجها حول جدرانها، أو داخلها وخارجها معاً. هي معابد المعبود السوداني الأسد أبيديمك؛ كالذي بناه أرنيخ أماني (235 - 218 ق.م) في المصورات الصفراء، وكاللذين بناهما نتك أماني وزوجته أماني توري بكل من مروي (البجراوية) والنقعة (الشكل رقم 5) أيضاً.

العمارة الدينية الجنائزية :

المقصودُ بالعمارة الدينية الجنائزية المدافنُ، الهرمية وغير الهرمية بالسودان. المدافن الهرمية خاصة بالأسرة الملكية وأقاربها، لم تبدأ في السودان إلا بعد حكم السودان لمصر. كان أولها هرمُ الملك بيِّي (بعانخي، 747 – 716 ق.م)، مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين وآخرَها في القرن الرابع الميلادي من الفترة المروية. وذلك ما يعني استمرار تقليد بناء الأهرام في السودان لأكثر من ألف سنة. أشهر المدافن الهرمية وأكثرها عددًا هي التي في الجبانات الملكية في الكرو، ونوري، والبركل، ومروي الجنوبية والشمالية، ومدافن أقارب الأسرة المالكة في الجبانة الغربية بمروي أيضًا.

تتقدم الهرم مقصورة جنائزية من جهة الجنوب الشرقي، على مسافة منها وفي الاتجاه نفسه حفرة تؤدي إلى درج هابط يؤدي عائدًا إلى غرفة الدفن عبر باب خاص بها. يحيط بالهرم وملحقاته سور مدخله من جهة الجنوب الشرقي أيضًا (انظر : الشكلين رقمي 7 و8).

تطورت الأهرام السودانية عن مقابر الأسلاف في الكرو، المذكورة بعد، باقتباس للهرم المصري كمجرد بناء علوي فوق المدفن التقليدي، لا يوظف للدفن. أما المدفن نفسه، فقد كان في جوف الأرض أسفل الهرم، تدرج من مجرد حفرة بها لحد أحيانًا إلى غرفة واحدة، فإلى ثلاث غرف متتالية أفقياً للملوك وغرفتين للملكات، ثم إلى غرفتين للملوك وغرفة واحدة للملكات حين ضاقت الأحوال في أواخر الفترة المروية.

أما المقابر غير الهرمية، فإن الواحدة منها لم تتجاوز حفرة تحت الأرض، بها لحد، يعلوها بناء دائري أو مربع، تتقدمه مقصورة جنائزية. بدأ هذا النوع في مدافن المجموعة الحضارية الثانية (المجموعة ج سابقاً)، واستمر في مدافن الأسلاف في الكرو بعد ذلك، فمقابر الحكام والأشراف في كل من الجبانة الغربية في مروي (البجراوية)، الجامعة للفترتين النبتية الثانية والمروية، وفرس وكرنوق، ونجع جاموس وغيرها، الراجعة كلها للفترة المروية.

الفـــــن :

حفظت الآثار نماذج كثيرة من الفن منها نحت التماثيل، والنحت الغائر والبارز والتلوين، والزخرفة، وغير ذلك من ضروب الفن. يظهر الأسلوب الفني المصري القديم في نحت التماثيل وتصاوير الملوك والمعبودات على جدران المعابد والمقصورات الجنائزية، بمخالفات وإضافات هنا وهناك في الفترة المروية خاصة. ولأن المجال لا يسع للتمثيل لكل ما ذكر، فلعله من المناسب هنا الاكتفاء بملحوظات ثلاث، هي الآتية بعد.

الملحوظة الأولى هي : إدخال السودانيين في الأسرة الخامسة والعشرين نزعةً نحو بعث القديم وواقعيةً صارمةً في نحت التماثيل ازدهرت فيما بعد في الأسرة السادسة والعشرين الصاوية. والملحوظة الثانية هي: الإبداع في صناعة الفخار، منذ فترة كرمة (اللوحة رقم 6) ، ليبلغ ذروته في الفترة المروية (اللوحة رقم7). والملحوظة الثالثة هي : النزعة التجريدية في الفترة المروية، وخاصة في صناعة تماثيل الروح (**البا** باللغة المصرية القديمة. اللوحة رقم 8) ، وفي الزخرفة بالطبيعة الحية والجامدة على الفخار (الشكل رقم9).

الاقتصاد والتجارة :

كما سبق ذكره في الحديث عن الأرض، ولا حاجة لتكراره هنا؛ فإن اقتصاد البلاد كان زراعياً ورعويًا في معظمه، سواءً أكانت البيئة الجغرافية الطبيعية هي وادي النيل أم خارجه. ففي الزراعة غلبت زراعة الحبوب، إلى جانب القطن في البطانة. وفي الرعي غلبت الأبقار. لكن الاقتصاد عرف تنوعات أخرى في الصناعة والتجارة. ففي جانب الصناعة عرف استخراج المواد الخام كالحديد والذهب مثلاً. دلت على الحديد الخام مصاهره التي عثر عليها في مروي (البجراوية) بصفة خاصة، مما حدا بمكتشفها البريطاني جون غارستانغ لأن يقول: "يبدو أن مروي كانت بيرمنجهام أفريقيا". أما الذهب، فقد كان من وفرته واشتهار البلاد به أن سمِّي **نبو ن كوش** "ذهب كوش" في النقوش المصرية القديمة. وإلى جانب المواد الخام كانت هنالك المصنوعات الفخارية، والخشبية، والعاجية، والخشبية المطعمة بالعاج، والزجاجية، والمعدنية، التي فاضت بها المدافن الملكية وغير الملكية. يضاف إلى ذلك صناعة المنسوجات القطنية.

أما التجارة فقد كانت نشطة داخلياً وخارجياً. وعُرفت أهمُّ طرقها الداخلية، والأخرى المؤدية إلى الخارج أيضًا. كانت أهمُّ الطرق خمسة. نوردها حسب ترتيبها الجغرافي، لا الزماني. أولها طريق الذهب الشمالي المؤدي من بوهين على نهر النيل إلى البحر الأحمر. وثانيها "درب الأربعين (يوماً)" المؤدي من دارفور إلى شمال السودان ومنه إلى مصر. وثالثها طريق وادي النيل الممتد من شمال السودان إلى جنوبه، الذي سلكته التجارة من السودان إلى مصر وإليه أيضاً. ورابعها من السودان إلى أكسوم وإليه أيضاً، عن طريق سنار القديمة. والخامسُ كان الطريقَ المتشعبَ المنطلقَ من مروي (البجراوية) شرقاً إلى أكسوم أيضًا.

لعل أزهى فترات التجارة الداخلية والخارجية السودانية القديمة كانت في ما بين القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي، حين كان معظم النوبة المصرية الحالية جزءاً من مملكة كوش في الفترة المروية، وساهمت العلاقات الطيبة بين السودان ومصر الرومانية بعد 20 قبل الميلاد في تهيئة المناخ المناسب لازدهار التجارة بين البلدين. فأثمرت عن ازدهار اقتصادي ورفاهية اجتماعية في السودان، وشماله خاصة، انعكست في المعثورات الأثرية في معظم الجبانات السودانية الكبرى؛ في مروي العاصمة، كما في كرنوق في النوبة المصرية الآن، وفرس في النوبة السودانية، مثلاً. بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادي والرفاهية فتحت الصلات التجارية مع مصر الرومانية باباً لاتصال السودان بعالم البحر المتوسط.

الصلات بين السودان وجيرانه :

وثقت لنا الآثار صلات بين السودان وجيرانه الأقربين والأبعدين. وتفاوتت في مقادير توثيقها لهذه الصلات. فيما يلي عرض موجز لصلات السودان القديم مع مصر وحوض البحر المتوسط، والجزيرة العربية، وأكسوم.

الصلات مع مصر وحوض البحر المتوسط :

كانت أوثقُ صلات السودان القديم مع مصر بطبيعة الحال. ظهرت في مشترك حضاري في نواح كثيرة من حضارة السودان القديم، دلت عليها آثار لا تحصى في السودان ومصر.

في بعضها ما يشير إلى مساهمات مشتركة من البلدين. شمل هذا المشترك الديانة، معبوداتٍ وعاداتٍ جنائزية، وكتابة للغة المصرية القديمة في السودان لما يزيد على عشرة قرون، وتبادلاً للحكم بحكم أحدهما للآخر كله أو بعضه لفترة من الزمان، بحكم مصر شمال كوش خلال الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وبعض الأسرة العشرين، وبحكم السودان لمصر مكوناً أسرتها الخامسة والعشرين.

وكان للحكمين المتبادلين عظيم الأثر في تعميق التواصل الحضاري بين السودان ومصر. استمر التواصل الحضاري بعد الأسرة الخامسة والعشرين، بالرغم من التوترات المتفرقة إبان العهود التي أعقبتها، وهي فترات حكم الأسرة السادسة والعشرين الصاوية (663 – 525 ق.م)، والفرس (525 - 359، 343 - 334 ق.م) والبطالمة (305 - 30 ق.م)، والسنوات العشر من حكم الرومان لمصر (30- 21 ق.م). ففي 23ق.م ، من الفترة المروية،غزت إحدى الملكات الكنداكات صعيد مصر،مما أدى إلى غزوة رومانية تأديبية لشمال السودان في 21 ق.م، أعقبها تثبيت الحدود في محرقة. فسادت بعد ذلك علاقات ودية بين السودان ومصر الرومانية أثمرت عن ازدهار اقتصادي عظيم ونهضة حضارية، وعمرانية بصفة خاصة في السودان، ووثقت صلته بحوض البحر المتوسط الهلّينستي والروماني.

تمثلت صلة السودان بحوض البحر المتوسط في المعثورات اليونانية الرومانية الكثيرة في جبانات الفترة المروية، وفي وجود روماني في دگـة على الأقل، وفي تعريف للعالم اليوناني الروماني بالسودان بصفة عامة وإثر زيارات قام بها بعض الكُتّاب الكلاسيكيين إلى السودان، إثيوبيا حسب تسميتهم له، بصفة خاصة؛ مثل داليون، وأريستكريون، وبيون، وسيمونيد الأصغر. فمن هؤلاء ألف داليون كتابًا عن السودان، وأقام سيمونيد الأصغر لأربع سنوات في مروي (البجراوية) وخلّف كتابًا أسماه "إثيوبيكا (Aethiopica)"، ضاع للأسف الشديد. فلعله كان في هذا الكتاب شيء ما عن اللغة السودانية القديمة (المروية) كان سيساعد الباحثين في فك رموزها التي لم تزل تعييهم.

الصلات مع الجزيرة العربية :

لم توثق الآثار صلات السودان القديم بالجزيرة العربية بالقدر الكافي بالرغم من الدلالات الأخرى الواضحة عليها. أهم هذه الدلالات وجود قبائل البجا في شرق السودان بلغتها ذات الوشائج العربية الواضحة، والبلويين المُسَمِّين "البليميين" (Blemmyes) عادة، وتدفق القبائل العربية بعامة قبل الإسلام في السودان خلال أواخر الألف الأولى قبل الميلاد والنصف الأول من الألف الأول الميلادي. كل ذلك تقدم الحديث عنه بشيء من التفصيل من قبل في القسم عن السكان.

الصلات مع أكسوم :

كانت للسودان صلات مع أرض الحبشة القديمة منذ عصور ما قبل التاريخ. لكن أوضح الصلات كانت في فترة أكسوم بعد القرن الأول الميلادي ، أي في أواسط الفترة المروية، كما كانت تجارية بصفة خاصة وتسلك عدة طرق؛ بعضها مباشر شرقاً عبر البطانة (الخارطة)، وبعضها الآخر عن طريق النيل الأزرق جنوباً إلى سنار ومنها إلى أكسوم. لقد ظل الطريق الآخر مطروقاً إلى العصر الحديث. كما أن هناك ما يوحي بإشارة في الكتاب المسمى دليل البحر الإرتري (البحر الأحمر) إلى تجارة بين سنار وأكسوم، التي كانت محطة تجارية في الطريق إلى ساحل البحر الأحمر. ويرى المؤلف أن الصلات التجارية السودانية مع أكسوم كانت أهم الأسباب في ظهور أكسوم كمحطة تجارية مهمة أولاً، ثم كمملكةٍ ظهرت فيما بعد في القرن الأول الميلادي، وأن ضَعْفَ هذه الصلات قليلاً قليلاً ثم انقطاعها

بعد القرن الرابع الميلادي أدى إلى ضعف مملكة أكسوم ودخولها في عصورها المظلمة بعد القرن السادس الميلادي.

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية:

- الأمين، يوسف مختار ، عبدالقادر محمود - عبدالله، ضرار صالح ضرار 2001

هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل. مصر والسودان

- عبدالله، عبدالقادر محمود 1986

اللغة المروية. الجزء الأول. ما هي؟ أبجديتها وطبيعة كتابتها. قصة فك رموزها.

- عبدالله، عبدالقادر محمود 1986

"هل الكتابة المروية على النمط السامي ؟ رأي جديد"(دراسات في الآثار 1 :175-.200)

- عبدالله،عبدالقادر محمود 1986

بيِّي (بعانخي).أول ملك سوداني على السودان وصعيد مصر.

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Abdalla,Abdelgadir, M. 1974

Studies in Ancient Languages of the Sudan.

- Abdalla,Abdelgadir, M. 1978

"A Study of a Meroite Extended Family", Nubian Studies:6-24

- Abdalla,Abdelgadir, M. 1982

"Meroitic Funerary Customs and Beliefs: from Texts and Scenes", Meroitica 6:61-104.

- Abdalla,Abdelgadir, M. 1984

"Meroitic Social Stratification", Meroitica 7:23-84.

- Abdalla,Abdelgadir, M. 1988

"Napatan-Meroitic Continuity: Kush and Kushiteness", Meroitica 10:876-883.

- Abdalla,Abdelgadir, M. 1989

"Beginnings of Insight into the Possible Meanings of Certain Meroitic Personal Names:(2)Verbal Sentences and Sentences that are partly Verbal and partly non-Verbal", in Zach, M. (ed.), Beiträge zur Zudanforschung 4:9-62.

- Abdalla,Abdelgadir, M. 2003

"Survey of Languages and Literacy in the Ancient Sudan (The Kingdom of Kush): (1) Ancient Egyptian and Meroitic", Adumatu 7:29-48.

- Adams, W.Y. 1964

"An Introductory Classification of Meroitic Pottery", Kush XII:126-173.

- Ahmed, K.A. 1999

"Economy and Environment in the Empire of Kush", Meroitica 15: 291-311.

- Ahmed, S. 1989

"A Napatan Residential Building at Kerma", Meroitica 10:843-852.

- Ahmed, S. 1992

L'Agglomération napatéenne à Kerma. Enquête archéologique et ethnographique en milieu urbain.

- Allen, T. 1974

The Book of the Dead or Going Forth by Day.

- Almagro, M. et als., 1965

La Necropolis Meroitica de Nag Gamus (Masmás, Nubia Egipcia).

- **La Caixa, 2003**
Nubia. Los Reinos del Nilo en Sudán. Institut du Monde Arabe, Soudan Royaumes. نسخة sur le Nil (1997)

- **Castiglioni Angelo & Alfredo 2004**
"Gold in the Eastern Desert", in Welsby, D.A. & Anderson, Julie (eds.), Sudan. Ancient Treasures:122-126.

- **Catstiglioni A. & A. and G. Negro 1999**
"The Ancient Gold Route from Buhen to Berenice Panchyros", Meroitica 15:501-510.

- **Chapman, Suzanne with text by Dunham, D. 1952**
The Royal Cemeteries of Kush III: Decorated Chapels of Meroe and Barkal.

- **Dafa'alla, S. 1999**
"The Origin of the Napatan State", Meroitica 15:127-128.

- **Desanges, J. 1968**
"Vues Grecques sur quelques aspets de la monarchie méroïtique", Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale LXVI:89-104.

- **Dunham, D. 1950**
Royal Cemeteries of Kush I. El Kurru.

- **Dunham, D. 1955**
Royal Cemeteries of Kush II. Nuri.

- **Dunham, D. 1957**
Royal Cemeteries of Kush IV. Royal Tombs at Meroe and Barkal.

- **Dunham, D. 1963**
Royal Cemeteries of Kush V.The West and South Cemeteries.

- **Dunham, D. 1970**
The Barkal Temples.

- **Almkvist, Herman 1881**
Die Bischari-Sprache Tū-Bedāwie in Nordost Afrika

- **Anderson, Julie 2004**
with Welsby, D.A. (eds.).

- **Beck, L.A. 1999**
"Demographic Data for Human Skeletons Recovered from El-Kurru", Meroitica 15:160-163.

- **Bersina, S.J. 1999**
"Bildnisse meroitischer Könige auf antiken Gemmen", Meroitica 15: 467-483

- **Bonnet, Ch. 1984**
Un bâtiment napatéenne à Kerma. Premières Interpretations", Meroitica 10:853-861..

- **Bonnet, Ch. 1989**
"Aux Origines des Palais Kouchites", Meroitica 15:484-494.

- **B.V. Bothmer, B.V. et als. 1973**
repr. Egyptian Sculpture of the Late Period (2nd repr.).

- **Breasted, H. 1906**
Ancient Records of Egypt 1 & 4.

- **Brooklyn Museum, 1978**
Africa in Antiquity. Arts of Nubia and the Sudan I. The Essays; II. St. Wenig, The Catalogue.

- **Budge, E.A.W. 1921**
Annals of Nubian Kings.

- **Burckhardt, A. 1985**
Ägypter und Meroiten im Dodekaschoenos, Meroitica 8.

- **Burstein, Stanley, 1979**
"Nubian Campaigns of C. Petronius and George Reisner's Second Meroitic Kingdonm of Napata", Zeitschrift für Ägyptische Sprache 106:95-105.

- **Goedicke, H. 1981**
"The campaign of Psammetik II against Nubia", Mitteilungen des deutschen archäologischen Instituts.Abteilung Kairo 37:187-198.

- **Griffith, F.Ll. 1911a**
The Meroitic Inscriptions I.

- **Griffith, F.Ll.1911b**
Karanòg. The Meroitic Inscriptions of Shablûl and Karanòg.

- **Griffith, F.Ll.1918**
"Meroitic Studies IV: The Graffiti of the Dodecaschoenus", Journal of Egyptian Archaeology IV:159-173.

- **Griffith, F.Ll.1924**
"Oxford Excavations in Nubia", Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology 11: 14-18.

- **Griffith, F.Ll.1935**
Catalogue of the Demotic Graffiti of the Dodecaschoenus I. Plates.

- **Grimal, N. 1981**
La stèle triomphale de Pi(ankh)y au Musée du Caire (JE48862 et 47086-47089), MIFAO CV.

- **Grzymski, Krzysztof, 2004**
"Meroe", in Welsby, D.A. & Anderson, Julie, op. cit.:165-167.

- **Hägg, T. 1984**
"A New Axumite Inscription in Greek from Meroe", Meroitica 7:436-441.

- **Hakem, A.M. 1988**
The Meroitic Architecture.

- **Hasan, Y.F. 1967**
The Arabs in the Sudan (1967).

- **Hinkel, Friedrich, 1984**
"Die meroitische Pyramiden: Formen, Kriterien und Bauweisen", Meroitica 7: 310-331.

- **Dunham, D. & Macadam,, M.F.L. 1949**
"Names and Relationships of the Royal Family of Napata", Journal of Egyptian Archaeology 35:139-149.

- **Edwards, D.N. 1999**
"Meroe in the Savannah – Meroe as a Sudanic Kingdom ?", Meroitica 15:312-320.

- **Eisa,,K.A. 1999**
Le mobilier et les coutumes funéraires kouchites à l'époque méroïtique . Meroitica 16.

- **Fantusati, E. 1999**
"Aspetti della presenza romana a Pselchis", Meroitica 15:543-553.

- **Fattovich, Rodolpho 1982**
"The Problem of Sudanese-Ethiopian Contacts: status quaetionis and Current Trends of Research", Nubian Studies:76-86.

- **Faulkner, R.O. 1969**
The Ancient Egyptian Pyramid Texts.

- **Faulkner, R.O. 1877**
The Ancient Egyptian Coffin Texts I .

- **Faulkner, R.O. 1978**
The Ancient Egyptian Coffin Texts II..

- **A. H. Gardiner, 1949**
Ancient Egyptian Onomastica I & II.

- **Garstang G. et als., 1914-1916**
"Fifth Interim Report on the Excavations at Meroe in Ethiopia", Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology 7:1-24.

- **Garstang, G., Sayce, A.H., Griffith, F.Ll. 1909**
Meroe. The City of the Ethiopians.

- **Geus, Francis 2004**
"Funerary Culture", in Welsby, D.A. & Anderson, Julie, op. cit.:274-307.

- **Kormysheva, E.Y. 1999**
"Remarks on the Position of the King's Mother in Kush", Meroitica 15:239-251.
- **Leclant, J. 1965**
Recherches sur les monuments thébains de la XXe dynastie dite éthiopienne.
- **Leclant, J. 1968**
"Kashta. Pharaon en Égypte", Zeitschrift für Ägyptiche Sprache 90:74-81.
- **Leclant, J. 1984**
"Meroe et Rom", Meroitica 10:29-45.
- **Leclant, J. 1997a**
"L'Égypte au Soudan. L'Ancien et Moyen Empire", Institut du Monde Arabe, op. cit.: 71-77.
- **Leclant, J. 1997b**
"L'Égypte au Soudan. Le Nouvel Empire", Institut du Monde Arabe, op. cit.:117-127.
- **Lepsius, C. 1849-1859**
Denkmaeler aus Aegypten und Aethiopien. Band X, Abteilung V: Bl. 1-75.
- **Lohwasser, A. 1999**
"Die Darstellung der Tracht der Kuschitinnen der 25 Dynastie", Meroitica 15:586-603.
- **Luckenbill, D. 1924,1926**
Ancient Records of Assyria and Babylonia.
- **Macadam, M.F.L. 1949**
The Temples of Kawa I. The Inscriptions. Text.
The Temples of Kawa I. The Inscriptions. Plates.
- **Macadam, M.F.L. 1955**
The Temples of Kawa II. History and Archaeology of the Site. Text.
The Temples of Kawa II. History and Archaeology of the Site. Plates.
- **Hinkel, Friedrich, 1997**
"L'Architecture Méroïtique", Institut du Monde Arabe, Soudan. Royaumes sur le Nil: 391-416.
- **Hintze, Fr. 1959**
Studien zur meroitischen Chronologie und zu den Opfertafeln aus den Pyramiden von Meroe:17-19.
- **Hintze, Fr. 1962**
Die Inschriften des Löwentempels von Musawwarat Es Sufra.
- **Alte Kulturen im Sudan. 1978**
"The Meroitic Period", in Brooklyn Museum, Africa in Antiquity . I The Essays: 89-105.
- **Hintze, Fr. 2000**
(posthumously), "Meroe and the Noba", Der Antike Sudan (Mitteilungen der Sudanarchäologischen Gesellschaft zu Berlin. e.V. Heft 10:49-55.
- **Hintze Fr. et als., 1993**
Musawwarat Es Sufra. 1.1 Der Löwentempel . Textband . (with plans).
- **Hofmann, I. Tomandl, H., Zach, M. 1989**
"Beitrag zur Geschichte der Nubier" ,Meroitica 10:269-298.
- **Honegger, Matthieu, 2004**
"The Pre-Kerma Settlement", in Welsby , D.A. & Anderson , Julie (eds.), op. cit.: 64-66;
- **Institut du Monde Arabe, 1997**
Soudan. Royaumes sur le Nil.
- **Kendall, T. 1997**
"Napata et la Dynastie des Kouchites. Les Souverains de Montagne Sacré 1000-856 Av. J. C.", in Institut du Monde Arabe, op. cit.:158-171.
- **Kendall, T. 1999**
"The Origin of the Napatan State", Meroitica 15:3-126.

- **Pomerantseva, N.A. 1999**
"The View on Meroitic Kings and Queens as it is reflected in their Iconography", Meroitica 15:623-632.
- **Radwan, A. 1999**
"Concerning the Deification of the Monarch in the Empire of Kush", Meroitica 15: 255-272.
- **Reinisch, L. 1893**
Die Bedauye-Sprache in Nordost Afrika I.
- **Reinisch, L. 1895**
Wörterbuch der Bedauye-Sprache.
- **Reisner, G.A. 1920**
"The Viceroys of Kush", Journal of Egyptian Archaeology IV: 28-55, 77-88.
- **Reisner, G.A. 1923**
Excavations at Kerma. Part I-III..
- **Reisner, G.A. 1931**
"Inscribed Monuments from Gebel Barkal", Zeitschrift für Ägyptische Sprache 66:76-100.
- **K-H. Priese, 1978**
"The Napatan Period", Brooklyn Museum, Africa in Antiquity I:75-88,
- **K-H. Priese, 1997**
"Les Royaumes de Napata et de Méroé", in Institut du Monde Arabe, op. cit.:204-250.
- **Roper, E.M.**
n.d. Tu Bedawie. An Elementary Handbook for the Use of Sudan Government Officials.
- **Sauneron, S. & Yoyotte, J. 1952**
"La campagne de Psammétique II et sa signification historique", Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale 50:157-207.
- **Säve-Söderbergh, T. 1949**
"A Buhen Stela of the Second Intermediate Period", Journal of Egyptian Archaeology 35:50-58,
- **Michalowski, K. 1965**
"Polish Excavations at Faras – Fourth Season 1962-63", Kush XIII:179.
- **Millet, N.B. 1974**
"Writing and Literacy in the Ancient Sudan", in Abdelgadir Mahmoud Abdalla (ed.), 1974, Studies in Ancient Languages of the Sudan:40-57.
- **Millet, N.B. 1984**
"Meroitic Religion", Meroitica 7:111-121,188-192.
- **Millet, N.B. 1999**
"Kingship and Kinship in the Empire of Kush", Meroitica 15:179-229.
- **Nordström, Hans-Åke 1962**
"Excavations and Survey in Faras, Argin and Gezira Debarossa", Kush X:49-50.
- **Nordström, Hans-Åke 2004**
"Pottery Production", in Welsby, D.A. & Anderson, Julie, op. cit.:248-273.
- **O'Connor, D. 1993**
Ancient Nubia. Egypt's Rival in Africa.
- **Priese, K-H, 1973**
"Zur Entstehung der meroitischen Schrift", Sudan im Altertum, Meroitica 1:273-306.
- **Priese, K-H, 1978**
"The Napatan Period", Brooklyn Museum, Africa in Antiquity I. The Essays:75-88.
- **Priese, K-H, 1997a**
"Les Royaumes de Napata et de Méroé", in Institut du Monde Arabe, op. cit.:204-217.
- **Priese, K-H, 1997b**
"Le Monde des Dieux", in Institut du Monde Arabe, op. cit.:265-269300.

- Trigger, B. 1978
"Nubian, Black, Nilotic", in Brooklyn Museum, Africa in Antiquity I. The Essays:26-35.

- Tylecote, R.F. 1982
"Metal Working at Meroe", Meroitica 6:29-35.

- Valbelle, Dominique. 2004
"Egyptians on the Middle Nile", in. Welsby D. A., Anderson, Julie (eds.), op. cit.: 92-99.

- Vercoutter, J. 1959
'The Gold of Kush", Kush VII:120-153.

- Vercoutter, J. 1990
"Le Batn-el-Haggar et ses fortresses égyptiennes", Soudan. 5000 ans d'histoire (1990): 58-61.

- Vincentelli, I., 1989
"A Civil Building in Meroitic Napata", Meroitica:10:869-871.

- Wainwright, G.A. 1945
"Iron in the Napatan and Meroitic Ages", Sudan Notes and Records 26:5-36.

- Welsby D.A., Anderson, Julie (eds.), 2004
Sudan, Ancient Treasures.

- Wenig, St. 1978
Brooklyn Museum, Africa in Antiquity II. The Catalogue.

- Wenig, St. 1984
"Gedanken zu einiger Aspekten der kuschitischen Architektur", Meroitica 7:381-408.

- Wildung, Dietrich. 1997a
"L'Image des Nubians dans l'Art Égyptian", Institut du Monde Arabe, op. cit.:144.

- Wildung, Dietrich.1997b
"La Céramique Méroïtique", Institut du Monde Arabe, op. cit.:342.

- Säve-Söderbergh, T.1956
"The Nubian Kingdom of the Second Intermediate Period", Kush IV:54-61

- Sayce , A.H. 1909a
"A Greek Inscription of a king (?) of Axum found at Meroe", Proceedings of the Society of Biblical Archaeology XXXI: 189-190.

- Sayce , A.H. 1909b
with Garstang, J, Griffith, F.Ll.

- Sayce , A.H. 1912
"Part II. The Historical Results", Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology IV :64-65.

- Shinnie, P.L. 1955
"The Fall of Meroe", Kush III:82-85.

- Shinnie, P.L. 1967
Meroe. A Civilization of the Sudan.

- Shinnie, P.L. , Kense, F.J. 1982
"Meroitic Iron Working", Meroitica 6:17-26.

- Smith, T.H. & A. 1976
"A Reconsideration of the Kamose Texts", Zeitschrift für Ägyptische Sprache 103:48-76.

- Tomandl, H. 1989
with Hofmann, I, Zach, M..

- Török, L. 1989a
"Kush and the External World", Meroitica 10:49—224,365-379.

- Török, L. 1989b
"Meroitic Art – Information and Illusions", Meroitica 10:535-546

- Török, L. 2004
"The Kingdom of Kush: Napatan and Meroitic Periods", in Welsby, D.A., Anderson, Julie (eds.), op. cit.:132-137.

- **Woolley C.L , MacIver, D-R. 1910**

Karanòg. The Romano-Nubian Cemetery, Text.

Karanòg. The Romano-Nubian Cemetery, Plates.

- **Zach, M. 1992**

"Meroe: Mythos und Realität einer Frauenherrschaft im antiken Afrika", in Edith Specht (ed.), Nachrichten aus der Zeit:73-114.

- **Zach, M. 1944**

Äthiopen und Assyrer in Ägypten. Beiträge zur Geschichte der ägyptischer "Spätzeit": 9-46.

- **Wildung, Dietrich.1997c**

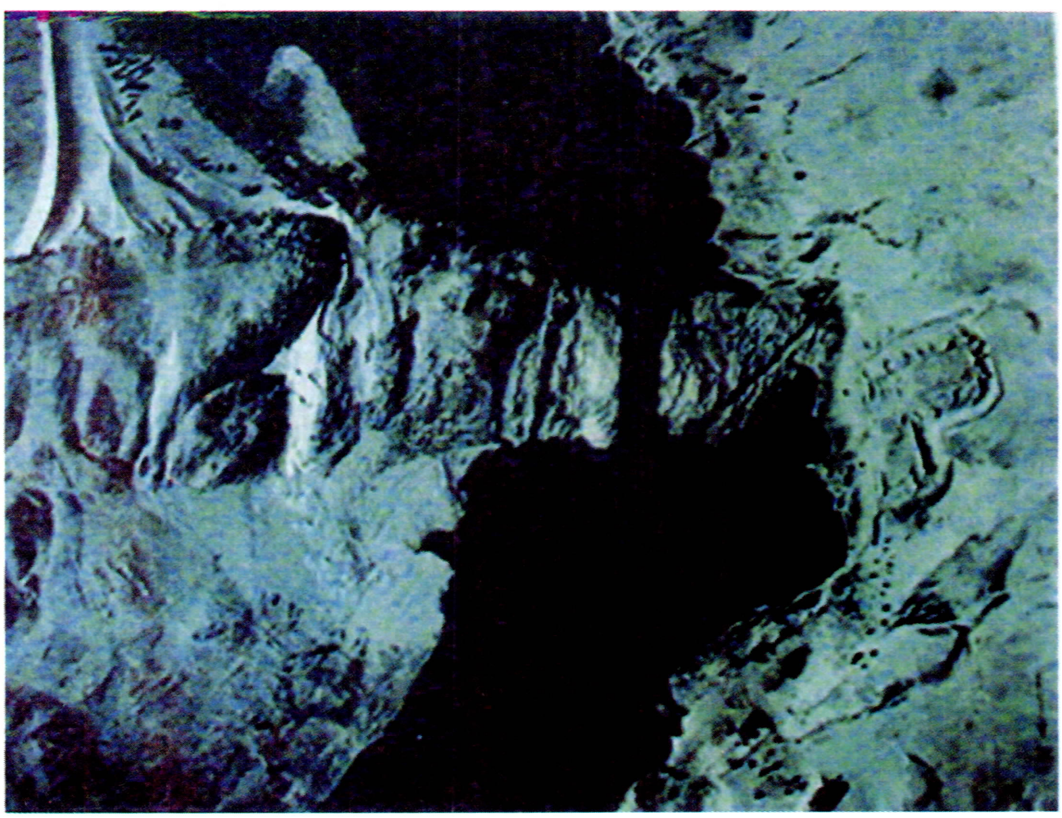
"Méroé et l'Héllenisme", Institut du Monde Arabe, op. cit.:370.

- **Wildung, Dietrich. 2004**

"Kushite Religion: Aspects of the Berlin Excavations at Naga", in Welsby, D.A.& Anderson, op. cit.: 174-177.

- **Woolley, C.L. 1911**

Karanòg. The Town.

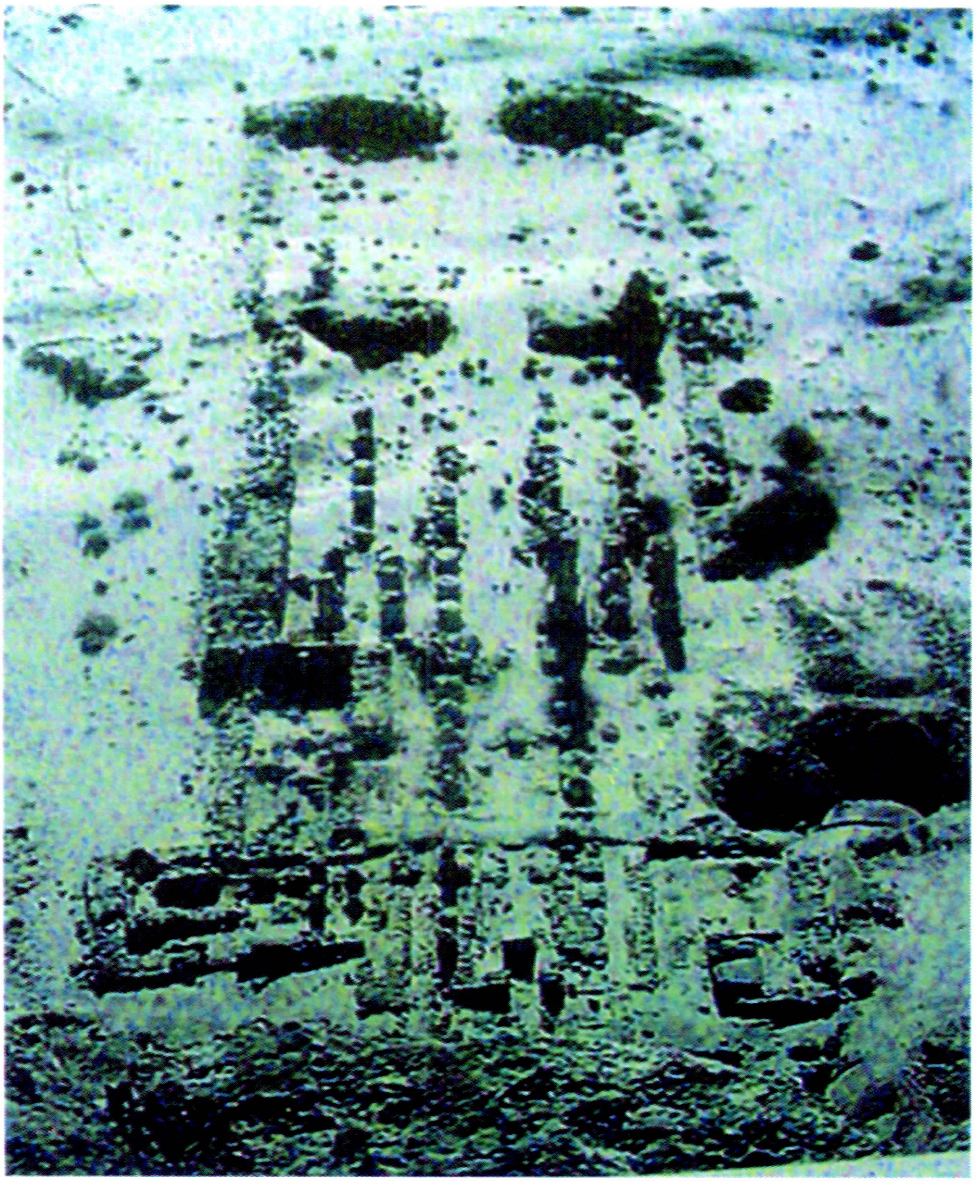


اللوحة 1: صورة جوية لسمنة شرق عن اليمين، وسمنة غرب (قمة) عن اليسار. عن
Ricardo A. Caminos, *Kush* XII (1964): Plate XXIII.



اللوحة4: رأس الملك شباكو، عليه الكبراءان. عن

St. Wenig, *Africa in Antiquity* (1978) II: 57 Figure 31.



اللوحة 5: آثار معبد آمون نبتا بجبل البركل. عن
Friedrich Hinkel, in Institut du Monde
Arabe, *Soudan. Royaumes sur le Nil*
(1997): 400 Ill. 53.



اللوحة 6 : من فخار فترة كرمة، كرمة. عن

Institut du Monde Arabe, *Soudon. Royaumes sur le Nil (1997) :*

110-111 III 117 - 119



اللوحة 7: فخار مروي من سمنة جنوب. عن

Institut du Monde Arabe, *Soudan.Royaumes sur le Nil* (1997): 351 II. 413.

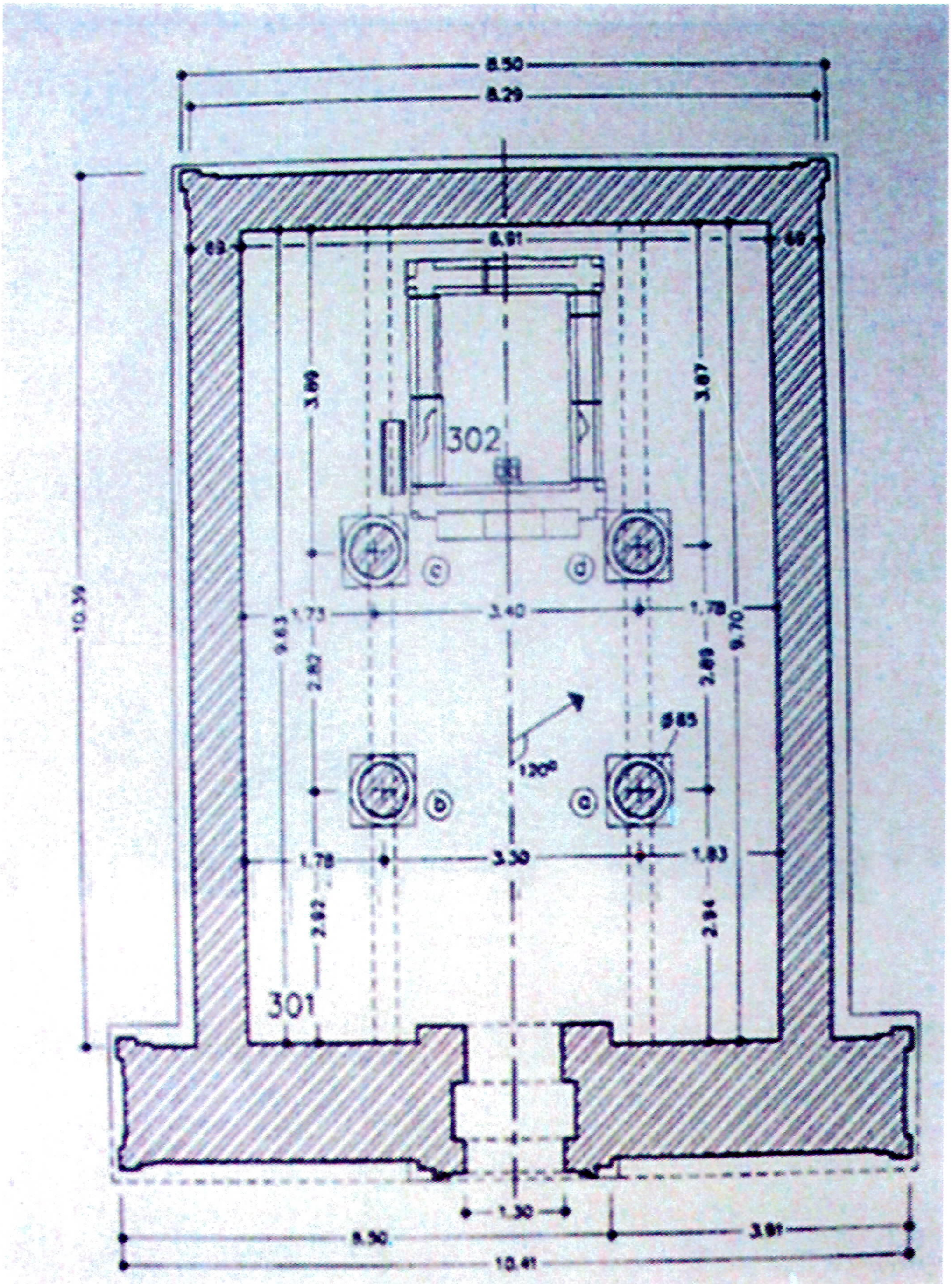


اللوحة 8: تمثال روح (با) مروي، كرنوق. عن
Institut du Monde Arabe, *Soudan. Royaumes sur le Nil* (1997): 289 Ill. 306.



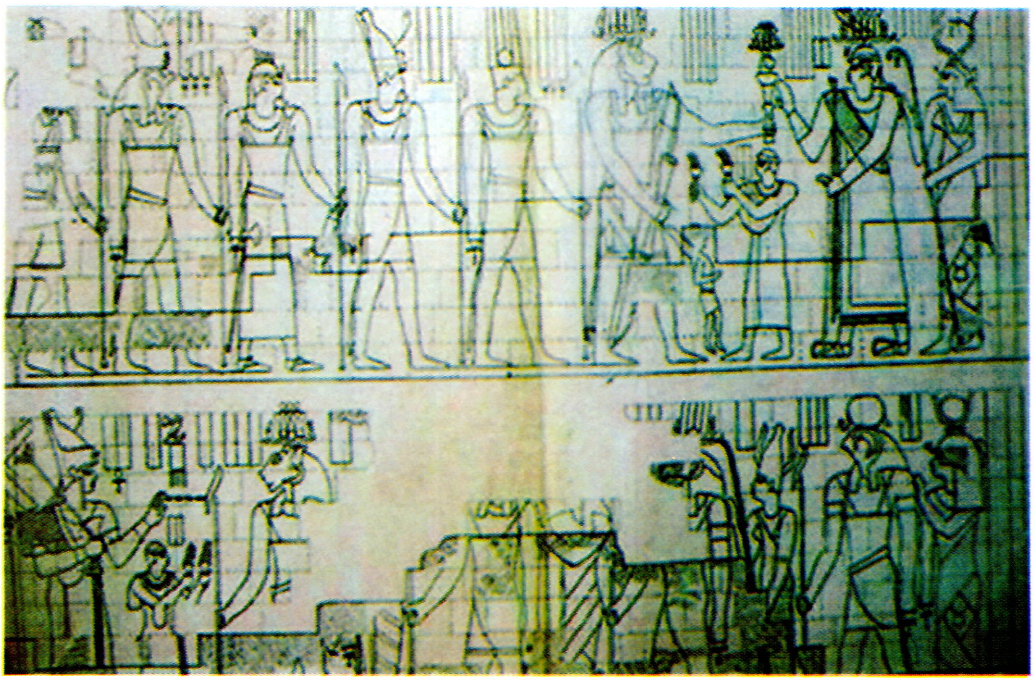
شكل 1 : زعماء كوش يقدمون الذهب لفرعون. مقبرة حوى. عن

J. Vercoutter, *Kush VII (1959) : 150 Figure 12.*



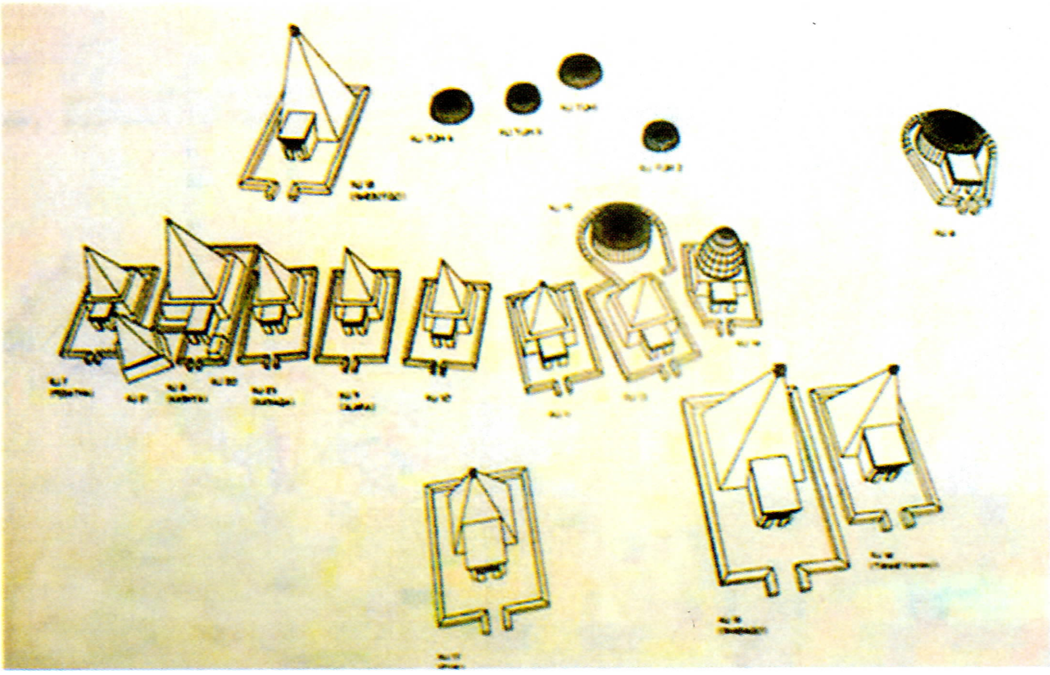
الشكل 5: مخطط معبد الأسد أبيديمك بالنقعة.عن

Friedrich Hinkel, *Soudan. Royaumes sur le Nil* (1997) 402 Ill. 56 .

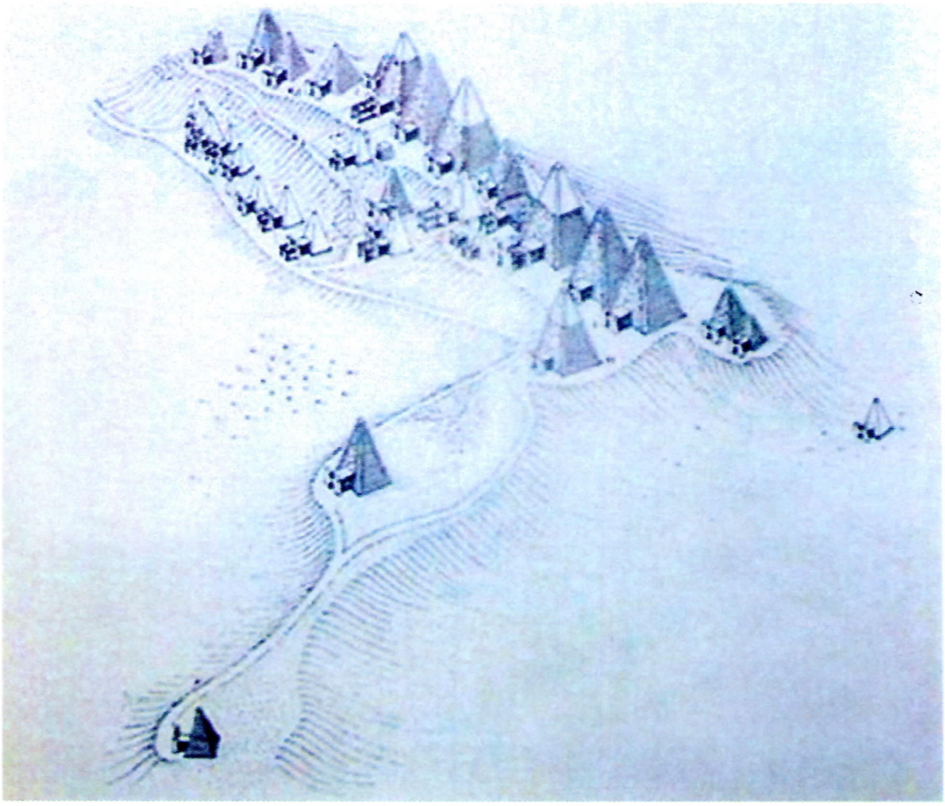


الشكل6 : مجموعة المعبودات على جدار معبد الأسد أبيديمك بالمصورات الصفراء. عن

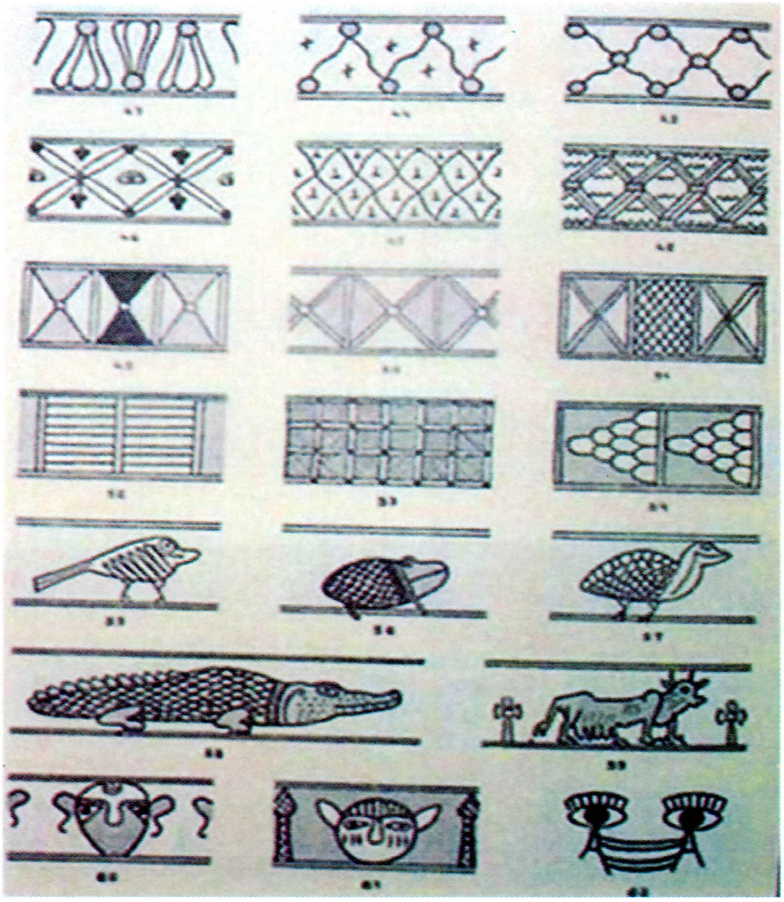
Fr.Hintze, *Die Inschriften des Loewentempels von Musawwarat Es Sufra (1962) Tafel II.*



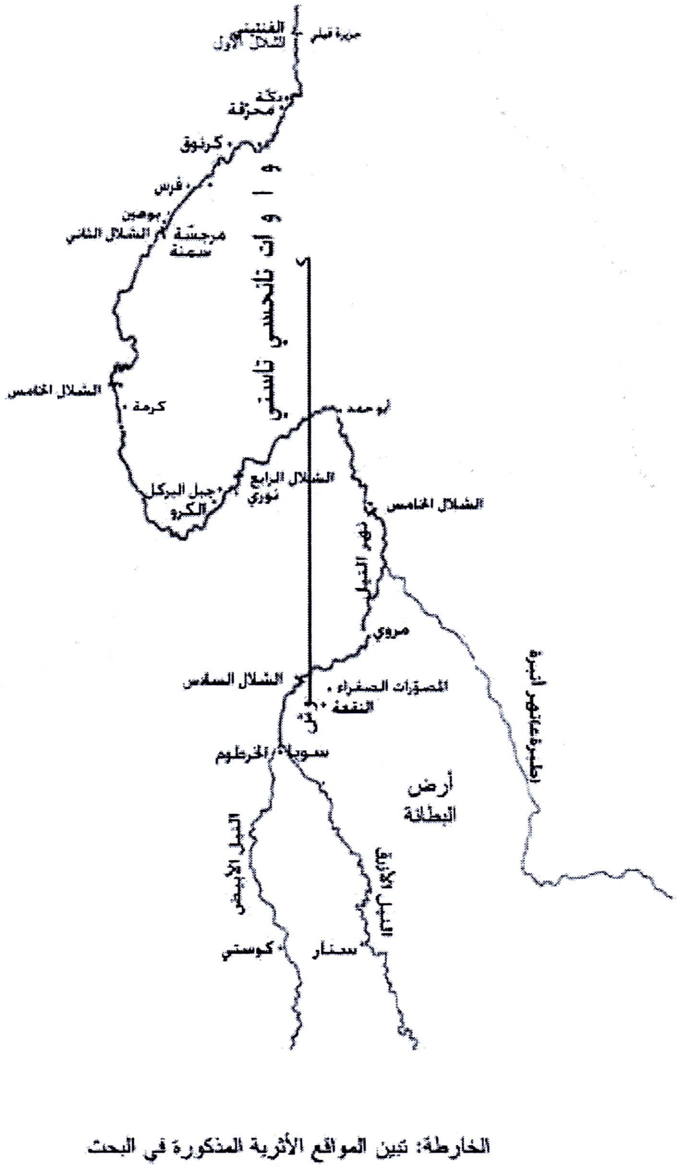
الشكل 7 : الجبانة الملكية بالكرو. عن T.Kendall, Meroitica 15 (1999) : 100 Figure 3



الشكل 8 : الجبانة الملكية بمروى. عن Friedrich Hinkel, *Soudan. Royamtes sur le Nil* (1997): 414 III 73.



الشكل 9 : عناصر طبيعية حية (حيونية ونباتية) وجامدة لزخرفة الفخار المروى. عن
W.Y. Adams, Kush XII (1964) : 150 Figure 12.



الخارطة: تبين المواقع الأثرية المذكورة في البحث

الأرض والسكان والحضارة في بلاد المغرب

تستند البحوث التاريخية الحضارية حول المغرب العربي في العصور القديمة إلى مصادر شتى بعضها أدبي تأريخي وبعضها نقائش وأطلال.

1- المصادر الأدبية التاريخية :

تتمثل هذه المصادر فيما صنفه القدماء حول المغرب العربي القديم، وجل هؤلاء القدماء، إن لم نقل جميعهم، من الإغريق والرومان .. وهم من أولئك الذين كتبوا في التاريخ والجغرافيا والأدب والشعر والحقوق والعلوم والفنون.

فهذا هيرودوتس وهو مؤرخ إغريقي عاش في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح، واشتهر بمصنفاته في تاريخ الشعوب القديمة مع تركيز على تلك التي تصادمت مع المدن الإغريقية كالفرس الميديين وعاصمتهم اكبتانا ومن ملوكهم قورش وداريوس. وقد أفرد هيرودوتس لسكان شمال أفريقيا فصلاً مطولاً تناول فيه القبائل والعادات والتقاليد في تلك الربوع، مستندًا إلى الرواية أساسًا والمعاينة ما أن توافرت أسبابها. ويبدو أنه زار مدينة قورينة ولعله اتصل ببعض القبائل اللوبية كالجرميين.

وفي مصنفاته أخبار تتعلق بقرطاج وبالمعارك التي شبت بينها والإغريق، ودارت رحاها في جزر المتوسط و في أفريقية نفسها، ومنها معركة هيمرة سنة 480 حيث التحمت جيوش هيرون، سلطان سرقوسة، بجيش قرطاجي تحت قيادة عبد ملقرت الماجوني.

لقد كتب الكثير حول هذه المعركة حتى جعل منها المؤرخون الغربيون منعرجًا حاسمًا في تاريخ المتوسط، بل يعتبرها بعضهم انتصارًا للغرب على الشرق .. وهذا حكم يعوزه السند. ومهما يكن من أمر، فلمؤرخ المغرب العربي القديم مادة غزيرة في مصنفات هيرودوتس يستطيع توظيفها لمعرفة ماضي تلك الربوع وعلاقاتها بغرب المتوسط وشرقه.

ومن المؤرخين الإغريق الذين تعرضوا في مصنفاتهم إلى المغرب الكبير، تجدر الإشارة إلى بوليبيوس، وهو من القرن الثاني قبل ميلاد المسيح، كما يفيد الباحث من مكتبة ديودوروس الصقلي. ولئن عاشا في القرن الأول قبل ميلاد المسيح فقد تناولا أحداثًا وأوضاعًا قديمة يرقى بعضها إلى ماض سحيق. ولا بد من إشارة إلى أبيانوس الذي كان كثيرًا ما يقتصر على نقل ما ورد في كتب سابقيه. فبخصوص قرطاج تراه ينقل ما كتبه بوليبيوس الإغريقي أوتيتوس لفيوس الروماني الذي عاش بين نهاية القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي على أنه لم يوجه عنايته نحو المغرب الكبير إلا مع الحروب القرطاجية الرومانية في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.

فالنصوص اللاتينية عديدة لكنها متأخرة، ولعل من أخطرها موسوعة كتبها ابلينيوس الأكبر الذي توفي سنة 79 ميلادية وقد فاجأته الغازات والحمم التي كان يقذفها إذذاك بركان فيزوف الذي قضى على مدينة بومباي. لقد تحدث ابلينيوس الأكبر عن أفريقة وقرطاج وبعض المدن والقبائل وعما كانت تتميز به الربوع الأفريقية من حيث نباتها والحيوان . وقد أشار ابلينيوس الأكبر إلى موسوعة تناولت علوم الزراعة وهي من تأليف عالم قرطاجي يدعى ماجون.

تلك بعض المصادر الأدبية التأريخية ذكرناها نموذجًا مع العلم أن كتبًا أخرى ومصنفات عديدة، بعضها إغريقي وبعضها لاتيني، يجد فيها الباحث مادة تساعده على التأريخ

للمغرب الكبير في العصور القديمة ولا يتسع المجال لاستعراضها استعراضًا شاملاً دقيقًا.

2- النقائش :

النقيشة وجمعها نقائش مصطلح يشير إلى كتابات سطرت على بعض المواد الصلبة كالحجارة والمعادن والعاج والعظام. ولقد عثر على مجموعات عديدة مختلفة مناسبة وموضوعًا. على أن أوفر تلك المجموعات عددا تتمثل في نصوص نقشت على أنصاب حجرية تم العثور عليها في بعض الأماكن المقدسة ومن أشهرها قدس بعل في قرطاج وهو الذي يسمى بتوفاة قرطاج أو بتوفاة صلامبو: فعلى أنصاب قدس بعل بصلامبو نصوص بونية الحرف واللغة يفيد منها المؤرخون لمعرفة المجتمع القرطاجي وحضارته المادية والروحية فضلا عن شؤون المجتمع والسياسة والاقتصاد والقضاء.

ولم تستأثر قرطاج بهذا النوع من الأماكن المقدسة، بل كشف الغطاء عن أمثاله في كل من سوسة بتونس وفي قسنطينة بالجزائر وفي صبراطة ولبدة بالجماهرية الليبية مع العلم أن جزءاً كبيرًا من نقائش الأنصاب القرطاجية سجل بعد وصف دقيق ودرس عميق في مجموعة النقائش السامية .. وهو مقسم إلى أجزاء وفصول وأفرد جزؤه الأول إلى النقائش الفنيقية المشرقية والنقائش القرطاجية وهي التي تهمنا في هذا البحث.

3- الأطلال والمعثورات الصلبة :

إنها المصادر الأثرية وتشمل ماتم إزاحة اللثام عنه من مواقع ومعالم ومعثورات صلبة أخرى تعود إلى الحقبة الزمنية التي يتنزل فيها بحثنا عن بلاد المغرب من فجر التاريخ إلى نهاية القرن الرابع ق.م. ومن أهم المواقع الأثرية وتيكة (بضم الواو) وقرطاج وهدريم (بفتح الهاء والدال) وهي التي تركت مكانها لمدينة سوسة على الساحل التونسي. أما عن المواقع البونية في ليبيا، فلا بد من ذكر ويـة (بياء مشددة مفتوحة) ولبقي وسبراطة ثم لا ننسى قورينة وأبولونيا وتكره وجميعها في شرق الجماهرية وهي من تأسيس جاليات إغريقية انتصبت في قورينة منذ القرن السابع قبل ميلاد المسيح.

ومن المواقع التي توجد أطلالها في الجزائر، نذكر مدينة كرطن وهي التي خلفتها قسنطينة وفي المغرب الأقصى، وكانت ربوعة تحمل اسم موريتانيا، توجد مواقع ومعالم تعود إلى ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد، ومن أعظمها ليكسوس ووليلي وتمودة.

وتشمل المصادر الأثرية معثورات منقولة كالفخار والنقود ودمى من طين مفخور ومجوهرات وغيرها مما يتم التقاطه أثناء حفريات في المواقع والمعالم، مدنية كانت أودينية. ثم لاننسى المعثورات الجنائزية أي ما قد يوضع في القبر حذو الميت مدفونًا كان ومرمدًا. فلا شك أن لهذه المعثورات المنقولة قيمة كبرى لما تسلطه من ضوء على المحيط والمعيش؛ إذ هي صلة بين الباحث وموضوع بحثه.

فالمصادر التي يمكن توظيفها لمعرفة تاريخ المغرب الكبير من فجر التاريخ إلى القرن الرابع قبل ميلاد المسيح عديدة متنوعة ومتكاملة ولا يجوز للمؤرخ أن يغفل عن جزء منها، بل كلها خيوط تمكن من إعادة حياكة النسيج التاريخي الحضاري.

معطيات جغرافية :

يلتحم المغرب العربي الكبير بالقارة الإفريقية إلتحامًا وثيقًا بجباله وسهوله وصحرائه الكبرى. يحيط به البحر شرقًا وشمالاً ويشرف على غربه المحيط الأطلسي وتلامس تخومه عالم السود من التشاد شرقا إلى السنغال غربا وبينهما النيجر ومالي. فهو كيان جغرافي تتقاسمه الجبال الشاهقة والوديان والسهول فمن جبال المغرب الكبير سلاسل الأطلس التي تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ولها فروع متوازية مع السواحل والصحراء ومن تلك الجبال تتفرع أخرى مختلفة الاتجاه وعرة، مما يزيد المواصلات عسرًا ويقيم عقبات تتصدى لنشاط الإنسان.

ففي جبال الأطلس الكبير تتجاوز القمم 4000 متر ومنها جبل تبقال الذي يدرك ارتفاعه إلى 4165 مترا وتكسوه ثلوج أزلية حتى أنها جليد يفسح المجال لهواة الرياضات الشتوية للتزحلق. وتتميز تضاريس الجزائر بجبال أطلسها الصحراوي وسهولها المرتفعة وهضابها إلى جانب التل وهو مجموعة من جبال ومرتفعات بعضها يشرف على البحر الأبيض المتوسط من وراء سهول ضيقة كالشريط لكنها خصبة مؤهلة لتكون حقولاً وبساتين تنتج الفواكه والخضروات. وتمتد جبال التل الشمالي من ربوع بنزرت بالجمهورية التونسية إلى الريف بالمملكة المغربية. وتجدر الإشارة إلى سلاسل جبلية داخلية يتدنى إرتفاعها من الغرب إلى الشرق: فجبل الشعانبي لا تتجاوز قمته 1554 مترًا وفي الجزائر ترتفع الجبال إلى ما فوق 2000 متر.

أما عن الجماهيرية العربية الليبية فهي تتسم بخصوصية جغرافية تجعلها تختلف عن المشرق والمغرب، لها واجهة على البحر الأبيض المتوسط تذرع 1700 كلم، فهي تتبوأ المرتبة الثالثة في القارة الإفريقية بعد الجزائر والسودان. فتتقاسمها الهضاب والجبال والصحراء. فمن مرتفعاتها جبال العوينات في الجنوب الشرقي وترقى إلى ما ينيف عن 1935 مترًا وجبل أكاكوس في الجنوب الغربي وتدرك قمته ارتفاع 1428 مترًا. هذا وفي الجماهرية تسطو المفازات المحصبة.

وتسيطر على مناطقها الغربية صحراء رملية لاسيما في أدهان أوباري ومرزق. وفي شمال البلاد صخور تعود إلى الدورين الثاني والثالث ومنها الجبال المشرفة على ربوع طرابلس وأشهرها جبل نفوسة. كما لا بد من ذكر الجبل الأخضر الممتد بين درنة وبنغازي. ويتجلى هذا الجبل الشهير في شكل مدارج قممها ترنو إلى البحر من وراء سهل ضيق لا يتجاوز عرضه 25 كلم على يمين بنغازي ويتقلص إلى مترين غرب مدينة سوسة . أما عن سفوح تلك المرتفعات، فهي تلامس الصحراء. ويعرف الجنوب الغربي في القطر الليبي باسم فزان، حيث توجد صخور من الدور الجيولوجي الأول تتكون من الغرانيت والنايس إلى جانب صخور رسوبية يرقى بعضها إلى العصر الطباشيري. وفي الأراضي الرسوبية تتوافر جيوب فيها طبقات من المياه الصالحة للزراعة وأخرى تحتوي على النفط والغاز.

الظروف المناخية في بلاد المغرب :

تتجاوز مساحة المغرب الكبير في بعده التاريخي الحضاري 441 742 4 كلم² للجزائر منها 741 381 2 كلم2 وللجماهرية الليبية 1.759.000كلم². وتغطي المملكة المغربية 550 446 كلم2 ويبقى لتونس 164.150 كلم2 وفي هذه المساحات الشاسعة يعود للصحراء نصيب الأسد على أن الجزء الأكبر للجزائر حيث تغطي الصحراء سبعة أثمان مساحتها الجملية. ولهذا الحضور الصحراوي تأثير فاعل في تصوير المشهد الجغرافي عامة وفي رسم خارطة المناخ ولبلاد المغرب بوابة على البحر المتوسط وأخرى على المحيط الأطلسي ولكلتيهما ضغوط تساهم في تلوين الظروف المناخية. فهو مناخ متوسطي أطلسي صحراوي تغلب عليه الحرارة نهارًا والبرد ليلا لا سيما في الأراضي الداخلية المتوغلة نحو الجنوب والمتاخمة لربوع إفريقيا السوداء. أما في الشمال وعلى السواحل، فالبحر يمن بلطف الله فتكون درجات الحرارة معتدلة . ومن سمات المناخ في بلاد المغرب تداخل الفصول الأربعة فقد لايترك الشتاء مكانًا للربيع بل يتواصل بتقلباته حتى يهاجم الصيف ويسيطر شهورًا طوالاً. على أن الحرارة تصل أوجها خلال شهر أغسطس وقد يتواصل الصيف فيزاحم الخريف بالحرارة مع رطوبة مزعجة.

أما عن الأمطار فهي متفاوتة لكنها تتميز بعدم الانتظام نزولاً وانقطاعًا. فنظامها يتغير من سنة إلى سنة ومن جهة إلى الأخرى حتى أنه لا يعرف الاستقرار ولا يمكن للفلاح أن يعول على كمية من الأمطار غير ثابتة: فقد تكون هذه السنة ممطرة وتكون الأخرى جافة.

ولهذا الوضع الجغرافي في بلاد المغرب تأثير على مسيرته التاريخية ونسيجه الحضاري فالمحيط الجغرافي من سدى التاريخ ولحمته وهو الذي يفرز الخصوصيات الجهوية والمحلية : فللسهول حضارتها وللجبال حضارتها وللصحراء حضارتها. وما تجده على الساحل قد يختفي في الجبال والفلوات الصحراوية فباختلاف الظروف الجغرافية يتغير وجه العمران.

اللوبيون أسلاف البربر :

من هم اللوبيون؟ سؤال مطروح منذ أقدم العصور وحاول الكثيرون الإجابة عنه ومن بينهم المؤرخ اليوناني هيرودوتس الذي أورد رواية مضمونها: أن المشوش يدعون أنهم من أصل طروادي. هذه نظرية تنسب الأفارقة اللوبيين إلى أصول أسيوية ونجد صدى لها في كتب القدماء ولعل من أشهرهم المؤرخ اللاتيني صلوستيوس صاحب كتاب" حرب يوغرطة" وقد ألفه خلال القرن الأول قبل الميلاد. وفيه أشار إلى أصول الأفارقة استنادا إلى كتب بونية، يبدو أنها كانت ملكًا للملك يمبصال. ويعلق المؤرخ اللاتيني قائلا: إنها رواية تتطابق مع ما يعتقده السكان الأصليون. ومضمون الرواية أن سكان أفريقية الأول هم الجداليون واللوبيون وكانوا أقوامًا بدائية لا حضارة لهم. فلما توفي هرقليس في أسبانيا، تصدعت صفوف جيشه وتلاشت فرقا شتى: فالميديون والفرس والأرمن عبروا المضيق وحلوا بأفريقة وانصهر الفرس في الجداليين عن طريق المصاهرة. ولما كانوا يتحولون من إقليم إلى إقليم بحثا عن محيط مناسب يمكنهم من أسباب العيش واليناعة، اتخذوا لقب النوميديين.

وانضم الميديون والأرمن إلى اللوبيين؛ لأنهم كانوا يقيمون بالقرب من بحر أفريقية. وسرعان ما أصبحت لهم مدن حصينة مستفيدين من قرب أسبانيا ومن تبادل البضاعة والتجارة معها. وحرف اسم الميديين فتحول إلى ماووريين. وإذ اشتد عود الفرس وعظم شأنهم بسرعة فائقة، انفصلت عنهم جالية من الشبان تحت الضغوط الديمغرافية واستولت على إقليم بالقرب من قرطاج. وتضافرت جهود السابقين واللاحقين وتكاثفوا وتوسعوا على حساب جيرانهم وسجلوا الغزوات والمآثر لا سيما الذين تقدموا نحو السواحل.

ومن المؤرخين القدامى الذين تناولوا قضية أصل الأفريقيين، تجدر الإشارة إلى إبروقبيوس الذي ربط بين خروج العبريين من مصر واستيلائهم على أرض كنعان وبين هجرة الأقوام التي كانت تعيش فيها ومنهم الجرجزيون واليبوسيون. غادرت هذه الأقوام أوطانها متجهة إلى مصر. ولما لم يجدوا فيها مكانًا يقيمون فيه، تحولوا إلى لوبة واحتلوها كاملة حتى أدركوا عمودي هرقليس وأسسوا فيها عددًا كبيرًا من المدن. ومازال أحفادهم يقيمون فيها ويتخاطبون باللسان الفينيقي. وجاء في رواية بروقبيوس أن لوبة كانت آهلة قبل تلك الأحداث وتسكنها أقوام عريقة أصيلة منذ أقدم العصور.

ثم التحقت ديدون ومن معها بذويهم وتمكنت من تأسيس قرطاج. ولما عظم شأن المدينة الحديثة ونما عدد سكانها هاجمت جيرانها وإن كانوا من أصل فلسطيني ويعرفون اليوم باسم الماووريين وانتصرت عليهم وأبعدتهم ما أمكنها ذلك.

فالواقع أن كلا النصين يتحدث لا عن أصل اللوبيين، بل عن الذين هاجروا أوطانهم وحلوا بلوبة. ولئن أشير إلى السكان الأصليين، فذلك دون التثبت في أصولهم: فيكتفي بروقبيوس مثلا بقوله: إنهم يعتبرون أصليين. ويبدو أن اللوبيين أنفسهم أصبحوا ينتسبون إلى بني كنعان تحت تأثير الحضارة الكنعانية كما يتجلى ذلك في إحدى رسائل القديس أوجستنوس.

والجدير بالذكر أيضا أن المؤرخين العرب القدامى ينسبون إلى سكان بلاد المغرب أصولا كنعانية. فقد تكون هذه المصادر العربية متأثرة ببعض ما كانت تردده أفواه وأقلام مسيحية ويهودية كالتي وردت أصداؤها في كتب افلاويوس يوسف والقديس هبولوتس وغيرهما. فلا شك أن

المؤرخين العرب القدامى أخذوا الكثير عن المصنفات اليهودية وعن الذين أسلموا من بين المسيحيين واليهود و قد لا يتردد هؤلاء في الرجوع إلى كتب أسلافهم والاستفادة من رصيدهم الأدبي الحضاري لا سيما إذا كانت لا تتناقض مع معتقدهم الجديد ومع قناعاتهم الأيديولوجية.

عرض ابن خلدون غالب النظريات التي تتعلق بأصول البربر وأثبت أنها زائفة باطلة على أنه لم يتردد في ربط أصولهم بالأصول الكنعانية حيث قال: إن البربر أبناء كنعان بن حام بن نوح، جدهم كان يسمى مزيغ والفلستيون أبناء عمومتهم...

ولكن، بعد استعراض ما أورده القدماء حول أصول البربر، يبقى السؤال مطروحا. فمن هم الأهليون من سكان بلاد المغرب؟ ينبغي الاعتراف بجهلنا، دون ما تردد. فلسنا أكثر معرفة ممن سبقونا وليس فيما أورده القدماء شيء يرضي ويقنع. ولئن تناولت الأبحاث التاريخية المعاصرة هذه القضية المثيرة وتناولت تحليل نظريات أخرى أفرزتها أسباب سياسية ظرفية، معتمدة مناهج علمية دقيقة، فلما ينقشع الضباب الكثيف الذي يحجب خيوط الواقع التاريخي بعد. فقد يتمكن المؤرخ من تفنيد النظريات السابقة ولكن يعسر عليه الوصول إلى الحقيقة. فهل هناك عناصر يمكن الاحتفاظ بها في ملف هذه القضية؟ من الثابت أن لغة البربر أو قل لهجات القبائل البربرية أو الأمازيغية، كما يقول بعضهم، لا تنتمي إلى شجرة اللغات السامية. الصحيح أن العلاقات الحضارية بين الشعوب السامية والحامية متجذرة في القدم وتحمل حضارة بني مزيغ روشن تلك العلاقات. فلقد احتك اللوبيون بالفينيقيين والرومان واعتنقوا المسيحية وكانت لهم صلة باليهود ثم اتخذوا الإسلام دينًا وحضارة والعربية لغة. إلا أن ذلك لا ينفي الأصول ولا يجتث الجذور.

ومهما يكن من أمر ، فيحسن الابتعاد عن كل نظرية عرقية: فالشعوب حضارات قبل كل شيء وكل نظرية تستند على العرق مصيرها الفشل، فضلا عما قد تجره من أخطار. فلا وجود لعرق صريح: فالحضارة هي التي تميز الشعوب وتعطيها خصوصياتها. فالذين يحملون اليوم في الكتب اسم البربر وسماهم القدماء كما تسموا هم أنفسهم"لوبيين أو أفريين" ويتجه اليوم بعضهم إلى تسميتهم بالأمازيغ يبدو أنهم أحفاد المشتويين والقفصيين. فالمشتويون سلالة كشف الغطاء عن بقاياها في مشتى العربي بالقرب من قسنطينة بالجزائر والقفصيون هم الذين كانوا في نهاية العصر الحجري القديم يعيشون في الجنوب الغربي من البلاد التونسية في ربوع قفصة والمقطع والقطار ورديف وذلك منذ اثني عشر ألف سنة خلت .

وانضاف إلى هذه العناصر المشتوية القفصية عناصر أخرى من الجنوب ومن الشمال عبر البحر وعبر الصحراء. فضلا عن امدادات أخرى متعاقبة أو متزامنة، مما زاد الطينة اللوبية البربرية تشعبًا في التركيبة وقدرة على الإبداع والحوار والتعايش. وما دمنا نتحدث عن الذين هاجروا إلى بلاد المغرب وانصهروا في المشتويين والقفصيين يجدر التذكير ببناة الدلامين وبالذين نحتوا في الجبال أوشازا تعرف باسم الحوانيت. فكأن هذه الأشكال المعمارية المختلفة تردد صدى الأقوام التي تعارفت في بلاد المغرب وتعايشت حتى انصهر هؤلاء في أولائك وصار الجمع مفردا. كيف كان لقاء هؤلاء بأولائك؟ كيف كان الانصهار بين هذه العناصر العديدة المختلفة حتى استكمل اللوبيون ملامحهم العرقية الحضارية؟ الثابت أن لسكان بلاد المغرب حضارة متميزة ماانفكت تتطور وتزداد ثراءا وتساهم في بناء البحر المتوسط.

فجـــر التاريـــــخ :

بنهاية العصر الحجري الحديث تنفس فجر التاريخ في الربوع المغاربية. فكيف كان المشهد العرقي الثقافي، وماذا عن أولائك الذين كانوا يعمرون إذ ذاك ربوع شمال إفريقيا؟ سؤال يسير الطرح ولكن الجواب عنه عسير . وقبل تناول

هذه القضية المثيرة، لابد من طرح سؤال حول مضمون أو مفهوم فجر التاريخ . لقد تعرض عدد من المؤرخين إلى هذه المسألة، وجاءت تعاريفهم وتحاليلهم متشابهة دون ما تطابق. لقد قيل عن فجر التاريخ أنه الحقبة التي تتنزل فيما بين نهاية العصر الحجري الحديث وبداية التاريخ. فهي مسافة زمنية حضارية قد تطول وقد تكون قصيرة لكنها تتميز بغياب الكتابة. ثم لم تترك أقوام فجر التاريخ حديثا مباشرا عن ذاتها، بل وصلتنا أصداء أخبارها عنها في روايات الآخرين ممن تعرفوا إلى أولئك الأقوام بالمعاينة أو بالسماع.

وقد يكون التعرف إليها في ضوء معطيات أثرية كالعمارة، سكنية كانت او دينية جنائزية، ومن تلك المعطيات الأثرية معثورات عديدة مختلفة شكلا ووظيفة: من أوعية وأدوات عمل ومجوهرات وتمائم وأسلحة وغيرها مما يساهم في حوك النسيج الحضاري الاجتماعي على أن تكون كما وكيفاً مؤهلة لإسراج قنديل الباحث حتى تتضح أمامه الآفاق وتضاء السبل. ففي الموسوعة الكونية قدم الباحث جاك بريار (بكسر الراء) تعريفًا لفجر التاريخ مضمونة: أنه علم يجمع كل العناصر المعرفية حول شعوب لاتعرف الكتابة وتعرفت إليها حضارات تاريخية فتحدثت عنها وقد تتسرب بعض أخبارها ضمن القصص والخرافات الشعبية إلى جانب الأعلام الجغرافية .

هكذا نتبين أن الباحث عن فجر التاريخ، بالنسبة لبلاد المغرب، يستند إلى معطيات أثرية وأعلام جغرافية وروايات توارثتها الأجيال وأوردها مؤرخون أوجغرافيون ينتمون إلى شعوب عاصرت أقوام المغرب وهم يعيشون فجر التاريخ لكنها تميزت بكسب الكتابة وغزو التاريخ . ومن تلك الشعوب التي تعرفت إذذاك إلى بلاد المغرب، من بعيد أو قريب، تجدر الإشارة إلى المصريين والفينيقيين والإغريق. لقد وردت في كتبهم ومصنفاتهم أخبار عديدة مختلفة تتعلق بأصول المغاربة القدامى وتناولت وصف القبائل وطرق عيشها وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ثم لا بد من الغوص في القصص الشعبية والخرافات بحثًا عما يعود إلى فجر التاريخ.

أما عن المعطيات الأثرية فجميع الذين تناولوا فجر التاريخ في بلاد المغرب أشاروا إلى أصناف العمارة الجنائزية التي تعاقبت وتزامنت . فأقدم أشكالها تتمثل في رجم شخصت أطلالها في مختلف الربوع المغاربية وتعرف بالبزائن ومفردها بزينة وهي كلمة محلية معروفة في لهجات البربر.

ويرجح أن هذه الرجم المنتشرة في بلاد المغرب أصيلة ليست دخيلة وإن وجدت مثيلا تها في أقطار أخرى . فهل كان سكان بلاد المغرب يدفنون موتاهم تحت هذه الرجم دون غيرها؟ قد يكون ذلك في مرحلة ما. و في زمن لاحق يعسر ضبطه، ظهرت عمارة أخرى تميزت باستخدام الجلاميد أي كتل حجرية كبيرة الحجم ثقيلة الوزن، حتى كأن الواحدة منها جلمود صخر حطه السيل من علي. كانت العمارة الجلمودية وهي شبيهة بما يعرف في بعض الأقطار الأوربية بالدلمان. والدلمان مصطلح معماري من أصل قلتي يتركب من لفظتين الأولى **دل** و وتعني اللوحة والثانية، **من** وتعني حجرة. فالدلمن بناية تتكون من ألواح حجرية أوقل صخور منجورة كألواح يشد القائم منها النائم لإنشاء غرفة أو مجموعة من الغرف والأروقة. ومن هذه البنايات نماذج توجد بضواحي قرية الاس ومدينة مكثر كما تجدر الإشارة إلى دلامين تم تشخيصها بين مدينة الجزائر وسيدي فرج وأخرى في ربوع مدينة قسطنطينية.

ويبدو أن بناة الدلامين حلوا ببلاد المغرب في زمن يعسر تحديده فالثابت أنهم هاجروا إليها وانتصبوا وتعايشوا مع أصحاب البزائن حتى أنك تجد البزائن والدلامين معا في نفس الموقع فاللاحق لم يقص السابق ولم يهمشه بل تعايشوا وتعارفوا وساهموا في بناء حضارة متميزة دون غلق الباب أمام أقوام أخرى هاجرت إلى بلاد المغرب وكانت تنحت في

الجبال أوشازا كتلك التي توجد في جبال خمير بالقرب من مدينة طبرقة أو في جبال مقعد ومنها جبل جبوز في ولاية بنزرت كما توجد أوشاز أخرى في منطقة الحروري بالقرب من مدينة قليبية . والأوشاز جمع وشز والوشز مغارة طبيعية أو تنحت بيد الإنسان نحتا في سمك الجبل. وتكون غالبًا مستطيلة الشكل وقد يشتمل الوشز على غرف متداخلة متتالية على أن المختصين في بلاد المغرب لا يستعملون لفظة وشز بل يستخدمون مصطلحا أخذوه عن السكان فيقولون حانوت وجمعه حوانيت وتراهم يتحدثون عن حوانيت الحروري أو حوانيت ركنية في ربوع قسنطينة بالقطر الجزائري.

ومما يشد الانتباه أن سكان بلاد المغرب الأول هم أصحاب البزائن أو الرجم ولعلهم يعودون إلى عصور ما قبل التاريخ ثم هاجر إلى ربوعهم بناة الدلامين والتحق بهم أقوام ينحتون في الجبال أوشازا . فمتى كان النزوح وكيف؟ سؤالان لا نستطيع الجواب عنهما. بل الثابت، في ضوء المشهد الأثري، أن هذه الأقوام تعايشت حتى الاندماج وأنشأت وحدة عرقية ثقافية، تلك التي تسمت باللوبيين فاللوبيون نسيج عرقي ثقافي خيوطه، فيما يبدو، عديدة ذات ألوان مختلفة.

اللوبيون وعلاقتهم بحضارة وادي النيل :

ففي فجر التاريخ كانت الصلة متينة مختلفة الأبعاد بين سكان بلاد المغرب والمصريين، كما أبرزتها روايات مصرية وأخرى يونانية. فالمصادر المصرية أشارت إلى بلاد المغرب وسكانها بالحرف والصورة. فهي التي تفيدنا أنهم يسمون **ريبو أوليبو** وهو اسم أدرك النصوص البونية التي أوردته في صيغة **لوبيم** وهي صيغة الجمع في اللغة الفينيقية والمفرد لوبي. ويرى بعض المختصين أن التراشح أو التواصل بين مصر ولوبة يعود إلى أولى السلالات الفرعونية حوالي 3300 قبل الميلاد: فعلى صلاية نعرمر، وهو مؤسس أول أسرة مالكة في مصر، تسجيل لمآثر فرعون وانتصاره على قبائل لوبية هاجمت مصر وعكرت صفو الحياة على ضفاف النيل.

توجد صلاية نعرمر في متحف القاهرة وقد وصفها محمد كمال صدقي قال: صلاية من الأردواز للملك المصري نعرمر (3200 ق.م) وقد سجل عليها آخر مراحل كفاحه ونتائجها بضم دلتا مصر إلى سيطرة صعيدها. وهي من الصلايات النادرة وقد وجدت في معبد نخن (هيراكونبوليس) عاصمة مملكة الصعيد جنوب مصر وهي مدينة قامت على أطلالها قرية الكوم الأحمر الحالية شمال أدفو ب 20 كم واتخذت التاج الأبيض شعارا لها واشتركت نقوش وجهها وظهرها في مناظر معينة واختلفت في مناظر أخرى. فظهر على الجزء العلوي لكل منهما اسم نعرمر داخل إطار مستطيل يرمز إلى واجهة قصره ويسمى عادة باسمه المصري القديم "سرخ"... فتصدرت نقوش الوجه صورة نعرمر ..وأظهرته بتاج الصعيد يأخذ بناصية زعيم خصومه ويهم بضربه بمقمعته... وأكملت نقوش ظهر الصلاية قصة الملك...فصورته متوجا بتاج الدلتا يسير في موكبه بمقمعته ومذبته إشارة إلى اجتماع روح الحرب وروح السلام فيه....وعبر الفنان قبالة الموكب عن غايته التي كان يقصدها بصورة صغيرة قد ترمز إلى رحلة الملك بقاربه إلى مدينة (به) وسجل صورًا أخرى غريبة تمثل عشرة أشخاص موثقين بالحبال ....ويبدو أنه رمز بها إلى مناسبة الزيارة وهو الاحتفال بذكرى نصر قديم.

فهل لأولئك الزعماء العشرة المنهزمين صلة باللوبيين؟ إنه رأي العديد من المختصين في تاريخ مصر القديم. وعلى معالم تعود إلى الأسرة المنفية الخامسة (الألف الثالث قبل ميلاد المسيح) نشاهد صورًا تروي المعارك التي خاضها فراعنة هذه الأسرة ضد اللوبيين الذين يعرفون بأزيائهم وأسلحتهم المميزة من سهام وهراوات.

ثم نرى اللوبيين جنودا مرتزقة في جيوش رمسيس الثاني (1301 - 1235 ق.م.) وفي حكم مينيفتح (1235-1224) هاجم ملك لوبي يدعى ماريو الدلتا على رأس جيش لوبي عتيد عناصره من قبيلة المشوش تلك التي يسميها المؤرخ اليوناني هيرودوتس "**مكسواس**" (بميم مفتوحة وكاف ساكنة وسين مرفوعة) ويمكن نقل هذا الإسم الى العربية في صيغة "**مكسويون**".

وتلاحقت أخبار اللوبيين فنجدهم ضمن الشعوب التي هاجمت مصر عن طريق البحر وقد سمتها النصوص المصرية "شعوب البحر". ولما حاولت تلك الشعوب التسرب إلى مصر تصدى لها رمسيس الثالث (1198-1166) وانتصر سنة 1190 ق.م. فتراجعت متجهة إلى بلاد الشام وسواحل كنعان حيث نشرت الرعب والدمار وعاثت في الأرض فسادا حتى خربت المدن وأصبحت أثرا بعد عين . ولم ينته الصراع اللوبي الفرعوني: فلقد استغل ملوك لوبيون الفراغ الناتج عن غزوة شعوب البحر والفوضى التي عمت مختلف الشرق الأدنى لينقضوا على مدينة خينين نسوت بمصر الوسطى وهي التي سماها الإغريق هيرقليوبوليس. ومن اللوبيين جاليات أسكنها رمسيس الثالث ربوع الدلتا دون مراقبة محكمة. وفي بداية الألف الأول قبل الميلاد سطا الملك اللوبي شيشونق (950-929 ق.م) على الدلتا ونصب نفسه ملكا عليها وأسس الأسرة الثانية والعشرين التي استأثرت بالعرش من 950 إلى 730 قبل الميلاد أي ما يربو على مائتي سنة وتعاقبت الأجيال وتقلبت الأحوال حتى كان القرن السادس فإذا باللوبيين في إقليم القورينية يستنجدون بملك مصر لحمايتهم من الغزو الإغريقي.

تلك أصداء أحداث عاشتها بلاد المغرب في فجر تاريخها ويستشف منها المؤرخ الروابط التي تصل بين مصر الفراعنة واللوبيين. فلقد احتك هؤلاء بالحضارة المصرية ولا شك أنهم متحوا من معينها المادي والروحي فعلى الدارسين أن يتولوا الغوص في الواقع المعاش وفي الأحداث التاريخية ليبرزوا ما أخذه اللوبيون عن مصر الفراعنة وما تركوه فيها. فالتراشح والتواصل بين العالمين أمر ثابت في مختلف الميادين كاللغة والعقيدة والاقتصاد من زراعة وصناعة وتجارة وغيرها. فالحضور المصري في دنيا اللوبيين يتجلى واضحًا جليًا في العمارة وفي العادات والتقاليد والقصص الشعبية. تحدث المؤرخ الإغريقي هيرودوتس عن العلاقة بين مصر واللوبيين فقال: "من حدود مصر إلى بحيرة تريتو يعيش لوبيون رحل يأكلون اللحوم ويشربون الألبان لكنهم على غرار المصريين يمتنعون عن أكل لحم البقر ولا يتعاطون تربية الخنزير. والنساء في قورينة لا يعتقدن أن لحم الخنزير حلالا ويمتنعن عن أكله احتراما للإلهة إيس المصرية وتراهن يصمن ويحتفلن بأعيادها إجلالا لها. أما النساء في برقة فيمتنعن ليس فقط عن لحم البقر بل كذلك عن لحم الخنزير. تلك هي الأوضاع". ومما يزيد هذه الرواية مصداقية ووزنا معطيات أثرية تعود إلى عهد قرطاج والممالك النوميدية الماوورية. فلقد تواصل المد المصري الفرعوني أحقابا وأحقابا. فإذا نظرت إلى العمارة القرطاجية والأنصاب التي عثر عليها في عديد المواقع البونية النوميدية لمست فيها التأثير المصري شكلا وزخرفة .. ومن ذلك الطنف ذو الحلق المصري الذي تحلت به واجهات المعابد والأضرحة وصور نحتا على الأنصاب البونية. أما إذا تمعنت في المجوهرات والتمائم والدمى، من طين مفخور كانت أو من مادة أخرى كالعظم والعاج، بانت لك بصمات الحضارة المصرية الفرعونية. والمرجح أن عبادة الكبش والثور تسربت إلى بلاد المغرب نتيجة لتراشح ديني بين عالم اللوبيين وعالم مصر القديمة ومازالت للكبش مكانته في بلاد المغرب. فالعلاقة بين مصر الفراعنة واللوبيين كانت منذ فجر التاريخ عميقة وحميمة.

الفينيقيون وقرطاج في بلاد المغرب (1101 -146 ق.م)

بدأ الفينيقيون يترددون على غربي البحر الأبيض المتوسط منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد وقد أقاموا جسرًا عملاقًا بين الحوضين مستفيدين من ظروف مساعدة، سياسية وعسكرية وتقنية، منها أفول نجم الأسطول الإيجي، مما جعل أبواب البحر مفتوحة أمام ملاحة المدن الفينيقية. وكان ذلك حوالي 1200 قبل الميلاد أي غداة زحف شعوب البحر.

أما عن العوامل التقنية التي استفاد منها الفينيقيون، فتجدر الإشارة إلى تطور بناء السفن وقد أصبحت تقام على صالب كأنه عمودها الفقري ويستند حيزومها إلى رواقد متينة كأنها أضلع قفص الصدر مما جعلها ركينة قوية تستطيع شق اليم بيسر وتتحمل ضغوط الأمواج، لا سيما وقد عززها المسمار الذى انتشر استعماله منذ بداية عصر الحديد. ودخل دور الصناعة وورشات النجارين عامة وعوض أو قل دعم التشريج المقام على مبدأ اللسان والفرض.

فثابت أن الفينيقيين استفادوا بما جد في البحر المتوسط إثر تحولات طرأت نتيجة لزحف شعوب البحر. وارتدت تلك التحولات أبعادًا عرقية وحضارية فضلا عن بعدها العسكري المشار إليه حتى قيل إن الفينيقيين هم كنعانيون ثبتوا في المدن الكنعانية الساحلية وتأثروا بما حدث عند زحف شعوب البحر. ولذلك لا يصح الحديث عن الفينيقيين قبل تلك التحولات العرقية الحضارية التقنية ثم لا بد من إشارة إلى تحولات جغرافية سياسية غيرت ملامح تلك الربوع. وأيا كان الأمر، فالأساطيل الفينيقية أصبحت تصل بين مختلف ضفاف البحر المتوسط مستندة إلى جزره وإلى مرافئه الطبيعية فقد حلوا بالعديد من جزر اليونان وأشارت النصوص القديمة إلى ذلك وأثبتته معثورات أثرية لا تترك للشك مجالا. وحلوا بصقلية ومالطة وسردانيا وسواحل شمال أفريقيا.

المؤسسات الفينيقية في الأقطار المغاربية :

لقد تحدث المؤرخون القدامى عن الحضور الفينيقي في الأقطار المغاربية، تلك الربوع التي كانوا يطلقون عليها اسم لوبة. وأشاروا في مصنفاتهم إلى مستوطنات أقاموها وأقاموا فيها. ومن بين هؤلاء المؤرخين والجغرافيين القدامى، نذكر صلوستيوس وإبلينيوس الأكبر ويوستينوس. وعن حضور الفينيقيين في لوبة ،لا بد من الرجوع إلى الأطلال والمخلفات الأثرية.

ففي ضوء النصوص القديمة والشهادات الأثرية تبين أن للفينيقيين حضورًا في الأقطار المغاربية تنغمس جذوره في عمق التاريخ وتصل إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد. ويبدو أن وتيكة من أقدم المصارف التي أقامها الفينيقيون بالسواحل التونسية فقد يعود حضورهم إلى سنة 1101 ق.م. وهي تقع على بعد ثلاثين كلم شمال تونس العاصمة على طريق بنزرت. على أن الأطلال التي كشف الغطاء عنها لا تتجاوز حدود القرن الثامن ق.م. وقد تسفر حفريات المستقبل عن معثورات أخرى تقربنا من الذين مروا بوتيكة واستوطنوها. مع العلم أن غالب الأطلال التي اكتشفت تتمثل في قبور فينيقية بونية أقدمها يعود إلى القرن الثامن وأحدثها يتزامن مع سقوط قرطاج سنة 146 ق.م.

وفي هذه المعالم الجنائزية، معلومات شتى حول عالم الأموات، فضلا عما تجود به من عناصر تخص العمارة والصناعة والتجارة وغيرها، مما تميزت به الحياة اليومية عندهم، ذلك أن القبور، منقورة في الأرض كانت أو مشيدة، تحتوى طبعًا على رفات الميت وعلى معثورات جنائزية تتكون غالبا من أوعية مختلفة الأشكال والأحجام وقد تجد في الغرفة الجنائزية أدوات وأسلحة ومجوهرات وتمائم تتكون كلها من عناصر تعكس المحيط الذي ألفه الميت قبل مغادرة الحياة. ومن تلك العناصر المختلفة، يستمد المؤرخ ما يفيده لرسم ملامح المدينة وسكانها عبر العصور.

ولا يستغني الباحث عما أورده القدماء في كتبهم، فمن بين الذين تحدثوا عن وتيكة أو اكتفوا بالإشارة إليها، لا بد من ذكر بوليبيوس وهو مؤرخ يوناني عاش في القرن الثاني قبل الميلاد ويرجح أنه نزل فيها وتعرف إليها، لما أتى أفريقة صحبة شبيون الإيملياني، قائد الجيوش الرومانية وقتئذ. وأشار ابلينيوس الأكبر إلى أحد المعابد التي أقامها الفنيقيون بوتيكة إجلالا لإله سماه أبلو. لم يفلح المؤرخون المعاصرون من الاتفاق حول اسمه الكنعاني فبعضهم رأى فيه بعل حمون، وآخرون يقترحون تشخيصه بإله كنعاني يدعى رشف. ولئن سماه إبلينيوس أبلو، فذلك لأن المؤرخين القدامى، من إغريقيين ولاتينين، تعودوا ترجمة الثيونيمات أي أسماء الآلهة فكانوا يعوضون الثيونيم الكنعاني بثيونيم يوناني أولاتيني فلا يقولون بعل بل يشيرون إليه بثيونيم آخر يختارونه من بين أسماء آلهتهم على أساس تشابه أو تناظر أو تقارب يلمسونه بين إلههم والإله الكنعاني.

ولما ظلت طريقة هذا النقل اعتباطية اختيارية ظرفية بل شخصية أحيانا، ترى المؤرخين المعاصرين يبحثون عن المعادلة دون تجاوز حدود الافتراض. ففي خصوص أبلو وتيكة الذي أشار إليه إبلينيوس الأكبر في الجزء السادس عشر من كتابه "تاريخ الطبيعة"، يرى بعضهم أن الثيونيم اللاتيني يغطي بعل، وآخرون يقترحون رشف ولكليهما علاقة بالطبيعة وبالشمس، شأنهما في ذلك شأن أبلو في الديانة اللاتينية. ومما أثبته إبلينيوس حول معبد أبلو الوتيكي، أن عوارض سقفة، وهي من خشب الأرز النوميدي، مازالت في عصره متينة لم تتغير، بل ظلت كما كانت لما وضعها البناء زمن تأسيس المدينة منذ 1178 سنة . فيبدو أن هذه الفقرة كتبها ابلينيوس قبيل وفاته بسنة واحدة. من جراء ثوران الويسوبيو سنة 79 ميلاديًا.

وجاء في كتاب عنوانه "الغرائب المسموعة"، وقد نسب خطأ إلى أرسطو، أن مدينة وتيكة أسست 287 سنة قبل ظهور قرطاج. والكتاب، في رأي المؤرخين المعاصرين، لا يتجاوز حدود القرن الثاني الميلادي. تلك عينات مما يجده الباحث عن تاريخ وتيكة في كتب القدماء. إنها ضئيلة. لكن المؤرخ لا يستطيع الاستغناء عنها لرسم ملامح المدينة وضبط تواريخها.

وفيما يتعلق باسم المدينة، فلقد قيل الكثير عنه دون الوصول إلى معرفة معنى هذا العلم أو قل هذا التوبونيم. فهذا يستشف منه معنى المحطة أو المرحلة ويرى آخرون أنه يشير إلى معنى الجمال والروعة. وقدمت فرضيات شتى فنسبه البعض إلى مادة "عتق" وفيها معنى الفصل والخروج عن..، وفيها معنى الفرع والتفرع عن ... فقالوا سميت كذلك؛ لأنها فرع من صور وكأنها عتق شجرة. وقال مفسرون مجازفون إنها العتيقة أي القديمة إشارة إلى قرطاج وهي المدينة الحديثة. على أن هذه التفاسير جميعها تبقى رهينة العثور على وثيقة تمدنا باسم المدينة مسطورا بالأحرف الكنعانية. وقد يبقى الجدال قائما لما تتميز به الجذور السامية العروبية من ثراء وتشعب. هذا وتجدر الإشارة إلى فرضية أخرى، ومضمونها أن وتيكة ليست من تأسيس الفينيقيين، بل علها قرية على شاطئ البحر لوبية وقد حل بها الفينيقيون وطوروها حتى أصبحت من المدن العظيمة. فوتيكة اسم لوبي الأصل لا علاقة له باللغة الفينيقية ودليل ذلك أنه من الأسماء التي تبدأ بحرف الواو وهي من مواصفات عديد الأعلام الجغرافية في الربوع المغاربية منها وزفه، ودنه، وكراس، وساليس (بواومرفوعة)، ويه، وليلي، واجه (بواو مفتوحة) وغيرها. فرأينا أن هذه الفرضية أقرب إلى الواقع ولاحظ لتلك التفاسير المنطلقة من جذور سامية فينيقية. إن وتيكة علم جغرافي لوبي الأرومة وتفسيره لن يستقيم لمن لا ينطلق من جذر لوبي.

ومهما يكن من أمر هذه القضية، فلقد أجمع المؤرخون القدامى أن مدينة وتيكة من أقدم المصارف التي أقامها الفينيقيون في بلاد المغرب. وكانت محطة يرتكز عليها الأسطول الفينيقي للتزود بالماء والميرة ولتمكين الملاحين من الراحة وترميم السفن إذا عطبت أثناء رحلة طويلة في

بحر متقلب، ذي نزوات، لا يخلو من الصخور، ويعج بالقراصنة.

فيدو أن وتيكة من أولى المصارف التي ساهمت في تأمين التجارة الفينيقية بين مشارق البحر المتوسط ومغاربه ولقد كانت إذذاك السفن الكنعانية تتردد على مملكة ترشيش في جنوب أسبانيا. ومن المدن التي عمرها الفينيقيون في القطر التونسي، تجدر الإشارة إلى هيبون وهي التي تسمى اليوم بنزرت. وأسس الفينيقيون مدينة هدريم تلك التي سماها الرومان "هدريميتوم " وأصبحت بعد الفتح العربي تسمى سوسة، عاصمة الساحل التونسي. ومن المستوطنات الفينيقية لابد من ذكر مدينة لمطة الواقعة على الشاطئ جنوب سوسة على مسافة تقدر بثلاثين كلم. أما عن اسمها القديم فلا نعرف إلا صيغته اللاتينية: فبعد الغزو الروماني، أصبحت المدينة تدعى لبتيس وتسميها بعض النصوص لبتيس الصغرى قيل إنها لقبت بالصغرى مقارنة بمدينة أخرى تقع بالجماهيرية الليبية وتسمى لبتيس الكبرى. مع العلم أن اسم هذه المدينة الليبية ورد في بعض النقائش البونية الحديثة في صيغة "لفقي". فهل كانت لبتيس الصغرى تحمل اسم لفقي على غرار المدينة الليبية؟ قد يكون. إلا أن البت في ذلك لن يجوز إلا في ضوء وثيقة مسطورة بأحرف كنعانية لا تترك للشك مجالا.

لقد أقام الفينيقيون مدنًا ومصارف على الشواطئ المغاربية في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ومنها مدينة ليكش التي سماها الرومان ليكسوس وتقع على الشاطئ الجنوبي من المضيق الفاصل بين أسبانيا والمغرب الأقصى وهو المضيق الذى كان يعرف باسم "عمودي ملقرت" أو عمودي هرقل" وقد أصبح يسمى جبل طارق، بعد دخول العرب إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد سنة 711. وكان لمدينة ليكش اسم ثان سطر على نقودها وهو "مقم شمس" ومعناه مقام أو معبد الإله شمس. قد تكون للإله شمس في مدينة ليكش أصول كنعانية لوبية. ذلك أن عبادة هذا الكوكب كانت معروفة لدى الكنعانيين والساميين العروبيين عامة وكانت الشمس أيضا من آلهة اللوبيين كما عرفنا بذلك هيرودوتس في السفر الرابع من تاريخه الشهير. فقد تعكس هذه الثنائية في تسمية المدينة وضعًا تاريخيًا يعسر على المؤرخ الوقوف عليه بكل دقة وإن رأى بعضهم أن التوبونيم "ليكش" من أصل لوبي وقد تفيد هذه التسمية المزدوجة أن الموقع لم يكن قفرًا لما حل به الفينيقيون واستوطنوه لكنهم أطلقوا عليه اسمًا جديدًا يشير إلى اجتماعهم حول قدس أقاموه إجلالا لأحد آلهتهم وهو شمس.

ولا شك أن للفينيقيين مستوطنات أخرى نشأت على السواحل الجزائرية والليبية ومن أهمها تبارزة الواقعة غرب مدينة الجزائر، ولفقي ووية وسبراطة على السواحل الغربية من الجماهيرية الليبية. على أن قرطاج أعظم المستوطنات الفينيقية في بلاد المغرب وأروعها عمارة وأرفعها ذكرا .

ميلاد قرطاج وحضارتها (814-146 ق.م) :

ماانفك الحضور الفينيقي ينتشر في المغرب الكبير ويتعدد ويتنوع ويتكثف طيلة قرون حتى أدرك أوجه بتأسيس قرطاج سنة 814 ق.م وهو تاريخ ضبط على أساس معلومات أوردها القدماء، نقلا، فيما يبدو، عن تيمايوس التاورميني الذي عاش في القرن الثالث ق.م. وقد كان يستطيع وقتئذ مراجعة المصادر البونية الشفوية منها والمكتوبة. تناول ستيفان اكسال النصوص التي تخص تأسيس قرطاج ودرسها درسًا وأشبعها نقدًا وتحليلاً دقيقًا، رائده الوصول إلى ما قد تحتويه غضونها من عناصر ثابتة تفيد المؤرخ وعمل هذا المؤرخ الفرنسي مازال قائمًا لا يستغنى عنه.

وقد حاول بعض المؤرخين المعاصرين التشكيك فيما أورده القدامى حول تاريخ مولد قرطاج مستندين إلى غياب معطيات أثرية تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد وهو افتراض عماده الصمت أو غياب الوثيقة .. ومعلوم أن حجة الصمت لاغية، لا وزن لها. ومهما يكن من أمر، فلا أحد يجرأ اليوم على

الطعن في التاريخ التقليدي. فقد أصبح يحظى بإجماع المؤرخين المعاصرين، لاسيما بعد الحفريات التي أجريت في قرطاج ضمن حملة دولية نظمت بالتعاون مع اليونسكو، تحت إشراف المعهد القومي للآثار في تونس.

فما انفك ملف قرطاج الأثري يزداد سمكًا من حيث الكم والنوع: هذه قبور بونية تعود إلى القرن الثامن ق.م. وفي معبد التوفاة أدرك المعول طبقات نسبت إلى نفس الحقبة. ولا بد من إشارة خاصة إلى نتائج حفريات وأسبار قامت بها بعثة ألمانية خلال السنوات الأخيرة وقد كشفت الغطاء عن أطلال بونية على عمق أمتار عديدة تحمل ملامح القرن الثامن ق.م.، وهي أقدم الوثائق المتوافرة حول فضاء تحرك فيه سكان المدينة كأحياء خارج المعابد والمدافن.

لم ترق المعثورات المكتشفة إلى حدود القرن التاسع ق.م. لكنها قربتنا من سنة 814 ق.م وأبعدتنا عن القرن السابع الذي اقترحه بعض غلاة النقد لتاريخ مولد قرطاج. أجل! مازالت مسافة تفصلنا عن بداية المدينة الحديثة. أفلا يكون مرد ذلك إلى عدم تعميم الحفريات على كامل المساحة التي غطتها قرطاج البونية؟ وأيا كان الأمر، فلا نرى اليوم كيف التفكير في تعميم الكشف نظرًا لزحف العمران وتواضع الإمكانات المرصودة لقرطاج بحثًا في تاريخها وتنقيبًا عن أطلالها.

ثم يعسر الوقوف على أولى خطوات مدينة أيا كانت: قد تكون بداية العمارة فيها أخصاصا أو أكواخا من طوب أو بنايات أخرى تبنى بمواد هشة لاتصمد ولا يستطيع الباحث تشخيص بصماتها. وكم من مستوطنة يقيم فيها المؤسسون أحياء ويؤثرون الموت في أوطانهم. فهذه مدينة القيروان مثلا لقد أسسها عقبة ابن نافع سنة 670 ميلاديًا ولكن لا يوجد حتى اليوم عنصر أثري واحد يرقى إلى ذلك التاريخ. إن أقدم العناصر المتوافرة لا يتعدى، قدمًا، حدود القرن التاسع ميلاديا. فماذا يقال عن قرطاج إذن؟ وعلى كل، فالنصوص القديمة تتلاقى والوثائق الأثرية لتثبت أن تأسيس قرطاج يعود إلى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد ولا مانع من القبول رواية مضمونها أن قرطاج أسست 38 سنة قبل الألعاب الأولمبية الأولى التي جرت سنة 776 ق.م. فبتأسيس قرطاج تخلى الفينيقيون عن سياسة المصارف الوقتية وتوخوا سياسة جديدة تقوم على المستوطنات والحضور الدائم.

ودون ما دخول في التفاصيل حول الأسباب والأهداف التي أدت إلى تأسيس قرطاج، فثابت أن ما صنف حول الأميرة عليسة أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع التاريخي، إذ هي قصة خيالية من وحي الواقع، شأنها في ذلك شأن الأساطير عامة . على أن الذين أوردوها، لم يترددوا في إثرائها بعناصر اقتبسوها من محيطهم: كذلك فعل ورجليوس في القرن الأول ق.م. وكذلك فعل يوستنوس خلال القرن الثاني م. وغيرهما من السابقين واللاحقين.

أما الأسباب والأهداف التاريخية التي أنجبت قرطاج، فقد يستشفها المؤرخ من الأوضاع التي سيطرت في الشرق والغرب وهي أوضاع مختلفة متزامنة: فشرقًا، كانت المدن الفينيقية إذ ذاك تعيش خطرًا أشوريًا يهدد كيانها وأموالها. فما انفك ملوك أشور يعبرون الفرات في طريقهم نحو السواحل الفينيقية حيث يغنمون. وفي حولياتهم ما يفيد أن أول حملة قاموا بها نحو البحر وجبال الأرز تعود إلى عهد تجلتفلسر الأول (1120-1074 ق.م) وتواصلت الحملات الأشورية ومنها غزوات أشور ناصر الثاني (888-859 ق.م) وفي حولياته ما يشير إلى ما كانت تعانيه المدن الفينيقية من جبروت ملوك أشور. فثبت أنهم كانوا يريدون ضمها والقضاء على كيانها السياسي وابتزاز ثرواتها والسيطرة على قدراتها الاقتصادية. فليس من الغريب إذن أن تتوقع المدن الفينيقية هذا التصعيد في سياسة الأشوريين إزاءها. وليس من الغريب أيضًا أن تفكر في حل يخلصها من ملزمة بات فكاها يتقاربان للقبض عليها وتهشيم هياكلها.

أليس الحل في الهروب بعيدًا حيث لا يستطيع الأشوريون ملاحقة الثروات الفينيقية؟.

تلك هي الظروف القاسية التي كانت تسيطر على حياة المدن الفينيقية شرقًا. ولقد أصابها وهن من جراء ذلك مما أثر على حضور الفينيقيين في غربي البحر المتوسط حيث كانوا أسيادًا ينفردون بالكسب والسلطان .. وتزامن ذلك مع استفاقة المدن اليونانية من سباتها وقد استفادت من تجارب الفينيقيين الذين كانوا يترددون عليها، يأتونها ببضاعة الشرق وبحضارته وكم أينعت فسائل الشرق في أرض اليونان. قد يطول الكلام عما يدين به الإغريق إلى الفينيقيين وليس المجال هنا لتناول مثل هذه القضايا الخطيرة، بل نكتفي بالإشارة إلى الكتابة الأبجدية وإلى نشأة الإنسان الفرد بعيدًا عن القبيلة أو العشيرة دون ما انفصال عنها بل يساهم في بناء مجتمع يتعدى الأواصر الدموية العرقية. فالكتابة الأبجدية والفرد المؤمن بفرديته مكسبان يدين بهما الإغريق إلى أولئك الذين كانوا يأتونهم من السواحل الفينيقية على متن سفن حبلى ببضاعة وحضارة وهم القدميون الذين تحدثت عنهم الكتب اليونانية ورفعت ذكرهم.

فلما استيقظ الإغريق من سبات دام قرونًا، واستفادوا من تجارب القدميين الفينيقيين، أضحوا يلاحقونهم ويزاحمونهم في غرب البحر المتوسط بهجرة منظمة تشرف عليها المدينة الدولة وأخرى غير منظمة يتزعمها مغامرون قادرون على الإغراء والقيادة. ففي بداية القرن الثامن قبل الميلاد، أرسلت مدينة كلقيس جالية وأسست فيتقوسة وتلاحقت المستوطنات الإغريقية على سواحل صقلية منذ منتصف القرن الثامن ق.م . ومنها ميجرة الهوبلية سنة 750 ق.م وقروتونة سنة 734 وغيرها. فواضح أن المدن الإغريقية أصبحت تهدد الحضور الفينيقي في غرب المتوسط فكان على الفينيقيين أن يتهيأوا ويحزموا أمرهم حتى لا يطردوا من مياه يسيطرون عليها أو من تلك التي يرغبون في البقاء فيها والمحافظة عليها.

فليس من الغريب أن يتنبه الفينيقيون لهذا الخطر الإغريقي ولم يكونوا من الذين يترقبون حلول الخطر لمواجهاته، بل كانوا ينظرون إلى بعيد يتصورون المستقبل ويخططون له ويهيأون حتى لا يفاجئهم. فمنذ بداية القرن التاسع قبل الميلاد، كان الفينيقيون مهددين في كيانهم شرقا من قبل المملكة الأشورية وتزامن ذلك مع خطر أضحت تشكله المدن الإغريقية بجاليات تدفعها نحو غرب البحر الأبيض المتوسط لتقيم فيها مستوطنات. فمن قراءة تلك الأوضاع استنتج الفينيقيون في صور أن لا بد من تغيير سياستهم تجاه غرب البحر المتوسط وذلك بتحويل المصارف الظرفية إلى مستوطنات مستقرة وبتأسيس مدينة تستطيع حماية الأموال ومناطق النفوذ. وكذلك تكون الثروات الفينيقية بعيدة عن جشع أشور وتستطيع وقف المزاحمة الإغريقية.

تلك هي الظروف التي أنجبت قرطاج فسيلة حضارية مشرقية غرست في أرض أفريقية وتغذت من تربتها وتجذرت وزكت الشجرة وأثمرت وساهمت في تصوير البحر المتوسط وإعطائه ملامحه الحضارية. فمن جراء الحضور الفينيقي في غرب البحر المتوسط وتأسيس قرطاج، اتسع الفضاء السياسي: كانت الحياة السياسية، من قبل، مقصورة على شرق البحر المتوسط وتواصل ذلك إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد. فقد كانت مراكز الثقل في وادي الرافدين وفي السواحل الكنعانية ومصر وجزيرة اقريتش وموقينية وغيرها من أقطار المشرق وبلاد الأناضول.

بقي غرب البحر المتوسط في الظل مجهولا، أو يكاد، إلى أن أتاه الفينيقيون وأسسوا قرطاج. على أن الأساطيل الموقينية حاولت الاتصال ببعض الربوع المطلة على غرب البحر المتوسط منها صقلية وسردانيا وأسبانيا ولكن في شمال أفريقيا لم يجد الأثاريون حتى اليوم شيئا يمكن إسناده إلى حضور موقيني أو إجي.

فإلى الفينيقيين يعود الفضل في إقامة جسر عملاق بين الحوضين، والفينيقيون هم الذين أخرجوا أقطار غرب البحر المتوسط من ظلمات العصور الحجرية إلى نور التاريخ وسجلوا فيها حضورهم ومآثرهم فكانت المصارف والمستوطنات مما أدخل تحويرًا هيكليًا على الخارطة السياسية: فمنذ نهاية الألف الثاني ق.م. أصبح غرب البحر المتوسط موطنًا لقوة سياسية بحرية برية ذات وزن وفعل حملت في ثناياها تجارب الشرق القديم وتقنياته وعقائده وأذواقه ومخيلته واتسع العالم القديم حتى أدرك ماوراء عمودي هرقليس .

المجتمع والنظم السياسية والإدارية في قرطاج :

إن للباحث الذي يريد التعرف إلى المجتمع القرطاجي ونظمه السياسية والإدارية أن ينظر في وثائق عديدة مختلفة من حيث الزمن والمضمون: منها ما أورده القدماء ومنها ما نستشفه في ضوء النقائش البونية والمخلفات الأثرية كالتي عثر عليها في أنقاض قرطاج. وفيما اكتشف في مواقع أخرى نذكر منها هدريم وكركوان وقليبية، وكان الإغريق يسمونها أسبيس، وتيكة ولبتيس الصغرى (لمطة بالساحل التونسي) والديماس وهي من المدن البونية الشهيرة، وقد مر بها القائد القرطاجي حنبعل، ولعلها كانت تحمل اسم **تفشن** ذلك الذي حرفه الرومان فقالوا تبسوس وجعل منه العرب طبسة وحولتها الذاكرة الشعبية إلى ديماس. ومن المواقع البونية التي وفرت وثائق عن المجتمع القرطاجي ونظمه، لا بد من ذكر لفقي وهي لبدة وويةالتي خلفتها طرابلس وسبراطة التي حافظت على اسمها القديم. وعلى سواحل الجزائر والمغرب الأقصى بعض المواقع التي جادت بوثائق أثرية و نقائشية يفيد منها المؤرخ لرسم ملامح المجتمع القرطاجي ومن تلك المواقع تيبازة ولعلها كانت تسمى هي الأخرى تفشن وفي مدينة جنجن، على مقربة من قرية غرية، بالقطر الجزائري، تم العثور على مدافن بونية اكتشف ونشر محتواها بمجلة المدرسة الفرنسية بروما سنة 1933. ففي ضوء هذه المعطيات الأثرية والأدبية يمكن التعرف إلى المجتمع القرطاجي البوني ونظمه السياسية والإدارية.

المجتمع القرطاجي :

المجتمع القرطاجي حضري مدني متفتح، يتميز بالحركية والتعايش بين مختلف الفئات مع تفاوت يفصل بينها، من حيث القدرات الاقتصادية والوزن الاجتماعي والفاعلية السياسية. فهو مجتمع حضري ومعنى ذلك أنه يعيش في محيط تفرزه المدينة وهو مجتمع مدني ومعنى ذلك أنه مؤطر بقوانين يساهم المواطن في بعثها وتكريسها تطبيقًا وحماية.

يتكون المجتمع القرطاجي من طبقات ثلاثة: المواطنون والأجانب والعبيد. فالمواطنون هم الذين يتمتعون بالحرية وبحقوق المواطنة والإسهام في بناء المجتمع والدولة والاضطلاع بالمهام السياسية والإدارية والدينية على أساس الثروة والثقافة والمعرفة الفاعلة. ويتصدر الأثرياء هذه الطبقة من المجتمع وهم يستندون إلى ممتلكاتهم العينية والعقارية والمالية فضلا عن ثقافتهم وقدراتهم الذهنية وخبرتهم مما يرشح للقيام بدور خطير في مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية. فهم الذين كانوا يستطيعون بعث المشروعات الصناعية والتجارية والزراعية وهم الذين يملكون الأساطيل ويجهزونها بضاعة توزع في مختلف الموانئ والأسواق المتوسطية وتكسبهم أرباحًا طائلة فيزدادون نفوذًا وهيمنة على دواليب الحكم. ففي القرن الثالث قبل الميلاد تألق نجم أسرة ماجون ونجم أسرة الأبارقة وإليها ينتمي عبد ملقرت البرقي وابنه حنبعل وكلاهما اشتهر بعبقريته العسكرية ورؤيته السياسية الثاقبة.

ويمثل الحرفيون الطبقة الثانية وهم الذين يتعاطون مختلف الصناعات والحرف كالنجارة والحدادة وسبك المجوهرات والحلي والفخار والبناء وينضم إلى هذا الصنف كل الذين يعملون في البحر أو في المزارع من صيادين وملاحين وفلاحين ممن يملكون حقولا أو بساتين توفر لهم

وسائل عيش متواضعة تقيهم شر الخصاصة. ويبدو أنهم كانوا واعين بدورهم معتزين بحرفهم وقد ينوهون بها على أنصاب يقيمونها قربانًا للآلهة وقد ينتمي إلى هذه الطبقة المتوسطة بعض الذين يتعاطون مهنًا حرة كالأطباء والمدرسين والمهندسين وبعض الذين يعملون في دواوين الإدارة كالكتبة والساطرين وغيرهم.

ومن المواطنين من لا يملكون سوى قوة عضلاتهم كالجدافين والعتل وعملة المزارع والمصانع والمقالع الحجرية والمناجم يساعدون الحرفيين المختصين. وتتميز هذه الفئة الضعيفة بكثرة العدد وضعف التأثير على أنها تنضم أحيانًا إلى الطبقة الوسطى فتزيدها قوة ونفوذا في الظروف المتأزمة وقد يجد فيها المغامرون السياسيون أنصارًا عند الحاجة.

وفي قرطاج والمدن البونية الكبرى جاليات أجنبية من إغريق ومصريين وأترسكيين وإيباريين وغيرهم، فضلا عن اللوبيين الذين كانوا يغادرون قراهم وأريافهم متجهين إلى مدينة تغريهم مفاتنها: فمنهم من يجد شغلاً في الميناء أو في بعض الورشات وقد ينضم كثير منهم إلى صفوف البطالة والتسكع.

أما عن الإغريق والمصريين والأترسكيين فكان بعضهم يقيم في قرطاج ويتعاطى فيها عملا وكان آخرون يأتونها للتجارة أو لمهمة وقتية. وتجدر الإشارة إلى الذين يلجأون إلى قرطاج تحت وطأة ظروف سياسية أو اجتماعية قضائية تدفعهم إلى مغادرة أوطانهم بحثًا عن مدينة تؤمن سلامتهم فيقيمون فيها مطمئنين، لا خوف عليهم ولاهم يحزنون. ذلك أن المجتمع القرطاجي يتميز بالتعايش بين الفئات والتفتح فتتوافر للأجانب فرص الاندماج فيه عن طريق المصاهرة والمثاقفة. فلقد أشار المؤرخون القدامى إلى ضابطين من أصل إغريقي كانا تحت امرة حنبعل. أقبل أبوهما إلى قرطاج من سرقوسة واستقر بها وتزوج قرطاجية أنجبت له طفلين وانصهرت أسرته في نسيج المجتمع القرطاجي. فلم تكن الحواجز بين الفئات منغلقة، بل كانت منفتحة، تساعد من كد وجد على الارتقاء في سلم المجتمع.

وكانت المرأة في دنيا قرطاج مؤهلة للإسهام بقسطها في بناء المجتمع وتنشيط الاقتصاد: تسند إليها الوظائف الدينية وتتعاطى التجارة وبعض الحرف المنزلية كالحياكة وغزل الصوف، كما شاركت في حروب قرطاج وضحت بأثمن ما لديها في سبيل الوطن. وللمرأة حضور في المخيال الجماعي ويستشف ذلك من خلال أسطورة عليسة ثم لا ننسى أن المرأة تصدرت الأحداث الخاصة بمولد قرطاج كما تصدرت تلك التي حفت بوفاتها فترى المرأة تتجلى في ميلاد قرطاج ومماتها.

ولم يخل المجتمع القرطاجي من العبيد، بل كان كغيره من المجتمعات القديمة يعتمد الرق طاقة لتنشيط الاقتصاد؛ فللدولة عبيدها كما كان المواطن القرطاجي يملك عددًا من العبيد ذكورا وإناثًا يختلف باختلاف مستوى الثروة والحاجيات. تراهم في المزارع والمناجم وتجدهم في المصانع يساعدون أصحابها أما المحظوظون منهم فيلحقون بالبيوت خدمة للأسرة. يحتفظ العبد في قرطاج بانتسابه إلى البشر: لقد كان معترفًا به كإنسان يتزوج ويقوم بواجباته الدينية وله حق الملكية مما يمكنه من استرجاع حريته نقدًا. فينضم إلى صنف المعتوقين ولقد اعتنت قرطاج بقضايا الرق والعتق، فكان التحول من وضعية إلى أخرى يتم طبقًا لمقتضيات ضبطها القانون فلم يكن العبد في قرطاج شيئًا، بل إنسانًا له حقوق وعليه واجبات.

تلك ملامح المجتمع القرطاجي البوني وتلك أهم أصنافه وفئاته. فلم يكن ساكنًا متكلسًا بل كان ذا حركية نستشفها في ضوء النصوص القديمة ومن خلال ما ورد في النقائش البونية. ولهذا المجتمع نظام لتصريف شؤونه العامة والخاصة وله مؤسسات عمادها القانون والانتخاب وتشريك المواطن.

دستور قرطاج :

يتميز دستور قرطاج بالواقعية والتوازن بين الفئات فكان يستجيب لمقتضيات المجتمع وقد نوه به أرسطو ووصف دواليبه ونظمه وطرق تكوينها. ويتضمن هذا الدستور سلطة تشريعية وسلطة تنفيذية وأخرى قضائية على أنها لم تكن مستقلة بعضها عن بعض تمام الاستقلال. بل قد تتداخل . أما عن هياكل الدستور القرطاجي فهو يتكون من:

أ: مجلس الشعب :

يسمى مجلس الشعب في قرطاج "عم قرت حدشت" ويضم كل المواطنين الذين تتوافر فيهم شروط ضبطها القانون على أن الوثائق المعتمدة ليست واضحة، بل يكتنفها غموض شديد. أما صلاحيات هذا المجلس فهي عديدة تتعلق بالحرب والسلم والحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، بل له حق النظر في كل القضايا، لا سيما إذا لم يتمكن مجلس الشيوخ من أخذ قرار مناسب مقنع في الغرض.

ب : مجلس الشيوخ :

تعود هذه المؤسسة إلى تقاليد الممالك الفينيقية لكنها إرتَدَتْ في قرطاج بعدًا دستوريًا. من ذلك أن البعول (السادة) ينتخبون من قبل الشعب طبقا لما تقتضيه القوانين من شروط كالمواطنة والسن والثروة والمستوى الثقافي، فضلا عن الوجاهة والقدرات الشخصية. ولم يخف على القرطاجيين ما للدعاية والحملات الانتخابية من وزن للحصول على ثقة الناخبين وأصواتهم يوم الاقتراع. ويبدو أن العضو في مجلس الشيوخ في قرطاج كان يسمى (بعل "سيد" قرطاج) ويسمى مجلس الشيوخ (بعول "سادات قرطاج). وعددهم لا يقل عن ثلاثمائة عضو يجتمعون في مقر خاص وقد يجتمع بعول "سادات" قرطاج في المعابد عند الاقتضاء. إن صلاحيات هذا المجلس عديدة متنوعة تغطي كامل ميادين السياسة والإدارة فهو مركز التصور والتنسيق والمتابعة.

ج: الأسباطية :

تمثل الأسباطية السلطة التنفيذية المكلفة بتطبيق وتنفيذ ما يتقرر في المجلسين وتتكون هذه المؤسسة من سبطين. والسبط في قرطاج هو القاضي أي ذلك الذي يوكل إليه القضاء بين الناس وإدارة شؤونهم طبقا للقوانين المصادق عليها. يتولى السبطان مهامهما بعد انتخابهما من قبل مجلس الشعب لسنة واحدة مع إمكانية الترشح للخطة أكثر من مرة ويعتمد في اختيارهما مقاييس منها : الثروة والكفاءة والمستوى الثقافي، فضلا عن الوجاهة والقدرة على كسب الثقة والقيام بحملة انتخابية ناجعة.

ومن صلاحيات السبطين دعوة المجلس للانعقاد وهما اللذان يهيئان جدول الأعمال بالتعاون مع لجان مختصة منتخبة ويسهران على تحقيق الملفات والقضايا المعروضة ويترأسان الجلسات ويديران النقاش مما يوفر لهما أسباب القيام بدور خطير فاعل ويوكل إليهما تنفيذ السياسة المتفق عليها ويتابعان دواليب الإدارة ويشرفان على كل ما قد يستوجبه الإجراء. ويديران شؤون العدالة بممارسة القضاء أو بتفويضه إلى قضاة مختصين مكلفين بالنظر في قضايا المواطنين ويصدرون أحكامهم في ضوء القانون وتطبيقا له وقد كان كل شيء في قرطاج يتم طبقا للقوانين.

د: القضاء :

وإلى جانب المحاكم العادية توجد محكمة مختصة تعرف باسم "مجلس المائة". تتولى هذه المحكمة النظر في القضايا المتعلقة بالتصرف وبأمن الدولة. وتتميز بسلطان أعضائها الدائمين. فلقد كانت كالسيف المسلول فوق رقاب الذين يتحملون المسؤولية، إدارية كانت أو عسكرية، مما جعل المواطن القرطاجي يخشى مخالب تلك المحكمة الرهيبة وقد يبتعد عن المبادرة. فلما انتخب حنبعل سبطًا سنة 196 بادر بحل تلك المحكمة العليا أملا في إعادة الثقة للناس وطمأنتهم على أموالهم ونفوسهم.

هـ: اللجان المختصة :

ومن بين الذين كانوا يمارسون السلطة بتفويض، تجدر الإشارة إلى عدد اللجان المختصة والهيئات النظامية. منها لجان خماسية ذكرها أرسطو وكان يوكل لبعضها القيام بمهام داخل البلاد أو خارجها: فهذه تهتم بشؤون الديانة والمعابد وأخرى تعتني بقضايا الحسبة والضرائب وغيرها. وقد أشارت بعض النقائش البونية إلى بعض هذه اللجان.

الاقتصاد القرطاجي :

يستند الاقتصاد القرطاجي إلى قطاعات ثلاثة: الفلاحة والصناعة والتجارة. ولقد اعتنى القرطاجيون بمختلف هذه الميادين فوفروا الظروف العلمية والتقنية والقانونية والديبلوماسية لازدهارها وإشعاعها وحمايتها حتى عم الرخاء قرطاج وربت ثرواتها.

كانت الفلاحة عند القرطاجيين محل رعاية فائقة وأورد القدماء في كتبهم أخبارًا عنها.مشيرين إلى موسوعة في علوم الزراعة صنفها عالم قرطاجي يدعى ماجون. وتضم تلك الموسوعة 28 سفرًا تناولت زراعة الحبوب وغرس الأشجار المثمرة وإدارة شؤون الضيعة إلى جانب تربية الحيوانات ومعالجتها. وانتشرت تلك الموسوعة في أقطار البحر الأبيض المتوسط عن طريق ترجمات يونانية ولاتينية وتناقلتها مصنفات القدماء حتى أدركت ابن العوام الأندلسي العربي خلال القرن الحادي عشر.

ساهمت الفلاحة القرطاجية في تنشيط القطاع الصناعي ويتجلى ذلك في تحويل بعض المنتوجات أو تكييفها كتجفيف التين والعنب وتصبير الأسماك وصناعة الزيوت والخمور فضلا عن النسيج والنجارة والصباغة وصناعة الجلود لاسيما تلك التي تستمد مادتها من بعض الأصداف كالموريكس. ومن المواد التي تستند إليها الصناعات القرطاجية، الطين والمعادن والخشب والعظم والعاج والأحجار الكريمة وشبه الكريمة وغيرها. وكانت تلك الحرف والصناعات تنتج للسوق الداخلية وتصدر إلى الأسواق الخارجية.

اكتسب القرطاجيون في ميادين التجارة شهرة لدى شعوب البحر الأبيض المتوسط جميعها، بل أدركت ماوراء الصحراء فكانوا يغامرون بحرًا وبرًا ويتصدون للمخاطر ويتعلمون لغات زبائنهم ووكلائهم ويحاولون التعرف إلى تقاليدهم وأذواقهم ليتمكنوا من إقناعهم وإغرائهم بأنجع الطرق وأجداها. لقد أولت سلطات قرطاج التجارة عناية كبرى بتوفير ظروف مساعدة: منها بناء السفن وتهيئة موانئ تمكن الأساطيل التجارية من القيام بما يستوجبه الشحن والتفريغ من أرصفة ومخازن جيدة تضمن سلامة البضاعة. كما تجد فيها ظروف الإقامة والحماية فضلا عما تحتاجه من ميرة ومياه صالحة للشرب ومهارات تستنجد بها عند الحاجة للترميم أو للحصول على قطع الغيار.

وكانت سلطات قرطاج تعمل على حماية الأساطيل من شر القرصنة وحماية السوق القرطاجية استنادًا إلى معاهدات كالتي أبرمتها مع روما سنة 509 قبل الميلاد وتم تجديدها مرارًا تماشيًا وتجاوبًا مع الظروف الراهنة. وكان لقرطاج قناصل يمثلونها لدى السلطات الأجنبية يسهرون على حماية مواطنيهم وعلى ضمان حقوقهم، كما كان لتلك الدول أعوان يمثلونها في قرطاج.

ومن أهم البضاعات التي تناولتها التجارة القرطاجية، لابد من ذكر المعادن: فكانت سفن قرطاج تتردد على إقليم ترشيش بجنوب أسبانيا، ومنها تتزود بمعادن مختلفة كالنحاس والرصاص والفضة وقد تتجاوز الأساطيل القرطاجية تلك الربوع نحو الشمال. فمن مدينة جديرة تبحر السفن القرطاجية نحو الكورنوول، جنوب شرق بريطانيا، حيث توجد مناجم القصدير. وتتوجه سفن أخرى نحو السواحل الأفريقية المطلة على المحيط الأطلسي. ولا شك أن رحلتى حنون وخيملك تندرجان ضمن سياسة تستهدف التعرف إلى مسالك وأسواق تستفيد منها التجارة القرطاجية.

كان تجار قرطاج يتعاملون مع وكلائهم في الأسواق الخارجية بطرق تتماشى مع الظروف. فلقد استخدموا الذهب والفضة سبائك موزونة أو عملة تضمن الدولة قيمتها. على أن الدولة القرطاجية لم تضرب نقودًا إلا ابتداءً من القرن الخامس قبل الميلاد وانتشر استعمالها خلال القرن الرابع وزمن الحروب الرومانية القرطاجية وكانت دور الضرب تعمل تحت رقابة قضاة مختصين في الشؤون المالية وعلى الرغم من ظهور العملة وانتشارها، فلم تتخل التجارة القرطاجية عن المقايضة وخاصة مع الشعوب البدائية كالتي كانت تقيم على سواحل المحيط الأطلسي.

الصراع القرطاجي اليوناني: (580-277 ق.م) :

بدأ التنافس بين قوى غرب المتوسط منذ عهد قديم. وأنشئت قرطاج لتواجه المنافسة الإغريقية وتسعى إلى احتوائها وفل شوكتها ومنع الإغريق من اقتحام مناطق نفوذها. وكانت القلعة البونية حريصة، كل الحرص، على حماية ما يمكن تسميته بالمثلث القرطاجي وهو مثلث جيوستراتيجي يتكون من جزيرة سردانيا ومن غرب صقلية وهما منطقتان تمثلان قاعدة المثلث. أما قمته، فهي قرطاج وكم حاول الإغريق التوسع على حساب القرطاجيين.

ومن ذلك محاولات قامت بها مدينة قورينة لاكتساح الربوع البونية القريبة من السرت الأكبر بشرق الجماهيرية الليبية. وقورينة مستوطنة يونانية أقامتها مدينة ثيرة سنة 630 ق.م على الساحل الليبي في منطقة تدعى اليوم الشحات. وما أن استوت على عرش تلك الربوع واشتد عودها حتى باتت تبغي التوسع نحو المناطق القرطاجية بدون جدوى، مما جعلها تشجع المغامرين وتدفعهم إلى القيام بحملات تجاه الأقاليم الغربية مستفيدة من غياب القوة القرطاجية أو مما قد يطرأ عليها من تقلص وفتور.

ومن أولئك المغامرين، تجدر الإشارة إلى اسبرطي يدعى دوريوس وقد توغل داخل الأراضي القرطاجية حتى أدرك مصب وادي القونيفس على بعد 18 كلم جنوب مدينة لبقي وهو المعروف اليوم بـ "وادي كعام". ولما كانت الأرض حوله خصبة، ما انفك الإغريق في قورينة ينظرون إليها بعين الجشع وقد نوه بها المؤرخ اليوناني هيرودوتس مثبتًا أنها من أطيب الأراضي في العالم إنتاجًا للحبوب: تربتها سوداء، ترويها عيون سخية، فلا تشكو الجدب ولا تخاف الفيضان، بل كانت جيدة معطاء حتى أن الحبة فيها تتضاعف ثلاثمائة مرة.

أقام دوريوس مستوطنة قرب مصب القونيفس لكنها لم تعمر طويلا وقد تضافرت جهود القرطاجيين مع جهود القبائل الأهلية المقيمة هناك فأطاحوا بها وطردوا الدخيل لكنه أبى إلا أن يواصل عداءه، فتحول إلى غرب صقلية يريد الإقامة فيها لمضايقة قرطاج. فباءت جهوده بالفشل كما فشل من قبل مغامر يوناني يدعى فنتثلوس الذي لقي حتفه في صقلية القرطاجية سنة 580 ق.م.

وتواصل الصراع بين الإغريق وقرطاج حتى بداية القرن الثالث قبل الميلاد. وكانت المعارك سجالا بين الطرفين تلتها فترات سلم وتبادل تجاري وحوار حضاري: ففي القرن الخامس ق.م واجهت قرطاج طموح مدينة سرقوسة وسلاطينها ومنهم جيلون الذي تحالف مع صاحب مدينة جرجنته في محاولة للقضاء على الحضور القرطاجي حتى يستأثر الإغريق بصقلية وقد يفتح لهم ذلك أبوابًا أخرى. وكان الالتحام بين المتصارعين بالقرب من مدينة هيميرة سنة 480 ق.م. وانتهت المعركة دون أن يدرك الإغريق الهدف على أنها معركة ألحقت خسائر فادحة بالجيش القرطاجي. مما دفع قائده عبد ملقرت الماجوني إلى الانتحار.

وفيما بين نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد، هاجم ديونيسوس السرقوسي صقلية البونية وتمكن من دخول مطوة وحطمها سنة 397 ق.م ولكن صمد القرطاجيون وتراجع الجيش الإغريقي السرقوسي ولاحقه عدوه وحاصر القائد القرطاجي خيملك سرقوسة وعاث جيشه في كورتها فسادًا .

وفي سنة 310 ق.م. زحف أجاتكليس على السواحل القرطاجية في أفريقة وكان يريد العاصمة البونية ومحاصرتها وترويع القرطاجيين حتى ينسحبوا من صقلية، على أن المغامرة لم تفلح، بل صمدت قرطاج وعاد أجاتكليس إلى سرقوسة منهزمًا مهزوزًا سنة 307 ق.م.

وفي بداية القرن الثالث ق.م. تزعم الملك اليوناني فروس شؤون الإغريق في صقلية وحاول الإنقضاض على الربوع القرطاجية في الجزيرة وكان جيشه يتكون من 30.000 راجل و2500 فارس وقطيع من الفيلة المدربة على المعارك في ساحة الوغى. كان ذلك سنة 277 ق.م . لكنه أخفق هو الآخر ولم يستطع دخول مدينة ليلوبة وعاد إلى سرقوسة مخدوش الكبرياء. ولعله فكر في الهجوم على السواحل الإفريقية أملا في تسديد ضربة قاضية لقرطاج لكنه لم يجد في المدن الإغريقية أنصارًا يتحمسون لمشروعه فعاد إلى مملكته إيفيروس الواقعة شمال غرب اليونان سنة 275 ق.م. وتمكن القرطاجيون من البقاء في أراضيهم غرب صقلية، بل امتدت نفوذهم إلى ماوراء الحدود البونية وباتت قرطاج تتدخل في شؤون المستوطنات الإغريقية فتساعد هذه وتكسر شوكة الأخرى وتفرض حلولها على المتخاصمين.

الحضارة الفينيقية البونية :

قاوم القرطاجيون وخاضوا معارك عنيفة من أجل الكيان وضحوا بالنفس والنفيس، رجالا ونساء، وأثبتوا أنهم يؤمنون بما يفوق المادة ويتجاوزونها، حتى كأن الهزيمة لم تكن هزيمتهم. ولما دخل شبيون وجيشه قرطاج، انقضوا عليها نهبًا وتخريبًا ثم أضرموا النار فيها ودام الحريق مؤججا سبعة عشر يوما بلياليها فلم يبق ولم يذر: فانهارت البنايات الشامخة واختفت تحت ركام من تراب ورماد وحجارة وبقيت مدفونة إلى أن جاء الأثاريون وأزاحوا عنها اللثام فانتعشت بنور الشمس وحرارتها ونطقت بحديث طريف عن قرطاج والقرطاجيين.

فهذه أشلاء سور المدينة وهذا ميناؤها بحوضيه المستطيل والمستدير : أولهما كانت تأوى إليه السفن التجارية وكان الثاني مقصورًا على الأسطول الحربي وفيه جزيرة يعلوها برج الإمارة. ومن بين الأطلال التي كشف عنها الغطاء بيوت تعود إلى زمن حنبعل وعاش بعض أصحابها الحرب الرومانية القرطاجية الثالثة. فهل قتلوا أثناء المعارك أم أسروا وتقاسمتهم أسواق العبيد؟ سؤال يبقى مطروحًا على مر العصور.

وهذه بنايات أخرى تحذو شاطئنا يحميه جدار سميك يرتطم على أبراجه غضب الأمواج. ولئن اختلفت البيوت مساحة وزخرفًا، فهي فصل ثري عن تاريخ العمارة السكنية يضم معلومات مفيدة عن مواد البناء وعن تقنيات العمارة والأشكال والأحجام. ولكل عنصر من عناصر البيت وظيفته: ممر معكوف يتصدى لفضول الشارع، وفناء فسيح الأرجاء يزود البيت نورا وهواء ويحتضن الغرف وبأروقته يقيها شر الحر والقر. وللبيت صهريج لخزن ماء المطر.

ومن المعالم التي تمكن الأثاريون من تشخيصها ، تجدر الإشارة إلى فضاء مقدس سماه المؤرخون المعاصرون **توفاة** قياسا على ما أورده التوراة حول **توفاة يورشليم.** على أن القرطاجيين كانوا يدعونه **قدس بعل حمون** وقد ثبت ذلك في ضوء نقيشة بونية سجلت في مجموعة النقائش الفينيقية تحت رقم 3678 وفي الفضاء المقدس كانوا يقيمون شعائر تخص عبادة بعل حمون وتانيت صاحبته. وقيل **تجنيًا عليهم** إنهم كانوا يقربون أطفالهم لبعل على غرار ما ورد عن ابراهيم الخليل وابنه. والواقع أنهم كانوا يرفعون إلى بعل أطفالا يموتون صغار السن وكأنهم مطالبون بتسليمهم طاعة لرب أراد استراجاعهم. ففي اعتقاد القرطاجيين أن أولئك الأطفال الذين يموتون صغار السن أو يجهضون **لا ينتسبون لصنف الأموات بل اصطفاهم بعل واستعادهم، وتكون العودة طبق طقوس مضبوطة:** يحرق جسم الطفل الميت ويوضع رماده في جرة تدفع في

بطن الأرض المقدسة وقد يقام فوق الجرة المدفونة نصب يذكر بالحدث كتابة وزخرفا، تعبيرًا عن الطاعة والورع وهو نذر ودعاء وامتنان. فقد تختلف الزخارف من نصب إلى آخر أما النصوص فهي متشابهة وهذا نموذج مما سجل في مجموعة النقائش السامية تحت رقم 4024 : **إلى الربة تانيت زوجة بعل والى المولى بعل حمون مانذر عبدملقرت بن شفط بن أرش بن جرملقرت: تسمع صوته باركه.**

أما الأموات العاديون فكانوا يقربون دفنًا جثة أو رماداً بعد حرق أو ترميدًا في قبور تم العثور على الكثير منها في أواخر القرن التاسع عشر زمن الأب دي لاتر وهو الذي أوصته الكنيسة الكاثوليكية بالتنقيب عن كنوز قرطاج الأثرية. وتبدو تلك القبور كجباب نقرت في جوانبها غرف جنائزية توفر الراحة والسكينة للذين غادروا عالم الأحياء. ويدفن الميت جثة أو رماداً بعد حرق أو يرمد ومعه أثاث جنائزي يختلف كمًا ونوعًا لأسباب اجتماعية وعقائدية: فهذه أوعية من فخار وهذه أقنعة وتمائم ومجوهرات وتلك أدوات عمل أو أسلحة وغيرها مما يستعمله الناس في حياتهم الفردية والجماعية. وتقدم للميت عند دفنه هدايا وقرابين مصحوبة بأقوال وحركات تضبطها الطقوس.

على أن الحديث عن الفنيقيين وقرطاج لاينسينا الإغريق وقورينة البهية بمعالمها وأدبائها وفلاسفتها. لقد ساهمت في تنوير بلاد المغرب وشع نورها في دنيا المتوسط، ولما كانت ولودًا ترشح خصبًا ورخاءً، أنجبت مدنًا أخرى في ربوع مترامية أطرافها بين السرت الأكبر والتخوم المصرية فأسست تكرى سنة 625 ق.م وتلتها برقة في المرج سنة 570 ق.م. ثم يوهسبريدة سنة 520 ق.م. وهي التي توجد أطلالها في ضواحي مدينة بنغازي.

ولدت تلك المدن الإغريقية في ربوع مغاربية يسودها التأزم والصراع، فلقد كانت المقاومة الأهلية عنيفة ولم تتردد القبائل اللوبية من استنجاد فراعنة مصر ولكن بدون جدوى، بل سرعان ما تألقت تلك المدن نجومًا ساطعة في سماء المتوسط وساهمت هي الأخرى في بناء حضارته. وفي القرن الخامس قبل الميلاد تغنى بها الشاعر الإغريقي بندروس متجهًا إلى ملكها أرقيسيلاوس الرابع يقول : العبث بمدينة أمر يسير يستطيعه أضعف الرجال. أما إقامتها على أسس من السلم والعدالة، فهو أمر يعسر إنجازه على أمير لم تكن جهوده محفوفة بعناية إلهية. فلا تيأس إذن يا أرقيسيلاوس! بل واصل عملك في سبيل سعادة قورينة فهي هدف جهودك الحازمة.

هكذا كانت بلاد المغرب مروجًا من الذهب نشأت فيها الحضارة منذ أقدم العصور والتقت فيها الشعوب المتوسطية وتعارفت وتميزت علاقاتها بالعنف تارة والتعايش أخرى والثابت أنها بنت حضارة متوسطية لها خصوصيات مغاربية حتى كأنها وحدة وإن تعددت اللغات والأعراق والمعتقدات.

الممالك النوميدية والماوورية :

تنغمس جذور هذه الممالك في أعمق طبقات الماضي المغاربي ويتجلى ذلك في الأساطير كالتي تحدثت عن الملك اللوبي يرباص مشيرة إلى سقوطه في هوى الملكة عليسة. على أن ملامح الممالك النوميدية والممالك الماوورية لم تتجل بوضوح إلا في القرن الثالث قبل الميلاد. لما حشرت في الحروب التي شبت بين روما وقرطاج، مما جعل المؤرخين القدامى يهتمون بها ويصفونها منوهين بالذين تشيعوا للرومان منددين بمن أثار الصفوف القرطاجية.

لقد كانت نوميديا تغطي مناطق شاسعة من غرب البلاد التونسية إلى وادي الملوية بشرق المغرب الأقصى وتقاسمت هذه الربوع مملكتان: المملكة المساصولية وكانت عاصمتها سيجن، قرب وهران، والمملكة المصولية وعاصمتها كرطن وهي التي نسميها اليوم قسنطينة. أما عن حدودهما فقد يعسر ضبطها: فالثابت أن المملكة المساصولية كانت تفوق جارتها مساحة وكان لها من الوزن ما جعل

عاهلها سيفاكس (220-203 ق.م.) يبسط نفوذه توسعًا في البلاد حتى تولى على كرطة وحاول القضاء على كيان المملكة المصولية في عهد كان عرشها شاغرًا. لكن تصدى له أمير مصولي من الأسرة المالكة يدعى مسنسن وقد استعان بالقوات الرومانية منضمًا إلى صفوفها ضد قرطاج وحليفها سيفاكس إبان الحرب البونية الثانية (218-201 ق.م).

ولما وضعت الحرب أوزارها وأسر الملك سيفاكس سنة 203 ق.م. تبوأ مسنسن العرش المصولي واتخذ من كرطة عاصمة له واجتهد هذا الملك الطموح الجسور في تصريف شؤون مملكته مستفيدًا من تجارب قرطاج منفتحًا على البحر المتوسط. فكانت اللغة البونية لغة رسمية في القصر والإدارة والمعابد وأشاد المؤرخون القدامى بسياسته الفاعلة في مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية. فلقد مصر البلاد وشجع القبائل النوميدية على الاستقرار في المدن والقرى وعلمها فنون الزراعة وربها على الحداثة والاستفادة من الآخر بالتعرف إليه والتعايش معه والاتجار. فكانت كرطة، عاصمة المملكة المصولية إنذاك، قطبًا حضاريًا يتعايش فيه النوميديون مع البونيين والإغريق وغيرهم ممن كانوا يترددون على قصر الملك أو يأتون المدينة للتجارة أو لتعاطي بعض الحرف المتطورة.

وإلى جانب كرطة وهي التي تركت مكانها لقسنطينة كانت المملكة المصولية تعج بالمدن والقرى الريفية منها باجة وتبرسق ودقة وبلة وتبسة وهيبون وهي التي نسميها اليوم عنابة وتاجسط وهي التي خلفتها مدينة سوق أهراس وغيرها. وكان الملك يشرف على تصريف شؤونها بالاستناد إلى مساعدين يصطفيهم من بين المقربين لديه كما كان يتعاون مع شيوخ القبائل وأسيادها.

على أن الملك مسنسن لم يتحرج من التواطؤ مع السلطات الرومانية ليتمكن من نهش الأراضي القرطاجية: فكان يقوم بالغارة تلوى الغارة داخل الأرض القرطاجية ويستولي عليها ويضمها إلى مملكته ظلمًا وعدوانًا. وقد ساعده على ذلك ألو الأمر في روما، ضمن سياسة خططوا لها ورسموا أهدافها القريبة والبعيدة. وكانوا يخشون طموح ملك شيطاني العبقرية باتوا يفكرون كيف يستطيعون اتقاء شره ووضع حد لطموحه ولعل ذلك من الأسباب التي جعلتهم يقبلون على اغتيال قرطاج والقضاء على كيانها السياسي وغزو الأراضي التابعة لها.

وما أن توفي مسنسن حتى بادرت روما بتقسيم مملكة مترامية الأطراف تمتد من طبرقة إلى نهر الملوية وتحتوى على مدن عديدة كانت تابعة لقرطاج: منها لفقي وويه وسبراطة بالجماهرية الليبية . ومهما يكن من أمر، فلقد قسمت المملكة النوميدية على أبناء مسنسن إثر وفاته سنة 148 قبل ميلاد المسيح. وكانوا ثلاثة: فأسندت إدارة شؤون المملكة المدنية إلى مكوسن وهو أكبرهم سنا. واستأثر بالقضاء بين الناس مستنعبأ. أما قيادة الجيوش فكانت من نصيب جولوسن. وتوارثهم أبناؤهم وأحفادهم ومن أشهرهم يوغرطة الذي شق عصا الطاعة في وجه روما حتى أثار حفيظتها فكسرت شوكته وقضت عليه قضاءً مبرمًا وقد أسر وأعدم في سجن روما سنة 105 ق.م. أما عن تصفية المملكة النوميدية تصفية نهائية فلقد تولاها يوليوس قيصر سنة 46 قبل ميلاد المسيح وتم ذلك بضمها وبعث ولاية رومانية سماها أفريقيا الجديدة.

وفي غرب الملوية توجد المملكة الماورية وكان المؤرخون القدامى يطلقون على ربوعها اسم موريتانيا أي بلاد الماوريين . ويبدو أن أقدم الأخبار حولها تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد. وتجدر الإشارة إلى ملك ماوري اسمه باجا وهو من الذين زامنو الملك مسنسن ووقف إلى جانبه إبان محنته لما استولى ملك المساصوليين على عرش أبيه وبات يطارده للقضاء عليه.

على أن معالم المملكة الماورية لم تبرز بوضوح إلا في نهاية القرن الثاني ق.م.، إبان حرب يوغرطة. ففي سرده

لأحداثها، أشار المؤرخ صلوستيوس إلى المملكة الماوورية وإلى الدور الذي قام به ملكها بقش. وكانت المملكة إذذاك تقع بين واد الملوية شرقا والمحيط الأطلسي غربا. ويحدها مضيق عمودي هرقل شمالا. أما تخومها الجنوبية فكانت متموجة متأرجحة تمتد نحو الجنوب تارة وتتقلص نحو الشمال طورًا. فوراء الحدود الجنوبية كانت تعيش قبائل جدالة وقد عرفت بتوقها المفرط إلى الحرية، لاترتاح لمن يريد السيطرة عليها ويخضعها لنظمه وقوانينه.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد، اتسعت المملكة الماوورية نحو الشرق وتجاوزت نهر الملوية لما تمكن الملك بقش من الحصول على جزء من مملكة يوغرطة جزاء له من قبل الرومان للمساعدة التي قدمها لهم أثناء الحرب ومعلوم أنه مكنهم من إلقاء القبض على يوغرطة وهو ألد أعدائهم وقتئذ: كاد له بقش حتى انخدع فسلمه إلى عدوه. والمؤسف أن بقش لم يتحرج من ارتكاب تلك الصنيعة غير عابئ بالروابط العرقية ولا بأواصر المصاهرة ويرجح أن حدود مملكته الشرقية أصبحت تمر بين مصب الواد الكبير والشلف.

ولما توفي بقش، فيما بين سنة 80 وسنة 70 ق.م.، لم تتخل أسرته عن العرش الماووري، وفي عهد يوليوس قيصر أي في منتصف القرن الأول قبل الميلاد انقسمت المملكة الماوورية إلى شطرين فكان بقش الثاني على عرش موريتانيا الشرقية واستأثر "بوجود" بشطرها الغربي متخذًا تنجي عاصمة له. وفي سنة 38 ق.م. كان بوجود في صفوف أنطونيوس المنهزم فجرد من التاج والصولجان و تمكن بقش الثاني من توحيد المملكة الماوورية وانفرد بعرشها إلى مماته سنة 33 قبل الميلاد. وبقي العرش شاغرا إلى أن تبوأه يوبا الثاني بتوصية من الإمبراطور الروماني أوجستوس في سنة 25 ق.م. ولما توفي سنة 24 ميلاديا خلفه ابنه بطليموس إلى أن تم اغتياله بأمر من الإمبراطور الروماني قليجولة سنة 40 ميلادية.

ومهما يكن من أمر، فثابت أن الممالك النوميدية والماوورية استفادت من المد الكنعاني. فلا بد من ذكر الكتابة وقد عمل الفينيقيون والقرطاجيون، من بعدهم على نشرها. ولم يكتف النوميديون والماووريون بتبني الحرف الفنيقي القرطاجي بل دفعهم ذلك إلى استنباط حروف لوبية تستجيب لأصوات لهجاتهم. هذا ولم تعرف أقطار غرب البحر المتوسط الكتابة قبل الحضور الفينيقي.

دخلت الحياة الحضرية هذه الربوع بدخول الفنيقيين عليها. كانت للقرى اللوبية ملامح ريفية بدائية، فأتى الفينيقيون بنموذج مشرقي متطور من حيث هيكلته المعمارية ومن حيث نظمه السياسية والإدارية: ويتمثل ذلك في مواد بناء وتقنيات وأشكال وأحجام وتهيئة فضلا عن أساليب التنظيم والإدارة والدفاع عن المكاسب وحماية الأرض.

وبتأسيس قرطاج ، تعرفت المنطقة على نظام المدينة الدولة وعلى معنى المواطنة ومساهمة الفرد في بناء الكيان. ولا شك أن الممالك النوميدية والممالك الماوورية استفادت من تجارب قرطاج ونظمها السياسية والإدارية .. فهذه مدن نوميدية تتبنى الأسباطية ويتبنى الملوك نظام السكة فيضربون نقودًا تحمل صورهم وأسماءهم. ولا يتردد الأفريقيون في عبادة آلهة قرطاج دون أن يكون في ذلك تنكر للذات ولا تقليد أعمى، بل كانت مواقف حضارية تفيد إرادة التطور والاستثراء مع احترام الخصوصيات ووفاء للذات.

إن كل ما أخذه اللوبيون عن القرطاجيين يحمل روشمًا لوبيًا ولكن التأثير الفينيقي القرطاجي له من الانتشار والعمق ما جعل أهل الريف النوميدي، في عهد القديس أوجستتوس، أي قرونا عديدة بعد نهاية الدولة القرطاجية، ينتسبون إلى سلالة كنعان. فلقد أورد القديس في إحدى رسائله ما يلي: " عندما يسأل أهل ريفنا عن نسبهم يجيبون بلغة بونية أنهم كنعانيون".يعود الحدث إلى القرن الخامس ميلاديا ومعنى ذلك أن تأثير الأفريقيين والقرطاجيين له من التجذر في نفوس الأفريقيين ما جعلهم يبقون مخلصين لحضارة أتى بها فينيقيون من الشرق، منذ ما لا يقل عن ألف وستمائة سنة

وقد بقيت حية في محيط تسيطر عليه الرومنة بكل قواها ومغرياتها وجبروتها. فلم يستطع الرومان استئصال جذور الحضارة البونية. وسر ذلك أن الذين ترومنوا من الأفريقيين والذين لم تمسهم الرومنة بقوا جميعا مخلصين للحضارة البونية اللوبية وهو ما يتجلى في مختلف ميادين العبارة حرفا كانت أو صورة أو سلوكا.

الحروب الرومانية القرطاجية (264-146 ق.م.):

لما كان الملك فروس يغادر صقلية خائبًا، تأمل في الجزيرة وقال: يالها من ساحة وغى نتركها للقرطاجيين والرومان. قد يصح للقارئ أن يشك في تاريخية هذه القولة المأثورة لكنها قولة تعكس واقعًا تاريخيًا لا جدال فيه، إذ اندلعت الحرب بين روما وقرطاج سنة 264 ق.م. أي بعد أن غادر فروس الجزيرة باثنتي عشرة سنة. وكانت المعارك بين القوتين طاحنة ولم تكن للمعاهدات جدوى كتلك التي أبرمت بينهما متجددة منذ نهاية القرن السادس ق.م . فالأولى تعود إلى سنة 509 ق.م. والأخيرة كانت إبان مغامرة فروس ويبدو أنها كانت سنة 279 ق.م. وتضمنت هذه المعاهدة تكريس ما اتفق عليه سابقًا.

د. محمد حسين فنطر

المراجع العربية

- **الباشا، حسن 1988**
  الميثولوجيات السورية (دمشق)
- **بشور، وديع 1981**
  الميثولوجيا السورية (دمشق)
- **الجربي، فيصل علي سعد 1995**
  الفينيقيون في ليبيا من 1100 ق.م حتى القرن الثاني الميلادي (بنغازي)
- **حامد، عبدالقادر، وعوني عبدالرؤوف 1981**
  الأمم السامية: مصادر تاريخها وحضارتها (القاهرة)
- **خلايلي، إبراهيم 2002**
  الحياة المدنية والدينية الكنعانية الفينيقية في ضوء العهد القديم والحوليات الآشورية (مخطوط رسالة دكتوراة- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس)
- **دوكريه، فرانسو 1994**
  الحضارة والتاريخ (ترجمة يوسف شلبي، دمشق)
- **سعادة، صفية 1982**
  أوجاريت (بيروت)
- **سيفمان 1988**
  ثقافة أوجاريت (ترجمة إسحاق حسان، دمشق)
- **الشاذلي، بورونية، ومحمد الطاهر 1999**
  قرطاج البونية: تاريخ الحضارة (تونس)
- **صدقي، محمد كمال 1988**
  معجم المصطلحات الأثرية (قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود، الرياض)
- **أبو طالب، محمود 1978**
  آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة (عمان)
- **العابد، مفيد رائف 1994**
  الآثار الكلاسيكية (دمشق)
- **أبو العينين، حسن 1980**
  لبنان: دراسة في الجغرافية الطبيعية (بيروت)
- **الفرجاوي، أحمد 1993**
  بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة (تونس)
- **فرزات، محمد حرب 1993**
  تاريخ سوريا القديم (دمشق)

- **فنطر، محمد حسين 1988**
ماذا عن النقائش الفينيقية البونية في تونس (النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي، تونس)
- **فنطر، محمد حسين 1997**
الفينيقيون بناة المتوسط (تونس)
- **فنطر، محمد حسين د. ت**
الفينيقيون وقرطاج صلة بين أصقاع البحر المتوسط (الكراسات التونسية، مجلد 43)
- **فنطر، محمد حسين 1999**
الحرف والصورة في عالم قرطاج (تونس)
- **قراقب، عبدالرازق، وعلي مطيمط 1993**
حضارات ما قبل التاريخ (تونس)
- **كوسيد وفسكي، زنون 1996**
الأسطورة والحقيقة في التوراة (ترجمة محمد مخلوف، دمشق)
- **مسكاتي، سبانتينو 1988**
الحضارة الفينيقية (ترجمة نهاد خياط، دمشق)
- **مظهر، سليمان 1948**
قصة الديانات (دار الرقي)
- **مهران، محمد بيومي 1984**
دراسات في تاريخ الشرق القديم (الإسكندرية)
- **مهران، محمد بيومي 1994**
المدن الفينيقية (بيروت)

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- **Acquard, Carthagine E. 1978.**
un impero sul Medterraneo, Newton Compton editori, Roma
- **Bach, L. 1987**
Le musée imaginaire de la Marine antique, Athènes.
- **Bartoloni, P. 1976**
Le stèle qrchaiche di Cartagine, CNR, Roma.
- **Bondi, S.F. 1994**
" Le fondazioni fenicie d'Occidente : aspetti topografici e strutturali", in Nuove fondazioni nel Vicino Oriente antico : reltà e ideologia, Pisa, pp. 357 -368.
- **Briquel J Chatonnet, 1992**
Les relations entre les cités de côte phénicienne et les royaumes d' Israël et de Juda, Peters Press.
- **Bunnens, G. 1979**
L'expansion phénicienne en Méditerranée, Essai d'interprétation fondé sur une analyse des traditions littérairs, Institu historique belge de Rome, Bruxelles et Rome.
- **Divita, A . 1969**
" Le date di fondazione di Leptis e di Sabrata", in Hommages à Marcel Renard, t, III, Latmus 103, - Bruxelles, , pp 196-202.
- **Dussaud, R. 1907**
" Le dieu phénicien Eshmoun", Journal asiatique, V, , pp 36- 47.
- **Fantar, MH. H. 1993**
Carthage, approche d'une civilisation, 2 vols, Alif, Tunis.
- **Fantar, MH. H. 1984 – 1986**
Kerkouane, cité punique du Cap – Bon, 3 VOLS, INAA, Tunis.
- **Gomez Bellard, C. 1990**
La colonization fenicia de la isla Ibiza, Madrid.
- **Gras , M. Rouillarde. J. Teixidor, 1989**
L'univers phénicien, Arthaud, Paris.

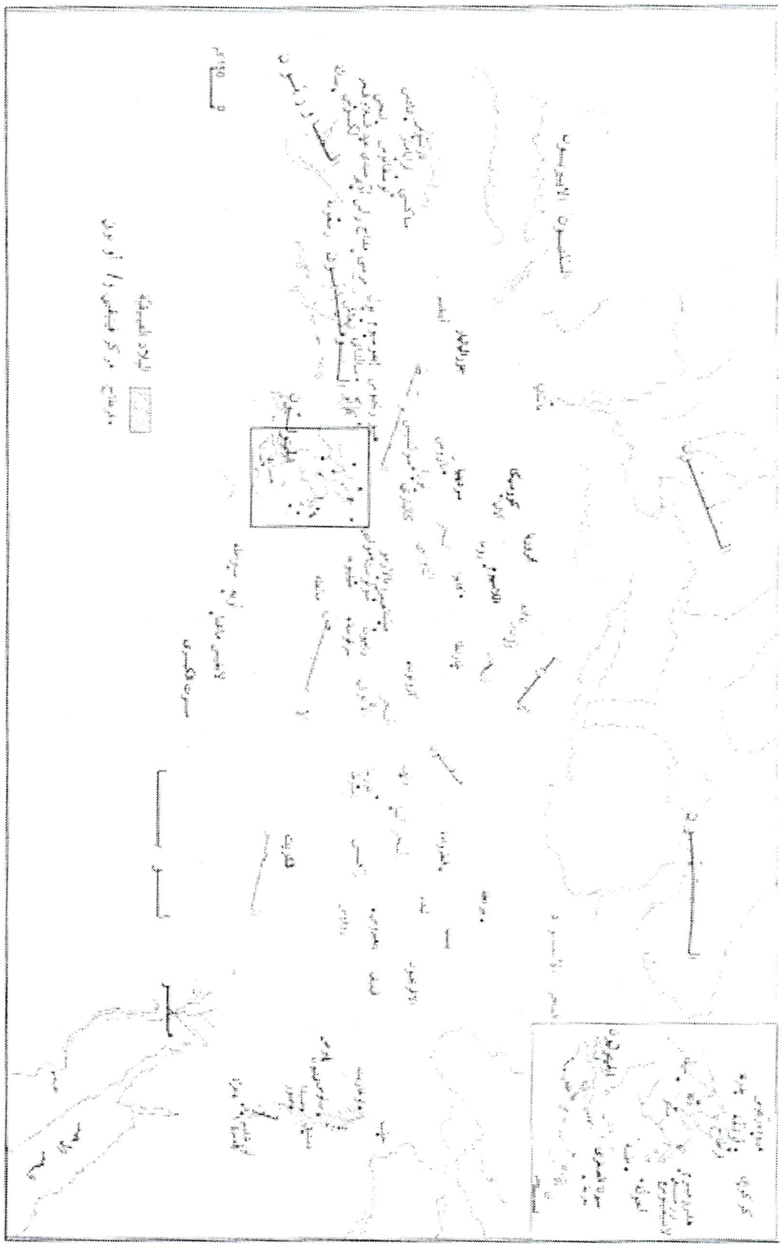


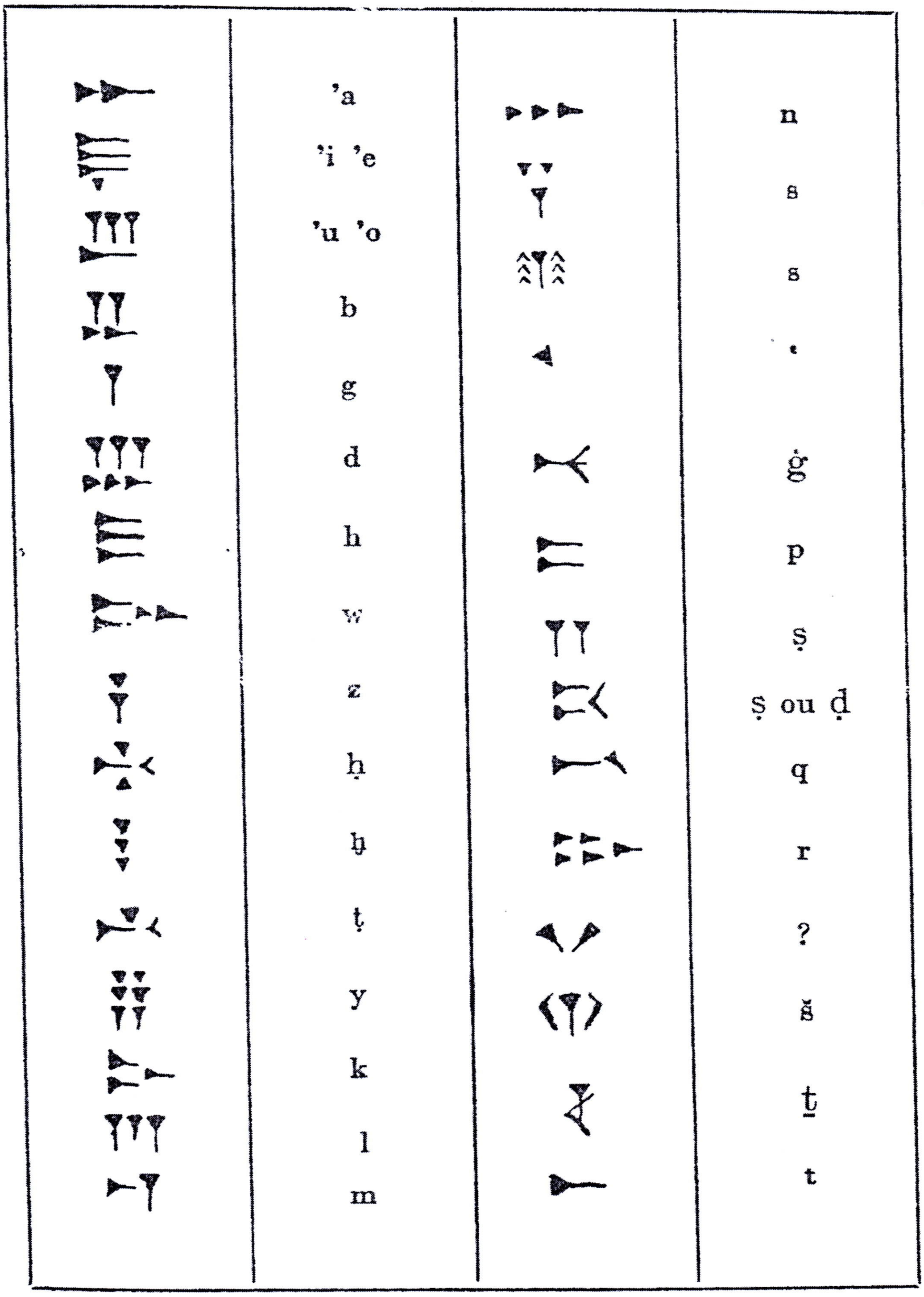
نصب من توفاة قرطاج
القرن الرابع ق.م



نصب من توفاة قرطاج
القرن الرابع ق.م

الفينيقيون في المتوسط





أبجدية أوجاديت

الأرض والسكان والحضارة في جزيرة العرب

بحكم كونها المنطقة التي شهدت بزوغ الكتابة وظهور المدنيات القديمة؛ فقد حظيت منطقة الشرق الأدنى القديم أكثر من غيرها باهتمام الدارسين في حقل الآثار، ونال إرثها الحضاري حظًا مقدرًا من التقصي والتنقيب؛ إلا أن الجزيرة العربية التي تقع عند الحافة الجنوبية للشرق الأدنى القديم بقيت إلى حد كبير، وحتى عهد قريب، خارج الخرائط الآثارية .. ولعل ذلك يعود إلى عدد من الأسباب، منها: الاعتقاد بكونها منطقة هامشية تقع خارج إطار الحضارات الراقية في وادي الرافدين ووادي النيل وإنها لم تكن مكانًا لحضارة مماثلة. كذلك فإنها تخلو من المواقع الأثرية التوارتية مما أبعدها عن اهتمام النشاط الآثاري من مرحلة بلورة علم الآثار .. إلى جانب ذلك صُورت الجزيرة العربية على أنها رقعة صحراوية لم تكن لتقدم شيئًا لمسيرة الحضارة البشرية. وكان لبقائها خارج نطاق الاستعمار وظروفها الأمنية وبيئاتها القاسية وسياسات إدارات الآثار في بعض دولها، كلها عوامل تكالبت للحد من النشاط الآثاري فيها.

غير أن ذلك لم يكن يعني خلوها من اهتمام بعض الرحالة والمستكشفين، ومن بعدهم بعض البعثات الآثارية. فبعد أن نشر الدنماركي كارستن نيبور كتابه "أسفار في جزيرة العرب" (1792م) الذي حكى فيه أسفاره على امتداد الخليج؛ توافد عليها رحالة ومستكشفون من أمثال: ولستد وبيرس كوكس والفرد ثيسجر وويندل فلبس وثيودور بنت وعبد الله فلبي، ممن سجلوا مشاهداتهم عن طبيعة الأرض وحياة السكان وعاداتهم. ولم تخل كتاباتهم عن وصف لبعض المستوطنات القديمة والنصب الحجرية ومواقع التعدين القديمة.

ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين تعاقبت الكثير من البعثات الأجنبية على شرق الجزيرة وجنوبها بعد أن لفت الكم الهائل من تلال المدافن في البحرين وكثافتها أنظار البعض بدءاً بالبعثة الدنماركية التي عملت في البحرين وفي موقع أم النار في الإمارات المتحدة، أعقبتها بعثات فرنسية وألمانية وبريطانية وأمريكية وسوفياتية وأسترالية عملت في عدد من المواقع في شرق الجزيرة وجنوبها. غير أن غرب الجزيرة ووسطها وشمالها، بقيت إلى حد كبير بعيدة عن ذلك النشاط.

أدت الأعمال الآثارية من شرق الجزيرة وجنوبها، مجتمعة، إلى رسم إطار للأدوار الحضارية، وإن لم تكتمل تفاصيله، بدءًا بعصورها الحجرية، وانتهاءً بتكويناتها المعاصرة، أبرزت خلاله ما لهذه المنطقة من دور ضمن حضارات العالم القديم. غير أن الماضي الحضاري للرقعة الأكبر من الجزيرة العربية، بالرغم من القليل الذي تمَّ، لا يزال بعيدًا عن دائرة المعرفة، وحتى في إطار ذلك القليل، فإن الاهتمام بالكتابات والنقوش القديمة قد دفع بما عداه من آثار خارج دائرة الاهتمام؛ لذا تبدو الصورة الحالية غير متوازنة مما يجعل الحديث عن قضايا مثل التداخلات الحضارية وتمازج الثقافات وتباينها أمرًا لا يعدو كونه ضربًا من الافتراض.

الأرض:

ترتكز الجزيرة العربية حاليًا على ما يعرف بالصفيحة العربية التي انفلقت عن الصفيحة الأفريقية في بداية العصر الثلاثي، ثم أخذت الصفيحتان في التباعد ليأخذ الشرخ الفاصل بينهما (البحر الأحمر) في الاتساع وتتدفق إليه مياه

المحيط الهندي خلال حقبة المايوسين في الربع الأخير من العصر الثلاثي. كان ذلك قبل ظهور الإنسان بعدة ملايين من السنين. هذه الحركة الأرضية أدت إلى هبوط نسبي في منسوب المياه التي كانت تغطي منطقة شرق الجزيرة مما أدى بدوره إلى انكماش تدريجي في عرض الخليج العربي تعرَّض بعدها لتذبذبات متلاحقة في حجمه حتى وصل إلى ما يشبه وضعه الحالي.

تظهر التضاريس تباينًا واضحًا بين النصف الغربي للجزيرة العربية الذي يعرف بالدرع العربي والنصف الشرقي الذي يعرف بالرف العربي. ففي الغرب تبرز سلسلة جبلية تحوي تكوينات نارية ومتحولة وصخور من العصر الكمبري وما قبله من جرانيت وديورايت، يصل أقصى عرض لها إلى نحو 140 كلم ويبلغ أقصى ارتفاعها نحو 4000 متر ويفصلها عن البحر الأحمر شريط ساحلي ضيق يعرف بسهل تهامة. ويحوي الجزء الشرقي تركيبات رسوبية متفتتة من الحجر الرملي والجيري. وتتجمع مياه الأمطار التي تهطل على الدرع العربي في شعاب لتصل إلى مجاري الأودية الكبرى التي تشق الرف العربي متجهة إلى الخليج العربي. وعلى امتداد الساحل الشرقي للجزيرة العربية يمتد شريط من الجزر متقاربة ومتباعدة تتباين أحجامها ومكوناتها وتحوي بعضها ينابيع لمياه عذبة نتجت فيما يبدو عن أحد مصدرين أو كليهما: إما من مياه قديمة محبوسة داخل خزانات أرضية منذ بعض حقب البلايستوسين المطيرة أو عن الأمطار التي تهطل في شرق المتوسط وتتصل بالخزانات الأرضية. وتتميز هذه الجزر بمواقع إستراتيجية فهي إما منافذ بحرية للمناطق الداخلية مثل جزيرة تاروت وجزيرة فيلكا أو أنها تقع على الطريق البحري التجاري مثل جزيرة أم النار وجزر البحرين (الشكل رقم 1). وتحتفظ المنطقة الرسوبية بخزانات مائية تحت السطح وتحوي قيعانًا ومنخفضات زراعية وواحات (الهفوف، والقطيف، والبريمي) تجعل منها أكثر قبولاً لاستيطان زراعي بينما تجتنب المنطقة الصخرية المجموعات الرعوية.

وفي الركن الجنوبي الغربي يوجد جيب صخري هو امتداد لسلسلة جبال زاغروس، يعرف بمرتفعات عمان، تشكلت عبر حركة التوائية أفقية في نهاية العصر الطباشيري.

يندر توافر دراسات تفصيلية للبيئة القديمة في الجزيرة العربية؛ غير أن ما هو متوافر منها إضافة إلى وقوع الجزيرة العربية على ذات دوائر العرض والأحزمة المناخية التي تقع عليها أفريقيا شمال دائرة الاستواء تجعل من الممكن الاستعانة بالدلائل الأفريقية لإثراء تلك الصورة. فالصحارى التي تغطي معظم سطح الجزيرة العربية اليوم (الدهناء، النفود، الربع الخالي) هي امتداد للصحراء الكبرى في أفريقيا والصحارى الممتدة على ذات الشريط في أواسط آسيا. ويعتقد أنها قد تكونت جميعها إثر ظروف مناخية متشابهة ومتعاصرة.

لقد شهد التاريخ البيئي للجزيرة العربية، شأنه غيره، عدة تقلبات عبر مسيرته خلال حقبتي البلايستوسين والهولوسين (نحو حوالي 3 ملايين إلى وقتنا الحالي) اللتين عاصرتا وجود الجنس البشري. تمتعت الجزيرة العربية خلال المراحل الأولى من تلك الحقبة بمناخ دافئ ورطب ارتفع خلاله هطول الأمطار وتكونت الأودية الكبرى، الجافة حاليًا، مثل وادي الرمة ووادي الدواسر. وترسبت كميات من الطمي وانتشرت البحيرات والواحات الصحراوية وسادت بيئة غنية بعطائها النباتي والحيواني أشبه ما تكون بالبيئة الاستوائية الأفريقية الحالية. تحت تلك الظروف عاشت الجماعات التي حملت حضارات العصر الحجري القديم الأسفل التي كشف عن مواقعها في عدة مناطق من الجزيرة العربية.

غير أن الظروف المناخية لم تسر خلال تلك الحقبة على وتيرة واحدة، بل تخللتها فترات جفاف وتأرجح في

مستوى هطول الأمطار ومنسوب المياه في البحار المحيطة بالجزيرة العربية. فبنهاية الحقبة الاستوائية التي تزامنت مع نهاية البلايستوسين الأوسط سادت فترة جفاف حادة أعقبتها فترة مطيرة مع بداية البلايستوسين الأعلى ارتفع خلالها هطول الأمطار مرة أخرى وجرت الأودية وسيطرت ظروف بيئة جاذبة سمحت لحضارات العصر الحجري القديم الأوسط بالانتشار في الكثير من أنحاء الجزيرة العربية.

شهدت نهاية حقبة البلايستوسين الأعلى (نحو 20000- 12000 ق.م.) أكثر فترات التاريخ البشري جفافًا حيث امتدت الصحارى إلى أبعد من حدودها الحالية وتوقف جريان الأودية وجفت البحيرات وانتشرت الكثبان الرملية وانحصرت الجماعات البشرية التي حملت حضارات العصر الحجري القديم الأعلى، أو ما يعاصرها، قرب السواحل (محمد علي 2003م، ص 13- 15). حتى كانت نهاية تلك الحقبة واطلالة الهولوسين (نحو 10000 ق.م.) حين ارتفعت درجة الحرارة وعاودت الأمطار هطولها بغزارة لتتحسن الأحوال المناخية مرة أخرى وتتقلص الصحارى ويسود غطاء نباتي وحيواني سمح للجماعات البشرية بقدر كبير من الحركة والتجوال لم يكن متوافرًا في الفترة السابقة خلال هذه المرحلة قفز الإنسان في بعض مناطق الشرق الأدنى وأفريقيا بالحضارة البشرية إلى استئناس الحيوان والنبات وصناعة الفخار, فيما عرف بالعصر الحجري الحديث. وقد تمثلت تلك الفترة في شرق الجزيرة العربية بالمراحل المتأخرة من حضارة العبيد التي وفدت تأثيراتها من جنوب وادي الرافدين.

وخلال الألف الثالث ق. م. أخذت دورة المناخ تدور مرة أخرى في الاتجاه الآخر مع بداية فترة جفاف هي الآخذة في الاستمرار حتى وقتنا الحالي، إذ أخذت خطوط المطر في الجزيرة العربية في التراجع وتقلص الغطاء النباتي والحيواني. وتحت حالة التدهور البيئي تلك اتسعت رقعة الصحراء تدريجيًا لتصل إلى ما هي عليه اليوم.

ومثلما أظهرت الجزيرة العربية تباينًا في تركيبتها الجيولوجية ومظاهر سطحها, فقد أظهرت كذلك اختلافًا في بيئاتها، حيث يتباين هطول الأمطار ودرجة الحرارة ونسبة الرطوبة ومخزون المياه بين منطقة وأخرى، تمامًا كما يتباين الغطاء النباتي والحيواني مقارنة بين سفوح الجبال والهضاب والأودية والسهول. ولم يكن من غير المحتمل أن يتواكب غياب الوحدة البيئية هذه مع غياب الوحدة الحضارية في عهودها القديمة، إذ أن ظروف التكيف لابد وأن تشكلت حسب معطيات تلك الوهاد والنجود.

السكان :

يذهب البعض إلى أن العنصر البشري الذي استقر في الجزيرة العربية خلال الفترة التي يتناولها هذا البحث هم ساميون وحاميون وعبيديون غير أن هذه التصنيفات لا تستند فيما يبدو إلى أي دليل أثري أو إنثروبولوجي. وحتى إن صحت مصادفة، فإنها تقفز فوق واقع الجماعات البشرية التي استوطنت الجزيرة العربية في الحقب السابقة؛ أي خلال العصور الحجرية، والتي انبثقت عنها أو اختلطت بها جماعات لاحقة. وحسب ما هو متوافر لنا من أدلة فإن شرق أفريقيا هو الموطن الأول للجنس البشري وعليه تصبح الجزيرة العربية هي المدخل الطبيعي لقارة آسيا، الذي عبر من خلاله الإنسان، إما عن طريق باب المندب بحرًا أو عبر سيناء برًا أو الاثنين معًا، ومنها إلى بقية أنحاء القارة. وبقيت الجماعات التي آثرت البقاء في الجزيرة العربية تتكيف على تقلب بيئاتها حاملة مختلف حضارات العصور الحجرية مؤثرة في غيرها ومتأثرة بها. انعكس ذلك على مواقع العصور الحجرية المنتشرة في أجزاء الجزيرة العربية بدءاً من مواقع العصر الحجري القديم الأسفل في الشويحطية والمهرة والدوادمي وانتهاءً بمواقع العصر الحجري الحديث على امتداد الخليج (انظر أدناه).

غيـر أن المـادة العظيمـة البشـرية المتـوافرة لـدينا والمكتشفة من المواقع التي تخص الفترة التي يتناولها هذا البحث، تتركز في معظمها في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية. وخلافًا لكونها لـم تقدم معلومـات كافيـة, علـى التساؤلات المطروحة باستثناء قلة منها فقد ساهم إعادة استخدام بعض المدافن في فترات سابقة دون اعتبار لمن دفنوا فيها مسبقًا، إضافة إلى سوء عمارة بعضها، مما أدى إلى انهيارها على الهياكل والمعثورات, ليكمل صيادو الكنوز المهمة فتصبح المخلفات العظمية في حالة لا تسمح بدراسات مفصلة.

أجريت في البحرين دراسة على المخلفات العظمية في مدافن مدينة حمد التي تؤرخ للألف الثالث ق. م. أثبتت الدراسة أن الجماعات التي دفنت في تلك المدافن تشارك الجنس القوقازي بعض سماته, مثل ارتفاع القامة وشكل الجمجمة. وتشير الملاحظات الباثولوجية إلى إصابات بمرض فقر الدم المنجلي الناتج عن نقص الحديد، نتيجة خلل في مكونات الغذاء. كذلك أشارت إلى بعض أمراض المفاصل التي نتجت ربما عن ارتفاع الرطوبة؛ وإلى تسوس في الأسنان نتيجة أكل التمور التي عثر على بذورها في المواقع، إضافة إلى كسور وإصابات نتجت ربما عن حوادث فردية أو احتكاكات جماعية.

كذلك كشفت مدافن سار والرفيعة التي تعود إلى فترة متأخرة نسبيًا بين نهاية الألف الثالث ونهاية الألف الثاني ق. م. عن مخلفات عظمية تظهر ارتفاعًا في القامة وفي نسبة سن الأفراد مقارنة بهياكل أخرى من الشرق الأدنى.

ومن بعض مواقع أم النار (أم النار، هيلي، ميسير) كشفت الدراسة الإنثروبولوجية أن نسبة الأطفال دون سن البلوغ تبلغ 13% وهي نسبة منخفضة إذا ما قيست بالمجتمعات القديمة التي ترتفع بينها نسبة وفيات الأطفال لأسباب معروفة. كذلك توضح الدراسة اعتمادهم على مأكولات طرية مثل لحوم الأسماك، وهو ما تؤكده مخلفات عظام الأسماك التي كشفتها التنقيبات. وتظهر بعض العظام آثار عنف ربما تسبب في الوفاة.

أما المخلفات من وادي سوق فلم تسمح الحالة التي كانت عليها من فحصها بشكل جيد يتجاوز تحديد السن والجنس وكون الهياكل تعود إلى مجموعة متجانسة. كذلك تشير حالة الأسنان إلى أن الغذاء اعتمد على عناصر غير صلبة مثل لحوم الأسماك ومستخرجات الألبان.

إن الدراسات السكانية تحتاج إلى قدر وافٍ من المعلومات عن أنماط الاستيطان ومصادر الغذاء والتقنية المتاحة قبل الوصول إلى استنتاجات بشأنها، وهذا ما لا يتوافر بالقدر الكافي من المصادر الأثرية في الجزيرة العربية. كذلك فإن المنطقة قيد البحث كان لها دور في التجارة الدولية وأحد معابرها. وهناك أدلة على تأثيرات من كل من وادي السند ووادي الرافدين إلا أنه من غير الواضح عما إن كانت تلك التأثيرات مصحوبة بهجرات بشرية.

الحضـارة:

لا يزال التاريخ الحضاري للجزيرة العربية بوجه عام حافلاً بالكثير من الثغرات للأسباب سالفة الذكر ولأن الأعمال الآثارية التي بدأت متأخرة في معظم أجزائها لا تزال في بداياتها. ولعلنا لا نجافي الحقيقة إن قلنا: إن هذه الصورة غير المكتملة لم تكن بسبب عدم توافر الدليل الأثري بقدر ما هي لعدم البحث عن الدليل أصلاً. ونحسب أن أهداف العمل الأثري وإستراتيجياته في الجزيرة العربية بوجه عام لا بدّ لها من وقفة تقييمية وتقويمية.

ومهما يكن فإن أي استعراض للفترة التي يغطيها هذا البحث تستوجب وقفة عند الفترة السابقة لها التي رسمت خطوط تطورها، والتي تشكل المراحل الأخيرة مما يعرف اصطلاحًا بالعصر الحجري الحديث.

لعل خير معرفة لنا بتلك الفترة تأتي مما عرف بحضارة العبيد التي كشف عنها في تل قرب مدينة الناصرية في جنوب وادي الرافدين، ثم اكتمل رسم مراحل تطورها

(العبيد 1- 4) من مواقع أخرى (حاج محمد، أريدو) في ذات المنطقة. وقد انتشرت حضارة العبيد في مناطق واسعة من وادي الرافين وسوريا وإيران، حيث أظهرت بعض السمات المحلية إلى جانب سماتها العامة. وتميزت بفخار صلب ذي طينة مخضرة تراوحت فيه الألوان بين الأحمر والبني والأسود وحوى أشكالا هندسية ونباتية.

وفي شرق الجزيرة، على امتداد المنطقة من الكويت إلى عمان، سجل ما يزيد على الخمسين موقعًا عبيديًا أرخت إلى الألفين الخامس والرابع ق. م.، تمركزت على ساحل الخليج والجزر القريبة وحول مصادر المياه القديمة. وقد كشف فيها عن أساسات لمبان إلى جانب أدوات حجرية غابت فيها المناجل وحوت رؤوس السهام والنصال وأنواعًا من الفخار عرفته مراحلها المتأخرة. وقد ارتكز اقتصادهم على الصيد البري والبحري والرعي الذي شمل الأغنام والأبقار.

أما المواقع المعاصرة لفترة العبيد في بقية أنحاء الجزيرة العربية، فهي من معظمها مواقع صغيرة وسطحية تنتشر على أطراف الأودية القديمة والبحيرات الجافة. وقد حوت أدوات حجرية شملت المكاشط ورؤوس السهام والمثاقب وتخلو من أي دليل لحيوانات أو نباتات مستأنسة أو حتى معرفة بالفخار. ويغلب الظن أنها كانت مستوطنات لصيادين اعتمد اقتصادهم على نمط معيشي يخالف تمامًا نمط رصفائهم على ساحل الخليج.

مع بداية الألف الثالث ق.م. كانت حضارة العبيد في شرق الجزيرة قد بدأت تفسح المجال لتأثيرات شمالية عرفت بحضارة جمدة نصر اشتقت اسمها من موقع حمل هذا الاسم في جنوب وادي الرافدين، غير أن الحضارة التي أعقبت حضارة العبيد في جنوب وادي الرافدين لم تكن جمدة نصر وإنما حضارة الوركاء التي عرفت من مواقع الوركاء وأريدو، التي تؤرخ إلى النصف الثاني من الألف الرابع ق. م. وقد تميزت بعمارتها الدينية وأختامها الأسطوانية وخطت بالحضارة البشرية نحو التدوين.

انتشرت حضارة الوركاء شمالاً حتى الصحراء السورية غير أنها لم تسجل حضورًا يذكر في شرق الجزيرة العربية شأن سابقتها، إذ لم يعثر سوى على ملتقطات متفرقة تظهر تشابهًا بفخار الوركاء المتأخر. وقد عزا البعض غياب هذه الحضارة على سواحل الخليج لأسباب مناخية حيث سادت فترة جفاف تزامنت مع هبوط في مستوى البحر أديا إلى تحولات في طرق تكيف المجتمعات التي استقرت على سواحل الخليج.

ومع إطلالة الألف الثالث تنتهي مرحلة غياب الشواهد الأثرية الدالة على صلات شرق الجزيرة بوادي الرافدين بظهور المواقع التي تعود إلى حضارة جمدة نصر التي تميزت بفخار ذي جرار أسطوانية وشفاه تميل إلى الخارج، ولون أصفر إلى أحمر وأسود أحيانًا، بزخارف على كتف الإناء، وشاع استخدام المعادن وتطورت عمارة المعابد وظهرت بوادر تؤسس لظهور الكتابة.

في شرق الجزيرة العربية عثر على قطعة فخارية تحمل خواص فخار جمدة نصر قرب معبد باربار في البحرين كما عثر على ختم أسطواني في أحد مقابر الحجر مشابه لأختام جمدة نصر. وكشفت التنقيبات في جزيرة تاروت على فخار يحمل ذات الخصائص التي ميزت فخار جمدة نصر إلى جانب بعض أواني الحجر الصابوني والدمى التي تورخ لتلك الفترة.

وإلى الجنوب منها في الطرف الجنوبي لواحة البريمي كشف موقع حفيت عن حقل لمدافن أخضع لمواسم من التنقيب كشف خلالها على كم من الأواني والكسر الفخارية تحمل خصائص فخار جمدة نصر بأشكاله الأسطوانية وزخارفه إلى جانب فخار محلي خشن بأحجام متوسطة، كما عثر على جرار وأكواب من الحجر الصابوني ومعثورات نحاسية شملت رؤوس سهام ودبابيس ومسامير تشابه تلك

التي عثر عليها في أور .أما المدافن فهي دائرية الشكل تبنى بحجارة كبيرة نسبيًا غير مشذبة دون وضع أي مادة طينية بينها. وتبنى على سطح صخري وقد تحوى حجرة للدفن يصل إليهما عبر فتحة تأخذ اتجاهات مختلفة تتصل بممر (الشكل رقم 2أ، 2ب).

وفي إطار منطقة البريمي كشفت مدافن أخرى عن معثورات مشابهة. وكان البحث عن مستوطنات تخص هذه المدافن من الأمور التي شغلت الآثاريين. فجاءت مستوطنة هيلي – 8 التي حوت معثورات تشابه تلك التي عثر عليها في مدافن حفيت وتؤرخ إلى بداية الألف الثالث ق. م. وفي موقع رأس العيش وموقع جبل الظنة عثر على مقابر مشابهة لمقابر حفيت حوت فخارًا مشابهًا لفخار جمدة نصر. كذلك كشفت البعثة الدنماركية في موقع عبرى وموقع بات في عمان (الشكل رقم 1) عن مدافن دائرية تشابه تلك التي عرفت من حفيت، كما حوت مجموعة من تلك المدافن المتلاصقة التي تعرف بخلايا النحل. شمل القسم الشمالي من مقبرة بات مدافن جماعية حوت أكثر من هيكل واحد. وكان الفخار مشابهًا لفخار جمدة نصر. وبعيدًا عن حفيت في الداخل العماني عثرت البعثة البريطانية على سفوح جبال طوى بني سليم على مدافن مشابهة لمدافن حفيت حوى بعضها فخارًا يحمل سمات فخار جمدة نصر .

وفي موقع رأس الحد – 6، على الساحل العماني، عثر على مستوطنة تعود إلى بداية الألف الثالث ق. م. تكشف الامتداد الجغرافي الذي وصلت إليه تأثيرات حضارة جمدة نصر، حوت بيوتًا حجرية دائرية، وشملت المعثورات أنواعًا من الخرز يشابه ما عثر عليه في أحد مدافن هيلي الذي أُرْجِعَ إلى الربع الأول من الألف الثالث ق. م. وكشف موقع رأس الجنيز – 6 عن مدافن بيضاوية حجرية جماعية شملت محتوياتها فخارًا وأدوات زينة ودبابيس ومخارز نحاسية تتطابق مع تلك التي تميز معثورات جمدة نصر.

وخلال مسح أجرته بعثة جامعة هارفارد الأمريكية في أجزاء واسعة من عمان سجلت الكثير من المواقع، مستوطنات، ومدافن، أُرْجِعَ بعضها إلى الألف الثالث ق. م. وكانت عمارة المقابر تشابه تلك التي عرفتها مدافن حفيت كما أن معثوراتها، خاصة الفخارية، تطابق فخار جمدة نصر. وكشف عن أساسات لمبان حجرية مرتبطة بقنوات مائية يعتقد أنها ذات وظيفة دينية، شبهت بزقورات بلاد الرافدين.

يبدو من العرض السابق أن المواقع التي تعود إلى الألف الثالث ق. م. في شرق الجزيرة العربية قد تشكلت في معظمها من حقول للمدافن والقليل من المستوطنات. وقد تركزت هذه المواقع في معظمها على الطرق التي تشق السلسلة الجبلية الغنية بمصادر النحاس. وليس من شك في أن أصحاب هذه المدافن قد ارتبطوا بنشاطات تعدينية وبالتالي بمستوطنات قريبة من هذه المصادر بالرغم من قلة ما عثر عليه من مستوطنات. وفي الوقت الذي تشكل فيه المدافن وحدة متجانسة بطراز عمارة محلية، حوت المعثورات الفخارية والأختام وخلافها، خصائص حضارة جمدة نصر في جنوب وادي الرافدين. ويبدو أن حضارة الوركاء بعد أن فقدت "مستعمراتها" الشمالية في سوريا والأناضول حيث مصادر النحاس والأخشاب اتجهت الجماعات اللاحقة لها في جمدة نصر جنوبًا على امتداد ساحل الخليج لتصل إلى مصادر النحاس في عمان. وبينما تركزت معظم المواقع إلى الداخل (حفيت وبات) حيث مصادر النحاس أخذت القليل منها (رأس الجنيز ورأس الحد) مواضع على الساحل حيث شكلت منافذ على الخليج (الشكل رقم 1). ويدعم ذلك الإشارات المتكررة في الوثائق الكتابية من مرحلة أور الثالثة والتي تشير إلى بناء السفن للإبحار إلى ماجان لجلب النحاس.

وفي منتصف الألف الثالث أخذت المدافن، وإن حافظت على شكلها السابق، تظهر زيادة في حجمها وتحولاً نسبيًا في نوع الأدوات. شكّل ذلك الفترة الانتقالية بين

حضارتي جمدة نصر وأم النار في شرق الجزيرة. ففي رأس العيش كشف عن ذلك النمط من المقابر المقببة التي تطورت عن مقابر حفيت. وكذلك في موقع جبل الظنة – 1 وأميلح وبعض المدافن في طوى سليم.

شكّل الموقع الجغرافي لجزيرة أم النار عاملاً في النهوض بها كمركز حضاري في النصف الثاني من الألف الثالث. فهي تحتل موقعًا متميزًا قرب ساحل أبو ظبي كمرسى للسفن، يربط مناجم ومستوطنات الداخل والخط التجاري البحري. في ذات الوقت، فإنها قد ارتكزت على قاعدة حضارية ورخاء اقتصادي؛ تمثل في فترة جمدة نصر السابقة لها. وتواصلت العلاقات التجارية مع وادي الرافدين باستيراد النحاس والأخشاب وتبادل الأصواف والأقمشة.

كشف عن هذه المرحلة من حضارات شرق الجزيرة لأول مرة في عام 1959م حين بدأت البعثة الدنماركية أعمالها في الخليج. وأوضحت الأعمال اللاحقة في المنطقة انتشارها على امتداد الخليج والساحل العماني مقابل بحر العرب، وفي المناطق الداخلية على السهول والسلاسل الجبلية حيث كشف عنها في عدة مواقع شملت هيلي وبات وتل أبرق ووادي صمد ووادي اثلي ووادي البطحاء ورأس الحد وأسفل قلعة البحرين. وقد تشكلت المواقع من مستوطنات ومدافن.

شيدت أساسات المنازل فيها من صفين من حجارة غير مشذبة وتعلو الأساسات صفوف من الطوب اللبن وأحيانًا من مواد عضوية .. ويحوي المنزل عددًا من الغرف التي غطيت جدرانها أحيانًا بالملاط وحوت بعض المواقع، مثل هيلي وبات وعبرى قلاعًا تستدعي العمارة السومرية في جنوبي وادي الرافدين، بنيت من ألواح حجرية كبيرة.

أما المدافن، وإن توحدت في أشكالها، فقد تباينت في بعض تفاصيلها، إذ تميزت بأشكال مستديرة وغرف منتظمة، غير أن بعضها قد شيد من حجارة غير مشذبة يحيط بها سور حجري، والبعض الآخر من حجارة كلسية قطعت بدقة ووضعت الألواح الحجرية فوق بعضها بشكل منتظم .. ويحوي كل مدفن عددًا من الغرف وأحيانًا أكثر من طابق وأظهرت بعضها رسومات لأشكال حيوانية.

كشفت التنقيبات في مواقع أم النار عن كم هائل من المعثورات شمل أنواعًا من الفخار صنع من عجينة ناعمة خلطت بالرمل بأشكال أسطوانية وأعناق قصيرة وشفاه مائلة إلى الخارج .. ويتراوح اللون بين الأصفر إلى الأحمر ويحوي أطباقًا وجرارًا وأكوابًا تميزها زخرفة بأشكال هندسية تنحصر في الجزء الأعلى من الإناء (الشكل رقم 3أ). وإلى جانب الفخار المستورد الذي غلب على المدافن، والذي تربطه أوجه شبه بفخار الهضبة الإيرانية وجنوب وادي الرافدين، هناك فخار خشن محلي. وقد أرخ فخار أم النار إلى النصف الثاني من الألف الثالث ق. م. وكان من بين المعثورات كذلك أوانٍ من الحجر الصابوني حوت جرارًا وأطباقًا زخرفت بأشكال هندسية كما كانت الأختام التي رسمت عليها أشكال حيوانية جزءاً من المعثورات. أما المصنوعات المعدنية فقد شملت الدبابيس النحاسية وصنانير ورؤوس السهام والحراب والسكاكين، وقد صاحبتها نفايات النحاس وبقايا الأفران في بعض المواقع.

تباين اقتصاد أم النار بين منطقة وأخرى، فقد اعتمدت مجتمعات الساحل على الصيد البحري من أسماك وسلاحف بينما ارتكز غذاء مجتمعات الداخل على الماعز والضان والبقر والغزلان والجمال والطيور. وعثر على أدلة لاستغلال الشعير والقمح والذرة والتمور.

وتشير عمارة المستوطنات ونمط المدافن (الشكل رقم 3ب) ونوع المعثورات بأن مجتمع أم النار كان مجتمعًا ثريًا يرتكز على اقتصاد مزدهر ويرتبط بعلاقات تجارية مع المناطق المجاورة في وادي الرافدين وعيلام (إيران) وملوخا (بلاد السند).

ليس من شك في أن جزر البحرين والساحل المقابل لها في شرق الجزيرة كان لهما دور في الصلات التجارية بين جنوبي وادي الرافدين وماجان وملوخا وكانت المنطقة مأهولة بالسكان خلال حقبتي جمدة نصر وأم النار. ولعل ما يعرف بالمدينة -1 في أسفل قلعة البحرين هي من مخلفات تلك الفترة.

وهناك إشارات في وثائق وادي الرافدين لسفن دلمونية جلبت الأخشاب لبناء معبد في لقش في نحو 2600 ق. م. وأخرى كانت ترسو في ميناء أكد في نحو 2400 ق. م.

كذلك أوضحت الدراسة التي أجريت على تلال مدافن مدينة حمد في البحرين أن المدافن الحجرية الترابية ذات الشكل البيضاوي وشبه الدائري التي تعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث ق. م. والتي تعاصر فترة أم النار، تمثل مرحلة دلمون المبكرة. ويعتقد أن تاروت كانت وقتها هي المحطة التجارية الرئيسة على الساحل الشرقي للجزيرة العربية ومنفذًا لتجارة الداخل. ولما كانت البحرين أكثر ملاءمة بصفتها مرسى للسفن في الخليج إلى جانب وفرة المياه العذبة فيها، تحول المركز التجاري من تاروت إليها.

كان ذلك مع بداية الألف الثاني حين صعد نجم دلمون لتبدأ دورها وسيطًا تجاريًا بين وادي الرافدين والمناطق الجنوبية في شرق الجزيرة العربية (ماجان) وعيلام وملوخا. فقد كشفت الأعمال الآثارية المكثفة خلال النصف الثاني من القرن العشرين في البحرين عن مركز حضاري وتجاري مهم بدءًا من الربع الأول من الألف الثاني خلال العصر البابلي المبكر، حين ازدهرت التجارة بشكل كبير بين دلمون ووادي الرافدين؛ فالنحاس الذي كان يشار إليه في الماضي بنحاس ماجان أخذ يطلق عليه نحاس دلمون. تمثلت هذه الفترة في المدينة – 2 في قلعة البحرين التي تظهر تأثيرات بعمارة أم النار وهيلي، وفي معبد باربار الذي كشف فيه عن معبود محلي (انزاك)؛ وشمالاً في فيلكا؛ إذ ليس لدينا ما يشير إلى دور لمنطقة الكويت قبل 2000 ق. م. باستثناء موقع عبيدي، وإن عزا البعض ذلك إلى احتمال أن تكون أجزاء منها قد تأثرت بارتفاع منسوب مياه الخليج.

بنهاية أسرة أور الثالثة كان الصراع بين ماجان ودلمون، قد حسم لصالح دلمون لتخرج ماجان من مجال المنافسة. وغابت الإشارة إلى ماجان وملوخا في سجلات وادي الرافدين وانعكس ذلك في الأختام. (الشكل رقم 4) وربما كان لهذا التحول دور في انحدار حضارة أم النار. يدعم ذلك ما لوحظ من صلات بين مقابر وادي سوق وباربار، إذ حتى قبيل هذه الفترة لا نكاد نرى تشابهًا في المعثورات بين عمان والبحرين أصبحت دلمون مركزًا لاستيراد المواد الخام والسلع المصنعة من ماجان وملوخا وإعادة تصديرها إلى وادي الرافدين عبر ميناء أور وعلى امتداد الفرات إلى البحر المتوسط .. إلى جانب ذلك فقد اشتهرت بصيد اللؤلؤ حيث ساعدت المياه الضحلة حول شواطئها على تكاثر الأصداف الحاملة للؤلؤ.

دخلت دلمون إذن مجال التجارة العالمية وذاعت شهرتها؛ إذ تشير الوثائق إلى سفن دلمون التي كانت ترسو في أور وشهدت باربار معظم تطورها، وربما كان لانتصارات سارغون الأكادي علاقة بالسيطرة على تجارة الخليج.

إلى جانب التجارة فقد ساعدت وفرة المياه العذبة في البحرين على قيام مستوطنات كشف عنها في سار وباربار وقلعة البحرين وديراز. وقد حوت المستوطنات شوارع واسعة وتفرعات جانبية وغرفًا منتظمة من أساسات حجرية. أما المعابد فقد شيدت أيضًا من حجارة جيرية من عدة مراحل وشهدت إضافات متلاحقة وقد ارتكز الغذاء على الصيد البحري وممارسة زراعة القمح والشعير والتمور واستغلال الأغنام والماعز والأبقار.

بجانب كونها مركزًا اقتصاديًا، فقد كان لها دور مركزي في المعتقد الديني خلال تلك الفترة حين كان ينظر

إليها كأرض مقدسة يجلب إليها الأموات في المناطق المجاورة لتوارى أجسادهم في ثراها بحثًا عن نعيم أبدي في الحياة الآخرة. وهذا ما قاد إلى تلك الكثافة غير المعهودة في المدافن، الأمر الذي طرح تساؤلات عن المناطق التي وفد منها أولئك الأموات ودور الجماعات المحلية في ذلك والموارد الاقتصادية التي استندوا إليها، ونحو ذلك، بالرغم من أن البعض ينسب تلك المدافن إلى السكان المحليين بحكم أن هذا العدد من المدافن لا يحتاج، على سبيل المثال، لسوى 18 ألف نسمة على امتداد خمسة قرون ليصل إلى ما هو عليه.

وبنهاية العصر البابلي المبكر، نحو منتصف الألف الثاني ق. م. أخذ الإشعاع الدلموني يخبو وأخذت أهميتها التجارية والدينية تأخذ في الاضمحلال والركود، سواء بسبب اضطرابات في ماجان وملوخا مما قاد لقطع الطريق التجاري أو بسبب ركود اقتصادي مصاحب لتحولات سياسية في أور، أو لاضطرابات محلية في دلمون يشير إليها الحريق الذي تظهر آثاره في المدينة الثالثة، أو غير ذلك. ومهما يكن فخلال العصر البابلي المتأخر دخل شرق الجزيرة العربية في فترة ظلام معلوماتي حتى العصر الهلنستي.

أما في جنوب الجزيرة فقد كشفت الأعمال الآثارية، الخاصة بهذه الفترة، على قلتها، عن تباين واضح في مخلفات الفترة قيد البحث، حكمتها فيما يبدو ظروف التكيف على بيئاتها المتباينة. ففي منطقة خولان، شرق صنعاء (الشكل رقم 1)، كشف عن مستوطنات موسمية يعتقد أنها تعود إلى مجتمعات رعوية مارست رعي الغنم والماعز وربما نوعًا من الزراعة، حوت أساسات لمبان حجرية دائرية ومستطيلة تحوي أفرانًا ومخازن، وتتفاوت المباني في حجم البناء وطريقته مما أوحى بتفاوت طبقي بين المجموعات السكانية. وضمت المعثورات فخارًا يتفاوت بين فخار خشن وآخر ناعم مصقول تباينت فيه الأواني بين القدور والجرار، وقد زخرف بخطوط وحزوز غائرة. أرخت هذه المواقع إلى الألف الثالث ق. م.، نحو 2600-2000 ق. م.

أما في منطقة المرتفعات الجبلية الممتدة من تعز جنوبًا وحتى الحدود الشمالية لليمن، فقد كشف عن مواقع حوت فخارًا مشابهًا لفخار خولان إلى جانب فخار مصقول وآخر ببطانة شمل جرارًا وأطباقًا، تراوح تاريخها بين نهاية الألف الرابع ونهاية الألف الثالث ق. م.

وفي المنطقة الجبلية الداخلية كشفت البعثة الإيطالية عن مستوطنات حول الأودية تتفاوت في مساحتها بين ألف متر وعشرة آلاف متر؛ تتألف فيها البيوت من أساسات حجرية موصولة بالطين يرتكز فيها السطح على أعمدة تستند على قواعد حجرية في وسط الغرف، ولها عتبات حجرية ونوافذ. أما الفخار فلا يظهر تباينًا في أنواعه خلافًا لكونه غير متقن الصناعة. وقد عرفت تلك المجتمعات الحيوانات المستأنسة كالبقر والماعز وكشفت طبعات الفخار عن استغلالهم للقمح والشعير والذرة .. كشفت التنقيبات كذلك عن دمى حجرية إشارة إلى معتقدات روحية، إلى جانب دورها الفني. وتمثلت المقابر في منشآت حجرية.

وعلى ساحل البحر الأحمر وتهامة وحول باب المندب وعدن ازدهرت حضارة صبر التي تطورت محليًا من ثقافات العصر الحجري الحديث خلال الألف الثاني ق. م.. وقد تركزت مواقعها على الساحل وعلى الأودية المنحدرة غربًا من المرتفعات اليمنية. اعتمد غذاؤهم على صيد البحر، وتألفت بيوتهم من غرف دائرية متلاصقة بنيت من الطوب اللبن وحوت أدوات من النحاس. أما الفخار فقد شكل من أنواع متباينة، يعتقد أنها تحمل تأثيرات أفريقية عبرت من الساحل المقابل للبحر الأحمر.

وفي حضرموت كشف عن مواقع قرب شبوة تعود إلى الألف الثاني ق. م. حوى بعضها تعاقبًا طبقيًا وصل إلى 12 مترًا تضمن مباني حجرية وفخارًا مصقولاً يحوي شوائب نباتية ومزخرفًا بخطوط رأسية أو مموجة، شكلت منه أوان

بفوهات واسعة وجوانب رأسية وشفاه منفرجة، إلى جانب جرار وأطباق من الحجر الصابوني.

إن ما توافر من معلومات حول الاقتصاد المعيشي لجماعات الألفين الثالث والثاني ق. م. في جنوب الجزيرة يشير إلى تكيف تلك الجماعات على بيئاتها وعلى التحولات المناخية التي طرأت خلال تلك الفترة. غير أن تفاصيل ذلك التكيف ربما يحتاج إلى المزيد من التقصي قبل الوصول إلى استنتاج بشأنها؛ إلا أن اقتصادهم بوجه عام قد ارتكز على الرعي والزراعة؛ فقد عرفوا تربية الضأن والماعز والقليل من الأبقار التي هبطت نسبتها في المواقع مقارنة بمواقع العصر الحجري الحديث ربما بسبب بداية فترة الجفاف. كذلك مارسوا زراعة القمح والشعير والذرة والدخن في السهول وعلى التروس في المناطق الجبلية. ولعل وجود الذرة والدخن يشير إلى صلات مع شرق أفريقيا فالذرة والدخن نباتات أفريقية الأصل عرفت أشكالها البرية شمال شريط السافنا في أفريقيا من الهضبة الأثيوبية إلى الساحل الأطلسي. وقد استغلت كنبات بري قبل أن يكتمل استئناسها خلال العصر الحجري الحديث في أواسط السودان.

بالرغم مما ما تم من أعمال آثارية في شرق الجزيرة وجنوبها سلطت الضوء نسبيًا على مجرى الأحداث خلال الألفين الثالث والثاني ق. م.، فإن بقية أنحاء الجزيرة العربية، خاصة في المملكة العربية السعودية، لم تحظ بأعمال تذكر تكشف عن أحوال هذه الفترة. فالمسح الآثاري الشامل لم يؤرخ ما نسب لهذه الفترة من مواقع بشكل جازم. فالبعض يشير إلى افتراض وجود مستوطنات في المناطق الشمالية والغربية ارتكزت على الواحات الزراعية والمصادر المعدنية خلال تلك الفترة في الوقت الذي ينفي فيه آخرون وجود خامات للنحاس بالكم الذي يمكن استثماره في الحقب القديمة. وهناك مواقع في المنطقة الشمالية الغربية، لم تنقب، تحوي ظواهر أثرية أرخت شبيهاتها في سيناء، على الجانب المقابل من خليج العقبة إلى الألف الثالث ق. م. وعثر كذلك في بعض تلك المواقع على فخار يمكن تأريخه إلى نهاية الألف الثاني ق. م.، مقارنة بأنواع مشابهة من الشام.

أما المسح الذي تم في تلك المنطقة، فقد نسب كل المواقع التي عجز المنقبون عن تصنيفها وتلك التي لاتحمل خواص محددة لحقب معروفة، من أدوات حجرية وفخار ومنشآت حجرية، وهو ما يعادل نحو 65% من المواقع المكتشفة إلى الحقبة السابقة للعصر الحديدي واللاحقة للعصر الحجري الحديث وذهب آخرون بتاريخها إلى ما قبل الممالك العربية .

وفي المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية صنفت المواقع المشابهة التي تحوي ركامات حجرية ومزيلات ومقابر ومواقد للنار وأدوات حجرية إلى ما أطلق عليه حضارة البدو في ربط غير مبرر بين تلك المعثورات.

إن تلك الأشكال الحجرية تغطي مساحات واسعة من سطوح التلال والهضاب في الجزيرة العربية. وقد ذهب البعض إلى عدة تفسيرات بشأنها وإن لم يحدد تاريخها أو وظائفها بشكل قاطع. وفي ظل غياب مستوطنات ملحقة بها في المناطق التي تم مسحها، يوحي انتشارها وتوزيعها وعمارتها بأنها تخص مجتمعات غير مستقرة مارست الرعي والترحال في الفترات السابقة للإسلام. والمجتمعات الرعوية عادة ما تترك وراءها القليل، عدا المدافن والظواهر المتعلقة بالعقيدة، من المخلفات في مستوطناتها. وسواء كانت بعض تلك المنشآت تؤرخ للفترة قيد البحث أو غيرها، فإن مجتمعات وسط الجزيرة وشمالها وغربها لابدّ وأن ارتكز اقتصادها في غالبه على رعي الضأن والماعز وربما الأبقار إلى درجة أقل قبل أن تزداد حدة الجفاف ويسيطر الجمل على مسرح الاقتصاد الرعوي. وفي جنوب تهامة على ساحل البحر الأحمر كشفت بعض المواقع عن معثورات نحاسية تمثلت في أدوات بدائية من صنانير ومخارز لم يحدد لها تاريخ.

فجر المدنيَّة:

مع بداية النصف الثاني من الألف الثاني ق. م. كانت المنطقة الشرقية للجزيرة العربية قد خرجت عن دائرة الضوء بعد أن اضمحل دورها التجاري وخمدت الحركة التجارية على امتداد الخليج .. تزامن هذا مع ظاهرة الجفاف الآخذة في التوسع التي تمثلت في شح نسبي للأمطار انعكس سلبًا على جريان الأودية، حيث اتسعت الصحارى وانتشرت السبخات الجافة. في هذا الوقت كانت مجتمعات جنوب الجزيرة تمارس زراعة القمح والشعير والذرة وهي محصولات شتوية وصيفية مما يشير إلى دورة زراعية على امتداد العام؛ كما كانت تمارس رعي الغنم والماعز والبقر إلى جانب استخدام الفخار. ويعتقد أن بعض هذه السمات قد وفد من شمال شرق أفريقيا.

وخلافًا لبقية أنحاء الجزيرة العربية فإن جنوب الجزيرة، خاصة المنطقة التي تحتلها اليمن حاليًا ظلت تتمتع بوضع بيئي يسمح لها بمجابهة مثل تلك الظروف. فهي تستقبل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية القادمة من سطح مائي واسع هو المحيط الهندي. وبالتالي تهطل عليها كميات وافرة من الأمطار، خلافًا لبقية أنحاء الجزيرة التي تستقبل إما رياحًا شمالية شرقية جافة لم تعبر على مسطح مائي أصلاً، أو رياحًا شمالية غربية استنفدت رطوبتها بعد أن قطعت مسافة طويلة قادمة من البحر المتوسط.

كذلك ساهمت تضاريس اليمن الجبلية التي تتكون من صخور نارية ومتحولة في الطرف الجنوبي للدرع العربي في عدة أمور: (أ) أدى اصطدامها بالرياح الموسمية المحملة بالسحب إلى ارتفاع تلك السحب لتتحول إلى سحب ركامية، وبالتالي إلى هطول كم هائل من الأمطار. (ب) احتواء تلك التكوينات الصخرية على عناصر أساسية لغذاء التربة (ألوفينات، فلسبارات... إلخ). تتفتت مع عوامل التعرية وتنزلق مع مياه الأمطار لتترسب في الأودية وتزيد من خصوبة التربة. (ج) توافر أودية انكسارية في جنوب الجزيرة بسبب الصدوع، خلافًا لرصيفاتها في وسط الجزيرة وشرقها. وهذه الأودية الإنكسارية لها قدرة فائقة على احتقان كميات من المياه تساعد على إقامة السدود .

في الوقت الذي تغيب فيه هذه السمات عن الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية؛ تعاني تلك الأجزاء من زحف الرمال الذي يؤدي إلى تغطية القليل المتوافر من الرقعة الزراعية.

مع سيادة فترة الجفاف في النصف الثاني من الألف الثاني نحسب أن الجماعات الرعوية بدأت تجابه ظروفًا صعبة في كل أنحاء الجزيرة العربية وأصبحت المناطق الزراعية في جنوب الجزيرة أكثر جذبًا للسكان في منطقة تتسم بكثافة سكانية أصلاً. فازدادت تلك القرى في الحجم والكم. والزراعة بطبعها تستغل مساحة أقل كثيرًا (نحو 1%) مما يستغله الرعاة وهي تتطلب أعمالاً جماعية (إعداد الأرض وحفر القنوات وإقامة التروس والحصاد). والتركيز على الزراعة تتولد عنه عدة أمور؛ فهو يفرض تكثيف تربية الحيوان الذي يدفع بالمنتوج الزراعي مما يؤدي إلى الوفرة. ويؤدي إلى انفصال الحرفة وتطورها لمجابهة متطلبات المجتمع الزراعي. كما يؤدي إلى تطور التجارة "التصدير" الفائض من المنتوج و"استيراد" ضروريات المجتمع الزراعي.

شهد النصف الثاني من الألف الثاني ق. م. نمو القرى الزراعية وتطور نظم الري. فإلى جانب الري الفيضي حول الأودية عرفت جنوب الجزيرة إقامة الحواجز (التروس) الحجرية على المنحدرات للاحتفاظ بعناصر غذاء التربة المنحدرة من الجبال ولزيادة الرقعة الزراعية، وفي وقت لاحق بناء السدود. وقد كشفت الكثير من المواقع في اليمن عن هذه النظم.

بنهاية الألف الثاني نمت شبكة من العلاقات بين القرى تحولت خلالها إحداها إلى مركز (مدينة) تجاري وحرفي وديني وإداري حيث الأسواق ومحال الحرفيين والمعابد

وسلطة إدارة المركز التي بسطت نفوذها على المركز ومقوّماته (القرى المجاورة).

نحسب أن الأحداث قد سارت بتلك الوتيرة خلال القرنين العاشر والتاسع من الألف الأول ق. م. لتتولد عنها في القرن الثامن ق. م. الدولة البكر، سبأ، حول وادي ذنة وسط شبكة من القرى الزراعية. ولم يكن غريبًا أن تبزغ الدويلات الجنوبية اللاحقة على ذات الشاكلة: معين على وادي الجوف وقتبان على وادي بيحان وحضرموت على وادي حضرموت.

غير أن هذه الفرضية لبزوغ الدولة في جنوب الجزيرة لا تستبعد تأثيرات أخرى. فالظروف البيئية بالرغم من كونها العامل الأهم، فيما نحسب، إلا أنها لم تكن العامل الوحيد. فالتأثيرات الخارجية لا يمكن استبعادها، أيًا كان مصدرها. لكن يعوزنا الدليل الأثري الذي يستدل به، أو الذي يرجح كفة على أخرى.

وهناك عوامل داخلية يعوزنا الدليل أيضًا في الوقت الحالي عن مدى دورها في قيام الدولة وعما إن كان لها دور أصلاً. أولاها: تجارة البخور التي ازدهرت مع شرق المتوسط في النصف الأول من الألف الأول ق. م؛ إذ تشير بعض النقوش إلى قوافل تجارية بين سبأ وتيماء في منتصف القرن الثامن ق. م. فقد أدى الطلب على البخور، كأحد الثروات الزراعية في جنوب الجزيرة، في مناطق المدنيات القديمة في الشرق الأدنى إلى ازدهار تجارته خلال الألف الأول ق. م.

والعامل الثاني هو الجمل الذي أدى الدور الأساس في هذه التجارة، حيث ازدهرت طرق القوافل بين جنوب الجزيرة وشرق المتوسط. ولا ندري على وجه التحديد متى كان استئناس الجمل وأين. فقد تعددت الآراء حول بداية استئناسه، عما إن كانت خلال الألف الثالث أو الثاني ق. م.

وبحكم مقدرته على التكيف على البيئات الجافة وظروف الصحراء فأغلب الظن أن استئناسه قد تم في تلك الفترة التي ساد خلالها الجفاف في النصف الثاني من الألف الثاني ق. م. وفي المنطقة التي توفرت فيها أصوله البرية. فقد عرف حيوانًا بريًا تمَّ اصطياده في الجزيرة العربية، كما تظهر النقوش الصخرية وشواهد قبور أم النار غير أن الأدلة المباشرة على جمال مستأنسة في الجزيرة العربية لا تتجاوز الألف الأول ق. م. سواء اتخذت شكل مخلفات عظمية أو شواهد كتابية.

الخلاصة:

باستثناء بعض أجزائها، فإن الأعمال الآثارية في الجزيرة العربية لا تزال في بداياتها، وسيمضي بعض الوقت قبل الوصول إلى اكتمال رسم الإطار الحضاري فيها. في الوقت ذاته، فإن دراسات المناخ القديم التي ترسم المسرح البيئي الذي نشأت فيه تلك الحضارات لا تزال تنتظر المزيد من الدراسة. وعند رسم هذين الإطارين يمكن الحديث في ظل الدليل الإنثروبولوجي عن الواقع الديمغرافي الذي عاصر تلك الحقب. غير أن ما تم من أعمال في تلك المجالات، على قلته، يسمح برسم صورة أولية أيًا كانت درجة الضبابية فيها.

لعل الاتصالات المبكرة بين جنوب وادي الرافدين وشرق الجزيرة العربية في فترة العُبيد قد مهدت للمجتمعات الرافدية في مرحلة (جمدة نصر) لبسط نفوذهم الاقتصادي بحكم أن الإمكانات الاقتصادية لشرق الجزيرة معروفة لديهم. فنشأت مستوطنات في الداخل قرب مناجم النحاس وأخرى على الساحل شكلت منافذ على الطريق التجاري البحري عبر الخليج، وكشفت عن صلات حضارية مع الأقاليم المجاورة. وخلال النصف الثاني من الألف الثالث ق. م. ازدهرت أحد تلك المرافئ، أم النار، لتصبح المركز الحضاري الأول الذي يربط مناجم النحاس بالخط التجاري. وقد كشفت المعثورات عن مجتمع ثري يرتكز على اقتصاد مزدهر وعلاقات تجارية واسعة. ومع بداية الألف الثاني ق. م. صعد نجم دلمون على حساب أم النار، من مركز ثانوي

على الطريق التجاري إلى المركز الرئيس ولتسيطر على تجارة الخليج، بل وتأخذ مكانًا بارزًا في المعتقد الأسطوري. غير أن إشعاعها أخذ يخبو خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق. م. بسبب اضطرابات سياسية وركود اقتصادي.

في هذا الأثناء كانت مجتمعات بقية أنحاء الجزيرة العربية تمارس اقتصادًا قائمًا على الزراعة والرعي يتباين في الكم والكيف حسب تباين بيئاتها وتقلب تلك البيئات. ومع ازدياد حدة الجفاف برزت جنوب الجزيرة بحكم وفرة الأمطار وتضاريس المنطقة بصفتها بيئة قادرة على مجابهة ظروف الجفاف وجذب المجتمعات إلى مصادر المياه؛ لتزداد القرى الزراعية في الحجم والكم. أدت تلك الكثافة السكانية، وهو شأنها دومًا، إلى اختلاف طبقي حتمه العائد الاقتصادي ونمو تجارة الفائض، مما قاد إلى ضرورة حماية ذلك الواقع الطبقي بتعظيم دور قيادات المجتمع واتساع دائرة نفوذهم وتطوير نظام إداري قادر على مجابهة المستجدات؛ لتظهر سبأ في القرن الثامن ق. م. بوصفها أول تجمع سياسي يأخذ شكل الدولة في جنوب الجزيرة. في ظل هذا النظام برز دور الجمل حين نشطت تجارة الجزيرة مرة أخرى، وإن تعدلت مراكزها وخطوطها ووسائلها ومحتواها بين الجزيرة العربية ومدنيات الشرق القديم.

د. عباس سيد أحمد محمد علي

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية:

- **الأمين، يوسف مختار، 2003**
"العصور الحجرية في المملكة العربية السعودية" أدماتو، 7، ص 7 – 40.

- **التكريتي، وليد 2003**
"تتبع ثقافة العُبيد في دولة الإمارات العربية المتحدة" أدوماتو، 7، ص 47- 64.

- **الميلايلوي، على 2003**
ثقافة (جمدة نصر) في إقليم عمان: 3200- 2700 ق. م.، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض.

- **دي ميغريه، أ. 1999**
"عصر البرونز في المرتفعات" (في) اليمن: في بلاد مملكة سبأ، معهد العالم العربي، دمشق.

- **صويلح، عبد العزيز علي، 2003**
مملكة البحرين في الألف الثالث ق. م.: تلال مدينة حمد، وزارة الإعلام، البحرين.

- **فوكت ب. وسيدوني أ. 1999**
"ثقافة صبر على الشاطئ اليمني" (في) اليمن : في بلاد مملكة سبأ، معهد العالم العربي، دمشق.

- **محمد علي، عباس سيد أحمد 2000**
ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية" الدارة، 3 (26)، ص 89- 131.

- **محمد علي، عباس سيد أحمد 2003**
"النيل والصحراء خلال العصور الحجرية: تباين بيئي وتكامل حضاري"، أدوماتو، 7، ص 7- 30.

- **محيسن، سلطان 1994**
بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ: المزارعون الأوائل، الأبجدية، دمشق.

ثانيًا : المراجع الأجنبية:

- **AL-Ansari, A., Abdullah, A, AL-Sakkar, S., Mortel, R. 1979**
Studies in the History of Arabia, vol 1, K.S.U. press, Riyadh.

Cultures of Hawtay AL-Tiyal and AL-Hada, Rome, p 187 - 203 .

- **Crawford, H. Killick, Rand Moon, J.1997.**
The Dilmun Temple at Saar, Kegan International, London.

- **Crawford, H., 2001**
Early Dilmun Seals from Saar, C.N.H, Bahrain.

- **DeCardi, B. 1977**
" Surface collections from Oman survey, 1976 " JOS 3 (1), p 59 - 70.

- **De Cardi, B., Bell, R., and Storling. N. 1979**
" Excavations at Tawi Slaim and Tawi Said in the Sharqiya, 1978 " JOS 5. p 61-93.

- **Edens, C. 1982**
" Towards a definition of the Rub al-Khali neolithic " Atlal 6, p 109 - 123.

- **Edens, C. and Wilkinson, T. 1998**
" Southwest Arabia during the Holocene : Recent Archaeological developments " Journal of World Archaelogy, (20) p 55-119 .

- **Frifelt, K., 1970**
" Jamdat Nasr Graves in Oman " KUML,15 p 355 - 383

- **Frifelt, K., 1976**
" Evidence of a third millennium B.C. Town in Oman " JOS 1 (2) , p 57 - 73.

- **Frifetl, K. 1975**
" A Possible link between the Jemdat nasr and the Umm An - nar graves of Oman " JOS 1, p 57 - 80.

- **AL-Ansari, A., Abdullah, A, AL-Sakkar, S., Mortel, R. 1984**
Studies in the History of Arabia, vol 2, K.S.U. press, Riyadh.

- **Anati, E. 1968**
Rock Art in Central Arabia, vol 2, Institute Orientaliste, Louvain.

- **AL-Shariekh, A. 1995**
The Archaeology of Central Saudi Arabia, unpublished Ph. D. thesis, University of Cambridge.

- **AL-Khalifa, S. H. and Rice, M. 1986**
Bahrain Through the Ages, K.P.I., London.

- **Amirkhanof, H. 1994.**
" Research on the Paleolithic and Neolithic of Hadramaut and Mohara " Arabian Archaeology and Epigraphy, 5 (4) p. 117-128.

- **Badre, L. 1991.**
" Le Sondage stratigraphique de Shobwa " Syria, 68, p 229 - 314.

- **Bibby, 1964.**
" Arabiens Archaeologi " KUML 9, p 86-111.

- **Bushiri, A. 1992**
Dilmun Culture, N.C. C. A. L. Manama.

- **Cleuziou, S. and Tosi, M 2000**
" Ras al- Jinz and the Prehistoric coastal cultures of the Jaalan " JOS 11, p 19-73.

- **Costantini, L. 1989**
" Ecology and farming of the Prehistoric communities in the central Yemeni highlands" in De Maigret, A. et.- al .(eds) The BronzeAge

- **Masry, A. 1974**

Prehistory in Northeastern Arabia : The Problem of Interregional Interaction, Coconut Grove, Miami.

- **Masry, A. 1977**

" The historic legacy of Saudi Arabia " Atlal 1, p 9 - 20 .

- **McAdams, R. 1977.**

" Saudi Arabia archaeological reconnaissance - 1976 " Atlal 1, p 21 - 40 .

- **McClure, H. 1971**

The Arabian Penisula and Prelistoric Population, Miame, Florida.

- **Mohammed - Ali, A. 1984**

" Evidence of early food production in Northeast Africa : an alternative model " in Krzyzaniak, L and Kobusiewicz, M. (eds) Origin and Early Development of Food - Producing Cultures in Northeast Africa, Posnan, p 65 - 72 .

- **Oates, J. 1978**

" Ubaid culture and its relation to Gulf countries" in De Cardi (ed) Qatar Archaeological Report: Excavations 1973, Oxford University Press, Oxford, p 39-52.

- **Parr, P. 1979**

" Archaeological Sources for the early history of Northwestem Arabia " in AL-Ansari, A. et. al (eds), p 37 - 44.

- **Parr, P. 1984**

" The Peresent state of archaeological research in the Arabian Peninsula " in AL-Ansari et. al. (eds). p 43 - 54 .

- **Frifelt, K. 1986**

" Burial mounds near Ali excavated by the Danish Expedition" in AL-Khalif a, S.H. and Rice, M (eds), p 125 - 134 .

- **Frohlich, B 1986**

" The human biological history of the early Bronze Age population in Bahrain " in AL-Khalifa and Rice (eds) p 47 -63 .

- **Gibson, M. and Wilkinson, T. 1995.**

" The Dhammar Plain, Yemen : A Preliminary Study of the Archaeological Landscape: Seminar for Arabian Studies 25, p159-183.

- **Gilmore, M, Ibrahim, M. and Murad, A. 1981**

" Preliminary Report on the Northwestern region survey 1981 " Altal 6, p 9 - 24 .

- **Golding, M. 1974**

" Evidence for pre-Seleucid Occupation in Eastern Arabia " Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 4, p 19 - 32 .

- **Hastings, A., Humphriesm, J. and Meadow, R. 1975**

" Oman in the Third millennium B.C. " JOS. 1, p 9 - 55.

- **Kinsawi, A., de Jesus, P. and Rihani, B. 1983**

" Preliminary report on the mining survey, Northwestern Hijaz " Atlal 7, p 76 - 83.

- **Larsen, C. 1983**

Life and Land use on the Bahrain Islands, Chicago University Press, Chicago .

- **Whalen, N., Siraj - Ali, J., Sindi, H., and Pease D. 1986**

" A Lower Pleistocene site near Shuwayhittigah in Northern Saudi Arabia " Atlal 10, p94 - 101 .

- **Whalen, N., Sindi, H., Wahida, G. and Siraj - Ali, J. 1983**

" Excavations of Acheulean Site near Saffagah in Dawodmi " Atlal, 7, p 9 - 21 .

- **Winnett, F. and Reed, W 1970**

Ancient Records from North Arabia, University of Toronto press, Toronto.

- **Wilkinson, T., Edens, C. and Gibson, M. 1997**

" The archaeology of the Yemen high plains : A Preliminary Chronology " Arabian Archealolgy and Epigraphy 8, p 99 - 142.

- **Zarins, J. 1989**

" Pastrolism in South west Asia: the Second millnnium B.C" in Clutton-Brock, J. (ed) The Walking Lader, Unwin Hyman, London, p 127-155.

- **Zarins, J., Rahboni, A., and Kamal, M. 1982**

" Preliminary report on the archaeological survey of Riyadh area " Atlal 6, p 25 - 38 .

- **Zarins, J. and Zahrani, A. 1985**

" Recent archeaological investigations in southern Tihama Plain: the sites of Athar and Sihi " Atlal 9, p 65 - 107.

- **Potts, D. 1978**

" Towards an integrated history of culture change in the Arabian Gulf Area : Notes on Dilmun, Makkan and the economy of ancient Sumer " JOS 4, p 29 – 51.

- **Parr, P. 1979**

" Archaeological Sources for the early history of Northwest Arabia " in AL-Ansari et. al., p 37 - 44.

- **Potts, D. 1984**

" The Jamdat Nasr Culture Complex in the Arabian Gulf ca 3000 B. C. in AL-Ansari, A. et. al . (eds) , p 109 - 122 .

- **Potts, D. 1990**

The Arabian Gulf in Antiquity, vol1, Clorendon press, Oxford.

- **Rice, M. 1972**

" The grave complex at AL-Hajjar, Bahrain " Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 2, p 66 - 75 .

- **Rice, M., 1994**

The Archaeology of the Arabian Gulf, Routledge, London.

- **Saud, A. 1996**

" The Domestication of Camels and Inland Trading Routes in Arabia " , Atlal 14, p 129 - 136.

الفصل الثاني

الوطن العربي منذ نهاية القرن الرابع ق.م. إلى ظهور الإسلام:

- الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في (وادي الرافدين).
- الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في (بلاد الشام).
- الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في (وادي النيل).
- الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في (بلاد المغرب).
- الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في (جزيرة العرب).

الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في وادي الرافدين

1- المدخل :

يعد سقوط بابل عام 539 ق. م بداية لمرحلة صعبة في تاريخ وادي الرافدين ؛ فمنذ هذا التاريخ وحتى تحرير العراق على يد العرب المسلمين في معركة القادسية عام 637م ، كان العراق تحت سيطرة أقوام اجنبية دون أن تتهيأ له فرصة لقيام حكومة وطنية تحقق استقلال البلاد؛ فباستثناء بعض الثورات المحلية التي لم يكتب لها النجاح إلا لفترة قصيرة جداً وقيام أنظمة سياسية في ظل السيطرة الأجنبية، فإن السيادة الكاملة ظلت بعيدة عن أيدي سكانه الأصليين لعصور طويلة تزيد على ألف عام عرفت بعصور الاحتلال الأجنبي .. ولذلك ومن أجل فهم المتغيرات التي حدثت في وادي الرافدين في العصور التي لحقت سقوط بابل ، علينا أولاً أن نضع بين يدي القارئ بإيجاز مركز، أبرز المستجدات التي شهدها القطر خلال العصر الإخميني بوصفه عصر الاحتلال الأول ولأن العصور الثلاثة التي لحقته (السلوقي والفرثي والساساني) موضوعنا الرئيس، كانت في الواقع امتداداً له .

أصبحت بابل بعد عام 539ق . م واحدة من الولايات العشرين التابعة للإمبراطورية الإخمينية التي شملت أقاليم واسعة امتدت من مصر غرباً إلى أواسط آسيا شرقا، ومن بلاد الأناضول شمالاً إلى الهند جنوباً . ومثل غيرهم من سكان الولايات التابعة فقد أثقل كاهل البابليين بالضرائب التي كانت تجبى للحكومة المركزية في إيران نقداً (فضة) وعيناً (على شكل مؤن)؛ فضلاً عن التجهيزات التي كانوا يقدمونها إلى الحاكم الإخميني في بابل وإلى أتباعه وتكفلهم بإطعام الأعداد الكبيرة من خيوله وكلابه.

ومما تجدر ملاحظته أيضاً أن تغيرات مهمة بدأت تظهر في وادي الرافدين على صعيد التركيب السكاني والتداول اللغوي منذ العصر البابلي الحديث والعصر الإخميني الذي تلاه؛ ففضلاً عن السكان الأصليين الذين يمثلهم البابليون والآراميون والعرب ، فقد مهدت الفتوحات الأشورية والبابلية الطريق للاختلاط بعناصر جديدة مثل العبرانيين والسوريين والمصريين والأورارتيين ، كما أدى قيام الإمبراطورية الإخمينية وتوسع رقعتها إلى اختلاط الفرس بهذه الأقوام وبغيرها أيضاً. ومعروف أن من بقي من اليهود في وادي الرافدين بعد أن سمح لهم كورش الإخميني بالعودة إلى أورشليم أصاب حظاً وافراً من النجاح وخاصة في الحياة المالية. ومن هؤلاء بيت إيكبي (Bit Egabi) في مدينة بابل، وأولاد موراشو (Murashu) في مدينة نفر؛ ففضلاً عن ممتلكاتهم من الأراضي والمزارع، كانت القروض التي يقدمها أولاد موراشو تشكل مصدراً رئيساً من مدخولاتهم. وقد بلغ سعر الفائدة نسبة (70%) . وكان لابد لهذا الخليط من الأقوام من لغة عامة مشتركة يتفاهمون بها. فأصبحت الآرامية منذ زمن داريوس الأول لغة رسمية في كافة أنحاء الإمبراطورية, ولغة للتداول اليومي في البيوت والشوارع؛ لأن الآرامية كانت شائعة في مناطق واسعة من الهلال الخصيب، ولأن حروفها ملائمة للكتابة على صفائح البردي والرق .. مقابل ذلك انحسر استخدام اللغة البابلية واقتصر استخدامها على المثقفين وكتبة المعبد . وبالرغم من

أن الملوك الإخمينيين اعتنقوا الزرادشتية. وأن بعضهم منع عبادة أي إله باستثناء أهورامزدا (Ahurramazda)، فإن البابليين بشكل عام لم يغيروا من آلهتهم أو طقوسهم الدينية.

لم يقف البابليون مكتوفي الأيدي تجاه المحتلين الإخمينيين، فقد شهدت بابل أول انتفاضة لها عام 522 ق. م عندما استطاع نادنتو - بيل (Nadintu - Bel) من الاستيلاء على السلطة في بابل من شهر تشرين الأول إلى شهر كانون من تلك السنة. وتبع ذلك انتفاضة أخرى في العام التالي (521 ق. م) ذكر أخبارها داريوس نفسه في نقش بهستون ، وفي السنة الرابعة من حكم ابنه وخليفته احشويرش الأول (Xerxes - I) 482 ق. م قامت في بابل آخر ثورة وطنية للخلاص من الحكم الأجنبي. إذ تذكر العقود المؤرخة والمكتشفة في عدد من المدن بأن بيل - شيمني (Bel - Shimanni) أصبح ملكاً في بابل في شهر أب وتبعه شمش - ايريبا (Shamash - eriba) في شهر أيلول من ذلك العام. ويبدو، أن الثورة في بابل كانت قوية وعنيفة بحيث أنها أدت إلى مقتل زوفيروس (Zophyrus) الحاكم الإخميني.

وكان رد الفعل تجاهها وحشياً وقاسياً من قبل المحتلين ، ولم يقتصر الانتقام على ما يبدو من زعماء الثورة فقط إذ أن بابل نفسها تعرضت إلى التخريب وخاصة معابدها وأسوارها.

وفضلاً عن حركات التمرد التي حدثت في عدد من ولايات الإمبراطورية والتي استلزم إخمادها استنزاف طاقات كبيرة ، فإن أقوى تحدٍ واجهه الإخمينيون تمثل في الدويلات اليونانية . فبعد أن غزا كورش مملكة ليديا في آسيا الصغرى واستولى على عاصمتها ساردیس (Sardis) ضم المدن الأيونية إلى الإمبراطورية الإخمينية ، وبذلك أصبح الفرس على مقربة من الدويلات اليونانية التي لم تخف تأييدها ومساعدتها للمدن الأيونية ضد الهيمنة الأخمينية.

وكان ذلك وحده كافياً لإشعال فتيل الحرب بين الفرس والإغريق .. وقد انتهت الحملة الإخمينية الثانية في زمن داريوس ضد أفينا عام 490 بالهزيمة في معركة مرثون (Marathon) الشهيرة، مما اضطر الفرس الإخمينيين إلى الانسحاب إلى آسيا الصغرى . لكن هذه المعركة كانت في الواقع مجرد البداية لسلسلة طويلة من المعارك اللاحقة في البحر والبر بين الطرفين . والحقيقة هي أن النفوذ الإخميني ما كان ليبقى طويلاً في آسيا الصغرى وبلاد اليونان لو لم تنشب الخلافات والحروب بين الدويلات اليونانية نفسها وخاصة الحرب البلوبونيسية (Peloponneesian) بين أثينا وإسبارطة، مما أعطى للإخمينيين فرصة التدخل في شؤون الدويلات اليونانية .

2- العصر السلوقي :

استطاع فيليب المقدوني (382 - 336 ق . م) والد الإسكندر المقدوني ، أن ينتصر على قوات طيبة أثينا في معركة كيرونيا (Chaeronea) عام (381 ق .م) وبذلك حصل على اعتراف الدويلات اليونانية بالزعامة المقدونية باستثناء طيبة . واستطاع فيليب من إقامة حلف كورنيث (Cornith) والحصول على موافقة أعضائه بوضع قوات عسكرية تكون تحت إمرته . وكان أول هدف خطط له فيليب هو ضرب الوجود الإخميني في آسيا الصغرى ، لكنه اغتيل قبل أن يستطيع تنفيذ حملته فخلفه ابنه الإسكندر الملقب بالإسكندر الكبير .

لسنا هنا بطبيعة الحال في صدد الحديث عن الإسكندر إلا بقدر ما يتعلق الأمر بموضوعنا الرئيس وهو وادي الرافدين في عصره وفي العصر السلوقي الذي تلاه . ويهمنا من سيرة الإسكندر في الوقت الحاضر ذكر ثلاثة أو أربعة تواريخ : مولده عام 356 ق. م ، وتوليه السلطة بعد أبيه فيليب عام 336 . ودخوله العراق عام 331 ق. م ، ووفاته في بابل عام 323 وهو في سن 33 عاماً . ولاشك في أن

انتصاراته الشهيرة التي حققها في معارك ضارية خاضها دون أن يخسر منها معركة واحدة ، ووفاته في مثل هذه السن المبكرة، كانا من العوامل الرئيسة التي حولت شخصيته إلى أسطورة من خلال ما نسجه الغربيون حوله من قصص واساطير بقيت شائعة ليس بين الأجيال التي أعقبته، بل في مختلف الأزمنة والأمكنة. من جهة أخرى اختلف الباحثون في حقيقة شخصيته اختلافاً كبيراً .. فبينما يعده بعضهم مجرد قرصان مغامر ليس له أهداف حقيقية ، وأن سلوكه ينم عن ترف وغرور ، وأنه عرضة لنوبات من الهيجان الطائش أثناء السكر قتل خلالها بعضاً من خيرة قواده وأصدقائه ، فإن باحثين آخرين يغضون النظر عن مثل هذه الأمور ويتخذون منه رمزاً لأعظم رجل في التاريخ.

حقق الإسكندر أول انتصار له على الملك الإخميني داريوس الثالث في معركة الغرانيق (Granicus) عام (334 ق .م) في آسيا الصغرى ثم تبعه بانتصار آخر في معركة ايسوس (Issus) في السنة الثالثة ، بعد ذلك انصرف إلى احتلال بلاد الشام ومصر ثم توجه إلى وادي الرافدين فعبر الفرات وسار نحو دجلة فعبره في نقطة تقع شمال الموصل . وفي الأول من شهر تشرين الأول من عام (331 ق .م) وفي موقع يعرف باسم كوكميلة (Gaugamela) على بعد 20 ميلاً إلى الشمال الغربي من أربيل ، حدثت معركة شهيرة بين الإسكندر وداريوس كانت الحاسمة في القضاء على الإمبراطورية الإخمينية وفي فتح الطريق أمام الإسكندر إلى بابل وسوسة (الشوش).

وبصرف النظر عن التفاصيل فإن عظمة الإسكندر كقائد عسكري تتجلى في هذه المعركة في قدرته على الاحتفاظ بهدوئه ورباطة جأشه بالرغم من ضراوة المعركة وتفوق خصمه عليه بالعدة والعدد . وقد ارتكب داريوس خطأ فادحاً عندما أعطى الأوامر لعرباته بالهجوم على كتائب المشاة المقدونيين؛ لأنه كما أثبتت الأحداث كان هجوماً مبكراً سابقاً لأوانه ، فالمشاة المقدونيون لم يكونوا قد تراصفوا بعد بشكل كامل ولذلك فإنهم استطاعوا ، بفتح صفوفهم والسماح للعربات بالمرور ، من تفادي الدمار الشامل الذي كان من المؤكد أن تحدثه فيهم العربات الإخمينية لو أن صفوفهم كانت متراصة تماماً . في الجانب الآخر واصل الإسكندر الضغط على قلب الجيش الإخميني ما تسبب في إحداث ثغرة في جناح الفرس الأيسر وقد استغلها الإسكندر بهجوم خاطف وعنيف اخترق به صفوف الفرس ففقد داريوس صوابه وأضطر إلى الفرار من المعركة ، بعد معركة كوكميلة توجه الاسكندر إلى مدينة بابل فخرج لاستقباله مازيوس (Mazoeys) وهو أحد كبار قواد داريوس ممن شارك في هذه المعركة، فعينه الإسكندر والياً على بابل في حين عين مقدونياً ليتولى فيها مهام المنصب العسكري ، وبعد أن مكث الإسكندر شهراً في بابل توجه إلى العاصمة الإخمينية سوسة في إيران ومن هناك واصل حملاته العسكرية في أواسط آسيا وشمال الهند. عاد الإسكندر إلى بابل ثانية بعد تسع سنوات وتوفي فيها يوم الثالث عشر من حزيران عام 323 ق . م إثر إصابته بمرض وهو في سن الثالثة والثلاثين. بعد وفاة الإسكندر بدأت المنازعات والحروب الطاحنة بين قواده على السلطة وخاصة بين القادة الحلفاء (ديادوكي Diadochi) كما كانوا يسمون .وقد اقتسم إمبراطوريته قواده الثلاثة وهو سلوقس (Seleucus) الذي كون مملكة كبرى في العراق وإيران وبلاد الشام وهي التي عرفت بالمملكة

السلوقية ، وكون القائد الثاني بطليموس (Ptolemy) مملكة في مصر هي سلالة البطالسة ، وصارت آسيا الصغرى من حصة القائد انتيكونس (Antigonus) ، وخلال الفترة التي أعقبت الإسكندر تناقلت السلطة في العاصمة بابل لأيد عديدة ، إذ أنها أخضعت بادئ الأمر لحكم مجلس عسكري برئاسة بيرديكاس (Perdicass) لكنه اغتيل على يد رفاقه فأصبحت بابل تحت سلطة قائد الفرسان

المقدوني سلوقس ، إلا أن حاكم فريجية انتيكونس أجبر سلوقس على مغادرة بابل والالتجاء عند بطليموس في مصر .

وفي عام 312 ق . م استطاع سلوقس أن يسترد ولايته على بابل وأن يوطد حكمه فيها ضد الغارات التي كان يشنها حاكم فريجية.. ولذلك أصبح هذا التاريخ ، أي عام 312 ق . م بداية لحكمه الذي استمر حتى عام 281 ق. م . ولقد جلبت الحرب بين سلوقس وخصمه الويلات والدمار على بابل وأهلها . وقد سجل أحد الكتاب في نص الحوليات البابلية ملاحظة تعكس تلك الحالة المأساوية المؤلمة عندما قال: إن الخوف والبكاء يعمان البلاد.. وأخيراً استطاع سلوقس من القضاء على خصمه انتيكونس عام 301 ق. م في معركة ابسوس (Ipsus) في فريجية وأنه نتيجة لذلك ألحق سوريا والنصف الشرقي من آسيا الصغرى ببابل . ويبدو ظاهراً من سياسة سلوقس الأول الملقب نيقاطور (Nicator) بمعنى الغالب ، الإدارية أنه اتجه إلى تقسيم مملكته إلى قسمين : شرقي (بابل وإيران) الذي ابتنى له عاصمة جديدة على نهر دجلة سميت باسمه " سلوقية " وتعرف بقاياها الآن " تل عمر " مقابل المدائن، غرب (مركزه بلاد الشام) شيد له العاصمة الثانية انطاكية على نهر العاصي التي سماها باسم أبيه انطيوخس (Antiochus) . وقد أثر بناء سلوقية بشكل واضح على مكانة بابل إذ أخذ أهلها يهجرونها بالتدريج وينتقلون إلى العاصمة الجديدة سلوقية .

استمر حكم السلوقيين في العراق قرابة قرنين من الزمن (312 - 139 ق .م) تعاقب خلالها على الحكم ثمانية عشر ملكاً حمل أغلبهم اسم أنطيوخس وسلوقس. ونظراً لسعة المملكة وامتداد أطرافها من حدود مصر إلى الهند ومن آسيا الصغرى إلى الخليج العربي فقد كان من الصعب على الملوك السلوقيين الحفاظ على تماسكها . من جهة أخرى اضطر السلوقيون إلى خوض الحرب مع بطالسة مصر من أجل الاستيلاء على فينيقية وفلسطين. كما أنهم اصطدموا بالرومان عندما حاول الملك السلوقي انطيوخس الثالث (223 - 187 ق. م) استرجاع السيطرة على آسيا الصغرى فكانت معركة مغنيسية (Magnesia) في آسيا الصغرى عام 190 ق. م التي اندحر فيها الملك السلوقي وفرضت عليه نتيجة لذلك غرامة باهظة. واضطر السلوقيون كذلك إلى خوض معارك عديدة مع الفرثيين الذين ظهروا كقوة مناهضة للسيادة السلوقية في إيران في حدود 250 ق. م. ابتداءً من زمن أرشاق (Arcides) مؤسس السلالة الأرشاقية (الفرثية) ثم استمرت الحروب سجالاً بين الفرثيين والسلوقيين حتى عام 139 ق. م عندما وضع الملك الفرثي مثرداتس الأول (Mithradates) نهاية للحكم السلوقي في العراق في زمن أنطيوخس الرابع. أما نهاية الحكم السلوقي في القسم الغربي من المملكة ، أي في سوريا، فقد كان على يد الرومان عام 64 ق. م .

ويعد هذا العصر بحق فترة الازدهار الثانية بعد العصر البابلي الحديث لعلوم الرياضيات والفلك ، حيث أستمر الفلكيون والمنجمون البابليون في رصد حركات الأجرام السماوية وتسجيلها على الألواح . ومن المعروف أن لعلم الفلك في وادي الرافدين جذوراً قديمة تسبق العصر السلوقي بقرون عديدة . ويكفي أن نذكر هنا بأنه اشتهر لدى المؤرخين الإغريق فلكيان بابليان عاشا في بداية القرن الرابع ق. م الأول نابوريماني (نابوريانوس Naburianus عند سترابو) ، الذي جاءت جداول الأهلة والأقمار وخسوفاتها المرسومة من قبله صحيحة بشكل لا يصدق ، والثاني كيدينو (Kidinnu) (كيدنياس) أعظم الفلكيين البابليين على الإطلاق الذي توصل إلى إعطاء الزمن المضبوط للسنة الشمسية بخطأ لا يزيد على أربع دقائق و32.65 ثانية . وفي هذا العصر ترجمت أعمال كيدينو إلى الأغريقية كما ترجمت أعمال فلكيين آخرين.

ومن المصادر المهمة عن هذا العصر ما يعرف بالحوليات البابلية (Babylonian Chronicles) التي

عرضت للأحداث التاريخية التي وقعت في بابل سنة بعد سنة ، ومنها الحولية التي عاصرت تولي الخلفاء (Diadochi) السلطة في بابل بعد وفاة الإسكندر. ونقرأ في حولية بابلية أخرى عن تفاصيل الحروب التي خاضها سلوقس الأول ضد أنتيوكونس حاكم فريجية وعن مقدار المعاناة التي لاقاها البابليون من جراء ذلك. وألف الكاهن البابلي برعوشا (بيروسس Berossus) كتاباً باللغة الإغريقية سماه (Babyloniaca) لم يصلنا منه سوى مقتبسات مما جمعه كتاب لاحقون وقد أهداه إلى الملك السلوقي أنطيوخس الأول . ومن جملة الأخبار التي سجلها بيروسس تفاصيل مهمة عن قصة الطوفان التي لا نشك في أنه كان مطلعاً على مصادرها المسمارية الأصلية السومرية منها والبابلية . وذكر بيروسس اسم رجل الطوفان بصيغة (Xisouthros) وهي صيغة مقاربة جداً للاسم السومري " زيوسدرا " (Ziusudra)، منقذ البشرية من الهلاك في قصة الطوفان السومرية . ومن الروايات التي ذكرها بيروسس أيضاً أن البابليين دفنوا كل ما لديهم من مؤلفات مدونة على الألواح في مدينة سبار (Sippar قرب اليوسفية)؛ لتكون في مأمن من خطر الطوفان العظيم وأنهم استعادوها بعد إنتهاء الطوفان.

سمي العصر الذي أعقب احتلال الإسكندر لبلدان الشرق بـ " العصر الهلنستي " الذي دام منذ نهاية القرن الرابع ومطلع القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرون القليلة الأولى من العصر الميلادي . وتميز هذا العصر بظهور حضارة ذات طابع مديد عرفت تبعاً لذلك بالحضارة الهلنستية (أي الشبيهة بالهيلينية) والتي نتجت من التقاء حضارة الإغريق بالحضارات القديمة التي كانت سائدة في بلدان الشرق الأدنى مثل: آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر والعراق وإيران . وقد نقل الإغريق معهم كثيراً من مظاهر الحياة الإغريقية إلى الشرق في : الفكر والفلسفة والآداب والعلوم والفن والعمارة والتجارة والصناعة . كما أن الإغريق تأثروا بالشعوب التي اختلطوا بها فأخذوا منها . لذلك يصح القول عن الحضارة الهلنستية بأنها حضارة أغريقية لكنها متأثرة بحضارة الشرق .

لقد تميز العصر الهلنستي ، بين أمور كثيرة ، بظهور الروح الوطنية العالمية (Cosmopolitan Spirit) بين المفكرين والعلماء وبقدرتهم على التحرك والانتقال بحرية واعتبار أنفسهم مواطنين عالميين.

ومن المستجدات المهمة في هذا العصر ظهور التخصص والاحتراف . فهناك بين الرجال ، بطبيعة الحال ، من كان يتقن أكثر من مهنة واحدة . لكن هناك آخرين أصبحوا الآن يقضون حياتهم كلها في ممارسة اختصاص ضيق واحد كأن يكونوا ممثلين أو رياضيين محترفين أو صناعًا مهرة في حرف معينة . ولعل من أكثر مظاهر العصر إثارة ، من وجهة النظر المعاصرة ، أن يصبح الإنسان والإنسانية موضع الاهتمام ومقياس كل الأشياء، وهو مبدأ ظهر واضحاً في الفلسفة اليونانية منذ سقراط (470-399 ق.م) وعبر عنه الفن اليوناني بشكل واضح أيضاً عندما اتخذ من الجسم البشري المثل الأعلى للجمال . وشهد العصر كذلك حركة واسعة في مجال الثقافة والعلوم والتعليم. فقد نشطت البحوث النظرية والتطبيقية وكثرت المدارس المنشأة على نفقة الدولة ، وأسست المكتبات وخزائن الكتب مثل مكتبة الإسكندرية الشهيرة . وبرز علماء مشهورون في الفلك والرياضيات والهندسة والفيزياء مثل أقليدس (Euclides) وأرخميدس (Archimedes) اللذين كانا من مشاهير الرياضيين وكذلك الفلكي أرستارخوس (Aristorchus) الذي نسب إليه النظرية الفلكية المهمة، والقائلة بأن الشمس ، وليس الأرض ، هي مركز حركة الأفلاك. كما تميز العصر أيضاً بوفرة المصادر وغزارتها وتنوعها . فهناك الأبنية الشاخصة والتماثيل والمنحوتات والتحف والمسكوكات وكثير من المدونات الأدبية والكتابات المنقوشة على الحجر أو المدونة على ورق البردي. جدير

بالذكر أن العصر الهلنستي شهد انتشارًا واسعاً للكتابة على صفائح البردي وأن ما وصلنا منها يربو على بضعة آلاف، وهي مدونة بموضوعات منوعة، مما له علاقة بحياة الأفراد اليومية . كما شهد أيضاً انتشار اللغة الإغريقية التي صارت لغة الحضارة في كل مظاهرها وقيام اليهود بترجمة التوراة إلى الإغريقية .

على أن من أوضح منجزات العصر وأكثرها تجسيداً لمعطياته الأعداد الكبيرة من المدن والعواصم الجديدة التي تم إنشاؤها في أنحاء مختلفة من الإمبراطورية السلوقية مثل الإسكندرية في مصر، وأديسا (أورفه) وأنطاكية (على الضفة اليسرى من العاصي) في تركيا ، وسلوقيه (على دجلة) في العراق ، ويعد الملك سلوقس الأول من أشهر الملوك السلوقيين في ميدان البناء والعمران . فقد شهد حوالي خمساً وثلاثين مدينة حملت اسمه واسم أبيه وأمه وزوجته نعرف منها 16 مدينة سميت " أنطاكية " باسم أبيه (أنطيوخس) و9 مدن سميت " سلوقيه " باسمه (سلوقس). كما شهد العصر أيضاً ظهور بعض الدويلات المستقلة مثل كراكينه (Carakene) عند ساحل الخليج والتي عرفت في المصادر العربية باسم ميسان والتي استقلت عن الدولة السلوقية بعد اندحار أنطيوخس الثالث على يد الرومان . كما نجح الأنباط في إقامة مملكة عاصمتها البتراء مستغلين بذلك الظروف المواتية بسبب الصراع بين السلوقيين في العراق والبطالسة في مصر. وكان الأنباط يسيطرون على الطريق التجاري الصحراوي الممتد بين الخليج العربي وموانئ جنوب الجزيرة العربية إلى موانئ البحر المتوسط .

وبقدر ما يتعلق الأمر بوادي الرافدين ، تعد سلوقية أشهر مدينة أنشئت في هذا العصر ، فقد أسسها سلوقس الأول عام 274ق.م، وهي تقع على ضفة دجلة اليمنى وتعرف أطلالها اليوم بـ "تل عمر". والراجح أنها بنيت على أنقاض المدينة البابلية " أوبس " (Opis) . وقد أثر إنشاؤها، كما ذكرنا سابقاً، على العاصمة القديمة بابل التي بدأ أهلها يهجرونها تدريجياً وينتقلون إلى العاصمة الجديدة . وقدر عدد السكان في سلوقية بنحو 600.000 نسمة وهي أكبر مدينة ليس فقط في وادي الرافدين، بل في كل أرجاء المملكة السلوقية .. وللمدينة موقع تجاري متميز ، فهي نقطة التقاء لطرق تجارية آتية من الهند بعضها بري عبر شمال إيران وجنوبها وبعضها مائي عبر الخليج العربي، كما تلتقي عندها طرق تجارية أخرى للقوافل الآتية من الجزيرة العربية.

وكان الذهب والعاج والتوابل والبخور والأحجار الكريمة أهم ما يصلها من مواد تجارية من الهند وبلدان الشرق والتي كان يعاد تصديرها من سلوقية إلى سوريا، مع منتوجات أخرى محلية مثل: الحنطة والشعير والتمر والصوف والقير: إما عن طريق نهر الفرات مروراً بدورا أوربوبس (Dura-Europos) وإما عن طريق نهر دجلة مروراً بنصيبين وأديسا (اورفا) . ويظهر واضحاً من الصور الجوية لأطلال المدينة أنه اتبع في تخطيط سلوقية " النظام الشبكي " (Grid Plan) الذي بموجبه تنفصل البيوت وحارات السكن فيها بشوارع مستقيمة تتقاطع مع بعضها بزوايا قائمة وهو ما يعرف بمصطلح " التخطيط الهيبوديمي" . وقد بلغت المساحات المنتظمة الناتجة عن " النظام الشبكي " في سلوقية 144.70م × 72.35 وهي الأوسع حجماً بين المدن الهلنستية مقارنة على سبيل المثال مع دورايو ربس التي أسسها سلوقس نفسه حيث تبلغ 40 × 70م × 20 × 35م .

جرت في سلوقية تنقيبات لموسمين قامت بها جامعة مشيغان، تبعتها تنقيبات جامعة تورينو التي استمرت مواسم عدة، إن الأثر البارز في موقع العاصمة سلوقية هو " تل عمر " العالي الذي يبلغ ارتفاعه 16 م . وينصرف ذهن الباحث قبل كل شيء إلى أن بقايا التل تمثل الزقورة وهي الصفة المعمارية السائدة التي ارتبطت بمدن وادي الرافدين . لكن التنقيبات هنا كشفت عن برج صلد من اللبن مساحته

أكثر من 18 م^2 ، فضلاً عن أنها لم تكشف عن معبد أرضي يرتبط بهذا التل كما هي الحالة المعروفة في المدن السومرية والبابلية والآشورية . وقد عثر أثناء الحفريات على مجموعة من دمى الطين وعلى تماثيل صغيرة ومسكوكات ولقى أخرى أثرية متنوعة ذات طابع هلنستي .. وفي سلوقية، كما في غيرها من المدن الأخرى ، توجد الأبنية والأدوار السكنية الفرثية فوق الأبنية من العصر الهلنستي (السلوقي) الذي سبقه . ومن ذلك " القصر الفرثي " الذي يعود إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين الذي يقع على بعد 100م من الضلع الجنوبي لتل عمر . وكشفت البعثة الإيطالية في المنطقة الواقعة إلى الجنوب والجنوب الغربي من تل عمر عن بناية مشيدة باللبن ومسقفة بجذوع النخيل كانت مخصصة لحفظ الوثائق الرسمية ذات العلاقة بتجارة الملح . ويبدو واضحاً أن هذه البناية، مع ما فيها من وثائق ، قد التهمتها نيران شديدة تركت آثارها في رماد الأرضيات وفي اللون الأحمر على ملاط الجدران . وعثر في أرضيات البناية على بضعة آلاف من طبعات الطين (Bullae) وهي كرات صغيرة كانت تختم وتربط بخيط بالوثائق الرسمية المكتوبة على البردي والرق.

ويمكن القول في ضوء النصوص الاقتصادية المكتشفة في مدينة الوركاء قيام حركة تجارية نشطة شملت المدن الكبيرة في وادي الرافدين وأن الأسعار انخفض دون معدلاتها العالية التي كانت عليها في العصر الإخميني السابق . وتفاوت تأثير التغيرات الاقتصادية والسكانية على المدن في هذا العصر .. فبينما حققت نمرود (Nimrud) بعض الانتعاش وأصبحت قرية مزدهرة بسبب موقعها على دجلة وعاد الناس من جديد يستوطنون في مدينة نينوى بعد أن كانت مهجورة لأمد طويل، فإن مدنًا أخرى مثل أور انقرضت وهجرت نهائياً . أما العاصمة القديمة بابل، فإنها حظيت بقسط من العناية شمل معابدها وشعائرها الدينية وإنجاز بعض الأعمال العمرانية فيها على يد الملوك السلوقيين مثل: بناء المعبد الرياضي والمسرح الإغريقي الذي قام بتوسيعه الفرثيون فيما بعد. ومع ذلك فإن بابل فقدت كثيراً من بريقها وأهميتها؛ لأنها لم تعد بعد عاصمة البلاد في هذا العصر كما أن جزءاً كبيراً منها أصابه الخراب والدمار بسبب الإهمال والحروب، وإن كثيراً من سكانها هجروها إلي سلوقية.

وفي ختام كلامنا عن العصر السلوقي في وادي الرافدين نوجز أهم مميزاته بالنقاط الآتية :

1- إنه عصر احتلال أجنبي مثل سابقه العصر الإخميني .. وفي هذا العصر كما في السابق أيضاً، عانى سكان وادي الرافدين من ويلات الحروب بسبب الصراعات على السلطة بين السلوقيين أنفسهم .

2- يتميز العصر بانتشار الثقافة الهلنستية التي نقل الإغريق من خلالها مظاهر جديدة من المعرفة إلى بلدان الشرق الأدنى القديم . كما أنه شهد حركة واسعة لإنشاء مدن جديدة وبازدهار بعض المدن اقتصادياً وتعرض بعضها الآخر إلى الاندثار .

3- بقدر ما يتعلق الأمر بوادي الرافدين يمكن القول: إن الحضارة البابلية، وهي حضارة أصيلة ذات جذور موغلة في القدم ، استطاعت أن تصمد أمام التحديات وأن تكون بالرغم من ظروف الاحتلال، مؤثرة أحياناً من خلال المنجزات المهمة لأدبائها وعلمائها ومؤرخيها والتي كانت موضع استحسان من قبل العلماء الإغريق أنفسهم . مثال على ذلك الكتاب الموسوم (Babyloniaca) الذي ألفه الكاهن البابلي برعوشا (بيروسيس) باللغة الإغريقية وأهداه إلى أنطيوخس الأول، وكذلك ترجمة أعمال الفلكي البابلي كيدينو إلى الإغريقية أيضاً . وقد وصل إلينا من المؤرخين البابليين في هذا العصر عدد من الحوليات (Chronicles)

مدونة بالخط المسماري واللغة البابلية أرخو فيها الأحداث بشكل دقيق على مدار أشهر السنة ابتداءً من مجيء خلفاء الإسكندر (Diadochi) إلى الحكم ومروراً بالصراعات التي تبعت ذلك على السلطة وخاصة بين أنتيوكونس وبين سلوقس الأول . هذا وقد كشفت الدراسات المسمارية خلال النصف الأخير من القرن الحالي عن مدى التقدم الذي حققه العلماء البابليون في مجال الفلك والرياضيات، وأصبح واضحاً بفضل هذه الدراسات أن كثيراً من المبادئ التي كانت تعزى إلى فلكيي الإغريق ورياضييهم كان قد سبقهم إليها البابليون بألف عام. والحقيقة هي أن تأثير حضارة وادي الرافدين في الحضارة اليونانية شمل مجالات أخرى كالأدب مثل القصة الخاصة بتموز وعشتار وملحمة البطل جلجامش وكثير من قصص الحيوان، كما شمل المعتقدات أيضاً مثل: خلق الكون والإنسان والطوفان والعالم الأسفل.

3- العصر الفرثي :

تشير المصادر التأريخية عن أصل الفرثيين إلى أنهم يرجعون إلى قبيلة بارني (Parni) التي هي فرع من السكيثين (Scythians) وأنهم كانوا من الفرسان الذين يستوطنون السهوب الواقعة جنوب روسيا بين بحر قزوين وبحر أرال. أما اسمهم (الفرثيون) فالراجح أنه نسبة إلى إقليم بارثافا (Parthava) (إقليم خراسان تقريباً) الذي استوطنوا فيه بعد مجيئهم إلى إيران والذي سبق وأن جاء ذكره من قبل في كتابات الملك الإخميني كورش في نقش بهستون بوصفه واحداً من الأقاليم التابعة للإمبراطورية وهناك من الباحثين من يرى أن كلمة (Parthava) هذه تعني " محارب ، فارس " وهي صفة تنطبق على الفرثيين. وعلى أية حال فيبدو أنه في حدود 250 ق. م قام زعيمهم أرشاق (Arcases) مع أخيه تيريداتس (Teridates) بالهجوم على ولاية بكتريا لكن حاكمها تصدى لهم وألحق بهم الهزيمة . عندئذ توجه أرشاق وقواته إلى ولاية برثافا المجاورة فاستطاع احتلالها وقتل حاكمها . وبعد سنتين قتل أرشاق في إحدى المعارك فخلفه أخوه تيريداتس في الحكم . وجدير بالذكر أن الفرثيين سموا أيضاً " الأرشاقيون " نسبة إلى زعيمهم أرشاق الذي يعتبر مؤسساً لسلالتهم .

لم يقف السلوقيون مكتوفي الأيدي إزاء ما كان يجري في إيران على يد الفرثيين خاصة وأن تيريداتس بدأ بتوسيع رقعة نفوذه لتشمل هذه المرة هيركانيا (Hyrcania) وهو إقليم يحاذي الساحل الجنوبي لبحر قزوين وبذلك كون نواة للإمبراطورية الفرثية وعزل في الوقت نفسه مملكة بكتريا الإغريقية عن الإمبراطورية السلوقية. وهكذا نشبت حروب طاحنة بين السلوقيين والفرثيين استمرت سنوات طويلة كان هدف الفرثيين منها الاستيلاء على الولايات الشرقية وعلى العراق . من جهة أخرى لم يكن الفرثيون هم المنافس الوحيد للسلوقيين على السلطة. فقد رأينا كيف أن السلوقيين اصطدموا ببطالسة مصر، كما أنهم اصطدموا بالرومان عندما حاولوا استعادة نفوذهم على آسيا الصغرى وأنهم خسروا الحرب معهم . وعلى أية حال فقد تحقق للفرثيين في زمن ملكهم ميثرداتس الأول (Mithradates) (170-137 ق. م) السيطرة على كافة الهضبة الإيرانية، كما تحقق لهم في حدود عام 139 الوصول إلى نهر دجلة وأن يعسكروا على الضفة اليسرى منه عند موضع طيسفون مقابل العاصمة السلوقيه " تل عمر " . وقد استمر العصر الفرثي في العراق إلى عام 227 ميلادية وبذلك يكون قد استغرق حقبة زمنية طويلة تقترب من خمسة قرون .

لم يلبث الفرثيون أن دخلوا حروباً طويلة مع الأسكيثيين، كما أن هجرات قبائل ساكا (Saka) في حدود 130 ق. م سببت لهم صعوبات كبيرة لم تنته إلا في زمن ميثرداتس الثاني (123-87 ق.م) الذي عزز نفوذ الفرثيين فشمل مناطق واسعة تمتد من الهند إلى أرمينيا ولهذا لقب

نفسه بلقب " ملك الملوك " . وفي زمن فراهاط الثاني (Phraates) (70-57 ق. م) بدأت سلسلة الحروب مع روما التي استمرت على فترات متقطعة لمدة قرنين ونصف القرن من الزمن . ولقد كان يهم روما كثيراً أن تتوسع باتجاه الشرق وتبسط نفوذها على طريق الحرير التجاري الذي كانت كل أجزائه الغربية بيد الفرثيين . وبطبيعة الحال لا يتسع لنا المجال للخوض في تفاصيل تلك الحروب ويكفي أن نشير إلى أنها استمرت سجالاً بين الدولتين وأن النصر فيها كان مرة لهذا الطرف ومرة لذاك . وأنه تخللت تلك الحروب فترات سلم عقدت خلالها معاهدات صلح بين الطرفين . لكن الحقيقة المهمة التي تستنبط من تلك الحروب هي أن روما لم تستطع في نهاية المطاف أن تحقق أياً من أهدافها لكسر شوكة الفرثيين والاستيلاء على الأقاليم التابعة لهم . إذ أن آخر معركة بين الملك الفرثي أرتبان الخامس (Artabanus) (213 - 226 م) والأمبراطور مكرينوس (Macrinus) التي وقعت بالقرب من نصيبين قد انتهت بانتصار الملك الفرثي وبفرض غرامة باهظة على الإمبراطور الروماني . ولكن قدر لأرتبان الخامس هذا أن يكون آخر ملك في قائمة الملوك الفرثيين، إذ تم القضاء عليه على يد أردشير أحد أمراء الفرس الذي واصل الحرب ضد الفرثيين بعد أبيه بابك بن ساسان، الذي تنسب إليه السلالة الساسانية وهي السلالة التي خلفت الفرثيين في حكم إيران .

هناك ندرة في المراجع المدونة عن التاريخ الفرثي وخاصة المسمارية منها وهي حقيقة متوقعة في مثل هذه العصور المتأخرة بسبب اندثار اللغة البابلية والخط المسماري والتحول إلى الخط واللغة الآرامية . فكل ما وصلنا من وادي الرافدين في هذا العصر لا يتجاوز 200 لوح بابلي معظمها يتعلق بالفلك والتنجيم وثلاث حوليات تاريخية وقائمة بمفردات بابلية إغريقية . ويرجع آخر ما وصل إلينا من ألواح مدونة بالخط المسماري واللغة البابلية إلى سنة 75 ميلادية . ومن المحتمل أن الكهنة والفلكيين في بابل استمروا في الكتابة بعد هذا التاريخ بالآرامية على البردي والرقوق. كما أن الفرثيين لم يخلفوا إلا النزر القليل من الوثائق بلغتهم ومن تلك الرقوق التي عثر عليها في منطقة جبال هورمان في حلبجة والتي يعود تاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد . هذا وقد اتخذ الفرثيون بعد استقرارهم في إيران إحدى اللهجات الفارسية المسماة " بلهويك " أي البلهوي الفرثي وهي ترجع إلى اللغة الفارسية في العصر الإخميني وقد استخدموا الخط الأرامي في كتابتها. وتعد المسكوكات الفرثية التي عثر عليها في مدن مختلفة مادة تأريخية مهمة في جوانب عدة. وإزاء هذه الندرة في الوثائق الفرثية المدونة تبرز أهمية ما كتبه المؤرخون اليونان والرومان في تسليط الأضواء على جوانب من التاريخ الفرثي . هذا فضلاً عما يمكن تسميته بالمصادر الشرقية التي حفظت معلومات مفيدة عن الفرثيين منها المصادر العبرية والسريانية والمصادر الصينية.

يمثل حكم الفرثيين في الواقع سيادة طبقة النبلاء من الأسر القبلية التي كانت تستمد قوتها من محاربيها الفرسان والتي كان من أشهرها قبيلة بارني (الأرشاقية) . وبحكم كون الفرثيين قبائل بدوية متخلفة شاغلهم الأول الحرب والفروسية، فإنهم بعد أن استولوا على السلطة واستقر لهم الحكم في البلاد لم يستطيعوا مجاراة أهل الجنوب من سكان المدن الإيرانية الذين كانوا يتميزون عليهم بأساليب حياتهم المتحضرة التي ورثوها عن الإخمينيين والإغريق. وهكذا بقيت الهوة سحيقة بينهم وبين سكان الجنوب في إيران بالرغم أن الفرثيين استمروا في الحكم قرونا عدة. وكان الحكم عندهم يستند على نظام الأقطاع حيث كانت تهيمن على السلطة سبع أسر نبيلة تأتي في مقدمتها الأسرة المالكة الأرشاقية. وكان لهذه الأسر نفوذ كبير في شؤون الحكم كاختيار الملك الجديد ومنح السلطات وتحديدها. ولذلك كثرت المشكلات والاضطرابات بسبب تعاظم نفوذ هذه الطبقة وتدخلها في شؤون المملكة. وكان لكل أمير من هذه

الأسر النبيلة جيشه الخاص من الفرسان المزودين بالسيوف والرماح والدروع وعلى هؤلاء يقع واجب تجهيز الملك بالرجال والخدمات في حالة الحرب.

أما بخصوص الديانة في العصر الفرثي فيبدو أن الفرثيين لم يعتنقوا الزرادشتية على عكس من سبقهم من الإخمينيين . لكن عبارة التثليث الإخميني القديم (أهورمزدا " إله الخير " - مثرا " إله العدل " - أناهيتا " إلهة الخصب ") بقيت سائدة في العصر الفرثي. وقد حظيت عبادة الآلهة أناهيتا التي نالت دعم الملوك الإخمينيين من قبل ، انتشاراً واسعاً في العصر الفرثي حيث كرست لها معابد عدة . ومن المؤكد أن الفرثيين لم يتبعوا عادات المجوس في تعريض جثث الموتى على قمم المرتفعات، إذ إنهم دفنوا موتاهم في توابيت من الفخار وفي مقابر مشيدة. وقد أبدى الفرثيون تسامحاً واضحاً مع اليهود الذين اعتبروا الملوك الإيرانيين مدافعين حقيقيين عن عقيدتهم وأنهم المنقذون لهم من نير السيطرة الأجنبية. يذكر في هذا الصدد أن الملوك الإخمينيين سبق لهم وأن أحسنوا معاملة اليهود وأعادوهم إلى ديارهم في فلسطين في حين أنهم تعرضوا للقتل والاضطهاد على يد السلوقيين والرومان أثناء احتلالهم لفلسطين. حقيقة أن التسامح الفرثي لم يقتصر على اليهود ولكنه كان ظاهرة يمكن القول عنها بأنها كانت عامة في السياسة الفرثية.

ومثلما لاحظ الأستاذ د. هيرشمان فماذا كان بمقدور بدو السهوب تقديمه عندما استولوا على السلطة في إيران وعلى الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية السلوقية ؟ . فبعد أن أصبحوا سادة إيران ، وجد الفرثيون إدارة منظمة قائمة ومدناً مأهولة بمستوطنات إغريقية قوية كما وجدوا أيضاً طبقة إيرانية برجوازية متشبعة بروح الحياة الهلنستية. لقد عملت هذه الطبقة وسيطًا بين الفرثيين من جهة وبين الإغريق من جهة أخرى لضمان الشؤون الإدارية وجباية الضرائب من المدن الغنية التجارية خاصة، كما أنها كانت مسؤولة عن الحكومة المحلية ولكن تحت إشراف وسيطرة ممثلي الملك . وبتعبير آخر فإن ضمان المصالح السياسية والاقتصادية والإدارية للفرثيين على هذا النحو كان أحيانًا من العوامل المشجعة على انتهاج سياسة التسامح وعدم التدخل في شؤون المدن . وفي هذا المجال نذكر على سبيل المثال أن القوات العسكرية الفرثية لم تدخل العاصمة سلوقية بل ظلت معسكرة قبالها على الجانب الآخر من نهر دجلة وأن الفرثيين سمحوا بتكوين ممالك مستقلة تحت حمايتهم يهمنا منها في المقام الأول مملكة الحضر في العراق التي سنأتي على ذكرها في موضع لاحق من هذا البحث.

تميز العصر الفرثي بازدهار الحياة الاقتصادية لأن الفرثيين والممالك التابعة لهم كانوا يسيطرون عملياً على كل الطرق التجارية بين آسيا والعالم الإغريقي- الروماني وكانت النتيجة أن يشهد وادي الرافدين في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد فعاليات عمرانية مكثفة نتيجة للمبادرات الحكومية أو المحلية. ففي الجنوب تم الكشف عن آثار الاستيطان الفرثي في كل المواقع التي شملتها الحفريات مثل بابل وكيش ونفر والوركاء ولكش. وفي الشمال أيضًا بعثت المدن الآشورية القديمة وتم استيطانها من جديد وأعيد بناء العاصمة آشور فأصبحت مدينة كبيرة مزدهرة تذكرنا بمجدها السابق أيام الآشوريين.

أما على صعيد التركيب السكاني. فيبدو من الآثار المكتشفة والوثائق المدونة، أن العصر الفرثي مثل سابقة العصر السلوقي، شهد اختلاط شعوب من أجناس وقوميات مختلفة ، ففي أول الأمر عاش المستوطنون اليونانيون والمقدونيون إلى جانب البابليين وأنشأوا معهم علاقات لكنها كانت محدودة نسبياً. ولم يلبث أن وفد إلى وادي الرافدين أعداد كبيرة جداً من الآراميين والعرب والإيرانيين وامتزجوا بالسكان الأصليين بسهولة أكثر من ذي قبل بوصفهم ينحدرون من أصل شرقي ويتكلمون لغات متقاربة. إن هذا السيل البشري الذي غمر وادي الرافدين وغيره من بلدان المملكة الفرثية أدى بدوره إلى انتقاء وامتزاج عناصر

ثقافية ومفاهيم عقائدية مختلفة في المدينة الواحدة. ففي مدينة دورا أوربوس على سبيل المثال كشفت الحفريات عن معبدين إغريقيين ومعبد آرامي وكنيسة صغيرة مسيحية وكنيس يهودي ومعبد لإله العدل مترا الإخميني؛ فضلاً عن معابد لآلهة محلية وآلهة تدمرية. وما يقال عن دورايوريس يقال أيضًا عن مدينة الحضر حيث وجد فيها معابد لمجموعة من الآلهة تمثل ديانات مختلفة مثل: نركال الآشوري وهرمز الإغريقي واترعتا (اتركاتس) الآرامية واللات العربية.

يقودنا الكلام عن أحوال وادي الرافدين في العصر الفرثي إلى أن نذكر بأن هذا العصر لم يشهد بناء كثير من المدن على النقيض مما رأينا في العصر السلوقي السابق. وكانت طيسفون (المدائن) والحضر أهم مدينتين تم تشييدهما في العصر الفرثي. ونظراً للأهمية الكبيرة التي احتلتها الحضر في هذا العصر ولأنها تعد أقدم مدينة شيدها العرب في وادي الرافدين، فإننا سوف نخصها بشيء من التفصيل الذي نأمل من خلاله تسليط الأضواء على جوانب من تاريخ القطر في هذه الفترة المتأخرة.

وفي ختام كلامنا عن العصر الفرثي (الأرشاقي) نوجز في أدناه أهم خصائصه :

1- قام الحكم الفرثي على أساس النظام الإقطاعي الذي يتمثل في عدد من الأسر النبيلة التي تستمد قوتها من فرسانها أبناء القبيلة . وقد حافظ الفرثيون على عاداتهم البدوية القديمة مثل الفروسية والعصبية القبلية والحرب والصيد بالرغم من اختلاطهم بالأقوام الأخرى بعد مجيئهم إلى دفة الحكم . واتبع الفرثيون سياسة التسامح وعدم التدخل في شؤون المدن والأقاليم التابعة طالما كان ذلك لا يتعارض مع مصالحهم .

2- حقق الفرثيون مغانم طائلة نتيجة لسيطرتهم على طرق التجارة الآتية من بلدان الشرق .

3- شهد العصر الفرثي صراعاً عنيفاً بين الفرثيين والرومان الذين لم يخفوا أطماعهم للسيطرة على الطرق التجارية التي كانت بأيدي الفرثيين .

4- شهدت مدن وادي الرافدين امتزاج فئات سكانية ذات أصول عرقية مختلفة والتقاء ثقافات ومعتقدات دينية متعددة .

5- استطاعت القبائل العربية التي استقرت في مناطق الحضر في شمال وادي الرافدين وفي البتراء وتدمر في بلاد الشام من إنشاء كيانات سياسية مستفيدين من ظروف الصراع بين الدولتين الكبيرتين الفرثية والرومانية .

4- العصر الساساني :

قضى أردشير بن بابك بن ساسان في عام 226 على الملك الفرثي أرطبان الخامس وبذلك انتقل الحكم إلى الفرس الساسانيين الذين بقوا في السلطة نيفاً وأربعة قرون تعاقب على الحكم خلالها 43 ملكاً. ويمثل العصر الساساني آخر عصور الاحتلال الأجنبي لوادي الرافدين من بعد سقوط بابل عام 539 قبل الميلاد. وقد شهد العصر الساساني مثل سابقه الفرثي صراعاً عنيفاً بين الفرس والرومان من أجل الهيمنة على أقاليم حدودية مهمة مثل أرمينية والأجزاء الشرقية والشمالية الشرقية من بلاد الشام .

استطاع أردشير إقامة أسس إمبراطورية واسعة تمتد من الفرات غرباً إلى هرات شرقاً وبتعبير آخر فإن الساسانيين امتد نفوذهم ليشمل كل الإمبراطورية الفرثية السابقة ومن ضمنها وادي الرافدين، كما اتخذ أردشير من طيسفون عاصمة شتوية مثلما فعل الفرثيون من قبل، وفي زمن ابنه وخليفته شابور الأول (241 - 272م) تجدد النزاع بين الساسانيين والرومان بعد فترة الهدوء التي لحقت الصلح المعقود بين الطرفين عام 244م. فجرت معركة عنيفة قرب الرها عام 260م بين أردشير والإمبراطور الروماني فالريان (Valarian) أحرز فيها الساسانيون انتصاراً حاسماً

وتم أسر الإمبراطور نفسه مع زهاء (170) ألفًا من جنده . ثم استولى الملك الساساني على أنطاكية وأخذ منها غنائم كثيرة . ولكن بالرغم من انتصاراته الباهرة تلك فقد خسر شابور بعض رجاله وجزءاً من غنائمه في المنازلة التي حصلت بينه وبين جيش أذينة ملك تدمر عام 265م عندما كان عائداً في طريقه إلى إيران. ولا نجد متسعاً للخوض في تفاصيل الانتصارات اللاحقة التي حققها التدمريون من بعده بقيادة زوجته الملكة زنوبية (الزباء) ضد الرومان عام 270م والتي مكنتها من الاستيلاء على بلاد الشام وأجزاء من آسيا الصغرى والإسكندرية وتتويج أحد أبنائها ملكاً على مصر . وقد بلغت هذه الملكة من القوة بحيث أنها حاربت الساسانيين أيضًا ووصلت إلى أبواب طيسفون. من جهة أخرى يقترن عصر شابور الأول باهتمام واضح بالعلوم كالطب والفلك والفلسفة وبترجمة كتب من الهندية واليونانية إلى الفارسية . وفي زمنه أيضاً ظهر ماني بن فاتك الذي بشر بديانة جديدة عرفت بالمانوية والتي أرادها أن تكون ديانة أممية لكل البشر . وقد نال ماني حظوة عند شابور فقربه وساند دعوته . وفي جوهرها تقوم المانوية على مبدأ الثنوية أي على مبدأ الصراع بين النور والظلام . ويتضح من الدراسة التحليلية للديانة المانوية أن ماني تأثر في جوانب كثيرة بالزرادشتية والبوذية والمسيحية وأنه أخذ منها أسماء الآلهة والملائكة والثالوث المانوي وفكرة التناسخ. وعلى أية حال فقد كان رد الفعل عنيفاً في جانب الزرادشت ضد ماني ، فبعد أقل من أربع سنوات على وفاة شابور ، أي في عام 276م على وجه التحديد حكم على ماني بالإعدام في زمن الملك بهرام الأول وتعرض أتباعه إلى الاضطهاد والتنكيل واضطر قسم منهم إلى الهرب إلى سوريا ومصر .

ولم يكن ماني " الداعية " الوحيد الذي شهده العصر الساساني ، فقبيل نهاية القرن الخامس الميلادي ظهرت المزدكية نسبة إلى داعيها مزدك الذي كان يعاصر الملك الساساني قباذ الأول (488 - 496م)، مما تجدر ملاحظته أن المزدكية اتخذت في البدء شكل حركة دينية فلسفية معدلة عن الديانتين المانوية والزرادشتية ، وسرعان ما انقلبت كلتاهما إلى حركة شيوعية إباحية عندما نادى مزدك بوجوب المساواة بين الناس في كل شيء: في الأموال والنساء والممتلكات. وبصرف النظر عن التفاصيل التي لا نجد مجالاً لذكرها، نكتفي بالقول: إن نهاية مزدك وحركته جاءت على يد ولي العهد كسرى بن قباذ؛ فبعد أن خسر المزدكيون المناظرة المشهورة أمام الكهنة الزرادشت وأسقف نصارى إيران، أوعز كسرى إلى الجند فهجموا على مزدك وأتباعه وقتلوهم وأحرقوا كتبهم وصادروا أموالهمبعد ذلك انتقلت المزدكية للعمل كفرقة سرية، فظهرت إحدى تنظيماتها مرة في بخارى بعد خمسين عاماً من هذه الأحداث ، ومرة أخرى في كرمان أثناء الفتح الإسلامي فتم القضاء عليها على يد القائد قتيبة .

إن معلوماتنا عن وادي الرافدين في العصر الساساني قليلة جداً وخاصة عن الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية. ويظهر من كتابات المؤرخين اليونان والرومان أن القسم الشمالي من وادي الرافدين تعرض إلى الخراب والدمار بسبب الحروب التي استمرت أربعة قرون بين الساسانيين والرومان . فقد رأينا كيف أن الحضر كانت في الواقع مدينة عسكرية للدفاع على الإمبراطورية الفرثية ضد الرومان .. لكن أمراء الحضر اضطروا في نهاية الأمر إلى التحالف مع الرومان بعد سقوط الفرثيين. وقد جلب عليها هذا الموقف نقمة الساسانيين إذ حاصرها شابور الأول لمدة عام كامل ثم دخلها ودمرها سنة 241 ميلادية . وما حصل للحضر حصل أيضاً لمدينة آشور وعلى يد شابور نفسه أيضاً إذ إنه أحل فيها الدمار عام 256م . وقد خص الساسانيون طيسفون بعنايتهم فأصبحت عاصمة لهم كما كانت في العصر الفرثي السابق وقام بتجديدها كسرى الأول (أنوشروان 531 - 576) ويحتمل أنه هو الذي بنى الإيوان العظيم الذي لا يزال قائماً لحد الآن بعد مضي (1500) عام

على تشييده . وفي مدينة الوركاء تم العثور على قبر في موسم التنقيب لعام 1956-1957 فيه تاج من أوراق الذهب يعود على الأرجح إلى أحد الزعماء الساسانيين المحليين وقد أبدى الساسانيون مثل من سبقهم من الفرس، تسامحاً كبيراً مع اليهود فسمحوا لعدد كبير منهم بالهجرة إلى العراق بعد أن اشتد تسلط الرومان عليهم في فلسطين. وقد قام اليهود بإنشاء مدارس لهم في بابل أخذت على عاتقها وضع شروح للتوراة وهو ما عرف بالتلمود البابلي الذي تم وضعه في حدود 490 للميلاد .

ومثلما ازدهرت مملكة الحضر العربية في وادي الرافدين خلال العصر الفرثي ، فقد نشأت وازدهرت أيضاً مملكة الحيرة في العصر الساساني . وتقع الحيرة على مشارف الصحراء غرب نهر الفرات على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من الكوفة . وتحتل المدينة موقعاً مهماً، فهي تخلو من أية حواجز طبيعية أمام حركة القبائل وتقع على الطريق التجاري الممتد شمالاً إلى بلاد الشام وغرباً إلى شبه الجزيرة العربية وصولاً إلى بلاد العرب الجنوبية.

تذكر الروايات أن قبائل تنوخ هم أول من بنى مدينة الحيرة. ففي بداية القرن الثاني الميلادي، أي في الفترة التي أعقبت سقوط الفرثيين عام 226م، وصلت قبائل تنوخ إلى هذه المنطقة واستوطنت في الخيام قبل أن تبنى لهم مساكن دائمة. ويعتقد بعض الباحثين أن كلمة حيرة آرامية الأصل (من حرثا) بمعنى المخيم . في حين يعتقد آخرون أنها تعني القصر (وبهذا المعنى سمي " الحير الشرقي والحير الغربي " في سوريا وكلاهما من قصور هشام بن عبد الملك) وأنها سميت كذلك؛ لأنها كانت تتألف من عدة قصور واسعة يسكن في كل واحد منها زعيم من زعماء المدينة.

وفي الوقت الحاضر يعرف أعلى مرتفعين من مرتفعات خرائب المدينة بـ " كنيدرة الأسود، وكنيدرة الأبيض ". ومن يتفقد أطلال المدينة لا يرى شيئاً من قصورها القديمة وذلك لأن تلك القصور نقضت جدرانها في أزمنة مختلفة ونقل آجرها إلى المدن المجاورة مثل الكوفة والنجف وأبو صخير. وتقع في نهاية الحيرة في الجهة الغربية منها، خرائب لقصر ما زالت تعرف حتى اليوم بـ " الخورنق " وقد ذكره الرحالة (Alias Musil) الذي زار المدينة عام 1912 ورسم مخططاً تقريبياً للجزء الذي شاهده من ذلك القصر. ونقب في الحيرة (Thalbot Rice) عام 1931 وأهم ما اكتشفه كنيستان مشيدتان باللبن وجدرانهما مطلية بالجص وعلى الجص رسوم بالألوان كما أجرت دائرة الآثار حفريات في أحد مرتفعات المدينة في عام 1955 - 1956م.

تذكر الروايات أن من أوائل ملوك الحيرة كان مالك بن فهم وابنه جذيمة وأن الحكم انتقل بعد ذلك إلى عمرو بن عدي من أسرة اللخميين الذي يعد مؤسس السلالة اللخمية في الحيرة والتي تعاقب على الحكم فيها نحو خمسة وعشرين ملكاً. وقد وصل إلينا من أحدهم وهو امرؤ القيس الأول (ابن عمرو بن عدي) نقش كتابي مدون بأقدم كتابة عربية يذكر فيها، ضمن أشياء أخرى بأنه "ملك العرب" ويعود تاريخها إلى سنة 328 ميلادية وهو ما يعرف بنقش النمارة . وامتد نفوذ ملوك الحيرة إلى أطراف الجزيرة وبادية الشام كما أنهم ساندوا الفرس في حروبهم ضد الروم . وكان لمملكة الحيرة جيش متمرس في شؤون القتال قوامه مقاتلون من القبائل العربية وجنود مرتزقة . كما استطاع عرب الحيرة تطوير صناعة الأسلحة مثل السيوف والرماح والدروع وإنتاجها بكميات كبيرة وبجودة عالية تفوقوا بها على الفرس والروم . واشتهرت الحيرة أيضاً بعمائرها الكثيرة المشيدة باللبن والآجر والمرمر والجص والتي زينت جدرانها وسقوفها بالرسوم والفسيفساء . وبنى أهل الحيرة أديرة كثيرة وقصوراً فخمة كثيرة مثل دير هند الصغرى ودير هند الكبرى ودير بن مزعون، ومثل قصر الخورنق وقصر السدير وقصر أبي الخصيب وغيرها كثير . وجدير بالذكر أن أهل الحيرة عبدوا الأصنام وأن النصرانية كانت من أهم

الديانات السماوية التي انتشرت بينهم. هذا وكان الملك النعمان الثالث الملقب أبو قابوس (580 - 602 للميلاد) آخر ملوك السلالة اللخمية في الحيرة .

وفي عام 633م تم فتح الحيرة على يد خالد بن الوليد وتبع ذلك فتح العراق عام 637 على يد سعد بن ابي وقاص .

وبذلك انتهى العصر الساساني الذي يمثل آخر عصور الاحتلال الأجنبي في وادي الرافدين من بعد سقوط بابل عام 539 قبل الميلاد .

د. فاضل عبدالواحد

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

- باقر، طه 1956
مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.

- باقر، طه 1980
لمحات من تراث حضارة وادي الرافدين في الحضارة اليونانية " (مجلة بين النهرين، العدد 29، ص 7 –32).

- الدباغ، تقي 1993
الفكر الديني.

- سفر، فؤاد؛ ومحمد علي مصطفى 1974
الحضر مدينة الشمس.

- الصالحي، واثق 1979
"بعلشمين إله البرق والمطر في الحضر (مجلة كلية الآداب ، العدد 25، ص ص 450-464)

- عبد الواحد، فاضل 1975
الطوفان في المراجع المسمارية.

- عبد الواحد، فاضل 1989
من ألواح سور إلى التوراة.

- كريش، نرينز 1986
عجائب الدنيا في عمارة بابل (تعريب د. صبحي أنور رشيد)

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Chester G. 1965
Rise and Fall of the Ancient World.

- George, R. 1964
Ancient Iraq.

- Grayson , A. K 1975
Assyrian and Babylonian Chronicles.

- Hirshman, R. G. 1954
Iran.

- Olmstead , A. T. 1959
History of thePersian Empire.

- Prichard, J. (editor) 1955
Ancient Near Eastren Texts.

- Roux , G. 1964
Ancient Iraq.

- Tarn , W. 1956
A lexander the Great.

- Wilber, D. 1958
Iran past and Present.

الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بلاد الشام

كان دخول الجيوش اليونانية بقيادة الإسكندر الكبير عام332 ق.م.بداية حقبة جديدة في تاريخ منطقة بلاد الشام, إذ إن معركة أيسوس التي انتصر فيها الإسكندر على جيوش الفرس بقيادة داريوس الثالث (336-330 ق.م) تعد بداية لعصر جديد استمر لما يقارب أربعة قرون، وقد خلدت تلك الواقعة بتأسيس مدينة الإسكندرونة التي ما زالت تحمل هذا الاسم إلى اليوم.

سارت الجيوش اليونانية باتجاه الجنوب بمحاذاة الساحل الشامي؛ إذ إن حنكة القائد اليوناني ورؤيته العسكرية دفعته للحفاظ على الطرق البحرية وذلك باحتفاظه وسيطرته على المناطق الساحلية, إذ اتجهت قوة من جيشه إلى مقر قيادة الفرس في سوريا والمتجمعة في دمشق واحتلتها, وتابع بقية الجيش طريقه واحتل المدن الساحلية مثل جبيل وأرواد وصيدا ولم يتصد لهذا الجيش إلا مدينة صور الفينيقية التي كانت وحيدة أمام المد اليوناني الذي فرض عليها حصارًا دام فيما ذكر مدة سبعة أشهر سقطت بعدها, وبمناسبة سقوطها أقام الإسكندر الاحتفالات الكبيرة وقدم القرابين لآلهة المدينة ملقارت بعد أن كان قد نكل بأهلها.

تابع الجيش اليوناني بقيادة الإسكندر المقدوني طريقه عبر الساحل الفلسطيني واحتل المدن الفلسطينية إلى أن وصل إلى غزة المركز التجاري على ساحل البحر الأبيض المتوسط للبضائع القادمة من الجزيرة العربية, وبعد حصار دام شهرين سقطت المدينة بيد الإسكندر وبذلك يكون القائد اليوناني قد أمن طريق الموصلات البحرية لجيشه وأخرج الفرس من المنطقة الساحلية لينطلق بأمان إلى مصر التي كانت على ما يبدو سهلة المنال.

لم تدم إقامة القائد اليوناني في مصر طويلا إذ أنه بعد أن احتلها أقام الشعائر لألهتها وبنى المدينة التي ما زالت تحمل اسمه فيها ألا وهي مدينة الإسكندرية صاحبة الشهرة الكبيرة في العصور اللاحقة وخاصة الهلنستية والرومانية ليعود بعدها إلى المناطق الداخلية من سوريا عام 331 ق.م. وفي بطريقه أخضع السامريين ثم تابع مسيره مرورًا بصور ووادي العاصي ثم اتجه شرقا واحتل بلاد الرافدين ثم تابع مسيره إلى الهند ثم عاد إلى بابل حيث توفي فيها عام 323 ق.م.

كان من أهم نتائج فتوحات الإسكندر, القائد المقدوني, إتاحة الفرصة للامتزاج والتداخل الثقافي والحضاري بين الشرق والحضارة اليونانية تلك العملية التي بدأت قبل دخول الإسكندر إلى الشرق, كما توحدت بلاد الشام ومنطقة الساحل الشرقي للمتوسط تحت حكمه, بالإضافة إلى مجموعة المدن الكبيرة التي أنشأها لتخدم أهدافًا تصب في مجملها في مصلحته العسكرية وتخدم أفكاره الهادفة إلى أن تكون هذه المدن مصدر إشعاع ثقافي هيليني, وسرعان ما أعطت نتائجها إذ أصبحت اللغة اليونانية لغة العصر والعلم والحضارة.

مات الإسكندر الأكبر في ريعان شبابه عام 323ق.م بعد أن كون إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف ودب الخلاف بين قادة جيشه الكبير لاقتسام مملكته لا بل اشتعلت نار الحرب بين ورثته ونتج عن هذا الصراع أن برز أربعة قادة تم الاتفاق فيما بينهم على أن يكون كل واحد منهم على

رأس دولة. فكان بطليموس في مصر وسلوقس في ما كان يعرف بمملكة الفرس وانتيجونس في آسيا الصغرى وانتيباتر في مكدونيا ونحن لسنا بصدد تتبع تاريخ هذه الممالك الأربعة، وما يهمنا هو بطليموس في مصر وسلوقس في سوريا وذلك لارتباطهما بتاريخ بلاد الشام.

أسس بطليموس في مصر مملكة كان هو ملكا عليها وأسس أسرة ملوك تعاقبوا على مصر وعرفوا باسم البطالمة, كان من أعمال بطليموس الأول أن اتخذ من الإسكندرية, المدينة التي أسسها الإسكندر الكبير مقرًا له وأصبحت فيما بعد مركزًا وميناءً مهمًّا إن لم يكن الميناء الأهم على سواحل البحر المتوسط, هذا بالإضافة إلى استيلاء بطليموس على مناطق جنوب بلاد الشام (جنوب سوريا وفلسطين) لتصبح هذه المنطقة عازلا قويا بين حكام مصر من البطالمة وإخوانهم السلوقيين في سوريا, هذا وقد سيطر بطليموس الأول على البحر الأحمر والطرق التجارية القادمة من الهند والخليج العربي وشبه الجزيرة العربية إلى مناطق شرق المتوسط.

يعد سلوقس الاول(312-280ق.م.) والملقب بنكاتور وتعني المنتصر مؤسس الدولة السلوقية ولم تكن سوريا وفلسطين من الأراضي التابعة له عندما قسمت إمبراطورية الإسكندر؛ إذ كانت تابعة لآسيا الصغرى, ضمت فلسطين إلى بطليموس في عام 312ق.م وسوريا من الفرات حتى المتوسط إلى سلوقس عام 301ق. م. وقد أسس سلوقس ما عرف باسم التقويم السلوقي الذي يبدأ سنة 312ق.م. وجعل مركز حكومته مدينة انطاكية على نهر العاصي وقد توسع البطالمة في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد حتى منطقة أرواد وحمص، أما سلوقس فقد وسع ملكه شرقا ليشمل المناطق الآسيوية التي كان الإسكندر قد احتلها.

سار سلوقس على خطى الإسكندر الكبير بنشر الثقافة الهلينية، فبنى المدن وأطلق عليها إما اسم والده انطيوخوس وإما اسمه أو اسم أمه لاوديسا ومنها اسم مدينة اللاذقية وهناك أيضا أفاميا. أما المدن التي اشتهرت باسم أنطاكية فكانت أهمها العاصمة أنطاكية. بعد سلوقس الأول بدأت المملكة السلوقية تضعف شيئا فشيئا حتى كادت تنهار على زمن سلوقس الثاني كالينيكوس (246-226ق.م) حين هاجمها بطليموس أوجيتس واحتل أنطاكية. وقد حاول أنطيوخوس الثالث (223-187ق.م) الذي لقب بالكبير استرجاع أملاك والده وجده في الشرق والولايات الإيرانية فوصل إلى أبواب الهند ثم وجه اهتمامه إلى عدوه بطليموس في الجنوب, فهزم الجيش المصري في بانياس عام 198 ق.م واسترد كل ما خسره أسلافه في حرب طويلة استمرت مدة عشرين عامًا.

بعد هذه النجاحات الكبيرة دخل أنطيوخس إلى جانب اليونان في حربهم ضد القوة الجديدة التي برزت للوجود وهي الرومان, لكنه أصيب بهزائم، كان أخرها في آسيا الصغرى عام 188ق.م، أجبرته على التخلي عن كل ما في آسيا الصغرى لا، بل وعلى عقد صلح مذل ودفع جزية كبيرة.

قام انطيوخوس الرابع (175-164ق.م) بحملة وقائية ضد مصر وانتصر في عام 169ق.م وأسر الملك بطليموس فيلوميتر ووصل الإسكندرية وحاصرها لكن سرعان ما عاد إلى بلاده تاركًا مصر وذلك تحت ضغط روما.

سار خلفاء الإسكندر على نفس خطاه بنشر الهلينية ولم يختلف أنطيوخوس الرابع عن سابقيه في نشر الثقافة والحضارة الهلينية لا بل وإنه أعلن نفسه إلها (ثيوس ابيفانوس). ومن المعروف أن الطبقة الأرستقراطية من الأغنياء السوريين قد أخذت العادات واللغة واللباس اليوناني مما شجع أنطيوخوس على محاولة إدخال الآلهة اليونانية إلى المجتمعات المحلية ومنها اعتبار يهوه مساويا لزفس وأقام مذبحا في المعبد اليهودي للآله اليونانية وعارضه اليهود واندلعت ثورة سنة 168ق.م بزعامة يهوذا الملقب بالمكابي وهو من الأسرة الحشمونية ووجه يهوذا المكابي

وإخوانه ثورتهم ضد الطبقة العليا ونظموا حرب عصابات وتمكنوا من احتلال أورشليم وتطورت الحالة إلى ثورة هادفة إلى التخلص من القوات السلوقية، وفي النهاية اضطر السلوقي ديمتريوس نيكاتور إلى منح اليهود الاستقلال تحت حكم سمعان شقيق يهوذا الذي انتخب عام 141ق.م حاكما وكاهنا أعظم ودام هذا الاستقلال حتى مجيء الرومان في عام 63/64 ق.م.

كان اليهود من بين مجموعات أخرى بدأت بالضغط على الدولة السلوقية؛ فهناك القبائل العربية ومنها الأنباط في الجنوب , والمقاطعات الشرقية بدأت بالانفصال وكذلك في الشمال إضافة إلى النزاعات الداخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة، مما جعل المنطقة فريسة للقوة الطامعة الجديدة التي وصلت إلى الشرق ودخلتها (القوات الرومانية) على يد القائد الروماني المعروف بومبي 63/64ق.م لتبدأ فصول حقبة تاريخية جديدة في تاريخ بلاد الشام.

الحضارة الهلنستية في الشام :

دخلت الحضارة والثقافة اليونانية أرض بلاد الشام بعد دخول القوات اليونانية على يد الإسكندر الكبير عام 331ق.م وكان من أهم نتائج هذا الاحتلال العسكري التداخل ما بين الثقافتين اليونانية والسامية والتي دعيت بالهلنستية فيما بعد للتفريق بينها وبين الهلينية والتي كانت أبرز سمات العصر السلوقي.

أسس الإسكندر وخلفاؤه عددًا كبيرًا من المدن في مواقع مختلفة من أرض سوريا وفي النقاط الحساسة والإستراتيجية, اجتمع فيها اليونانيون بالإضافة إلى مستعمرات مختلفة واختلطوا بالسكان المحليين لا بل أن قسما منهم قد تزوج من نساء وطنيات، ونتيجة لهذا التداخل فقد نتج مع الزمن جيل يؤمن بالثقافة الهلنستية في كافة المستويات من تجار وفنانين وعلماء وعبيد, و تجدر الإشارة إلى أن العاصمة أنطاكية كانت أكثر المناطق تأثرًا بهذه الثقافة.

أما في الشطر البطلمي من أرض بلاد الشام فقد تم إنشاء عدة مدن كانت مركز إشعاع ثقافي هلنستي في المنطقة ومنها فيلوتيرا وهي على بحر الجليل وأخذت اسمها من اسم شقيقة بطليموس الثاني فيلادلفوس (285-247ق.م), ومن المدن العشر: جرازا وبيلا، وقد زودت هذه المدن بالمسارح والملاعب الرياضية والساحات العامة، كانت على نمط دويلات المدن اليونانية، هذا بالإضافة إلى المراكز القديمة المختلفة وتحويل بعض المدن ذات الأسماء السامية إلى أسماء يونانية من قبل السلوقيين والبطالمة على حد سواء ومنها على سبيل المثال عكا التي أصبحت بتولمايس وبيرتوس (بيروت) أصبحت لاوديسة.

وعلى الرغم من هذا التغيير الكبير في أسماء المدن من أسماء سامية إلى أسماء يونانية، فقد عادت في مراحل لاحقة وأخذت أسماء سامية لكن نلاحظ أن الهلينية قد تفاوتت بين منطقة وأخرى فشمال سوريا أخذ الهلينية بكل أشكالها من دين وثقافة ولغة وضرب العملات وظهر كتاب مشهورون يؤلفون باللغة اليونانية ينتسبون إلى المدن الشامية المختلفة مثل زينون الصيداوي وأنطيوخوس العسقلاني . وبالرغم من كل هذا فقد احتفظ الشرق بعاداته وتقاليده وديانته فاليهودية حافظت على عاداتها وتقاليدها وبالمقابل فإن السلوقيين تأثروا بالعبادات الشرقية. أما بالنسبة للغة فقد بقيت اللغات المحلية, إذ بقيت اللغة الآرامية لغة الشعب اليومية إلى جانب اللغة اليونانية, أما بالنسبة للريف فقد احتفظ بلغته وعاداته وتقاليده وطريقة حياته.

لقد سجل التاريخ لبلاد الشام في العصر الهلنستي الكثير من العلماء والفلاسفة والمؤرخين والشعراء فقد أنجبت هذه المنطقة في العصر الهلنستي كتابا مشهورين باللغة اليونانية من المدن الشامية المختلفة مثل زينون الصيداوي ونعلم أن الفلاسفة السوريون قد غادروا بلادهم وعاشوا في مناطق تحفل بعلمهم ومنهم انطيوخوس العسقلاني الذي كان يتبع الفلسفة الانتقائية, أسس أكاديمية

فـي أثينـا وأخـرى فـي الاسـكندرية وتـرأس الصـوري ديـودورس مدرسـة للفلسـفة فـي اثينـا. ومـنهم ايضـا بوسـيدونيوم الافـامي ولـد عـام 135ق.م الـذي لـم يكـن فيلسوفا فقط بل كـان مؤرخـا وعالمـا طبيعيا وقد تـرأس المدرسة الرواقية في رودس. كما كان للشعر نصيبا بين سكان بلاد الشـام فـي العصـر الهلنسـتي فقد اشتهر بعض الشعراء الذين كتبوا باليونانيـة ومـنهم انتيبـاتر الصـيداوي وهـو أصـلا مـن صـور كـان فيلسـوفا أيضـا مـن أتبـاع المدرسة الابيقورية وهناك شـاعر من مدينـة جدارا وهو فيلوديموس وهو شاعر وفيلسوف ابيقوري, ومليغر وهو أيضا من مدينة جدارا.

كانـت بـلاد الشـام تمثـل حجـر الأسـاس فـي التجـارة السلوقية, فقد كانـت الدولـة السلوقية تـولي اهتمامـا خاصـا بالتجـارة سواء كـان مصدرها من الجنوب ونعنـي الجزيـرة العربية والهند أو إلى الغرب وذلك لسد حاجتها الداخلية أولا ومن ثم لتصديرها فكانـت البضـائع تـرد إلـى المدن السلوقية مثل اديسا ودمشق وانطاكيا وكذلك تدمر والبتراء. كان هناك منـاطق او مراكـز تجاريـة وهـي عبـارة عـن مراكـز راحـة للقوافـل التجاريـة ومنهـا دورا اوربـس (الصـالحية) وهـذه كانـت عبـارة عـن مسـتعمرة. شـملت التجـارة مـع الغـرب البضـاعة التـي تصـل مـن الجزيـرة العربيـة وبـلاد الرافدين ويسـتهلك قسـما منهـا ثـم يعـاد تصـديرها بالاضـافة الـى المنتجات الزراعيـة والصـناعية ومن اهم العناصـر التجـارة في ذلك الوقت تجارة العبيد.

اخذت الزراعة اهمية كبرى في العصـر الهلنستي فقد ازداد انتـاج الحبـوب والخضـروات والخمـور وقد تـم ادخـال نباتات جديدة الى بـلاد الشـام مثل الفاصـوليا والعدس وهي مـن مصـر وكثيـر مـن النباتـات والاشـجار الفارسـية الاصـل كالفستق والمشمش والخوخ. من اهم الصناعات التي مارسها الشاميون في تلك الفترة صـناعة الخمـور والزيت وصـناعة الاخشـاب وخاصـة خشـب الارز الـذي كانـت تسـتورده مصـر من لبنان وصـناعة المنسوجات والصـوف والخـزف وصـناعة المعادن. ضـربت النقود فـي العصـر الهلنستي وحلـت مكـان المقايضة في التجارة واستعملت الاوزان والمقاييس.

يبدو ان سكان بلاد الشام قد نعموا بدرجة من الرفاهية والغنى نتيجة للاوضـاع المعيشية التي سادت في العصـر الهلنستي اضافة الى ان عدد سكان المنطقة قد ازداد نتيجة الجاليات التي استوطنت في المنطقة وخاصة الاجزاء الشمالية والساحلية منها منذ بداية الفترة الهلنستية وحتى مجيء الرومان.

كـان نظـام الحكـم ملكيًـا وراثيًـا يتمتـع بسلطات مطلقـة وتحيط بـه هالـة مـن القداسـة ولـه بـلاط تميز بالبذخ والأبهـة والعظمـة. كانـت أعلـى الوظـائف وزيـر القضـايا ثـم رئـيس الديوان الملكي ووزير المالية والكاتـب المـالي وقائـد الحرس أما في المقاطعات فكـان الـولاة وحكـام المقاطعـات الصـغرى ومراقبو الضـرائب. وكان المجتمع يعج بالعبيد.

أما الجيش فكان تابعًا للملك. كان في البداية يتـألف من المكدونيين واليونـان وكـان مقـر القيـادة فـي أفاميـا أمـا قيـادة الحـرس فقد كانـت فـي العاصـمة أنطاكيـة, ثـم أدخـل السكان المحليون لمساندة اليونـانيين وكـان الجيش يتكون أساسـا من الكتيبة.

العصر الروماني في بلاد الشام (64. ق.م –324م):

بـدأت الجيوش الرومانيـة بالتقدم في آسيا الغربيـة بعد عام 190 ق.م وذلك بعد معركة مغنيزيا إلى أن شكل دخول بـومبي فـي العـام 64ق.م نقطـة تحـول كبيـرة فـي تـاريخ المنطقة؛ إذ كانت نهاية المملكة السلوقية في سوريا. اتصف في أثنائها بالضعف والفوضى الذي عم المنطقة, فقد وجدت في المنطقة الشمالية مجموعة من المدن سيطر عليها زعماء عرب, وأخذت قوة الأنباط في الجنوب في التزايد والسيطرة علـى منـاطق واسـعة فـي جنـوب سـوريا , بالإضـافة إلـى أن العصابات بدأت تـزداد شراسـة إلـى أن احتلـت مجموعـة من المدن على الساحل الفينيقي، وقد وجدت في جبـال لبنـان فـي كثير من الأحيان ملجأ لها.

أدخل بومبي عام 64 ق.م سوريا تحت ولاية واحدة سميت ولاية سوريا Provincia Syria واتبع بومبي سياسة خاصة مع الدويلات أو أشباه الدويلات المتواجدة في المنطقة؛ إذ سمح لزعماء الممالك العربية بالبقاء على أن يدفعوا جزية سنوية, وبقيت أيضًا مملكة الأنباط في الجنوب حتى مدينة دمشق, واليهودية دولة ضمن ولاية سوريا, أما المدن التي كانت تدار بدساتير يونانية فقد تركت وأعطيت حرية داخلية في نطاق حكام الولايات وكونت عشر منها مجموعة أطلق عليها اسم الديكابوليس "المدن العشر", وجميعها تقع في شرق الأردن باستثناء مدينة سكيثوبوليس (بيسان) التي تقع غرب النهر بالإضافة إلى بعض المستعمرات والمدن الأخرى مثل أنطاكية وسلوقية وغزة، فقد أعطيت الحكم الذاتي.

أولت الإدارة الرومانية سوريا أهمية خاصة؛ إذ كانت تدار من قبل نائب قنصل مباشرة وكان أول الولاة في سوريا Aulious Gabinius (57-55 ق.م) الذي ساهم في إضعاف المملكة اليهودية وفرض الضرائب الكبيرة على السكان, وأعاد بناء المدن ذات الدساتير اليونانية وخاصة تلك التي دمرها المكابيون .

حل محل ايليس جابينوس كراسوس الذي كان محبًا كبيرًا للعرب، إذ قاد مجموعة من الحروب ضد فرتيا, البونت, أرمينيا آخذًا سوريا نقطة انطلاق له وتذكرالمصادر أنه قتل أحد حلفائه العرب وهو أبجر ملك أديسا لاعتقاده بأنه خانه في أحد حملاته العسكرية .أما في عهد كاشيوس خليفة كراسوس فقد انتعش بعض الملوك المحليين .

أعطيت سوريا والشرق عامة بعد تقسيم العالم الروماني من قبل الحكومة الثلاثية لانطونيوس الذي بقي على رأس هذه المنطقة لمدة أربع سنوات 40-36ق.م لكن انطونيوس أهمل الأمور الإدارية في الجزء الشرقي من الإمبراطورية وعاش حياة ترف ومجون مع عشيقته كليوبترا لكن بعد معركة اكتيوم عام 31 ق.م قهر اكتافيوس انطونيوس وكليوبترا وأصبح أكتافيوس سيد الموقف في العالم الروماني وزار سوريا وفلسطين وأصبح الإمبراطور الوحيد في العالم الروماني ليبدأ فصلاً جديدًا في تاريخ الرومان وبالتالي في تاريخ سوريا.

أعطى انطونيوس في فلسطين بعد توليه زمام الأمور في الشرق المسؤولية لأسرة جديدة هي الأسرة الهيرودية بعد أن أهمل الأسرة المكابية وكان المؤسس هيرود الذي لقب فيما بعد بالكبير من أصل أدومي, عمل هيرود على توحيد القدس وكل المناطق التابعة وقد بقي لمدة ثلاثٍ وثلاثين سنة في الحكم, وقد عمل على تحويل المملكة اليهودية إلى مملكة هلنستية إذ أقام في مدينة أورشليم (القدس) الأبنية الكبيرة والمسارح وميدان لسباق الخيل وكانت فترة حكمه استبدادية؛ إذ سحق كل معارضيه وبعد وفاته التي حصلت في 4 ق. م وضعت المنطقة في عام 6م تحت الحكم الروماني المباشر .

كانت سوريا خلال القرن الميلادي الأول من أهم الولايات الرومانية، وقد نعمت بشيء من الهدوء، فساد السلام في المنطقة وانتهت أعمال القرصنة التي كانت منتشرة وبنيت الطرق في الإمبراطورية الرومانية وبشكل عام كان القرن الأول ومعظم القرن الثاني فترة سلام للمنطقة. ومن أهم أحداث القرن الثاني في المنطقة الجنوبية من سوريا هي قيام الإمبراطور تراحان عام 106م بضم دولة الأنباط وجعل منها ولاية رومانية باسم الولاية العربية الرومانية Roman Provincia Arabia والتي شملت المناطق التي كانت تابعة لدولة الأنباط في الجنوب مع بعض مدن الديكابولس وعد تاريخ ضم دولة الأنباط بداية تاريخ جديد عرف باسم تاريخ بصرى أو تاريخ الولاية العربية الرومانية.

عندما دخل الرومان إلى الشرق الهلنستي كانت منطقة بلاد الشام قد تأثرت بصورة كبيرة بهذه الثقافة وكانت اللغة اليونانية لغة الحياة اليومية والتعامل وبدخول الرومان أصبحت اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية وتابعت الحياة العامة في المدن الشامية مسيرتها كما كانت في

العصر السلوقي السابق وبقيت المجموعات والدول الصغرى في المنطقة كسابق عهدها ولكن تدور في فلك روما كما هي الحال في حكومات بعض السلالات كالسلالة الهيرودية في اليهودية والأنباط في البتراء والتدمريون في الصحراء السورية وأبقت هذه الدويلات على ديانتها ولغتها وممارساتها الاجتماعية وأما الرومان فقد قاموا بدور الحامي لتلك الدويلات, وبالمقابل فقد كانت تدفع هذه المجموعات الجزية لروما، نتيجة لأهمية المنطقة كونها تقع على الحدود الدولة الفرتية العدو اللدود لروما فقد جعلت ولاية سوريا ولاية إمبراطورية, ولهذا فقد عهد بها إلى نائب له رتبة قنصل ويتبع له قوة عسكرية كبرى.

احتفظت دويلات المدن التي كانت تسير على النظام اليوناني القديم بتنظيمها وقد اظهر الرومان تسامحا كبيرا مع السكان المحليين فقد احتفظت كل المجموعات بعاداتها وتقاليدها وتنظيمها, امتاز المجتمع بالانفتاح فقد وجد المكدونيين اليونانيين في معظم أنحاء المنطقة والمراكز الهامة فيها مثل أفاميا ولاوديسة وانطاكية والمدن الفينقية والمراكز الرئيسية على الساحل الفلسطيني وتدمر ودمشق, أما الرومان فقد ذكر لهم عدد قليل من المستعمرات أو الجاليات تقيم في البلاد الشامية فقد وجد في بيروت وبعلبك جاليات من المحاربين القدامى ويجب أن لا ننسى أن الرومان كانوا قد الحقوا بجيوشهم في بلاد الشام أعداد كبيرة من أبناء المنطقة والقبائل الموالية لهم.

بعد أن سيطر الرومان على كافة المناطق المحيطة ببلاد الشام وساد السلام في المنطقة وربطت بشبكة طرق تصل بين بلاد الشام بالمناطق المجاورة ظهر نشاط اقتصادي كبير وظهر أيضا عدد من المراكز التجارية والمدن , فقد أصبحت على سبيل المثال بصرى مركزا هاما في الصحراء السورية وملتقى طرق القوافل. نظمت الزراعة وأعمال الري وبنيت الطرق لتربط بلاد الشام بالمناطق المجاورة.

أما الصناعة فكانت كما هي الحال بالنسبة للزراعة فقد شكلت المنطقة أساسا لكثّير من المواد المصنعة في على الأرض الشامية ومنها صناعة الأصبغة والأرجوان الفينيقي والكتان والجلود. واشتهرت صور وصيدا بصناعة النسيج واشتهرت أيضا كثير من الاماكن بصناعة الخمور مثل غزة, أنطاكية, جبيل, بيروت, حوران, أفاميا, وأنتجت أيضا الاسفلت من مناطق البحر الميت والنحاس من جبل لبنان.

ازدهرت التجارة في العصر الروماني وكان هناك مراكز تجارية هامة في منطقة بلاد الشام وأهمها تلك التي تقع على الطرق التجارية كالبتراء وتدمر ومدن الساحل السوري وجرش وبصرى, وكان السكان الشاميون يسيطرون على هذه الطرق وكانت كثير من المواد تصدر إلى العالم الروماني مثل البلح والخمور والثمار المجففة والأقمشة, كما كانت تستورد الخزف وورق البردى والمر والبخور والتوابل.

تابعت حياة الريف كسابق عهدها فقد كانت القرى منتشرة في كافة المناطق وكانت القرى تتبع في الغالب المدن التي تقع بقربها. كان التأثير الروماني قليلا جدا على الأرياف واحتفظت بعاداتها وتقاليدها أما الطبقات الأخرى وأهمها الأغنياء أو الطبقة الأرستقراطية فقد كانت تتركز في المدن وهم أصحاب النفوذ والثروة.

أما بالنسبة للحياة الاجتماعية فقد مارس سكان المدن أنواع اللهو المختلفة كسباق العربات والمصارعة والصيد وظهرت بالمناطق المختلفة وجود الحمامات العامة واهتم سكان المنطقة بالموسيقى وألعاب السيرك ومن المدن التي اشتهرت بمراكزها العامة وتوفير كافة وسائل الراحة والاستجمام بالإضافة إلى الاهتمام بالصبغة الجمالية: مدن أنطاكية, دفنة, افاميا بيروت, حمص وقد وجد وصف لموجودات هذه المدن لدى مجموعة من المؤرخين الرومان.

قام كثير من الأباطرة الرومان بإنعام الألقاب والرتب على المدن الشامية ومن الأمثلة قرية في حوران بلغت مرتبة مدينة وهي فيليبوليس التي رفعها الإمبراطور

العربي الأصل فيليب العربي . ومن ناحية أخرى فقد بقيت المدن العشر على حالها لا بل أن عددها قد ازداد في مراحل لاحقة .

كان تأثير الثقافة اللاتينية في المنطقة قليل ولم يكن هناك مهاجرين كثيرين من الرومان في المنطقة ليقوموا بنشر الثقافة اللاتينية واقتصر عددهم على الموظفين وقام الرومان في كثير من الأحيان بإعطاء حق المواطنة (الرعوية) لبعض سكان المدن السورية مثل بيروت التي كانت مستعمرة رومانية, وهناك بعض المدن التي حصل سكانها على حق المواطنة (الرعوية) مثل صور ثم في مراحل لاحقة منح جميع سكان الإمبراطورية الرومانية حق الجنسية الرومانية وذلك عام 212م زمن حكم الإمبراطور كراكلا عندما أعلن بان كل مواطن في الولايات الرومانية هو مواطنا رومانيا, ونعلم كذلك أن المواطنين في بلاد الشام قد خدموا في الجيش الروماني سواء داخل بلاد الشام أو في باقي أنحاء الإمبراطورية وأصبحت كذلك اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية في البلاد الشامية.

كان كلاوديوس سفيروس أول والٍ على الولاية الجديدة وبقي في هذا المنصب في السنوات ما بين (107-114م) وربطت المنطقة بشبكة طرق عدت إكمالا لبقية الطرق في المنطقة الشمالية والمنطقة الغربية وحتى المواقع الساحلية من الساحل الفلسطيني مرورًا بغور الأردن. وأهم طريق في الولاية العربية هي طريق تراجان الجديدة Via Nova Trajana التي كانت تربط بين بصرى عاصمة الولاية ومدينة آيلة (العقبة).

قسم الإمبراطور سبتيموس سفيروس(193-211م) في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي ولاية سوريا إلى قسمين الأول Coele Syria والثاني Syrie Phinicie .

نعمت البلاد الشامية بالسلام في القرن الثاني ولم تقطعه إلا حوادث متفرقة مثل ثورة تدمر ضد روما وقام بإخمادها الإمبراطور أورليان عام 273م. وفي القرن الثالث وعلى إثر الأزمة التي حلت بالإمبراطورية الرومانية اتخذ الإمبراطور ديوكليتيان (284-305م) الإجراءات الكثيرة من بناء الحصون والقلاع والطرق وترميمها وتقسيمات جديدة في المنطقة الشرقية.

العصر البيزنطي (324- 636م) :

يعد العصر البيزنطي إحدى مراحل التاريخ الروماني, وإن امتزاج الإدارة الرومانية والحضارة اليونانية مع الديانة المسيحية أدت بالتالي إلى تكوين ثقافة جديدة دعيت بالبيزنطية من قبل الدارسين المحدثي،ن كما يعد الإمبراطور قسطنطين الكبير (306- 337م) أول إمبراطور بيزنطي؛ إذ كانت نقطة التحول التي دعت الباحثين إلى إطلاق هذا المصطلح، هي الخطوة التي اتخذها باعترافه بالديانة المسيحية ديانة رسمية في الإمبراطورية الرومانية, كان ذلك في مؤتمر ميلان الذي عقد في عام 312م , بالإضافة إلى قراره بناء مدينة القسطنطينية والتي تم جعلها عاصمة الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية, واعتبر قسم كبير من الباحثين تاريخ انفراد قسطنطين بالحكم من عام 324م بداية التاريخ البيزنطي بالرغم من أن هناك آراء أخرى حول بداية العصر البيزنطي.

أدت المسيحية دورًا أساسًا في تحول المجتمع الرومان؛ي إذ عدت أهم الدعائم التي جلبت معها تغيرات سياسية واجتماعية وفكرية جديدة. ونحن نعلم أن المسيحية قد بدأت بالانتشار منذ زمن بعيد في الإمبراطورية الرومانية فقد ولد السيد المسيح في حوالي سنة 4ق.م في مدينة بيت لحم في فلسطين ثم ما لبث أن جال مبشرًا بدين جديد في عالم تسوده الوثنية وفي منطقة كانت اليهودية هي الديانة السماوية الوحيدة فيها, ولكنه حكم عليه بالموت في حوالي سنة 27م في عهد الإمبراطور طيبيريوس وقام أربعة من تلاميذه بتدوين تعاليمه وأعماله وما زالت هذه أساس معرفتنا عن حياته .. وقدر لهذا الدين الجديد أن ينتشر انتشارًا كبيرًا في المنطقة ولكنه كان بطيئا في البداية, وفي مراحل لاحقة

انتشر بسرعة كبيرة بالرغم من تعرض اتباعه لعمليات اضطهاد ومقاومة من قبل السلطات الرومانية، وكان أخرها في زمن الإمبراطور ديوكليتيان (284-305م) في القرن الرابع الميلادي ولكن بعد سنوات معدودة أصبحت الديانة المسيحية ديانة رسمية في الإمبراطورية الرومانية على يد الإمبراطور قسطنطين الكبير بالرغم من أنها كانت قد انتشرت في كل الأماكن وخاصة الرئيسة منها مثل مدينة روما.

كانت أنطاكية أول المدن التي أصبحت مركزًا منظمًا للمسيحية ومنطلقًا للدعوة منها إلى المناطق الأخرى بالإضافة إلى مدينة القدس (أورشليم) قبل تدميرها في السنة 70م.

دانت المسيحية بالإضافة إلى الحواريين مجموعة من المؤلفين عرفت مجموعة منهم باسم آباء الكنيسة، وكان أحدهم سوريًا وسمي إغناطيوس Ignatius .

إبان العصر البيزنطي قسمت سوريا إلى مجموعة من المقاطعات في نهاية القرن الرابع، ففي الشمال من سوريا وجدت :

أولاً: سوريا الأولى: كانت مدينتها الأولى ومركزها أنطاكية.

ثانيا: سوريا الثانية وعاصمتها أفاميا.

أما منطقة فينيقيا فقد قسمت أيضًا إلى فينيقيا الأولى ومركزها صور، وفينيقيا الثانية وعاصمتها حمص. أما فلسطين وشرق الأردن فقد قسمها الإمبراطور اركاديوس (395- 408م) في سنة 399م إلى الأقسام التالية: فلسطين الأولى ومركزها قيصرية, وفلسطين الثانية ومركزها سكيثوبوليس (بيسان) أما فلسطين الثالثة فكانت البتراء مركزها. وفي منطقة شرق الأردن هناك المقاطعة العربية وكانت بصرى عاصمتها.

بدأت هذه التنظيمات الإدارية بالتراجع وتفقد أهميتها تدريجيًا وخاصة في الفترة الواقعة بين الإمبراطور جستنيان (527-565م) وبداية القرن السادس للميلاد وهي فترة حكم الإمبراطور هرقل (610-641) ولا ننسى الحروب التي دخلها جستنيان في الغرب بالدرجة الأولى والتي كان لها الأثر الكبير في المحافظة على الأقسام الشرقية من الإمبراطورية والدور الذي بدأ الغساسنة في القيام به في المنطقة، مما جعل البيزنطيين يتخذونهم حلفاء لهم وبالتالي الاعتماد عليهم في حماية الحدود.

خاضت بيزنطة في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع حروبًا طويلة مع القوات الساسانية، مما اضعف الوجود البيزنطي في المنطقة، ومما سهل الطريق أمام القوات الإسلامية التي خرجت فاتحة لبلاد الشام وكانت معركة اليرموك عام 636م هي المعركة الفاصلة التي تداعت بلاد الشام بعدها ليبدأ عصر جديد وهو العصر الإسلامي.

ازدهرت التجارة في العصر البيزنطي وكانت بيد السوريين واليونان، ولم تتأثر بالتقسيمات الإدارية؛ إذ كان التجار يقصدون كافة المراكز التجارية المهمة على البحر المتوسط وخارج هذه المنطقة ومن مواد التجارة الحرير والتوابل ---الخ. ويصدر أيضا الزجاج والأقمشة--- الخ.

أما الحياة الفكرية في سوريا، فقد نشطت ولو أنها كانت تتعرض لعدم الاستقرار بسبب المجادلات الدينية المسيحية .. ومن البلغاء ليبيانوس (314-393), وهو من أنطاكية عرف خطيبًا وسياسيًا ومن تلاميذه المشهورين في ذلك العصر يوحنا فم الذهب (347-407م) وهناك أيضا مجموعة أخرى مثل يوسيبوس, وبركوبيوس المؤرخ المعروف لعصر الإمبراطور جوستنيان(527- 565م).

أصبحت المسيحية في هذا العصر هي المسيطر بدون منازع, وذات تأثير على كل نواحي الحياة والكنيسة هي أكبر المؤسسات وصاحبة التأثير الأقوى وفي كل المجالات. كما انتشرت الأبنية الكنسية والأديرة والصوامع وأصبح

هناك فن معماري متميز أبدع فيه الفنان السوري في كل جوانبه.

أدت الحياة الدينية وأتباع المسيحية دورًا مهمًا في كافة النواحي، فقد كانت الكنيسة رديفًا للدولة وأكبر مؤسسة في المجتمع البيزنطي، وما دخلت به من انشقاقات دينية كان له الأثر الكبير في حياة الإنسان العادي، فقد جرت مناقشات دينية لاهوتية كبيرة دارت في مجملها حول شخص السيد المسيح هل هو إله أو إله وإنسان معًا؛ إذ انشق المجتمع حول هذه القضية فظهرت الكنيسة النسطورية وهم أصحاب الطبيعتين, واليعاقبة وهم أصحاب الطبيعة الواحدة.

أما بالنسبة لطرق المواصلات في الفترة البيزنطية فقد كانت هي نفسها التي كانت في الفترة الرومانية وأدخل عليها البيزنطيون تعديلات جديدة ويمكن تمييز الطرق الرئيسة التالية:

طريق تراجان الجديدة التي كانت تربط بين بصرى وأيلة (العقبة) مرورًا بفلادلفيا.

طريق اللجون في فلسطين - نيابوليس (نابلس) - ايليا (القدس) - الوسا-البتراء

طريق قيسارية - غزة - رفح.

د. نبيل توفيق بدر

المصادر والمراجع

أولا : المراجع العربية :

-- حتي, فيليب 1958

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (ترجمة الدكتور جورج حداد وعبد الكريم رافق, دار الثقافة, بيروت)

-- زيادة، نقولا 1986

التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب(المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، المجلد الأول، تحرير: محمد عدنان البخيت ومحمد عصفور، الجامعة الأردنية ص95-138. عمان).

-- زيادة، نقولا 1990

فلسطين : من الإسكندر إلى الفتح العربي الإسلامي (الموسوعة الفلسطينية, القسم الثاني ص 141-252الدراسات الخاصة, المجلد الثاني الدراسات التاريخية, بيروت)

-- عاقل, نبيه 1969

الإمبراطورية البيزنطية (دمشق)

-- عباس، إحسان 1990

تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي (600-611م) (الجامعة الأردنية،عمان)

– العريني, الباز د.ت

الدولة البيزنطية (بيروت،دار النهضة)

– عمران، محمود سعيد 1996

معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي. (بيروت، دار المعرفة الجامعية)

ثانيًا : المراجع الأجنبيه :

- Abel, F.-M. 1923

«La liste géographique du Papyrus 71 de Zénon», RB, 32, p. 409- 415.

- Abel, F.M. 1923

Géographie des campagnes machabéennes, RB, 32, , p. 495-552.

- Abel, F.M. 1967

Géographie de la Palestine, Paris, 2.

- Atallah, N. 1994

Recherches d'épigraphie jordanienne : confection d'un corpus des inscriptions grecques

- **Bowersock (G. W.),**

«Limes arabicus», HSCP, 80, p. 219-229.

- **Bowersock, G. W. 1983**

Roman Arabia, Cambridge (Mass.).

- **Brehier, L. 1949**

Le Monde Byzantin, II. Les institutions de l'empire byzantin, Paris,.

- **Cantineau, J. 1978**

Le Nabatéen, 2 vol., Paris.

- **Charles, H. 1936**

Le christianisme des Arabes nomades sur le Limes et dans le désert syro-mésopotamien aux alentours de l'Hégire, Paris.

et latines du nord-est de la Jordanie, Thèse de Doctorat, Université François-Rabelais, Tours.

- **Bauzou, Th 1989**

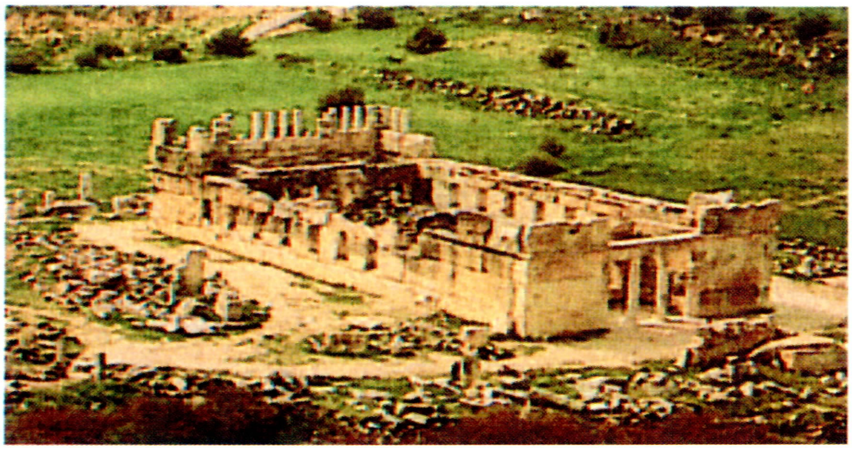
«Le réseau routier de la Syrie hellénistique et romaine», dans J.-M. Dentzer et W. Ortthman (éd.), Histoire et archéologie de la Syrie II, Saarbrûcken, , p. 205-22.

- **Bauzou, Th. 1998**

«Le secteur nord de la via nova en Arabie, de Bostra à Philadelphie», dans J.-B. Humbert et A. Desreumaux (dir.), Khirbet es-Samra I, Jordanie, - Turnhout, , p. 101-255.

- **Bowersock,G. W.1976**

«A report on Provincia Arabia», JRS, 61, 1971, p. 219-242.



عراق الأمير موقع يعود للعصر الهلنستي - الأردن



قوس النصر, العصر الروماني, جرش, الأردن



المسرح الجنوبي, العصر الروماني, جرش الأردن

الإسكندر الأكبر :

يعد فتح الإسكندر الأكبر لمصر الحدث الأبرز في تاريخ وادى النيل في أواخر القرن الرابع ق.م .. والإسكندر الذي عرف بالأكبر فيما بعد هو الإسكندر الثالث ملك مقدونيا ، الذي بدأ فتوحاته في منطقة الشرق الأدنى عام 336 ق.م بعد أن تولى عرش مقدونيا في أعقاب مقتل والده فيليب المقدوني . وقد شهد العالم القديم صراعًا داميًا بين الإمبراطورية الفارسية ودويلات المدن الإغريقية .. ومما هو جدير بالذكر أن بلاد اليونان لم تعرف طريقها إلى الوحدة السياسية ، بل انقسمت إلى مجموعة كيانات عرفت باسم دويلات المدن ، حيث كانت كل واحدة منها تتمتع باستقلال كامل . وكانت أشهر تلك الدويلات مدينتا أثينا وإسبرطة ؛ إلا أن دويلات المدن اليونانية،اضطرت أن تنحي جانبًا خلافاتها ، وأن تتحد في مواجهة الخطر الفارسي .. وقد نجح الفرس في اقتحام بلاد اليونان واحتلال مدينة أثينا كبرى مدنهم . وحين اتحد الإغريق وعقدوا لواء القيادة العسكرية لإسبرطة ، تمكنوا من هزيمة الفرس وطردهم من بلادهم في عام 480 ق.م.

بعد انسحاب الفرس من بلاد اليونان ، عادت دويلات المدن الإغريقية إلى التمسك باستقلالها الذاتي ، وأفضى التنافس بين مدينتي أثينا وإسبرطة إلى قيام حرب ضروس بين الطرفين ،و انقسمت بلاد اليونان بين المعسكرين . فقد شايعت بعض المدن أثينا وانضم البعض الأخر إلى إسبرطة ، وشهدت البلاد تلك الحرب التي عرفت باسم حرب البلبونيز ، واستمرت من عام 431 حتى عام 404 ق.م . وعلى الرغم من أن هذه الحرب انتهت بانتصار إسبرطة واندحار أثينا؛ إلا أن دويلات المدن اليونانية خرجت من هذه الحرب وهي خائرة القوى .

وقفت مملكة مقدونيا موقفًا محايدًا خلال حرب البلبونيز، وربما ساعدها في هذا الموقف موقعها الجغرافي، حيث كانت تقبع في الشمال بعيدًا عن معترك الصراع . واستطاعت مقدونيا بفضل هذا الموقف أن تحافظ على قوتها، وعندما تربع على عرشها فيليب الثانى philip في عام 359 ق م. أخذ يعمل على تقوية بلاده ، ورأى أن الخطر الفارسي لا يزال يلوح في الأفق ، فدعا الإغريق إلى الاتحاد إلا أنهم أصموا آذانهم عن دعوته ، مما اضطره إلى محاربتهم حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة في موقعة خايرونيا Chaeronea في عام 338 ق م . و أجبرهم على الانضواء في حلف تحت زعامة مقدونيا ، من أجل محاربة الفرس ، والانتقام منهم؛ لأنهم دنسوا مقدسات اليونان .

كان من المقرر أن يبدأ فيليب حملته ضد الإمبراطورية في عام 336 ق م . إلا أن اغتياله أوقف هذا المشروع ، و ألقيت المسئولية على عاتق ابنه وخليفته على العرش الإسكندر الثالث الذي تتلمذ على أيدى الفيلسوف المعروف أر سطو ، وقد بدأ الإسكندر حملته الشرقية في عام 334 ق.م . ونزل بقواته في آسيا الصغرى . وكانت من ممتلكات الإمبراطورية الفارسية ، ولم يلبث أن التقى بالجيش الفارسي ، الذي كان تحت قيادة الملك دارا الثالث في أسوس Issos (طر سوس الحالية) ، وألحق به هزيمة ساحقة فر على إثرها دارا صوب الشرق .قرر الإسكندر ألا يلاحق دارا ، ورأى أن من الأصوب أن يستولي على ممتلكات الإمبراطورية الفارسية أولا ، وكان الفرس آنذاك يبسطون سيطرتهم على كل من سوريا ومصر إضافة إلى

بلاد الرافدين ، فاتجه إلى الجنوب وتمكن من اجتياح ساحل فينيقيا . وفي خريف عام 332 ق.م وصل إلى مدينة بيلوزيون Pelosion

(تل الفرما الحالية) بوابة مصر الشرقية ، فسارع الوالي الفارسي على مصر بالاستسلام ودخل الإسكندر مصر.

رحب المصريون بالإسكندر ترحيبًا حارًا، فقد سبقته أنباء انتصاراته ، ومن ناحية أخرى راحت دعاية الإسكندر تروج لفكرة ارتباطه بالإله المصرى آمون ، وبأنه ينحدر من صلب آخر فراعنة مصر ، وأنه جاء إلى مصر لكي يحررها من نير الفرس، وكان المصريون يتطلعون إلى الخلاص من الحكم الفارسي . بعد دخوله مصر توجه الإسكندر إلى مدينة منف مقر عبادة الإله بتاح ، وحرص على إظهار احترامه للديانة المصرية ، ومن المرجح أنه توج فرعونًا طبقا للطقوس المصرية ، ولم يلبث أن قرر القيام بزيارة معبد الإله آمون في واحة سيوة، فأبحر في الفرع الكانوبى لنهر النيل . حتى مصب هذا الفرع عند مدينة كانوب (أبو قير الحالية) ، وفي أثناء سيره بمحاذاة شاطئ البحر المتوسط ، لفت انتباهه موقع قرية صغيرة ، يسكنها الصيادون المصريون تدعى راكويتس Rhacotis ، تقع قبالتها جزيرة صغيرة تسمى فاروس Pharos ، فقرر إقامة مدينة في هذا الموقع ، رغبة منه في تخليد اسمه من خلال إقامة مدينة تحمل اسمه ، لأن المدينة الجديدة حملت أسم الإسكندرية 0 بعد أن قام الإسكندر بوضع حجر الأساس لمدينته الجديدة ، واصل سيره غربًا حتى بلغ مدينة برايتونيون Paraetonion (مرسى مطروح الحالية) ، ثم اخترق الصحراء صوب الجنوب قاصدًا معبد الإله آمون في واحة سيوه ، وهو معبد كان يتمتع بشهرة ذائعة الصيت باعتباره من أشهر معابد الوحي في العالم ، وعندما وصل الإسكندر إلى المعبد رحب به كبير الكهنة وناداه بلقب " ابن آمون " . وبعد أن فرغ الإسكندر من زيارة معبد آمون عاد إلى وادى النيل، وحرص على أن يعلن للجميع أن الحضارة الإغريقية هي توأم للحضارة المصرية ، لأنه كان يؤمن بفكرة العالمية والمساواة بين البشر .

مكث الإسكندر بعض الوقت في مصر ، ولم ينس في أثناء وجوده بها الاهتمام بما أوصاه به أستاذه أرسطو وهو العمل على كشف منابع النيل ، فأرسل بعثة لهذا الغرض. وبعد أن فرغ من تنظيم أحوال مصر غادرها في عام 331 ق.م . متجهًا إلى الشرق، والتقى مع الملك الفارسى دارا الثالث في موقعة جاوجميلا Gaugamela (بالقرب من أربيل عند الموصل الحالية) . حيث تمكن من تحقيق نصر باهر ، أعقبه فرار دارا ومقتله ، وكان ذلك إعلانًا بسقوط الإمبراطورية الفارسية غير أن الإسكندر واصل زحفه في قلب قارة آسيا حتى وصل إلى إقليم البنجاب ، وعند ذلك قرر الإذعان لرغبة جنوده والعودة إلى بابل التي قرر أن يتخذها عاصمة للإمبراطورية ، وفي بابل أصيب الإسكندر بالحمى ، وفي مساء اليوم العاشر من شهر يونيه عام 323 ق.م . أسلم الروح ، ولم يكن قد بلغ الثالثة والثلاثين من العمر .

وبوفاة الإسكندر يبدأ العالم عصرًا جديدًا، اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصر الهللينيستى Hellenistic ، وهو عصر يمتد مابين وفاة الإسكندر في عام 323 ق.م وحتى سيطرة الرومان على الشرق الأدنى في عام 30ق.م ويختلف من حيث الملامح الحضارية عن العصر الذي سبقه (الكلاسيكي) وكانت إمبراطورية الإسكندر هي البوتقة التي انصهرت فيها الحضارة الإغريقية مع الحضارات الشرقية ، وتولدت حضارة جديدة ذات شخصية مستقلة ليست شرقية أو غربية الطبع ، بل عالمية الطابع .

قيام دولة البطالمة في مصر :

كانت المشكلة التي واجهت قادة الجيش المقدوني في بابل هي شغل عرش الإمبراطورية المقدونية الذي خلا بوفاة الإسكندر؛ لأن الاسكندر لم يترك وريثا على العرش ،

وكانت زوجته الفارسية روكسانا حاملا، كما كان له أخ غير شقيق يدعى أرهيدايوس الذي كان مريضًا بالصرع ، وكادت الفتنه أن تنشب بين القادة المجتمعين في بابل ، إلى أن توصلوا إلى اتفاق يقضي بأن يرتقي أرهيدايوس العرش ، على أن يكون من حق جنين روكسانا مشاركته العرش إذا كان ذكرًا، كما تقرر تعيين أحد القادة ويدعى برديكاس Perdicas وصيًا على العرش، أما ولايات الإمبراطورية فقد تقرر تقسيمها بين كبار قادة الجيش، لكي يتولوا إداراتها باسم البيت المالك ، وكانت مصر من نصيب بطليموس بن لاجوس، وقبل أن يبارح القادة بابل وضعت روكسانا مولودها ، وكان ذكرًا حمل اسم الإسكندر الرابع ، وتقرر أن يشارك أرهيدايوس في العرش .

وصل بطليموس إلى مصر بعد وفاة الإسكندر بخمسة شهور ، فوجد أن كليومينيس Cleomenes النقراطيسي الذي كان الإسكندر قد عينه لإدارة الشئون المالية في مصر يستحوذ على السلطة؛ إلا أنه استطاع التخلص منه وانفرد بالسلطة في مصر . وراح يعمل على تدعيم مكانته ، وتمكن من وضع يده على قوريني التي تقع على حدود مصر الغربية (في ليبيا الحالية) : ومن ناحيته أخذ برديكاس الوصي على العرش، المقدوني يراقب سلوك الولاة ، بكثير من التوجس ، وعلى رأسهم بطليموس ، أما الولاة فإنهم كانوا يتشككون في نواياه ، لذلك سارعوا بعقد محالفة ضده.

أقدم بطليموس على خطوة أخرى أدت إلى زيادة الشك لدى برديكاس ، حين قام بالاستيلاء على جثمان الإسكندر الأكبر و دفنه في منف ، ثم نقله إلى الإسكندرية فيما بعد ، فخالف بذلك ما اتفق عليه القادة في مؤتمر بابل ، حين قرروا دفن الإسكندر في مسقط رأسه مقدونيا ، وكان بطليموس يهدف من وراء هذه الخطوة إلى تعزيز موقفه بين الولاة الآخرين، باعتباره واليًا على مصر التي تضم جثمان الإسكندر، مؤسس الإمبراطورية، الذي ارتفع في نظر الإغريق إلى مرتبة التقديس . لذا قرر برديكاس أن يضع حدًا لطموحات بطليموس، وفي ربيع عام 321 ق.م . سار على رأس قواته قاصدًا مصر إلا أنه فشل في عبور الفرع البلوزى لنهر النيل، وكان مكروها من جنوده ، فثاروا عليه وقتلوه ، وبعد مقتله اجتمع القادة المقدونيون، لإعادة تنظيم الإمبراطورية ، واتخذوا القرارات التي من شأنها وضع الأمور في نصابها، وكان من بين تلك القرارات الاعتراف بمكانة بطليموس في مصر وبرقة .

اعتبر بطليموس أن فشل برديكاس في غزو مصر ومقتله بعد ذلك بمثابة انتصار له ، كما جاء اعتراف القادة الآخرين بمكانته في مصر لكي يطلق لرغباته الاستقلالية العنان ، فانتهز فرصة المنازعات التي سيطرت على العالم الهللينيستى ، والتي دارت بين خلفاء الإسكندر الأكبر ، وعرفت بحروب الخلفاء Diadochoi ، وأخذ في تقوية مركزه ، وأنتهز فرصة وفاة أنتيباتروس الوصي على الإمبراطورية، والاضطرابات التي أعقبت هذه الوفاة ، وقام بالانقضاض على إقليم جوف سوريا، وهو الإقليم الذي يضم جنوب سوريا وفلسطين وساحل فينيقيا، ويمثل أهمية إستراتيجية لمصر .. إلى جانب ما يتمتع به من ثروات . ولم يلبث أن قام بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، لكي يتخذ منها قاعدة متقدمة لأسطوله، ويتمكن من خلالها من أن يؤدي دورًا مؤثرًا في منطقة بحر إيجة، التي كانت تمثل مركز الثقل الإستراتيجي في ذلك العصر .

منذ ذلك الحين لم يترك بطليموس فرصة لتدعيم مكانته في منطقة بحر إيجة والعالم الإغريقي إلا وانتهزها، وأخذ يعمل على بناء قوته البحرية ، واستولى على مناطق في آسيا الصغرى وبعض الجزر في بحر إيجة ، ولكن في عام 306 ق.م . تلقى بطليموس لطمة قاسية ، إذ تمكن أحد منافسيه وهو ديمتريوس من إلحاق الهزيمة بأسطوله ، بالقرب من قبرص ، ومما هو جدير بالذكر أن خلفاء الإسكندر بعد هذه الموقعة اتخذوا لأنفسهم ألقاب الملوك، وكان من بينهم بطليموس، مما يعنى نهاية إمبراطورية

الإسكندر وقيام العديد من الممالك على أنقاضها، لعل أهمها مملكة البطالمة في مصر، ومملكة السلوقيين في سوريا ، ومملكة مقدونيا في بلاد اليونان .

في عام 284 ق.م . توفي بطليموس الأول ، وترك لأبنه وخليفته على العرش بطليموس الثانى مملكة وطيدة الأركان ، ويعد عهد بطليموس الثاني الذي حمل لقب فيلادلفوس Philadelphos أزهى سنوات دولة البطالمة . فقد جنى ثمار ما غرسته أيدى أبيه ، وإليه تعزى غالبية النظم الإدارية والاقتصادية التي سارت عليها مصر بعد ذلك، وفي عهده بلغت الإسكندرية أوج عظمتها ، وكان فيلادلفوس محبًا للعلوم والفنون إلى أبعد حد .

وضع بطليموس الثاني نصب عينه الأهداف التي قررها بطليموس الأول للسياسة الخارجية لدولة البطالمة ، والتي تكمن في إقامة دولة قوية قاعدتها مصر ، على أن تتمكن من أن تؤدي دورًا مؤثرًا في السياسة العالمية ، وعلى وجه الخصوص في منطقة بحر إيجة ، لذلك قام بالاستيلاء على المزيد من المناطق التي تقع على السواحل الجنوبية والغربية لآسيا الصغرى ، وراح يثير القلاقل في بلاد اليونان بهدف إضعاف مملكة مقدونيا. وفي عهد فيلادلفوس وقعت حربان بين مصر وسوريا، ولكنها انتهت بعقد تحالف بين البلدين ، وتزوج الملك السلوقى أنطيوخس الثانى من الأميرة برنيكي ابنة بطليموس الثانى . ولم يقتصر اهتمام هذا الملك على الجبهة الشمالية، بل أهتم كذلك بإرسال الحملات الكشفية إلى بلاد العرب، وكان الهدف من هذه الحملات تجاريًا، كما ينسب الفضل إلى بطليموس الثاني في إقامة علاقات مع دولة ناشئة في غرب البحر المتوسط ، وهي الجمهورية الرومانية، التي أرسل إليها سفارة في عام 273 ق.م . وحينما توفي بطليموس الثاني في عام 246 ق.م ترك لابنه بطليموس الثالث دولة قوية على الصعيد الداخلي والخارجي .

اقتفى بطليموس الثالث الذي حمل لقب يورجي Euergetes (الخير) خطوات أبيه على صعيد السياسة الخارجية، ، وحظي بحب المصريين واضطر لخوض غمار حرب في سوريا وهي الحرب السورية الثالثة ، ولكن على الرغم من الصفات الحميدة التي تحلى بها هذا الملك ، فإن النقد الذي يوجه إليه، هو أنه أهمل الجيش والأسطول، وذلك في إطار ميله الواضح إلى انتهاج طريق العمل الدبلوماسي، وكان لهذه السياسة تبعات خطيرة على مكانة مصر في المرحلة التالية.

موقعة رفح وبداية تدهور دولة البطالمة :

في عام 221 ق.م . ارتقى عرش مصر بطلميوس الرابع، الذي حمل لقب فيلوباتور Philopator ، أي المحب لأبيه و أراد من خلاله التقرب إلى الشعب ، نظرًا لما كان يتمتع به بطليموس الثالث من حب ، ويعد عهد بطلميوس الرابع بداية التدهور لدولة البطالمة ، فقد وقع تحت تأثير زمرة فاسدة من رجال الحاشية ، وكان ملكًا ضعيفًا مستهترًا. وبينما كان على عرش مصر هذا الملك الضعيف ، كان على عرش سوريا ملك من أقوى ملوك الدولة السلوقيه هو انطيوخس الثالث .

وفي مملكة مقدونيا كان يجلس على العرش فيليب الخامس الذي لم يكن يقل طموحًا عن مثيله في سوريا ، وكان هذان الملكان يتطلعان إلى اقتسام ممتلكات مصر الخارجية ، وفي تلك الآونه كانت روما الدولة الناهضة في الغرب مشتبكة في حروب ضارية مع دولة قرطاجة ، تحت قيادة القائد الشهير هانيبال Hanibal ، وقد انحاز كل من الملك السلوقي والمقدوني إلى جانب هانيبال ، لخشيتهما من تزايد النفوذ الروماني في الشرق ، أما مصر فقد أصرت على أن تقف على الحياد .

كان أنطيوخس الثالث يتحرق شوقا إلى استعادة إقليم جوف سوريا من مصر ، فانتهز فرصة وفاة بطليموس الثالث في عام 221 ق.م . وحاول الانقضاض على هذا

الإقليم، غير أن محاولته باءت بالفشل، واضطر لمواجهة تمرد في ممتلكاته الشرقية، مما أعطى الفرصة لمصر للاستعداد لرده هذا الخطر، وقد أقدم سوسيبيوس Sosebios وزير بطليموس الرابع على خطوة جريئة للغاية، حين قام بتجنيد عشرين ألفا من المصريين، ومما هو جدير بالذكر أنه لم يكن مسموحًا للمصريين من قبل بالمشاركة في الجيش كجنود مقاتلين .

بعد أن فرغ انطيوخس الثالث من تسوية مشاكله، زحف بقواته في اتجاه جوف سوريا ، وعند مدينة رفح التقى بالجيش البطلمي في عام 217 ق.م . وكان يتولى قيادته الملك بطليموس الرابع ، واستطاع أنطيوخس الثالث أن يحرز الانتصار في البداية ، وأخذ الجنود الإغريق في جيش بطليموس يولون الأدبار ، ولكن فوجئ الجميع باندفاع الجنود المصريين إلى أتون المعركة ، واستطاعوا أن يحولوا الهزيمة إلى انتصار فر على أثره جنود الجيش السلوقي، مما اضطر إنطيوخس الثالث إلى طلب الصلح .

كانت موقعة رفح نقطة تحول في تاريخ مصر في عصر البطالمة ، ويميل المؤرخون إلى اعتبار عام 217 ق.م . وهو العام الذي شهد أحداث هذه الموقعة ، بداية لمرحلة جديدة جرت فيها تحولات كثيرة على الصعيدين الداخلي والخارجي فمنذ ذلك الحين تكاتفت مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية على إضعاف دولة البطالمة، فعلى الصعيد الداخلي نجد ثورات المصريين، وضعف السلطة المركزية ، والنزاع على العرش، أما على الصعيد الخارجي، فإن هناك ثلاث قوى فتية راحت تتربص بمصر، وتعمل على إضعافها ، وهي إنطيوخس الثالث ملك سوريا، وفيليب الخامس ملك مقدونيا، ودولة روما.

حينما عاد المصريون من رفح تفتحت عيونهم لأول مرة على الظلم الواقع عليهم، وقارنوا بين أحوالهم المزرية والامتيازات التي يتمتع بها الإغريق في مصر ، فانتشرت بينهم روح الكراهية للأجانب وتحولت مدينة طيبه إلى بؤرة للثورات القومية ضد حكم البطالمة. الذين بذلوا جهودًا جبارة لإخمادها، مما أدى إلى استنزاف مواردهم، وإضعاف مكانتهم على الصعيد الخارجي، ومن ناحية أخرى تولى عرش مصر في كثير من الأحيان ملوك ضعاف كان أغلبهم أطفالاً،مما أدى إلى ضعف السلطة المركزية. أما ثالثة الأثافي فتتمثل في الصراعات على العرش التي نشبت بين الإخوة في البيت البطلمي، وأدت إلى انقسام البلاد، مما فتح الباب على مصراعيه أمام التدخل الخارجي في شئون مصر الداخلية .

وفيما يتعلق بالقوى الخارجية، فإن روما التي كانت مشغولة بحروبها في شبه الجزيرة الإيطالية، لم تكن بمنأى مما يجرى في شرق البحر المتوسط وبلاد اليونان. ولكن تحالف فيليب الخامس ملك مقدونيا مع هانيبال عدوها اللدود جعلها تبدي اهتمامًا ببلاد اليونان، وخاضت حربًا عرفت باسم الحرب المقدونية الأولى (212 – 206 ق.م) خرج منها فيليب وهو يشعر أنه أكثر قوة . وأكثر رغبة في تحقيق طموحاته . أما ثالث القوى الخارجية التي أثرت على دولة البطالمة بعد عام 217 ق.م، فهي قوة انطيوخس الثالث ملك سوريا، الذي أخذ يشحذ أسلحته للثأر من هزيمته في رفح .

يمكننا أن نلاحظ مدى تجسد العوامل السالفة الذكر في الفترة الباقية من عصر البطالمة، فبعد وفاة بطليموس الرابع تولى العرش ابنه بطليموس الخامس، ولم يكن عمره يتجاوز السابعة وقد انتهز كل من إنطيوخس الثالث وفيليب الخامس هذه الفرصة ، وقاما بتوقيع معاهدة لاقتسام ممتلكات مصر الخارجية، ويمكن القول بأن مصر في عهد بطليموس الخامس فقد فقدت غالبية ممتلكاتها الخارجية وعلى رأسها إقليم جوف سوريا، الذي استولى عليه إنطيوخس الثالث في عام 200 ق.م.

خرجت روما منتصرة من الحرب البونية الثانية، وراحت تتطلع إلى ما يحدث في شرق البحر المتوسط، وأخذت تتحرش بفيليب الخامس، إلى أن تمكنت من استدراجه إلى الدخول في مواجهة عسكرية، وتمكنت من إنزال هزيمة ساحقة به في موقعة كينوس كيفالأي Kynoskephalae في عام 197 ق.م . مما جعلها تحتل مكانة سامية في السياسة الدولية، وجعل إنطيوخس الثالث يشعر بالخوف، ولم تلبث أن تحققت مخاوفه، حينما بدأ الرومان في استثارته، إلى أن أرغموه على الدخول في حرب معهم، وهزموه هزيمة منكرة في موقعة مجنيسيا Magnesia في عام 189 ق.م وفرضوا عليه شروط صلح مهين .

كانت مصر في تلك الآونة دولة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، تئن من الضغوط الخارجية ، والثورات الداخلية وشهدت الفترة التي أعقبت وفاة بطليموس الخامس صراعًا بين أبنائه ، وكانت أخطر نتائج هذا الصراع قيام الملك السلوقي إنطيوخس الرابع بغزو مصر في عامي 170 ق.م، 168 ق.م . بحجة حل الصراع بين الإخوة المتنافسين، ووصل به الأمر إلى محاصرة الإسكندرية عاصمة البلاد، ولم يتركها إلا بعد أن أرسل له الرومان بعثة أرغمته على الخروج من مصر بشكل مذل .

لعل المعلم البارز في تاريخ دولة البطالمة في الفترة التالية، هو التدخل الروماني السافر في شئون مصر الداخلية، فقد فرض الرومان أنفسهم حماة على مصر، وكان تدخلهم الدائم الهدف منه الإبقاء على مصر في صورة ضعيفة مفككة . تمهيدًا للانقضاض عليها.

عهد الملكة كيلوباترة السابعة ونهاية دولة البطالمة :

توفي بطليموس الحادى عشر في عام 80 ق.م . دون وريث، فسارع رجال البلاط في الإسكندرية إلى البحث عن شخص من سلالة البطالمة لكى يتولى العرش، حتى يفوتوا الفرصة على الرومان في وضع أحد صنائعهم على عرش الإسكندرية، وقد عثروا على ضالتهم في ولدين من نسل البطالمة، كانا يعيشان خارج مصر، وتم استدعاؤهما على الفور ، وعين أكبرهما ملكًا على مصر، بينما عين شقيقه الأصغر ملكًا على قبرص .

تولى بطليموس الثاني عشر عرش البطالمة في عام 80 ق.م. وحمل لقب ديونيسوس الجديد Neos Dionysos ، ولكن أهل الإسكندرية أطلقوا عليه لقب الزمار Auletes ، لأنه كان يهوى العزف على المزمار ، إلا أن الرومان رفضوا الاعتراف به، وأشاعوا بأن بطليموس الحادى عشر أوصى بأن تؤول مصر إلى الشعب الرومانى بعد وفاته، ولما كان بطليموس الزمار ملكًا ضعيفًا فقد سعى إلى الحصول على اعتراف الرومان به بأي ثمن .

وفي روما كان الصراع الحزبى على أشده، وانقسمت الساحة السياسية بين حزبين كبيرين، هما الحزب الجمهوري، والحزب الديمقراطي، وفي عام 67 ق.م . تقرر منح بومبى زعيم الحزب الجمهوري صلاحيات واسعة للقيام ببعض التسويات في الشرق ، وكانت الدولة السلوقية قد سقطت في بؤرة الصراعات على العرش ، وتردت إلى حالة من الفوضى حتى تمكن بومبى من إعلان سقوط الدولة السلوقية ، وتحويل سوريا إلى ولاية رومانية في عام 64 ق.م . وفي روما تقدم أحد زعماء الحزب الديمقراطي بمشروع لضم مصر ، إلا أن هذا المشروع لم يلق قبولاً بسبب معارضة الحزب الجمهوري .

وعلى الرغم من نجاح بطليموس الزمار في الحصول على اعتراف الرومان ، بعد أن قام بدفع رشوة إلى قنصل ذلك العام (59 ق.م) وهو يوليوس قيصر، إلا أن قيام الرومان بالاستيلاء على جزيرة قبرص، أدى إلى هياج شعب الإسكندرية وقيامهم بطرد بطلميوس الزمار من المدينة، الذي اتجه إلى روما مطالبا الرومان بإعادته إلى العرش، وفي عام 55 ق.م تمكن بطليموس الزمار من

العودة إلى عرشه على أسنة الرماح الرومانية، وكان ذلك بمساعدة جابينيوس Gabinius والي سوريا الروماني، وفي عام 51 ق.م توفي هذا الملك تاركًا ولدين وابنتين .

أوصى بطليموس الزمار أن تخلفه على العرش كبرى بناته وهي كليوباترا السابعة، التي كانت تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، على أن تتزوج من شقيقها بطليموس الثالث عشر الذي كان عمره عشر سنوات فقط، وأن يحكما سويًا، وعهد إلى الرومان بتنفيذ هذه الوصية، ولم يلبث الخلاف أن دب بين كليوباترا وشقيقها، مما اضطرها إلى الفرار من الإسكندرية .

ولما كان مصير دولة البطالمة قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بما يجري في روما ، فقد أصبحت مصر ساحة للنزاع بين الأطراف المتناحرة في روما ، وتمكن يوليوس قيصر من إيقاع الهزيمة بغريمه بومبي في موقعة فارسالوس Pharsalos في عام 48 ق.م ببلاد اليونان . وقد فر بومبي على إثر الهزيمة إلى مصر، غير أن الأوصياء على الملك بطليموس الثالث عشر دبروا اغتياله فور أن وطأت أقدامه أرض مصر، وجاء يوليوس قيصر في أثره، فوصل إلى الإسكندرية في شهر أكتوبر ق.م. وأرسل في استدعاء كليوباترا وشقيقها لحل الخلاف الذي نشب بينهما .

حضرت كليوباترا امتثالا لدعوة قيصر واستطاعت أن تستميل هذا القائد إلى جانبها ، وقد رأى سكان الإسكندرية في مسلك قيصر تدخلاً سافرًا في شئون بلادهم . مما أدى إلى ثورتهم، وحصارهم لقيصر في منطقة القصر الملكي، وهكذا بدأت تلك الحرب التي عرفت بحرب الإسكندرية والتي انتهت بانتصار قيصر وحليفته كليوباترا السابعة، وكان من ضحاياها مكتبة الإسكندرية التي احترقت خلال أحداث الحرب، وبعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها، عاد قيصر إلى روما، ولحقت به كليوباترا، التي كانت تعلق آمالا عراضًا على علاقتها بقيصر إلا أن خصومه في روما أطاحوا بهذه الآمال، عندما اغتالوه .عادت كليوباترا إلى مصر بخفي حنين، وتجدد الصراع في روما بين قتلة قيصر وأنصاره، ونجح رجال قيصر في القصاص لقتل قائدهم واتفق كل من أنطونيوس واوكتافيانيوس على اقتسام الحكم في العالم الروماني، وتمكنت كليوباترا من نصب شباكها حول أنطونيوس ، وكانت تأمل في أن تحقق من خلاله ما عجزت عن تحقيقه من خلال يوليوس قيصر، ولم تلبث العلاقة بين أنطونيوس واكتافيانوس أن أخذت في التدهور، وراحت كليوباترا تشجع أنطونيوس على تحدى اوكتافيانيوس، مما أدى إلى وقوع معركة أكتيوم البحرية في بلاد اليونان في عام 31 ق.م، التي أحرز فيها أوكتافيانيوس نصرًا باهرًا على أنطونيوس وحليفته كليوباترا اللذين فرا إلى مصر، ثم لحق بهما أوكتافيانيوس، مما أدى إلى انتحار أنطونيوس ولحقت به كليوباترا بعد أن فشلت في التفاوض مع أوكتافيانيوس، وبانتحار كليوباترا ودخول أوكتافيانيوس إلى الإسكندرية في عام 30 ق.م . سقطت دولة البطالمة.

السياسة الدينية للبطالمة :

عرف المصريون منذ القدم بتمسكهم بعقائدهم، وقد أدرك البطالمة هذه الحقيقة ، وعلى الرغم من أصلهم الإغريقي ، وتحمسهم للحضارة الإغريقية، فإن سياستهم الدينية اتسمت بروح التسامح ، فساروا على نهج الإسكندر ، الذي كان حريصًا على تأكيد انتسابه للإله آمون ، وحرص فور دخوله مصر على أن يتوج في منف على نهج الفراعنة ، وحمل ثلاثة من ألقاب الفراعنة ، ويمكننا أن نلاحظ أن بطليموس الثاني ذهب إلى مدى أبعد في التشبه بالفراعنة، فحمل الألقاب الفرعونية الخمسة كاملة ، وتزوج من شقيقته جريا على سنة الفراعنة ، وكانت الملكة كليوباترا السابعة حريصة على التشبه بالربة إيزيس .

كما أولى البطالمة الديانة المصرية اهتمامًا كبيرًا، وحرصوا على تقديم القرابين للآلهة المصرية ، وإقامة المعابد ، التي لا يزال بعضها شامخًا حتى الآن مثل معبد الإله حورس في إدفو ، ومعبد كوم أمبو ، ومنذ الوهلة

الأولى ، أظهروا تقديرهم للكهنة المصريين ، ولكنهم حرصوا على أن يقتصر دورهم على الجانب الدينى فقط ، ومن ناحيتهم حرص الكنهة على إظهار ولائهم للملوك ، وقد شهد الشطر الثانى من عصر البطالمة ، أي بعد موقعة رفح تعاظم دور الكهنة ، بسبب ضعف السلطة المركزية .

كذلك اتسم موقف البطالمة بالتسامح تجاه الإغريق ، الذين توافدوا إلى مصر ، فسمحوا لهم بحرية العبادة، وحرصوا على إقامة علاقات مع مراكز العبادة في بلاد اليونان، واستغلوا معتقدات الإغريق لتبرير سلطتهم المطلقة، وكانت بعض هذه المعتقدات ترى إمكانية رفع بعض الأشخاص إلى مصاف الآلهة، إذا ما قاموا بأعمال جليلة ، وفي هذا الإطار تم تأليه ملوك البطالمة، ولم تقتصر روح التسامح التي أبداها البطالمة على العنصرين الرئيسين في البلاد، أي المصريين و الإغريق ، بل شملت العناصر الأخرى مثل اليهود .

أدرك بطليموس الأول منذ البداية أهمية تحقيق الوئام بين الإغريق والمصريين ، وذلك من خلال إيجاد ديانة مشتركة يتعبد لها الطرفان ، فتم إدخال عبادة جديدة محورها ثالوث يتألف من سيرابيس Sarapis وإيزيس وحربو كراتيس Harpocratis . ولكن هذه العبادة فشلت في تحقيق الهدف المنشود وهو التقريب بين المصريين والإغريق . فقد ظل كل طرف ينظر إليها باعتبارها امتدادًا لمعتقداته القديمة.

النظم الاقتصادية :

قامت النظم الاقتصادية في مصر على أسس شرقية ، مع إضفاء مسحة إغريقية تلائم الأهداف التي يرمي إليها حكام البلاد ، وكان الأساس الذي استندت إليه هذه النظم هو اعتبار مصر ضيعة Oikos خاصة للملك ، وقد انطلق هذا المفهوم من اعتبار البطالمة أنفسهم فراعنة ، ومن ناحية أخرى فهم خلفاء الإسكندر الذي استولى على مصر بحد السيف ، وطبقا لهذا المفهوم؛ فإن الملك هو الذي يملك أرض مصر وما عليها ، ومن حقه أن يسخر جهود البشر فيما يراه صالحًا للبلاد .

أولى البطالمة الزراعة أهمية قصوى باعتبارها عماد الاقتصاد المصرى ، وشهد إقليم الفيوم على وجه الخصوص نشاطًا ملحوظًا في تحسين شبكة الري والصرف ، واستصلاح الأراضي ، وفيما يتعلق باستغلال الأرض الزراعية ، فإن تلك الأرض كانت تنقسم إلى قسمين رئيسين أولهما: يطلق عليه الأرض الملكية Basilike وهي الأرض التي كان الملك يقوم باستثمارها بشكل مباشر عن طريق عرضها في مزاد علني في كل عام ، ومن يرسو عليه المزاد يقوم بزراعتها وفق شروط محددة تحت إشراف موظفي الملك .

أما القسم الثانى من الأرض الزراعية فهو: القسم الذي يسمح الملك لآخرين بالقيام بزراعته نظير شروط محددة ، وينقسم إلى خمسة أنواع:

1- أرض المعابد.
2- أرض الاقطاعات العسكرية (التي كانت تعطى للجنود).
3- أرض الهبات (التي كانت تعطى لكبار الموظفين).
4- أرض المدن (التي كانت تعطى لمواطني المدن الإغريقية في مصر .
5- أرض الامتلاك الخاص .

وفي مجال الصناعة أيضا اعتبر الملك البطلمى نفسه هو الصانع الأول ، وانطلاقا من هذه الفكرة مارست الدولة سياسة الاحتكار الكلي لبعض الصناعات ، بينما اكتفت بالتدخل المباشر في صناعات أخرى ، فقد احتكرت الدولة بشكل كامل صناعة الزيوت ، وفي مجال صناعة المنسوجات فقد مارست احتكارًا كليًا في نسيج الكتان، أما المنسوجات الصوفية، فلم تحتكرها احتكارًا كاملاً، بل سمحت للأفراد بإنتاج المنسوجات الصوفية، في نظير التزامات يؤدونها للدولة، وإلى جانب هاتين الصناعتين

ازدهرت في مصر العديد من الصناعات، مثل صناعة أوراق البردى وصناعة الفخار والزجاج والخمور والجعة والعطور والحلي والأحجار الكريمة .

وفي مجال التجارة طبق البطالمة ذات النظم التي تقوم على أحكام رقابة الدولة على كافة أوجه النشاط الاقتصادي، فقامت الدولة بالإشراف على الأسواق وتحديد أسعار السلع . كما انتعشت تجارة مصر الخارجية، و أصبحت الإسكندرية من أهم المراكز التجارية في العالم ، وقامت مصر بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب.

الأوضاع الاجتماعية:

كان الهدف الذي يسعى إليه بطليموس الأول ، هو إقامة دولة تستند إلى أسس شرقية ، مع إضفاء الصبغة الإغريقية عليها ، وإذا كان البطالمة قد حرصوا على الظهور أمام رعاياهم من المصريين في مظهر الحكام الوطنيين ، فإنهم في الوقت نفسه كانوا يعتزون بأصلهم الإغريقي وحرصوا على الاحتفاظ بعلاقات طيبه مع بلاد اليونان؛ لأنهم كانوا بحاجة إلى الإغريق للإستعانه بهم في إقامة دولتهم .

فتح البطالمة أبواب البلاد على مصراعيها أمام الأجانب وعلى وجه الخصوص الإغريق وشجعوهم على الاستقرار في مصر واختصوهم بالوظائف العليا، و أغدقوا عليهم الهبات السخية ، وحرصوا على تهيئة المناخ الملائم لهم في مصر ، فأقاموا المدن على النمط الإغريقي ولم يقتصر وجود الإغريق على المدن، بل انطلقوا في كافة أرجاء مصر : فسكنوا جنبًا إلى جنب مع المصريين. وحرصوا على التمسك بمظاهر الحياة الإغريقية مثل إقامة معاهد الجمنازيوم Gymnasion ، وهي معاهد ذات وظيفة ثقافية وتربوية ورياضية ، بالإضافة إلى الدور الاجتماعى الذي اضطلعت به .

وعلى الرغم من توافد أعداد كبيرة من الإغريق للإقامة في مصر في عصر البطالمة ، فإن المصريين ظلوا يشكلون الغالبية ، باعتبارهم سكان البلاد الأصليين ، وفي بداية الفتح المقدوني كانت توجد أرستقراطية مصرية بشقيها الديني والمدني، وقد تمكنت الدولة من إنهاء المكانة التي كانت تتمتع بها الأرستقراطية المدنية ، وذلك بسبب النظم الاقتصادية والإدارية التي اتبعتها، أما الأرستقراطية الدينية، فقد احتفظت بمكانتها وتمثلت في الكهنة، وقد ازداد نفوذ الكهنة في الشطر الثاني من عصر البطالمة بسبب رغبة البطالمة الأواخر في كسب ودهم .

أما طبقة المحاربين المصريين ، فقد فقدت مكانتها في عصر البطالمة الأوائل بسبب اعتمادهم على الجنود المرتزقة ، ولكن المقاتلين المصريين استطاعوا الحصول على بعض الامتيازات ، وتحسنت أحوالهم بعد النصر الذي أحرزوه في موقعة رفح في عام 217 ق.م ، ثم تأتي طبقة الموظفين المصريين، الذين كانوا يشغلون الوظائف الدنيا في الجهاز الإداري مثل وظائف الكتبة .

ويقبع في قاعدة الهرم الاجتماعى ملايين المصريين ، وكان غالبيتهم يعملون في مجال الزراعة ، بينما عمل بعضهم في مجال الصناعة والتجارة ، وكان أفراد هذه الطبقة يعيشون في فقر مدقع ، فقد وقعت على رؤسهم أعباء النظم الاقتصادية الجائرة ، التي طبقها البطالمة ، والتي كان هدفها الأول توفير أكبر قدر من الدخل للملك ، حتى يتمتع هو ورجال الحاشية بأكبر قدر من الرفاهية ، على حساب الغالبية المحرومة من الشعب .

وعلى الرغم من هذه الظروف القاهرة ، فقد حافظ المصريون على حضارتهم وظلت المعابد المصرية بمثابة خط الدفاع الأول عن هذه الحضارة، فكان يتم تعليم اللغة المصرية في هذه المعابد .. وإذا كان المصريون قد أقبلوا على تعلم اللغة الإغريقية، فإن الثقافة الإغريقية ظلت مجرد قشرة خارجية، وطريقًا للحصول على الوظائف في الإدارة البطلمية. وأقبل الإغريق من جانبهم على بعض مظاهر الحضارة المصرية وخاصة في مجال الديانة، ولكن ظل

النفور كامنًا في نفوس المصريين تجاه الإغريق ، ونظروا إليهم نظرتهم إلى غرباء اغتصبوا بلادهم وقام المصريون بثورات عنيفة ضد حكم البطالمة وخاصة بعد أن أثبتوا جدارتهم عقب النصر الذي أحرزوه في رفح .

مدينة الإسكندرية والحياة الثقافية في عصر البطالمة :

اهتم البطالمة بتوفير المناخ الملائم للإغريق في مصر، ومما يعرف عن الإغريق رغبتهم في العيش في ظل نظام دولة المدينة، وحينما وفد الإسكندر إلى مصر كانت توجد مدينة إغريقية ، وهي مدينة نقراطيس ، التي أقامها التجار الإغريق في مصر بتشجيع من فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، وقام الإسكندر بوضع حجر الأساس لمدينة الإسكندرية، بعد دخوله مصر، وقد حرص بطليموس الأول بدوره على إنشاء مدينة تحمل اسمه، فأنشأ مدينة بطليمة في صعيد مصر .

تعد مدينة الإسكندرية أعظم منجزات الإغريق في مصر، وكما سلف القول ، فإن الإسكندر وهو في طريقه إلى برايتونيون أثار إعجابَه موقعُ قرية راكوتيس وجزيرة فاروس، التي تقع قبالتها، فقرر إنشاء مدينة تكون قادرة على أن تنافس مدينة صور الفينيقية ، التي تحتل المكانة الأولى في تجارة شرق البحر المتوسط ، وعهد إلى مهندس يدعى دينوكراتيس Dinocratis بتخطيط المدينة، فاختار الشريط الرملي الذي ينحصر ما بين بحيرة مريوط والبحر. والحقيقة أنه لم يدر بخلد الإسكندر عندما وضع حجر الأساس للمدينة أن يجعلها عاصمة لمصر، وكانت منف في البداية هي العاصمة، وظلت كذلك في الأيام الأولى لحكم بطليموس بن لاجوس، إلى أن قام بنقل العاصمة إلى الإسكندرية في عام 320 ق.م وكان هذا النقل يعكس التحول الذي طرأ على فكر بطليموس الذي أراد أن تكون عاصمة البلاد مدينة إغريقية النشأة، بدلاً من مدينة منف ذات الجذور المصرية العريقة .

بعد نقل العاصمة إلى الإسكندرية أخذت المدينة تزدهر بشكل مطرد. ففي جزيرة فاروس وقف شامخًا فنار الإسكندرية الشهير ، الذي كان يعد من عجائب الدنيا السبع ، وقد اكتمل بناؤه في عهد بطليموس الثاني وتم تكريسه لبطليموس الأول وزوجته الإلهين المنقذين. وجرى تقسيم المدينة إلى خمسة أحياء، حمل كل منها أسماء الحروف الأولى في الأبجدية اليونانية، وأولها هو الحى الملكى الذي توجد به قصور البطالمة، ومقابرهم كما يحتوى على دار العلم Mousion التي كانت في الأصل معبدًا لربات الفن اللائى أطلق عليهن الإغريق اسم Musae .

وقد سكن الإغريق الحيين الثاني والثالث. أما اليهود فقد أقاموا في الحي الرابع ، بينما ظل المصريون في الحي الخامس وهو مكان قرية راكوتيس القديمة، ومن المنشآت العامة في الإسكندرية معبد السيرابيوم Serapeum ، الذي خصص من أجل العبادة التي أدخلهابطليموس الأول وهي عبادة سيرابيس . واتخذت الإسكندرية سمات المدينة الإغريقية، من حيث وجود المؤسسات الإغريقية، مثل معهد الجمنازيوم Gymuasium وساحة الألعاب الرياضية Stadium، وحلبة سباق الخيل Hippodromos، والمسرح، وخارج أسوار المدينة كانت توجد المدافن Nicropolis ، وانتشرت في أرجاء المدينة الحدائق والمتنزهات العامة.

ولعل أهم المؤسسات التي عرفتها مدينة الإسكندرية هي دار العلم والمكتبة، واللتان كان لهما أبعد الأثر في اجتذاب العلماء والدارسين من شتى أرجاء العالم. وبلغت مدرسة الإسكندرية شأوًا كبيرًا، وبرز الكثيرون من علمائها في شتى المجالات، وشهد الأدب ازدهارًا كبيرًا، حتى أن الأدب اليوناني برمته في هذا العصر يطلق عليه اسم الأدب السكندري .

وترتبط بدار العلم مكتبة الإسكندرية الكبرى، التي يرجع تاريخ إنشائها إلى عهد بطليموس الأول ، وكان أول من ترأس المكتبة ودار العلم ديمتريوس الفاليرى ، وهو أحد تلاميذ أرسطو، وبفضل الرعاية المستمرة للبطالمة أصبحت مكتبة الإسكندرية أعظم مكتبات العالم القديم وقد ألحقت بالمكتبة الكبرى مكتبة أصغر أقيمت بمعبد السيرابيوم .

لم تقتصر محتويات مكتبة الإسكندرية على الكتب اليونانية فقط ، بل تضمنت كتبًا بلغات أخرى مثل الفينيقية ، وربما أيضا كتبًا باللغة الهندية، بعد أن أرسل أسوكا Asoka حاكم الهند رسالة إلى بطليموس الثاني يدعوه إلى اعتناق الديانة البوذية .

وقد ظلت مكتبة الإسكندرية تقوم بدورها على الوجه الأكمل، إلى أن تعرضت للتدمير في عام 48 ق.م. أثناء حرب الإسكندرية التي خاضها قيصر ضد قوات بطليموس الثالث عشر، وبعد حريق المكتبة الكبرى أنتقل النشاط العلمي إلى المكتبة الصغرى في معبد السيرابيوم التي ظلت مركزًا للنشاط العلمي، حتى عام 391م حين أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس قرارًا بتدمير المعابد الوثنية ، ولا صحة للرواية التي تنسب إلى العرب والمسلمين إحراق مكتبة الإسكندرية .

مصر ولاية رومانية :

في اليوم الأول من شهر أغسطس من عام 30 ق.م، دخل أوكتافيانوس مدينة الإسكندرية، وأصدر مجلس السناتو الروماني قرارًا باعتبار هذا اليوم عيدًا وطنيًا، وتم سك عملة بهذه المناسبة عليها عبارة " فتح مصر " Aegypto Capta ، وعلى خلاف ما كان سائدًا في العالم القديم، فإن أوكتافيانوس منع جنوده من نهب المدينة، احترامًا لذكرى مؤسسها الإسكندر الأكبر، و ألقى على السكندريين خطابًا باللغة اليونانية إعلانًا عن تقديره للحضارة الإغريقية، وأعلن في خطابه العفو عن السكندريين، وطلب أن يرى جثمان الإسكندر الأكبر، وعندما أحضروا له الجثمان أغدق عليه مظاهر التكريم . ووضع على رأسه تاجًا من الذهب، وعندما سألوه إن كان يرغب في رؤية ضريح البطالمة، أجاب بأنه يحب أن يرى ملوكًا حقيقيين، لا مجرد أموات، وهو رد يعكس مقته الشديد للبيت البطلمي، بسبب الكراهية التي كان يكنها لآخر حكام هذا البيت، أي كليوباترة السابعة، وقد سئل أيضًا إن كان يرغب في رؤية المعبود المصري، العجل أبيس، فرد قائلاً إنه اعتاد أن يعبدَ آلهة حقيقيين، لا مجرد حيوانات .

أراد أوكتافيانوس من خلال تلك العبارات التي ذكرها ، أن يُفْهِمَ السكندريين بأن ملكهم قد زال، وأنهم لم يعودوا مواطنين في عاصمة دولة مستقلة، بل مجرد سكان في إحدى مدن ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وذلك لعلمه بأن السكندريين شعب ميال للشغب ، وبأنهم اعتادوا التدخل في شئون الحكم ، وكثيرًا ما قاموا بطرد ملوكهم من قبل ، وأراد أوكتافيانوس أن يرهبهم، فوضع فرقة رومانية كاملة Legio في ضاحية النصر Nicopolis، بالقرب من الإسكندرية .

ومن ناحية أخرى أراد أو كتافيانوس أن يحرم السكندريين من ممارسة أي نشاط سياسي. فعندما التمسوا منه أن يكون لمدينتهم مجلسا للشورى Boule ، رفض الاستجابة إلى طلبهم، وقال لهم إنه: لم يكن لكم مثل هذا المجلس على عهد ملوككم السابقين، ولابد أنه كان يقصد الملوك الأواخر، فمن المعروف أن الإسكندرية قد أقيمت في البداية كمدينة إغريقية تتمتع بكافة المؤسسات التي تميز المدينة الإغريقية، وعلى رأسها مجلس الشورى، ومن المرجح أن هذا المجلس قد ألغي في فترة غير معروفة، ولكن أوكتافيانوس لم يشأ أن يجرد السكندريين من كافة الامتيازات، فأصدر قرارا بإعفائهم من دفع ضريبة الرأس، التي فرضت على كافة الفئات الأخرى في مصر .

وفي إطار سياسة فرق تسد التي اتبعها الرومان ، فإن أوكتافيانوس أقر لليهود الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها

فسمح لهم بتطبيق قوانينهم الخاصة ، وبتشكيل مجلس للشيوخ Gerousia. ولكنه في إطار رغبته في إيجاد نوع من التوازن بين اليهود والسكندريين قرر أن يفرض على اليهود دفع ضريبة الرأس ، التي أعفى منها السكندريين، وحرص أوكتافيانوس على تأمين مصر ، فبالإضافة إلى الفرقة التي سبق ذكرها ، فإنه وضع فرقة ثانية في موقع متوسط من البلاد بالقرب من مدينة منف، في الموقع الذي أقيم عليه حصن بابليون فيما بعد، كما أنه لم ينس أن مدينة طيبة في جنوب مصر كانت مركزًا لثورات المصريين ضد البطالمة، لذا بادر بوضع فرقة ثالثة بالقرب منها. إضافة إلى كتائب في الأماكن المهمة من مصر .

لم تكن مهمة تأمين مصر هي المهمة الوحيدة التي واجهت أوكتافانيوس، ولكن المهمة الأصعب كانت إصلاح مرافق مصر، التي لحقها الدمار في ظل حالة الفوضى التي شهدتها مصر في أواخر عصر البطالمة. وبعد أن فرغ من تنظيم أحوال مصر قفل عائدًا إلى روما، حيث أدخل تغيرات جوهرية على نظام الحكم فيها، فقد رأى بثاقب بصره أن النظام الجمهوري قد أثبت فشله، وإنه قد آن الأوان لوضع نظام جديد، ولما كان أوكتافيانوس على يقين من أن الرومان كانوا لايزالون يتمسكون بالنظام الجمهوري، فإنه آثر الإبقاء على هذا النظام من حيث الشكل، ولكنه أقام نظامًا ملكيًا في جوهره. وهو النظام الإمبراطوري وحمل أوكتافيانوس لقب إمبراطور كما أغدق عليه السناتو لقب أغسطس Augustus أي الجليل .

في عام 27 ق.م تم الاتفاق بين الإمبراطور أغسطس ومجلس السيناتو على تقسيم ولايات الإمبراطورية بينهم ، فأصبحت هناك ولايات سيناتوريه تخضع لإدارة السيناتو، أما الولايات التي كانت إدارتها تتطلب عناية من نوع خاص فقد عهد بها إلى الإمبراطور، وقد أطلق عليها اسم ولايات إمبراطورية . وقد اختص الإمبراطور أغسطس مصر باهتمامه الخاص . فقد عين عليها واليًا من طبقة الفرسان ولم يختاره من طبقة السناتو كما جرى الحال في الولايات الأخرى وقرر أغسطس القيام بإجراء استثنائي وهو منح سلطة الإمبريوم لوالي مصر، ومن المعروف أن هذه السلطة لم تكن تمنح إلا لرجال من طبقة السيناتو .

وإمعانًا في الحرص على مصر أصدر أغسطس قرارًا يحرم بمقتضاه على أعضاء السيناتو والبارزين من الرومان دخول مصر إلا بأمر من الإمبراطور ، وذلك بسبب خوفه من أن يفكر أحدهم في الاستقلال بهذه الولاية ، وهي بلد يسهل الدفاع عنه ، مما أثار جدلاً بين الباحثين حول وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية ، ودفع بعضهم إلى القول بأن مصر لم تكن ولاية عادية بل إنها كانت من الأملاك الخاصة للإمبراطور ولكن حسما لهذا الجدل، فقد اتفق الكثيرون من المؤرخين، على أن مصر كانت ولاية شأنها شأن سائر ولايات الإمبراطورية، و لكن نظرًا لأهميتها، لأنها كانت تمد روما بثلث احتياجاتها السنوية من الغلال، فقد عهد الشعب الروماني و السناتو إلى الإمبراطور بإدارتها.

وتعد أهم الأحداث التي شهدتها مصر في عصر أغسطس، هي قيام ثورة في مدينة طيبة، بسبب النظم المالية الجديدة التي طبقها الرومان في مصر، مما اضطر أول الولاة الرومان إلى التوجه إلى الجنوب وإخماد هذه الثورة، أما ثاني الولاة الرومان في عصر أغسطس فقد قام بحملة على بلاد العرب من أجل السيطرة على طرق التجارة الشرقية، وعلى الرغم من أنه تمكن من الوصول إلى مدينة مأرب عاصمة دولة سبأ . إلا أن الحملة فشلت وعادت أدراجها ، ويبدو أن غياب القوات الرومانية عن مصر قد أغرى الأثيوبيين (سكان جنوب أسوان) فأغاروا على جنوب مصر ، مما اضطر ثالث الولاة الرومان على مصر إلى محاربتهم ، وإرغامهم على توقيع اتفاقية سلام .

تاريخ مصر تحت الحكم الروماني :

جرى العرف بين المؤرخين على اعتبار الفترة التي تمتد ما بين الفتح الرومانى لمصر في عام 30 ق.م0وحتى عام 284 ميلادية فترة قائمة بذاتها. ففي عام 284 ميلادية تولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس، الذي أدخل تغييرات جذرية على النظام الإداري للإمبراطورية ، وجرى تقسيمها إلى قسم غربي و آخر شرقي، لذا فإننا نحاول أولاً أن نلقي نظرة على تاريخ مصر تحت حكم الرومان، في الفترة ما بعد وفاة أغسطس و حتى عام 284 ميلادية .

ينبغي أن نضع نصب أعيننا أن مصر بعد الاحتلال الروماني قد فقدت استقلالها ، و فقدت معه دورها السياسي، فلم يعد لها تاريخ مستقل عن تاريخ الإمبراطورية الرومانية، و لكنها على أية حال لم تفقد أهميتها، وكانت في كثير من الأحيان تؤدي دورًا مؤثرًا في أحداث شديدة الأهمية في الإمبراطورية الرومانية .. و نحاول أن نقدم إطلاله على أهم الأحداث التي شهدتها مصر تحت الحكم الروماني.

بعد وفاة الإمبراطور أغسطس في عام 14 ميلادية ، تولى العرش تيبيريوس ابنه بالتبني، و كان قد تمرس في الأعمال الإدارية قبل توليه العرش، وقد عرف بالشدة و الحزم .. و تذكر المصادر أنة وقف موقفًا حازمًا من واليه في مصر ، و كان هذا الوالي قد ظن أنه من الممكن أن يحصل على رضا الإمبراطور إذا ما أرسل إلى روما مقدارًا اكبر من الجزية التي كانت مقررة على مصر ، و لكن هذا التصرف أثار غضب الإمبراطور ، فعنفه بشدة قائلا له :

" إنني أرسلتك لكي تجز غنمى، لا لكى تسلخها"، و قد شهدت مصر في عهد الإمبراطور تيبيريوس حالة من الرخاء و الاستقرار، مثل سائر ولايات الإمبراطورية الرومانية، التي نعمت بالسلام الأوغسطي Pax Augusta ؛ لذلك تقرر سحب واحدة من الفرق الرومانية المرابطة في مصر، وظهرت بشائر الرخاء الاقتصادي، متمثلة في إصدار عملة جديدة في مصر .

ولعل أهم الأحداث التي شهدتها مصر في عهد الإمبراطور تيبيريوس، هي زيارة الأمير جرمانيكوس Germanicus للإسكندرية ، و هو ابن شقيق الإمبراطور تيبيريوس، و كان الإمبراطور قد تبناه بعد وفاة والده، وكان ينظر إليه على أنه ولي العهد، وقد حظي بحب الرومان بسبب كفاءته العسكرية، وأسند إليه الإمبراطور مهمة تنظيم شئون بعض الولايات الشرقية، ومر في طريقه ببلاد اليونان، فاستقبل بحفاوة بالغة، و أقيمت له التماثيل، و لاشك أن ذلك أثار غيرة الإمبراطور .

بعد أن أنجز جرمانيكوس مهمته، قرر أن يزور مصر لمشاهدة معالمها، فوصل إليها في عام 19 ميلادية. وبرر هذه الزيارة برغبته في معالجة أزمة اقتصادية كانت تمر بها مصر، بسبب انخفاض فيضان النيل في ذلك العام، وقد زار جرمانيكوس مصر دون أن يستأذن الإمبراطور، مخالفًا بذلك القاعدة التي وضعها أغسطس، مما أثار غضب الإمبراطور الذي شكاه إلى السناتو .

وفي عهد الإمبراطور كاليجولا (37–41 م) بدأت سياسة "فرق تسد " التي اتبعها الرومان تؤتي ثمارها، فقامت فتنة بين اليهود والسكندريين في عام 38 م. وكان السكندريون يكرهون اليهود بسبب مواقفهم المؤيدة للرومان، إضافة إلى إحساسهم بأن أغسطس قد ميز اليهود، حين سمح لهم بتطبيق قوانينهم الخاصة، وبأن يكون لديهم مجلس للشيوخ، بينما حرم السكندريين من هذا الحق. ولما كان السكندريون عاجزين عن المجاهرة بكراهيتهم للرومان، فإنهم راحوا ينفسون عن هذه المشاعر ضد اليهود، باعتبارهم عملاء للرومان. وانتهز السكندريون فرصة وصول أمير يهودي يدعى أجريبا Agripa إلى الإسكندرية، وكان صديقا للإمبراطور، في طريقة إلى فلسطين فسخروا منه، بينما فرح يهود الإسكندرية بمقدمه. واشتعل الموقف بين الطرفين، وأرسل كل فريق وفدًا إلى الإمبراطور الذي

كان غاضبًا من اليهود؛ لأنهم لا يضعون تماثيله في معابدهم، ولم ينقذهم من عقابه سوى اغتياله في عام 41 م .

عندما تولى الإمبراطور كلوديوس (41-54) كانت آثار فتنة 38 م لاتزال بادية للعيان ،وكان على الإمبراطور الجديد أن يهدئ من روع اليهود بعد الخوف الذي سيطر عليهم بسبب غضب الإمبراطور السابق عليهم، ولكن يبدو أن اليهود استبد بهم الخوف ، وقاموا بتخزين الأسلحة، وجلب يهود من فلسطين ، وكانوا هم البادئين بالعدوان في عام 41 م . ولكن الوالي الروماني قضى على الفتنة في المهد. فأرسل كل فريق وفدا إلى روما لشرح الموقف، فأصدر الإمبراطور بعض القرارات التي لم يرض عنها الطرفان ، وراح السكندريون ينفسون عن مشاعر الكراهية للرومان و اليهود، من خلال نوع من الأدب الشعبي، عرف بأعمال السكندريين Acta Alexandrinorum .

خلف كلوديوس على عرش الإمبراطورية نيرون (54-68)، وعلى حين كان كلوديوس حكيمًا وحازمًا، فإن نيرون اتسم بالرعونة، وقد تولى العرش وعمره ستة عشر عامًا، وكان محبًا للفنون والشعر والموسيقى، مما جعله ينصرف عن شئون الحكم، تاركًا الأمر في أيدي مستشاريه ، وقد انعكست حالة الاضطراب التي كان يعاني منها الإمبراطور على شئون الإمبراطورية، فاندلعت حركات التمرد في الولايات، وكان أخطرها ثورة اليهود في فلسطين، التي كان لها أبعد الأثر في مصر، وفي كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية .

في عام 66م اندلعت أعمال الشغب في مدن فلسطين، ولم تلبث أن تحولت إلى ثورة عارمة، تولى قيادتها أحبار اليهود، وفي فبراير عام 66م قام الإمبراطور نيرون بإرسال حملة بقيادة فسباسيانوس Vespaniann‪s، للقضاء على الثورة. وكان لثورة اليهود في فلسطين أصداء على الأحوال في مصر، إذ تجددت الصراعات بين اليهود و السكندريين، وفي تلك الأثناء تواترت الأنباء في روما بمقتل الإمبراطور نيرون، وعلى الفور سارع السناتو بتعيين إمبراطور جديد، ولكن القوات الرومانية في أماكن مختلفة بايعت قادتها في مركز الإمبراطور، وكان من بينها القوات المرابطة في فلسطين، التي نادت بفسباسيانوس إمبراطورًا، وأعقب ذلك مبايعة الوالي الروماني في مصر، وكان هذا أمرًا حاسمًا، إذ بادر فسباسيانوس بالحضور إلى الإسكندرية، ثم نجح في ارتقاء العرش في روما، بينما تمكن ابنه تيتيوس من القضاء على ثورة اليهود.

أقام فسباسيانوس عائلة حاكمة جديدة هي العائلة الفلافية، وتبدو أهمية مصر من خلال تقدير فسباسيانوس للدور الذي أدته في وصوله إلى العرش، فقد اعتبر أن تاريخ حكمه يبدأ من اليوم الأول من شهر يوليو، وهو اليوم الذي أعلن فيه والي مصر اعترافه به إمبراطورًا. وبعد سقوط أورشليم وتدمير الهيكل في عام 70م حرص تيتيوس على زيارة الإسكندرية، وأظهر مشاعر طيبة تجاه سكان المدينة، وعلى الرغم من أن يهود الإسكندرية حرصوا على إظهار ولائهم للرومان، فإن السلطات الرومانية نظرت إليهم بتوجس، واتخذت قرارًا بإغلاق معبد أونياس Onias في ليونتوبوليس Leontopolis (تل اليهودية)، وهو المعبد الذي سمح بطليموس السادس لأحد أحبار اليهود بإقامته. وذلك خوفًا من أن يتحول إلى بديل لهيكل أورشليم. وقد شهد عصر العائلة الفلافية مزيدًا من الاهتمام الروماني بالآلهة المصرية.

وعلى الرغم من أن الأحوال ظلت هادئة في عهد نيرفا Nerva (96-98م) ، إلا أن الفتنة أطلت برأسها مرة أخرى في عهد الإمبراطور تراجان Trajanus (98-117م) . ففي عام 113م . أشتعل الموقف بين اليهود والسكندريين ، وقامت القوات الرومانية باستخدام القوة ضد اليهود ، واستطاعت أن تقهرهم، واستغل السكندريون فرصة انكسار اليهود فأخذوا في التحرش بهم ، فانتهزوا فرصة انشغال الإمبراطور تراجان في حملات شرقية، واندلعت ثورة عنيفة شملت قوريني ومصر وقبرص وبلاد

الرافدين . وزحف يهود برقة على الأراضي المصرية في عام 116م. وتمكن الرومان من إخماد هذه الثورة في عام 117م .

وبعد وفاة تراجان اعتلى العرش هادريان، الذي حرص على القيام بزيارة لمصر ، لمشاهدة آثارها، وكانت أهم أعمال الإمبراطور هي إقامة مدينة جديدة هي مدينة أنتينوبوليس Antinepolis ، التي أقامها في صعيد مصر تكريمًا لأحد خلصائه الذي غرق في النيل .

وإذا كان الحديث قد انصب في الفترة الماضية على اليهود والسكندريين ، دون ذكر المصريين، فإن هؤلاء الأخيرين قد فاض بهم الكيل بسبب التدهور الذي لحق بالبلاد جراء الاضطرابات، وكذلك النظم الاقتصادية الجائرة، فقاموا بثورة عنيفة في عام 172م، تولى زعامتها أحد الكهنة، وعرفت بثورة الرعاة، وكاد الثوار أن يستولوا على الإسكندرية، لولا استعانة السلطات الرومانية بالحامية الرومانية في سوريا . ولكن القائد الروماني الذي أخمد هذه الثورة أعلن تمرده ونادى بنفسه إمبراطورًا، وأعلنت مصر تأييدها له . ولكن هذه المحاولة فشلت.

ويبدو أن حالة الاضطراب التي مرت بها مصر قد أثرت على إنتاجها من الغلال، فلم تعد تشكل نفس الأهمية للإمبراطورية الرومانية، وأخذت روما تتجه إلى مناطق أخرى للوفاء بحاجاتها مثل شمال أفريقيا وقد سادت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث حالة من الفوضى، وأخذت القوات تتدخل في تعيين الأباطرة ، وفي عام 139م اعتلى العرش سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus ، وفي عام 199م قام بزيارة لمصر ومكث فيها عامًا كاملا، وأمر بإدخال تعديلات إدارية، وتم منح الإسكندرية مجلسًا تشريعيًا، وكذلك باقي مدن مصر، وعندما تولى عرش الإمبراطورية كركلا Caracalla (211-217م) أقدم على خطوة جريئة، حين قرر أن يمنح حقوق المواطنة الرومانية لكافة رعايا الإمبراطورية، فيما عدا فئة واحدة .وهم الذين أطلق عليهم القرار صفة المستسلمين Deditícii، وقد أثبتت الدراسات أن هذا القرار شمل المصريين أيضًا .

وفي عام 215م قام كركلا بزيارة مصر ، وكان الناس يكرهونه؛ لأنهم يعلمون بأنه قتل شقيقه لكي يستأثر بالعرش، فأخذوا يسخرون منه مما دفعه إلى الانتقام من أهالي الإسكندرية، وقتل الكثيرين منهم.

لم تؤدي مصر دورًا مهمًا في تاريخ الإمبراطورية في الفترة التالية، ولعل أبرز الأحداث في عهد ديكيوس (249-251م) هو اضطهاد المسيحيين ، فقد ظهرت المسيحية وأصبح لها الكثيرون من الأتباع، ورأت السلطات الرومانية في الديانة الجديدة تهديدًا لها .

وفي عام 269م تعرضت مصر لغزو خارجي جاءها من الشرق، وكان مصدره مملكة تدمر، وهي دولة كان مركزها المنطقة التي تقع على الصحراء بين سوريا وبابل، واستطاعت أن تسيطر على طرق التجارة، وعلى الرغم من ارتباط هذه الدولة بإمبراطورية الرومان، إلا أن طموحات الملكة زنوبيا جعلتها تتحدى الإمبراطورية، وتستولى على بعض ولاياتها، ومنها مصر، إلا أن الرومان تمكنوا من استعادة مصر في عام 271م .

وقد شهدت الإمبراطورية الرومانية حالة من الفوضى، وشهدت مصر محاولات لإعلان التمرد على الإمبراطورية الرومانية، ولكن عندما تولى دقلديانوس العرش في عام 284م . كان ذلك إيذانًا بمرحلة جديدة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية والعالم بأسره .

السياسة الاقتصادية للرومان في مصر :

يوجد اختلاف جذري ما بين السياسة الاقتصادية للبطالمة والرومان ، فعلى حين حرص البطالمة على السيطرة على النشاط الاقتصادي، وكان الملك هو محور الحياة الاقتصادية، فان الرومان حرصوا على تشجيع الاستثمارات الفردية ، وكانت سياسة الإمبراطور أغسطس ترمي إلى تشجيع الطبقة الوسطى على ممارسة النشاط

الاقتصادي، وكان يهدف من وراء ذلك إلى خلق طبقة قوية، تكون قادرة على مساعدة الدولة في تحمل بعض الأعباء، ويعتبر الاتجاه نحو تشجيع الملكية الفردية تحولاً مهمًا في الحياة الاقتصادية في مصر .

حظيت الزراعة باهتمام الرومان ، وعهد أغسطس إلى جنوده بإصلاح نظام الري في مصر ، وانقسمت الأرض الزراعية إلى قسمين رئيسيين، أولهما أرض الدولة أما الآخر فهو أرض الامتلاك الخاص، ويندرج تحت تقسيم أرض الدولة عدة فئات.

1- الأرض الملكية، التي حملت نفس الاسم في عصر البطالمة و آلت ملكيتها للدولة الرومانية.

2- الأرض العامة ، وهي الأرض ذات الإنتاج المنخفض.

3- أرض الضياع الإمبراطورية ، والتي كان يقوم بشرائها أثرياء الرومان ، ومنهم حاشية الإمبراطور وأفراد أسرته.

4- أرض المعابد . وتختلف عن وضعها في عصر البطالمة؛ لأنها كانت مملوكة للدولة، ولكن خصصت مساحات منها للإنفاق على المعابد.

5- أرض المستنقعات.

6- أرض الدخل . وهي الأرض التي كانت الدولة تصادرها من الأفراد .

أما القسم الثانى من الأرض الزراعية ، فهو أرض الامتلاك الخاص ، ويدل هذا النوع بشكل واضح على سياسة الرومان ، التي ترمي إلى تشجيع الملكية الخاصة ، وكان أصحابها يتمتعون بالحرية الكاملة في التصرف فيها ، كما وجدت أيضا أراضي المدن ، التي تتمتع بها المدن الإغريقية في مصر ، منذ عصر البطالمة، ولكنها ازدادت مع إنشاء مدينة جديدة هي أنتينوبوليس.

أما عن المحاصيل الزراعية ، فقد كان أهمها القمح، نظرًا لحاجة روما إلى القمح الذي كان يزرع في مصر ، ثم يأتي الشعير في المرتبة الثانية، كما انتشرت زراعة البقوليات والخضر والفاكهة، وكذلك زراعة الزيتون والكروم. ويقال إن مصر عرفت زراعات القطن في عصر الرومان .

وقد ارتبطت بالزراعة، عمليات مسح الأرض، فقد كان فيضان النيل يغير شكل الأرض في كل عام، وكانت عملية المسح ضرورية من أجل تقدير الضرائب المقررة على الأرض .

وقد نهجت الإدارة الرومانية ذات النهج ، الذي يقوم على تشجيع النشاط الفردي، في مجال الصناعة والتجارة. فلم يتبع الرومان سياسة الاحتكار التي مارسها البطالمة ، وتركوا أمر الصناعة في أيدي الأفراد، ولكن الإدارة الرومانية حرصت على إبقاء الإشراف على الصناعات الأساسية مثل المناجم والمحاجر، تحت إشرافها، وقد شهدت الصناعة في مصر ازدهارًا كبيرًا في أوائل العصر الروماني، وكانت الإسكندرية مركزًا مهمًا لصناعة النسيج والبردي والزجاج .

أما في مجال التجارة فإنه على الرغم من تدهور مكانة الإسكندرية من الناحية السياسية ، فإن دورها في مجال التجارة أصبح عظيمًا، بفضل السلام والرخاء الذي عم الإمبراطورية الرومانية، ولكن الصناعة والتجارة لحقهما التدهور وانعكست عليهما الأحوال المضطربة التي شهدتها الإمبراطورية في القرن الثالث .

وإذا كانت النظم الاقتصادية للرومان قد أتت أكلها في البداية، وشهدت مصر حالة من الازدهار، إلا أنها انهارت بعد ذلك؛ لأنها قامت على أسس فاسدة، هدفها الحصول على أكبر دخل ممكن من هذه الولاية، مما أدى إلى تدمير مصر، وإلحاق الخراب بها على يدي الإدارة الرومانية الظالمة .

الأوضاع الاجتماعية :

لم يطرأ تغير على أحوال سكان مصر، فلم يكن هناك فارق بين أن يكون حاكمهم هو الملك البطلمي

أو الإمبراطور الروماني . واتخذ البناء الاجتماعي في عصر الرومان شكلاً هرميًا، يحتل قمته المواطنون الرومان ، وهم الفئة التي طرأت على المجتمع المصري بعد الفتح الروماني، وكان أفرادها يتمتعون بكافة الامتيازات، ويأتي بعد ذلك قطاع كبير من ذوي الامتيازات الأقل، وهم الإغريق واليهود، ويقبع في قاعدة الهرم الاجتماعي باقي سكان مصر من المزارعين الحرفيين وصغار الملاك والتجار، أي الغالبية العظمى من الشعب التي كانت تلقى معاملة جائرة من الإدارة الرومانية، ويطلق عليهم إجمالا "المصريون" .

كانت توجد حدود فاصلة بين هذه الطبقات ، وكان من ضروب المستحيل أن يتمكن فرد من القفز إلى طبقة أعلى، إلا في حالات استثنائية وبإذن خاص من الإمبراطور شخصيًا، وكان بعض أثرياء الإسكندرية والشخصيات البارزة فيها، يكافأون بمنحهم المواطنة الرومانية، فقد كانت طبقة الأثرياء بشكل عام موالية للرومان، ولكن في عام 212م أقدم الإمبراطور كركلا على خطوة جريئة، حين أصدر قرارًا بمنح حقوق المواطنة الرومانية لكافة سكان الإمبراطورية. إلا أن ذلك لا يعنى بأي حال من الأحوال أن الفوارق قد زالت تماما بين الناس، فقد ظلت هناك طبقة كادحة تعانى شظف العيش، بل إن الطبقة الوسطى التي عمل الإمبراطور أغسطس في البداية على تقويتها، لم تلبث أن انهارت بسبب الأعباء التي ألقيت على كاهلها، والتي تمثلت في نظام الخدمات الإلزامية، والذي بمقتضاه كانت الدولة تقوم بتكليف بعض الأفراد للنهوض لبعض الوظائف بدون أجر، وهو أمر كان يشكل عبئًا ماديًا ومعنويًا على أفراد هذه الطبقة ، ولم يكن أمام هؤلاء التعساء في الكثير من الأحيان سوى الهروب من مواطنهم ، وهي الظاهرة التي عرفتها مصر في عصر الرومان ، والتي تعرف بظاهرة الأناخوريسيس Anachoresis، وكانت لها آثار اقتصادية واجتماعية بعيدة المدى، وأدت إلى إقفار قرى بأكملها، وتجريدها من سكانها.

العصر البيزنطى :

وهو العصر الروماني المتأخر، والذي يمتد من عام 284م حين تولى الإمبراطور وقلديانوس عرش الإمبراطورية الرومانية، وحتى دخول العرب إلى مصر في عام 641م و مما هو جدير بالذكر أن الإمبراطورية في القرن الثالث قد شهدت حالة من الفوضى والاضطراب، وأدرك دقلديانوس عند توليه العرش ضرورة إدخال تغييرات جذرية في نظام الحكم، ورأي أن من الأسباب التي أفضت إلى حالة الفوضى عدم وجود معايير ثابتة في ارتقاء العرش بعد موت الإمبراطور، وفي عام 293م قرر دقلديانوس أن يتولى الحكم إمبراطوران في نفس الوقت، أحدهما للشرق والآخر للغرب، حمل كل منهما لقب أغسطس، على أن يستعين كل منهما بشريك يكون وريثه على العرش ويحمل لقب قيصر .

وفي هذا الشطر من تاريخ مصر تأثرت بعاملين رئيسين، وهما المسيحية، وسياسة الدولة البيزنطية، فقد أصبحت مصر تابعه للجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، التي يشار إليها باسم الدولة البيزنطية، بعد أن قام الإمبراطور قسطنطين بإنشاء مدينة جديدة في مكان مدينة بيزنطة القديمة، حملت أسمه وعرفت بالقسطنطينية، و أصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ويعد عهد الإمبراطور قسطنطين هو فاتحة تاريخ الدولة البيزنطية فقد أدخل على إصلاحات دقلديانوس تعديلات جعلت للإمبراطورية البيزنطية شخصيتها المتميزة ، وقد اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية، وأصبحت هي العلامة البارزة في حياة الدولة على كافة الأصعدة، وأدت مصر دورًا مؤثرًا في الجدل الذي ثار حول قضايا العقيدة المسيحية، فقد وقفت الكنيسة المصرية موقفًا حازمًا إزاء الهراطقة، مما جعل

بعض الأباطرة يقفون موقفًا عدائيًا من الكنيسة المصرية؛ لأنهم كانوا مؤيدين لهؤلاء الهراطقة .

وقد انشغل الإمبراطور جستنيان (527-565م) بحروبه في الغرب ، وهو معروف بإصداره لمجموعة القوانين التي حملت اسمه "مدونة جستنيان"، واصدر مراسيم ضد الهراطقة ، و أمر بإغلاق مدرسة أثينا الوثنية ، وكان عصره عصر نزاعات مستمرة بين المذاهب المسيحية المختلفة . وعندما توفي جستنيان في عام 565م كانت الدولة في حالة من الضعف الشديد بسبب حروب الغرب التي خاضها والتي أنهكت الدولة، كما نشب خلاف بين البابا جريجورى، في روما، وبطريرك القسطنطينية.

ويعد القرن السابع أسوأ فترات التاريخ البيزنطي، فشهدت الإمبراطورية حالة من الركود الحضاري وكان السبب الأول في هذه الأزمة هو محاولات جستنيان الفاشلة، لإعادة الإمبراطورية الرومانية بشكلها القديم، وتوحيد الشرق والغرب وقد حاولت الدولة البيزنطية بعد ذلك أن تتلافى هذا الخطأ وأن تخضع لقواعد الجغرافيا ، بأن تجعل اتجاهها يونانيًا شرقيًا، وهو ما ساعدها على البقاء بعد أن استولى العرب على أقاليمها الشرقية، واستولى السلاف على البلقان، وتمكنت من البقاء حتى القرن الخامس عشر .

دخلت المسيحية إلى مصر في منتصف القرن الأول الميلادي، وقد انتشرت المسيحية في مصر انتشارًا سريعًا وتمكنت من القضاء على الوثنية، ولم تستسلم الوثنية بسهولة أمام المسيحية، وشهدت الساحة حروبًا بين الطرفين ففي عام 68م قام الوثنيون بالهجوم على كنيسة الأقباط شرق الإسكندرية، وقتلوا القديس مرقس الرسول، وجروه بالحبال في شوارع المدينة .

وفي البداية وقف الرومان موقفًا معاديًا من اعتناق المصريين للمسيحية؛ لأنهم كانوا وثنيين ورأوا في الدين الجديد خطرًا على الدولة، وشهدت مصر اضطهادًا للمسيحيين في عهد تراجان عام 98م وسبتميوس سيفيروس في 193م وديكيوس في عام 249م وفاليريان في عام 254م. ولكن أعظم الاضطهادات التي شهدتها مصر التي وقعت في عهد دقلديانوس، لذلك فإن الكنيسة القبطية تجعل بدء تقويمها الرسمي في عام 284م، وهو العام الذي تولى فيه دقلديانوس الحكم، ويسمى هذا التقويم بتقويم الشهداء . وعندما اعتنق قسطنطين المسيحية توقفت حركة الاضطهاد في مصر .

استطاعت كنيسة الإسكندرية أن تدعم مركزها عندما أخذت في اكتساب المزيد من الأتباع، ومن خلال العدد الكبير الذي استشهد دفاعًا عن العقيدة، وقد حرص بطاركة الإسكندرية على المحافظة على العقيدة القويمة، والوقوف في وجه الهرطقات والبدع الدخيلة، وقامت كنيسة الإسكندرية بفصل الهراطقة من عضويتها، واستطاعت بمرور الوقت أن تحتل مكانتها بين كنائس العالم، وأصبحت من الكنائس الكبرى على مستوى العالم، وهي كنائس روما والقسطنطينية وأنطاكية وأصبح بطاركة الكنيسة القبطية بمثابة الزعماء الوطنيين، نظرًا لما تميزوا به من شجاعة ، كانت تدفعهم في كثير من الأحيان إلى الوقوف في وجه الأباطرة ، وعدم الموافقة على رغباتهم، مما جلب عليهم نقمة الأباطرة في بعض الأحيان فقاموا بعزلهم، وتعيين آخرين، ولكن المصريين الذين كانوا يرون في البطريرك رمزًا لوطنيتهم كانوا يرفضون قرار الإمبراطور، ويلتفون حول البطاركة، بل إنهم كانوا يقومون بقتل البطريرك الدخيل، وهو ما حدث عندما قتلوا جورجيوس الكبادوكى .

من الهرطقات التي تصدت لها الكنيسة المصرية بشدة هرطقة أريوس، والتي ظهرت في عهد الأنبا بطرس، أي في عهد الإمبراطور دقلديانوس، وقد أصدرت الكنيسة قرارًا بحرمان أريوس، وفي عام 325م أمر الإمبراطور قسطنطين بعقد مجمع نيقية المسكوني لمحاكمة آراء آريوس، وحضر هذا المجمع بطريرك الإسكندرية وكان معه الشماس

أثناسيوس، الذي تمكن من دحض آراء آريوس وتولى صياغة قانون الإيمان، وتم حرمان أريوس وعزلة من الكنيسة .

وقد تعرض اثناسيوس لحقد بعض رجال القصر الذين كانوا يشايعون أريوس. وتحمل الكثير من سبيل الدفاع عن عقيدته، فتعرض للعزل والنفي حتى وفاته عام 373م، كما عانى الشعب المصري من اضطهاد الأباطرة، ولكن توقف الاضطهاد عندما تولى العرش الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (378-395م) الذي اعترف بالمسيحية ديانة رسمية .

ساد الهدوء علاقة الدولة بالكنيسة المصرية ، وكان الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير (408-450م) محبًا للرهبان عطوفًا عليهم . وتمتعت كنيسة الإسكندرية بالاستقلال، حتى قيل إن بطاركة الإسكندرية في تلك الفترة كانوا يتحكمون في تاريخ مصر. وقام الأنبا كيرلس بالتصدى لبطريرك القسطنطينية، الذي وقع في هرطقة لاهوتية، وأرسل إلى أساقفة العالم يشرح فيها هرطقة نسطور . وانتهت جهوده بخلع نسطور من منصبة .

وهكذا أخذت كنيسة الإسكندرية تقوم بدورها في الحفاظ على العقيدة المسيحية والوقوف أمام الأفكار الدخيلة في عام 622م . تولى بطريركية الإسكندرية الأب بنيامين، ولكن بعد تسع سنوات اصدر الإمبراطور قرارًا بتعين بطريرك آخر أسمه كيريس Cyrus، الذي أشتهر بلقب المقوقس، وقد جمع بين وظيفته الكهنوتية، ووظيفة الوالي، لكي يتمكن من السيطرة على الأقباط ، ولم يتقبل المصريون هذا الرجل . أما البطريرك بنيامين فقد اختفى هو وسائر الأساقفة وراح يتنقل بين الأديرة ولم يقع في أيدى السلطات، وعندما فتح عمرو بن العاص مصر في عام 641م . أعطى الأمان للأنبا بنيامين ، فعاد إلى مكانته في كنيسة الإسكندرية بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاما . وسمح له عمرو بن العاص بفتح الكنائس وإقامة الصلوات فيها .

د. أبو اليسر عبدالعظيم فرح

المصادر والمراجع

أولا : المراجع العربية :

- **أبو اليسر فرح .**
الدولة والفرد في مصر . ظاهرة هروب الأفراد من مواطنهم في عصر الرومان . القاهرة 1994م.

- **أبو اليسر فرح .**
النيل في المصادر الإغريقية . القاهرة . 2004

- **أبو اليسر فرح .**
تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان . القاهرة 2002

- **بل . هـ . آيدرس .**
مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ترجمة عبد اللطيف أحمد على . بيروت 1988م

- **مصطفي العبادي .**
مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي . القاهرة 1985

- **مصطفي كمال عبد العليم .**
اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان . القاهرة 1968

- **مراد كامل (وآخرون) .**
(وآخرون) تاريخ الحضارة المصرية العصر اليوناني والروماني - العصر الإسلامي القاهرة (بدون تاريخ) .

ثانيًا : المرجع الأجنبية :

- Bowman. A.k ;

Egypt After the Pharaohs 332 B.C A D 642. london . 1986

- Fraser. P.M:;

Ptolemaic Alexandria. Oxford 1984

- Jouguet. P.

Alexander the Great and the Hellemistic World Chicago. 1978

- Rostovtzeff. M,

The Social and Economic History of the Hellenistic World Oxford 1953

الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في (بلاد المغرب)

من حسن الجوار إلى الخصام - قراءة في المعاهدات بين روما و قرطاجة :

أورد بوليبيوس Polybius الذي عايش الأحداث فقرات من بعض المعاهدات التي أبرمت بين قرطاجة وروما. منها ما يعود إلى زمن الانقلاب الجمهوري اللاتيني على الملكية الأتروسكية أواخر القرن السادس ق.م.(509 ق.م.) حسب هذا المؤرخ الذي قال: بأنها كانت مكتوبة بلغة غير مفهومة في زمانه من طرف اللاتينيين، و أن بنودها ترجمت له بصعوبة كبيرة . فلعلها كانت بلغة الأتروسكيين التي كانت سائدة في روما عندما كانت عاصمة لملوك الأتروسك المتأخرين.

وجاء في مقدمة تلك المعاهدة ما يؤكد حرص الطرفين على حسن الجوار و الصداقة بينهما و من يتبعهما من الأحلاف :"إن الرومان و أحلافهم من جهة و القرطاجيين و أحلافهم من جهة أخرى يتعهدون بالمحافظة على علاقات الصداقة المتينة طبقا للشروط الآتية ....".

وقد جدد الطرفان المعاهدة في سنة 348 ق.م كي تتلاءم مع المتغيرات الحاصلة في المنطقة، و منها توسع روما في إيطاليا، و حصولها على مكاسب إقليمية جديدة و التحاق أحلاف آخرين بها. و من استقراء نصوص هذه المعاهدة يظهر لنا أن روما كانت حريصة على صون مصالحها الإقليمية في إيطاليا و منع قرطاجة من التدخل في شؤون أحلافها، وأن اهتمامها كان منصبًا على المكاسب الإقليمية في شبه الجزيرة دون أن تعبأ بالجانب التجاري في مناطق التلامس مع القرطاجيين، في حين ضمنت قرطاجة في تلك المعاهدة عدم المساس بنفوذها الإقليمي في سردينيا و بمجالها التجاري في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، و الذي كان يشمل خاصة إسبانيا والبالبار و سردينيا و شمال إفريقيا و غرب صقلية.

تزامنت هزيمة أغاتوكليس و استرجاع قرطاجة هيمنتها في صقلية مع تقدم إقليمي أحرزته روما في إيطاليا ضد المستعمرات الإغريقية فيها و بدا أن العنصر الإغريقي يشكل خصمًا مشتركًا لروما وقرطاجة معًا. و أن الوضع الجديد يقتضي توثيق الصلة بين الدولتين من جديد ، فأبرمتا معاهدة أخرى عام 306 ق.م نصّت على حظر تدخل القرطاجيين في الشأن الإيطالي مقابل امتناع الرومان عن التدخل في صقلية، فضلا عن المناطق القرطاجية الأخرى المنصوص عليها في المعاهدات السابقة .و هذا يعني تعهد الجانبين كتابيًّا بعدم المساس بمناطق نفوذ بعضهما المحددة في كل من صقلية و جنوب إيطاليا حيث المستعمرات الإغريقية التي لا تكفّ عن إقلاق الطرفين و تهديد مصالحهما الإقليمية.و هكذا ساعد طموح زعماء الإغريق في التوسع على حساب القرطاجيين في صقلية و الرومان في جنوب إيطاليا على تقليص مجال الإقليم الآمن بين روما و قرطاجة. ظهر ذلك في قيام أغاتوكليس الذي فشل في إبعاد القرطاجيين من صقلية بنشاط عسكري جنوب إيطاليا عام 293 ق.م، كما برز أيضًا في تحرك بيروس Pyrrhus ملك الإيبير Epirus ملبيًا نداء مدينة تارنتوم Tarentum

المهددة من طرف الرومان الذين كانوا يتقدمون بسرعة نحو الجنوب، ثم انتقاله إلى صقلية آملا أن يحقق الهدف ذاته ضد القرطاجيين. و بذلك أوجد هذا الملك الطموح ظروفًا ملائمة لعقد اتفاق بين روما و قرطاجة ضده عام 278ق.م.

تميزت هذه الاتفاقية الأخيرة قبل نشوب الحرب بينهما في صقلية بكونها ترسم اعتراف قرطاجة بسيطرة روما على إيطاليا و اعتراف روما بسيطرة قرطاجة على صقلية، كما تنص على تطور العلاقة إلى تحالف عسكري ضد بيروس، وتحدد ذلك بالتعاون في مجال الإمدادات :" مهما كانت الحاجة فالقرطاجيون يوفرون المراكب للذهاب و الإياب، أما المؤن فكل شعب يدبر أمره، و عندما يحتاج الرومان إلى مساعدة بحرية فعلى القرطاجيين تقديم ذلك ..."و قد زار ماغون أمير البحر القرطاجي روما في تلك الأثناء على رأس أسطول مكون من 130 سفينة و نزل في ميناء أوستيا Ostia و استقبله مجلس الشيوخ الروماني .و لعل تلك الزيارة كانت للتوقيع على المعاهدة المذكورة و ترتيب إجراءات تنفيذها. وتجسدت المساعدة القرطاجية في نقل الجنود الرومان إلى مدينة ريجيوم Rhégium على ظهر الأسطول القرطاجي الذي رابط قرب المدينة منعًا لبيروس من أن يعبر المضيق إلى صقلية ، مما اضطره إلى العودة إلى مملكته خائبا عام 276 ق.م. و هكذا مكنت المساهمة القرطاجية الحليفة روما من استكمال سيطرتها على المدن الإغريقية الأكثر مقاومة ، فوحّدت شبه الجزيرة الإيطالية تحت سيطرتها. وبذلك زال المجال الآمن بين الطرفين و لم يبق بينهما سوى مضيق مسينا صمام أمن قابل للانفجار.

إغريق صقلية و فتيل الحرب ـتطور النزاع العسكري و مداه الجغرافي :

بعد أن أصبحت روما و قرطاجة قاب قوسين من بعضهما أصبح الحذر يشوب تحركات الطرفين في منطقة التماس .ذلك أن منطقة صقلية غدت تشكل محيطًا أمنيًا بالنسبة لروما ، فهي لإيطاليا بمثابة البيلوبونيز بالنسبة لبلاد اليونان حسب تعبير بوليبيوس . فقد انطلق منها أغاتوكليس لمهاجمة إيطاليا .و بذلك فالمسيطر على هذه الجزيرة يمكنه أن يهدد جنوب إيطاليا.و من جهة أخرى سعت قرطاجة بعد تمتين علاقتها بروما إلى تقوية نفوذها في صقلية و أنزلت عام 264 ق.م حامية لها في مسينا و هي مدينة مقابلة لمدينة ريجيوم الإغريقية الجاثمة على المدخل الشمالي للمضيق، فأصبحت قرطاجة بهذا الوضع متحكمة في حركة العبور عبر المضيق .. بينما كانت روما تتحكم في الضفة الإيطالية المقابلة من المضيق بسيطرتها على مدينة ريجيوم .لقد أصبحت الجمهوريتان القويتان وجهًا لوجه.و بوجود العنصر الإغريقي ذي الحيوية العسكرية الكبيرة في المنطقة مع ما يضمره للطرفين من ضغائن فالحرب غدت أمرًا لامفر منه و كل عوامل إشعال الفتيل كانت كامنة في تعارض مصالح الدولتين الجارتين ، أما ما سيق بشأن أسباب اندلاعها فليس سوى قرع لطبولها .

في عام 264 ق.م تمرد سكان مدينة مسينا على القرطاجيين وتمكنوا من قائد الحامية فرهنوه واستغاثوا بروما التي خفت لنجدتهم مخترقة ما كان بينها و بين حليفتها قرطاجة من عهود و اندفعت بقوة فاقتحمت قواتها الحامية القرطاجية المسيطرة على مسينا و انضمت المدن الإغريقية و منها سيراقوسة إلى الرومان .و هكذا اندلعت الحرب المسماة بالبونية الأولى نسبة للقرطاجيين المدعوين (بونيك) واستمرت إلى عام 241 ق.م.في شكل معارك طاحنة أحيانا ومناوشات متقطعة هنا و هناك أحيانا أخرى في صورة حرب استنزاف طويلة المدى، و توسعت جبهات القتال فامتدت إلى أقاليم قرطاجية أخرى خارج صقلية، فهاجمت روما كورسيكا عام 259 ق.م وسردينيا عام 258 ق.م دون أن تتمكن من تحقيق نصر حاسم فيهما ، فعادت أدراجها .و في عام 256 ق.م جهزت روما جيشا ضخمًا تحت قيادة القنصلين مانليوس Manlius و ريغولوس

Regolusقوامه أربعون ألف مقاتل اجتازا به البحر من صقلية إلى تونس على ظهر 330 سفينة اقتداء بتجربة أغاتوكليس السابقة، فوقع إنزال الجيش بالسواحل الشرقية للوطن القبلي ثم عسكر بتونس .و يقول بوليبيوس أن الرومان انطلقوا في الغزو و السلب فعاثوا في الريف القرطاجي المزدهر و حطموا عددًا ضخمًا من المنازل الجميلة و القصور وأسروا أكثر من عشرين ألف شخص .ثم قفل القنصل مانليوس راجعًا إلى روما متقلا بالمغانم و الأسرى شتاء 255 ق.م تاركًا زميله ريغولوس مرابطًا في تونس. غير أن قرطاجة استرجعت المبادرة و تمكنت من هزم ريغولوس و أسره مع عدد كبير من جنوده عام 254 ق.م و لم تتمكن روما من نجدته بالجيش الذي بادرت بإرساله على ظهر أسطول تحطم في عرض البحر بين صقلية و تونس ، و لم تعاود الكرّة و ركزت هجوماتها على المواقع القرطاجية في صقلية إلى أن تمكنت من اقتحام بانورموس (باليرمو) و كانت أهم مدينة قرطاجية في صقلية عام 254 ق.م، و أجبر أهلها على الخروج منها مجردين من كل شيء و النجاة بأرواحهم مع فدية .فعجز نصفهم عن شراء ذمته فسيق إلى سوق العبيد. و فشلت قرطاجة في محاولاتها إنقاذ الموقف بصقلية فقررت التخلي عنها و عرضت الصلح على روما .و أبرمت معاهدة بين الطرفين ضمنت لروما السيطرة على الجزيرة بالإضافة إلى ضريبة مقدارها 2200 وزنة أوبيه و إطلاق سراح الأسرى الرومان بدون تعويض ، أما سراح الأسرى القرطاجيين فيتم بتعويض ، مع عدم مساس كل طرف بحلفاء الطرف الآخر و عدم إبرام اتفاق معهم أو التجنيد منهم و هو ما يشير إلى اعتراف الطرفين بمضمون المعاهدات السابقة المتعلقة بالمسؤولية على الرعايا و الأحلاف.

النوميديون و دورهم في النزاع القرطاجي-الروماني :

بدأ اسم النوميد يبرز كفصيل بشري مؤثر في الأحداث منذ القرن الرابع ق.م في خضم أحداث غزوة أغاتوكليس في إفريقيا التي توغل بها في عمق الوطن النوميدي المجاور لأملاك الدولة القرطاجية في حوض مجردة الأوسط و الأعلى و ما جاوره .و حاول كسب ولاء بعض زعماء القوم و إثارتهم ضد قرطاجة .و ليس مناسبًا هنا عرض ملابسات التسمية و دلالاتها الإثنية (العرقية) و اللغوية أو السياسية، إنما يهمنا علاقة هذا الشعب الذي برز في المصادر يمثل قوة مؤثرة في أحداث بلاد المغرب، وخاصة ما يتعلق منها بعلاقات القوى بين قرطاجة و روما.

كان المجهود الحربي دافعًا لقرطاجة كي تزيد في مطالبها من الرعايا المغاربة ومنهم جيرانها النوميد، .فضاعفت الإتاوات على المحاصيل أحيانًا إلى أكثر من خمس الإنتاج، بينما كان في الظروف العادية لا يتجاوز العُشْر.و ربما تعرض المزارعون إلى مصادرة أراضيهم أو تسخيرها لصالح الدولة عند الضرورة. ظهرت أولى ردود الفعل في المصادر بشأن الأرض أثناء حملة ريغولوس ، حيث اندفع بعض النوميديين المناهضين لقرطاجة إلى الاستيلاء على أراضي القرطاجيين تحت حماية ريغولوس ، و هو ما يفسر حالة التذمر و نوعًا من سوء العلاقة بين النوميديين والقرطاجيين في تلك الظروف . و كان رد فعل قرطاجة قويًا فعاقبت أولئك المتمردين بشدة و فرضت عليهم ضرائب نقدية و عينية ثقيلة (ألف وزنة أوبية و ألف ثور). و كان القائد حانون قد شن حملة تأديبية في نوميديا بلغ بها مرتفعات الأوراس عام 257 ق.م و الحرب مع الرومان على أشدها ، و لم يعد من تلك الحملة إلا بعد إخضاع البلاد و معه رهائن من أبنائها ضمانًا لبقائهم طائعين .فيذكر ديودور الصقلي بمبالغة واضحة أن حانون أخذ ثلاثة آلاف رهينة من أبناء مدينة سماها هيكاتومبيلوس و هي تبسة فيما يرجح.

و يظهر أن ضغوط القرطاجيين على أحلافهم و جيرانهم النوميد أوغرت صدورهم وهيأتهم لردود أفعال ساهمت في إضعاف القرطاجيين و صبت في كفة روما

ذلك أن الجنود النوميديين الذين كانوا في الجيش القرطاجي خلال الحرب البونية الأولى كانوا سباقين لإعلان التمرد على الدولة بسبب تلكئها في دفع مستحقات الجيش بعد الحرب لعجزها عن ذلك. فقد جاء عند بوليبيوس الذي أورد أخبار ذلك التمرد أن أحد قادته الفاعلين كان نوميديا و يدعى مطو Matho، و أنه كان شديد الحقد على القرطاجيين فتمكن من استقطاب الريفيين و الحضر فضلا عن الجنود بخطبه الحماسية التي كان يلهب بها مشاعر العداء ضد القرطاجيين، فتمكن من جمع تبرعاتهم بما فيها حلي النساء ، وأنه كان يرفض التفاوض و يسعى إلى القضاء على قرطاجة . و مما نسب إليه بوليبيوس من عبارات كان يوجهها لأبناء قومه قوله :"إن الجنود الآخرين سيعودون إلى أوطانهم بعد حصولهم على مستحقاتهم أما نحن فسوف ندفع الثمن على يد القرطاجيين الذين سيشنون علينا حربًا انتقامية شاملة ". و هكذا تمكن من إثارة حماس أعداد كبيرة من النوميديين ، فانضم منهم إلى التمرد حوالي سبعين ألف مقاتل حسب بوليبيوس، و هو عدد كبير قلّ مثيله في حركات التمرد السابقة أو اللاحقة في بلاد المغرب. و انتقلت عدوى التمرد إلى عمال الفلاحة في المزارع القرطاجية ففشل النشاط الزراعي و تزايدت متاعب الدولة القرطاجية و اضطرت إلى التموّن من خارج إفريقيا. و استغلت روما ذلك الوضع المتردي و استولت على أملاك القرطاجيين في كورسيكا و سردينيا دون أن تعبأ بالمعاهدة التي جمدت على الطرفين التوسع على حساب بعضهما، مما يمكن أن نعده إحدى الثمرات اليانعة التي قطفتها روما جرّاء سوء العلاقة بين قرطاجة و جيرانها النوميديين . و لم ينج القرطاجيون من خطر جيشهم المتمرد إلا بعد عناء شديد حيث أمكنهم إخماد نار ذلك العصيان بعد أكثر من ثلاث سنوات عندما هزم القائد القرطاجي أميلكار جموعهم و أعدم زعيمهم مطو عام 237 ق.م. فاستعاد القرطاجيون أنفاسهم بعد أن كادت تحتبس.و استوعب القائد أميلكار الدرس المتمثل في معادلة بسيطة لا بد من تحقيقها ، و هي أن استعادة هيبة القرطاجيين تكمن في استعادة الإمبراطورية بدءا ببلاد المغرب و انتهاء بصقلية ، وهو ما جعله نصب عينيه وانطلق في تحقيقه.

كانت الحرب ضد الجيش المتمرد التي يسميها المؤرخون القدامى بالحرب الليبية أو الإفريقية حلقة كبرى من حلقات المواجهة الشاملة بين القرطاجيين والنوميديين و غيرهم من الأقوام المغاربية .فقد جال خلالها أميلكار بعد إخماد التمرد في مناطق كثيرة استعاد فيها سيطرة قرطاجة على الوضع و أعاد ترتيب شؤون الأحلاف النوميديين بالتمكين لهم ضد المناوئين لقرطاجة ضمانا لاستقرار الوضع و تماسكه في بلاد المغرب كلها باعتبارها جبهة داخلية في مشروع أميلكار المستقبلي .غير أن تلك المواجهة كرّست مشاعر مناهضة للهيمنة القرطاجية في المنطقة وخلفت جروحا لم تلتئم قبل اندلاع الحرب الثانية بين قرطاجة و روما ، فعرفت هذه الأخيرة كيف تستفيق تلك الجروح عند بعض النوميديين .

اجتاز أميلكار مضيق أعمدة هيرقل إلى إسبانيا أواخر عام 237 ق.م بعد جولته العسكرية في شمال إفريقيا التي بدا له من خلالها أنه تمكن من الحصول على إذعان أهلها وولائهم لقرطاجة ، لكن القلاقل ما فتئت تظهر هنا و هناك من حين لآخر فاضطر لإرسال جيش من إسبانيا إلى بلاد المغرب تحت قيادة صهره صدربعل لإخضاع تمرد وقع في المناطق الغربية. و لا نعلم علاقة تلك الأحداث بالملك سيفاكس (صفك) الذي ورد ذكره في خلال الحرب البونية الثانية على رأس مملكة المازيسول Masaissyles الواسعة التي امتدت حدودها من مشارف قسنطينة إلى نهر الملوية . و تشير المصادر إلى نزاعات حدثت بين هذه المملكة النوميدية و قرطاجة بسبب المناطق الساحلية العامرة بالمدن و المرافئ التجارية . و كانت حملة صدربعل فرصة لتجنيد المقاتلين و جمع فيلة القتال استعدادًا للحرب المضمرة ضد

روما .لكن الوضع ما لبث أن تدهور في شرق نوميديا ببلاد الماسول Massyles التي كان يحكمها الملك غايا Gaia بسبب نزاع إقليمي بينها و بين قرطاجة حوالي عام 220 ق.م. تمكن فيه غايا من السيطرة على مساحة من الأراضي الخصبة والمدن العامرة في حوض مجردة، فاضطرت قرطاجة لمصالحته على مضض كي تضمن جوارًا آمنًا لحدودها و تكسب حليفًا نافعًا.

لقد سلطت الأخبار المتعلقة بتلك الأحداث بعض الضوء على الخريطة السياسية لبلاد المغرب عشية اندلاع الحرب البونية الثانية، فأمكننا التعرف إلى الأقاليم السياسية الكبرى فيها، و منها: مملكة شعب الماسول Massyle النوميدية و كانت تجاور قرطاجة من الجهة الغربية، ومملكة شعب المازيسول Masaissyle النوميدية و كانت حدودها الشرقية عند الوادي الكبير Amsaga (قسنطينة) و حدودها الغربية عند نهر الملوية .ثم مملكة المور Maurs فيما وراء ذلك إلى المحيط الأطلسي .

هكذا أمكن لقرطاجة أن تحشد إمكانات بلاد المغرب للمجهود الحربي الذي كان يقوم به القائد أميلكار في إسبانيا و واصله بعد وفاته زوج ابنته صدربعل ثم ابنه حنبعل.

بلاد المغرب و الحرب البونية الثانية :

لا يتسع حجم هذه الدراسة للإلمام بتفاصيل الإعداد للحرب بدءاً من توسيع المجال الإقليمي القرطاجي في بلاد المغرب و إسبانيا إلى إعداد المقاتلين و العتاد الحربي إلى إشعال فتائل الحرب . وذلك أن طبيعة الدراسة تقتضي الاقتصار على ماله علاقة بأوضاع المغرب من خلال تلك الأحداث.

لما انتهى إلى مسامع روما خبر السيطرة التي أحكمها أميلكار على ما يربو على نصف إسبانيا ، تملكها إحساس بالخطر فبعثت إليه تستوضح الأمر ، و تحذره من التمادي في التوسع و إلحاق الأذى بأحلافها هنالك.فرد القائد القرطاجي على بعثة مجلس الشيوخ الروماني بعبارة فيها دهاء : "إننا نبحث عن مصادر لدفع التزاماتنا إزاء روما و ليس لدينا نية النقض لتعهداتنا"، وهي إشارة واضحة إلى نية القرطاجيين في تعويض ما فقدوه في صقلية وسردينيا إقليميا.و بعد تأذي أهل مدينة ساغونتوم Sagontum الموالين لروما في إسبانيا من تصرفات حنبعل عام 219 ق.م.، أوفد مجلس الشيوخ الروماني مبعوثيه إلى القائد القرطاجي كي يكف عن إيذاء الحلفاء و التوقف عند نهر ايبرو Ebre (في السفوح الجنوبية لجبال البرانس) و هو معلم حدودي بين الطرفين سبق تحديده مع صدربعل ، فكان رد حنبعل :" إننا نعمل من أجل الانتقام للاعدل". و هي عبارة تنم عن الرغبة في حرب ثأرية وشيكة الوقوع.و فهمت روما مدلول الكلام لكنها لم تكن مستعدة للرد عليه عمليًا لانشغالها بهجمات الغاليين على منطقة نهر البو Po شمال إيطاليا، مع علمها أن سيطرة قرطاجة على إسبانيا تشكل خطرًا فعليًا عليها .و في ذلك يقول بوليبيوس:" إن فتح أميلكار إسبانيا يدخل ضمن الاستعداد لحرب ضد روما". و بادر مجلس شيوخ روما بإرساله بعثة من أعضائه على جناح السرعة إلى قرطاجة تطالبها بتسليمها حنبعل لأنه تجرأ و احتل مدينة ساغونتوم حليفة روما، ولما رفض المجلس القرطاجي مرافعة رئيس الوفد الروماني أمامه في هذا الموضوع، أشاح رئيس الوفد -و كان كبير أعضاء الوفد سنا- بطرف ردائه قائلا:" أعرض عليكم السلم و الحرب ، فاختاروا ما أترك لكم ".وهنا رد عليه رئيس المجلس القرطاجي :"اختاروا انتم". فقال الروماني :"تركت الحرب "، فهتف عدد من الشيوخ القرطاجيين :"إننا نقبلها" كانت تلك المجادلة السياسية الصماء بين عقلاء الأمتين إعلانًا للحرب بين الدولتين ، فانطلقت جيوشهما في اتجاهين متعاكسين، حيث سار حنبعل قاصدًا إيطاليا برا بينما قررت روما تحريك جيشها في مسلكين أحدهما نحو صقلية ومنها إلى مالطة حيث يرابط جيش قرطاجي توقعت أن يهاجم صقلية ، و الثاني نحو إسبانيا عبر شمال إيطاليا لمواجهة حنبعل ، لكن هذا الجيش تعثر بسبب تمرد الغاليين، فاستبقه

حنبعل إلى اجتياز جبال الألب و أحدث المفاجأة العسكرية الكبرى.

تتجلى المفاجأة في السرعة الكبيرة التي قطع بها الجيش القرطاجي المسافة بين معسكره في قرطاجنة بإسبانيا و نهر البو Po بشمال إيطاليا، إذ لم يستغرق سوى خمسة أشهر (يونيو – سبتمبر 218 ق.م.) و في القدرة على تخطي الحواجز المائية والجبلية الكبرى (نهر ايبرو، نهر الرون ، جبال الألب) بعتاده الحربي و فيلته و جيشه الجرّار.و مع أنه فقد أعدادا كبيرة من الفيلة و الرجال في تلك المخاطرة إلا أنه استطاع أن يعوض ما فقده من المقاتلين بتجنيد محاربين من الأقوام المناهضة للرومان كالغاليين و غيرهم ، و أعاد ترتيب قواته التي أصبحت تضم كتائب إفريقية وإسبانية و غالية. ثم انطلق دون تريث ليفاجئ الجيش الروماني في معارك أحسن إدارتها ، فأوقع به هزائم شنعاء أشهرها في موقعة تريبيا Trebia (ديسمبر 218 ق.م) التي أفنى فيها أربعة أخماس الجيش الروماني، ومعركة ترازيمينوس Trasiminus عام 219 ق.م التي هلك فيها قنصل و أبيد جيشه .ثم معركة كاني Cannaeالشهيرة التي قتل فيها خيرة نبلاء روما وشيوخها(80 عضوا في مجلس الشيوخ) و قائد الجيش و القنصل فرا و هلك جيشه، فأحدثت تلك المعركة صدى دوليًا كبيرًا . حيث توافد المهنئون اليونانيون من مقدونيا و صقلية يعرضون المودة و التحالف على حنبعل، مما يذكرنا بأصداء فتوحات الإسكندر المقدوني . و بذلك أبرمت اتفاقية تحالف بين ملك مقدونيا فيليب الثالث و حنبعل كما حصل حاكم سيراقوسة على موافقة حنبعل بالاستقلال بنصف جزيرة صقلية، مما يشير إلى عزم القائد القرطاجي على استرداد ممتلكات قرطاجة السابقة في هذه الجزيرة.

أحجم حنبعل عن مهاجمة روما مع قدرته على ذلك ، ولعله أراد أن يكتفي بتأديبها و تحجيمها بإبعادها عن البحر الأبيض المتوسط.فقد عرض عليها السلم بعد أن هزمها في كاني وأشعرها بأنه لا يريد لها الفناء . و قد عبر حنبعل عن ذلك أيضا في نص المعاهدة مع فيليب مقدونيا ، إذ ورد فيها بأن الطرفين ليس في نيتهما القضاء على الدولة الرومانية، وأن حنبعل مستعد لقبول السلم إن رغب فيه الرومان. راهن القائد القرطاجي في خطته الحربية على ما يظهر على مفعول الحصار الطويل لكسب ثقة حلفائه الحانقين على روما في إيطاليا وخارجها كي ييأس عدوه من مواصلة القتال و الصمود و يرضخ لشروط السلم .لكن عامل الزمن لم يكن في صالح حنبعل حيث غير الرومان خططهم القتالية و تجنبوا مواجهة عدوهم في معارك مكشوفة لأنه يحسن إدارتها بعبقرية لا تضاهى .و صعب على أحلاف حنبعل في إيطاليا إمداده بالقدر الكافي من الرجال والمؤونة. و لم يصله من حليفه المقدوني ما كان منتظرا منه بموجب الاتفاق؛ لأن روما ألبت عليه أحلافها في منطقتي إليريا و إبتوليا(البلقان).

و انقلب الوضع في صقلية التي حالفه فيها صاحب سيراقوسة، حيث اقتحمها جيش روما بالرغم من استماتتها في الدفاع.و بذلك استعادت روما سيطرتها على الجزيرة عام 212 ق.م، و تمكنت كذلك من استرجاع مدينة كابوا عام 211 ق.م وانتقمت من أهلها بشدة لمظاهرتهم حنبعل.كما استطاع جيشها المرابط عند نهر ايبرو بإسبانيا ثني الجيش القرطاجي ومنعه من محاولات العبور نحو إيطاليا لإمداد حنبعل ، و اعتمد الرومان على الأهالي الإسبان الذين يضمرون الكره للقرطاجيين فانتصروا على هؤلاء في معارك عنيفة عند الوادي الكبير عام 208 ق.م ،وتوالى تقدمهم في الأراضي القرطاجية إلى أن استسلمت لهم قادش صلحًا لما عجز ماغون أخو حنبعل عن صدهم عنها عام 206 ق.م فدانت إسبانيا لروما. وهناك استمالوا حلفاء قرطاجة السابقين ومنهم بعض النوميديين، مما شجع مجلس الشيوخ الروماني على الموافقة على نقل ساحة المعركة إلى بلاد المغرب استثمارًا لمشاعر أطراف مناوئة

لقرطاجة كما أشرنا إلى ذلك أعلاه.فقد تخلى الملك سيفاكس عن قرطاجة عام 213 ق.م و فضل البقاء على الحياد فيما يظهر، وحاول القيام بمساعي الوساطة بين روما وقرطاجة لإيقاف الحرب و تسوية النزاع بالطرق السلمية. و تذكر المصادر أنه تمكن من عقد لقاء في عاصمته الغربية سيغا Siga (على وادي التافنة –غرب وهران) بين قيادة جيشي الطرفين المتحاربين في إسبانيا و هما سيبيون و صدربعل ، وصفه المؤرخون (بوليبيوس، أبيانوس ، ليفيوس..) بصيغ متطابقة المعنى مبرزين الدور الديبلوماسي البارز الذي قام به الملك سيفاكس بين الطرفين ، من ذلك معاملة ضيوفه على قدم المساواة و دعوتهم تناول الطعام على مائدته ، وحاول إجلاس القائدين إلى جانب بعضهما إزالة للحرج بينهما، و كان حذقًا و وديًا مع ضيوفه، و ربما كان سينجح في تلك المبادرة لو كان القائدان مخولين التفاوض في شأن الحرب ، فقد صرح القائد الروماني قائلاً : إنه لا يكن عداوة شخصية لصدربعل و لكنه غير مخول من مجلس الشيوخ في هذا الشأن.

وقد ضمن سيفاكس سلامة الوفد الروماني وعودته إلى إسبانيا آمنا ، حيث يذكر أبيانوس أن البحارة القرطاجيين كانوا ينوون مطاردة سفينة سيبيون لكن سيفاكس حال دون ذلك.و يرى ليفيوس أن سيفاكس انضم إلى الرومان و قاتل إلى جانبهم في إسبانيا .لكن المؤرخين استضعفوا هذه الرواية، ورجحوا بقاء هذا الملك الرزين على حياده إلى سنة 208 ق.م عندما تزوج بالقرطاجية صفان بعل (صوفونزبة) التي يبدو أنها أثرت على موقفه وتمكنت من استمالته إلى جانب قرطاجة، و قد ظهر نشاطه العسكري ميدانيا في نوميديًا إثر وفاة ملك الماسول غايا عام 207 ق.م. و كان وقتها الأمير مسينيسا ابن غايا يرابط إلى جانب القرطاجيين في إسبانيا على رأس كوكبة من الفرسان النوميديين .

يبدو أن تقدير مسينيسا للموقف العسكري في إسبانيا كان صائبا بحكم مشاركته الميدانية في القتال، إذ تأكد له أن القرطاجيين خاسرون الحرب لا محالة. و لما وصلته أخبار وفاة والده و ما آل إليه أمر المملكة قرر إجراء اتصالات سرية بالقائد الروماني سيبيون في مقر قيادته بمدينة طراقونا بعد عودته من لقاء سيقا ، و اتفق معه على الدور المنتظر له في إفريقيا، وظل الأمر طي الكتمان. وهنا سجلت روما اختراقًا خطيرًا في الجبهة الداخلية القرطاجية ، لقد أصبحت بلاد المغرب بعد وفاة غايا ونشوب نزاعات حول خلافته ميدانا ملائما لإدارة معارك فاصلة لصالح روما. و هكذا قرر مجلس الشيوخ معاودة تجربة ريغولوس في الحرب الأولى بنقل الحرب إلى عقر دار القرطاجيين ، و قاد الحملة على إفريقيا القنصل كورنيليوس سيبيون (C.Scipio) الذي لقب بالإفريقي بعد انتصاره ، ونزل بالجيش بالقرب من مدينة أوتيكا عام 204 ق.م. وقدم له مسينيسا خدمات جلى مدفوعًا بمشاعر غضب كان يكنها لسيفاكس و قرطاجة معًا لإبعاده عن استخلاف والده على عرش مملكة الماسول.

أما حنبعل فقد أخذ بريقه يخفت في إيطاليا حيث عمل الزمن ضده فنضبت ميرته و قل رجاله وتآكل أحلافه فوهنت عزائم مقاتليه و فشلت قرطاجة في إمداده بما يعضده من الرجال و المؤن ، و لما فاجأها سيبيون و هي عارية الظهر بانقلاب مسينيسا عليها لم تجد بدًا من استدعاء حنبعل للعودة على جناح السرعة عسى أن يدرأ عنها خطر السقوط في قبضة الرومان الذين توغلوا في العمق النوميدي بعون حليفهم الوفي مسينيسا و أحرزوا انتصارات متوالية على جيش قرطاجة الإفريقي بالرغم من دعم سيفاكس الذي كان خصمه يتعقبه إلى أن تمكن منه بعد أن انهزم في معركة السهول الكبرى بجوار مجردة (ربيع 203 ق.م).و اقتحم الأمير الماسولي مدينة قرطة Cirta عاصمة سيفاكس الشرقية (يونيو 203ق.م) .

ونزل حنبعل في تلك الصائفة بمرفأ لمطة Leptis Menor فسبقه الزمن و فقد حليفًا كبيرًا ظل يناضل بإخلاص إلى جانب أصهاره القرطاجيين إلى آخر رمق، فقد

أوفد سيفاكس إلى القائد سيبيون و هو يتأهب للإبحار إلى إفريقيا عام 204 ق.م يحذره من الهجوم على بلاد المغرب ، وأنه سيقاتله بكل ما لديه من قوة بجانب القرطاجيين إن فعل ذلك . وهو التحذير الذي أخفاه سيبيون على جنوده و أذاع عكسه قائلا : إن سيفاكس بعث إليه يستعجل قدومه إلى إفريقيا. وبقي سيفاكس يقاتل مع تقدمه في السن كلاً من مسينيسا وحلفائه الرومان إلى أن سقط أسيرا أمام أبواب قرطاج عاصمة ملكه فسيق مكبلا بالأصفاد إلى روما حيث قضى نحبه في سجن تيبور Tibur. وبذلك ضاعت إمكانية السيطرة على إدارة الحرب في إفريقيا على حنبعل، لأن الرومان تمكنوا من زمام المبادرة و كسبوا نوميديا عندما أسرعوا في الاعتراف بحليفهم الشاب مسينيسا ملكًا على شطريها الشرقي و الغربي و منحوه شارات الملك (الرداء و الكرسي و الصولجان)، ولم يتمكن فيرمينا Vermina ابن سيفاكس من الصمود بالرغم من استماتته في الدفاع عن مملكة والده و أجبر على الاكتفاء بجزئها الغربي.

كانت معركة زاما Zama (سبع بيار) في أكتوبر 202 ق.م فيصلاً أنهى الحرب البونية الثانية لصالح روما التي أمعنت في فرض شروط الصلح على قرطاجة حتى لا تتمكن من معاودة الحرب مرة أخرى، و تظل مستسلمة صاغرة لا تحرك ساكنا ولا تدفع أذى عن نفسها سوى بإذن من روما .تضمنت بنود الصلح تدمير الأسطول القرطاجي و منع التجنيد أو استعمال الفيلة (باعتبارها سلاحًا مدمرًا) و التخلي عن إسبانيا و جميع الأراضي التي يطالب بها مسينيسا مع مستحقاتها السابقة(الإتاوات التي استحصلتها قرطاجة منها)، بالإضافة إلى دفع ضريبة ضخمة للتعويض عن أضرار الحرب وتكاليفها وقدرت بعشرة آلاف وزنة أوبية مع أخذ روما مائة رهينة تختارها من أبناء العائلات القرطاجية الوجيهة.

نوميديا و قرطاجة بعد الحرب الثانية:

حزم الجيش الروماني أمتعته و استقل السفن عائدًا إلى روما في خريف عام 201 ق.م. بعد أن اطمأن قائده سيبيون على المصالح الرومانية في شمال إفريقيا؛ لأنه واثق أن الحليف مسينيسا لا يفرط في الأمر شيئا طالما أن مصلحته مرتبطة بمصالح روما ، وهي مصالح إقليمية نصت عليها معاهدة الصلح بعبارات غامضة تركت الباب مفتوحًا أمام مسينيسا كي يطور مطالبه من قرطاجة ويقف لها بالمرصاد. وبذلك انتقلت نوميديا من جار حليف و داعم للقرطاجيين قبل الحرب مع روما إلى دولة تناصبهم العداء و جاعلة نفسها عينًا ساهرة على مصالح روما في المنطقة، إنها بداية المتاعب القرطاجية المهلكة. أحدثت الترتيبات الإقليمية بعد الحرب خللاً في خريطة المغرب السياسية بالنسبة لقرطاجة التي احتفظت بإقليم ترابي لم تحدده بنود المعاهدة و يبدو أن روما تجنبت إحداث تغيير يمس الحدود التي كانت عليها الدولة القرطاجية في شمال إفريقيا عند اندلاع الحرب معها عام 218 ق.م، لكنها تركت لمسينيسا إمكانية وضع اليد على أراضٍ يدعي أنها كانت لأسلافه، و هكذا استولى عام 172 ق.م على سبعين مدينة كانت تابعة للقرطاجيين حسب ليفيوس واحتل سنة 162 ق.م المدن التجارية الواقعة على السيرت الصغير ،وهي المدن التي كانت تدعى أمبوريا Emporia و كانت تمثل عصب قرطاجة التجاري بين الصحراء الإفريقية وعالم المتوسط .

بذلت قرطاجة جهدًا ملحوظًا في ضبط النفس قصد المحافظة على فحوى معاهدة الصلح مع روما وتجنبا لإثارة الشبهات حولها، من ذلك أنها أنزلت عقوبة شديدة بأحد قادتها المدعو أميلكار؛ لأنه ظل في شمال إيطاليا بعد توقيف الحرب و إبرام الصلح رافضًا الانصياع للسلم ، فصادرت أملاكه ومنعته من العودة إلى وطنه، وكان تصرفها مع حنبعل نفسه مماثلا و أشد حيث حكمت عليه بالإعدام بالرغم من أنه كان شافطًا (حاكمًا) منتخبًا عام 195 ق.م لما أثار شغبًا و دعا لمعارضة

الصلح المهين مع روما. فاضطر للهرب خفية وأتم حياته في المنفى. لكن ذلك السلوك السوي إزاء روما لم يشفع لها لدى مجلس الشيوخ فينصفها مرة في تظلماتها ضد مسينيسا فتركها تساق إلى حتفها.

نهاية قرطاجة:

رفعت بعثة تحقيق أوفدها مجلس الشيوخ الروماني عام 153 ق.م تحت رئاسة كاتو تقريرا إلى المجلس تحذره من أن قرطاجة تعيد بناء قوتها العسكرية سرًا و أنها بصدد الاستعداد للحرب . فاقتنع أغلب أعضاء المجلس بما كان يردده ذلك السيناتور المتزمت من قبل :" يجب أن تهدم قرطاجة .Delanda Carthago "و صادف أن وردت أخبار من أفريقيا مفادها أن مسينيسا تمكن من الانتصار على جيش قرطاجي كان يواجهه دون علم روما.

و كان الرأي العام في قرطاجة تتجاذبه تيارات متباينة المواقف من الوضع، ومن بينها من يدعون إلى التفاهم مع العاهل النوميدي القوي كي يكف عن إلحاق الضرر بالقرطاجيين . و كان مسينيسا يسعى من خلال الموالين له إلى بسط هيمنته على قرطاجة كي يحقق هدفه الأكبر الذي كان يعبر عنه بقوله " إفريقيا للأفارقة". لكن الاتجاه المعارض كما يمكن أن نطلق عليه" نومدة قرطاجة" كان قويًا و متصلبًا فنشب النزاع المسلح. و لم يكن الأمر خافيًا على روما التي تتابع باهتمام تلك التطورات و لعل عبارة كاتو " يجب أن تهدم قرطاجة" التي اتخذها فريق من الشيوخ شعارًا يرددونه كلما عرض الشأن القرطاجي للتداول في المجلس تنم عن إدراك المرامي البعيدة للعاهل النوميدي ، ففي تلك العبارة دعوة إلى حرمان مسينيسا من أن تصل يده إلى قرطاجة، فيتخذها عاصمة و ينفرد بموقعها الإستراتيجي ، و قد يغتر وينقلب على حلفائه الرومان .يقول قزيل Gsell في هذا المعنى بأنه كان يجب على روما أن تبادر بمعاقبة قرطاجة على قيامها بعمل عسكري في مواجهة مسينيسا قبل أن تكون محل دفاع من طرف هذا الأخير عندما يصبح سيدًا عليها.

استوفت قرطاجة ماعليها من التزامات مالية عام 150 ق.م. بعد نصف قرن من توقيع الصلح حرصت خلاله على الظهور بمظهر الوفي ، و أصدرت عقوبات في حق المتسببين في الأزمة مع روما بلجوئهم إلى السلاح ضد تهجمات مسينيسا المتواصلة.ثم أوفدت نوابًا من مجلس الشيوخ القرطاجي إلى مجلس الشيوخ الروماني لتقديم الاعتذار و عرض تعويضات مالية على ما حدث ، لكن روما كانت قد اتخذت قرار الحرب فرفض شيوخها توضيحات قرطاجة وعروضها. و هكذا أعلنت الحرب على قرطاجة وضرب جيش روما طوقا عليها انطلاقا من مدينة أوتيكا التي انضمت إلى الرومان فاتخذوها مقرًا لقيادة جيشهم. وأُصدر الأمرُ لسكان قرطاجة بإخلاء المدينة و الإقامة بعيدًا عن البحر بمسافة ثمانين ستاديوم(14 كلم). فكان الأمر وبالا على القرطاجيين الذين أدركوا أن ساعة الاستماتة في الدفاع عن وجودهم قد حلت ، فاندفعوا لتحصين المدينة و بناء السفن وصناعة الأسلحة في سباق مع الزمن و في سرية تحت طائلة المفاوضات و استعطاف الرومان للعدول عن قرارهم.ثم أعلن مجلس الشيوخ القرطاجي الحرب عندما أيقن ألا محيد عنها و أصدر قرار تحرير العبيد كي يشاركوا في القتال و انتخب للقيادة رجلين يحملان اسم صدربعل أحدهما حفيد مسينيسا من إحدى بناته كان يقيم في قرطاجة وينشط لصالح نوميديا. و لعل في تعيينه ذاك رسالة إلى جده عساه أن يفهم الدلالة و يلتفت إلى ما بين الطرفين من الوشائج و وحدة المصير.و ربما فهم العاهل النوميدي تلك الإشارة حيث أنه رد على طلب القيادة الرومانية بتزويده بالرجال بقوله:"سأرسلهم إليكم عندما أرى أنكم في حاجة إليهم". و هو الذي كان يمد الرومان بما يزيد على حاجتهم رجالا و مؤونة أثناء حروبهم بمقدونيا و غيرها.و يظهر أنه أدرك تسرعه في الإجابة بتلك

الصيغة، فأرسل إلى القيادة الرومانية يستوضحها إن كانت بحاجة إلى الرجال فكان الرد " عندما نكون بحاجة إلى ذلك سوف نعلمك "، علمًا بأن الرومان لم يكونوا يجهلون وجود حفيد مسينيسا على رأس قيادة أحد جيوش قرطاجة مدافعًا .

تمكن القرطاجيون من إطالة عمر الحرب مدة تزيد على ثلاث سنوات (149-146 ق.م.) بما أبدوا من استبسال في المقاومة. لكن زمام المبادرة القتالية ظل بأيدي الجيش الروماني الذي تعزز بتعيين قائد متمرس على رأسه هو سيبيون ايميليانوس عام 148 والتحاق جيش نوميدي به تحت قيادة غولوسا بن مسينيسا . و شدد الحصار على قرطاجة لتجويع سكانها و إجبارهم على الاستسلام . و مع ذلك لما فاوضهم سيبيون مرة أخيرة رد عليه قائد الدفاع صدربعل : إنني أفضل أن أقبر في أطلال مدينتي من أن أراها تهدم.

في أحد أيام آذار – مارس عام 146 ف.م أصدر سيبيون إيميليانوس أمره بالهجوم على قرطاجة ، فاقتحم الميناء العسكري و هاجم الجند معبد بعل حامون و اقتلعوا منه التمثال الذهبي إيذانا بإزالة المدينة من الوجود. ثم أعمل الجيش السيوف في رقاب القرطاجيين و أضرموا النيران في المدينة وسووها بالأرض ، فأصبحت تلك الحاضرة التي أسالت لعاب أكثر من طامع في فتحها أثرًا بعد عين ، و عاشت عشرة أيام تحت ألسنة اللهب ، و اقتيد من عفت عنه حراب الجند و سنابك الخيل إلى الأسر ، فكانوا خمسين ألف نسمة من أشباه الأحياء. و كررت زوجة صدربعل المنظر المأساوي الذي حدث مع مُؤَسِسَةِ قرطاجة عليسا ديدو ، فارتمت في الجمر بعد أن ألقت بابنتها فيه. علق المؤرخ قزيل على ذلك النصر البخس بالقول :"إن الجوع هو الذي سلم قرطاجة لسيبيون".هذا القائد الذي ينقل عنه بوليبيوس الشاهد عيئا على تلك الأحداث : إنه تأثر بمشهد النيران و هي تلتهم المدينة فأخذ يذرف الدمع مرددا كلاما لهوميروس ، و لما سأله بوليبيوس عن ذلك قال : "إنني أخشى أن يقع لبلدي مثل هذا يومًا ".

الوضع الاقتصادي في العهد القرطاجي –النوميدي:

يتعذر الفصل بين النشاط الاقتصادي الذي نهضت به قرطاجة و المدن التابعة لها في شمال إفريقيا و الجزر المتوسطية و بين أوجه الأنشطة ذات الطابع الاقتصادي في بقية بلاد المغرب سواء في الأقاليم المجاورة لدولة قرطاجة كتلك التي برزت فيها أخبار ممالك و إمارات أثناء الحروب القرطاجية الرومانية أو في أقاليم أبعد . ذلك أن ما بين أيدينا من مصادر حول هذا الموضوع يتعلق أساسًا بما نسب للقرطاجيين و حلفائهم من نجاحات أبهرت معاصريهم في مجالي الفلاحة و التجارة و وسائل السيطرة على النقل البحري و التحكم في الأسواق . وما عدا ذلك مما يمكن أن ينسب للمالك المغاربية فهو نشاط مكمل و فيه استمرارية واضحة لما أنجزته الدولة القرطاجية التي كان تأثيرها على الأهالي بارزا في جميع الميادين ، و لا سبيل إلى التقليل منه أو إغماطه مهما كان تحمسنا لمساهمة هؤلاء في صنع التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي لبلاد المغرب في تلك الحقبة.

إن الحيز الضيق المخصص لهذه الدراسة لا يتسع لعرض جميع أشكال النشاط الاقتصادي و الاجتماعي في العهد القرطاجي –النوميدي في القرنين الثالث والثاني ق.م.

وسوف نقتصر على الفلاحة لما كان لها من أهمية عند القرطاجيين و النوميديين ، ثم التجارة البحرية والصحراوية باعتبارها المحرك القوي لعجلة الاقتصاد في ذلك الوقت.

الفلاحة:

كانت الفلاحة و تربية الماشية أهم نشاط يومي تعاطاه المغاربة القدماء عندما تعرف إلى أوطانهم وأوضاعهم المؤرخ اليوناني هيرودوت أواسط القرن الخامس ق.م.فوصفهم بأن قسمًا منهم مزارعون مستقرون و القسم الآخر رعاة يتنقلون وراء قطعانهم. و كان المزارعون

يستوطنون المناطق الشمالية المجاورة لأراضي المدن التابعة لقرطاجة. وليس لدينا أخبار موثوقة تخص حقيقة النشاط الفلاحي عند الأهالي لا من حيث تقنيات العمل الزراعي و العتاد المستعمل فيه و لا من حيث أنواع المزروعات، ناهيك عن المعارف العلمية المتعلقة بالفلاحة التي ظهرت على أيدي القرطاجيين . وكل ما توافر لدينا من أخبار حول جودة القمح النوميدي مثلا أو تربية الخيول عند الملوك والأمراء يعود إلى زمن متأخر عندما أجبرت قرطاجة على التخلي عن أراض ومزارع وقرى ومدن ساهمت في تطوير أدائها الفلاحي ونموها العمراني . وهي الأراضي التي كانت محل نزاع مع جيرانها النوميد منذ أمد طويل و كانت تزود القرطاجيين بحاجتهم من الغلال و الأنعام.و يبدو أن المزارعين الأهالي ساهموا في تطوير زراعة الحبوب و تخصصوا في إنتاج القمح بكميات وفيرة، وهو ما يفهم من إقدام الدولة القرطاجية على نقل مزارعين ليبيين (مغاربة) إلى جزيرة سردينيا للعمل في حقول القمح هنالك لما كانت قرطاجة في حاجة ماسة للمزيد من منتوجه.

لكن الزراعة الشجرية و البستانية كان الفضل في ترويجها و تطويرها ببلاد المغرب إلى الفينيقيين أولا ثم القرطاجيين بحكم أنهم مزارعون ممتازون بالأصالة في موطنهم فينيقيا، حيث أجادوا هناك زراعة الحبوب و الكروم و الزيتون و أشجار مثمرة متنوعة نقلوا بعضها إلى شمال إفريقيا كالرمان والتفاح و ما إليهما .

إن أهم إنجاز حققه القرطاجيون في بلاد المغرب هو أنهم منهجوا معارفهم في مجال الفلاحة لما وضعوا فيها كتبا و مصنفات تعرض الأسس العلمية و تشرح الطرق التطبيقية و توضح الإرشادات العملية للمزارعين. و قد اشتهر في هذا عالم الزراعة ماغون الذي تجاوزت شهرته جميع من ألفوا في علم الزراعة من اليونانيين بشهادة مؤرخيهم. و قال فيه عالم الزراعة الروماني كلومال بأنه "أبو علوم الريف".و يذكر بلينوس صاحب "التاريخ الطبيعي" أن مجلس الشيوخ الروماني أمر بترجمة كتابه المكون من 28 مصنفا إلى اللاتينية بعد إحراق قرطاجة عام 146 ق.م. وأوكل مهمة الترجمة إلى مثقفين يجيدون اللغة البونية .منهم سيلانوس D.Silanus أحد نبلاء روما. وطارت شهرة ماغون في الأوساط العلمية اليونانية والرومانية فتعددت ترجمات كتابه والنقول منه واختصاراته في لغتي القوم على مدى القرون اللاحقة. وتواصل صدى المعارف الزراعية الماغونية عبر لغات عدة، منها السريانية والفارسية إلى أن وصلت إلى العربية حيث نجد مضامينها في كتاب الزراعة الذي وضعه ابن العوام الأندلسي في القرن الثاني عشر الميلادي. وهكذا كانت الزراعة عند القرطاجيين علما قائما بذاته، اهتم به ملاك الأراضي و طبقوا قواعده وإرشاداته في تعاطيهم للأعمال الزراعية.فكان الإنتاج جيدًا و وفيرًا أدهش الغرباء أمثال جنود أغاتوكليس أثناء غزوهم تونس كما أسلفنا.فبهرتهم مناظر الحقول المثقلة بالثمار والبساتين وقطعان الأبقار، وكانت وفرة الإنتاج من الحبوب تزيد عن حاجة الاستهلاك مما جعل الفلاحين يلجأون إلى تخزينها في مطامير (أهراء-آبار جافة) يحفرونها في الحقول، وهي المخازن التي استولى على كثير منها يوليوس قيصر خلال حملته على إفريقيا عام 46 ق.م. و قد لقبت نوميديا لذلك في العهد الروماني بأهراء روما كناية عن إنتاجها الوفير من الحبوب و اعتماد روما على ذلك المنتوج في إعالة شعبها .و كان مسينيسا قد أغدق على حلفائه الرومان بعد تتويجه ملكًا على نوميديا، مما تنتج بلاده الشيء الكثير، فغطى حاجتهم أثناء حروبهم في مقدونيا و إسبانيا و بلاد الغال. وهو ما يدل على النجاح الكبير الذي حققه مشروع الزراعة القرطاجي – النوميدي باعتباره ثمرة عهود من الاجتهاد العلمي والجهد الميداني .

و برزت جهود القرطاجيين أكثر في الزراعة الشجرية، حيث عملوا على إغناء الزراعة المغربية بأنواع جديدة استجلبوها من فينيقيا ومن مناطق أخرى ، وأولوا

عناية أكبر بشجر العنب و الزيتون على اعتبار أنها زراعة ذات طابع صناعي-تجاري، وربما تحكمت الدولة في تنظيم الخريطة الزراعية فمنعت غرس الشجر في مناطق معينة ذات صلاحية أكثر للحبوب أو العكس. وازدهرت زراعة الكروم في المناطق المجاورة للمدن الساحلية ببلاد المغرب لملاءمة التربة والمناخ. وتشهد دلائل الآثار المكتشفة في عدد من المدن الساحلية و الداخلية ، ومنها الرسوم الممثلة لشجر العنب و عناقيده و جرار الفخار المخصصة للخمر، على أن عناية كبيرة أوليت للكروم .و قد اهتم ماغون في كتابه خاصة بصناعة العنب و تصنيعه. ولا ينبغي أن نفهم من ذلك أن العنب كان يعصر خمرًا للاستهلاك المحلي .ذلك أن القرطاجيين أو الأهالي لم يكونوا يتعاطونه كالإغريق والرومان ، فقد كان القانون القرطاجي يحظر تناوله على الأشخاص وهو في وضعيات عديدة، من ذلك الجنود والعبيد والحكام والقضاة أثناء تأدية أعمالهم وهو محظور أيضا على جميع الذين يقومون بأعمال فكرية كالمرافعات والمحاورات و المناقشات أثناء الاجتماعات، وغير ذلك من الوضعيات التي تتطلب تركيزًا ذهنيًا واتخاذ قرار مسؤول. لكن منتوج العنب والخمر كان بضاعة تجارية مربحة، إذ تتم مقايضته في الأسواق المتوسطية المختلفة.

أما الزيتون فكان محل عناية الفلاحين الأهالي والقرطاجيين على السواء. وحسب رواية إغريقية أن بعض الفلاحين كانوا يستخرجون الزيت من شجر الزيتون البري (المسمى زبوج محليا) . فالزيتون شجرة تنمو بريًا في شمال إفريقيا ،وقد تدخل الفلاحون وهجّنوه . وساهمت معلومات ماغون في الإكثار منه وتنويعه و توسيع حقوله و تنمية منتوجه وتحسين ثماره. فقد تردد عند بلينوس أن هناك نوعًا من شجر الزيتون يدعى بالألفي كناية على أن الشجرة منه تنتج ألف رطل روماني .

ونسب بعضهم لحنبعل كونه ملأ إفريقيا بشجر الزيتون، في إشارة إلى أن القائد القرطاجي شغل جيشه بغراسة الزيتون بعد أن أنزله بحضرموت (على الشاطئ الشرقي التونسي).و بقي ينتظر إشارة البدء في المعارك ضد الرومان .و قد وجد قيصر عندما أنزل جيشه في نفس المنطقة أن حقولا فسيحة تغطيها أشجار الزيتون الكثيفة في منظر خلاب وتنتج كميات كبيرة من الزيت اندهش لها ثم غنم منها ما استطاع إليه سبيلا.

و كان لتربية الخيول مكانة متميزة في اهتمامات القرطاجيين و النوميديين .و معلومات ماغون المتعلقة بتربية الخيول في مزارع خاصة يمكن إدراجها في إطار الطب البيطري فهي تخص العناية بالفرس منذ عملية التعشير (التلقيح) إلى تنشئة المهر وإلى ترويضه للاستعمال.و يظهر أن الحصان المحلي البربري barbe هو النوع الذي تنتمي إليه الخيول النوميدية-القرطاجية حسب الأوصاف التي عثرنا عليها في كتابات المؤرخين.

وكان الفلاحون ومربو الماشية من الأهالي يكثرون من قطعان الغنم و الماعز والبقر إلى درجة أدهشت المؤرخ بوليبيوس وهو يتجول في ربوع نوميديا، حيث قال بأنها كانت من الكثرة بحيث يتعذر على المرء أن يتخيل أكثر منها في بقية الأرض، وأن هذه الكثرة أغنت الريفيين عن الأعمال الزراعية فحصروا نشاطهم في القطعان وعاشوا مع القطعان.

وتذكرنا مشاهدة بوليبيوس بما أوردته الوثائق المصرية من الأعداد الضخمة لأنواع القطعان التي غنمها الفراعنة من الليبيين المهاجمين لمصر.

ما لدينا من معلومات خبرية حول النشاط التجاري من و إلى بلاد المغرب في العهد القرطاجي –النوميدي يتعلق جله بالحركة التجارية عبر البحر، وما يمس منه مجال الصلة التجارية مع الأقاليم الصحراوية ضئيل وغامض .. فيما يطبق صمت النصوص القديمة على العلاقات التجارية

الداخلية فيما بين المدن المستقلة والدول المغاربية، تاركًا البحث الأثري وحيدًا للكشف عن شواهد تلك العلاقة.

اهتم القرطاجيون على غرار أسلافهم الصوريين بالتجارة البحرية مستغلين موقع مدينتهم المتميز بين حوضي المتوسط ، فجعلوا منها بعد تحكمهم في الجزء الغربي من صقلية بوابة رئيسية لحركة السفن التجارية بين أسواق الشرق المتحضر و أسواق الغرب الطافحة بالمواد الخام الرخيصة و بتخلف أهلها حضاريًا. و هو وضع طالما استغله التجار الفينيقيون و اليونانيون و الأتروسكيون، ثم تمكنت قرطاجة من التحكم في زمامه بجمع شمل المدن التجارية الفينيقية في غرب المتوسط و توحيدها في وجه المنافسين اليونان .

أجمعت آراء الكتاب اليونان والرومان على وصف القرطاجيين و قبلهم الفينيقيين بالنباهة والعبقرية في مجال التجارة، وأكدت لنا الشواهد الأثرية عبر المجال الجغرافي الذي تحكموا في زمام تجارته دلالات تلك النعوت. وقد حذا حذو القرطاجيين رعاياهم المغاربة، فتمرسوا على تعاطي التجارة وما يتصل بها من مهن مكملة، وذلك بعد أن أدمجهم الفينيقيون ثم القرطاجيون معهم في مستوطناتهم ودفعوا بهم إلى مناطق أخرى عبر جزر المتوسط و على السواحل الأطلسية كقوى داعمة للاستيطان التجاري القرطاجي . وبذلك برز النوميديون عندما تراجعت قوة القرطاجيين بعد الحرب البونية الثانية كقوى تجارية تطمح للنهوض بالإرث التجاري في حوض المتوسط بدلاً من القرطاجيين وهو ما حاول تحقيقه العاهل مسينيسا ففوت الرومان عليه ذلك .

اقتضت طبيعة المجتمع القرطاجي القائمة على ممارسة العمل التجاري أن تتم تنشئة أفراده منذ الصغر على خصال حميدة و سلوكات نفعية مرنة إزاء الآخرين كالأمانة وروح التآزر والتحلي برباطة الجأش والسلوك السوي و الجرأة على التعامل مع الغريب مهما كان مستواه الحضاري مع الحرص على تعلم لغات الآخر وإتقان أساليب التفاهم معه.

ونجد في القصة التي أوردها هيرودوت حول طريقة القرطاجيين في مقايضة بضاعتهم مع قوم لا يعرفون لغتهم ولا علاقة لهم بهم ما يجسد بعض الخصال المذكورة.

كان على عاتق الدولة مسؤولية السهر على النشاط التجاري. فهي التي تؤمن الحركة التجارية وتحميها من الأعداء واعتراضات القراصنة و تنشئ المحطات و تبني المرافئ وتجهزها وتسعى لفتح أسواق جديدة في المدن الأجنبية عن طريق الاتفاقيات والمعاهدات التي تبرمها معها. وقد دأبت قرطاجة على الدفاع عن مجالها التجاري البحري الذي شمل الحوض الغربي للبحر المتوسط والشواطئ الأطلسية في الاتجاهين الأوربي و الإفريقي حتى شاعت عبارة " البحر الصوري Tyria maria" عند الرومان في وقت ما. و توضح بنود المعاهدات التي أبرمتها قرطاجة مع روما ذلك الاحتكار وتقننه. وتبرز مسؤولية الدولة على التجارة في تحصيل الرسوم الجمركية على البضاعة التي تدخل الموانئ وتباع في الأرصفة للتجار المحليين، وفي مراقبة البضاعة العابرة التي تفرغ في الموانئ القرطاجية كي تشحن في سفن أخرى تواصل الإبحار في اتجاه آخر طبقًا لاتفاقيات مع الدول المعنية بتلك البضاعة ، ويكون ذلك بحضور الممثلين الدائمين لتلك الدول لدى الدولة القرطاجية. و كان منهم الإغريق والأتروسك ثم الرومان. ومن الأعمال الكبرى التي كانت تنهض بها الدولة حماية السفن و تأمين تنقلها من اعتراضات القراصنة .ذلك أن البحر الأبيض المتوسط أكثر بحار الدنيا عرضة للسطو على السفن التجارية منذ أقدم العصور، حيث تعاطت الأقوام القاطنة على ضفافه أو في جزره أعمال الغزو ضد سفن الأعداء أو التي لا ترتبط معها بمعاهدات و لا تقوى على حماية نفسها.و تردد عند الكتاب القدامى أسماء قراصنة كثيرين اشتهروا بأعمال السطو والإجرام في حق البحارة أو ضد سكان المدن الساحلية

فاتخذت قرطاجة إجراءات عملية لحماية بحريتها التجارية، منها إنشاء أسطول حربي مهمته المراقبة والتدخل عند الضرورة و إقامة أبراج حراسة في الأماكن العالية المتوغلة في البحر (رؤوس)، تتبادل الإشارة المومئة للخطر.

وقد ورد ذكر تلك الأبراج في كتب الأقدمين الذين أطلقوا على بعضها " أبراج حنبعل Monumentum Anibal " كتلك التي شاهدوها في شواطئ إسبانيا و شمال إفريقيا.

كما حرصت قرطاجة على إبرام معاهدات مع دول أخرى لها مصلحة في تأمين الحركة التجارية البحرية يفهم من بنودها أن نوعًا من التعاون كان يحرص عليه الطرفان بما في ذلك تعقب الجناة ومعاقبتهم مهما طال الزمن ردعا لهم ولغيرهم.

انصرف اهتمام التجار القرطاجيين أكثر إلى المتاجرة في المواد الثمينة خلال الفترة المتأخرة و تخلوا تدريجيًا عن البضاعة الثقيلة كالرصاص والقصدير، وقد تراجع الطلب عليه بعد انتشار الحديد في التعدين و صناعة الأسلحة و العتاد الفلاحي وغيره. فكانت المقايضة منصبة على الفضة والذهب والمواد الغذائية والمنتوجات الحيوانية وما يلي ذلك، مما كان رائجا تسويقه في المجتمعات الحضرية بعد إعادة المعالجة أو التصنيع. ولدينا نص شاعت نسبته إلى المدعو " سكيلاكس الزائف Pseudo-scylax" وأرخ بعام 338 ق.م. يصف عملية مقايضة أجراها تجار قرطاجيون مع أفارقة على مقربة من المحيط الأطلسي تضمنت جلود الغزال والفيلة والأسود والنمور والعاج (أنياب الفيلة) مقابل بضاعة قرطاجية مصنعة كالعطور والحجارة الكريمة المصرية وأوانٍ فخارية أثينية. وقد لاحظ علماء الآثار وفرة شواهد البضاعة المصنوعة في الإسكندرية خلال العهد البطلمي و كثرة انتشارها في مدن العالم القديم و كان التجار القرطاجيون من مروجيها والمستفيدين من أرباحها.

و بشأن تجارة الصحراء، يبدو أن القرطاجيين انتبهوا إلى أن مواطن تبر الذهب الذي كانوا يقايضونه مع أقوام أفارقة (أثيوبيين كما يسميهم اليونانيون) عند مصب نهر النيجر في عمق الصحراء الكبرى، وأنه يمكن الوصول إليها انطلاقا من الساحل الليبي عبر مواطن الأقوام الليبية الضاربة في عمق الصحراء كالنازامون و الجرامنت، وهي أقوام مارست التجارة بين إفريقيا الوسطى والسواحل المتوسطية. وحسب هيرودوت فإن المسافة بين بلاد الجرامنت وشعب اللوتوفاج الضارب قرب الساحل المتوسطي تستغرق ثلاثين يوما. و لعل هيرودوت يعني المسافة بين إحدى المدن الساحلية الثلاثة(طرابلس ، لبدة، صبراتة) ومدينة جرمة Garama عاصمة الجرامنتيين . وحسب المؤرخ قزيل Gsell فإن المسافة المذكورة كان لها مسلكان: أحدهما ينطلق من لبدة و ينعطف شرقًا كي يتجنب الهضبة الحمراء ثم يمر ببونجم و سخنة ليخترق الجبل الأسود و منه إلى جرمة، و الثاني من طرابلس و يتجه صوب الجنوب مرورًا بميزدا والهضبة الحمراء وإيدري ليفضي إلى جرمة، ولكن هذا الطريق شاق على قصره . ويفترض نفس المؤرخ طرقًا أخرى تنطلق من مدن ساحلية في اتجاه الجنوب الغربي عبر غدامس ومنه إلى غات نحو السودان الغربي. ولم يكن القرطاجيون يخشون مصاحبة القوافل العابرة للصحراء حيث ذكرت نصوص يونانية اسم رحالة اسمه ماغون قطع الصحراء ثلاث مرات غدوا ورواحًا و أنه كان يتناول أطعمة جافة و يحد نفسه عن شرب الماء أثناء السفر للتقليل من ضرر العطش.

واكتشف التجار القرطاجيون و الليبيون العقيق الصحراوي فأضافوه إلى البضاعة التجارية الإفريقية و روجوه في الأسواق المتوسطية حتى سمي من طرف الإغريق بالحجر القرطاجي. و قويت صلة شعوب الصحراء بالمدن الساحلية عن طريق التجارة وتبادل المنافع ، فانفسح المجال للتأثيرات الحضارية، ومهدت السبل أمام الرومان فيما بعد كي يستفيدوا من

ذلك العمق الصحراوي ـ الإفريقي حيث توغلوا نحو غدامس وفزان و أخضعوا مملكة جرمة بحد السيف. فهل التجارة مطية للاستعمار ؟

الحضارة الكنعانية ـ الليبية:

أقدم حضارة مدنية عرفتها بلاد المغرب هي التي بناها الكنعانيون (كما يسمي الفينيقيون أنفسهم) وساهم في إنجازها الليبيون (المغاربة) بفعل الاحتكاك والتفاعل الإيجابي الذي حصل بين الطرفين على مدى أجيال عديدة وما كان يربط بين الكنعانيين الوافدين وبعض الأقوام الليبية من صلات عرقية قديمة ووشائج ثقافية نسجتها السنون والأحداث. وأبرز سمات تلك الحضارة ما تعلق بالتنظيم الاجتماعي والسياسي والإداري للدول والممالك وأوجه التعبير عن الأفكار والمعتقدات.

النظام الاجتماعي و السياسي و الإداري:

إن استقراء مضامين النصوص التاريخية وتحليل شواهد المخلفات الأثرية المتعلقة بالحضارة الكنعانية-الليبية يساعدنا على تصور البنية الاجتماعية في المدن خاصة بقدر نسبي من الوضوح .

كان مجتمع المدينة متنوع الأعراق و الأصول تقاطر أفراده من جهات مختلفة.فالقرطاجيون مثلا لم يكونوا يميزون بينهم و بين الأعراق الأخرى المنحدرة من أجناس مغايرة لهم. فبعض القادة البارزين كانوا أنجالا لأبوين من جنسيتين مختلفتين. فهذا أميلكار الذي تبوأ عرش السلطة في العهد الماغوني كانت أمه سيراقوسية و أبوه قرطاجي. وكان لحنبعل مساعدان من أصل سيراقوسي وأمهما قرطاجية، كما كانت القرطاجيات تتزوجن من الأمراء و الملوك النوميد .و تشير النصوص إلى أن بعض عظماء قرطاجة كانوا هجينا من زواج مختلط ليبي-كنعاني. و تبين من الجماجم المعثور عليها في المقابر القرطاجية على أن أصحابها من أعراق متباينة. وكذلك أصحاب التقدمات القربانية إلى المعبودات الكنعانية فيهم ليبيون حسب أسمائهم المدونة على الأنصاب النذرية، ومنها: مغرسن Megarsn وسقلان Saqalan وملمان Malman وقوفان Qofan وييتان Yeptan ومغراوة Magraua ولوبي Louby الذي مؤنثه لوبات Loubat (وفي مدونة النقوش السامية CIS الكثير من هذا). كما أن بصمات الأسماء الإغريقية واضحة كذلك في المجتمع المدني خاصة (قرطاجة، قرطة = قسنطينة) وهي مدونة في شواهد القبور والأنصاب النذرية. ولا بد أن سحنات البشر كانت مختلفة في ذلك المجتمع الخليط وكذا ملابسهم و عاداتهم الخاصة. ومن الأدلة الأنثروبولوجية على غياب الصفاء العرقي الكنعاني في المدن أن دراسة بعض الجماجم من قبور قرطاجة بينت تشابهها الشديد بجماجم الليبيين التي عثر عليها في مدن إفريقية أخرى. ولم يتمكن الباحثون من تمييز ما يسمى بالعرق السامي (الكنعاني) لا في قرطاجة ولا في مدن فينيقية عن الأنواع الأخرى. فالسامية لفظ غير مقنع لعلماء الأعراق لارتباطه باللغة أكثر من ارتباطه بالجنس.

وتحدثت النصوص عن قيام مجتمع خليط فينيقي ـ ليبي في المدن و الأرياف المحيطة بها في الأقاليم الخاضعة للدولة القرطاجية، وكان هذا المجتمع المتنوع الأعراق المشبه برقعة الفسيفساء تراتبيا في السلم الاجتماعي. ويظهر ذلك في النقوش المتعلقة بالقربان حيث حرص أصحابها على تدوين أسمائهم والعائلات التي ينتمون إليها مع المهن والوظائف التي يشغلونها في حياتهم اليومية مما يسمح بتصنيف المعنيين بتلك النقوش ضمن رتب اجتماعية بدءاً من الحكام (الشفاط) إلى الحرفيين البسطاء. ويأتي على رأس الهرم الاجتماعي فئة الكهان نظرًا للمكانة المتميزة التي كانت تحظى بها الشعائر والطقوس الدينية . فالقائمون عليها يمثلون الوساطة بين المعبود وأتباعه؛ لأنهم مخولون وحدهم ترجمة إرادة الآلهة. ثم إن الكهنة كانوا مربين والمعبد هو المدرسة التي تترعرع فيها الناشئة. ثم الطبقة الأرستقراطية التي كان بعض أفرادها العريقين يمارسون

الكهانة وبعضها الآخر اكتسب أحقية الانتساب بالثروة وممارسة المسؤوليات العليا في الدولة. و كان أعضاء مجلس الشيوخ (جيروزيا Gerousia) والموظفون الكبار في الدولة ينتخبون أو يعينون من هذه الطبقة الوجيهة ، وبذلك تحكمت الأرستقراطية في السياسة و الاقتصاد معًا، فإلى جانب نفوذها في الدولة، كانت تمتلك الأراضي الزراعية والسفن التجارية و ورشات الصناعة وغيرها. ثم تأتي الطبقة الدنيا في الترتيب لتشمل القاعدة الشعبية العريضة، وكانت تضم العمال الأجراء والحرفيين والفلاحين والبحارة وغيرهم.

مر النظام السياسي و الإداري عند القرطاجيين خاصة بمراحل و تطورات كان آخرها نظام جمهوري تتسم مؤسساته بالسمة الديمقراطية ، التي سادت ذلك العصر في المدن اليونانية. و قد امتدح الفيلسوف اليوناني أرسطو دستور قرطاجة و صنفه ضمن أفضل دساتير عصره ، و هو يعهد بسلطات الدولة إلى مؤسسات يقف على رأسها الحاكمان (الشافطان) على منوال الملكين في أسبرطة و القنصليين في روما. لكن صلاحياتهما لا تشمل القيادة العسكرية التي أصبح للجيش رأيه فيها بانتخابه من يراه مناسبا لها . وكان الشافطان ينتخبان من طرف الجمعية العامة للشعب لمدة سنة . وقد كان لبعض المدن الداخلية أكثر من شافطين كما هو الشأن في مكثر . وكان يساعد الشافطين في قرطاجة مجلس قضائي أعلى في صفة محكمة عليا تتشكل من 104 أعضاء يتم انتخابهم على مدى الحياة من بين الحكام الأكثر كفاءة و عدلا ووجاهة. و لهذه المحكمة سلطة عليا على الشفاط والقادة العسكريين ، و لعلها هي التي كانت تحاكم القادة المهزومين في الحروب أو المتآمرين من أجل اغتصاب السلطة.

أما مجلس الشيوخ القرطاجي فكان يماثل مجلس السيناتو الروماني. و يظهر أن عدد أعضائه بلغ ثلاثمائة عضو في الفترة الأخيرة من حياة قرطاجة، و كانت مهامه النظر في المسائل الكبرى كإعلان الحرب و السلم ، وهو الذي يستقبل بعثات الدول و يستمع لعروضها ويقرر الرد المناسب عليها وهو الذي ينتدب من بين أعضائه من يفاوض باسمه لدى مجالس الدول كذلك.

و للشعب مجلسه أو جمعيته العامة التي يمارس من خلالها سيادته، فهي تضم جميع المواطنين البالغين و ليست مفتوحة للعبيد والمعتقين والأجانب. وشروط الحصول على المواطنة في المدن القرطاجية ليس في مستوى الصعوبة التي كان عليها الحال بالنسبة للمواطنة في مدينة أثينا أو روما مثلا، إذ يكفي أن يكون الأب قرطاجيا . وكانت الدولة تمنح المواطنة للأجانب بقرار ترفيع عندما ترى المعني بها صالحا لذلك. كان مجلس الشعب يعقد اجتماعاته في الساحة العامة بدعوة من الشافطين (الحكام) للتداول في الشؤون الداخلية و الخارجية و يرفع اقتراحاته وتوصياته إلى مجلس الشيوخ . و يظهر أن نسبة المتمتعين بالمواطنة كانت مرتفعة في المدن التابعة لقرطاجة و التي كان نظامها متماثلاً معها. فهذه مدينة قرطاجنة التي أسسها صدر بعل عام 229 ق.م. بجنوب إسبانيا قد وجد الرومان بها عندما اقتحموها عام 209 عشرة آلاف رجل متمتع بالمواطنة القرطاجية و ألفي رجل في وضعية الأجانب. و جاء في نصوص معاهدة حنبعل – فيليب الثالث المقدوني عام 215 ق.م.أن جميع أتباع قرطاجة يتمتعون بنفس الحقوق ويخضعون لنفس القوانين التي تسري على القرطاجيين أنفسهم وفي ذلك إشارة إلى التمتع المتساوي بالحقوق السياسية والمدنية بغض النظر عن أماكن إقامتهم في تراب الإمبراطورية القرطاجية.

التنظيم السياسي و الإداري في ممالك النوميد والمور:

كان يغلب على النظام السياسي-الإداري في الممالك النوميدية والمورية الطابع العشائري في الأرياف والبوادي والمدني في الحواضر. ذلك أن تلك الممالك قامت على أسس عشائرية، تكوّن القبيلة نواتها الصلبة وتعضدها

تحالفات العشائر المجاورة، ثم توسعت وفرضت سلطانها على المدن والحواضر. وحسب نقوش مدينة دوقة، فإن صاحب السلطة عند النوميديين كان يدعى أغليد(gldn) ، وقد تواصل استعمال هذا اللفظ إلى العهد الإسلامي حيث كان يطلق على الشخصية المرموقة ذات السلطة أوالنفوذ. ومن ثم قال ابن خلدون أنه يعني السلطان. ويظهر أن عبارة أغليد ظلت محلية التداول ومحدودة الاستعمال بحيث لم ترد في وثائق الملوك الكبار أمثال سيفاكس ومسينيسا وغيرهما، إذ نجد بدلاً من أغليد عبارة "ملك" الكنعانية (صفك حمملكة – مسنسن حمملكة) منقوشة على مسكوكاتهم الرسمية. ويبدو لي أن لفظ أغليد لقب شرفي وليس اسمًا وظيفيًا مثل لفظ "ملك"، ومن ثم فضل الملوك أن يحملوا لقب "ملك" لما فيه من معاني السمو والرفعة والتملك بدلاً من أغليد ذي المعنى المحلي المحدود.

تكرس النظام الملكي في نوميديا وموريطانيا على بنية اجتماعية واقتصادية متنوعة العناصر بفعل العوامل الجغرافية والتباين الثقافي والعرقي مع تفاوت حضاري بين أقاليم المغرب. وكان وضع السكان يتراوح بين الرعاة المتنقلين المعتمدين في معاشتهم على دخل متحرك (تربية المواشي) والحضر الممارسين للنشاط الحرفي و التجاري و المزارعين المستقرين في القرى والأرياف ، وهذا التنوع في البنية البشرية لرعايا تلك الممالك اقتضى مرونة في إدارة شؤون المملكة ومعاملة تلك الفئات المتباينة.

مجتمعات المدن:

كان سكان المدن الساحلية من أعراق مختلفة. منهم المنحدرون من أصل ليبي ومنهم من أحفاد المهاجرين الفينيقيين ومنهم المولدون من الطرفين بالإضافة إلى عناصر متوسطية مختلفة تقاطرت على المدن الساحلية لتأجير خدماتها ، سواء كمحاربين متمرسين أو حرفيين مهرة في مجالات البناء والتعدين وما إلى ذلك من مهن و صناعات العصر .

وكان هؤلاء السكان خاضعين فيما سبق لسلطة الدولة القرطاجية أو معترفين بهيمنتها منذ أن تزعمت السيادة على حوض المتوسط الغربي، فكان النظام في تلك المدن وما والاها من المدن الداخلية المتأثرة بها مماثلا لنظام المدن الفينيقية الموصوف بكونه نظامًا أرستقراطيًا يمكن نعته بجمهورية التجار، على اعتبار أنه كان مكرّسًا لرعاية مصالح الطبقة المهيمنة على مجتمع المدينة. فالمدن مستقلة عن بعضها من وجوه عدة و لا تدين بالولاء لقرطاجة سوى من حيث الاعتراف لها بالسيادة الخارجية والقيام إزاءها بواجب الحماية والمؤازرة عند الاقتضاء. و قد تطور نظام المدن و تحسن أداؤه متأثرًا بما كان يحدث من تقدم في أنظمة الحكم في المدن اليونانية التي استفادت كثيرا من التقدم الفكري والتنظيم السياسي و التشريعي الذي جاء به فلاسفة ومشرعون و مصلحون سياسيون أمثال أفلاطون وبركليس و صولون و أرسطو و غيرهم.

ومن أبرز الهيئات الحاكمة في المدن مجلس بلدي مكون من الأعيان المنتخبين و على رأسهم قاضيان يشرفان على الشؤون العامة و يُحتكم إليهما فيما يجد من الأمور و المنازعات . و قد تبين لنا من خلال نص مزدوج اللغة (بونية-ليبية) و جد منقوشًا على لوح تذكاري يعود إلى عهد الملك مكيبسا، عثر عليه في خرائب مدينة دوقة، و هي من أقدم و أهم المدن النوميدية، ، أن السلطة الحاكمة في هاته المدينة كانت مشكلة كالآتي:

- الحاكم العام الملقب بالأغليد (الأمير)، وكان يمثل الملك و يمارس سلطاته في المدينة لمدة سنة.
- ضابطان عسكريان برتبة قائد مائة مقاتل .
- ضابط مساعد برتبة قائد خمسين مقاتلاً .
- ثلاثة موظفين مدنيين.

فالهيئة الحاكمة تتشكل هنا من ستة أشخاص منهم ذوو الرتب و الوظائف العسكرية و كانوا أكثر أهمية و أقوى نفوذًا. ثم أصحاب المهام المدنية والدينية. وباعتبار أن دوقة

مدينة داخلية واقعة في عمق التراب النوميدي و كان جل سكانها ليبيين و شديدي التأثر بالحضارة الفينيقية، فإن تشكيلة الهيئة الحاكمة فيها تعد نموذجًا جيدًا لما كان عليه حال المدن النوميدية الأخرى من حيث النظام الإداري و علاقة الرعية بالملك و طبيعة السلطة السائدة في أرجاء المملكة .فالهيئة الحاكمة في مدينة دوقة كانت ذات طابع عسكري لكنه يعكس النظام العشائري المتبع من طرف ملوك نوميديا ، دون أن يهمل العنصر المدني في تسيير شؤون المدينة على الطريقة القرطاجية (البونية).

وقد احتفظت لنا وثائق بعض المدن الأخرى بما يشهد على التعامل بالنظام البوني الموصوف "بالشفاط" (القضاة) الذين كانوا على رأس المجالس البلدية، كما تبين من بعضها أن أسلوب النظام القرطاجي هذا قد احتفظ به الرومان فيما بعد و مزجوه بالنظام العسكري النوميدي الوارد ذكره في نقيشة دوقة سالفة الذكر. ومن أبرز صفات هذا النظام أنه يعتمد أسلوب السلطة الثلاثية المكونة من أمير (أغليد) وقاضيين اثنين وضباط عسكريين. غير أن هذا النموذج الثلاثي لا يمثل قاعدة إذ وجدنا نماذج أخرى للسلطة الثنائية المكونة من الأمير و القاضيين فقط، و هو نموذج ساد المدن النوميدية بعد سقوط المملكة عام 46 ق.م.حيث اختفت السلطة العسكرية الممثلة للملك و عوضتها سلطة تمثل سيادة روما على المدن.

ونستشف من نصوص المؤرخ اليوناني بوليبيوس، وكان معاصرًا للملك مسينيسا وصديقًا له أن العلاقة بين المملكة ومجموعات القبائل والعشائر الحليفة الضاربة في أعماق الريف والسهوب والصحراء، كانت مرنة بحيث تضمن تواصل ولاء تلك الأقوام للعرش و تجعلها تنهض بمسائل الأمن و الاستقرار وتؤمن للدولة حاجتها من الرجال المقاتلين عند الاقتضاء. ويظهر أنه كان على رأس كل مجموعة (قبيلة-عشيرة) شيخ يمثلها فيزكيه الملك، وهو يرأس مجلس أعيان المجموعة. وكان ذلك المجلس أشبه ما يكون بالهيئة " لجماعة Leg " (تاجماعث) الوارد ذكرها في المصادر بلفظ (مزراح mzrah). وكان ذلك المجلس يمارس صلاحياته كهيئة تمثيلية للعشيرة أو القبيلة بصورة مماثلة فيما يبدو للمجلس البلدي في المدينة. ولا نعلم إن كان رئيس تلك الهيئة – الجماعة يدعى أغليدا كما هو الشأن في المدن. وكان هؤلاء الأعيان أو الشيوخ سادة قومهم وممثليهم، فيقومون بدور الوساطة بين الملوك والأقوام التي يرأسونها في الأقاليم. و كان الملك يتخذ من بعضهم أعضاء في مجلسه الاستشاري، كما يكلف بعضهم بقيادة فصائل من المقاتلين في جيش المملكة أثناء الحروب.

الحياة الدينية والثقافية :

شهدت بلاد المغرب تلاقي معتقدات وثقافات مختلفة بتلاقي أقوام و أعراق بشرية على أرضها، أبرزها المعتقدات الليبية القديمة المتشابكة مع معتقدات الشعوب المجاورة كالمصريين والأفارقة الزنوج، ثم المعتقدات الكنعانية التي تأثر بها الأهالي فاعتنقوا المعبودات الفينيقية وتمسكوا بتقديسها وممارسة طقوسها حتى في العهد الروماني، مثلما أقبلوا على الثقافة الكنعانية فنهلوا منها واتخذوا من اللغة البونية (الفينيقية المغربية) لسانا للتعبير لفظًا وكتابة عن أفكارهم وخلجات صدورهم بحماس لا يقل حرارة عن حماسهم الوجداني إزاء المعبودات الكنعانية فمكنوا لهذه اللغة من التعايش مع لغتهم الليبية في تكامل ووئام قرونًا عديدة بعد زوال الدول التي نمت في كنفها و ازدهرت وهي: دولة قرطاجة وممالك النوميد و المور.

العادات الليبية و الكنعانية (البونية):

تتصف المصادر المتعلقة بأصول العادات والمعتقدات الليبية بالقدم، حيث ترتبط بعلاقة الليبيين بمصر التي احتفظت وثائقها بإشارات تتعلق بوصف جماعات التحنو والتمحو والريبو والمشواش الذين ضغطوا على مصر واستقروا فيها. ثم ما جاء عند هيرودوت الذي وضع كتابه حوالي سنة 438 ق.م. مما يجعله خارجًا عن زمان هذه

الدراسة. ومع ذلك فإن مضامين النصوص المتأخرة والشواهد الأثرية تتضمن معطيات فيها كثير من التطابق مع ما ورد في المصادر الفرعونية وعند هيرودوت، مما يشجعنا على القول بأن حياة الليبيين الاجتماعية لم يطرأ عليها تغير جذري أثناء الفترة الفاصلة بين الحضارة الفرعونية وبروز الحضارة القرطاجية - الليبية ببلاد المغرب لغياب العوامل المؤثرة في حياة الليبيين.

تظهر هيئات الليبيين في الرسوم الصخرية واللوحات الفرعونية وعلى الأنصاب في أوضاع مختلفة يتميز فيها الرجال بالشعر الطويل المعتنى بتصفيفه ، وتتدلى من الرأس ضفيرة على الصدغ بينما تبرز ريشة أو اثنتان في شكل متقابل ومائل على أعلى الرأس بالنسبة لأعيان القوم، مع عناية خاصة باللحية التي تبدو مدببة كما يظهر من رسم الملك سيفاكس على سكته، و يقول هيرودوت أن قبائل المقي Maces كان ذكورهم يحلقون شعر رؤوسهم حتى الجذور ويتركون شوشة في أعلى الرأس. بينما تظهر خصلة الشعر متدلية على القفا عند قبائل المخليس Machlycs. في حين يبقي ذكور قبائل الأوس Auses الشعر يطول على جباههم و يترك رجال قبائل المكسي Maxyes شعورهم على الجانب الأيمن من الرأس ويحلقون الأيسر. وهذا التباين ذو صلة بهوية كل قبيلة في تقديرنا. وقد تواصلت عادة ترك جزء من شعر الرأس ينمو إلى العهد الروماني حيث يذكر الكاتب المسيحي ترتوليانوس Tertulienus أن النوميديين يحلقون رؤوسهم حتى الجذور ما عدا أعلى الرأس. غير أن هذه التسريحة لم تظهر على رسوم الأشخاص في الأنصاب والعملات المنسوبة إلى النوميديين. إذ يبدو أن هذه العادة كانت شائعة أو متبعة في عامة الناس، كما أن رسوم الجنود المور في عمود تراجانوس بروما لم يظهر على أصحابها هذه التسريحة ولكنهم برزوا بشعر متميز بتسريحة لولبية مدرجة.

أما ثيابهم فقد أظهرت الرسوم الفرعونية الأسرى الليبيين عراة تحقيرًا لهم، أو يرتدون تنورات قصيرة .لكن أعيانهم و ملوكهم برزوا في معاطف جميلة موشاة بزخارف. كما بدت نسوتهم بثياب أنيقة مكونة من تنورة طويلة وصدار أو فستان. وأظهرت لنا الرسوم الصخرية ثياب الرجال العاديين من جلود الحيوانات في شكل معاطف مشدودة في أعلى الكتف، وهو ما يتطابق مع شهادة سترابون وميلا. وكان الميسورون يرتدون معاطف صوفية (Sagum) في بداية الأمر ثم عمت فصارت لباسًا عاديًا حيث يذكر بروكوب (القرن السادس الميلادي) أن المور (البربر) يرتدون ثيابًا صوفية في جميع الفصول. و لعل لتلك الثياب علاقة بالبرنس الذي قال عنه ابن خلدون إنه كثير الانتشار بلونه الأسود عند البربر. لكن الأعيان والميسورين كانوا يقتنون ثيابا أجنبية. ولم يكن غطاء الرأس عادة شائعة حيث نرى الرؤوس حاسرة في الرسوم. ولكنهم تأثروا بالقرطاجيين فاستعمل بعضهم لفافة أو عمامة. وكان الفلاحون يقون سيقانهم العارية بلفائف جلدية أو شعرية وينتعلون أحذية بسيطة من جلد متين مشدودة إلى الرجل.

أما الزي البونيقي فهو نفسه الزي الكنعاني (الفينيقي) و هو عبارة عن ثوب واسع و طويل حتى القدمين ، يكون أحيانا فضفاضًا، و يشد على الخصر بحزام أحيانا أخرى وهو ما وصف من طرف الكتاب الإغريق و اللاتين بالجبة الفينيقية Tunicata poenulus و كان ذا أكمام طويلة و عريضة تغطي الذراعين حتى الأيدي ومنه قصير الأكمام الذي يترك الزند عاريا .و ربما الثوب الذي وصفه ترتوليان بالمعطف Pallium ذي الشكل المربع الذي يربط على الخصر ويشد على الكتفين فيتدلى على الجسم، له علاقة بالجبة الفينيقية . وقد برز هذا الثوب في رسوم الأشخاص الممثلة في الأنصاب .و هناك ثوب للرجال والنساء عبارة عن قطعة طويلة تلف العنق وتتدلى على الجسم كما نلاحظها في رسوم الأنصاب كذلك. و كان لباس القدم حذاء شرقي أو "صندال" أما غطاء الرأس فكان على عادة الشرقيين قبعة أو قلنسوة أو عمامة كما يظهر ذلك في رسوم الأنصاب

أيضًا، و كان الزي تبعًا لوظائف الأشخاص ، فلباس الكاهن غير لباس الموظف، ولباس التاجر يختلف عن لباس الفلاح لا من حيث شكل الثوب ولا من حيث نوعيته، أما لباس المرأة فكان يشبه ما نراه عند الإغريقيات فكان طويلا يضيق عند الخصر وله أكمام قصيرة، ولما يخرجن يضربن على رؤوسهن بمعطف يصل إلى القدمين تحشمًا على عادة المشرقيات.

ليس من شك أن مظاهر الحياة اليومية البونيقية من ملبس ومأكل ومسكن و سلوكات عادية قد كانت محل تقليد من طرف المغاربة بحكم المعايشة والاحتكاك الدائم بين الطرفين خاصة في المدن وما جاورها ، ولذلك لاحظنا تخلي الطبقة الوجيهة من النوميديين و المور عن عادات ليبية قديمة والتحلي بدلاً منها بعادات حضرية ذات طابع كنعاني أو أغريقي ومنها بعض مظاهر اللباس والحلاقة كما يظهر في رسومهم على النقود والتماثيل والأنصاب وهذا التقليد مظهر من مظاهر الانصهار الحضاري الكنعاني – الليبي في بلاد المغرب.

إذا صرفنا النظر عن معبودات الليبيين كما صورتها الوثائق المصرية باعتبار البعد الزمني، فإن هيرودوت أكد على أن جميع هؤلاء القوم يقدمون القربان للشمس والقمر. وهي شهادة أعاد ذكرها ابن خلدون بشأن البربر عند الفتح الإسلامي . ومعروف أن عبادة الأجرام السماوية اشترك فيها المشارقة والمغاربة على السواء حيث تعلقت بها معتقدات أقوام الحضارات المصرية والرافدية والكنعانية.كان تعلق الليبيين بمعتقداتهم شديدًا وإحساسهم بالدين قويا. ومن المعبودات التي تبوأت منزلة رفيعة لديهم أمون المعبود الذي كان شأنه رفيعًا في مدينة طيبة بمصر، حيث اقترن اسمه هنالك بإله الشمس رع. وكان معبده في واحة سيوه جنوب برقة لما زاره الإسكندر المقدوني كما أسلفنا. و قد تواصلت عبادته في مختلف العهود حتى العصر البيزنطي ، ولعل شدة تعلق الأهالي بآمون جعلهم يقبلون بحرارة على بعل حامون الكنعاني لتقاربهما وتماثل طقوسهما خاصة من حيث العلاقة بقوى الطبيعة والكواكب . فبعل حامون مركب من بعل، بمعنى السيد أو الرب، وحامون الذي يعني الحر أو الجمر و اللهب حسب تفسير اللغويين المختصين، أي أن له علاقة بقرص الشمس ، فهو سيد جمر الشمس، ويعزز ذلك اقتران رسم القرص في الأنصاب التي تحمل اسم بعل حامون. وكان ينظر إلى هذا المعبود على أنه حامي قرطاجة وشعبها، فكانت ترضيته تقتضي التضحية له بالعزيز الغالي. ثم إن طريقة الاحتفال بتقديم القربان البشرية له توضح العلاقة بين حرارة الشمس وجمر الأتون الذي ترمى فيه القرابين البشرية إرضاء لهذا المعبود القاسي كي يجدد قواه ويتمكن من حماية المتضرعين إليه.

وعلى ما في تباعد الطقوس الخاصة بآمون و بعل حامون فإن علاقتهما بالشمس تضمر بعض التفسير لتعايشهما في شمال إفريقيا و تعلق أتباعهما الكثيرين بطقوسهما على ما فيها من كلفة.و قد أصبح بعل حامون في العهد الروماني يرمز لعبادة الشمس و يقدم له كُهَّانُه القرابين البشرية كما كان يفعل أسلافهم في العهد القرطاجي بتعبير توتولياتوس. وجسَّدَ الأفارقة بعد أن "تليتن" لسانهم (صاروا يتحدثون باللاتينية)، تواصل اعتقادهم في معبودهم الكبير هذا عندما أصبح يدعى ساتورنوس Saturnus بأن بنوا له معبدًا باسمه في مدينة دوقة على أنقاض معبده البونيقي النوميدي بدليل وجود أنصاب نذرية لهذا الأخير تحت أرضية معبد ساتورنوس. فهل اخترقت الرومنة الغشاء اللغوي و نفذت إلى ألباب المغاربة في المجال الروحي؟

ومن أشهر المعبودات الشعبية من حيث التمثيل على الأنصاب النذرية خاصة هي تانيت التي يظن أن لها صلة بنيث الليبية المذكورة في الوثائق المصرية. ويميل البعض إلى القول بأنها معبود محلي تزاوج مع المعبود بعل حامون

حيث يظهر الثنائي بصفة شبه دائمة معا و في صيغة يظهر منها صلة التلازم بين الذكر والأنثى : (تانيت فبني بعل) بمعنى قرينة بعل أو وجهه . وقد ورد في نقش : "إلى الأم إلى السيدة فبني بعل". وهي ترمز عمومًا إلى العطاء والخصوبة والتواصل . ففي الرسوم التي تصحب رمز تانيت على الأنصاب كالهلال والقرص والصولجان والفطير وعناقيد العنب أو ثمر الصنوبر ما يقوي هذا التفسير. كانت تانيت في شمال إفريقيا وخاصة بالنسبة لقرطاجة والمدن الكبرى بمثابة عشتار في بابل وآشور وأنات في سوريا واللات عند العرب الشماليين، ولعلها نفس المعبود بأسماء مختلفة . ومع ذلك لم يرد لفظ تانيت في النصوص الإغريقية واللاتينية ، وجاء بدلا منه اسم "جونو" بنفس الخصائص مما جعل بعض المؤرخين يطابق بينهما . وحسب سيسيرون فإن مسينيسا قدم إهداء لمعبد جونو في مالطة باللغة البونية ولعله يعني بذلك تانيت . وقد بجل الرومان جونو الكنعانية لما أطلقوا اسمها على أول مستعمرة أنشأوها على أنقاض مدينة قرطاجة فسموها مستعمرة جونو القرطاجية (كولونيا يونيا كرطاقو colonia Iunia Carthago) وفي خرائب دوقة معبد جميل شيد في القرن الثالث الميلادي لجونو. وحظيت معبودات كنعانية أخرى بمكانة دينية في شمال إفريقيا منها ملقرت (إله المدينة – رب المدينة وحاميها) وهو المدعو هيراقليس عند اليونان ، وقد عثر على شواهد لطقوسه في مغارة قرب طنجة، وانتسب إلى ذريته الملك يوبا الثاني بدليل العبارات المنقوشة على قطع من عملته . وكان معبد ملقرت في مدينة قادش بجنوب غرب إسبانيا كثير الشهرة وله كهان يتميزون بحلق الرؤوس ولبس الثياب الصوفية.

ويبرز التداخل و الانصهار الديني و الروحي بين الكنعانيين و الليبيين في الأسماء التي كان جلها مركبًا أو مشتقًا من أسماء الآلهة ومن صفاتهم . إذ تحفل الأسماء المنقوشة على الأنصاب وكذا الواردة في النصوص التاريخية القديمة بهذه الخاصية و تتشابه إلى حد اللُبس . إذ يظهر أن الناس كانوا ينشدون البركة وزين الفال بإطلاق أسماء الآلهة على أبنائهم ويرون في ذلك تقربًا إليها واحتماءً بها ، من ذلك: عبد شمون ، حنبعل (=مختار بعل)، متون بعل (=هبة بعل)، حانو(=المفضل)، عبد ملقرت (=عبد ملك القرية أو عبد رب المدينة). وقد حمل كثير من أبناء وأحفاد مسينيسا على ما كان يكن لقرطاجة من مشاعر العداء، أسماء من هذا القبيل : أذربعل ، صدربعل ، مستبعل.

كان للديانة مكانة متميزة في الحياة اليومية عند القرطاجيين و النوميد على السواء .فكان يرعى شؤونها كهان منتظمون في مجامع تضم في صفوفها أعضاء من صفوة العائلات المرموقة في المجتمع. وكانت البعثات الأجنبية تقوم بواجب التبجيل والتشريف لمعبودات الدولة الرسمية. و لعل ذلك كان ضمن الاعتبارات البروتوكولية ، وكان من المتعارف عليه إشهاد معبودات الطرفين على إبرام المعاهدات بذكرها في مقدمة نص الاتفاق كما هو الحال بالنسبة للمعاهدة التي أبرمها حنبعل مع فيليب مقدونيا عام 215 ق.م. وكانت النذور عادة شائعة وكثيرة الانتشار بين الناس(معبد الحفرة بقسنطينة) وهو سلوك يعبر عن التقرب من الآلهة والوفاء بالوعود، وينم عن ورع و تقى. وجاء عند ليفيوس أن حنبعل كان شديد الورع حيث قام بزيارة معبد ملقرت في قادش وتضرع له قبل شروعه في الحرب ضد روما عام 218 ق.م. ولعل إهداء الملك مسينيسا لمعبد جونو السالف ذكره لا يبتعد عن هذا السياق .

اللغة:

ليس هينًا رسم معالم المشهد الثقافي في بلاد المغرب بوضوح كاف على مدى ثلاثة قرون زاخرة بالتقدم الحضاري المتنوع ، في عجالة يقتضيها حيز هذه الدراسة المحدود. لذلك سنكتفي بالإشارة إلى صور التعبير عن بعض ذلك المشهد ممثلة في اللغة ومدى التواصل بها مع لمحة عن العمارة .

إن استقراء النصوص التاريخية و النقوش الأثرية يدعو إلى القول بأن بلاد المغرب عاشت تعددًا لغويًا منذ زمن مبكر .فقد ذكر هيرودوت أن الجرامنتيين يتحدثون لغة إثيوبية (إفريقية) و أن أهل واحة سيوه كانوا يتكلمون لغة مزيجًا من الأثيوبية والمصرية. ووصف أميانوس (Ammianus) في القرن الرابع الميلادي لهجات المعاصرين له من الأفارقة بأنها متعددة، و هو يقصد ما اصطلح على تسميته بالليبية و البونية . و لكل من البونية و الليبية شواهد أثرية ممثلة في النقوش لكن بتفاوت في الأهمية من حيث احتواء تلك النقوش على المادة التاريخية المنشودة من طرف المؤرخين . إذ بقدر ما نلاحظ صلة النقوش البونية بالحياة الثقافية العامة والمعتقدات والإدارة والمجتمع بقدر ما نسجل اقتصار الليبية على المجال الجنائزي والتذكار الفردي مما حرمها من الأداء التوثيقي للأحداث.

اللغة الليبية:

ظلت الليبية طي النسيان إلى أن تم اكتشاف النقش التذكاري المزدوج اللغة (بونية-ليبية)ضمن أنقاض معبد ليبي-بوني في مدينة دوقة عام 1631م على يد طوماس داركوس Thomas d’Arcos ثم أمكن الشروع في فك رموزها من طرف باحثين أمثال هومبيرت J.E. Humbert و دي صولسي E.de Saulcy منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر. وجمعت نقوشها في الثلاثينات من القرن العشرين على يد الراهب شابو. وقد اتضح أن النقوش المؤرخة منها لا يتجاوز أقدمها القرن الرابع ق.م. و بلغت نسبة تهجئة حروفها حتى الآن حوالي الثلثين. و يحلو لبعض الباحثين إطلاق تسمية "ليبية بربرية " على هذه الأبجدية على افتراض أن سكان شمال إفريقيا منذ فجر التاريخ هم البربر الذين كانوا يدعون بالليبيين قديمًا. و بما أننا لسنا بصدد مناقشة آراء و فرضيات أو قناعات المهتمين بالدراسات البربرية، نكتفي بالإشارة إلى العلاقة الوظيفية بين الكتابة الليبية القديمة وبعض رموز (حروف) الكتابة التاركية في الصحراء.

أما مضمون اللغة الليبية فلا يزال إدراكه بعيد المنال عند جمهور الباحثين في هذا الحقل، مما لا يبيح القول بعلاقة الليبية باللهجات البربرية الحالية لا من حيث القيم الصوتية للحروف ولا من حيث دلالات ومعاني الكلمات و التراكيب اللغوية.

وبخصوص المجال الجيو- بشري لليبية فإن المواقع الأثرية التي عثر فيها على نقوشها تشمل بلاد المغرب كلها مع تفاوت من حيث كثافة الشواهد. ويتميز اتجاه قلم كتابتها بأنه من أسفل إلى أعلى في الأنصاب ، ومن اليمين إلى اليسار في النقوش المعلمية المزدوجة تماشيًا مع اتجاه الكتابة البونية . ولم يترتب عن تغيير اتجاه الكتابة تغيير في شكل الحرف، بل يتغير اتجاهه لا غير.

لا يزال البحث جاريًا حول علاقة الكتابة الليبية بالأبجديات القديمة .و يبدو لي أن القرابة الأكبر هي مع الخطوط الكنعانية-العربية القديمة، كالمعينية واللحيانية والصفوية.إذ ينبه تحليل الحركة الميكانيكية لقلم هذه الكتابات إلى صلتها بالليبية ، و تتضح تلك العلاقة أكثر بمقارنة جميع أشكال الحروف المتنوعة في كل كتابة من تلك الكتابات بالخط الليبي ، إذ يظهر تطابق كثير من حروفها بقيمها الصوتية مع الليبية، ويكون الاختلاف بسبب تحريف بسيط في اتجاه القلم أو وضعية الحرف الذي يأخذ شكلا هندسيا في الليبية (دوائر ، مربعات، متوازيات، زوايا....) وأشكالا انسيابية في الخطوط العربية المذكورة.

ونلاحظ أن الليبية التي عايشت البونية (الكنعانية) و كانت لسان جل الليبيين لم يصلنا منها أثر ثقافي مشهود يمكن أن يدفع المؤرخ إلى القول بأنها كانت لغة فكر و ثقافة.ذلك أن هذه الوظيفة ارتبطت تاريخيا بجارتها و شقيقتها اللغة البونية.

اللغة البونية (الكنعانية):

تكوّن اللغة البونية-الكنعانية عنصرًا حضاريًّا بارزًا في تاريخ المغرب.فهي أول لغة مكتوبة أبجديًا تعرف عليها المغاربة في زمن مبكر عندما كانت شمال إفريقيا و بلدان حوض المتوسط الغربي في وضعية تخلف حضاري كبير مقارنة ببلاد المشرق، و عن طريقها انتقلت عناصر الحضارة الشرقية والثقافة الكنعانية إلى بلاد المغرب.ثم أن هذه اللغة تبناها سادة القوم و نخبهم فأضحت لغة التعامل الإداري والعلاقات العامة والعبادات والشعائر، فاحتوت بذلك على معلومات تاريخية ذات صلة بالأحداث والتقدم الحضاري ليس فقط في المناطق التي سيطرت عليها قرطاجة و لكن في أقاليم الممالك النوميدية و المورية كذلك. ولما كانت لغة التعامل التجاري و الاتصالات والسلطة تأصلت و امتدت جذورها و تواصل استعمالها أثناء الاحتلال الروماني في بعض المدن والأرياف حتى القرن الخامس الميلادي كما هو الشأن في إقليم عنابة - قالمة بشهادة الأسقف أوغسطين الذي لم يخف تذمره من ذلك في مراسلاته إلى رؤساء كنائس أسقفيته.

ومن أكبر الشواهد الأثرية على تأصل اللغة البونية في العمق النوميدي محتويات خرائب معبد الحفرة بقسنطينة من الأنصاب النذرية المكونة من 300 نقيشة منها 276 بالبونية.و يدل تسليم روما بقايا مكتبة قرطاجة إلى أبناء مسينيسا عام 146 ق.م.على اعتراف ضمني بالهوية الثقافية للنوميديين الذين برهنوا على ذلك الانتماء بالعمل على نشر و تطوير الثقافة البونية في بلاد المغرب بعد القرطاجيين ، ومن الأمثلة على ذلك أبناء مسينيسا أنفسهم الذين كانوا ضليعين في اللغة البونية بحكم تعلمهم في مدارس قرطاجة. و أبرز دليل على ذلك المنحى يقدمه لنا الملك الكاتب يمسال الثاني (توفي سنة 60 ق.م.) حفيد مستنبعل بن مسينيسا ، فقد ألف كتبًا عديدة في التاريخ و الجغرافيا، وربما في علوم أخرى باللغة البونية.و قد استقى من تلك المؤلفات صلوستيوس Sallustius الروماني معلومات أفادته في تحرير كتابه "حرب يوغرطة" . وذكر أن يمسال كان محتفظًا بالمكتبة القرطاجية التي استلمها أجداده من القائد ايميلياتوس، مما يدل على أن معارف يمسال التي استند عليها صلوسنيوس كانت أصولها في الكتب القرطاجية. و يظهر أن آخر المستفيدين مما بقي من مكتبة قرطاجة يوبا الثاني عند و ضعه كتاب "ليبيكا" في تاريخ و جغرافية بلاد المغرب و هو كتاب نقل منه بلينوس معلومات متنوعة كثيرة حول طبائع الحيوانات والنباتات الإفريقية و غيرها من الأخبار المتضمنة في كتابه" التاريخ الطبيعي".

العمارة:

لعل الكارثة التاريخية الكبرى التي أحدثتها روما عام 146 ق.م. بتهديم مدينة قرطاجة عاصمة الحضارة الكنعانية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط و تسوية مبانيها بالأرض هي التي حجبت علينا شواهد منجزات تلك الحضارة في مجالات شتى، في مقدمتها العمارة و ما يتعلق بها من أوجه الإبداع الفني. ثم إن اختفاء المدن الليبية – البونية تحت أنقاض المدن الرومانية أواخر العصور القديمة واكتفاء المنقبين الآثاريين بالكشف عن معالم المدينة الرومانية و إحجامهم عن اختراق أرضياتها بحثًا عما تحتها من طبقات عمرانية ساهم هو الآخر في تعتيم النظرة إلى واقع العمران السابق للعهد الروماني .يستثنى من هذا موقع كركوان الذي نجا من هذه الظاهرة ، فكان بهذا الصدد بمثابة رسالة كنعانية-بونية أصيلة احتفظ بها القدر دفينة الثرى في الوطن القبلي التونسي، فكشف المنقبون فيه (والأخص محمد فنطر) على نماذج مهمة من العمارة البونية. ومنه أمكن التعرف إلى خصائص تخطيط المدينة ومميزات السكن الحضري وتجهيزاته وما يتبع ذلك. وبالرغم من اهتمام الناس الشديد بهياكل العبادة فإن شواهدها المعمارية لم يبق منها ما يفيد في التعرف إلى خصائصها ومدى تفرد أصحابها في أساليب البناء والإبداعات الفنية المرتبطة

بها.غير أن ما وصلنا من المنشآت يتعلق بالمدافن الليبية والبونية التي يمكن إدراجها ضمن أصناف منها: صنف محلي (ليبي-بربري) تطور من مدفن عادي بسيط و دائري الشكل يدعى "بازينا" تعود نشأته إلى أزمنة بعيدة ، ثم ارتقى فأصبح هيكلاً كبيرًا، و تأثر بأساليب العمارة المصرية و الإغريقية في مجال الزخارف الخارجية وفي غرف الدفن أحيانا. و من أمثلته قبر "مادغوس"-"المدراسن" قرب مدينة باتنة و "قبر الرومية" غرب مدينة الجزائر، وهما يعودان إلى فترة الممالك النوميدية -الموريطانية، حيث يعتقد أن ضريح المدراسن مثلاً يكون قد شيد في عهد الملك سيفاكس أو قبيله.لكن أيًا من الضريحين لا يحتوي على أثر يؤكد زمن إنشائه أو يشير إلى الآمر ببنائه ولا من كان مقصودًا بحفظ جثمانه . والصنف الآخر ذو تخطيط تربيعي فهو برجي الشكل و يحمل مواصفات أضرحة مشابهة في سوريا و بلاد الأناضول. و تحمل مسحة فنية إغريقية و مصرية تظهر بوضوح في نظام البناء و الزخارف الخارجية، و أفضل نماذجه ضريح دوقة الليبي-البوني الذي يعود إلى القرن الثالث أو بداية الثاني ق.م..

وإلى هذا الصنف ينتمي ضريح الخروب (قرب قسنطينة) المنسوب إلى مسينيسا خطأ و لكنه ليس بعيدًا عن زمانه ، ثم ضريح "سيغا " عاصمة سيفاكس الغربية مع اختلاف في التخطيط و المظهر الخارجي حسب تصور المختصين .و كذلك ضريح صيراته بليبيا وغيره. و قد تواصل تقليد هذا الصنف في العمارة الجنائزية أثناء العهد الروماني بشمال إفريقيا . وهناك صنف متأخر برز في منطقة فرندة(جنوب شرق و هران) يدعى محليًا "الجدار"، وهو يجمع بين الشكل الدائري و المربع ، حيث يقوم هيكله على أرضية وجدران مربعة ، بينما تأخذ قمته شكلاً قبابيًا على شاكلة "المدراسن"و " قبر الرومية". ويحمل تفاصيل مختلفة في غرفه الداخلية، وتوجد من هذا الصنف سبعة أضرحة متفاوتة من حيث الحجم والتخطيط الداخلي و حالة الحفظ .و هي كلها تعاصر ملوكا وأمراء مور محليين سيطروا على المنطقة في العهدين الوندالي والبيزنطي، وسنعود إلى شأنهم في مكان آخر من هذه الدراسة.

بلاد المغرب تحت السيطرة الرومانية:

الاحتـــلال:

تمثل سنة 146 ق.م.معلمًا بارزًا في ذاكرة المغرب التاريخية، ليس لأنها شهدت سقوط قرطاجة حطامًا تحت أقدام الجيش الروماني فحسب و لكن لأنها سجلت منعطفًا غير مجرى تاريخ بلاد المغرب.كانت أولى خطوات ذلك التغيير إنهاء كيان دولة عظيمة بإسهامها الحضاري في حوض المتوسط و إعلان إقليمها مقاطعة رومانية باعتباره غنيمة حرب جناها شعب روما المنتصر.و بانهيار " الحصن القرطاجي" أضحت بلاد المغرب كلها في تقدير الساسة الرومان منطقة أمن بالنسبة لممتلكاتهم في شمال إفريقيا وإسبانيا لكونها جزءاً مكملا لحوض البحر المتوسط الغربي الذي أصبح تحت هيمنة روما بعد زوال قرطاجة.

وهكذا وجدت مملكة نوميديا نفسها، وهي الحليف المتطلع لخلافة قرطاجة، داخل دائرة حزام الأمن الروماني الآخذ في الاتساع على شكل الدائرة الحلزونية، مما يعني أن وقوعها تحت سيطرة روما المباشرة أضحى أمرًا وشيك الوقوع. ومن الإجراءات التي اقتضاها ذلك الاهتمام إشراف القنصل سيبيون إيميليانوس على ترتيب شؤون خلافة مسينيسا الذي توفي والحصار الروماني مضروب على قرطاجة عام 148.ثم تكرار ذلك عام 118 ق.م. بعد وفاة ابنه مكيسبا الذي انفرد بالمملكة من دون أخويه غولوسا ومستنبعل.فجرى تقسيم المملكة بعده على ثلاثة فرقاء: وهم الأخوان أذربعل ويمسال من مكيبسا وابن عمهما يوغرطة ابن مستنبعل.غير أن ذلك التقسيم كان بمثابة فتيل أشعل نار الفتنة بين يوغرطة و ابني عمه، لم يخمد لهيبها الذي أتى على يمسال و أذربعل ولفح وجوه الجالية الرومانية في قرطة إلا بتدخل فيالق روما وقناصلها على مدى سبع

سنوات (112-105 ق.م.) صالت خلالها جيوش روما وجالت في تراب نوميديا و لم تنسحب إلا و معها يوغرطة مقفوصًا.

ودخلت نوميديا بعد هزيمتها عهد التبعية المطلقة واكتفت الأسرة المالكة بمسايرة الوضع الجديد وبما أفرزته الحرب من ترتيبات إقليمية حيث جزأتها روما إلى إمارات صغيرة و اقتطعت جزءها الغربي كافأت به حليفها الجديد بوكوس ملك موريطانيا على العون النافع الذي أزجاه للإيقاع بيوغرطة. وأصبحت موريطانيا بهذا الوضع الجديد مؤهلة لعمل مماثل لما كانت تقوم به نوميديا تجاه روما قبل أن يشق يوغرطة عصا الطاعة . وفي سنة 46 ق.م. ألغى يوليوس قيصر مملكة نوميديا عقب انتصاره في إفريقيا على خصومه أتباع بومبيوس متذرعًا بوقوف ملكها يوبا الأول إلى جانب خصومه و أنشأ على جزء من ترابها مقاطعة رومانية جديدة سماها أفريكا نوفا Africa Nova وكافأ مرتزقه سيتيوس Sittius على مساعدتهم له في تلك الحملة بأن أقطعهم الأجزاء الشمالية من نوميديا بما فيها مدينة قرطا Cirta .

وسمح لبوكوس الثاني بتوسيع حدود موريطانيا شرقًا إلى مشارف الوادي الكبير Ampsaga عند قرطا جزاء نشاطه العسكري ضد يوبا في تلك الحرب.و بذلك الإجراء ألحقت روما مصير نوميديا بمصير قرطاجة التي مر على ذكرى تدميرها قرن كامل (146-46 ق.م.) و كأني بيوليوس قيصر أراد الاحتفاء بتلك الذكرى على طريقة الفاتحين فقدم لشعبه تلك الهدية الثمينة.و استعاض الرومان عن دور نوميديا الهالكة في حزام الأمن بمملكة المور الواقعة خلفها، فبدت مملكة المور و كأنها أقوى حليف لروما. ولانعلم إن كان عاهلها بوكوس الثاني قد فكر فيما سيؤول إليه أمر تلك المملكة وقد دخلت بذلك الوضع الجديد ضمن "الدائرة الحلزونية " للأمن الروماني .

بعد سنوات قلائل حدثت ظروف مشابهة للتي أودت بنوميديا إلى الزوال نتيجة سوء اختيار عاهلها يوبا الصف الملائم في الحرب الأهلية الرومانية .فقد كان على كل من بوكوس الثاني حاكم موريطانيا الشرقية و بوغود حاكم موريطانيا الغربية أن يحسنا الاختيار بين أحد المعسكرين المتحاربين في إطار الحرب المدنية الرومانية التي تجددت بين أوكتافيوس وأنطونيوس، فانضم الأول لأوكتافيوس و ربط الثاني مصيره بأنطونيوس الذي انهزم فكوفئ بوكوس مرة أخرى بمملكة بوغود عام 38 ق.م. غير أن تلك المكافأة مالبثت أن عادت لصاحبها ساحبة معها مملكة بوكوس نفسها عقب وفاته سنة 33 ق.م.بذريعة أن الهالك لم يخلف وريثا يؤول إليه الحكم.و هكذا تم وضع موريطانيا الواسعة تحت سلطة إدارة عسكرية مارست تسيير شؤونها باسم الدولة الرومانية تحت إشراف أوكتافيوس الذي أصبح إمبراطورًا في تلك الأثناء إلى سنة 26-25 ق.م.عندها تدارك الإمبراطور الأمر و ولى عليها يوبا الثاني، الذي نقله قيصر إلى روما صبيًا عام 46 ق.م.و تم إعداده لمثل هذه المهمات .ومن سيرة حياته ندرك أن روما لم تعد تاج الملك لأمير نوميدي بلغ رشده و لكنها أوكلت إليه مهمة يتعذر على موظف روماني أن ينهض بها أفضل منه.فقام بتأديتها في صورة عاهل يرفل في أبهة الملوكية ، و دلائل قولنا أن يوبا الثاني و ابنه بطليموس عملا ما وسعهما الحال طيلة وجودهما على رأس موريطانيا (65 عاما) لترويض المور وإعداد البلاد لمصيرها الروماني، وذلك بما قدما للجيش الروماني من عون أثناء عمليات الإخضاع التي نفذها ضد الفلاحين المور المنتفضين ضد المستعمرات التي أنشئت في أراضيهم.

في عام 40 م. وضع الإمبراطور كاليغولا حدا لذلك العرش المموّه فأمر بقتل بطليموس ووضع موريطانيا تحت إدارة عسكرية تابعة لسلطته المباشرة مثلما فعل أوكتافيوس من قبل عام 33 ق.م. وكان كاليغولا أبى إلا أن يجسد الضم الرسمي النهائي لبلاد المور بحادث دموي يذكر بمقتل يوبا الأول جد بطليموس لأبيه عشية إلغاء مملكة

نوميديا . وبعد سنتين من الأعمال العسكرية لإخضاع قبائل المور المنتفضة قررت روما إنشاء مقاطعتين لها في بلاد المور : موريطانيا القيصرية نسبة لمركزها الإداري مدينة قيصرية (شرشال) و موريطانيا الطنجية نسبة لعاصمتها الإدارية مدينة طنجة ، يفصل بينهما نهر الملوية .و بذلك أكملت روما غلق الضفة الجنوبية للبحر المتوسط و وضعت مقاليد تسييرها بيد إدارة رومانية بحتة.

المقاومة و الإحكامات العسكرية:

لم يكن إنهاء حياة الملوك و إعلان ممالكهم مقاطعات رومانية كافيًا كي تدين البلاد لسلطان روما. ذلك أن ردود الفعل كانت قوية و شاملة و أحداثها كثيرة لا يتسع المجال لذكرها ، وتكفي الإشارة إلى بعض الحملات العسكرية الكبرى لإخضاع المقاومة. منها ما قام به حاكم المقاطعة الإفريقية سمبرونيوس أتراتينوس. L.Sempronius Altratinusعام 22 ق.م ثم خليفته كورنيليوس بالبوس في جنوب البروقنصلية ونوميديا و تعقب خلالها قبائل الجيتول في السهوب والجرامنتيين المتحالفين معهم في الصحراء الليبية. ولم تتمكن تلك الحملات من كسر شوكة تلك القبائل بالرغم من تظاهرها بالهزيمة التي نال عليها أولئك القادة شارات النصر لما عرضوا أسراهم وراء العربات في شوارع روما.ثم أعقبتها حملات أخرى أشهرها من حيث التنويه الذي حظيت به من طرف الكتاب الرومان تلك التي جرت عام 06 م بقيادة البروقنصل لنتولوس كوسوس Lentulus Cossos ونال عليها لقب الجيتولي Gaetuliusكناية عن انتصاره على الشعب الجيتولي المحارب.و كانت لتلك الحملة صداها عند يوبا الثاني الذي أصدر بالمناسبة نقدًا يحمل شعار الانتصار على ذلك الشعب المتاخم لحدود مملكته وكانت خسائر الجيش الروماني كبيرة في تلك الأحداث حيث فقد عددًا من ضباطه من بينهم البروقنصل. وفي عهد تيبريوس اهتزت نوميديا وموريطانيا تحت أقدام ثورة عنيفة قادها تكفاريناس الموزولامي انطلاقًا من الأوراس ورددت صداها قبائل المور بقيادة مزيبا. وحملت الثورة مطالب باسترجاع الأرض المحتلة. وكانت الفرقة الثانية الأوغسطية قد استقرت في حيدرة Ammaedara سنوات و شرعت في مسح الأراضي و إدخالها في الممتلكات الرومانية ، كما بنت طريقًا يصل ميناء قابس Tacape معسكرها عام 14 م.

وقد سجل المؤرخ تاكيتوس في حولياته بعض أخبار تلك الثورة التي استمرت أزيد من سبع سنوات (17-23 م) وساهم فيها ملك جرمة بالرجال والمؤن وقد أظهر فيها تكفاريناس كفاءة وفعالية قتالية فألحق بالجيش الروماني هزائم شجعته على إرسال وفد يفاوض الإمبراطور بشأن استرجاع الأرض المسلوبة ، وبعد سقوط تكفاريناس في ساحة المعركة وخضوع نوميديا و إذعان مملكة الجرامنت لروما بدا وكأن ألوية السلم قد ارتفعت على ربوع بلاد المغرب . لكن ما وقع في موريطانيا عقب مقتل بطليموس دفع روما إلى انتهاج أسلوب الاحتلال الإقليمي المركز والكف عن الحملات التأديبية . واقتضى ذلك بناء استحكامات دفاعية على التخوم و تمكين الجيش من القيام بالمطاردة الدائمة للقبائل الثائرة.

بدأ تجسيد هذه السياسة الأمنية ميدانيًا انطلاقًا من جنوب المقاطعة الإفريقية-النوميدية في عهد الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس لما تم نقل الفرقة الثالثة إلى مقرها الجديد بحيدرة و ربطه بميناء قابس بطريق طوله ثلاثمائة كلم عبر قفصة، وواصلت تلك الفرقة تنفيذ مهامها إقليميًا بعد إخماد ثورة تكفاريناس ، حيث استأنفت عمليات مسح الأراضي تمهيدًا لتوزيعها على المزارعين من قدماء الجنود و غيرهم .و تزامن ذلك مع عمليات مماثلة كانت جارية في تراب موريطانيا بمساعدة يوبا وابنه بطليموس من بعده.

وكان إنشاء الطرق أحد المهام العسكرية الكبرى بعد مهمة القتال.إذ يقوم بإنشائه الجنود تحت إشراف ضباط مختصين في الطبوغرافيا و الهندسة العسكرية و تنفق عليه

الدولة و تسهر على رعايته.و أهم مسارات الطرق ذات الصفة العسكرية حسب المعالم الميلية ما كان يطوق مرتفعات الأوراس و الحضنة و التيطري والونشريس لعزل القبائل الجبلية و مراقبة حركتها تجاه السهول الزراعية التي استقرت فيها المستعمرات و لتسهيل المدد و الإنجاد على وحدات التدخل كلما دعت الحاجة . و زودت الطرق بمراكز مراقبة و ترصد عند محاور العبور بين إقليم جغرافي و آخر، و خاصة تلك التي يتردد عليها البدو في دورتهم الترحالية بين التل و الصحراء ، فتم تزويد تلك المعابر بحواجز تمنع التسلل غير المأذون به ، ومنها الخنادق العميقة والأسوار المديدة الداعمة للمحارس والقلاع المنتشرة في الثغور (الليمس Limes) كما هو الشأن في جنوب غرب جفارة (جبل تباغا و بير أم علي) جنوب قفصة وهو ما يدعى كلوسورا بالإضافة إلى تزويد الطرق بأبراج الرصد لتبادل الإشارة المرئية من برج إلى آخر إلى أن تصل إلى مركز القيادة .و من ثم وزعت تلك الأبراج بطريقة تتيح الرؤية فيما بينها وتجعل الطريق والمناطق المشمولة بالحراسة تحت النظر الدائم.

الاستيطان و التنظيم الإقليمي:

تأخرت حركة الاستيطان عن مواكبة عمليات الاحتلال في إقليم الدولة القرطاجية الذي انتقل إلى ملكية الشعب الروماني بقوة قانون روما الذي يعتبر أرض الأعداء المهزومين ورقابهم ملكًا للشعب الروماني المنتصر، واكتفت روما بتحصيل عائدات أرض المقاطعة الإفريقية عن طريق وكلاء رومان ومتعهدين تحت إشراف حاكم المقاطعة ، و واصل الفلاحون الأهالي عملهم في تلك الأراضي إلى عام 123 ق.م.حينما قرر مجلس شيوخ روما تحت ضغط ممثلي العامة إنشاء مستعمرة قرب موقع قرطاجة تسع ستة آلاف مزارع. وأشرف على تخطيط المستعمرة وتوزيع الأرض على المعمرين نائب العامة كايوس غراكوس Caius Gracchus .لكن ذلك المشروع فشل لأسباب يطول شرحها و هي تعود أساسًا إلى معارضة الأرستقراطية المستفيدة من عائدات المقاطعة باحتكارها عمليات الوكالة و الاستثمار فيها .فخلا لهم الجو وواصلوا احتكارهم لموارد المقاطعة والمبادلات التجارية بين شمال إفريقيا و إيطاليا. وتكاثر عدد النشطاء منهم في هذا المجال حيث ذكر يوليوس قيصر بمناسبة حربه في إفريقيا عام 46 ق.م. أن عددهم يقدر باثني عشر ألف شخص يمارسون أعمالهم في مستويات مختلفة من الإشراف على الأشغال في الضيعات القرطاجية سابقًا وجمع محاصيلها إلى شحنها نحو روما.

وكان نظام حيازة الأرض الزراعية التابعة للأملاك العامة يتيح ذلك و يشجع على إطلاق أيدي القادرين على ذلك من الرومان للاستفادة من تلك الأراضي ، و كانت مساحاتها تتسع باتساع رقعة الاحتلال الذي كان يفضي بقوة القانون إلى وضع يد روما على أراضي القبائل الثائرة و المتمردة.حيث كان المختصون في مسح الأراضي جنودا ضمن فيالق الجيش يقومون بالأعمال التقنية التي تتطلبها عملية تقنين الأرض و إدخالها ضمن الأملاك العامة للشعب الروماني فيسري عليها قانون الأرض المحتلة (المغنومة عنوة). و كانت الدولة تسمح بتوزيع المتاخم من تلك الأراضي للمناطق غير الآمنة على الجنود المسرحين بعد إيفائهم الخدمة العسكرية كجنود عاملين، وهو ما فعله القائد ماريوس عقب انتصاره على يوغرطة عام 105 ق.م و كرره يوليوس قيصر عام 46 ق.م. إذ كافأ جنوده بأراض من نوميديا ومنح المرتزق سيتيوس و جنوده إقليمًا شاسعًا شمال نوميديا .أما أوكتافيوس فقد منح جنوده أراضي كثيرة في المناطق الساحلية من موريطانيا. وواصل الأباطرة بعده تلك السياسة حيث تشير الوثائق إلى أن جل المدن ذات التأسيس الروماني في شمال إفريقيا كانت نواتها مستعمرة لقدماء الجنود أو موقعًا عسكريًّا انتشر حوله العمران.

عبر يوليوس قيصر بوضوح عن الأهداف الاقتصادية الكامنة وراء الاحتلال الروماني لبلاد المغرب عندما قال

مفتخرًا بنصره في معركة تابسوس Thapsus(رأس الديماص على الشاطئ الشرقي التونسي): إن انتصاره على خصومه البومبيين و الملك يوبا جعل شعب روما يصبح سيدًا على بلاد (يقصد نوميديا) تمنح للدولة في كل سنة مائتي ألف مديمن أتيكي من القمح (= 105.000 هكتولتر) و ثلاثة ملايين رطل من الزيت و يمكن أن نعتبر ذلك التصريح مبررًا لإسقاط مملكة نوميديا الحليفة و إعلانًا رسميًا للشروع في الاستغلال المباشر لأراضيها . لكن القدر لم يمهل قيصر كي يواصل سياسة الاستيطان في شمال إفريقيا حيث سقط صريعا تحت طعنات خصومه في عتبة مبنى مجلس الشيوخ بعد عامين من نصره ذاك. ومع ذلك لم تُقتل سياسة الاستيطان معه حيث بعثها بقوة ابنه بالتبني أوكتافيوس بعد انتصاره هو الآخر على خصمه أنطونيوس و نجاحه في اعتراف مجلس الشيوخ به إمبراطورًا يتمتع بسلطات واسعة في المقاطعات البعيدة و ينفرد بالقرار إزاء ما يلائم الأقاليم الحدودية، و كانت تشمل معظم بلاد المغرب. ومن أهم القرارات الجريئة التي اتخذها أوكتافيوس إحياؤه لمستعمرة كايوس غراكوس وإنشائها على أرض قرطاجة البونية ومنحه كثيرا من المدن الساحلية بموريطانيا صفة المستعمرة الرومانية، وأسكن فيها ثلاثة آلاف معمر.

شكلت المدن الساحلية التابعة لمقاطعة إفريقيا وتلك التي سيطر عليها سيتيوس في سواحل نوميديا (روسيكادا - سكيكدة، شولو - القل) إقليمًا ساحليًا رومانيًا على أنقاض المدن التجارية الليبية – البونية . وحسب بلينوس و المعطيات الأثرية، فإن تلك المدن هي: إيجلجلي (جيجل)، صالدى(بجاية)، تبوسبتو (تكلات) على وادي الصومام بالضاحية الغربية لبجاية.، روسازوس (أزفون) ، روسغونيا (تامنفوست)، يول (شرشال) ، قونوقو(قوراية-سيدي ابراهيم)، كرتينا(تنس)، كما أنشأ على الجانب الشرقي من جبل زكار مستعمرة الحمام Aquae (حمام ريغة) تشرف على معبر متيجة – الشلف وتحمي ظهر يول – قيصرية. ثم مستعمرة زوكابار Zucchabar (مليانة) على مشارف سهل الشلف .و أنشأ في أقصى الغرب الموريتاني على الواجهة الأطلسية مستعمرة زيليا Zilia (أزيلاح) وألحقها إداريًا بمقاطعة بتيكا الرومانية في إسبانيا لقربها منها ، و أسس مستعمرة بناسا Banasa على الضفة الجنوبية لنهر سبو، بالإضافة إلى مستعمرة بابا Babba في العمق على بعد أربعين ميلا من ليكسوس.

و أخذ الاستيطان يتغلغل نحو الداخل كلما كان الأمن مستتبًا وشروط إقامة المستعمرة متوافرة . وانتهجت الإدارة مع الأهالي سياسة تتماشى ومتطلبات الحركة الاستيطانية ، فانتزعت من بعضهم الأراضي الواقعة في مجال المستعمرات وقامت بطرد القبائل التي لا تأمن جانبها مثلما فعلت مع فصائل من شعب الموزولامي وقبيلة النبجني Nybegenii التي وزعت أراضيها على مزارعين رومان بجنوب المقاطعة الإفريقية وقبائل السبوربور النوميدية.

يمكن أن نلخص أوضاع الأرض التي شملها الاحتلال الروماني تبعً لأوضاعها القانونية والأطراف المستفيدة منها في الأوجه التالية:

- أراضي المستعمرات والبلدات بأصنافها المختلفة، و كان يملكها مزارعون رومان أي الأسر الأرستقراطية المحلية. وقد آلت إليها عن طريق الاستفادة من مشروعات الاستيطان أو الوراثة أو التأجير.
- أراضي الأسر الأرستقراطية من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وقد آلت إليها عن طريق الحيازة والإرث عبر السنين . وتتركز خاصة في المقاطعة الإفريقة (البروقنصلية).
- أراضي الإمبراطور التي آلت إليه غنيمة حرب بعد إلغاء الممالك والإمارات واحتجاز أراضي القبائل

الثائرة في وجهه . وهي مستقلة عن إدارة المدن المحلية والإدارة المركزية، ولا يدخل ريعها خزينة الدولة.

- أراضي العشائر Gens الليبية (القبائل المختلفة) التي تركتها السلطة في حالة استفادة جماعية وأغلبها مراع وأحراش وغابات لم تشملها الخريطة الزراعية و كانت عرضة للمصادرة بدافع الاستصلاح الإقليمي الذي شهدته البلاد أثناء القرن الثاني خاصة.

سمات الحضارة الرومانية في بلاد المغرب:

التمدين و مظاهر الرومنة:

عمل الاستيطان بوصفه إضافة بشرية زادت في كثافة السكان و انتشارهم في المناطق الزراعية على إحداث حركة تعمير و تمدين متسارعة انطلاقًا من مراكز العمران الليبية – البونية السابقة للاحتلال نحو العمق .و بلغت حركة التوافد و الانتشار مداها أواخر القرن الثاني في ظل مشروعات استصلاح الأرض وتوسيع الخريطة الزراعية التي وثقتها تشريعات معروفة . وحتم الهاجس الأمني على الوافدين بمختلف فئاتهم أن يتجمعوا في المدن الآمنة أو ينشئوا مراكز عمران جديدة (مستعمرات) يتحصنون فيها، مما أحدث تغييرًا بارزًا في خريطة المغرب البشرية والعمرانية ، فارتفعت كثافة المدن والقرى مع تفاوت إقليمي تبعًا لدرجة الأهمية الفلاحية وإمكانية التحكم العسكري في إقليم المقاطعات ، بحيث كان التركز العمراني شديد الكثافة في المناطق الشرقية (البروقنصلية ونوميديا) وبدرجة أقل فأقل في مقاطعات موريطانيا وطرابلس، خاصة في المناطق الداخلية منها.

وحلا لبعض المعجبين بالتمدين الروماني أن استنتجوا ارتفاع نسبة السكان الحضر في شمال إفريقيا و قدروها بستين (60 %) في المائة من عدد السكان الخاضعين للإمبراطوريات الرومانية . وقدر بيكار عدد سكان إفريقيا الرومانية بما لا يقل عن ستة ملايين و نصف نسمة .

كان مفهوم المدينة مختلفًا نسبيًا عما هو عليه في وقتنا الحاضر ، ففي المناطق الزراعية كانت المدينة حاضرة للمزارعين يرتبط معاش سكانها و ثرواتهم بما تنتجه حقولهم المنتشرة في إقليم المدينة ، بينما كانت موارد المدن الساحلية تعتمد على الأنشطة الحرفية و التجارية و البحرية.و من حيث النظام والعلاقة بالدولة المركزية (روما) فالمدينة كانت أشبه بالجمهورية المستقلة حيث تنعت "ريسبوبليكا Respublica كناية عن استقلاليتها بشؤونها الداخلية واكتفائها بمواردها وميزانيتها وإقليمها، إذ لا تعتمد على إمدادات الدولة المركزية من حيث الموارد الغذائية إلا اضطرارًا في شكل إغاثة .. وبهذا الاعتبار فالإمبراطورية الرومانية بدت و كأنها فيدرالية تضم جمهوريات صغيرة يحكمها قانون عام ينظم علاقاتها ببعضها دون التدخل في شؤونها الخاصة التي تشرف عليها مؤسسات متشابهة ترعى مصالح مواطنيها التي يجب ألا تتعارض مع المصالح العليا للإمبراطورية، وألا تنحو نحو الاستقلالية عن سلطة الدولة العليا. وهذه إحدى الميزات البارزة في سياسة روما تجاه الأقطار التي احتلتها .

واقتضت سياسة الإدماج التدريجي للمجتمعات الخاضعة وضع المدن و سكانها في مراتب متفاوتة الأهمية بالنسبة للقانون، بدءاً من وضعية الأجنبي Piregrini الذي لا يسري عليه القانون الروماني وهي أدنى درجة في السلم السياسي الاجتماعي للسكان الخاضعين لروما، ثم وضعية اللاتيني Latini وهي مرتبة منحتها روما لأحلافها الإيطاليين منذ القرن الرابع ق.م.و لها أحكامها في المعاملات القانونية والأحوال الشخصية و الجماعية ، ثم مرتبة الروماني Romani المساوية لما يتمتع به مواطنو روما نفسها من حقوق و واجبات و هي أعلى درجة كان يطمح في الحصول عليها جميع المرتبين في الوضعيتين السابقتين ، وكانت المدن مصنفة حسب هذه الدرجات: مدينة الأجانب Civitas Piregrinii أو مدينة حرة Civitas

Libiras وكان هذا الصنف يعني مدينة أجانب أصدقاء لروما وليسوا أحلافا، فهم أحرار، و ظهرت هذه التسمية بشأن المدن البونية التي وقفت على الحياد في الحرب البونية الثالثة أو دعمت روما. بينما مدينة البريغريني أهلها غير أحرار لأنهم لا يرتبطون بأية معاهدة أو اتفاقية مع روما تنأى بهم وبممتلكاتهم عن الوقوع تحت طائلة المصادرة بحكم أنهم في عداد المهزومين في نظر القانون. أما وضعية المدينة " اللاتينية" فهي في درجة ترشحها لأن تتحول إلى مدينة "رومانية" (=مستعمرة) عندما تتوافر فيها شروط الترفيع .و كان الانتقال من وضعية إلى أخرى يجبر المدينة أن تتخلى عن نظامها السابق وتعمل بالنظام الجديد .

وتطورت المدن بفعل ازدهار النشاط الاقتصادي الحاصل في المنطقة وتزايد الطلب على المنتوج الفلاحي والحيواني والصناعي ونمو النشاط التجاري بين الضفة الجنوبية للمتوسط وإيطاليا ومقاطعات الإمبراطورية الأخرى. فقد عادت الحياة بقوة لقرطاجة الرومانية واتسع عمرانها وتدافع إليها الحرفيون من المدن المجاورة فنشطت صناعتها وضاهت ما كانت عليه في العهد البوني في ظرف قصير وأصبحت تصدر المنتوجات الفاخرة ذات التقاليد الفينيقية فضلا عن المنتوجات الفلاحية التي كانت تفيض بها البلاد الواقعة خلفها كسابق عهدها، ومنها الحبوب و الزيوت، وأصبح لقرطاجة ممثلية تجارية بميناء أوستيا Ostia تشرف على نشاط الأسطول التجاري القرطاجي . وشهدت مدن أخرى كثيرة ازدهارًا كبيرًا منها مدينة لبدة Leptis Magna التي اتسع عمرانها و زيد في حوض مينائها كي يتسع للمراكب الكبرى و ارتفعت فيها المنشآت الفاخرة كبوابة النصر و السوق و الحمامات الفارهة الأنيقة والساحة العامة الفسيحة .

وكانت روما تشجع أثرياء المدن على العناية بمدنهم والتنافس فيما بينهم على الإنفاق السخي عليها بإقامة المنشآت ذات الاستعمال العمومي كالأسواق و جلب المياه و مد القنوات و فتح العيون وترميم الأسوار و الساحات. و برز ذلك في لوحات تذكارية إشهارية علقت على واجهات تلك المنشآت نقش عليها أسماء أصحابها مع تنويه بارز بأعمالهم وفضائلهم على مواطنيهم. و بذلك غدت المدينة منبع إشعاع لحضارة روما ومركز سلطتها في البلاد . وكان نجاحها في التأثير على محيطها نجاحًا لسياسة الرومنة التي بدت مظاهرها مجسدة في تخطيط المدينة وهياكلها العمومية ونظامها الاجتماعي، حيث كانت مدينة روما هي النموذج المحتذى من جميع الأوجه.فالمدن التي ورثها الرومان بحكم الاحتلال أقحمت فيها منشآت السيادة و المؤسسات المدنية المساعدة على نشر تقاليد الثقافة الرومانية و أطرها الحضارية كالساحة العامة Forum و البازيليكا و مقر المجلس البلدي و المعبد الرسمي (الكابيتول) مع إحداث تغييرات على المخطط العمراني كي يتمحور حول الكاردو و الديكومانوس .أما المدن التي تم إنشاؤها على أرض عذراء كالمستعمرات و المعسكرات فقد كان تخطيطها على شاكلة واحدة اجتهد المختطون أن يطبقوا فيها قواعد العمارة والعمران الروماني و إكسابها شكلاً تربيعيًا يتمحور حول الطريقين الرئيسيين المكونين بتقاطعهما الاتجاهات الأربعة وهما الكاردو و الديكومانوس، ثم الساحة العامة و المؤسسات الإدارية للبلدة.و تحتوي بلاد المغرب على أفضل تخطيط روماني للمدينة ممثلا في تيمقاد ، و على نموذج لتوسيع مدينة ساحلية قديمة يظهر في لبدة التي بدت في العهد السفيري جوهرة ناصعة البياض على الساحل الليبي.و انعكس الثراء الذي تمرغت فيه المدن و تراكم الخبرة في مجال التخطيط والبناء والزخرفة المعمارية والنحت والفنون المختلفة على تطور عمارة المدن ورقي الحس الفني وتعدد الأذواق لدى نخبها التي انغمست في الترف وملذات الحياة الرفيهة.

وعكست المدينة الرومانية في شمال إفريقيا عمارة متطورة استقت أصولها من عمارة الأمم التي سيطرت

عليها روما، وفي مقدمتها العمارة الإغريقية، وكذلك الشأن في مجال الفنون التي هي إغريقية أساسا حيث ظلت ورشات المدن اليونانية الممون الأول لسوق المنتجات الفنية من تماثيل وتحف رفيعة المستوى مثلما كانت الثقافة الراقية والأدب الرفيع متسمة بسمة إغريقية . ولا يخلو موقع مدينة ذات شهرة في العالم الروماني من بقايا تشهد على ذلك.

الأوضاع الاجتماعية:

كان هيكل المدينة الاجتماعي هرمي الشكل تعلو قمته طبقة النخبة ومنها الهيئة الحاكمة Ordo المماثلة لمجلس شيوخ روما، وهي عبارة عن مجلس بلدي ينتخبه الشعب Populus أي سكان المدينة المتمتعين بالمواطنة الرومانية بالأصالة أو الترفيع. وكان المجلس مسؤولا على جميع الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية ضمن المجال الجغرافي للبلدة، و ذلك من خلال تعيين مسؤولين على تلك الأنشطة و محاسبتهم في آخر عهدتهم السنوية. ويظهر لنا سجل تيمقاد البلدي، وهو عبارة عن لوح كان يعلو بوابة المجلس البلدي فيها صورة جلية للهرم الاجتماعي لنخب المدينة، حيث تصدر القائمة في هذه الوثيقة الأعضاء الشرفيون وهم عشرة من الأعيان Clarissimes لمكانتهم الرفيعة في المدينة بسبب إنفاقهم على المصالح العمومية . وهذا ما يذكرنا بشرط صدر في عهد السفيريين للترشح لعضوية مجلس شيوخ البلدة وهو أن يكون قد أدى أفضل الخدمات الشرفية. ثم يلي ذلك طبقة المرفعين لعضوية المجلس بقرار إمبراطوري مكافأة لهم على الخدمات التي أدوها للدولة. ثم ممثلو رجال الدين الرسميين، ويأتي في آخر القائمة طبقة الموظفين الكبار (ديكوريون Decurions) . غير أن هذا التراتب لم يكن دائمًا ولا شاملاً في جميع المدن والمقاطعات حيث طرأت عليها تغييرات تبعًا لتغير الأنظمة وما أحدثته الإصلاحات الإدارية و الإقليمية (إعادة تقطيع أقاليم المقاطعات) والاجتماعية كقانون تعميم المواطنة الرومانية على جميع أحرار الإمبراطورية المنسوب إلى كراكلا (انطونينوس) بن سفيروس وكذا الإصلاحات الاقتصادية (الجبائية خاصة) التي استحدثها أباطرة العهد الإمبراطوري المتأخر بدءاً من إجراءات ديوكليتيانوس، ثم ما ترتب عن انتشار المسيحية وتنظيمها الاجتماعي و تنصر السلطة بدءاً من الإمبراطور قسطنطينوس الكبير و أثر ذلك على التراتب الاجتماعي في المدن خاصة.

ولا يجب أن يخفي عن أعيننا ظلُّ صرح المدينة الشامخ ما كان وراءه من وضعيات اجتماعية سيئة عاشتها فئات اجتماعية عريضة أغلبها من السكان الأهالي سواء كانوا في الأحياء المحيطة بالمدينة أو في الريف الواقع ضمن مجال المدينة أو خارجه.بالإضافة إلى أوضاع البدو المطاردين باعتبارهم كمًا بشريًا متحركًا يشكل مصدر قلق دائم للإدارة المدنية والعسكرية، دون أن ننسى العبيد.و يكفي أن نضرب مثلا على التمايز الطبقي في المدينة نفسها بقانون العقوبات المسلطة على مرتكبي نفس الجرم، حيث يحكم القاضي على المذنب من طبقة الأشراف Honestores بمصادرة أملاكه أو تجريده من المواطنة. بينما يحكم على من ارتكب جرمًا مماثلاً من طبقة الوضعاء أو السوقة Hemiliores بالزجّ به إلى الحيوانات المفترسة أو حرقه حيًا او استرقاقه. وكان الأهالي الفقراء يقيمون في أحياء وضيعة خارج أسوار المدينة تحت سقف أكواخ وصفت بالسوداء Casis negris لحالة البؤس العتيم الذي يسود تلك المساكن . ولم يبق أثرها في الخريطة الأثرية سواء في محيط المدن أو بجوار ضيعات المزارعين الكبار في الارياف لهشاشة مادة بنائها وقابليتها للانمحاء.

ونقل إلينا ابوليوس وهو ابن أحد موظفي مادور (قرب مداوروش) الأثرياء صورة عن الفلاحين الأهالي عندما يتعرضون لإجراءات الطرد من أكواخهم وأراضيهم فيقول بأنهم كانوا يحاولون الامتناع عن الخروج ويطلقون كلابهم أحيانا في وجه المكلفين بتنفيذ أمر إجلائهم .

أما البدو وهم فئة اجتماعية بارزة ضمن سكان المغرب القديم نظرا لطبيعة الأرض وخصائص المناخ في شمال إفريقيا فقد كانت أغلب التحصينات العسكرية موجهة ضدهم لمنعهم من التردد على بلاد التل استكمالا لدورتهم الترحالية بين مراعي الشتاء والصيف. وترتب عن إجراءات الطرد والمنع الممارسة في حقهم أن تحولت وجهة البعض منهم نحو السهوب الموريطانية على ما كان فيها من مخاطر الحيوانات الضارية كالأسود و الفهود والنمور ،أو نحو الصحراء الكبرى. وقد استنتج المؤرخ قزيل Gsell من ذلك فرضية دعاها "فتح البربر للصحراء الكبرى" جراء تلك الحركة القهرية و ظل البدو في علاقة مغالبة مع تحصينات الثغور(الليمس) إلى أن تمكنوا من اختراقها بعد العهد السيفيري حيث تراجعت الحدود شمالا فاستعادوا حريتهم الاقتصادية بالقوة.

و بشأن العبيد في إفريقيا الرومانية فإن حالة الرقّ كانت عادية في المجتمعات والحضارات القديمة، غير أن ضخامة هذه الظاهرة و ارتفاع نسبة الرق في العهد الروماني جعل بعض المؤرخين يصف روما بأنها دولة نموذجية للرق .

كانت الكيفية التي احتلت بها روما قرطاجة ومن ورائها جميع ممالك المغرب قد درّت عليها غنائم بشرية هائلة مثل سكان قرطاجة طليعتها الأولى .فكانت الحروب المتواصلة ضد المناهضين للاحتلال معينا لا ينضب للعبيد.و لدينا فيما رواه أبوليوس عن ممتلكات زوجته ايميليا بودنتيلا Aemilia Pudantilla من العبيد إذ وهبت منهم 400 رأس مع أملاكها لأحد أبنائها ما يؤشر إلى ضخامة رقيق الأرض في ذلك الوقت(القرن الثاني م).و بينت التحريات الأثرية حول الأسماء أن نسبة العبيد الأهالي في الخدمات المدنية و المنزلية كانت عالية مع أن هذا النوع من الخدمات كان يختار له فئة العبيد المتعلمين المهرة من الإغريقيين خاصة و المشارقة.

وكانت إساءة معاملة العبيد إحدى سيئات ذلك المجتمع القاسي.فالتعذيب كان الوسيلة التلقائية لترويض العصاة و ردع من يفكر في الفرار. إن الأغلال و السياط كانت حالة عادية لجعل العبيد ينصاعون للأوامر، وكان المعتقون يشرفون على تشغيل الرقيق في الحقول مكبلين في الأصفاد خشية فرارهم. وكشفت التنقيبات عن عبدة دفنت حية في بولاريجيا Bulla Regia و في عنقها طوق من الرصاص كتبت عليه عبارات مشينة عقابا لها، و من تلك العبارات تبين أن إناث العبيد كن يرغمن على ممارسة البغاء لصالح أسيادهن. و خلدت مشاهد الفسيفساء الإفريقية (لوح تيبازا) ما يؤكد الحالة المزرية للعبيد الأهالي في العهد الروماني.

الثقافة اللاتينية:

يمكن أن نصف اللغة بأنها أوسع وعاء حضاري يختزن عناصر ثقافة الأمة، فضلا عن أنها أوفق السبل للتعبير عن تلك الثقافة حاضرًا ومستقبلا. والأمر بالنسبة للغة اللاتينية في بلاد المغرب يفضل ذلك بشيئين اثنين على الأقل.فقد كانت اللاتينية أداة لممارسة السيادة الرومانية في المنطقة ومطية للمغالبة الحضارية فيها.

اختارت روما لهجة سكان إقليم لاتيوم Latium وأقرتها لغة رسمية في جمهوريتها على ما فيها من صعوبة وتعقيد لبدائيتها وأسقطت اللغة الأتروسكية ذات الصلة بالحوض الشرقي للمتوسط ولغة الحضارة الأتروسكية المتقدمة. إنه اختيار سياسي وقناعة قومية.و عمت اللاتينية إيطاليا بتعميم سلطة روما عليها ، ثم انتشرت في جميع البلدان المتوسطية التي أخضعها الرومان بحد السيف وخاطبوا بها مختلف الأقوام الخاضعة لهم وفرضوا عليهم التعامل الرسمي بها ما عدا البلاد التي تجذرت فيها الإغريقية لسانًا وحضارة في الحوض الشرقي للمتوسط حيث وقفت اللاتينية عاجزة أن تكون بديلاً عنها.

أما في شمال إفريقيا فالوضع كان مختلفًا لكون الحضارة الفينيقية-البونية حالت دون تغلغل الهيلينية و نفاذها في الظهير

المغاربي من جهة ، ولكون الثقافة الفينيقية-البونية لم تكن مألوفة و لا مؤثرة بالقدر الذي يؤهلها لأن تحافظ على مجالها الحيوي بالقوة التي كانت عليها الإغريقية.فضلا عما كانت تتوافر عليه الثقافة الإغريقية من أوجه المواءمة الروحية والاجتماعية مع ثقافات الشعوب الإيطالية ومنهم الرومان مقابل الانطباعات السلبية التي كان يحملها الرومان لبعض عناصر الثقافة الكنعانية التي بالغ الكتاب الإغريق في تشويهها بما كان لهم من مقروئية في روما.

انتشرت اللغة اللاتينية في بلاد المغرب تدريجيا عن طريق الجوار و الاحتكاك اليومي بين الوافدين الرومان من موظفين و تجار و عسكريين و الأهالي. وكان الانخراط في فرق الجيش المساعدة أهم قنوات تعلم اللاتينية لكونها إحدى الشروط المؤهلة للانتفاع بالمواطنة الرومانية بعد إنهاء الخدمة العسكرية. وكان سكان المدن من أعيان الأهالي أكثر الناس إقبالا على تعلم اللاتينية لارتباطها بامتيازات اجتماعية واقتصادية ولكونها طريقًا للحصول على ترفيعات مؤهلة للتدرج في الحصول على حقوق مدنية . وكانت الدولة تشجع أهل الحواضر على تعلم اللاتينية والإقبال على التشبه بالعادات الرومانية والسعي للظهور بمظهر المتشبع بثقافة روما والاندماج في مجتمع الوافدين عسى أن يتكرم الإمبراطور و ينعم بترفيع مدينتهم إلى مستوى البلدة الرومانية في إطار سياسة الرّومنة.

وتدخلت السلطة في مسائل العبادة الرسمية فمنعت استعمال اللغة البونية في محافل التعبد وممارسة الوعظ، وكيفت أسماء المعبودات البونية وأعطتها صبغة لاتينية فأصبح بعل حامون يدعى ساتورنوس Saturnus و تانيت كيليستيس Caelistis. ومع ذلك مضت مدة طويلة على وجود روما في بلاد المغرب قبل أن يبرز متعلمون و مثقفون مغاربة باللغة اللاتينية.و لم تصلنا أسماء مثقفين بارزين باللاتينية من أصل ليبي أو بوني غير مشتبه في نسبه حتى في عصور ازدهار الثقافة اللاتينية و بروز كتاب أفارقة لامعين.

كان التعليم منتشرًا في الحواضر تحت إشراف إدارة البلدة ، و لا نعلم إن كان أطفال مختلف الفئات الاجتماعية متاحًا لهم أن يدرسوا جنبًا إلى جنب ذكورًا و إناثًا. وكانت اللاتينية لغة التعليم الوحيدة في مدارس البلدة، ومن يحوز تفوقًا في مدينته يشد الرحال إلى مدارس أعلى في المدن الكبرى مثل قرطاجة التي كانت برامج التعليم فيها تتضمن اللغة اللاتينية و آدابها والفلسفة اليونانية كالأفلاطونية الحديثة وفن الخطابة بوصفها طريقًا لممارسة المحاماة والسياسة. وتذكر الأخبار بعض أسماء معلمين أفارقة (بالمولد) ذاع صيتهم في ميدان التعليم والخطابة. منهم فرانطون الكرطي Fronton de Cirta معلم الإمبراطور ماركوس أوريليوس.

و أبرز من نبغ في الأدب و الخطابة من بين أسر المعمرين الرومان أبوليوس الذي ينتسب مفتخرًا إلى مستعمرة مادور (جنوب عنابة) التي لم يمض على إنشائها لقدماء الجنود ثلاثة عقود عندما رأى الصبي أبوليوس النور في بيت أحد أعيان تلك البلدة عام 125 م، و تعلم فيها فاكتسبت مادور شهرة بالغ المعجبون بأبوليوس في تضخيمها.و سمحت له حالة اليسر والثراء التي كانت تتمتع بها عائلته أن يواصل تعلمه في قرطاجة و يكثر من الترحال طلبًا للعلم و الشهرة ويتخصص في الخطابة متأثرًا بالفلسفة والسفسطائية اليونانية ويبدع في الدفاع عن نفسه عندما يتهم بالسحر ويصدر دفاعاته في كتاب الأبولوجيا (الدفاعات). وكانت له مساجلات مختلفة الموضوعات جمعت في كتاب الأزاهير(فلوريد). وساقه ولعه بالتراث الشعبي ذي المسحة الأسطورية إلى وضع رواية حاكى فيها قصة قديمة حول موضوع التحولات Metamorphoses أو " الحمار الذهبي" وهي من أكثر الكتابات حيوية ولا تزال تحظى بمقروئية في مختلف اللغات التي ترجمت إليها.

ولا شك أن عددا من المبدعين في مجالات الأدب واللغة اللاتينية قد حفلت بهم مدن كثيرة في شمال إفريقيا وانتقلت شهرتهم خارجها، وفي مقدمتهم أولئك الذين ارتبطت أعمالهم الأدبية والفكرية بالدفاع عن المسيحية أمثال : قبريانوص و ترتوليانوس وأوغسطينوس ومعاصريهم ممن شهروا أقلامهم دفاعًا عن العقيدة الجديدة. وقد حظي كثير منهم بإطراء وتنويه من طرف مؤرخي الأدب اللاتيني في شمال إفريقيا أبرزهم : بول مانصو في كتابه التاريخ الأدبي لإفريقيا المسيحية....و كذا الدراسات الأوغسطينية (Etudes Augustiniennes). وسميت أعمالهم بالأدب المسيحي لطغيان الموضوعات الدينية على إنتاجهم الفكري.و من عوامل تصديهم للدفاع عن عقيدتهم ما واجه المسيحية من مصاعب شتى منها ما لحق بأتباعها من أذى جراء رفض المجتمع الوثني لهم و السلطة التي قابلتهم باضطهاد كبير .و بعد انتصار المسيحية واجهتها ظاهرة الانشقاق التي نخرت صفوفها ردحًا من الزمن، فانعكست تلك القضايا على الأدب المسيحي الإفريقي فجاء متضمنًا مساجلات خطابية ومطارحات لاهوتية وتأملات فكرية وروحية في مجالات العقيدة و الحياة. وبرز ذلك خاصة في أعمال أوغسطين وأشهرها كتاب " مدينة الله " الذي انبرى فيه للدفاع عن المسيحية التي اتهمها خصومها بإضعاف الدولة الرومانية وإشاعة التفكك في أوصالها، فحاول التوفيق بين مكانة الدولة بوصفها نظامًا دنيويًا ضروريًا لحياة البشر وبين الدين الذي يمثل مدينة الله الأبدية.

وبالموازاة مع نشاط أوغسطين ومن سبقه من ممثلي الكنيسة (الكاثوليكية) كان هناك مجادلون وكتّاب من الدوناتية المناهضة، أشهرهم دوناتوس مؤسس هذه النحلة الرافضة لهيمنة الدولة على رجال الدين واستخدامهم سندًا لجبروتها. وكذلك أوبطاتوس التيمقادي الذي أنهى حياته في السجن لمظاهرته الحاكم جيلدون في تمرده ضد روما. على أن أعمال هؤلاء نالها خصومهم المنتصرون عليهم بالإتلاف ولم يصلنا منها شيء على ما فيها من قيمة أدبية وفكرية ونضالية نلمسها في ردود خصومهم عليها مثل رسائل أوغسطين.

أوضاع بلاد المغرب بعد انسحاب روما:

أخذت الحدود الرومانية في بلاد المغرب تتراجع بعد العهد السيفيري الذي دفع بها إلى أقصى حد ممكن، فأخليت قلاع الثغور (الليمس) المواجهة للصحراء كقلعة دميدي C.Dimmidi (جنوب الجلفة) وقلعة قولاص Golas (بونجم). وحُلت الفرقة الثالثة المرابطة بمعسكر لمبايزيس Lambaeses (تازولت) بموجب عملية إصلاحية شملت التنظيم العسكري والإداري، وتم تعويض الفرق النظامية الثقيلة بوحدات خفيفة مرابطة على الحدود مدعمة بفصائل من الحرس المحلي Limitani مكونة من المنتفعين بأراض حدودية معفاة من الضرائب .لكن هذه الوحدات المحدودة العدد والعدة لم يكن في استطاعتها مواجهة غارات الاختراق التي كانت تشنها القبائل الرحل على التخوم فتم التخلي عن مناطق كثيرة من الحدود في الموريطانيتين وجنوب نوميدا وفي تخوم طرابلس.

و أقدم الأباطرة أواخر القرن الثالث و خلال الرابع على إجراء تقطيعات إدارية في المقاطعات الإفريقية فأصبحت البروقنصلية مقاطعتين : زغوان Zeugitana في الشمال و بيزاكينا (المزاق) Bysacium جنوبها. وتم توسيع مقاطعة طرابلس فامتدت ما بين قابس والسيرت الكبير. وتم تعديل إقليم نوميديا وجزئت موريطانيا القيصرية إلى اثنتين: السطيفية M.Sitifensis و القيصرية.أما الطنجية التي تقلصت مساحتها كثيرًا بتراجع الحدود، فقد ضمت إلى دوقية Dioces إسبانيا.و اقتضى الإصلاح الإقليمي وضع المقاطعات الإفريقية تحت إشراف قائد برتبة نائب الحرس الإمبراطوري Vicarius يقيم في قرطاجة و يلقب Dioces. غير أن هذه الإجراءات التي قصد الإمبراطور بها بسط سيطرته على المقاطعات لم تحد من وتيرة التسارع نحو التدهور.

واشتد الصراع الاجتماعي بعد انتشار المسيحية و أخذ أبعادا مناهضة للسلطة ورجال الدين الموالين لها، وتبلور في شقين : أحدهما يدعو إلى توحيد الكنيسة و مواءمتها مع السلطة الإمبراطورية، وهو الذي أسس لما سمي فيما بعد بالكاثوليكية التي وضع أسسها الأسقف أوغسطين.و الثاني رفع زعماؤه لواء المعارضة الجذرية للاتجاه الأول رافضًا تدخل السلطة في شؤون الدين . وكانت بداية الانشقاق عام 311 م عندما نصب كايكيليانوس Caecilianus كبيرًا لأساقفة إفريقيا في قرطاجة فرفضه أساقفة نوميديا واتخذت تلك الحركة صبغة نوميدية – موريطانية وحظيت برجال أقوياء رسخوها ودافعوا عنها بقوة أمثال دوناتوس الكبير Donato Magnus الذي نسبت إليه. وانضمت إليها جموع الفقراء المناهضين للضيم الاجتماعي و عسف السلطة ، وأيدت الدوناتية انشقاق الأمير فيرموس (371-375 م) ضد سلطة الإمبراطورية مما أضاف عاملا آخر لتدهور الأوضاع. وأظهرت السلطة الإمبراطورية انحيازها للجانب الكاثوليكي الموالي لها في ذلك الصراع و أصدرت عقوبات رادعة ضد الدوناتيين وأتباعهم الثوار الريفيين أشهرها قرارات 411 ، 412 م.على يد الإمبراطور هونوريوس Honorius لكن ذلك لم يغير في الوضع شيئا.

وبالموازاة مع ذلك الغليان في بلاد المغرب كان الصراع محتدمًا في روما على العرش الإمبراطوري، إذ برزت أسوأ صور الضعف الداخلي فيما آلت إليه حال روما بعد وفاة هونوريوس عام 423 عندما وضعت مقاليد الإمبراطورية بيد خليفة صبي لمّا يُكمل حوله الرابع بعد وهو فلانتينيان Valentenien الثالث فسيرت أمه غالا بلاكيديا Galla Placidia الإمبراطورية نيابة عنه ، فأقدمت على عزل قائد إفريقيا بونيفاص Boniface دون تعويض و عيون الوندال ترنو إليها و كانوا على مرمى حجر منها.

الاحتلال الوندالي:

استغل جنسريق Genseric قائد الوندال المرابطين بجنوب إسبانيا فرصة التصدع الداخلي للإمبراطورية و غياب الحماية العسكرية لإفريقيا وملاءمة الوضع في بلاد المغرب و اندفع بشعبه عابرًا البحر لينزل بأحد المرافئ المجهولة لدينا ربما "سبتة" أو "الغزوات" ، في شهر مايو 429 .و لم يقابل الزحف الوندالي نحو الشرق أي معترض إلى أن وقف جنسريق على أبواب مدينة هيبون (عنابة) في شهر مايو 430 . وقد اعتصم بها المقاومون تحت قيادة بونيفاص الذي أعادته بلاكيديا إلى منصبه ، كما تجمع بالمدينة رجال الدين الفارين أمام الوندال حول أوغسطين الذي دعاهم للصبر و الصلاة و ظل كذلك إلى أن توفي بعد ثلاثة أشهر من الحصار .و لم يتمكن بونيفاص الذي تلقى نجدة من إمبراطور القسطنطينية بقيادة أسبار Aspar من فك الحصار حيث ألحق به جنسريق هزيمة شنعاء (431) اقتحم الوندال بعدها هيبون وأجبرت روما على توقيع معاهدة معهم (435 م) اعترفت فيها بأنهم متحدون معاهدون Foe drati مع الإمبراطورية، وهوإقرار لهم بالسيادة على البلاد التي احتلوها مع شروط دفع جزية رمزية ما لبث جنسريق أن تنكر لها .

وفي أكتوبر 439 دخل الوندال عاصمة إفريقيا قرطاجة دون مقاومة واتخذوها مقرًا لدولتهم التي أعلنوها مملكة، وتحتم على الإمبراطور الذي غدا شابًا أن يصادق على معاهدة مع الملك جنسريق عام 442 م تنص على الاعتراف للوندال بتملك إفريقيا ماعدا بعض المناطق الشمالية في طرابلس و نوميديا والقيصرية.

هكذا غنم الوندال إفريقيا الغنية بالموارد الفلاحية و التجارية والعمران و بالصراعات الدينية والاجتماعية أيضًا. فأبقوا على النظام الروماني سائدًا واكتفوا بامتلاك الأراضي والانتفاع بمنتوجها والحرص على إعلاء مذهبهم الأريوسي وتقديمه على الكاثوليكية التي لحق أساقفتها مذلة

بالغ كتابهم (فيكتور الفيتي Victor Vitensis -بوسيديوس الكلمي Possidius Calamensis) في إبراز أوجهها وقبح المتسببين فيها حتى قيل إن غزو الوندال لإفريقيا كان لغرضين : إذلال الإمبراطورية والقضاء على المذهب الكاثوليكي.

في السنة الموالية لسقوط روما توفي جنسريق عام 477 م، فأخذ التفكك يدبّ في أوصال مملكة الوندال بسبب النزاعات الداخلية التي نشبت بين أفراد الأسرة الحاكمة، وخلود الوندال للحياة الرفيهة التي وفرت لهم أسبابها الثروة الهائلة التي تجمّعت لديهم و وسائل الترف المدني الشائعة في حاضرة ملكهم قرطاجة.كما كان لسوء العلاقة مع أتباع الكاثوليكية دور في التآكل الداخلي، ولم تبق علاقة دولة الوندال بجيرانها وأحلافها المور على ما يرام بسبب تقلّب مواقف الطرفين وتوق أمراء المور الجبليين والبدو إلى التوسع وفرض سيطرتهم على المدن الداخلية والمقاطعات الرومانية سابقًا.

وقد أخذت ممالك المور المستقلة تتشكل و احتلت مكانها في خريطة المغرب السياسية أثناء العهد الوندالي و سيطر الملوك على سكان المدن و الأرياف جاعلين منهم رعايا متعددي الأعراف و الأنماط الاجتماعية، وسجل أحدهم في إحدى النقائش اللاتينية أنه ملك شعب المور والرومان Regis Masunae gentium Maurorum et Romanorum وذلك في منطقة ألتافا (أولاد ميمون) شرقي تلمسان. وهو الملك ماسونا Masuna الذي دوّن نقيشته بعام 508 في عهد تراساموند Trasamond ملك الوندال. وكان لتلك المملكة أحواز وقلاع ومدن على رأسها حكام تابعون للملك نصّت عليهم النقيشة المذكورة. ووثق آخر وجوده في منطقة الأوراس وهو المدعو ماستياس Masties الذي نصّ نقشه التذكاري بآريس Arris على أنه يحمل لقب قائد ثم إمبراطور منذ 67 عاما أي منذ بداية الغزو الوندالي، منوّها بحسن سلوكه وعدله إزاء رعيته المور و الرومان.و عاصر ماسونا وماستياس ملوك وأمراء آخرون حكموا أقاليم مختلفة كبلاد الحضنة وبجوار طرابلس حيث كان أمير الرحّل غباون Gabaon يلحق الهزائم تلو الأخرى بجيش الوندال في معارك الجمال الشهيرة.

وهكذا تدهور الوضع الأمني على حدود مملكة الوندال بانفراط ما كان بين ممالك المور وملوك الوندال من تعهدات .و تعذّر على حكام الوندال السيطرة على الوضع؛ لأن بلاد المغرب أصبحت في حكم العصيّ على الانقياد لأية قوة خارجية ذات نزعة استعمارية.

البيزنطيون و أوضاع المغرب عشية الفتح الإسلامي:

بعد توحيد عرشي روما و القسطنطينية بيد الإمبراطور زينو Zeno صحّ عزم بيزنطة على درء خطر الوندال؛ لكونها غدت مسؤولة على أملاك روما في الحوض الغربي للمتوسط، وحتى تثبت جدارتها بهذا الإرث الثقيل. بادر الإمبراطور زينو بمراسلة المناهضين لابن جنسريق خليفة والده في الحكم (477-484 م) يطمئنهم و يحثهم على الدخول في طاعة الإمبراطور.و تواصلت المحاولات في شكل ضغوط عسكرية ومساع تحريضية ضد الدولة الوندالية إلى أن كانت الحملة التي جهزها جوستينيان عام 533 م.

جهز الإمبراطور جوستينيان حملة كبيرة نحو إفريقيا عام 533م بقيادة بيليزير الذي تمكن من هزم جيليمير آخر ملوك الوندال و أسره، فصاح الإمبراطور فرحًا:"عادت بلاد ليبيا جميعها إلى الإمبراطورية". و أصدر قرارًا بتنظيم إفريقيا على الأسس الرومانية القديمة مع التركيز على الجوانب العسكرية لمواجهة خطر المور- البربر الذين لم يظهروا ترحيبًا وانصياعًا للفاتحين الجدد .و هلل رجال الدين الكاثوليك لذلك الانتصار وبادر القائد البيزنطي بجمع أساقفتهم في قرطاجة احتفاء بالنصر وتلقي التأييد و المؤازرة منهم وتبشيرهم باستعادة امتيازات كنيستهم في المقاطعات

الإفريقية وغاب عن ذلك الحفل ممثلو الدوناتية الذين تجددت متاعبهم بعد ذلك .

واجتهد حكام إفريقيا البيزنطية كي يظهروا بمظهر المسيطر على المقاطعات التي أقرها جوستينيان في تعليماته (534 م).فأقاموا القلاع على أنقاض المدن الرومانية التي تعرضت للهدم مستعملين حجارتهم المنحوتة و الأعمدة وحتى التماثيل المبعثرة حشيت بها الجدران في عملية بناء استعجالية للاحتماء من غارات المور المتربصين في كل مكان. وحاول صولومون الذي ينسب إليه إعادة احتلال شمال إفريقيا إحياء تحصينات الثغور (الليمس) الرومانية، فلم يفلح في ذلك و اكتفى بإنشاء خط من الحصون وراء الأوراس لم يتجاوز به شمال بلاد الحضنة حيث أنشأ قلعة زابي جوستينيانا Zabi Justiniana (قرب المسيلة) لينعطف شمالا نحو سهول مجانة (برج بوعريريج) مكتفيًا بما أمكن من المقاطعة السطيفية واستعصت عليه المناطق الجبلية (البيبان-القبائل-التيطري) التي كان يسيطر عليها ملوك المور والقبائل الجبلية العتيدة.فاستعمل الأسطول لربط الاتصال بمدينة قيصرية(شرشال) و كرتناي(تنس) و سوتا (سبتة).

ولم يكن احتلال البيزنطيين للمناطق الداخلية التي طوقوها بقلاعهم أمرًا هينًا، حيث كلفهم ذلك أرواحًا كثيرة من جنودهم وقادتهم حتى أصبح إخضاع الوندال و استرجاع قرطاجة لا شيء يذكر أمام جسامة العمل العسكري المضني في مواجهة الأهالي المور .فقد قضى صولومون نحبه في جبال الأوراس وهو يحاول النيل من الملك يبداس . وعانى البيزنطيون الأمرّين من الملك أنتالاس في شرق الأوراس وجنوب بيزاكينا (المزاق). وكان ملوك القيصرية والطنجية أكثر امتناعًا على البيزنطيين. من ذلك أن حاكم إفريقيا أمابيليس Amabilic لقي حتفه على رأس جيش بيزنطي عام 571 عندما حاول فتح الطريق البري بين سطيفيس وقيصرية، حيث اعترضه غسمول Gasmul ملك شعب الماكوريت Maccuritae بتعبير بروكوبيوس و هم قبائل مغراوة ، و نجم عن تلك الواقعة فرار كثير من سكان المدن الساحلية وتشجع المور على مواصلة التقدم وإبعاد البيزنطيين من المقاطعة السطيفية وجنوب نوميديا.و يظهر أن حصون جنوب الأوراس وقلعة زابي جوستينيانا قد تم إخلاؤها، واقتصرت الحاميات العسكرية على القلاع الكبرى في شمال الأوراس و شرقه واكتفى البيزنطيون بما لان لهم وأذعن من الإرث الروماني الضائع. ثم انتهج حكام إفريقيا البيزنطيون سياسة فرق تسد فحاولوا شراء ذمم الأمراء بالمال، فوضعوا لمن يتعاون معهم جراية مغربية. وتمكن الحاكم جناديوس Gennadius من ملك مغراوة غسمول فقتله عام 578 م انتقامًا لزميله أمابيليس، ولكن ذلك لم يفُتّ من عزيمة المور فواصلوا تحديهم للبيزنطيين.

ملامح الخريطة السكانية عشية الفتح:

أخذ اصطلاح "المور" يبرز في كتابات القرن الرابع ليعني مختلف الأقوام المستقلة عن السيطرة الرومانية والتي كان تأثرها بالحضارة المدنية محدودًا أومنعدمًا. وكان فيهم الملوك الأحلاف والإمارات المستقلة ومن ليسوا على وفاق دائم مع أهل المدن والمزارعين المرتبطين بهم . فالمور هم الجبليون والبدو المعادون للسلطة الأجنبية. وهم عكس أهل المدن المنعوتين بالآفري Afri أو الأفارقة في الكتابات المعاصرة للأحداث،باعتبار أن الآفري الأفارقة منتظمون في إطار المدينة الرومانية و خاضعون لضوابط السلطة الإمبراطورية.فالإفريقي بالنسبة للشاعر كوريبوس هو ذلك الإنسان الهادئ الوديع. وأخذ الفرق بين "المور" و"الأفارقة" يتبلور في مدى القابلية للانصياع للسلطة المركزية وتمثُّل الحضارة الرومانية والانتماء إلى الكنيسة الرسمية و ما يرتبط بذلك من التزامات مجسدة لشكل و مضمون "الرومنة" بمفهومها السياسي و الحضاري العام.

وكانت العلاقة بين هذه المجموعات متقلبة وغير متكافئة وتفتقر للتجانس والمواءمة؛ إذ تحكمها المصالح والظروف و الموقع الجغرافي والسياسي بالنسبة للمدن

خاصة.فالمدن الساحلية الواقعة تحت حماية الجيش البيزنطي كانت تابعة للإدارة البيزنطية بينما تأرجحت علاقة المدن الداخلية بين التبعية للبيزنطيين و الخضوع للأمراء المور . ولدينا في وثيقتي ألتافا (أولاد ميمون) وآريس السالفتي الذكر ما يبرز هذه العلاقة، حيث كان ملوك المور يرونها علاقة مسؤولية على رعية هي خليط من أعراق مختلفة وفئات اجتماعية متباينة ورثوها عن عهد روما. ويبدو أن تلك الروابط الإقليمية تواصلت حتى أيام الفتح، حيث يذكر ابن عذاري تحالف البربر مع الروم (سكان المدن =الأفارقة) بقيادة كسيلة في مواجهة عقبة بن نافع بإقليم تيهرت، وهي المنطقة التي كانت موطنًا لممالك المور منذ ماسونا. بينما كانت منطقة الأوراس موطنًا لممالك مورية عتيدة منذ ماستياس الملقب بالإمبراطور إلى يبداس إلى الكاهنة.

أما المدن التي شبهناها بالجمهوريات في العهد الروماني، فلم تعد لها تلك الهيبة والسلطان على أملاكها ورعاياها .حيث تنازعت على السلطة الدينية و الاجتماعية فيها الكنيستان المتناحرتان الكاثوليكية و الدوناتية و ضعف نفوذها على نخبها اقتصاديًا وأنهكتها الضرائب و نالت منها أعمال الغزو والتخريب، غير أن بعضها ظل مركزًا لنشاط حرفي وتجاري يدرّ على أهله موارد مهمة. و كان على تلك المدن أن تحسن التعامل مع محيطها المتقلب و جيرانها غير الآمنين الذين لا يكفون عن المطالبة بالمزيد من الأداءات مقابل الائتمان على الأنفس و الممتلكات.و لا نملك ما يفيد حول مدى محافظة المدن على أقاليمها الزراعية و الإدارية التي حددت لها منذ بداية السيطرة الرومانية و مدى ما أصابها من ضرر إقليمي في العهدين الوندالي و البيزنطي.و كذلك الشأن بالنسبة لهياكلها الإدارية ، فنحن لا ندري ما حدث فيها من تغيير مع تعاقب الأحداث و تقلبات الأوضاع.ومع ذلك فإننا نلمس من أخبار بعض المدن أثناء الفتح العربي الإسلامي ، ما يفيد أنها كانت تتوسط إقليمًا عمرانيًا معتبرًا. من ذلك ما ذكره الرقيق القيرواني على لسان عقبة تساؤله عن أعظم مدينة في بلاد الزاب فقيل له : أدنه ومنها الملك و هي الزاب. وكان حولها ثلاثمائة قرية وكلها عامرة والقصد بالقرى العامرة ذلك العمران الريفي الذي ترك شواهده الأثرية في منطقة الحضنة .. ويظهر من عبارة "ومنها الملك" أن المدن كانت مستقلة بشأنها متحكمة في مصيرها إبان الفتح، وقد تعامل الفاتحون مع المدن انفراديا واحدة بعد الأخرى بعد سقوط الحماية البيزنطية في معركة سبيطلة .كما نفهم من عبارة الرقيق القيرواني : "أن زهيرًا (البلوي) رأى بإفريقية ملكًا عظيمًا فخاف أن يقيم و قال إني قدمت للجهاد ...." أي أن مظاهر النعيم و الترف في تلك المدن كانت سائدة فخشي زهير الانغماس في متاع الدنيا.

وهكذا أطلت طلائع الفتح الإسلامي على بلاد المغرب وعلى واجهتها البحرية سلطة بيزنطية واهية، يحتمي عساكرها في قلاع حصينة لكنها لا تقوى على حماية سكان المدن و الأرياف التابعة لها من غارات ممالك وإمارات المور التي استفحل أمرها و أحكمت سيطرتها على معظم البلاد من المحيط الأطلسي إلى مشارف برقة.

د.محمد البشير شنيتي

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

- روستوفتزف 1965

تـــاريخ الإمبراطوريـــة الرومانيـــة الاجتمـــاعي والاقتصادي(ترجمة تركي علي و محمد سليم سالم، دار النهضة المصرية، القاهرة)

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Aghatizalran M.Droune J. 1973-79

Recherches sur le Tifinagh. Paris.

- Camps G. 1980

Berbères en marge de l'histoire. Paris.

- Chabot J-P. 1940

Recueil des inscriptions Libyques. Paris.

- Chevallier R. 1977

Les voies romaines . Paris.

- Courtois Ch. 1955

Les Vandales et l'Afrique . Alger-Paris.

- Deihl Ch. 1986

L'Afrique Byzantine. Paris.

- Gage C. 1964

Les classes sociales dans L'Empire romain. Paris.

- Gsell S. 1913-28

Histoire ancienne de l'Afrique du nord. 8 tomes.

Paris .Hachette,.

-Fantar M. 1970

Carthage . Tunis.

- Fantar M. 1984-87

Kerkouane ,3 tomes. Tunis.

- Fivrier P-A 1989-90

Approches du Maghreb romain ,2 tomes. Paris.

Monceaux P.

Histoire littéraire de l'Afrique Chrétienne . 7 Vol. Paris.

- Picard G .Ch. 1959

La civilisation de l'Afrique romaine . Paris.

- Poinssot C. 1983

Les ruines de Dougga, Tunis.

- Troussset P. 1974

Recherches sur le Limes tripolitanus. CNRS, Paris.

الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في جزيرة العرب

الوضع السياسي :

تمتد هذه الفترة من نهاية القرن الرابع قبل الميلادي حتى القرن السابع الميلادي وظهور الإسلام. ونلاحظ فيها ازدياد عدد الممالك العربية لاسيما في شمال الجزيرة العربية خاصة في الفترة المتأخرة وهذا الازدياد يعكس ديناميكية المنطقة العربية وازدهارها، مما دفع بعدد من الممالك الصغيرة لأن تظهر وتبرز. من جهة أخرى يشير في الوقت نفسه إلى اتجاه المجتمعات إلى التفتت إلى ممالك صغيرة عوضاً عن الاتحاد في مملكة واحدة كما في جنوب الجزيرة التي شهدت في فترة ممالكها المبكرة ظهور عدد كبير من الممالك المهمة التي اندمجت ضمن مملكة واحدة هي مملكة حمير بحلول القرن الثالث الميلادي، بخلاف الشمال الذي كان تاريخه يتميز بانحصاره في إطار مدن القوافل التي تسيطر عليها.

تكونت ممالك جنوب الجزيرة من كل من سبأ وقتبان ومعين وحضرموت وأوسان وفيما بعد حمير. وكان لكل مملكة عصرها ونفوذها واتساعها وانكماشها، منها ما عاصر بعضه الآخر ومنها ما تلا الآخر. وتعد سبأ هي أقدم الممالك في جنوب الجزيرة يعود تاريخها إلى القرن الثامن ق.م. وقد كان لكل مملكة منهم عاصمتها وإلهها ومنطقة نفوذها. فكانت سبأ اتخذت مأرب عاصمة لها. وفي القرن الرابع ق.م استطاعت قتبان البروز بوصفها دولة مستقلة عن سبأ وشكلت اتحاداً مع مجموعة من قبائل المنطقة حققت ازدهاراً وقوة بين القرنين الرابع والثاني ق.م. متخذة من تمنع في وادي بيحان عاصمة لها. وشبيه بذلك ما حدث لحضرموت التي استقلت عن سبأ في الفترة نفسها وكونت لنفسها مملكة ذات نفوذ مهم حول وادي عِرمة عند مدينة شبوة متخذة منها حاضرة لها. وكانت معين قد سبقت قتبان وحضرموت في الانفصال عن سبأ وأقامت حاضرتها قرناو على وادي الجوف. أما أوسان فكانت عاصمتها على الأرجح هي يهر على وادي مرخة وآثارها اليوم قيد البحث وكثير من تاريخها مازال غامضاً، فبحلول القرن الرابع ق.م أو نهاية عصر المكربين السبئي كانت قد سقطت في أيدي سبأ بعد محاولاتها المستميتة طوال عدة قرون للاستقلال.

وإلى الشمال من جوف اليمن وتحديداً عند وادي الدواسر، نشأت دولة كندة الأولى في قرية الفاو أو وفق اسمها في النقوش "قرية ذت كهل" منذ القرن الثالث ق.م. وقد ورد اسم كندة في النصوص العربية الجنوبية باسم كدت حيث يرد ذكر علاقات متعددة مع ملوك سبأ وحمير. وقد تعرضت مدينتهم لمحاولات توسع من قبل ملوك سبأ في النصف الثاني من القرن الأول ق.م ثم تحسنت العلاقات مع الحميريين حتى نجحت غزوات ملك المناذرة امرؤ القيس بن عمرو الآتية من الشمال أن تقضي على استقلالها ونزح شعبها تبعاً لذلك إلى الجنوب حيث استقروا في قشم أرض أوسان القديمة وانخرط عدد منهم في جيش حمير. وعرفت المنطقة التي استقروا بها بسرو مذحج. وعرف لكندة تاريخ ممتد في شمال الجزيرة أيضاً في الفترة المتأخرة ويلف تاريخها كثير من الغموض لكن يمكن إيجاز الأمر في أن صلة كندة بين الشمال والجنوب ولدها توليهم خفارة تجارة القوافل بين هاتين الجهتين مكلفين من قبل حمير، وبعد ذلك انخرطوا في علاقات السلطة والقوة بينهم وبين القوى الأخرى الموجودة في الشمال لاسيما عندما رغبوا في الاستقرار بها. فما بين حروب وتصاهرات كانت هي السمة البارزة لعلاقاتهم مع ملوك الحيرة وغسان وحمير. ويتضح

من سير العلاقات بين كندة وحمير أن الأخيرة نجحت في جعل أمراء كندة بمثابة ولاة لها على قبائل معد الشمالية بمشروع مصاهرة تم بين البيت المالك الحميري والكندي. ونجد أن كندة الشمال استقرت في "غُمر كندة" و"بطن عاقل" والأول موقع على مقربة يومين من مكة، والثاني على طريق البصرة. أي أن منزل كندة الأساس كان في عالية نجد وتعاقب عليها عدد من الملوك الذين انتهوا بشاعر المعلقات، الملك الطريد، امرئ القيس عام 542م. وانتهى بذلك ملك كندة، وتفرقت القبائل وتخلت عن آل مرار وعادت بعض قبائل كندة إلى مدارجها بحضرموت وكانت تسيطر على خفارة سوق الرابية بها، ومن هناك نسمع بوفدهم يقدم على النبي صلى الله عليه وسلم في عام الوفود عام 632م الموافق العاشر من الهجرة وكانوا متنصرين فأسلموا.

وشهد نهاية القرن الثاني ق.م تحولاً من الداخل والخارج حيث بدأ الحميريون عام 115ق.م زحفهم على سبأ حتى أقاموا حاضرتهم الجديدة ظفار. وقد استولوا على كل جنوب الجزيرة العربية ومدوا نفوذهم حتى وسطها وربما شمالها كذلك، وامتد ذكرهم حتى ظهور الإسلام. ومع اتساع نفوذهم كانت كذلك ثروتهم التي مكنت ملوكهم من تعمير القصور والطرق والسدود التي كان أشهرها سد مأرب وتستمر مملكتهم خلال فترة الممالك العربية المتأخرة حيث استطاعت حمير في عهد ملكها شمر يهرعش الحميري (280-315م) أن تكون الدولة الوحيدة في جنوب الجزيرة. وبقيت حمير متسيدة على اليمن حتى قضى الأحباش على استقلالهم في عام 525م لاسيما بعد حادثة أخدود نجران عام 523م. واستمر حكم الأحباش في اليمن لمدة خمسين عاماً حتى استطاعت فارس الساسانية الاستيلاء عليها، والتي بقيت في حيازتها حتى الفتح الإسلامي.

وخارجياً أخذ النشاط البطلمي في البحر الأحمر يزداد قوة، وبدأت الرحلات البحرية من مصر إلى الهند تبحر مباشرة. وخلال القرن الأول ق.م تأثرت الرحلات البحرية بين مصر والهند بالاضطرابات التي نجمت عن الحروب الأهلية الرومانية وضعف الحكام البطالمة المتأخرون، إلا أن أواخر القرن الأول ق.م شهد ازدهاراً للتجارة الشرقية مع بسط الرومان سلطتهم على المنطقة ونشرهم ما عرف بالسلام الروماني في البحر المتوسط. لكن صاحب بدايات هذا السلام محاولة الرومان غزو الجزيرة العربية في الحملة الشهيرة المعروفة باسم حملة إيليوس جالوس.

وينتهي النفوذ الإخميني المباشر على شمال الجزيرة وبلاد الرافدين وسوريا في نهاية القرن الرابع ق.م (332ق.م)؛ ليبدأ نفوذ سلطة أجنبية أبعد مسافة من الفرس، وهم الإغريق بقيادة الإسكندر المقدوني (333-323ق.م). هذه الفترة ومنذ نهاية القرن الرابع ق.م شهدت حركة سياسية عنيفة على حدود الجزيرة الشمالية مع غزوات الإسكندر المقدوني ومن بعده صراعات قواده فيما بينهم.

كانت تتناوب وتتنافس للسيطرة على شمال الجزيرة في تلك الفترة مملكتان، هما لحيان والأنباط فضلاً عن بعض مدن القوافل المهمة كدومة وتيماء. وقد ازدهرت مملكة لحيان في شمال غرب الجزيرة العربية خلال مدة زمنية امتدت منذ القرن السادس ق.م حتى القرن الأول ق.م حتى سقطت على يد الأنباط لدى توسعهم جنوباً. وكان مقر لحيان مدينة ددان (العلا الحالية) التي تقع على بعد 400كم شمال يثرب (المدينة المنورة) 20 كم جنوب الحجر (مدائن صالح). وددان تذكر في كثير من النصوص القديمة، في العهد القديم والكتابات الكلاسيكية بوصفها مدينة ذات دور مهم على طريق البخور الرئيسي الطولي الذي يقطع الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال. وقد تحالفت في فترة من تاريخها مع مملكة معين الجنوبية في القرن الثالث ق.م وتركوا لهم إنشاء نشاط تجاري في ددان شارك في حركة تجارة البخور التي كانت معين تسيطر على جزء من

طريقه الجنوبي كما حرصت على أن يكون لها نشاط في طرفها الشمالي.

أما الأنباط، فقد ظهروا بوصفها مملكة متصلة وممتدة منذ نهاية القرن الرابع 312ق.م واستمرت مملكتهم زمنياً حتى بداية القرن الثاني الميلادي عبر تاريخ طويل من الصراعات الداخلية والخارجية والإنتاج الحضاري. فبعد أن دخلوا في منافسات طويلة مع البطالمة على البحر الأحمر وتجارة البخور التي أخذ اللحيانيون يسربونه إليهم عن طريق منافذهم البحرية، فقد قرر الأنباط بحلول القرن الأول ق.م أن يتوسعوا جنوباً ليصل تجارهم إلى مراكز إنتاج البخور بأنفسهم؛ ولذا فقد أقامت جالية نبطية في قرية ذات كهل (الفاو) حلت محل الجالية اللحيانية. خاصة بعد ظهور المنافس الروماني الذي اشتدت منافسته منذ احتل مصر عام 30 ق.م. فأخذ الأنباط يسعون لنقل مركز نفوذهم إلى داخل الجزيرة العربية نفسها، وما لبثوا أن أسقطوا اللحيانيين بعد ذلك بمدة قصيرة وبنوا مدينة الحجر (مدائن صالح) وحولوا إليها طريق التجارة وصرفوها عن ددان حتى ماتت المدينة.

وقد امتد تاريخ الأنباط بوصفها مملكة مستقلة حتى عام 106م حين أسقط الرومان مملكتهم ليضموها إلى إمبراطوريتهم وأطلقوا عليها "المقاطعة العربية" وأصبحت عندئذ بصرى- الشام عاصمة لها. أما مكانياً فقد شملت منطقة شمال غرب الجزيرة حدها الجنوبي ددان- العلا(وادي القرى)، وامتدت شرقا إلى دومة الجندل وما وراءها، وشمالا إلى دمشق، وغربا إلى صحراء النقب، حيث مدنهم مثل عبادة (عبودا) والعزى (اليسا)، وسيناء حيث أسسوا بعض المدن أيضاً كالشقافية.

كانت الرقيم عاصمة الأنباط، ووفق التسمية اليونانية: البتراء . وهي المدينة الوردية المنحوتة في الجبال. وأسسوا مدينة أخرى نحتوها في الجبال هي مدينة الحجر أو مدائن صالح الحالية وتبعد 20 كيلاً عن ددان شمالاً. أما بصرى فقد كانت حاضرة آخر ملوكهم رب ايل الثاني (70-106م).

وقد غلب على نظامهم السياسي الملكية الديمقراطية والتي تعد امتداداً لنظام شيخ القبيلة. فيقول سترابو: "إن الملك ديمقراطي، فهو بالإضافة إلى خدمة نفسه بنفسه يخدم ضيوفه أحياناً، وهو عادة يعرض كشف أعماله على المملكة في الاجتماع الشعبي، وأحياناً يحققون في أسلوب حياته". وهذا بلا شك انطباع إغريقي لما يمكن أن يكون عليه النظام السياسي النبطي.

وإلى الشمال الشرقي من الحجر وددان، وعلى بعد حوالي مائتين وعشرين كيلاً، تقع مدينة تيماء ذات التاريخ العريق الممتد إلى القرن السادس ق.م والمرتبط باستقرار آخر الملوك الكلدانيين (556-539 ق.م) بـها لمدة تسع سنوات بين عامي (552-543 ق.م) ماداً نفوذه إلى ددان وخيبر وفدك ويديعو ويثرب. وتاريخ تلك الفترة الخارجة عن إطار اهتمامنا تمثل خلفية مهمة للتعرف إلى بعد المدينة التاريخي وأهميتها الإستراتيجية كما يبدو في شمال الجزيرة أو على خط القوافل الشمالي. ولكنها استمرت ذات أهمية في العهد اللحياني الذين امتدت سلطتهم إليها، وذكر اسم أحد الملوك اللحيانيين على نقش مسلة تيماء الآرامية المكتشفة عام 1979 التي تشير إلى ملك لحيان وتؤرخ بالقرنين السادس والخامس ق.م. وفي العصر النبطي امتد نفوذهم إلى مناطق نفوذ اللحيانيين سابقاً ومنها تيماء التي كان أمر السيطرة عليها مهمًّاضمن طريق الشمال المتجه إلى بلاد الشام عن طريق وادي السرحان.

وقد أظهر عدد من النقوش طبيعة العلاقات التي جمعت بين الأنباط والتيمائيين، فهناك إشارات لاستقرار عدد من التيمائيين والتيمائيات في مدينة الحجر منذ وقت مبكر من تأسيسها، وانخراطهم في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية، تشهد على ذلك مقبرتان مهمتان عثر عليهما في الحجر، تنسب إحداهما إلى رجل والأخرى إلى امرأة

تيمائية، زودتنا بمعلومات مهمة حول بعض الخصائص التيمائية البحتة والخصائص الحِجرية المضافة. كما أدى التنقيب في تيماء إلى الكشف عن عدد من الكتابات النبطية وإن لم تكن شافية.

وإلى الشمال الشرقي من تيماء تقع مدينة دومة، أو دومة الجندل في منخفض الجوف، والتي شهدت تاريخاً حافلاً منذ القرن الثامن ق.م. كما شهدت نشأة مملكة عربية حكمتها النساء ممن خضن حروباً مع الآشوريين على مدى قرنين من الزمان ابتداءً من ملكهم تجلات بلاسر 3(745-727) وحتى عهد آشور بانيبال(668-633). وقد انتقلت أهمية المدينة بوصفها منفذًا على وادي السرحان يؤدي إلى بصرى الشام، منها إلى مدينة تيماء. لكن بعض أهميتها عادت إليها في العهد النبطي الذي استخدمها كقاعدة عسكرية على الأرجح، وأرسى فيها حامية تقوم بمراقبة طريق التجارة الشمالي وحمايته .. يدل على ذلك عدد من الكتابات التي عثر عليها في دومة. ومن هذه الكتابات ما يشير إلى وجود أسر مهمة تتوارث مهمة رئاسة هذه الحامية .. ومن المثير للاهتمام أن هذه الأسر ذات علاقة وثيقة بالحجر كذلك.

وقد عاصر الأنباط مملكة الحضر الواقعة في منطقة الجزيرة الفراتية وشمال وادي الرافدين، على بعد أربعة كيلومترات إلى الغرب من وادي الثرثار على مسافة 110 كم إلى الجنوب الغربي من الموصل. ويرد اسمها بالآرامية "حطرا" ووردت في المصادر العربية الإسلامية بصيغة "الحَضْر". والمعنى يعني الحظر وتقديس المكان وبعد أن ورد اسمها كاملاً على قطع العملة بعبارة "حطرا دي شمش" التي تفسر بأنها حظيرة أو حرم الإله شمس، ومنها يطلق عليها اسم مدينة الشمس. فكانت الحضر مدينة ومملكة دينية بالدرجة الأولى وإلى جانب ذلك كان لها دور تجاري مهم على طريق القوافل القادمة عبر الخليج العربي اليوم والمتجهة شمالاً إلى الموصل أو نصيبين أو دورا يوروبس على الفرات. بدأ نمو مدينة الحضر منذ منتصف القرن الأول ق.م تحت سلطة كانت موزعة ما بين الشيوخ الذين يعرفون باسم "ربا" والسدنة الذين يدعون "رب-بيتا" وسقطت عام 241م في عهد الملك سنطروق الثاني على يد الملك الساساني شابور الأول بعد محاصرتها سنة كاملة.

وكانت دويلة-مدينة ذات طابع ديني وتجاري مهم، تشير آثارها إلى ثرائها؛ فهناك القصور والمعابد الضخمة والتماثيل الدقيقة الصنع والمعثورات الثمينة في مقابرها، هذا فضلاً عن الثروة الكتابية التي وصلتنا من ألواحها المنقوشة بخطها الحضري الآرامي مما كان ينشر تباعاً عندما كان التنقيب فيها قائماً وآمناً قبل بدء حرب الخليج الأولى عام 1980م.

وفي الطرف الشمالي من صحراء بادية الشام تقع مملكة عربية صحراوية هي مملكة تدمر، التي نشأت في الفترة السلوقية واستمرت مدينة قوافل لطريق الحرير من جانب وإحدى تفريعات طريق البخور من الخليج العربي من جانب آخر خلال فترة حكم الرومان لسوريا الذين قضوا على السلوقيين عام 64ق.م. وهي مدينة ازدهرت من القرن الأول ق.م وبلغ أوج هذا الازدهار في القرن الثالث الميلادي الذي شهد سقوطها كذلك. وكان ذلك بعد مقتل ملكها أذينة وتولي زوجته ""زنوبيا" أو "بت زباي" مقاليد السلطة بحكم وصايتها على ابنها وريث العرش، وهب اللات الذي كان قاصراً. وفي هذه المرحلة يتغير تاريخ تدمر ولمدة سبع سنوات بلغت فيه تدمر أوج شهرتها وعظمتها، حيث ارتبطت بشهرة ملكتها التي نقلت بلادها من مجرد مملكة أو إمارة صحراوية صغيرة إلى إمبراطورية تتسع لها كل سوريا ومصر والأناضول وذلك خلال بضع سنوات من حكمها، متخذة لقب "إمبراطورة" بين عامي 266 و273م. لكنها لم تلبث وبعد مقاومة مستميتة أن سقطت أمام حصار أورليانوس الطويل عام 273م.

وما لبثت أن قامت مملكة عربية أخرى في جنوب بلاد الرافدين؛ لتملأ الفراغ السياسي لمملكة الحضر، وظهرت مملكة الحيرة أو سلالة المناذرة في عام 268م التي نشأت وازدهرت في جنوب العراق على نهر (الفرات) ومارست نوعاً من الاستقلال الذاتي تحت النفوذ البارثي ثم الساساني ودخلت في علاقات سياسية منها المتكافىء ومنها دون ذلك مع جيرانها من البيزنطيين والقبائل العربية .. ويعتقد أنهم مدوا نفوذهم إلى بعض مدن الجزيرة مثل يثرب. وقد أدت هذه الدولة دور الدولة الحدية أو العازلة بين الفرس الساسانيين وبين الروم البيزنطيين، من جهة وبين الأعراب من جهة أخرى، وهو الدور نفسه الذي أدته دولة الغساسنة فيما بعد في الشمال الغربي من الجزيرة العربية. فكانت الحروب والمواقع لا تنتهي في تلك الفترة، خاصة ما بين المناذرة والغساسنة وكل منهما موالٍ لفريق منافس كل حسب موقعه، فكان المناذرة موالين للفرس والغساسنة موالين للروم البيزنطيين. وانتهت مملكتهم قبل دخول المسلمين عام 633م بقليل، ولذلك أسباب كثيرة.

كانت دولة الغساسنة هي الدولة المنافسة والمقابلة للمناذرة، وتقع في الشمال الغربي من الجزيرة العربية متخذة من الجابية جنوب دمشق عاصمة لها، مع أنهم تنقلوا في عدد من العواصم، ففي فترة اتخذوا من "جلق" قرب دمشق عاصمة لهم، وفي فترة أخرى "بصرى الشام" . وغسان إنما هو نسبة إلى ماء أو بئر كان الغساسنة ينزلون به في تهامة عرفوا به، أما أصولهم فهي تعود إلى الأزد اليمنية ويطلق عليهم أيضا اسم آل جفنة نسبة إلى أول ملوكهم. وقد حكم الغساسنة في الشمال في مرحلة متأخرة عن المناذرة منذ نهاية القرن الخامس (490 م) وحتى منتصف القرن السادس الميلادي. قدموا فيها إلى الشام وفرضوا سلطانهم على بني سليح الضجاعمة وكلاء الروم هناك ومن ثم أوكلت الإمبراطورية البيزنطية إليهم مهمة الخفارة العسكرية لحوران وشرق الأردن وبعضٍ من فلسطين. أما حدودهم فقد كانت تتسع وتنكمش حسب قوة ملوكها، وقد بلغت أقصى اتساع لها في عهد الحارث بن جبلة من البتراء إلى الرصافة شمال تدمر، ومنطقة نفوذهم الأساسية تمتد من حوران إلى خليج العقبة.

وقد أدت دولة الغساسنة الدور نفسه الذي أدته دولة المناذرة من حيث إنها دولة حدية حاجزة بين الروم والفرس من جهة وبين الروم والأعراب أو القبائل العربية من جهة أخرى. وهم في ذلك على ولاء للروم البيزنطيين الذين منحوا ملوكها لقب بطريق، أي قائد العشرة آلاف، ولقب فيلارخ، أي رئيس القبيلة، ولقبهم العرب بالملوك. ووضع الغساسنة الإكليل على رؤوسهم ، وتتوج ملكهم المنذر بن الحارث بالتاج. وكانت حروب الوكلاء العرب، هي ما شغلت معظم القرن السادس الميلادي ما بين منافستهما الشخصية وما تركاه من أثر في الموروث الشعبي العربي الجاهلي. وقد كانت نهاية الغساسنة مع فتح بلاد الشام والانتصار في المعارك الأساسية لبصرى واليرموك عام 13 هـ / 634 م.

ولا نغفل أن نذكر في خضم وجود مملكتين كبيرتين كالمناذرة والغساسنة في شمال الجزيرة من الإشارة إلى بعض الممالك الصغيرة التي نشأت في فترات معاصرة لهما. ففي منتصف القرن الرابع الميلادي كانت قبائل عربية تسكن جنوب الشام وفلسطين تحيا في ظل بقايا النفوذ العربي القديم للأنباط وتحت الظروف السياسية التي استحدثت وأوقعتهم تحت سلطة الإمبراطورية البيزنطية، وتأثروا بالظروف الدينية أيضاً التي استجدت في فلسطين من انتشار للنصرانية ودخول عرب المنطقة في الصراعات المذهبية التي نشأت ما بين من يؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح ومن يؤمن بالطبيعتين له. ومن هؤلاء قبيلة سليح الضجاعمة التي تنسب إليها الملكة ماوية على الأرجح.

وقد نالت هذه القبيلة شهرة في القرن الرابع الميلادي نظراً للثورة التي قادتها ملكتهم التي عرفت باسم ماوية

و بـ"ملكة Mawiya, Mavia Mauia, Moavia السراكين"، بين عامي 375 و 378م حيث شنت هجوماً متواصلاً على إمبراطورية فالنس Valens (364-378م) هاجمت خلاله حدود الروم عابرة البسفور، ولا يزال العرب يتغنون بذكرى تلك المعركة في أشعارهم.

وقد تولت هذه الملكة التي تولت حكم قبائل جنوب فلسطين وسيناء، على إثر وفاة زوجها الذي لم تذكر المصادر اسمه ولكنه يلقب بملك (بازيليوس) وكان عاملاً عربياً لبيزنطة وقد حكم زمن جوليان 361-363م. وكان جل اعتراضها على الروم محاولتهم فرض مذهبهم عليها وهو ما شرطته على البيزنطيين عندما اضطروا للتفاوض معها وترضيتها بتعيين أو تسقيف راهب يدعى الأسقف موسى على عربها وكان كاثوليكياً معارضاً لمذهب أريوس، وهي فترة انتشرت فيها النصرانية بشكل كبير بين قبائل الشام العربية. إن سيرتها تدل على أنها كانت قائدة حربية من الطراز الأول ذات قدرة وكفاءة لا تقل فيها عن مثيلتها زنوبيا، وتدل موافقتها على أن قيادة المرأة لم يكن أمراً مستغرباً بين شعوب هذه المنطقة من القبائل العربية. ولا زال الكثير عن سيرتها في حاجة إلى الدراسة والتمحيص.

ومن أهم الممالك التي نشأت على جانب الخليج العربي والتي كانت معاصرة الأنباط، كانت مملكة ميسان وتدعى لدى اليونان خاراكس ولدى العرب المسلمين: كرك ميسان ، وتقع على رأس الخليج عند التقاء شط العرب بنهر قارون وتدعى اليوم بالمحَمَّرة، ووجدوا آثاراً لمدينة الكرخة القديمة عند جبل خيابر. وقد أنشأها الإسكندر لمنافسة الجرهاء وأطلق عليها اسم الإسكندرية، ولكنها لم تنجح إلا في فترة متأخرة عندما تولتها أسرة عربية برئاسة هسباوسينس Hyspaosines (125-109 ق.م) تحت مظلة السلوقيين في عهد أنطيوخوس الرابع (166-163ق.م) ظلت تحكمها حتى سقطت في يد الساسانيين بعد ثلاثة قرون ونيف عام 225م. ويذكر الطبري أنه كان لديهم ملكٌ يدعى بندو قتله أردشير ثم بنى مكان ميسان كرخ ميسان، ويعتقد منذر البكر أن لذلك صلة بنهاية الدولة الرومانية وقيام الدولة البيزنطية، مما نتج عنه تغير في طرق التجارة وانتقال جزء من تجارة الخليج إلى البحر الأحمر.

ومن أشهر ملوكهم : أتامبيلوس، أو عطاالله أو تيم بعل. وقد أنشأ ملوكها ميناء آخر على نهر الفرات وعرف بـ"فرات" ويعتقد أنه الأبله، أسماه العرب المسلمون بفرات. كان سكانها عرباً يستخدمون الآرامية في مراسلاتهم وكتاباتهم ويتحدثون بلهجة من لهجات عرب الجزيرة العربية. وقد ظهر الخط المندائي في المنطقة مع المندائيين الذين يقطنون جنوب العراق. ونشاطهم زراعي وتجاري، فهي كانت مركزاً مهماً للتجارة الهندية الواردة عن طريق الخليج، وذات علاقات تجارية قوية مع تدمر والحضر والأنباط والصينيين بالإضافة إلى الفرس.

وإلى الجنوب من ميسان وتسبقها تاريخاً لكن ما تلبث أن تعاصرها، مملكة الجرهاء، التي تتوسط الخليج العربي حاليا فكان لها قصب السبق على بقية المراكز الحضارية في الخليج. وهي مدينة عرفت مزدهرة منذ القرن الرابع قبل الميلاد، لكن على موقعها خلاف ما بين أنها ثاج أو العقير أو الهفوف أو ميناء قرية الفاو.

وقد ازدهرت في العصر المتأغرق وبلغ من ثرائها أن الجغرافي الإسكندري سترابو ذكر بأن "الجرهائيين والسبئيين هم أثرى شعوب العالم. وأطنب في تفصيل ذلك معتمداً على مؤرخ أبكر منه قليلاً هو أرتميدوروس الإفسوسي (حوالي 100 ق.م) فتحدث عن بيوتهم الملبسة بالعاج والذهب والفضة والمرصعة بالأحجار الثمينة، وأدواتهم اليومية الثمينة من مقاعد وثيرة وطاولات ثلاثية الأرجل، وعن تجارتهم يقول سترابو بأن الجرهائيين يسافرون بالبر في معظم الأحيان ويتاجرون في التجارة العربية والطيوب.

وقد أثارت شهرتها أطماع الإغريق السلوقيين فحاولوا إخضاعها أكثر من مرة دون جدوى وقبلوا أخيراً في غزوة للملك أنطيوخوس عليهم أن يشتري الجرهائيون حريتهم وحرية عبادتهم وضمان السلام في خطاب بعثوه إليه مع مبلغ كبير من المال والبخور واللبان مما يشير إلى مكانتهم الاقتصادية والسياسية النافذة، ويشير إلى تقديرهم لقيم الاستقلال والحرية العالية. وكان لموقعها في وسط الخليج دور كبير في الوصل بين التجارة البحرية والبرية الآتية من وسط الجزيرة بكل سلع البحر والبر.

وإلى الجنوب من الجرهاء كان هناك مملكة عربية أخرى عرفت باسم مملكة عمانا أو صحار أو ماكا أو ماكاي في شبه جزيرة عمان وتمثل الحد الجنوبي للخليج العربي وحلقة الوصل بين الخليج العربي وبين ساحل جنوب الجزيرة وتطل على الخليج من جهة وعلى البحر العربي والمحيط الهندي من جهة أخرى، وكانت ميناء مهمًّا فيها حركة ونشاط تجاري واسع خاصة مع المناطق المجاورة لها مثل ساحل كرمينيا وموانىء الهند الشمالية الغربية والجنوبية الغربية، كان على علاقات اقتصادية جيدة مع فارس وذلك في القرن الخامس ق.م.

كما كانت تقوم فيها صناعة القوارب والخمر والثياب العربية والأصباغ الأرجوانية والتمور، فضلا عن إنتاج اللبان والمر. وعرف أحد ملوكها لدى المؤرخ الروماني لوسيان باسم Goaesus والذي هو على الأرجح تحريف لاسم قيس أو جحيش، وكان يلقب بملك بلاد اللبان، ويرجح دانيال بوتس أن مدينة الدور الحالية حيث كان بها ضرب للعملة إنما هي "عمانا" المذكورة في المصادر. وأظهرت التنقيبات الحديثة عن مدينتين مهمتين ترجعان للفترة المعنية: مليحة والدور. تقع الأولى وهي الأقدم على بعد خمسين كم إلى الغرب من ساحل خليج عمان، وعلى بعد 80 كم من الدور، ويمتد تاريخهما إلى القرن الثالث الميلادي.

وهكذا كانت ممالك عمانا-الجرهاء-ميسان الثلاث أو دويلات المدن تسيطر وتنظم تجارة الخليج فيما بينها ما بين تعاون وتنافس.

ويضم غرب الجزيرة العربية عدداً من الحواضر التي كانت لها أهمية في تاريخ الجزيرة السابق لظهور الإسلام وأهمها مكة. وأول اسم يرتبط بمكة في التراث العربي هو اسم امرأة، السيدة هاجر زوج النبي إبراهيم عليه السلام. ويتعلق تاريخ البلدة التي نشأت منذ ذاك في قلب واد تحيطه الجبال بسيرة هذه السيدة وابنها إسماعيل اللذين تركهما النبي إبراهيم عليه السلام في واد غير ذي زرع ليتدبرا أمرهما. وعاد إلى فلسطين في فترة تعود إلى بداية الألف الثاني ق.م. وتكونت المدينة شيئاً فشيئاً بشكل لم تغطه كتب التاريخ بشكل معقول واقتصرت على كثير من الروايات غير المؤكدة تاريخياً. فوصلتنا إشارة تاريخية فريدة لاسم مكة في جغرافية بطليموس الذي يدعوها فيه باسم "مكورابا" Macoraba ولا تحمل أي توضيح أو تخصيص سوى وضعها القريب من موقعها الأصلي على الخريطة.ومن جهة أخرى وصلتنا إشارة أثرية نادرة لقبيلة قريش تعود إلى القرن الأول ق.م. لكن الحصيلة أننا وجدنا مكة في الفترة التي تسبق ظهور الإسلام أو ما يعرف بالجاهلية وقد أصبحت مدينة تمتزج فيها العقائد الدينية بالمصالح التجارية التي أخذت قبيلة قريش باستثمارها في تحرك قوافل البخور شمالاً وجنوباً فصارت مكة إحدى المحطات التي تجذب القوافل في طريقها لتُنزل حملها وتتاجر به في أسواق مكة.

ونزلت مكة قبائل مختلفة كانت أهمها أو آخرها قريش التي تسيدت حتى ظهور الإسلام مطورةً نشاط مكة التجاري عن طريق تكوين عدد من التحالفات والعهود التي عرفت باسم الإيلاف التي تعني في الحقيقة القبول بنظام السلم المكي Pax Meccana، وفق تعبير كستر، الذي نشروه مع ضمانهم لسلامة قوافلهم بالمعاهدات التي عقدوها مع القبائل

والممالك في الشمال والجنوب. ويتصل بغرب الجزيرة أيضاً كل من الطائف ويثرب. وهما مدينتان رديفتان لتاريخ مكة ومرتبطتان بها لاسيما عند ظهور الإسلام.

تقع يثرب غرب الجزيرة العربية، إلى الشمال الغربي من مكة على بعد أربعمائة كيلومتر جنوب ددان-العلا. وأول ذكر تاريخي لها كان في نقش حران، المكتشف عام 1956م، الخاص بالملك نبونيد الكلداني ملك بابل (556-539 ق.م)، الذي سكن الجزيرة العربية عشر سنوات في القرن السادس قبل الميلاد منها: تسع في تيماء (552-543)، وقام خلالها بمد نفوذه إلى حواضر شمال غرب الجزيرة العربية ومنها يتريبا (يثرب). كما ورد ذكرها في أحد النقوش اللحيانية المبكرة غرب تيماء، وفي نقوش معينية. كما ورد اسمها فيما بعد في جغرافية بطليموس باسم Lathrippa، وعرفت في المصادر الآرامية باسم Medinto, Medinta، ويذكرها اصطفان البيزنطي باسم مدينة يثرب ولذلك اختصرت في المصادر الآرامية إلى مدينتا، ولما نزل بها رسول الله سميت بمدينة الرسول.

وجل تاريخ يثرب يصلنا من الفترة الإسلامية من كتب الإخباريين الذين يتحدثون عن أصول أسطورية لتكوينها وسكنى العماليق بها وغير ذلك من أخبار. ولكن ما كان مستمراً إلى الفترة المعاصرة لكتب الإخباريين هي الفترة الإسلامية التي يمكن من خلالها أن نتحدث عن مجتمع يتكون من عرب ويهود. وتختلف المصادر حول بداية سكنى كل فريق وأولوية كل منهما. فتتفاوت الروايات بين أولية وصول اليهود جزيرة العرب زمن سيدنا موسى في نهاية الألف الثاني ق.م، وبين وصولهم بعد سقوط أوروشاليم بفلسطين وطرد الرومان لليهود منها عام 70م، وفريق ثالث يرى وصولهم بعد فشل ثورة "بر كوخبا" التي قامت بين عامي 132-135م. فاتجه جزء كبير منهم إلى شمال الجزيرة العربية واستقروا في عدد من واحات الشمال والشمال الغربي والغرب إلى يثرب. واشتغلوا بها في الزراعة وبنوا لأنفسهم الآطام والحصون المرتفعة وأشهرها وفق الروايات، مارد بدومة الجندل والأبلق بتيماء. وربما أن حرصهم على بناء الحصون مرتبط بتاريخهم الذي جعلهم حذرين على الدوام فجعلوا سكناهم في حصونهم. وفعلوا ذلك في الواحات الأخرى التي سكنوها وأشهرها خيبر.

أما الأوس والخزرج فيرجح الإخباريون أنهم قدموا يثرب بعد حادث سيل العرم، الذي ينسب إما إلى القرن الخامس (450الميلادي) زمن شرحبيل بن يعفر أو السادس (543الميلادي) زمن أبرهة الحبشي. ولما جاءوا يثرب وجدوا اليهود فيها. ويرجح أن ذلك كان في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، ثم وقعت المنافسة بين الأوس والخزرج أنفسهم والذين ينتسبون إلى أخوين من اليمن، ووقعت بينهما حروب كثيرة تقوم على الثأرات وأسباب أخرى، وكان آخرها يوم بُعاث، فرحل عمرو بن الإطنابة الخزرجي إلى ملك الحيرة النعمان بن المنذر ليضبط الأحوال، فملكه المدينة وقد عرف أهل يثرب بالتجارة مثل غيرها من مدن الجزيرة يتاجرون في أسواق الشام ويذكر أن تجار الشام يقدمون إلى يثرب للتجارة كذلك. وكانت لبعض أقوام العراق أسواق ثابتة في يثرب؛ ففيها مثلاً سوق يعرف بسوق النبط. وقد استمر هذا السوق في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد اشترى منه، وكانت تجري في وقت في السنة. يقول ابن سعد في طبقاته هي سوق "تقوم بها في السنة، يحشدون لها". وكان عمر بن الخطاب يأخذ منهم نصف العشر مما يتجرون به من الحنطة ليسترضيهم ليستمروا ويأتوا إلى المدينة ولم يأخذ منهم. هذا فضلاً عن اشتهارهم بالزراعة لخصوبة أرض يثرب البركانية، وقد اشترك اليهود والعرب في الزراعة والمتاجرة بمحاصيلهم في الأسواق المحلية والموسمية.

أما الطائف فهي تقع على ظهر جبل غزوان على مسافة 75 كلم إلى الجنوب الشرقي من مكة وترتفع 1600 م فوق سطح البحر وحوالي ست آلاف قدم فوق سلسلة جبال

السروات. وهي منطقة مرتفعة وذات جو بارد، كثيرة الشجر والثمر، تعد مصيف مكة ومموّنتها بالفواكه والبقول وتنتشر فيها البساتين والمياه.

لا نعرف كثيراً عن تاريخ الطائف القديم، فهي لم ترد في النصوص القديمة أو في النقوش، وإن كانت توجد على بعض جبالها كتابات من كتابات البادية وغيرها، وحتى يتم بها تنقيب آثاري فنحن نعتمد على ما يردنا حول تاريخها من روايات إخباريي صدر الإسلام. فقد ارتبط تاريخ الطائف لديهم بعدد من الأساطير التي تنسبها وسكانها حيناً إلى أبناء آدم وأول صراع بينهم، وحيناً إلى أبناء نوح واستقرارهم بها، أو إلى العماليق وثمود، وحيناً إلى سيدنا إبراهيم وأنها كانت أرضاً حول الكعبة ثم انتقلت بدعوة إبراهيم فطافت حول البيت ثم استقرت مكانها فسميت الطائف.

وكانت الطائف في صدر الإسلام وقريباً من عهد كتبة الأخبار، لثقيف، القبيلة المضرية المنتسبة إلى هوازن من قيس عيلان وقد شُوه تاريخ الطائف نظراً لارتباط تاريخها قبل الإسلام بطرد سادتها للرسول صلى الله عليه وسلم، وفي العصر الإسلامي بالحجاج بن يوسف الثقفي المعروف بقسوته وجبروته والبغض له، فجعلوا ثقيفاً عبداً لشخص اسمه أبو رغال في خبر أنه هاجر إلى وادي القرى وتربى على عجوز يهودية ثم عاد إلى الطائف وأراد الغدر بأمة حبشية ليسرق غنمها، وهو جاسوس وخائن حاول إرشاد أبرهة إلى مكة، وغير ذلك من روايات غير مترابطة. وكانت ثقيف في صدر الإسلام بطنين: الأحلاف ومالك، وغلب الأحلاف على مالك وأثروا وكثر خيلهم لكن كانت بينهما أيَّامٌ كثيرة، كما كان المعهود بين جميع قبائل العرب في حواضرهم وباديتهم.

وكان أهل الطائف حضرًا مستقرين يشتغلون بالزراعة ولم يترفعوا عن ممارسة الحرف فاشتهروا بالدباغة والنجارة والحدادة وربحوا منها، ووسعوا زراعتهم باستقطاب الأساليب الجديدة المستخدمة في الشام أو اليمن ونقلوا عدداً من الثمار إليها كذلك. وازدهرت لديهم زراعة الكروم وصناعة النبيذ والفواكه كالتين والرمان والتين الشوكي وغيرها ، واشتهرت كذلك بالعسل وبالورد وصناعة عطره ومائه. كما بنوا الحصون يدافعون بها عن أنفسهم، وأحاطوا مدينتهم بسور عال حصين وتعلموا استخدام وسائل المقاومة الممكنة آنذاك من صناعة العرادات والمنجنيق والدبابات مما تعلموها من مدينة "جرش" بالقرب من خميس مشيط في منطقة عسير. وكانت تجارة الطائف مع الشام واليمن ولكنها لم تكن منافسة لتجارة مكة ولذلك فقد دخل أثرياؤها مع أثرياء قريش في شراكات تجارية. وكان أهل مكة يرسلون أبناءهم إلى بادية الطائف يسترضعونهم لينشأوا في بيئة صحية، وقد استُرضع الرسول صلى الله عليه وسلم في بني سعد وسكناهم الطائف.

وكانت المنافسة حادة بين المدينتين حتى لقد ذهب المفسرون إلى أن كلمة "القريتين" الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ (سورة الزخرف /31). وطرحت أسماء كثيرة لمن يمكن أن يكون رجل الطائف العظيم من ساداتها. وكانت المنافسة بينهما تجارية وكذلك دينية، فقد اتخذ أهل الطائف بيتاً كذلك وجعلوه لإلهتهم اللات، وكانت عبارة عن صخرة مربعة بنت ثقيف عليها بناء، ويذكر ابن الكلبي أن قريشاً وجميع العرب كانت تعظمها مما يشير إلى أن أهل الطائف نجحوا في جعل قريش تتبعهم في عبادة اللات كما أنهم كانوا يتبعونها في حجهم وطوافهم بالكعبة. وأكثر ما يفاخر به أهل الطائف سوقهم، سوق عكاظ.

الوضع الاجتماعي :

يتناول النظم السياسية والاجتماعية العامة، مما وفرته لنا مصادر الجزيرة الكتابية والآثارية والدينية. ونتناول فيه النظريات المختلفة لتقسيمات سكان الجزيرة العربية وأصولهم بين الإخباريين والمستشرقين وعلماء الآثار. في هذا الفصل سوف أتناول مفهوم كلمة عرب وتطورها، ومن

ثم سوف أتناول التقسيم المبدئي للمجتمع إلى بدوي وحضري وبعض من طبقات المجتمع كالرقيق والصعاليك، وأنهيها بدراسة لمكانة المرأة الاجتماعية في الجزيرة العربية.

مفهوم كلمة عرب :

إن مفهوم كلمة عرب تدور حول أصله ومعناه ومقصده كثير من النظريات التي لا تنتهي. ويمكن أن ندرك أن المسميات لم تكن بالضرورة تعني الشيء نفسه عبر التاريخ. فما يعنيه مفهوم عرب في القرن التاسع ق.م قد لا يعني ما نفهمه من الكلمة في صدر الإسلام أو في القرن الواحد والعشرين بعد الميلاد. وقد أثرى اللغويون العرب معاجم اللغة في تعريف وتفسير الجذر "عرب" وما يتفرع منه. وهي تفسيرات تفيدنا في معرفة المقصود بالكلمة في فترة صدر الإسلام ويمكن للمفهوم أن يكون ممتداً إلى فترة الجاهلية التي تسبق الإسلام بمائة وخمسين عاماً. وإن كانت التفسيرات التي أعطيت للكلمة التي تعود إلى القرن التاسع ق.م مختلفة لاعتمادها على المصادر الأثرية بالدرجة الأولى ولبعدها عن فترة صدر الإسلام ومصادر الإخباريين.

فقد وردت الكلمة لأول مرة في نص تاريخي من الكرخ في الحوليات الآشورية مشيرة إلى الحلف الذي اشترك فيه الشيخ العربي "جندب" Gindibu مع اثني عشر ملكاً من ملوك سوريا وفلسطين في قرقر، شمال سوريا، عام 853ق.م. ضد الملك الآشوري شلمنصر الثالث الذي حاول أن يفرض نفوذه على شمال بلاد العرب ووسط بلاد سوريا حيث الممالك الآرامية الصغيرة ومنها إلى السيطرة على طريق التجارة الطولي، عماد حياة كثير من هذه الممالك. ويعتقد أن هذا الشيخ كان يسكن وقبيلته أو مملكته في شمال الجزيرة قريباً من وادي السرحان. وقد اختلف في طبيعة تكوين هذه القبيلة العربية أو المقصود بجندب العربي وما إذا كان ذلك نسبة إلى أصله أو طبيعة عيشه أو بيئته.

واستمرت كلمة عرب تتردد في الحوليات الآشورية مرتبطة في القرن التالي بمدينة أدوماتو (دومة الجندل) والملكات اللواتي قاومن المد الآشوري على منطقتهن. وأطلق معاصرو الأنباط من يونان ورومان عليهم تسمية عرب، كما أطلقت الكلمة على كثير من الشعوب المختلفة التي تعيش في الجزيرة العربية وفي بادية العراق والشام وفلسطين وسيناء وشرق مصر.

وفي جنوب الجزيرة العربية عرف الأعراب في نصوص المسند باسم "عربن" وكان أقدمها يعود إلى نقش سبئي من القرن الأول ق.م (CIH 79) الذي يشير إلى أولى المواجهات بين دولة سبأ والأعراب. وتتوالى بعد ذلك أعداد أخرى من النقوش التي تشير إلى علاقة ممالك جنوب الجزيرة بالأعراب وقبائلهم التي كانت تزحف على أطراف المدن. ولم تعن كلمة عرب أو عربن أو عربين البدو أو الأعراب فحسب، بل وردت في نقوش جنوب الجزيرة أيضاً كدلالة على نسب إلى عائلة أو قبيلة من الأعراب، كدلالة على جهة الغرب، وكدلالة على توجه عام بالطاعة والولاء. ومع مقدم الإسلام ينزل القرآن ويعرّف لغته بأنها لغة عربية، وأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وتتعدد الآيات التي تشير إلى القرآن وآياته وحكمه العربي، مميزاً ما بين العرب والأعراب.

ومن الأرجح أن من كتبوا عن العرب قد خلطوا ما بين العرب المستقرين والأعراب المتبدين وأطلقوا على الجميع اسم عرب، وإن كان يبدو أن العرب المقصودين لدى هذه الأمم، سواء الآشوريين أو البابليين أو الإغريق أو العبرانيين إنما هم عرب شمال الجزيرة العربية، وإن كانت أخذت في فترة العصر الروماني والبيزنطي تسميات أخرى ميزت بين عرب البادية والحضر فيما سمي بـ السراكين saracen وهذه تسمية خلافية الأصل ولكنها تطلق على العرب وخاصة الأعراب منهم، و الـ سكينيتاي scenitae، أي سكان الخيام منهم.

ويمكن أن نقسم المجتمع القديم في الجزيرة العربية إلى قسمين رئيسين: المجتمع البدوي والحضري. والمجتمع البدوي كما هو معروف هو المجتمع غير المستقر الذي يعتمد على الرعي كنشاط اقتصادي رئيس ويمضي وراء المراعي ومواسمها متنقلاً من مكان إلى آخر مقتصراً على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن. ويتخذ البدو بيوتهم من الشعر والوبر وكل ما هو سهل النقض والحمل، ونظامهم الاجتماعي يعتمد على وحدة القبيلة، ورئاستهم مرتبطة برئيس أو شيخ القبيلة الذي ينظم بمعية مجلس من أعيان القبيلة شؤونها واحتكاماتها وقرارات تحركها الخ.

وللبداوة أشكال؛ فهناك من القبائل ما تعتبر "شبه بدوية" ممن يستقرون جزءاً من السنة ويرحلون في بقيتها. ومنها "القبيلة المندمجة" التي تكون طوال العام نصف بدوية ونصف حضرية ولكل خصائصها وصفاتها. ويعتمدون في اقتصادهم على منتجات الإبل وشيء من التجارة مع القرى المجاورة لهم وحماية القوافل التجارية أو على الغزو والإغارة على الأقوام المستقرة إذا ضاقت بهم الحال.

أما المجتمع الحضري فهو الذي يتخذ من الحضر أو المدينة مقراً للإقامة الثابتة، أي ساكن القرية أو المدينة. وتتكون القرية من البيت و المعبد وبئر الماء والطريق العام والسوق، هذا فضلاً عن قواعد آداب السلوك المتحضر وحكومة القانون والعدل. وهذه الأشكال ليست ثابتة وإنما تتداخل أحياناً كثيرة وفق المتغيرات الطبيعية أو التاريخية كفترات القحط والجفاف التي تُلجئ المجتمع شبه المتحضر إلى نبذ الاستقرار والسعي وراء منطقة أفضل للسكنى. وقد تمضي فترة طويلة قبل أن يستقر الشكل الاجتماعي ثانية، أو يستمر على حياة البداوة، أو يتغير بتأثير من موجات الهجرة المستمرة وزحف القبائل البدوية إلى الأراضي الخصبة. فيصل القرى ثم المدن عدد منها ويبقى في البادية منها عدد آخر. ويكون زحف هذه القبائل بطيئاً وتدريجياً وفق ظروف المنطقة السياسية فالبداوة يمكن أن تنمو والمدنية والتحضر تتراجع، وذلك نتيجة مباشرة لضعف القبضة الإدارية والقوة العسكرية لسلطة المنطقة. ويسمح هذا الضعف السياسي بتغييرات اجتماعية وسكانية ما تلبث أن تؤثر على الكيان السياسي للمجتمعات القائمة والتي سوف تقوم بعد ذلك. فما تلبث هذه الموجة البدوية أن تبدأ في الاستقرار والتحضر حتى تأتي موجة أخرى لتكرر العمل نفسه.

والعلاقة بين البدو والحضر علاقة تبادل منفعة، فيزرع الحضريون ويقدمون إتاوة منها للبدو لحماية قوافلهم أو قراهم من القبائل الأخرى، إن لم تكن لهم دولة قوية. هذا فضلاً عن التبادل الاقتصادي بين المجتمعين، وإن كان الأمر لا يخلو من تعدي البدو على الحضر كلما دعتهم الحاجة إلى ذلك أو ضاقت بهم ظروف المعيشة فتعود العلاقة غير سلمية.

يلاحظ أن المجتمع العربي الذي كانت وحدته الأساسية هي القبيلة، قد عرف نوعاً من الطبقية جعل العرب يقسمون أنفسهم حسب قبائلهم وأنسابهم، كما يقسمونها وفق شرفهم وسواه فقسموا إلى أسياد وعبيد وموالي، ووفق عروبتهم وأعجميتهم، كما قسموا وفق الأنشطة التي زاولوها فقسموا إلى طبقة الفرسان، التجار الصناع وغيرها، كما كانت هناك تقسيمات مرتبطة بالديانة والانتماء إلى الديانات السماوية أو المزدكية أو الوثنية، كما كانت هناك فئات اختارت أن تكوّن لنفسها شكلاً مختلفاً عن جميع الأشكال السابقة وتقسيماتها كالصعاليك. وقد اخترت أن أتناول ثلاث فئات من المجتمع وهم الرقيق، الصعاليك، والمرأة .. مع تمييز مكانة المرأة في المجتمع العربي لما يحمله هذا دوماً من دلالات في المجتمعات القديمة كما في الحديثة.

الرقيق :

كان الرق ولمدة قريبة من الظواهر الطبيعية في المجتمعات، وكان طبيعياً أكثر في العصور القديمة وكثير من التشريعات القديمة في بلاد الرافدين ومصر أو الهند والصين أو بلاد الإغريق والرومان تناولت الكثير عن وضع

الرقيق في مجتمعاتها ومكانتهم وواجباتهم وحقوقهم، والقوانين المتعلقة بامتلاكهم وبيعهم وشرائهم والحدود الواقعة عليهم. والرقيق يرد من أحد مصدرين بشكل رئيس، إما الحروب فيكونون أسرى حرب، وإما مدينون يباعون لاستيفاء الدين، وفي بعض الحالات كان الأحرار يسترقون بالقرصنة والخطف.

ولم يشذ المجتمع العربي عن جيرانه، فقد عرف الرق وتجارته ولكن ما لا يعرف على وجه التحديد هو تفاصيل معاملاتهم أو التشريعات التي تحكم هذه العلاقة التي لم تصلنا، ومعلوماتنا ترد من بعض النصوص والكتابات، وبشكل أكثر كثافة من فترة ما قبل صدر الإسلام. وكان من المعروف في العصور القديمة وخاصة في القرن الثاني ق.م أن تجارة الرقيق كانت تسجل ازدهاراً كبيراً في البحر المتوسط وما يحيط به وكان مركز هذه التجارة وأكبر أسواقها جزيرة ديلوس بالبحر المتوسط . ويخبرنا سترابو عن انخراط عدد كبير من الأمم والملوك في هذه التجارة لما لعوائدها من مكاسب جمة. وفي نطاق غرب آسيا كانت غزة أكبر أسواقها والمركز الرئيس لتصدير الرقيق.

واشتهر في جنوب الجزيرة نقش مثير لكثير من الجدل عثر عليه في عاصمة معين الجنوبية (قرناو) وعرف باسم قائمة المحظيات المعينيات Die Hierodulenlisten vom Ma'in وهو عبارة عن تقديم ثلاثةٍ وثمانين رجلاً، 83 امرأةً لمعبد المعبود عثتر، وتنسب هذه النساء إلى مناطق مختلفة خارج معين: 32من غزة، واحدة من أوسان، 51 من صيدا، 8 من مصر، ثلاث من قيدار، 9 من ددان، واحدة من حضرموت، اثنتان من يثرب، واحدة من عمان، اثنتان من قتبان، واحدة من هجر، واحدة من لحيان، واحدة من مؤاب، وغيرهن. ويعتقد أن هؤلاء النساء كن رقيقاً لهؤلاء الرجال، لكن أحدث الآراء ترى أنهن إنما كن زوجات التجار المعينيين المتنقلين بين حواضر العالم القديم وتزوجوا من نسائها ويقومون في هذا النقش بتوثيق زواجهم منهن في معبدهم بمعين وفق التقاليد الدينية والاجتماعية المعينية، في دلالة ربما على حرص المعينيين على التزام تعاليم الدين واجتناب المحرمات.

وفي الجزيرة العربية كثر الرقيق في بيوت أغنياء الحضر يقومون بكافة أعمال الخدمة دون أن تكون لهم أي حقوق. وقد جلبوا الرقيق من الهند وفارس ومصر وبلاد الروم وأفريقيا، فضلاً عما يؤسر من قبائل العرب. وكان في مكة، كما في مدن الجزيرة، أسواق خاصة بالنخاسة، عند جبل أبي قبيس وقيل عند دار العباس قرب المروة، وفي أسواق عكاظ و حباشة ودومة الجندل.

ولم تكن هذه الفئة تملك شيئاً من أمر نفسها أو مالها، فهي مملوكة للسادة، بل لم يكن للعبد حق حتى في تزويج نفسه إلا برضا سيده. ويعملون بقوت يومهم أي بمأكلهم وملبسهم وسكنهم لقاء ما يلقى على عاتقهم. وترد في جنوب الجزيرة بعض التشريعات التي تحفظ للرقيق حسن المعاملة وتعاقب السادة المسيئين لهم. وقد أبطل الإسلام معاملة الرقيق السيئة وفرض لهم حقوقاً من بينها الحق في الأجر والمكاتبة حتى تحرير النفس، كما كانت هناك الكثير من الآداب التي استحدثت لتنظيم علاقة الرقيق بأسيادهم وحفظ إنسانيتهم وعقائدهم.

الصعاليك :

لا يعد الصعاليك طبقة تكونت تراكمياً، وإنما كانت مفتعلة اجتماعياً .. أخرجها شباب خرجوا على قبائلهم وتمردوا عليهم لأسباب مختلفة، منها : نظرتهم الدونية لهم إن كانوا أبناء إماء، أو إن اعتدوا على قبيلة أخرى ورفضت قبيلتهم أن تفديهم أو تدافع عنهم، أو كانت تزدريهم لأي شأن، أو من أصول وضيعة، أو من أصول شريفة ولكن حياة التمرد على الآباء والمجتمع جذبتهم إليها. فالتجأ عدد منهم بشكل غير منتظم إلى المغارات والكهوف والأماكن الوعرة في الصحاري والجبال ومنها يغيرون على القوافل والسيارة .. يقتلون ويسرقون. يجمعون طعامهم من البراري

بأنفسهم، يطاردون الفرائس على الخيول أو ركضاً على الأقدام.

وقد اشتهر عدد منهم بالشعر وبالكرم والمروءة لاسيما مع المحتاجين والضعفاء.. وأشهرهم عروة بن الورد من عبس، وأصحابه الشنفرى من الأزد وتأبط شراً من فهم والسليك بن سلكة من تميم. وكلهم من أبناء الإماء، عدا عروة فقد كانت أمه من بيت ضعيف. وبالإضافة إلى شعرهم الذي سارت به الركبان، فقد اشتهر عدد من الصعاليك بسرعة العدو وكان من أسرعهم عدواً تأبط شراً الذي كان يوصف بأنه "كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين" وكان يقبض على الظبي بجريه خلفها فلا تفوته. كما اشتهر الصعاليك بمعرفتهم بالمسالك وبطرق الجزيرة وخفايا البوادي والجبال ونعت الصعاليك جميعاً بأنهم "أهدى من القطا"، لا يقارعهم فيها أحد .. حتى أن قريشاً كانت تتخذ منهم أدلاء لقوافلها وتؤمنهم على أنفسهم في مكة. ونظراً لارتباط كثير من قصصهم بالمغامرة والحدث غير الاعتيادي فقد بلغت حد الأسطورة، وتفنن القُصاص في الرواية عنهم وفي نسج كثير من القصص الموضوعة التي تثير الخيال وتوافق هوى المستمعين.

وليس هناك تحديد لمكان تجمع هؤلاء الصعاليك وسكناهم إلا في أخبار متفرقة. فقد ذكر جبل هذيل بأنه كان مرقباً يراقب الصعاليك من خلاله الطرق ومن يسير فيها للإغارة. وكثير من الإشارات حول القبائل وهجومهم عليها يشير إلى أنهم كانوا يختبئون في المناطق القريبة من الطائف ومكة، وفريق منهم كانوا في جبل تهامة، وليس من الواضح المقصود بذلك. وإن كانوا قد انتشروا في جميع أنحاء الجزيرة، فحيثما كان هناك فقر وجوع كان هناك صعاليك.

ويذكر أن امرأ القيس عندما خلعه قومه جمع جموعاً من حمير وبكر بن وائل وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها وأخذ يغير بهم على أحياء العرب فأوقعوا الرعب بينهم، وقد كانوا قوة من عدد من شذاذ القبائل. وعندما ظهر الإسلام كاتبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأعطاهم الأمان وصلح إسلامهم. لكن مجموعات أخرى من الصعاليك ظهرت كذلك في العصور الإسلامية ووردت أخبارها في تضاعيف الكتب.

هذا ولم تكن علاقتهم بالنساء واضحة وما إذا كانوا يكونون أسراً وآلية ذلك، إلا ما ذكر عن عروة بن الورد الذي أنجب من إحدى أسراه ثم افتدتها أسرتها فاختارته عليه على الرغم من أنها أنجبت له بنين. ويبقى الكثير يلفه الغموض حول هذه الجماعة التي انفصلت عن المجتمع واتخذت لها قانونها الخاص.

المرأة:

نظراً لأهمية دور المرأة في التاريخ القديم وقلة ما كتب عن مشاركتها في صنع التاريخ، فسوف يخصص هذا الجزء من هذا القسم لدراسة وضع المرأة في فترة الألف سنة المذكورة ونظرة المجتمع إليها ودورها فيه على المستويات الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية في أغلب مجتمعات المنطقة مع التطبيق المفصل على الأنباط والمرور سريعاً على بعض المجتمعات الأخرى.

وفيما يختص بالتاريخ القديم، نتصور وضع المرأة أصعب لشح المعلومات، وعدم القدرة على إجراء الدراسات الميدانية التي تتوافر لباحثي الأنثروبولوجيا على سبيل المثال. لذا من المهم انتقاء مؤشرات محددة متوافرة عن المرأة في الجزيرة العربية، منها تقدمها في المراكز العامة، سواء من سلطة أولى أو ثانية أو سلطة دينية أو قانونية. وقد أمكن جمع بعض هذه المعلومات عن نساء الجزيرة لكن مازال أمامنا طريق طويل.

فعلى مستوى السلطة العليا الأولى، قدمت لنا المصادر التاريخية إشارات مهمة عن ملكات الجزيرة العربية اللاتي عُرفن في شمال الجزيرة العربية في مدينة أدوماتو (دومة الجندل الحالية) منذ القرن الثامن ق.م ولمدة قرنين من الزمان، حيث وصلتنا أخبار سبع ملكات فيها فضلاً عن أخريات في مدن أخرى مجاورة. وعلى الرغم من أن هذه الفترة خارجة عن إطار هذا الفصل لكن من المهم الإشارة

إلى وجود نوع من الاستمرارية في تقاليد شمال الجزيرة، فيما يختص بقبول وصول المرأة إلى هذه المراتب العليا، والتي سوف نراها في المجتمع اللحياني، النبطي، والتدمري.

فالمرأة اللحيانية تظهر في نقوش مختلفة تدل على أكثر من دور قامت به في المجتمع. وعلى الرغم من أن قائمة الملوك اللحيانية تحمل أسماء ملوك فقط ولكنه بالإمكان القول بأنه كانت هناك ملكة كذلك، إذ تدل قراءتنا لنقش لحياني فريد (JS 53L) على وجود اسم لملكة تدعى آصف، والمجتمع اللحياني لم يكن بعيداً عن مجتمع أدوماتو. فتؤرخ مملكة لحيان بالقرن السادس ق.م ومن غير المستبعد أن تكون سير تلك الملكات مازالت تسير بها الركبان إلى المدن المجاورة. وفي مجتمع حيث نجد للمرأة وظيفة عامة وملكية عامة، يمكن القول بأن ملكة لحيان كانت لها ملكيتها وعقارها الخاص بها، ولا بد وأنها كانت تحرص على أن تقدم تقدمات أو نذوراً كريمة إلى المعبودات ويمكن توقع أنه كان لها كلمة ما في شؤون المملكة.

فالمرأة اللحيانية تظهر في عدد من النقوش اللحيانية المهمة، منها مجموعة نقوش العكمة التي قرأتها روث شتيل لأول مرة في الستينات ثم أعاد حسين أبو الحسن قراءتها في 1994 بإضافة 156 نقشاً جديداً، فيها 39 نقشاً كتبته أو نُسب إلى نساء تؤرخ ابتداءً من القرن الثالث ق.م. وقد وجد أبو الحسن أن عدداً كبيراً من النساء عملن رسمياً جامعات للزكاة للمعبد، بناء على لقب "سلحه" الذي يتكرر في هذه النقوش ويفسره بـ"جامع الزكاة" للمعبود ذو غيبة (ذغبت) ، فكانت المرأة تجمع الزكوات وتقدمها للإله، وهذا العمل من أعمال الكهانة في المعبد.

وتشير عشرات من النقوش إلى نساء يملكن مزارع نخيل، وهو العقار الرئيس في تلك الفترة، بالإضافة إلى النوق، ثمار الربيع، الأنعام، الماء، أو مجرد كل ما يملك أو تملك سواء كانت الملكية في ددان نفسها أو العُذيب (موقع بالقرب من العلا) (AS D6,D4) أو حتى خارجها، إذ أن بعض النقوش تذكر مزارع لنساء لحيانيات في تيماء وغيرها. هذه النقوش تدل على المساحة الواسعة من الملكيات التي كانت متاحة للمرأة تحت الحكم اللحياني وتفاعلها في الحياة الدينية والاقتصادية للمدينة. فضلاً عن بنائهن القبور لأنفسهن وتسجيل النقوش الدعائية والنذور المختلفة للآلهة أسوة بالرجال.

أما المرأة النبطية التي عاصرت المرأة اللحيانية في فترة ثلاثة قرون ونصف تقريباً، ومن ثم ورثتها في منطقة وادي القرى، فلا تبعد الحجر عن ددان أكثر من عشرين كيلاً ومما لا شك فيه أن كثيراً من التقاليد الحضارية والاجتماعية اللحيانية قد انتقلت بدورها إلى مجتمع الأنباط لاسيما في الحجر.

ولوفرة المعلومات عن المرأة النبطية أمكننا تتبع عدد من المؤشرات التي تشير إلى تميز واختلاف عن معاصريها. وكان على رأس هذه المؤشرات الدور القانوني والسياسي والاقتصادي. فمن الملاحظ من خلال دراسة المرأة النبطية أن بروز دور المرأة في المجتمع بصفة عامة يرتبط بوجود دولة قوية ، فعند ذاك تجد المرأة لها مكاناً للتحرك والتصدر .. عندها لا يكون اعتماد المرأة على الرجل في حمايتها وإنما ينتقل جزء من هذه المسؤولية إلى الدولة ومؤسساتها، وهذا ما رأيناه من تركز الإشارات إلى المرأة النبطية في فترة القرن الأول ق.م والقرن الأول الميلادي وهي فترة أوج قوة الدولة النبطية، هذا فضلاً عن إمكانية وجود عوامل أخرى تساند من هذا التميز في الظهور. وتبقى المرأة النبطية تمثّل لنا صورة إيجابية قوية للمرأة العربية في نهاية الألف الأول قبل الميلاد.

من خلال التتبع التاريخي نجد أن المرأة النبطية لم تظهر في النصوص خلال ثلاثة قرون من بدء ظهور الأنباط على الساحة التاريخية. كان أول ظهور لها في القرن الأول ق.م ممثلاً في دور الملكة. فقد ظهرت بشكل ضبابي على قطع عملة الملك عبادة الثالث (30-9) (27ق.م) لأول مرة كرسم دون اسم أو لقب عام 29ق.م، إلى أن اتضحت

صورتها واحتلت مكاناً أقرب إلى جانب الملك في العام الثاني من حكم حارثة الرابع (9ق.م- 40م) الذي شهد تحولاً في وضع المرأة فقد أظهرت العملة اسم الملكة خُلد ولقبها: "ملكة نبطو" لأول مرة. ومنذ ذلك العام أصبحت تسك العملة وهي تحمل اسم الملكة وصورتها حتى نهاية دولة الأنباط.

كانت الملكة خُلد ذات دور رئيس في تثبيت اسمها من جانب، وفي فتح الباب أمام تمكين المرأة النبطية من جانب آخر. ومن أقوى الملكات شخصية بعد ذلك كانت الملكة شقيلة الثانية (40-76م) زوجة مالك الثاني (40-70م)التي رافقت زوجها في حكمه لمدة ثلاثين عاماً (على افتراض أنه تزوجها منذ أن تقلد الحكم) واستمرت تحكم بعده حوالي ست سنوات أخرى في عهد ابنها القاصر رب ايل الثاني (70-106م) بصفتها وصية عليه حتى عام 76/75م. فتفردت بالحكم خلال هذه الفترة وجعلت لنفسها بلاطا، واتخذت وزيراً يدعى "عُنيس"، الذي كان يلقب بـ"أخو شقيلة" وهو الذي تحتل مقبرته واجهة كبيرة من واجهات مدينة الرقيم-البتراء عليها كتابة ضريحية تفيدنا بمنصبه.

ومن الملكات اللاتي وصلتنا أسماؤهن:

الاسم	اللقب	الصفة	التاريخ
خُلد	ملكة نبطو	الزوجة الأولى لحارثة4	9ق.م-15م
شقيلة 1	ملكة نبطو	الزوجة الثانية لحارثة4	16-40م
شقيلة 2	ملكة نبطو	اخت الملك مالك 2	40-70م
شقيلة2	ملكة نبطو	ام الملك رب إيل 2	70 /71م
جميلة	ملكة نبطو	اخت المك رب ايل2	75/76-101م
هاجر	ملكة نبطو	زوجة رب إيل الثانية	102-106م

ويبدو أن هذا التركيز والبروز للملكة النبطية قد أثر بشكل إيجابي على المرأة النبطية بشكل عام ذلك إننا نلاحظ بداية البروز النسائي منذ ذلك الزمن سواء في الرقيم أو الحجر أو سواها. وقد ظهر ذلك في صورة تمتعها بأهلية قانونية وبقدرة على التمثيل الذاتي دون حاجة لوصي أو ولي أمر لإنفاذ معاملاتها.

أما المرأة التدمرية، فتوفر لنا التصاوير الفنية والمنحوتات صورة ظاهرية عنها في صورتها وزيها وحليها وبعض من عاداتها. فقد كان من العادات التدمرية أن تُنحت صورة لكل شخص متوفى بكامل زينته أو زينتها لتوضع على المقبرة أو بيت الأبدية.

ومن خلال الكتابات الكثيفة تعرفنا على دور مهم للمرأة في المجال الاقتصادي خاصة في التجارة وتملك العقار، لكن يبدو أن ملكيتها للمقابر تأخرت إلى القرن الثالث الميلادي الذي تتكثف فيه الإشارة إلى ملكيتها للمقابر. كان للمرأة التدمرية ملكيتها الخاصة التي كانت تديرها بكل أشكال المعاملات، وكان لها الحق كذلك بالتصرف في أملاك زوجها وأبنائها، وعلى الأرجح كنّ ذوات دور في تجارة المدينة.

وفي إشارة إلى المكانة التي يمكن للمرأة التدمرية أن تحتلها نجد سكان المدينة يقيمون تمثالاً شرفياً لسيدة من طبقة عليا تدعى مريتو زوجة شريكو ، كما كانوا يفعلون ضمن تقاليد المدينة للرجال المهمين والذين أضافوا وقدموا خدمات جليلة إلى رفاهية المدينة، لذا فعلى الأرجح أن مريتو كانت شخصية عامة استحقت أن يقام لها هذا التمثال. لم تقدم تدمر هذه المعاملة للمرأة التدمرية فحسب، بل لقد تمتعت بها نساء قدمن خدمات لتدمر من مدن أخرى. فهذه بت-ملكي الحضرية التي أقيم لها تمثال شرفي في تدمر مرفق باسمها

ومدينتها، ولابد أن هذه المرأة كانت ذات مكانة كبيرة في مجتمعها ومدينتها نفسها حتى يمتد نفوذها وسمعتها وعلى الغالب قافلتها إلى خارج الحضر ويصل إلى تدمر.

وغاية من يمثل المرأة التدمرية هي الملكة الأسطورة زنوبيا ملكة واحة الصحراء، التي تحدت روما بعد أن اغتالوا زوجها أذينة ملك الشرق. وتولت الملكة "زنوبيا" أو "بت زباي" القياد لمدة سبع سنوات بين 267-273م بوصفها وصية على ابنها وهب اللات ومتخذة لقب إمبراطورة في محاولة للاقتداء بالإمبراطورات السوريات اللائي لم يكن بعيداً عن عهدها واللاتي كن حاضرات في ذاكرة زنوبيا وحاضرتها لتتمثل بهن لاسيما جوليا دومنا، والمقارنة ليست بعيدة عليها.

وتنحصر معلوماتنا عن المرأة الحضرية فيما نستخلصه من الكتابات الحضرية من جانب، ومن التماثيل الفخمة التي صمدت حتى اليوم ويمثل عدداً منها، نساء. وقد بلغت المرأة في الحضر مكانة متميزة يُشاهد ذلك من خلال طريقة تقديم عدد من النساء وتصويرهن في تماثيل. وكن منهن من ظهرن إلى جانب أزواجهن ملوك الحضر، ومنهن من تولين المهام الدينية المعتادة كالكهانة، وتدعى الكاهنة منهن "كمرتا" ووجد لإحداهن تمثال يدل على أنه كانت لهن أزياء خاصة بهن. ويضاف إلى الدور الديني الذي أدته المرأة في الحضر دورها في الترهب والاعتكاف لصالح أحد المعبودات أو معبودات الحضر الرئيسة، فقد لوحظ تخصيص أحد أهم معابد الحضر وهو المعبد الخامس الذي بناه السيد نصرو (115-135م) للربة اللات للنساء المترهبات. ففيه عثر على عدد من التماثيل التي أقيمت لأميرة وابنتها وكاهنة وعازفة، وكلها تؤرخ بالعام 238م، أي قبل عامين فقط من سقوط المدينة.

ومن بين التماثيل التي نجدها في الحضر خاصة بمعبودات: مرتن وتايكى وغيرهما ممن لم تذكر أسماؤهن، ولكاهنات ممن يدعين "كمرتا" ومنهن الكاهنة مرتبو التي وجد تمثال لها مع كتابة تذكر اسمها. كما كانت هناك نساء قينات يعزفن منهن العازفة قيمي بنت عبدسميا التي عثر على تمثالها وهي تحمل كنارة صغيرة وجدت في المعبد الخامس مما يشير إلى احتمال أنها كانت من المرتلات أو العازفات على هذه الآلة في المعبد المخصص للنساء كما يُعتقد. وتلاحظ في الصورة العامة لزي المرأة الحضرية غطاء الرأس العالي المميز.

وفي جنوب الجزيرة اختلفت مكانة المرأة من مكان إلى آخر. ففي إشارة خاصة بحضرموت تظهر مكانة المرأة الحضرمية من خلال قوانين الطهارة، التي كانت قوانين قاسية تتطلب التكفير لدى كل خطأ، فتظهر المرأة وكأنها كثيرة الذنوب وتحتاج للتكفير عنها عند كل التفاتة. فيشير عدد كبير من كتابات مدينة "هرم" بجوف اليمن إلى نصوص كفارة النساء مسجلة على لوحات تقدمية عن ارتكاب الذنوب والاستغفار عنها، وتشترك كل نساء اليمن في اهتمامهن حيث تربط فسيولوجيتها بالنجاسة وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع سيرجي فرانتسوزوف بناء على تنقيبات الفريق الروسي العامل بريبون (القرن السابع-القرن الأول ق.م) بحضرموت، أن يخرج بنتيجة مفادها أن النساء هناك كن أكثر بروزاً وأهمية من نساء مأرب سبأ (بين القرنين الرابع والأول م). هذا يظهر بشكل خاص من خلال نسبة عدد النساء المقدمات والناذرات للمعابد والهياكل خاصة إلى الربة "ذات حميم" في ريبون والذي يفوق بكثير نسبة النساء السبئيات (44% إلى 18%). فضلاً عن أنه كان للنساء استقلال مادي يجعلهن قادرات على أن يُقِمن ويبنين الأنصاب التي ينذرنها على حسابهن الشخصي بالتكفير عن ذنوبهن مهما كبرت أو صغرت. وهذا يدل على مكانة دونية للمرأة.

وقد كان موضوع تعدد الأزواج والنسبة إلى الأم في جنوب الجزيرة القديم والوسيط مكان دراسة ونقاش مطول من قبل كثير من الباحثين. فقد استوقفت روايات كلاسيكية

وخاصة من سترابو، وتحقيقات أنثروبولوجية، واقتباسات من العصور الوسطى، وإشارات كتابية ملغزة، عدداً من هؤلاء العلماء (على سبيل المثال، دوستال، بيستون، أفانزيني، ريكمانز، كوروتايف، فرانتسوزوف) ووصلوا إلى نتائج متفاوتة. وعلى الرغم من أن مناقشة نظام النسب إلى الأم لا يمكن أن يقودنا إلى كلمة أخيرة حول مكانة المرأة في المجتمع، لكن يمكنه أن يفيدنا في بعض الأحيان كمؤشر على الأهلية المالية للمرأة.

من ناحية المكانة العامة، فهناك أدلة متناثرة. من أهمها المعلومات حول الملكة الخيالية، ملكة سبأ في التراث الفلكلوري، والتي تغيب عن النقوش، والتي يرجح أنها كانت ملكة على شمال الجزيرة كما في أرجح النظريات التي تتطابق مع تقليد ظهور العديد من ملكات العرب في شمال الجزيرة والتي استمرت حتى القرن الثاني الميلادي مع الأنباط.

الوضع الاقتصادي :

إن المعلومة المبدئية التي تصلنا عن ثروة الجزيرة الاقتصادية في القرن الرابع ق.م كانت مع الكتابات التي رافقت الإسكندر في غزواته وفيما بعد كانت تسجل أعماله وإنجازاته. فمن ذلك إرساله أربع حملات للطواف حول الجزيرة العربية لجمع معلومات حول ما إذا كانت تستحق أن يُستولى عليها هي الأخرى وما هي إمكاناتها. فكانت المعلومات التي وصلتنا من أريان وسترابو نقلاً عن أريستوبولوس الذي كان مرافقاً للإسكندر في حملاته. فيقول: "إن بلاد العرب كانت تشتهر بثرواتها، فهناك الأكاسيا في الواحات، الأشجار التي تحمل اللبان والمر، الأحراش التي تثمر القرفة والمروج التي ينبت بها النرد برياً" وزودتنا الحملات الاستكشافية الأربع، سابقة الذكر، فضلاً عن تقرير القائد أندروستينيس الذي أبحر على طول الخليج العربي، وأمدنا بمعلومات كثيرة بهذا الخصوص ولكنها متفرقة في جغرافية سترابو وغير واضح مصدرها وهي تتحدث عن إنتاج اللؤلؤ الثمين والأحجار اللامعة والشفافة وغير ذلك.

ثم تتوالى التقارير والأخبار عن الجزيرة العربية التي تصلنا من كتب سترابو وبليني وغيرهما نقلاً عن عدد آخر من الجغرافيين الإغريق والرومان مثل: إيراتوستينس (194-275 ق.م)، أجاثارخيديس (ح 116 ق.م)، أرتميدوروس (100 ق.م)، وغيرهم. والمعلومات الكلاسيكية ليست بالضرورة معلومات كلها حقيقية نظراً لإمكانية تفنيد الكثير من أخبارهم والتي قد تجد خللاً في النقل أو انتقائية تتناسب مع ثقافة المؤرخ نفسه لما يرى أنه جدير بأن يسجل. ولكننا هنا نرجع إلى المعلومات التي يمكننا التحقق من صحتها عن طريق الكشف الأثري والمصادر المحلية الأخرى. ودور الجزيرة العربية في التجارة العالمية آنذاك معروف منذ قبل القرن الرابع ولكن المعلومات الإضافية التي ترد عن ذلك الحين هي ما يمكن تناوله بالتفصيل.

الرعي :

لم تكن التجارة هي النشاط الاقتصادي الأساسي للجزيرة العربية وإن كانت أكثرها إدراراً للمال وهي ما ذاع بصيت الجزيرة وغناها، ولكن النشاط الاقتصادي الأول والأولي كان دوماً الرعي لسكان البادية والزراعة لسكان الحضر. فغالبية سكان الجزيرة أو بدوها، كانت تعمل بالرعي وما يتبع ذلك من نشاط اقتصادي كصناعة الألبان ودباغة الجلود ونسج الأشعار والأوبار الخ.

الزراعة :

يلي ذلك الزراعة، التي كانت تزدهر في واحات الجزيرة وأراضيها الخصبة في الجنوب والجنوب الغربي، بل كانت بعض البذور ما يغل ثلاث مرات والرابعة علف للحيوانات وتمتد واحات الجزيرة الخصبة على طول امتداد البحر الأحمر فهناك واحة حقل والبدع والمويلح والوجه وضبا وينبع البحر وتربة والخرمة ونجران وقاعة البون

وقاع شرعة وحقل رحبة وحقل قتاب في جنوب الجزيرة. وفي وسطها من الشمال توجد واحة الجوف، شمر (أجا وسلمى)، القصيم، الخرج، الأفلاج، السليل، ليلى، الفاو وغيرها وفي شرق الجزيرة وعلى طول ساحل الخليج، من أعلاها شمالاً كاظمة (الجهراء حالياً) وأشهرها منطقة هجر (الأحساء) بواحاتها القطيف والهفوف، جبرين وقطر، وجزر البحرين. وفي عمان نجد واحاتها داخل البلاد بمحاذاة مرتفعات الجبل الأخضر وأهمها نزوى، مينا، البدع، ضنك، عبري، وعلى ساحل خليج عمان نجد مصبات هذه الأودية مثل قلهات وقريات ومطرح ومسقط وصحار وغيرها. وعلى سفوح جبال جنوب غرب الجزيرة وأوديتها مثل القيعان المنبسطة في اتجاه سلسلة السراة في غرب الجزيرة والمنحدرات المتوسطة والقليلة الارتفاع. وحول السكان هذه المنحدرات إلى حقول متدرجة فاستفادوا بذلك من أكبر رقعة ممكنة من الأرض فضلاً عن أن هذا النظام خفف من أخطار المياه المندفعة في مواسم الأمطار.

وساعد نظام السدود على الوديان والقنوات والأفلاج وغيرها من النظم المائية في الاستفادة من مواسم الأمطار الموسمية في جنوب غرب الجزيرة العربية ومن أمطار الشتاء المحدودة في بقية مناطق الجزيرة، ومن المياه الجوفية والعيون والآبار ومصادر المياه المختلفة المتوافرة على هذه الأرض. وقد تميزت كل منطقة من مناطق الجزيرة بنوع من هذه الأنظمة أو عدد منها وفقاً لطبيعتها الجغرافية وخبرتها الزراعية. فعرفت القنوات في ددان (العلا) والصهاريج المنحوتة في الصخر والقنوات المحفورة فيها لدى الأنباط في الرقيم (البتراء) وفي الحجر (مدائن صالح). والأفلاج لدى العمانيين في عمانا، والسدود على مجاري الأودية التي تسيل في مواسم الأمطار في غرب الجزيرة العربية ابتداءً من خيبر إلى يثرب ثم من بداية مرتفعات عسير عند الطائف جنوباً إلى نجران واليمن. وعرفت لذلك أعداد كبيرة من السدود في تلك المنطقة التي حرص ملوك سبأ ومعين وقتبان وحضرموت وحمير على إنشائها وصيانتها وترميمها المستمر، حتى أن ذلك ارتبط بمدى استقرار الدولة والنظام السياسي، وأشهر هذه السدود هو سد مأرب في وادي أضنة المشهور في التاريخ الإسلامي لارتباطه بسيل العرم.

وزرع سكان الجزيرة العربية النخيل الذي يعد أهم محاصيلها التاريخية والحاضرة في كل مناطق الجزيرة، وأشهر مناطق زراعته كانت هجر وعمان وحضرموت ونجران واليمامة ويثرب وخيبر والعلا وتيماء ودومة الجندل. ومن الحبوب زرعوا القمح والذرة والدخن والشعير والطهف والسمسم والكتان. كما زرعوا الكروم والقطن والزيتون والتين والسدر والزنجبيل واللوز والجوز وغيرها من المحاصيل الأساسية في غذاء الإنسان منذ القديم، بالإضافة إلى الخضار والفواكه. أما بالنسبة للمحاصيل التجارية التي اشتهر العرب بإنتاجها والاتجار بها فهي : اللبان والمر وهما المحصولان الرئيسان بأنواعهما التي تنتج في الجزيرة، بالإضافة إلى نباتات أخرى عطرية كالأذخر، اللادن، الضرو، الصبر، دم الأخوين، قسط ظفار، البلسم، المقل، السنا، قصب الذريرة، الرند، القرفة، والكندر.

التجارة :

كانت الزراعة، كما ذكرنا، نشاطاً اقتصادياً حيوياً لكل شعوب العالم؛ ذلك أن الحضارة آنذاكِ كانت حضارة زراعية وجل النشاطات الاقتصادية تقوم على الزراعة سواء لسد الحاجة أو ضمان القوت. أما الاتجار مع الجوار فيكون في السلع التي تستحق التصدير وتحتمل تكاليف السفر وتبعاته .. وهذا لم يكن ممكناً في ظروف السفر القديمة في حال الجزيرة العربية إلا للطيوب والأحجار الكريمة والمعادن الثمينة. فيذكر كيث هوبكينز أن التجارة البرية كانت تفوق، بشكل تقريبي، ستين مرة كلفة التجارة البحرية وعشر مرات التجارة النهرية ما عدا إن كانت تجارتها هي في البضائع الثمينة أو الكمالية الغالية. لذا فقد كانت التجارة

البرية مقتصرة على التجارة الثمينة والمربحة حتى في كميات محدودة. وكانت زراعة الطيوب والاتجار بها مصدر الثروة الرئيس لسكان الجزيرة العربية منذ الألف الأول ق.م تقريباً.. وعلى الأرجح قبل ذلك أيضاً. ولكن عندما وصل الإغريق إلى غرب آسيا وغيروا خلالها من الشكل السياسي للمنطقة الشمالية المحاذية للجزيرة العربية استدعى ذلك اتصالاً بهم وبقوافلهم غيرت من موازين القوى في المنطقة وظهرت تحالفات جديدة في المناطق الحدودية لكن الطلب استمر على المنتجات العطرية العربية لا سيما اللبان والمر.

ومن الجدير بالذكر أن اللبان والمر وأنواعه مما يطلق عليه البخور، كان ذا استخدامات متنوعة ما بين الطبية والعطرية والدينية والجنائزية. ذلك أن الحاجة إليه كانت دائمة وماسة في هذه المناسبات الاحتفالية والوثنية. وزادت الحاجة والطلب على هذه المنتجات في نهاية القرن الأول ق.م وبداية القرن الأول الميلادي بشكل كبير ظهر في كتابات المؤرخين والكتاب اليونان والرومان لتلك الفترة مثل بليني الذي سجل عدداً من الإشارات عن زيادة الطلب واستخدام الطيوب العربية بل والمبالغة في إحراق البخور إلى حد الإسراف، فيقول في أحد فصوله المخصصة للحديث عن الرفاهية والمغالاة في استخدام العطور : إن بعض الرومان كانوا يضيفون اللبان إلى شرابهم وبعضهم يعطرون به أرجلهم وأحذيتهم ومغاطس حماماتهم التي سنها الإمبراطور كاليجولا حتى وصلت إلى معسكرات الجيش التي لم تخل من التبخير والتطيب فوق وعثاء الحرب وغباره.

ومما كان يرفع من ثمن هذه السلعة هو ندرتها وقلة حجم إنتاجها فضلاً عن الضرائب التي كانت تفرض عليها منذ أن تخر ج من أرض ظفار بجنوب الجزيرة. وإقليم ظفار هو الموقع الأساس لزراعة اللبان والمر وهما ينبتان برياً ولكن يزرعان كذلك، وينتج عن ذلك نوع أكثر جودة. وتتميز مرتفعات وسهول ظفار الساحلية بزراعة اللبان حتى اليوم وتمتد إلى أراضي حضرموت. أما المر فهو أكثر انتشاراً في الجزيرة العربية، وهو ينمو بالإضافة إلى ظفار، في جوف اليمن وفي المنطقة الممتدة من الركن الجنوبي الغربي للجزيرة وحتى منطقة جيزان الحالية، كما ينمو في جبال شري وجبال كرا في شمال عسير وفي السفوح الغربية لجبال السروات.

وكانت طرق التجارة لاسيما بالبخور والطيوب أو طرق القوافل ذات شهرة خاصة في الجزيرة العربية نظراً لكون جل المدن المهمة والممالك العربية فيما بعد كانت تنشأ وتتكون على هذه الطرق. فبعد أن تبدأ بوصفها واحات ومحطات استراحة للقوافل، وتتكون فيها مقومات الاستمرار والعيش، ويستقر بها جماعات ممن يرحلون وينتقلون طلباً للرزق مرافقين للتجار ومستقرين في مدن القوافل التي سرعان ما تزدهر وفق الحالة السياسية والاقتصادية لتلك المنطقة والفترة .. وتدريجياً يمكن أن تكبر وتتسع وتغدو دويلة- مدينة وربما تكبر أكثر وتنتقل إلى التوسع وتصبح مملكة وتعمد إلى ممارسة مزيد من النفوذ على طريق التجارة وعلى المدن الأخرى القريبة كما فعلت ددان ولحيان في الشمال، والتي احتضنت جالية تجارية هاجرت إليها من معين واستقرت بها لتشارك في أعمال تجارتها الممتدة إلى البحر المتوسط.

وطورت بعض مدن القوافل من أنظمتها الاقتصادية لتتوافق مع غزارة نشاطها التجاري. فقامت تدمر بوضع نظام قانوني عرف بقانون "التعرفة" التدمرية (CIS, II, 3913) ونشروها في كل مكان في المدينة لحفظ حقوق الناس والتجار، وفيها تفصيل لقوانين التجارة والترانزيت والتعاملات والضرائب في تدمر والتي يلزم به مجلس شيوخ تدمر كل المتعاملين من أهل تدمر أو التجار الأجانب. كان النقش معلقاً على مدخل معبد رب أشيرة، ويؤرخ بـ 18 أبريل من سنة 137 م. كما طور العرب في جزيرتهم نظام تبادل تجاري راقيًا وخاصًا فيما عرف بأسواق العرب، وهي

الأسواق الموسمية التي تقام في وقت معين من السنة. وقد انتشرت هذه الأسواق من شمال الجزيرة إلى جنوبها في جدول زمني مضبوط بحيث تتنقل قوافل العرب وبضائعهم من مدينة إلى أخرى دون تداخل أو تضارب، موجدين لها العديد من الأنظمة التي تكفل حماية الناس وتجارتهم في هذه الأثناء، سواء من خفارة قبيلة معينة ورعايتها للسوق أو من خلال إقامته في الأشهر الحرم التي تُجمع العرب على حرمتها. وقد اشتهرت اثنتا عشرة سوقاً من أشهرها سوق عكاظ قرب الطائف.

ومن جنوب الجزيرة كان يبدأ طريق القوافل الرئيس أو طريق البخور الذي يمر في عواصم الممالك الرئيسة في جنوب الجزيرة، من شبوة إلى تمنع إلى مأرب إلى قرناو إلى نجران. وعند نجران يواصل طريقه شمالاً حتى البحر المتوسط ماراً بعدد كبير من المدن ما يعرف منها محدود كتثليث، فثمالة في بيشة فتربة التي يمتد منها طريق فرعي يصل إلى مكة فيثرب، خيبر، ددان، وبعد سقوط لحيان تحول الطريق إلى مدينة الأنباط: الحجر. ومن هناك يمتد إلى الرقيم (البتراء) ومنها يتفرع الطريق إلى غربي يتجه إلى سيناء، وآخر شرقي يتجه إلى بصرى. وخطوط قوافل إلى شمال الجزيرة وأخرى إلى شرقها عبر نجران وقرية ذي كهل (الفاو) فالأفلاج وليلى واليمامة حتى تصل الجرهاء على ساحل الخليج ومنه تنطلق شمالاً حتى مصب الفرات ودجلة لتسير فيهما إلى مدن وادي الرافدين. وطريق البخور الطولي يمر بمكة ويثرب والحجر وتيماء ودومة حتى تصل عبر وادي السرحان إلى بصرى شمالاً.

التجارة والصراع الدولي :

وقد مرت الجزيرة بتغيرات في موقعها الاقتصادي متأثرة بالوضع الدولي وفق كل فترة من فترات المرحلة التي نغطيها هنا. ففي حين كانت، اليمن السعيد خاصة، تنعم بالسيطرة على الطريق البري بكل تفرعاته وتحتكر تجارة الطيوب والعطور وتفرض العقوبات والأساطير على مزارع لبانها عبر الألف الأول ق.م وحتى القرن الأول ق.م وقد نجت من محاولة الإسكندر الالتفاف حول الجزيرة من غير مقاومة بوفاته، ونجحت بعد ذلك في مقاومة محاولات البطالمة المستميتة للسيطرة على البحر الأحمر. ودخل في هذه المرحلة اللحيانيون والأنباط في عملية الصراع وعلاقات المصلحة والعداء. فتحالف اللحيانيون مع أعداء الأنباط وهم البطالمة الإغريق حكام مصر نظراً للمنافسة التي يبدو أنها كانت قائمة بين اللحيانيين والأنباط. فكان من نتاج هذا التحالف تسرب تجارة الجزيرة البرية في الشمال من ميناء على الساحل الغربي للجزيرة، يدعى أمبلوني، وفق تفسير تارن للنصوص الكلاسيكية إلى الساحل الإفريقي ومنه إلى مصر مباشرة. فقطع ذلك الطريق على الأنباط حيناً من الزمان رافقه مقاومة الأنباط بقطع الطرق على السفن البطلمية في البحر الأحمر وخليج لحيان دون جدوى، حتى تمكن الأنباط في منتصف القرن الأول ق.م من القضاء على لحيان وتحويل طريق تجارتها إلى المدينة الجديدة التي أنشأوها في الجوار وأطلقوا عليها اسم "الحجر" أو "حجرا".

وفي هذه الفترة، أي نهاية القرن الأول ق.م دخلت إلى الساحة السياسية قوة دولية عظمى وهي الإمبراطورية الرومانية التي استولت في عام 30ق.م على مصر بعد أن كانت قد استولت على سوريا عام 64ق.م، اكتمل الطوق على الأنباط. لكن الأنباط حافظوا على حالة من الثبات السياسي عن طريق استفادتهم من التنافس الروماني البارثي الذي جعل الرومان يدخلون مع الأنباط في علاقات مودة واحتواء والصبر عليهم مئة وستة وثلاثين عاماً قبل أن يضموهم إليهم ضماً تاماً. واستطاع الرومان أن يستفيدوا من اكتشاف البطالمة لسر الطريق الآمن إلى الهند فبدأوا في مضايقة العرب في تجارتهم بتشجيع الطرق البحرية التي بدأها البطالمة وطورها الرومان حتى تأخذ طريقها مباشرة إلى الإسكندرية.

قام الرومان بمحاولة غزو الجزيرة عام 24 ق.م، ولكن نتج عن فشل تلك الحملة أن تحولت سياستهم من عسكرية إلى دبلوماسية سواء مع ملوك جنوب الجزيرة أو شمالها، مع استمرار محاولة اختراق طريق البخور وتحويله لصالحهم وسيطرتهم. وقد نجح الرومان في ذلك بما نعلمه من استغلالهم لاكتشاف هيبالوس سر الرياح الموسمية في منتصف القرن الأول ق.م وإنفاذهم لأول الرحلات التجارية المباشرة إلى الهند. وترد بعد ذلك أخبار في الطواف حول البحر الأريتري عن استيلاء الرومان على ميناء عدن واتخاذهم إياه محطة لطريقهم المتجه إلى الهند.

تشير الأدلة إلى أن الرومان استطاعوا أن يفرضوا سيطرة قوية على التجارة البحرية للبحر الأحمر أو البحر الأريتري. وكثير من هذه الأدلة آثارية، كتابية، نصية وتحليلية، وظهرت أكثر من نظرية توفق ما بين ارتفاع سهم الرومان في السيطرة على تجارة الطيوب العربية وبداية تدهور الاقتصاد العربي وانهيار عدد من الممالك في تلك الفترة أو تضعضع كيانها، مثل نظرية بورسوك 1983 التي يرى فيها أن تحول التجارة البرية إلى بحرية أدى إلى تراجع نفوذ الأنباط وتحولهما من التجارة البرية وتركيز نشاطهم الاقتصادي على قوافل البخور إلى الزراعة والاستقرار ، وأن ذلك ما أدى إلى ازدهار الزراعة وأنظمة الري التي برع فيها الأنباط في فترة القرن الأول الميلادي تحت حكم أقوى ملوك الأنباط حارثة الرابع (9ق.م-40م). ولكن هذه النظرية ما تلبث أن تنقض بدراسة غير مشهورة لدافيد جونسون عام 1987 يرى فيها أن نظرية بورسوك ومن ناصرها غير دقيقة، وأن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن نشاط الأنباط التجاري ازداد في الواقع في فترة القرن الأول الميلادي ولم يتدهور، بل تحول من تجارة برية نصف سنوية إلى نشاط منتظم أي سنوي. وبشكل أكثر وضوحاً، إذ أن الأنباط اتخذوا رحلتين للجنوب بدلاً من واحدة في السنة وذلك لتتناسب مع مضاعفة الحضارمة لإنتاجهم من اللبان والمر. فقد أخذوا يزرعونهما مرتين في السنة بحصادين ربيعي وخريفي ليقابلوا الزيادة الكبيرة في الطلب على الطيوب والبخور من شعوب العالم القديم لا سيما الإمبراطورية الرومانية، وعن المبالغة في الترف والرفاهية الرومانية والتي كانت تتكرس لصالح العرب وغيرهم، فيقول "إنهم يكلفون مع الصين والهند خزينة روما مائة مليون سيستيرس كل عام".

ويضع كيث هوبكنز لهذا التغير الاقتصادي الذي حدث في القرنين الأولين للميلاد تحليلاً ونموذجاً اقتصادياً يفسر الأسباب التي أدت بالاقتصاد الروماني أن يبلغ ذروته في هذه الفترة. ويلخص الأسباب في ثماني نقاط وهي: زيادة الإنتاج الزراعي، النمو السكاني، تقسيم العمل، الزيادة في إنتاج السلع غير الزراعية، استغلال الحكومة المركزية بفرض مزيد من الضرائب، تجارة الرقيق، ابتكارات في إطار تنظيم القروض التجارية والعمل المصرفي، وأخيراً، فترة السلام الطويلة نسبياً في البحر المتوسط والتي استمرت خلال القرنين الأولين. أي أن هذين القرنين شهدا أعلى درجات الإنتاج والاستهلاك والتجارة.

وقد نجحت روما بالفعل في أن تصل إلى بلاد الهند والسند من غير وسيط عربي، بل وإلى جنوب الجزيرة مستعينة بالطرق البحرية التي شجعتها واستحدثتها في البحر الأحمر والتي أثرت ولا شك على التجارة النبطية. ولكن تتبع جونسون للنشاط النبطي آنذاك جعله يلاحظ أن مقاومة الأنباط لهذه المنافسة الرومانية ظهرت في مضاعفة رحلات القوافل بالاستفادة من الحصاد الحضرمي الثاني الذي لم ينافسهم عليه الرومان، ثم تشجيع صناعات جديدة يمكنها أن تنافس تجارة المادة الخام مثل تصنيع الطيوب والعطور، وهو ما لوحظ من خلال الإشارات الكتابية والمعثورات الأثرية، من جانب ثان. ومن جانب ثالث، شجعوا نشاط التعدين وخاصة تعدين النحاس من سيناء وجنوب الأردن. وأخيراً، فقد كان هناك اهتمام مضاعف بالزراعة وما يتبعها

من نظم الري والتخزين وتوزيع القنوات الخ. مما حقق به الأنباط نهضة زراعية متميزة فقد كانت الحاجة إليها ضرورية مع ازدياد عدد السكان آنذاك. وربما كان من المهم تناول الصناعات التي اشتهرت في الجزيرة والتي كانت سنداً مهماً لتجارتها.

الصناعات والحرف :

انتشرت صناعات وحرف متنوعة في أنحاء الجزيرة ترتبط كل منها بالمواد الخام المتوافرة في تلك البيئة وكمية ما ينتج منها ليصدر وتشتهر صناعتهم به. ومن الحرف المتداولة في الجزيرة قبل الإسلام، النجارة والحدادة والحياكة والنساجة والخياطة والصياغة والدباغة والخزازة والخزامة والقواسة والبناء ونحوه في الحضر دون البادية.

ففي البدء: العمارة، التي تعد من أبرز الفنون ظهوراً وبقاء. ويتصل بالعمارة كل بناء عال فهي تشمل القصر والمحفد والأطم والمجدل والحصن والبرج وغيرها من المباني المتصلة بالسلم والحرب. وهناك العمارة المدنية التي منها المعابد والأديرة والكنائس والحمامات والسدود والجسور والطرق والمقابر. وقد ظهرت فنون العمارة بشكل متميز في المناطق التي تتوفر فيها المواد الخام كالحجر والخشب وأنواعها. ولذلك فقد وجدت هذه المآثر في جنوب الجزيرة العربية وشمالها بالدرجة الأولى.

وبالنسبة لصناعة النسيج فقد كان من الصناعات المحلية التي تقوم بها كل قرية ومدينة من باب توفير الكسوة اليومية والحاجات الأساسية. ومن ذلك صناعة الخيام والسجاجيد وغيرها. ولكن بعض المدن تميزت عن غيرها برهافة أكثر ودقة وإتقان في صناعة النسيج وتنوع في الخيوط لم تقتصر فيه على النسيج الخشن، بل امتد إلى نسيج الملابس الفخمة. ومن أهم الإشارات الأثرية إلى وجود هذا النوع من الصناعة كان في قرية ذي كهل (الفاو) التي عثر في أكثر منازلها على غارين في أسفل أحد الجدران يقابلهما غاران في الجدار المقابل وفي داخل كل غار خشبة صغيرة لغرض النسج وخاصة نسيج البسط، هذا فضلاً عن القطع المختلفة التي عثر عليها من بقايا قطع نسيجية على درجة عالية من الجمال والإتقان وتنوع الألوان والخطوط ، بل إن جام يشير إلى نقش قرأه يشير إلى دار للنسيج كانت في جنوب الجزيرة ، وفي شمال الجزيرة اشتهرت الحيرة بصناعة النسيج من حرير وكتان وصوف ويستعملون في تزيينه الوشي والتقصيب والتطريز بخيوط الذهب.

وتطورت صناعة السفن في جنوب الجزيرة وشرقها لارتباط ذلك بتجارة العرب البحرية مع الهند وبلاد الرافدين ومصر وشرق إفريقيا. وكانت علاقتها وثيقة بتطور صناعة الأخشاب لاسيما في جنوب الجزيرة. وفي شرق الجزيرة تميزت ميسان ببناء السفن التي طورت بناءها في مرافئها وأصبحت قادرة على الإبحار لمسافات طويلة، فضلا عن أنه كانت بها دار لسك العملة بقيت مستخدمة حتى العصر الأموي.

ونظراً لزراعة ظفار وحضرموت للبان والمر، فقد كان تصنيع الطيوب والعطور من أهم صناعات الجنوب وأيضاً الدول المتاجرة فيه كمملكة الأنباط في شمال الجزيرة. فقد ازدهر في القرن الأول الميلادي لدى الأنباط مع محاولتهم أن ينافسوا مراكز الإنتاج المختلفة التي صارت تتاجر بالطيوب وفي جنوب الجزيرة كانت الريادة في تصنيع الطيوب والعطور لمدينة عدن التي استمرت شهرتها حتى العصر الإسلامي.

وكانت صناعة الفخار من الضروريات التي تمارسها كل الشعوب لتغطي كذلك احتياجاتها اليومية، لكن كانت هناك بعض التميز الذي رافق منطقة دون أخرى. فقد اشتهر الأنباط بإنتاج أنواع راقية جداً من الفخار النبطي الذي يطلق عليه فخار "قشرة البيض" لدقة الصناعة والحرفية العالية ورهافته التي توازي السيراميك أو الزجاج، بسطح مفلطح مفرود مما يثير الإعجاب في مهارة الحرفي النبطي لصعوبة السيطرة على هذا النوع من الأشكال على دولاب الفخاريّ. ويتميز بالتشكيلات النباتية عليه

باللون الأحمر القاني على سطح بني وعثر على قطع مستوردة منه في مناطق متفرقة من حوض البحر المتوسط والجزيرة العربية، كما اكتشفت مصانعه في أكثر من موضع في البتراء.

وعرفت الدباغة والصباغة وصناعة النبيذ في الطائف. كما عرفت الدباغة في مكة، حتى أن عدداً من النساء كن يمارسنها منهن أم المؤمنين زينب بنت جحش وأم المؤمنين سودة بنت زمعة وهند بنت عتبة وغيرهن.

وقد شجع الأنباط نشاط التعدين وخاصة تعدين النحاس من سيناء وجنوب الأردن في القرن الأول الميلادي. بينما اشتهرت الحيرة بصناعة الأسلحة من سيوف وسهام ورماح.

الوضع الثقافي :

تحفل كتب صدر الإسلام بإشارات لعادات العرب قبل الإسلام، منها ما استمر وأقره الإسلام ومنها ما ترك ومنها ما استمر على الرغم من رفض الإسلام له.

وعدد كبير من هذه العادات أو الـ"أوابد" حسب ما توصف به في بعض كتب التراث، ترتبط بالإبل والأنعام وما تبلغه من عدد وما يُفعل فيها حتى تكسر العين الحاسدة والشريرة، فإذا بلغت الإبل مائة يغلق ظهر الجمل المائة وتنزع فقرات ظهره ويعقر، ويدعى ذلك "إغلاق الظهر". وإذا بلغت الإبل ألفاً فقئت عين الجمل، وإذا زادت عن ذلك فقئت العين الأخرى وتدعى "التعمية والتفقئة"، وإذا أصابها القرح كووا السليم منها. وشبيه بذلك ما يتصل بالشياه، فإذا وضعت سبعة أبطن عمدوا إلى السابع، فإن كان ذكراً ذُبح وإن كانت أنثى تُركت في الشاء، فيُحرم ذبحها وتكون منافعها للرجال "دون النساء" وهو ما يدعى بـ "الوصيلة". ونلاحظ التمييز الحاصل ضد النساء في الانتفاع من خير هذه الأنعام، وهي أيضاً من العادات السائدة قبل الإسلام وتتكرر في عادات أخرى.

وعدد آخر من هذه العادات يرتبط بالتحصن والحماية عن طريق الإقطاع للآلهة لكسب رضاها؛ فمن ذلك أن أهل الوبر كانوا يقطعون لآلهتهم من اللحم وأهل المَدَر من الحرث والغَرس، فكانت الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن عمدوا إلى الخامس، ما لم يكن ذكراً، فشقوا أذنها، فتلك البَحيرة. فلا يُجزّ لها وبر ولا يُحمل عليها شيء وكانت ألبانها ومنافعها للرجال "دون النساء". وكان الفحل من الإبل إذا صار ولده جداً حُمي ظهره فلا يُحمل عليه ولا يُركب ولا يُمنع من ماء ولا مرعى فإذا مات جعل لمعبوداتهم، واشترك في هذه المرة في أكله "الرجال والنساء" ويدعى "الحامي". أما أهل الحضر أو المَدَر فكانوا إذا غرسوا أو حرثوا خطوا في وسط ذلك خطاً وقسموه بين اثنين فقالوا ما دون هذا الخط لآلهتنا وما وراءه لله، في دلالة على اعتقادهم في الله كإله متفرد مقابل مجموع معبوداتهم.

وبعض العادات ترتبط بالتفاؤل والتطيّر والتحصن من العين كما سبق مع الإبل، ولكن بالنسبة لأنفسهم. فقد كانوا يعلقون "كعب الأرنب" على صدورهم ويقولون من فعل ذلك لم تصبه عين ولا سحر فالجن يهرب من الأرنب. أما بالنسبة للسفر فكل حركة ترتبط بتطير أو تفاؤل. فمن خرج في سفر فالتفت وراءه لم يتم سفره. فإن التفت تطيروا له من ذلك، سوى العاشق فإنهم كانوا يتفاءلون له بذلك ليرجع لمن خلف.

وعدد من عاداتهم تدل على تقدير العشاق وتسعى إلى إعانتهم على حالهم. فمن ذلك يقولون إن للسُّلوان خرزة إذا حكها العاشق بماء وشرب ما يخرج منها سلا وصبر ، وإذا خدرت رجل الرجل فذُكر أحب الناس إليه ذهب الخدر ، ومن ذلك أن المرأة إذا أحبت رجلاً أو أحبها ثم لم تشق عليه رداءه أو لم يشق عليها برقعها فسد الحب بينهما.

ولهم في العلاج والتطبب عادات عجيبة مرتبطة بمفهوم الاعتقاد الكامل في الغيبيات وتحكمها في الصحة والمرض. فيعتقدون أنهم عندما يعلقون على المريض حلي النساء ويمنع من النوم مدة سبعة أيام، يفيق. ومن ذلك عادة تشير إلى طبقية العرب وتحيزهم للأشراف واعتقادهم حتى في نبل دمائهم، فيقولون : إن دم

الأشراف ينفع من عضة الكلب الكلِب. ومن ذلك أن الغلام أو الفتاة إذا أثغر ونبتت أسنانه الدائمة فرمى سنه في عين الشمس بسبابته وإبهامه وقال: أبدليني بها أحسن، ولتكن إياتك (أي ضوئك وشعاعك) فيها. فعند ذاك يأمن على أسنانه من العوج والقلح، أي الصفرة وغير ذلك، ومن الملاحظ أن هذه العادة ما زالت ممارسة لدى عدد من الشعوب العربية وترتبط بجمل مختلفة ذات سجع محبب للأطفال.

ومن عاداتهم المرتبطة بالموت والنشور والتي تشير إلى اعتقاد بالبعث والحساب، أنه إذا مات الميت يشدون ناقته إلى قبره ويعكسون رأسها إلى ذنبها ويغطون رأسها ببرذعة فإن أفلتت لم تُردّ عن ماء ولا مرعى، والغرض من ذلك أن يركبها صاحبها في المعاد فيحشر عليها ولا يحتاج لأن يمشي. كما كانوا يغسلون موتاهم ويكفنونهم ويصلون عليهم. وصلاتهم تقوم بأن يُحمل الميت على سرير ثم يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه ثم يقول: عليك رحمة الله، ثم يدفن، وهي تبدو من العادات التي يلتزم بها الغرب اليوم، وقد أقر الإسلام الصلاة على الميت والدعاء له.

ومن العادات المرتبطة بالمرأة أنه لم يكن للنساء عدة يعتدونها عند الطلاق، وكانت الأرملة تقعد بعده سنة، وكان هذا مما لم يقره الإسلام. وكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان شيئاً من الميراث بحجة أن الإرث لمن حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل. وهي من العادات التي لم يقرها الإسلام وجعل للنساء نصيبًا مما ترك الوالدان والأقربون، وللذكر مثل حظ الأنثيين. ومما أقره الإسلام أن العرب كانت لا تتزوج البنات ولا الأمهات ولا الأخوات ولا الخالات ولا العمات. لكنهم كانوا يتزوجون زوجة الأب التي يتوفى زوجها وتسمى "الضيزن" كما كانوا يجمعون بين الأختين وهما الحالتان اللتان حرمهما الإسلام. ومن العادات الجائرة لإرضاء خوفهم من خيانة المرأة، أنه إذا أراد أحدهم السفر عمد إلى شجرة فعقد غصناً من أغصانها بآخر، فإن رجع ورآه معقوداً زعم أن امرأته لم تخنه، وإن رآه محلولاً زعم أنها خانته ويدعى ذلك "عقد الرتم". وحرصوا على المرأة الولود، فإن كانت المرأة لا يعيش لها ولد وتدعى "المرأة المقلات"، فتطأ قتيلاً شريفاً وعندها لا يموت لها ولد.

ومن عاداتهم الشخصية أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة، ويصنعون عشرة أشياء من دون بقية الأمم كما يعبر ابن حبيب، في الرأس خمسة وهي: المضمضة والاستنشاق والسواك والفرق وقص الشارب. وفي الجسد خمسة، الختان وحلق العانة ونتف الإبطين وتقليم الأظفار والاستنجاء، كما كانوا يوفون بالعقود ولا يأكلون الميتة، وهي عادات أقرها الإسلام كذلك.

ومن حدودهم أنهم كانوا يقطعون يد السارق اليمنى ويصلبون قاطع الطريق، ومن يقطع مراراً يُرجم، وفي الخلاف يلجأون إلى القسامة أي الحلف بأن المتهم لم يفعل ما هو متهم به أمام الكعبة. لكن هناك حدوداً أكثر تفصيلاً ضمن تشريعات دقيقة تختص بممالك جنوب الجزيرة.

الديانة :

عبد عرب الجزيرة عدداً كبيراً من الآلهة منها ما كانت آلهة سماوية ومنها آلهة طبيعية ومنها الحيوانية ومنها البشرية ومنها ما مزج بين هؤلاء أو بعضهم. ومع أن العبادة الأولى والفطرة الأولى تتجه إلى التوحيد، إلا أن عوامل كثيرة أخرى على مدى الزمن الطويل تصيب العبادات والعقائد شيئاً فشيئاً بكثير من التحريف والتبديل حتى يصير الواحد اثنين والاثنان ثالوثاً ومن الثالوث التعدد إلى ما لا نهاية وفي كل اتجاه: طبيعي: من رعد وبرق وعاصفة وجبل ونهر وشجر. سماوي: من كواكب ونجوم كالشمس والقمر والزهرة وزحل وغيرها. غيبي: من جن وملائكة. بشري: من ملوك وأشخاص عظام، أو حيواني:

من دواب مفيدة أو مخيفة. كما انتشرت الديانات السماوية في بعض مناطق الجزيرة ما بين تعايش وصراع، وتبع ذلك أشكال من الطقوس والبنيان.

اشترك عرب الشمال والجنوب في عبادة إله واحد لم ينظروا إليه كإنسان أو عبروا عنه كإنسان، فقد كان الإله الرئيس لدى الشعوب السامية منذ العصور التاريخية المعروفة. فهو إله العالمين وليس إله قبيلة أو شعب. وقد اختلف اسمه بين الشمال والجنوب باختلاف أداة التعريف، ففي الجنوب عرف بـ (إله ن) وفي الشمال بـ (الـ لـه) وفي الآرامية (إله ا). وهو الذي دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، فالله في القرآن يتفق وإله العربية القديمة في الصفات والألقاب. ولكن النقوش لا تدل على شخصيته مما يشير إلى أنه عبادة قديمة جداً كان العرب والشعوب السامية تمارسها. وانتشرت في الجزيرة العربية كذلك الديانات السماوية منذ عهد مبكر كالحنفية واليهودية والنصرانية سواء عن طريق اختلاطهم بأهل الشام مهد هذه الديانات أو عن طريق انتقال بعض اليهود للسكنى في الجزيرة أو بعض الرهبان ممن تنسك في الصحارى. لكن اعتناق أبناء الجزيرة لليهودية والنصرانية لم يعرف على نطاق واسع إلا في مناطق متفرقة في الجزيرة العربية.

الفنـــون:

الأزيـــاء :

معلوماتنا عن أزياء العرب القدماء تصلنا من خلال التماثيل التي خلفوها والرسومات الصخرية أو المدهونة على الجدران، مما يعرف بالفرسكو. وهي محدودة في إطار ما عثر عليه من آثار. مما رجح معلوماتنا عن بعض الحضارات أكثر من الأخرى وفقاً للمعثورات وهذا ما جعل ممالك تدمر والحضر وبعض تماثيل الجنوب على سبيل المثال تتقدم القائمة نظراً لما تركوا لنا من تماثيل جميلة صمدت أمام صروف الزمان.

بشكل عام يمكن القول بأن زي المرأة كان يتكون من قطع من القماش تغطي الجسم كله وخمار رأس يغطي جزءاً منه تاركاً مقدمة الرأس تظهر من خلالها تصفيفة الشعر أو المصوغات المزينة للشعر. وتختلف التفاصيل بعد ذلك وترد الاستثناءات كذلك مما نشاهده في نماذج منحوتات تدمر. لكنها تميز المرأة بأنها أكثر محاكاة للأزياء العربية منها الغربية، إلا في حالات تصفيف الشعر. وفي حالة الحضر وتدمر يرجح أن التشابه قائم بينهما من جانب وبين الأزياء الفارسية البارثية من جانب آخر.

أما الأنباط فمعلوماتنا عن أزياء نسائهم مقتصرة على قطع العملة التي تظهر عليها صور الملكات، فتصور زي الرأس بشكل خاص. فتظهر الملكة وعليها خمار يسمح فقط لجزء من مقدمة رأسها بالظهور وعليه إكليل من الغار. ويغطي الخمار الشعر والرقبة ثم يتصل بالثوب الملتف حول الكتفين. وتصور المرأة على العملة مرتدية ثياباً طويلة قياساً على قطعة عملة للملكة شقيلة، وتضع عليها معطفاً أو عباءة وأحياناً ترتدي الخيتون وهو قميص أو سترة غير سابغة. وتتزيا بأشكال مختلفة من المجوهرات من العقود والأقراط والأساور وزمام الأنف. وتظهر للمرأة النبطية على قطع التراكوتا صور متعددة لملابس طويلة ذات ثنيات متعددة، وإن كانت هذه الدمى الطينية تمثل على الأرجح معبودات، فعدد منها يصور الربة إيزيس وهي في زي نبطي على الأرجح ويميزها شعارها الموسوم على التاج.

أما بالنسبة للرجال فإن المنزر كان أقدم ما ظهر به راعي الإبل في جزيرة العرب ولا يعرف أصله ولا يزال عرب الجنوب يرتدونه حتى اليوم. ومن الملابس الأخرى التي ارتبطت بهم كذلك العباءة والثوب والسروال. وقد لوحظ أن تماثيل

اللحيانيين تصور الرجال يغطون الجزء السفلي من الجسم بإزار ممسوك بحزام مربوط على الخصر جهة اليمين أو الشمال وبه آثار زخارف بينما يبقى الجزء العلوي عارياً، كما تظهرهم معممين بما يشبه العقال. ويذكر هيرودوت أن العرب كانوا يرتدون عباءة قصيرة جداً ممنطقة ويحملون على جانبهم الأيمن أقواساً طويلة مثنية إلى الخلف، ويخبرنا بليني بأن العرب كانوا يتعممون بعمامة أو بأي شيء يتناسب مع شعورهم غير المجزوزة.

أما التدمريون فقد كانت نساؤهم تُصور متزية بأزياء محلية لا سيما في خمار رأسها وتفاصيل ملابسها، في حين أن الرجل تزيا بأزياء هي مزيج من الفارسية والإغريقية التي كانت تقليدًا للعصر في هذه البلاطات والمجتمعات لاسيما في الأوساط العليا من طبقات المجتمع؛ فضلاً عن الفارسية البارثية والساسانية.

وفي الحضر يلاحظ أن ملابسهم تكاد تقتبس السراويل البارثية بالكامل مع كثير من الزينة والتطريز وما يدل على أقمشة فاخرة، وأهم قطعتين في ملابسهم القميص والسروال ثم العباءة والمعطف والقباء. وفي وصف تفصيلي لأزياء المرأة الحضرية نجد أن المرأة الحضرية تتزيا من الرأس إلى القدم باستثناء الكفين وأحياناً باستثناء جزء من الصدر. وتصنع الملابس من قطعة واحدة من القماش تثبت على الجسم بأحزمة وتتألف عادة من قميص وثوب واحد أو ثوبين ومن طرحة أو عباءة. والقميص بهيئة تنورة يرجح أنه على شكل كيس يلبس من فوق الرأس ويثبت على الخاصرين وتشاهد حافته السفلى عند القدمين من تحت الثوب. وتتميز ثياب الأميرات بكثرة التطريز على حافة الثوب أو الأشرطة والأحزمة كما في تمثال الأميرة دوشفري والسيدة أبو بنت دميون. وتضع المرأة على رأسها عصابة تقوم مقام التاج أو العمامة يلف القماش حولها فيتكون ما يشبه التاج في علوه وتناسقه. وتثبت على العصابة المصوغات ثم يغطى قسمها الخلفي بأعلى العباءة أو الطرحة. تشترك في هذه الصورة العامة تماثيل النساء والإلهات. وترتدي النساء أحذية نسائية بعضها مغلق وملون وبعضها كالصندل ذو سيور وبعضها كالنعال مفتوحة من الخلف. وتفننت الحضريات في التحلي بأنواع متنوعة من المصوغات كالأقراط والعقود والخواتم والأساور. ويلاحظ أن أزياء المرأة الحضرية المتميزة تتشابه وأزياء المرأة التدمرية إلى درجة المنافسة، سواء في نوع الأقمشة أو عصابة الرأس أو أشكال المصوغات، وإن كانت لا تصل إلى ارتفاع تيجان المرأة الحضرية.

د. هتـــون أجـــواد الفاســـي



خريطة جزيرة العرب

© الخريطة من إعداد د. هتون أجواد الفاسي، جميع الحقوق محفوظة

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية

القرآن الكريم.

- ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني 1983
الكامل في التاريخ(دار الكتاب العربي، بيروت)

- أسكوبي، خالد 1999
دراسة تحليلية مقارنة لنقوش من منطقة (رم) جنوب غرب تيماء (وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، الرياض)

- الأشبط، علي عبدالرحمن 2004
الأعراب في تاريخ اليمن القديم، دراسة من خلال النقوش من القرن الأول ق.م وحتى القرن 6م (وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء)

- الأصبهاني، أبو الفرج د.ت
كتاب الأغاني(دار الفكر)

- الأندلسي، ابن سعيد 1982
نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب (تحقيق: د. نصرت عبدالرحمن، ، مكتبة الأقصى، عمّان)

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب 1975
لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غرب الجزيرة العربية(الدارة، 1العدد الأول:ص ص 76-85)

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب1979
أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها (مصادر تاريخ الجزيرة العربية، مطابع جامعة الرياض، الرياض)

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب1982
"قرية" الفاو، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية(جامعة الرياض)

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، وأحمد حسن غزال، وجفري كنج 1984
مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية، العلا (ديدان) الحجر (مدائن صالح)(قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب، جامعة الملك سعود)

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب وأبو الحسن، حسين بن علي 2002
العلا ومدائن صالح (حضارة مدينتين)(دار القوافل، الرياض)

- البابطين، إلهام 1998
الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي(الرياض)

- بابليون، جان 1987
إمبراطورات سوريات: تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطورية الرومانية(ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر والتوزيع)

- بافقيه، محمد عبدالقادر 1985
تاريخ اليمن القديم (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت)

- برو، توفيق 1984
تاريخ العرب القديم (دار الفكر، دمشق)

- البريهي، إبراهيم 2000
الحرف والصناعات في ضوء نقوش المسند الجنوبي (وكالة الآثار والمتاحف، الرياض)

- البكر، منذر عبدالكريم 1986
دولة ميسان العربية (المورد، مجلد 51، عدد 3: ص 19-34)

التبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، دار القلم، بيروت.

- الجرو، أسمهان سعيد 1996
التاريخ السياسي لجنوب شبه الجزيرة العربية القديم (اليمن القديم) (مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، إربد، الأردن)

– دوستال، فالتر 1983
تطور حياة البدو في الجزيرة العربية في ضوء المادة الأثرية (تاريخ العرب والعالم، العدد 57: ص 2-17)

– الزبيدي، محب الدين محمد مرتضى الحسيني د.ت
تاج العروس من جواهر القاموس(دار الفكر)

– سحاب، فكتور 1992
إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف(المركز الثقافي العربي، كومبيو نشر للدراسات والإعلام والنشر والتوزيع، بيروت)

– السعيد، سعيد فايز 2000
حملة الملك البابلي على شمال غرب الجزيرة العربية(بحوث تاريخية، الجمعية التاريخية السعودية، الإصدار الثامن)

– سفر، فؤاد ومصطفى، محمد علي 1975
الحضر مدينة الشمس (بغداد)

– سلامة، عواطف 1994
قريش قبل الإسلام، دورها السياسي والاقتصادي والديني(دار المريخ للنشر، الرياض)

– سلطان، نايفة عبدالحميد 1998
تجارة البخور والمواد العطرية وتأثيراتها على مجتمعات الجزيرة العربية قبل الإسلام، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض)

– الشمس، ماجد عبدالله 1988
الحضر العاصمة العربية (جامعة بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد)

– صالح، عبدالعزيز 1985
المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الإصدارات الخاصة 14، الكويت)

– الصالحي، واثق إسماعيل 1986
نشوء وتطور مملكة ميسان، دراسة تاريخية وأثرية(المورد، ، مجلد 51، عدد 3: ص ص 5- 18)

– الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير 1987
تاريخ الأمم والملوك (دار الكتب العلمية، بيروت)

– العباسي، عبدالرحيم بن أحمد 1947
معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، عالم الكتب، بيروت)

– العصامي ، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي المكي 1998
سمط النجوم العوالي، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض(دار الكتب العلمية، بيروت)

– العلامات، محمود جلال 1984
السبئيون وسد مأرب (مطبوعات تهامة، جدة)

– علي، جواد 1978، 1980
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام(الطبعة الثانية، ، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد)

– العمري، أكرم ضياء 1983
المجتمع المدني في عهد النبوة، خصائصه وتنظيماته الأولى (الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة)

– الفاسي، هتون أجواد 1993
الحياة الاجتماعية في شمال الجزيرة العربية في الفترة من القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن الثاني الميلادي (الرياض)

– الفاسي، هتون أجواد 2003
الحضانة ونظام الانتساب في الحجر-مدائن صالح (مجلة جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ، سلسلة مداولات اللقاء العلمي السنوي للجمعية-4، دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية عبر العصور ص ص 9-42)

– الفاكهي، محمد بن إسحاق بن العباس المكي 1986
أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه (تحقيق عبدالملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة)

– القثامي، مناحي ضاوي حمود 1408
تاريخ الطائف قديماً وحديثاً (ط2، ، مطبوعات نادي

الطائف الأدبي، الطائف)

– كسترو، م. ج. 1976

الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية(ترجمة : د. يحي الجبوري، ، جامعة بغداد، بغداد)

المحيسن، زيدون، تقنيات التوزيعات المائية عند الأنباط، في دراسات عربيه وتاريخية، 1993، مطبوعات جامعة الآثار بالإسكندرية، مناسبة العيد المئوي للجامعة، ص 23-46.

– مرسي، محمد إبراهيم 1987

أضواء على ملكة سبأ(حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية التاسعة/ الرسالة 49)

– ممفورد، لويس 1964

المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها، ترجمة: إبراهيم نصحي، مؤسسة فرانكلين للطبع والنشر، نيويورك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة)

– منى، زياد 1997

بلقيس (رياض الريس للكتب والنشر، لندن)

– النعيم، نورة عبدالله 1990

نقوش العقلة دراسة تاريخية (العصور، مجلد 5/ج2: 223-230)

– النعيم، نورة عبدالله 1992

الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، دار الشواف للنشر والتوزيع، الرياض)

– النعيم، نورة عبدالله 2000

التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير(مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض)

– نيلسن، د 1927

الديانة العربية القديمة، التاريخ العربي القديم (ترجمة د.فؤاد حسنين علي، مراجعة د.زكي محمد حسن، الطبعة الأولى، القاهرة)

– الهاشمي، رضا جواد 1978

العرب في ضوء المصادر المسمارية (مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 22: ص ص 639-683)

– ياقوت، أبو عبدالله الحموي د.ت

معجم البلدان (دار إحياء التراث العربي، بيروت)

– اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر 1980

تاريخ اليعقوبي (دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت)

ثانيًا : المراجع الأجنبية

- Altheim, F. & Stiehl, R. 1968

Die Araber in der Alten Welt, V/1, , Walter de Gruyter & Co., Berlin,2 vols.

- Al-Ansari, A.R. 1966

Critical and Comparative Study of Lihyanite Personal Names, (Unpublished Ph.D. Thesis), University of Leeds.

- Al-Ansari, A.R. 1970

The Chronology of Lihyan, in Bulletin of the Faculty of Arts, University of Riyadh, 1: 53-60.

- Al-Ansari, A.R. 2002

Al-Gerrha, the port of “Qaryat” al-Fau, in JSS Supplement 14, Studies on Arabia in Honor of Professor G. Rex Smith, (ed. J.F.Healey and V. Porter), Oxford University Press on behalf of the University of Manchester, pp. 7-17.

- Al-Fassi, H.A. 1997

‘The Taymanite Tombs of Mada’in Salih (Hegra)’, in Proceedings of the Seminar for Arabian Studies, 27: 49-57.

- Al-Fassi, H.A. 2000

Women and Power in Ancient Northern Arabia: Nabataea. (Unpublished Ph.D. Thesis), University of Manchester, Manchester.

- **Beeston, A.F.L 1983**
Women in Saba, Arabian and Islamic Studies, Articles presented to R.B. Serjeant in the Occasion of his retirement from the Sir Thomas Adams Chair of Arabic at the University of Cambridge, Longman, London, New York, pp. 7-13.
- **Bin Seray, H.M. 1993**
The Arabian Gulf from the 3rd Century B.C. to the 1st/2nd Century A.D. with Special Reference to the Commercial Activities between Palmyra, Charax and the Gulf, (Unpublished Ph.D. Thesis), University of Manchester, Manchester.
- **Boucharlat, R. 1989**
Documents Arabes del la Péninsule D'Oman. In L'Arabie Préislamique et son Environement Historique et Culturel, (ed. T.Fahd), E.J.Brill. Leiden, pp. 109-126
- **Bounni, A. & al –As`ad 1997**
Palmyra: History, Monuments & Museum, Damascus.
- **Bowersock, G.W. 1980**
Mavia, Queen of the Saracens. Studien zur Antiken Sozialgeschichte, Festschrift Friedrick Vittinghoff, Kšln. Wien. 477-95.
- **Bowersock, G.W. 1983**
Roman Arabia, Harvard University Press. Cambridge, Massachusetts, London.
- **Browning, I. 1979**
Palmyra, Noyes Press, UK.
- **Al-Khathami, M.S 1999**
The Kingdom of Lihyan - History, Society, and Civilization in Pre-Islamic Arabia, (Unpublished Ph.D. Thesis), , University of Manchester. Manchester.
- **Al-Mazroo, H.I. 1990**
A Stylistic & Comparative Study of Unpublished Pre-Islamic Stone Sculptures from Arabia, (Unpublished Ph.D. Thesis), University of London, London.
- **Al-Muheisen, Z. 1990**
Maîtrise de l'eau et agriculture en Nabatène: l'exemple de Pétra, Aram, 2/1: 205-220.
- **Al-Theeb, S. 1993**
Aramaic and Nabataean Inscriptions from North-West Saudi Arabia, King Fahd National Library Publications, Riyadh.
- **Amr, Khairieh 1987**
The Pottery from Petra: A Neutron Actiration Analysis Study, BAR International Series 324, Oxford.
- **Arrian, F. X. (d. c. 173 CE) 1984**
The Campaigns of Alexander, Tr. A. Sélincourt., Penguin Books, UK.
- **Avanzini, A.1991-93**
Remarqus sur le 'matriarcat' en Arabie du Sud, in Révue du Monde Musulman et de la Méditerranée, , 61: 157-161.
- **Beaulieu, Paul-Alain, 1989**
The Reign of Nabonidus King of Babylon 556-539 B.C. Yale University Press, New Haven & London.

- **Groom, N. St.J. 1982**

- **Hopkins, K. 1983**

Introduction, Trade in the Ancient Economy, (eds. P. Garnsey, K. Hopkins & C.R. Whittaker), Chatto & Windus., The Hogath Press, London, ix-xxv.

- **Jamme, A. 1963**

The Al-Uqlah Texts, The Catholic University of America Press, Washington D.C.

- **Livingstone, A., Spaie, B., Ibrahim, M., Kamal, M., Taimani, S., Taima'1983**

Recent Soundings and New Inscribed Material 1982, in Atlal, 7: 102-116.

- **Luckenbill, D.D.**

Ancient Records of Assyria and Babylonia, 1926-7, Greenwood Press, Publishers, New York, 2 vols.

- **McKenzie, J.**

The Architecture of Petra, (British Acaemy Monographs in Archaeology 1), 1990, Oxford University Press, Oxford.

- **Meshorer,Y. 1975**

Nabataean Coins. (Qedem), , Institute of Archaeology, Jerusalem.

- **Nasif, A.A. 1981**

Al-'Ula. An Historical and Archaeological Survey with Special Reference to its Irrigation System, King Saud University, Riyadh.

- **Parlasca, I. 1990**

Terrakotten aus Petra, ein neues Kapitel Nabatäischer Archäologie, in Petra and the Caravan Cities, (ed. Dr. Fawzi Zayadine), Department of Antiquities, Amman, 87-105.

- **Parr, P.J. 1990**

A Commentary on the Terracotta Figurines from the British Excavations at Petra, 1958-64,

- **Chelhod, J. 1980**

Du Nouveau à propos du (Matriarcat) Arabe, in Arabica, 27/1: 76-106

- **Colledge, M.A.R. 1976**

The Art of Palmyra, Thames and Hudson, London.

- **Cuissini, E. 1995**

Transfer of Property at Palmyra, in ARAM, 7: 233-250.

- **Diodorus, C. (d.circa 21 BCE) 1961**

Diodoros Historiae, The Library of History, (tr. C.H. Oldfather), , LCL, London, 12 vols.

- **Dostal, W. 1989**

The transition from Cognatic to Unilinear Descent Systems in South Arabia, In Kinship, Social Change, and Evolution, Proceedings of a Symposium held in Honour of Walter Dostal, (eds. A. Gingrich, S. Haas, S. Haas & G. Paleczek), (Vienna Contributions to Ethnology and Anthropology. Vol. 5), Verlag Ferdinand Berger & Söhne, Horn-Vienna, 47-62.

- **Dostal, W. 1990**

'Sexual Hospitality' and the Problem of Matrilinearity in Southern Arabia, in PSAS, 20: 17-30.

- **Graf, D.F. 1983**

Dedanite and Minaean (South Arabian) Inscriptions from the Hisma in ADAJ, 27: 555-569.

- **Groom, N. 1981**

Frankincense and Myrrh, a Study of the Arabian Incense Trade, Longman, Librairie du Liban, London, New York, Beirut.

Wissenschaften und der Literatur Mainz: Veröffentlichungen der Orientalischen Kommission 41), , Harrassowitz Verlag, Wiesbaden.

- **Sartre, M. 1982**
  Trois Études sur l'Arabie Romaine et Byzantine, Collection Latomus, Latomus, Bruxelles.
- **Savignac, R. & Starcky J. 1957**
  Une Inscription Nabatéenne Provenant de Djof, Révue Biblique, , 64: 196-217.
- **Scagliarini, F. 1994**
  Le Iscrizioni Lihyanitiche dell'Oasi di Al-'Ula, (Unpublished Ph.D. Thesis), Universita Degli Studi De Firenze.
- **Shahid, I. 1984**
  Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, Washington. D.C.
- **Shahid, I. 1984**
  Rome and the Arabs,, Sumbarton Oaks, Washington. D.C.
- **Sidebotham, S.E. 1986**
  Roman Economic Policy in the Erythra Thalassa 30 BC-AD 217, E.J. Brill, Leiden.
- **Starcky, J. 1982**
  Quelques Aspects de la Religion des Nabateéens, SHAJ, I: 195-6.
- **Stiegner, R.G. 1979**
  Die Königin von Saba' in Ihren Namen, Universität Graz, Graz.
- **Stoneman, R. 1994**
  Palmyra and its Empire, Zenobia's Revolt against Rome, The University of Michigan Press, Ann Arbor.

in Petra and the Caravan Cities, (ed. Dr. Fawzi Zayadine), Department of Antiquities, Amman, 77-85.

- **Pliny (d. circa 79 CE) 1969**
  Naturalis Historia, (tr. H.Rackham, ed. E.H. Warmington), CL, London,10 vols.
- **Polybius, (d. after 118 BCE) 1922**
  The Histories of Polybius, -1927, LCL, London.
- **Potts, D.T. 1988**
  Arabia and the Kingdom of Characene. In Araby The Blest. (ed.) D. T. Potts, The Carsten Niebuhr Institute of Ancient Near Eastern Studies, University of Copenhagen,Mseum Tusculanum Press, Copenhagen, 137-167.
- **Pritchard, J.B. 1955**
  Ancient Near Eastern Texts: Related to the Old Testament, 2nd ed., , Princeton University Press, Princeton.
- **Ptolemy, Claudius (d. 151 CE), 1932**
  Geographie of Claudius Ptolemy, tr. E.L.Stevenson, , The New York Public Library, New York.
- **Rowton, M.1974**
  Enclosed Nomadism, JESHO, 17/1:1-30.
- **Ryckmans, J. 1986**
  A three generations' matrilineal genealogy in a Hasaean inscription: matrilineal ancestry in Pre-Islamic Arabia, in Bahrain Through the Ages, the Archaeology, (eds. H. Al-Khalifa & M. Rice), , KPI, London, New York, Sydney, Henley, 407-417.
- **Said, F. al-Said. 1995**
  Die Personennamen in den minäischen Inschriften: Eine etymonlogiche und Lexikalische Studie im Bereich der semitischen Sprachen (Akademie der

- **Strabo (d. 24 CE) 1989**

Geography, (tr. H.L. Jones), LCL, London, 8 vols.

- **Tarn, W.W. 1929**

Ptolemy II and Arabia, JRA, 15: 9-25.

- **Teixidor, J. 1984**

Un Port Romain du Désert Palmyre, Semitica XXXIV, Paris.

- **Winnett, F.V. & Reed, W.L. 1970**

Ancient Records from North Arabia, (With contributions by J.T. Milik & J. Starcky), University of Toronto Press, Toronto

الفصل الثالث

الممالك العربية من النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد إلى ظهور الإسلام :

- الممالك العربية المبكرة : (عمون، مؤاب، أدوم).
- الممالك العربية الوسيطة : (سبأ، معين، قتبان، حضرموت، لحيان، كندة الأولى، الأنباط).
- الممالك العربية المتأخرة : (حمير، تدمر، الحضر، كندة، كندة الثانية، القساسنة، المناذرة).

الممالك العربية المبكرة : عمون ومؤاب وآدوم

المقدمة:

قامت على أرض الأردن وفلسطين حضارات متعددة موغلة في القدم .. وأثبتت المصادر الكتابية ونتائج الحفائر والمسوحات الأثرية التي أجريت في هذه المنطقة أن لها تاريخًا عريقًا يمتد إلى عصور ما قبل التاريخ. وخلال الفترة الواقعة بين النصف الثاني من الألف الثاني والنصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد شهدت المنطقة قيام ممالك عمون ومؤاب وآدوم موضوع هذا البحث ومواقعها على التوالي من الشمال إلى الجنوب، وسوف نستعرض بشيء من التفصيل البدايات الأولى لهذه الممالك وأبرز المواقع التي تعود لها وذلك من خلال المعلومات الواردة عنها في التوراة والمصادر الكتابية الكنعانية والآشورية والمصرية والعمونية والمؤابية والآدومية ، وكذلك من خلال نتائج المسوحات والحفائر الأثرية التي جرت في المنطقة.

ويرى بعض الباحثين أن سبب نشأة هذه الممالك هو موقعها الإستراتيجي بين آسيا وأفريقيا وأوربا حيث تصل بين البحر الأبيض المتوسط المرتبط بالمحيط الأطلسي والبحر الأحمر المرتبط بالبحر العربي ثم المحيط الهندي، كما أنها تحتل موقعًا متوسطا بين مملكة آشور في الشرق والآراميين في الشمال ومصر في الجنوب الغربي ومدين في الجنوب، إضافة إلى وقوعها على الطريق التجاري الذي يربط جنوب الجزيرة العربية ببلاد الشام وبلاد الرافدين ومصر وهذا الموقع الإستراتيجي لهذه الممالك الثلاث مكنها من الإفادة والاستفادة من هذه الطريق بدرجة كبيرة، حيث كانت تجارة المواد العطرية والتوابل والذهب هي أبرز السلع التي كانت تجارتها سائدة في ذلك الوقت، إضافة إلى التأثير والتأثر بالحضارات المجاورة .. ومن المؤكد أن شعوب هذه الممالك الثلاث أدت دورا بارزا في التعاملات التجارية في هذه السلع التي كانت تعبر بلادهم قادمة من جميع الاتجاهات الجنوب و الشمال و الشرق والغرب.

مملكة عمون:

تقع مملكة عمون في المنطقة الجبلية شمال المملكة الأردنية الهاشمية حاليًا على الهضاب الشرقية في منطقة البلقاء، وتمتد من وادي حسبان جنوبًا حتى وادي الزرقاء شمالاً، ومن منطقة الأغوار غربًا وحتى الصحراء شرقا، ويحدها من الشمال الآراميون ومن الجنوب الموآبيون ومن الغرب البحر الميت ومن الشرق الصحراء .. وقد كان لموقعها أهمية إستراتيجية؛ إذ كان يمر بها الطريق السلطاني المؤدية من بصرى في الشمال إلى العقبة في الجنوب، وكان لهذه الطريق دور كبير في الحركة التجارية في ذلك الوقت؛ إذ منها يعبر طريق التجارة متجهًا شمالاً إلى سوريا أو جنوبًا إلى الجزيرة العربية، إضافة إلى توسط موقعها بين مركزين يعدان من أكبر المركز الحضارية في العالم القديم وهما .. بلاد الرافدين وبلاد النيل .. وكانت تعبر منها تجارة البخور والتوابل والذهب والفضة إلى تلك المناطق .. وثراء هذه المنطقة جعلها هدفًا للشعوب المجاورة لها مثل الآراميين والآشوريين الذين امتد نفوذهم إلى أرض عمون والمناطق المجاورة مؤاب وآدوم في فترة حكم الملك الآشوري (تجلات بلاسر الثالث 744-727 ق.م) عندما وصل نفوذه إلى البحر الأبيض المتوسط، ولكن مملكة عمون استطاعت مع جارتيها مؤاب وآدوم من استعادة وحدتها من الآشوريين .. وذلك مقابل دفع الجزية للآشوريين .. وتشير إحدى الرقم الطينية التي وجدت في العراق إلى أن

سكان عمون فرضت عليهم جزية مقدارها مينتان من الذهب تدفع للآشوريين الذين فرضوا جزية كذلك على سكان مؤاب مقدارها مينة ذهبية واحدة ومن سكان يهوذا عشر مينات من الفضة. وورد ذكر آدوم ولكن لم يتضح مقدار الجزية المفروضة عليهم.

ربما كان أول ظهور للعمونيين في التاريخ يعود إلى نهاية العصر البرونزي المتأخر أو في بداية العصر الحديدي الأول (1300ق.م) وكانت مدينة عمان (ربة عمون) والمناطق المحيطة بها من أوائل مناطق الاستيطان لهم، وهي عاصمة مملكة العمونيين وتم التعرف إلى عدد من المواقع الأثرية التي تعود لحضارة العمونيين داخل مدينة عمان وبالقرب منها. ومن أهم هذه المواقع قلعة عمان والأبراج الدائرية التي بنيت لأغراض دفاعية وكانت تحيط بمدينة عمان، وتعد إحدى الميزات التي تميز بها العمونيون عن غيرهم من الممالك المجاورة خلال الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والسادس قبل الميلاد .. ومن أبرز هذه الأبراج برج الملفوف الشمالي والجنوبي ورجم الكرسي وأم أذينة وشنلر، بالإضافة إلى مواقع أخرى كشفت نتائج المسوحات والتنقيبات فيها عن دلائل تعود للحضارة العمونية، ومن هذه المواقع تل صافوط وأم الرجوم وخربة الحجار وسحاب الواقعة على بعد 12 كيلا جنوب مدينة عمان ومأدبا التي استعادها العمونيون من المؤابيين

وقد ورد ذكر دولة عمون وربة عمون في التوراة (سفر التثنية الإصحاح الثالث)عدة مرات خلال الفترات الهلنستية والرومانية والبيزنطية، كما ورد ذكر لمدينة عمان (ذ ي ع م ن) في عدد من النقوش اللحيانية التي عثر عليها في جبل عكمة بمنطقة العلا والتي يعود تاريخها إلى الفترة الواقعة بين القرن السادس والقرن الثاني قبل الميلاد، حيث كان كل من عمون ولحيان معروفتين بشكل جيد في تلك الفترة. وقد كان ذكر اسم مدينة عمان (ذي عمن أو ربة عمون) في الكتابات اللحيانية مع مدن أخرى؛ فأرباب القوافل يأتون منها مارين بأرض لحيان: إما ذهابًا وإما إيابًا ويقدمون القرابين للمعبود اللحياني (ذو غيبة) لحمايتهم وحماية قوافلهم.

دونت النقوش العمونية كغيرها من النقوش على مواد متعددة منها: الحجارة والمعادن والفخار؛ ففي قلعة عمان عثر على نقش مدون على حجر صغير، وبالرغم من عدم وضوح بدايات الأسطر في هذا النقش ونهاياتها؛ إلا أن المتخصصين أرجعوه إلى بداية القرن الثامن قبل الميلاد، كما وجد نقش آخر مدون على قاعدة تمثال (ي ح ع ز ر) حفيد الملك العموني (شنيبو) تم تأريخه بالقرن الثامن قبل الميلاد، ووجدت أيضًا نقوش مدونة على معادن منها النقش المدون على قارورة من البرونز عثر عليها في تل سيران بالقرب من عمان يبلغ طولها 10.5سم مدون عليها اسم (عميناداب) ملك العمونيين، ويعود تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد وهي محفوظة في متحف الآثار بعمان، إضافة إلى كوب من المعدن وجد في خربة أذينة بالقرب من عمان مدون عليه اسم صاحبه تم تأريخه بالقرن السادس قبل الميلاد، وعثر أيضًا على أوزان من المعدن مدون عليها نقوش عمونية: أما الكسر الفخارية المدون عليها نقوش عمونية فقد عثر في سحاب جنوب عمان على كسرة حفر عليها حروف عمونية وأخرى عثر عليها في تل حسبانة عليها كتابة بالألوان؛ وبالرغم من قصر هذه النقوش وقلتها إلا أنها تعد مؤشرًا لوجود حضارة وتؤكد قيام مملكة عمون في هذه المنطقة لا سيما وأنها تذكر اسم أحد ملوك العمونيين.

ومعظم الباحثين الذين قاموا بدراسة النقوش العمونية يرجعونها في الأصل إلى العربية الشمالية؛ فنجد أن جاربيني يؤكد في معظم أبحاثه التي كتبها عن النقوش العمونية أن اللغة العمونية أقرب ما تكون إلى اللغة العربية الشمالية منها إلى اللغة الكنعانية ويدعم هذا الرأي ما خرج به الباحث محمد العبابنة من دراسته لأسماء الأعلام

العمونية التي أكد فيها أن أسماء الأعلام العمونية و جذورها لها ما يقابلها مقابلة تامة في أسماء الأعلام الواردة في النقوش الثمودية والصفوية واللحيانية. وقد امتد هذا التشابه في صيغ الأسماء واشتقاق أكثر من اسم من جذر واحد، كما أن أسماء الأعلام المركبة مع أسماء الآلهة خاصة المعبود(إيل) الذي انتشر استخدامه مع أسماء الأشخاص عند العمونيين والعرب الشماليين في العصر الحديدي .. ويلاحظ أن مثل هذا الاستخدام قد قل عند معظم الشعوب السامية الأخرى، ومن المؤكد أن هذا التشابه في اللغة جاء نتيجة انتسابهم إلى عرق واحد وكذلك نتيجة الجوار والتواصل بين العمونيين وعرب الشمال.

مملكة مـؤاب:

تقع مؤاب في المنطقة الواقعة فيما بين وادي الحسا في الجنوب ووادي الموجب في الشمال، ويحدها من الشمال مملكة عمون ومن الجنوب مملكة آدوم ومن الغرب البحر الميت ومن الشرق الصحراء التي تفصل بينها وبين بلاد الرافدين. وقد وردت إشارات في النقشين اللذين عثر عليهما في الأقصر في مصر على أن مؤاب اسم لأرض أو إقليم، كما ورد فيهما ذكر لأسماء ثلاث مدن مؤابية ، كما كشفت الحفريات الأثرية عن ثلاث مدن مؤابية هي: الكرك (كير-مؤاب) ومأدبا (ميدبا) وديبون (ذيبان) التي كانت عاصمة الملك المؤابي ميشع خلال النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد. ويشير نقش ميشع الذي عثر عليه في ذيبان وكذلك النقش المؤابي الذي عثر عليه في الكرك إلى ذكر لقب (ملك مؤاب)، مما يؤكد دون شك وجود مملكة مؤاب في هذه المنطقة ومعظم المواقع التي تم تحديد هويتها بأنها مؤابية تقع إلى الشمال من وادي الموجب(نهر أرنون) .

حدد الباحثون تاريخ مؤاب بـ (العصر البرونزي المتأخر) القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وتذكر التوراة الشعوب التي عاشت في المنطقة الواقعة إلى الشرق من البحر الميت وأطلقت عليهم اسم المؤابيين كما تذكر الانتصارات التي حققها الملك ميشع على أعدائه، مما جعل المؤرخين يقترحون: أن الفترة التي كان يحكم فيها الملك ميشع تعود للنصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد.

وتعد المصادر الكتابية المؤابية بالرغم من قلتها من أبرز المصادر التي يستقى منها المعلومات عن تاريخ مؤاب وأهمها، وتأتي بعد ذلك المصادر الأخرى التي عثر عليها في منطقة مؤاب المتمثلة في اللقى الأثرية ثم ما جاء في الكتابات المسمارية من إشارات عن المؤابيين وكذلك الإشارات الواردة في المصادر المصرية التي جاء فيها ذكر لبعض الأسماء المؤابية، بالإضافة إلى ما ورد في التوراة من معلومات عن المؤابيين والتي يجب التعامل معها بحذر. وقد ورد ذكر المؤابيين في العهد القديم في سياق الكلام عن خروج بني إسرائيل من مصر ومحاولة دخولهم أرض مؤاب في القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

كما ورد ذكر المؤابيين في النقوش الآشورية جنبًا إلى جنب مع ملوك سوريا وفلسطين. وأشارت الوثائق إلى المؤابيين في القرن الثامن قبل الميلاد وظهر ذكرهم جليًا في هذه الوثائق عندما قدم المؤابيون الجزية للإمبراطور (آشور بانيبال) (668-627ق م). وتذكر هذه المصادر أن مؤاب شنت حربًا ضد قبائل عربية تمردت على السيادة الآشورية وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن مؤاب تدين أو ترتبط بعلاقات مميزة مع الآشوريين،إلا أن هذه العلاقة انتهت بقضاء الآشوريين على المؤابيين في عهد الملك الآشوري (نبوخذ نصر) (604-562ق م)

من المؤكد أن المؤابيين دونوا الكثير من المعلومات عن نشاطاتهم؛ إلا أنه لم يصلنا منها إلا القليل، وربما تكشف الأيام القادمة مزيدًا من كتاباتهم .. وبالرغم من ذلك فإن النقوش المكتشفة تعطي صورة لا بأس بها عن هذه الأنشطة، ويعد نقش ميشع أحد أهم النقوش المؤابية التي عثر عليها في منطقة مؤاب، كما عثر في أماكن متعددة على

عدد قليل من النقوش التي ورد فيها إشارات إلى مملكة مؤاب، ففي منطقة الأقصر في مصر عثر على نقشين مؤرخين في فترة رمسيس الثاني (1304-1237ق.م) وردت فيهما إشارة لمملكة مؤاب. ويعد هذان النقشان أقدم مصدر كتابي لمؤاب، إضافة إلى ذلك عثر في تل ذيبان على جزء من نقش مدون على شظايا حجرية بازلتية يعود تاريخه للقرن التاسع قبل الميلاد، تمكن العلماء من قراءة ستة أحرف منه وهي تمثل اسم علم لأنثى (أسوح بنت كمش) ويبدو من هذا النقش أنه جزء من نقش يصف الإنجازات المعمارية لبعض الملوك، كما عثر في بالوعة على لوحة تشبه لوحة الملك الأكادي (نارام سن) دون عليها نقش كتابي مكون من أربعة أسطر يصعب قراءتها نتيجة الأضرار التي لحقت بها جراء عوامل التعرية، كما عثر في الكرك على جزء من نقش مؤابي مدون على حجر ويتكون من ثلاثة أسطر غير مكتملة يظهر فيها اسم (شيموشيت أو كيمو شيت) ويبدو أنه ملك مؤاب الذي ورد ذكره في نقش ميشع.

ويعد نقش الملك ميشع من أهم المصادر لدراسة تاريخ المؤابيين، ويعود تاريخه إلى حوالي منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، وقد عثر على هذا النقش المنصِّر (كلاين) في منطقة ذيبان سنة 1868م، وحظي هذا النقش باهتمام الأوربيين أمثال (كليرمون غانو) و(نولدكه) و(فان زيل) و(كوك) وأثار اكتشاف هذا النقش فضول سكان المنطقة الذين ظنوا أن هذا الحجر يحتوي على كنز بداخله حيث قاموا بتكسيره إلى قطع صغيرة وتمكن (كلير مونت كانو) من جمع هذه القطع وإعادة الحجر إلى حالته إلا أنه فقدت بعض أجزاء النقش، والنقش مكتوب على قطعة من حجر البازلت تبلغ أبعاده 92 سم طولا وعرضه لا يزيد على 57 سم ويتراوح طول الأسطر بين 30-56 سم وهو محفوظ في متحف اللوفر بباريس حاليًا،وسجل الملك ميشع في هذا النقش انتصاراته على أعدائه الذين قام بمحاربتهم بمساعدة من معبوده كموش، وكذلك الأعمال الإنشائية التي قام بها في معين والقريات، وفتحه لخربة عطاروس، وذبحه لشعب جاد، وإعادته لموفد إيل ملك إسرائيل دليل على انتصاره عليهم، كما يتحدث عن الأمر الذي تلقاه من معبوده كموش بأن يذهب لبني إسرائيل ويشتبك معهم ويفتح مدينتهم. ويذكر أنه فتح مدينتهم وذبح كل سكانها رجالا ونساء وصبيانا وبنات وإماء وأخذ موقد معبودهم يهوه ووضعه بين يدي معبوده كموش، كما يتحدث عن بنائه لمدينة قرحي وأسوارها وأبوابها وحفره بها برك الماء، وكذلك عن بنائه لعراعر وتعبيده الطريق في وادي الموجب وبنائه بيت يموت وأم العمد ومادبا وخربة دليلة الشرقية وخربة معين، كما يذكر بأنه ملك مائتي مدينة أضافها إلى ملكه. ونظراً لأهمية هذا النقش وعلاقته المباشرة بموضوع البحث سنورد قراءته كاملة نقلاً عن الدكتور فواز طوقان:

1- أنا ميشع بن كموشيت ملك مؤاب الذيباني.

2- أبي ملك على مؤاب ثلاثين سنة. وأنا ملكت .

3- بعد أبي. وأنشأت معبدا (أهراما) لكموش، بقرحي. ولقد بنى ذلك

4- بسرور لأن كموش أعانني على قهر الملوك، ولأنه أشمتني بكل أعدائي المبغضين. أما عمري

5- ملك إسرائيل، فقد اضطهد مؤاب طويلا، ذلك لأن كموش أضحى مكروها

6- بأرضه. وخلف عمري ابنه فقال هو الآخر: [سأضطهد مؤاب!] أجل، لقد قال شيئا كهذا الكلام

7- ولكن كموش جعلني أراه مهزومًا من أمامي، هو وإلهه. وبادت إسرائيل، بادت إلى الأبد.ولكن عمري قد ورث أرض

8- مادبا. فأقام بها مدة حكمه. كما أقام بها الإسرائيليون من بعده. مدة تبلغ نصف حكم أبناء عمري. فجميع ما أقاموه بلغ أربعين سنة

9- وأرجع كموش مادبا في أيام حكمي ولقد بنيت خربة معين وحفرت فيها تلك البركة. ولقد بنيت

10- خربة القريات . أما شعب جاد فقد كان يسكن خربة عطاروس من زمن قديم . وكان ملك إسرائيل بنى لشعب جاد

11- خربة عطاروس. والتحمت بالمدينة مقاتلا وافتتحتها. وذبحت كل سكان

12- القرية لأجل كموش ومؤاب. ورددت من هنالك موقد ايل إله ملك إسرائيل المحبوب

13- وسحبته إلى بين يدي كموش بالقرية وأسكنت شران وشعب

14- محرت. وقال لي كموش: [اذهب! خذ بني إسرائيل]

15- فذهبت في نفس تلك الليلة، واشتبكت بالمدينة من وقت تبين الخيط الأبيض من الأسود حتى الظهر

16- وافتتحتها وذبحت كل سكانها، وعددهم سبعة آلاف، رجالا وصبيانا ونساء وبناتا

17- وإماء. ذلك لأنني ضحيتها لعشتر كموش. كما أنني أخذت من هنالك موقد

18- يهوه وسحبتها جميعا حتى وضعتها بين يدي كموش. وكان ملك إسرائيل قد بنى

19- عليان وقت محاربته إياي. ولكن كموش طرده من أمامي

20- وأخذت من مؤاب مائتي رجل وهم قوام فرقتها العسكرية. ثم قدتهم ضد عليان. وافتتحتها

21- مضيفا إياها إلى مملكة ذيبان. وأنا الذي بنى قرحي، وهي حمى اليعرن؟وبنيت كذلك سور

22- الأكروبولس في قرحي. وأنا الذي بنى أبواب قرحي وأسوارها

23- وبنيت موقع بيت ملك. وأنا الذي حفر كلتا البركتين للماء بداخل

24- المدينة. وذلك لأن المدينة كانت خالية من أي بئر. فقد قلت يومها للشعب: [ليحفر

25- كل رجل منكم بئرا بداخل بيته]. وأنا الذي قطع الأخشاب بأيدي الأسرى الإسرائيليين لقرحي

26- وقد بنيت عراعر. وعبدت الطريق في وادي الموجب

27- وأنا الذي بنى بيت يموت لأنها كانت مهدومة هدما. وأنا الذي بنى أم العمد لأنها كانت قد أصيبت بسوء

28- كبار القوم في ذيبان كانوا خمسين بالعدد. فذيبان كانت كلها خاضعة لي. وأنا ملكت

29- ....على مائتي مدينة قد أضفتها إلى المملكة. وبنيت .

30- ومادبا وخربة دليلة الشرقية وخربة معين. وهناك أطلقت النقد [وهو نوع من الغنم صغير الأرجل]

31- .... وضأن المملكة لكي ترعى الكلأ. وأما خربة الذباب فقد سكنها....

32- .... وقال كموش [انزل والتحم بخربة الذباب!] فنزلت والتحمت....

33- وأعادها كموش بأيامي. وكان بقربها من الطرف البعيد عشر....

34- سنة أربع وأربعين وأنان....

ومن خلال نقش الملك ميشع يتضح أن نظام الحكم المؤابي كان ملكيًا حيث وردت لفظة ملك مؤاب في بداية السطر الأول بعد اسم ميشع بن كموشيت كما أن الحكم كان وراثيًا ويتضح ذلك من خلال المعلومة الواردة في نهاية السطر الثاني وبداية السطر الثالث من النص، حيث يشير صاحب النقش ميشع بأنه ملك بعد أبيه أي تولى الحكم بعد أبيه.

وكان المؤابيون يدينون بالوثنية ويتضح ذلك من خلال المعلومات الواردة في نقش الملك ميشع حيث يشير "أنه أنشأ معبدًا لكموش بقرص" وذلك لأن كموش أعانه _ أي الملك – على قهر أعدائه من الملوك وأشمته بكل أعدائه المبغضين.

وفيما يتعلق باللقى الأثرية؛ فيعد الفخار من أبرز المعثورات التي يتم العثور عليها أثناء التنقيبات الأثرية أو يتم جمعها كملتقطات سطحية في المواقع الأثرية، ووجود الفخار يعد أحد الشواهد على أثرية الموقع ويساهم بشكل كبير في تحديد هوية الموقع والحقب الزمنية التي تعاقبت عليه. أنتج سكان مؤاب فخارًا لايقل في مستواه عن الفخار الذي أنتجته المجتمعات المجاورة لهم، حيث عثر في العديد من المواقع المؤابية على فخار متعدد الأشكال والأنواع بعضه خشن وبعضه مصقول وبعضه ملون بالألوان، كما عثر في عدد من المواقع المؤابية على عدد من الدمى المصنوعة من الطين المشوي لأشكال آدمية وحيوانية، فالآدمية منها يغلب عليه دمى الإناث التي وجد عدد منها في خربة المدينة وخربة موسى وبالوعة ووادي السمد، ولعل هذه الدمى تمثل آلهة الخصوبة عند المؤابيين، كما عثر في خربة المدينة التي تقع غرب مدينة الكرك على دمية لحصان وأخرى لرأس وعل ورأس كبش، ويفسر بعض العلماء انتشار هذه الدمى لدى الشعوب الكنعانية بأنها كانت تمثل رمزًا للدلالة على الأضاحي التي كانت تقدم للمعبود، إضافة إلى ذلك استخدم المؤابيون الأختام التي تحمل أسماء أو رموزًا لها على شكل أحرف وصور وجدت في مواقع متعددة في الأردن، منها تل المزار ودير علا.

مملكة آدوم:

تقع مملكة آدوم في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية ويمثل حدها الشرقي طريق الحج الشامي وحدها الغربي وادي العريش على وجه التقريب، وتمتد شمالا حتى وادي الحسا بالقرب من البحر الميت: أما جنوبًا فتصل حدود آدوم حتى رأس خليج العقبة الذي يعد المنفذ الوحيد لدول المنطقة على البحر. وتتميز أرض آدوم بخصوبتها ووفرة مياهها، مما ساعد على قيام الحضارة بها إضافة إلى وقوعها على امتداد طريق الملوك الذي يربطها مع الممالك المجاورة ويتصل بالجزيرة العربية وبلاد الشام وبلاد الرافدين ومصر.

ظهرت آدوم بوضوح على مسرح الأحداث في بداية القرن العاشر قبل الميلاد، وورد ذكرها في كتابات الآشوريين وفي المصادر المصرية خلال عهد مرنبتاح (1236-1223ق.م)، كما ورد ذكرها في النقوش الآدومية التي وجدت في المنطقة.

وقد ورد ذكر آدوم في عدد من المصادر. ففي الوثائق المصرية التي تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد إشارات للمناطق الواقعة في أرض الأردن ومنها منطقة الشوتو التي ذكرت على أنها تتكون من منطقة واحدة وذكرت مرة أخرى بأنها تتكون من منطقتين هما: الشوتو السفلى والشوتو العليا، كما ذكرت منطقة الكوشو التي يعتقد الباحثون بأنها هي منطقة آدوم وأطلق على حكامها كلمة زعماء أي شيوخ المنطقة . كما وجدت كتابات مصرية أخرى تعود إلى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد (عصر الأسرة الثامنة عشرة) تتحدث عن حملة تحتمس الثالث على بلاد الشام وجاء فيها ذكر لعدد من المواقع الآدومية، وجاء ذكر آدوم بنفس الصيغة ووصفت بأنها أرض جبلية، وقد أطلقت الوثائق المصرية على بعض سكان المنطقة اسم الشاسو.

وورد أيضا ذكر الآدوميين في كتابات الآشوريين؛ ففي النقش الذي وجد في كلخ ويتحدث عن انتصارات الملك الآشوري أداد نيراري الثالث (810-783ق.م) ذكر للآدوميين وأن الملك أداد نيراري أخضعهم لحكمه وفرض عليهم الجزية

في سنة 732 ق.م مد الملك الآشوري تجلات بلاسر الثالث نفوذه حتى وصل إلى مملكة آدوم وأخضعها أسوة بالممالك الأخرى في المنطقة عمون ومؤاب ويهوذا وأجبر الملك قوس ملك آدوم على دفع الجزية للآشوريين التي تمثلت بالذهب والفضة والقصدير والحديد وهي الخامات التي يتم استخراجها من المنطقة، وذلك مقابل ضمان الاستقرار لها والسلام من قبل الآشوريين، كما اشتهر الآدوميون باستخراج معدن النحاس الذي تكثر مناجمه في أرضهم إضافة إلى المعادن الأخرى، وكانت البهارات واحدة من السلع التي تاجر بها الآدوميون.

كما ورد ذكر أرض آدوم والشعب الآدومي في عدد من أسفار التوراة منها: سفر التكوين وسفر الخروج وسفر العدد وسفر التثنية وسفر القضاة، حيث أورد سفر التكوين قائمة بأسماء ملوك آدوم وأسماء عدد من القبائل الآدومية .. وورد في سفر الخروج قائمة بأسماء الرؤساء الآدوميين ومن يقابلهم من المؤابيين وفي سفري العدد والتثنية ذكر لقصة موسى عندما طلب من الآدوميين السماح له بدخول أرض آدوم عندما كان قادمًا من التيه ومعه بنو إسرائيل. واستمر دفع الآدوميين للجزية في عهد الملك سرجون الثاني وسنحاريب وأسرحدون.

وقد وجد في مواقع متعددة من أرض آدوم عدد من النقوش الآدومية المدونة على الأختام والكسر الفخارية تحمل هذه النقوش أسماء أصحابها ومنها النقش المدون على الختم الذي عثر عليه في أم البيارة التي تطل على البتراء من الجهة الغربية ويقرأ : (قوس جـ[بر] ملك [آدوم]) واسم الملك قوس جبر ورد في نقوش الملك الآشوري أسرحدون وآشور بني بعل، ويعود للنصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد. ومن النقوش الآدومية أيضا تلك التي عثر عليها في تل الخليفة وهي عبارة عن ختم دمغ على 12 يدًا من أيادي الجرار الفخارية ويقرأ (لقوس عنل عبد هملك) أي قوس عنل خادم الملك. ويلاحظ هنا ورود حرف الهاء في بداية كلمة (هملك) وهي تمثل أداة التعريف التي تستخدم في النقوش العربية الشمالية.

كشفت نتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية في جنوب الأردن عن وجود الكثير من المواقع التي تعود للحضارة الآدومية ومن أبرز هذه المواقع ما يلي:

بصيرة:

بصيرة كانت عاصمة الآدوميين وتقع على بعد 30 كلم جنوب وادي الحسا وعلى بعد أربعة كيلو مترات غرب طريق الملوك، وقد ورد ذكرها في التوراة مع دمشق وغزة وصيدا، ويبدو أن الإشارة لها في التوراة كانت لأهميتها في تلك الفترة. وتتميز هذه المدينة عن بقية المدن الآدومية بكونها تتقسم إلى قسمين أحدهما: علوي يضم الحرم المقدس والقصر والآخر سفلي ويضم المباني العامة، وقد عثر بالموقع على عدد من الكسر الفخارية - بعضها مستورد - وصدفة مزخرفة ذات طابع فينيقي.

تل الخليفة:

يقع تل الخليفة في الشمال الغربي من مدينة العقبة الحالية، وقام نلسون جلوك بإجراء حفريات أثرية بالموقع وادعى أن هذا الموقع هو عصيون جابر الآدومي الذي ورد في التوراة، ثم قام الباحث براتكو بإعادة تقييم أعمال جلوك وشكك بالنتائج التي توصل إليها جلوك، وقد عثر في الموقع على فخار مصنوع باليد يختلف عن الفخار الذي وجد في المواقع العمونية المؤابية، وتمثلت القطع التي وجدت في الموقع في أواني الطبخ وجرار التخزين والطاسات العميقة والصحون والفناجين والقوارير والأباريق، وفي هذا الموقع وجدت ثلاث أيادٍ لأوانٍ ختمت بختم الملك قوس عنال ملك آدوم.

أم البيارة:

تقع أم البيارة في الجهة الغربية من البتراء وتحتل قمة جبل منحدرة انحدارًا شديدًا، مما يجعل الوصول إليها في غاية الصعوبة وذلك لزيادة تحصين المدينة من الأعداء، وفيها عثر

على أول ختم ملكي يعثر عليه في الأردن وهو ختم الملك (قوس جبر أو قوس جابر) الذي ورد ذكره في النقوش الآشورية، كما وجدت في الموقع مجموعة من الوزنات التي تم ختمها بعلامات تحدد مقدارها، إضافة إلى عدد من الكسر الفخارية بعضها دون عليها نقوش كتابية.

طويلان :

تقع بالقرب من قرية الجي شرق البتراء وهي معاصرة لتل الخليفة وأم البيارة. ويرجع الباحثون تاريخ الاستيطان فيها إلى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد تقريبًا، ومن أبرز معثوراتها تلك اللوحة المدونة بالخط المسماري، ويعتقد أنها تعود لعهد داريوس الأول (522-486ق. م) وكانت طويلان من المراكز الإدارية الآدومية المهمة في العصر الفارسي.

غريرة:

تقع على قمة مرتفعة إلى الجنوب من البتراء عند رأس وادي دلاغة، وتم العثور فيها على كسرة من الفخار كتب عليها اسم العلم (رام ايل) كما عثر على ختم كتب عليه (نرت / نرل) وقد فسرت (نوره بنت نورل).

الخاتمة :

تبين من هذه الدراسة أن ممالك عمون ومؤاب وآدوم قامت في مناطق متجاورة، وتأثرت وأثرت بعضها ببعض واستفادت من موقعها الإستراتيجي اقتصاديًا وسياسيًا. ويلاحظ أن معظم المعثورات التي وجدت في أرض هذه الممالك الثلاث وتم تأريخها بفترة العصر الحديدي (1200-539 ق.م) تعود لحضارة هذه الممالك التي طالما حاول بعض الباحثين تجاهلها وإسقاطها من التاريخ باستخدامهم مسميات لفترات زمنية تكاد تكون معروفة وإعطائها مسميات عصر برونزي وعصر حديدي بأقسامها المختلفة؛ ولهذا فإنه ينبغي إعادة كتابة تاريخ هذه المنطقة باستخدام المسميات الحقيقية للفترات الزمنية التي تعاقبت على هذه المنطقة حتى وإن وجدت ثغرات بسيطة في التسلسل التاريخي يمكن استكمالها من خلال النشاط الأثري المستقبلي في أراضي المملكة الأردنية الهاشمية.

د. حسين بن علي أبوالحسن

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية

- أبو الحسن، حسين علي 1977م .
قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا(مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض).

- خيري، نبيل. 1970م.
"تمثال عرجان"، حولية مديرية الآثار العامة(العدد الخامس عشر، مديرية الآثار العامة، عمان) .

- ذاالنون، عبدالحكيم 1984م.
تاريخ فلسطين القديم والخلفية الزائفة للصهيونية (دار الكتاب العربي، دمشق).

- أبو طالب، محمود 1978م.
آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة: أضواء جديدة(وزارة الثقافة والشباب، عمان).

- طوقان، فواز أحمد 1970م.
"مسلة ميشع ملك مؤاب"(حولية مديرية الآثار العامة، العدد الخامس عشر، مديرية الآثار العامة، عمان).

- عباس، إحسان 1987م.
تاريخ دولة الأنباط (دار الشروق للنشر والتوزيع،عمان).

- فان زيل، أ. هـ. 1990م.
المؤابيون (ترجمة: خير نمر ياسين، الجامعة الأردنية،عمان).

- هاردنج، لانكستر 1982م.
آثار الأردن(ترجمة سليمان موسى، وزارة السياحة والآثار، ط 3، عمان).

- ياسين، خير نمر 1994م.
الآدوميون – تاريخهم وآثارهم (الجامعة الأردنية ، عمان).

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Ababneh, M. 1989
A Study of Ammonite Personal Names and There Old North Arabic Cognates, Unpublished Thesis Presented to Yarmuk University.

- Garbini, G. 1974
"Ammonite Inscriptions", JSS19 : 1974, pp.159-168.

- Graf, D. 1977
"Idumeans" The Oxford Encyclopedia of Archaeology In The Near East, Volume 1, Oxford University Press, Oxford, pp.141-143.

- Herr, L. G.1997
"Ammon" The Oxford Encyclopedia of Archaeology In The Near East, Volume 1, Oxford University Press, Oxford, pp.103-105.

- Horn, H.1969.
The Amman Citadel Inscription, Bulletin of the American Schools of oriental research, No.193, pp.2-19.

- MacDonald, B. 1994
Ammon, Moab And Edom: Early States/ Nations of Jordan in the Biblical Period (End of the 2nd and During the 1st Millennium B.C., Al Kutba Publisher, Amman,.

- Miller, J.1997
"Moab" The Oxford Encyclopedia of Archaeology In The Near East, Volume 4, Oxford University Press, Oxford, pp.38-39.

- Pardee, D. 1997
"Moabite Stone" The Oxford Encyclopedia of Archaeology In The Near East, Volume 4, Oxford University Press, Oxford, pp.39-41.

- Taylor, J. 2002
Petra and Lost Kingdom of the Nabataeans, I.B. Tauris, London and New York



(الشكل رقم 1) لوحة تمثل جيش الملك الآشوري تيجلات بيلا سر الثالث وهم يهاجمون جيش المملكة العربية شمسي (حوالي سنة 732 قبل الميلاد) (نقلا عن أول العرب).



(الشكل رقم 2) لوحة تمثل الملكة شمسي بعد ان خسرت المعركة التي دارت ضد الآشوريين سنة 732 ق.م (نقلا عن أول العرب).



(الشكل رقم 3) لوحة يبدو فيها الجنود العرب في إحدى المعارك (نقلا عن أول العرب)



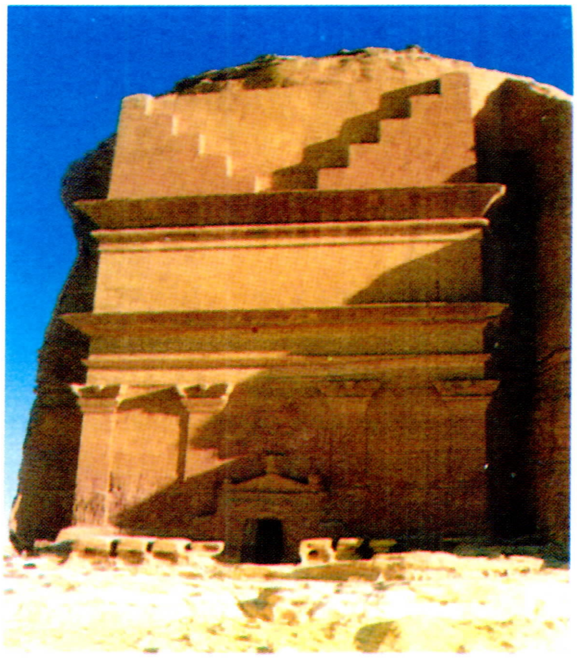
(الشكل رقم 4) معبد أوام في مأرب باليمن.



(الشكل رقم 5) تمثال سيدة يعرف باسم سيدة الضالع، عثر عليه في مقبرة ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد. (نقلا عن اليمن فى بلاد ملكة سبأ)



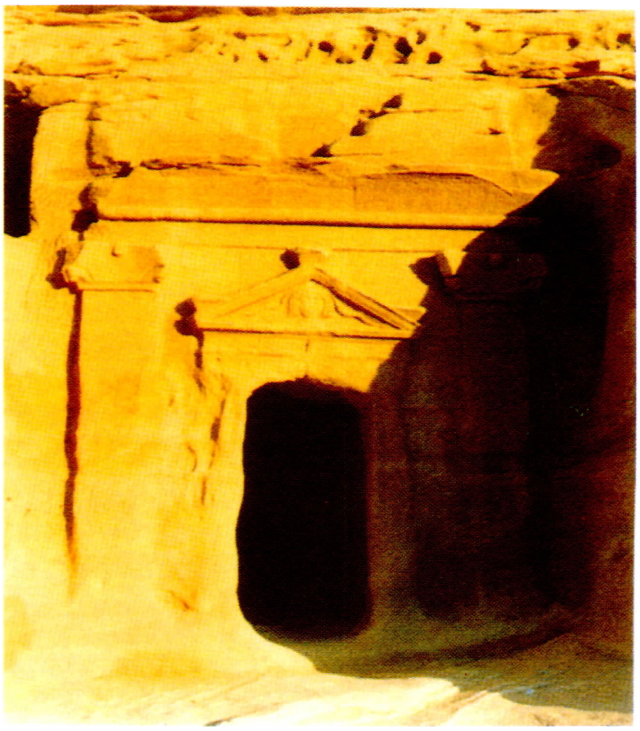
(الشكل رقم 6) مقابر لحيانية في سفح جبل الخريبة (دادان كانت عاصمة لمملكة دادان ولحيان، العلا - المملكة العربية السعودية)



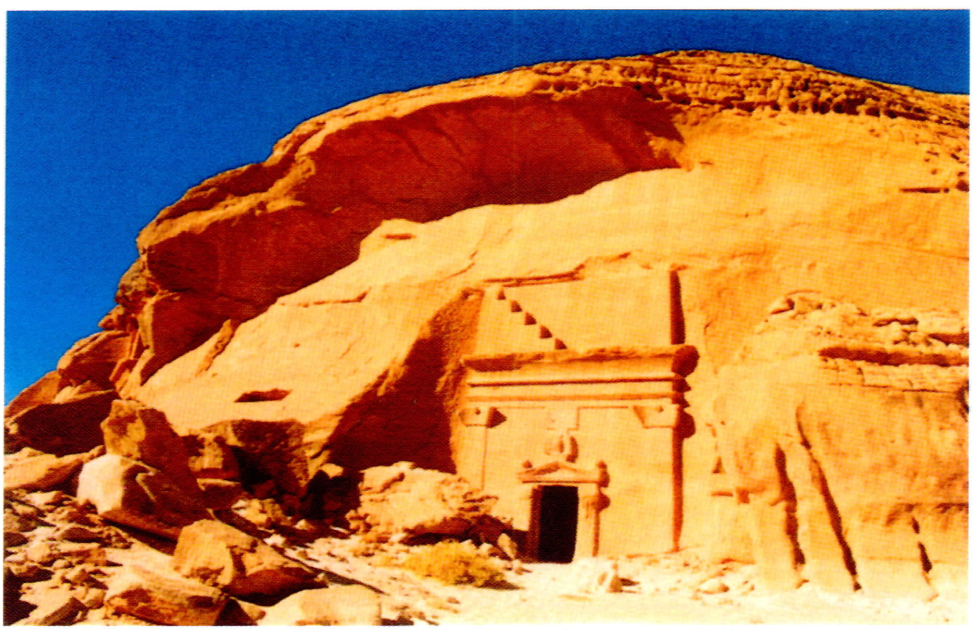
(الشكل رقم 7) مقبرة القصر الفريد في الحجر (مدائن صالح)، وكانت الحجر بمثابة العاصمة الثانية لمملكة الأنباط.



(الشكل رقم 8) واجهة إحدى المقابر النبطية بالحجر.



(الشكل رقم 9) واجهة إحدى المقابر النبطية بالحجر.



(الشكل رقم 10) واجهة إحدى المقابر النبطية بالحجر

الممالك العربية الوسيطة

تقع جزيرة العرب بما في ذلك بلاد الشام وبلاد اليمن ضمن منطقة مجاورة، بل ملامسة لبقاع مهد الحضارات القديمة، وتتوافر فيها الشروط اللازمة لنشوء الحضارة الزراعية .. ولذلك فانه من الممكن أن تكون (جنوب الجزيرة العربية وبعض الواحات الشمالية منها) قد شهدت أيضًا مراحل التحول الحضاري الزراعي الذي عُهد في الحضارات الأولى المجاورة ، وربما في الأزمنة نفسها ، وأنها في حقيقة الأمر ينبغي أن تكون جزءاً من بقاع مهد الحضارات ولم تدخل ضمن بقعة الضوء الأثري ، بل إنها لم تنل حظها من الجهود الأثرية كما نالته بقاع أخرى مثل وادي الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام. ..

وكان في الجزيرة العربية قديماً نمطان من الحياة: حياة التحضر وهي حياة الاستقرار على طرق القوافل التجارية في الواحات –وحياة البداوة وهي حياة تنقُل سعياً وراء الماء والكلأ ضمن صحارى مترامية الأطراف.

وهذان النمطان من المعاش متصلان ومتبادلان ، الحركة بينهما دائبة ومستديمة من قلب الصحراء إلى مواطن الاستقرار والعكس ، كما أن انهيار أي دولة من دول المدن في الواحات وعلى طرق التجارة تقتضي أما أن يبحث أهلها عن مستقر آخر أو يذوبوا في قلب الصحراء من جديد. ولم تكن هاتان الحياتان بعيدتين عن الحضارات المستقرة الدائمة في أطراف شمال الجزيرة وجنوبها، إذ ارتبطت هذه الحركة الدائمة إما عن طريق التنقل وإما عن طريق النقل بالحضارة الزاخمة في اليمن وبالحضارات الأخرى في الشام وبلاد الرافدين . كالحضارة الآشورية والآرامية . كما أن هذه العلاقة تجاوزت الجزيرة إلى اتصال بالحضارات اليونانية والرومانية والفارسية التي اتخذت بين الحين والآخر من بلاد الشام وبلاد الرافدين ملتقى حضارات وبقاعاً تتناوب فيها الحرب والسلم . وقد تأثر هذان النمطان من الحياة تأثراً بالغاً بتلك العلاقات السياسية والحضارية كما أنها أثرت فيها إلى حد بعيد، حيث استقبلت بعضاً من ألوان تلك الحضارات وهضمتها، كما أسهمت في إثرائها. و معلوم على سبيل المثال كيف كتب اللحيانيون بخط مشتق من خط الجنوب السبئي ، و تأثروا بلهجة جنوب الجزيرة وكيف كتب الأنباط بالخط الآرامي وتأثروا باللغة الآرامية . ورأينا كيف أن القبائل عندما استقرت في دادان ساهمت مساهمة كبيرة في إنعاش طرق التجارة وازدهارها، وكذلك عندما استقرت القبائل النبطية في البتراء ساهمت في صياغة حضارة بلاد الشام، وسيطرت عليها كلها خلفاً للسلوقيين، كما كتبت باليونانية أحياناً، وأقامت حركة من البنيان والعمران متأثرة بالحضارات الآشورية والمصرية واليونانية في نسيج نبطي محلي فائق.

وإن ما يعرفه العلماء اليوم من خلال المكتشفات الأثرية على سبيل المثال مثل تقنية سد مارب ونظام الري التابع له ، ينبئ عن دراية عميقة بشؤون الزراعة وأنظمة الري ، وأن السد كما عهد في شكله المتطور الذي يعود تاريخه حسب المعلومات المتوافرة إلى الألف الأول قبل الميلاد – ليس سوى محصلة لتجربة حضارية طويلة ورائدة.

وتومئ الدلائل إلى أن حضارة وادي سبأ في اليمن أدت دوراً كبيراً في نشوء حضارة الوديان الجافة في المنطقة وفي فكرة إقامة السدود وتطوير أنظمة الري في تلك الوديان. ولقد اقترن ذكر سد مارب عبر التاريخ بسبأ ، والواقع أنه ليس في تاريخ اليمن القديم ولا في تاريخ جزيرة العرب ما يضاهي تاريخ سبأ وحضارتها في الألف الأول قبل الميلاد.

سـبأ:

اسم يجمع عند النسابة المسلمين قبائل اليمن بني سبأ

بن يشجب يعرب بن قحطان ، وهو عندهم سبأ الأكبر ، وأيضاً يسمى عبد شمس . قالوا: وكان له عدد من الولد غير أن العقب والذكر والمُلك كان لولدين هما حمير وكهلان . وتكاد تنحصر أنساب أهل اليمن فيما انحدر منهما . ويقال لهما شعبا سبأ، فمن بني حمير قضاعة وخولان ومهرة والمعافر والأصابح والأملوك والكلاع وغيرها . ومن بني كهلان الأزد ومذحج وهمدان وكندة وطيء والأشعر وعكّ وغيرها.

وسبأ اسم أرض محلها على ضفاف وادي أذنة (ذنة) . وتمتد في عمق غائط صَيْهد الفسيح ، ثم اتسع مدلول الاسم فشمل ما يصالي (يقابل) ذلك شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وقد يطلق الاسم بعد ذلك على بلاد اليمن كله.

وسبأ اسم دولة وباسمها ارتبطت عدد من الرموز التاريخية التي اشتهرت بها قديماً مثل ملكة سبأ، وسد مارب وجنتيه: آية سبأ ومارب مدينة سبأ، والبلدة الطيبة هي أرض سبأ، والمثل العربي الشهير :" تفرقوا أيدي سبأ"، رمز الضعف والشتات ، والمقصود شتات أهل اليمن بعد أفول حضارتهم.

والاسم سبأ ليس من الفعل (سبى) بمعنى أسر ، ومنه المصدر السبي بمعنى الأسر ، والسبايا بمعنى الأسرى من النساء والأطفال ونحوه ، وإنما اشتق من الاسم من الفعل سبأ مهموز الآخر ، ومعناه في لغة النقوش اليمنية القديمة غزا ، أو قام بغزوة وفي معناه العام : أدى (عملاً) أو أنجز (مهمة) . وسبأت (سبأة) تعني غزوة أو حملة وفي النقوش: سبأ /لسم/ رحمنن أي غزا في سبيل الرحمن . ومسبأ تعني غزوة قوة غازية أو طريق . قال: " المسبأ مهموز، الطريق إلى الجبل . ووجد في سيف ذي رعين من ملوك حمير : أنا ابن ذي رعين بن سبأ ذي المسبأين أي ذي الطريقين في الغزو " وذكر سبأ في سورة النمل : ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل: من الآية22) . وفي سورة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ...﴾(15:)

ويذكر اغاثاركيديس في كتاب حول البحر الأرتيري الذي (يعتقد أنه) كتب بين 145 و132 ق.م . " أن شعب سبأ يفوق في الثروة والبذخ كل قبائل العرب المجاورة بل ماعداهم من بني الإنسان ، ذلك لأنهم في البيع والمقايضة لبضائعهم يحصلون على أغلى الأثمان فبضائعهم مما خف حمله وغلا ثمنه ... وبلادهم لم تغز من قديم الزمان لكونها قاصية ، ولديهم الذهب والفضة بكثرة... "والسبئيون هم الأكثر كثافة في السكان بين الأقوام العربية ، ويسكنون الإقليم المسمى بالعربية السعيدة Arabia Eudemon وهو إقليم ينتج معظم ما نراه ثميناً من البضائع . وسكان هذا الإقليم يرعون الماشية بكل أنواعها وبأعداد لا تعد ولا تحصى. وتصنع في هذا الإقليم الطيوب؛ لأن معظم النبات فيها فائقة الروائح الزكية وتنمو فيها بازدياد . في المنطقة الساحلية تنمو أشجار البلسم والكاسيا وغيرها... وفي الداخل تنمو غابات من أشجار اللبان والمر وغيرها من أشجار النخيل والقرفة.

فتاريخ سبأ في حقيقة الأمر ، هو عمود التاريخ اليمني. ودولة سبأ في الألف الأول قبل الميلاد هي أكبر تكوين سياسي ظهر فيه . وما تلك الدول التي تذكر معها سوى تكوينات سياسية هي أقل شأناً منها، وكانت تدور في الغالب في فلكها، ترتبط بها حيناً وتنفصل عنها حيناً آخر ، مثل دولة معين وأوسان وقتبان وحضرموت . أما آخر تلك الدول ظهوراً وهي حمير فقد اندمجت فيها بعد صراع طويل معها، وجاءت امتداداً لها وظل ملوكها يحملون لقب سبأ، إضافة إلى لقبهم (ذي ريدان) طيلة فترة حكمهم .

وكانت مارب عاصمة دولة سبأ. وتدل الخرائب والآثار التي تكتنف قرية مارب الحالية، على ضخامة تلك المدينة، ويرجح أن التل الذي تقع عليه القرية هو مكان قصر سلحين ، والذي ذكره الحسن بن أحمد الهمداني قبل

ألف عام ، والذي ورد ذكره بالاسم نفسه في النقوش اليمنية القديمة . و ورد الاسم نفسه في المصادر الكلاسيكية بأن عاصمة السبئيين هي مارب وهي مقامة على تل وملوكهم يحكمون بالوراثة.

كما تذكر المصادر الكلاسيكية بعض ملوك اليمن مثل كرب ايل وهو ملك سبأ وذي ريدان .. وربما كان المقصود هو كرب ال وتار يهنعم بن ذمار علي بين .... وملك حضرموت ايل عزيلوط ابن يدع ايل كما تذكر أيضاً ايل شرح من ملوك سبأ Ilisaros الذي كان متوجاً في مأرب وكذلك كليب يهأمن حاكم المعافر.

وكان موقع مأرب في وادي سبأ على مشارف الصحراء يتحكم بطريق التجارة المهم المعروف بطريق اللبان. وكان من أحب أنواع الطيوب وأغلاها في بلدان الشرق القديم وحوض البحر المتوسط . وكان أجود أنواعه تأتي من جنوب جزيرة العرب، حيث ينمو في بلاد المهرة وظفار (في جبال القرا- وجبال القمر) وذلك بسبب توفر الشروط الطبيعية اللازمة بها، مثل التربة والمناخ الملائمين. وقد أدى ذلك الطلب المتزايد للبان إلى تطوير تجارة واسعة نشطة، تركزت حول هذه السلعة، وامتدت إلى سلع أخرى نادرة عبر طريق التجارة المذكورة وأسواقه الواسعة.

وكان يمتد هذا الطريق بصفة رئيسة من ميناء (قنأ) في مصب وادي ميفعة (بئر علي) على البحر العربي، إلى غزة في فلسطين على البحر المتوسط، مروراً بمدينتي شبوة ومأرب ثم يمر بوادي الجوف، ومنه إلى نجران، حيث يتفرع إلى فرعين، طريق يمر عبر قرية (الفاو) في وادي الدواسر ومنه إلى اليمامة وهجر في منطقة الخليج ثم إلى جنوب وادي الرافدين، وطريق رئيس يمتد من نجران نحو الشمال، ماراً بيثرب ثم ديدان في شمال الحجاز ومنها إلى البتراء . ويتجه الطريق الرئيس من البتراء نحو ميناء غزة بينما يتجه فرع آخر إلى دمشق وإلى مدن الساحل الفينيقي.

على أنه يتعذر ازدهار طريق طويل كهذا ، دون وسيلة نقل مجدية ،ويعتقد أن استئناس الجمل بحيث يصبح قادراً على حمل الأثقال ولمسافات طويلة كانت نقلة مهمة في ازدهار طريق التجارة عبر الجزيرة . ويرجح أن استئناس الجمل بطريقة فعالة، قد تم في العصر البرونزي أي في القرون الأخيرة من الألف الثاني قبل الميلاد، وذلك أمر يتوافق مع ما ورد في التوراة من إشارات إلى زيارة ملكة سبأ للنبي سليمان عليه السلام، في القرن العاشر قبل الميلاد. وقد تقتضي متطلبات رحلة كهذه وجود علاقات تجارية كانت قائمة آنذاك بين بلاد الشام وبلاد اليمن، إذ تذكر الأخبار المرتبطة بتلك الزيارة أن ملكة سبأ أحضرت معها كميات كبيرة من الطيوب ومنها اللبان مادة البخور المشهورة.

وتعد أخبار هذه الزيارة كما وردت في التوراة أقدم الأخبار التي وصلتنا عن سبأ وحضارتها. وقصة هذه الزيارة مشهورة، وشهرتها طبقت الآفاق، وملأت أسماع الدنيا، وشغلت الناس عشرات القرون. وذكرتها الكتب السماوية، وتواتر ذكرها في الأخبار، وبقيت عالقة في الموروث الثقافي لعدد من الأمم بصيغ مختلفة، وروايات متعددة، وخاصة في موروث أهل اليمن. كما كرمت ملكة سبأ وقصة زيارتها للنبي سليمان بالذكر في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل: من الآية23/22)، وإذا كانت التجارة وموردها المالي الوفير قد أسهمت بقسط وافر في تحسين أحوال الناس وازدهار الحياة العامة في مراكز الحضارة اليمنية القديمة – مثال ذلك قلب تلك الحضارة ، أرض سبأ، وعاصمتها مأرب- فان سد مأرب كان الشاهد التاريخي على أن اليمن شهدت أيضا أنشطة زراعية فائقة لا تقل أهميتها عن النشاط التجاري.

وكان سد مأرب آية ما وصل إليه السبئيون من رقي حضاري وكفاية اقتصادية ، ومهارة فنية في مجال السيطرة

على المياه ، ودراية وخبرة في مواجهة الظروف الطبيعية القاسية، وحسن نظر وتدبير في استغلال تربة الأرض الطيبة. كان سد مأرب في حقيقة الأمر رمز تلك الحضارة اليمنية القديمة ، فقد نشأ معها ، وصاحب أوج نفوذها ، وواكب فترات ضعفها وقوتها ، وشهد لحظات انهيارها، بل إنه ما لبث على أثرها...

وتشير بعض الدراسات الأثرية الجادة التي أجريت ميدانياً على آثار السد أن أسسه ينبغي أن تعود تاريخيًّا إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد على الأقل . وهو أمر يتوافق أيضاً مع ما سلف ذكره من أخبار وشواهد تنبئ عن حضارة يمنية راقية منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد..

تذكر النقوش اليمنية القديمة عدداً كبيراً من أسماء المكربين والملوك الذين تولوا الحكم في دولة سبأ. وقد حاول احد العلماء ترتيبهم زمنياً خلال الألف الأول قبل الميلاد فبلغوا ما يقارب الخمسين ابتداء من القرن الثامن إلى القرن الأول ق . م . ومن هؤلاء الحكام يثع أمر بين بن اسمه علي المشار إليه سلفاً والذي تذكره الحوليات الآشورية حوالي عام (715 ق.م) مقترناً بالملك الآشوري سرجون الثاني، وتذكره النقوش اليمنية مقترناً ببعض المنشآت المعمارية ، ومنها أنه سور مدينة مأرب.

ومنهم أيضاً كرب إل وتار بن ذمار علي الذي بعث بهدية إلى الملك الأشوري (سنحريب) ، حسب ما يذكر نقش بناء معبد بيت أكيتو في أشور حوالي (685 ق .م) ، ويرجح أنه نفسه صاحب نقش صرواح الكبير والذي يذكر أن هذا الملك قد قام بعدة حملات عسكرية داخلية خلال فترة حكمه، يهدف منها تثبيت السلطة المركزية لدولته وتأديب من خرج عنه . وشملت حملاته مناطق امتدت ما بين نجران والمعافر وبعض مدن وادي الجوف مثل نشان ونشق . ويذكر النقش أنه كافأ الجهات التي حافظت على الولاء له مثل حضرموت وقتبان ، وأنه قام بإصلاحات واسعة من منطقة مأرب ومنها ما كان في قصر سلحين وسور عدداً من المدن اليمنية ، وأصلح عدداً من سبل الري والأراضي التابعة لها.

ويستفاد من النقش عموماً أن ذلك الحاكم تمكن من إقامة دولة مركزية قوية انضوى تحت لوائها كل اليمن تقريباً. كما جمع قبائل سبأ وجدد ميثاقها وقارب بين آلهتها... ويستهل النقش بما مؤداه : هذا ما ملكه كرب ايل وتر بن ذمار علي مكرب سبأ – لألمقه – وسبأ في عهد ملكه . وذلك يوم أن أخذ العهد على الناس ليكون لكل قوم منهم إله ووراع وميثاق والتزام) ((أي معبود خاص بهم يعبدونه ووراع إلهي يحميهم وحبل يعتصمون به وحق يؤدونه)) وضحى (للمعبود) عثتر بثلاث ذبائح ، وبواحدة (للمعبود) هوبس، وأولم لعثتر، وأوقد نار ترح وكسا عثتر وهوبس. وكذلك يوم جمع معاشرة سبأ ليأتم الناس بهم وليقيموا أمرهم قومة رجل واحد بصدق وإخلاص وليذود كل منهم عن ماله . وكذلك يوم صدق عثتر وألمقه وعدهما وجادا بالغيث على أودية ريمان (من أودية مأرب) حتى امتلأت السواقي الواحدة تلو الأخرى...)

ويعتبر المكرب يدع ال ذريح بن اسمه علي أشهر حكام سبأ في أمور البناء فقد عثر على نقوش عديدة من عهده تذكر منشآته المعمارية، وخاصة المعابد . وقد ارتبطت باسمه معابد شهيرة باليمن القديم مثل معبد اوام البيضاوي الكبير(محرم بلقيس) ومعبد صرواح ، ومعبد في المساجد بالجوبة (جنوب مأرب)، وغيرها من الأبنية التي تنبئ آثارها عن مستوى راق من الإتقان المعماري والإبداع الهندسي .

مكربو سبأ وملوكها قبل الميلاد وفق أحدث الدراسات (1982)

كرب ايل	775 ق.م
يدع ايل ينوف بن كرب ايل	755 ق.م
اسمه علي ذريح بن يدع ايل (أمير)	735 ق.م
يثع أمر بين بن اسمه علي	715 ق.م

ذمار علي	695	كرب ايل وتر
كرب ايل وتر بن ذمار علي	685	يدع ايل بين الثاني
اسمه علي	675	يكرب ملك وتر الثاني
يدع ايل ذريح بن اسمه علي	665	يثع أمر بين الثاني
اسمه علي ينوف بن يدع ايل ذريح	645	اسمه علي ذريح
ذمار علي ذريح بن يدع ايل	625	كرب ايل بين
كرب ايل		يدع ايل
يكرب ملك		اسمه علي ينوف
اسمه علي		يدع ايل وتر
ذمار علي		ذمار علي بين
يثع أمر	605	
يدع ايل بين بن يثع أمر وتر	590	
كرب ايل بن يثع أمر	580	
ذمار علي وتر بن كرب ايل	560	
اسمه علي ينوف بن ذمار علي	545	
يثع أمر بين بن اسمه علي ينوف	525	
كرب ايل	495	
يدع ايل	475	
يدع ايل ويثع امر	470	
يدع ايل ويثع امرو كرب ايل	450	
اسمه علي بن كرب ايل	430	
يدع ايل ذريح ملك سبأ	425	
يثع امر وتر بن يدع ايل ذريح ملك سبأ	420	
يدع ايل بين بن يثع أمر وتر مكرب سبأ	415	
اسمه علي ينوف	410	
يثع أمر وتر بن اسمه علي ينوف	390	
يكرب ملك ذريح	380	
اسمه علي ينوف بن يثع أمر	370	
يدع ايل بين الأول	360	
يكرب ملك وتر الأول	355	
يثع امر بين بن يكرب ملك	345	

ظلت سبأ الدولة الكبيرة الأم حتى القرن الخامس قبل الميلاد حتى خرجت عن سيطرتها مناطق عدة استطاعت أن تكون دولاً مستقلة ما لبثت أن دخلت في منافسة مع سبأ وشاركتها نفوذها السياسي والتجاري وهذه الدول هي معين وقتبان وحضرموت.

معين :

دولة قديمة في وادي الجوف ببلاد اليمن ، وكانت عاصمتها مدينة معين التي كانت تسمى (قرناو) أيضاً وتستقى المعلومات التاريخية عن دولة معين من النقوش الوفيرة التي عثر عليها في وادي الجوف في العصر الحديث ابتداء من عام 1287هـ / 1870م ، وكذلك من خرائب وآثار مدن وحصون ومعابد مازالت قائمة هنالك إلى اليوم. ولدولة معين والمعينيين ذكر في المصادر الكلاسيكية ، فقد ذكر (بليني 79 ق.م) في كتابه: "التاريخ الطبيعي"، أن المعينيين كانوا أول من اتجر على طريق اللبان . وجاء في كتاب (الطواف حول البحر الاريتري) أن المعينيين والجرهائيين كانوا يحملون اللبان والطيب إلى البتراء (عاصمة الأنباط).

أما أخبارهم في المؤلفات العربية الإسلامية فقليلة ، وأهمها ماذكره الحسن بن أحمد الهمداني في كتاب (صفة جزيرة العرب) حيث قال: " وإذا ذكر معين في هذا الموضع

فإننا نذكر ما بالجوف من الآثار والعمور : عمران وهو لنشق ، وبيت نمران والخربة البيضاء ، والحشاشية لبني دالان والخربة السوداء بالشاكرية ، ثم معين وبراقش ، ثم كمنا وروثان لنشق..."

واعتمادًا على قلة عناية المصادر العربية بدولة معين مقارنة بما حظيت به دولتا سبأ وحمير افترض العالم النمساوي جلازر في مطلع القرن العشرين أن ذلك كان بسبب تقادم العهد على دولة معين ، ولذلك فهي عنده أقدم الدول اليمنية القديمة ، وأيد رأيه بما ورد في نقش (كرب إل وتر) السبئي الذي عثر عليه في صرواح (3945 RES) والذي ذكر أن ملك سبأ المذكور هاجم مدنا في الجوف وقهرها ، أو كانت موالية له، ورسخ هذا الرأي الرحالة الانجليزي (فيلبي) الذي نشر قوائم ملوك معين، وافترض القرن الثاني عشر قبل الميلاد بداية لتسلسل ملوكها.

ولكن الرأي السائد اليوم بين علماء الدراسات العربية القديمة ، واستناداً إلى البحوث والكشوفات الجديدة أن رأي (جلازر) قد عفا عليه الزمن، وأن الاعتقاد الشائع القائل بقدم دولة معين ينبغي أن يزاح فقد تبين أن مدن الجوف التي أخضعها كرب ال وتر السبئي في القرن السابع قبل الميلاد لم تكن مدنا تابعة للدولة المعينية ، إذ إن دولة معين التي قامت في الجوف بقيادة مدينة معين (قرناو) ، ومدينة براقش (يثل) كانت في فترة لاحقة كما أن أقدم النقوش التي تذكر معين هي نقوش سبئية عثر عليها في الجوف وليست معينية، وان المعلومات عن دولة معين لا تتعدى القرن الخامس قبل الميلاد وأن أكثرها يعود إلى القرن الرابع والثالث والثاني قبل الميلاد ، أما ما يعرف عن دولة سبأ من معلوماتنا فتتجاوز تلك الفترة بزمن طويل .

وقد دلت النقوش التي عثر عليها خلال التنقيب (1988-1989) في معبد (بنات عاد) خارج مدينة السوداء الأثرية (نشان) ، على أن من بناة المعبد من كان اسمه يفع يسرن بن لبؤان ملك نشان الذي يرجح أنه الملك نفسه الذي ذكره نقش صرواح. وليس في نقوش المعبد أي ذكر لدولة معين التي يفترض أنها كانت تحكم الجوف كله ويمتد نفوذها التجاري على طريق اللبان باتجاه الشمال إلى (قرية) في وادي الدواسر ودادان (العلا اليوم) في وادي القرى.

كانت منطقة الجوف جزءاً من مناطق النفوذ السبئي ، ونشأت في وديانها عدد من المدن المسورة مثل : عرارة (الاساحل حاليًا) ، وكتل (خربة سعود) على وادي رغوان، ونشان (السوداء). نشق (البيضاء)، وكمنا وهرم ومعين (قرناو) على وادي مذاب ... الخارد ، ويثل (براقش) على وادي مجزر ، وكهل (جدفر بن منيخر) على وادي الجفرة وغيرها . وتذكر النقوش السبئية ان عدداً منها بناها أو سورها ملوك سبأ ، ومنذ حوالي نهاية القرن الخامس قبل الميلاد بدأت منطقة الجوف تستقل تدريجياً عن دولة سبأ.

وكان أول ذكر في النقوش لمدينة معين قد جاء في نقش (CIH 368) يدون وقائع الملك السبئي (يثع أمر بين بن اسمه علي ينوف) الذي عاش في حوالي أواخر القرن السادس قبل الميلاد .

وبعد ذلك بما يزيد على قرن تولت مدينة يثلّ (براقش) قيادة مناطق الجوف في خروجها عن دولة سبأ واتخذت من مدينة معين (قرناو) عاصمة لدولة قوية في الجوف اشتهرت باسم عاصمتها ، وتمكنت من السيطرة على طريق اللبان التجاري بمساندة حضرموت وقتبان وأقامت عليه المحطات والمستوطنات. وقد سجل نقش معيني (M247) التنافس بين دولة معين ودولة سبأ على طريق اللبان بين معين ونجران . ويستفاد من النقش نفسه أن أصحابه كانوا تجاراً معينيين قد شهدوا الحرب بين المصريين والميديين (الفرس) وفي رأي آخر (السلوقيين) . ونجت قوافلهم من ويلات الحرب ، ولذلك فقد دونوا النقش

حمداً لآلهتهم في معابد يثل (براقش) حاضرتهم الدينية . ويرجح أن الحرب المذكورة في النقش هي تلك التي حدثت أيام (ارتكسركس الثاني) حينما غزا مصر في عام 343 ق.م. ويحدثنا نقش معيني آخر عثر عليه بمصر على قبر تاجر معيني أنه كان يتاجر بالمر والقرفة في عهد (بطليموس الثاني) حوالي (243-283) ق.م . كما تذكر نقوش معينية أخرى عدداً من المدن المعروفة التي كانوا يتاجرون معها مثل صيدا وعمون ومؤاب في بلاد الشام، وأماكن أخرى بلغوها في بلاد اليونان.

وتقع مدينة يثل القديمة والتي تعرف اليوم باسم براقش، في وادي الفرضة على حدود وادي الجوف وعلى مسافة 15كم جنوب مدينة الحزم مركز محافظة الجوف اليوم . ولقد تمكنت بعثة أثرية إيطالية من التنقيب في هذا الموقع منذ عام 1986م وتبين أن بدايات هذه المدينة تعود إلى حقبة أكثر قدماً مما هو معروف . فقد أتاحت بعض العيّنات من التربة التي أخذت من أعماق التل الأثري للمدينة بإلقاء الضوء على كسرات من الفخار شبيهه بتلك التي وجدت في الموقع السبئي القديم (يلا) جنوب مدينة مأرب فهي تشير إلى أن الطور المعيني قد استبقه طور سبئي يمكن أن يعود إلى بداية الألف الأول قبل الميلاد.

وبلغت دولة معين أوج ازدهارها في القرن الثالث قبل الميلاد. غير أنها لم تهتم كثيراً بمد نفوذها العسكري داخل بلاد اليمن كغيرها من الدول اليمنية المعاصرة، وإنما أعطت جل اهتمامها للنفوذ التجاري على طريق اللبان الممتد من قنأ على الساحل الجنوبي لليمن إلى غزة على ساحل البحر المتوسط.

ويمكن القول: إنَّ تاريخ معين الحقيقي لا يزال مطموراً في (جوف) الجوف ، بين تلك الخرائب العديدة التي لم تكتشف أسرارها بعد، إذ مازالت قائمة ملوك الدولة ناقصة وما توافر منها لا يسعف على رسم صورة مكتملة للتاريخ السياسي لتلك الدولة . ومعظم هذه النقوش (467 نقشاً) قد جمعت في مدونة خاصة صدرت عام 1974م عن معهد الدراسات الشرقية بمدينة (نابولي) الإيطالية.

ومجمل القول : إن معين دولة انفصلت عن سبأ وأقامت في منطقة الجوف دولة تجارية مزدهرة دامت أكثر من ثلاثة قرون. وعندما أخفقت على المدى البعيد في سياستها التي انتهجت عدم التحرش بسبأ وعدم التوسع عسكرياً وتركيز همها على التجارة – قامت سبأ بالتحرش بها بعد ما آنست منها ضعفاً ، ثم ما لبثت أن احتوتها. حدث ذلك في الوقت نفسه الذي بدأت فيه أنظار الشرق القديم تتجه نحو طريق التجارة البحري الجديد منذ القرن الأول قبل الميلاد . وفي عام 24 ق.م وصلت الحملة الرومانية بقيادة (اليوس جالوس) إلى اليمن ، وكان من ضمن المدن التي اجتاحها وهي في طريقها إلى مأرب- بعض مدن الجوف الذائعة الصيت مثل : نشق وبراقش، بالرغم من ارتفاع سوريهما وضخامة إمكاناتهما الدفاعية.

قتبـــان :

يختلف الكلاسيكيون في قراءة الاسم (قتبان)، فهو عند (ثيوفراست) (كتبان) بكسر أول الاسم وثانيه وعند اراتوسيثينيس هو (كاتبنا) بفتح الكاف وتشديد التاء. وأهل قتبان عند (بطليموس) يسمون الكتابيين بضم الكاف وتشديد التاء . أما عند (بليني) فهم جبانيين. وإذا كانت تسمية (بليني) غير واردة لشدة تصحيفها، فإن من غير المستبعد أن تكون التسمية بكسر القاف. ومثل ذلك قد جاء في أنساب أهل اليمن. وقد ورد الاسم قتبان في كتب اللغة والأنساب. ففي الجزء الثاني من الإكليل يذكر (قتبان بن ردمان). وقال محقق الكتاب القاضي محمد علي الأكوع : ليست منسوبة إلى قِتاب من يحصب بل إلى هذه (أي قتبان بن ردمان) ، وفي تاج العروس للمرتضى الزبيدي وفي مادة (قتب)، قتبان بالكسر بطن من رعين .. وهي بالكسر أيضاً في كتاب الأنساب للسمعاني.

وقد اصطلح الناس في أيامنا هذه ومنذ أن اكتشفت آثار قتبان على نطق الاسم قتبان بفتح الأول والثاني ..وليس لهذا الاصطلاح من مسوغ سوى اضطراب الاسم في المصادر الكلاسيكية التي نقل عنها المستشرقون المحدثون الذين عنوا بذكر قتبان في النقوش اليمنية القديمة.

ونرجح أن قِتْبان بكسر القاف وسكون التاء والمعول في ذلك على كتب اللغة والأنساب كما سلف الذكر بالرغم من شحة مادتها وقليل اعتنائها بهذا الشأن. ولا ريب أن الاسم قتبان قد جاء ذكره كثيراً في النقوش اليمنية ولكن النقوش لا تسعف على ضبطها ضبطًا دقيقاً فهي كما قلنا تهمل في رسم الكلمات أصوات اللين والحركات.

ومع ذلك فإن الاسم قتبان هو كل ما تبقى من ذكر تلك الدولة اليمنية القديمة عند الإخباريين .. كما أن الاسم لا يستعمل اليوم بالرغم مما عرف عن بلاد اليمن إجمالاً من تواتر أسماء أماكنها وقبائلها .. ويبدو أن المؤرخين العرب قد نسوا فيما نسوه ذكر دولة قتبان وعاصمتها تمنع في تواريخهم ، خاصة وأنهم كانوا لا يعنون في الغالب إلا بذكر من عاش قبل الإسلام بمائتين أو ثلاثمائة سنة ويهملون ما تقدم عهده عن ذلك إلا قليلاً.

ولم تكن الشذرات اليسيرة من الأخبار في مؤلفات الأقدمين لتسعف على تحديد أرض قتبان تحديداً دقيقاً.. فقد خلط (اراتوسيثينيس) بين قتبان وحضرموت عندما ذكر مناطق إنتاج اللبان والمر.. وفي العصر الحديث جعل (شبرنجر) من ظفار أرض اللبان موطنًا للقتبانيين وذلك في كتابه (جغرافية الجزيرة العربية القديمة)، وفي نهاية القرن التاسع عشر ذكر البحاثة والجغرافي (لندبرج) بأن عاصمة قتبان أي تمنع تقع حوالي 40 كم إلى الجنوب الغربي من موقعها الصحيح كما هو معروف اليوم ، ذلك لأن نقشاً يذكر اسم تمنع ورد في ذلك المكان.

وفي حقيقة الأمر كان العالم النمساوي (جلازر) هو أول من حدد لنا موقع تمنع عاصمة قتبان وأنه يقع في وادي بيحان .. ذكر ذلك في كتاب (الأحباش في جزيرة العرب وإفريقيا). أما أول من زار الموقع الأثري للمدينة فهو الرحالة الإنجليزي (بري) وذلك عام 1900م ويعرف الموقع اليوم بهجر كحلان ويقع على الضفة اليسرى لوادي بيحان وحيث يقترب الوادي من نفاذه إلى السهل الصحراوي.

وكان (بري) قد نسخ ثمانية نقوش عثر عليها على أسوار المدينة الأثرية . وسلمها آنذاك للبعثة النمساوية في اليمن . كما أن (جلازر) قد حصل أيضاً على نسخ لبعض تلك النقوش أتي بها إليه بعض أهل المنطقة على شكل مضغوطات وذلك خلال رحلته الرابعة إلى اليمن مابين عامي 1892 و1894م..

وقد كتب (بري) الذي كان يسمي نفسه وهو في اليمن عبدالله منصور كتاباً بعنوان (أرض العز) صدر في لندن عام 1911م، وفي هذا الكتاب وصف رحلته وادعى فيه أن أيوب في العهد القديم يرجع أصله إلى أرض (العز) وأنه كان معينياً واستولى السبئيون على أمواله وحسب ما ورد في سفر أيوب (15/1).

على أنه منذ أن نشر (رودو كاناكيس) عام 1924م النقوش التي عثر عليها في أسوار هجر كحلان لم يعد هناك أدنى شك بأن موقع هجر كحلان اليوم هو الموقع الأثري لمدينة تمنع عاصمة الدولة القتبانية القديمة .. وتعتبر تمنع أكبر المدن اليمنية القديمة بعد مأرب العاصمة السبئية من حيث مساحتها واتساعها. ويذكر (بليني) أنه كان بها 65 معبداً . وعن معبد رائع من تلك المعابد نقبت البعثة الأمريكية بقيادة (ويندل فيليبس) في 1950 و1951م. ولم تكن المعابد وحدها هي كل ما عثر عليه في تمنع وإنما عثر أيضاً خلال التنقيب وفي (بيت يفيش) على أسدين برونزيين وعليهما يركب ولدان ويغلب على القطعتين الطابع الهلنيستي . وقد نقبت البعثة الإيطالية في السنوات الأخيرة في المدينة ومحل سوقها (شمر) وأبانت عن عمائر ولقى

أثرية مهمة، ويمكن التنويه هنا بما عثر عليه في (نكروبول تمنع) (واسمها اليوم حيد بن عقيل) وتبعد حوالي كيلومترين ونصف شمال شرق العاصمة ، حيث وجدت مئات اللقى الأثرية كرؤوس من البلق وتماثيل ومنحوتات آدمية بارزة وماعداها من المصنوعات الفنية كالأنصاب والشواهد المنقوشة ورؤوس ثيران وأفاريز من وعول وغيرها.

ويرجح أن مقر تجمع قبيلة قتبان في الأصل هو أعلى وادي بيحان بين هجر كحلان وبيحان القصب حيث تقع اليوم هجر بن حميد. وقد كان ذلك المكان عامراً بالسكان منذ القدم. ويعتقد أن اسمه القديم هو (حريب). وحريب اسم معروف ومتواتر ولكنه يطلق اليوم على مكان آخر ويمتاز هذا الموقع بكونه إستراتيجياً مهمًّا على (طريق القوافل) حيث يفضي إلى نقيل مبلقة الصعب المرتقى. وقد نقب في هجر بن حميد وتم إزاحة التراب عن عشرين طبقة مختلفة، تقع سفلاها وأقدمها على عمق 15 متراً ويقدر تاريخها بأحد عشر قرناً قبل الميلاد واستناداً إلى ذلك فإن وادي بيحان أي أرض قتبان من أقدم مناطق السكنى في اليمن، وتدل الشواهد في المواقع على كثرة ما عمر وتوالى على سكناه منذ قديم الزمن.

إن أهم مصدر نستقي منه تاريخ قتبان هي تلك النقوش التي دونت بخط المسند وبلهجة قتبانية متميزة، وهي وإن كانت تتميز عن اللهجة السبئية إلا أنها ذات وشائج أصيلة وقربى حميمة مع اللهجتين المعينية والحضرمية .. وعلى الرغم من أن بعض النقوش السبئية تذكر قتبان أيضاً وبالتالي تضيف إضافة مهمة إلى معارفنا عن تلك الدولة ، إلا أن هناك خلافاً بين العلماء حول زمن بعض الحوادث وتحديد تاريخ وقوعها تحديداً دقيقاً أو قريباً من الدقة.

على أن أول ذكر لقتبان في النقوش السبئية قد جاء من نقش الملك كرب ايل وتر السبئي السالف الذكر، ولعله من أقدم النقوش اليمنية القديمة (حوالي القرن السابع قبل الميلاد) وكانت قتبان حينذاك على وفاق مع سبأ ودخلت في حلف معها بعد أن خلصتها من سيطرة (أوسان) . ولقد تمكنت قتبان بعد حين ، وفي حوالي 400 قبل الميلاد من الخروج عن دائرة النفوذ السبئي وأن تتوسع على حساب الدولة السبئية . وقد ساعدها في ذلك تحالفها مع كل من معين وحضرموت.

وفي القرنين الثاني والأول قبل الميلاد بلغت دولة قتبان أوج نفوذها وازدهارها . وتوسعت جنوباً وشرقاً لتشمل مناطق (أوسان القديمة) حتى بلغت ساحل المحيط الهندي (البحر العربي). وامتد نفوذها شمالاً حتى بلغ واحة (الجوبة) على بعد مسيرة يوم واحد من مأرب عاصمة الدولة السبئية . (وفي وادي الخانق من الجوبة قام فريق أمريكي بمسح أثري دلت التحليلات العلمية الأولية على آثار للسكن فيه يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد).

غير أنه في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد تمكنت بعض المناطق التابعة لقتبان من إعلان استقلاليتها ، ومن هذه المناطق سَرْو حمير وسَرْو مذحج فاقتطعت بذلك أرضاً واسعة في غرب الدولة القتبانية وجنوبها، مما مهد للخطر الداهم الآتي من مشرقها، فقد استطاعت دولة حضرموت الصاعدة أن تهدد قتبان وتغزوها ثم تهدم عاصمتها تمنع في القرن الأول بعد الميلاد . ولم تلبث الدولة القتبانية بعد ذلك إلا زمناً يسيراً حتى أصبحت جزءاً من دولة حضرموت.

وفي القرن الثالث بعد الميلاد بقي ذكر قتبان وأرضها يتردد أحيانا ضمن أخبار الحروب السبئية، أما بعد ذلك فلا يكاد المرء يسمع عنها في الأخبار شيئاً

حضرموت :

يطلق اسم حضرموت وبمعناه الدقيق على ذلك الوادي الذي يبعد في مبتدئه عن ساحل البحر العربي 165 كم ويسير في خط مواز له مسيرة 200 كم حيث تقع مدن شبام وسيئون وتريم . وكان اسم الوادي قديماً (سررن) وكان يضم الاسم فيما يبدو روافده من الوديان المجاورة .. أما

دولة حضرموت القديمة فكانت تشمل مناطق أوسع من ذلك . وكانت تمتد شرقاً لتشمل ظفاراً ارض اللبان ، وجنوباً تشمل نطاق (الجول) الجبلي الكبير حتى ساحل المحيط ، وشمالاً اتجاه الربع الخالي الصحراء الرملية الكبرى، وغرباً مساقط الأودية التي تؤدي إلى وادي حضرموت .. وفي موقع إستراتيجي من أقصى الغرب كانت تقع شبوة حاضرة الدولة الحضرمية .. ومازالت إلى اليوم تحمل الاسم نفسه، وكما ورد في النقوش اليمنية القديمة.

جعل الإخباريون العرب حضرموت اسماً لأحد أبناء قحطان .. وقحطان جد أهل اليمن، وكان من عادة " الساميين" أن يقرنوا أسماء البلدان والأمكنة بأسماء الأشخاص ثم يدرجونها بعد ذلك في سلاسل أنسابهم .. ومن أقدم الأمثلة على ذلك ما ورد في سفر التكوين بشأن حضرموت (ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت).. وربما كانت سبتة المذكورة ضمن أنساب بني كوش في قائمة السلالات هي شبوة نفسها عاصمة حضرموت : (وبنو كوش سبأ وحويلة وسبتة ورعمة). ولما كانت النقوش الحضرمية القليلةسواء من حيث العدد أو المحتوى لا تفي بحاجة الباحث عن تاريخ حضرموت وكذلك النقوش السبئية والمصادر اليونانية الرومانية، فإن اللقى الأثرية العديدة التي عثر عليها في وادي حضرموت قد دلت على أنه قد عرف العمران قبل زمن تدوين النقوش.

كانت حضرموت في أقدم عهودها تابعة لدولة سبأ ثم حليفة لها .. وفي حوالي القرن الرابع قبل الميلاد خرجت حضرموت عن سبأ وكونت دولة مستقلة ونمت قوتها تدريجياً واكتسبت أهمية فائقة خاصة لكونها تملك أرض اللبان .. غير أن حضرموت لم تملك النفوذ الكافي الذي يؤهلها لتصبح دولة كبرى في الجزيرة العربية.

وتبرز أهمية هذه الدولة بوضوح من خلال ذكرها في المصادر الكلاسيكية . فقد ذكر (اراتوسثينيس) شبوة عاصمة للحضارمة في القرن الثالث قبل الميلاد (ساباتا).. وذكرها (بليني) في كتابه التاريخ الطبيعي وسماها (سبوتا) ويعتقد أنه كان داخل أسوارها ستون معبدًا. وقد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه ولكن من المؤكد أن شبوة كانت مركزاً دينياً للدولة أيضاً.

وهنالك نقش برونزي عثر عليه في شبوة يذكر بالنص "آلهة شبوة" التي قدم النقش قربانا لها (RES 2693). كما أن بليني يؤكد أيضاً أن شبوة عاصمة الحضارمة كانت مركز تجارة اللبان، وكان اللبان الذي يجمع ينقل على الجمال إلى شبوة ، فيفتح له باب واحد .. وكان أي تهريب أو انحراف عن الطريق يعتبر جريمة كبرى ويعاقب الملك صاحبها بالموت.. وكان الكهنة يطلبون العشر كيلاً لا وزناً وكانوا يسمون تلك الضريبة (سبين) .. ولا يجوز ممارسة البيع والشراء قبل أن يدفع ذلك.. وكان يصرف جزء من ذلك المال رفادة للضيوف في أيام معدودة من السنة .

وكان اسم الإله لدى قدماء الحضارمة والدولة الحضرمية في شبوة هو (سين) والأرجح أن ينطق سِيان ، بإمالة الياء . كما ورد في النقوش . وأن مقر عبادته معبد اسمه (اليم).. وكان الإله سين يلقب بذي اليم نسبة إلى المعبد وعرف بذلك حتى أقاصي الدولة كظفار .. والأرجح أن معنى اللقب هو الإله صاحب الوليمة وهذا المعنى يوافق ما ذكره بليني بشأن الرفادة.. ولشبوة ذكر في كتاب الطواف حول البحر الإريتري وهو دليل ملاحة يعني بالدرجة الأولى بذكر الأماكن الساحلية على البحر الأحمر والبضائع التي تتاجر فيها.. فقد ذكر أن شبوة العاصمة في الداخل وفيها يقيم ملك بلاد اللبان . وتساق إلى ملكها بعض البضائع القيمة التي تستورد مثل الذهب والفضة والخيول والتماثيل والأقمشة الزاهية.

وربما كان التمثالان الفضيان اللذان استولى عليهما القائد السبئي من بعض تلك البضائع المستوردة .. وكان أحد قواد الملك السبئي (شعرم اوتر) قد غنمهما خلال إحدى غزواته إلى شبوة ثم قدمهما قربانين للإله المقه في معبده

بمأرب.. ويخبرنا نقش آخر عن هذين التمثالين وعن زوجة ملك حضرموت وأنها كانت أختاً للملك السبئي (شعرم اوتر) وأن قصر الملك في شبوة كان يدعى (شقير) أو(شقر) وكنا نعرف اسم القصر من المسكوكات الحضرمية والتي نقش عليها مكان إصدارها. وكان شعرم أوتر قد غزا حضرموت في أواخر القرن الثاني بعد الميلاد وأعادها إلى حظيرة الدولة السبئية ولكن إلى حين .. ويبدو أن تلك الغزوة قد عادت بالفيء الكثير للجنود السبئيين .. فقد عثر على مجموعة من النقوش ، من بينها النقش السالف الذكر ، في معبد مأرب وحده، وكلها قرابين قدمت لإلههم حمداً على ما رزقهم من غنائم في شبوة .. على أن آخر نقش نذر للإلهة ويذكر مدينة شبوة كان من عهد شمر يهرعش .. وهو الذي غزا حضرموت وضمها إلى ملكه. وأضاف اسمها إلى لقبه السابق فأصبح ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت. وبذلك دفعت حضرموت ثمن محاولة استقلالها وفقدت عاصمتها شبوة أهميتها تماماً..هذا وقد شهدت حضرموت ازدهاراً في الفترة التي نسميها فترة (ملوك سبأ وذي ريدان) أي القرون الثلاثة الأولى لعصر ما بعد الميلاد ويعود ذلك فيما يبدو إلى عدة عوامل : منها ازدياد الإقبال على مادة اللبان الذي جعلها تولي اهتماماً خاصاً بمنطقة سأكلن (إقليم ظفار) حيث أقامت ميناء سمهر (سمار) على خور روري (بالقرب من صلالة) في القرن الأول قبل الميلاد حسب التقديرات المختلفة لتاريخ ذلك النقش الذي سجل بناء ذلك الميناء. كما أن حركة التجارة في ميناء (قنأ) وفي سقطرى ، كما يظهر من كتاب الطواف حول البحر الأحمر ، كانت نشطة . وكانت الوفود والتجار يتوافدون على البلاد براً وبحراً، كما نلمس من نقوش العقلة التي من بينها نقش يذكر هنديين حضرا إلى ذلك المكان أيام (ايل عذ يلوط) بن عم ذخر).وخاضت حضرموت حرب الثلاثة مئة عام التي دارت حول مشروع توحيد كل من سبأ وذي ريدان ، وغيرت مواقفها مع الأطراف المتحاربة وفقاً لمصالحها الخاصة. وتمكنت في مطلع القرن الثالث من السيطرة على معظم بلاد ولد عم خاصة قتبان وردمان وخولان . فأصبحت نتيجة لذلك جارة مباشرة لكل من سبأ وحمير ، ولكنها أخرجت من بلاد ولد عم نتيجة تحالف سبأ وحمير أواخر أيام شعر أوتر.

وبعد توحدّ سبأ وحمير بصفة نهائية على يدي ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش أصبح الطريق ممهداً لتوحد اليمن كله . وهو ما بدأه شمر يهرعش في النصف الثاني من عهده حين احتل شبوة وأضاف إلى لقب أسلافه (ملك سبأ وذي ريدان) عبارة (وحضرموت ويمنة) حيث يمكن أن يعني (يمنة) أو يمانة الساحل المعروف في المصادر الإسلامية باسم الشحر.

وتقع شبوة عند منطلق وادي عرمة. ويؤهلها موقعها الممتاز على منعطف عدة دروب تتصل بطريق اللبان التجاري الشهير ... كما أنها تشتمل على الكثير من مناجم الملح سهلة الاستغلال، وتحيط بها تلال وعرة تأخذ شكل مثلث ممتد بحيث تؤلف موقعاً فريداً يتمتع بحماية طبيعية . وأشهر بعثة أثرية نقبت في الموقع هي البعثة الفرنسية التي بدأتها السيدة جاكلين بيرين عام 1975م وواصلها تلميذها الدكتور بروتون . وقد اكتشفت البعثة أسوارًا منيعة للمدينة وما يقارب أكثر من 120 جداراً مبنياً من الحجر بارتفاعات تصل إلى عشرة واثني عشر متراً.

وهذه الجدران ترسم مخطط البناء وتفصح عن مخازن متعددة الأغراض. ومن المفيد أن يذكر هنا أن البنى العليا كانت مشيدة بهياكل خشبية. وبعض تلك الأبنية كانت منازل وبعضها كانت معابد. ويعتبر القصر المسمى (شقر) أوسع تلك المباني، إذ يقوم على مساحة 57X39 متراً. ويتألف هذا القصر من مبنى مركزي في مقدمته باحة محاطة من جوانبها الثلاثة بمبانٍ واطئة. وقد دمر القصر حوالي 230 للميلاد، ومن الغريب أن منشأة القصر لم تظهر أي سوق داخل الأسوار كنمط (الأجورا) المعروف كما أنه لم يعثر على مخازن اللبان

البضاعة التي اشتهرت مدينة شبوة بها في المصادر الكلاسيكية.

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

– الأنصاري، عبدالرحمن 1982م.
قرية الفاو، صورة للحضارة العربية الإسلامية قبل الإسلام (منشورات جامعة الرياض).

– الحميري، نشوان بن سعيد 1999م.
شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (تحقيق العمري – الأرياني – يوسف عبدالله , دمشق : دار الفكر).

– عباس، إحسان 1987م.
تاريخ دولة الأنباط (عمان).

– عبدالله، يوسف محمد 1990م.
أوراق في تاريخ اليمن وآثاره (دار الفكر، بيروت).

– المغربي، ابن سعيد 1975م.
نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب (تحقيق كروب، هايدلبيرج).

– الهمداني، الحسن بن أحمد د.ت .
الإكليل(طبعات مختلفة) .

– الهمداني، الحسن بن أحمد 1974م .
صفة جزيرة العرب (تحقيق محمد علي الاكوع – دار اليمامة).

ثانيًا : المراجــع الأجنبية :

- De Maigret, A.2002
Arabia Felix, Stacey International.

- Haussig, H.W 1965
Götter und Mythen in Vorderorient, Stuttgart.

- Jamme, A. 1962
Sabaean Inscriptinos from Mahram Biliqis (Mareb)., Baltimore.

- Sima, A. 1999
Die Lihyanischen lnschriften von (al-Udayb) Alexnder,Leindorf, .

- Wissmann, H. V.
Zur Geschichte und Landeskunde von Altsüdarabien, Wien (1964).

- Wissmann, H. V.
Die Geschichte von Saba', 2, ermann von. Wien (1982).

- Winnett, F. Reed, W. 1970
Ancient Records from North Arabia, Toronto ; Near and Middle East series.

مملكة كندة الأولى :

أسست قبيلة كندة مملكة كانت عاصمتها قرية ذات كهل (الفاو) التي امتدت حضارتها ما بين القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي، ومن ملوكها الملك معاوية بن ربيعة ملك قحطان ومذحج الذي عثر على ضريحه في قرية ويعود تاريخه إلى القرن الثالث الميلادي، وقد أشارت نقوش جنوب الجزيرة العربية (جام 576، 635، 660، 665؛ وركمانز 509) إلى قرية باسم قرية ذات كهل، كما أشارت إلى ملك كندة، وترجع تواريخ هذه الكتابات إلى مابين القرنين الأول والخامس الميلاديين.

عرفت كندة في النقوش العربية الجنوبية باسم (كدت)، ومن تلك النقوش (النقش جام 635) الذي يرجع إلى عهد الملك "شعرم أوتر" ملك سبأ (فترة ملوك سبأ وذي ريدان

في بداية القرن الثالث الميلادي)، وأشار النقش إلى حملة على "قرية ذات كهل" عاصمة مملكة كندة، كما أشار النقش إلى ملك كندة الملك "ربيعة آل ثور" وإلى عاصمة مملكة كندة قرية (قرية ذات كهل)، فقد جاء في النقش: (ق ر ي ت م/ ذ ت/ ك هـ ل م/ ث ت ي/ ض ب أ ت ن/ ب ع ل ي/ ر ب ع ت/ ذ أ ل/ ث و ر م/ م ل ك/ ك د ت/ و ق ط ح ن/ و ب ع ل ي/ أ ب ع ل/ هـ ج ر ن/ ق ر ي ت م)

(في مدينة قرية ذات كهل بالغزوتين ضد "ربيعة ذي ثور" ملك كندة وقحطان وضد سادة مدينة قرية)، وتعد هذه أقدم إشارة في النقوش السبئية إلى مملكة كندة وعاصمتها قرية ذات كهل.

ثم تذكر النقوش العربية الجنوبية مرة أخرى مملكة كندة، وذلك عندما حاول الملكان إيل الشرح يحضب و "يأزل بين" (القرن الثالث الميلادي) استعادة السيطرة على مناطق الجوف، ونجران،ووادي الدواسر من أجل التحكم في طرق القوافل التجارية المتجهة إلى وسط الجزيرة العربية وشمالها، فقادا حرباً ضد كل من "الحارث بن كعب" ملك أسد، و "مالك بن بد" ملك كندة ومذحج والقبائل المتحالفة معهما فقد جاء في النقش (جام 2110):

(م ل ك/ ش أ م ت/ أ ل ح ر ث/ ب ن/ ك ع ب م/ م ل ك/ أ س د/ و م ل ك م/ ب ن/ ب د/ م ل ك/ ك د ت/ و م ذ ح ج م)

(ملوك الشمال "الحارث بن كعب" ملك أسد و "مالك بن بد" ملك كندة ومذحج).

ويشير النقش (جام 576) إلى أن كندة ظلت مملكة مستقلة في عهد الملك إيل "إلشرح يحضب" و "يأزل بين" ملكي سبأ وذي ريدان اللذين ما لبثا أن أرسلا حملة أخرى ضد كندة التي تحالفت مع الملك "امرئ القيس بن عوف" ملك الخصاصة (خصصتن) بأرض عدن ضد مملكة سبأ وذي ريدان، وتمكنت القوات السبئية من هزيمة مملكة كندة وأسر ملكها "مالك" ومجموعة من أشرافها وإرسالهم إلى مأرب، وظل "مالك" ملك كندة، و "امرئ القيس بن عوف" ملك الخصاصة رهينتين لدى الملك إيل "الشرح يحضب"، وأطلق سراحهما فيما بعد وتعهدت مملكة كندة منذ ذلك الوقت بعدم التحرش بمملكة سبأ ومساعدتها ضد أعدائها.

لكن مملكة كندة كان لها دور بارز في نهاية مملكة سبأ وذي ريدان وسيطرة الحميريين على الحكم بقيادة الملك "ياسر يهنعم" وابنه الملك "شمر يهرعش" في نهاية القرن الثالث الميلادي، وتمثل دور كندة في دعم الجيش الحميري في المعارك التي خاضها من أجل توطيد أركان حكم الملك "ياسر يهنعم"، كما شاركت قوات مملكة كندة مع الملك "شمر يهرعش" في المعارك التي تمكن بعدها من السيطرة على مملكة حضرموت (نقش شرف الدين 32)، وبذلك ساهمت كندة بفاعلية في التغيير الذي طرأ على اللقب الملكي الذي حمله الملك "شمر يهرعش" بعد أن امتد سلطانه إلى سائر جنوب الجزيرة العربية وهو: (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت).

ثم واصلت كندة تحالفها مع مملكة حمير حتى بداية القرن الرابع الميلادي، ولكنها سرعان ما فقدت استقلالها ودخلت تحت سيطرة مملكة حمير.

وتتحدث النقوش العربية الجنوبية (جام 660، 665) عن تضاؤل دور مملكة كندة في مساندة القوات الحميرية وبروز قوة جديدة احتلت دورها، ونعني بها قبيلة "جدن" التي تبوأ زعيمها "سعد تالب يتلف" منصب زعيم القبائل العربية المتحالفة مع مملكة حمير بما فيها كندة؛ فقد جاء في النقش جام 665 ما يلي:

(س ع د ت أ ل ب / ي ت ل ف / ج د ن م / ك ب ر / أ ع ر ب / م ل ك / س ب أ / و ك د ت / و م ذ ح ج م / و ح ر م م / و ب هـ ل م / و ز ي د أ ل / و ك ل / أ ع ر ب / س ب أ / و ح م ي ر م / و ح ض ر م ت / و ي م ن ت)

(هذا "سعد تالب يتلف" بن "جدن" كبير أعراب ملك سبأ، كندة ومذحج وحرام وباهل وزيد وإل وكل أعراب سبأ وحمير سبأ وحمير حضرموت ويمنة)

وبذلك تكون مملكة كندة قد فقدت استقلالها وصارت تابعة لمملكة حمير .. وكذلك يشير النقش (جام 660) إلى التحاق كندة بمملكة حمير، وقد حدث ذلك في أيام الملك "شمر يهرعش".

وتوضح النقوش العربية الجنوبية أن مملكة كندة كانت أقرب إلى الحلف القبلي منها إلى مملكة، فقد أشار النقش (جام 635) إلى أن "ربيعة آل ثور" كان ملكًا على كندة وقحطان، ثم أشار النقش (جام 2110) إلى أن "مالك بن بد" كان ملكًا على كندة ومذحج وبعض العرب، كما أشار النقش (جام 576) إلى "مالك" ملك كندة الذي تحالف مع امرئ القيس بن عوف ملك الخصاصة بحضرموت، وبذلك يمكن القول: إن كندة كانت تتزعم تحالفًا من عدة قبائل أهمها قحطان ومذحج، وأن هذا التحالف تمكن من إقامة مملكة كندة.

هذا ولم يرد ذكر كندة في النقوش المكتشفة في قرية، فلم تذكر كندة إلا في النقوش العربية الجنوبية، وحتى النقش الوارد على قبر الملك معاوية بن ربيعة الذي عثر عليه في عاصمة المملكة قرية جاء على النحو التالي:

(قبر معاوية بن ربيعة القحطاني ملك قحطان ومذحج)

فهل كان مسمى كندة لقبًا جنوبيًّا؟ أما في الوسط فكان لقب قحطان هو الغالب، فكندة في هذه الفترة هي قحطان وقحطان هي كندة ثم طغى في المصادر العربية اسم كندة على اسم قحطان ولكنه كان متداولاً شفهياً بين بادية وسط الجزيرة ثم ظهر مرة أخرى مؤخراً .. وعلى أية حال فلم يظهر اسم قحطان إلا في حدود القرن الثالث الميلادي ولا ذكر له قبل ذلك فيما كشف من نقوش، وبعد سقوط مملكة كندة استمرت قبيلة كندة وحلفاؤها في المشاركة مع الحميريين في حملاتهم الحربية، فقد شاركت كندة في حملة الملك "أبكرب أسعد" (380- 440م) (ريكمانز 509)، كما شاركت في حملة الملك "معدي كرب يعفر" (425- 430م أو 415- 420م) (ريكمانز 510)، كما ورد ذكر كندة في النقوش العربية الجنوبية خلال عهد الملك يوسف أسار يثار (517- 525م). واستمر ذكر كندة في النقوش العربية الجنوبية، فقد شاركت معه في حربه ضد نجران .. ويبدو أن علاقة كندة لم تنقطع مع جنوب الجزيرة العربية حتى بعد سقوط مملكة حمير سنة 525م، فقد ورد ذكر كندة في نقش أبرهة الذي سجل عليه إحدى الحملات التي قادها في وسط الجزيرة العربية.

وكانت أهمية قرية تنحصر أولاً في موقعها كعنق زجاجة تسيطر على الطريق التجاري بحيث لا تستطيع القوافل أن تسير دون المرور بها، وثانيًا : أنها كانت عاصمة لدولة لها دور في تاريخ الجزيرة العربية لمدة تربو على خمسة قرون، وثالثًا : أنها كانت تحتوي على قدر كبير من آبار المياه والنخيل والمزروعات، فقد عثر بها على ما يزيد على مائة وعشرين بئرًا.

أدت التجارة دورًا كبيرًا في حياة سكان قرية؛ لأنها كانت عاملاً مهمًا في اتصالهم بالأمم المجاورة، ومع التجارة نهضت مرافق الحياة المختلفة، وقد تاجروا بالحبوب والطيوب والنسيج والأحجار الكريمة والمعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص فأثروا بذلك ثراءً انعكست آثاره فيما بنوه من قصور وأسواق ومقابر ومعابد وما زينوا به بيوتهم من رسوم متنوعة في مادتها ونوعها وتماثيل معدنية وأخرى مصنوعة من المرمر. كما ظهر أثر ذلك في انتشار المعرفة بالكتابة. ولعل قمة التقدم الاقتصادي في قرية هو سكهم عملة خاصة بهم ضربوا عليها اسم معبودهم "كهل" واهتمامهم بأنواع مختلفة من المكاييل والموازيين والأختام والصنج.

اهتم سكان قرية بالزراعة اهتمامًا واضحًا؛ فحفروا الآبار الواسعة وشقوا القنوات السطحية، فزرعوا النخيل والكروم وبعض أنواع اللبان والحبوب، إذ عثر بقرية على

دوائر أحواض الأشجار منتشرة بشكل يدعو إلى الدهشة وهو ما نجد له مثيلا في جنوب الجزيرة العربية في "حجر بن حميد". وقد أثبتت الدراسات أن هذه الأحواض كانت لأشجار منها اللبان مما يجعلنا نعتقد أن الأحواض التي عثر عليها في قرية كانت للغرض نفسه. ولكننا في الوقت نفسه نرى أن النخلة كانت أوسع انتشارًا في هذه المنطقة نظرًا لكثرة ما وجد من نوى في أكثر المواقع التي تم التنقيب فيها بقرية، كما أنها كانت من جملة الموضوعات التي رسمها سكان قرية على سفوح الجبال المجاورة، كما استعملوا جذوع الأشجار والنخيل في تسقيف منازلهم والأخشاب المحلية والمستوردة كخشب الجوز لأبوابهم ونوافذهم وأدواتهم المختلفة من أمشاط وموازين ومكاييل وغيرها.

وقد برع أهل قرية في حفر القنوات الجوفية مستغلين بذلك الأودية التي تمر بها والقنوات السطحية التي تجلب المياه إلى داخل المدينة، وبذلك كانت كمية المياه فيها حينئذ كافية لإقامة حياة نشطة ومستقرة، كما حرصوا على جمع الأسمدة الحيوانية ليستغلوها في زراعتهم.

إن مجتمعًا يقوم على التجارة لا بد وأن يصحبه قدرة كافية على الدفاع عن النفس والمال والعرض، ولذلك فإن اختيار قرية عاصمة لمملكة كندة كان اختيارًا موفقًا إلى حد كبير، ذلك لأن المظاهر الجغرافية المحيطة بها تشكل وقاية طبيعية لها من تسلل الأعداء. فجبل طويق الذي يحدها شرقًا يكشف لها عن أي عدو مرتقب. وشيدت أسوار داخل قرية وخاصة حول السوق الذي يبلغ سمك جداره المكون من ثلاثة أسوار متلاصقة ستة أمتار وله باب واحد من الناحية الغربية ويصل ارتفاع السور إلى حوالي ثمانية أمتار مما يتعذر معه على المغيرين دخوله. وأشارت كتابات جنوب الجزيرة إلى قوة الدفاع عن المدينة.

مملكة ديدان ولحيان :

تعد "دادان" العلا من المناطق الحضارية المهمة في الجزيرة العربية حيث أثبتت المصادر الأثرية والتاريخية أن للمنطقة تاريخًا عريقًا يمتد من القرن السادس ق.م أو قبل ذلك وحتى العصور الإسلامية المتأخرة، وورد اسم "دادان" في كتابات الآشوريين وفي العديد من الكتابات العربية القديمة، وتشير النقوش المكتشفة في العلا إلى أن مجموعة من القبائل العربية من جنوب الجزيرة العربية وشمالها سكنت العلا وكونت ما يطلق عليه في المصادر التاريخية "دويلات المدن".

وأطلق بعض المؤرخين على أقدم مملكة نشأت في المنطقة اسم "مملكة دادان" أو "مملكة ددن"، وأطلق هذا الاسم بناءً على تتبع صيغة وردت في نص واحد هو "متع إل كبير ددن" أي شيخ المدينة أو حاكمها، وقيل: بل سميت "ددن" ارتباطًا واشتقاقًا من اسم المعبود "ود" Wadd الذي كان يعبد في المنطقة منذ الألف الأول قبل الميلاد، واسم "ود" Waddيعني المحبة، وارتبط هذا الحب بمدينة العلا وصارت مدينة الحب، ويرجع تاريخ مملكة ديدان على الراجح من أقوال المؤرخين إلى ما بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وكان نظام الحكم في مملكة دادان ملكيًا وراثيًا، وامتدت حدود مملكة ديدان فشملت مدينة العلا وتجاوزتها شمالاً إلى مدائن صالح، وكانت العلا "دادان" تحتل موقعًا إستراتيجيًا على الطريق الرئيس لتجارة البخور والتوابل - وهي من أهم المواد التجارية الرائجة في العالم القديم - الذي يربط حضارات العالم القديم، حيث قامت العلا "دادان" بدور الوسيط بين حضارات الهند وجنوب الجزيرة العربية في الجنوب وبلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر في الشمال منذ أقدم العصور حتى نهاية القرن الأول الميلادي.

ثم تذكر النقوش مملكة أخرى هي مملكة لحيان التي يرجع تاريخ بدايتها إلى القرن الخامس ق.م، وكان نظام الحكم فيها ملكيًا وراثيًا تنفرد به أسرة واحدة وقد ينتقل من أسرة إلى أخرى، ويعاون الملك مجلس استشاري من الأمراء ومشايخ القبائل، ويعرف هذا المجلس باسم هجبل ووصف في النقوش اللحيانية بـ عالي الشأن، وبالرغم من أن

الملك اللحياني كان يهيمن على اقتصاد المملكة من تجارة وزراعة ورعي بالإضافة إلى دخل المعابد من الزكاة والقرابين؛ إلا أن سلطته لم تكن مطلقة، بل كانت مقيدة باستشارة المجلس. ويعرف الآن أسماء أربعة عشر من ملوك لحيان، وكانت لملوكهم مكانة عالية لدى رعاياهم حيث كانوا يؤرخون لأهم الأعمال التي يقومون بها بسنوات حكم ملوكهم.

وشهدت الفترة التي نشأت فيها "مملكة دادان" بروز العديد من ممالك المدن ضمن إطار الممالك الآرامية المنتشرة في بلاد الشام، ولذلك فمن المرجح أن "مملكة ديدان" كانت مرحلة أولى من مراحل مملكة لحيان فنسبت في البداية للمدينة "ددن أو دادان" ثم تحول الاسم إلى مملكة لحيان نسبة إلى القبيلة، وبذلك يمكن تقسيم تاريخ مملكة لحيان إلى ثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى (المرحلة الددنية): من القرن السابع حتى نهاية القرن السادس قبل الميلاد.
- المرحلة الثانية (المرحلة اللحيانية الأولى): وهي مرحلة الخروج من مملكة المدينة "مملكة ديدان" إلى مجال أوسع وهو القبيلة وشهدت هذه المرحلة أوج ازدهار حضارة لحيان.
- المرحلة الثالثة (المرحلة اللحيانية الثانية): من بداية القرن الثالث قبل الميلاد، وفيها أصبح لمملكة لحيان نشاط تجاري واسع يتناسب مع مركزها الإستراتيجي بوصفها دولة قوية في وسط الجزيرة العربية تمر بها التجارة القادمة من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها.

المعتقدات الدينية :

لم يكن الدين عند العربي القديم مظهرًا حضاريًا وحسب، بل هو قوة من قوى الحياة التي تصبغ الثقافة والمدنية بصبغتها وتطبعها بطابعها، وكانت العوامل الجغرافية والوضع الاقتصادي للمجتمعات العربية تؤثر في تشكيل المعتقدات .. فما يؤمن به سكان الصحارى غير ما يؤمن به سكان السهول والوديان والجبال، فالمجتمع الذي يعتمد على التجارة يقدس الأشياء التي يعتمد عليها في تجارته فنجده يقدس القمر الذي تسير القوافل في ضوئه ليلاً، والمجتمع الذي يعتمد في اقتصاده على الرعي والزراعة يقدس أفراده ما يساعدهم على حياتهم مثل المطر والرعد والبرق. كما أن النظام الاجتماعي له تأثيره في المعتقدات الدينية، فكل قبيلة لها معتقداتها التي تختلف عما تؤمن به القبيلة الأخرى، لذلك تعددت المعبودات في الجزيرة العربية فشملت الشمس والقمر والنجوم إلى المطر والعواصف والأشجار والجبال وغيرها.

وتعد الكتابات من أهم المصادر التي أمدتنا بمعلومات عن ديانة العرب قبل الإسلام، مثل أسماء المعبودات وأسماء الأعلام المركبة من اسم المعبود وكلمة أخرى ذات صلة بالمعبود نستطيع بواسطتها التعرف إلى أسماء المعبودات. وتحمل النقوش اللحيانية المكتشفة إشارات عديدة عن الدين في المجتمع اللحياني يتضح منها أن اللحيانيين كانوا يتعبدون المعبود ذوغيبة Thu-Ghaibah وشيدوا له المعابد، وتوجد في الخريبة آثار معبد لهذا المعبود، ووجد في فنائه حوض ماء يبلغ ارتفاعه أكثر من مترين نحت في كتلة من الصخر الرملي، والحوض مخصص للاغتسال والتطهر قبل دخول المعبد، ولم يعد باقيًا من المعبد سوى الحوض وبعض أساسات الجدران، كما يوجد في جبل أم درج بالعلا بقايا معبد آخر لذي غيبة يصعب الوصول إليه الآن لتآكل الدرج الذي يؤدى إليه نتيجة عوامل التعرية ويوجد بالقرب من بقايا المعبد خزانان محفوران في الصخر، وبين أنقاض جدران المعبد يوجد عدد من التماثيل أو أجزاء منها، وبعض النقوش اللحيانية المكتوبة على ألواح حجرية تتحدث عن تقديم القرابين لذي غيبة.

ولم تقتصر عبادة اللحيانيين على ذي غيبة وحسب، بل عبدوا معبودات أخرى مثل: سلمان وأبو إيلاف واللات

والعزى ومناة؛ ونظرًا لوجود الجالية المعينية في العلا "ديدان" فقد تعبد المعينيون المعبودات المعروفة في مملكتهم بجنوب الجزيرة العربية مثل "نكرح" Nikrah ، و"ود" Wadd اللذين ورد اسماهما في النقوش المعينية الموجودة في العلا، ويشير أحد النقوش إلى بناء معبد لـ"ود" في العلا، إلى جانب ذلك تعبد المعينيون معبودات لحيانية؛ إذ يشير أحد النقوش اللحيانية إلى أن كاهن المعبود المعيني "ود" قدم هو وأبناؤه قربانًا إلى المعبود اللحياني ذي غيبة، وفي نص آخر إشارة إلى تقديم تمثال طفل بواسطة كاهن "ود" إلى ذي غيبة.

وبذلك كان ذو غيبة وود كفرسي رهان؛ لكن الغلبة كانت لذي غيبة الذي عبد في العلا "ديدان" لأكثر من خمسمائة عام، وكان للنذور والقرابين المقام الأول في الديانة اللحيانية، فقد كان اللحيانيون يقدمون إلى المعبودات "الطلل" وهي زكاة مفروضة على نتاج الأرض أو الثروات الأخرى وتدفع للمعبد كل عام، فكانوا يقدمون الزكاة عن النخيل والمحاصيل المختلفة والأراضي الزراعية والأموال والإبل.

وسلطت النقوش اللحيانية الضوء على دور الكهنة، فوردت كلمات مثل أفكل وأفكلت وسلح وسلحت، وتعني كلمة أفكل الكاهن والكاهنة اللذين يقومان بخدمة المعبد، أما كلمة سلح وسلحت فهي من الوظائف الدينية وتعني الشخص الذي يقوم بجباية الخراج أو الزكاة لصالح المعبود، وكان الكهان يتمتعون بمنزلة دينية واجتماعية رفيعة في المجتمع اللحياني، مما كان يكسبهم مالاً وجاهًا.

تعد العلا "دادان" من أهم المحطات التجارية على طريق القوافل الذي يتجه من جنوب الجزيرة العربية إلى وادي الرافدين وبلاد الشام ومصر، واستفاد اللحيانيون من القوافل المارة عبر بلادهم من خلال جمع الضرائب والمكوس وتقديم الخدمات من طعام وشراب وغيرها لأصحاب القوافل، كما عمل اللحيانيون في نقل التجارة من جنوب الجزيرة العربية حيث تذكر نقوشهم الزكاة والقرابين التي كان يقدمها التجار اللحيانيون إلى ذوغيبة عن الإبل التي تنقل التجارة.

وإلى جانب التجارة احترف اللحيانيون الزراعة، وورد في النقوش الكثير من الكلمات التي تدل على معرفتهم الزراعة مثل خرف والتي تعني الثمار التي يتم جنيها في فصل الخريف، ودثأ وهي الثمار التي تجمع في فصل الربيع، وثبرت والثبرة هي الأرض الزراعية، ومو وتعني الماء، وإلى جانب التجارة والزراعة اعتمد الاقتصاد اللحياني على الرعي .. وتزخر النقوش اللحيانية بالكثير من القرابين والنذور التي قدمها اللحيانيون لذي غيبة مثل النوق والإبل السوداء والنعم. ولم تكن تلك الزكوات والقرابين لتقدم للمعبودات من دون وجود نظام اقتصادي متكامل يقنن الزكاة ويشرف على صرفها.

امتد نفوذ هذه المملكة إلى شمال الجزيرة العربية وجنوبها ووسطها، فقد وصف الكاتب الروماني بيلنيوس (ت عام 79م) خليج العقبة بالخليج اللحياني، وظلت هذه التسمية حتى القرن الثاني الميلادي، وانتشرت كتابات اللحيانيين على الطرق التجارية وفي بعض المراكز الحضارية مثل تيماء التي عثر بها على مسلة حجرية نقش عليها اسم الملك اللحياني "فضجو ثرمو بن ملك لحيان"، ووادي رم والديسة في جنوب الأردن حيث عثر على مجموعة من النقوش اللحيانية، والفاو حيث عثر على نصب تذكاري وضع في حرم معبد المعبود ود قدم لذي غيبة كما عثر على مقابر لحيانية ومجموعة من الكتابات اللحيانية تتحدث عن أسر لحيانية كانت مقيمة هناك، ويعتقد العالم الألماني فيرنر كاسكل W. Caskel أن نفوذ اللحيانيين قد وصل إلى الخرج حيث ربط بين اسم المدينة واسم المعبود خرج الذي عبد في العلا "ديدان".

يعتمد نظام الحكم لدى اللحيانيين على النظام الملكي الوراثي، وأمدتنا النقوش اللحيانية التي وجدت في منطقة العلا وما حولها. والنبطية (JS. 33) وكذلك المسلة الآرامية التي عثر عليها في قصر الحمراء في تيماء بأسماء عدد من

الملوك الذين تولوا زمام السلطة في المجتمع اللحياني، وهذا دليل على وجود تنظيم سياسي يقوم بالدور التشريعي في المجتمع، وينظم سبل الحياة في كافة المجالات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية وخلافها. وكان الملك يتمتع بمكانة خاصة في المجتمع اللحياني؛ إذ إنهم أرخوا الكثير من نقوشهم وخاصة الدينية منها بسنوات حكم ملوكهم، كما كانت هناك ألقاب لهؤلاء الملوك تأتي قبل اسم الملك، ومن هذه الألقاب (ذ أ س ل ع ن) أي ملك الجبال و(ذ م ن ع ن) ذو المنعة أي صاحب المنعة.

كما كان يشارك الملك في اتخاذ القرارات مجلس يسمى "هجبل" وقد وصف هذا المجلس في أحد النقوش اللحيانية بـ عالي الشأن (CL. 17) ويمثل هذا المجلس السلطة المرجعية للملك، حيث يستشيره قبل اتخاذ القرار خاصة في الأمور المتعلقة بتنظيم شؤون الدولة وعلاقاتها الخارجية.

أما بالنسبة للتنظيمات العسكرية في مملكة لحيان، فإنه لم يكن هناك جيش بالمفهوم الحالي وإنما كان هناك تنظيم عسكري محلي يمكن من خلاله تحقيق الأمن في لحيان تلك المنطقة الإستراتيجية التي كانت تسيطر على ممر التجارة العالمية وتهم الكثير من دول جنوب الجزيرة العربية وشمالها بالإضافة إلى الدول المجاورة، إلا أن معلوماتنا عن هذا التنظيم العسكري لا تتعدى الإشارات البسيطة التي وردت في ثنايا بعض النقوش التي وجدت في المنطقة. ففي إحدى قمم جبل إثلب في مدائن صالح التي تعد الحدود الشمالية لعاصمة ديدان وجدت مجموعة من النقوش اللحيانية كشفت لنا عن وجود معسكر لمجموعة من الجنود كانوا مرابطين في نقطة للمراقبة في قمة الجبل يستطيع المرء منها رصد كل التحركات القادمة من جهات الشرق والشمال والشمال الشرقي (حائل، تيماء، وتبوك) قبل وصولها إلى مدائن صالح بمسافة كبيرة، وهذه المجموعة من النقوش هي توثيق لعمل هؤلاء الجند في نقطة الرصد والمراقبة هذه، وجميعهم يذكرون في نقوشهم التي سجلوها للذكرى بأنهم قاموا بحراسة ددن (ديدان) ما عدا نقش واحد يشير صاحبه إلى أنه قام بحراسة متع إل و"ددن" دادان مما يوضح بأن متع إل شخصية مهمة في هذا المجتمع مما جعل صاحب النقش يربط بينه وبين دادان، وكان هؤلاء الجند بمثابة حرس الحدود يقومون بمراقبة الطرق التي تؤدي إلى "ددن" دادان، وفي حال وجود خطر كقدوم غزاة تجاه عاصمتهم يقوم المرابطون بهذه النقطة بإشعار السلطة أو من هم مكلفون بصدد مثل هذا الخطر. ووجود مثل نقطة المراقبة هذه في الشمال يجعلنا نفترض وجود نقاط أخرى للمراقبة وللحراسة في الجهات الأخرى خاصة في الجهة الجنوبية من ديدان لم تكتشف بعد .

إضافة إلى ذلك وردت في ثنايا النقوش بعض المفردات التي قد تكون رتبًا أو وظائف في التنظيم العسكري اللحياني، ومن هذه المفردات لفظة الفارس (ع ب د هـ م/ هـ ف س) و(ط ل ن س/ هـ ف ر س) وهو الشخص المغوار الذي يرافق الجيوش وفي الغالب تكون قيادة الجيوش لهؤلاء الفرسان.

إن وجود مثل هذه التنظيمات الأمنية يجعلنا نتصور وجود تنظيمات أمنية داخلية تنظم حياة الأفراد في المجتمع اللحياني وعلاقاتهم ببعضهم البعض، كما تقوم بتأمين الحماية اللازمة والأمن للسلطة الحاكمة، وتخضع هذه التنظيمات لسلطة الملك أو من يخوله.

يرى أغلب المؤرخين أن نهاية مملكة لحيان كانت في نهاية القرن الثاني ق. م . وتذكر النصوص التاريخية أن هناك ملكًا اسمه مسعود Masudu نصب نفسه ملكًا على اللحيانيين واستخدم الكتابة النبطية حيث تم الكشف عن ثلاثة نقوش تحمل اسمه، واستخدامه الكتابة النبطية يؤكد أن هذا الملك ليس لحيانيًا، وفي الوقت نفسه لا يوجد ما يشير إلى كونه نبطيًا، خاصة وأن ملوك الأنباط يحملون أسماء مثل حارثة ورب إل وعبادة ومالك. ومع ذلك فلعلنا نتجه إلى أن

مسعودًا هو من بقايا اللحيانيين الذين كانوا تحت الحكم النبطي ولما انحسرت سيطرة الأنباط في مطلع القرن الثاني الميلادي كان لا بد من وجود شخصية قيادية تنظم شؤون المجتمع اللحياني وغيره من الفئات فكان مسعود هو الشخص الذي سجل رئاسته للمجتمع الجديد وسجل هذه النصوص وخاصة إذا سلمنا بأن دمسي كان قائدًا لثورة ضد الأنباط نجح في إبعادهم من الحِجر (مدائن صالح).

لهذا أجمع المؤرخون على أن مسعودًا لم يكن من ملوك الأنباط لكنه كان مغامرًا جاء من منطقة ذات ثقافة نبطية إلى الشمال من العلا "ددان"، وبذلك أصبح مسعود أول من قطف ثمار امتداد نفوذ الأنباط جنوبًا، إذ ما لبثوا أن استولوا على المنطقة الممتدة من الحجر (مدائن صالح) إلى العلا "ددان" في نهاية القرن الثاني أو الأول ق. م، واتخذوا من الحجر (مدائن صالح) عاصمة ثانية لهم بعد البتراء، وسادت حضارتهم في المنطقة حتى سقوط مملكتهم على يد الرومان سنة 106م.

وانفرط عقد القبائل العربية التي كانت تسكن وادي القرى وما حوله، واتجهت إلى أماكن متفرقة في الجزيرة العربية. فاتجه اللحيانيون والأنباط إلى مكة المكرمة وما حولها بعيدًا عن بطش الرومان. وبجوار بيت الله الحرام نشأت حضارة عربية جديدة هي مزيج من الحضارات العربية السابقة. وعندما انبلج نور الإسلام كان اللحيانيون من المناهضين للإسلام في بادئ الأمر لكنهم ما لبثوا أن دخلوا في دين الله أفواجًا، وما زالوا يحملون اسمهم القديم حتى الآن، وهم يقيمون في قرية عين شمس شمال شرق مكة المكرمة.

تعددت آراء الباحثين والعلماء حول أصل الأنباط، فمنهم من يرى أنهم جاؤوا من جنوب الجزيرة العربية، ومنهم من يرى أنهم أتوا من شمال منطقة الخليج، ومنهم من يرى أنهم من منطقة الحجاز في شمال غرب الجزيرة، وهناك رأي آخر أنهم من آدوم. وورد ذكرهم في الحوليات الآشورية وفي التوراة بأنهم عاشوا في المناطق الواقعة إلى الجنوب من أراضي بني قيدار. واعتماداً على وصف المؤرخ ديودور الصقلي للأنباط بأنهم كانوا بدواً رعاة لا يعرفون الزراعة أي أنهم غير مستقرين، وأنهم لا يشربون الخمر، وأرضهم أغلبها صخرية وعرة، نستطيع القول بأنهم قبائل عربية في الأصل غلبت عليهم حياة البداوة وحرفة الرعي في بادئ الأمر ثم تحضروا واتخذوا التجارة حرفة لهم، واستنبطوا المياه وأصبحوا خبراء في معرفة أماكن الاستفادة منها بحفر القنوات وتجميع المياه في صهاريج واسعة وعميقة، كما أنهم دونوا الكثير من كتاباتهم بالقلم الآرامي، إلا أنهم طوروه وربطوا الحروف بعضها ببعض وهذا ما سهل انتشار القلم النبطي، ولكن لغتهم كانت عربية شمالية من حيث المفردات والأسماء وإن شابتها بعض المفردات والصيغ الآرامية أحياناً. واستقر الأنباط في جنوب بلاد الشام وأسسوا لهم مملكة عربية سميت بمملكة الأنباط واتخذوا الرقيم (البتراء) عاصمة لهم.

تبنى ملوك الأنباط أسلوبًا عربياً تقليدياً في الحكم، واستطاعوا تحقيق إنجازات سياسية كبيرة، حتى امتدت دولتهم إلى دمشق، إلا أن ملك اليهود هيرود استطاع بمساعدة الرومان أن يؤسس في سنة 31 ق.م دولة يهودية شملت بعض أراضي مملكة الأنباط عبر نهر الأردن، مما أدى إلى تقسيم مملكة الأنباط. وقد بذلت محاولات كثيرة للقضاء على التنافس بين الأنباط واليهود، ومن تلك المحاولات زواج ملك اليهود هيرود انتيباس من ابنة الملك الحارثة الرابع (9ق.م - 40م) وأمن الأنباط خلال تلك الفترة مؤامرات اليهود. غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل بعد أن طلق هيرود انتيباس ابنة الحارثة الرابع ليتزوج ابنة عمه وزوجة أخيه غير الشقيق هيروديا، فقامت الحرب بين الأنباط واليهود وأسفرت عن هزيمة اليهود. وتوصل الملك النبطي رب إل الثاني (70 – 106م) إلى اتفاق مع الرومان على

ألا يهاجموه في حياته ويسيطروا على مملكة الأنباط بعد وفاته، لكن الرومان نقضوا الاتفاق، وسيطروا على مملكة الأنباط سنة 106م وأنهوا حكم رب إل الثاني، وأصبح الحاكم الروماني في سوريا كورنيلوس بالما حاكمًا للمملكة النبطية نيابة عن الإمبراطور تراجان.

لم يترك الأنباط لنا تأريخاً مدوناً بأي شكل من الأشكال، ما عدا بعض النقوش التي تتحدث في معظم الأحوال عن أمور شخصية. وجاءنا كثير من أخبارهم من مصادر تاريخية خارجية لم تكن خاصة بالأنباط، وإنما تحدثت عنهم بشكل عارض من خلال علاقاتهم بغيرهم من الشعوب كالسلوقيين والبطالمة والحشمونيين. وهذه العلاقات كانت تتصف بالودّ حيناً وبالعداء حيناً آخر حسب الوضع الذي كان قائماً بينهم والمصالح التي تربط بعضهم ببعض.

مد الأنباط نفوذهم إلى الجنوب داخل الجزيرة العربية، حتى وصلوا إلى الجوف ووادي السرحان في الجنوب الشرقي، وتيماء ومدين وعينونة (لوكي كومي) على ساحل البحر الأحمر، والحجر (مدائن صالح) التي تعد العاصمة الثانية لهم بعد الرقيم (البتراء)، ولم يتجاوزوا هذه المنطقة بدليل اختلاف الفن المعماري بينها وبين أقرب مركز حضاري لهم في اتجاه الجنوب، وهي منطقة العلا (دادان) التي لا تبعد سوى 22 كيلاً فقط. وتختلف البقايا الأثرية الموجودة في العلا عن الحجر في جميع النواحي المعمارية وعادات الدفن .. مع أن هناك تشابهاً كبيراً بينهما في النواحي الطبوغرافية وتركيب الصخور، كما أن النقوش النبطية تتركز في منطقة الحجر وما حولها وعلى الطريق التجاري المتجه إلى الشمال منها، وتكاد تنعدم داخل العلا. وامتد تأثير الأنباط إلى قرية الفاو الواقعة جنوب وادي الدواسر، حيث يبدو ذلك واضحًا في الفخار النبطي الذي يعود للقرن الأول قبل الميلاد، وفي بضعة نقوش نبطية.

عرفت الحجر الاستقرار السكاني منذ أقدم العصور، وذلك لتوافر المقومات الأساسية للاستقرار من مياه وتربة خصبة فضلاً عن وقوعها على طريق التجارة. ووردت نصوص في القرآن الكريم تؤكد أن الحجر كانت منطقة مأهولة بالسكان منذ ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد على أقل تقدير حيث سكنها الثموديون في تلك الفترة، وذلك اعتماداً على الترتيب القصصي للأحداث كما جاءت في القرآن الكريم (الأعراف الآيات 66-79، إبراهيم الآية 9، غافر الآيات 28-31) فقد ورد ذكر الثموديين بعد نوح وقبل موسى عليهما السلام. ويرجع بعض المؤرخين فترة موسى عليه السلام إلى فترة حكم رمسيس الثاني (1290-1224 ق. م) ويعدّونه فرعون موسى. أما ثمود التي ذكرت في الآشوريات وفي بعض النصوص الإغريقية واللاتينية المتأخرة فلا صلة لها بقوم نبي الله صالح، ولكن يمكن أن نعدّهم من بقايا تلك الأمة الغابرة الذين تبدّوا بعد حضارة. ولم يرد في الأحاديث الثابتة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، عند مروره بالحجر في السنة التاسعة للهجرة أثناء توجهه إلى تبوك، ما يؤيد وجود علاقة بين الحجر وثمود قوم صالح. وشهدت الحجر وجودًا لحيانيًا في منتصف الألف الأول قبل الميلاد، فهناك مجموعة من النقوش اللحيانية في مواقع مختلفة في المنطقة، من أهمها النقوش المكتوبة في قمة جبل إثلب التي كان يرابط عليها المراقبون اللحيانيون لمتابعة حركة القوافل التجارية القادمة من الشرق والشمال. واستمر وجود اللحيانيين في الحجر حتى تغلب عليهم الأنباط واتخذوا من الحجر عاصمة ثانية لهم في الجنوب بعد الرقيم (البتراء)، وكان ذلك في مطلع القرن الأول أو قبل ذلك بقليل.

وفي عهد الملك الحارثة الرابع (9 ق.م – 40م) تمتعت الحجر بحركة عمرانية هائلة، فتحولت إلى مدينة بمفهوم ذلك العصر، وتكاد المقابر المشيدة فيها تضاهي مثيلاتها في البتراء، بل تزيد عليها في بعض النواحي الفنية والتوثيقية. واتخذ عدد كبير من تلك المقابر مدافن لعسكريين وضباط من رتب مختلفة، مثل قائد مائة وقائد ألف وقائد

فرسان وقائد أعلى، مما يدل على أن الأنباط اتخذوا الحجر قاعدة عسكرية ربما تعجز القوات الرومانية عن الوصول إليها، كما يحتمل أن يكون القصد من وجود هذه القاعدة حماية قوافل التجارة القادمة من جنوب الجزيرة العربية وتأمينها ضد القبائل المجاورة التي لاتجد فرصة للمشاركة في حركة التجارة.

ورد ذكر الحجر في بعض المصادر الكلاسيكية في ثنايا الحديث عن الأنباط، فقد ذكرهم المؤرخ ديودور الصقلي معتمداً على ما كتبه هيرونيموس الذي سجل كثيراً من مشاهداته عن الأنباط في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وصوّر الجغرافي سترابون جزءاً من حياتهم في القرن الأول الميلادي اعتماداً على ما نقله عن أغاثرخيدس وأثنودور الطرسوسي الذي يقال إنه ولد ونشأ في البتراء عاصمة الأنباط الأولى. ووردت بعض الأخبار عن الأنباط في كتاب "الطواف حول البحر الأرتيري" الذي لم يُعرف مؤلفه. كما كان بليني وبلوتاركس من بين الذين كتبوا عن الأنباط.

مارس الأنباط تبادل السلع التجارية كغيرهم من المجتمعات العربية القديمة، وكان من أهم هذه السلع البخور والمر التي كانت رائجة في ذلك الوقت. غير أن الدور الأساس الذي قام به المجتمع النبطي كان السيطرة على الجزء الشمالي من طريق التجارة البري حيث كانت القوافل التجارية تمر بعدد من المدن النبطية، من أهمها البتراء والحجر وعينونة (لوكي كومي) ميناء الأنباط على البحر الأحمر. وكان لهذه المدن دور كبير في الحركة التجارية في المنطقة، بما في ذلك عمليات التبادل التجاري وتسهيل مرور القوافل التجارية، وما يتبع ذلك من ضرائب تجبى لصالح الدولة أو الحاكم السياسي في المنطقة.

إن سيطرة الأنباط على الحجر مكنتهم من التحكم في طرق التجارة القادمة من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها .. بينما مكنتهم السيطرة على النقب من التحكم في الطريق المار عبر غزة فسيناء إلى مصر. ويعزو بعض المؤرخين سبب إقدام الملك رب إل الثاني (70 – 106م) على نقل العاصمة من البتراء إلى بصرى إلى تحكم الرومان في طرق التجارة .. عندما تخلوا عن الطريق البري الذي كان يربط جنوب الجزيرة العربية بشمالها مروراً بالعلا "ديدان" والحجر (مدائن صالح)؛ ليسلكوا الطريق البحري الذي صار ينقل التجارة القادمة من جنوب الجزيرة العربية من شرق البحر الأحمر إلى غربه، في حين أخذت التجارة القادمة من ساحل الخليج تتجه إلى دومة الجندل ومنها إلى بصرى مرورًا بأم الجمال، مما جعل بصرى تحل محل الحجر والبتراء بوصفها إحدى النقاط التي تمر بها طرق التجارة.

وكان النشاط التجاري سببًا في اهتمام الأنباط بتربية الإبل والتزود بكل الوسائل التي تساعد على ترتيب البضائع وتصنيفها وتخزينها. ويشير بعض المؤرخين إلى تخصيص أماكن تخزين البضائع في الكهوف الكبيرة في منطقة البارد الواقعة بالقرب من البتراء، وتدل أحجام تلك الكهوف على أنها كانت مخازن للبضائع. ولم يتوقف نشاط الأنباط التجاري على نقل التجارة فقط، بل كانوا يصدرون بعض إنتاجهم المحلي إلى مصر، مثل القار الذي كانوا يستخرجونه من البحر الميت، وكان يستخدم في تلوين المعادن وصناعة المجوهرات والتحنيط. أما براعة الأنباط في الفخار فتشهد بها الكميات الكبيرة المكتشفة منه في الحجر والبتراء والعلا والبدع (مغائر شعيب)، ومن الشواهد الأخرى على ذلك فرن لصنع الفخار عُثر عليه في منطقة قريبة من البتراء، إضافة إلى الفخار النبطي الذي وجد في قرية الفاو ويعود إلى القرن الأول قبل الميلاد.

تذكر المصادر الإغريقية أن البخور والطيب كان يتم تجميعها في أرض سبأ ثم تحملها القوافل عبر مَعِين إلى العلا والحجر فتيماء، ومنها إلى الأبلة، ومن هناك تنقل إلى غزة أو أرسينوى (السويس). ولما كانت تجارة البخور تمر بأراضي الأنباط في طريقها إلى مصر، فقد قامت علاقات

تجارية كبيرة بين الأنباط والمصريين عبر غزة وسيناء، ولكنها كانت تتأرجح حسب مصالح الطرفين. وكان الأنباط يفضلون في الغالب أن يكون الحكم في مصر ضعيفاً أو واقعاً تحت تأثير إحدى القوى المتحالفة معهم حتى لا يهدد المصريون نفوذهم التجاري في البحر الأحمر. لذلك تحالف الأنباط مع الفرس وقدموا لهم مساعدات كبيرة مكنتهم من إسقاط حكم الأسرة السادسة والعشرين واحتلال مصر سنة 525 ق. م. وظل الأنباط بعد الغزو الفارسي لمصر يسيطرون على غزة حتى جاء الإسكندر فتصدوا له وقاوموه بشدة سنة 332 – 331 ق. م.

وبموت الإسكندر سنة 323 ق. م تنازع ضباطه على حكم الأقاليم التي سيطر عليها، ودارت بينهم حروب استمرت نحو أربعين سنة، نتج عنها قيام ثلاث ممالك هلينية هي مملكة البطالمة في مصر، ومملكة السلوقيين في سوريا وآسيا الصغرى، ومملكة آل أنتيجوس في مقدونيا واليونان. وهكذا أسس بطليموس الأول ملكه في مصر، وكان مبعث اهتمامه بالبحر الأحمر محاولة إحياء النفوذ المصري على ساحل النوبة المطل على البحر الأحمر. وكانت النوبة جزءاً من مصر منذ عهد الدولة الوسطى، ثم اتبع ابنه وخليفته بطليموس الثاني فيلادلفوس أسلوبين في التعامل مع الممالك المطلة على البحر الأحمر، أولهما الوسائل السلمية وتوطيد أواصر الصداقة والتفاهم، وهذا ما سارت عليه علاقته مع مملكة حِمْيَر ومملكة لِحْيَان، والآخر استخدام القوة العسكرية لإرهاب كل من يهدد النفوذ البطلمي في البحر الأحمر، وقد برز هذا الأسلوب ضد الأنباط الذين كانوا يسيطرون على الجزء الشمالي الشرقي من البحر الأحمر.

بدأ بطليموس الثاني تنفيذ سياسته العدائية ضد الأنباط بتحصين مدينة هيرونوبوليس الواقعة على خليج السويس، ثم بنى أسطولاً من السفن الحديثة ذات الطوابق الأربعة من المجدفين (quadri – remes)، وبدأ حركة كشوف منظمة لموانئ البحر الأحمر. ومن أهم تلك الكشوف قيام البحار أرسطو Aristo باستكشاف الساحل الشرقي للبحر الأحمر من خليج العقبة شمالاً إلى باب المندب جنوباً، وكان القصد من ذلك تغيير طرق التجارة القادمة من جنوب الجزيرة العربية عبر مملكة الأنباط إلى مصر، ونقل التجارة من جنوب الجزيرة إلى خليج السويس عبر البحر الأحمر، وبذلك تحل مصر محل مملكتي لحيان والأنباط في التحكم بطرق التجارة القادمة من جنوب الجزيرة العربية. وقد نجح أرسطو Aristo في مهمته الاستكشافية والتعرف على بعض الموانئ المهمة الواقعة على ساحل البحر الأحمر الشرقي وذلك في سنة 278 – 277 ق. م.

وما أن شعر الأنباط بنوايا بطليموس الثاني حتى بدأوا يتعرضون لسفن البطالمة في البحر الأحمر، وشبت بين الطرفين معركة بحرية في سنة 278 – 277 ق. م استطاع خلالها البطالمة تدمير سفن الأنباط، وحاولوا احتلال البتراء لكنهم فشلوا، واكتفوا بالسيطرة على ساحل البحر الميت الشرقي مما حرم الأنباط من استغلال ثرواته وأهمها القار. وخشية تهديد الأنباط للموانئ المصرية قام بطليموس الثاني بتحصين ميناء أرسينوي (السويس) بل كوّن فرقة من عرب الأنباط وجعل على قيادتها عربياً عُرف بقائد العرب Arabarches.

وتمكن بطليموس الثالث (246 – 221 ق. م) من اجتياح سوريا والوصول إلى نهر الفرات، وزادت السيطرة البطلمية على البحر الأحمر. وشهدت بداية القرن الثاني قبل الميلاد بداية تدهور البطالمة وضعفهم وتزايد نفوذ الرومان في مصر تمهيداً للاستيلاء عليها. وعندما كانت الملكة كليوباترا السابعة آخر ملوك البطالمة تستعد للهروب من الرومان إلى النوبة بواسطة أسطولها البحري الموجود في ميناء كليوباتريس قرب السويس، سارع الأنباط الذين تحالفوا مع الرومان ضد البطالمة بإحراق الأسطول البطلمي.

ضرب الأنباط المسكوكات وتعاملوا بها. ويعد الملك حارثة الثاني (120 – 96 ق.م) أول من ضرب

المسكوكات من ملوك الأنباط، وكانت مسكوكاته متأثرة بالمسكوكات الإغريقية، ويعد الملك حارثة الثالث (87-62ق.م) أول ملك نبطي تظهر صورته على المسكوكات بالإضافة إلى لقبه (محب الهلينية).

وجاء القائد الروماني بومبي إلى سوريا في سنة 64 ق.م ليجعل منها ولاية رومانية، غير أنه ما لبث أن عاد إلى روما وترك قائده سقاروس ليكمل المهمة، فقام بشن حملة على الأنباط في البتراء، ولكن الملك حارثة الثالث تصالح معه لقاء إتاوة يدفعها للرومان. وعندما عاد سقاروس إلى روما أراد تخليد حروبه ضد الأنباط فأصدر مسكوكة نقش عليها صورة الملك حارثة الثالث وهو يقدم غصنًا للقائد الروماني. ثم ضرب الملك مالك الأول (59 – 30 ق.م) في البتراء مسكوكات فضية نقش عليها اسمه كما يلي: "مالك الملك ملك الأنباط"، ونقش على وجهها صورة رأسه وعلى الظهر صورة صقر. وأصدر الملك عبادة الثالث (30 – 9 ق.م) في بداية فترة حكمه نوعين من المسكوكات، الأول عرف تجاوزاً بالمسكوكات البطلمية لأن وزنها كان على وزن المسكوكات البطلمية الأصلية، ونقش على الوجه رأس الملك عبادة الثاني، وعلى الظهر صورة صقر. أما النوع الثاني فعرف بالمسكوكات اليونانية، وقد صدر هذا النوع بين السنة العاشرة والسنة العشرين من حكم الملك عبادة الثاني، ونقش على الوجه صورة رأس الملك وعبارة "عبادة الملك ملك الأنباط"، وعلى الظهر صورة رأسي الملك والملكة.

وتوالى ضرب المسكوكات في عصر الملك حارثة الرابع (9 ق.م – 40م)، ولهذا فإن من بين كل عشر قطع من المسكوكات النبطية المعروفة توجد ثماني قطع ضربت في عهد الملك الحارثة الرابع. ومنذ بداية حكمه وحتى سنة 16م نقشت على هذه المسكوكات صورة الحارثة الرابع مع صورة زوجته الملكة خلدو (خلده)، ثم نقشت صورته وصورة زوجته شقيلة منذ سنة 18م مع عبارة "حارثة ملك الأنباط محب شعبه". ويشير وجود صورة الملكة على المسكوكات النبطية إلى الدور البارز الذي وصلت إليه النساء آنذاك، فقد بلغن مراكز فيها الكثير من القوة والسلطة، حتى إن بعضهن وصلن إلى مناصب رفيعة مثل منصب الوصي على العرش. وإلى جانب الزوجات، فقد نقش الملك حارثة الرابع على مسكوكاته أسماء بعض أبنائه مثل فصي إل.

ومن المسكوكات التذكارية التي صدرت في عهد الملك حارثة الرابع مسكوكة أصدرها تخليدًا للحركة العمرانية التي قامت في الحجر، ونقش على وجه تلك المسكوكة رأس الملك وعلى الظهر كلمة "حجر". وخلف حارثة الرابع ابنه مالك الثاني (40 – 70 م) الذي نقش أيضاً على مسكوكاته صورته وصورة زوجته شقيلة، وتوقف ضرب المسكوكات في السنوات الست الأخيرة من حكمه. وجاء بعده ابنه الملك رب إل الثاني (70 – 106م) الذي كان صغيرًا، فقامت بالوصاية على العرش أمه الملكة شقيلة، وظهرت صورتها على المسكوكات التي صدرت في بداية عهد رب إل الثاني. واستمرت الملكة شقيلة في الوصاية على العرش إلى سنة 75م. وفي سنة 106م سيطر الرومان على مملكة الأنباط وانتهى حكم رب إل الثاني، وأصبح ممثل الرومان في سوريا كورنيلوس بالما حاكمًا للمملكة النبطية نيابة عن الإمبراطور تراجان. ومنذ ذلك الوقت نقش على المسكوكات Arabia Adquista بدلاً من Arabia Capta وختم على المسكوكات النبطية بالشعار الروماني.

جاء ذكر المسكوكات النبطية في مقابر الحجر، إذ ضمت النصوص المسجلة على المقابر تحذيرات بعدم استخدام المقابر من قبل آخرين غير أصحابها، ومنها واحدة من أقدم المقابر في الحجر، مؤرخة في ديسمبر سنة 1 ق.م – يناير سنة 1م، وهي مقبرة "كمكم ابنة وائلة ابنة حرام وابنتها كليبة" الموجودة في مجموعة مقابر قصر البنت. وجاء فيها ذكر المسكوكات على هذا النحو: "... وكل من لا ينفذ المكتوب هنا سوف يعاقب من ذي شرى وهبل ومناة

بخمس لعنات وللكاهن بغرامة (قدرها) ألف قطعة حارثية من مدينة سلع (البتراء)...". ومن المقابر التي ورد عليها ذكر المسكوكات مقبرة "حوشب بن كافي بن الكوف التيمائيين (نسبة إلى تيماء) وهي من مجموعة مقابر المدقة والهاجري (قصر فهد) المؤرخة في سنة 4م: "... وكل من لا ينفذ ما هو مكتوب أعلاه سوف يغرم لذي شرى الإله بسبب انتهاك الممنوعات المذكورة أعلاه ألف قطعة سلعية حارثية ولسيدنا الحارثة الملك مثلها...".

أما مقبرة كهلان الآسي (الطبيب) بمجموعة قصر البنت المؤرخة في أبريل – مايو سنة 26م فقد ورد عليها: "... وكل من يكتب على هذه المقبرة غير ما هو عليها سوف يكون ملزمًا لذي الشرى بدفع قطع سلعية (نسبة إلى سلع "البتراء") قدرها ثلاثة آلاف حارثية ولسيدنا حارثة الملك مثلها...". بعد ذلك لم يأت ما يشير إلى الدفع للمعبود، وزادت الضريبة للملك. فهل كان الملك يقوم بالدورين؟ . أشار النص المكتوب على مقبرة هانئ بن تفصي في مجموعة قصر البنت المؤرخة في مارس – أبريل سنة 31م إلى المسكوكات النبطية على النحو التالي: "... وكل من يفعل غير ذلك سوف يضطر لأن يدفع لسيدنا ألف قطعة عملة حارثية...". أما النص الموجود على مقبرة عبد عباده بن أربيس وابنته وائلة الموجودة في مجموعة قصر البنت والمؤرخة في ديسمبر – يونيو سنة 35 – 36م فقد أشار للمسكوكات النبطية هكذا: "... ومن يغير ولا يرضخ لما هو مكتوب أعلاه سوف يغرم لسيدنا نقدًا ألفين من العملة الحارثية...".

تولى الملك رب إل الثاني عرش مملكة الأنباط سنة 70م، ونظراً لصغر سنة فقد تولت الوصاية عليه والدته الملكة شقيلة حتى سنة 75م، وكان يعاون الملكة شقيلة في الحكم أخوها أنيس (أنيشو) الذي ذكرته النقوش النبطية، وبعد انتهاء الوصاية تزوج الملك رب إل من الملكة جميلة. وتوضح المسكوكات النبطية المضروبة في عهده هذا التطور فبعد أن كانت صورة والدته الملكة شقيلة تظهر بجوار صورته على المسكوكات حتى سنة 75م، استبدلت فيما بعد بصورة زوجته الملكة جميلة، ولقب الملك رب إل بـ(الملك رب إل ملك الأنباط واهب الحياة والخلاص لشعبه)، ويرى بعض المؤرخين أن رب إل قد اتخذ هذا اللقب بعد تمكنه من القضاء على ثورة نشبت ضده في الحجر (مدائن صالح) بقيادة شخص يدعى دمسي أو دماسي الذي قاد تحالفاً من القبائل في منطقة الحجاز ضد الملك رب إل الثاني للسيطرة على الأجزاء الجنوبية من مملكة الأنباط، وهناك من يري أن رب إل الثاني قد اتخذ هذا اللقب في محاولة للوقوف في وجه الرومان الطامعين للاستيلاء على مملكة الأنباط.

قام الملك رب إل بنقل عاصمة المملكة من الرقيم (البتراء) إلى بصرى بعد أن صارت القوافل التجارية القادمة من جنوب الجزيرة العربية لا تسلك الطريق الذي كان يربط جنوب الجزيرة العربية بشمالها مروراً بديدان (العلا)، والحجر (مدائن صالح) .. وصارت عوضاً عن ذلك تسلك الطريق البري حتى تصل إلى ديدان (العلا)، ومنها تتجه إلى موانئ البحر الأحمر؛ لتنقل عبرها التجارة إلى مصر بعد سيطرة الرومان عليها. وأخذت القوافل القادمة من ساحل الخليج تتجه إلى دومة الجندل ومنها إلى بصرى مروراً بأم الجمال، مما جعل بصرى تحل محل الحجر (مدائن صالح)، والرقيم (البتراء) بوصفها إحدى أهم محطات طرق التجارة.

حرص الأنباط منذ عهد الملك حارثة الرابع (9ق.م - 40م) على امتداد دولتهم داخل الجزيرة العربية فوصلوا إلى الجوف ووادي السرحان وتيماء واتخذوا من عينونة (لوكي كومي) ميناءً رئيساً لهم على ساحل البحر الأحمر، وامتدت مملكتهم إلى الحجر (مدائن صالح) التي صارت في عهد حارثة الرابع بمثابة عاصمة ثانية للأنباط أو قاعدة عسكرية متقدمة تمكن الأنباط عن طريقها من السيطرة على طريق

التجارة القادم من جنوب الجزيرة العربية، كما كانت الحجر (مدائن صالح) قوة عسكرية احتياطية بعيداً عن الأجزاء الشمالية من مملكة الأنباط المتاخمة للحدود مع الرومان .. ولما كانت التجارة هي عصب الاقتصاد النبطي، فإن تحكم الرومان في طرق التجارة البرية والبحرية ساعد على سرعة انهيار مملكة الأنباط فقد اضطر الملك رب إل الثاني إلى نقل العاصمة من الرقيم (البتراء) إلى بصرى كما سبق أن ذكرنا بعد أن تحولت طرق التجارة عن الرقيم (البتراء)، ولم يتوقف الرومان عند هذا الحد فقد أقدموا في عهد الإمبراطور تراجان Tragan (98-177م) بإنهاء حكم الأنباط في سنة 106م، وبذلك سقطت إحدى أهم الممالك العربية التي سيطرت على جنوب بلاد الشام وشمال غرب الجزيرة العربية، وضمت أملاكها إلى الإمبراطورية الرومانية، وأصبح ممثل الرومان في سوريا كورنيلوس بالما Cornelius Palma حاكماً على ما عرف بالولاية العربية Provincia Arabia التي ضمت أراضي مملكة الأنباط مع البلاد العربية الأخرى التي استولى عليها الرومان الذين اتخذوا من مدينة بصري قاعدة للولاية العربية.

وبسقوط مملكة الأنباط فقد العرب أهم ممالكهم التي سيطرت على جنوب بلاد الشام وشمال غرب الجزيرة العربية، وبالرغم من ضياع مملكتهم ظل الأنباط يمارسون الأنشطة الاقتصادية المختلفة مثل الزراعة، فقد عثر في النقب على نقوش نبطية مؤرخة في سنة 126م تشير إلى اهتمام الأنباط بالمنشآت الزراعية التي تعود إلى الفترة ما بين سنتي 88- 98م في فترة حكم الملك رب إل الثاني، واستمر الأنباط يمارسون التجارة ويقودون القوافل .. وقد دلت على ذلك النقوش النبطية ومنها نقش مؤرخ في سنة 266م وعثر عليه في سيناء ويؤكد هذا النقش أن الأنباط كانوا لا يزالون حتى ذلك الوقت يتولون قيادة القوافل على الطرق التجارية بين مصر والجزيرة العربية.

بعد أن قضى الرومان على مملكة الأنباط في سنة 106م تحول طريق التجارة إلى البحر، وبدأت الحجر تفقد أهميتها بوصفها محطة رئيسة على طريق التجارة يتم فيها تبادل السلع وتجبى فيها الضرائب من أرباب القوافل إلى غير ذلك من المعاملات. وبانتهاء كل هذه المميزات التي كان لها دور أساس في رفع المستوى الاقتصادي في المنطقة، لم يعد السكان - سواء أكانوا تجاراً أم موظفين في جباية الضرائب أو جنوداً يحرسون القوافل التجارية أو جمالين يقومون بنقل السلع التجارية أو غيرها من الوظائف – ينتفعون بهذه المميزات، فأخذوا يهجرون هذا الموقع هجرة نهائية لانعدام وجود فرص العمل ومقومات الاستقرار والحياة الاقتصادية.

تضاءلت أهمية مدن الأنباط من الناحية السياسية بعد سقوط المملكة سنة 106م واحتفظت تلك المدن بازدهارها الحضاري والاقتصادي في ظل الحكم الروماني، فقد احتفظت الرقيم(البتراء) بمكانتها الاقتصادية المزدهرة وبوصفها أيضًا عاصمة للأنباط بالرغم من انتقال مركز الولاية العربية إلى بصرى، وقد زار الإمبراطور الروماني هدريان Hadrian (177- 138م) البتراء سنة 130-131م، وإذا كان الرومان قد نجحوا في القضاء على مملكة الأنباط، فإنهم لم يستطيعوا القضاء على التراث الحضاري والثقافي الذي أنتجه الأنباط طوال القرون الماضية، فظل مستمراً بعد الاحتلال الروماني .. ويتجلى ذلك في تأثر الرومان أنفسهم بالحضارة النبطية وإقدام أحد حكام الولاية العربية ويدعى سكستيوس فلورنتينوس Sextius Florentinus على تشييد مقبرة خاصة له على طراز المقابر النبطية في الرقيم سنة 127م.

وهكذا ظلت الرقيم (البتراء) مركزاً لنشر الحضارة النبطية بجانب كونها مركزاً اقتصادياً مهمًا منذ الاحتلال الروماني سنة 106م، وحتى أوائل القرن الرابع الميلادي، فبدأت تفقد مكانتها الاقتصادية ثم أصابها زلزال مدمر سنة

363م أدى إلى تدمير العديد من منشآتها .. ومنذ ذلك الوقت اقتصر دورها على كونها مركزاً دينياً مسيحياً، وخلال تلك الفترة استخدم الكثير من مبانيها كنائس أو استخدمت أنقاض مبانيها في تشييد الكثير من الكنائس، وبعد بزوغ فجر الإسلام كان للقبائل العربية المقيمة في الرقيم (البتراء) علاقات تجارية وثيقة مع مدن الحجاز وخاصة المدينة المنورة، ولعبت القبائل العربية المقيمة آنذاك في الرقيم (البتراء) دوراً مهمًّا في حركة الفتوح الإسلامية في بلاد الشام حيث ساعدت الجيوش الإسلامية في استرداد بلاد العرب من سيطرة البيزنطيين الذين ورثوا السيطرة عليها من الرومان.

أما عاصمة الأنباط الثانية الحجر (مدائن صالح) فقد ظلت مركزاً حضارياً نبطياً؛ إذ يبدو أن الرومان لم يتوغلوا داخل الجزيرة العربية وإن كانت آثارهم موجودة حتى تبوك ، حيث عثر في معبد روافة على نقش بالخطين النبطي واليوناني وأقيم المعبد تخليداً لذكرى كل من:

ماركوس أورليوس أنطونينوس Marcas Aurelius Antoninus، و لوكيوس أورليوس فيروس Lucius Aurelius Verus ، وقد شيَّد المعبدَ حسب ما جاء في النقش ثموديون في منتصف القرن الثاني الميلادي.

ويبدو أن الحجر (مدائن صالح) قد بقيت بعيدة عن سيطرة الرومان الفعلية، واستمر تشييد المقابر بها على الطراز النبطي لفترات طويلة بعد سقوط مملكة الأنباط، ومن تلك المقابر مقبرة رقوش بنت عبد مناة المؤرخة في يوليو سنة 267م.

وبعد انتهاء الرومان من ضم مملكة الأنباط وتأسيس الولاية العربية أوكلوا مهمة المحافظة على الأمن فيها إلى قوات رومانية عرفت باسم اللجيون الروماني، وفيما بعد قام الرومان بتقسيم الولاية العربية في القرن الثالث الميلادي إلى ولايتين: الولاية الشمالية وعاصمتها بصرى، والولاية الجنوبية وعاصمتها الرقيم (البتراء). ولتسهيل انتقال الجيوش الرومانية بين مدن الولاية العربية تم تعبيد طرق خاصة تنتقل عبرها الجيوش الرومانية ومنها: الطريق الممتد من الحدود الشمالية للولاية العربية إلى بصرى ومنها إلى عمان ثم يتجه جنوباً إلى الرقيم (البتراء) ومنها إلى البحر الأحمر والطريق الآخر يبدأ من عمان مارا بجرش ثم يصل إلى بصرى، وقد تم تعبيد الطريق الأول سنة 111م، أما الطريق الآخر فقد كان معروفا قبل سقوط مملكة الأنباط ،وتم تحويله منذ سنة 112م إلى طريق عسكري تجتازه الجيوش الرومانية لبسط سيطرتها على أجزاء الولاية العربية.

د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع ال عربية :

- الأشبط ، علي عبدالرحمن 2004م .
الأعراب في تاريخ اليمن القديم : دراسة من خلال النقوش من القرن الأول ق.م. وحتى القرن 6م (وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء).

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب 1975م.
لمحات من بعض المدن القديمة في شمال غرب الجزيرة العربية (الدارة، العدد الأول، ص 74-87) .

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب 1979م .
أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها (الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، ص 3-12) .

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب 1982م .
قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية(الرياض) .

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب 1984م .
الموسم الرابع لحفريات قرية (الفاو) (الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، ص 11-24، جامعة الملك سعود، الرياض 1984م) .

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب وآخرون 1984م .
مواقع أثرية وصورة من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية (جامعة الملك سعود، الرياض) .

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب وآخرون 1999م .
الموصلات والاتصالات في المملكة العربية السعودية خلال مائة عام (وزارة الموصلات، الرياض) .

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب؛ وحسين على أبوالحسن 2002م .
العلا ومدائن صالح حضارة مدينتين (دار القوافل للنشر والتوزيع، الرياض) .

- أبو الحسن، حسين علي 1997م .
قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا (مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض) .

- الأنصاري، عبدالرحمن الطيب وآخرون 1999م .
مأسل (مطبوعة علمية تعنى بدراسة الكتابات العربية القديمة في جزيرة العرب تصدرها لجنة دراسات الكتابات العربية القديمة في قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود، الرياض.

- أبو الحسن، حسين علي 2002م .
نقوش لحيانية من منطقة العلا، دراسة تحليلية مقارنة (وكالة الآثار والمتاحف، الرياض) .

- زيادة، نقولا 1984م .
دليل البحر الإرتري وتجارة الجزيرة العربية البحرية (الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، جمادى الأولى 1399هـ/ أبريل 1979م، كلية الاداب، جامعة الملك سعود، ص 259-277).

- السعود، عبدالله 1996م .
استئناس الجمل وطرق التجارة الداخلية (أطلال، العدد الرابع عشر ص 99-103) .

- عباس، إحسان 1987م .
تاريخ دولة الأنباط (بحوث في تاريخ بلاد الشام، عمان)

- العتيبي، محمد سلطان 2002م .
التنظيمات والمعارك الحربية في سبأ من خلال النصوص منذ القرن السادس ق.م وحتى القرن السادس الميلادي (مخطوط رسالة دكتوراه، قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود).

- علي، جواد 1969م .
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (دار العلم للملايين، بيروت) .

- الفاسي، هتون أجواد 1993م .

الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية في الفترة ما بين القرن السادس قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي (الرياض) .

- **مهران، محمد بيومي 1994م .**

تاريخ العرب القديم (الطبعة الحادية عشرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية) .

- **هيلي، جون 1986م .**

الأنباط ومدائن صالح (أطلال، العدد العاشر ص 135-144) .

- **هيلي، جون 1993م .**

نقوش المقابر النبطية في مدائن صالح (ترجمة سليمان الذييب، جامعة مانشستر) .

- **يوسف، فرج الله أحمد 2002م .**

مسكوكات ممالك الجزيرة العربية قبل الإسلام (أدوماتو، العدد الخامس، ص ص 73-102) .

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- **Al-Ansari, A.R. 1966**

Critical and Comparative Study of Lihyanite Personal Names, (Unpublished Ph.D. Thesis), University of Leeds.

- **Al-Ansary, A.R & Abu-Al-Hassan,H.2001**

The Civilization of Two Cities Al-Ula and Madain Salih. (Dar Al-Qawafil -Riyadh.).

- **Al-Ansary, A.R 2002**

Al-Gerrha, the Port of 'Qaryat' al-Fau PP. 7-17 (Journal of Semitic Studies Supplement 14, Studies on Arabia in Honour of Professor G. Rex Smith. University of Manchester).

- **Bowen, R.1958**

Ancient Trade Routes in South Arabia. .

- **Brice, W. 1984**

The Classical Trade Routes of Arabia from the Evidence of Ptolemy, Staabo and Pliny. (Studies in the History of Arabia, Pre-Islamic Arabia, Riyadh).

- **Groom, N. 1981**

Frankincense and Myrrh: A Study of the Arabian Incense Trade. (London).

- **Healey. J. 1993**

The Nabataean Inscriptions of Mada'in Salih. (Journal of Semitic Studies Supplement 1, The University of Manchester).

- **Kirwan, L. 1984**

Were to Search for the Ancient Port of Leuke Kome PP.55 – 61. (Studies in the History of Arabia, Pre-Islamic Arabia, Riyadh).

- **Winnett, F. & Reed, W. 1970**

Ancient Records from North Arabia. (Toronto).

الممالك العربية المتأخرة

المقدمة :

شهدت القرون التي سبقت ظهور الإسلام، ولا سيما الأربعة الأخيرة منها نشوء دويلات وممالك عربية كانت اثنتان منها في الجزيرة وأربع في الهلال الخصيب. وتتصف هذه الفترة في تاريخ هذه الممالك العربية بمميزات وظواهر يمكن تلخيصها على الوجه التالي:

1- هذه الدويلات والممالك تحركت في مدار الدولتين الكبريين- فارس والروم- في الهلال الخصيب وإلى درجة أقل في مدار الحبشة؛ لذلك لم تكن ذات سيادة أو استقلال تام. ولكن عرب هذه الدويلات استفادوا من هذا الاتصال بحضارتي الروم والفرس في مجالات كثيرة: التنظيم العسكري، الفن، المعمار، ومظاهر الحياة المادية.

2- شهد هذا العصر صراعًا بين ديانات الشرق الأدنى لاجتذاب العرب إليها. فشت اليهودية في الجنوب العربي ولا سيما في حمير، وفشت النصرانية في غسان وغيرها من الفئات العربية، وظهرت الزرداشية/المجوسية في بعض قبائل شرق الجزيرة مثل تميم.

3- ومع أن هذه الممالك كغسان ولخم، كانت فئات عسكرية تحمي حدود الدولتين من هجمات البدو وتشترك في حملاتهما الحربية المنظمة، إلا أنها أسهمت أيضا في حضارة الرقعة التي كانت كل واحدة منها تحتلها. فقد عملت هذه الدويلات على إقرار النظام وحماية طرق التجارة وإقامة الأسواق العربية العامة وإعمار البلاد بما أسسوا من مراكز استقرار وبنوا من قصور وقلاع وغيرها من المنشآت .. وكان بلاط بعضهم موئلا للشعر العربي، دفعه إلى الإمام وصرفه إلى اتجاهات جديدة.

4- وأربع من هذه الممالك كانت تنتمي إلى الجنوب العربي: حمير وكندة وغسان ولخم .. الأمر الذي يمثل أهمية عرب الجنوب في صنع التاريخ العربي لهذه الفترة. فمن هذا الجنوب تحركت كندة، وغسان، ولخم لتصنع تاريخ العرب في الجزيرة والهلال الخصيب. وبين هذه الممالك كلها كانت حمير هي الوحيدة التي تمتعت بسيادة واستقلال تامين .

5- وعلى الرغم من تباين الرقع الجغرافية التي كانت مراكز هذه الممالك، ومن العداء الذي كان كثيرًا ما يستعر بين هذه الفئات أمثال الغساسنة والمناذرة؛ إلا أن هذه الفئات كانت تشعر وتعرف أن انتماءها العرقي كان لشعب واحد هو العرب، تؤلف بينهم العادات والتقاليد وفوق كل ذلك اللغة. فكان العرب مثل يونان العالم القديم: مجتمع يتألف من مدن، الواحدة منها مستقلة عن الأخرى وفي تناحر شديد مع بعضها البعض، ولكنها تعرف أنها تنتمي إلى العرق اليوناني تجمعهم روابط اللغة والعادات والتقاليد والدين.

حميــر :

كانت حمير آخر ممالك جنوب الجزيرة قبل ظهور الإسلام. يحيط الغموض بمعنى الاسم حمير وهل هو مشتق

من اللون الأحمر؟ كما يحيط بهويتها. هل هي قبيلة أم حلف؟ وكذلك في بداية التقويم الحميري هل هي السنة (109) قبل الميلاد أم (115)؟ بدأ سلطان حمير في الظهور عندما تحررت من سلطة قتبان عليها في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، ثم وسعت سلطانها في الجنوب على حساب مملكة سبأ واتخذت ظفارًا عاصمة لها، حيث كان قصرها ريدان. بلغت سيادتها الذروة في نهاية القرن الثالث الميلادي الذي شهد بداية فترة جديدة لسلطان حمير الذي دام ما يقارب القرنين، وكان أشهر ملوك هذه الفترة ثلاثة: شمر يهرعش، وأبكرب أسعد، ويوسف أسأر يثأر.

وَحَّد شمر يهرعش حوالي السنة (300) ميلادية الجنوب عندما هزم حضرموت وضمها إلى ملكه وعكس هذا في لقبه الطويل: ملك سبأ، وذو ريدان وحضرموت ويمنت. ولم يكتف شمر بتوحيد الجنوب وإخضاعه لسيادته ولكن امتدت اتصالاته وأنشطته خارج الجنوب والجزيرة كما يفهم من نقش سبئي يذكر سفارة له إلى عاصمة فارس الساسانية طيسفون/المدائن. وكان ملك حمير في القرن الخامس الميلادي (ابكرب أسعد) ملكًا محاربًا ولاسيما مع الأعراب في الجزيرة، وعكس هذا عندما أضاف إلى اللقب الملكي أنه ملك "أعرابهم في الطود وتهامة أو في الجبل والسهل". وتجعل المصادر العربية المتأخرة (أبكرب أسعد) أعظم ملوك حمير وتقرن اسمه بـ يثرب ومكة، وتصف تهوده في يثرب، والنقوش لا تؤيد يهوديته ولا يهودية حمير.

وفي الربع الأول من القرن السادس ملك حمير (يوسف أسأر يثأر)، وبلغ من حماسه لليهودية أنه قام بحملة محاولاً تهويد الجنوب، وهذا أوقعه في عراك مع النصارى ولاسيما في مدينة نجران التي كانت أهم قاعدة للنصرانية في الجنوب. بلغ هذا الصراع ذروته عندما حاصر يوسف نجران وواجه نصاراها بخيارين، التهود أو القتل. ولما رفض أهلها التهود كانت المذبحة التي أودت بحياة ما يقرب من (300) رجل وامرأة. وكان يوسف قد أعمل السيف في الحامية الحبشية التي كانت تعسكر في العاصمة ظفار.

ويجنح المفسرون إلى القول: إن صدى هذه الأحداث ولاسيما في نجران يسمع في سورة البروج القرآنية. بلغت أخبار هذه الأحداث عالم النصرانية المؤلف من الروم والحبشة والغساسنة في بلاد الشام وعقدت النية على الانتصار لشهداء نجران والانتقام من حمير اليهودية. وجرد نجاشي الحبشة (الأصبحة) حملة على حمير، ونقل أسطول رومي جيشه من الحبشة عبر باب المندب وتغلب الأحباش على الجيش الحميري بقيادة يوسف الذي لقي حتفه عندما أغرق نفسه في البحر كما تذكر المصادر العربية.

وهكذا فقدت حمير -آخر دول الجنوب- سيادتها طوال قرن حتى مجيء الإسلام. وكانت نتائج هزيمة حمير بعيدة الأثر في تاريخ الجنوب والجزيرة كلها، فقد أدى هذا إلى احتلال أجنبي للجنوب بدأته الحبشة واستمر نصف قرن وتلاه احتلال فارسي دام نصف قرن آخر.

وجدير بالذكر أن حمير هي المملكة الوحيدة من بين هذه الممالك العربية المتأخرة التي يذكرها القرآن الكريم فملوكها يدعون التبابعة، جمع تبع. وهناك إشارات تعلل تدهور وسقوط حمير والجنوب عموما كما في سورة سبأ حيث أشير إلى انفجار سد مأرب (سيل العرم) وأثر ذلك في إلحاق الضرر بزراعة الجنوب وأيضا إلى إيثار أهله المباعدة بين أسفارهم. وهكذا يجمع القرآن بين السببين الزراعي والتجاري لتدهور وسقوط حمير والجنوب. وكان هذا التدهور قد بدأ لسبب آخر وبشكل آخر أيضًا. وهو المنافسة التجارية القوية التي واجهتها حمير في البحر الأحمر في عهد البطالمة، حكام مصر المقدونيين، الذين جعلوا البحر الأحمر بحيرة بطلمية. وعندما أفلح (هبّالس) Hippalus في القرن الأول الميلادي في اكتشاف سر الرياح الموسمية التي كانت تدفع السفن بعد خروجها من البحر الأحمر إلى الهند كان ذلك قضاءً على احتكار حمير للتجارة الهندية.

كان مجتمع حمير طبقيًا فالملك كان رأس الدولة وكان هناك الأقيال، أعضاء البيوتات في القبائل، التي تدعوها النقوش (أشعُب) وهي قريبة من "شعوب" جمع (شعب) في عربية الشمال، ولكن مفهوم القبيلة الحميرية كان غير مفهوم القبيلة العربية الشمالية التي كانت تنتمي إلى جدّ واحد. وتذكر النقوش أيضًا كلمة (مقتوى) وهي كلمة لها دلالات مختلفة منها (أمير الجيش)، وبين هذه العناصر الحميرية السكانية كان هناك بدو رحّل دعتهم النقوش كما دعاهم القرآن الكريم (الأعراب). وكان في هذا المجتمع الجنوبي أيضًا عبيد لهم أهمية في حياة حمير الاقتصادية.

دانت حمير بالوثنية وكان ثالوثهم الديني يتألف من الشمس وعثتر (كوكب الزهرة) والقمر المعروف في سبأ بـ(المقة) وفي معين بـ(ود) وفي قتبان بـ(عم) وفي حضرموت بـ(سين). وكانت اليهودية والنصرانية تتنافسان، كل واحدة منها، في اجتذاب حمير نحوها. مالت حمير إلى اليهودية أكثر من ميلها إلى النصرانية التي حاول الروم نشرها في حمير في القرن الرابع الميلادي، ذلك أن هذه كانت دين الدولة الرومية التي كان لها مطامع سياسية وتجارية في الجزيرة تصطدم بمصالح حمير، بينما لم يكن لليهودية دولة قائمة في ذلك العصر تهدد سيادة حمير. وكانت حمير أيضًا في نزاع مستمر مع الحبشة وهي الأخرى كانت تدين بالنصرانية منذ القرن الرابع الميلادي، الأمر الذي جعل من الحبشة إلى حد ما دولة تبيعة للإمبراطورية الرومية النصرانية. وبذلك أصبحت الدولتان تشكلان محورًا سياسيًا وعسكريًا ودينيًا ضد حمير. كل هذا زهّد حمير في النصرانية وزاد في ميلها إلى اليهودية التي اعتنقتها حمير في القرن الخامس. ولكن النصرانية عادت فتغلبت على اليهودية في القرن السادس بمساعدة الحبشة التي أطاحت بالملك يوسف، الملك الحميري المتهود، وسادت الحبشة حمير والجنوب حوالي نصف قرن، وكان ملكها (أبرهة) الذي اتخذ صنعاء عاصمة له ومنها أرسى قواعد النصرانية في البلاد. وفي هذه الفترة من السيادة الحبشية أصبحت نجران عند النصارى العرب مدينة الشهداء وصارت محجّة لهم، وبنى أبرهة (القليس) في صنعاء، وهي الأخرى أصبحت معلمًا نصرانيًا مهما في الجنوب، يرى المفسرون أن له علاقة بالحملة التي قادها "أصبحت الفيل" ضد مكة، كما هو مبسوط في سورة الفيل. وأخيرًا دخلت الزرداشية الجنوب مع الحملة الفارسية التي غلبت الحبشة في السبعينات من القرن السادس، وقد أنعش الحضور الفارسي في الجنوب اليهودية وكذلك المسيحية النسطورية التي كانت سائدة بين نصارى الفرس: الأمر الذي أذكى الصراع الديني والمذهبي في البلاد. وهكذا كان الوضع الديني في الجنوب حين وصلت إليه الدعوة الاسلامية في السنة 628/6 بعد أن شهد في غضون ثلاثة قرون أربع تجارب دينية على التعاقب: الوثنية، اليهودية، النصرانية، والزرداشية.

وقد أدت حمير دورًا حضاريًا مهمًّا في تاريخ الجزيرة والعرب. فالجنوب عكس الشمال كان أكثر سكانه حضرًا يعيشون حياة الاستقرار بالزراعة والصناعة والتجارة. وقد دعا الكتاب اليونانيون والروميون هذه المنطقة لهذا السبب "العربية السعيدة" كما دعتها المصادر العربية "اليمن الخضراء". وكانت الرياح الموسمية تأتيها وتُنعش تربتها للزراعة. فازدهرت هذه في حمير واليمن التي أتقن أهلها إقامة السدود لاختزان الماء. وأهم هذه السدود هو سد مأرب الشهير الذي شهد له المهندسون المعاصرون بالتفوق والإبداع في بنائه. وأتقنوا كذلك تشكيل المصاطب والتلال المدرجة للمحافظة على المياه والتربة، وهذه المهارة جعلت من الجنوب جنة للفواكه والخضار والأشجار المثمرة. وقد ذكر ذلك القرآن الكريم في سورة سبأ ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾ ولم يقتصر الرخاء الحياتي في الجنوب على المأكل والمشرب ولكن تعداه من الضرورات المعيشية إلى لوازم حياة الترف، فكان الجنوب

قاعدة هذه اللوازم ومنها المنسوجات والعطور والتوابل ولاسيما المرّ واللبان الذي كانت دول البحر المتوسط في حاجة شديدة إليه والذي كانت شجيراته تنمو فقط في الجنوب العربي. ولهذا أصبحت حمير واليمن المركز الرئيس في العالم القديم لتصدير ما تطلبه حياة الترف والرفاهية وهو الدور الذي تقوم به (باريس) في هذه الأيام. وعلاوة على منتجات البلاد المحلية كانت منتجات البلاد الأخرى عبر البحار- من الصومال والهند ترد إلى ميناء قانا على الشاطئ الجنوبي ثم تصدّرها حمير إلى عالم البحر المتوسط والهلال الخصيب في إطار تجارة العبور التي كانت تهيمن عليها حمير بسبب موقعها الجغرافي.

هذا إذن كان دور حمير واليمن التاريخي الكبير في العصور القديمة .. أحدثت هذا النشاط في الاقتصاد العالمي وكانت سبيل الاتصال بين عالم الجنوب والمحيط الهندي من جهة وبين عالم البحر المتوسط ودوله الكبرى من جهة أخرى. وهنا في هذا الإطار يظهر دور الجمل (سفينة الصحراء) واضحًا. فهو الحيوان الوحيد الذي جعل قيام حمير بهذا الدور التاريخي ممكنًا، وقد أحسن وصفه شعراء العصر الجاهلي وإن لم يشيروا بطبيعة الحال إلى دوره التاريخي ولكن هذا هو المهاد للعمل الذي قام به هذا الحيوان الصبور في خدمة الجنس البشري عندما مكنه من عقد حبال التواصل التجاري بين العالمين الهندي والمتوسطي .

وكان لطرق القوافل ولاسيما الشريان الرئيس في غرب الجزيرة- طريق العطور والتوابل – الممتد من حمير إلى بلاد الشام صدى عمراني ذو بال بين عرب الشمال. فقوافل حمير والجنوب أسهمت إلى حد ما في تعريف البدو ببعض عناصر الحضارة. فأصبح هؤلاء أدلاء وحرّاسا لهذه القوافل الجنوبية التي كانت تمر في ديارهم بدلاً من قيامهم بسلب هذه القوافل ونهبها.. وظهرت محطات لهذه القوافل كانت هذه تقف عندها وتستريح، تحولت بعد ذلك إلى مدن وقرى مثل ديدان/العُلا. ولعل (جُرش) و(ميفعة) في شرق الأردن كانتا أصلا محطتين لهذه القوافل التي كانت تصل إلى القرى من الجنوب .. فهذان الاسمان لهما وجود كاسمي مكانين في الجنوب. ولعل توظيف الأعراب في إطار القوافل قاد إلى ظهور الكتابة بشكلها المبسط بين البدو لضرورتها في كتابة العهود والمواثيق التي كانت تسمح للقوافل أن تمر في ديار القبائل، وهذا قد يفسر الانتشار الواسع للنقوش الموسومة خطأ بالنقوش الثمودية في كثير من أنحاء الجزيرة والتي يشي بالأثر الحميري فيها قلمُ المسند الذي كُتبت به هذه النقوش وليس الآرامي الشائع في الهلال الخصيب.

وقد قاد الرخاء الاقتصادي بسبب التجارة الرابحة إلى حياة بها شيء من الترف والرفاهية في حمير، فالحلل الجنوبية كان لها شهرة خاصة وكذلك الحجارة الكريمة كالجزع الذي اشتهرت به العاصمة ظفار. وقد انعكس هذا الرخاء الاقتصادي على وجه الخصوص في عمائر حمير سواء منها الدينية والمدنية مثل المعابد التي كانت تقام للمعبودات الوثنية أو البيع النصرانية كـ(قليس) صنعاء و(كعبة) نجران أو القصور الملكية مثل (سلحين) في مأرب و(غمدان) في صنعاء، و(ريدان) في ظفار. هذه هي المصانع- مصانع حمير- التي تكلمت عنها المصادر الأدبية وشهرها إكليل الهمداني. ولا يزال هذا العمران يرى إلى الآن في أبنية المدن اليمنية العالية ذوات الطبقات المتعددة التي تبدو وكأنها (ناطحات السحاب). ولكن هذه المباني وكذلك المنحوتات كانت تنقصها الناحية الفنية الخالصة التي زيّنت مباني الشعوب الأخرى ومنحوتاتها مثل اليونان، إلا أن هذا لا ينطبق على الخط الحميري الجميل المسند لما به من أناقة لافتة تُشيعها زواياه القائمة. ويظن البعض أن هذا راجع للخط اليوناني الذي كان له نصيب في إكساب الخط الحميري المسند بعض جماله وأناقته.

تدمر :

نشأت تدمر (التي توسط موقعها الجغرافي بين دمشق والفرات) حول نبع ماء عُرف بالآرامية باسم (أفقا) أي (مخرج الماء) جعل من المنطقة المحيطة بها واحة خصيبة بها الزيتون والنخيل .. واشتقاق الاسم لايزال موضع جدل ولعله من جذر آرامي معناه (العجب).

الإشارات التاريخية إليها ترقى إلى الألف الثانية قبل الميلاد. وهي مؤسسة ساميّة قديمة دخلتها العناصر العربية في وقت لا يُعرف بالضبط، وهكذا تبدو في القرون الثلاثة الأولى للميلاد، مدينة تختلط فيها الأعراق ولكن العنصر الغالب في السكان كان العنصر العربي وكذلك كان حكامها.

ومع أن واحة تدمر كانت واحة خصيبة إلا أن الزراعة لم تكن أساس نموها ونجاحها وقوتها، بل كان ذلك راجعًا إلى مركزها الجغرافي بوصفها محطة للقوافل التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. وقد تصاعدت أهميتها كمدينة قوافل بعد أفول نجم البتراء وسقوط مملكة الأنباط في قبضة الرومان سنة (106) ميلادية " ومصائب قوم عند قوم فوائد" وبذلك صارت تدمر مدينة التجارة الكبرى- تجارة العبور- لمدة دامت قرنين ونصف قرن وأصبحت شهرتها التجارية عالمية، وأصداءُ هذه الشهرة التجارية تُسمع في النقوش التي تذكر وتعظم (رئيس القافلة) و(رئيس السوق) وفي الضرائب التي كانت تُجبى لصندوق الدولة من الرسوم الجمركية التي كانت تفرضها على تجّار العبور كما يُفهم من نقش مكتوب بالآرامية واليونانية يرجع إلى السنة (136) ميلادية .. الأمر الذي أدى إلى رخاء اقتصادي واسع ظهرت آثاره واضحة في حياة أهل تدمر لا سيما في المباني والمنحوتات، الدينية منها والمدنية، والتي لا تزال آثارها بادية إلى الآن.

دانت تدمر بالوثنية الساميّة وهذا واضح من أسماء معبوداتها المتعددة. وقد عرفت تدمر معبودات ذات صبغة عربية: اللات ومعن وعزيز وسعد ومناة وسلمان ورحيم ورُضى. وتأثرت كذلك بمعبودات اليونان مثل هيليوس Helios الذي ساوته (بالشمس). وكان كبير المعبودات هو (بل) وهو المعبود البابلي المدعو (بعل) عند الكنعانيين. وكان الثالوث الوثني عندهم مؤلفا من (بل) و(يرحبول) رب الشمس و(عجلبول) رب القمر فضلا عن (نبو) وهو ابن الرب (بل) و(بعل شمين) سيد السماوات، وأقيمت المعابد لهذه المعبودات أمثال (بل) و(نبو) و(بعل شمين) و(اللات) و(مناة) وكان معبد (بل) المعبد الرئيس في المدينة.

وكما ظهر رخاء المدينة في كثرة المعابد الفخمة ظهر أيضًا في المعمار المدني، فكانت منشآت تدمر المدنية تتألف من شوارع طويلة تزيّن الأعمدة جوانبها، ومن المصلبّة أي مفترق الطريقين الرئيسين في المدينة، ومن أقواس النصر، والميدان الذي كان مجمّعها لكثير من نشاطات المدينة، والحمامات، والمسرح، والمدافن التي كان بعضها مدافن برجية وبعضها مدافن أرضية وكثير من هذه المعالم لا يزال قائمًا إلى هذا اليوم. والمنحوتات التدمرية لا تقل عن الأبنية أهمية، بل تفوقها في تمثيلها لرخاء تدمر وتقدمها الفني. وكانت هذه التماثيل تُقام لحكام المدينة ووجهائها وقوّاد القوافل وكانت المنحوتات الدينية شائعة وأكثرها جنائزيّة تمثل أشخاصًا تدمريين، كما تمثل توابيت وأسرّة عليها مشاهد من الولائم الجنائزيّة، ولم تعدم المنحوتات الدينية صورا جدارية ملوّنة تشير إلى تطور فن الرسم والتصوير في تدمر. وقد فتنت هذه العمائر الجميلة الفخمة كل من رأى تدمر. ووصلت شهرتها قديمًا إلى أحد أمراء الشعر الجاهلي – النابغة الذبياني – الذي قد يكون زارها وهو في بلاد الشام ونسب بناءها العجيب إلى الجن الذين عملوا للملك سليمان "يبنون تدمر بالصُفّاح والعمد". ومع أن أهل تدمر كان أغلبهم عربًا يتكلمون العربية في حياتهم اليومية إلا أن لغة نقوشهم كانت آرامية وهي لغة الهلال الخصيب لذلك العهد. وكذلك كانت لغة كتابات مملكة الحضر كلها مع قليل من النقوش اليونانية. هكذا كان الوضع اللغوي في تدمر،

شهد وجود ثلاث لغات جنبًا إلى جنب: كان مزيجا لغويًا من الآرامية واليونانية في المعاملات الرسمية بينما كانت العربية لغة المخاطبة. وكذلك كان الفن التدمري مزيجًا من الفن السامي العربي والفن الفرتي الإيراني والفن اليوناني الرومي.

وقد تميّز تاريخ تدمر علاوة على الشهرة العالمية التي كانت لها كمدينة قوافل وتجارة بقوتها العسكرية، فكانت في تاريخ العرب قبل الاسلام أقوى فئة عربية عرفها عالم الشرق الأدنى في العصور القديمة وتشبه في هذا إسبارطة Sparta عند اليونان قديما، وبروسيا (Prusia) في أوربا التاريخ الحديث. وكان هذا أمرًا غريبًا من دولة كانت دولة بيع وشراء وعلى جانب كبير من الرخاء الاقتصادي الذي أغرقها في حياة ترف ونعيم. وقد بلغ من غرامها بالجندية ومُثلها أن معبوداتها أيضًا ظهرت في فنها المنحوت بشكل عسكري لافت للأنظار فكانت المعبودات التدمرية معبودات مجندة لحماية تدمر تتقلد السيوف وتُشرع الرماح وتلبس الدروع. وكانت أحيانا تظهر فرسانًا على متون الخيل وأحيانا تسوق المركبات الحربية، ولم يكن هذا تكلفا من الفنان التدمري العربي؛ لأن تاريخ تدمر السياسي والعسكري ولاسيما في القرن الثالث الميلادي كان يعكس دولة مُحاربة شوكتها قوية في حروب ذلك القرن. وقد ساعد موقعها الجغرافي على تصعيد الروح والقدرات العسكرية فيها فكانت تتوسط واحة ورقعة بين الدولتين الكبريين المتعاديتين: إيران الفرتية في الشرق والرومان في الغرب، كما أن موقعها البعيد الضارب في جوف الصحراء الشامية جعلها بعيدة عن مخالب الدولتين. فهذا ضمن لها قدرًا موفورًا من الاستقلال وأعانها على انتهاج سياسة مستقلة عن كليهما طوّرت نزعتها إلى الاستقلال والاعتماد على نفسها عسكريا.

وأخيرا وفي غمرة الصراع بين الدولتين الكبريين، الفرثية والرومانية، آثرت تدمر أن تدخل في المدار الثاني بعدما بدأت روما تتوسع في الشرق الأدنى مُلحقة بها مباشرة مملكة الأنباط سنة (106) ميلادية. وهكذا كان، وصار لتدمر مركز متميز في حساب الدولة الرومانية التي زارها الإمبراطور هدريان Hadrianus سنة (129) ميلادية ورحبّت تدمر بزيارة الإمبراطور الشهير الذي أعطاها اسمه فأصبحت تدعى بالميرا هدريانا Palmira Hadriana، وزادت هذه العلاقة الودية بين تدمر والرومان في عهد أسرة الإمبراطور سبتيميوس سافيروس الذي تزوج من حمص الشاميّة، السيدة العربية جوليا دُمنا Julia Domna والذي كان ابنه وأحفاده تجري في عروقهم الدماء العربية. وقد أفصحت تدمر عن هذه العلاقة الودية مع أسرة الإمبراطور فأضافت اسمه إلى أسمائها الساميّة دليلا على ولائها له. وقد خدمت تدمر الرومان اقتصاديا وعسكريا: كان لرماتها الفرسان شُهرة واسعة وقد استعملهم الرومان في جيوشهم التي حاربت بعيدًا عن تدمر في الميادين الأوربية.

بلغت شهرة تدمر وعظمتها السياسية والعسكرية والتجارية ذروتها في القرن الثالث الميلادي تحت رعاية أسرة أذينة - أميرها الجندي الباسل المشهور الذي شهدت له المصادر الرومانية بمواهبه الحربية. وقد أعطى الوضع الدولي والعلاقات الدولية هذا الأمير التدمري فرصة واسعة لإظهار مواهبه العسكرية. فقد ظهر الساسانيون على الفرتيين حوالي سنة (220) وبدأوا في التوسع غربًا لإعادة مجد الأسرة الهخامنشيّة فقضى أردشير على الحضور العربي المستقل شرق الفرات وأخضع مملكة الحضر وتابع ابنه سابور سياسته التوسعية وسجل نصرًا كبيرًا على الرومان آسرا ملكهم فلريان (Valerianus) سنة 260م. وعندها تقدّم أمير تدمر (أذينة) وأسرع إلى نجدة الرومان وقام بسلسلة من العمليات العسكرية الباهرة لحسابهم فهزم سابور سنة (260) ميلادية ثم استعاد الجزيرة الفراتية للرومان في السنوات (262-267) وطارد سابور إلى أسوار عاصمته (طيسفون) /(المدائن) وأعاد النظام والهدوء

إلى الشرق الروماني. عرف الرومان للأمير التدمري هذه الخدمة الجليلة فعينوه قائد الشرق (Dux Orientis) و(مصلح الشرق كله Corrector Totius Orientis) ولكن أيام الأمير الظافر لم تطُل فقد لقي حتفه في ظروف غامضة في حمص في أواخر الستينات.

خلفت أذينة زوجته (زينب) التي تعرفها المصادر العربية بزينب الزبّاء. حكمت تدمر خمس سنوات (267-272) وصيّة على ابنها (وهب اللات) ويمكن تقسيم عهدها إلى قسمين: الأول حتى سنة (270) عندما بقيت علاقتها مع روما طيبة ولكن في هذه السنة بدأت في التوسع فاحتل قائدها (زبدا) مصر وأكثر آسيا الصغرى وبذلك سقط أكثر النصف الشرقي للإمبراطورية الرومانية في أيدي التدمريين، الأمر الذي أثار العاهل الروماني أورليان Aurelianus. تحرّك هذا سنة (272) ضد تدمر وهزم جيوشها مرتين في أنطاكيا ثم في حمص وحاصر تدمر واحتلها وأسر زينب، وغادر المدينة بعدما ترك فيها حامية رومانية عائدًا إلى روما. وقبل وصوله جاءته أنباء ثورة نشبت في تدمر أطاحت بسلطان الروم وقتلت قائد الحامية فأسرع أورليان راجعًا، وهذه المرة دخل المدينة ودمرّها تدميرًا لم تقم لها بعدها قائمة فقد تحولت إلى قرية صغيرة فقدت أهميتها التاريخية إلى الآن.

وتثير هذه السنوات الخمس التي حكمت فيها زينب الزباء تدمر سؤالا مهما يتصل بمعنى توسّعها في مصر وآسيا الصغرى وإثارتها الرومان بهذا التوسع والجواب على هذا السؤال يتصل بأحد أمرين: إما أن تكون طمعت في الاستقلال بهذا الشرق الموسّع كدولة عربية تحكمها هي وابنها من تدمر، وإما أن توسّعها كان خطوة في طريقها إلى سيادة الإمبراطورية من روما نفسها مقتفية بذلك آثار سيدة عربية حمصيّة هي (جوليا دمنة) زوجة الإمبراطور سبتيميوس سافيروس، وآثار فيليب Philippus العربي الذي كان موطنه بلدة (الشهباء) في بلاد الشام والذي صار إمبراطورًا رومانيًا لمدة خمس سنوات (244-249). وقد حيكت أخبار حول آخر سنوات حياة (زينب الزباء) فالمصادر العربية تجعل سقوط تدمر على يد (عمرو ابن عدي) اللخمي وهذا خبر أسطوريّ في جملته. والمصادر الكلاسيكية اليونانية تقول إنها سيقت إلى روما أسيرة وعُوملت معاملة طيبة ومُنحت صرحا في (طيبور) Tibur قريبا من روما وتزوجت من أحد رجال المشيخة الرومانية وعُرف لها أحفاد بعدها. لا سبيل إلى القطع بصحة هذه الأخبار أو نفيها وجمهور المؤرخين يجنح إلى ترجيح القول إنها زيّنت نصر الإمبراطور أورليان في روما بعد أن ساقها أسيرة هناك.

يعتبر المؤرخون عهد زينب الزبّاء عهدًا رومانسيًّا في تاريخ الرومان فقد وصفت المصادر جمالها وذكاءها وشجاعتها. وأهم من ذلك كله أنها كانت ملكة ذات ثقافة عالية جمعت حولها طائفة من العلماء والمفكرين كان أهمهم في بلاطها الفيلسوف لنجينوس Longinus وهو الذي علمها اليونانية التي عرفتها فضلاً عن الآرامية، وهكذا أضافت (زينب) بعدًا جديدًا حضاريًّا لأهمية تدمر التاريخية وكأنها سبقت سيف الدولة الحمداني الذي جعل من حلب بلاد الشام في القرن الرابع الهجري موئلا للعلماء والشعراء.

اختفت تدمر من المسرح التاريخي العالمي سياسيًّا وعسكريًا في القرن الثالث الميلادي ولكن أطلالها المهيبة القائمة إلى الآن لا تزال تسحر بجلالها وجمالها زرافات السائحين الذين يشدون الرحال إليها. وقد فعلت فعلها في نفس زائرين وصلاها من انجلترا في القرن الثامن عشر وهما (روبرت ود) Robert Wood و(جيمس دوكنس) James Dawkins ونشرا عنها كتابًا سنة (1753) عنوانه "خرائب تدمر" كان من آثاره أنه أعطى عمرًا جديدًا لهذه المدينة العربية القديمة (عروس الصحراء)، فقد أحدث هذا الكتاب أثرًا في الميلاد الجديد للعمائر التي شُيّدت على نمط

المذهب الكلاسيكي القديم في أوربا أي (الكلاسيكية المحدثة). وصلت آثار الكتاب إلى الشمال البعيد إلى (بطرسبرج) عاصمة روسيا القيصرية في عهد الإمبراطورة (كاترين Catherine) الأمر الذي جعل بعض حاشيتها يطلقون على هذه العاصمة اسم (تدمر الشمال) والمعنى الضمني لهذه التسمية هو مساواة العاهلة الروسية بملكة تدمر زينب الزبّاء. وصارت شخصية الملكة موضوعًا للكتاب والأدباء كما يبدو من عدد المسرحيات التي ظهرت في القرنين السابع والثامن عشر في اللغات الأوربية المختلفة وهي تشهد لبقاء الملكة التدمرية في الوعي الأوربي الأدبي بعد ألف سنة ونصف من زوال سلطانها السياسي والعسكري في القرن الثالث الميلادي.

الحضر:

تقع الحضر في بادية الجزيرة في شمال وادي الرافدين إلى الجنوب الغربي من مدينة الموصل بمسافة (110) كم ، وهي مثل تدمر والبتراء نشأت ونمت وازدهرت في ظل ظروف مواتية، لعل من أهمها موقعها الجغرافي المنعزل في الصحراء وعلى أطراف البادية الفاصلة بين أكبر قوتين متصارعتين على السيادة في المنطقة آنذاك وهما الفرثيون والرومان .. وهي أيضًا مثل كثير من المدن الأخرى ، فإن نشأتها الأولى غير معروفة على وجه التحديد ، ولا يستبعد أنها كانت إحدى القرى العامرة أيام الآشوريين؛ نظراً لوفرة المياه العذبة فيها وكثرة المراعي في الأراضي المحيطة بها . وبعد زوال الإمبراطورية الآشورية عام 612 ق. م أخذت القبائل العربية تتدفق إلى بادية العراق الشمالية من جهة الغرب والجنوب الغربي لتستوطن منطقة الحضر الحالية؛ مكونة بذلك نواة لمملكة امتدت حدودها بين دجلة شرقاً والفرات غرباً وبين جبل سنجار شمالاً وطيسفون (المدائن) جنوباً . وقد صارت هذه المنطقة تعرف باسم " عربايا " نسبة إلى العرب منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد أي بعد قرن من سقوط نينوى تقريباً، حيث ذكرها الملك داريوس (521-485 ق. م) بهذا الاسم " عربايا " باعتبارها من الأقاليم التابعة للأخمينيين . وبالرغم من أن الدلائل الأثرية تشير إلى أن مدينة الحضر شيدت في القرن الثاني قبل الميلاد. إلا أن أهميتها بدأت تبرز على مسرح الأحداث، وخاصة في الدفاع عن الإمبراطورية الفرثية، بعد اندلاع الحرب بين الملك الفرثي فرهاط الثالث (70-57 ق. م) والرومان في آسيا الصغرى ، وهكذا أصبح للقبائل العربية المستوطنة في الحضر والجوار دور مهم في الشؤون الحربية بفضل الموقع الدفاعي المتميز الذي تحتله القبائل العربية وتمرسها في شؤون الحرب.

يقسم الباحثون المختصون تاريخ الحضر إلى أدوار ثلاثة رئيسة :

1. **دور التكوين :** لا يعرف على وجه التحديد تاريخ بدايته لكن نهايته كانت في منتصف القرن الأول للميلاد . وفي هذا الدور كانت السلطة في الحضر موزعة بين الشيوخ الذين كانوا يعرفون بالآرامية بلقب " ربا " بمعنى " الزعيم أو العظيم " وبين سدنة المعبد " رب بيتا ". وكان في المدينة مجلس يتولى تنسيب الأشخاص للمناصب والأعمال المهمة وكان التعيين في بعض الوظائف يتم عن طريق انتخابات عامة تشترك فيها المدينة كلها كما يظهر في كتابة تأريخية بالآرامية تتعلق بانتخاب شخص اسمه شمشبرك سادناً للمدينة .

2. **دور السادة :** ابتدأ كما قلنا في منتصف القرن الأول الميلادي واستمر إلى ما بعد عام 117 بقليل وهو عام حملة تراجان على الحضر . وفي هذا الدور تعاقب على الزعامة في الحضر حكام يحملون لقب " مريا " أي " السيد " . ومن المحتمل أن هؤلاء السادة كانوا ينحدرون من عائلة واحدة . وقد شهد مطلع القرن الأول الميلادي اشتداد الخلاف بين الفرثيين والرومان حول أرمينية والذي انتهى بعقد معاهدة صلح استتب على إثرها الأمن في المنطقة .

لكن شبح الحرب عاد إلى الظهور من جديد عندما تولى زمام الحكم في روما الإمبراطور تراجان (98-117 م). والراجح أن بناء التحصينات الدفاعية في الحضر وتحويل المدينة إلى قاعدة عسكرية للقبائل العربية من أجل القتال إلى جانب الفرثيين ضد الرومان يعود إلى هذه الفترة التي لم تعد فيها نوايا الأمبراطور تراجان خافية على الفرثيين .

بدأ تراجان حملته من أنطاكية عام 114 م بالتوجه إلى أرمينيا فاستولى عليها ، ثم تبع ذلك استيلاؤه على نصيبين وماردين والرها (أورفه) . وفي عام 116م أخضع مملكة حدياب (Adiabene) التي كانت تقع في المنطقة المحصورة بين الزابين والتي كانت أربيل أهم مدنها . وتوجه بعد ذلك إلى العاصمة طيسفون فهرب الملك الفرثي خسرو تاركاً وراءه ابنته وعرشه الذهبي . ثم سار تراجان بمحاذاة نهر دجلة فأخضع مملكة ميسان ووصل إلى رأس الخليج العربي. ثم رجع من هناك إلى مدينة بابل وزار القصر الذي مات فيه الإسكندر المقدوني .

وبينما هو في بابل وصلته أخبار حركة عصيان شملت أقاليم عديدة من شرق المتوسط امتدت من الحضر والرها شرقاً إلى مصر وقبرص غرباً . فتوجه تراجان بنفسه إلى مدينة الحضر وفرض عليها الحصار لكن المدينة استعصت عليه ولم يستطع اقتحامها . والراجح في نظر الباحثين أن الدفاع عن المدينة أثناء الحصار الذي فرضه تراجان عليها كان في زمن نصر وربا (أي نصر والسيد) وهو والد سنطروق الأول الملقب " ملك العرب " وأحد أفراد العائلة التي انحدر عنها ملوك الحضر الذين حكموا في المرحلة اللاحقة .

3. **دور الملوك :** بدأ بعد منتصف القرن الثاني الميلادي وانتهى بسقوط الحضر في حدود 240 . وقد شهد حكم عدد من الملوك الحضريين مثل سنطروق الأول الذي تلقب بـ " ملك العرب " واتخذ موقفاً محايداً من النزاع بين الفرثيين والرومان ولعله كان أول من ضرب النقود في الحضر التي يظهر على وجهها رأس إله الشمس بهيئة شاب تحيط به هالة وعلى جانبه كتابة آرامية (حطر ادي شمش : الحضر مدينة الشمس) ، وعلى ظهرها نسر ينشر جناحيه ويقف على حرفين SC لكنها بوضع معكوس S Ͻ (Sentatusconsultum) أي " بموافقة مجلس الشيوخ " . ومن ملوك هذا العصر أيضاً عبد سمبا الذي نجح في قيادة الحضريين للدفاع عن المدينة واحباط محاولات الإمبراطور سيفيروس (Severus) المتكررة لاختراق أسوار المدينة . وقد خلفه ابنه سنطروق الثاني الذي لقب نفسه بـ " المظفر ملك العرب " دليلا على الشهرة الواسعة والمكانة المتميزة التي احتلتها المدينة بعد انتصاراتها على الرومان. غير أن زوال مملكة الفرثيين من الوجود حوالي 226م على يد الملك الساساني أردشير اضطر ملوك الحضر إلى أن يتحالفوا مع الرومان وأنه نتيجة لذلك وضعت حامية عسكرية رومانية في الحضر . وبالرغم من أن هذا التحالف عزز مكانة الحضر وأدى الى انتعاش الحياة الاقتصادية والفنية لفترة قصيرة من الزمن استمرت حتى عام 238؛ إلا أنه لم يكن مجدياً في الواقع لدرء الخطر المحدق بالمدينة والمتمثل بالساسانيين . ففي 12 نيسان من عام 240 ميلادية قام الملك الساساني شابور الأول بفرض الحصار على الحضر وأن المدينة استسلمت له بعد سنة كاملة تقريباً أي في الأول من نيسان من عام 241م على وجه التحديد .

هذا ما يخص الجانب التأريخي لمدينة الحضر ، أما ما يخص الجانب المعماري والفني منها فلابد من الإشارة ابتداءً إلى أن المدينة دائرية الشكل وهي بذلك توفر للجنود مَديات للدفاع أوسع وباتجاهات مختلفة مما لو كانت على غير هذه الصورة . ويحيط بالمدينة من الخارج سور ترابي قطره نحو 3 كم يرتفع حالياً عن الأرض بمقدار متر أو مترين . وقد أثبتت الحفريات أن السور الترابي هذا يقوم على أسس مرصوفة بحجارة صغيرة . ولذلك فالراجح أن الحضريين هم الذين أقاموه ليكون مانعاً أولياً يعيق تقدم

الأعداء نحو السور الداخلي وأنه من غير المحتمل أن يكون من صنع الروم أو الساسانيين لإحكام الطوق حول المدينة كما اعتقد بعض الباحثين . وعلى بعد 500م من السور الترابي هذا يقع السور الداخلي الذي يلامسه ويحيط به خندق يبلغ عمقه بين (4-5م) وعرضه 8م . وقد أقيمت على هذا الخندق قناطر للعبور . ولا يظن أن هذا الخندق كان يملأ بالماء بل كانت الغاية منه عرقلة وصول العدو إلى السور الداخلي . أما السور الداخلي نفسه فيبلغ قطره نحو كيلو مترين وعرضه ثلاثة أمتار وقد شيدت أسسه بالحجارة وتقوم فوقها صفوف متعاقبة من اللبن متينة البناء ، وهو مدعم بأبراج عددها 163 برجاً وبعدد من القلاع الحجرية التي شيدت لأغراض دفاعية ولزيادة مناعة السور ومتانته . وقد أثبتت التنقيبات أن السور الرئيس في الحضر تم تشييده خلال الفترة بين القرن الأول قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الميلادي ومن المحتمل أيضاً أن حفر الخندق المحيط به تم خلال هذه الفترة.

ولمدينة الحضر أربع بوابات مزورة إلى يمين الداخل ومشيدة على السور الداخلي وهي تقع في الاتجاهات الأربعة الرئيسة تقريباً . ويبلغ عرض البوابة 3.80م تسدها أبواب خشبية ثقيلة تدور على صنارات من الحجر . ويحكم غلقها بمزلاج ، وتمتد من هذه البوابات شوارع رئيسة إلى مركز المدينة لتلتقي في وسطها عند المعبد الكبير .. وجدير بالذكر أن المعبد الكبير هذا شيد في فترة السلم التي أعقبت حملة تراجان على المدينة والتي دامت نحو خمسين عاماً . ويعد هذا المعبد أوسع الأبنية وأجملها مما شيد للإله شمش في بلدان الشرق القديم ويتميز بالأواوين التي هي الطراز السائد في عمارة الحضر .

أما بخصوص ديانة أهل الحضر فلعل من أهم صفاتها كونها امتداداً لديانة السومريين والبابليين والآشوريين في وادي الرافدين كما أنها تأثرت بشكل واضح بديانة الإغريق والرومان واحتفظت في الوقت نفسه بعناصر مميزة في المعتقدات الدينية العربية القديمة التي كانت سائدة عند قبائل العرب في الجزيرة. وقد ذكرنا في موضع سابق كيف أن الحضر، شأنها في ذلك شأن دورايوربس مثلاً، أصبحت مركزاً دينياً بارزاً لعبادة آلهة تمثل ديانات مختلفة : بابلية وإغريقية ورومانية وعربية. ومما عزز مكانة الحضر الدينية في بادية الجزيرة صمودها الرائع وإستبسال رجالها في صد الهجمات الرومانية المتكررة، مما دفع القبائل العربية إلى الاهتمام بتشييد أبنيتها ومعابدها وتقديم الأموال اللازمة لذلك .

تركزت ديانة الحضر بين عبادة المظاهر الطبيعية فكانت الشمس في مقدمة الآلهة المعبودة . وقد عرف إله الشمس عندهم بنفس التسمية البابلية (شمش) وهو إله ذكر اشتهرت عبادته في وادي الرافدين وفي كل أنحاء الجزيرة العربية . لذلك خصه الحضريون بمنزلة عالية بين الآلهة الأخرى وشيدوا له معبداً فخماً في مركز المدينة وهو المعبد الكبير الذي عرف في الكتابات الآرامية باسم "هيكلا ربا " (بيت الإله) . ويظهر إله الشمس على المنحوتات في الحضر بهيئة رجل يبرز من جبينه قرنان وخلف رأسه هالة مشعة ، كما تظهر صورته على المسكوكات أيضاً . وكان معبد الإله شمش مركزاً دينياً تتوافد عليه القبائل العربية للزيارة من أجل التعبد وتقديم النذور والقرابين . وكانت ساحته مكاناً مناسباً لإقامة الاحتفالات ومركزاً للنشاط الديني والاجتماعي للحضريين ولغيرهم من أهل الجزيرة.

عبد الحضريون تثليثاً يتكون من الآلهة: مرن " سيدنا " ومرتن " سيدتنا " وبرمرين " ابن سيدنا "، وإذا كان من المؤكد أن " مرن " هو إله الشمس كما يتضح ذلك في إحدى الكتابات الآرامية في المدينة، فالواضح في نظر الباحثين أن " مرتن " تمثل الإلهة اللات العربية وأن " برمرين " يمثل إله القمر ، وهو إله شاعت عبادته في وادي الرافدين والجزيرة العربية على حد سواء . وقد وجدت ثلاث منحوتات تمثل آلهة التثليث كما أن أهل الحضر خصوها

بالذكر والدعاء في كتاباتهم. ومن آلهة الحضر المشهورة بعلشمين أو بعشمين (كما يكتب أحياناً) الذي يعني اسمه "سيد السموات". والراجح لدى بعض الباحثين أن عبادة هذا الآلهة كانت في صور ثم انتقلت إلى تدمر ودورايوربس والبتراء وخربة التنور ومنها إلى الحضر . وقد خصص له الحضريون معبداً كبيراً تشاركه فيه الآلهة أترعتا (أتركاتس) بصفتها زوجة له . كما عبد الحضريون الإله "ترجول" وهو نركال البابلي، إله العالم الأسفل، الذي كانت عبادته بالأصل في مدينة كوثى، وعبدوا "سميا" إله السماء و"نبو" إله الحكمة عند البابليين و "وجند إله الحظ". وكانت تماثيل هذه الآلهة تثبت على جدران المعابد أو ترفع على قواعد في خلواتها . وتتميز المعابد الكبيرة في الحضر بأنها بنيت بالحجر المنجور والجص وبكونها أبنية فخمة يوحي منظرها بالروعة والعظمة من خلال أعمدتها الشاهقة وأقواسها المزخرفة وأواوينها الواسعة . وتعتبر الأواوين واحدة من السمات المميزة لعمارة الحضر ، وكانت جبهاتها تزين بزخارف جميلة متنوعة منها تماثيل آلهة المدينة وأشكال آدمية لملوك الحضر وحكامها وأشكال حيوانية ونباتية وهندسية . ويشرف على إدارة المعبد وتنظيم شؤون العبادة فيه عدد من الكهنة ذوي مراتب مختلفة يأتي في مقدمتهم " أفكلا ربا " أي الكاهن الأعظم (وهي كلمة ترجع الى أصل سومري Abgal) والتي يقابلها في العربية " الأفكل " . ثم الكاهن " رب بيتا " (رب البيت أو المعبد) والكاهن " كمرا ".

وكان المعبد في الحضر يضم مجموعة من الكهنة المشرفين على شؤون الأضاحي والقرابين وحرق البخور وتقديم التراتيل مصحوبة بالموسيقى.

كندة الثانية :

كندة قبيلة عربية كان منشؤها في حضرموت في الجزيرة، وهي بعد حمير ثاني هذه الممالك العربية الجنوبية التي كان أكثر نشاطها في جزيرة العرب. و(كندة) كان لقب جدها الأول (ثور) الذي انحدر منه – حسب قول النسابين- فرعان: (معاوية) و(أشرس) ومن الثاني انحدرت السكون والسكاسك ولكن الفرع الأول (معاوية) كان الأكثر أهمية في تاريخ القبيلة وتاريخ العرب فمنه كان بنو آكل المرار.

بدأت القبيلة تتحرك إلى وسط الجزيرة ثم إلى شمالها بتأييد من حمير وبقيت علاقتها مع هذه متينة وكذلك بقي حضورها في الجنوب ومن هنا كان لها تاريخ متعدد الاتصالات مع الجزيرة والدول المحيطة بها: مع حمير في الجنوب مع القبائل العربية في وسط الجزيرة ولاسيما معد، وفارس والروم في الشمال.

لقد أحدثت كشوفات البعثة الأثرية السعودية بقيادة د. عبد الرحمن الأنصاري ثورة في فهم المؤرخين لتاريخ كندة عندما كشف التنقيب عن عاصمتها (القرية) (ذات كهل) البعيدة عن شمال شرق نجران حوالي 280 كيلو مترا. وقد أثبت التنقيب-فيما أثبت- أن كندة كانت فئة عربية مستقرة متحضرة.

وأكدت النقوش عربيتها المسطورة بالقلم الحميري وتأثرها بحضارات العالم الخارجي وصحّة المصادر العربية التي تحدثت عن أنسابهم وأسماء ملوكهم مثل (معاوية). والأمل معقود أن يستمر عمل التنقيب السعودي في اكتشاف عواصم كندة الأخرى التي تذكرها المصادر وهي غمر ذي كندة، وبطن عاقل، وهجر.

بقي تاريخ كندة الجنوب وكندة وسط الجزيرة يتحرك في إطار جزري ضيق. ولكنه انفتح على العالم الخارجي ودولتيه الكبريين - فارس والروم، منذ القرن الخامس الميلادي وتم هذا الانفتاح تحت لواء فرع من الأسرة، بدأه حُجر المعروف بـ"آكل المرار". تحرك حُجر إلى الشمال فملك قبائل معدّ العربية بتأييد من حمير. وحارب (السليحيين) عمّال الروم في بلاد الشام وهم تحت (زياد بن الهبولة) وهزمه في معركة (البردان). وقد تأكد وجوده التاريخي الذي شهدت له المصادر الأدبية في نقش مسطور

بالمسند. و(حُجر) هو واضع حجر الأساس في تاريخ (بني آكل المُرار) أمراء كندة وملوكها في شمال الجزيرة، الفرع الشهير في تاريخ العرب قبل الإسلام. وقد تقسّم ولداه عمرو ومعاوية حكم عرب الشمال. فملك الأول نجدًا والثاني اليمامة وكان لقبه (الجون). لم يكن عهد عمرو المعروف بـ: (المقصور) مجيدًا في تاريخ كندة ولكن عهد حفيده، الحارث بن عمرو كان كذلك مليئًا بالأحداث. فحوالي السنة (500) ميلادية أرسل الحارث ولديه حجر ومعد يكرب ليغزوا الأراضي الرومية في جنوب بلاد الشام. ومع أن القائد الرومي(رومانس Romanus) هزمهما. إلا أن الروم آثروا عقد صلح مع الحارث الكندي حوالي السنة (502) شروطه ليست واضحة وتصمت المصادر عن أنشطة (الحارث) بعد ذلك ولكنه يظهر فجأة في العشرينات من القرن السادس في منطقة نفوذ فارس زمن ملك الملك قُباذ. وقد استماله هذا إلى المزدكية-البدعة الدينية الفارسية. وولاه على الحيرة بعدما طرد منها المنذر اللخمي الذي رفض الاستجابة إلى المزدكية. استمر حكم الحارث في الحيرة بضع سنوات ولكن ما لبثت العلاقات أن ساءت مع فارس. وهرب الحارث من الحيرة بعد رجوع المنذر اللخمي إليها.

ويبدو أن لجوءه إلى الروم كان بعد جلائه عن الحيرة. وكان له مع الروم صلة سابقة ترجع إلى صلح السنة (502) معهم. ولكن صلته مع الروم توثقت أكثر هذه المرة؛ لأن المصادر اليونانية تصفه أنه كان عاملا للروم Phylarchos في فلسطين. ثم تذكر هذه المصادر أن خلافًا دب بينه وبين القائد الرومي في فلسطين، أدّت إلى نزوحه وهربه من تلك الولاية. ولكن لم يُكتب له عمر طويل بعد ذلك فالمصادر اليونانية المعاصرة تذكر مصرعه على يد المنذر اللخمي عدوّه اللدود سنة 528 بينما تعزوه المصادر العربية إلى قبيلة كلب. وقد استتبع مصرع الحارث على يد المنذر ردًا سريعًا وحاسمًا من الروم الذين جرّدوا حملة ضد المنذر بقيادة الحارث بن جبلة عاملهم الغساني الذي أخذ بثأر الحارث بن عمر الكندي.

وقبل مصرعه كان الحارث بن عمرو قد أمّر بنيه الأربعة: حُجر، شُرحبيل، سلمة، ومعديكرب، على قبائل معدّ. ولكن المنافسة بينهم قادت إلى حروب بينهم كان إحداها (يوم الكلاب الأول) الذي شهد مقتل شُرحبيل. ثم ثارت بنو أسد على (حُجر) وقتلته وهكذا بدأت أسرة الحارث بن عمرو في الانحلال. وحوالي (530)، أثناء اندلاع الحرب مع فارس، أرسلت الروم سفيرين لها يوليانس Julianus ونونوسس Nonnosus إلى حمير وكندة لإصلاح خلاف يبدو أنه نشب بين حمير وكندة. ولعقد حلف تشترك فيه حمير والحبشة وكندة لتجريد حملة من الجزيرة العربية ضد الفرس. لا تذكر المصادر اليونانية ماذا كان مصير هذا الحلف ولكن الدبلوماسية الرومية أفلحت في اجتذاب (قيس) الكندي وهو على الأرجح ابن (سلمة بن الحارث) إلى الروم بعد أن قسمت سلطته في الجزيرة بين أخويه (يزيد) و(عمرو) وأعطته قيادة مهمة في فلسطين بعد أن استضافته في العاصمة الرومية، القسطنطينية.

وبينما كان بنو آكل المرار على اتصال مستمر في الشمال مع الروم كان أمراء كندة الذين لم يتركوا الجنوب في حلف مع يوسف الملك الحميري الذي حارب نصارى نجران. ويذكر نقش سد مأرب الشهير الذي أقامه (أبرهة الحبشي أميرًا كنديًا آخر في الجنوب، اسمه (يزيد بن كبشة) ، كان قد ثار على (أبرهة) وهذه الإشارات تؤكد حضورًا قويًا لكندة في الجنوب.

بدأ سلطان كنده في الذبول والتراجع حوالي منتصف القرن السادس الميلادي، ولم يقتصر هذا على فرع (عمرو) المقصور بعد موت (الحارث بن عمرو) ولكن تعدّاه إلى الفرع الآخر (بني معاوية الجون) في اليمامة. هؤلاء اشتركوا في الحروب القبلية بين تميم وعامر وحاربوا في يومين من أيام العرب: يوم (شعب جبلة) ويوم (ذي نجب)

الأمر الذي أضعف سلطان (بني معاوية الجون) وقاد كندة إلى الانسحاب من وسط الجزيرة والرجوع إلى موطنهم الأول في حضرموت. ولكن كندة لم تختف من مسرح الأحداث التاريخية في الشمال بالكلية، فقد بقيت بقية منهم في خدمة الروم من بني آكل المرار، ومن فرع كندة المنحدر من (أشرس) وهم السكون، ومنهم كان (أكيدر بن عبد الملك) صاحب (دومة الجندل) في عهد الرسول، كان لـ(خالد بن الوليد) معه لقاء انتهى بتسليم (دومة) إلى خالد. ولم تختف كندة من الجنوب أيضًا في هذا العهد، فكان منهم (قيس بن معديكرب) سيدهم في حضرموت، وهو الذي زاره الأعشى ومدحه.

أسلمت كندة مع من أسلم من العرب وقادهم إلى الرسول عام الوفود الأشعث بن قيس الذي ارتد ولكنه عاد فأسلم وشهد اليرموك والقادسية. شاركت كندة في معارك الإسلام الأولى فكان منهم شرحبيل بن حسنة فاتح جند طبرية، أحد القواد الذين أمّرهم أبوبكر لفتح بلاد الشام. وصار لكندة جاه ومكانة في الإسلام ولا سيما في الغرب حيث كان لهم سلطان في ثلاث من مدن الأندلس التي حكموها في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وهي (سرقسطة) و(دروقة) و(قلعة أيوب).

كانت كندة – كندة الملوك – قبيلة محاربة قبل الإسلام. اشتركت في حروب الجزيرة – جنوبها ووسطها وشمالها – وصدى هذا يسمع في عدد الجرّارين الذين انتموا إليها، (والجرّار هو قائد الألف) فكان منهم أحد عشر جرّارا من الواحد والعشرين الذين ذكرتهم المصادر. وكان مِلْكُ كندةَ في الجزيرة أولَّ محاولة لتوحيد عرب الجزيرة تحت لواء واحد، وإخفاقها في هذا الأمر يلقي ضوءاً لامعًا على نجاح المحاولة الثانية بعد قرون طويلة- تلك التي قام بها الملك عبد العزيز في القرن الماضي في توحيد عرب الجزيرة وتأسيس المملكة العربية السعودية.

تذكر المصادر الأدبية أن الذي جاء بالخط إلى مكة في العصر الجاهلي كان كنديا من السكون، وهو (بشر بن عبد الملك). جاء به إلى مكة من الحيرة حيث تزوّج أختًا لأبي سفيان. وإن كان في هذا الخبر شيء من المبالغة، فيمكن ترجيح صحة الخبر على القول إنّ بشرًا جاء بأسلوب جديد من الخط العربي له فضائله على غيره- وهو الأسلوب الحيري.

لكن الإسهام الكبير الذي قامت به كندة في تاريخ العرب الحضاري والذي لا يزال قائما إلى الآن هو خدمتها للغة والشعر العربي. فرأس شعراء الجاهلية، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو، كان من أمرائهم. واللغات من صنع الشعراء. فكما كان تشوسر (Chaucer) للغة الإنجليزية ودانتي (Dante) للايطالية، كذلك كان امرؤ القيس للغة العربية. فهو مع غيره من شعراء الجاهلية أحد صُنّاعها وله في ذلك نصيب وافر. وقد توفيّ سنة 542 ميلادية بعد إصابته بالوباء الذي اجتاح أنقرة في الأناضول، وهو في طريقه إلى القسطنطينية كما أثبتت الدراسات الحديثة. وتحديد سنة وفاته بمعونة المصادر الرومية أمر ذو بال في كتابة تاريخ الشعر الجاهلي التي تنقصه الدقة في تاريخ مراحل تطوره حتى بلوغه الذروة. ولم يقتصر إسهام كندة بوساطة امرئ القيس على الناحية اللغوية البحتة، ولكن تعدّى ذلك إلى الناحية التاريخية والأدبية.

ديوان امرئ القيس مرآة لجوانب متعددة من تاريخ الجزيرة والعرب في القرن السادس الميلادي. فقد انعكس في تلك المرآة حيوان الجزيرة ونباتها، سماؤها وأرضها، سيولها وعواصفها، وانعكست فيها أيضا حياتها القبلية ونزاعاتها، وعلاقات العرب الدّولية مع حمير والروم والمناذرة وغسّان. ذكر الملك الضليل ذلك كله وهو يطوف ويستصرخ الفئات المختلفة للأخذ بثأر والده، الذي قاده أخيرا إلى الروم فقال:

ولو شاء كان الغزو من أرض حمير

ولكنــه عمــدًا إلى الرّوم أنفـرا

وأثره الباقي يتمثل في فحولته الشعرية التي أوصلت القصيدة إلى ذروة ما وصله الشعر العربي قبل الإسلام. وهذا هو إنجاز العرب الفنّي الكبير في هذا العصر: القصيدة ذات المطالب المتعددة والموحّدة بالوزن والقافية. وقد صارت القصيدة التي أبدع في نظمها هذا الكندي مثالا يُحتذى طوال العصور، ولا تزال إلى هذا اليوم في شكلها المعدّل مثال الكثيرين من شعراء مدرسة العمود، يترسّمون خُطى شعراء القصيد وعاهل الشعر الأول، الذي نفح الشعر العربي بأشهر مطلع افتتحت به القصيدة العربية. ذلك المطلع الذي وصفه أحد النقاد بأنه "صيحة الحب في وجه الفناء":

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدّخول فحومل

الغساسنة:

الغساسنة فئة عربية انتماؤها القبلي إلى (الأزد). نزحت من جنوب الجزيرة في زمن لا يعرف بالتحديد وفي ظروف غامضة ينسبها الأخباريون إلى انفجار سد مأرب. وبعد رحلة طويلة في غرب الجزيرة حيث يبدو أنها توقفت فيما يدعوه نقش سبئي (أرض غسان) كما توقفت في مكة وفي يثرب. وصلت إلى حدود الروم في بلاد الشام حوالي السنة 490 ميلادية في زمن كان عُمّال الروم من العرب هم (السليحيين) وملوكهم (الضجاعمة). دخل الغساسنة الحدود الرومية ودخلوا في النصرانية وكانت دين الدولة الرسمي وتعايشوا مع سليح. وبعد فترة قصيرة نشبت حرب بينهما حوالي السنة 500 ميلادية غلبت فيها الغساسنة سليحًا فأقرتهم الدولة الرومية واتخذتهم حلفاء لها وعمّالا في صلح تمّ في السنة 502. وكانت شروط هذا الصلح أن تحمي مقاتلة الغساسنة الحدود من هجمات البدو وأن تشارك الجيش الرومي في حروبه ضد فارس مقابل معونات مالية سنوية كانت تقدمها الدولة لهم، وسماح لهم أن يستقروا في بلاد الشام.

تعاون الغساسنة مع الروم زهاء قرن ونصف وكان أول ملوكهم الذي ذكرته المصادر اليونانية حوالي السنة 500 هو جبلة. شارك جبلة الروم في حروبهم مع فارس وآخرها كانت معركة (التنُّور) في شمال الجزيرة الفراتية سنة 528 ميلادية حين كبا به جواده وأرداه قتيلا. خلفه ابنه الحارث بن جبلة أشهر ملوك غسان الذي حكم أربعين سنة (529-569) ملكا لغسّان وحليفا للروم كان أثناءها معاصرًا للإمبراطور الشهير جستنيان. وقد عرف الروم له مقدرته الحربية فملكوه على أكثر عرب بلاد الشام الأحلاف ومنحوه لقب (بطريق) وغيرها من الرتب الرسمية العالية التي توثّقها النقوش والمصادر الأدبية. اشترك الغساسنة في حروب الروم مع الفرس التي اندلعت مرتين أيام الحارث بن جبلة وأبلوا فيها البلاء الحسن. وحاربوا أعداءهم – بني نصر- ملوك الحيرة اللخمين الذي كان ملكهم المنذر الثالث دائما يهدد الحدود الرومية في غزواته وأخيرًا انتصر الحارث بن جبلة عليه سنة 554 ميلادية في معركة قرب قنسرين سقط فيها المنذر صريعا.خلف الحارث بعد وفاته سنة 569 ابنه المنذر التي تعرفه المصادر السريانية المعاصرة خير معرفة وتوثّق مواهبه العسكرية الممتازة التي جعلته في رأي مؤرخي الروم من أعظم قوّاد الدولة لعصره. هزم المنذر اللخميين مرارا ونجح حوالي 578 في احتلال عاصمة ملكهم الحيرة وإلى هذا أشار شاعرهم، عديّ بن زيد، في بيت شجب فيه (قابوس اللخمي):

سما صقـر فأشعـل جانبيها

وألهــاك الـمـروّحُ والعــزيبُ

ولكن الخلاف دبّ بين المنذر وبين السلطة المركزية في القسطنطينية وأفلحت هذه في اختطاف المنذر ونقله إلى العاصمة ومنها نُفي إلى صقليّة حيث أقام مدة عشرين سنة قبل رجوعه إلى بلاد الشام سنة 602.

رفع الغساسنة لواء الثورة عندما اختطف الروم ملكهم المنذر وكان زعيمهم في هذه الثورة النعمان بن المنذر الذي لقي هو الآخر ما لقيه والده من إقصاء عن موطنه وأسر في القسطنطينية بعد أن رفض أن يدين بالمذهب اللاهوتي الذي كانت عليه السلطة المركزية الرومية وآثر البقاء على مذهبه اللاهوتي وهو اليعقوبيّة.

حلّ الروم عُرى كيان الغساسنة العسكري والإداري في بلاد الشام في الثمانينات بعد نفي المنذر. ولكن ما لبثوا أن عادوا إلى إقامة الصلة بينهم وبين الغساسنة؛ لأنهم عرفوا أن حماية الحدود وكلّ بلاد الشام لا تتم إلا بالحضور الغسّاني العسكري القوي في بلاد الشام. وهكذا كان، وعاد الغساسنة إلى ديارهم ومُلكهم الذي استمر ما يقرب من نصف قرن من حوالي السنة 590 إلى معركة اليرموك سنة 636. وتَصْمُتُ المصادر البيزنطية – الرومية – عن الغساسنة في هذه الفترة ولكن المصادر العربية لا سيما الشعر ممثلا بقصائد حسّان والنابغة في الغساسنة هما مصدران أساسيان لفهم تاريخ الغساسنة في هذه الفترة، ويضاف إليها مصدر آخر (أخبار ملوك غسان) الذي أثبت البحث التاريخي المعاصر أنه كان المصدر الذي اعتمد عليه حمزة الأصفهاني واليعقوبي وياقوت فيما سجلوا من المعلومات القيّمة عن الغساسنة. ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام أولها ينتهي سنة 614 استعاد فيها الغساسنة شيئا من قوتهم، وزارهم فيها الشعراء – حسان والنابغة – وثانيها هي سنوات الاحتلال الفارسي لبلاد الشام (614-629) دافع الغساسنة في أولها عن المنطقة وعن منازلهم في الجولان ولكنهم كانوا قلة أمام الجيش الفارسي بكامله الذي لم يصمد له حتى الجيش الرومي الإمبراطوري .. الأمر الذي دعا الغساسنة إلى النزوح إلى الأناضول، وثالثها السنوات القليلة (629-636) عندما عاد الغساسنة إلى بلاد الشام بعد نصر الإمبراطور هرقل في معركة نينو سنة 628/6 على الفرس وقد ازدادت أهميتهم وحضورهم في بلاد الشام في هذه الفترة بعدما أدخل هرقل تعديلات جذرية في إدارة بلاد الشام بعد كارثة احتلال الفرس لها ثم إجلائهم عنها. ولكن معركة اليرموك الحاسمة التي ربحها جندي الإسلام الأول، خالد بن الوليد، والتي اشترك فيها الغساسنة تحت جبلة بن الأيهم، آخر ملوكهم كأحلاف للروم، أودت بسلطان الغساسنة كما أودت بسلطان الروم في بلاد الشام.

وهكذا انتهى تاريخ الغساسنة كأحلاف للروم بظهور الإسلام. ولكن الغساسنة لم يختفوا بالكلية من المسرح التاريخي في صدر الإسلام الذي فتح لهم آفاقا جديدة. فقد اعتمد الأمويون على خبرتهم في إدارة بلاد الشام وكانت عاصمتهم الجابية في الجولان مقر معاوية أثناء إمارته وقبل خلافته. وظهر منهم أعلام مثل (حسّان ابن النعمان) و(مغيث الرومي) اللّذان أديا دورًا له أهميته في فتوح شمال أفريقيا والأندلس.

كتب الغساسنة فصلا مهما في تاريخ حضارة بلاد الشام. وتعرف المصادر أنهم كانوا فئة متحضّرة، أهل مدر وليسوا أهل عمد، حتى في منشئهم في الجنوب الذي كان منطقة حضرية وليست بدوية، على ما فيها من (الأعراب) الذين تذكرهم النقوش أنهم كانوا في الطود وتهامة أو السهل والجبل.

أسهم الغساسنة في الحياة الاقتصادية فقد حموا الطريق التجاري، بل الشريان الكبير - طريق العطور والتوابل – في غرب الجزيرة في قطاعه الشمالي. كما كان لهم حضور قوي في أسواق العرب لا سيما سوقين في بلاد الشام والمناطق المجاورة: في سوق بصرى الشهير وسوق دومة الجندل الذي كانت غسّان تشترك في إقامته مع قبيلة (كلب).

واشتركوا أيضا في الحياة الدينية في بلاد الشام بعد تركهم الوثنية وتنصرّهم واعتناقهم التوحيد بشكله النصراني. وكان هذا عصر خلافات دينية في الكنيسة النصرانية بشأن طبيعة المسيح. وذهب الغساسنة إلى مذهب اليعقوبية التي قالت بالطبيعة الواحدة للمسيح (إلهية) عكس المذهب

الرسمي الملكي الذي قال بالطبيعتين – الإلهية والبشرية. وخدم الغساسنة المذهب اليعقوبي بعد أن اضطهدت الحكومة المركزية أعضاءه ونفت كهنتهم وأساقفتهم. في العقد الثالث من القرن السادس حوالي السنة 540 زار ملكهم الحارث بن جبلة القسطنطينية واستعان بالملكة (ثيودورا) التي كانت هي الأخرى تدين بالمذهب اليعقوبي. وأفلح بمساعدتها في رسامة أسقفين أحدهما يعقوب البرادعي للمنطقة الآرامية في المشرق وآخر اسمه (ثيودور) للمنطقة العربية في بلاد الشام والصحارى العربية. فهذان الأسقفان بعثا الكنيسة اليعقوبية من رقادها فانتعشت بحماية المظلة الغسّانية العسكرية التي كانت تحميها. بلغ نفوذ الغساسنة المذهبي ذروته زمن المنذر بن الحارث الذي جاهد في التوفيق بين الخلافات التي استعرت في المذهب اليعقوبي نفسه وترأس مجمعًا كنسيًا لهذه الغاية عُقد في القسطنطينية سنة 580. ولكن المذهب اليعقوبي بقي منقسمًا بالرغم من المحاولات والتوصيات التي قام بها الملك الغسّاني. وحماس الغساسنة لهذا المذهب أوقعهم في خلاف مع السلطة المركزية زمن المنذر بن الحارث أودى بسلطانهم لبضع سنين في الثمانينات من القرن السادس. وإسهام الغساسنة هذا في تاريخ بلاد الشام الديني موثّق بالمصادر السريانية المعاصرة، وهي الوحيدة بين المصادر المختلفة التي تُعنى بهذا البعد من تاريخ هذه الفئة العربية.

أما القطاع الحضاري الذي اشترك الغساسنة فيه والمذكور في المصادر العربية فهو المعمار. فقد كانوا فئة متحضّرة وكذلك كانوا منذ منشئهم في الجنوب العربي المستقرّ المتحضر وكذلك استمروا عندما استقروا في بلاد الشام. نمت وتطوّرت حول معسكراتهم الكثيرة في بلاد الشام وحدات ومجمّعات سكّانية مستقرّة تحولت إلى قرى وبلاد صغيرة. وكانت لهم عاصمتان: الجابية في الجولان وجلّق في منطقة دمشق ولا تزال منطقة حوران في الجمهورية العربية السورية تحتفظ بكثير من قراهم ومنشآتهم. وزامن الغساسنة العصر الذهبي للفن البيزنطي والعمارة البيزنطية/الرومية وانعكس هذا في عمائرهم الكثيرة التي جذبت انتباه المؤرخين وعلى رأسهم حمزة الأصفهاني ثم ياقوت الحموي. وما سطره هذان المؤلفان أكدته الحفريات الأثرية التي قام المستشرقون والعلماء العرب في القرنين الماضيين. وقد أسهم الغساسنة في القطاعات الثلاثة من الفن المعماري: العسكرية –الدينية- المدنية. فبنوا القلاع والمسالح، والكنائس والأديرة، والصروح والقصور، وهذه مُمثّلة في عمائر لا تزال قائمة إلى اليوم منها: بناء عند (رصافة الشام) للمنذر بن الحارث وعليه نقشه مسطور باللغة اليونانية، وبرج (قصر الحير الغربي) إلى الجنوب الغربي من تدمر، وبرج (ضُمير) إلى الشمال الشرقي من دمشق فضلا عما في شرق الأردن من عمائر تُنسب أصولها إلى الغساسنة (كالقسطل والموقر). وآخر كشف عن الآثار الغسانية في الأردن كان في العقد الأخير من القرن العشرين الذي تمّ فيه اكتشاف كنيسة مزدوجة بها تحية للحارث بن الحارث الغساني باليونانية، وشاهدَ قبر أمير غسّاني آخر يُدعى (ثعلبة) وهو أيضًا مسطور باليونانية وفيه يذكر لقبه باليونانية وهو "Phylarchos" . وبعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان على إنشاء الكنيسة المزدوجة حوالي السنة 600 ميلادية لا تزال أرضها تحتفظ ببعض قطع الفسيفساء التي كانت تزيّنها.

وعلى أهمية هذه الإسهامات في تمدين بلاد الشام وتحضيرها يبقى لإسهام الغساسنة في تطوير الشعر العربي مكانة خاصة. كان بلاطهم في الجابية وجلّق موئلا لشعراء الجزيرة الذين كانوا يفدون عليهم وينشدون مدائحهم التي انتفع بها الغساسنة وانتفع منها الشعراء وأهمهم ثلاثة: علقمة التميمي وحسان الخزرجي والنابغة الذبياني. كانت هذه المدائح في الغساسنة أبواقا للدعاية لهم في الجزيرة بين القبائل، أشاعت سلطانهم وزادت في هيبتهم وكان الشعر

وسيلة الإعلام الكبرى بين العرب في هذا العصر. ثم صار هذا الشعر في العصر الحديث مصدرًا غاية في الأهمية بل المصدر الوحيد لمنازل الغساسنة وقراهم وبلدانهم وعمائرهم – الأمر الذي جعل من الممكن رسم خريطة لكل هذه الآثار الغسّانية، ينتفع بها علماء الآثار بعد أن طمست المصادر اليونانية حضارة الغساسنة بالكلية.

أما خدمة الغساسنة للشعر العربي فتتمثل في أنهم أتاحوا لشعراء الجزيرة أو أكثرهم الذين كانوا يأتون من مجتمع بدوي الفرصة أن يتصلوا بحياة عربية متحضرة ومجتمع كانت حضارته كثيرة الأبعاد. فانعكس هذا كله في هذا الشعر الذي قيل فيهم والذي ناله كثير من التحضير الذي ضمنه هؤلاء الشعراء من مقومات الحضارة الغسانية التي رأوها في مدنهم وبلادهم. وبذلك حفظوا لنا مظاهر كثيرة من هذه الحضارة التي لولاهم لما عرف عنها إلا القليل. فديوان حسّان والنابغة هما مصدران أساسيان لتفهم تاريخ الغساسنة الحضاري: الديني منها والمدني. أما ديوان علقمة أو قصيدته البائية الشهيرة فهي مصدر مهم للآلة العسكرية الغسانية بوصفها المعروف للمعركة الكبيرة التي ربحها "الحارث الوهاب" وبها تفاصيل ذات بال لحضارتهم العسكرية المتطورة.

مع أن سلطان الغساسنة كملوك وأحلاف للروم انتهى بزوال سلطان الروم في بلاد الشام بعد معركة اليرموك سنة 636 إلا أن حضورهم في بلاد الشام بقي قويا في صدر الإسلام وطوال العصر الأموي ولم يقتصر هذا على رجالاتهم وقدراتهم الإدارية والعسكرية كما أشير إليه سابقا في هذه اللمحة السريعة عن تاريخهم، بل تعداه إلى عملية التهيئة التي قاموا بها للفتح العربي والسيادة الأموية. وكانت بلاد الشام والفئات العربية فيها تدور في فلك الهيلانية والرومانية .. الأمر الذي أفقد هذه الفئات، أو كاد، عروبتها، فكانت تستعمل الآرامية – اللغة السائدة في الشرق الأدنى – وتتخلق على حد ما بأخلاق الشعوب المسيطرة على بلاد الشام لذلك العهد، كما فعل الأنباط والإيطوريون. لكن الغساسنة كانوا فئة عهدها بجزيرة العرب قريب، هاجرت منها ولكنها احتفظت بكثير من عروبتها، وكان هذا معكوسًا في أسمائهم،إذ كلها عربية، ولا سيما في كون بلاطهم موئلا للشعر العربي. فكان العهد الغساني تعريبًا لبلاد الشام والذي امتد من الفرات إلى أيلة، حفظ هذه الرقعة من الذّوبان الحضاري في الهيلانيّة والرومانيّة، فكان خير تمهيد لتعريب بلاد الشام الذي تمّ بالفتح الإسلامي والسيادة الأموية. ولعلّ تحويل الأمويين الخلافة إلى مؤسسة أموية وراثية كان باستلهام من العصر الغساني في بلاد الشام الذي ساد فيه النظام الملكي.

المناذرة :

المناذرة - بنو نصر: سلالة عربية إنتماؤها القبلي إلى لخم، وهي عند النسّابين قبيلة نزحت من الجنوب. استقر اللخميون في الربع الأخير من القرن الثالث الميلادي على شاطئ الفرات الأدنى في الحيرة وهي مؤسسة عربية ساميّة مثل الحضر، يوحي بذلك اسمها بل يدل عليه. وقد صارت تحت حكم بني نصر لمدة ثلاثة قرون أهم مركز عربي حضاري قبل ظهور الإسلام. كان اللخميون على جانب كبير من الاستقلال ولكنهم كانوا في الحقيقة تحت السيادة الفارسية الساسانيّة، عمّالا لها وينوبون عنها في سيادة عرب الخليج وشرق الجزيرة.

أول ملوكهم كان عمرو بن عدي وهو شخصية تاريخية كبيرة. حُكمه موثّق بالنقوش والكتابات المعاصرة. وسّع ملك الحيرة بفتوحاته وكان من حماة المذهب المانويّ. خلفه ابنه امرؤ القيس وكان مثله فاتحًا كبيرًا. وقد تنصّر ثم رحل إلى بلاد الشام حيث أقام .. ويبدو أنه فعل ذلك بعد خلاف بينه وبين فارس الساسانيّة، لعل مردّه تنصرّه أو اعتناقه المانويّة وتوفي سنة 328 ميلادية وشاهد قبره في النّمارة (إلى الشرق من دمشق) عربي في لغته مسطور بالقلم النبطي، ألقى ضوءاً لامعًا على تاريخ بلاد الشام

والجزيرة العربية في هذه الفترة. وأهم ملوك القرن الخامس الميلادي كان النعمان الذي تدعوه المصادر العربية "الأعور" أو "السائح" وقد تنسّك وهجر الحيرة واسمه مقرون بقصر الخورنق وكتيبة الشهباء. وخلفه ابنه المنذر الذي حكم طويلا من سنة 418 إلى 452 وأبلى البلاء الحسن في حروب فارس مع الروم. وكان صديق (بهرام جور) الأمير الفارسي الذي سكن الحيرة والذي ساعده المنذر في اعتلائه عرش فارس. لكن أشهر ملوك اللخميين هو المنذر الثالث الذي امتد حكمه حوالي نصف قرن من سنة 503 إلى 554 ميلادية وقد ملأ هذه السنين بنشاط عسكري ودبلوماسي بلغ الروم وأحلافهم الغساسنة، وبلغ قبائل العرب في الجزيرة، وبلغ حمير في الجنوب العربي في أيام الملك يوسف المتهود وأبرهة النصراني. وجدير بالذكر أنه تشبّه في حروبه بالإسكندر الكبير الذي عرفته فارس الساسانيّة وكذلك الحيرة، وأشير إليه في الشعر العربي بلقب الإسكندر وهو "ذو القرنين". وفي السنة 554 خرج غازيًا إلى الشام ولكن الحارث الغساني واجهه وهزمه في معركة قرب قنسرين حيث لقي المنذر مصرعه. وخلفه على العرش ابنه (عمرو بن هند) الذي تعرفه المصادر العربية الأدبية جيدا لاتصال شعراء المعلقات به في الحيرة: طرفة بن العبد، عمرو بن كلثوم، الحارث بن حلزة، فكان بلاطه موئلا للشعر وهو قاتل طرفة بن العبد وقتيل عمرو بن كلثوم في السنة 569. وعُرف بأمّه (هند) الأميرة الكنديّة وهكذا كانت كنيته ليس (عمرو بن المنذر) ولكن (عمرو بن هند). وهذا دليل على أهمية الملكة الكندية ومكانتها، وهي التي بنت (دير هند) المعروف في الحيرة بنقشه العربي الشهير. اضطربت أمور اللخميين والحيرة لمدة عقد من الزمان بعد وفاة (عمر بن هند). واحتل الحيرة حوالي سنة 578 المنذر الغساني وأحرقها. كان آخر ملوك اللخميين (النعمان بن المنذر) أشهر ملوكهم عند العرب. وهو الذي مدحه النابغة الذبياني بالقصائد التي لا تزال تعد من عيون الشعر العربي وقد تنصّر جهرًا. وشهد حكمه الذي دام عشرين سنة حوادث جساما منها ثورة (بهرام جور) على الشاه الفارسي (خسرو برويز). وبعد سلسلة من الدسائس حيكت حول النعمان أمر برويز بقتله حوالي 602م.

كان مصرع النعمان واختلال النظام في الحيرة بعد ذلك مقدمة للكوارث التي حلّت بفارس الساسانيّة بعد سقوط الدرع اللخمي الذي كان يقيها ويكفيها خطر القبائل العربية الضاربة في شمال شرق الجزيرة. فبعد مصرع النعمان بقليل ربح العرب، عرب قبيلة بكر، يوم ذي قار. وبعده بما يشبه ثلاثة عقود احتلّ خالد بن الوليد سنة 633/12 الحيرة بعد سيادة لخمية دامت ثلاثة قرون وبعدها بخمس سنين ربح الإسلام معركة القادسية التي أطاحت بالدولة الساسانية بعد تاريخ دام أربعة قرون من سيادة لها في غرب آسيا.

وبعد زوال ملك آل نصر في الحيرة بخمسة قرون عاد نجمهم إلى الظهور بل الإلتماع في الأندلس زمن ملوك الطوائف، فأصبح (بنو عبّاد) منهم أسياد إشبيليّة في القرن الخامس/الحادي عشر وكان آخرهم المعتمد ابن عباد الشاعر الملك الذي أزال نعمته يوسف ابن تاشفين، أمير المرابطين.

وعلى الرغم من أهمية المناذرة في تاريخ الشرق الأدنى السياسي والعسكري؛ إلا أن أثرهم وإسهامهم الكبير كان في تاريخ الحضارة العربية قبل الإسلام. وهذا يتصل بتاريخ المدينة التي كانت عاصمتهم، الحيرة، "حيرة النعمان" التي امتد نفوذهم الحضاري منها حوالي 300 سنة وكانت أثناءها مركز إشعاع حضاري في كثير من المجالات. وكان هذا راجعًا إلى أنها كانت ملتقى حضارات متعددة: فارسية، وآرامية، وعربية ظهرت في وسط بلاد الرافدين، مهد الحضارات القديمة، والتي شهدت في هذه الفترة مراكز حضارات متعددة مثل الُرها ونصيبين وحرّان وجند يشابور وطيسفون. كل هذه المدن كانت مراكز علم وترجمة تأثرت بها الحيرة التي كانت أيضا مدينة تأتيها القوافل من جهات متعددة، الأمر الذي أدّى إلى كثير من

الاختلاط والتفاعل الحضاري ظهرت نتائجه في حضارة الحيرة العربية.

كانت أولى هذه الحضارات هي الفارسية الساسانيّة، وكان هذا أمرًا طبيعيًّا فالحيرة سياسيا بلد تابع لملك الملوك وانعكس هذا في أمور كثيرة: منها المعمار من قصور وقلاع يمثلها الخورنق المشهور وأدّى هذا العامل إلى ظهور فن معماري حيريّ سلمت آثاره إلى القرن الثالث/التاسع عندما أعرب الخليفة العباسي المتوكل عن رغبته في ابتناء قصر له في سامرا/سُرّمن رأى على الأسلوب المعماري المعروف بالحيري وتبعه في ذلك أهل المدينة. وانعكس الأثر الفارسي أيضًا في النظام العسكري: في الأسلحة والتحصينات والألقاب، وانعكس أيضا في الموسيقى وفي المأكل والمشرب والألبسة والرياش وأسماء الزهور. ويمثل هذا كله الكلمات الفارسية التي دخلت العربية في هذا العصر: خندق، سربال، صَبَهْبَذ، تاج، صنج، ناي، بربط، فُلّ، ورد، بنفسج، فردوس، استبرق، نمارق. كما أن فصولا من تواريخ الفرس المسطورة في كتاب الملوك (خُدانامه) وصلت إلى الحيرة ومنها إلى مكة في قصص (رستم وإسفنديار)، ومن الفرس وصلت أيضا أخبار الإسكندر الكبير الذي تسمى المنذر اللخمي بلقبه المعروف "ذو القرنين".

أما الأثر أو العامل الآرامي/السرياني فقد كان دينيًا مع شيء من الحكمة اليونانية المترجمة إلى الآرامية. وكان هذا العامل هو الأكثر فعالية في تاريخ الحيرة. لم تستحبّ ملوك ساسان- وهم عُبّاد النار- النصرانية لعالميتها التي كانت تهدف التبشير ونشر الدعوة لا سيما بعد أن صارت ديانة العدو الكبير-الروم-بعد تنصر الإمبراطور قسطنطين. لذلك وجدت الكنيسة السريانية في الحيرة العربية عاصمة قريبة منها على الصعيد السامي. وهكذا صارت الحيرة حامية للكنيسة النصرانية/السريانية في بلاد الرافدين التي كثيرًا ما اضطهد رؤساءها-ملوك آل ساسان وانعكست هذه الحماية ليس في محياهم فحسب ولكن في مماتهم أيضا عندما صارت مقابر الحيرة المثوى الأخير لبعض رؤساء (جثالقة) الكنيسة الآرامية النصرانية. وأهم من هذا هو تطور الحيرة كمركز لنشر النصرانية في الخليج وشرق الجزيرة، بعد ظهور النصرانية في هذه الأقطار التي كانت تتكلم العربية. فالمصادر السريانية تذكر أن الحيرة كانت أسقفيّة في مطلع القرن الخامس وكان اسم اسقفها هوشع، اسم أحد أنبياء العهد القديم في الكتاب المقدس، وكان من وظائف الأسقف في الكنيسة النصرانية نشر الدعوة والتبشير. ويمثل دور الحيرة في تنصير الجزيرة ما قام به حيّان التاجر النجراني الذي أدخل النصرانية إلى نجران البعيدة بعد إقامته بالحيرة في منتصف القرن الخامس. وكان خير تعبير لنصرانية الحيرة هو نشوء قسم كبيرة من سكانها على هذا المذهب وتسمية أنفسهم بـ(العباد) مع أنهم كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة. وهكذا أفصح (الأنصار) في المدينة عن ولائهم للإسلام عندما ارتضوا هذا الاسم وتركوا انتماءهم القبلي إلى الأوس والخزرج. هؤلاء (العباد) كانوا العنصر النصراني القوي وإليهم تُنسب الأنشطة النصرانية في الحيرة وأهمها الترجمات وبناء الأديرة والبيع لا سيما الأديرة. تذكر المصادر العربية بعض الكتب التي كانت شائعة بين عرب الجاهلية منها مجلة لقمان وكتاب دانيال أحد كتب العهد القديم ولكن من الطبيعي أن تُقرن هذه الترجمات بالحيرة فهذه المدينة كانت تقرأ وتكتب وكانت اللغات الثلاث مفهومة ومستعملة فيها وكانت في وسط إقليم – بلاد الرافدين – به كثير من مراكز الترجمة – الرُها، نصيبين، حرّان، وجند يشابور حيث كانت تترجم علوم اليونان ولاهوت النصرانية والكتب المقدسة. فقد تُرجم الكتاب المقدس النصراني إلى السريانية وهذه هي الترجمة التي تدعى بشتا Peshitta أي البسيطة وتُرجم العهد القديم العبراني إلى الآرامية وهو المدعو (ترجوم) Targom وتُرجم الطب والفلسفة اليونانية في جند شابور وغيرها إلى السريانية. وكان في الحيرة نفسها أكاديمية يهودية تحت رعاية الحبر (همنونا). كلّ هذا

يفسر كيف صارت الحيرة مركزًا من مراكز الترجمة في بلاد الرافدين. وأغلب الظن أن كتابًا مثل (مجلة لقمان) تُرجم بالحيرة وهي في بلاد الرافدين، المنطقة الآرامية الساميّة القديمة التي نشأ فيها لقمان واسمه الساميّ الصحيح كان (أحيقار) قبل أن يصار لقمان. وكذلك ترجم أهلُ الحيرة وهم تبع للساسانيين أخبار ملوك الفرس وأبطالهم ومنها أخبار (رستم واسفنديار) التي وصلت مكة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبناء الكنائس والأديرة مثل آخر على أثر النصرانية بشكلها الآرامي النسطوري في مجتمع الحيرة فقد صارت الحيرة مدينة الأديرة الكبرى، بلغ ما عدّه المحققون من أديرتها ما يزيد على 30 ديرًا. وكان في هذه الأديرة أو بعضها مكاتب حيث كان الرهبان ينسخون ويترجمون ويؤلفون. ووجود هذا العدد الكبير من الأديرة دليل آخر على كون الحيرة البلد التي قامت بترجمة هذه الكتب إلى العربية. وأشهر هذه الأديرة هو دير (هند) الذي بنته الملكة الكنديّة زوجة المنذر الثالث وأم عمرو بن هند اللخمي. وفي هذه الأديرة والبيع وجد هشام بن محمد الكلبي كتبًا وأسفارًا عن تواريخ بني نصر. وأهم من ذلك لحال اللغة العربية في منتصف القرن السادس الميلادي نقش (دير هند) الطويل الشهير – مفتاح الكثير من الأغلاق التي تحيط بلغة الشعر الجاهلي.

ولكن الحيرة كانت مدينة عربية وهذا الأساس العربي لا يزال باقيًا إلى الآن ممثلا في الشعر العربي والخط. كان بلاط المناذرة موئلا للشعر العربي فالحيرة بحكم موقعها الجغرافي كانت منفتحة على اليمامة ونجد، مواطن القبائل التي أنجبت فحول شعراء الجاهلية، وهؤلاء وفدوا على ملوك الحيرة ونظموا فيهم القصائد. فبينما ورد شاعر واحد على غساسنة الشام من شعراء المعلقات وهو النابغة الذبياني، ورد على بني نصر سبعة منهم: عبيد بن الأبرص، طرفة بن العبد، عمرو بن كلثوم، الحارث بن حلزة، لبيد بن ربيعة، النابغة الذبياني والأعشى. كان هؤلاء هم الشعراء الذين تطورت على أيديهم المدائح وغيرها من القصائد، لأنها قيلت في ملوك مجتمع متحضّر في ظل الدولة الساسانيّة وبذلك عكست هذه المدائح مشهدًا غير المشهد الصحراوي العربي الذي كان الشعراء يتغنون به. وشعر الأعشى خير ما يمثل الأثر الفارسي. ولم يقتصر وحي الحيرة على إكساب الشعر البدوي شيئا من سمات الحضارة ولكنه خلق شاعرًا حضريًّا من الحيرة نفسها- عديّ بن زيد الذي عكس تاريخ الحيرة وجوّها السياسي كما عكس حياة الترف التي كانت عليه بخمريّاته وكذلك عكس نصرانية المدينة بما أشاع في ديوانه من تعابير ومفاهيم من عهدي الكتاب المقدس، القديم والجديد، ومن معجم شعري حضاري. وتذكر المصادر العربية وجود ديوان في هذا العصر جُمع فيه الشعر العربي الذي قيل في مديح ملوك الحيرة. وهذا خبر لا يصعب قبوله، فمدائح الشعراء أمثال النابغة في النعمان لا سبيل إلى إنكارها وليس الاحتمال بعيدا أن تكون هذه القصائد وغيرها قد جُمعت بين دفتي كتاب، فهكذا فعل ملوك الفرس بتاريخهم وما قيل فيهم كما يقول حمزة الأصفهاني، والناس على دين ملوكهم، قلّد فيه المناذرة ما فعل الأكاسرة في هذا المضمار.

ولا يقل إسهام الحيرة في ميلاد الخط العربي وتطوره عن إسهام الحيرة في دفع الشعر إلى الأمام، بل لعلّه يفوقه. أجمعت المصادر العربية على أن الحيرة هي المدينة التي ظهر فيها الخط العربي وتطور وهذا أيضا خبر مقبول ولا سبيل إلى إنكاره لما عُرف عن الحيرة من حضارة كانت تدعو إلى الكتابة وإتقانها والأرجح أنه الخط أو الأسلوب المُشبه لما يدعى في الآرامية (السطرنجيلي). وبذلك كُتب للخط العربي المشتق من الآرامية الغلبة على الخط المعتمد على قلم الجنوب – المسند – الذي اندثر بين العرب. وهذا الخط الحيري به شبه كثير بالخط العربي الذي نشأ بالكوفة ودُعي (الكوفي) ولا غرابة في ذلك فكما أخذت الكوفة كثيرًا من منشآت الحيرة العمرانية، كما هو واضح من نص

البلاذري في (فتوح البلدان)، كذلك أفادت منها الخطّ الذي أصبح بظهور الإسلام وبفضل الفتوح من الهند إلى الأندلس خطّا عالميا لا يزال قائما إلى الآن. هذا هو خط العالم العربي والخط الذي يعرفه الملايين في العالم الإسلامي عند تلاوتهم القرآن الكريم وقراءة غيره من الكتب الدينية. وهو الخط الذي أصبح أيضا فنا من الفنون الإسلامية، بل فنّ الإسلام الأول الذي كان ولا يزال يُجمّل المنشآت والكتب والعمائر في طول العالم الإسلامي وعرضه.

الخاتمـة :

سقطت هذه الممالك العربية المتأخرة الواحدة بعد الأخرى، وسقوطها يدعو إلى إبداء ملاحظتين:

1- مع أن هذه الممالك كانت على جانب لا يُستهان به من القوة العسكرية لكنها لم تكن من القوة بمكان تُمكنها من إعلان سيادتها التامة وهي في كنف هذه الدول الكبيرة التي كانت تحكم الشرق الأدنى من القسطنطينية وطيسفون/المدائن وأكسوم. وقد خدمت هذه الدويلات - ولاسيما غسّان ولخم – الروم وفارس بإخلاص وحموا أطراف الدولتين عسكريًا من غارات البدو علاوة على اشتراكهما في حروب الدولتين مع بعضهما البعض، ومع ذلك فلم تتردد هاتان الدولتان من إزالة نعمة هذه الدويلات وتحطيم كيانها عندما كانت ترى ذلك مناسبًا.

2- ساد التفرق والانقسام الحياة العربية الدينية أيضا وكان هذا صدى لصراع الديانتين الكتابيّتين – اليهودية والنصرانية – بينهما على اجتذاب العرب إليهما، ولصراع المذاهب النصرانية مع بعضها البعض وانعكاس هذا الصراع في الفئات العربية التي قبلت النصرانية على مذاهبها المختلفة: الملكيّة واليعقوبيّة والنسطوريّة.

هكذا كان الوضع التاريخي في العقود الأولى في القرن السابع الميلادي: إحباط عربي شامل وتشرذم في القوى وتراخ في الطاقات وعندها ظهر الإسلام. وحّد الدين الجديد العرب دينًا ودولة في الجزيرة العربية، وبعد هذا دفعهم مؤيّدين بعالميّة الدعوة إلى القضاء على الحضور الرومي والفارسي في شرق الهلال الخصيب وغربه، ذلك الحضور الذي كان يهدد الكيان العربي في الجزيرة وفي الهلال الخصيب نفسه، الذي كانت توجد فيه دويلات عربية حتى قبل وصول الروم إليه في القرن الأول قبل الميلاد.

لعلّ هذا التحليل لتاريخ هذه الممالك العربية قبل الإسلام يُظهر بوضوح وجلاء حجم الإنجاز الإسلامي وأبعاده المختلفة، منها ما له مساس بتاريخ بعض هذه الممالك بالذات مثل - كندة والمناذرة والغساسنة- التي كتب لها الإسلام عمرًا جديدًا وأقامها على عتبة بعث جديد تحت المظلة العربية الإسلامية الوارفة وفي عالم جديد مترامي الأطراف هو عالم البحر الأبيض المتوسط.

د.عرفان شهيد

(حرر مادة : الحضر د. فاضل عبدالواحد علي)

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

- الأصفهاني، حمزة 1961م .

تاريخ ملوك الأرض والأنبياء (بيروت) .

- امرؤ القيس 1958م .

الديوان (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة) .

- الأندلسي، ابن سعيد: نشوة 1982م .

نشوة الطرب في جاهلية العرب (تحقيق نصرت عبد الرحمن، عمان، الجزء الأول) .

- الأنصاري، عبد الرحمن 1982م .

قرية الفاو، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية (الرياض) .

- بافقيه، محمد عبد القادر 1973م .

تاريخ اليمن القديم (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر) .

- البكري 1947م .

معجم ما استعجم.. (تحقيق مصطفى السقا، القاهرة 1947/1366)
.

- البني، عدنان؛ وخالد الأسعد د.ت .

تدمر، أثريا. تاريخيا. سياحيا، (الطبعة الثالثة) .

- ابن حزم 1962م .

جمهرة أنساب العرب(تحقيق محمد عبد السلام هارون، القاهرة) .

- الحلي، هبة الله 1984م .

المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية (تحقيق صالح موسى درادكة ومحمد عبد القادر خريسات، عمان) .

- ا بن زيد، عدي 1965م .

الديوان (حققه وجمعه محمد جبّار المُعيبد، بغداد)

- ابن دريد 1958م .

الاشتقاق (تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة) .

- سفر، فؤاد؛ ومحمد مصطفى 1974م .

الحضر مدينة الشمس (بغداد) .

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير د.ت .

تاريخ الرسل والملوك (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب، القاهرة) .

- عبد الله، يوسف محمد 1988م .

نقش القصيدة الحميرية في ترنيمة الشمس(ريدان، العدد ، ص: 81-100) .

- ابن عبدة، علقمة 1969م .

الديوان(تحقيق لطفي الصقال ودريّة الخطيب، حلب) .

- علي، جواد 1969م .

المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت) .

- ابن مُنبّه وهب 1979م .

كتاب التيجان في ملوك حمير، رواية بن هشام(تحقيق ونشر مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء) .

- النابغة الذبياني 1977م .

الديوان (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة)

- الهمداني، الحسين بن أحمد 1974م .

صفة جزيرة العرب (تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض).

- ياقوت، الحموي 1956م .

معجم البلدان (بيروت) .

- اليعقوبي د.ت .

تاريخ اليعقوبي (دار صادر، بيروت) .

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Andrae, W. 1908-1912

Hatra, volumes I-II.

- Bafaqih, M. A. 1990

L'Unification du Yemen antique: la lutte entre Saba', Himyar et le Hadramawt du I au III s. de l'ere chretienne, (Paris, Geuthner).

- Bosworth, C. E. 1983

Iran and the Arabs before Islam", The Cambridge History of Iran, Vol. (3) (I) (Cambridge University Press)

- Browning, I. 1979

Palmyra (Noyes Press Park Ridge, New Jersey).

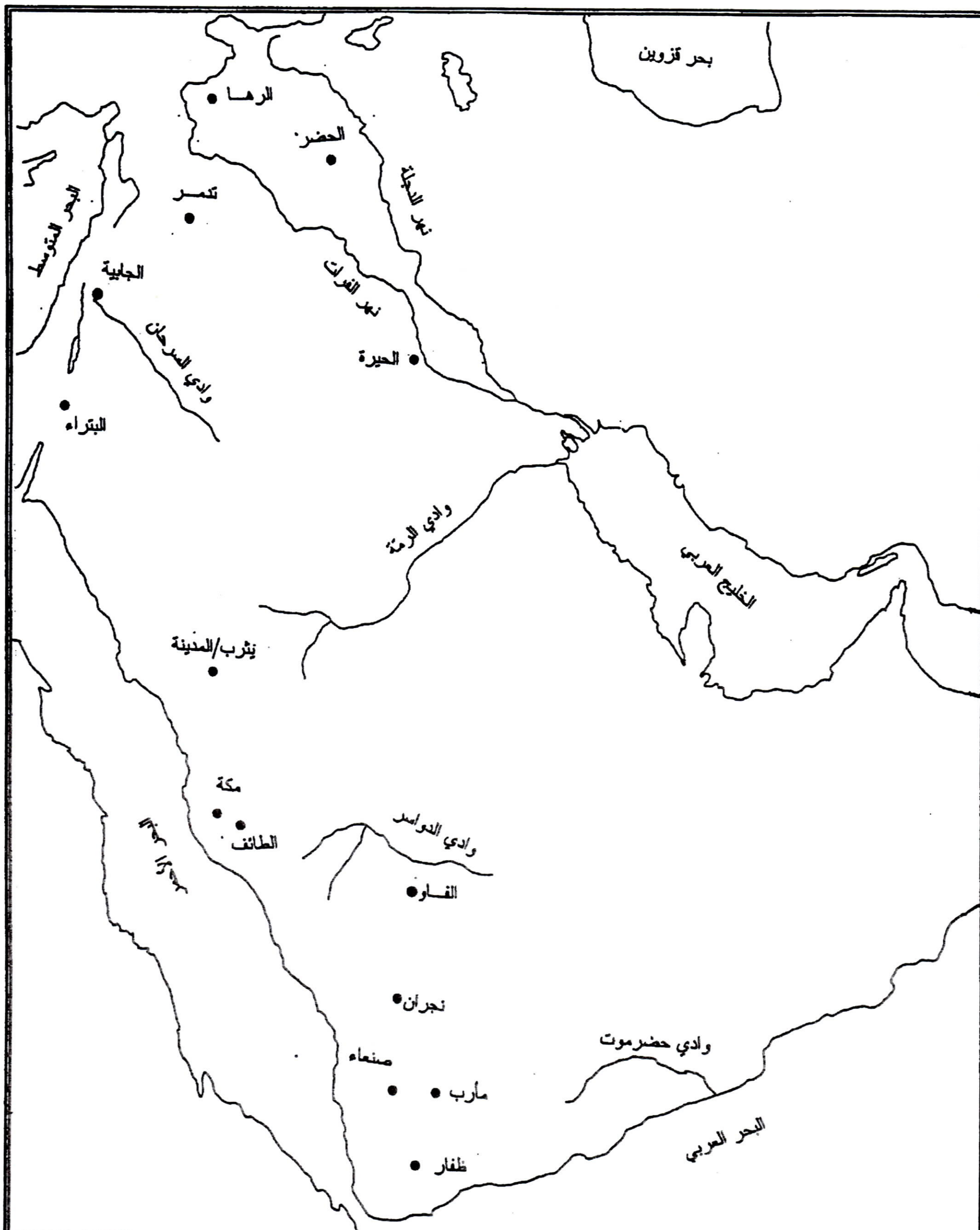
- Kister, M. J. 1968

"Al-Hira, some Notes on its Relations with Arabia", Arabica, XV

- Maraqten, M. 1995

- **Sauvaget, J. 1939**
  "Les Ghassanides et Sergiopolis", Byzantion 14, 115-130.
- **Shahid, I. 1960**
  "Byzantim and Kinda", in Byzantinische Zeitschrift.
- **Shahid, I. 1979**
  Philological "Notes on the Namara Inscription", Journal of Semitic Studies XXIV
- **Shahid, I. 1984**
  Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, (Washington, D.C.)
- **Shahid, I. 1995- 2002**
  Byzantium and the Arabs in the Sixth Century (Dumbarton Oaks, Washington, D.C. Vol. I, Parts 1 and 2 (1995), Vol. II, Part 1 (2002).
- **Stoneman, R. 1992**
  Palmyra and its Empire : Zenobia's Rovolt against Rome, (Ann Arbor, University of Michigan).
- **Teixidor, J. 1966**
  « Notes Hatreennes », Syria., pp. 93-97.
- **Wissmann, H. 1969**
  « Himyar, Ancient History" Le Museon, LXXXVII.

"The Arabic Words in Palmyrene Inscriptions", Aram, Vol. 7 (Peeters, Lovain)
- **Maricq, A. 1955**
  "Hatra de Santarouq", Syria., pp. 273-288.
- **Muller, W. 1989**
  "Himyar", Reallexikon fur Antike und Christentum, XV, (Stuttgart).
- **Noldeke, Th.1987**
  Die Ghassanischen Fursten aus dem Hause Gafna's(Berlin).
- **Oliandef, G. 1927**
  The Kings of Kinda, Lunds University Arsskrift, Nova Series.
- **Robin, C. 1996**
  'Le royaume hujride, dit "royaume de Kinda", entre Himyar et Byzance', Comptes Rendus de l'Academie des inscriptions Belles-Lettres.
- **Rostovtzeff, M. 1932**
  Caravan Cities (Oxford).
- **Rothstein, G. 1899**
  Die Dynastie der Lahmiden in al-Hira (Berlin,).
- **Ryckmans, J. 1951**
  L'institution monarchique en Arabie meridionale avant l'Islam, (Louvain).


بحر قزوين
الرهـا
الحضر
تدمـر
نهر دجلة
البحر المتوسط
الجابية
نهر الفرات
وادي السرحان
الحيرة
البتراء
وادي الرمة
الخليج العربي
يثرب/المدينة
مكة
الطائف
وادي الدواسر
البحر الأحمر
الفـاو
نجران
وادي حضرموت
صنعاء
مارب
البحر العربي
ظفار

الفصل الرابع

المظاهر الحضارية للعرب قبل الإسلام

- أيام العرب وأسواقهم وأديانهم .
- الكتابة .
- اللغة والأدب .
- المسكوكات .

أيــام العــرب وأسواقهم وأديــانهم

أيــام العرب :

ارتبطت المعارك الحربية عند العرب بلفظة يوم وقد ورد ذكر اليوم عندهم منذ عهد مكاربة سبأ، وربما أن ارتباط كلمة يوم بالحرب عند العرب هو بسبب أن أكثر حروبهم تجرى في النهار دون الليل وربما كانت أيضًا تعني الوقائع نفسها، ولكن الأرجح أن كلمة يوم تستخدم بمعنى (عندما حدث كذا) وأنها تأريخ لحدث مهم في تاريخ من يؤرخ به، لأن كلمة يوم لم تقتصر على المعارك الحربية فقط. وحيث ورد في النصوص الجنوبية ذكر لكلمة يوم مرتبطاً بأحداث غير حربية مثل يوم رمم السد أو يوم جدد البيت سلحن (القصر الملكي السبئي سلحين) ومن الطريف أن استخدام كلمة يوم كوصف ليوم حربي أو معركة مازال موجوداً إلى العهد القريب، وكذلك ارتباط كلمة يوم بالحدث المهم بل إنه يتعدى هذا أحياناً إلى أن يؤرخ بعض أبناء البادية خصوصاً كبار السن بكلمة يوم، أي عندما حدث كذا مثل قولهم (يوم نقطن على الشبرمية) (وهي ماء في عالية نجد) أو عند قولهم (يوم ذبحة ابن فلان) أي في التأريخ الذي يصادف عندما كانوا قطنًا على الشبرمية أو يوم مقتل فلان أو غيره من الأحداث التي يعتبرونها مهمة .

تحدثت النصوص العربية القديمة من جنوب الجزيرة العربية عن أيام حربية مهمة وذكرت النصوص كلمة يوم ولعل النص الشهير (GL 1000A = Res 3945) العائد لعهد المكرب الملك كرب ال وتر بن ذمر علي، خير مثال على استخدام العرب لكلمة يوم بمدلولها الحربي، ولعل معاركه الحربية التي انتصر فيها على المدن كانت في البلاد الواقعة من منطقة المعافر غرباً بالقرب من ساحل البحر الأحمر إلى وادي عرمة في حضرموت شرقاً ومن ساحل أبين جنوباً إلى نجران شمالاً، وتعد أيامه الحربية ضد دولة أوسان هي الأبرز في هذا الاكتساح الشامل لهذه المناطق. وتأريخ هذا المكرب كما يرى فون فيسمان كان معاصراً للملك سنحاريب (حوالي 680 ق.م)، وكانت هذه الأيام الآنفة الذكر في العصر السبئي القديم، أما العصر السبئي الوسيط والذي يبدأ من العام 115 ق.م فمن أشهر الأيام فيها في القرن الثاني الميلادي بالتحديد الحرب التي وقعت بين الملك السبئي كرب ال بين بن نمر على ذرح بشعب سمهر على الملك الحضرمي يدع إل وقواته وهو الوارد في النص (Ja 643 B) والحرب التي وردت في النص (Ja 643) والتي انتهت بالنصر للملك السبئي وهزيمة الحضارمة بل وأسر ملكهم والعودة به إلى العاصمة السبئية (مأرب).

ومن أهم الأيام التي وردت في هذا العصر الحرب التي شنها الملك السبئي شعر أوتر على صهره الملك الحضرمي ايل عزيلط والتي ذكرها النص (أرياني 13) ومن الأيام المهمة المبكرة بين العرب السبئيين والحميريين في عهد الملكين السبئي شعر أوتر والحميري لعزز يهنف يهصدق وبين الأحباش بقيادة بيجت بن النجاشي والذي ذكر في النص (Ja 631) والذي يتحدث عن فك الحصار الحبشي على مدينة ظفار وانتصار العرب ومقتلة الأحباش . ولعل من آثار هذا الانتصار محاولة الملك السبئي شعر أوتر مد نفوذه خارج نطاق سلطته التقليدية فقد شن حملة على قرية ذات كهل (الفاو) في يوم من أيام عرب الجنوب في ذلك الزمن الغابر وانتهى هذا اليوم بانتصار السبئيين. وقد ذكرت هذه الغزوة في النصين (Ja 634)، و(Ja 635) ودارت أيام مهمة في الصراع السبئي الحميري في عهد الملك الشرح يحضب وأخيه يأزل بين بينهما وبين ملوك ذي ريدان الملك شمر ذي ريدان والملك كرب إل ذي ريدان

والتي ذكرت تفاصيلها في النصــوص (أرياني 49) و (Ja 578) و (Ja 589) و(Ja 581) و (Ja 586) .

ومن الأيام المهمة بين عرب الجنوب والأحباش اليوم الذي وجه فيه الملك السبئي ياسر يهنعم قائد حظين أوكن للدفاع عن ميناء عدن بل وحصار الأحباش وتمكن هذا القائد مـن هدفـه بهزيمــة الأحبــاش وهــذا مــا يفصلــه الــنص (المعسال 6)، ومن أيام عرب الجنوب الأيام التي خاض فيها الملك شمر يهرعش الحرب على حضرموت واكتسحها كما يتحدث عن ذلك النص (شرف الدين 32).

أمـا الأيـام التـي حـدثت فـي العصـر السبئي المتـأخر (الحميري) فمن أهمها المحاولة التي كانت خارج النطاق الجغرافي التقليدي لمملكة سبأ وحمير في جنوب الجزيرة والتي تعد تطلعاً لبسط النفوذ على مناطق بعيدة في الجزيرة العربية مثل المحاولة التي لم يفصل النص (شرف الدين 31) فـي ذكـر تفاصيلها، بـل أوجـز حديثـه عـن حملـة إلـى مـدينتي قط وصف وكوك ولعلها أول مناوشة بين عرب الجنوب والمملكة الفارسية حيث يبدو أن هاتين المدينتين كانتا تقعان تحت نفوذها، وهذه الحملة هي التي احتفظت بها الذاكرة العربية والتي يذكرها الطبري في تأريخه الطويل عن غزوة شمر ذي الجناحين لبلاد فارس، وربما كان لهذا اليوم ارتباط بحملة امرئ القيس بن عمرو على نجران فربما كانت إحداهما رد فعل للأخرى.

ولقد استمرت الأيام سجالاً بين الحميريين والحضارمة الذين حاولوا الفكاك من الهيمنة الحميرية بعد شمر يهرعش وقد ذكرت ذلك بعض النصوص فيها على سبيل المثال (Ja 665) و(أرياني 32) و (CIH 397).

ثم يأتي ذكر حملتين حربيتين دونت في (مأسل) التي تقع في الجنوب الشرقي من مدينة الدوادمي في قلب نجد بوسط الجزيرة العربية .. الأولى في عهد الملك أبكرب أسعد وتاريخهـا الربـع الأول مـن القـرن الخـــامس الميـلادي وتفـاصيلهـا فـي النص (Ry 509). أما الثانية فهي في عهد الملك معدكرب يعفر إلى المكان نفسه حدثت بعد الأولى بحوالي قرن من الزمان في الربع الأول من القرن السادس الميلادي بالتحديد وكانت دعماً للثائرين على المنذر بن ماء السـماء ثـم يـأتي ذكـر أيـام مـن أهـم الأيـام التـي ذكرتهـا النصوص في جنوب الجزيرة- والتي كان لها الأثر السلبي علـى الدولـة الحميريـة كالأحـداث التـي ذكرهـا الـنص (J 1028) والذي يذكر فيه أن الملك يوسف أسار يثار المعروف في المصادر العربية القديمة (بذي نواس) قام بإحراق الكنيسة وقتل الأحباش في ظفار العاصمة الحميرية ثم صب جام غضبه على نجران وأحدث بها مقتله اهتز لها العالم المسيحي آنذاك وأتخذت ذريعة للتدخل المباشر السافر المتمثل في الاحتلال الحبشي لليمن.

وقد حاول عرب الجنوب تخليص بلادهم من الأحباش في البداية إلا أن هذا الاحتلال قد استمر حوالي نصف قرن من الزمان حاول أبرهة الحبشي مد نفوذه إلى وسط الجزيرة العربية وهذا ما يشيــر إليه النص (Ry 506) الموجود في منطقة بئر مريغان (تقع شمال غرب نجران بحوالي 230 كم وغرب تثليث بـ 20 كم). وكانت هذه الغزوة هدفها قبائل معد وخصوصاً بني عامر بن صعصعة على ذي مرح وحلبان.

أيام العرب في العصر الجاهلي:

يوم البردان هو أول أيام العرب في كتاب أبي عبيدة، وحدث هذا اليوم بين زياد بن الهبولة من قضاعة من ملوك الشام وبين حجر (اكل المرار) بن عمرو بن معاوية الكندي جد امرئ القيس وهو أول ملوك كنده الذين ولوهم التبابعة على قبائل معد. وقصة هذا اليوم أن زياد بن الهبولة بلغه أن حجراً (آكل المرار) قد أغار في كندة وربيعة على البحرين فهجم على نسائهم وأموالهم وانتهبها بقومه ثم انصرف فلحق به حجر بن عمرو (آكل المرار) في موضع يقال له البردان ومعه بكر وتغلب وكندة واقتتلوا قتالاً شديداً وانتصر حجر بن عمرو الكندي ومن معه.

ومن أيام العرب الشهيرة يوم الكلاب الأول وسببه أن قباذاً كسرى الفرس قد اعتنق المزدكية واختلف مع المنذر بن ماء السماء إذ رفض الأخير أن يعتنق المزدكية أنفة وإباء فتولى ملك الحيرة الحارث بن عمرو المقصور بن حجر آكل المرار وقد وزع أبناءه على قبائل معد بن عدنان فجعل حجراً على بني أسد وغطفان وشرحبيل على بكر بن وائل وبني حنظلة ومعدي كرب على بني تغلب والنمر وسعد بن زيد وابنه سلمة على قيس عيلان، وبعد وفاة الحارث أخذ المنذر بن ماء السماء يغري بين الأخوين شرحبيل وسلمة العداوة والبغضاء حتى التقيا في يوم الكلاب الأول وقُتل شرحبيل بن الحارث وانتهت بنصر لسلمة بن الحارث.

ولعل يوم خزاز من أهم الأيام التي كان لها أثر واضح وكانت فاصلاً بين عهدين فقد ذكرت المصادر العربية القديمة بأنه أول يوم انتصفت فيه معد من اليمن. وهذا القول المأثور يعد مؤشراً على أن الأيام الحربية التي دارت بين الطرفين قبله كانت الكفة فيها لصالح القبائل اليمنية التي كانت فيما يبدو تتلقى الدعم المعنوي والمادي والحربي من الدولة الحميرية، وسبب يوم خزاز أن ملكًا من ملوك اليمن أسر بعض زعماء مضر وربيعة وقضاعة فوفد وفد على الملك منهم سدوس بن شيبان وعوف بن محلم بن شيبان وغيرهم، فأطلق الملك الأسرى وحبس بعض رجال الوفد واشترط حضور الزعماء الآخرين الذين لم يحضروا ليأخذ المواثيق عليهم بالطاعة. فرجع من أطلق من الوفد ليخبروا قومهم الخبر بتهديد الملك بقتل الأسرى إن لم يحضر البقية فجمع كليب بن وائل ربيعة وبعث على المقدمة سلمة بن خالد (السفاح) التغلبي وأمره أن يكمن في خزاز وأن يوقد ناراً واحدة فإن غشيه العدو فليوقد نارين. وهذا دليل على أن أهل اليمن كانوا قريباً من خزاز (جبل بعالية نجد) ولما بلغ مذحج اجتماع ربيعة ومسيرها أقبلت جموعهم واستنفروا قبائل اليمن التي مروا بها، فسمع أهل تهامة بمسير مذحج فانضموا إلى ربيعه وهجمت مذحج على خزاز فلما رأى كليب النارين قد أوقدت علم أن أهل اليمن قد غشوا خزاز فهب بالجموع عليهم وصبَّحهم فاقتتل الجمعان قتالاً شديداً أسفر عن نصر لمعَّد .

ومن أيام العرب المهمة يوم الكلاب الثاني وهو لتميم على مذحج وقضاعة وغيرهم .. وسببه أنه لما أوقع كسرى ببني تميم في يوم الصفقة وقُتلت المقاتلة ونجت أموالهم وذراريهم بلغ الخبر قبائل مذحج وغيرهم من العرب وأرادوا أن يستغلوا الفرصة فاجتمعت مذحج ومن معها وقيل أن جيشهم بلغ (12000) اثني عشر ألف مقاتل وهو من أكبر جيوش الجاهلية ورئيس مذحج عبد يغوث بن صلاءة ورئيس كندة البراء بن قيس فاقبلوا على بنى تميم ونزلت تميم بوادي الكلاب (وهو وادي بعالية نجد بين القويعية والرويضة اليوم) واقتتل الجمعان وانتصرت تميم على مذحج ومن معها.

ومن أهم الأيام يوم ذي جبلة وجبلة (هضبة عظيمة في نجد قريباً من مدينة نفي الآن) وهذا اليوم لبني عامر وعبس على بني تميم ومعهم حسان ومعاوية ابنا الجون الكلبي ملك هجر ومعهم خلق كثير. وقد ذكرت المصادر القديمة أن الجيش الذي غزا بني عامر على جبلة كان أكبر جيوش العرب في الجاهلية وتحصن بنو عامر وحلفاؤهم في شعب جبلة واظمأوا الإبل ثم وصل الجيش المهاجم فافلتوا عُقل الإبل فدهمت المهاجمين وهجم بنو عامر وعبس متعقبين آثار المهاجمين الذين نزلوا إلى السهل فاعملوا فيهم القتل وانتصر بنو عامر وعبس على أعدائهم في هذا اليوم.

ومن أشهر حروب العرب في العصر الجاهلي حرب البسوس وهي بين تغلب وبكر وهي عدة أيام وقد استمرت ردحاً من الزمن، ولعل الرقم الذي ذكرته المصادر العربية القديمة وهو أربعون سنة ليس دقيقاً إنما هو كناية عن طول هذه الحرب. والبسوس بين تغلب وبكر سببها مقتل كليب بن ربيعة من تغلب بن وائل سيد ربيعة وقائدها يوم خزاز على يد صهره جساس بن مرة من بكر بن وائل ثم مطالبة

المهلهل أخو كليب بالثأر من جساس وبني بكر .. وحرب البسوس عدة أيام من أهمها يوم النهي ويوم الذنائب ويوم واردات ويوم تحلاق اللمم. وقد تداول الفريقان فيها النصر تارة والهزيمة تارة أخرى وانتهت بصلح الطرفين. وكان لتدخل المنذر بن ماء السماء الدور الأكبر في وقف هذه الحرب الضروس بين الأخوة وأخذ رهائن من شباب القبيلتين تغلب وبكر لضمان استمرار الصلح.

ومن الحروب (الملاحم) حرب داحس والغبراء وهي بين عبس وذبيان، وسببها رهان على الخيل بين قيس بن زهير سيد بني عبس بحصانه داحس وفرسه الغبراء وبين حذيفة بن بدر سيد ذبيان بحصانه الخطّار وفرسه الحنفاء، والمكيدة التي دبرها حذيفة بن بدر لداحس لتأخيره بالفوز بالسباق ثم فوز فرسيه بالسباق ونزاعهما على ذلك مما أشعل فتيل الحرب بين الحيين. ومن أيام حرب داحس والغبراء يوم الهباءة، ويوم ذات الجراجر في ذلك اليوم ظهرت شجاعة عنترة بن شداد العبسي، وكانت الأيام مداولة بين عبس وذبيان وأسرفت عبس في القتل يوم الهباءة ثم طلبوا الجوار في قبائل عديدة منها تميم وحنيفة وعامر وغيرهم، ثم تصالح الحيان وتحمل أشراف غطفان الديات وقد ذكر هذه المصالحة الشاعر زهير بن أبي سلمى في معلقته الشهيرة. أما أيام داحس والغبراء فقد ورد بعض ما جرى فيها في معلقة عنترة بن شداد العبسي .

ومن حروب العرب الشهيرة (حروب الأوس والخزرج) وكانت بين الأوس والخزرج ومن أيامها يوم سُمير، وحرب كعب بن عمرو وحرب حاطب ويوم بعاث وغيرها .. وسبب يوم سُمير أن سُمير بن يزيد من بني عمرو بن عوف من الأوس قتل كعب الثعلبي الذبياني حليف مالك بن العجلان الخزرجي فطلب مالك بن العجلان سُميراً من الأوس فأبوا فزحف مالك بن عوف بالخزرج وزحف الأوس ومعهم حلفاؤهم من اليهود من قريظة والنضير والتقوا بقباء فدارت معركة لم ينتصر فيها أحد الفريقين على الآخر ثم دارت معركة أخرى عند أطم بني قينقاع وكان الظفر في هذا اليوم للأوس وتذكر المصادر العربية القديمة أن هذه الحرب قد استمرت عشرين سنة وتصالح الحيان وانتهت بذلك حرب سُمير ثم تلتها الحروب الأخرى التي ذكرت آنفاً.

ومن أيام العرب الشهيرة يوم ذي قار وهو لبنى بكر بن وائل على العجم .. وسببه أن عدي بن زيد التميمي كاتب كسرى قد لعب حيلة ظريفة كانت نتيجتها أن كسرى ولى النعمان بن المنذر بن ماء السماء إمارة الحيرة مفضلاً إياه على إخوته الأشاهب ثم كاد هؤلاء الأمراء (الأشاهب) لعدي بن زيد وأوغروا صدر النعمان عليه وزار عدي بن زيد صديقه النعمان بن المنذر في الحيرة وكان قلب النعمان قد امتلأ عليه غيظاً لما سمع من إخوته الأشاهب فسجن عدي بن زيد ومات في السجن، ثم انتقم زيد بن عدي بن زيد الذي أصبحت له مكانة أبيه عند كسرى لمقتل أبيه بعد زمن بأن أغرى كسرى في أن يخطب ابنة النعمان فاعتذر النعمان وكانت نتيجتها غضب كسرى وتوعده للنعمان بالقتل ثم فرار النعمان إلى العرب وطوافه بهم بنسائه وأمواله وسلاحه. وحلّ أخيرًا ببني شيبان والتجأ إلى هانئ بن مسعود الشيباني وأصبح هانئ بن قبيصة الطائي أميرًا للحيرة واقترح هانئ بن مسعود على النعمان أن يذهب إلى كسرى فإن عفا عنه أعاده إلى الحيرة أميراً وإن قتله كان أفضل من بقائه سوقة بعد الملك ووعده بأن لا يسلم أهله وأمواله إلى كسرى، ونفذ النعمان نصيحة هانئ بن مسعود فسجنه كسرى، وأرسل كسرى إلى هانئ بن مسعود يطلب أهل النعمان وماله وسلاحه فرفض هانئ بن مسعود وهنا عقد كسرى للنعمان بن زرعة التغلبي على تغلب والنمر بن قاسط، وعقد لخالد بن يزيد البهراني على قضاعة وعقد لإياس بن قبيصة الطائي على العرب ومعه الكتيبتان الشهباء والدوسر وكانت العرب في جيش كسرى ثلاثة آلاف وأما الفرس فكانوا ألفين ألفًا من الأساورة وعليهم الهامرز وألفًا

بقيادة خنَّابزين وتقابل الطرفان على ماء ذي قار (ماء لبكر بالقرب من الكوفة) وكانت قبيلة عجل في الميمنة بقيادة حنظلة بن سيار وبني شيبان في الميسرة بقيادة بكر بن يزيد بن مسهر وأفناء بكر بن وائل في القلب وقائدهم هانئ بن مسعود وبدأت المعركة بالمبارزة فقتل الحوفزان الهامرز وصاحت العرب (أنهم يموتون كما نموت) وكان النصر في هذا اليوم للعرب على الفرس وحلفائهم وحدث هذا اليوم ورسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وقال فيه (اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا).

متى حدثت أيام العرب ؟

يبدو أن أيام العرب في الجاهلية التي احتفظت بها الذاكرة العربية في الإسلام وفي عصر التدوين كانت هي الأيام التي حدثت منذ مطلع القرن السادس الميلادي وهذا الاعتقاد يقويه أسباب أهمها:

1- سقوط مملكة حمير واختفاء الكيانات السياسية من جزيرة العرب ، بل وسقوط إمارة كندة الثانية بعد سقوط سندها وحصنها المنيع من الملوك التبابعة، مما جعل قبائل العرب تتخطف أمراءها أبناء حجر آكل المرار.

2- أنه من المعلوم أن الذاكرة قد تحتفظ بالأحداث القريبة والتي لا تصل إلى أكثر من قرنين.

3- أن العهد الذي دونت فيه أيام العرب كان في عهد الخلافة التي كانت في معدّ، فكان أيام قبائل اليمن قد همشت، واكتفي بالأيام التي كان النصر المؤزر فيها لمعد على اليمن أو للأيام التي دارت بين قبائل معَّد، واختفى لذلك ذكر أيام مهمة ربما كانت هزائم على معد وهي قريبة من التاريخ الذي ذكرت فيه أيام أخرى. وخير شاهد على ذلك أننا لم نعثر على أي ذكر لحملة أبرهة الحبشي على قبائل معد وبني عامر بن صعصعة وهي قريبة نسبياً من ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم (547م) ولا لغزوات التبابعة وحملاتهم وخصوصاً الأخيرة على مأسل (516م). ولعل معركة خزاز تحمل في روايتها شيئًا يدعم هذا الرأي فلقد وردت كلمة (وهو أول يوم انتصفت فيه معَّد من اليمن) والانتصاف هو رد الظلم وهذا يعني أن الأيام السابقة لخزاز كانت في مجملها انتصارات جنوبية يمانية على الشمال (معدّ) ويوم خزاز ويوم البردان هما أقدم أيام العرب في العصر الجاهلي، ولعل تزمين يوم خزاز يكون مدخلاً معقولاً لتزمين أيام العرب في العصر الجاهلي، فهو بلا شك حدث قبل حرب البسوس؛ لأن مصرع كليب كان سبب اشتعال نار الحرب في حرب البسوس وهو الساعي في جمع قبائل معَّد لمواجهة اليمن في خزاز. ويرى الباحث أن يوم خزاز قد وقعت في مطلع القرن السادس الميلادي والذي يدعو الباحث لوضع هذا التأريخ هو أن المنذر بن ماء السماء (524 – 554م) هو الذي أصلح بين بكر وتغلب ولأن سبط المهلهل بن ربيعة فارس حرب البسوس الفارس الشاعر المشهور (عمرو بن كلثوم) هو قاتل الملك عمرو بن هند عام 576م.

ولهذا فإن الإطار الزمني الذي دارت فيه أيام العرب في العصر الجاهلي كان هو القرن السادس الميلادي حتى بزوغ الإسلام والمبعث النبوي.

أين حدثت أيام العرب؟

حدثت أيام العرب كما يعتقد في العصر الجاهلي وفي جزيرة العرب وإن كانت نجدًا قد حظيت بالكثير منها وذلك لقابلية طبيعة الأرض للكر والفر ولأن الصراع بين القبائل العربية (البدوية) في العصر الجاهلي كان صراع قبائل بدوية مترحلة على المراعي الصالحة لرعي الإبل ولم يكن

صراعاً بين مدن، ولأهمية الجمل فالأيام مترعة بذكر نهب الإبل وافتداء الأسرى بالإبل، فالإبل هي المال في أيدي هذه القبائل، وكثرة أسماء المواضع الموجودة في نجد شاهد على ما ذكر أنفاً.

بعض التنظيمات المتصلة بأيام العرب:

في الحديث عن أيام العرب القديمة في جنوب الجزيرة العربية يستشف من النصوص الحربية الكثير من التنظيمات الحربية التي تدل على وصول عرب الجنوب إلى تنظيمات متقدمة لقواتهم المقاتلة، ولقد ورد في النصوص ما يدل على وجود جيش نظامي للدولة يسمى (خميس) وقد استمر هذا الاسم عند العرب في الشعر الجاهلي وإن لم يكن هناك دولة ذات كيان سياسي واضح في العصر الجاهلي في الجزيرة العربية بعد سقوط الدولة الحميرية، وربما كانت القبائل العربية هي القوات التي تخوض الحرب، كل قبيلة بمفردها أو مساندة لقبيلة أخرى نتيجة للظروف المحيطة بهذا اليوم أو ذاك، وقد استمرت قوات القبائل حتى في العهد النبوي إذ كانت القبائل لها راياتها الخاصة في فتح مكة على يد المصطفى عليه الصلاة والسلام وهذا دليل واضح على تغلغل مفهوم القبيلة ككيان مستقل له وظيفة حربية، ولعل السبب في ذلك هو محاولة رفع الروح المعنوية وربطها بالشرف وبالذل في أن كل قبيلة مسئولة عن نفسها في المعركة فتصبر في اللقاء حفاظاً على مجدها وسمعتها.

وقد عرف عرب الجنوب قوات المدن التي تدافع عن مدنها إلا أن أيام العرب في العصر الجاهلي لا تذكر قوات خاصة بالمدن وذلك لأن القبيلة في هذا العصر كانت هي حجر الزاوية في البناء الاجتماعي وكانت لها استقلالية خاصة وطغى بذلك الانتماء العرقي على الانتماء للأرض سواء كانت مدينة أو غير ذلك، ولقد عرف عرب الجنوب قوات المرتزقة وعرف عرب الجاهلية ذلك أيضاً فكان كثير من المرتزقة ينضم لكسب الغنائم وهذا يحدث غالباً عندما يكون الجيش المهاجم كبيرًا جداً واحتمالية النصر أكبر بكثير من الهزيمة مثل ما حدث في يوم جبلة إذ كان في صفوف المهاجمين بعض المرتزقة.

وكان للإمداد والتموين شأن عظيم في حروب عرب الجنوب وبالرغم من ثقة الباحث بوجود هذا الأمر في جيوش الجاهلية إلا إنه لم يحظ بالاهتمام الذي حظي به في النصوص الجنوبية في المصادر العربية القديمة ولعل السبب هو ضخامة الجيوش في جنوب جزيرة العرب في عصر الدول الجنوبية وصغر جيوش العصر الجاهلي في أغلبها التي كانت في مجملها غارات متبادلة بين القبائل العربية.

أما ما يتعلق بالتشكيل القتالي فقد عرف عرب الجنوب تشكيلات قتالية منها:-

1- **المقدمة:** فقد وردت في عدة نصوص ما يفيد بمعرفتهم لهذا التشكيل القتالي ومن هذه النصوص (Ja576) و (أرياني 12 = شرف الدين 20) وقد عرف عرب الجاهلية المقدمة وقد وردت في بعض الأيام كما حدث في يوم خزاز عندما بعث كليب بن ربيعة على مقدمته سلمة بن خالد (السفاح) وقد كانت المنسرة مقدمة المقدمة وهي كالمقدمة عرفت في العصر الجاهلي وعرّفها ابن منظور بأنها القطعة من الجيش تمر أمام الجيش الكبير.

2- **الميمنة والميسرة:** وهذه التشكيلات العسكرية قد ذكرتها النصوص العربية الجنوبية ولقد عرفت الميمنة والميسرة في العصر الجاهلي كما ورد ذكرها في يوم ذي قار.

3- **المشاة:** وهذا التشكيل القتالي هو أقدم التشكيلات القتالية عند العرب وغيرهم ووردت لفظة(رجلم) في النصوص العربية الجنوبية وهم المشاة وعرف العرب المشاة في العصر الجاهلي.

4-**الفرسان:** وردت كثير من النصوص التي تفيد بوجود الفرسان كقوة مستقلة عن الخميس السبئي ولعل هذا السلاح كان من أمضى الأسلحة في العصور القديمة وهو يشابه في الأهمية سلاح الطيران اليوم لأنه يساعد كثيراً في قلب موازين المعركة وإن كان لا يحسمها لوحده، وكان للفرسان وللخيل دور مهم في أيام العرب في الجاهلية وللخيل دور عظيم في تحقيق عنصر المباغتة والمفاجأة والإيقاع بالعدو، وربما كان للفرسان مساعدون لإطعام الخيل والاهتمام بها في وقت الراحة.

5-**الأدلاء:** عرف عرب الجنوب الأدلاء الذين يرشدون القوات المقاتلة إلى أماكن الأعداء ولهؤلاء أهمية في تأمين مسيرة الجيش المهاجم وسرعة وصوله إلى هدفه، ولعل الأدلاء قد أدوا دوراً مماثلاً في غزوات أيام العرب في الجاهلية.

الأساليب القتالية:

عرف عرب الجنوب كثيراً من الأساليب القتالية منها الطليعة الذي يقوم بدور الاستخبارات العسكرية اليوم في جمع المعلومات عن العدو ووردت نصوص سبئية كثيرة تفيد ذلك، ولقد استمر دور الطليعة أو الربيئة كما أسمته العرب في العصر الجاهلي وقد ورد ذكر للربيئة في يوم النفروات وفي يوم الاياد ويوم جبلة وهذه من أيام العرب المشهورة.

وكان الهجوم الليلي أو التبييت من الأساليب القتالية المعروفة في النصوص العربية الجنوبية وفي العصر الجاهلي وذلك لتحقيق عنصر المفاجأة والمباغتة، وكذلك كان الصّباح أو التّصبيح من أساليب القتال عند العرب ولعل يوم خزاز خير مثال على الصّباح عند العرب في العصر الجاهلي وكانت المطاردة تحظى بأهمية خاصة عند المهاجمين؛ لأنها تحقق استئصال شأفة العدو وعدم إتاحة الفرصة له مرة أخرى لتنظيم صفوفه والعودة للحرب، وقد ذُكر الكثير من المطاردات في أيام العرب في الجاهلية.

أثر الأيام في المجتمع العربي:

لقد أثرت الأيام في المجتمع العربي في العصر الجاهلي تأثيراً واضحاً، فقد كان من نتائجها وصول أشخاص إلى الزعامة في قبائلهم مثل كليب بن ربيعة لدوره في يوم خزاز وسيادته على ربيعة كلها بعد هذا اليوم لدوره المهم فيه،كذلك تمخضت هذه الأيام عن فرسان أصبح لأسرهم فيما بعد وظيفة حربية مرتبطة بالفروسية ولعل الوظائف المعروفة في بعض الأسر القرشية خير شاهد على ذلك، فبنو أمية كانوا أهل القبة أي (الزعامة) وهذه الزعامة يكون من حقوقها قيادة القبيلة في حروبها وهو ما يفسر لنا قيادة أبي سفيان بن حرب بن أمية لقريش في حروبها ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهناك أسر ارتبطت بالفروسية مثل بني مخزوم (أهل الأعنة) أعنة الخيل وقيادة فرسان قريش في أحد كانت لخالد بن الوليد المخزومي ، بل إن مسئولية حمل الراية كانت لأسر تتوارثها كما حدث عندما كان بنو عبد الدار هم حملة راية المشركين في بدر وكان مصعب بن عمير الصحابي الجليل وهو من بني عبد الدار أيضاً حامل لواء المسلمين في ذلك اليوم.

ويرى الباحث بأن أيام العرب في العصر الجاهلي كانت تهيئة وتدريباً للعرب طوال قرن من الزمان على الحرب وفنونها للدور التاريخي المهم المنتظر في الفتوحات العظيمة التي حدثت في فجر الإسلام ولهذا كانت الجزيرة العربية تزخر بالرجال المدربين الجاهزين للدخول في معارك حاسمة كالتي خاضوها في الفتوحات.

د. محمد سلطان العتيبي

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

- الألوسي، محمود شكري1342م .

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (دار الكتاب العربي، القاهرة) .

- البياتي، عادل جاسم 1976م .

كتاب أيام العرب قبل الإسلام، لأبي عبيدة (ت 209هـ) ملتقطات من الكتب والمخططات، القسم الأول، دراسة مقارنة لملاحم الأيام العربية(مطبعة دار الجاحظ للطباعة والنشر، بغداد) .

- التبريزي، يحيى بن علي د.ت .

شرح القصائد العشر(دار الجيل، بيروت) .

- جاد المولى، محمد أحمد وآخرون د.ت .

أيام العرب في الجاهلية(مكتبة الرياض الحديثة، الرياض) .

- العتيبي، محمد سلطان 2003م .

التنظيمات والمعارك الحربية في سبأ من خلال النصوص منذ القرن السادس ق.م حتى القرن السادس الميلادي (مخطوط رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود).

- منظور، جمال الدين محمد بن مكرم 1992م .

لسان العرب(دار صادر، ط1، بيروت) .

- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب 1974م .

صفة جزيرة العرب (تحقيق محمد علي الأكوع، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض) .

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Beeston, A.F.L 1976

Warfare in Ancient South Arabia (2-3 Centuries A.D), London

- Jamme,A. 1962

Sabaean Inscriptions From Mahram Bilqis (Mârib)', Publications of The American Foundation for The Study of Man, Vol III Baltimore,.

أســــواق العرب :

المقدمة :

كانت أسواق العرب تنتشر في كافة أنحاء الجزيرة العربية، ويسمي اليعقوبي عشرة أسواق، وابن حبيب اثني عشر، وآخرون يضيفون أسواقًا أخرى. ووفق اليعقوبي هي: دومة الجندل في شهر ربيع الأول، المشقر في هجر في جمادى الأول، صحار في رجب، ثم دبا في آخر رجب في عمان، الشحر في مهرة عمان في النصف من شعبان، عدن في العشر الأوائل من رمضان، صنعاء في النصف من رمضان، الرابية في حضرموت في ذي القعدة متزامنة مع عكاظ، وعكاظ في ذي القعدة وهي أعظم أسواق العرب، ذي المجاز في الطريق إلى الحج، أي في آخر ذي القعدة أو أول الحجة. وتذكر أسواق أخرى في مواضع متفرقة من كتب التاريخ، فهناك سوق ذي مجنة الواقع بين عكاظ وذي المجاز مكاناً وزماناً، وسوق اليمامة أو حجر اليمامة ويعقد من عاشوراء إلى آخر المحرم، وسوق حباشة بتهامة وهو الذي ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إليه بتجارة السيدة خديجة، وسوق بدر قرب يثرب، وسوق قرح بوادي القرى، ويضيف الهمداني، سوق عدن والجند ونجران وإرم، وسوق دارين، وسوق المستغل، وسوق نطاة بخيبر، وغيرهم.

وظاهرة الأسواق مرتبطة بالنشاط التجاري المتحرك في الجزيرة العربية والذي استدعى نشوء هذا النظام الذي اتفقت عليه العرب بشكل اضطراري مهما كانت اختلافاتهم حتى يمكنهم كسب رزقهم بشكل منتظم. ويقوم هذا التنظيم على عقد أسواق عامة محددة الزمان والمكان، متنقلة طيلة السنة حول أطراف الجزيرة ومراكزها بحيث تحظى المدن المهمة والرئيسة باستضافة هذه الأسواق. وكان حكام كل منطقة يشجعون عقد هذه الأسواق تحت مظلتهم وحمايتهم لما يجنونه من أرباح تلي السوق. ففي دومة الجندل والمشقر كانت تجارة الملك وتجارة كسرى الفرس أول تجارة تقدم في السوق ولا يسمح بأن تعرض أي تجارة أخرى حتى تنفد الأولى، وعلى الرغم من هذا الاحتكار إلا أن العرب لم يعترضوا كما يبدو للمكاسب التي كانوا يجنونها على الرغم من ذلك. وكانت قبائل معينة تتولى خفارة القوافل وحماية تجارتها عندما تقصد سوقها ككندة التي كانت تخفر تجارة سوق الرابية بحضرموت.

ولم يكن دور هذه الأسواق مجرد عرض المنتجات وتسويق المصنوعات ومساومة التجارات المستوردة من أطراف العالم القديم فحسب، بل كانت تمثل تجمعاً ثقافياً واجتماعياً وسياسياً كما هي تجمع اقتصادي. وتختلف درجة التوسع في هذه النواحي من سوق إلى أخرى وفق تاريخها وتقليد العرب فيها، وليس من اليسير تحديد سبب تميز سوق عن أخرى. فمثلاً كانت عكاظ أكثر الأسواق شهرة وممارسة للنشاطات المختلفة فيها لكن من الصعب معرفة ما جعلها بهذه الشهرة من دون بقية الأسواق على الرغم من وجود الأقدم وربما الأكبر. قد يقول قائل أن قربها من موسم الحج أعطاها هذه الصفة، لكن يرد هذه المقولة وجود سوقين آخرين قبل الوصول إلى الحج هما ذي المجاز ومجنة ولم يصلا إلى درجة شهرة وأهمية عكاظ. وقد يكون لبعض التسهيلات التي تقدمها بعض الأسواق دور في ذلك، فمثلاً يعرف أن تميماً، التي تشرف على سوق عكاظ، لا تفرض عشوراً على السوق.

وكانت بعض الأسواق تحيي "أمسيات شعرية" بمفهومنا الحديث، ولكنها كانت مساجلات شعرية ومسابقات لاختيار الأشعر والأفصح، وأشهر هذه الأمثلة تضرب أيضاً على سوق عكاظ وتحكيم الشعر فيها. ومن جانب آخر كان للنثر مكان كذلك، فقد كانت السوق مجالاً لعرض الخطب النثرية البليغة بما تحمله من حكم وفصاحة، يتنافس فيها الخطباء، وكان أشهر من خطب في الأسواق قس بن ساعدة الذي ارتبط كذلك بسوق عكاظ. ومن الأدب إلى الفن والغناء وقيل "كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى فاشيًا ظاهرًا وهي المدينة والطائف وخيبر وفدك ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة وهذه القرى مجامع أسواق العرب". وكانت الأسواق مجالاً للإعلان. فمن أراد أن يعلن للعرب

عن شيء مثلاً ذهب إلى عكاظ وقام في سوقها والناس مجتمعون فيضمن بذلك بلوغها لكل العرب. كما كانت الأسواق مجالاً لتلاقح الأفكار والمعتقدات واللهجات أيضاً. فأتاحت فرص اللقاء هذه لقبائل الجزيرة المختلفة اللهجات لأن تتلاقى وتفهم لغة بعضها بعضًا، بل ويعزى إليها إيجاد نوع من الوحدة اللغوية التي عرفت بالعربية كجنس لغوي فيما بعد.

وكانت السوق مناسبة لالتقاء القبائل من جميع أنحاء الجزيرة، ومناسبة للتباحث، للتفاوض، أو للحرب. في بعض الأحيان تغتنم الفرصة لعقد معاهدات واتفاقيات وأحياناً تقع ثارات وتثور حروب، والتي كان أشهرها يوم الفجار الثاني التي دارت في عكاظ. وتكون كذلك مناسبة لرفع رايات الإجارة والحماية، كما فعلت سبيعة بنت عبد شمس في يوم عكاظ. وقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أهمية هذا التجمع سياسياً فكان يحرص على حضور سوق عكاظ كل عام ليلتقي القبائل فيها ويدعوهم إلى الإسلام، وفي حديث جابر: "أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم، بمجنّة وعكاظ يبلّغ رسالات ربه". وهي مناسبة لإلقاء الخطب السياسية والدعوات الدينية والفكرية. ومن جانب آخر فقد كانت السوق مجالاً لعقد المحاكمات الكبرى للقضايا التي تقع بين القبائل. فضلاً عن تحصيل الديون أو العهود أو الإتاوات كما كان يفعل زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي، أحد ملوك العرب، فكانت له إتاوة على هوازن يأخذها كل سنة في عكاظ.

وكان السوق مناسبة لاجتماع القبائل والتعارف وربما التصاهر كذلك. وإن كان جانب من السوق تنصب فيها لبعضهن الرايات للملذات، واشتهرت بذلك سوق دومة الجندل. وهي أسواق تجري فيها تحايلات كذلك كما في قصة بائعة السمن الهذلية في سوق عكاظ ثم ثأر أم الورد العجلانية لها في سوق اليمامة. وهي مكان لتصيد الأحبة ومكان للبحث عنهم والعثور عليهم.

وكان من عادة فرسان العرب في المواسم والجموع وفي أسواق العرب كأيام عكاظ وذي المجاز وما أشبه ذلك التقنع إذ كانوا يكرهون أن يُعرفوا فلا يكون لفرسان عدوهم هم غيرهم، ومنهم المقنع الكندي الشاعر واسمه محمد بن عمير الذي كان طوال الدهر مقنعًا.

وبالطبع فهي سوق اقتصادية، تحوي جميع أنواع البضائع سواء المحلية أو المستوردة، ابتداءً من الخيط إلى الإنسان في صورة سوق النخاسة. وقد رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى زيد بن حارثة من سوق عكاظ وقد كان قد سُرق من قومه طيئ حول الجبلين.

وفيما يلي سوف نفصل الأمر في سوق عكاظ فحسب كنموذج لأسواق العرب الشهيرة.

سوق عكاظ :

يفاخر أهل الطائف بسوقهم، سوق عكاظ وقد أقيم عند ماء يقع على بعد 40 كم شرق الطائف، بَيْنَهُ وبَيْنَ الطَّائِفِ لَيْلَةٌ. وبَيْنَهُ وبَيْنَ مَكَّةَ ثَلاثُ لَيَالٍ ، صحراء مستوية لا علم فيها ولا جبل إلا ما كان فيها من الأنصاب التي كانت بها في الجاهلية .. وسوق عُكاظ قرية كالمدينة جامعة لها مزارع ونخيل ومياه كثيرة، وينزل به العرب في ذي القعدة وعلى رأسهم قريشٌ وهوازن وغطفان، وسليم الأحابيش وعقيل والمصطلق، وطوائف من العرب. وكانت سوق عكاظ تعقد في أول ذي القعدة، وقيل إنها في النصف من ذي القعدة إلى نهايته فلا تزال قائمة يباع فيها ويشترى إلى حضور الحج. وكان قيامها فيما بين نخلة والطائف عشرة أميال وبها نخل وأموال لثقيف. ونوع بيعهم فيها "السرار" وهو أنه إذا وجب البيع وعند التاجر فيها إلف ممن يريد الشراء ولايريده، أشركه في الربح. وأصل اسم عكاظ من "عكظ" أي قهَرَهُ بحُجَّتِهِ، وردَّ عَلَيْهِ فَخْرَه، قالَ ابن دريد: وبه سُمِّيَ عُكَاظٌ وكانَتْ تَجْتَمِعُ فِيها قَبَائِلُ العَرَبِ، فَيَتَعَاكَظُونَ، أي يَتَفَاخَرُونَ ويَتَنَاشَدُونَ ما أَحْدَثُوا من الشِّعْرِ ثُمَّ يَتَفَرَّقُونَ ، وفي قول، تَعَكَّظَ القَوْمُ: أي تَحَبَّسُوا يَنْظُرُونَ في أُمُورهم، قِيلَ: ومنه سُمِّيَتْ عُكاظ.

وكانت عكاظ أحد منتديات العرب السنوية المهمة تجارياً وأدبياً واجتماعياً وسياسياً، فتمثل كل أدوار أسواق العرب التي سبق وذكرناها، فتُتبادل فيها السلع وتعقد فيها المسابقات الأدبية والمساجلات الشعرية المحكمة، وتتبادل فيها القبائل الأخبار وربما تتعارف وتتصاهر، وتوضع الحروب وتعقد الاتفاقات حيث يأمن الناس على دمائهم، ويُفادى الأسرى، وتطلب الديات، وترفع المحاكمات. ويقول السهيلي: إنه كان في عكاظ أشياءُ ليست في شيء من أسواق العرب.

ويذكر أن أول نشأته كان بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة أي عام 586م، وعند ظهور الإسلام تأثم الناس أن يتجروا في الحج حتى أنزل الله تعالى﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة: من الآية198) يعني في مواسم الحج، لكن أهميته استمرت وإن كان تحول إلى سوق محلية دائمة اقتصرت على الأرجح على التجارة فحسب، فبنيت في الموقع العمائر والأسوار، واستمر نشاطه حتى القرن الثاني الهجري عام 129هـ / 746م، عندما ظهر الخوارج الحرورية مع المختار بن عوف الأباضي في مكة وخاف الناس بعدها أن يُنهبوا ويفتنوا وتُركت عكاظ، وبعدها بقليل تركت كذلك مجنة وذو المجاز، واستعاضوا عنها بأسواق مكة ومنى وعرفة. أي أن حياة سوق عكاظ استمرت 160 عاماً.

وتتميز سوق عكاظ بأنها كانت سوقاً حرة لا عشور فيها ولا خفارة ولا تدخل ضمن سيطرة ملك أو مملكة، وكانت تحت إشراف أشراف تميم لكن دون تعشير، هذا على الرغم من أن عكاظ تدخل في أرض هوازن. ويأمن الناس على أنفسهم فيها فهي تقام في ذي القعدة أول الأشهر الحرم.

وكانت عكاظ محل أحداث تاريخية كثيرة ومهمة، أولها أن فيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء العرب، واشتهر من رواد هذا السوق النابغة الذبياني الذي كانت تُضرب له قبة من أدم يجلس تحتها فيفد إليه الشعراء من يريد أن يفتخر بشعره فينشد أمامه فيحكم على شعره برأيه وكانت الخنساء والأعشى وحسان بن ثابت ممن احتكموا إليه. وبالإضافة إلى الشعر كان هناك أيضاً "مهرجان" النثر والخطابة فقد اشتهرت في عكاظ خطب قس بن ساعدة الإيادي وعمرو بن كلثوم التغلبي، فألقيت فيها أبلغ نصوص النثر وأحكمها، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قس بن ساعدة وقد شاهده واستمع إليه في عكاظ: "كأني أنظر إليه بسوق عُكاظ يخطب الناس على جمل له أحمر وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، منَ عاش مات، ومَن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، أما بعدُ فإنَّ في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، بُحُور تَمُور، ونجومْ تَغور، وسقف مرفوع وعِماد موضوع، أقسم بالله قس قسماً إن للهِ ديناً أرضى من دينٍ أنتم عليه، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا فأقامُوا، أمْ تركوا فناموا، وسبيل مؤتلف وعمل مختلف، وقال أشياء لا أحفظها". وأمضى الرسول صلى الله عليه وسلم عشر سنوات يأتي عكاظ ويدعو العرب فيها. هذا فضلاً عن أن السوق كان معرضاً لمواقف سجلها التاريخ منها، ما لا يُفتخر به كالحروب التي قامت في أيامه ممن انتهكوا الحرم، ومنها ما يُفتخر به، كصنيعة سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف زوجة مسعود بن متعب الثقفي الذي يذكر أنه أحد المعنيين في قوله تعالى: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: من الآية31) والتي أجارت في خبائها في عكاظ كل قومها يوم عكاظ رابع أيام الفجار.

ومن أحداث عكاظ أنها كانت مسرحاً لحرب الفجار الثانية (يوم الفجار) والتي سميت بالفجار نظراً لكونها جرت في الأشهر الحرم. وكانت عكاظ تعقد في الشهور الحُرُم مما يعطيها ميزة فوق ميزة السوق العامة. وكان المعتاد أن يسلم العرب عند قدومهم عكاظ سلاحهم إلى عبدالله بن جدعان حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم. وكان سيداً حكيماً مثرياً. ولكن تلك الحرب والثأر الذي دار حولها كان ينال من قبيلتي كنانة المحالفة لقريش، وهوازن المحالفة لقيس. وسبب الثأر

يتعلق باللطيمة أو العير التي تحمل الطيب والتجارة أرسلها النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ وسلمها إلى عروة بن عتبة من هوازن ليجيزها على أهل نجد والحجاز. وفي الطريق تمت منافسة وقتل كناني الهوازني ووقعت الحرب بين قريش وكنانة من جانب وقيس وهوازن من جانب آخر وجعل الموعد عكاظ. واضطر عبدالله بن جدعان أن يسلم الناس أسلحتهم، وانتصرت فيها قيس عيلان على كنانة وقريش وترك الميعاد أو الثأر إلى العام المقبل في عكاظ. واستمرت الحرب لمدة خمسة أعوام فيما يعرف بأيام الفجار الثاني الخمسة (نخلة، شمطة، العبلاء، عكاظ، والحُريرة)، والنصر سجال حتى كان آخر أيامها الحُريرة التي انتهت بتبادل العفو وهكذا وضعت الحرب أوزارها. ويذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم شهد الفجار إلا يوم نخلة مع أعمامه وهو ابن عشرين سنة أي في عام 590م.

وكانت القبائل تأتي عكاظًا من كل صوب وتعرض فيها البضائع من كل مكان، وكان النعمان بن المنذر يبعث إليها بلطيمة يجيزها له سيد مضر فتباع ويشتري له بثمنها الأدم والحرير والحذاء والبرود من العصب (الثياب اليمانية) والوشي والمسير (نوع من البرود الحريرية) والعدني.

واشتهرت عكاظ بتجارة الجلود وخاصة ما عرف بالأديم العكاظي.

ومن مفاخرات عكاظ إجماع العُكاظيين على تحديد فرسان العرب وحصرهم في ثلاثة لثلاث قبائل تميم وقيس وربيعة وهم: فارس تميم عُتَيْبَة بن الحارث بن شهاب أحد بني ثعلبة بن يربوع بن حنظلة صياد الفوارس وسُمّ الفرسان، وفارس بني قيس عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب وفارس ربيعة بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس أحد بني شيبان بن ثعلبة.

الخاتمة :

نرى في ختام الموضوع أن كثيراً من مواقع أسواق العرب بحاجة إلى تحقيق جغرافي للتعرف أولاً إلى ما تبقى من آثار هذه الأسواق، وثانياً النظر فيما إن كانت هناك أي استمرارية لها في العصور اللاحقة أو السابقة للفترة الجاهلية، وعن الأسباب التي جعلتها موقعاً مختاراً لكي تكون إحدى أسواق العرب العامة. نحن نتوقع بالطبع أن يكون لتوسط الموقع ولشهرة المدينة التجارية دور مهم، ولكن يهم أن نعرف ما تميزت به كل منطقة سوق عن الأخرى، إذ لا بد أن تكون قد اشتهرت بإنتاج معين أو بتسهيلات معينة تميزها عن سواها من المواقع المجاورة.

جدول مواعيد أسواق العرب

المحرم	حجر اليمامة : 10-30		
صفر			
ربيع 1	دومة الجندل : 1-15		
ربيع 2	هجر		
جمادى 1	دارين؟		
جمادى 2	المشقر		
رجب	حباشة	صحار : 10-15	دبا : 30
شعبان	الشحر : 15		
رمضان	عدن : 1-20	صنعاء : 15-30	
شوال			
ذو القعدة	عكاظ : 1-20	مجنة : 20-30	حضرموت والرابية : 15
ذو الحجة	ذو المجاز :1-8		

إنه وفق الجدول الذي وضعناه لمواعيد أسواق العرب يتضح أن هناك شهوراً كانت تخلو من البيع والشراء وأخرى تزدحم بأكثر من سوق. ويبدو أن الإخباريين الأوائل لم ينقلوا كل المواعيد بدقة فضلاً عن أن بعض الأسواق لم تصلنا مواعيد انعقادها كقرح وادي القرى ونطاة خيبر ودارين وغيرها. ويمكننا من خلال المواقع الجغرافية لبعض الأسواق أن نحلها في مواعيد مرجحة.

فمثلاً من المرجح أن يكون موعد انعقاد سوق دارين بين سوقي هجر والمشقر وبما أن جمادى الأولى خال بينهما فقد يكون هو موعد انعقاد هذه السوق. ومن المستغرب أن يمتد سوق صحار لمدة خمسة أيام وينتهي خمسة عشر يوماً قبل سوق دبا الذي لا يستمر أكثر من يوم واحد. فمن المرجح أن هناك بعض الأيام التي كانت تنال دبا. ومن المرجح أن سوق عكاظ كان يعقد من الواحد إلى العشرين من ذي القعدة ليبدأ مجنة في العشرين من الشهر نفسه وحتى نهايته ثم يليه ذو المجاز وحتى يوم التروية. وتبقى عدد من أسواق الجنوب والشمال بعيدة عن الأسواق الكبرى وتعقد متزامنة معها كسوق حضرموت والرابية اللذين يعقدان في موعد عكاظ وعلى الأرجح أنهما يلبيان احتياجات الجنوب فيمن لم يصل إلى غرب الجزيرة.

ووفق خريطة الجزيرة فمن غير المتوقع أن يصل التجار سوق حجر اليمامة في المحرم ثم يتجهون إلى دومة الجندل بعد ذلك بشهر. فإن الطريق الأسهل لهم كان بإكمال الاتجاه شرقاً، لاسيما إن كانوا قد أقبلوا من مكة وقد حجوا، فينضمون إلى سوق هجر في ربيع الآخر. أما من وصل دومة الجندل من التجار فعلى الأغلب أن يكونوا قد وصلوا إليها من مكة باتجاه الشمال فأحيوا أسواق خيبر ووادي القرى وأكملوا الطريق إلى دومة الجندل ثم نزلوا إلى البحرين وعمان، فحضرموت واليمن. وهنا تستوقفنا مواعيد أسواق اليمن

من عدن وصنعاء التي تسبق أسواق حضرموت بشهرين وتلي أسواق عمان، مما يشير إلى: إما وجود خلط في المواعيد أو أن خط سير التجار كان يتذبذب صعوداً وهبوطاً أو أن القادم إلى أسواق اليمن يقبل عليها من غرب الجزيرة وليس من شرقها.

د. هتون أجواد الفاسي

المصادر والمراجع العربية

- **الأبشيهي، شهاب الدين أحمد بن محمد أبي الفتح 1986م.**
المستطرف في كل فن مستظرف (تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت) .
- **الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد د.ت .**
أخبار مكة(تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، مدريد) .
- **الأصفهاني، أبو الفرج د.ت .**
كتاب الأغاني (دار الفكر) .
- **البكري، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي أبو عبيد 1971م.**
فصل المقال في شرح كتاب الأمثال(تحقيق إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت) .
- **البكري، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي أبو عبيد 1983م.**
معجم ما استعجم (تحقيق مصطفى السقا، ط 3، عالم الكتب، بيروت) .
- **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر 1968**
البيان والتبيين(تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت) .
- **جاد المولى بك، محمد أحمد، والبجاوي، علي محمد، وإبراهيم، محمد أبو الفضل 1942م.**
أيام العرب في الجاهلية(دار إحياء الكتب العربية، دار الباز، مكة المكرمة) .
- **ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي 1358هـ .**
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد) .
- **ابن حبيب، أبو جعفر محمد د.ت .**
كتاب المحبّر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري (صححته د. إيلزه ليختن شتيتر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت) .
- **ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي 1987م.**
خزانة الأدب وغاية الأرب (تحقيق عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت) .
- **الحميري، محمد بن محمد 1980م.**
الروض المعطار في خبر الأقطار(تحقيق إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت) .
- **الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر 1987م.**
المستقصى في أمثال العرب(ط2، دار الكتب العلمية، بيروت) .
- **السهيلي، عبدالرحمن بن عبدالله 1967م .**
الروض الأنف في شرح السيرة النبوية(تحقيق عبدالرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة).
- **السيوطي، جلال الدين 1998م .**
المزهر في علوم اللغة والأدب(تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت) .

- ابن شبه، أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري 1996م.

أخبار المدينة المنورة(تحقيق علي محمد دندل وياسين سعدالدين بيان، دار الكتب العلمية، بيروت) .

- العباسي، عبدالرحيم بن أحمد 1947م .

معاهدة التنصيص(تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، عالم الكتب، بيروت) .

- العسكري، أبو هلال 1988م .

جمهرة الأمثال (دار الفكر، بيروت) .

- العصامي ، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي المكي 1998م .

سمط النجوم العوالي (تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت) .

- العقيلي، محمد أحمد 1984م .

سوق عكاظ في التاريخ(نادي أبها الأدبي، أبها).

- علي، جواد 1980م .

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام(ط2، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد) .

- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري 1981م .

صبح الأعشى في صناعة الإنشا(تحقيق عبدالقادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق) .

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي د.ت .

البداية والنهاية (مكتبة المعارف، بيروت .

- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد د.ت .

الكامل في اللغة والأدب(دار الفكر، القاهرة) .

- المعيقل، خليل إبراهيم 1995م .

دراسة لآثار موقع عكاظ، (الدارة، السنة 21/مج1/ ص 8-40) .

- المقدسي، المطهر بن طاهر د.ت .

البدء والتاريخ (مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد) .

- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري د.ت .

مجمع الأمثال(تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار المعرفة، بيروت) .

- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب 1974م.

صفة جزيرة العرب (تحقيق محمد الأكوع، مراجعة حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض) .

- ياقوت، أبو عبدالله الحموي د.ت .

معجم البلدان(دار إحياء التراث العربي، بيروت).

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر 1980م.

تاريخ اليعقوبي (دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت).

إن الديانة الأولى كانت التوحيد لله عز وجل؛ فآدم عليه السلام كان نبياً رسولاً، وعندما تكاثر بنو آدم حدث الانحراف عن التوحيد، ويقول الله عز وجل في محكم التنزيل﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة:213) وهذه الآية الكريمة تفيد بأن الناس كانوا على الإيمان وذلك بالفطرة السليمة المستقيمة، وبعد الانحراف عن الإيمان بعث الله الأنبياء عليهم السلام لهداية الناس إلى الحق معضدين بالكتب من الله عز وجل.

ولقد كان للحنيفية التي أتى بها نبي الله إبراهيم عليه السلام المجال الأرحب في جزيرة العرب .

ويذكر ابن الكلبي أن أول الانحراف الوثني كان بسبب كثرة نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فضاقت بهم مكة ووقعت بينهم الحروب فأخرج بعضهم بعضاً، وكان كل من يخرج منهم يأخذ حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له وحباً في مكة وأنهم يضعون هذا الحجر حيثما حلّوا فيطوفون به طوافهم بالكعبة وهذا التخريج من ابن الكلبي ربما كان أصله تعليلاً لعبادة الأحجار ولكنه ليس مقنعاً كسبب في بداية الانحراف الوثني في جزيرة العرب فليست كل المعبودات الوثنية حجارة صماء وإنما عبدت الأشجار التي لم تنقل من مكة قطعاً وعبدت التماثيل المنحوتة وعبد غير ذلك.

ويروى ابن الكلبي كذلك أن أول من نصب الأوثان حول البيت وغير في دين إسماعيل بن إبراهيم هو عمرو بن لحي الخزاعي وأنه مرض مرضاً شديداً فذهب إلى الشام ليستشفي من مرضه فشفي ووجدهم يعبدون الأصنام فسألهم أن يعطوه منها فأعطوه وعاد بها إلى مكة ونصبها حول الكعبة وهو الذي جاء بهبل من هيت بأرض الجزيرة وما مر ذكره هو بداية الانحراف الوثني في الحجاز من وجهة نظر الإخباريين العرب الأوائل ولكن المكتشفات الأثرية والنصوص التي اكتشفت قد أثرت معرفتنا عن الديانة في جنوب الجزيرة العربية وفي شمالها وشرقها ووسطها، وقد كان لحالة التمزق السياسي لجزيرة العرب قبل الإسلام - وعدم انضوائها تحت لواء كيان سياسي واحد – تأثير مباشر في انتفاء وجود مجمع إلهي واحد يعمق الفكر الديني والتقاليد الدينية للجزيرة العربية بشكل عام، فقد سادت الزعامات المحلية في كثير من أصقاع الجزيرة العربية، بينما ظهرت دول ذات شوكة في اليمن مثل دولة سبأ ودول أوسان ومعين وقتبان وحضرموت وقد أدى التناحر والتطاحن بين هذه الإمارات والدويلات بعضها البعض إلى كثرة المعبودات وعدم وجود معبودات كبرى محددة يشترك في عبادتها كل العرب، على الرغم من تميز الثالوث الكوكبي (القمر – الشمس – الزهرة) عن بقية هذه المعبودات وخصوصاً في الجنوب، ولعل أقدم ذكر المعبودات العربية هو ما ورد في القرآن الكريم في ذكر ملكة سبأ وقومها وعبادتهم للشمس، قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ،وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل: 23 ، 24)، وأقدم ذكر للمعبودات العربية في النصوص هو ما ذكر في نصوص تعود إلى عهد الملك الآشوري أسرحدون في حديثه عن أعمال والده سنحاريب، وأنه أسر المعبودات العربية (دبلات) و (دايا) و(نوهيا) و(عترسماين)، هذا في شمال الجزيرة العربية.

أما في جنوبها فيظهر لنا جلياً أهمية الدين آنذاك وخصوصاً في المرحلة السياسية المبكرة للدولة السبئية (فترة مُكَرِّبي سبأ) فالمكرب هو الذي يجمع بين السلطتين

الدينية والسياسية ولهذا فإن الدين كان الركيزة الأهم التي يرتكز عليها الزعيم لفرض سلطته السياسية.

وكان للعقيدة الدينية الدور المهم في توحيد شعوب الممالك اليمنية القديمة، والدولة السبئية كانت مكونة من الثالوث [المعبود، الحاكم، الشعب] والمعبود السبئي المقه هو أبُ للشعب السبئي (وهم ولد المقه)، كما أن عم أبُ للشعب القتباني (وهم ولد عم)، بينما كان الأوساونيون أبناءً للمعبود ود.

ومن المعبودات العربية في نصوص جنوب الجزيرة العربية المقه ود وشهر وسن وعم وكهل وكل هذه المسميات هي للمعبود القمر، أما المعبودة الشمس فقد كانت عند عرب الجنوب ذات حميم وذات صنتم وذات بعدان وذات ظهران وذات غضران، واستمرت عبادت الشمس حتى العصر الجاهلي؛ إذ كانت صنمًا لبني تميم، أما المعبود الثالث الزهرة فهو عثتر، وهو من المعبودات التي أسرها الملك الآشوري سنحاريب (704 – 681 ق.م) واحتفظ بها في عاصمته وأعادها بعد ما كتب عليها اسم المعبود آشور. ويبدو أن عثتر كان عند عرب الشمال مؤنثاً بينما كان مذكراً ومعبودًا للخصب في جنوب الجزيرة العربية ويرد في النصوص الجنوبية (عثتر ذو قبضم) و(عثتر شرقن) و(عثتر). ومن المعبودات العربية المشتركة في وسط الجزيرة وشمالها وجنوبها الإله (لاه) وقد ورد في نص عجل بن هفعم في قرية ذات كهل (الفاو) (فاعاذه بكهل ولاه وعثتر). ويرى موسكاتي بأنه إل عند الأكاديين وإلوهيم عند العبرانيين وإيل عند الساميين، والله عند العرب.

وهناك معبودات لحيانية متعددة ولكن المعبود الرئيس هو ذو غيبة وكان يحج إليه العرب من الشمال والجنوب وتقدم له النذور إلى جانب معبودات أخرى مثل خرج وسلمان، أما المعبودات النبطية فمن أشهرها اللات والعزى وذو الشرى، ومناة، وذو الشرى يقابله المعبود باخوس (ديونسيوس) كما يقابل ذو الشرى صنم ذو الخلصة الموجود في بلاد دوس وربما كان ذو الخلصة هو الاسم الحجازي الممثل لإحدى صفات المعبود (ذو الشرى) ، ويرى بعض الباحثين أن المعبودات النبطية في الأساس غير مشخصة.

أما منطقة وسط الجزيرة العربية فلعل أوضح المواقع الأثرية فيها هي قرية الفاو وقد ذكرت نصوص قرية ذات كهل (الفاو) معبودات أهمها ود وسن وكهل ولاه وعثتر وشمس وإل واللات والعزى ومناة.

معابد العرب القديمة :

لم يكن لكلمة معبد وجود لغوي في حضارات الشرق الأدنى القديم، أما مكان المعبود فيطلق عليه نفس التعبير الذي يطلق على سكن الإنسان والمعبد في الكتابات العربية الجنوبية هو (بت و بيت) وهو التعبير المستخدم إلى اليوم عند العرب في وصف المساجد (بيوت الله) والبيت الحرام وبيت الله (الكعبة المشرفة)، كما وردت كلمة (مسجدا) في الكتابات الآرامية النبطية في الحجر (مدائن صالح)، ووردت كلمة (محرمتا) بالنبطية على أحد الحجارة في بصرى، وكذلك وردت كلمة (محرم) في قرية الفاو في نص الصرح في معبد عثتر ود. ويرى الباحث أن كلمة (مسجدا) تعني بيت المعبود وحرمه بمعناه الواسع ولا تقتصر على بيت المعبود فقط.

ومن أقدم معابد العرب القديمة معبد باربار في البحرين وقد مر بثلاث فترات، ومعابد الدراز ومعبد انزاك ومعبد ارتيمس وهذه المعابد من معابد شرق الجزيرة العربية.

أما معابد قرية ذات كهل (الفاو) فتعد هي نموذجاً لمعابد وسط الجزيرة العربية ومنها معبد الأحور ومعبد ود ومعبد شمس.

أما معابد شمال الجزيرة العربية، فمن أشهرها معبد خربة التنور وهو معبد نبطي ومساحته 70×45م ومر هذا المعبد بثلاث فترات الأولى قبل نهاية القرن الثاني ق.م وبداية القرن الأول ق.م، بينما تعود الفترة الثانية للمعبد إلى

عهد الملك الحارث الرابع (9 ق.م – 40م)، بينما كانت الفترة الثالثة معاصرة لانهيار دولة الأنباط عام 106م.

وتعد معابد خربة الذريح ومعبد اللات في وادي رم ومعبد خربة التنور نبطية الطراز وهو الطراز السائد في العصر الهلينستي المتأخر.

ويعد معبد روافة من أهم معابد العرب في شمال غرب الجزيرة وقد بناه الرومان للثموديين والمعبد مستطيل الشكل بمحور طولي 13.20م باتجاه شرق – غرب وبعرض 11.20شمال – جنوب ونسبة قياس الطول إلى العرض هي نفس نسبة القياس لمعبد اللات في وادي رم (المخطط رقم 1).

أما منطقة غرب الجزيرة العربية فليس هناك أي كشف أثري لمعبد من معابد العرب قبل الإسلام.

أما معابد جنوب الجزيرة العربية فسوف يختار الباحث نماذج منها لكثرتها وتشابهها، فمن المعابد السبئية معبد ألمقه برآن(المخطط رقم 2) ويقع على بعد كيلين جنوب شرق مدينة مأرب العاصمة السبئية القديمة وتذكر النصوص أن باني المعبد هو المكرب"يدع إل ذرح" بن "سمه على" (بداية القرن الثامن ق.م)، وقد ساهم في إتمام بناء هذا المعبد ملوك ذكرت أسماؤهم على جدران المعبد وقد استمر هذا المعبد حوالي ألف سنة، وقد شيد لعبادة المعبود القمر (المقه) ويعتبر شكله نادراً بين أشكال معابد جنوب الجزيرة العربية ويبدو أنه في الأساس كان حوطة مقدسة، وهو عبارة عن ساحة مسورة بشكل بيضاوي شبه دائري يدخل إليها من الشمال الشرقي من خلال مدخل بشكل قاعة معمدة (رواق) تفضي إلى باحة كبيرة وأبعاده التقريبية هي 100م على محور شرق – غرب و75م على محور شمال - جنوب.

ويعد معبد رصف عثتر ذي قبضم (مخطط رقم 3) في مدينة قرناو(العاصمة المعينية) الرئيس للمعبود عثتر في هذه المدينة بينما يعتبر معبد عثتر في مدينة تمنع (العاصمة القتبانية) (المخطط رقم 4) نموذجاً للمعبد القتباني، ولعل معبد سين في حريضة في حضرموت (المخطط رقم 5) والذي كرس لمعبود حضرموت الرئيس (سن) قد تفرد في أن واجهته الأصلية تقع على الضلع الجنوبي الغربي وهذا يخالف القاعدة المتبعة في معابد جنوب الجزيرة العربية في اتجاه المعبد إلى الجنوب الشرقي وقد مر المعبد بثلاث فترات أولاها بعيد القرن السادس ق.م بينما الثالث بعد 300 ق.م.

المعبودات في العصر الجاهلي:

كانت المعبودات في العصر الجاهلي كثيرة إلى حد أن المصادر الإسلامية قد ذكرت أنه كان بجوار الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً وهذا دليل على كثرة تماثيل المعبودات، والأشهر من هذه المعبودات اللات وهي صخرة مربعة في الطائف.

العزى وهي ثلاث سمرات في وادي حراض في نخلة الشامية بالقرب من مكة وكانت قريش تعظمها بشكل خاص.

مناة أقدم أصنام العرب في الجاهلية وهي صخرة على ساحل البحر الأحمرّ بقديد وتعظمه العرب جميعاً.

ذو الخلصة وكان صخرة بيضاء (مروة) وكان لدوس وهو ببلادهم، وسواع وكان في رهاط وعظمته هذيل، وأساف ونائلة وكانا حجرين ومكانهما بالقرب من بئر زمزم، وهبل وهو صنم من عقيق أحمر وكان بجوف الكعبة وكان معظماً عند قريش على وجه الخصوص، والفلس وهو أنف أحمر على شكل إنسان في وسط جبل أجا(في مدينة حائل اليوم).

أماكن العبادة في العصر الجاهلي:

فمن أشهر أماكن العبادة في هذا العصر البيت الحرام بمكة إذ كانت تعج بالأصنام ويبدو أن هذه الأصنام (التماثيل) كانت نسخاً من أصنام العرب المتناثرة في الجزيرة وكانت ترسل للحرم المكي؛ لأنه معبد العرب الكبير فيكون وجودها في هذا المكان المقدس للعرب أجمعين نوعاً من الإعلام لهذه القبيلة أو تلك ليكون وجود صنمها مع الأصنام الأخرى لقبائل العرب المختلفة، مع وجود الأصنام الرئيسية في أماكنها الأصلية التي كانت أماكن مقدسة ولعل أوضح الأمثلة على أماكن العبادة عند عرب الجاهلية

غير المسجد الحرام، وبيت العزى في وادي حراض في نخلة الشامية بالقرب من مكة ، أما بيت مناة فكان بالمشلل في قديد بساحل البحر الأحمر بين جدة والمدينة، ومن معابد العرب بيت اللات وقد بنته ثقيف على صخرة اللات وكان لهذا البيت أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند ثقيف وأهل الطائف والعرب عموماً.

ومن معابد العرب في العصر الجاهلي الكعبة اليمانية الجنوبية وهو مكرس لصنم ذي الخلصة واختلف في مكانه؛ إلا أنه يرجح أن يكون في بلاد دوس (في منطقة الباحة اليوم) واعتمد الباحث في ذلك على عدة أدلة ليس هنا مجال إيرادها.

وتعد كعبة نجران من الأماكن المقدسة التي يبدو أنها بنيت على هيئة الكعبة المشرفة ويرى جواد علي بأنها بيعة نصرانية وليس لها علاقة بالوثنية.

كهنة المعابد:

كانت خدمة المعابد شرفاً عظيماً يتسابق عليه أبناء الطبقة العليا من المجتمع وربما أصبحت هذه الوظائف خاصة بأسر معينة تتوارثها كابراً عن كابر ولعل وظائف الأسر القرشية قبيل الإسلام في خدمة البيت مثل السدانة والسقاية والرفادة دليل على أهمية هذه الوظائف الدينية وتسابق عليه القوم عليها، ولقد عرف عرب الجنوب كهنة المعابد وكان الكاهن الأعلى يسمى عند السبئيين (رشو) ويقابله في الحضرمية والقتبانية (شوع) وفي اللحيانية (أفكل).

ويبدو أن وظيفة (رشو) غير معروفة بدقة؛ إلا أنها ربما تعني الوساطة بين المتعبدين والمعبود وتفسير الوحي وقيادة عملية الاستغاثة والاستسقاء لنزول المطر. ومن المرجح أن مدة هذه الوظيفة سبع سنوات.

القين وهو خادم المعبد وربما كان هذا القين من الذين يشرفون على الأعمال الإدارية في المعبد.

وهناك (حوكم) وهو الشخص المسئول عن إدارة أراضي الإله، وتتكفل الدولة بنفقاته الشخصية، وقد شارك بعض النساء في الكهانة ومنهن الملكة العربية (اسكالاتو) ملكة مدينة أدومو (دومة الجندل) وكانت في الوقت نفسه كاهنة للمعبودة دلبات والتي ذكرت في نص آشوري يعود لعهد الملك أسرحدون في ذكره لغزوات والده الملك سنحاريب وكان للمعابد في العصر الجاهلي كهنة (سدنة) فكان بنو يسار بن مالك من ثقيف سدنة لبيت اللات في الطائف، أما سدنة العزى فكان بنو شيبان من بني سليم، وسدنة ذو الخلصة (الكعبة اليمانية) بنو إمامه من باهلة بن أعصُر، وسدنة كعبة نجران بنو الحارث بن كعب. ولعل حيازة هذه الأسر العربية لسدانة هذه البيوت (المعابد) ربما يؤشر لوجود عادة توارث أسر الكهان لوظائفهم منذ القدم.

الطقوس الدينية:

من أهم الطقوس الدينية "الطهارة" فقد كانت طهارة المتعبد الجسدية من أهم واجباته الدينية وهذا يفسر لنا كثرة الأحواض والآبار في المعابد ولا استثناء في ذلك حتى للكاهن نفسه وكانت الحائض من النساء لا تقرب الأصنام ولا تتمسح بها، وكانت المعابد تعج بالبخور والعطور كطقس ديني لتطييب المعبد وأصبح ذلك قرباناً مفضلاً.

ومن الطقوس الدينية عند العرب "الحج" وأصل الكلمة من (ح و ج) الذي يعني الخط الدائري وسمي بذلك لأن المتعبدين يتحلقون في دوائر للرقص ابتهاجاً بوصولهم للمعبد ولم يكن الحج مقتصراً على الحج إلى مكة بل ورد في النصوص ما يفيد بالحج إلى غير مكة، وكان "إنساء الشهور" من عادات عرب الجاهلية فيحلون بذلك المحرم، ويحرمون الحلال من الأشهر، والأشهر الحرم عند العرب كانت ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وقد ذم الله عز وجل الانساء في القرآن الكريم (سورة التوبة، الآية 37).

ومن الطقوس الدينية عند العرب "الدوار" وهو الطواف حول الأنصاب ومنها "الاستقسام بالأزلام" (سورة

المائدة، الآية 3) وهو محاولة لاستفتاء المعبود واستشارته في أمر يهم المستقسم وكانت القرابين الحيوانية من أكثر التقدمات شيوعاً عند العرب منذ القدم وسميت ذبائح الغنم "بالعتائر"، وهناك ما يهدى ويحجر للآلهة بدون أن يذبح من الحيوانات مثل السائبة والبحيرة والوصيلة والحامي وهي التي وردت في القرآن الكريم (سورة الأنعام الآيتان 138-139).

ومن الطقوس الدينية عند العرب قبل الإسلام "العقر على القبر" وهو ربط الناقة معكوسة الرأس إلى مؤخرها وتركها عند قبر صاحبها حتى تموت.

ومن طقوسهم "قنص الوعول" عند الاستسقاء لنزول المطر. ومن طقوسهم الدينية البغاء المقدس، ويرى منذ نهول أن إحدى بنات رؤساء قبائل مدين كانت مرتبطة بأداء طقس الدعارة تقرباً لمعبود النار والأوبئة المعبود (بعور).

دخول الأديان الأخرى (اليهودية – النصرانية – المجوسية) :

اليهودية : لعل ما ورد في سفر أشعيا (الإصحاح الحادي والعشرون من 12-17) يشير إلى أن أرض تيماء وما حولها كانت موجودة في الذاكرة اليهودية كملاذ آمن من السيف المسلول ومن القوس المشدودة ومن شدة الحرب.

وورد أن أول دخول بني إسرائيل إلى الجزيرة العربية كان في الحملة الحربية التي أرسلها نبي الله موسى عليه السلام لتأديب العماليق في الحجاز، ولكن الأرجح أن دخولهم إلى الحجاز ربما كان بعد خراب الهيكل على يد الرومان سنة 70م.

النصرانية فقد كانت أوفر حظاً من اليهودية في قابلية بعض العرب لاعتناقها وذلك لحرص رجال الدين النصارى على إدخال الناس إليها. أما عن بداية دخولها فلعل تحول الدولة الرومانية ومملكة أكسوم الحبشية إلى النصرانية في القرن الرابع الميلادي قد ساهم بشكل ما في دخول هذا الدين إلى الجزيرة العربية، ولا توجد حواضر للنصارى كالتي لليهود في يثرب وغيرها وإنما هم أفراد أو جماعات اختلطت بالعرب، لقد ذكر وجود نصارى في مكة المكرمة والطائف، ودخلوا رقيقا إلى الجزيرة العربية. ولعل الأنباط قد تنصر بعضهم بعد سقوط دولتهم وذلك في القرن الرابع الميلادي، فقد اشترك أسقف للأنباط في مجمع نيقيا عام 325م. كما تنصر بعض العرب من قبائل كلب وبلي وعاملة وجذام وغيرهم أما النصرانية في اليمن فقد حاربها الملك يوسف أسأر يثار الملقب بيوسف ذي نواس –في نجران وربما ازدهرت في نجران بعد التدخل الحبشي في اليمن (بعد 525م).

المجوسية وهي ديانة فارسية وكلمة مجوس معربة عن لفظة (مغوس) (Maghos) وتعنى عابد النار.

وقد تغلغل المجوس الفرس في عمان والبحرين قبل الإسلام وكان مجوس هجر معاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان باليمامة قوم منهم ودخل بعض زعماء تميم في المجوسية، ولعل هذا من تأثير المملكة الفارسية على شرق الجزيرة بالذات وتأثيرها في إمارة الحيرة وكذلك الوجود الفارسي المجوسي في اليمن الذي ساعد على تخليص اليمن من الاحتلال الحبشي ولكنه مكث هناك حتى ظهور الإسلام.

مكة ودورها الديني وأثر الدين في مناحي الحياة:

أدت مكة والكعبة دوراً دينياً للعرب أجمعين، فقد كانت معبداً كبيراً للعرب؛ فهذا البيت عندهم مقدس وحرمه آمن وشجره وطيره وحيوانه فهو مكان مقدس لا ينتقص من حرمته ومن فعل هذا فهو فاجر يستحق العقوبة، واستمر حج العرب إلى الكعبة في مكة وكانت الأصنام تحيط بالبيت، بل إن بعض هذه المعبودات قد حظي بمكانة خاصة مثل "هبل" الذي كان بجوف الكعبة لمكانته في قلوب قريش أصحاب الأمر في مكة، ولقد ساهمت قريش القبيلة، التي سنت بعض العهود والأحلاف والمواثيق في تأمين الغرباء فيها وخصوصاً التجار منهم ترغيباً لهم في القدوم والمتاجرة في مكة والاستثمار فيها لإنعاش الحركة الاقتصادية، ولهذا كانت قريش قبيلة تخلت عن الغزو للمحافظة على مكتسباتها؛ لأنها لا تحتاج إلى السلب والنهب فأفواج

المتعبدين الزائرين للبيت العتيق تغنيهم عن ممارسة السلب والنهب، بل وتحارب هذا الاتجاه، لأنه يهدم سهولة المتاجرة ويسرها في مكة التي جعلوها معبداً كبيراً للعرب يقصدونه وسوقاً كبيرة لهم، وكان لقرب الأسواق دور مهم في اقتصادهم ولهذا كان امتنان الله عز وجل عليهم في سورة الإيلاف حجة عليهم ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (سورة قريش) .

واستفادت مكة من وضعها الديني المعظم في قلوب عرب الجاهلية استفادة انعكست إيجاباً على وضعها الاقتصادي المزدهر الذي انعكس بدوره في مناحٍ كثيرة من تاريخ هذه القبيلة، إذ أصبح رجالاتها يتطلعون إلى أدوار سياسية عظيمة، وربما ارتقت الثقافة القرشية كنتاج طبيعي لهذا السيل الدافق من قبائل العرب وغيرهم بثقافاتهم ودياناتهم ولغاتهم وفنونهم، فصُهر ذلك في مكة وأنتج النتاج الذي كان له أبلغ الأثر في ظهور الإسلام وفي دول الإسلام الأولى.

الكعبة المشرفة في العصر الجاهلي:

ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان رفعا القواعد من البيت [سورة البقرة، الآيات : 124 – 127]، وبقي البيت العتيق مقدساً في أيام العرب الأولى وفي أيام جرهم، وقد حُول البيت إلى بيتٍ لعبادة الأوثان والأصنام حتى طهره رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم فتح مكة، وكان القرشيون يتحاشون بناء البيوت المربعة في مكة تعظيماً للكعبة، وقد تهدمت بفعل السيول عدة مرات وفي كل مرة قام الجاهليون بإعادة بناء الكعبة إلى وضعها السابق في عهود آبائهم وأجدادهم، و لم يكن للكعبة سقف ولها باب ملتصق بالأرض، وأول تسقيف لها كان ورسول الله صلى الله وعليه وسلم ابن خمس وثلاثين سنة أقيم السقف على ستة أعمدة من الخشب وزعت في صفين وزادوا تسعة أذرع في ارتفاعها فصارت ثماني عشرة ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض وكان الحجر الأسود مقدساً عندهم. ويذكر أهل الأخبار أن التبع (أبوكرب أسعد) هو أول من كسا البيت.

وقد أثر الدين في الحياة العربية في شتى المجالات فعلى الصعيد السياسي كانت حالة التشرذم الديني وكثرة المعبودات سبباً في التناحر وانعدام إمكانية قيام وحدة سياسية تنضوي تحت لوائها أصقاع الجزيرة العربية بقبائلها ومدنها. أما على الصعيد الاجتماعي فلم تكن الحالة بأحسن من سابقتها وكذلك كان الحال في أمور كثيرة من مناحي الحياة في العصر الجاهلي.

الصراع بين الوثنية والإسلام:

عندما بزغ فجر الإسلام في مكة المكرمة بالبعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، كان من المنطقي أن يناصبه المجتمع المكي العداء لاستفادته من الوثنية السائدة آنذاك، إذ أن هدم هذه الوثنية الذي ينادي به محمد عليه الصلاة والسلام كان يهدم الكثير من امتيازات الملأ من قريش ويقضي على الكثير من المصالح الاقتصادية وعلى حالة الرفاه التي كان ينعم بها بعضهم (الطبقة الثرية – الملأ) ولهذا كانت هذه الطبقة هي الأشد عداوة للإسلام الذي ينادي بالمساواة بين البشر ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات: من الآية13)، وينادي بالتوزيع العادل للثروة من خلال تشريعاته مثل : الزكاة والصدقة وجاء بالعالمية التي تهدم محليتهم ولذلك كله، كان صراع الوثنية مع الإسلام مريراً وطويلاً نسبياً لم ينته في الجزيرة العربية إلا قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بفترة زمنية وجيزة، إذ كان فتح مكة بداية النهاية للوثنية العربية وهو الذي حدث قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بثلاث سنوات فقط.

د.محمد سلطان العتيبي

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

القرآن الكريم .

- **الأزرقي، محمد بن عبد الله 1983م .**
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (تحقيق رشدي صالح ملحس، دار الأندلس، ط 3، بيروت) .

- **الأنصاري، عبد الرحمن الطيب 1979م .**
" أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار ونقوش قرية الفاو "(دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، ج1، جامعة الملك سعود، الرياض) .

- **الأنصاري، عبد الرحمن الطيب 1982م .**
قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام(جامعة الرياض، الرياض) .

- **الأنصاري، عبد الرحمن الطيب وآخرون 1984م .**
مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية العلا (ديدان) الحجر (مدائن صالح) (جامعة الملك سعود، الرياض) .

- **باخشوين، فاطمة علي .**
الحياة الدينية في الحجاز قبل الإسلام منذ القرن الأول الميلادي حتى ظهور الإسلام(سالة ماجستير - كلية التربية للبنات، الرئاسة العامة لتعليم البنات).

- **الجميل، محمد بن فارس 2002م .**
النبي صلى الله عليه وسلم ويهود المدينة(مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، الرياض) .

- **حبيب، محمد بن جعفر 1942م .**
المحبر (حيدر آباد، الدكن، الهند) .

- **دانتزر ج . م 1988م .**
سوريا الجنوبية (حوران)، بحوث أثرية في العهدين الهلنيتي والروماني(ترجمة أحمد عبد الكريم وآخرين، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق) .

- **رسته، أحمد بن عمر 1892م .**
الاعلاق النفيسة (ليدن) .

- **ريكمنس، جاك، 1987م .**
" حضارة اليمن قبل الإسلام" (دراسات يمنية، عدد 28، ترجمة علي محمد زيد) .

- **الصليحي، علي محمد عبد القوي1992م .**
الموسوعة اليمنية(ج1، مادة الديانة في اليمن قبل الإسلام، مؤسسة العفيف الثقافية، الطبعة الأولى، صنعاء) .

- **ظاظا، حسن 1984م .**
" المجتمع العربي القديم من خلال اللغة " (دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثاني ، ط1، جامعة الملك سعود، الرياض) .

- **العتيبي، محمد سلطان .**
" المعبد في شبة الجزيرة العربية قبل الإسلام، مفهومه وتطوره ووظيفته منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادي" (رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، الرياض).

- **العريقي، منير عبد الجليل2002م .**
الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم (من 1500 ق.م حتى 600 ميلادية (مكتبة مدبولي، القاهرة).

- **علي جواد 1978م .**
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام(دار العلم للملايين، ط2، بيروت) .

- **فخري، أحمد 1972م .**
اتجاهات حديثة في دراسة الأنباط (حولية الآثار الأردنية، ج17) .

- **الكلبي، هشام بن محمد بن السائب د.ت .**
الأصنام (تحقيق محمد عبد القادر أحمد وأحمد محمد عبيد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة) .

- موسكاتي سبتينو د.ت .
الحضارات السامية القديمة (ترجمة السيد يعقوب أبو بكر، دار الكتاب العربي، القاهرة) .
- نيلسن، دتيلف ورود وكاكنيس وآخرون 1958م .
التاريخ العربي القديم (ترجمة فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة) .
- هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري د.ت
السيرة النبوية (تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ج1، بيروت).

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- **Braian, D. 1983**
Monuments of Southern Arabia, Falcon Oleander London,.

- **Glueck, N. 1965**
Deities And Dolphins, Farrar, straus and Giroux. New york.

- **Healey, J.F. 2000**
The Religion of the Nabataeans, Leiden. Boston. Koln,.

- **Mendenhall, G. 1984**
"Qurayya and Midianites", studies in the history of Arabia, vol. I1, pre-Islamic Arabia, King saud University.

- **Fahd, T. 1968**
Le Pantheon de Larabie centrale ala veil de L'Hegire, Paris.

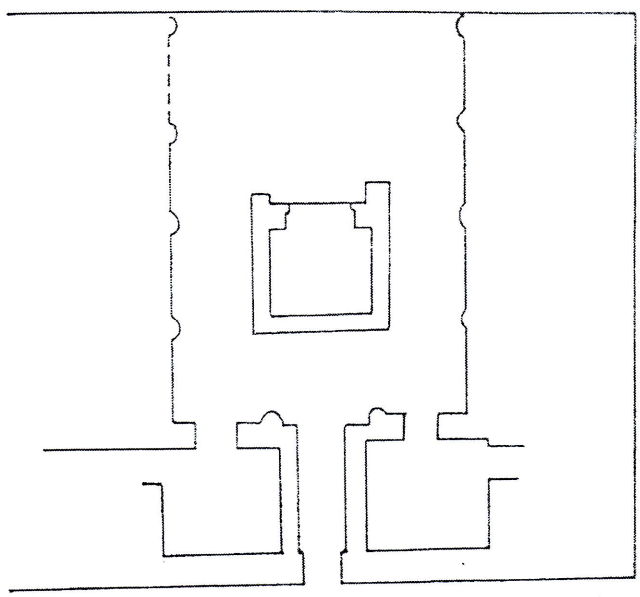
- **Froincois, V. and Al-Moheisen, Z. 1988**
" Fouilles Akhirbet Edh-Dharih (Jordanie)" 1984-1987 Acodemie, Des Inscriptions et Belles-letters, Paris, Avril-Juin.

- **Potts, D.T. 1990**
The Arabian Gulf in Antiquity, Vol. 1, Clarendon press oxford.

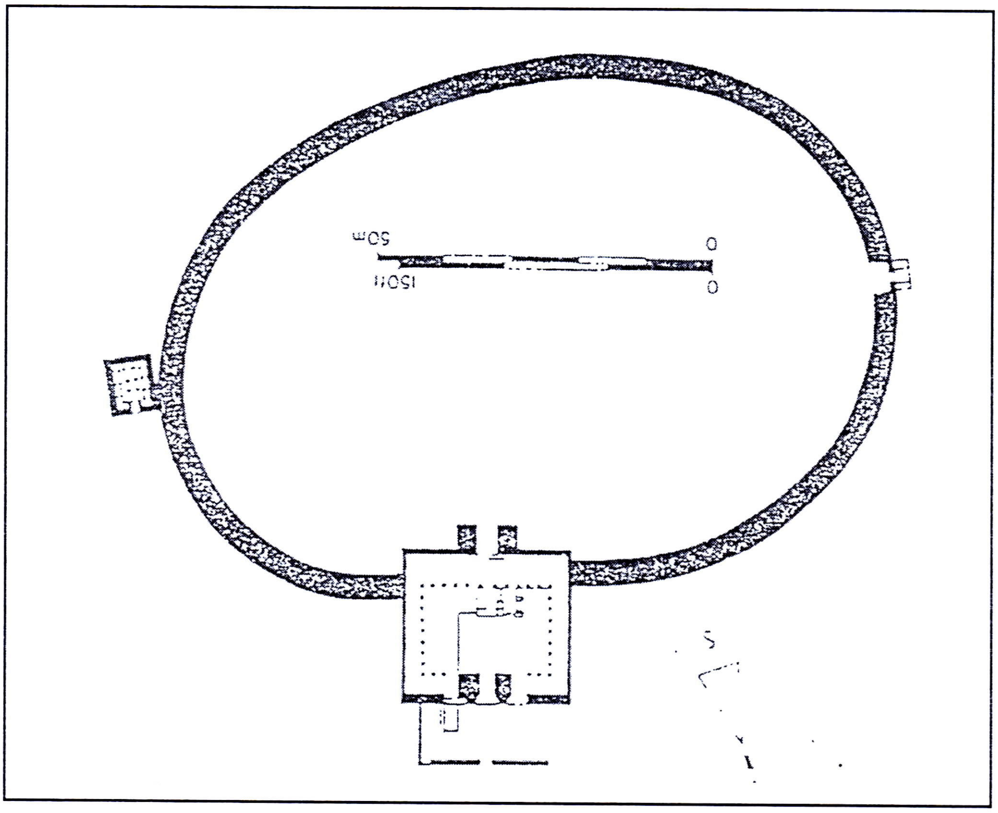
- **Thomposon, C. 1944**
The Tombs and Moon Temple of Huraidha (Hadhramut) Oxford.

- **Winnett F.V and. Harding, G. L**
Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns.

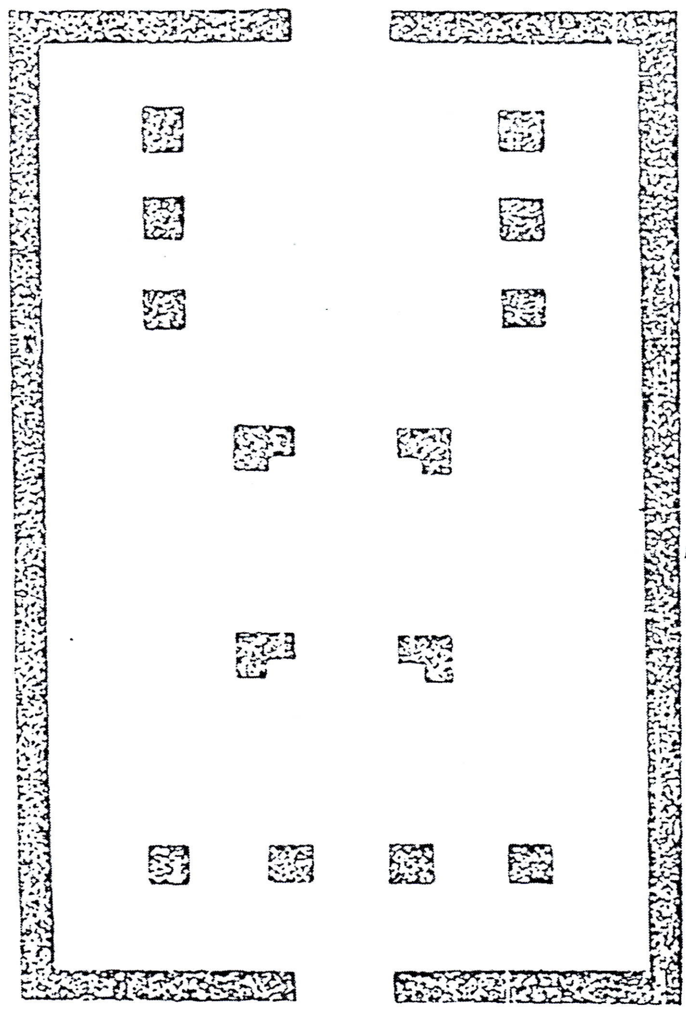
- **Wright, E. 1944**
" The Significance of the Temple in the Ancient Near East ", The Biblical Archaologist, the American Schools of Oriental Research, Vol VII-No 4 New haven. December.



مخطط رقم (1) معبد اللات فى وادى رم Doe. Monuments. P231



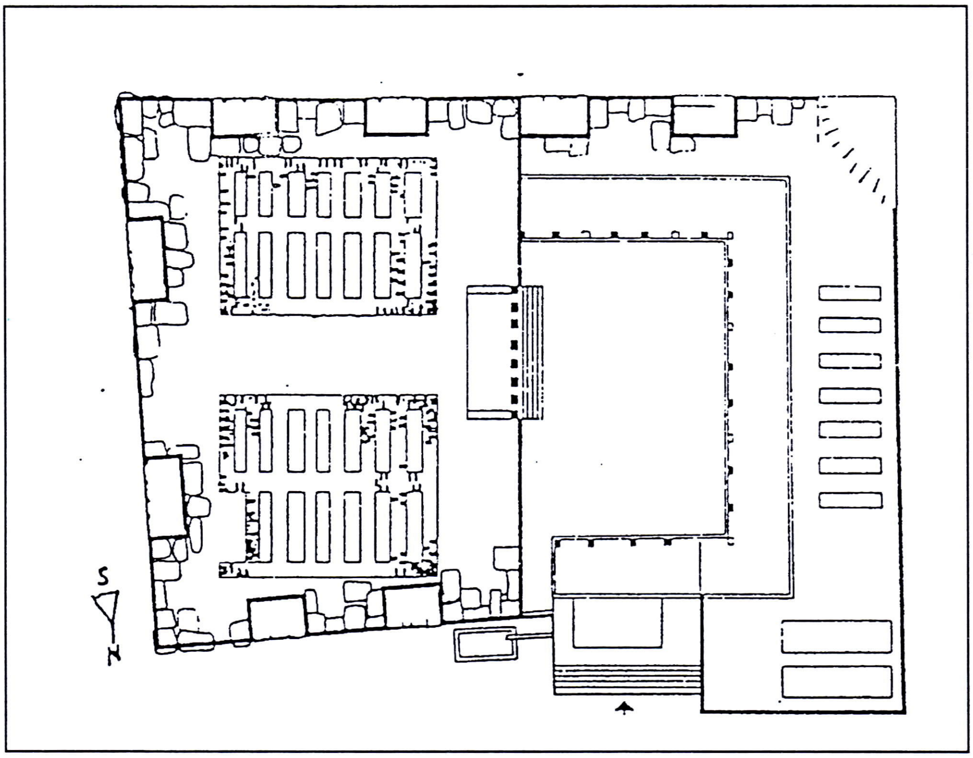
مخطط رقم (2) معبد المقه (أوام) فى مأرب
Doe, Monuments of Southern Arabia,
P. 160.



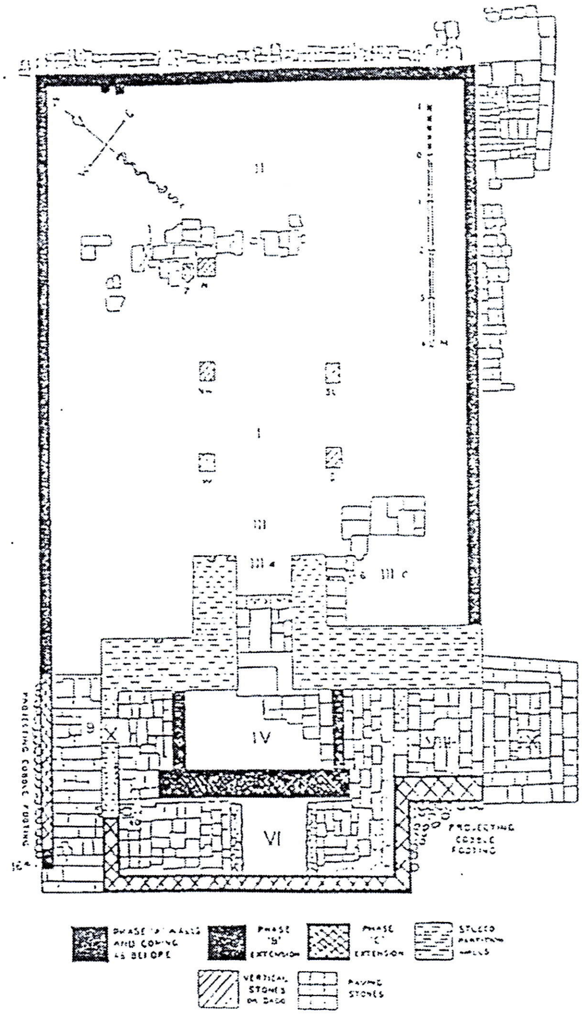
مخطط رقم (3) معبد عثتر فى قارناو

Fakhry. Journey to Yemen.

P. 149



مخطط رقم (4) معبد عثتر فى تمنع. Doe, Monuments, P. 172



مخطط رقم (5) معبد إله القمر فى حريضة Caton Thompson. The Tomnbs and Moon
Temple of Huridha. P. 195 .

يُعد اكتشاف الكتابة نقطة تحول مهمة في تاريخ الحضارة البشرية، فهي من أهم الإنجازات التي حققها الإنسان خلال تاريخه الطويل، حيث ساعدت على اتصال الناس ببعضهم بالرغم من البعد المكاني والزماني الذي يفصل بينهم. وقد قال الشاعر:

الخط يبقى زمانًا بعد كاتبه

وكاتب الخط تحت الأرض مدفون

فمنذ ما يربو على خمسة آلاف سنة مضت تشكلت في منطقة الشرق الأدنى (العراق، مصر، بلاد الشام، والجزيرة العربية) نتائج تجارب طويلة من محاولات الإنسان الأولى للكتابة.

وظهرت البدايات الأولى للكتابة في بلاد ما بين النهرين أو العراق القديم في الفترة ما بين 3500 – 3000 قبل الميلاد، أعقب ذلك بقليل ظهور إشارات واضحة للتدوين في مصر، ثم لم تلبث أن تطورت أساليب الكتابة فيما بعد في مناطق بلاد الشام والجزيرة العربية، وتشكلت قواعدها التي أصبحت أساسًا لمعظم خطوط اللغات العالمية المعروفة في وقتنا الحاضر. وعلى ضوء الاكتشافات الأثرية في مواقع مواطن الحضارة في منطقة الشرق الأوسط تبين أن الكتابة مرت بمرحلتين أساسيتين هما: مرحلة ما قبل الأبجدية، ومرحلة الأبجدية. ففي مرحلة ما قبل الأبجدية ظهرت في بلاد ما بين النهرين الكتابة المسمارية، وفي بلاد وادي النيل ظهرت الكتابة المصرية القديمة أو الهيروغليفية.

وعند الحديث عن الأبجدية يجب التفريق بين نوعين رئيسين منها: الأبجدية الأوجاريتية والأبجدية السينائية.

فالكتابة الأوجاريتية تحتل موقعًا فريدًا بين الكتابات السامية. فقد اشتقت حروفهاالأبجدية الثلاثين من الكتابة المسمارية. ويأتي ترتيب حروف هذه الأبجدية حسب النظام المعروف في الأبجدية الفينيقية الكلاسيكية (أبجدية بيبلوس أو جبيل) إنما بصورة حروف مسمارية.وترجع أهمية الكتابة الأوجاريتية إلى أنها تمثل مرحلة انتقال من الكتابة المقطعية إلى الكتابة الأبجدية في إطار الخط المسماري.وهي على الأرجح من وضع إنسان أوجاريت، الذي احتذى حذو الكتابة المصرية أو السينائية أو السامية الشمالية الأم في كونها ألفبائية، ولكنه عبّر عن الفكرة الألفبائية بأشكال مسمارية.

أما الأبجدية السينائية فقد اشتقت حروفها في الأصل من الخط الهيروغليفي، حيث عثرت بعثة فلندرز بتري .W M. Flinders Petrie في عام 1904-1905م وعندما كانت تقوم بالتنقيب في خرائب معبد حتحور في سرابيط الخادم في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة سيناء، على أحد عشر نقشًا مكتوبة برموز يشبه بعضها الرموز الهيروغليفية، وبعضها الآخر شبيه برموز الألفباء السامية؛ لا يتجاوز عدد هذه الرموز الثلاثين رمزًا مختلفًا. ورأى الباحثون أن هذه الكتابة تعود إلى حوالي القرن السادس عشر أو الخامس عشر ق. م.

ومن دراسة نقوش سرابيط الخادم تمكن العلماء من معرفة الأبجدية السينائية، التي هي كتابة للغة سامية تسمى اصطلاحًا بالكنعانية، كان يتحدث بها العمال الكنعانيون الذين عملوا في مناجم الفيروز في سرابيط الخادم في سيناء نحو القرن السادس عشر قبل الميلاد، والراجح أن هؤلاء الكنعانيين رغبوا في كتابة لغتهم أسوة بالمصريين هناك، فاختاروا رموزًا مصرية مما هو مستخدم في النقوش الهيروغليفية هناك، واستخرجوا منها حروفًا أبجدية بالطريقة الأكروفونية (صوت الحرف الأبجدي يكون هو

الصوت الأول من نطق رمز المعنى المأخوذ منه) بعد أن أعطوا ما يمثله الرمز المصري نطقًا كنعانيًا جعلوا صوته الأول حرفًا أبجديًا رمزوا له بذلك الرمز

يندر أن يجد المرء منطقة من المناطق في الوطن العربي الكبير، لم يدون الأجداد الأوائل على صخور جبالها، وجدران عمائرها ومعابدها، كتابات ونقوشًا عبروا من خلالها عن صفحات مضيئة من تاريخهم. فالخط الذي ظهرت بواكيره منذ ما يزيد على ثمانية عشر قرنًا مضت، والذي دون به القرآن الكريم هو أحد الخطوط التي كتب بها العرب لغتهم وتراثهم اللغوي الهائل. وقد اشتقت هذه الخطوط كلها ذات الصلة الوثيقة ببعضها البعض – على الرغم من التنوع والاختلاف في رسم أشكال حروفها نتيجة تطور كل خط على حدة ضمن إطاره الجغرافي – من أصل واحد هو الأبجدية السينائية وما جاورها من أبجديات هجائية أخرى كالأبجدية الأوجاريتية في بلاد الشام. ومن أهم هذه الخطوط القلم الفينيقي وفروعه.

الخط الفينيقي:

ينحدر الخط الفينيقي من خط أقدم منه عُرف باسم البروتوكنعاني Proto-canaanite، ثم أخذ شكلاً راسخًا في حوالي منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

تعود أقدم الشواهد المكتوبة بالخط الفينيقي إلى القرن العاشر قبل الميلاد، فالنقش المدون على تابوت أحيرام، والذي يرجع إلى حوالي 1000 قبل الميلاد، إضافة إلى نقوش يحي ملك، أبي بعل، إيلي بعل، وشفطي بعل – جميعها من بيبلوس – المؤرخة بالقرن العاشر تعد خير أمثلة للخط الفينيقي المبكر.

انتشر الخط الفينيقي في المستوطنات الفينيقية في لبنان وأجزاء من سوريا وفلسطين. كما عثر على النقوش الفينيقية في أور بوادي الرافدين، ومصر، وبلاد شمال إفريقيا، وفي جزر البحر الأبيض المتوسط (قبرص، كريت، مالطا، صقلية، وسردينيا).

ويتميز الخط الفينيقي في أنه يكتب من اليمين إلى اليسار، كما أن حروف المد (أو حروف اللين) تطرح من رسم كتابته، بيد أنها تظهر فيما بعد في النقوش البونية المتأخرة وعلى وجه الخصوص البونية الحديثة، وفي العادة يُفصل بين المفردات في النصوص الفينيقية المبكرة بخط عمودي أو نقطتين مترادفتين. وقد تفرع من الخط الفينيقي عدة خطوط هي: البوني، المؤابي، العبري، العموني، اليوناني، والآرامي.

الخط المؤابي:

سمي هذا الخط بالخط المؤابي نسبة إلى القبائل المؤابية (القبائل المتحدرة من مؤاب بن لوط بموجب كتاب العهد القديم) التي سكنت المنطقة الواقعة شرق البحر الميت ما بين وادي الحسا ووادي الموجب في الأردن، واستطاعت منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد تأسيس مملكة قوية كانت في صراع مع مملكة إسرائيل المجاورة لها.

والخط المؤابي أصله مشتق من الخط (العبري) الفينيقي، وذلك في حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، فالمعالم الأولى المميزة للكتابة العبرية يمكن تبينها في نقش مسلة ميشع ملك مؤاب، ونقش شظوي يذكر والد ميشع كيموش يات.

فنقش ميشع المحفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس، عبارة عن نصب عُثر عليه في عام 1868م في ديبان بأرض مؤاب القديمة، يتحدث عن حروب الملك ميشع مع ملك إسرائيل المدعو عُمري، ويُعدد مآثر ميشع على مملكته.

يتألف الخط المؤابي من اثنين وعشرين حرفًا، ويكتب من اليمين إلى اليسار، ولا تظهر كتابة الحروف المتحركة (الألف، والواو، والياء) في رسمه.

الخط العبري:

يعتقد أن أقدم شواهد الخط العبري ترجع إلى حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، ويتبين من ملامحه الخطية أن

العبرانيين استقوا خطهم من جيرانهم الفينيقيين سكان بلاد الشام وفلسطين، بعد أن غَيَّروا في رسم بعض أشكال حروفه. ويُعد خط النقش المعروف باسم تقويم جيزر أقدم نقش عبري معروف حتى وقتنا الحاضر، وهو يشبه خط النقوش الفينيقية من بيبلوس (جبيل) في القرن العاشر قبل الميلاد

تلته نقوش عبرية أخرى طوال الألف الأول قبل الميلاد منها نقش قبوري من القدس (القرن الثامن – السابع ق. م)، وكسر آنية فخارية Ostraca من سماريا (القرن الثامن ق. م)، وأراد (القرن السابع – السادس ق. م)، ولاخش (القرن السادس ق. م)، كذلك يوجد أختام صلصالية ومعدنية من لاخش وأراد والقدس، إضافة إلى كتابات عبرية على البردي.

وقد كتبت أغلب المصادر العبرية المتوافرة لدينا على الأحجار، وكسر الأواني الفخارية، أما الكتابة على المواد اللينة فمعلوماتنا عنها قليلة جدًا. ومن أبرز الأمثلة على النقوش العبرية الحجرية نقش قناة السلوان الذي يوجد على الحائط الأيمن من القناة التي تربط النبع (نبع جيحون قديمًا) ببركة السلوان بالقرب من مدينة القدس؛ والنقش الجنائزي للموظف الملكي شبن يهوه عند مدخل قرية السلوان. وكلا النقشين يعودان إلى القرن السابع قبل الميلاد.

يعرف الخط القديم عند اليهود باسم القلم العبري، واستعملوه إلى فترة السبي البابلي، ثم استبدلوه بقلم آخر متطور عن الخط الآرامي عُرف بالخط المربع أو الخط الآشوري.ظل استعمال الخط العبري القديم حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، حيث استمر استخدامه في الأعمال الدنيوية؛ أما القلم المربع أو الآشوري فقد كان استعماله مقصورًا على الشؤون الدينية.

يتكون الخط العبري من اثنين وعشرين حرفًا ساكنًا، ويكتب من اليمين إلى اليسار، ولا تتصل حروفه بعضها ببعض بأية رابطة. وخمسة منها يتغير شكلها إذا وقعت في آخر الكلمة ويجمعها قولك "صنفكم". ولا يجوز تقسيم الكلمة في العبرية بأن يكتب جزء منها في آخر السطر والجزء الباقي في أول السطر التالي. وقد أدخل اليهود في حوالي القرن السادس الميلادي استخدام حروف العلة (أ، هـ، و، ي) كعلامات للحركات تساعدهم على ضبط النطق وحفظ الكلمات من التحريف.

الخط العموني:

استوطنت القبائل العمونية المنطقة الواقعة شمال الأردن منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، حيث استطاعت في حوالي القرن التاسع قبل الميلاد أن تؤسس مملكة قوية ذات كيان سياسي وديني واجتماعي مستقل، اتخذت من مدينة عمّون أو ربَّة عمّون (عمّان حاليًا) الواقعة على وادي الزرقا شرقي نهر الأردن عاصمة لها".

دونت هذه القبائل العمونية تراثها اللغوي بخط يتألف من اثنين وعشرين حرفًا ساكنًا، جميعها متفرعة من الخط الآرامي الفينيقي ومتطورة عنه. ولا زالت مدونة النقوش العمونية فقيرة في مادتها، بيد أنها نمت إلى حد بعيد في الثلاثين سنة الأخيرة وعلى وجه الخصوص في العقد الأخير.

تؤرخ هذه النقوش العمونية بالفترة من القرن التاسع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ومن أبرز هذه النقوش نص دُوِّن على قارورة من البرونز عُثر عليه في تل سيران، يصف أعمال عمي ندب ملك العمونيين. ويرجع تاريخ النص إلى حوالي 667 قبل الميلاد.

الخط الآرامي:

يسمى هذا الخط باسم الخط الآرامي نسبة إلى القبائل الآرامية التي نزحت في حوالي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد من جزيرة العرب، واستطاعت في مطلع الألف الأول قبل الميلاد أن تؤسس في بلاد الشام عدة ممالك محلية صغيرة.

في حوالي القرن التاسع قبل الميلاد كتب الآراميون لغتهم الآرامية بخط مشتق من الخط الفينيقي، انتشر في

العالم القديم إلى حد بعيد كانتشار النار في الهشيم، حيث أن سهولة الكتابة به وبساطته وسرعة تعلمه جعلتاه في حوالي القرن السادس قبل الميلاد يصبح خطًا عالميًا يكتب به القاصي والداني في منطقة تمتد من آسيا الصغرى إلى بلاد الرافدين وإيران وأفغانستان والهند ومصر وشمال الجزيرة العربية. يتألف الخط الآرامي من اثنين وعشرين حرفًا، تكتب من اليمين إلى اليسار. وقد استخدم الآراميون فيه طريقة الساكن الصوتي (matres Lectiones) للتعبير عن الحروف الصوتية وخاصة الطويلة منها، وذلك بحروف ساكنة تُقرأ على نحو ما تُقرأ به الحروف الصوتية. وفي حوالي القرن الثامن والسابع قبل الميلاد بدأ الآراميون في تبسيط أشكال الحروف واستخدام المسافة بين الكلمات.

وتسمى مجموعة النقوش القديمة المدونة بالآرامية باسم الآرامية القديمة، عثر عليها في مناطق مختلفة من بلاد الشام والعراق. وتنقسم إلى نوعين:

1- النقوش التي ترجع إلى الفترة ما بين القرن العاشر والقرن السادس قبل الميلاد وتعرف لغتها باسم آرامية النقوش، ويمثلها نقوش ملوك سمأل (زنجيرلي) كنقش كلمو (حوالي 900 – 850 ق. م)، نقش بنمو الأول (حوالي 800 – 750 ق. م)، ونقش بنمو الثاني وابنه بر ركب (حوالي 745 – 727ق. م)، يضاف إلى ذلك نقش برهدد ملك دمشق (حوالي منتصف القرن الثامن ق. م)، ونقش زكور ملك حماه (حوالي القرن الثامن ق. م)، ومن النقوش القديمة أيضًا رسالة أدون ملك فينيقيا المدونة على ورق البردي إلى فرعون مصر والتي عثر عليها في سقارة (حوالي القرن السادس ق. م)، والمسلتين الجنائزيتين اللتين عُثر عليهما في نيرب بالقرب من حلب (حوالي القرن السابع ق. م).

2- النصوص الآرامية التي يرجع تاريخها إلى الفترة ما بين القرن السادس ق. م وحتى سقوط الإمبراطورية الفارسية (330 ق. م). عرفت لغة هذه النصوص بآرامية الدولة، فقد جعلت الإمبراطورية الأخمينية الفارسية من اللغة الآرامية لغة للإدارة والدبلوماسية يُكتب بها في الدواوين الوثائق الرسمية والعقود والرسائل، ولذلك عرفت بالآرامية الإمبراطورية أو آرامية الدولة بسبب استخدامها من قبل الإمبراطوريتين الآشورية والأخمينية، وبالآرامية الدولية لانتشارها الواسع ووجودها في أغلب المراكز الحضارية في منطقة الشرق الأدنى القديم. ويعد من آرامية الدولة الرسائل والوثائق المدونة على أوراق البردي من جزيرة الفيلة بأسوان والتي تعود إلى الفترة ما بين 495 – 400 قبل الميلاد، إضافة إلى ذلك الأجزاء المكتوبة بالآرامية من كتاب العهد القديم، وكذلك ما يعرف اليوم بالترجوم أو ترجمة العهد القديم من العبرية إلى الآرامية. وقد تفرع من الخط الآرامي عدة خطوط هي: الخط الحضري، والخط السرياني، والخط النبطي.

1– الخط الحضري:

كتب الحضريون نقوشهم الآرامية بخط مشتق من الخط الآرامي، بلغ عددها ما يقارب 400 نقش آرامي تمتد بتاريخها من أواخر القرن الأول الميلادي حتى منتصف القرن الثالث الميلادي. عثر أيضًا على نقوش مدونة بهذا النمط من الخط في دورايوروبس في وسط الفرات، وآشور على دجلة، إضافة إلى اكتشاف بعض النقوش الفردية في طور عابدين وأرمينيا وجورجيا، وجميعها تعود إلى فترة النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الميلادي. غير أنه مما يدعو للأسف عدم وجود مادة

نقشية (ابيجرافية) كافية تدل على بداية نشوء هذا النمط من الخط (الخط الحضري).

2- الخط التدمري:

سمي الخط التدمري بهذا الاسم نسبة إلى تدمر عاصمة دولة العرب التدمريين في القرن الأول قبل الميلاد. كتب التدمريون لغتهم الآرامية – العربية بخط مأخوذ من الخط الآرامي، فالنصوص التدمرية تؤرخ من منتصف القرن الأول قبل الميلاد (أقدم نقش تدمري يعود إلى عام 44 ق. م) وحتى القرن الثالث الميلادي، أي إلى زمن دمار تدمر على يد الرومان عام 272م. لم يقتصر انتشار النقوش التدمرية على مناطق سوريا وشمال العراق بل تعداها إلى مصر، الجزائر، إنجلترا، إيطاليا، المجر، ورومانيا. والنقوش التدمرية في الأساس نقوش نذرية وقبورية، نحت أغلبها على الحجر. وجدير بالذكر أنه عثر في تدمر أيضًا على نصوص مدونة باللغة اليونانية، ونصوص أخرى ثنائية اللغة مكتوبة باللغتين اليونانية والتدمرية، أحدها وهو أطولها يتضمن قائمة بالتعرفة الجمركية على سلع مختلفة، وثلاثية اللغة مكتوبة باللغات: اليونانية واللاتينية والتدمرية مثل حجر تأسيس مدفن حيران بن بونا التدمري.

وينقسم الخط التدمري إلى نوعين رئيسيين هما:

الخط التدمري التذكاري الذي كُتبت به النقوش النذرية والقبورية على الأحجار، والخط التدمري اللين والذي استخدم فرضًا للكتابة على أوراق البردي والرق أو البرشمان التي لم يُعثر على شيء منها بعد، بيد أن الخط اللين قد عُرف من خلال المخربشات والرسوم التي وجدت في دورايوروبس ومن نقوش أخرى قليلة. ومن الواضح أن لغة النقوش التدمرية خالية من الكلمات العربية، بالرغم من أن معظم أسماء الأعلام التدمرية عربية خالصة، بينما كانت أغلب المصطلحات الفنية والإدارية ذات أصل يوناني. وقد عرفت النقوش التدمرية نظام الإعجام في الكتابة منذ منتصف القرن الثاني الميلادي حيث توضع نقطة فوق حرف الدال وأخرى تحت حرف الراء للتمييز بينهما.

3- الخط السرياني:

اللغة السريانية هي امتداد للغة الآرامية في العصر المسيحي، وهي لغة الرُّها – أورفة عند العرب، وأديسا Edessa عند الأوربيين – الأدبية قبل دخول النصرانية إليها في القرن الثاني الميلادي، كما أنها لغة السريان المسيحيين فيها.

ونظرًا للشبه الكبير بين الخط السرياني والخط التدمري، فمن المرجح أن الشعوب السريانية في بلاد الشام والعراق قد استقوا خطهم من الخط التدمري وطوروه عنه وذلك نحو القرن الأول الميلادي.

تتمثل الكتابات السريانية القديمة قبل انتشار المسيحية في كتابات القبور المدونة على الأحجار والتي تؤرخ بالقرنين الأول والثاني الميلاديين، وكتابات ملوك الرُّها العرب المسجلة في دار المحفوظات الملكية بها، ومن بينها خبر فيضان نهر ديصان عام 201م في عهد أبجر التاسع؛ وخطاب مارا بن سرابيون إلى ابنه سرابيون والذي ربما يعود إلى الفترة ما بين القرن الأول والقرن الثاني الميلاديين؛ وقصة أحيقار وزير سنحاريب. إضافة إلى ذلك يوجد عدد لا حصر له من النقوش السريانية المتأخرة ذات الأصل المسيحي.

أدى النزاع حول طبيعة المسيح اللاهوتية والناسوتية، والذي هز كيان المسيحية في القرن الخامس الميلادي، إلى انقسام الكنيسة السريانية إلى معسكرين متعاديين، فقد اتبع السريان الغربيون في الدولة الرومانية تعاليم يعقوب البردعي J. Baradaus القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح، وسموا أنفسهم لذلك باليعاقبة، بينما اعترف إخوانهم في دولة الفرس بتعاليم نسطوريوس Nestorius المضادة،

وعُرفوا بالنساطرة. وتبعًا لذلك انقسم الخط السرياني الذي لا تزال بعض الطوائف المسيحية في بلاد الشام والعراق تكتب به حتى اليوم إلى:

1- الخط الاسطرنجيلي Strangelo وهو الخط الأقدم الذي كان سائدًا في جميع الكتابات السريانية قبل انقسام الكنيسة، وسُمي هكذا من الكلمة اليونانية Strongulos وتعني الخط المستدير. ويوجد أمثلة من هذا الخط في النقوش السريانية المبكرة من القرن الأول الميلادي من منطقة أوديسا، كما أنه معروف في مخطوطات كثيرة من القرن الخامس الميلادي وما يليه .

وبعد انقسام السريان إلى نساطرة ويعاقبة وملكانية أصبح لكل فريق منهم خط خاص به، وصارت المؤلفات تُكتب بالخط الاسطرنجيلي القديم إضافة إلى الخطوط الثلاثة الأخرى وهي:

2- خط السرطا أو الخط السرياني الغربي، وهو خط نشأ في القرن السابع الميلادي، وسمي بالسرطا Serto أو السريع لأنه أسرع في الكتابة وأكثر استدارة من الخط الاسطرنجيلي، وعرف عند الهنود باسم الخط الماروني. ويسمى أيضًا بالخط اليعقوبي نسبة إلى يعقوب الرهاوي أحد مشاهير العلماء، وأحد أصحاب الطبيعة الواحدة.

3- الخط النسطوري أو الخط السرياني الشرقي، وسُمي بالنسطوري نسبة إلى نسطوريوس زعيم النساطرة الشرقيين، وعُرف عند الهنود باسم الخط الكلداني. ويتميز هذا الخط بدقة حركاته حيث ميّز بين الإمالة القصيرة والطويلة، وفرّق بين الضمتين المفتوحة والمقفولة.

4- الخط الملكاني وهو خط اشتق من الخط القديم الاسطرنجيلي والخطين الجديدين اليعقوبي والنسطوري. ابتدعت هذا الخط جماعة تسمي نفسها الملكانية. وقد كُتب به بعض المخطوطات الملكانية من نهاية القرن السادس عشر.

تشتمل السريانية على اثنين وعشرين حرفًا صامتًا، وعندما اتسع استخدام السريانية كان لا بد من وجود علامات لتمييز عدد من الكلمات المتفقة رسمًا والمختلفة لفظًا عن طريق وضع نقطة فوق أو تحت الحرف، وكذلك الحال نفسه في حروف (بجدكفت) حيث توضع نقطة فوقها عند النطق الشديد، وأخرى تحتها عند النطق الرخو. كما ميّزت السريانية الجمع عن المفرد بوضع نقطتين فوق حرف من حروف الجمع. وفي القرن السابع الميلادي أُدخلت الصوائت اليونانية على الكتابة السريانية، ووضعت فوق الحروف أو تحتها على حد سواء، وعرفت باسم الحركات اليعقوبية.

الخط النبطي:

هو خط القبائل العربية التي دخلت أرض أدوم جنوب فلسطين في القرن الخامس قبل الميلاد، واستطاعوا تأسيس مملكة قوية اتخذت من سَلَع (البتراء) حاضرة لها، وامتد نفوذها في منتصف القرن الأول إلى الحجر (مدائن صالح) .

يتضح من خلال شواهد النقوش النبطية أن الخط النبطي مقتبس من الخط الآرامي، ويتألف من اثنين وعشرين حرفًا صامتًا، تكتب من اليمين إلى اليسار. وقد طوّر الأنباط بعض أشكال حروفه، وأضافوا إليه بعض التعديلات مثل وصل الحروف مع بعضها البعض باستثناء الحروف التي لا ترتبط بما يليها، والتفريق بين أشكال بعض الحروف في أول الكلمة وآخرها، وإلحاق نقاط على بعض الحروف يرجح أنها لضبط الكلمات أو إعجام بعض الحروف.

توجد النقوش النبطية في أماكن مختلفة من العالم وبخاصة في حدود مملكة الأنباط والمناطق التي يصلها تجارهم داخل شبه الجزيرة العربية، من دمشق والبتراء وصحراء النقب شمالاً، إلى العلا (دادان) ومدائن صالح

(الحجر) وقرية الفاو جنوبًا، ومن حوران في الشمال الشرقي إلى سيناء والصحراء الغربية لمصر غربًا، بل إن هناك نقوشًا نبطية وجدت في إيطاليا.

ويمكن تقسيم النقوش النبطية حسب مضامينها إلى نقوش تذكارية قصيرة، ونقوش دفن، ونقوش معمارية، ونقوش وقفية، ونقوش تكريمية، ونقوش تمثل توقيعات البنائين أو توقيعات تدل على الملكية.

تعود النقوش النبطية المبكرة إلى الفترة من القرن الثاني قبل الميلاد وحتى بداية القرن الثاني الميلادي (106م)، فأقدم نص نبطي معروف عثر عليه في موقع خلص Elusa في صحراء النقب ويرجع تاريخه إلى النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد. أما النقوش النبطية المتأخرة فتعود إلى الفترة من بداية القرن الثاني الميلادي وحتى منتصف القرن الرابع الميلادي، وتتمثل أساسًا في النقوش النبطية من شمال الجزيرة العربية (الجوف والعلا ومدائن صالح بالمملكة العربية السعودية)، ونقوش سيناء النبطية (المكتشفة في أودية سيناء وخاصة وادي المكتّب).

وقد دونت الكتابات النبطية في شكلين من الخط، رسمي أو يابس استعمل في النقوش التذكارية كنقوش المقابر في البتراء ومدائن صالح، وخط ليّن أو مقور ظهر على عديد من النقوش الصخرية والكتابات على أوراق البردي العائدة إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين.

الكتابة العربية الجنوبية:

ويقصد بها كتابات سكان الجزيرة العربية شمالها وجنوبها، وهي تنقسم تبعًا لذلك إلى قسمين: أ- كتابات القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية ويشمل مناطق شمال غرب الجزيرة العربية إلى جنوب سوريا. وتضم هذه الكتابات أربعة أنواع هي: الثمودية والصفوية والددانية واللحيانية.

1- الخط الثمودي:

اصطلح الدارسون المعاصرون على تسمية الخط الذي كتب به سكان بادية شمال الجزيرة العربية لغتهم العربية باسم "الخط الثمودي"، وذلك نظرًا لورود كلمة ثمود في بضع مخربشات.

تركز استخدام خط البادية (الثمودي) في شمال الجزيرة العربية، ووجدت نقوشه مكتوبة على صخور الجبال على طول الطرق التجارية القديمة الممتدة من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها، في اليمن، وعسير، ومدائن صالح، وحائل، وتبوك، وتيماء، وكذلك في بعض المناطق خارج شبه الجزيرة العربية، في الأردن، وشبه جزيرة سيناء، وفي صحراء مصر الشرقية.

تعود أقدم شواهد هذا الخط المعروفة حتى الآن إلى القرن السادس قبل الميلاد، بينما يرجع أحدثها إلى حوالي القرن الرابع الميلادي. ويحتوي هذا القلم على ثمانية وعشرين حرفًا ساكنًا، ويكتب من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين، أو من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، وقد يأخذ النقش شكلاً دائريًا حسب المساحة التي نقشت عليها حروفه.

يرى بعض علماء الخطوط من خلال أشكال حروف خط البادية (الثمودي) أنه منقول عن خط المسند، وذلك لقرب الشبه بين كثير من أشكال حروفه ومثيلاتها في خط المسند. في حين يرى آخرون أن فكرة الحروف الأساسية مستمدة من الأبجديات الهجائية التي انتشرت في بلاد الشام ومصر (كالأبجدية الأوجاريتية والسينائية وغيرهما) في نهاية النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. حيث تمكن سكان بادية شمال الجزيرة العربية على ضوئها من ابتكار حروف مجردة تتناسب مع أصوات لغتهم العربية وتفي بأغراضها. وهذه النقوش قصيرة جدًا وتحتوي غالبًا

علـى أسـماء أعـلام، إضـافة إلـى نقـوش التملـك للأشـياء والنقوش الدينية والتذكارية، ونقوش الحرب، ونقوش المودة والمحبة، ونقوش الحزن، ونقوش المناسبات.

2- الخط الصفوي:

كتبت القبائل العربيـة فـي شمال شبه الجزيـرة العربيـة وثائقها بخط شديد الشبه بخط البادية، ويكاد يكون فرعًا منه، سُمي اصطلاحًا باسم "الخط الصفوي"، لأن بـواكير نقوشـه اكتشفت خلال القرن التاسع عشر الميلادي في حرة الصفا، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق فنسب إليها.

يربو عدد نقوش الخط الصفوي – المعروفة حتى الآن – على عشرين ألف نقش، وتعود هذه النقوش إلى الفترة ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي.

انتشر استخدام خط قبائل عرب الصفا إلى الجنوب الشرقي من دمشق، وفي أواسط سوريا، وكذلك في الأردن، وتمتـد شـرقًا حتـى دورايـوروبس (الصـالحية) فـي وسـط الفـرات، وجنوبًـا حتـى وادي السـرحان فـي شـمال المملكـة العربيـة السـعودية. ويبلـغ عـدد حـروف خـط عـرب الصـفا ثمانيـة وعشـرين حرفًـا، ولا تخضـع كتابـة نصوصـه لقاعـدة محددة، فتارة تكتب من اليمين إلى اليسار أو العكس، وتـارة من الأعلى إلى الأسفل، وفي أحيان أخرى تكتب النصوص بطريقـة حلزونيـة أو لولبيـة. كما أن الحـروف الصـائتة غير ممثلـة فـي الكتابـة، وأداة التعريـف فيهـا هـي الهـاء فـي أول الكلمة، ولا يوجد فاصل بين الكلمات.

وتُصنف نقوش عرب الصفا إلى نقوش تذكاريـة تُعنـى بتسـجيل الـذكريات والنسـب والعواطـف، ونقـوش التملـك أو الملكيـة للأشياء، ونقوش قبوريـة كتبـت علـى القبـور للتعبير عـن الحـزن الشـديد، ونقـوش دينيـة تـذكر توسـلات كاتبيهـا لمعبوداتهم وذلك للتبرك أو إنزال العقاب بالأعداء أو الشفاء من الأمراض، ونقوش تاريخيـة وهـي تـؤرخ بحـوادث عامـة كالحرب بين الأمم أو بين القبائل أو المعارك بين الأشخاص.

3- الخط الداداني:

أطلق على هذا الخط مسمى "الخط الداداني" نسبة إلى مملكة دادان (أو ديدان)، وهـي مملكـة عربيـة سيطرت علـى منطقة دادان (العلا حاليًا) في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

لا يوجد لدينا أمثلة كثيرة على الخط الداداني، فقد عثر في واحة ديدان (العلا) على نقوش قليلة تعود بتاريخها إلى حوالي القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، ولعل أهمها نقش JS 138 Lih. الذي يسجل وفاة أحد ملوك ديدان، والمعروف بنقش كبر إل بن متع إل ملك ديدان، ونقش آخر JS 349 Lih. يذكر حاكمًا دينيًا.

يتألف الخط الدادني، الذي تعود أقدم شواهده المعروفة حتـى الآن إلـى القـرن السـادس قبـل المـيلاد، مـن ثمانيـة وعشـرين حرفًـا سـاكنًا، حيث لا تظهـر فيـه حـروف المـد. وتكتب نصوصه الرسمية من اليمين إلى اليسار، ويُفصل بين كلماتها بخط عمودي. أما نصوصه القصيرة، فإنها تكتب أحيانًا من اليمين إلى اليسار أو العكس، وأحيانًا أخرى من أعلى إلى أسفل أو العكس.

الخط الدادني يشبه في بعض حروفه (أربعة عشر حرفًا) خـط المسند، وفي بعضـها الآخر يشبه خط الباديـة (الثمـودي)، ممـا يجعلنـا نـرجح أن يكـون الـدادانيون قـد استنبطوا خطهم قياسًا على خطـوط جيرانهم من السبئيين والمعينيين وغيرهم من البادية (ثمود).

4- الخط اللحياني:

ينسب الخط اللحياني إلى مملكة لحيان التي اتخذت من دادان (حاليًا العلا شمال غرب المملكة العربية السعودية) مركزًا لها في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد.

ويعد الخط اللحياني امتدادًا للخط الدادني، حيث يتضح من خلال أشكال رسم حروف الخط اللحياني، خاصة في مراحله المبكرة، أنه مأخوذ بدون تغيير عن خط أسلافهم الدادانيين، ممـا أدى إلـى حـدوث خلط عند تصـنيف نقوش هذين الخطين، نتيجة الصعوبات التي يواجهها الباحثون في

التفريق بين النصوص المدونة بالخط الداداني والنصوص اللحيانية المبكرة.

وبعد ذلك في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد حدث تطور بسيط في بعض أشكال حروف الخط اللحياني مما جعل بعض العلماء المختصين يقسمون هذا الخط إلى مرحلتين هما: الخط اللحياني المبكر، والخط اللحياني المتأخر.

ترجع النقوش اللحيانية المعروفة حتى الآن إلى الفترة الممتدة من القرن الخامس وربما قبل ذلك إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، وتنتشر هذه النقوش في منطقة العلا التي عثر فيها على مجموعات كبيرة من نصوصه، في الخريبة، وأبو عود، ومدائن صالح (الحجر)، وجبل عكمة، ووادي أو ساق، وتلعة الحمادي.

ويحتوي قلم الخط اللحياني على ثمانية وعشرين حرفًا صامتًا، تُكتب غالبًا من اليمين إلى اليسار، وتُفصل مفردات نصوصه عن بعضها البعض بخط عمودي الشكل، وفي بعض النصوص بخطين رأسيين متقابلين، وأحيانًا بنقطتين متقابلتين أو نقطة واحدة، بل إن بعض النقوش تخلو تمامًا من الفواصل بين الكلمات، كما يفصل بين السطور في بعض النصوص خطوط أفقية دقيقة في رسمها. وتتضح في رسم هذا الخط ظاهرة المد، حيث يرمز حرف الهاء إلى ألف المد في المواضع التي تتطلب ذلك، كما تظهر في بعض نقوش الفترة اللحيانية المتأخرة من موقع أم درج، حروف اللين في بعض الأسماء مثل ذ غ ي ب ت، ولفظة ف ر ض ي هـ.

كُتبت النقوش اللحيانية بطريقة الحفر البارز، وكذلك بالحروف الغائرة، وغالبًا ما تتحدث تلك النقوش عن أمور شخصية، إلا أنها تمدنا بمعلومات مفيدة عن تاريخ لحيان والمجتمع اللحياني، وخاصة النواحي الدينية في ذلك المجتمع. وجميع الشواهد الكتابية من منطقة العلا مكتوبة إما على واجهات صخرية في سفوح الجبال وقممها، أو على ألواح حجرية، أو على مذابح ومجامر منحوتة من الحجر. وقد ظهرت في النقوش اللحيانية شواهد عدة عن نظام العد والترقيم لدى اللحيانيين، تبين أن لهم طريقتهم لكتابة الأعداد، فهي إما أن تكتب كتابة أو بالأرقام.

ب- كتابات القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ويشمل الكتابات المدونة بقلم المسند والخطوط التي تفرعت منه وهي خط الزبور، والخط الإثيوبي.

1- القلم المسند:

نوع من الخط سماه علماء المسلمين المسند، ربما لإسناد أشكال حروفه إلى بعضها البعض، أو بسبب إسناد نصوصه المكتوبة على ألواح حجرية أو معدنية في المباني والمعابد. ومسند كلمة معروفة في اللغات السبئية بمعنى "نقش؛ لوح نذر عليه نقش؛ نص منقوش". ولذا فإن الاسم لا يدل على نوع الخط وكان الأولى أن يسمى الخط الجنوبي أو السبئي أو الحميري.

استخدم خط المسند في جنوب الجزيرة العربية وشرقها من الأحساء إلى عمان، وفي قرية "الفاو"، ونجران، والعلا (في شمال غرب المملكة العربية السعودية اليوم)، كما وجدت له أمثلة في مصر واليونان. وتعود أقدم النصوص المكتشفة حتى الآن لهذا النوع من الخط إلى حوالي القرن التاسع قبل الميلاد واستمر استخدامه حتى القرن السادس الميلادي.

لا نعرف حتى اليوم الكثير عن المراحل الأولى من تطور خط المسند، حيث أن الشواهد النقشية التي وصلت إلينا منه تمثل مرحلة متقدمة من تطوره. ولا يوجد لدى الباحثين أدلة كافية على أقدم شواهد نقشية مسندية عثر عليها في جنوب الجزيرة العربية أو بلاد اليمن؛ فلا النقوش السبئية المبكرة، والمؤرخة وفق نظام عهود الأشخاص من الأسر السبئية المعروفة، تعين على وضع تصور عام لمراحل تطور خط المسند، ولا دراسة تطور أشكال حروفه تمكننا من معرفة مراحل التطور بشكل واضح وجلي. ويرى

بعض العلماء أن خط المسند تطور من خط يطلق عليه "العربي الأصل/ الأم أو القديم" Proto-Arabic، والذي تطور من الخط الكنعاني القديم Proto-Canaanite وذلك في حوالي 1300 ق. م. وهو بذلك يمثل مرحلة وسيطة بين الخط الكنعاني القديم وخط المسند. وقد عُثر على نماذج لنقوش عربية جنوبية قديمة لعلها تمثل خط المسند بعد تطوره من ذلك الخط العربي القديم، حيث اكتشف البرت جام A. Jamme في عام 1962م حروفًا قديمة في منطقة العَبْر شمال شبوة، رأى أنها من أقدم الشواهد على خط المسند. وكان قبل ذلك قد اكتشف في جبل أوراد بوادي بيحان نقوشًا عربية جنوبية قديمة مكتوبة في سطور عمودية أو رأسية، قدّر تأريخها ما بين القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد.

غير أن أقدم كتابة نقشت بخط المسند حسب رأي فون فيسمان H. Von Wissmann هي طغراء هجر بن حميد – الذي تؤلف حروفه كلمة واحدة هي (كهلم) – المنقوش على إناء فخاري عثر عليه أثناء التنقيبات الأثرية التي أجرتها بعثة المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان بين عامي 1950 – 1951م في موقع هجر بن حميد بوادي بيحان. وقد اعتمد فون فيسمان على الدراسة التي قامت بها البعثة للإناء المذكور، ووضع سُلمًا خطيًا يقيس عليه أشكال حروف خط المسند، ووصل إلى أن تاريخ تلك الكتابة على الإناء يمكن أن يعود إلى الفترة ما بين 950 – 800 قبل الميلاد.

هذا النوع من الكتابة لم يعثر عليه في جنوب شبه الجزيرة العربية فحسب، بل عثر عليه أيضًا في مناطق أخرى خارجها، حيث وجدت بضعة نقوش مكتوبة بخط المسند في أور ونيبور في بلاد ما بين النهرين. أرخت هذه النقوش بالقرن السابع قبل الميلاد استنادًا إلى المعثورات الأثرية التي عثر عليها في الموقع نفسه. وأطلق و. ف. البرايت W. F. Albright عليها اسم "النقوش الكلدانية".

وفي تل الخليفة بالقرب من إيلات في فلسطين عثر على جرة مكتوب عليها حرفان عربيان جنوبيان، وتعود هذه الجرة إلى القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد.

وكما نرى فقد اختلف العلماء في إثبات أقدم كتابة نقشت بخط المسند، غير أن الدلائل المتوافرة لدينا ترجح أن النقوش السبئية هي أقدم النقوش العربية الجنوبية المعروفة حتى الآن، وينبغي أن يرجع تاريخها إلى فترة مبكرة في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد؛ ومثال ذلك نقش النصر (RES 3945) للحاكم السبئي كرب إل وتار بن ذمار علي، الذي يعتقد أنه هو نفسه كرب إل ملك سبأ الذي بعث بهدية إلى الملك الآشوري سنحريب بحسب ما جاء في نقش بناء معبد (بيت أكيتو) في آشور، والذي بني بعد خراب بابل أي بعد 681 قبل الميلاد، وبعد حملة هذا الملك الآشوري على دومة الجندل للسيطرة على طرق التجارة البرية، ويقدر تاريخ إرسال هذه الهدية بعام 685 قبل الميلاد.

يتألف خط قلم المسند من تسعة وعشرين حرفًا، إضافة إلى رمز آخر في شكل خط عمودي استخدم للفصل بين كلمات النصوص، وترتيب هذه الحروف يشبه إلى حد كبير الترتيب الأبجدي للحروف الأثيوبية. تكتب حروف المسند منفصلة عن بعضها البعض، وهي تمثل أشكالاً هندسية رائعة الجمال والتناسق في شكل دوائر منتظمة وزوايا قائمة ومنفرجة. ولكل حرف من حروف الأبجدية صوت قائم بذاته، كما أن أصوات حروف المد مطروحة من رسم الحرف.

وقد تفرع من القلم المسند الخطوط التالية:

1- خط الزبور:

نوع من الخط مشتق من خط المسند الرسمي، غير أنه يتميز عنه بسهولة تحرير حروفه وإمكان اتصالها مع بعضها البعض. وقد أطلق الدارسون على هذا الخط مسمى الزبور استنادًا إلى ورود الفعل زبر بمعنى كتب في أحد

نصوص هذا الخط، إضافة إلى ما جاء في الموروث العربي من اقتران خط يدعى الزبور بحمير.

انتشر استخدام هذا النوع من الخط في جنوب الجزيرة العربية، حيث عثر في خرائب السوداء في جوف اليمن على مجموعة من القطع الخشبية تحمل نقوشًا مزبورة بهذا الخط، كذلك وجدت كتابات محزوزة بخط الزبور على جدران غرف بعض المنازل في قرية "الفاو"، كما عثر في نجران على كسرة فخار عليها كتابة بهذا النوع من الخط أيضًا.

من دراسة النصوص المكتشفة حتى الآن لهذا النوع من الخط، وخاصة النصوص على القطع الخشبية التي عثر عليها في جوف اليمن تبين أنها قد وُجّهت على شكل رسائل تبدأ باسم المرسل إليه ثم المرسل، ثم عبارات التحية والدعاء، ويتلو ذلك الغرض الذي من أجله كتبت الرسالة، ثم تختم الرسالة بالدعاء مرة أخرى، وفي بعض الأحيان تختم باسم صاحب الرسالة والشهود والتوقيع. كثير من هذه الرسائل عبارة عن صكوك مالية ومعاملات شرعية كالبيع وغيره، ومنها ما هو على شكل قوائم بأسماء الأشخاص والبطون، كتبت دون ذكر الغرض منها.

2- الخط الأثيوبي (الجعزي):

في حوالي النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد هاجرت مجموعة من قبائل جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة، ونشروا هناك ثقافتهم العربية لغة وكتابة وفنا في أوساط السكان المحليين، الذين ما لبثوا بعد قرون من تطوير لغة خاصة بهم هي (لسان جعز كما يسمونها أو الجعزية)، ومنها تفرعت لهجاتها (الأمهرية والتجريه أو التجرينية وغيرها) واتخذوا حروف خط المسند خطا لهم ثم تطور إلى الخط الأثيوبي حتى وقتنا الحاضر، وبذلك شكّل خط المسند الأساس للخط الأثيوبي. وقد كُتبت النقوش الأثيوبية (الجعزية) الأولى بخط جنوب الجزيرة العربية (المسند) التذكاري، حيث أخذ الأحباش خط المسند كما هو ثم طوروه وأدخلوا عليه بعض التعديلات. ونلحظ في منتصف القرن الرابع الميلادي – في أوج ازدهار مملكة أكسوم – امتزاجًا في الكتابة الجعزية بين الأشكال العربية الجنوبية والأشكال الحبشية المتطورة عنها، مما يعني أن المحاولات الهادفة إلى خلق كتابة حبشية خاصة، بتطوير الأشكال العربية الجنوبية، تعود إلى ما قبل ذلك التاريخ بفترة طويلة.

وعند مقارنة اللغة الأثيوبية باللغة العربية الجنوبية القديمة نجد أنها لا تحتوي على أصوات لحرف الظاء، والغين، والذال، والسين الثانية، لذلك لجأ الأحباش إلى استحداث حروف أخرى عوضًا عنها تناسب مخارج أصوات لغتهم الأثيوبية، وأضافوا إليها حرفين اثنين يمثلان صوتين غير معروفين في العربية الجنوبية، أحدهما يشبه في نطقه حرف (P) في اللغات اللاتينية، والآخر ينطق (تص)، وغالبًا ما يستخدم هذان الحرفان في الكلمات الدخيلة على اللغة، وبذلك أصبح عدد حروف اللغة الأثيوبية ستة وعشرين حرفًا صامتًا. عقب ذلك تمكن الأثيوبيون من إضافة علامات أو رموز تلحق بالحروف الساكنة (الصامتة) في حالات سبع لتدل على الصوائت أو بمعنى آخر لتؤدي عمل الحركات (التشكيل)، مما أدى إلى زيادة في عدد أشكال حروف الخط الأثيوبي إلى مائة واثنين وثمانين حرفًا ساكنًا ومتحركًا. ثم حدث تطور آخر في الكتابة الحبشية بوضع رموز خاصة لأربعة من الأحرف الحلقية وهي (q) ق، (h) خ، (k) ك، (g) ج، لتمثيل خصائصها الصوتية في حالات خمس، حيث تختص هذه الأحرف الأربعة عندما يلحقها صائت أساسي كالفتحة a أو الكسرة i أو e، بدخول الصائت u بينها وبين الصائت الأساسي الذي يتبعها، فيصبح الصوت مركبًا كما في (q) ق على نحو qua, que, qui .qua, que. كذلك استحدثت الكتابة الأمهرية المستخدمة في أثيوبيا اليوم سبعة حروف صامتة إضافية لم تكن موجودة في اللغة الجعزية، مع صوائتها السبعة. فأصبح لدينا عدد ضخم من الرموز يقدّر بمائتين وواحد وخمسين علامة مقطعية.

كُتبت الكتابة الأثيوبية في مراحلها المبكرة من اليمين إلى اليسار كما في الكتابة العربية الجنوبية القديمة المشتقة منها، ولكنها سرعان ما تحولت إلى أسلوب الكتابة من اليسار إلى اليمين كما في الكتابة المسمارية والأوجاريتية واليونانية واللاتينية. وحروف الخط الأثيوبي تكتب منفصلة عن بعضها بعضًا، ويُفصل بين مفرداته بنقطتين رأسيتين (:)، كما يُعبر عن انتهاء الجملة بوضع العلامة الدالة على ذلك وهي أربع نقاط مترادفة (::).

الكتابة العربية الشمالية :

ويقصد بها الكتابات التي دونت بالخط العربي الذي هو أحدث الخطوط السامية عامة ومتفرع من الخط النبطي الآرامي.

الخط العربي:

اختلفت الآراء حول أصل الخط العربي ونشأته، فقد ظهرت اتجاهات مختلفة بشأن هذا الموضوع، منها الاتجاه الذي لم يعتمد أنصاره فيما كتبوه عن نشأة الخط، على شواهد مادية أثرية ملموسة، وإنما اعتمدوا على الآراء المنقولة، وعلى روايات متباينة، خالطها شيء من الأسطورة والخيال في معظمها. وهي التي اعتمد عليها كثير من الأخباريين العرب. والاتجاه الآخر يعتمد أصحابه على مواد كتابية ومقارنة الحروف. وقد أصاب بعضهم كبد الحقيقة، في حين جانب الصواب أكثرهم. وينبغي لتتبع أصل الخط العربي التعرف إلى النظريات المختلفة التي برزت حول أصل الخط ونشأته ومن أهمها:

اعتمد عليها كثير من الكتاب العرب الأقدمين. فالمصادر العربية تكاد تُجمع على أن الخط العربي والكتابة العربية توقيفية من الله سبحانه وتعالى لآدم استنادًا إلى قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة: من الآية31). هذا الرأي لا يقوم على أساس من العلم، أو سند من التاريخ صحيح، كما أن معنى الآية يراد به أسماء المسميات كلها وليس بالضرورة أن يُقصد به اللغة والخط والكتابة وغيره مما يدخل تحت الأشياء المعنوية، وإلا لأشار القرآن الكريم إلى ذلك.

النظرية الجنوبية الحميرية: شاع عند العرب أن أصل الخط العربي مشتق من خط المسند الحميري الجنوبي، فهم يعتمدون على فرض أن اليمن قد بسطت سلطانها السياسي على أجزاء من بلاد العرب بما فيها الحجاز، ومن ثم لا بد أن تكون قد فرضت ثقافتها وخطها في هذا الإقليم. وأصحاب هذا الرأي ومؤيدوه قديمًا كابن النديم وابن خلدون، وحديثًا مثل حفني ناصف وناجي زين الدين لا يستندون إلى دليل مادي، فالمتأمل في الخطين العربي والمسند لا يجد علاقة أو تشابهًا بينهما.

النظرية الحيرية الشمالية: مفادها : أن الخط العربي مشتق من خط الحيرة الذي أخذ من السريانية وقيس على هجائها. وقد ذكر هذه النظرية عدد من المؤرخين العرب وعلى رأسهم البلاذري، وهي بالرغم مما يشوبها من الأسطورة، وما يغلب عليها من الوضع والصنعة، تُحاول أن تفسر كيف انتهت الكتابة إلى الحجاز من إقليم الحيرة. ويبدو أن أصحاب هذه النظرية وجدوا في التشابه بين القلمين العربي والسرياني في أشكال بعض الحروف، وترتيبها، وفي ظاهرة ربط الحروف ببعضها، مستندًا يعتمدون عليه لإثبات صحتها، مع أن ذلك التشابه مرده أن كلا القلمين من أصل واحد هو الخط الآرامي.

النظرية الحديثة أو النبطية : وهي التي تؤيدها معظم الآراء، حيث تقول : إن الخط العربي قد اشتق من الخط النبطي وذلك اعتمادًا على التشابه ما بين النقوش النبطية والخط العربي المتمثل في كثير من الخصائص الخطية واللغوية الموجودة فيهما. فقد كتب الأنباط لغتهم العربية بالخط النبطي المشتق من الخط الآرامي كما يتضح في نصوص القرن الأول قبل الميلاد. ثم أخذ هذا الخط في التطور والتحسن، وظهر فيه ميل إلى الاستدارة، وابتعد تدريجيًا عن الخط الآرامي، وأصبح يشبه إلى حد كبير خط

النقوش العربية المبكرة التي تم الكشف عنها في بلاد الشام، والتي تمثل التطور الذي طرأ على الحروف النبطية حتى أخذت تفقد صبغتها النبطية نحو الكتابة العربية، مثل نقش أم الجمال الأول (250-270م)، ونقش النمارة (328م)، ونقوش جبل رم (300-350م)، ونقش زبد (512م)، ونقش حران (568م)، ونقش أم الجمال الثاني (القرن 6م)، إضافة إلى النقوش النبطية والإسلامية المبكرة المكتشفة في منطقة الحجاز، وشمال الجزيرة العربية، والتي ترجع إلى فترات زمنية تسبق أقدم النقوش المذكورة آنفًا.

الخط العربي في فجر الإسلام:

كان العرب في العصر الجاهلي وفجر الإسلام القريب من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم يعنون بتدوين شؤون حياتهم، من عقود وعهود، ومواثيق ومداينات، وشعر وأدب، وسندات ملكية الرقيق (مكاتبة الرقيق)، وتثبيت الصكوك، وكتابة الرسائل فيما بينهم. أما ما ذكره ابن خلدون في مقدمته عن خط العرب وعدم إجادتهم للكتابة، وما أشاعه المستشرقون وبعض العرب المحدثين من أن العرب لم يعرفوا الكتابة والقراءة فهو كلام مردود على أصحابه، تنقصه الحقائق التاريخية التي تثبت أهمية الحجاز في فترة ما قبل البعثة المحمدية كمركز ديني وتجاري وثقافي مهم في الجزيرة العربية، وبالتالي كان لزامًا أن يكون أهل الحجاز قد عرفوا الكتابة لتدوين شعرهم ومحاسباتهم وجميع أمور حياتهم. وقد ذكر ابن النديم أنه كان في خزانة الخليفة العباسي المأمون (بين عامي 198 – 218هـ) كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم مكتوب فيه دين لعبد المطلب بن هاشم على رجل من أهل اليمن. ومن المؤكد أن الكتابة لم تكن منتشرة في الحجاز بالمفهوم الذي نحن عليه الآن، وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال عدم معرفتهم بها، وهم الذين استخدموها في تسجيل أمور التجارة، وتوثيق العهود والأحلاف والديون. فالكتابة كانت منتشرة في مكة قبل الإسلام، حيث يذكر البَلاذُري أنه كان فيها سبعة عشر رجلاً يكتبون، وعدد سبع نساء كن يكتبن أو يعرفن القراءة.

كما أشارت كتب التاريخ الإسلامي إلى أن الفداء الوحيد الذي قبله الرسول صلى الله عليه وسلم من بعض أسرى قريش بعد معركة بدر هو أن يقوم كل أسير منهم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، وفي ذلك دليل واضح على معرفة القرشيين من أهل مكة وعرب الحجاز بالقراءة والكتابة.

الخط العربي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم:

لما جاء الإسلام أضحت الكتابة واجبًا دينيًا، ووسيلة سخرت لخدمة الدين الإسلامي، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أول من أدرك أهمية الكتابة، وحرص على نشرها والحث عليها، فلم يفك أسرى المشركين في بدر إلا إذا علَّمَ كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة كما شجع النساء أيضًا على تعلم القراءة والكتابة، فقد أمر عليه الصلاة والسلام الشَّفَاء بنت عبد الله أن تعلم زوجته حفصة الكتابة ليقتدي بها المسلمون في تعليم النساء. كذلك أولى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أهمية كبرى لتدوين القرآن الكريم وحفظه من الضياع، بأن اتخذ عليه الصلاة والسلام كُتَّابًا للوحي يلازمونه على الدوام، ويكتبون القرآن حال نزوله أولاً بأول. وقد كان له صلى الله عليه وسلم ثلاثة وأربعون كاتبًا، من أشهرهم الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، والعلاء الحضرمي، وشرحبيل بن حسنة، وسعيد بن العاص وغيرهم. وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه كاتب العهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وأبي بن كعب أول من كتب للرسول عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة، وأول من كتب في آخر الكتاب وكتب فلان؛ وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه يكتب رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم

إلى ملوك الدول ورؤسائها، وكان ألزم الصحابة لكتابة الوحي.

اكتمل نزول القرآن الكريم وكتب كله في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؛ إلا أنه كان أول عهده مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعسب واللخاف، وكان موزعًا في أماكن متعددة ومتفرقة، ولم يجمع له نص كامل مكتوب في مكان واحد إلا في عهد أبي بكر رضي الله عنه، حين استشهد كثير من القراء يوم اليمامة، فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أبي بكر بجمع القرآن خشية أن يذهب باستشهاد حملته وحافظيه. فأمر أبو بكر زيد بن ثابت بتتبعه وجمعه، فجمعه في صحف كانت عند أبي بكر، ولما توفي آلت تلك الصحف إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعد موته انتقلت إلى أم المؤمنين حفصة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن المرجح أن القرآن الكريم كان يكتب في عهد أبي بكر في صحائف من الرق تتساوى في الطول والعرض وتتفق في النوع.

ولا تسعفنا المصادر التاريخية في التعرف إلى الخط الذي كان سائدًا في الحجاز واستعمله القرشيون قبل الإسلام، وكُتب به القرآن الكريم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم في عهد الخلفاء الراشدين. ولعل خير من أمدنا بأسماء الخطوط العربية في بداية الإسلام هو ابن النديم (المتوفى عام 358هـ) في فِهْرِسْتِهِ، حيث صنف الخطوط وقسمها حسب المناطق إلى الخط المكي وبعده المدني ثم البصري ثم الكوفي؛ ثم حاول وصف الخط الذي كُتب به المصحف في أول الأمر بأنه الخط المدني أو المكي دون أن يبين لنا خصائص أو مميزات أي منهما. أما البسملة التي وردت في كتابه، فالأرجح أنها لا تعود إلى بداية الإسلام بل إلى فترة ابن النديم نفسه. واستنادًا إلى كلام ابن النديم عن خطوط المصاحف، يرجح أن الخط المدني قد استخدم لكتابة القرآن الكريم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الخط المكي والمدني كان منها اللين (المقور أو المدور) واليابس (الجاف أو المثلث)، وفي الرقوق القرآنية المكتشفة في سقف الجامع الكبير بصنعاء والتي يرجح أن بعضها من القرن الأول الهجري ما يؤكد الخط المدني والمكي ويسمى بالخط الجليل أو الخط المائل .

ويرجح أن الخط الذي كتب به القرآن الكريم في عهد أبي بكر رضي الله عنه هو الخط اليابس (الجاف) الذي عرفته المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. أما الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد اهتم بجمع القرآن وتدوينه في مصحف واحد بالخط الجاف على أنواع معينة من الرقوق، ووزعت نسخ منه على الأمصار الإسلامية لجمع الأمة على مصحف واحد.

بعد ذلك انتشر الخط العربي في جميع أنحاء العالم الإسلامي، إذ كتبت به لغات أخرى غير عربية، كالفارسية والتركية والأوردية والمالاوية وغيرها. وقد صاحب الخط العربي الفتح الإسلامي في انتشاره، حاملاً لواء الثقافة الإسلامية ممثلة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ولواء اللغة العربية. وقد ساعد الخط العربي على الانتشار عوامل مختلفة ارتبطت بالتطور الحضاري للأمة الإسلامية منها تدوين القرآن الكريم وتحرير التفاسير وعلوم الفقه والحديث، وتسجيل السجلات والعهود والصكوك والعقود والحجج والأوقاف، تعريب الدواوين والمسكوكات في فترة الدولة الأموية، وقيام العباسيين بتشجيع حركة الترجمة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية.

د.سالم بن أحمد طيران

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

– الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، أبو الحسن، حسين بن علي 2002م
العلا ومدائن صالح - حضارة مدينتين (سلسلة قرى ظاهرة على طريق البخور (1)، دار القوافل، الرياض).

– بروكلمان، كارل 1977م .
فقه اللغات السامية(ترجمة د. رمضان عبدالتواب، مطبوعات جامعة الرياض، الرياض) .

– بعلبكي، رمزي 1981م .
الكتابة العربية والسامية، دراسات في تاريخ الكتابة وأصولها عند الساميين (الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت) .

– البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر د. ت .
فتوح البلدان (تحقيق صلاح الدين المنجد، الجزء الثالث، طبعة دار النهضة المصرية، القاهرة) .

– بيستون، أ. ف. ل، ركمانز، جاك، الغول، محمود، مولر، والتر 1982م .
المعجم السبئي(لوفان لانف: دار نشريات بيترز، بيروت، مكتبة لبنان) .

– الجبوري، سهيلة 1979م .
أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي (بغداد).

– ابن الجزري، أبوالخير محمد بن محمد الدمشقي د.ت .
النشر في القراءات العشر(المكتبة التجارية الكبرى، مصر) .

– حاتم، عماد 1982م .
في فقه اللغة وتاريخ الكتابة (الطبعة الأولى، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس – ليبيا) .

– أبو الحسن، حسين بن علي 1997
قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا(مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض)

– أبو الحسن، حسين بن علي 2002م .
نقوش لحيانية من منطقة العلا دراسة تحليلية مقارنة (الطبعة الأولى، وكالة الآثار والمتاحف، وزارة المعارف، الرياض) .

– ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد د. ت .
المقدمة (دار إحياء التراث العربي، بيروت) .

– الذييب، سليمان1995م.
دراسة تحليلية لنقوش نبطية قديمة (مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض) .

– الذييب، سليمان 1999م .
نقوش ثمودية من المملكة العربية السعودية (مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض) .

– راشد، سيد فرج 1993م .
اللغة العبرية، قواعد ونصوص (دار المريخ للنشر، الرياض) .

– راشد، سيد فرج 1994م .
الكتابة من أقلام الساميين إلى الخط العربي (الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة) .

– رشدي، زاكيه محمد 1978م .
السريانية نحوها وصرفها مع مختارات من نصوص اللغة (الطبعة الثانية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة) .

– الروسان، محمود محمد 1987م .
القبائل الثمودية والصفوية دراسة مقارنة (الطبعة الأولى، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض) .

- **ريكمانز، جاك، مولر، والتر، عبد الله، يوسف محمد 1994م .**
نقوش خشبية قديمة من اليمن (منشورات المعهد الشرقي في لوفان، 43، لوفان الجديدة) .

- **الزنجاني، أبو عبد الله 1969م .**
تاريخ القرآن (الطبعة الثالثة، بيروت) .

- **سفر، فؤاد، مصطفى، محمد علي 1974م .**
الحضر مدينة الشمس(بغداد) .

- **عبد الله، عبد القادر محمود 1995م .**
الكتابة الأبجدية في مصر القديمة، أول اهتداء لمبدأ الأبجدية (الطبعة الأولى، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض) .

- **عبد الله، يوسف محمد 1988م .**
خط المسند والنقوش اليمنية القديمة، دراسة لكتابة يمنية قديمة منقوشة على الخشب (النقائش والكتابات في الوطن العربي، المنظمة العربية للتنمية والثقافة والعلوم، تونس) .

- **الفعر، محمد فهد عبد الله 1984م .**
تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري (الطبعة الأولى، تهامة للنشر، جدة) .

- **كامل، مراد، البكري، محمد حمدي 1949م .**
تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي (مطبعة المقتطف والمقطم بمصر، القاهرة) .

- **الكردي، محمد طاهر بن عبد القادر 1939م.**
تاريخ الخط العربي وآدابه (الطبعة الأولى، القاهرة).

- **كلينكل، هورست 1985م .**
آثار سوريا القديمة، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، م.

- **كمال، ربحي 1978م .**
دروس اللغة العبرية (دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت) .

- **مرزوق،محمد عبد العزيز 1975م .**
المصحف الشريف دراسة تاريخية وفنية (الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة) .

- **موسكاتي، سبتينو 1986م .**
الحضارات السامية القديمة (ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت) .

- **ابن النديم، محمد بن إسحاق د. ت.**
الفهرست (المطبعة التجارية الكبرى، مصر) .

- **الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد 1986م .**
كتاب الإكليل (الجزء الأول، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، الطبعة الثالثة، منشورات المدينة، بيروت) .

ثانيًا : المراجع الأجنبية:

- **Albright, W. F. 1952**
The Chaldean Inscriptions in Proto-Arabic Script, BASOR 128, P. 39-45.

- **Albright, W. F. 1955**
The Early South Arabic Inscription in Vertical Columns, BASOR 138.

- **Caskel, W. 1954**
Lihyan ynd Lihyanisch (Arbeitsgemeinschaft fur Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen. Geisteswissenschaften. Heft 4) Koln.

- **Dillmann, A., 1907**
Ethiopic Grammar, Second edition, enlarged and improved by Carl Bezold, Williams and Norgate, London.

- **Eph'al, I., 1982**
The Ancient Arabs, Nomads on the Borders of the Fertile Crescent 9th – 5th Centuries B. C. Leiden.

- **Gelb, I. J., 1963**

Aramaic and Nabatean Inscriptions from North-West Saudi Arabia, King Fahd National Library, Riyadh.

- **Von Wissmann, H. 1975**

  Uber die fruhe Geschichte Arabiens und das Entstehen des Sabaerreiches, Die Geschichte von Saba' I, (SBAWW 301), Wien.

- **Von Wissmann, H. 1982**

  Die Geschichte von Saba' II. Das Grossreich der Sabaer bis zu sienem Ende im fruhen 4. Jh. V. Chr., hrsg. Von W. W. Muller (SBAWW 402), Wien.

- **Winnett, F. V. 1937**

  A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Toronto.

- **Winnett, F. V. 1957**

  Safaitic Inscriptions from Jordan (Near and Middle East Series. 2) Toronto.

- **Winnet, F. V. Reed, W., 1970**

  Ancient Records from North Arabic (Near and Middle East Series. 6), Toronto.

- **Zayadin, F. 1989**

  Die Zeit der konigreiche Edom, Moab and Ammon. 12. – 6. Jahrhundert v. Chr., in: Der Konigs Weg, 9000 Jahre Kunst und Kultur in Jordnien, Verlag Philipp von Zabern, Mainz.

A Study of Writing, The University of Chicago Press, Chicago, 5- 6-Glueck, N., The First Campaign at Tell al-Kheleifeh (Ezion-Geber), BASOR 71 (1938), P. 15-16.

- **Grimme, H. 1926**

  Die Losung des Sinaischriftproblems, Die alt-thamudische Schrift, Munster.

- **Healey, J. F. 1990**

  The Early Alphabet, British Museum Publications Ltd., London.

- **Jamme, A. 1955**

  An Archaic South Arabian Inscription in Vertical Columns, BASOR 137, PP. 32-38.

- **Jamme, A. 1963**

  Preliminary Report on Epigraphic Research in North-Western Wadi Hadramaut and at al-'Abar, BASOR 172.

- **Muller, W. W. 1982**

  Das Fruhnordarabische in: Grundriss der arabischen Philologie, Bd. I. Hrsg. Von W. Fischer, Wiesbaden.

- **Pirenne, J. 1956**

  Paleographie des inscriptions sud-arabes contribution a la chronolgie et a L'histoire de L'Arabie du Sud antique, Tom I, Bruxelles.

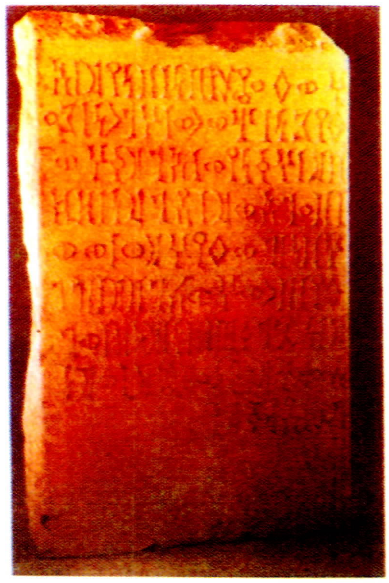
- **al-Theeb, S. 1993**



(الشكل رقم 1) نقش بخط المسند على نصب محفوظ في متحف المكلا باليمن (نقلا عن اليمن في بلاد ملكة سبأ).



(الشكل رقم 2) مائدة قرابين عليها كتابة بالخط المسند، القرن السابع قبل الميلاد (نقلا عن اليمن في بلاد ملكة اليمن)



(الشكل رقم 3) كتابة بخط المسند على نصب مقدم للمعبود المقه (نقلا عن اليمن في بلاد ملكة سبأ.



(الشكل رقم 4) نقش بخط المسند محفوظ في متحف صنعاء الوطني (نقلا عن اليمن في بلاد ملكة سبأ).



(الشكل رقم 5) نقش بخط المسند على مائدة قرابين (نقلا عن اليمن في بلاد ملكة سبأ.



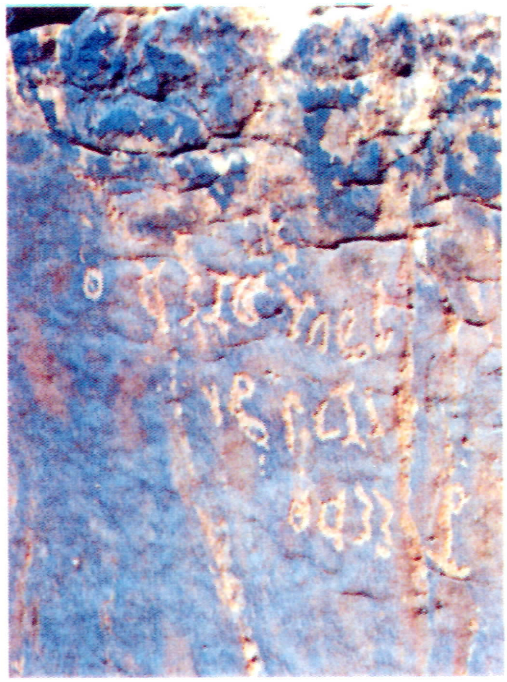
(الشكل رقم 6) نقش بخط المسند على نصب يخلد بناء معبد مأرب، القرن الثامن قبل الميلاد (نقلا عن اليمن في بلاد ملكة سبأ).



(الشكل رقم 7) نقوش بالخط الحياني من جبل عكمة بالعلا (المملكة العربية السعودية)



(الشكل رقم 8) نقوش بالخط الحياني من جبل عكمة بالعلا (المملكة العربية السعودية)



(الشكل رقم 9) نقوش بخط البادية (الثمودي) من جبة (حائل، المملكة العربية السعودية)



(الشكل رقم 10) نقش بخط البادية (الثمودي) من جبة

اللغـــة والأدب

اللغـــة:

أ- النصوص اللغوية والأدبية قبل الإسلام في جزيرة العرب :

أثار رأي الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي في القرن العشرين الميلادي ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية والفكرية حينما قال في كتابه " في الشعر الجاهلي ": إن الكثرة المطلقة فيما نسميه أدبًا جاهليًّا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام..."و أن الشعر الجاهلي في مجمله بعيد كل البعد من أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه " وقد شكك طه حسين في شعر شعراء مشهورين مثل امرئ القيس والأعشى وزهير وابن أبي الصلت ولبيد والأبرص... خاصة وأن شعرهم لم يدون كتابة وإنما وصل إلى العلماء والرواة في القرن الثالث الهجري عن طريق الرواية الشفهية والحفظ فقط.

وكان الدكتور طه حسين قد استند في رأيه هذا إلى رأي بعض المستشرقين مثل مرجليوث الذي كان من أوائل من أثاروا الشك في الشعر الجاهلي و أنكروا أن يكون قد دون وحفظ بالكتابة واستبعدوا لذلك أن يكون الشعر الجاهلي قد حفظ بالرواية الشفهية وتم نقله نقلاً سليمًا في ذاكرة الرواة حتى القرن الثالث الهجري.

والقول بأن الرواية الشفهية كانت الوسيلة الأساسية إن لم تكن الوحيدة التي تم بواسطتها نقل الشعر الجاهلي من الأقوال السائدة بين العلماء والرواة الذين اهتموا بجمع الشعر وتدوينه في جمهرات وطبقات منذ القرن الثالث الهجري. فقد أورد ابن سلام في طبقاته على سبيل المثال، قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه" ثم علق على ذلك بقوله: فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير".

ولكن آراء طه حسين لقيت معارضة شديدة في حينها، كما أنها لم تصمد في مجملها طويلا إذ تكاثرت الأدلة التي تثبت صحة كثير من الشعر الجاهلي الذي وصلنا والتي تدل على أن الرواية الشفهية لم تكن المصدر الوحيد وإنما كانت تسير جنبا إلى جنب مع الكتابة والتدوين بحيث لا ينفي وجود أحدهما الآخر. ومن تلك الأدلة على سبيل المثال ما ورد عن أبي تمام (ت 231هـ) حينما اختار حماسته وأن الثلج عاقه عن السفر، وكان في العراق فاستضافه أبو الوفاء بن سلمة وأحضر خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها، وصنف خمسة كتب في الشعر منها كتاب الحماسة والوحشيات... أو قول الأصمعي(ت 216 هـ) إنه قرأ شعر الشنفرى على الشافعي بمكة وقرأ على أبي عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبياني وشعر الحطيئة. كما يذكرون أن أبا عمرو الشيباني (ت 213 هـ) كان يكتب الشعر والأخبار ويأخذها من الكتب وغير ذلك من الكتب والأقوال التي يذكر أن أولئك العلماء والرواة قد صنعوا تلك الدواوين والمجموعات المختارة من أشعار الجاهلية استنادًا إلى دواوين كانت مكتوبة قبل عصرهم طبعًا، بالإضافة إلى ما أخذوه بالرواية الشفهية.

ولهذا فمن الممكن أن يقول بعض شعراء القبائل البدوية اليمنية شعرًا باللغة العربية المحضة في تلك الفترة ناهيك بامرئ القيس الذي عاش في بلاط ملك كندة في نجد وإن كان قد تردد على مواطن عشيرته في دمون وعندل بحضرموت (ت 542م).

ولكن يبقى السؤال هل لدينا شواهد كتابية تدل على تدوين الشعر الجاهلي قبل الإسلام في فترة مبكرة من القرن السادس أو بعد الإسلام في القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلادي أي القرن الأول الهجري، بحيث نطمئن إلى أن الرواية الشفهية لم تكن وسيلة النقل الوحيدة للشعر الجاهلي الذي عرف أنه دون وجمع في القرن الثالث الهجري؟ وهل هناك شواهد كتابية والمقصود بذلك آثار منقوشة ومدونة بالخط العربي من الجاهلية وفجر الإسلام باللغة العربية المحضة لغة القرآن الكريم وشواهد شعرية بلسان حمير وعرب الجزيرة ومدونة بالمسند أو خطوط أخرى؟

يستفاد من دراسة النقوش القديمة التي عثر عليها في الجزيرة العربية أنها قد كتبت جميعها وفق نظام "السامية" وعدد حروفها العربية الأصل تسعة وعشرون حرفًا.. ويمكن أن تصنف خطوطها إلى فئتين الأولى هي مجموعة الخطوط التذكارية المنسقة والمحسنة التي يعتنى بنقشها على الحجارة والصخور أو المعادن ولا ينفذها إلا كتاب مهرة، كما يتمثل ذلك في نقوش المسند السبئية، والثانية هي مجموعة الخطوط التي لا يعتنى بنقشها، وفي كتابتها خفة وتكسير، ويمكن أن ينقشها على الحجارة والصخور كل من تعلم قدرًا من القراءة والكتابة، ودون أي إتقان، فهي أقرب ما تكون إلى المخربشات (Graffiti) أو الكتابات غير المجودة. وقد جرت العادة على تقسيم هذه الكتابات اللينة إلى ثلاث مجموعات رئيسية هي النقوش الصفوية ومجموعة النقوش التيمائية والديدانية واللحيانية والإحسائية. ولا تتميز هذه المجموعات بمحتوى كتاباتها فحسب، وإنما هناك اختلافات واضحة في رسم حروفها أيضًا، كما أنها في الوقت نفسه قريبة الشبه من خط المسند التذكاري، ولا تكاد تخالفه إلا قليلا.

وإذا كانت هذه المخربشات أو الكتابات غير المجودة بأنواعها هي كتابات عرب شمال جزيرة العرب إجمالا قد دونت بعربية قريبة الشبه بالعربية المحضة التي تجلت بعد ذلك في أروع صورها في لغة التنزيل، فإن النقوش التذكارية المكتوبة بخط المسند قد كتبت إجمالا بلغة عربية عتيقة يجوز أن نسميها باللغة السبئية. وتسمى في كتب الأخبار والتاريخ بكلام حمير أو لسان حمير، وهي لغة ميتة انقطعت هي وخطها عن الاستعمال قبل الإسلام. وقد عثر على معظم هذه النقوش في اليمن وعثر على عدد وافر منها في حفريات قرية ألفاو وفي العلا. وبلغ ما نشر منها الآلاف، على تفاوت في الحجم، فمنها ما هو قصير لا يتجاوز بعض الكلمات، ومنها ما هو طويل قد يبلغ ألف كلمة أو أكثر. ولهذه النقوش التذكارية فضل كبير في صياغة الصورة التاريخية واللغوية القديمة لبلاد اليمن خاصة والجزيرة العربية عامة. ويستدل مما توافر من هذه النقوش، على أن أقدم هذه النقوش يعود تاريخها إلى حوالي القرن الثامن قبل الميلاد. بل إن بعض الدراسات الأحدث يرجع تاريخها إلى أقدم من ذلك، ودام استخدامها زمنًا يقارب الخمسة عشر قرنًا، وتؤرخ أحدث تلك النقوش إلى حوالي منتصف القرن السادس الميلادي.

وفي السنوات الأخيرة عثر في اليمن على نوع جديد من الكتابات المنقوشة على عيدان الخشب أو عسب النخل، وتبين بعد حل رموزها، وبعد دراسة نماذج من محتويات هذه النقوش أنها تعنى بالدرجة الأولى بالمراسلات والمعاملات اليومية، أما من حيث خطها فهي مكتوبة بخط سريع مكسر مشتق من خط المسند التذكاري وبعض حروفه تشابه بعض حروف خطوط المخربشات السالفة الذكر مما يؤكد اشتقاقها أيضًا من خط المسند.

ويلاحظ أن بعض النقوش الصفوية واللحيانية تحوي قرائن دالة على تاريخها المتأخر بخط المسند ومنه نقش مكتوب بالخط النبطي وخط البادية يعود تاريخه إلى حوالي 267 م.

وهناك فئة ثالثة من النقوش العربية التي عثر عليها عمومًا في شمال الجزيرة العربية ووسطها وهي ما نسميها بالنقوش العربية وهي مدونة بكتابة الأصل المباشر للخط

العربي المعروف. ويستبعد الباحثون الاشتقاق المباشر للخط العربي من الخط المسند، فلدى مقارنته بخط المسند المكسر المنقوش على الخشب والذي يحمل إمكانية وصل الحروف يتضح بعد الشقة بين أشكال حروف هذا الخط وأشكال حروف النقوش العربية المبكرة، مثل خط نقش النمارة ونقش أم الجمال وغيرها. وهذا لا يعني في نهاية الأمر أن المرء يستبعد الأصل المشترك للخطين في مراحل تطور الخطوط الأولى.

إن هذه النقوش بنوعيها المجود خطها وغير المجود وإن اختلف الناس عليها، تعكس إجمالا ملامح الصورة التاريخية للحياة العربية قبل الإسلام، في إطار جزيرتهم شمالاً وجنوبًا، حياة المدر وحياة الوبر، وحياة تقوم على الاستقرار والعمران وحياة تقوم على التنقل بحثًا عن الماء والكلا، بالرغم من أنه كان هناك بين الحياتين تواصل مستديم، تربطهما طرق التجارة والواحات المنتشرة التي تتوافر فيها شروط ملائمة لإقامة بعض النشاط الزراعي أو مسافة كافية وموقع مناسب لتكون محطات على طرق القوافل وهي تقطع القفار والنجود شمالا وجنوبا وشرقًا وغربًا وبالعكس، فمن خلال النقوش السبئية يستطيع الباحث أن يستنبط معالم تاريخ الحياة الحضرية في جنوب جزيرة العرب وبدراسة النقوش اللحيانية وخط البادية والصفوية وما شابهها يمكن للمرء التعرف إلى الصورة التاريخية للحياة البدوية والحضرية في وسط الجزيرة وشمالها.

وقد دلت هذه النقوش إجمالا على تلك الأقوام العريقة التي عاشت في جزيرة العرب قبل الإسلام، فعرفنا منها الكثير، عن السبئيين والحميريين والمعينيين والقتبانيين والحضرميين، في مراكز الحضارة من جنوب الجزيرة العربية. وعرفنا أيضا معلومات كثيرة عن عدد من الأقوام العربية الأخرى التي عاشت في وسط الجزيرة وشمالها، مثل الديدانيين واللحيانيين والصفويين من خلال النقوش التي كتبوا بها والقرائن التاريخية المتواترة الأخرى التي دلت عليها أو عزرت ما ذكرته النقوش عنها.

وفي العدد الأول من مجلة ريدان عام 1978م قرأت فيما قرأت فيه إعادة نشر بعض النقوش للأستاذ زيد عنان التي كان قد نشرها ضمن كتابه تاريخ حضارة اليمن القديم والذي صدر في عام 1976. وهو الذي رافق المكتشف الأمريكي ويندل فيلبيس في مأرب عام 1952/1951 ، ونقل بعض نقوش محرم بلقيس . وقد شد اهتمامي في تلك النقوش ، النقش رقم (1).

وكان زيد عنان قد شرحه في كتابه بإيجاز شديد. وذكر أن في النقش كلمات غير معروفه وأنه يحتاج إلى دراسة أكثر فلعل هنالك عبارات سامية قديمة .

أجل!! يصادف المرء كلاماً جديداً في نقش زيد عنان مما لم يعهده من قبل في النقوش اليمنية القديمة، بل إنه يتعذر على القارئ إدراك المعنى بيسر إن هو وفق في آخر الأمر إلى شيء من ذلك . إن كتابة النقوش تهمل أصوات اللين وعلامات الإعراب والوصل والمد والتشديد، بل ونجهل حقاً كيف كان يتكلم بلغة النقوش قديماً. ولذلك فنحن نجتهد في ذلك مقارنة باللغة العربية المحضة أو بما قاربها من اللغات. إن قراءة النص هذا تعترضه أيضا مصاعب جمة، حتى وإن ظهر في مبناه ما يشبه الشعر الموزون المقفى. كما أن وجود الفاصل بين الكلمات في النقش يثير الشك في صحة الشكل الشعري ، ولا ندري إن كانت الفواصل قد أهملت في الأصل في نهاية كل سطر أم لا؟ والعادة أن تكون مهملة . ونحن مقيدون على كل حال بنص زيد عنان كما هو وقد أهمل عنان في رسمه للنقش التقيد بحدود الأسطر الأصلية كما أسلفنا. وأورد هنا طرفاً من نص نقش عنان كما نشره (بافقيه وروبان) في مجلة ريدان (1) ووفق ترتيبهما:

10 - وكل اضررن حسل

11- همسك مرأن بلل

12- كل ذعلي وس (ف) ل
13- كهل بحت ذوهن ذرح
14- هردأ ذو ملوب رزح

ولكن يبدو أن تفسير نص كهذا، بلغته هذه التي تغاير اللغة (الرسمية) المعهودة في النقوش أمر غير يسير، في هذه المرحلة من تاريخ علم النقوش اليمنية القديمة، إذ إننا بحاجة إلى عدد كاف من النصوص الموثقة بصورها الفوتوغرافية وسليمة في مجملها، دون تشويه وانطماس، بحيث نتمكن من القيام بدراسة أصيلة يبنى عليها حكم مفيد، يسهم في تمهيد الطريق أمام مجال أدب اليمن القديم الذي مازلنا نأمل أن يبرز يوماً، من خلال النقوش التي تعتبر مصدرًا رئيسياً لتلك الفترة.

وفي الموسم الأثري للبعثة الأمريكية لدراسة الإنسان عام 2004م خلال التنقيب في محرم بلقيس (معبد أوام) في مأرب عثر على صورة نقش زيد عنان المذكور وتبين أن النص فعلاً أنشودة ولكن مع تعديلات على النسخة الأولى التي فيها كثير من الأخطاء، كما أن ترتيب النقش في الأصل يختلف عما دونه زيد عنان أو حتى عما أعيد نشره ودراسته في العدد الأول من مجلة ريدان عام 1978م. وفيما يلي نص الأنشودة كما ظهر في الصورة ودلت عليه كلمة "سمودتن" والسمود هو الغناء بلغة حمير ... قال تعالى ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ (النجم:61) وفسر ذلك باللهو كما فسر بالغناء (اللسان مادة سمد).

بكهل ذلب صلل
وسط أوام هلك عضل
ولمحرمك دأسك مثل
ذأقدم لك فعل
بكهل كبهي آل ذ ذبرك
لجبأ شرق لك
وألأل أخذ يدك
ضرك تعرب لك
بكهل كبلو ثون كهل
وكل أضررك حسل
خمسك مرأن بلل
كل ذ علي وسفل
بكهل بحت ذوهن ذرح
هردأ ذملوب رزح
ألمقه ذهسكر أرمح
تحزك أخمس رضح
بكهل كبمو ملكك تريم
خمسك جبأ لنعم
وهن أضرر تحتك هلجم
أيم ثون قدم
بكهل كل فق
هردأ بشرق ألمق
ذلوب أفق
وهن أضرر تحزك أفق

والأنشودة قدمت نذراً إلى المعبود ألمقه (إله القمر) في معبد أوام بمأرب إضافة إلى تمثالين من البرونز أحدهما يمثل الثور والآخر يمثل الوعل وكلاهما رمز لمعبودي سبأ الرئيسيين. ويلاحظ المرء أن الأنشودة مكونة من ست رباعيات وكل رباعية تنفرد بقافية واحدة . وإذا كان وزن هذه الرباعيات غير معروف بحكم رسم الحروف وإهمال أصوات اللين وعدم معرفتنا بالنبر لتلك اللغة السبئية القديمة فان القافية تدل بوضوح على أن النص برباعياته هو شعر بالدرجة الأولى .

وفي عام 1977م عثرت على نص منقوش على صخرة لأول مرة في إحدى رحلاتي الأثرية في وادي قانية بناحية السوادية باليمن . ويشاء الله أن يكون هذا النص اكتشافاً عجيباً لم يعثر على شيء مثله ، وحتى الآن بعد ربع قرن من اكتشافه، في بلاد اليمن كله والجزيرة. وقد تبينت أهمية النص في اللحظة التي شاهدته فيها لأول مرة ولكن النص جابهني بمشكلتين كبيرتين:

الأولى تتمثل في صعوبة قراءة الجانب الأيمن من النقش الذي كان مشوهاً ، ولا يكاد المرء يتبين حروفه، وقد اختلط حفر النقش على الصخرة بالخدش المتعمد الذي لحقه بحيث لم يتبق سليماً إلا الجانب الأيسر منه والذي تبدت لي

حروفه ممكنة القراءة، وهكذا حكم على قارئ النص منذ البداية أن يقتصر على قراءة حروف النصف من كل سطر وان يعمل بكل ما أوتي من علم ودربة على إعادة تركيب النصف الأول إن قدر على ذلك . ولكن هيهات أن يتسنى له حتى مثل ذلك مادام النص يجابهه بمشكلة كبرى أخرى لا تقل عقدتها عن سابقتها ، وهي أن لغة النص تكاد تكون لأول وهلة غير مفهومة وربما غير معلومة، إذ لا يكفي القارئ المختص في المادة عادة أن يكون النص أمامه مكتوبا بخط المسند فيقرأه فما بالك بنقش لم يعثر من قبل على ما يشابهه مبنى أو ما يشاكله معنى .

وإذا كان بالإمكان أن يكون مضمون هذا النص اليمني القديم هو دعاء استسقاء فما هو شكله؟ وأي نوع من أنواع الكتابة والإنشاء ؟ أو قل هل يندرج النص ضمن أي نوع من أنواع الأدب نثرًا كان أم شعراً؟

إن أبرز ما في هذا النقش هو خاتمة كل سطر فيه، حيث يتكرر حرفان هما الحاء والكاف في كل سطر ، وإن عدد حروف كل سطر تتراوح بين ثلاثة عشر حرفاً وسبعة عشر حرفاً والغالب هو ستة عشر . بالرغم من أن انعدام أصوات اللين والحركات " يقتل" أية محاولة مثمرة لدراسة التفعيل إن وجدت، إلا أن لزوم الحاء والكاف في آخر كل سطر سبعاً وعشرين مرة متتالية يغري باعتبار ذلك قافية ممكنة.

وتبين لي أن الكلمة الأخيرة ينبغي أن تكون فعلا وأن الكاف لا بد وان يكون ضميرًا متصلا وأعلم أن الكاف ضمير متصل في اللغة الحبشية والأكدية وأنه الأصل في ضمير الرفع المتصل، ويقابل ذلك التاء في عربيتنا كقولك (قمتُ وقمتَ وقمتِ). ولم نكن نعرف من قبل في اللغة اليمنية القديمة ضمير الرفع المتصل وإن كنا نعرفه في بعض لهجات اليمن اليوم.

وعلمت في معنى النقش بعض أمور وغابت عني أشياء كثيرة وحاولت أن أطبق أوزان العرب وقارنت ذلك ببعض الموروث

واللغات الأفريقية المجاورة. فتبين لي أن الكلام ربما كان قائما على أوزان ((كيفية)) وليس ((كمية)) تنبر نبرا، كقولك في بحر المتقارب فعلن فعلن فعلن إلى آخره. أو ببحر الرجز مستفعلن مستفعلن وليس كقولك في بحر الطويل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن.

ولكن ليس لدينا من دليل يهدينا إلى موضع النبر في لغتنا العربية كما كان ينطق بها في العصور الإسلامية الأولى إذ لم يتعرض له أحد من المؤلفين (1). ومواضع النبر في اللهجات قديمة أو حديثة قد تحكمها عوامل مختلفة، مما يجعل الحديث عن الكيفية التي كان أهل اليمن القدماء في أرض مراد مثلا ينطقون بها هذا الضرب من الكلام أمراً متعذرًا . على أن ذلك لا يكون في الغالب حكماً نهائياً وإنما يمكن لمحاولات عدة إعادة بناء ما يمكن أن يشبه ذلك النسق الشعري.

وكان معبود (إله) يعبد في هذه المنطقة هو الشمس بخلاف كثير من مناطق اليمن حينذاك. وللشمس معبد كبير في جبل شحرار المذكور وكانوا يلقبونها عالية وهو لقب معروف عند غيرهم أيضاً. ولها معبد آخر عثرت عليه في سوق الليل شرق قرية الخرابة الواقعة بين الأغوال وردمان، وهو معبد مستطيل حوالي (25 x30) مترًا ومازالت صفوف من حجارته المهندمة باقية. وشاهدت بعض المواطنين يقومون بتكسير تلك الأحجار وبتهديم آثار ذلك المعبد القصي والذي يمثل بناء بديعيًا كما تنبئ عنه آثاره.

على أن ما يمكن الإشارة إليه هو أن هذا النمط من النصوص مألوف في الشرق القديم عموماً، ومع ذلك فهو نص جديد ومثير بالنسبة لليمن القديم ، ويعكس شيئًا من ثقافة عرب اليمن قديمًا. كما أنه يخرج عن إطار ما نألفه في أشكال آلاف النقوش اليمنية ومضامينها، والتي وصلتنا إلى اليوم. وربما كان (نقش عنان) السابق ذكره هو أقرب نصوص النقوش اليمنية القديمة إليه. فهو مثله يعتمد القافية ويتضمن نشيداً يتقرب به إلى المعبود. وهو هنا هي الشمس وهي معبودة المطر عندهم ،كما تبين نقوش أخرى، فالنص لا يخلو بالفعل من موضوع الابتهال والاستسقاء وكأنه (أنشودة المطر) حقا . وفيما يلي نقل لمبنى النقش ومحاولة لنقل المعنى .

نقل المبنى:

نشترن/ خير/ كهذ/ هحك
بصيد/ خنون/ مأت/ نسحك
وقرنو/ شعب/ ذقسد/ قسحك
ولب/ علهن/ ذيحر/ فقحك
وعليت/ أأدب/ صلع/ فذحك
وعين/ مشقر/ هنبحر/ وصحك
ومن / ضرم/ وتدًا/ هسلحك
ومهسع/ يخن/ احجي/ كشحك
ونوي/ تفض/ ذكن/ ربحك
وصرف/ ألغذ/ دأم/ ذ وضحك
وجهنللت/ هنصنق/ فتحك
وذي/ تصخب/ هعسمك/ برحك
وين/ مزر/ كن/ كشقحك
ورسل/ لثم/ ورم/ فسحك
وسن/ صحح/ دأم/ هصحك
وكل/ يرس/ عرب/ فشحك
وكل/ أخوت/ ذ قسد/ هبصحك
ولليت/ شظم/ دأم تصبحك
وكل/ عدو/ عبرن/ نوحك
وكل/ هنحظي/ املك/ ربحك
وأك/ ذ تعكد/ أرأ/ كفقحك
ومن/ شعيب/ عرأن/ هلجحك
وجب/ يذكر/ كلن/ ميحك
حمدن/ خير/ عسيك/ توحك
هنشمك/ هندأم/ وأك/ صلحك
هر دأكن/ شمس/ وأك/ تنضحك
تبهل/ عد/ أيسي/ مشحك
وكل/ هنحظي/ املك/ ربحك

نقل المعنى :

نستجير بك خير فكل ما يحدث هو ما صنعت
بموسم صيد خنوان مائة أضحية سفحت
ورأس قبيلة "ذي قسد" رفعت
وصدر علهان ذي يحير شرحت
والفقراء في المآدب خبزًا أطعمت
والعين من أعلى الوادي أجريت
وفي الحرب والشدة قويت
ومن يحكم بالباطل محقت
وغدير "تفيض" لما نقص زيدت
ولبان "إليعز" دائمًا ما بيضت
وسحر اللات إن إشتد ظلامه بلجت
ومن يجأر ذاكرًا نعمك رزقت
والكرم صار خمرًا لما أن سطعت
وللإبل المراعي الوافرة وسعت
والشرع القويم صحيحًا أبقيت
وكل من يحفظ العهد أسعدت
وكل أحلاف ذي قسد أبرمت
والليالي الغدر بالأصباح جليت
وكل من أعتدى علينا أهلكت
وكل من بطلب الحظ مالاً كسّبت
ورضي من تعثر حظه بما قسمت
وفي "الشعيب" الخصب أزجيت
وبئر "يذكر" حتى الجمام ملأت
الحمد يا خير الذي وعدت به اصلحت
اعنتنا يا شمس إن أنت أمطرت
نتضرع إليك فحتى بالناس ضحيت

والمعروف أن النصوص الأثرية المكتوبة بالخط العربي واللغة العربية الفصحى وعثر عليها على حالتها الأولى وكما رسمها كاتبها في القرن الأول الهجري قليلة ونادرة وقد جمعها منذ زمن العلامة جروهمان وهي لا تزيد كثيراً على ثلاثين نصاً وان كانت قد زادت عن ذلك كثيراً منذ صدر كتابه إلى اليوم ومن هذه النصوص ماوجد على أوراق البردي أو شواهد قبور أو نقوش تذكارية أو نصوص مسكوكات ولا سيما ما كتب على الدينار العربي الذي نقشت عليه صورة الخليفة

الأموي عبدالملك بن مروان والبسملة وعبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله وسنة الضرب وتتراوح بين 74- 77 هـ.

ومن خلال الأبحاث والاكتشافات والمسوحات الأثرية في المملكة العربية السعودية التي أجريت بكثافة في السنوات الأخيرة نعرف أنه عثر على عدد لا بأس به من النقوش الصخرية المؤرخة التي يعود تاريخها إلى القرن الأول الهجري وبعده مثل النقش الذي كشفت عنه البعثة اليابانية في مدينة ينبع ونصه : "كتب سلَمَه ثلاث وعشرين" والذي سينشر في حولية "أطلال" في العدد 18 لعام 1426هـ/ 2005م. وبعده نقش زهير الذي عثر عليه الدكتور علي غبَّان مؤخراً ونصه:

(بسم الله – أنا زهير كتبت زمن توفي عمر سنة أربع وعشرين) وهو ثاني أقدم نقشين صخريين إسلاميين مؤرخين حتى الآن وبعدهما بردية اهناسيا

وكذلك نقش خالد بن العاص مؤرخ سنة (40هـ) درب زبيدة، ونقش عبدالله بن ديرام مؤرخ (46 هـ) نجران ، ونقش سد معاوية ابن أبي سفيان مؤرخ (58 هـ) الطائف ، ونقوش أخرى على طريق الحج الشامي مؤرخة (80 هـ) و(83هـ) و (91هـ).

وللرقوق القرآنية التي عثر عليها عام 1972م بالجامع الكبير بصنعاء فائدة كبرى في دراسة أصول الخط العربي وتطوره، ناهيك بفائدتها في دراسة الرسم القرآني وفي إلقاء الضوء على عدد من مسائل الخلاف التاريخية واللغوية والثقافية.

ومبلغ العلم أنه لم يعثر بين تلك الكتابات الباقية من القرن الأول الهجري على نصوص شعرية قليلة أو كثيرة، والعثور على أي نصوص شعرية من هذا القرن منقوشة على الصخر أو مكتوبة على أي مادة أخرى توفر مادة مهمة للباحثين وتعزز الأدلة التي تدعم صحة القول بوجود تدوين للشعر الجاهلي سبق فترة تدوينه في القرن الثالث الهجري وربما كان أساسًا أعتمد عليه العلماء الرواد بعد ذلك بقرنين.

وقد نشر الأخ الصديق الكريم سعد عبد العزيز الراشد وكيل وزارة المعارف السعودية لشئون الآثار والحضارة كتابًا مهمًّا بعنوان: كتابات إسلامية من مكة المكرمة(1995م) . والكتاب يعنى بدراسة ونشر لمجموعة من النقوش العربية المنقورة على الواجهات الصخرية في منطقة مجاورة لصعيد عرفات وفي المعيصم بالقرب من منى.

وبالرغم من أن تلك النقوش لم تكن مجهولة تماماً لدى الأهالي وبعض المهتمين؛ إلا أنها لم تلق العناية من الباحثين أو الرحالة ، كما أنها بقيت فترة طويلة من الزمن بعيدة عن اهتمام الجهات المسؤولة ولم يسبق لها أن نشرت نشراً علمياً بحيث تصبح قيد التناول ، كما أشار إلى ذلك المؤلف.

ومعظم هذه النقوش النثرية والشعرية التي نشرها الزميل الراشد نقشت بخط جميل متقن بحيث ترسم صوره صادقة للخط المكي والحجازي في القرون الأولى للهجرة وتمدنا بمعارف جديدة عن الناس واستيطانهم والوضع الثقافي الذي كان في مكة المكرمة ذات المكانة الدينية والعلمية في قلوب المسلمين جميعاً.

وتظهر الآيات القرآنية المنقوشة على الصخر برسمها القديم دون تنقيط أو تشكيل واضحة وجلية كما نقرأها اليوم في المصحف الشريف دون أي اختلاف مما يزيدنا إيماناً ويقيناً وتدحض شبهات المفترين.

ولا شك أن تلك النصوص الشعرية القليلة تعكس أيضاً صورة صادقة وأصيلة دون نقل أو نسخ لحالتها الأولى كما دونها كاتبها ، علماً بان الكاتب لم يكن هو القائل (أو المؤلف للنص) كما يستفاد من قوله في آخر النص (وكتبه وليس قاله) وما أشبه ذلك ، علماً بأن ليس بين كتابها المذكورين من اشتهر شعره في المصادر.

وفيما يلي نقشان من أربعة نقوش شعرية نشرت في الكتاب : الأول مؤرخ بين أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني وأرخه المؤلف بالقرينة، ورقمه 28 . (معظم النقوش المنشورة مؤرخة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالقرنين الأول والثاني الهجريين وسبعة منها مؤرخة بوضوح في الربع الأخير من القرن الأول الهجري).

النقش الشعري الأول ورقمه 28 كتب على واجهة صخرية وبمساحة 94x22 سم ويتضمن نص بيت شعر يرد ذكره بالمصادر وينسب إلى الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص ، بل البيت على الأرجح من قصيدته المشهورة التي عدها بعضهم من المعلقات ونظمها على مخلع البسيط ومطلعها:

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

والبيت المنقوش هو:

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

وإذا كان ابن سلام قد شك في شعر عبيد لقلته واضطرابه فإن مرجليوث قد اتخذ من البيت المذكور دليلاً على أن قائل الشعر كان يخشى ما يغضب الله من الذنوب . ومع ذلك فان هذا البيت مدون من حوالي القرن الأول للهجرة و لا يمكن أن يكون قد وضعه أحد الرواة المتهمين بالوضع في القرن الثالث الهجري مثل حماد عجرد ، وللبيد اليوم ديوان منشور .

النقش الشعري الثاني رقمه في المجموعة 17 وقد نقش على كتلة صخرية في منطقة "الحرمان" على مساحة 52 x122 سم ويتضمن بيتين معروفين من الشعر واسم كاتبهما وتاريخ الكتابة : وكتب أبو جعفر بن حسن الهاشمي سنة ثمان وتسعين.

افنا (افنى) الجديد تقلب الشمس
وطلوعها من حيث لا تمسي
وطلوعها بيضاء صافية
وغروبها صفراء كالورس

ويذكر الراشد أن الجاحظ أورد هذين البيتين في كتابه البيان والتبيين ضمن مقطوعة من ثلاثة أبيات ونسبها إلى أسقف نجران . والبيت الثالث هو:

اليوم أعلم ما يجيء به
ومضى بفصل قضائه أمس

مع اختلاف في الرواية (منع البقاء) بدلا من أفنا الجديد) و (تصرف الشمس) بدلا من (تقلب الشمس).

وفي رواية للقالي في أماليه أن عبدالملك بن مروان قال لجلسائه : أنشدوني أكرم أبيات قالتها العرب ، فقال روح بن زنباع هذه الأبيات على اختلاف في الترتيب . فقال : أحسنت .

وقد أورد نشوان بن سعيد الحميري في شرح قصيدته (14 بيتاً) منسوبة إلى تبع الأكبر من شعر طويل على نفس البحر والروي ، وتبدأ بالبيتين المنقوشين مع اختلاف في قوله (منع البقاء) بدلا من (افنى الجديد).

منع البقاء تقلب الشمس
وطلوعها من حيث لا تمسي
وطلوعها بيضاء صافية
وغروبها صفراء كالورس
تجري على كبد السماء كما
يجري حمام الموت للنفس
اليوم أعلم ما يجي به
ومضى بفصل قضائه أمس
وتشتت الأهواء يخالجني
والغزو نحو مطالع الشمس
وأنا الهمام الحميري على
نجم السعود ولدت لا النحس

إلى أن يقول:

أيقنت أني سوف أحصل في
من قد مضى ويضمني رمسي
ولسوف يفنى الناس كلهم
طرًا وما في الأرض من جنس
وأعوذ بالملك المهيمن من
ماغال بالبأساء والرجس

نحن نعرف أن تبع الأكبر لم يقل هذا الشعر فهو من ملوك حمير . وإن صح قولهم للشعر فينبغي أن لا يكون بلغة نجد والحجاز أو باللغة العربية المحضة . ومن المرجح أنه قيل على لسان تبع الأكبر من شعراء اليمن في الجاهلية المتأخرة . والأرجح أن الأشعار المنسوبة إلى تبع الأكبر

أو إلى أسعد الكامل وهي كثيرة لا يمكن أن تكون لهما؛ لأن تبعًا الأكبر وأسعد عاشا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين وفي فترة ازدهار اللغة السبئية (الحميرية).

ويستدل من لغة هذه الأشعار الملحمية التي تتناول في الغالب ذكريات مجد غابر بنفس ملحمي وفي إطار موضوع المصير وتعاقب الليل والنهار والبقاء والفناء أنها قيلت في القرن الأول الهجري من أهل اليمن أو في أحسن الأحوال قبل ذلك بزمن يسير . وكان بدو اليمن حينها يتحدثون بلغة نجد والحجاز كما أسلفنا . وهي الفترة التي اشتهر فيها الشاعر اليمني علقمة ابن ذي جدن وابن مفرغ الحميري 69 هـ وأعشى همدان 83هـ وبعضهم كان قد عاش في المدينة . وهي أشعار قيلت وفق أساليب النظم التي عرفها العرب قبل الإسلام وبعده .

وذكروا أن عبيدًا بن شرية الجرهمي المصدر الرئيس لأخبار اليمن كان يحدث في مجلس معاوية بن أبي سفيان . ويروى أن معاوية كان يأمر أهل ديوانه وكتابه أن يوقعوا أحاديث عبيد تلك. وكثير من الشعر الجاهلي بعضه صحيح منسوب إلى شعراء معروفين ولكن البعض الآخر منحول مثل الشعر الذي نسبه إلى يعرب بن قحطان وإلى عاد وثمود. وكان علماء اللغة يهملون هذا الشعر ولا يستشهدون به إلا قليلا ، حتى أتى الحسن بن أحمد الهمداني في القرن الرابع الهجري وضمنه مؤلفاته مثل الإكليل والصفة والدامغة وتلاه نشوان بن سعيد الحميري في القرن السادس الهجري الذي يكثر من الاستشهاد بشعر أهل اليمن الملحمي في معجمه شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم .

وإذا ما وضع المرء اختلاف المصادر في نسبة الأبيات إلى قائلها جانبًا وكذلك اختلافهم في بعض ألفاظها، فإنه يجد أمامه شعرًا قديمًا مدونًا على حاله الأولى كما فرغ من كتابته الكاتب عام98 هـ أي في فترة حكم الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك.

والأبيات مما دونه العلماء والرواة في القرن الثالث الهجري بعد ذلك ، ومما تنطبق على مبناه حدود الشعر وأعاريض الخليل بن أحمد ومعاني الشعر الحكمي عند العرب . ومما يلفت النظر انتهاء النقش بعبارة وكتب أبو جعفر بن حسن الهاشمي وهو خلاف لما هو معهود رواه فلان .

على أن ما يميز مجموعة سعد الراشد عن غيرها من نقوش القرن الأول الهجري بالإضافة إلى كونها نقوشًا مهمة تأتينا من محيط أم القرى هو وجود نصوص شعرية فيها . ومبلغ العلم أن نصوص القرن الأول الهجري الباقية على أصلها خالية من الشعر ، ولهذا ربما كانت نقوش مكة هذه أقدم تدوين يصلنا للشعر العربي قبل الإسلام وبعده وبلغة القران الكريم وبالرسم العربي المكي وبالصيغة التي أوصلها لنا بعد ذلك رواة الشعر وجامعوه ومدونوه في القرن الثالث الهجري. أي أن هذه الأبيات الشعرية المدونة على صخور ضواحي مكة المكرمة على قلتها دليل قاطع ظاهر للعيان على أن تدوين الشعر كان قائمًا قبل القرن الثالث الهجري. وهو دليل مادي يضاف إلى غيره من الأدلة النقلية والعقلية التي ترد على القائلين بأن الشعر العربي القديم نقل بالرواية الشفهية فقط، واعتبروا ذلك سببًا يدعو إلى الشك في صحته . وإذا علم المرء أن الأبيات التي وردت في نقوش مكة تمثل على الأرجح شعراً جاهليًا فلابد له أن يتذكر معركة طه حسين وشكه في الشعر الجاهلي قبل أكثر من ثمانين عاماً.

وهل يا ترى أن مثل هذه النصوص على قلتها يمكن أن تسد ثغرة نفذ منها أديب كبير مثل طه حسين وأقام الدنيا وأقعدها وملأ ضجيج شكه أذن الدنيا وشغل الناس ؟ وهل تقدم الدليل القاطع على صحة الشعر الجاهلي مادام قد ثبت تدوين بعضه ؟

هل كان هناك تدوين لغوي أدبي قبل الإسلام أو في القرن الأول الهجري ؟ الجواب نعم!! بدليل أن القرآن الكريم الذي أنزل على سيد الأنبياء والمرسلين كان قد دون خير تدوين بما لا يدع مجالاً لأي شك في القرن الأول الهجري .

وقد دلت الشواهد النقشية المبكرة مثل نقوش مكة المكرمة والتي نشرها سعد الراشد (1995م) وكذلك الرقوق القرآنية المبكرة التي عثر عليها في سقف الجامع الكبير بصنعاء على أن التدوين في القرن الأول الهجري كان قائماً فعلاً. وبما أن تلك النقوش و الرقوق قد دونت على الصخور والرقوق بخط واضح وجميل ولم نجد فيها ما يشير من قريب أو بعيد إلى أي تغيير في النص، فان ذلك يقطع دابر المرجفين من المستشرقين الذين يدعون أن للنص القرآني تاريخاً، وهو قول مردود عليهم . قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9) .

إن الأبيات الشعرية التي عثر عليها في محيط مكة المكرمة منقوشة على الصخر ومؤرخة من القرن الأول الهجري تدل بوضوح على أن الشعر كان يدون في تلك الفترة، بل قبل ذلك بكثير . خاصة وأن تلك الأبيات قد وردت في المصادر وصنفت ضمن ديوان الشعر الجاهلي .

و في بعض النقوش التي عثر عليها في اليمن في السنوات الأخيرة و الكتابة على عُسُب النخل وغيرها من الخشب بخط الزبور اليماني ما يشبه الرسائل والمكاتبات الإخوانية .

وفي بعض النقوش العربية مما دون قبل الإسلام بخط قريب الشبه بالخط العربي مثل نقش النمارة أو مما دون بخط المسند مثل نقوش الفاو وعبارات أدبية دالة تخرج عن النمط الصارم والمكرر والأسلوب الديني المألوف .

لقد كان التدوين عموماً وللشعر خاصة معروفاً قبل الإسلام وهو أمر كما نرى ليس بادياً للعيان ، إذ أننا نرى الوثائق في ذلك من خلال الشواهد الأثرية كما فرغ أصحابها منها بالأمس.

د. يوسف محمد عبدالله

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية :

– ابن الأبرص، عبيد 1957م.
ديوان ابن الأبرص(تحقيق وشرح حسين نصار،الطبعة الأولى ، القاهرة) .

– ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد 1966م .
الكامل في التاريخ (دار صادر، بيروت، لبنان) .

– الأنصاري، عبد الرحمن الطيب وآخرون 1984م .
مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية ـ العلا، الحجر (جامعة الملك سعود، الرياض).

– الأنصاري، عبد الرحمن الطيب 1982م .
قرية الفاو، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية (الرياض) .

– بافقيه، عبدالقادر محمد؛ و كريستيان روبان 1978م .
إعادة نشر بعض نقوش زيد عنان (مجلة ريدان العدد الأول، عدن).

– البلاذري، أحمد بن يحيى 1959م .
أنساب الأشراف (تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة).

– بيتراتشك، كارل 1970م .
الأنساق الشعرية في اليمن وأهميتها في دراسة الأنساق الحبشية (المؤتمر الثالث للدراسات الإثيوبية) .

– بينشتدت، بيتر 1985م .
أطلس اللهجات اليمنية (فيسبادن، ألمانيا) .
الجزء الثاني، جامعة هيلاسلاسي، أديس أبابا).

- **حسين، طه 1956م .**
في الشعر الجاهلي(القاهرة).
- **الحميري، نشوان بن سعيد 1978م .**
ملوك حمير وأقيال اليمن (قصيدة نشوان الحميري، تحقيق إسماعيل الجرافي وعلي المؤيد، الطبعة الثانية، دار العودة - بيروت، دار الكلمة صنعاء).
- **الحميري : نشوان بن سعيد 1999م .**
شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (تحقيق: حسين العمري، مطهر الأرياني، يوسف محمد عبد ال،له دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر دمشق) .
- **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر د.ت .**
البيان والتبيين (دار الكتب العلمية) .
- **الراشد، سعد عبد العزيز 1995م .**
كتابات إسلامية من مكة المكرمة (مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض).
- **الراشد، سعد عبد العزيز 1992م .**
نقش مؤرخ من العصر الأموي (دراسات في الآثار: الكتاب الأول، بحوث علمية، قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ص 266 – 268، الرياض).
- **ريكمنز، جاك؛ والتر موللر ؛ يوسف محمد عبد الله 1994م .**
نقوش خشبية قديمة من اليمن (منشورات المعهد الشرقي في لوفان - 43- لوفان الجديدة، بلجيكا) .
- **عبد الله ، يوسف محمد 1988م .**
نقش القصيدة الحميرية أو ترنيمة الشمس، صورة من الأدب اليمني القديم (مجلة ريدان، العدد الخامس).
- **عبد الله، يوسف محمد 1986م .**
خط المسند والنقوش اليمنية القديمة (دراسة لكتابة يمنية
قديمة منقوشة على الخشب) (مجلة اليمن الجديد، العدد (6) السنة (15) ص ص10-38، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء) .
- **عبد الله، يوسف محمد 2002م .**
رسالة من امرأة بخط الزبور اليماني (دراسة لنقش جديد)(مجلة المسند العدد الأول، صنعاء) .
- **عنان، زيد 1976م .**
تاريخ حضارة اليمن (صنعاء) .
- **غبان، علي إبراهيم 1992م .**
نقش غير منشور من بلدة المولح مؤرخ بعام 976 هـ/1560م (دراسات في الآثار: الكتاب الأول "بحوث علمية محكمة، قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب) .
- **القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم 1925م .**
كتاب ذيل الأمالي والنوادر (دار الكتب العربي، بيروت).
- **الهمذاني، الحسن بن أحمد د.ت .**
الإكليل (طبعات مختلفة).
- **الهمذاني، الحسن بن أحمد 1974م.**
صفة جزيرة العرب (تحقيق محمد بن علي الأكوع دار اليمامة، الرياض).

ب- اللغة والأدب قبل الإسلام :

ربما يكون الحديث عن مجتمع عربي ذي حضارة شاخصة متكاملة الأركان، في عصر ما قبل الإسلام، ضربًا من التساهل الذي قد يبعث عليه نظر أحادي، يستمد أدلته من أحداث ونصوص تقبل أكثر من تأويل .. وفي الوقت نفسه فإن الحديث عن بداوة المجتمع، في ذلك العصر، وانسلاخه انسلاخًا كاملاً عن مظاهر الحضارة، يبقى أعجز من أن يفسر كثيرًا من الشواخص الحضارية، فضلا عن مظاهر تومئ إلى خلفية حضارية كانت ذات فاعلية خفية، أو ظاهرة، في وسم أحداث ومواقف وعادات وتقاليد ومعارف بسمات ترتفع بصورة مجتمع ما قبل الإسلام إلى مستوى المجتمع الممتلك لقدراته الحضارية في حدود الزمان والمكان.

ولكي نؤسس تقويمنا للطبيعة الحضارية التي وسمت لغة العرب وأدبهم قبل الإسلام، يبدو أن علينا أن نستجلي دلالة مصطلح (الحضارة) الذي اتجهت دلالته اللغوية العربية إلى معنى: (الإقامة في الحَضَر، والحَضَر والحَضْرَة، والحَاضِرة خلاف البادية) . واتجهت دلالته اللغوية عند الغربيين إلى المعنى نفسه، فمفردة (civilization) مشتقة من المفردة اللاتينية (Civilis) التي تعني ما ينسب إلى سكان المدينة.

وترتبط أقدم دلالة اصطلاحية سجلها ابن خلدون لمفردة (الحضارة) بالدلالة اللغوية ارتباطًا بيّنا، فهو قد ربط (الحضارة) بالعمران، وجعل (البداوة) أصلا لها، ثم ربط البداوة بالاقتصار على الضروري، والحضارة بالاعتناء بحاجات الترف والكمال.

أما في الدراسات الحديثة، فثمة المنطق المادي الذي يربط الحضارة بالتكامل الاقتصادي المنظم للمجتمع، ويقرر أن:(كل شخص متحضر هو عضو في مجتمع منظم)،وثمة المنطق الفكري الذي يرى أن الحضارة : (لا تعدو أن تكون جماع ما تواضع عليه الناس من أمور وأحوال ورثوها عن آبائهم وأسلافهم، أو ولدوها استجابة لحاجة من حاجات العصر)، وثمة المنطق التوفيقي الذي يرى أن الحضارة: (حصيلة المنجزات الفكرية والتكنولوجية والروحية لمجتمع معين).

وفي ضوء هذه الدلالات الاصطلاحية المتباينة، بدا لبعض الباحثين أن يَسِموا عصر ما قبل الإسلام بالبداوة المطلقة، ويحرموه من أية سمة حضارية، بينما ركز آخرون على حقائق تاريخية، ومظاهر عمرانية وفكرية وقيمية، فقرروا قناعتهم بالوسم الحضاري للعصر.

وليس من شك في أن كلا من الفريقين يصيب قسطًا من الصواب، فثمة حقائق تاريخية قاطعة تقرر أن البداوة كانت الطابع الأكثر وضوحًا لحياة العرب قبل الإسلام، ولكن الحقائق التاريخية نفسها تشير إلى مواطن استقرار حضاري في مدن اليمن في الجنوب، وفي مكة والطائف والمدينة والحجر والبتراء والحيرة و بُصرى في الشمال، فضلا عن أنها تشير إلى دول عربية كان لها استقرارها ونظمها فثمة في الجنوب الدول المعينية والسبئية والحميرية، وثمة في الشمال دول: المناذرة والغساسنة وكندة، بل إن بعض الحقائق التاريخية تقرر أن الجزيرة العربية كانت مهاد هجرات بشرية، أقامت حضارات معروفة تاريخيًا في بلاد الرافدين وسوريا ومصر والحبشة.

وإذ نضع هذه الحقائق كلها في اعتبارنا، ثم نتأمل واقع الحياة العربية في القرون القليلة قبل الإسلام، يكون بوسعنا أن نزعم أن الطابع البدوي الغالب على حياة القبائل العربية المتنقلة لا يصح أن يعمم على الحياة العربية برمتها، بل لا يصح أن يغري بالحكم على القبائل المتنقلة نفسها بالانسلاخ عن جذور حضارية ودينية ظلت تتحكم في أعرافها وتقاليدها وعاداتها، وتهيئ منها المادة المثلى لحمل رسالة

الإسلام نورًا وهدى للعالمين، ثم تتيح لها أن تبني أركان الحضارة العربية الإسلامية التي لاتزال منجزاتها نسغ كثير من منجزات الحضارة الحديثة، وتلك حقائق أقر بها مفكرون غربيون منصفون،قال ويلز ((في القرون التي سبقت ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) كان الفكر العربي أشبه بالنار تحت الرماد، فلما انكشف عنه الرماد بالفتح الإسلامي لمع لمعانًا لم يُعهد أن فاقه فيه إلا الفكر اليوناني، وهو في أسنى أدواره ، فجاء الفكر العربي بشكل جديد، وبقوة جديدة، وعالج علاجًا شريفًا تنمية العلوم الصحيحة نظير ما عالج اليونانيون ، ولقد كان اليوناني أبًا للعلم فجاء العربي وحل محله في هذه الأبوة، وكانت طريقة العربي هي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة، وبكل بساطة، وأن يجلّيها بكل وضوح ، وبكل تدقيق، غير تارك منها شيئا في ظل الإبهام، فهذه الخاصة التي جاءتنا، نحن، الأوربيين، من اليونانيين، وهي ((نشدان الحقيقة))، إنما جاءتنا عن طريق العرب ، ولم تسقط إلى أهل العصر من اليونانيين)).

فإذا اطمأن بنا الاستقراء والتأمل إلى هذا، كان لنا أن ننطلق من هذه القناعة لنرصد أهم المظاهر الحضارية التي وسمت تراث العرب على صعيدي اللغة والأدب.

المظاهر الحضارية - اللغة :

سبق ابن جني إلى تعريف اللغة بقوله الشهير : ((إنها أصوات، يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)) . ولا تخرج التعريفات الحديثة عن مضمون هذا القول الموجز، وإن تباينت اتجاهاتها في الحديث عن الوظيفة الاجتماعية و الحضارية للغة تباينا لا يلغي الاتفاق العام على أن اللغة نظام صوتي يتعارف أبناء المجتمع على دلالاته المادية والذهنية، إرثـًا وتوليدًا وابتكارًا، ليعبِّروا من خلاله عن حاجاتهم، وعلاقاتهم بعضهم مع بعض من جهة، وعن علاقاتهم مع المحيط البيئي و الإنساني من جهة أخرى.

ومن هنا فإن لغة أية أمة، في أية مرحلة من مراحل تاريخها، تصلح أن تكون أحد منافذ البحث في الهوية الحضارية لتلك الأمة في المرحلة التاريخية التي يرصدها البحث،(فكلما اتسعت حضارة الأمة، وكثرت حاجاتها، ومرافق حياتها، ورقي تفكيرها، وتهذبت اتجاهاتها النفسية، نهضت لغتها، وسمت أساليبها، وتعددت فيها فنون القول ، ودقة معاني مفرداتها القديمة، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق و الاقتباس للتعبير عن الأفكار).

ونحن إذ نتحدث عن عربية ما قبل الإسلام من وجهة نظر تاريخية، نتحدث عن لغة سامية تنبه اللغويون قديمًا على مشابهتها لبعض الساميات، ونصوا على ذلك، وعقد الباحثون المحدثون كتبًا، أو فصولاً من كتب، أثبتوا فيها انحدار العربية من السامية الأم، موثقين ذلك بوجوه اشتراكها مع سائر الساميات بخصائص توسعوا في رصدها، ولكن ذلك كله لا يلغي أن العربية الفصيحة التي انتهت إلى عرب ما قبل الإسلام، لغة متطورة جدًا عن أصولها القديمة، وإن ظلت محتفظة بخصائص السامية الأم بصورة أوضح من أخواتها الساميات، ولكن الباحثين لا يمتلكون معلومات واضحة عن المراحل الممتدة بين السامية والعربية الفصيحة، سوى النقوش المكتشفة في أم الجمال والنمّارة وزبد وأسيس وحران، والتي حدت بهم إلى الربط بين العربية من جهة، والثموديّة و الصفويّة و اللحيانيّة من جهة أخرى، ولكن هذه الكشوف ستبقى عاجزة عن تحديد المرحلة التي تبلورت فيها العربية التي جاءت (عامرة بمادتها وأساليبها، ذلك أن النصوص الأولى في العربية لا يمكن أن تكون نصوصًا بدائية؛ لأنها تفصح عن أن هذه اللغة قد بلغت درجة من الكمال).

إننا حين نتحدث عن لغة عرب ما قبل الإسلام إنما نتحدث عن هذه العربية الفصيحة التي نزل بها القرآن الكريم، فضلاً عما اطمأن إليه العلماء من المرويات الشعرية والنثرية التي يرقى تاريخها إلى أوائل القرنين اللذين سبقا

الإسلام، من دون أن تشغلنا اللهجات القبلية التي تبلورت بفعل التجمع والاحتكاك في لغة أدبية موحدة، عمادها لهجة قريش التي بها نزل القرآن الكريم، والتي امتلكت مقومات هويتها الحضارية من كونها لغة ذات تاريخ عريق، أنتجت نصوصًا أدبية عالية ، وعبرت عن أفكار إنسانية راقية، واكتملت لها مفردات و تراكيب وأساليب هيأتها لتكون اللغة المختارة للإعجاز القرآني، الذي وصفها بأنها ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: من الآية103)، والإبانة في أقرب دلالاتها الإيضاح، وفي أبعد دلالاتها هذا الإعجاز الذي شغل أجيالا من العلماء وما زال.

وعلى الرغم من توزع آراء العلماء في مسألة الإعجاز بين الصرفة، والإنباء بما كان وبما سيكون، فإن الإعجاز البياني يبقى العماد الأساس الذي دارت حوله دراسات لا موضع لاستقصائها، تناول مؤلفوها وجوه الإعجاز اللغوي القرآني الذي كان مدار اهتمامهم، ولكنهم بجهودهم هذه، كشفوا عن أسرار قدرة العربية على استيعاب مضامين هذا الدستور العظيم، وأداء تفاصيله، دقيقها وجليلها، أداءً مبينًا محكمًا، لعل أدق وصف له قول الجرجاني، وهو يتحدث عن عجز العرب عن مضاهاة الإعجاز القرآني: (فقيل لنا: قد سمعنا ما قلتم، فخبرونا عمّاذا عجزوا؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول ؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلتم: عن الألفاظ. فماذا أعجزهم من اللفظ؟ أم ما بهرهم منه؟ فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها... وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرًا عشرًا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك، أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظامًا والتئامًا، واتقانًا وإحكامًا).

وعلى الرغم من أن حديث الجرجاني معقود على بيان بعض أسرار إعجاز القرآن الكريم، فإنه يفتح لنا من وجه آخر بابًا لعل الجرجاني، وغير الجرجاني، ممن ألفوا في إعجاز القرآن، ما كانوا يضعونه في اعتبارهم الأول، وهو قدرة اللغة العربية على أن تهيئ من ألفاظها و تراكيبها مادة أولية، تمتلك بناها النحوية هذه القدرة العجيبة على توجيه السياق توجيها يرقى بالدلالة إلى هذا المستوى الإعجازي الذي يبهرنا فيه تجلي قدرة الخالق – سبحانه- على إنزال كلام يعجز البشر عن الإتيان بمثله، ويبهرنا- في الوقت نفسه- قدرة العربية على أن تكون وعاء ذلك الإعجاز ، بما هيأه الله لها من ثراء وخصائص تكاملت لها على مدى تاريخها الحضاري العريق﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: من الآية124)

ويقدم القرآن الكريم شواهد أخرى على شخوص بعض المظاهر الحضارية في متن العربية التي نزل بها، فقد وردت فيه ألفاظ كالمشكاة، والقسطاس، والإستبرق، والسجيل...الخ، طال خلاف العلماء قديمًا على كونها عربية صرفًا، أو كونها منقولة من لغات حضارات أخرى خضعت للتحوير الصوتي العربي، أو كونها مما توافقت عليه أكثر من لغة.

ونحن لا نشك البتة في أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي صرف، بيد أن ذلك لا ينبغي له أن يعني أن العربية كانت منغلقة على نفسها انغلاقًا يعزلها عن أي تأثير وتأثر، فالواقع التاريخي يقرر أن العرب كانوا على اختلاط بالفرس والروم والأحباش، فثمة أخبار كثيرة رواها المؤرخون- لا موضع لاستقصائها- تؤكد عمق علاقات العرب بالحضارات المجاورة، فهل يعقل أن تبقى اللغة بمعزل عن تأثير تلك العلاقات؟

لقد فرض مبدأ الاقتراض اللغوي أن يأخذ العرب ما اضطرتهم الحاجة إلى أخذه من لغات جيرانهم، وأن يخضعوه لسليقتهم وذوقهم الصوتي، حتى غدا جزءًا أصيلًا

من لغتهم، ووجد طريقه اللاحب إلى نصوصهم، وأخذ جيرانهم من لغتهم ما اضطرتهم الحاجة إلى أخذه، ثم أخضعوه لسليقتهم وذوقهم الصوتي، فغدا جزءًا أصيلاً من لغاتهم.

إن هذا التلاقح اللغوي بين العربية ولغات الحضارات المجاورة شاهد على حيوية العربية، وانفتاحها للتأثر والتأثير، وتلك سمة من سمات اللغة الحضارية ، فاللغة البدائية إما أن تنغلق على نفسها، أو تتأثر ولا تؤثر، حتى تتراجع، وتنهار أمام زحف اللغات الطارئة كما حدث لكثير من أخوات العربية الساميات.

لقد اكتسبت العربية الفصيحة قبل نزول القرآن الكريم سمات تكاملها ونضجها، وانعكس هذا النضج، وذلك التكامل، على صفحة نصوصها الأدبية التي تداولها العرب بالسماع والرواية إلى زمن التدوين في القرن الثاني الهجري، وكان للقرآن الكريم الفضل الرئيس في جمع هذه الثروة الأدبية، وغربلتها، وتوثيقها، فهي المادة التي لا بد منها في عمل المفسرين والفقهاء والنحويين واللغويين وكتاب السيرة والمؤرخين والبلدانيين والمعجميين... الخ، وقد تمخضت عملية الجمع عن ثروة هائلة من النصوص الأدبية التي كان قوامها هذه العربية الفصيحة التي نزل بها القرآن الكريم، ثم كانت هذه الثروة الأدبية موضع دراسات تحليلية نقدية ولغوية قديمة وحديثة ، كانت حصيلتها شهادة للعربية باكتمال نظام بناها التركيبية والنحوية والدلالية، اكتمالاً أتاح لها أن تغدو وعاء هذا النتاج الأدبي الرفيع ، في مراحل لابد أن تكون أقدم من عصر أقدم نص أدبي وصل إلينا.

والناظر في الموضوعات المتشعبة التي عالجها الأدب العربي قبل الإسلام، والاتجاهات الفنية المتباينة التي أرسى الشعراء ملامحها المبكرة، لابد أن يرصد في اللغة التي استوعبت ذلك كله، وامتلكت قدرة أدائه، شواهد نضج حضاري، هيأ منها معينًا يرفد الإبداع الأدبي بما يقيم من نصوصه نماذج تأسيس، يحذو الشعر العربي حذوها على مدى العصور الأدبية اللاحقة بلا استثناء ، بل إن اللغة منحت الشاعر العربي قبل الإسلام ثروة هائلة من مفرداتها وتراكيبها، هيأت له فرص الوصول بإبداعه إلى المستوى الرفيع الذي يطمح إليه، وليس يخلو من دلالة أن يتحدث العلماء عن شعراء في عصر ما قبل الإسلام، كانوا يعيدون النظر في أشعارهم، ينقحونها، فيستبدلون بكلمة كلمة، وبتركيب تركيبًا، مطمئنين إلى أن بحر لغتهم زاخر بما يعينهم على اغتراف ما يشاؤون. يقول الجاحظ: ((ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتًا، وزمنًا طويلاً، يردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهامًا لعقله ، وتتبعًا على نفسه، فيجعل عقله زمامًا على رأيه، ورأيه عيارًا على شعره، إشفاقًا على أدبه، وإحرازًا لما خوله الله تعالى من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات، والمقلدات ، والمنقحات، والمحكمات، ليصير قائلها فحلاً خنذيذًا، وشاعرًا مفلقًا)).

ويفخر عدد من شعراء ما قبل الإسلام بأنهم (يتنخلون) أشعارهم، وينتقون لها من (القول) ما يليق بفحولتهم الشعرية، قال ابن سلام في حديثه عن الحطيئة : ((وقال لكعب بن زهير : قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك، وتضعني موضعًا، فإن الناس لأشعاركم أروى، وإليها أسرع. فقال كعب:

فمَن للقوافي؟ شانها من يحوكُها
إذا ما ثوى كعبٌ وفوّزَ جرْوَلُ

يقول فلا يعيا بشيء يقوله
ومن قائليها من يُسيء ويعملُ

كفيتك لا تلقى من الناس واحدا
تنخل منها مثل ما يتَنخلُ

يثقفها حتى تلين متونُها
فيقصر عنها كل ما يُتمثل

فاعترضه مزود بن ضرار واسمه يزيد وهو أخو الشماخ، وكان عريضا- أي شديد العارض كثيرها – فقال

وباستِك إذ خلفتني خلفَ شاعرٍ

من الناس لم أكفِئْ ولم أتنحـــل

فإن تجشِبا أجشِب، وإن تتنخلا

وإن كنـتـ’ أفتـى منكمـا أتنخل

ولا يقتصر الأمر على الشعر والشعراء، فقد هيأت العربية لأهلها أفانين قول تبهر العقول، حتى إن القرآن الكريم ليشهد لهم ببراعة القول حتى في مواقفهم المناقضة للدعوة الإسلامية، قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة:204)

إن اللغة التي يبلورها تاريخ عريق كتاريخ العربية، حتى تغدو اللغة المختارة لإعجاز كتاب الله، فضلا عن أدائها أروع نصوص الأدب العربي الرائدة لا يمكن إلا أن تكون لغة ممتلكة لمقوماتها الحضارية الأصيلة، فاللغة البدائية أعجز من أن تنهض ببعض هذا الذي نهضت به عربية ما قبل الإسلام.

ويكون للعربية أن تخوض اختبارًا تاريخيًّا قلّ أن خاضته لغة أخرى فيما بين أيدينا من حقائق التاريخ، فقد كان لانتشار الرسالة الإسلامية السمحة داخل الجزيرة وخارجها، ثم امتداد الدولة العربية الإسلامية إلى حدود الصين شرقا، وإلى سواحل بحر الظلمات غربًا، وقيام الحياة في هذه المساحات المترامية على أساس العقيدة الإسلامية ، ودستورها القرآن الكريم، الذي لا سبيل إلى إدراك تشريعه بوجه دقيق إلا من خلال فهم بيانه المعجز، باللغة التي نزل بها، كان لذلك كله أن يضع عربية القرآن الكريم موضعًا يرتقي بها إلى القدسية الدينية التي عبر جمهور من العلماء عن قناعتهم بها، كان من أوائلهم الجاحظ الذي واجه الشعوبية الطاعنة على العرب والعربية، بأن ربط بين بغض اللغة وبغض أهلها وما جاؤوا به وما جاء بتلك اللغة، فلما كتب الثعالبي كتابه (فقه اللغة وسر العربية)، وتناول فيه خصائص العربية وأسرارها، واطلع على ثراء كنوزها، وعبقرية أدائها لمضامين الإعجاز القرآني، بعثته قناعته على أن يودع مقدمته قوله: (إنه من أحب الله أحب رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب النبي العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، آتاه حسن سريرة فيما اعتقد أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسن، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين).

لقد فتح هذا الاقتران الأبدي بين القرآن الكريم والعربية الفصيحة أبوابًا متشعبة لدراسة العربية، واستشراف خصائصها، وتقعيد تراكيبها وأساليبها، كان وازع منطلقاتها البكر خدمة لغة القرآن الكريم، وتيسيرها لأبناء الأمم الداخلة في الإسلام، فضلاً عن العرب الذين بدأوا يبتعدون شيئا فشيئا عن الفصاحة لابتعادهم عن مهادها.

والذي يعنينا من ذلك كله، أن عربية ما قبل الإسلام التي ثبتها القرآن الكريم، بدأت تخضع لمنهج النظر العلمي الفاحص، الذي بدأ يكشف عن قوانين دقيقة تتحكم في بنى تراكيبها النحوية و الصوتية والدلالية تحكمًا يشي بخلفية العقلية الحضارية التي تقف وراء تاريخها العريق.

وقد لا يعنينا الدخول في تفاصيل الدراسات النحوية، وتوزعها بين توجه القياس وتوجه السماع، إنما الذي يعنينا أن الدراسات النحوية كشفت عن قوانين محكمة، يخضع لها التركيب الفعلي والتركيب الاسمي، وطبيعة الإسناد فيهما ، وتعلق الفضلات، وتأثير تحول الدلالة الزمنية، والتقديم والتأخير ، والحذف والذكر...الخ في البنية النحوية ثم في البنية الدلالية، وتلك حقائق ظل علماء النحو يخوضون في تفاصيلها ، ويناقشون دقائقها، حتى أنجزوا تراثا علميًّا جليلاً، كان لعبد القاهر الجرجاني

أن ينتفع به أجل انتفاع، ليخرج بنظرية النظم التي أقامها على معاني النحو، فكشف عن دقة قوانين العربية، وشدة تعلق الدلالة بالتركيب النحوي تعلقًا قل أن يكون له نظير في لغات الأمم المتحضرة، بله لغات الأمم البدائية.

إن هذا الترابط العجيب بين الصوت والدلالة في العربية، وثباته حتى في حالة التقليب الصوتي ، يكشف عن حس موسيقي مرهف، لم يقف في العربية عند حدود موسيقى بنية الكلمة، وإنما امتد إلى بنية التركيب العربي شعره ونثره، فمنحه خصائص صوتية من نمط فريد،تشف عن ذوق لغوي رفيع، ونضج حضاري، لعل أدق ما وصف به في معرض الحديث عن العربية : (ومن دلائل هذا النضج أنها حفلت بنظام موسيقي محكم البناء ، فكانت أوزان الشعر عامرة بموسيقاها، مستوفية دقائق في الوزن والإيقاع، لا تتأتى إلا بعد أن تكون قد سلخت من عمرها دهرًا طويلاً، ثم أن هذه العناية في الموسيقى اللفظية لا تقتصر على الشعر ، بل تجاوزته إلى النثر، ذلك أن الجملة العربية تجري على نسق من الطول والقصر، ومراعاة أجزائها، ما يجعل منها سلسلة متسقة الحلقات، متوازنة في الطول والقصر ، ثم تجاوزت هذا الحد إلى العناية بأصواتها، تلك العناية التي تتناول الأصوات المجتمعة في الكلمة الواحدة، ثم تعاقب هذه الأصوات بين كلمة وأخرى.

لقد حفلت العربية بهذه الخصائص ، وهي مستوعبة في النصوص الجاهلية ... ومن المعلوم أن اللغة إن استوفت هذه الناحية الموسيقية على هذا النحو من الكمال، لابد أن تكون لغة أدركت من الكمال والتطور الحضاري قدرًا عاليًا.

وليس من شك في أن قدرة العربية على توفير هذا النسق الموسيقي المطرد في نصوصها الشعرية والنثرية، لم تكن لتتبلور لولا غناها بالمفردات التي تهيأت لها، وتوافرت ونمت على مدى تاريخها، وميزتها عن أخواتها الساميات، حتى ليصدق القول إن أهم ما تمتاز به العربية أنها أوسع أخواتها الساميات ثروة في أصول الكلمات والمفردات، فهي تشتمل على جميع الأصول التي تشتمل عليها أخواتها الساميات، أو على معظمها، وتزيد عليها بأصول كثيرة، احتفظت بها من اللسان السامي الأول، ولا يوجد لها نظير في أية أخت من أخواتها، هذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة، اسمها وفعلها وحرفها، ومن المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال، ما لم يجتمع مثله للغة سامية أخرى بل ما يندر وجود مثله في لغة من لغات العالم، فقد جمع للأسد خمسمائة اسم وللثعبان مائتا اسم.

إن وقفة سريعة على المعاجم العربية- ولا سيما معاجم المعاني – كفيلة بأن تضع أمامنا صورة مذهلة من صور ثراء العربية بمفرداتها التي أتاحت للمبدع العربي قبل الإسلام أن يختار ما يشاء، ويدع ما يشاء؛ ليوفر لنصه الشعري أو النثري عمق الدلالة، وسلامة الأداء، وروعة الإيقاع، فهو يغترف من لغة تهيأ لها من تاريخها العريق ما أعانها على أن تكون اللغة المختارة لكتاب الله العزيز، ثم تكون لغة الحضارة العربية الإسلامية التي لم تفتقر علومها وآدابها وفنونها إلى الجديد إلا ووجدت في ثراء العربية ومرونة قوانينها من اشتقاق ونحت ومجاز...الخ ما يرفدها بما يعينها على أداء إبداع الفكر بهذه العربية التي ظلت تحمل خصائصها الحضارية حتى في مهاد بداوة ما قبل الإسلام، فلما أذن الله للأمة أن تؤدي رسالتها الحضارية بعد الإسلام كان للغتها أن تنهض بالعبء، فتكون مرة أخرى وعاء عبقريا للحضارة، كالذي كانت عليه في تاريخها الحضاري القديم.

المظاهر الحضارية – الأدب :

لم يجمع العرب بين الشعر وسواه من فنون القول في تسمية واحدة، ولعلهم ما كانوا يرون في فنون نثرهم ما يرونه في الشعر من قوة سحرية، فلم يجمعوا بينها وبينه في التسمية، وقد استعملوا مفردة (أدب) للدلالة على الدعوة إلى الطعام، جاء في لسان العرب : الأدب: مصدر قولك أدب

القوم يأدبهم، بالكسر، أدبًا، إذا دعاهم إلى طعامه، والآدب: الداعي إلى الطعام. قال طرفة:

نحْنُ في المَشتاةِ ندعُو الجَفَلى

لا ترى الآدِبَ فينا ينْـتَقِر

ويبدو أن ارتباط الدعوة إلى الطعام بالكرم، الذي هو قمة القيم الخلقية عند العرب ، نقل المفردة إلى الدلالة العامة للمعنى الأخلاقي ، وبهذه الدلالة وردت في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)) و يبدو أن المفردة ارتبطت بعد ذلك بمكارم الأخلاق ، وبما يؤدي إلى التحلي بمكارم الأخلاق: فاتجهت دلالتها إلى تعليم القرآن وتعلمه، بل إنها ارتبطت بالعلوم التي تعين على تعلم القرآن الكريم، من نحو ولغة وبلاغة ورواية وفقه وتفسير..الخ، فلما تطورت هذه العلوم واختص كل منها باسمه، انحسرت الدلالة إلى إطارها الاصطلاحي الأخير، فكان مدارها على رواية نصوص الشعر والنثر، وتلك هي الدلالة التي بدأت تتحدد ملامحها المبكرة عند الجاحظ، ثم اكتملت حدودها عند المبرد الذي قال في تعريف مادة كتابه (الكامل): (هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبًا من الآداب، ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف، ومثل سائر ، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة).

أدب العرب قبل الإسلام، إذن ، هو جملة ما أبدعوه من فنون القول، شعره ونثره، وانعكست على صفحته صور من حياتهم، وعبروا من خلاله عن واقعهم، وفكرهم، وطموحهم، فكانت حصيلته منفذًا تاريخيًا موثقًا من منافذ استجلاء طبيعة البنية الاجتماعية، والفكرية، والإنسانية للمجتمع في تلك الحقبة التي كثر الخلاف حول تحديد هويتها الحضارية.

وعلى الرغم من وفرة ما وصل إلينا من نصوص عصر ما قبل الإسلام الأدبية، فإن ما ضاع منها كثير، وتلك حقيقة قررها العلماء قديمًا، قال أبو عمر بن العلاء: ((ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير)).

ولا شك في أن ما ضاع من النثر أكثر مما ضاع من الشعر، فالشعر أسهل حفظًا من النثر، والشعر أخطر شأنا في حياة العرب من النثر، فضلا عن أن علماء القرن الثاني الهجري الذين جمعوا النصوص من أفواه الرواة، ودونوها، كانت تعنيهم لغة النص بالدرجة الأساس، ولهذا أقبلوا على الشعر الذي لا تسمح طبيعة الوزن فيه بما يسمح به النثر من تحوير في اللغة مع الحفاظ على المضمون.

ولأن عملية جمع نصوص ما قبل الإسلام الأدبية قامت في الأصل لخدمة لغة القرآن الكريم، فإن العلماء لم يحرصوا من الشعر إلا على هذا الذي نقله إليهم الرواة باللغة العربية القرآنية، فلم يبتعد زمن أقدم ما دونوه من نصوص أكثر من قرنين قبل الإسلام، أما نصوص المراحل التي سبقت هذا التاريخ فيبدو أن البحث عنها كان يحتاج إلى هاجس آثاري، لا إلى هاجس لغوي.

وقد تباينت اجتهادات الباحثين المعاصرين في تقدير الطبيعة التي كان عليها الشعر قبل هذه المرحلة، وهي اجتهادات ظلت تفتقر برمتها إلى الوثيقة النصِّية، ولكن بعض المستشرقين واجهوا حقيقة اكتمال البنية الشعرية التي أنتجها شعراء العصر، وواقعية معالجاتها واهتمامها بشؤون الإنسان والواقع البيئي ، فأعربوا عن شكهم في انتمائها إلى عصر ما قبل الإسلام الذي افترضوا أنه عصر أولية الشعر العربي، وأنه لا يمكن أن ينتج شعرًا بهذا المستوى الواقعي، ثم راحوا يوجهون دلالة بعض الآيات القرآنية التي تناولت الشعر والشعراء، فضلا عن بعض الأخبار المروية، توجيهًا خرجوا منه بافتراض أن ما أنتجه عصر ما قبل الإسلام من شعر لا يعدو الكلام الغامض المبهم، المعني بالتنبؤ بالغيب، وقرروا أنه : (كان بين العرب بعض الكهان المعروفين بأنهم (شعراء)، ومن المحتمل أن لغتهم كانت غامضة كما هي الحال في ألوان الوحي)، وانتهوا من ذلك كله إلى أن ما

نسبه العلماء من شعر إلى العصر هو من نتاج مرحلة متطورة فكريًا وحضاريًا، اقترحوا أن تكون مرحلة لاحقة لظهور الإسلام، وعلى هذا تابعهم بعض العرب.

وهؤلاء المستشرقون، ومن تابعهم من العرب محقون في افتراضهم ارتباط أولية الشعر عند الأمم بالغيبية، ولكنهم غير محقين في افتراضهم أن شعر ما قبل الإسلام يمثل مرحلة أولية الشعر عند العرب فأولية الشعر عند العرب أقدم من عصر ما قبل الإسلام بكثير، وربما تكون ملحمة (جلجامش) و(أنوماليش) من صور الأولية الشعرية في البيئة العربية، ولا بد أن يكون الشعر عند العرب قد مر بمراحل طويلة، حتى بلغ هذه الدرجة من النضج في عصر ما قبل الإسلام ، فكان شعر مرحلة يشهد اكتماله الفني، وواقعيته الموضوعية، على أنها مرحلة متطورة جدًا عن مرحلة الأولية التي لم يبق من آثارها إلا بصمات تشي بها، وتبعث على القناعة بأن شعر ما قبل الإسلام انسلخ عنها منذ لأي بعيد، ودخل في مرحلة الواقعية، فغدا وثيقة تفصح عن خلفية فكرية وحضارية أحسن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلخيصها بقوله: ((كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه)).

إن استقراء شعر ما قبل الإسلام يضع بين أيدينا صورة تنبئ عن اتجاهات عقيدية وفكرية لا تتهيأ لمجتمع بدائي، فعلى الرغم مما هو ظاهر من شيوع الوثنية الطارئة على الحياة العربية، فإن التوحيد الذي هو أرقى درجات الفكر الديني كان الموئل الأساس للفكر العقيدي، فاليهودية والمسيحية منتشرتان في مواضع بين الحيرة وبصرى ويثرب واليمن والحنيفية تواجه الوثنية حتى في مكة مركز الوثنية، بل إن الوثنيين أنفسهم لم ينقطعوا تمامًا عن التوحيد الذي شهد القرآن الكريم بأنه ملة أبيهم إبراهيم، وأنهم ما اتخذوا الأوثان إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فلا عجب أن نراهم يقرون بأن الله أكبر من أوثانهم، قال أوس بن حجر:

وباللاتِ والعُزّى ومَن دانَ دينَها
وبالله إنَ الله منهُنَّ أكبرُ

وتتجلى فكرة التوحيد في نصوص شعرية لا حصر لها، فهذا عبيد بن الأبرص يقر بالتوحيد بشكل واضح صريح في قوله:

بالله يــــدرَكُ كـــلُّ خــيــرِ
والقولُ في بَعضه تَلغــيبُ
والله لــيـــس لــه شــريـــكُ
علاّم ما أخـفتِ القلــوبُ

ويرفض زيد بن عمرو بن نفيل أن يعبد غير الله الواحد فيقول:

أربًا واحـدًا أم ألــفُ ربّ أديــنُ إذا تقُسـمَت الأمـوُر
ولكن أعْبُدُ الرَحْمَن ربّـي ليغفر ذنْبي الرّبُّ الغفُـورُ

ومن الشعر نصوص أعرب أصحابها عن قناعتهم بالبعث بعد الموت، والحساب والثواب والعقاب، نرى ذلك جليا في قول زهير بن أبي سلمى يخاطب الأحلاف الذين أقسموا على الصلح بعد الحرب:

فلا تكتمَنّ الله ما في نفوسِكم
ليخفى ومهما يُكتَــم الله يَعلمُ
يُؤخّر فيوضع في كتابٍ فيُدخَرْ
ليومِ الحسابِ أو يعجّل فيــنقِمُ

وشعر ما قبل الإسلام حافل بنصوص تكشف عن معرفة تفصيلية بقصص الأنبياء الموحدين، فأمية بن أبي الصلت يذكر قصة خلق آدم عليه السلام، فيقول:

لآدمَ لمـّـا كــمَّــــل اللهُ خَلْقَـــهُ
فَخَرُّوا لَهُ طوعًا سجودًا وكدَّدُوا
وقـالَ عـدوُّ اللهِ للْكِبْرِ والشّقـا
لطينٍ علـىَ نارِ السموم فسوَّدُوا

وقال عدي بن زيد يذكر نوحًا عليه السلام في مديحه النعمان بن المنذر:

أيـــنَ أهْلُ الــدِيَارِ مــنْ قَوْمِ نوحٍ
ثــمَّ عَــادٌ مِنْ بَعْـدِهــم وثمودُ

وقال النابغة مستذكرًا قصة سليمان عليه السلام في مديحه النعمان بن المنذر:

ولا أرَى فاعلاً في النَاسِ يشبهُهُ
ولاَ أحَاشِي منَ الأقْوَامِ مِنْ أحَدِ
إلا سليمــانَ إذْ قــالَ الإلــهُ لــهُ
قُمْ في البَريَّةِ فاحدُدْهَا عنِ الفَنَدِ
وخَيِّسِ الجِنَّ إني قد أذِنْتُ لهُم
يبنُــونَ تَـدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

وقد يطول أمر استقصاء ما استحضره الشعراء من قصص الأنبياء، فالعودة إلى الدواوين كفيلة بأن تضعنا بإزاء حقيقة مذهلة، وهي أن العرب كانوا على معرفة واسعة بقصص الأنبياء الموحدين وقصص أقوامهم، وذلك ما يؤكد اكتناز الفكر العربي بالتراث التوحيدي، على الرغم من شيوع الوثنية التي بدت آثارها باهتة على صفحة الشعر ، ولم تظهر جلية إلا في نصوص التلبيات التي بدت أقرب إلى الأهازيج الجماعية منها إلى النصوص الشعرية.

ولم يكن الفكر التوحيدي هو الجذر الحضاري الوحيد الذي يرفد الشعر قبل الإسلام، فثمة لمحات ميثولوجية تومئ إلى خلفية حضارية عريقة تسللت آثارها إلى الوعي الجمعي العربي، فنظرتهم إلى الملوك مثلا تبدو منبثقة من خلفية ترقى إلى حضارات وادي الرافدين التي كانت ترى أن الملوكية تفويض من السماء، يجعل للملوك قدرات خارقة لا تتأتى للبشر، والتفويض السماوي، وامتلاك القدرات الخارقة، مما وصف به الشعراء ما قبل الإسلام الملوك، فعلقمة بن عبدة يقول للحارث الغساني:

ولســتَ لإنسـيٍّ ولكنْ لملأَكٍ
تنَزّلَ مِـنْ جَـوِّ السَّمَاءِ يَصُــوبُ

والنابغة الذبياني يمنح النعمان بن المنذر القدرة الخارقة لليل الذي لا مهرب لهارب منه:

فـإنكَ كالليلِ الذي هُوَ مُدْرِكِي
وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأى عنكَ وَاسِعُ

بل إن دماء الملوك تمتلك قدرة الشفاء من داء الكلب، فمما ورد في ديوان أمية بن أبي الصلت:

بنـاةُ مَكــارمٍ وأُســاةُ كَلْــمٍ
دمـاؤُهُم منُ الكــلْــبِ الشِّفَـاءُ

وهلاك الملوك يجر زوال نعمة الناس، ووقوع الفتن، وخرق الحرمات، يقول النابغة الذبياني:

فـإنْ يهلِكْ أبـو قـابــوسَ يهلِكْ
ربيــعُ الناسِ والشهرُ الحــرامُ

و لا تخلو تسمية الملوك بـ(الأرباب) من خلفية أسطورية، فجلجامش ملك أوروك ثلثاه إله وثلثه بشر، وأوزيريس الذي ملك مصر والأرض كلها هو ابن الإله (جب) والإلهة (نوت) فليس غريبا أن تتردد كلمة (رب) على ألسنة العرب في وصف الملوك، قال لبيد بن ربيعة:

وأفْنى بناتُ الدهرِ أربابَ ناعطٍ
بمُسْتَمَعٍ دُونَ السماءِ ومنظرِ
وأهلكْنَ يومًا رب كندةَ وابنَـهُ
وربَّ مَعَدٍّ بيْن خَبْتٍ وعَرْعَرِ

وتشير نصوص شعرية كثيرة إلى اطلاع العرب على آثار شاخصة خلفتها الممالك والحضارات القديمة، ومعرفتهم تاريخ تلك الممالك، واعتبارهم بما أدى إلى زوالها، وربما كان الأعشى من أكثر الشعراء استذكارا للشواخص الحضارية، لكثرة أسفاره، وعمق ثقافته، ففي نص واحد له يستذكر شاخصين حضاريين مندثرين ويقص قصة كل منهما فيقول:

ألـمْ تَـرَى الحَضْرَ إذْ أهلُـهُ
بنُعمــى وهل خالدٌ مَنْ نَعِـمْ
أقَامَ به شاهَبُورُ الجُنُــو(م)
دَ حَولين تَضربُ فيهِ القدمْ
فـمــا زادَهُ ربــــُهُ قـــــوةً
ومَثْــلُ مجــاورِهِ لــم قُـمْ
ففــي ذاكَ للمُؤْتــسي أُسْوَةً
ومــأربُ قَفّى عليها العَـرِمْ

رُخامٍ بنَتْهُ لهُــمْ حـمْيَــرَ
إذا جــاءهُ مــاؤُهُــمْ لــمْ يَرِمْ
فعَاشُــوا بــذلكَ في غَبطــةٍ
فجــارَ بهــم جــارفٌ منهَزِمْ

أما الحصون والقلاع والقصور فقد تردد ذكرها في نصوص كثير من الشعراء ترددًا ينبئ عن احتلالها مواضعها من الواقع المعيش، فضلا عن ارتباطها بالوعي التاريخي للأمة.

لقد ظل التاريخ الحضاري حيًّا في وجدان الأمة يوجه نوازعها، ويصوغ رؤيتها للواقع لا كما هو كائن وإنما كما ينبغي له أن يكون، وتلك هي المهمة التي نهض بها الشعر، فكان بحق سجل فكر الأمة، ومستودع قيمها، والمعبر عن طموحها إلى المثال الإنساني، وبهذا الوعي ينبغي لنا أن نستوعب سر حرص رجال المسيرة الإسلامية على استذكار شعر ما قبل الإسلام، وحثهم على روايته، وتأديب أولادهم به، وحضهم على التمسك بالقيم التي دعا إليها.

لقد أرسى شعر ما قبل الإسلام، الصورة المثلى التي طمح إلى تحقيقها للنموذج الإنساني على صعيد الواقع الفردي والجماعي، مقررًا لها فضائلها الأساسية التي سبق قدامة بن جعفر إلى استنباطها من شعر ما قبل الإسلام فوجدها تدور في أربع قيم هي: العقل، الشجاعة، والعدل، و العفة. ثم يستوي بعد ذلك أن يكون النص معبرًا عن موقف إيجابي، أو موقف سلبي، فالشاعر يمنح هذه الفضائل للشخصية الإيجابية، وينتزعها بأعيانها من الشخصية السلبية، ثم يبقى للإبداع أن يمتلك قدرته على صياغة الصورة التي تمتلك النفس، وتبهر القلب، من دون أن يغادر الأرضية الخلقية الممتدة بين تراث حضاري عريق وطموح حضاري نبيل، ومن هذا الوعي كان للصورة الشعرية أن تستمد صدقها من مدى اقترابها من قيم الطموح، وليس من مدى مطابقتها للواقع المنظور، وتلك هي الرؤية التي قامت عليها نصوص ما قبل الإسلام بلا استثناء، فزهير بن أبي سلمى يجمع الفضائل المثلى لهرم بن سنان في قوله:

ألـمْ تَرَ ابـنَ سنانٍ كيفَ فـضَّلَـهُ
ما يشتري فيهِ حمدَ الناسِ بالثمنِ
وحبْسُــهُ نفسَهُ في كــلِّ مــنْزلة
يكــرهُهَا الجُبَنَاءُ الضاقةُ العطنِ
ومن يُحاربْ يجدْهُ غيرَ مُضطهدٍ
يُـربي علــى بغضة الأعداءِ بالطِّبَنِ
إن تؤْتِهِ النُّصْحَ يُوجدْ لا يضيِّعْهُ
وبالأمــانــةِ لـــم يغــدُرْ ولمْ يَخُنِ

ولا يخرج أوس بن حجر في رثائه فضالة بن كلدة عن الفضائل نفسها إذ يقول:

أيـتـهـا الـنـفسُ أجمِلي جـــزَعـا
إنَّ الــذي تحـذرِيــنَ قــد وَقَعـا
إن الــذي جَمــعَ السمــاحةَ والـ(م)
نـجــدةَ والبــأسَ والنــدى
جمعا
الألمعــيُّ الــذي يظــنُّ لكَ الـظ (م)
نَّ كــأنْ قــدْ رأى وقــدْ سمِعَـا.

وحين يعمد الشعر إلى تنظير التجارب الجماعية والفردية في إطار الحكمة أو الوصية، يؤول إلى الرؤية الحضارية نفسها، ويرسم المثال المطلوب على صعيد الطموح، وفي دالية للأفوه الأودي نواجه رؤية متقدمة جدا لطبيعة البنية الهرمية الاجتماعية، التي يتطلع الفكر العربي إلى تحقيقها على صعيد الواقع، وذلك في قوله:

والـبـيـتُ لا يُبتَنــى إلاَّ لَــهُ عَـــمَدٌ
ولا عمــادَ إذا لــمْ تـرْسَ أوتــادُ
فــإنْ تَـجَــمَّع أوتـادٌ وأعـمــدةٌ
وســاكنٌ بلغوا الأمرَ الذي كـادُوا
لا يصلحُ الناسُ فَوضى لا سراةَ لهمْ
ولا ســراةَ إذا جُهَّالُهُــمْ ســادُوا
تُلفى الأمورُ بأهلِ الرُّشدِ ما صَلُحَتْ
فــإنْ تــولَّوا فبالأشرارِ تنــقادُ
إذا تـــولـى ســراة النــاس أمـرهم
نما على ذاك أمر القوم فازدادُوا

أما الشخصية الفردية المثلى فقد رسم الشعر ملامحها، لاسيما في شعر الوصايا الذي يبدو في إطاره الضيق توجيهًا لشخصية بعينها، ولكنه يحقق مهمته الريادية في الفكر الاجتماعي فيستفزه إلى محاولة الاقتراب من المثال الذي يرسم شاعر مثل قيس بن خفاف ملامحه في وصيته لابنه جبيل ، فيقول:

أجبيلُ إنَّ أباكَ كاربَ يومُهُ
فإذا دُعِيتَ إلى العَظَائِمِ فاعجِلِ
اللهَ فاتّقِهِ وأوفِ بِنَذْرِهِ
وإذا حَلَفْتَ مُمَارِيا فتَحلّلِ
والضيفَ أكرِمْهُ، فإنَّ مَبِيتَهُ
حقٌّ ولاتكُ لُعْنَةً للنُّزَّلِ
وصِلِ المُواصِلَ ما صَفَا لكَ وِدُّهُ
أحذر حِبَالَ الخائنِ المتبدِّلِ
واترك محلَّ السوءِ لا تحلُلْ بِهِ
وإذا نبا بكَ مَنْزِلٌ فتحوَّلِ
وإذا هَمَمْت بأمْرِ شرٍّ فاتّئِدْ
وإذا هممْت بأمرِ خيرٍ فافعَلِ
وإذا أتتْكَ مِنَ العَدُوِّ قوارصٌ
فاقرُصْ كذاكَ ولا تَقُلْ لمْ أفعَلِ
واستأنِ ما اناكَ ربُّكَ بالأنى
وإذا تصِبْكَ خَصَاصَةٌ فَتَجَمَّلِ
وإذا تشَاجَرَ في فؤادِكَ مرَّةً
أمرانِ فاعْمَدْ للأعفِّ الأجْمَلِ

وعلى الرغم من هذا الطموح إلى ممارسة القيم الإنسانية المثلى، فإن جدب البيئة، وشظف العيش، تمخضا عن وجوه صراع قبلي، انتهى أحيانا إلى حروب طويلة، تستمر بعضها عقودًا كحرب البسوس، وحرب داحس والغبراء، مما جعل الاعتماد على القوة مبدأ شائعًا على صعيد الواقع المفروض، وكان لابد للشعر أن يواكب ذلك الواقع، ويستوعب آثاره في موضوعات الفروسية والحماسة ووصف المعارك، ولكن قسوة الواقع ومرارته لم تبلغا مبلغ طمس الهاجس الإنساني الذي يعبر عن رفض منطق الحرب، والدعوة إلى السلم، ولعل الصورة التي رسمها زهير بن أبي سلمى للحرب ستبقى نموذجًا إنسانيًا متقدمًا يعبر عن أصالة الزخم الحضاري في الفكر العربي، فهو يقول:

وما الحربُ إلا ما علِمْتُمْ وذُقْتُمُ
وما هو عَنها بالحديثِ المرجَّمِ
متى تبعثُوها تبعثُوها ذميمةً
وتضرَ إذا ضرَّيْتُمُوها فتضرَمِ
فتعركُكم عركَ الرَّحى بثفالِها
تلقح كشافًا ثم تنتج فتُتْئِمِ

واللافت للنظر أن ثمة شعراء ، كانت الحرب مدار حياتهم، ورافد أكثر نصوصهم ، عبروا في لحظات تأمل إنساني صادقة عن رفضهم لمنطق الحرب، فهذا امرؤ القيس الذي قضى الشطر الأكبر من حياته في قتال بني أسد، قتلة أبيه، تبعثه قناعته الإنسانية على قوله :

الحربُ أولَ ما تكون فتيَّةً
تسعى بزينتِها لكلِّ جهولِ
حتى إذا استعَرَتْ وشبَّ ضرامُها
عادت عَجُوزا غير ذاتِ خليلِ
شمْطاءُ جزَّتْ رأسَها، وتنكَّرتْ
مكروهةً للشَّمِّ والتَّقْبيلِ

ويعرب عنترة بن شداد ، الذي اقترن اسمه بالفروسية العربية، عن موقفه السلبي من الحرب التي لم يخضها إلا مضطرًا، فيقول:

إن تكُ حَرْبُكم أمسَتْ عوانًا
فإنِّي لم أكُنْ ممنْ جَنَاها
ولكن ولدُ سودةَ أرَّثوها
وشبّوا نارَها لمن اصْطَلاَهَا
فإنّي لستُ خاذلَكُمْ ولكنْ
سأسْعَى الآنَ إذْ بلغَتْ مَدَاها

لقد تمخض الصراع القبلي المفروض عن حالة تراجع الإحساس بالانتماء إلى الإطار القبلي الضيق، الذي بدا أن العربي لا يعرف انتماء سواه، بيد أن الانتماء القومي كان سرعان ما يجد صدى فاعليته حين تتعرض الأمة لخطر التحدي الخارجي، فتسقط القبائل خلافاتها، وتواجه التحدي يدًا واحدة، ويسجل الشعر أحداث مواجهات قومية ، توحدت فيها القبائل المتصارعة لتدرأ خطرًا أجنبيًّا، فقد سجل الشاعر عمرو بن كلثوم، باعتزاز عميق، حادثة توحد بكر وتغلب- على ما كان بينهما من صراع – لدرء خطر الأحباش في الجنوب، في يوم خزاز- وهو جبل جعلوا إيقاد النار عليه موعد اجتماعهم- فلما اجتمعوا هزموا الأحباش، فسمي اليوم باسم الجبل، وبه تأنى عمرو بن كلثوم في قوله:

ونحن غَداةَ أُوقدَ في خَزازٍ
رَفَدْنا فوق رِفْدِ الرَّافدينَا
وكنَّا الأيمَنينَ إذا التقينَا
وكان الأيسَرِين بَنُو أبينَا
فصالُوا صَوْلَةً فيمَنْ يَلِيهِم
وصُلْنَا صولةً فيمَن يلينا
فآبوا بالنِّهاب وبالسَّبَايَا
وأُبْنَا بالمُلُوكِ مصفَّدينا

وفي شمال الجزيرة فضل بنو شيبان مواجهة الفرس على قبول إذلالهم، فتداعت إليهم قبائل بكر فكانوا يدًا واحدة معهم، بل إن مائتي أسير من تميم كانوا عند الشيبانيين، أبوا إلا أن يقاتلوا الفرس معهم انتصارا لدمهم العربي، وكان لوحدة اليد أن تحقق النصر في يوم ذي قار الذي تأنى به الأعشى، وتمنى لو أن العرب كلهم شاركوا في نيل شرف النصر فيه، فقال:

لمَّا التَقَيْنا كشَفْنَا عنْ جماجِمِنَا
ليعلَمُوا أنَّنا بَكْرٌ فينصرِفوا
لَوْ أنَّ كلَّ مَعَدٍّ كانَ شارَكَنا
في يوم ذي قارَ ما أخطاهُمُ الشَّرَفُ

ويبقى لنا أن نتأمل البنية الفنية لشعر ما قبل الإسلام، وهي بنية تشف عن حس ذوقي رفيع، فليس يخلو من دلالة اتفاق شعراء العصر- على الرغم من اختلاف بيئاتهم واتجاهاتهم- على موضوعات بأعيانها، يفتتحون بها نصوصهم الطويلة ، كالطلل والنسيب والظعن والشيب؛ ليرسموا من خلالها معاناتهم في مواجهة قانون الزمن والفناء الذي تنهار تحت وطأته الصارمة كل العلاقات الإنسانية، وتغدو محض ذكريات ترمض النفس ، فإذا يئسوا من محاولة إحياء ما طوته يد الزمن، فزعوا إلى رحلة بطولية ليرتادوا مجاهل الصحراء على ظهر ناقة، يحيلها حلم الشعر حيوانا من الوحش (ثورًا أو حمارًا أو ظليمًا)؛ ليرسموا صورة صراع بين إرادة الحياة لدى الحيوان، وإرادة القدر لدى الصياد وكلابه، وعادة ما يحسم الشاعر الصراع بانتصار إرادة الحياة، إلا في قصائد الرثاء التي ينتهي الصراع فيها بسقوط الحيوان.

إن التزام أكثر الشعراء بهذه البنية في قصائدهم متعددة الموضوعات، يؤكد الظن بأنهم كانوا يؤولون إلى مرجعية فكرية واحدة، شغلتهم أسئلتها التي شغلت الفكر الحضاري على اختلاف عصوره، فلما عجز عن الإجابة عنها هيأ من الفن وسيلة تحقق الخلاص.

أما البنية الإيقاعية لشعر ما قبل الإسلام، فإنها تشكل منفذًا لاستشراف حس ذوقي رفيع لا يتهيأ لأمة بدائية، فالأوزان الستة عشر التي استنبطها الخليل بن أحمد الفراهيدي جاءت متكاملة متسقة في دوائره العروضية، عدا استثناءات تكاد لا تذكر، لعلها تمثل بقايا صيغ إيقاعية مارسها شعراء مرحلة شعرية أكثر قدمًا.

وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من نصوص نثر ما قبل الإسلام ، لما ذكرناه من أسباب آنفًا، فإن هذا الذي بين أيدينا منها لا يقل شأنًا عن الشعر في القدرة على إتاحة الفرصة لتأمل المظاهر الحضارية التي ينم عنها ، والخلفية الفكرية التي شكلت مضامينه، ففي قصص أيام العرب إشارات إلى اكتناز الوعي العربي بمعطيات ميثولوجية عريقة، فلا يخلو من دلالة أن تتناظر أحداث بعض تلك القصص وأحداث ملاحم وأساطير أنتجتها حضارات قديمة، فأحداث يوم اليمامة التي تروي قصة مقتل عمليق بن سام على يد صديقه الأسود بن عباد، تتناظر كثيرًا وأحداث ملحمة جلجامش، على مستوى صفات شخصياتها، وعلى مستوى طبيعة أحداثها وتناميها.

وقد تحولت نصوص المحاورة في بعض القصص التاريخية أمثالا يتداولها العرب لعمق دلالتها، وارتباطها بحدث ظل حيًا في الوعي القومي، لما يؤديه من عبرة إنسانية، فالمحاورة في قصة الزباء وجذيمة الأبرش مثلا تحولت كلها أمثالا متداولة يعتبر بها الناس. وكثيرًا ما يغدو المثل نفسه رمزًا لقصة أو حدث تمخض عن عبرة اقترن بها في الوعي الجماعي، حتى غدت صيغته الموجزة مدخلاً لاستذكار تفاصيل الحدث الذي انبثق منه، وقد حفلت هذه الأمثال بكثير من الدلالات التوجيهية التي تنم عن طموح المجتمع إلى استكمال ملامح الشخصية المثلى، على الصعيدين الفردي والجماعي، وذلك هو السر في تحول عبارات بعض الوصايا أمثالاً، لما تضمنته من توجيه أخلاقي وتربوي، وذلك ما تحقق لوصية لذي الأصبع العدواني قالها لابنه ومنها:

((ألِن جانبَك لقومِك يحبُوك، وتَوَاضَعْ لهم يرفعُوك، وابسطْ لهم وجهَكَ يطيعوكَ، ولا تستأثِرْ عليهم بشيْء يسودُوكَ، وأكرِم صغارَهُمْ كما تكرم كِبَارَهُمْ، يُكرِمكَ كِبارُهم، ويكبر على مودتِك صِغارهم، واسمَحْ بمَالِك، واحمِ حريمَكَ، وأعْزِز جارَك، وأعِن من استَعَان بك، وأكْرِم ضيفك، وأسرِع النهضَة في الصَريخ، فإنَ لكَ أجَلاً لا يعودك، وصنْ وجْهك عنْ مسألةِ أحدٍ شيئا، فبذلك يتم سُؤْدَدُك).

ويتسم فن الخطابة بالتوجيه الجماعي، ويرتبط غالبًا بالمناسبة التي تقال فيها الخطبة، ولكن خطب التوجيه والوعظ ظلت تنم عن طموح الفكر إلى تجاوز سلبيات الواقع المفروض، والبحث عن الصورة المثلى التي ينبغي لها أن تكون.

ولعل من أوثق ما تناقلته الأسفار خطبة قس بن ساعدة الذي ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيه:

((رأيتهُ بسوق عكاظٍ على جملٍ أحمرَ، وهو يقولُ: أيها الناسُ ، اجتمعوا واسمعوا، وعُوا، من عاشَ مَاتَ، ومن ماتَ فاتَ، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ... يا معشَر إياد، أين ثمودُ وعاد؟ وأين الآباءُ والأجدادُ؟ أين المعروفُ الذي لمْ يُشْكَرْ؟ والظلمُ الذي لمْ يُنْكَرْ؟ أقسَم قسٌ قسمًا باللهِ، إن لله لدينًا هو أرضى لهُ من دينِكُمْ هذا)).

وقد لا تتيح لنا النصوص النثرية التي وثقها العلماء فرصة كالفرصة التي أتاحها لنا الشعر في عملية استشراف المظاهر الحضارية في الفكر العربي قبل الإسلام، ولكن ذلك لا يلغي حقيقة قدرة هذا القليل الذي بين أيدينا من النثر، على مضاهاة ما وصل إلينا من الشعر في عملية رصد الخلفية الفكرية الحضارية التي رفدته، وطموح أبناء العصر إلى المثال الحضاري الذي ظل حلمًا، حتى هيأت الرسالة الإسلامية السمحة مشروعه الواعد، فاعتنقتها الأمة لتبني تحت رايتها صرح الحضارة العربية الإسلامية، ولتكون كما شاءت إرادة الله سبحانه ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: من الآية110) .

د.محمود عبدالله الجادر

المصادر والمراجع

المراجع العربية

(القرآن الكريم) .

- **ابن الأثير، المبارك بن محمد 1311هـ .**
النهاية في غريب الحديث (القاهرة) .

- **الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين د.ت .**
الأغاني (دار الكتب، القاهرة) .

- **الأعشى، ميمون بن قيس 1950م .**
ديوان الأعشى الكبير(تحقيق د. محمد محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر).

- **الأفوه الأودي صلاءة بن عمرو 1937م .**
ديوان الأفوه الأودي (كتاب الطرائف الأدبية، دار الكتب العلمية، بيروت) .

- **امرؤ القيس، حندج بن حجر 1969م .**
ديوان امرئ القيس(تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر) .

- **ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم 1980م .**
شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات(تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر) .

- **أوس بن حجر 1967م .**
ديوان أوس بن حجر (تحقيق د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت) .

- **باقر، طه 1980م .**
ملحمة جلجامش(منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد) .

- **باقر، طه 1955-1956م .**
مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة(شركة التجارة، بغداد).

- **البياتي ، د. عادل 1986م .**
دراسات في الأدب الجاهلي (جزءان، دار النشر المغربية، المغرب) .

- **الحديثي، بهجت 1975م .**
أمية بن أبي الصلت حياته وشعره(مطبعة العاني ، بغداد).

- **ابن رشيق، أبو علي الحسن 1972م .**
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل ، مصر) .

- **ريسلر، جاك د.ت .**
الحضارة العربية (ترجمة عبدون انيم، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر) .

- **زهير بن أبي سلمى 1944م .**
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى(دارالكتب، مصر) .

- **زيد بن عمرو بن نفيل 2002م .**
ديوان زيد بن عمرو بن نفيل (تحقيق د. أيهم القيسي، مجلة المورد، المجلد 29، العدد 4، بغداد) .

- **زيدان، جرجي د.ت .**
العرب قبل الإسلام (المكتبة الأهلية ، بيروت) .

- **السامرائي، إبراهيم 1977م .**
اللغة والحضارة(المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت) .

- **ابن سلام، محمد 1948م .**
طبقات فحول الشعراء (تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة) .

- **الصالح، صبحي 1962م .**
دراسات في فقه اللغة العربية (بيروت، ط 2) .

- **ضيف، شوقي1960م .**
العصر الجاهلي (دار المعارف، مصر، ط4) .

- **طرفة بن العبد 1975م .**
ديوان طرفة بن العبد (تحقيق درية الخطيب وزميلها، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق) .

- **الطعان، هاشم 1978م .**
الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة(وزارة الثقافة والفنون، بغداد) .

- عامر بن الطفيل 2001م.

ديــوان عــامر بن الطفيــل (تحقيق . محمـــود عبد الله الجادر

وزميله، دار الشؤون الثقافية، بغداد) .

- عبد التواب، رمضان 1987م .

فصول في فقه اللغة العربية (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3) .

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد د.ت .

العقد الفريد (تحقيق محمد سعيد العريان، مصر).

- عبيد بن الأبرص 1957م .

ديوان عبيد بن الأبرص (تحقيق د. حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر) .

المسكوكات

المقدمة: بداية ضرب المسكوكات العربية :

ارتبطت الممالك العربية قبل الإسلام بطرق التجارة التي كانت تنقل اللبان والطيوب من جنوب الجزيرة العربية إلى الممالك المجاورة في بلاد الرافدين ومصر وممالك حوض البحر المتوسط (الإغريق والرومان)، حيث كان اللُّبان يستخدم في طقوس العبادات الوثنية وفي مراسم الدفن كما كان يدخل في تركيب الأدوية، حيث كان اللبان يجمع ويتم وزنه وتقدير سعره قبل أن يرسل إلى المعابد وتحمله القوافل التي كانت تمر أولاً على عواصم ممالك جنوب الجزيرة؛ لكي تستفيد من الرسوم التي تفرض عليه. ويصف هيرودت الجزيرة العربية بأنها "المكان الوحيد الذي ينتج اللبان والمر والقرفة والكافور والصمغ".

يرجح علماء النميات أن تعامل الممالك العربية في جنوب الجزيرة العربية بالمسكوكات قد بدأ في القرن الخامس قبل الميلاد، وعثر في جنوب شرق تركيا على ثلاث مسكوكات إغريقية طبع على اثنين منها حرف الكاف بخط المسند، أما الثالث فقد طبع عليه حرف الباء بخط المسند، ويرجع تاريخ هذه المسكوكات للفترة ما بين سنتي 475 - 400 ق.م، وتعد هذه بمثابة المرحلة الأولى في تعريب المسكوكات الإغريقية قامت بها الممالك العربية الجنوبية.

ضربت أقدم المسكوكات العربية على نمط المسكوكات الإغريقية وخاصة الطراز المعروف بمسكوكات أثينا والتي يرجع تاريخ ضرب النماذج المبكرة منها في بلاد الإغريق إلى حوالي سنة 575 ق.م، وكان ينقش على وجه تلك النماذج رأس المعبودة أثينا لابسة خوذة مزينة من الأمام بغصن زيتون تتدلى منه ثلاث ورقات وشعرها مربوط بعصابة، ونقش على الظهر بومة متجهة إلى اليمين وخلفها غصن زيتون.

كانت مملكة قتبان أول مملكة عربية تقوم بضرب المسكوكات منذ أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وكانت مسكوكاتها تقليدًا للمسكوكات الإغريقية التي نقش على وجهها رأس المعبودة أثينا مرتدية خوذة مزينة بأوراق زيتون، أما على ظهرها فقد رسمت بومة وبجوارها هلال وغصن زيتون والشعار الإغريقي الدال على قيمة المسكوكة AOE (اللوحة رقم 1)، وكانت الإصدارات الأولى من السكة القتبانية مشابهة تمامًا للسكة الإغريقية وتميزت السكة القتبانية بإضافة حروف بخط المسند على وجه أثينا لتحديد القيمة النقدية للمسكوكات ونقش شعار الملك القتباني على الظهر (اللوحة رقم 2).

وفي أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ضرب طراز جديد من المسكوكات القتبانية تخلى فيها القتبانيون كثيرًا عن التأثيرات الإغريقية فنقش على الوجه صورة الملك القتباني بدلاً من رأس المعبودة أثينا وسجل على صورة الملك حروف بخط المسند، بينما نقش على الظهر صورة البومة والشعار الإغريقي، (اللوحة رقم 3)

أولاً: التأثيرات الأجنبية على المسكوكات العربية :

كانت مملكة قتبان أول مملكة عربية تضرب المسكوكات، واختلف المؤرخون في تاريخ بداية هذه المملكة فقد قيل: إن بدايتها كانت في القرن السادس قبل الميلاد ونهايتها في نحو سنة 50 ق.م، بينما يرى آخرون أن بدايتها كانت في سنة 645 ق.م، ونهايتها في القرن الثالث قبل الميلاد، وهناك من يرى أن أول إشارة إلى مملكة قتبان جاءت في نقش سبئي يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد، ولما كانت مملكة قتبان قد ضربت مسكوكاتها الأولى على النمط الإغريقي فقد جاءت بواكير المسكوكات القتبانية متأثرة بصورة واضحة بالمسكوكات الإغريقية، إلا أنه منذ

أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ضربت مسكوكات قتبانية تخلصت من بعض التأثيرات الإغريقية فقد نقش على وجه تلك المسكوكات صورة الملك القتباني بدلاً من صورة المعبودة الإغريقية أثينا، وسجل على صورة الملك حروف بخط المسند، وظلت التأثيرات الإغريقية باقية على نقوش ظهر تلك المسكوكات إذ بقيت صورة البومة، والرمز الإغريقي الدال على قيمة المسكوكات AOE (اللوحة رقم 3)، وبذلك فقد ظلت التأثيرات الأجنبية لفترات طويلة على المسكوكات القتبانية.

وكذلك ضربت مملكة سبأ المسكوكات على النمط الإغريقي، وتعود أقدم مسكوكاتها إلى النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت التأثيرات الإغريقية واضحة عليها فقد نقش على وجهها رأس المعبودة أثينا مرتدية خوذة وحولها أغصان الزيتون، أما على الظهر فتبدو صورة البومة مع أغصان الزيتون، والهلال، وحذف الرمز الإغريقي AOE، ونقش بدلاً منه حروف بخط المسند تدل على القيمة النقدية للمسكوكات. وفي أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الأول قبل الميلاد صدرت في مملكة سبأ مسكوكات جديدة تخلصت من التأثيرات الأجنبية في الوجه الذي نقش به صورة رجل ملتح يلبس تاجًا على رأسه، ويعتقد أن هذا الرجل يمثل الملك أو يرمز لألمقه معبود سبأ الرئيس، وظلت التأثيرات الأجنبية باقية في نقوش الظهر إذ ظلت توجد صورة البومة باقية وهي تقف على قارورة وسجل بجوارها الرمز الإغريقي AOE الدال على قيمة المسكوكات، والذي أصبح مجرد زخرفة فقط وفقد دلالته الحقيقية بعد تسجيل القيمة النقدية للمسكوكات بخط المسند.

وفي الفترة ما بين سنتي 70 إلى 40 قبل الميلاد صدرت مسكوكات سبئية جديدة نقش على وجهها رأس رجل حوله أغصان الزيتون، وتمثلت التأثيرات الإغريقية في هذه المسكوكات ببقاء صورة البومة الواقفة على القارورة (اللوحة رقم 4).

ويبدو أن المسكوكات السبئية لم تتخلص تمامًا من التأثيرات الأجنبية، فمنذ منتصف القرن الأول قبل الميلاد ضربت مسكوكات مزجت بين التأثيرات الإغريقية والرومانية معًا، فقد نقش على وجه هذه المسكوكات رأس رجل يشبه رأس الإمبراطور الروماني أغسطس Augustus ، أما على الظهر فقد ظلت صورة البومة الواقفة على القارورة تدل على استمرار التأثيرات الإغريقية (اللوحتان رقما 5،6).

سارت مملكة حضرموت على خطى مملكتي قتبان وسبأ في ضرب باكورة مسكوكاتها على النمط الإغريقي، وهذه المملكة التي يرجع تاريخها إلى ما بين منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، وكانت نهايتها في القرن الثالث الميلادي ترجع أقدم مسكوكاتها إلى نحو سنة 350 ق.م، ولم تستمر التأثيرات الأجنبية طويلاً على مسكوكات مملكة حضرموت التي ضربت طرزًا من المسكوكات خلت من أية تأثيرات أجنبية.

أما مملكة حمير التي ترجع أقدم مسكوكاتها إلى حوالي سنة 110 ق.م فقد ضربت في البداية مسكوكات على النمط القتباني مما يعني أنها تأثرت بالمسكوكات الإغريقية، ثم ضربت مسكوكات في عهدها الأول الذي انتهى بحكم الملك ياسر يهنعم الثاني (285 – 300م) تقليدًا لمسكوكات الإمبراطور الروماني أغسطس Augustus. وفي خلال عهدها الثاني (التبابعة) الذي يبدأ بحكم الملك شمر يهرعش الثالث ضربت مملكة حمير مسكوكات تخلصت فيها من التأثيرات الأجنبية، وعرف هذا النوع باسم المسكوكات ذات الرأسين وذلك لنقش رأس رجل على وجه كل مسكوكة وعلى ظهرها (اللوحة رقم 7).

يعد الملك النبطي حارثة الثاني (120 – 96 ق.م) أول من ضرب المسكوكات من ملوك الأنباط، وجاءت مسكوكاته متأثرة بالمسكوكات الإغريقية، فنقش على وجهها رأس رجل يرتدي خوذة ويتجه نحو اليمين، أما على الظهر فتبدو صورة معبودة النصر عند الإغريق (نايكي *Nike*

وحرف A وهو الحرف الأول من اسم الملك حارثة الذي سجل اسمه على المسكوكات باليونانية Arethas ، ثم تخلصت مسكوكاته قليلاً من التأثيرات الأجنبية إذ نقش عليها حرف الهاء بالخط الآرامي في إشارة إلى اسمه حارثة.

أما الملك النبطي حارثة الثالث (85 – 62 ق.م) فقد كان يميل إلى الثقافة الهلنستية حتى لقب بمحب الهلنستية (محب اليونان)، ونقش لقبه هذا على المسكوكات باليونانية (Philhellenos ، وظهرت صورته على وجه المسكوكات أما على الظهر فنقشت صورة معبودة النصر لدى الإغريق (اللوحة رقم 8) (الشكل رقم 1). وتجلت التأثيرات الأجنبية على مسكوكات الملك عبادة الثالث (62 – 59 ق.م)، إذ ظهر التأثير الهلنستي في ملامح الوجه، وطريقة تصفيف الشعر، كما ظهر التأثير البطلمي في صورة الصقر الذي نقش على المسكوكات، وبالرغم من ذلك فقد تخلصت المسكوكات في عهده من الكتابة باللغة اليونانية، إذ يعد أول ملك نبطي سجل اسمه على المسكوكات بالخط النبطي.

وإجمالاً يمكن القول إن المسكوكات النبطية قد تأثرت في بدايتها بالمسكوكات الإغريقية، كما تأثرت بالثقافة الهلنستية فظهر تأثيرها في الصور الآدمية، واستمر ذلك منذ عهد الملك حارثة الثاني (120 – 96 ق.م) وحتى بداية عهد الملك حارثة الرابع (9 ق.م – 40م) (محب أمته Philopatris) الذي شهدت مملكة الأنباط في عهده أوج ازدهارها الحضاري، وترجع إلى عهده أغلب المسكوكات النبطية المعروفة حتى الآن، فلم تظهر على مسكوكاته ومسكوكات الملوك الذين خلفوه حتى سقوط مملكة الأنباط سنة 106م أية تأثيرات أجنبية.

وتأثرت المسكوكات التدمرية بالمسكوكات الرومانية، فسارت على منوالها سواء تلك التي ضربت في تدمر أو في الإسكندرية أثناء فترة التحالف بين مملكة تدمر والرومان الذي استمر منذ بداية عهد الملك وهب اللات سنة 266م وإلى سنة 271م عندما أجبرت مملكة تدمر على الانسحاب من مصر تحت ضغط الرومان، كما تتضح التأثيرات الرومانية على المسكوكات التدمرية في عدم استخدام الخط التدمري، إذ كتبت نقوشها بالخطين اللاتيني واليوناني، ونقشت على المسكوكات التدمرية المضروبة في الإسكندرية صورة الإمبراطور الروماني أورليان Aurelianus (270 – 275م).

ويتجلى التأثير الأجنبي في مسكوكات مملكة الرها بتسجيل كتاباتها بالخط اليوناني إلى جانب الخط الآرامي.

ثانيًا: المسكوكات العربية والأجنبية :

أطلقت كل مملكة على مسكوكاتها عدة أسماء، ومن أسماء المسكوكات القتبانية "خبصت" التي يرى بعض الباحثين أنها تعني المسكوكات المصنوعة من خليط من عدة معادن، في حين يرى آخرون أن "خبصت" تعني المسكوكات الخالية من الغش والتزييف، وأطلقت النقوش السبئية على المسكوكات أسماء مثل: و"بلط"، و"بلطم" الأولى للمفرد والثانية للجمع، و"رضيم" ومعناها المسكوكات الوافية الوزن، و"حي إلم (إيلم)" وهي نوع من المسكوكات نسبت إلى أسرة حازت على حق ضرب المسكوكات.

ومن الأسماء التي أطلقت على مسكوكات ممالك جنوب الجزيرة العربية: "محلييت"، و"قرف"، و"نعم"، و"بد"، و"صبب"، وتتراوح معانيها ما بين: نقد، وعملة، ومسكوك، ومضروب، وضرب، وخالصة من الغش والزيف.

أطلقت نقوش مقابر الحجر (مدائن صالح) على المسكوكات النبطية عدة أسماء هي: "سلعية"، و"سلعين"، وهما نسبةإلى سلع (الرقيم – البتراء) عاصمة مملكة الأنباط، و"حارثية" نسبة إلى الملك حارثة الرابع (9 ق.م – 40م)، ومن أسماء المسكوكات النبطية أيضًا: "كسف" التي وردت في نقش مقبرة الطبيب كهلان بن وائلان، و"كسف" معناها المسكوكات الفضية والبرونزية، ووردت "كسف"

على أحد الفلوس البرونزية المضروبة في عهد الملك حارثة الرابع كما يلي:

النص: ح ر ت ت/ م ل ك/ ن ب ط و/ ر ح م/ ع م هـ/ م ع هـ/ ك س ف.

القراءة: حارثة ملك الأنباط محب أمته معه كسف.

أما عن المسكوكات الأجنبية، فقد تداولت ممالك جنوب الجزيرة العربية المسكوكات الإغريقية منذ القرن الخامس قبل الميلاد، واستمر ذلك حتى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد عندما بدأت مملكة قتبان بضرب مسكوكاتها الخاصة، وفيما بعد هذا التاريخ ظل تداول المسكوكات الأجنبية محدودًا في الممالك العربية، ومن ذلك استخدام مملكة حمير للمسكوكات الذهبية لمملكة أكسوم في المعاملات التجارية الدولية.

أما في شمال الجزيرة العربية فقد أكدت البرديات النبطية التي اكتشفت في كهف الرسائل، وخربة مرد بالقرب من البحر الميت وتعود للفترة من سنة 93 إلى سنة 132م أن الأنباط كانوا يتعاملون في البيع والشراء بالمسكوكات النبطية، وأنهم لم يستخدموا مسكوكات أجنبية في مملكتهم، مما يدل على اعتزازهم بمسكوكاتهم كما يشير ذلك إلى قيمتها النقدية العالية.

وفي سنة 64 ق.م شن القائد الروماني بومبي Pompey حملة ضد مملكة الأنباط لكنه ما لبث أن غادر المنطقة إلى روما وأوكل مهمة متابعة الحملة للقائد سقاروس Saqaros الذي توصل لاتفاق مع الملك حارثة الثالث يدفع بموجبه الأخير جزية للرومان، وبعد عودته إلى روما خلد سقاروس Saqaros حملته على الأنباط بإصدار نقش على وجهه صورة الملك حارثة جاثيًا على ركبتيه بجوار جمل وهو يقدم له غصنًا مما يشير إلى خضوعه لسلطة الرومان، أما على الظهر فتبدو صورة المعبود الروماني جوبيتر يقود عربة تجرها أربعة خيول رمزًا لانتصار الرومان على الأنباط (الشكل رقم 2).

وبعد سقوط مملكة الأنباط على أيدي الرومان سنة 106م أصبح ممثل الرومان في بلاد الشام كورنيلوس بالما Cornelius Palma حاكمًا لمملكة الأنباط نيابة عن الإمبراطور الروماني تراجان Trajan(98 – 117م) وتوقف بالتالي إصدار المسكوكات النبطية وختم على المتداول منها بالشعار الروماني، وتحولت مملكة الأنباط إلى ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية عرفت باسم الكورة العربية Provincia Arabia.

وضرب الرومان مسكوكات يظهر على وجهها صورة تراجان Trajan، وعلى ظهرها صورة فتاة تمثل بلاد العرب تحمل في يدها اليمنى أغصان اللبان وبجانبها جمل وترمز صورة الفتاة والجمل إلى سيطرة الرومان على مملكة الأنباط العربية، وسجل على هذه المسكوكات عبارة ((Arabia Capta ، وتعني هذه العبارة: (إلحاق العرب) أي أنهم صاروا تابعين للإمبراطورية الرومانية، ونقشت العبارة أيضًا على المسكوكات النبطية التي ظلت متداولة بعد سقوط مملكة الأنباط (اللوحة رقم 9)، وبذلك سار تراجان Trajan على نهج سقاروس Saqaros الذي خلد حملته على الملك حارثة الثالث(85 – 62ق.م) بإصدار مسكوكات صور فيها الملك النبطي بجوار جمل، وكأنما صار الجمل رمزًا للأنباط في نظر الرومان.

وقامت في شرق الجزيرة العربية حكومات أو ممالك صغيرة في المدن منذ الألف الثالث قبل الميلاد وذلك لانحصار الاستقرار البشري في بعض مدن الخليج وجزره، مما أدى إلى عدم قيام حكومة ذات سلطة مركزية تخضع لها جميع هذه المدن، عندما ظهر الإسكندر الأكبر على مسرح الأحداث في الشرق أرسل ثلاث حملات استكشافية إلى شرق الجزيرة العربية بقيادة ثلاثة من قواده هم على التوالي: أرخياس Archias وأندروثنيس Androthenes وهييرون Hieron الذي تمكن من الوصول إلى رأس مسندم، كما وصلت القوات الإغريقية إلى جزيرة فيلكا التي أطلق عليها الإغريق اسم إيكاروس

وظل بها الوجود الإغريقي حوالي قرنين (300 – 100 ق.م).

وبعد موت الإسكندر الأكبر سنة 321 ق.م تقاسم قواده السيطرة على البلاد التي فتحها فأسس سلوقس الأول مملكة امتدت من الخليج العربي غربًا إلى بحر إيجة شرقًا، ودخلت بعض مدن شرق الجزيرة العربية تحت حكم السلوقيين، وضربت في مدن شرق الجزيرة العربية مسكوكات تتبع النظام النقدي الذي أسسه الإسكندر الأكبر بعد اعتلائه العرش المقدوني سنة 336 ق.م فسارعت كل ممالك العالم في ذلك الوقت إلى تقليده وضرب مسكوكاتها تقليدًا لمسكوكاته، ونقش على مسكوكات الإسكندر من فئة الدراخما على الوجه رأس هرقل (هيراكليس) المعبود الحارس للإسكندر ويعتقد بعض علماء النميات أن هذه الرأس يرمز للإسكندر نفسه، أما على الظهر فقد نقشت صورة المعبود زيوس جالسًا على العرش وبيده اليسرى صولجان، وبيده اليمني الممدودة نسر، واستمر إصدار هذا الطراز لمدة مائتي سنة بعد وفاة الإسكندر سنة 323 ق.م.

واتبع سلوقس الأول النظام السياسي الذي كان سائدًا في شرق الجزيرة العربية بتقسيم مملكته إلى مدن منفصلة لها سيادة مستقلة ولكل منها نظام خاص في ضرب المسكوكات، وقد كشفت التنقيبات الأثرية التي أجريت في شرق الجزيرة العربية عن وجود مسكوكات في العديد من المواقع مثل: تايلوس (البحرين)، وثاج، وعين جاوان، وجبل بري، والشعبة، ومنجم الملح، والهفوف، وكنزان، وعمانا (الدور)، ومليحة، وإيكاروس (فيلكا)، وتعد المسكوكات المضروبة في شرق الجزيرة العربية مسكوكات أجنبية، فقد ضربتها ممالك غير عربية، وتم تداولها في شرق الجزيرة العربية، وغير مستبعد أن يكون تم تداولها في الممالك العربية نظرًا للعلاقات التجارية الوطيدة التي كانت تربط بين الممالك العربية.

ومن المدن التي ضربت بها المسكوكات الأجنبية في شرق الجزيرة العربية:

عمانا (الدور): يقع ميناء عمانا (الدور) في إمارة أم القيوين بدولة الإمارات العربية المتحدة، ودلت التنقيبات الأثرية التي أجريت به إلى وجود تبادل تجاري بينه وبين بلاد فارس والهند وبلاد الرافدين وممالك جنوب الجزيرة العربية وشمالها، وجاء في الفصل 36 من كتاب دليل البحر الإرتري: (... إذا أبحرت عبر مدخل الخليج مسيرة ستة أيام فهناك مدينة أخرى اسمها عمانا وإليها تأتي سفن محملة بالنحاس وخشب الصندل وخشب التيك وأخشاب الساج والأبنوس...) وتم العثور على العديد من المسكوكات بواسطة البعثات العلمية التي قامت بالتنقيب في الموقع مثل البعثة العراقية سنة 1393هـ/1973م التي عثرت على ثماني مسكوكات ترجع اثنتان منها إلى مملكة ميسان بجنوب بلاد الرافدين (129 ق.م – 223/222م) وعرفت مملكة ميسان أيضًا بشراكس أو خراكس، وتعود المسكوكات الميسانية التي اكتشفت في عمانا (الدور) إلى عهد كل من: الملك أتامبيلوس الرابع (101 – 111م)، والملك أتامبيلوس السادس (180 – 195م).

وعثرت البعثة الفرنسية سنة 1407هـ/1987م على العديد من المسكوكات، كما تم اكتشاف ثلاث جرار بالموقع وجد بإحداها 40 مسكوكة وبالثانية 38 مسكوكة فضلاً عن المئات من المسكوكات التي التقطها الهواة من سطح الموقع، ومن المسكوكات التي عثر عليها بموقع عمانا (الدور) قطعتان من مسكوكات مملكة حضرموت، كما وجدت بالموقع ثلاث مسكوكات نبطية ترجع إلى عهد الملك حارثة الرابع نقشت عليها صورته وصورة زوجته الملكة شقيلة، ونقش على المسكوكات التي ضربت بعمانا (الدور) حروف بخط المسند وباللغات الآرامية أو اليونانية أو اللاتينية، ومن المسكوكات الأجنبية التي ضربت في عمانا (الدور) مسكوكة نقش على وجهها رأس المعبود هرقل، وعلى ظهرها المعبود زيوس جالسًا على عرشه ويسند على ذراعه اليمنى الممتدة حصانًا، بينما تلتف يده اليسرى حول صولجان وأمامه نخلة وحرفا H E (اللوحة رقم 10) ،

ومنها نوع آخر يتميز بوجود ندبة على وجه هرقل. (اللوحة رقم 11)

مليحة: كانت من أهم دور الضرب في شرق الجزيرة العربية، وعثر بها على العديد من المسكوكات (الشكل رقم 3).

فيلكا: عثرت البعثة الدنمركية التي قامت بالتنقيب في فيلكا سنة 1381هـ/1961م على ثلاث عشرة قطعة من المسكوكات السلوقية المضروبة من الفضة والبرونز، ومنها درهم (دراخما) من البرونز نقش على وجهه صورة الملك السلوقي أنطيوخوس الثاني وعلى الظهر معبودة النصر واقفة في قارب على شكل بطة، كما عثرت البعثة على درهم (دراخما) لعهد الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث(223- 187 ق.م)نقش على وجهه صورة الملك أنطيوخوس وعلى الظهر المعبود أبوللو حامي الأسرة السلوقية جالسًا على عرشه وبيده اليمنى سهم وأمام المعبود أبوللو نقش اسم الملك أنطيوخوس وخلفه نقش ختم الضارب باللغة اليونانية (اللوحة رقم 12).

وفي سنة 1404هـ/1984م عثرت البعثة الفرنسية على العديد من المسكوكات في فيلكا ومنها: درهم (دراخما) فضي نقش على وجهه صورة الإسكندر الأكبر وعلى الظهر صورة المعبود زيوس جالسًا على عرشه ويسند على ذراعه اليمنى الممتدة طائر بينما تلتف يده اليسرى حول صولجان، ودراخما فضية نقش على وجهها صورة سلوقس الأول وعلى الظهر المعبود زيوس جالسًا على عرشه ويسند على ذراعه اليمنى الممتدة طائر بينما تلتف يده اليسرى حول صولجان.

ثاج: عثر بها على العديد من المسكوكات الأجنبية (اللوحة رقم 13).

كنزان: يبدو أنها كانت من مراكز الضرب الكبيرة فإلى جانب المئات من المسكوكات النحاسية والبرونزية التي اكتشفت بها فقد عثر بها على ستة قوالب سك من النحاس، كما عثر بها على عشرين درهمًا (دراخما) فضي ترك وجهه خاليًا من النقوش بينما نقش على ظهره صورة المعبود شمس (شمشو) وقد رسمت بطريقة تجريدية وهو جالس على عرش وقد مزج حفار قالب السك بين ساقيه وقوائم العرش ويوجد ما يشبه قبعة عريضة تستقر فوق قمة رقبة المعبود شمس (شمشو)، ويعد هذا المعبود من المعبودات ذات النفوذ في شرق الجزيرة العربية وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن عدة مزارات للمعبود شمس (شمشو) في موقع الدور منها حوض حجري سجلت عليه كتابة من سبعة أسطر بالخط الآرامي، كما عثر بكنزان على مسكوكات برونزية نقش على أحد وجهيها صورة المعبود شمس (شمشو) وترك الوجه الآخر خاليًا.

الجرهاء: لم تتوصل الدراسات الأثرية إلى تحديد موقعها ويرى عبدالرحمن الطيب الأنصاري أنها كانت ميناء عاصمة مملكة كندة الأولى على الخليج العربي "قرية الفاو"، والجرهاء من أهم مراكز ضرب المسكوكات في شرق الجزيرة العربية، وذكر استرابون أن تأسيس الجرهاء يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد وقد ازدهرت في العصر الهللنستي، وجذب موقعها الفريد وتحكمها في طرق التجارة البرية والبحرية أنظار الملك السلوقي أنطيوخس الثالث الذي حاول الاستيلاء عليها سنة 205 ق.م لكن الجرهائيين تصالحوا معه على الجزية، وقد ضربت بالجرهاء مسكوكات خاصة بها عثر عليها في الكثير من المناطق في آسيا الصغرى وإيران وبعض جزر الخليج العربي، ومن نماذج المسكوكات التي ضربت بها مسكوكة من فئة أربع دراهم عثر عليها في فيلكا ويتضح عليها التقليد التام لمسكوكات الإسكندر الأكبر (اللوحة رقم 14)، وعثر في البحرين على مسكوكات من المرجح أن تكون قد ضربت في الجرهاء.

ثالثًا: أماكن ضرب المسكوكات العربية :

ضربت المسكوكات في العديد من عواصم الممالك ومدنها المهمة، ومن المدن التي ضربت بها المسكوكات القتبانية مدينة هجر بن حميد التي انتقلت إليها عاصمة مملكة

قتبان بعد أن احترقت العاصمة تمنع (هجر كحلان) في سنة 50 ق.م. وضربت مملكة قتبان مسكوكات في حريب وذلك في عهد الملك يدع أب نبيان يهرجب (155 – 135 ق.م) الذي يعد أول من سجل اسمه ولقبه على المسكوكات، كما ضربت سلسلة من المسكوكات نقش على وجهها صورة الملك وعلى الظهر صورة لشخص أصغر من صورة الملك وبجوارها نقش مكان الضرب (حريب)، ومن الملوك الذين ضربوا هذه الإصدارات وسجلت أسماؤهم عليها: "أب يدع ينوف"، و"ورو إل غيلان"، و"شهر هلال".

وضربت مملكة سبأ المسكوكات في العاصمتين الأولى صرواح، والثانية مأرب، وضربت مسكوكات سبئية في شبوة عاصمة مملكة حضرموت في القرن الأول قبل الميلاد (اللوحة رقم 15).

أما المسكوكات الحضرمية فقد ضربت في سمهرم (خور روري) وهو الميناء الذي أسسه ملوك حضرموت في القرن الأول قبل الميلاد، وهناك مسكوكات حضرمية نقش عليها كلمة شقر، ويعتقد بعض الباحثين أن شقر هي اسم المكان الذي ضربت فيه المسكوكات، ومن هذه المسكوكات:

الطراز الأول: الوجه: صورة ثور سجل أعلاه اسم المعبود سين وأمامه مكان الضرب "شقر".

الظهر: سجل عليه كلمة "شقر" (الشكل رقم 4).

الطراز الثاني: الوجه: رأس شخص عليه تاج ربما يرمز إلى الملك.

الظهر: تم تسجيل كلمة "شقر"

الطراز الثالث: ضرب في عهد الملك "يشهر إل يهرعش" في منتصف القرن الأول الميلادي:

الوجه: رأس لرجل متجه نحو اليمين، وإلى اليمين كتب اسم المعبود سين بينما كتب حرف الميم إلى اليسار.

الظهر: صورة نسر متجه إلى اليمين ناشرًا جناحيه وإلى اليسار نقشت كلمة "شقر" وسجلت إلى اليمين حروف الياء والشين والهاء (الشكل رقم 5)، ولما كانت كلمة شقر ترمز إلى الهلال فإنها بذلك تشير إلى المعبود القمر ولا تشير إلى المكان الذي ضربت فيه المسكوكات الحضرمية، كما لم يرد من معاني كلمة شقر في المعجم السبئي أنها اسم مكان بل جاء أنها: أكمل، أتم، إكمال، إتمام، رفع إلى النهاية العليا، قمة، جزء أعلى، وكلها مفردات تشير إلى الهلال، وليس إلى اسم مكان.

وضربت مملكة كندة الأولى التي امتدت حضارتها ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الرابع الميلادي، المسكوكات في عاصمتها قرية "قرية ذات كهل"، إذ عثر بها على العديد من المسكوكات الفضية والبرونزية.

ضرب الحميريون المسكوكات في عدة أماكن مثل: يعب (اللوحة رقم 16)، وحريب، وريدان. ويلاحظ أن حريب كانت من أماكن ضرب المسكوكات القتبانية .. ومن الأماكن التي ضربت فيه المسكوكات الحميرية مدينة نجران التي استمرت تصدر المسكوكات حتى سقوط مملكة حمير سنة 525م فقد جاء في المصادر الحميرية أن الملك يوسف أسأر يثأر (517 – 525م) عندما حاصر نجران طلب من زعمائها نقش اسمه على المسكوكات التي كانت تضرب بها، والجدير بالذكر أن حريب، وريدان قصور وليست مدنًا.

وفي شمال بلاد العرب ضربت المسكوكات النبطية في دمشق خلال عهد الملك حارثة الثالث (85 – 62 ق.م) الذي ضم دمشق إلى ملكه سنة 85 ق.م، وظلت المسكوكات النبطية تضرب بدمشق إلى أن استولى عليها تغرانس (دكران) ملك أرمينيا سنة 70 ق.م، وفي عهد الملك مالك الثاني (40 – 70م) ضربت المسكوكات النبطية في دمشق مرة أخرى بعد أن أعادها الأنباط إلى سلطتهم، وكانت الرقيم (سلع – البتراء) عاصمة مملكة الأنباط هي المركز الرئيس لضرب المسكوكات النبطية، وأطلقت نقوش مقابر الحجر (مدائن صالح) على المسكوكات النبطية عدة أسماء منها: سلعين، وسلعية، وبذلك فقد أجمعت نقوش مقابر الحجر على نسبة هذه المسكوكات إلى سلع، فما المقصود بسلع؟ فإذا كانت عاصمة الأنباط عرفت باسم الرقيم، فإني أرجح أن سلع هو اسم آخر لها استنادًا على ما ورد في النقوش

اللحيانية، والسبئية، ونقوش مقابر الحجر (مدائن صالح)، فقد جاء في المعجم السبئي أن سلع وحدة نقد، وجاء في المعجم النبطي أن سلعين: (من سلع أي درهم بالسريانية)، بينما يرى بعض الباحثين: (... أن سلعين نسبة إلى سلع منطقة الرقيم ...).

ويؤكد بعض المؤرخين والجغرافيين أن سلع هو اسم عاصمة مملكة الأنباط، ومنهم:

ياقوت الحموي الذي ذكر أن سلع حصن بوادي موسى، ويقول جواد علي: (... أن بتراء هي عاصمة النبط وتعني في العربية الصخر أما اسمها القديم فسلع ويعني أيضًا الصخر في لغة الأدوميين...)، ويشير عمر فروخ إلى أن سلع هي البتراء بقوله: (...نزل الأنباط في سلع منذ القرن السادس قبل الميلاد ... والسلع: الشق في الجبل. وسلع حصن بوادي موسى من عمل الشوبك...)، ويؤكد عمر فروخ أن سلع هي البتراء قائلا: (...إن النبط أهل سلع تسمى بلادهم بترا اتباعًا للتسمية اليونانية...).

ويذكر أرنولد جونز أن سلع هي البتراء بقوله: (... وهناك مدينة كانت على وجه اليقين ذات شأن وهي قائمة في واحة الصحراء الجنوبية عرفها اليونان باسم بترا وربما ذكرت في العهد القديم باسمها السامي سلع أي الصخرة ...)، ويرى محمد بيومي مهران أن: (...البتراء كلمة يونانية تعني الصخرة، ولعلها ترجمة للكلمة العبرانية سلع التي جاءت في التوراة "أشعيا 16:1، 42:11" والتي كانت تطلق على البتراء من قبل، كما تعني كذلك الشق في الصخر، وربما كانت التسمية العبرية أكثر دقة، لأن مدخل البتراء اليوم يتسم بوجود أخدود عميق بين جبلين يعرف اليوم بالسيق، ولعله لفظ نبطي متوارث، حرفه الناس عن الشق...)، وكانت سلع (البتراء) ضمن مملكة أدوم القديمة حتى جاء الأنباط فطردوا الأدوميين واستولوا عليها.

وقد ورد في أحد النقوش اللحيانية التي عثر عليها في (ديدان) العلا عاصمة مملكة ديدان ولحيان كلمة: (ذ أس ل ع ن) ذ أسلعن (النقش: أبو الحسن 221)، وقد فسرت على أن السلع هو الشق في الجبل، وقد جاءت في هذا النقش كصفة للملك أي: صاحب الجبال ذات السلوع (جمع سلع) أو ملك الجبال ذات السلوع، وإذا لم تكن سلع من أسماء الرقيم (البتراء) عاصمة الأنباط فإنها "أي سلع" واستنادًا إلى نقوش مقابر الحجر، والنقش اللحياني(أبو الحسن 221) تقع في الحجر (مدائن صالح) أو جوارها وضربت فيها المسكوكات النبطية منذ عهد الملك حارثة الرابع وحتى نهاية مملكة الأنباط (9 ق.م – 106م).

أما المسكوكات التدمرية فقد ضربت في تدمر، وبعد استيلاء مملكة تدمر على مصر من الرومان ضربت المسكوكات التدمرية في الإسكندرية في الفترة ما بين سنتي 270 إلى 271م (علي 1969: 3/117)، وضربت مسكوكات مملكة الرها في العاصمة (الرها) إذ نقش على مسكوكات الملك أبجر التاسع (214 – 216م) اسمها باللغة اليونانية كما يلي: M.A.K. AVP EDECC.

أما في شرق الجزيرة العربية فقد ضربت المسكوكات كما سبقت الإشارة إلى ذلك في عدة مدن مثل: عمانا (الدور)، ومليحة التي عثر بها على قالب سك مصنوع من الحجر سنة 1410هـ/1990م ويحمل ذلك القالب سلسلة من أشكال رأس المعبود هرقل التي تظهر عادة على وجه المسكوكات المضروبة على نمط مسكوكات الإسكندر الأكبر، ويؤكد هذا القالب أن مليحة كانت إحدى دور ضرب المسكوكات الأجنبية في شرق الجزيرة العربية(الشكل رقم5)، وثاج التي عثر بها على قالب سك من الطين قطره حوالي 2 سم نقش عليه صورة شخص جالس على عرشه وبيده صولجان وبجواره نسر، أما الجرهاء فقد ضربت بها المسكوكات وعثر على نماذج منها في آسيا الصغرى وإيران وبعض جزر الخليج العربي.

رابعًا: القيم النقدية للمسكوكات العربية وتداولها بين الممالك :

بالرغم من أن المسكوكات العربية المبكرة تأثرت في نقوشها بالمسكوكات الإغريقية، نتيجة للتبادل التجاري بين

العرب والإغريق؛ إلا أن المسكوكات العربية ضربت في البداية على معيار الدرهم البابلي الذي يبلغ وزنه 5.6 جرامات، واستمر العمل بهذا المعيار منذ أوائل القرن الرابع قبل الميلاد حتى النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، فصارت أغلب المسكوكات العربية تضرب وفقًا لوزن الدينار الروماني بعد أن أصبحت الإمبراطورية الرومانية الشريك التجاري الرئيس للممالك العربية .. وعرف النظام النقدي العربي الفئات العشرية للمسكوكات مثل: النصف، والربع، والثمن، والسدس.

إلى جانب ذلك ضربت مملكة قتبان مسكوكات اتبعت وزن الدرهم الإغريقي الذي يتراوح وزنه ما بين 4.9 – 4.3 جرامات، وسجل عليها حرف النون بخط المسند دلالة على قيمتها النقدية، وكانت هذه المسكوكات مخصصة للتجارة الدولية، نظرًا لقيمتها النقدية العالية، بينما نقش على المسكوكات التي توازي نصف الدرهم الإغريقي وثلثه حرف الهاء بخط المسند. وضربت مملكة قتبان المسكوكات من الفضة والذهب، وترجع المسكوكات الذهبية إلى عهد الملوك: "أب يدع ينوف"، و "ورو إل غيلان"، و "شهر هلال"؛ هذا ولم يعثر إلى الآن على مسكوكات قتبانية ضربت من البرونز.

نقش على المسكوكات السبئية حروف بخط المسند تدل على القيمة النقدية، فحرف النون يدل على الوحدة النقدية الكاملة، وحرف التاء يدل على نصف الوحدة النقدية، وحرف الشين يدل على ربع الوحدة.

وكانت المسكوكات الحضرمية من المسكوكات ذات القيم النقدية العالية، وعرفت المسكوكات البرونزية التي ضربت في عهد الملك يشهر إل يهرعش في منتصف القرن الأول الميلادي رواجًا كبيرًا في جنوب الجزيرة العربية، واستمر سكها حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، وبالرغم من أن ضرب المسكوكات الحضرمية قد توقف في منتصف القرن الثالث الميلادي؛ إلا أنها ظلت متداولة في جنوب الجزيرة العربية حتى بداية القرن الرابع الميلادي.

تداول الحميريون المسكوكات بفئاتها المختلفة، إذ أشار كتاب "القوانين الحميرية" إلى استخدام القطع الكاملة والنصف والثلث والسدس ونصف السدس, وقد أشرنا سابقًا إلى استخدام الحميريين مسكوكات مملكة أكسوم الذهبية في مجال التجارة الدولية مما يشير إلى تدني قيمة مسكوكاتهم.

أما في شمال الجزيرة العربية كان النظام النقدي النبطي يقوم على الفئات المتعددة مثل: النصف والربع، وكان الأنباط يضربون مسكوكات محلية خاصة بالتداول داخل المدن بجانب المسكوكات الرسمية للدولة والتي كانت تستخدم في التجارة الدولية. وأكدت البرديات النبطية - تعود إلى الفترة من سنة 93 إلى سنة 132م – وعثر عليها في كهف الرسائل وخربة مرد بالقرب من البحر الميت -أن الأنباط كانوا يتعاملون في البيع والشراء بالمسكوكات النبطية وأنهم لم يستخدموا مسكوكات أجنبية في مملكتهم، مما يدل على اعتزازهم بمسكوكاتهم كما يشير إلى قيمتها النقدية العالية مقارنة مع مسكوكات الممالك المعاصرة.

مرت المسكوكات النبطية بفترتين تبدأ الأولى من عهد الملك حارثة الثاني حتى السنة السابعة بعد الميلاد، حيث كانت المسكوكات ذات قيمة نقدية مرتفعة بلغت فيها نسبة الفضة ما بين 63% إلى 96% لتتمكن من منافسة الدينار الروماني في التجارة الدولية، أما الفترة الثانية فتبدأ من السنة السابعة بعد الميلاد وحتى سقوط مملكة الأنباط سنة 106م وفيها تدهورت القيم النقدية للمسكوكات النبطية إذ تراجعت نسبة الفضة بين 20% إلى 40%، وضرب الملك عبادة الثاني (62 – 59ق.م) المسكوكات الفضية، فقط في ضوء ما وصلنا إلى الآن لذا تعد مسكوكاته من أندر المسكوكات النبطية، وتتراوح نسبة الفضة بها ما بين 87 – 96% (الرواحنة 2002: 64-65). ويبدو أن الاقتصاد قد تردى في عهد الملك عبادة الثالث (30 – 9ق.م) الذي ضرب نوعين من المسكوكات الأول صدر في بداية حكمه وكان على وزن المسكوكات البطلمية، لذا فقد عرف بالمسكوكات البطلمية، أما النوع الثاني فقد صدر بين السنة

العاشرة والسنة العشرين من حكمه وعرف بالمسكوكات اليونانية؛ لأن وزنها كان على وزن المسكوكات اليونانية.

ثم تحسنت الأحوال الاقتصادية في عهد الملك حارثة الرابع (9 ق.م – 40م) وعرفت مملكة الأنباط رواجًا اقتصاديًا وازدهارًا حضاريًا ونهضة عمرانية واسعة، ولا تكاد سنة من سنوات حكم حارثة الرابع تمر من دون أن تضرب خلالها مسكوكات حتى قيل إن من بين كل عشر مسكوكات نبطية معروفة توجد ثمانٍ ضربت في عهد حارثة الرابع.

أما في شرق الجزيرة العربية فقد كانت كل المسكوكات التي ضربت فيها تتبع النظام النقدي الذي أسسه الإسكندر الأكبر واستمر لمدة مائتي عام بعد وفاته سنة 323 ق.م.

تداولت الممالك العربية المسكوكات فيما بينها، ومما يؤكد هذا التبادل وجود مسكوكات قتبانية سجلت عليها كتابات آرامية، ولحيانية، والخط الآرامي والخط اللحياني كتبت بهما ممالك شمال بلاد العرب مثل: مملكة ديدان ولحيان، ومملكة الأنباط، ومملكة تدمر، وفيما بين سنتي 40 – 24 ق.م أصدرت مملكة سبأ مسكوكات سجلت عليها كتابات بالآرامية واللحيانية (اللوحة رقم 17)، مما يؤكد تداول هذه المسكوكات في الممالك العربية الشمالية، وأشارت النقوش السبئية إلى تداول المسكوكات النبطية في مملكة سبأ فقد جاء في أحد النقوش أن عقوبة طرد فرد من المعبد هي دفع خمس قطع "سلعم"، وكما يتضح من الاسم فإن "سلعم" نسبة إلى سلع (الرقيم – البتراء) عاصمة مملكة الأنباط. وضربت مملكة معين مسكوكات تقليدًا لمسكوكات الإسكندر الأكبر، وتعد مسكوكات مملكة معين من أكثر المسكوكات العربية انتشارًا في الممالك العربية وخارج بلاد العرب، وذلك لأن نشاطها التجاري لم يقتصر على حدود الجزيرة العربية فقط، بل امتد ليصل إلى اليونان، حيث عثر على نقش معيني يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد ذكر فيه المعبود المعيني ود.

كما ارتبطت مملكة معين بصلات تجارية وثيقة مع مصر فقد عثر في الجيزة على نقش كتب بالخط المسند ومؤرخ في السنة الثانية والعشرين من حكم الملك البطلمي بطليموس الثاني (السنة 264 ق.م) والنقش عبارة عن لوحة وضعت على قبر التاجر المعيني زيد إل الذي مات في مصر ودفن بها، وكان زيد إل يقوم بنقل المر والقرفة من جنوب الجزيرة العربية إلى المعابد المصرية لذا فقد سجل على النقش أن قبره أقيم على نفقة المعابد المصرية تقديرًا للدور الذي قام به في تزويد تلك المعابد بالطيوب وإمعانًا في الاحترام والتقدير أطلق المصريون على زيد إل لقب الكاهن المطهر.

وكانت لمملكة معين جاليات تجارية تقيم في ديدان (العلا) عاصمة مملكة ديدان ولحيان؛ لتشرف على التجارة القادمة من مملكة معين. وأطلقت النقوش على ديدان (العلا) اسم معين مصرن أي معين المصرية لكونها تمثل نقطة الاتصال التجاري مع مصر، وكان للجالية المعينية المقيمة في ديدان (العلا) رئيس مسؤول أمام الملك اللحياني عن سلوك التجار المعينيين وممارستهم وجباية الضرائب منهم.

وإذا كانت هناك مسكوكات قتبانية وسبئية نقشت عليها عبارات بالخطين الآرامي واللحياني، فإن مملكة ديدان ولحيان التي قامت في شمال جزيرة العرب واستمرت فيما بين القرنين السادس والثاني قبل الميلاد لم نعرف حتى الآن مسكوكات خاصة بها بالرغم من إشارة النقوش اللحيانية للمسكوكات وتداولها، ومن النقوش اللحيانية التي أشارت إلى المسكوكات:

النقش الأول: (أفصي بن معن أطلل "زكا/زكى" عن فرضه وسلع له "وعن" نخل بذي عمن). (النقش أبو الحسن 128)، يتحدث هذا النقش عن شخص اسمه أفصي بن معن قدم الزكاة الواجبة عليه عن النخل الموجود في مكان اسمه ذي عمن، والذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى كلمة "سلع".

النقش الثاني: يذكر هذا النقش "أن رجلاً اشترى عشرة مناهل مياه دفع فيها 40 سلعت"(النقش – JS 177L).

وذكر فيرنر كاسكل أن اللحيانيين قد تداولوا "...الدراخما (الدراهم) الفضية للملك النبطي حارثة الرابع...". والجدير بالذكر أن كاسكل يجعل نهاية مملكة ديدان ولحيان في القرن الأول الميلادي، ولذلك يعتقد بأنهم تداولوا مسكوكات الملك حارثة الرابع (9 ق.م – 40م)، كما أكد أنهم ضربوا مسكوكاتهم الخاصة ويصفها بأنها "...نفس عملة جنوب شبه الجزيرة العربية المتداولة منذ القرن الثاني وبداية القرن الأول قبل الميلاد..." وقسمها إلى نوعين:

الأول: الوجه: صورة المعبودة أثينا.

الظهر: صورة بومة وحولها كتابة لحيانية.

الثاني: الوجه: رأس شخص غير ملتح ضفرت ذوائب شعره المسترسل على الجانبين.

الظهر: صورة بومة تقف على قارورة وحولها كتابة لحيانية، ويذكر كاسكل أن هذه المسكوكات قد أطلق عليها اسم "***ولمن***" التي تعني متوج أو وليمة.

وهذا الوصف الذي يقدمه كاسكل للمسكوكات اللحيانية ينطبق تمامًا على المسكوكات القتبانية والسبئية مما يجعل الباحث يأخذ ما توصل إليه كاسكل بكثير من الحذر فربما يكون ما اعتقد أنها مسكوكات لحيانية ما هي إلا المسكوكات القتبانية والسبئية التي نقشت عليها كتابات لحيانية وآرامية والتي سبق الإشارة إليها من قبل، خاصة وأن هذه المسكوكات التي ذكرها كاسكل قد عثر عليها في جنوب الجزيرة العربية.

وعثر "بقرية" بالفاو عاصمة مملكة كندة على الكثير من مسكوكات ممالك سبأ، وحضرموت، وحمير، والقليل من مسكوكات ممالك قتبان، ومعين، والأنباط.

وفي شرق الجزيرة العربية عثر على مسكوكات معينية في جزيرة فيلكا، وعثر على مسكوكات حضرمية، ومسكوكات نبطية تعود لعهد الملك حارثة الرابع في عمانا (الدور)، واستمر تداول مسكوكات الممالك العربية حتى ظهور الإسلام فقد روى البلاذري في فتوح البلدان عن محمد بن سعد عن الواقدي عن عثمان بن عبدالله عن أبيه قال: سألت سعيد بن المسيب: من أول من ضرب الدينار المنقوش؟ فأجاب: عبدالملك بن مروان، والدنانير التي كانت مستخدمة من قبل كانت بيزنطية والدراهم فارسية وبعضها حميري.

خامسًا: الشخصيات والرموز على المسكوكات العربية :

ضرب في أوائل القرن الثاني الميلادي طراز جديد من المسكوكات القتبانية نقش عليها صورة الملك القتباني (اللوحة رقم 3)، ويعد الملك القتباني "يدع أب ذبيان يهرجب"(155 – 135 ق.م) أول من سجل اسمه ولقبه على المسكوكات، ومن الملوك القتبانيين الذين نقشت أسماؤهم على المسكوكات: "أب يدع ينوف"، و"ورو إل غيلان"، و"شهر هلال"، ونقشت صور الملوك على المسكوكات السبئية، والحضرمية، والحميرية .. ومن الملوك الحميريين الذين نقشت صورهم على المسكوكات: "كرب إل يهنعم"، و"عمدان بين يهقبض"، و"شمنر (شمدر) يهنعم"، و"ثأرن يعب يهنعم"، ونقش على مسكوكات مملكة كندة اسم معبودها الرئيس كهل في الوجه، وعلى الظهر صورة رجل واقف أو جالس يحيط به أحرف من خط المسند، ويرجح أن يرمز هذا الرجل للمعبود كهل.

كان الملك حارثة الثالث (85 – 62 ق.م) أول ملك نبطي تظهر صورته على المسكوكات (اللوحة رقم 8)، واستمر فيما بعد نقش صور ملوك الأنباط على المسكوكات، وإذا كان الملك حارثة الثالث هو أول ملك نبطي تظهر صورته على المسكوكات، فإن الملك عبادة الثالث(30 – 9ق.م) كان أول من نقش صورة الملكة على المسكوكات، حيث ظهر على مسكوكاته صورة الملك في الوجه، وصورة الملك والملكة على الظهر، ويشهد ذلك على المكانة العالية التي بلغتها النساء بصفة عامة والملكات بصفة خاصة في المجتمع النبطي.

وفي عهد الملك حارثة الرابع (9ق.م – 40م) ظهرت صورة الملك على الوجه، وصورة الملكة خلدة على الظهر وحولها عبارة: "الملكة خلدة ملكة الأنباط" (اللوحة رقم

18)، وبعد وفاتها وزواج الملك من الملكة شقيلة فإن الأخيرة لم تظهر صورتها إلا مع صورة الملك (اللوحة رقم 19)، مما يدل على مكانة الملكة خلدة المتميزة لدى الملك حارثة الرابع، وضرب الملك حارثة الرابع نقدًا تذكاريًا باسم ابنه فصي إل.

أما الملك مالك الثاني (40 – 70م) فنقش صورته على وجه المسكوكات، وصورة زوجته الملكة شقيلة على الظهر، وتعد الملكة شقيلة الوحيدة من ملكات الأنباط التي نقشت صورتها على المسكوكات في عهدي كل من: زوجها الملك مالك الثاني، وابنها الملك رب إل الثاني (70 – 106م) عندما كانت وصية عليه فيما بين سنتي 70 – 75م، ثم حلت محلها صورة الملكة جميلة زوجة الملك رب إل الثاني، ويبدو أن الملك رب إل الثاني قد تزوج بزوجة ثانية بعد الملكة جميلة هي هاجر فقد ضرب مسكوكات نقش على وجهها صورته وصورة زوجته الثانية، أما على الظهر فقد نقشت زخرفة قرون الرخاء وعبارة: رب إل، هجرو (هاجر).

ونقش على المسكوكات التدمرية المضروبة في تدمر صورة الملكة الزباء وابنها الملك وهب اللات، أما المسكوكات التدمرية التي ضربت بالإسكندرية، فقد نقش عليها صورة نصفية لكل من الملك التدمري وهب اللات، والإمبراطور الروماني أورليان Aurelianus، ونقش عليها اسم الإمبراطور ولقبه Augustus، ولقب الملك وهب اللات:

Vir Clarissimus Rex Imperator Dux Romanorum

ولكن العلاقات بين الرومان ومملكة تدمر ما لبثت أن تدهورت فأقدمت الملكة الزباء على حذف صورة الإمبراطور أورليان Aurelianus واسمه ولقبه من المسكوكات التدمرية المضروبة في الإسكندرية، واكتفت بنقش صورة ابنها الملك وهب اللات فقط، وإمعانًا في تحدي الرومان نقشت على المسكوكات لقب ابنها ملك الملوك مما أثار حفيظة الرومان، وكان ذلك من الأسباب التي دعت إلى قيام الرومان باحتلال تدمر سنة 273م.

ونقشت أسماء ملوك مملكة الرها على المسكوكات، فقد نقش كل من: الملك وائل شهرو (163 – 165م)، والملك أبجر الثامن (165 – 167م) اسميهما على المسكوكات باللغة الآرامية، أما الملك معنو (معن) الثامن (167 – 179م) فقد ظهر اسمه على المسكوكات باللغتين الآرامية واليونانية، في حين نقش الملك أبجر التاسع (214 – 216م) اسمه على المسكوكات باللغة اليونانية فقط.

وفي شرق الجزيرة حيث سادت المسكوكات الأجنبية الإغريقية والسلوقية نقش على المسكوكات الإغريقية صور الإسكندر الأكبر، والمعبودين زيوس وهرقل (اللوحة رقم 10)، ونقش على المسكوكات السلوقية صور الملوك السلوقيين مثل: الملك أنطيوخوس الثالث (223 – 187 ق.م)، والمعبود أبوللو حامي الأسرة السلوقية (اللوحة رقم 12).

ونقشت على المسكوكات العربية الكثير من الرموز ذات الدلالات الدينية والسياسية والاقتصادية، ومن الرموز التي ظهرت على المسكوكات القتبانية الهلال الذي يرمز إلى "عم" المعبود الرئيس لمملكة قتبان. ومن الرموز التي نقشت على المسكوكات السبئية رمز معبود سبأ الرئيس "المقه" وهو عبارة عن هراوة (الشكل رقم 6)، كما نقش على المسكوكات السبئية المضروبة في شبوة عاصمة مملكة حضرموت رأس ثور يشير إلى المعبود سين (اللوحة رقم 20)، وقد تأثرت المسكوكات الحضرمية بهذا النوع كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وشاعت رسوم الثيران على المسكوكات الحضرمية؛ لأن المعبود سين هو المعبود الرئيس لمملكة حضرموت، وقد نقش على بعض المسكوكات الحضرمية الثور كاملاً وكتب بجواره بخط المسند اسم المعبود سين (الشكل رقم 7)، ونقش على المسكوكات الحميرية رموز اختلف في تفسيرها وإن كان هناك من يرى أنها تشير إلى بعض الأسر الحاكمة.

ونقش على المسكوكات النبطية رموز مثل: النسر النبطي، وراحة اليد، وظهرت هذه الرموز منذ عهد الملك مالك الأول (59 – 30 ق.م)، ويرمز النسر إلى معبود الأنباط الرئيس ذي الشرى.

ونقش على المسكوكات التدمرية رموز لمعبودات تدمرية ورومانية (الشكل رقم 8) ومن الرموز التي نقشت على المسكوكات التدمرية أشجار النخيل التي ترمز إلى تدمر، التي عرفت بالاسم الأجنبي بالميرا *Palmyra* الذي يعني مدينة النخيل وعرفت به المدينة منذ عهد الإسكندر الأكبر لما اشتهرت به المدينة من كثرة أشجار النخيل، كما نقشت على بعض المسكوكات التدمرية صورة معبودة تحمل بيدها اليسرى سلتين رمزًا للوفرة والرخاء، ومن الرموز التي نقشت على مسكوكات مملكة الرها صورة لمعبد إل وذلك على مسكوكات الملك وائل شهرو (163 - 165م) (الشكل رقم 9)، ومن الرموز الأخرى على مسكوكات مملكة الرها صورة شخص يحمل بيده اليمنى رمحًا طويلاً ويتكئ بيده اليسرى على قوس، وربما يرمز هذا الشخص لأحد المعبودات الخاصة بمملكة الرها، وقد نقش هذا الرمز على مسكوكات الملك معنو (معن) الثامن (167 - 179م) (الشكل رقم 10).

سادسًا: المسكوكات في النقوش والوثائق :

لم تكتف مملكة قتبان بإصدار المسكوكات فقط بل كان لديها قانون تجاري يعكس مدى التطور الحضاري الذي بلغته الممالك العربية قبل الإسلام وأعني به قانون تمنع التجاري الذي كان يهدف إلى تنظيم التجارة في العاصمة تمنع وكافة أجزاء المملكة القتبانية، ويتكون من أربعة وعشرين بندًا أشار البند التاسع منها إلى المسكوكات على النحو التالي: "من حاول الغش وكرر ذلك على أخيه التاجر عليه دفع غرامة قدرها 50 قطعة ذهبية"، ويشير هذا البند إلى المسكوكات الذهبية التي ضربت بحريب في عهد كل من: "أب يدع ينوف"، و"ورو إل غيلان"، و"شهر هلال".

وأشارت النقوش السبئية إلى المسكوكات والتعامل بها في المعاملات اليومية وذكرت النقوش أسماء المسكوكات المتداولة مثل "بلط" و"رضيم" و"حي أليم" ومن تلك النقوش:

- (...تلك الأمور الواجبة أو الملزمة على بني العهر الصرواحيين أتباع ذي حبيب وأولادهم من وثيقة الدين التي قيمتها ستمائة بلط رضيم التي أقر بها العهر لبني شهر على ذي إل ذرا...).
- (...أمضي وصدق أبكرب بن يقدم إل بن عنان لمجلس الستة المكون من أقيان صرواح أربعمائة قطعة نقدية بلطية صحيحة لنشأ كرب من بني حبيب أمراء صرواح...) .
- (...أقر ظبيم بن فأفامن الآن بأنهم أعطوا وأدوا ودفعوا لأشوع ذي كرب ويعهن بن صرواح عبدي عنان ذو ذ رأن كل النقود البلط التي دونت في وثيقة الدين المبلغ الذي قدره 30 بطلم رضيم...) .
- (...بلطتان صحيحتان من زالج ذو مزيد بما يساوي ثمن محصول قيدت دينًا عليك لصالح بني مقار...).
- (...مبلغ من القطع النقدية من نوع حي أليم يضمنه رب إل ذو نشان عن سعدلات ذي مزيد نظير المبلغ الذي عليه دينًا لأرن يدع المعبود الحامي ويسلم الوَرِق لأحد بني شأم عنوق القائمين على المعبد...).

وأشارت النقوش السبئية إلى المسكوكات ضمن التشريعات الدينية التي نصت على دفع غرامات مالية على بعض المخالفات المتعلقة بالعبادة مثل:

- مخالفة نظام استلهام المعبودات واستطلاع وحيها حددت بغرامة قدرها عشرون قطعة نقدية.(النقش نامي 74) .
- عقوبة دخول المعبد بسلاح ملطخ بالدماء . (...يدفع غرامة لأهل عثتر ولكهنة عثتر عشر قطع نقدية من حي أليم ...). (النقش – CIH 548) (...حي أليم

اسم أسرة حازت على حق سك عملة سبئية وقد ظلت هذه العملة تحمل اسمها لمدة طويلة...) .

- عقوبة الدخول للمعبد بملابس نجسة هي دفع عشر قطع نقدية من نوع حي أليم .
- عقوبة الاعتداء على أوقاف المعبود دفع غرامة قدرها خمسون قطعة بلطية تامة .
- عقوبة رد أو طرد فرد من المعبد دفع خمس قطع سلعم .
- (... وكان فرض له من سلعتم فأنفقها فتضرع وذسموي...).
- (...سوى من عشرين من نوع رضيم...). (النقش – Sch/Marib 24) .
- (...اتفقا وتعاهدا هلك أمر بن عنمة وحم عثت عبد ذرح إل بن يدع أب ليهفرع بن ذرح إل ألف قطعة بلطية خالصة من نوع حي أليم...). (النقش – CIH 376) .
- (... ومن يداوم على ذلك الرعي في الحمى فيدفع غرامة لتالب والشعب قدرها خمسون قطعة بلطية صحيحة...). (النقش – Mafray-al Adan 10+11+12) .
- (... يدفع غرامة خمسة بلط عن كل مرة يفعل فيها ذلك...). (النقش - روبان المشامين 14/1).

وأشارت الوثائق والمصادر الحميرية إلى المسكوكات التي يأتي في مقدمتها قانون سجل على قطعة من الحجر محفوظة في المتحف البريطاني وجاء فيه: (هكذا أمر وقرر وثبت ودون الملك شمر يهرعش ملك سبأ وذو ريدان لرعاياه قبيلة سبأ أعيان مدينة مأرب ووديانها فيما يتعلق بكل بيع ومعاملة سيقومون بها...) ثم يتطرق القانون إلى ذكر المسكوكات حيث نص على: (...وإذا استعار أحدهم أو أعار نقودًا أو أموالاً عينية فإما أن ينص على أجرة أو تسديد ...) .

ومن المصادر الحميرية التي أشارت إلى المسكوكات كتاب "القوانين الحميرية" وهي مجموعة من القوانين تحدثت عن سيرة الأسقف جرجنتي الذي عين أسقفًا على ظفار (قرب يريم) بعد الاحتلال الحبشي لمملكة حمير في إطار سعى الإمبراطورية البيزنطية ومملكة الحبشة لتحويل اليمن إلى الديانة المسيحية بعد حادثة الأخدود، واختلف المؤرخون حول تطبيق القوانين الحميرية، وتتكون هذه القوانين من أربعة وستين بندًا أشار أثنان منها إلى المسكوكات وهما:

- البند الثالث عشر: "يلزم كل والد بتدبير زواج أبنائه منذ بلوغهم سن العاشرة حتى سن الثانية عشر، إلا في حالة المرض، وكل من يخالف هذا التنظيم يعاقب بدفع غرامة مالية إلى حاكم المنطقة، وهي كالتالي: إذا كان إنيًا يدفع 6 قطع ذهبية وإذا كانت حالته المادية متوسطة يدفع 3 قطع ذهبية، ولمن أقل من المتوسط يدفع قطعة واحدة، أما ما دون ذلك ويختلف المقدار حتى يصل إلى ثلث قطعة وسدس وأخيرًا نصف السدس" .
- البند الخامس عشر: "كل فرد يرى فردًا يرتكب عملاً سيئًا أو مخالفًا للقانون ولا يبلغ عنه الحاكم يجب أن يجلد اثنتين وسبعين جلدة إن كان إنيًا، أما إذا كان فقيرًا فيدفع غرامة قدرها 4 قطع من الذهب أو ثلاث قطع أو قطعتين أو قطعة ذهبية حسب استطاعته"، ومن المصادر الحميرية التي أشارت إلى المسكوكات كتاب" استشهاد الحارث" (الحارث بن كعب زعيم نجران أثناء حادثة الأخدود).

وأشارت نقوش مقابر الحجر (مدائن صالح) إلى المسكوكات النبطية، وشهدت الحجر (مدائن صالح) في عهد الملك حارثة الرابع (9ق.م – 40م) حركة عمرانية واسعة فتحولت إلى عاصمة ثانية للأنباط بعد الرقيم (سلع - البتراء)، ويوجد بالحجر (مدائن صالح) مجموعة كبيرة من المقابر تضاهي مثيلاتها في الرقيم

(سلع - البتراء) وتزيد عليها من الناحية التوثيقية حيث تحتوى مقابر الحجر (مدائن صالح) على نقوش تذكر أسماء أصحاب المقابر والتواريخ التي شيدت فيها، والذي يعنينا هنا هو نقوش المقابر التي ورد فيها ذكر المسكوكات النبطية، ومن المقابر التي تحدثت نقوشها عن المسكوكات:

1- نقش مقبرة كمكم ابنة وائلة ابنة حرام، والمقبرة مؤرخة في ديسمبر السنة الأولى قبل الميلاد - يناير السنة الأولى الميلادية، وذكرت المسكوكات في الأسطر (7 - 9):

وذريتهما وكل من لا ينفذ المكتوب هنا سوف يعاقب من ذي الشرى وهبل ومناة بخمس لعنات، وللكاهن بغرامة ألف قطعة حارثية من مدينة سلع"البتراء" وهناك قراءة أخرى للسطرين الثامن والتاسع: لذو شرى وهبل ومناة خمس وحدات نقدية وللكاهن غرامةألف قطع حارثية ....

واختلاف القراءة جاء حول تفسير كل من: عبدالرحمن الطيب الأنصاري، وسليمان الذييب، وجون هيلي لكلمة: (شمدين) ففي حين فسرها الأنصاري "لعنات"، فإن الذييب، وجون هيلي رغم اتفاقهما مع الأنصاري في أن الكلمة من الجذر (ش م د) والتي تعني في السريانية لعن إلا أنهما يرجحان أنها تعني في هذا النقش: وحدة نقدية .

وقد نسب نقش مقبرة كمكم ونقوش مقابر الحجر الأخرى المسكوكات إلى مدينة سلع (الرقيم - البتراء)، حيث نلاحظ دائمًا كلمة سلع أو عبارة سلعية حارثية نسبة للعاصمة أو المكان الذي ضربت فيه المسكوكات، وحارثية نسبة للملك حارثة الرابع، وسوف يستمر ذلك حتى عهد الملك رب إل الثاني آخر ملوك الأنباط، واتفق عبدالرحمن الطيب الأنصاري، وجون هيلي في نسبة المسكوكات إلى سلع، فقد جاءت قراءة هيلي كما يلي:

- (... for a fine of a thousand Haretite sela's {sl ‘yn}...)

2- نقش مقبرة حوشب بن نافي بن الكوف التيمائي المؤرخة في السنة الرابعة الميلادية، وقد ورد ذكر المسكوكات في الأسطر (6 – 8):

يؤجر أو يهب أو يعير لبرهة (هذه المقبرة) وكل من ينفذ غير ما هو

مكتوب أعلاه سوف يغرم لذي شرى الإله بسبب انتهاك الممنوعات المذكورة أعلاه

ألف قطعة عملة سلعية حارثية ولسيدنا الحارثة الملك مثلها.

3- نقش مقبرة منعة وهجر ابنا عميرة بن وهب، والمقبرة مؤرخة في السنة السابعة بعد الميلاد، وذكرت المسكوكات في الأسطر (6 – 9):

للإله مبلغ ألف قطع حارثية ولسيدنا حارثة مثلها مبلغ ألف قطعة حارثية ولمناة الإلهة مبلغ خمسمائة قطعة ...

4- نقش مقبرة الطبيب كهلان بن وائلان المؤرخة في أبريل – مايو سنة 26م، وورد ذكر المسكوكات في السطرين السابع والثامن:

سوف يكون ملزمًا لذي الشرى بدفع قطع (كسف) سلعية (سلع – البتراء) قدرها ثلاثة آلاف حارثية ولسيدنا حارثة الملك مثلها ويلعن ذو الشرى ومناة كل من يغير مما هو أعلاه .

5- نقش مقبرة خلف بن قسننتن المؤرخة في سنة 31م، وجاء ذكر المسكوكات في السطرين الثامن والتاسع:

جزاءً لذي الشرى إله سيدنا مقدارها خمسمائة قطع حارثية

ولسيدنا مثلها استنادًا إلى النسخة المحفوظة في معبد قيسا ...

6- نقش مقبرة هانئ بن تفصي المؤرخة في مارس- أبريل سنة 31م، وورد ذكر المسكوكات في السطر التاسع: سوف يضطر أن يدفع لسيدنا ألف قطعة عملة حارثية .

7- نقش مقبرة وشوح بنت بجرة المؤرخة في سنة 34م، وورد ذكر المسكوكات في السطرين الرابع والخامس: من اللحد هذا إلى الأبد فليكن معه لسيدنا حارثة ملك نبط محب شعبه ألف قطع حارثية.

8- نقش مقبرة وشوح بنت بجرة وقين ونسكوية التيماويات المؤرخة في سنة 34م، وورد ذكر المسكوكات في السطرين التاسع والعاشر: فليكن معه لتدهي قطع حارثية مائة ولسيدنا حارثة الملك المبلغ نفسه...

9- نقش مقبرة عبد عبادة بن أريبس المؤرخة في ديسمبر سنة 35م – يناير سنة 36م، وجاء ذكر المسكوكات في السطر الثامن: سوف يغرم لسيدنا ألفين من العملة الحارثية .

10- نقش مقبرة القائد سعدالله بن زبدا، وتاريخها غير واضح لكنها بنيت في عهد الملك حارثة الرابع، وقد ورد ذكر المسكوكات في السطر الحادي عشر: فليحضر معه لذو الشرى قطع حارثية ألف .

11- نقش مقبرة سلي بن رضوا، وتاريخها غير واضح وهي أيضًا شيدت في عهد الملك حارثة الرابع، وذكرت المسكوكات في السطرين السادس والسابع: لذي شرى إله سيدنا مبلغ ألف قطع حارثية في شهر نيسان

12 - نقش مقبرة القائد ترصو بن تيم، المؤرخة في سنة 64م في عهد الملك مالك الثاني، وجاء ذكر المسكوكات في السطرين السابع والثامن: وكل إنسان يبيع هذه المقبرة أو تكتب له كعطية فليكن معه للحاكم الذي هو بالحجر ألف قطع حارثية ولسيدنا مالك الملك المبلغ نفسه .

13 - نقش مقبرة هينة بنت عبد عبادة، والمقبرة مؤرخة في سنة 72م في عهد الملك رب إل الثاني، وذكرت المسكوكات في السطرين الثاني عشر والثالث عشر: لذي شرى ومناة مقدارها ألف قطع حارثية ولسيدنا رب إل ملك نبط الغرامة نفسها وكان لمملكة تدمر قانون مالي صدر في الثامن عشر من نيسان (أبريل) سنة 137م، وجاء في ديباجة القانون: (قرار مجلس الشيوخ في الثامن عشر من نيسان عام 448 (18 نيسان 137م). برئاسة بونا بن حيران وأمانة سر: الكسندر بن الكسندر بن فيلو باتور أمين مجلس الشيوخ والشعب وولاية الأراخنة. مالك بن علي بونا مقيم وزبيد بن نسا. مجلس الشيوخ المجتمع في جلسة عادية قرر ما هو مرقوم أدناه: لما كانت سلع (بضائع) عديدة في الأزمنة السابقة خاضعة للرسوم غير مسجلة في القانون المالي وتجبى الرسوم عليها وفقا للعرف والعادة... قرر مجلس الشيوخ أن يقوم الشيوخ المكلفون بالسلطة الإجرائية وأعضاء مجلس العشرة بإحصاء كل ما هو غير مذكور في القانون المالي وأن يسجل في العقد الجديد وأن يوضع أمام كل سلعة الرسم الذي يجبى عنها في العادة، فإذا أقر العقد من قبل متعهد الجباية ينقش مع القانون القديم على اللوحة القائمة أمام معبد رب آسيري، والشيوخ المكلفون بالسلطة الإجرائية وأعضاء العشرة ووكلاء السلطة القضائية عليهم أن يحولوا دون أن يكلف متعهد الجباية من أحد أكثر من المنصوص عنه...).

ويتضح من النص السابق أن هذا لم يكن القانون المالي الأول لتدمر، بل جاء هذا القانون ليدخل تعديلات على قانون سابق، ونظمت بنود قانون تدمر المالي الضرائب المفروضة على جميع أنواع التجارة في المملكة فقد حدد القانون الضرائب التي تجبى من ثمانية وعشرين نوعًا من أنواع التجارة، كما نظم قانون تدر المالي جباية الجمارك المفروضة على التجارة المارة بالمملكة، ويوضح القانون مدي التطور الاقتصادي والإداري الذي بلغته مملكة تدمر.

د. فرج الله أحمد يوسف

المصادر والمراجع

أولاً : والمراجع العربية :

- **آفانزيني إليساندرا 1999م .**
النفوذ القتباني (اليمن في بلاد ملكة سبأ - ترجمة بدر الدين عردوكي - معهد العالم العربي - باريس، ودار الأهالي - دمشق، ص 98 – 101) .

- **الأنصاري، عبد الرحمن الطيب 1982م .**
قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية.(جامعة الرياض)

- **الأنصاري، عبد الرحمن الطيب وآخرون 1984م.**
مواقع اثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية. العلا (ديدان) والحجر (مدائن صالح)(قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب جامعة الملك سعود 1404 هـ/1984م).

- **بافقيه، محمد عبد القادر 1985م .**
تاريخ اليمن القديم.(المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ، لبنان) .

- **بروتون، جان فرانسوا 1999م .**
شبوة عاصمة حضرموت (اليمن في بلاد ملكة سبا - ترجمة بدر الدين عردوكي - معهد العالم العربي - باريس، ودار الأهالي - دمشق، ص 112 - 114).

- **البريهي : إبراهيم ناصر 2000م .**
الحرف والصناعات في ضوء نقوش المسند الجنوبي (الطبعة الأولى - وكالة وزارة المعارف للآثار والمتاحف - الرياض).

- **البكر، منذر عبد الكريم 1980م.**
دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام - تاريخ الدول الجنوبية في اليمن . (جامعة البصرة).

- **البلاذري، الإمام أبو الحسن 1978م .**
فتوح البلدان (تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت).

- **البني، عدنان 1978م .**
تدمر والتدمريون (وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق) .

- **بوتس، دانيال، 1998م .**
مسكوكات ما قبل الإسلام في شرق الجزيرة العربية (ترجمة صباح عبود جاسم - دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة - الطبعة الأولى) .

- **بيستون، ألفريد وآخرون 1982م .**
المعجم السبئي (جامعة صنعاء) .

- **التل، صفوان خلف 1983م .**
تطور المسكوكات في الأردن عبر التاريخ (البنك المركزي الأردني - عمان 1403 هـ / 1983 م) .

- **الحموري، خالد 2002م .**
مملكة الأنباط دراسة في الاحوال الاجتماعية والاقتصادية(مشروع بيت الانباط للتأليف والنشر "2" البتراء - الاردن).

- **أبو الحسن حسين علي 1997م .**
قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا (مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض) .

- **أبو الحسن، حسين علي 2002م .**
نقوش لحيانية من منطقة العلا (وكالة وزارة المعارف للآثار والمتاحف ت الرياض) .

- **الذييب، سليمان عبد الرحمن 1998م.**
نقوش الحجر النبطية (مطبوعات مكتبة الملك فهد - الرياض) .

- **الذييب، سليمان عبد الرحمن 2000م .**
المعجم النبطي (مطبوعات مكتبة الملك فهد الرياض).

- **الرواحنة، مسلم 2002م .**
عهد الحارث الرابع : دراسة في مجموعة خاصة من المسكوكات النبطية (مشروع بين الأنباط للتأليف والنشر "1" البتراء - الأردن) .

- زبال، سليم 1984م .
قصة العملة الكويتية (وزارة الإعلام بدولة الكويت).

- زيادة ، نقولا 1984م .
دليل البحر الإرتري وتجارة جنوب الجزيرة العربية 277 (دراسات تاريخ الجزيرة العربية – الكتاب الثاني – الجزيرة العربية قبل الإسلام – الأبحاث المقدمة للندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية 5 - 11 جمادى الأولى 1397 هـ ، الموافق 13 - 19 أبريل 1977م كلية الآداب - جامعة الملك سعود - مطابع جامعة الملك سعود، ص 259-).

- سيدوف، الكسندر؛ وباربرا دافيدا 1999م.
سك النقود أو المسكوكات (اليمن في بلاد ملكة سبأ – ترجمة بدر الدين عردوكي – معهد العالم العربي – باريس، ودار الأهالي – دمشق، ص 118 - 120).

- اشتلة، ابراهيم يوسف 1987م .
المسكوكات في الجزيرة العربية في عصور ما قبل الإسلام (المجلة العربية ربيع الاول 1408 هـ / نوفمبر 1987م، ص ص 44 - 47).

- صالح، عبد العزيز 1977م .
تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة (القاهرة) .

- بن صراي، حمد محمد 2000م .
موقع ميناء عمانا ودوره الحضاري والاقتصادي في منطقة الخليج العربي (ادوماتو - العدد الثاني ربيع الآخر 1421 هـ/ يوليو 2000 م، ص 33 - 58).

- عباس، إحسان 1987م .
تاريخ دولة الأنباط (الطبعة الأولى - عمان) .

- عبد الله، يوسف محمد 1985م .
أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، بحوث ومقاولات (الجزء الثاني الطبعة الأولى وزارة الإعلام باليمن).

- علي، جواد 1969م .
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (الجزء الأول والجزء الثاني - الطبعة الأولى بيروت)

- غريبة، عز الدين إسماعيل 1989م .
دليل إدارة الآثار والمتاحف (وزارة الإعلام بدولة الكويت).

- غلانزمان، وليام 1999م.
تمنع عاصمة قتبان (اليمن في بلاد ملكة سبأ) - ترجمة بدر الدين عردوكي - معهد العالم العربي - باريس، ودار الاهالي - دمشق، ص 110 -112)

- الفاسي، هتون أجواد 1993م.
الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة في الفترة ما بين القرن السادس قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي (الرياض) .

- فروخ، عمر 1984م.
تاريخ الجاهلية (دار العلم للملايين - بيروت) .

- قادوس، د. عزت زكي حامد 1999م.
العملات اليونانية والهلنستية (الطبعة الأولى — الإسكندرية) .

- كاسكل، فيرنر 1974م.
المسكوكات اللحيانية (ترجمة د. منذر البكر –مجلة المسكوكات – العدد الخامس، ص ص 100-101).

- كوبيشانوف، يوري ميخايلوفتش 1988م .
الشمال الشرقي الإفريقي في العصور الوسيطة وعلاقاته بالجزيرة العربية من القرن السادس إلى منتصف القرن السابع (ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم – منشورات الجامعة الأردنية – عمان) .

- مهران، محمد بيومي 1994م.
تاريخ العرب القديم (الجزء الثاني - دار المعرفة الجامعية - الطبعة الحادية عشرة الإسكندرية) .

- النعيم، نورة عبد الله علي 1992م .

الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي(دار الشواف للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى الرياض) .

- النعيم، نورة عبد الله علي 2000م .

التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير (مكتبة الملك فهد الوطنية -الرياض) .

- نور الدين، عبد الحليم 1985م.

مقدمة في الآثار اليمنية (جامعة صنعاء) .

- هاي، ستورات منرو 1996م .

عملات شبوة وعملات متحف عدن الوطني (شبوة عاصمة حضرموت القديمة - نتائج أعمال البعثة الفرنسية اليمنية - المركز الفرنسي للدراسات اليمنية بصنعاء - الطبعة الأولى صنعاء، ص 160 - 166) .

- هاي، ستورات منرو 1999م .

العملة النقدية في الإمبراطورية الحميرية (اليمن في بلاد ملكة سبأ - ترجمة بدر الدين عردوكي - معهد العالم العربي - باريس، ودار الأهالي - دمشق، ص 197).

- هولوي، روس 1988م .

موسوعة العملة - العملة في الحضارة الإغريقية العملات في الإمبراطورية اليونانية (ترجمة ملاذ الحفار ومأمون عابدين - دمشق) .

- هيلي، جون 1993م .

نقوش المقابر النبطية في مدائن صالح (ترجمة سليمان الذييب - جامعة مانشستر) .

- يحيى، لطفي عبد الوهاب 1979م .

الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية (الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة 1397 هـ/ 1977 م – مصادر تاريخ الجزيرة العربية - كلية الآداب - جامعة (الرياض) الملك سعود - الكتاب الأول - الجزء الأول مطابع جامعة (الرياض) الملك سعود، ص 55 - 71) .

- يوسف، فرج الله أحمد 2002م .

مسكوكات ممالك الجزيرة العربية قبل الإسلام (أدوماتو، العدد الخامس ذو القعدة 1423 هـ / يناير 2002م، ص 73-102).

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Al-Ansary, A.R and Abu –Al-Hassan,H.2001

The Civilization of Two Cities Al –Ula and Madain Salih. (Dar Al-Qawafil-Riadh)

- Al-Ansary,A.R 2002

Al Gerrha, the Port of Qaryat al –Fau PP 7-17 (journal of Senitic Studies Supplement 14, Studies on arabia in Honour of Professor G Rex Smith, University of Manchester)

- Arif A.S 1988

A Treasury of Classical and Islamic Coins The Collection of Amman Museum (Cambridge)

- Carradice,I

The Hellenistic Kingdoms and Coinges 323-170 BC . PP.43-54 (Coins An Illustra Survery 650 BC to the Present day General Edition Price MJ- London)

- Dembski, G 1987

The Coins of Arabia Felix PP 125-28 (Yemen 3000 Years of Art and Civilization in arabia Felix at the Staatiliches Museum fur Volkerkund Munchen 29 April 1987 to april 1988)

- Doe, B 1971

Southern Arabia (London)

- Head, B.V 1991

Historia Numorumm A Mnaual of Greek Numismatics (Amsterdam)

- Healey, JF 1993

The Nabataean Tomb Inscriptions of Madain Salih (Journal of Semitic Supplment 1 The University of Oxford)

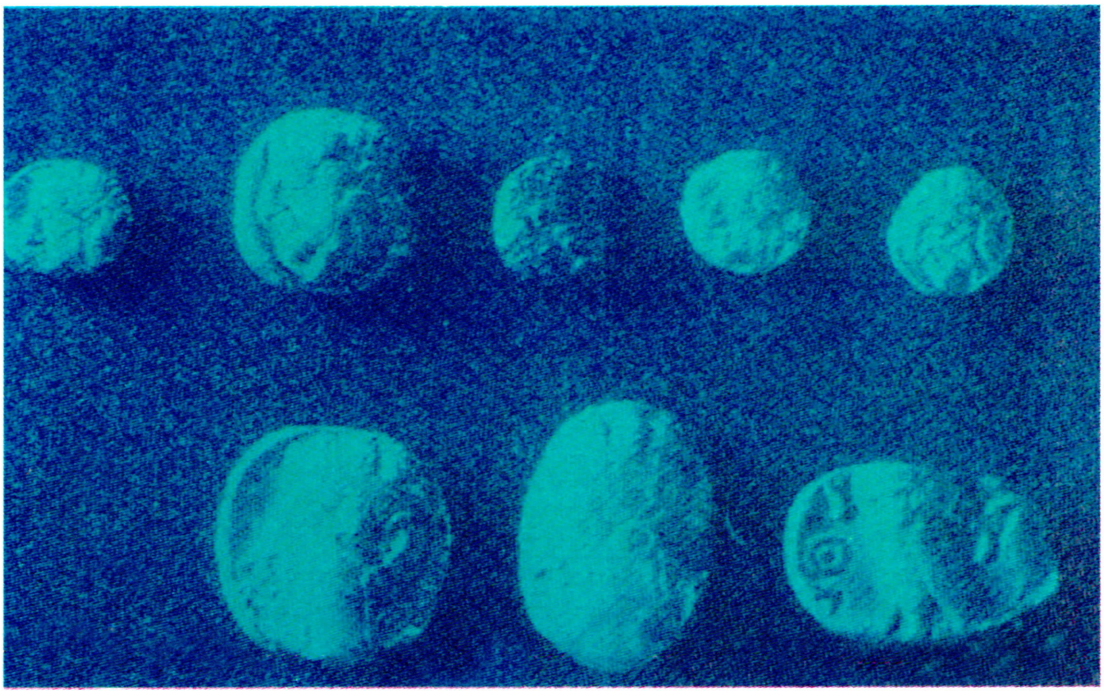
- **Phieby, H. St 1981**
  The Queen of Sheba (London)
- **Pirenne, J 1988**
  The Coonology of Ancient South Arabia Diversity of Opinion. PP . 116-22 (Yemen 3000 Years of Art and Civilization in Arabia Felix at the Staatlisches Museum for Volkerkund Munchen 29 April 1987 to April 1988)
- **Seadov, A.V 2001**
  The Coins of Pre-Islamic Yemen : PP 28-38 (Adumatu – issue No 3 Jan 2001)
- **Walker, J 1952**
  The Moon God on Coins of Hadramaut PP. 623-26 (BOATS Vol.14)
- **Winnet, F.V and rrd, W.L. 1970**
  Ancient Records from North Arabia (Toronto)
- **Walker, J 1959**
  The Lihyanic Inscriptions on South Arabian Coins (RSO 34)
- **Joukowsky,MS 1998**
  Petra Great Temple (Rohode Island)
- **Kirwan , LP 1984**
  "Where to search for the Ancient Port of Leuke Komme", PP.55- 61 (Studies in the History of Arabia, Vol II Per – Islamic Arabia King Saud University Press)
- **Lambard, P and Kevran,M 1989**
  Bahrain National Musuem Archeological Collections A Selection of Per-Islamic Antiquities (Ministry of Information – Bahrain)
- **Morgan, J 1979**
  Manual de Numismatique Orientale L'antiquité et du Moyen Age (Chicago)
- **Morkholm,O 1960**
  Greek Coins from Failaka (Kuml, Denmark,JAS)
- **Morkholm,O 1982**
  New Coins finds from Failaka (Kuml, Denmark,JAS)

اللوحة رقم ١



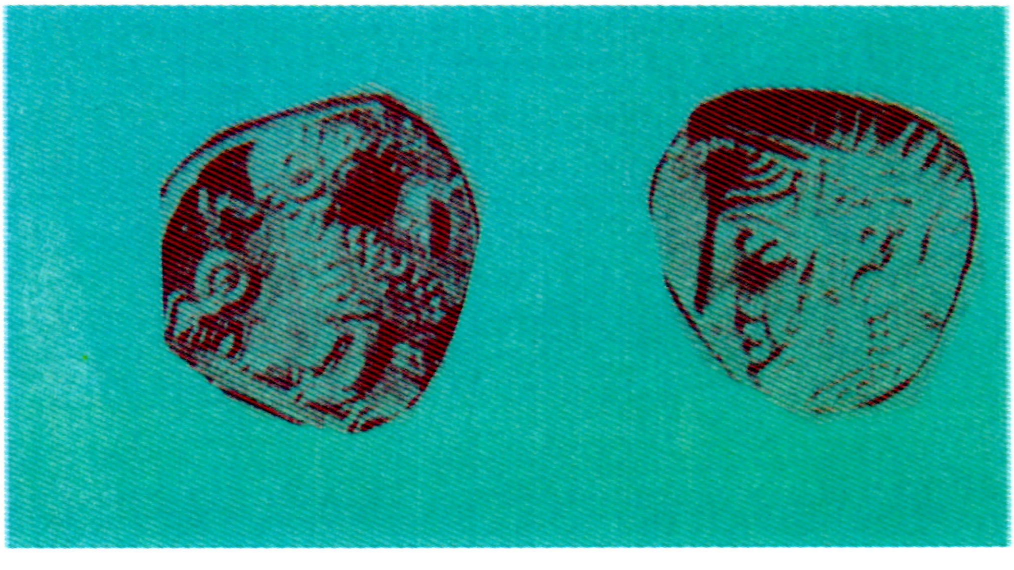
نموذج من المسكوكات الإغريقية

اللوحة رقم 2



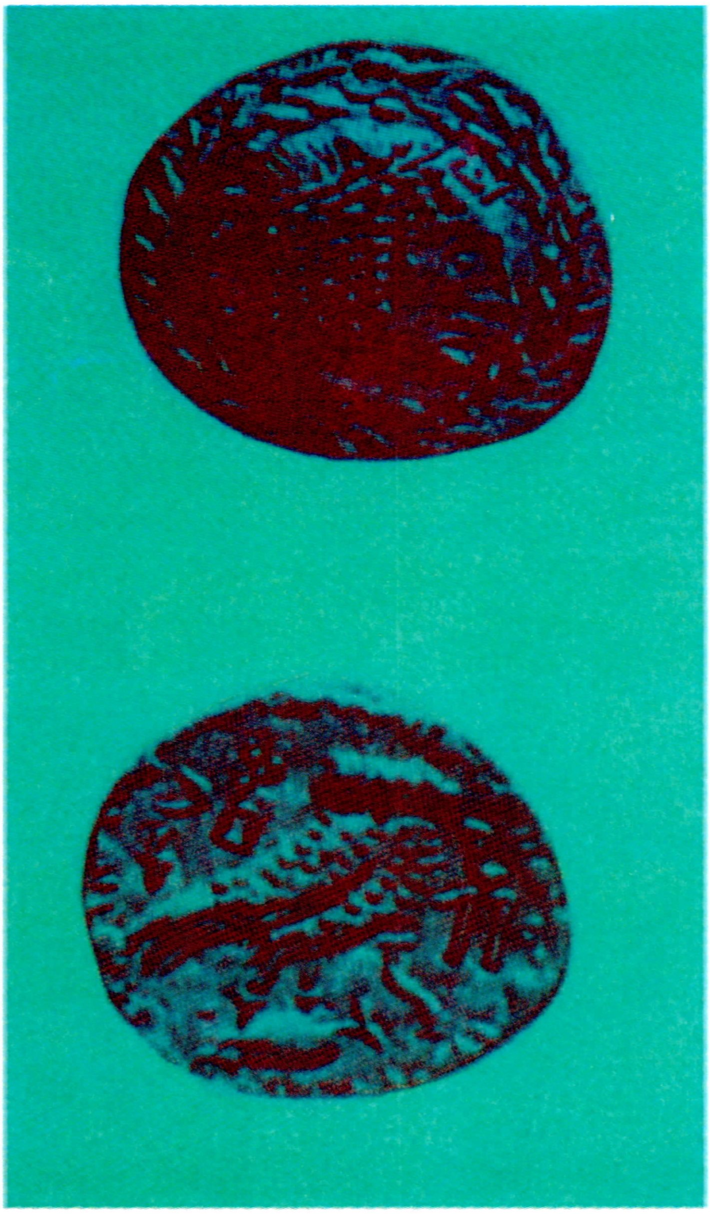
مسكوكات قتبانية مبكرة ضربت في القرن الرابع قبل الميلاد .

اللوحة رقم 3



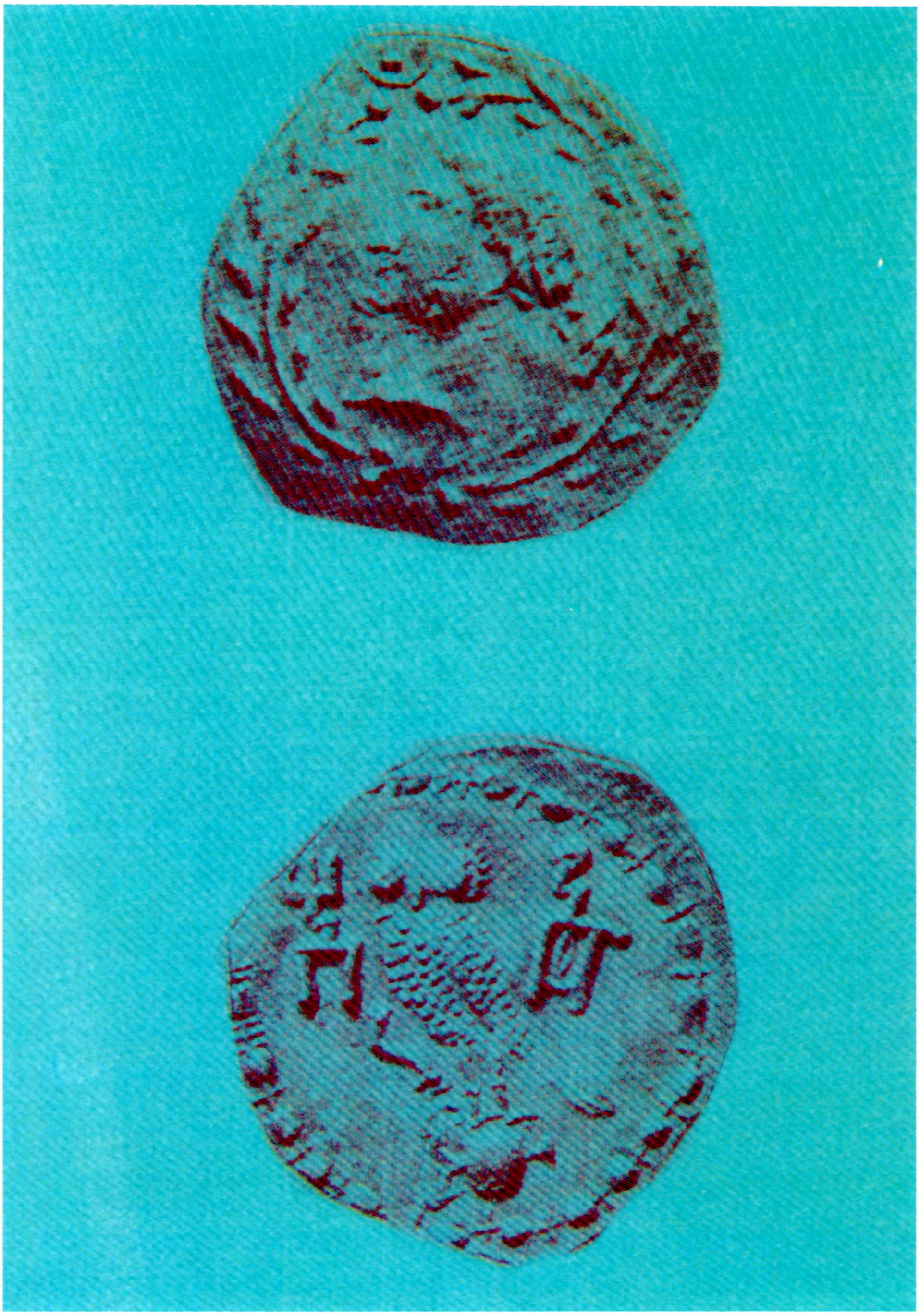
مسكوكة قتبانية من الفضة ضربت في القرن الثاني قبل الميلاد.

اللوحة رقم 4



نموذج من المسكوكات السبئة التي ضربت فيما بين سنتي 70 - 40 ق . م .

اللوحة رقم 5



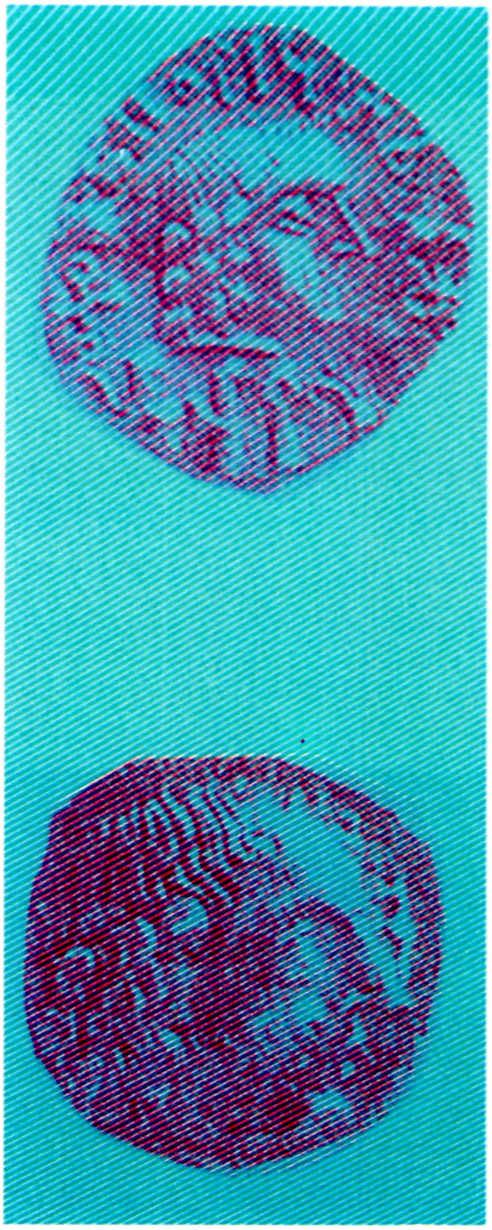
نموذج من المسكوكات السبئية التي تأثرت بالمسكوكات الرومانية.

اللوحة رقم 6



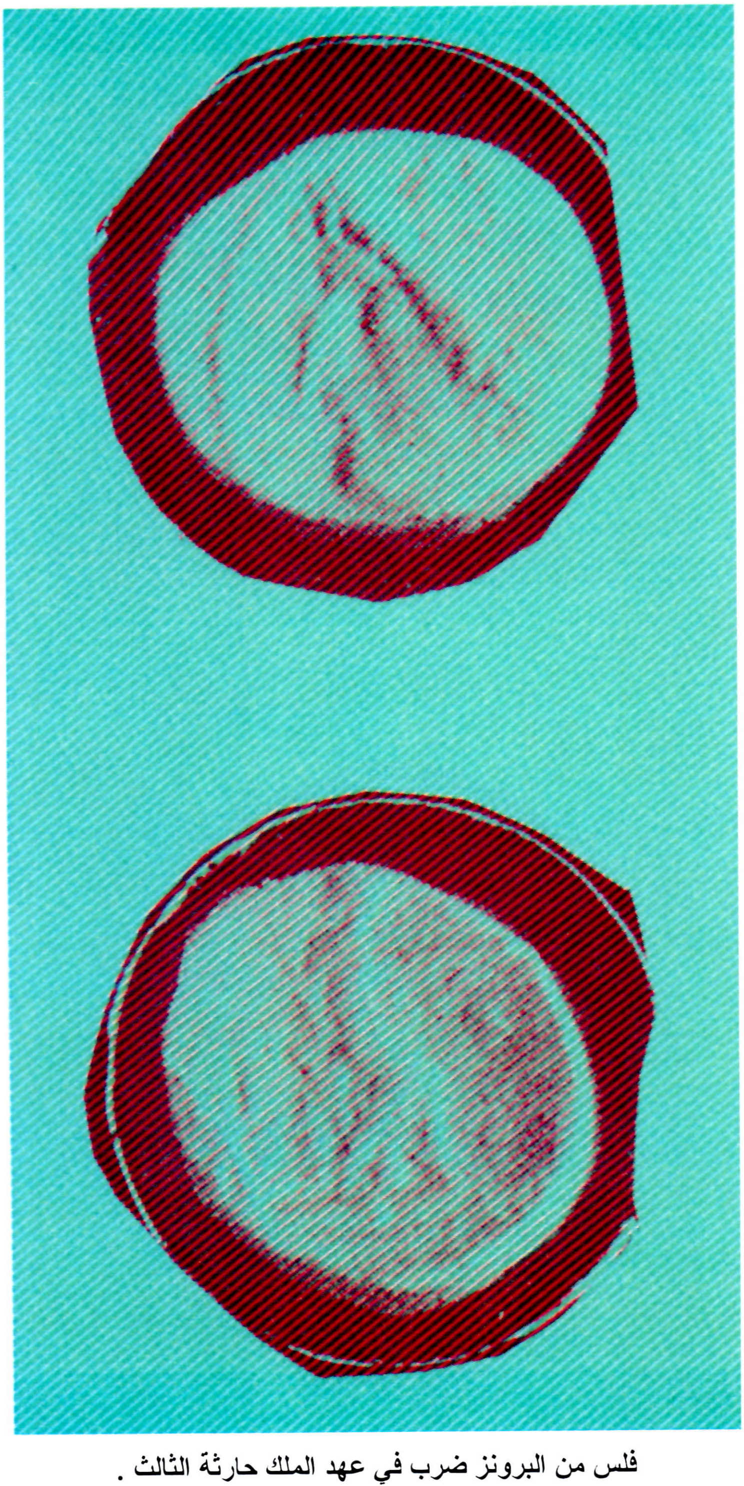
نموذج من المسكوكات السبئية التي تأثرت بالمسكوكات الرومانية .

اللوحة رقم 7



مسكوكة حميرية من النوع الذي عرف بذات الرأسين .

اللوحة رقم 7



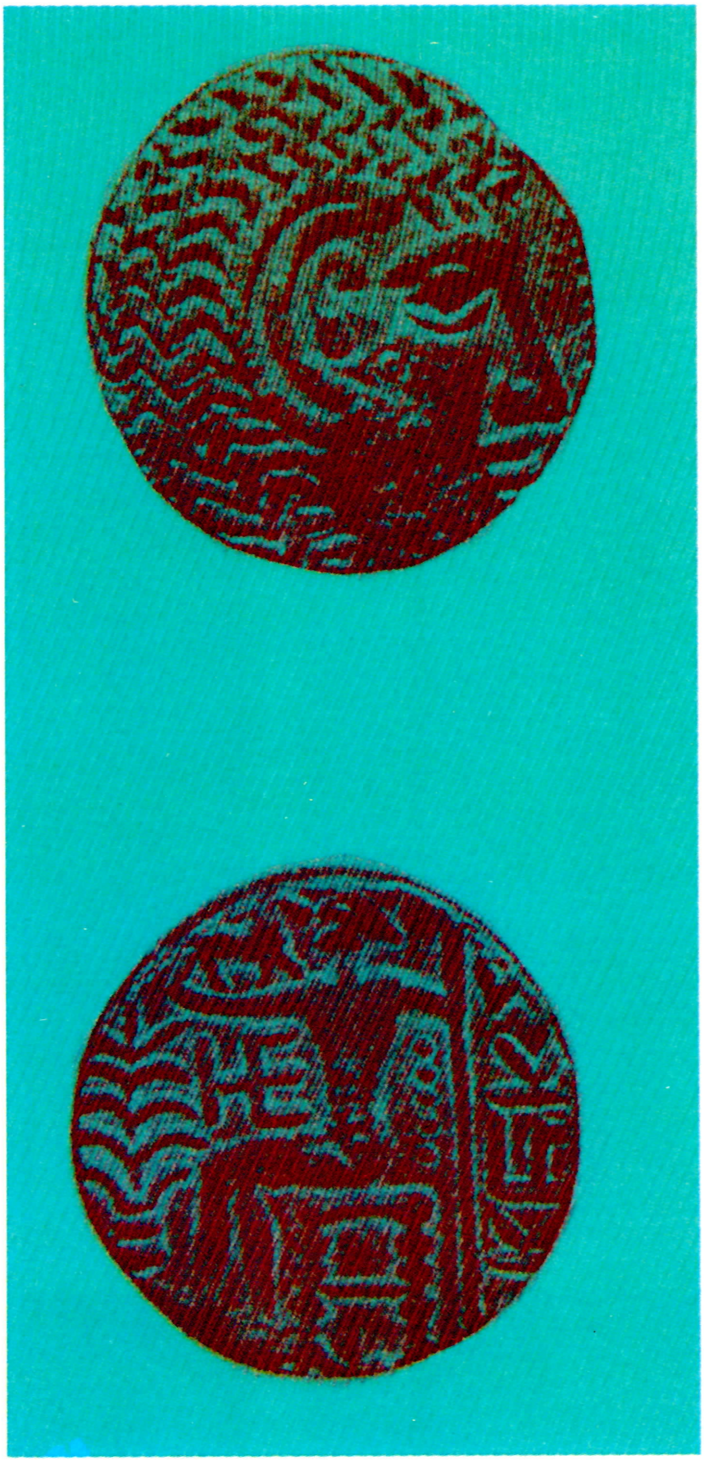
فلس من البرونز ضرب في عهد الملك حارثة الثالث .

اللوحة رقم 9



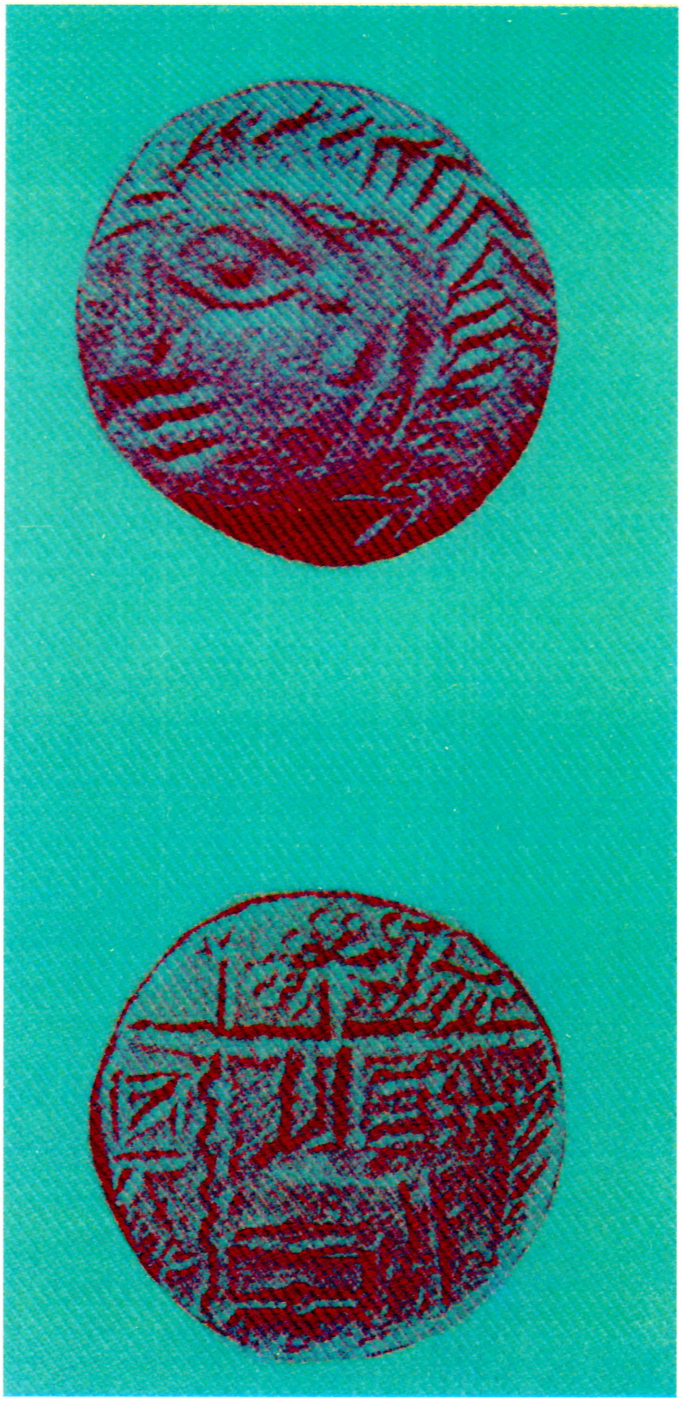
نموذج من المسكوكات التي ضربها الإمبراطور الروماني تراجان بعد سقوط مملكة الأنباط .

اللوحة رقم 10



مسكوكة ضربت في عمانا (الدور)

اللوحة رقم 11



مسكوكة ضربت في عمانا (الدور) .

اللوحة رقم 12



درهم للملك السلوقي انطيوخس الثالث عثر عليه في فيلكا.

اللوحة رقم 13



مسكوكة ضربت في ثاج .

اللوحة رقم 14



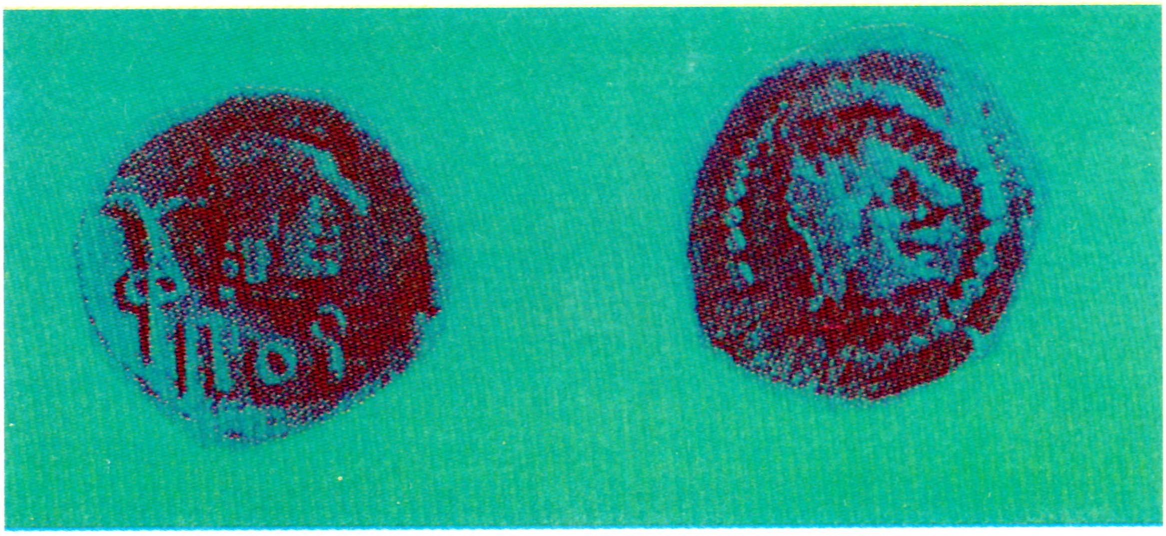
مسكوكة ضربت في الجرهاء عثر عليها في فيلكا.

اللوحة رقم 15



نموذج من المسكوكات السبئية التي عثر عليها في شبوة عاصمة مملكة حضر موت .

اللوحة رقم 16



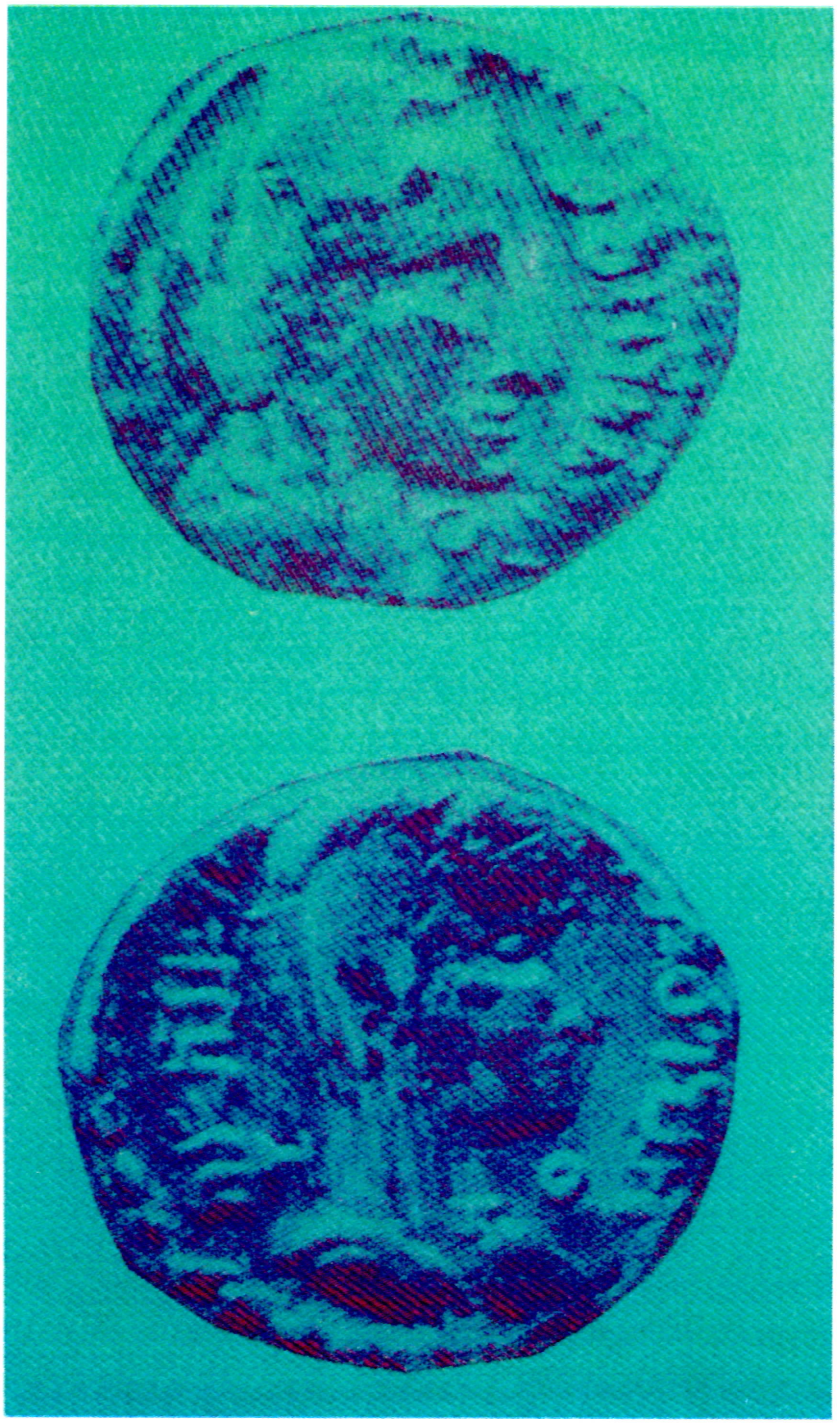
مسكوكة حميرية من نوع ذات الرأسين نقش عليها مكان الضرب "يعب " .

اللوحة رقم 17



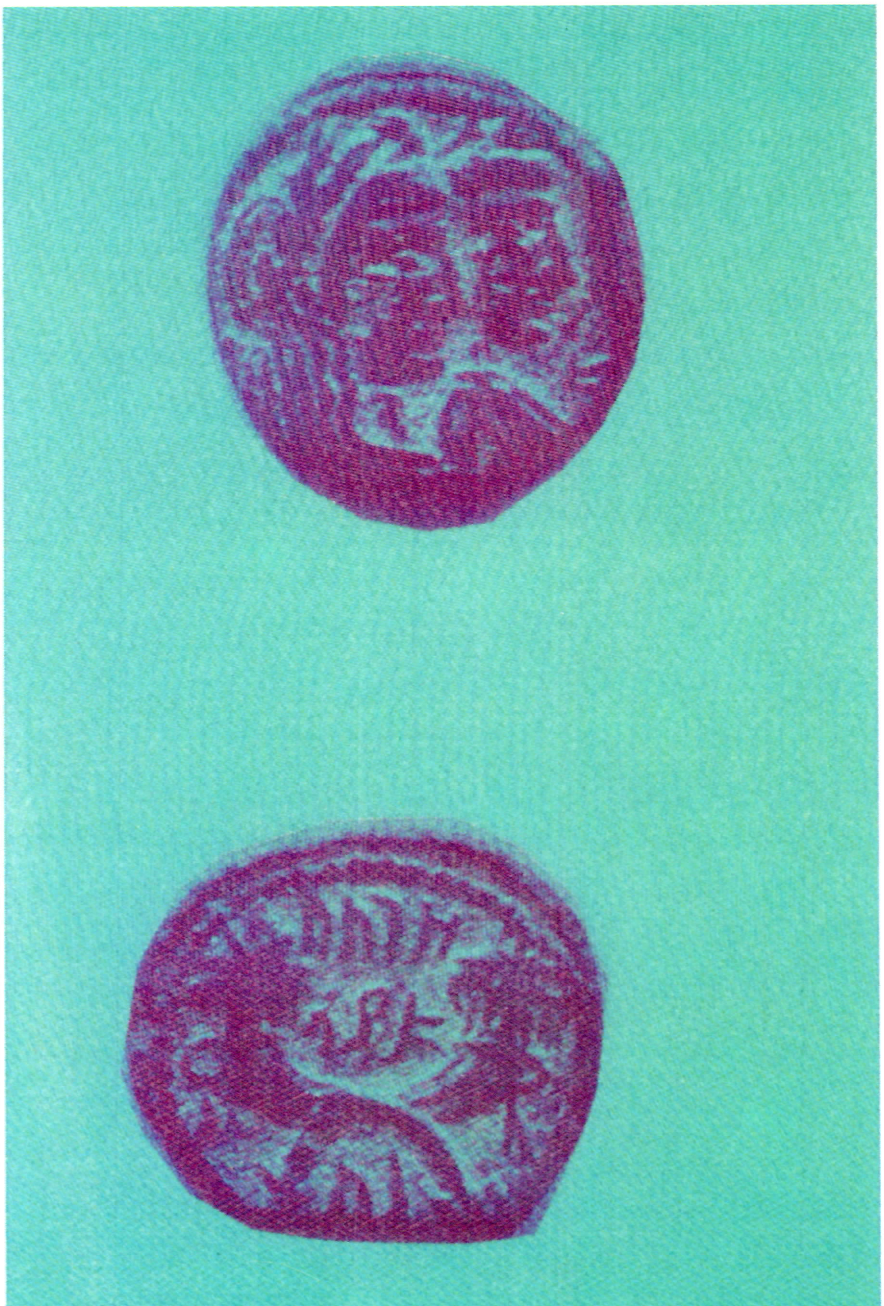
نموذج من المسكوكات السبئية التي ضربت فيما بين سنتي 40 - 24 ق . م ، ونقشت عليها كتابات آرامية ولحيانية .

اللوحة رقم 18



درهم من الفضة ضرب في عهد الملك حارثة الرابعة .

اللوحة رقم 19



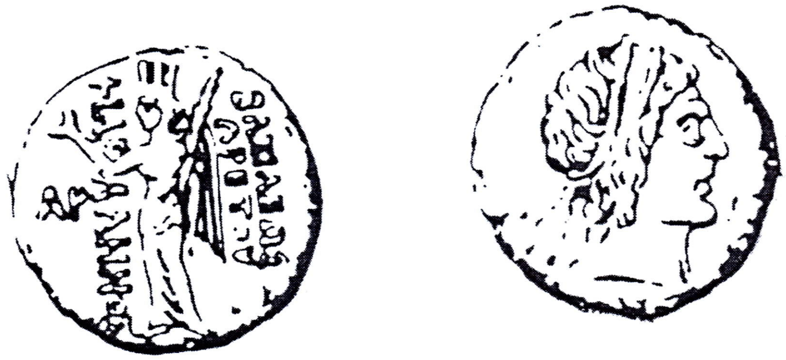
درهم من البرونز ضرب في عهد الملك حارثة الرابع .

اللوحة رقم 20



نموذج من المسكوكة السبئية التي عثر عليها في شبوة عاصمة مملكة حضر موت .

الشكل رقم 1



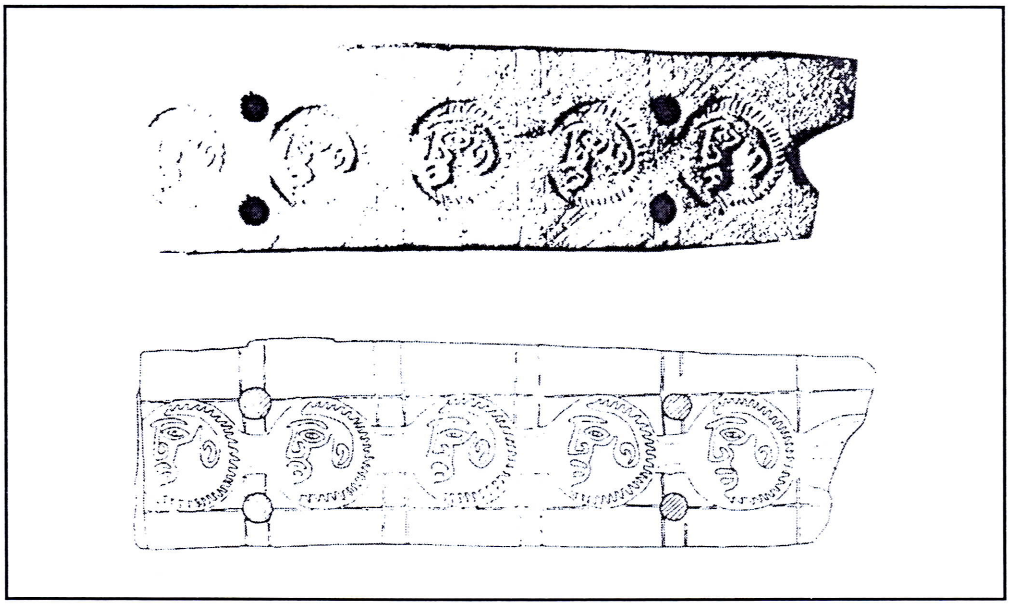
رسم تخطيطي لفلس من عهد الملك حارثة الثالث يبدو فيه التأثير الهلنسي على الرسوم الآدمية (Morgan 1979 :256)

الشكل رقم 2



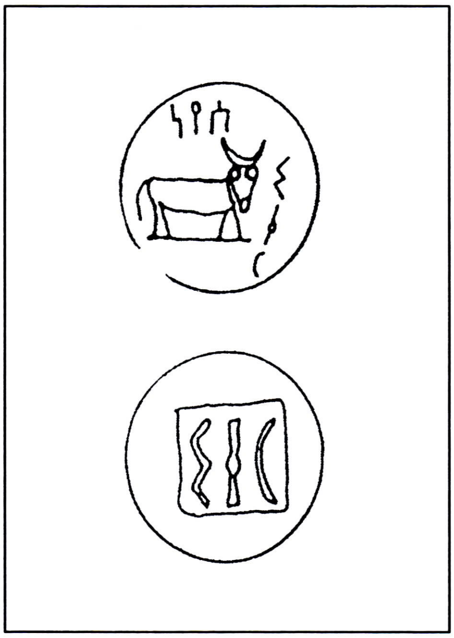
رسم تخطيطي للنقد الذي ضربه القائد الروماني سقاورس بعد حملته على الأنباط في عهد
الملك حارثة الثالث (Morgan 1979 :256)

الشكل رقم 3



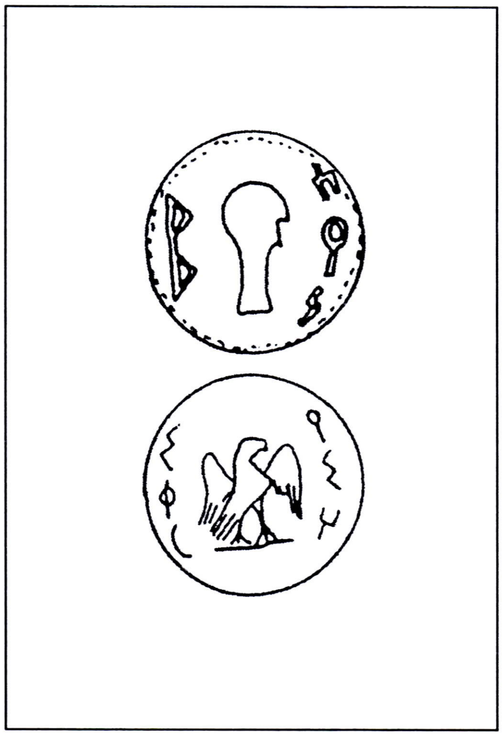
قالب سك عثر عليه فى مليحة (بوتس 1998 : 179)

الشكل رقم 4



رسم تخطيطي لمسكوكة حضرمية (هاي 1996 : 162) .

الشكل رقم 5



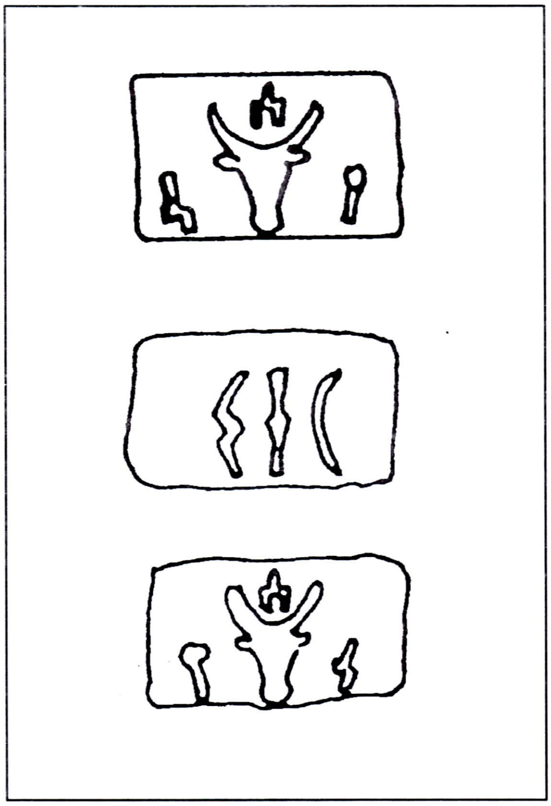
رسم تخطيطي لمسكوكة حضرمية (هاي 1996 : 162) .

الشكل رقم 6



رسم تخطيطي للهراوة رمز المعبود المقه كما جاءت على المسكوكات السبئية

الشكل رقم 7



رسم تخطيطي لمسكوكات حميرية مربعة، نقش عليها رؤوس ثيران، واسم المعبود سين.

(هاي 1996 : 165)

الشكل رقم 8





رسم تخطيطي لمسكوكة تدمرية يبدو على وجهها صورة نصفية للملكة الزباء وعلى الظهر معبودة تحمل سنبلتين من القمح، وحول صورة الملكة رموز باللاتينية

(*Morgan 1979: 230*)

الشكل رقم 9

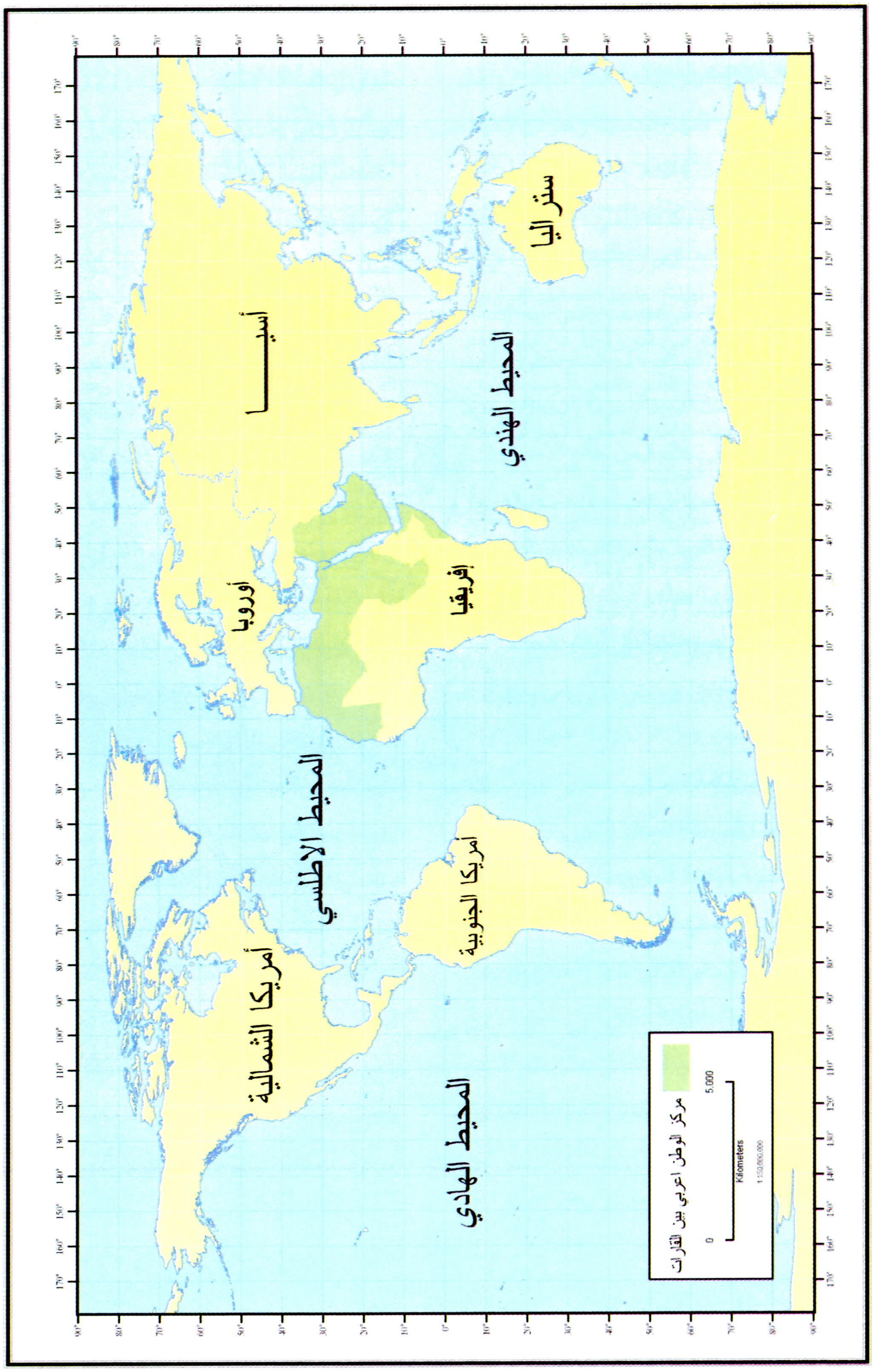


رسم تخطيطي لمسكوكة ضربت في عهد الملك وائل شهرو نقش عليها صورة معبد إل

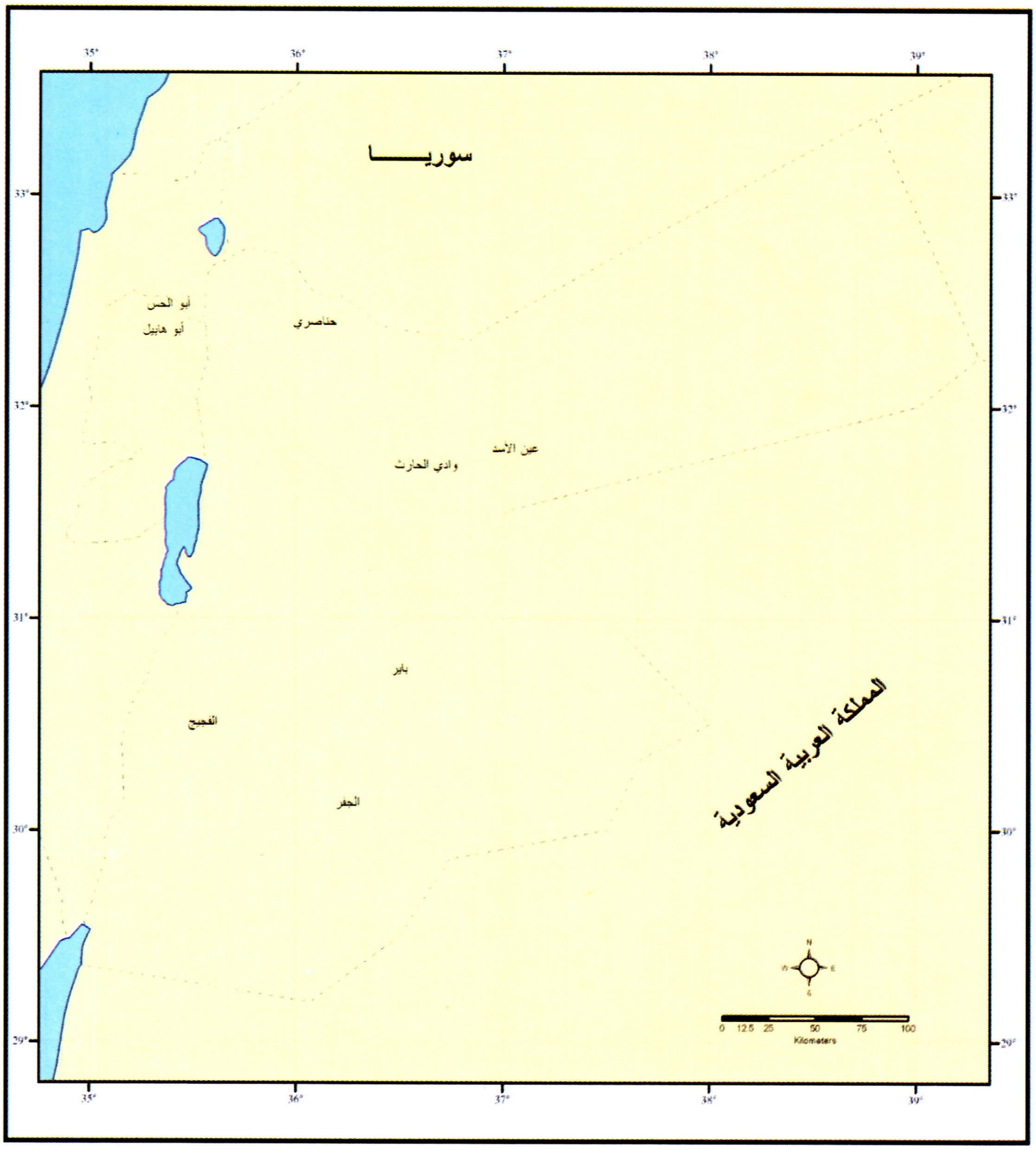
(Morgan 1979 – 235)

فهرس الخرائط

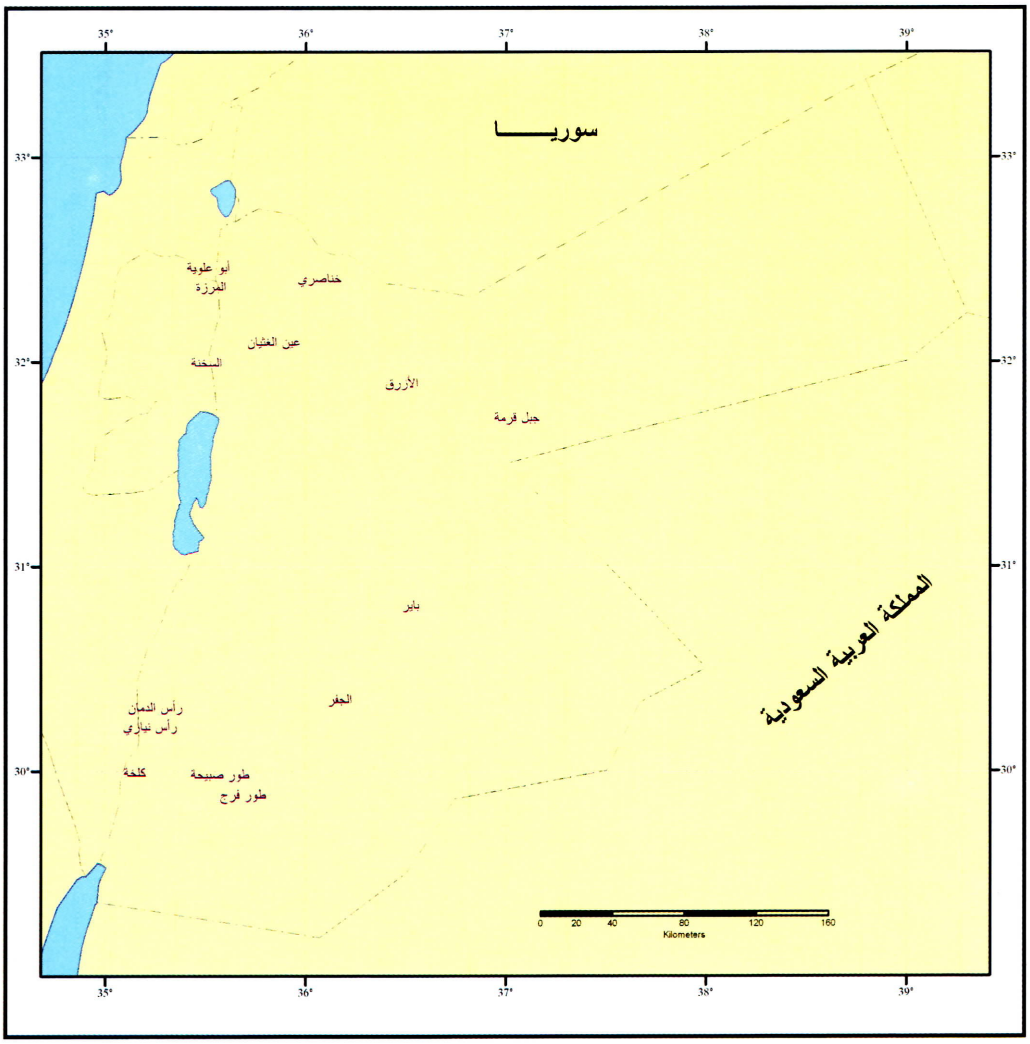
مركز الوطن العربي بين القارات



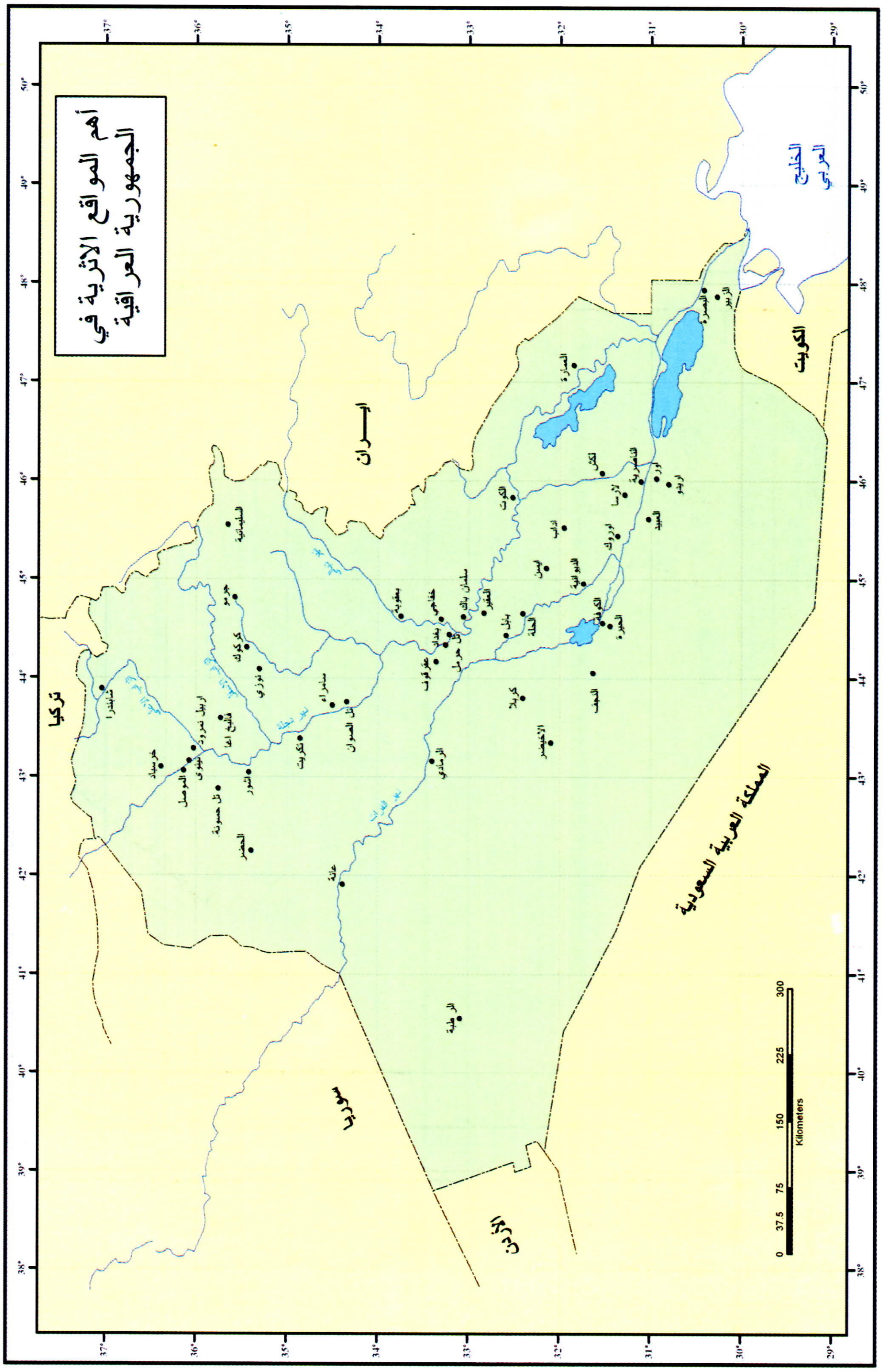
مواقع المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم



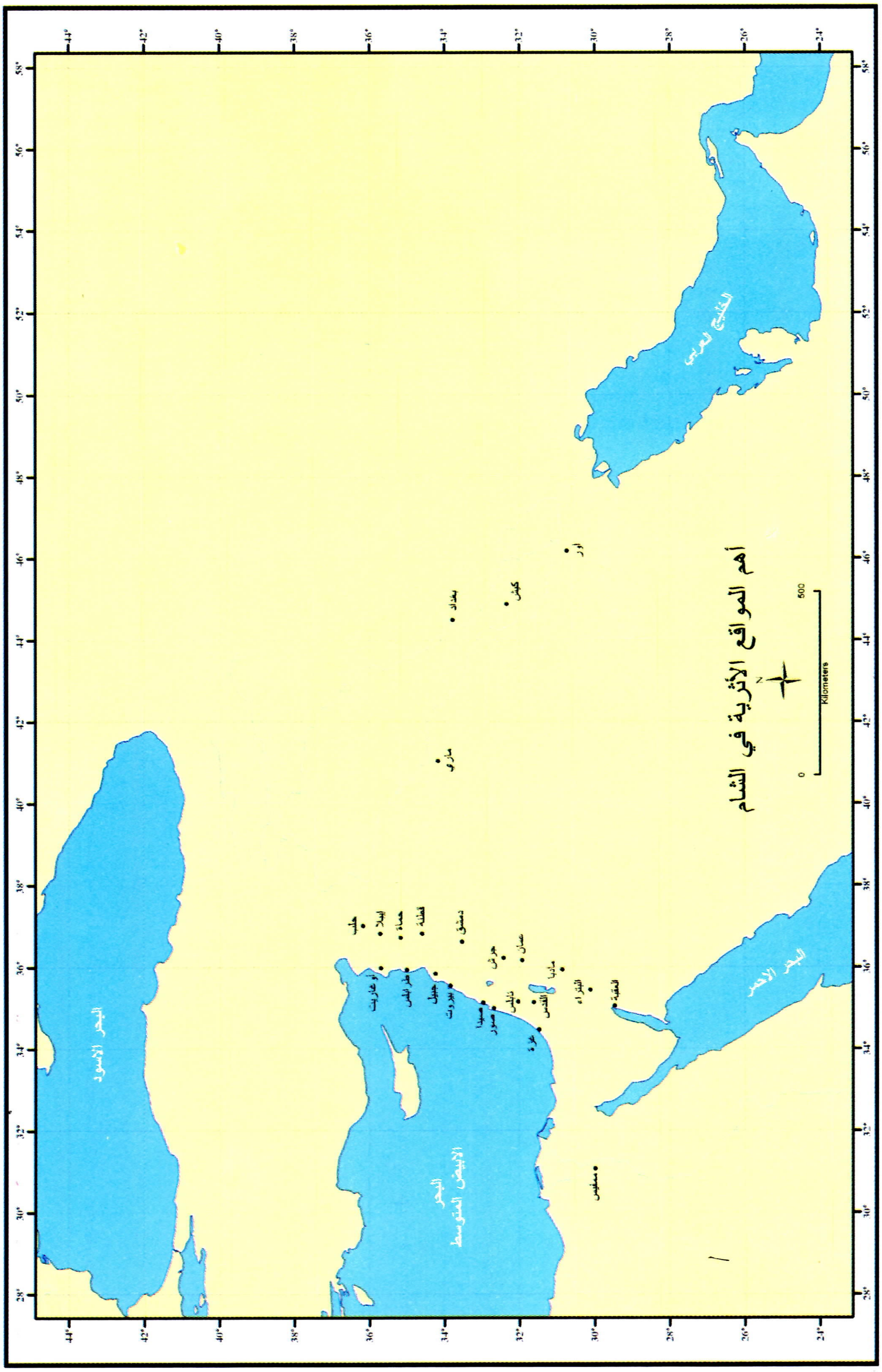
مواقع المرحلة الثانية من العصر الحجري القديم



أهم المواقع الأثرية في جمهورية العراق



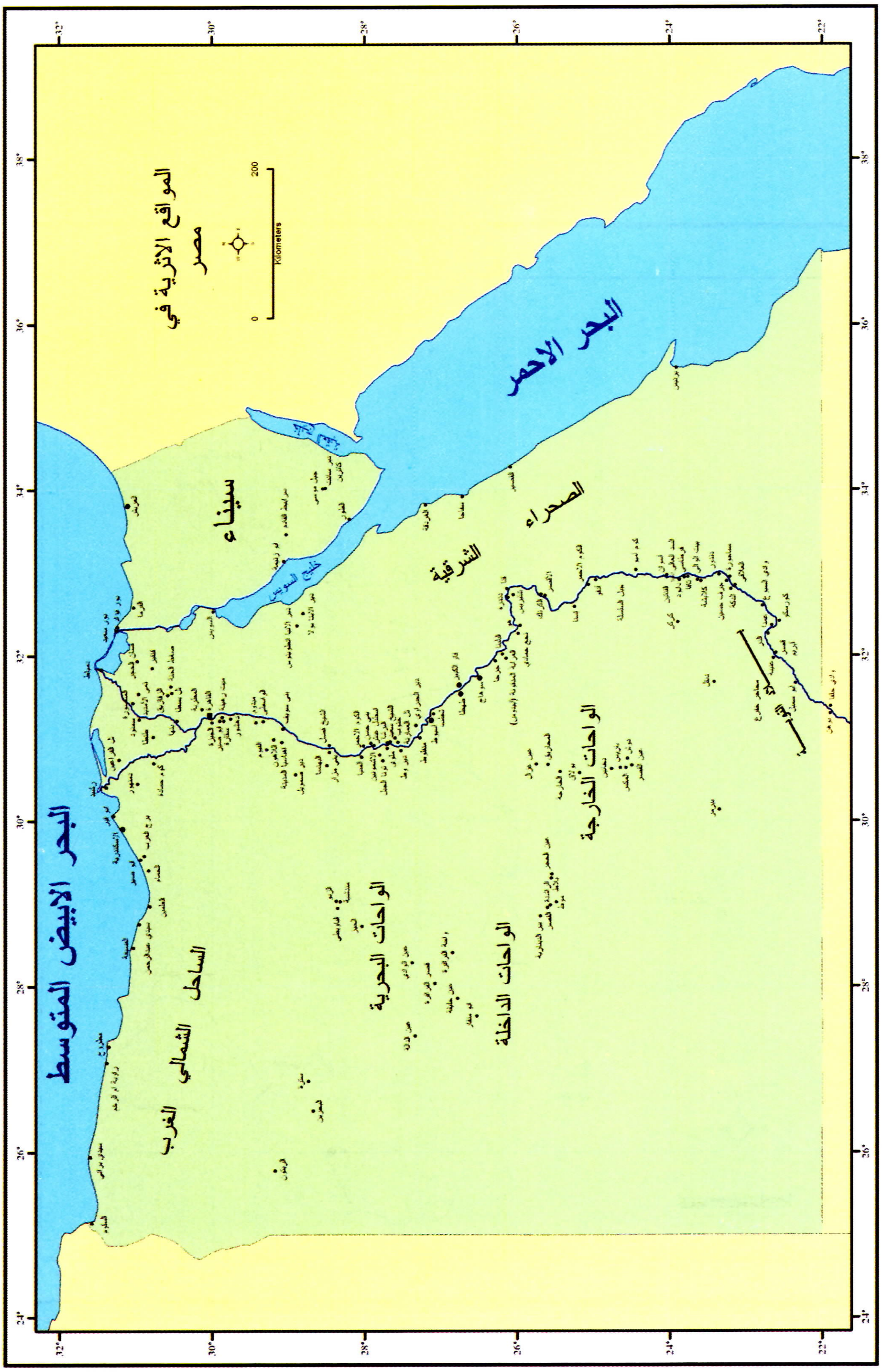
أهم المواقع الأثرية في الشام



أهم المواقع الأثرية في مصر والنوبة



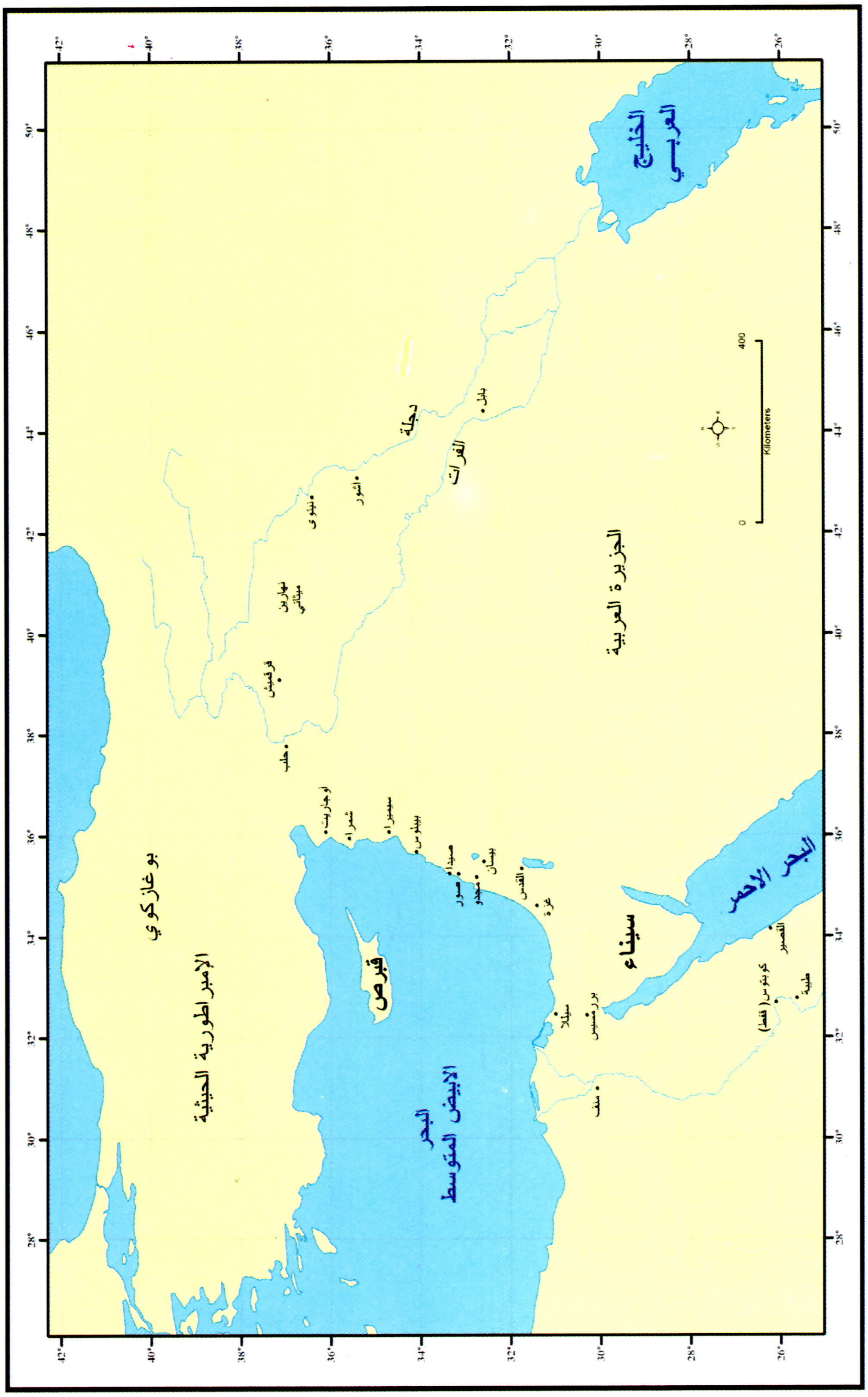
أهم المواقع الأثرية في مصر



أهم المواقع الأثرية في النوبة في عصر رمسيس الثاني

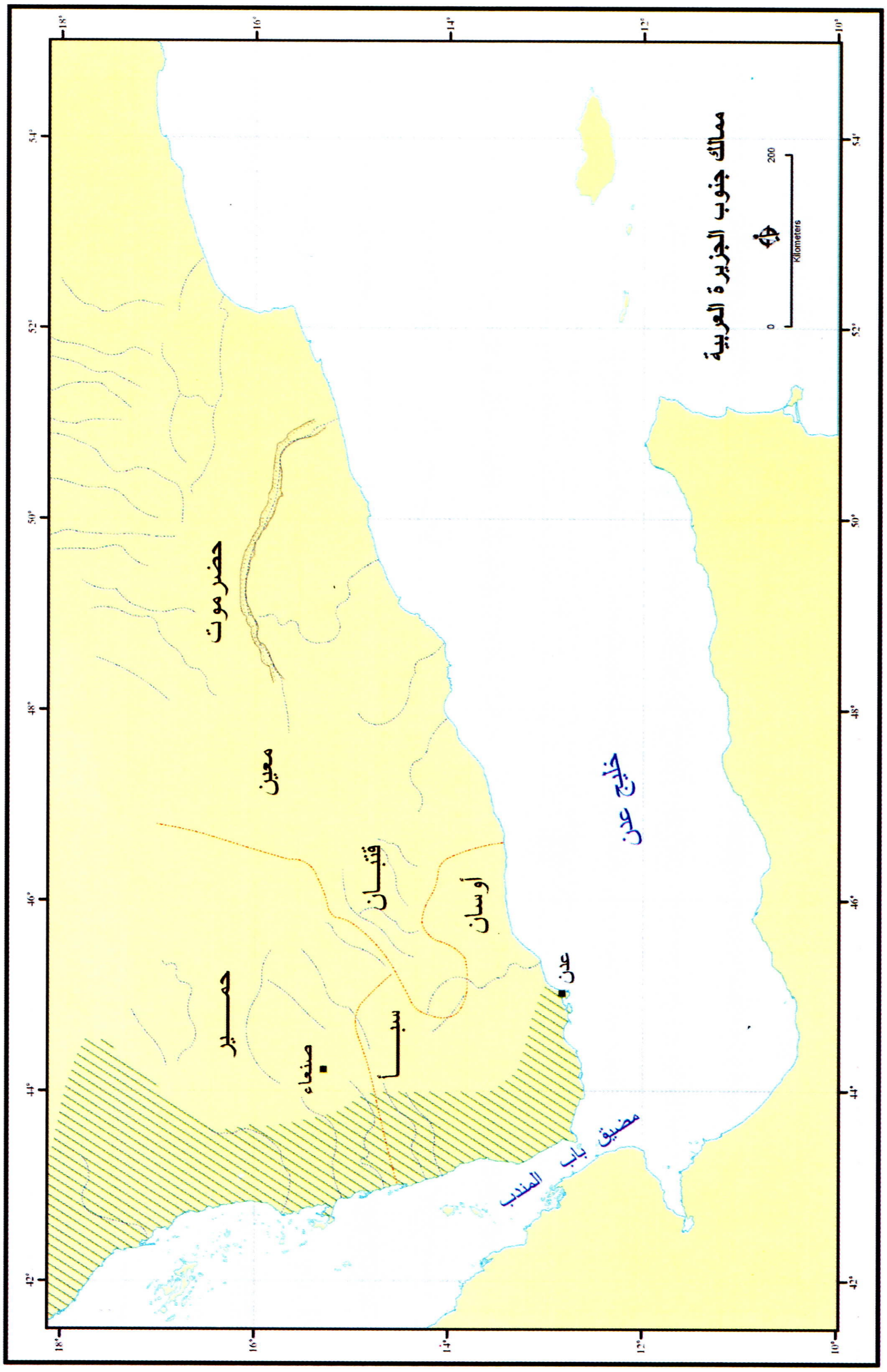


الشرق الأدنى في عهد رمسيس الثاني

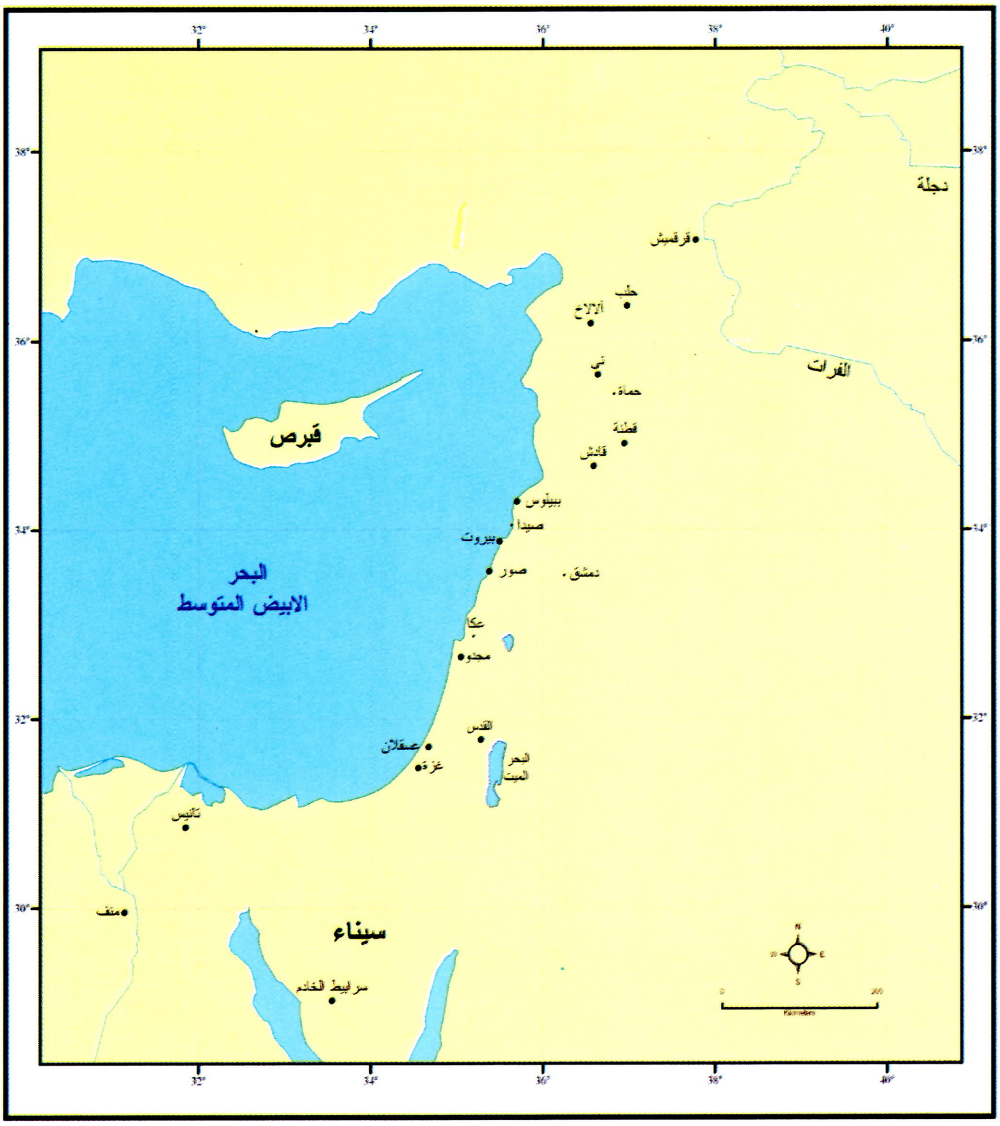


الشرق الأدنى في عهد رمسيس الثاني

ممالك جنوب الجزيرة العربية



خريطة مصر والشرق الأدنى في عهد الدولة الحديثة



فهرس الموضوعات

الفصل الثاني : الوطن العربي منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد إلى ظهور الإسلام

الفصل الثالث : الممالك العربية من النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد إلى ظهور الإسلام

الفصل الرابع : المظاهر الحضارية للعرب قبل الإسلام

*****

طبع بمطبعة جامعة الدول العربية